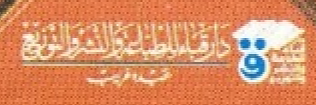
د. رأفت عبد الحميد

الدولة والكنيسة

أربعة أجزاء



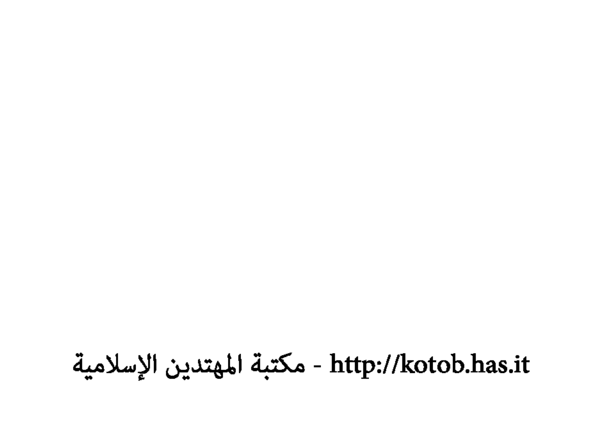
الدولة والكنيسة

الجزء الأول

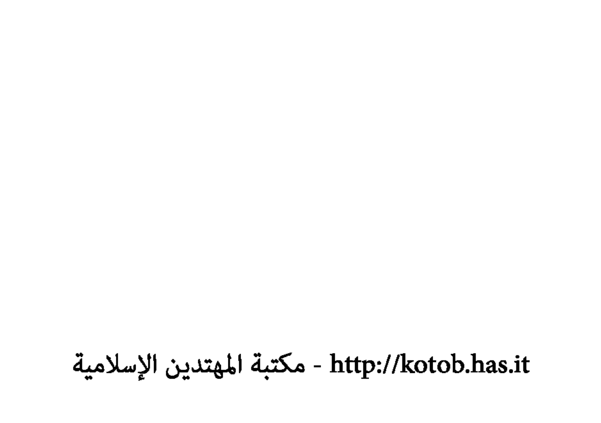
قسطنطين

دكتور رأفت عبد الحميد

كلية الآداب ـ جامعة عين شمس



بسم الله الرحمن الرحيم



الفاتحة

تقتصر معظم الدراسات التاريخية للدولة البيزنطية على الناحيتين السياسية والعسكرية ، وقد يقترب بعضها على استحياء من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية . اما العلاقة بين الدولة والكنيسة فى دراسة عميقة مستفيضة ، فليس لها عند الدارسين نصيب .

واذا كانت العصور الوسطى قد حملت اسم « عصر الايمان » ، فان بيزنطة بصفة خاصة تعتبر تجسيدا واقعيا لهذه الحقيقة ، لتداخل الخطين الدينى والدنيوى فى كل امر من أمور الحياة ، وتغلغل المسائل العقيدية فى الشئون السياسية والأحوال الاقتصادية والنواحى الاجتماعية ، وتأثيرها المباشر على الفنون والآداب والألعاب الرياضية .

وقد عبر عن ذلك المؤرخ نورمان بينز N. Baynes فى كتابه The Byzantine Empire بقوله : « ... كانت الهوايات والنزعات دينية ، وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوبا دينيا . لقد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية . فكانت عطلاته اعيادا دينية ، وألعابه فى الملعب تستهل بتراتيل ، وعقوده التجارية توسم بعلامة الصليب ، أو تحتوى على ابتهالات للثالوث المقدس ، واذا أراد أن يستخير الله فى شىء لم يفعل ذلك الا عن طريق النساك أو الرؤى التى تمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التمائم تعاويذ له ، ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس مات على عمود ، انجع دواء . وكانت حروبه مقدسة ، وامبراطوره خليفة لله فى أرضه ، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة ، فهى اما نذير يثنيه أو بشير يحفزه . لقد ثار الجيش مرة يطلب الى الامبراطور قسطنطين الرابع Constantinus IV (٦٦٨ — ٦٨٠) أن يشرك فى الحكم معه أخويه هرقل Heraclius وتيبريوس Tiberius ، ولما سألهم الامبراطور لم يريدون ذلك ، اجابوه قائلين : « لأننا نؤمن بالثالوث ، فلنتوج اباطرة ثلاثة » !!

ولم تكن المسألة العقيدية تشغل فكر رجال الدين أو الساسة او الطبقة المثقفة فحسب ، بل شارك فيها بالوعى حينا وباللاوعى أحايين ، الأباطرة

ودوائر القصر ودور الحكومة والجيش وفرق المضمار ورجل الشارع ، لدينا على ذلك ما كتبه شاهد عيان فى النصف الثانى من القرن الرابع ، هو اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nysaeus حيث يقول : « لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم . وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة . فاذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشىء ، فلسفوا لى الاجابة حول المولود والمخلوق ، واذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن ، واذا ما بحثت عما اذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الاجابة تقول ان الابن خلق من العـــدم » .

وهذا القول يوضح الى أى حد كان انسان تلك العصور مهتما بالعقيدة ، مشغولا بالمسائل الاسخاتولوجية . وقد لخص مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس ، سقراط Socrates هذا الأمر بقوله ان من الصعب على انسان أن يرسم خطا فاصـــلا بين أمور الدنيا وشـــئون الدين ، « فاذا ما اضطربت أمور الدولة ، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا » .

ومنذ بواكير القرن الرابع ، هلل شيخ مؤرخى الكنيسة يوســـاب Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، لهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة ، وعده نبوءة الكتاب المقدس للمسيحية عقيدة وكنيسة .

وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لتحول الدولة عن سياسة العداء التقليدى الذى مارسته ازاء المسيحية طوال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، الى الاعتراف بها ديانة شرعية religio licita فى أوائل القرن الرابع ، ثم جعلت منها العقيدة الرسمية لها فى نهايته . وأدى هذا بالتالى الى ازدياد اهتمام الدولة بما يجرى بين جماعة المسيحيين وانفسهم ، وأضحت تقيم وزنا لكل ما يقع فى الكنيسة من خلافات لاهوتية أو تنظيمية ، قد تؤدى الى هرطقة أو انشقاق ، يؤثر بدوره على الامبراطورية بعد أن غدت المسيحية لها دين وحدة .

ويعد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ — ٣٣٧) مسئولا بصورة مباشرة عن كل هذه النتائج . فعلى الرغم من أنه لم يكن أول أباطرة الرومان الذين اتبعوا سياسة التســـامح مع المسيحيين ، الا أنه

كان الوحيد من بينهم ، الذى تابع بشكل جدى تنفيذ سياسة المسامحة ، وتخطى هذه المرحلة الى مد يد العون للكنيسة ، ثم الاغداق عليها حتى أغرقها فى فيض أنعمه . وكان طبيعيا أن تقبل الكنيسة عليه ، وأن تفتح له بالحب ذراعيها ، مسبحة بحمده ، مقدرة حسن الصنيع ، رافعة اياه مكانا عليا الى سمت الرسل والقديسين !

لكن قسطنطين وجد نفسه دون ان يدرى وقد غرق هو الآخر فى خضم هذه المعارك الجدلية حول المسألة الكريستولوجية ، وكان عليه بعد أذ جعل من نفسه « مبعوث الرب » وحامى الكنيسة ، وقد جاءته هذه بعرض عليه خبىء صراعاتها من حول « الكلمة » أو من أجل النظام الكنسى ، أن يفصل بنفسه فى هذه المسائل الشائكة . فدعا الى عقد المجامع الدينية ، المحلية والمسكونية ، وترأس جلساتها ، وأدار مناقشاتها ، وصدق على قراراتها ، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم ، بل وشارك فى صياغة العقيدة على النحو الذى غدت به من بعد قاعدة الايمان الأرثوذكسى . وبهذا وضع قسطنطين لخلفائه سنة ساروا عليها وتمسكوا بها ، ولا نجد امبراطورا واحدا منذ ذلك الزمان ، حتى ورث العثمانيون القسطنطينية ومن عليها فى منتصف القرن الخامس عشر ، يعلم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم ، الا وقد ساق قاربه فى هذا العباب . وهكذا ارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة ، وهذه بتلك ، حتى أصبح لا يمكننا ، على حد تعبير سقراط ، نهم أحدهما دون الآخر .

من هنا كان من الصعب ، بل من المستحيل على اى باحث ، ان يسبر أغوار التاريخ البيزنطى فى حركته السياسية ، وتحركاته العسكرية ، ونشاطه الاقتصادى ، ومظاهره الاجتماعية ، وصوره الفنية ، واشكاله الأدبية ، وانشطته الرياضية ، دون أن يمعن الفكر بعمق فى الجوانب الدينية والصراعات العقيدية والشئون الكنسية .

ولما كانت المكتبة العربية تكاد تفتقر الى هذا النوع من الدراسة التاريخية المتخصصة ، التى تعتمد فى جوهرها على المصادر الأصلية ، فقد بدأت رحلتى منذ فترة تقترب من عشر سنوات ، لتتبع تاريخ العلاقة

بين الدولة والكنيسة ، وكان بدهيا أن يحظى الامبراطور قسطنطين الذى وضع اسس تلك العلاقة ، وحدد معالمها ، بالكتاب الأول من هذه الدراسة.

ومما يجدر ذكره أن طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة فى العالم البيزنطى ، تختلف عن مثيلتها فى الغرب الأوروبى . فقد غدت الكنيسة الشرقية بفعل تدخل الأباطرة فى أدق شئونها ، دائرة من دوائر الحكومة ، وتمثل هذا بصورة واضحة فى القسطنطينية ، حيث امسى اسقفها موظفا كبيرا فى البلاط الامبراطورى ، ولم نشهد مجابهة عنيفة ، الا فيما ندر ، بين بطريرك العاصمة والامبراطور طيلة أحد عشر قرنا من الزمان هى عمر الامبراطورية البيزنطية ، وان كان قد تكفل بذلك الكراسى الأسقفية الأخرى فى الولايات خاصة أسقفيتى الاسكندرية وانطاكية اللتين ناوأتا بصورة مستمرة ، بل وتحديتا أحيانا كثيرة نفوذ كنيسة القسطنطينية ومن ورائه سلطان الأباطرة .

أما فى الغرب فقد كان الحال على غير ذلك تماما ، فقد تزعمت كنيسة روما عالم المسيحية هناك ، واضحى البابا يمثل الزعامة الروحية على كل الكنائس ، خاصة بعد أن فقدت ميلانو أشهر أساقفتها فى القرن الرابع ، القديس أمبروز Ambrosius . وساعد على ذلك تيار الأحداث ، مذ هجر الأباطرة روما واتجهوا الى نيقوميديا Nicomedia ثم القسطنطينية فابتعدت روما بذلك عن التأثير المباشر للامبراطور . بل ان اباطرة النصف الغربى حتى سنة ٤٧٦ كانوا يتخذون من رافنا Ravenna أو ميلانو Milano (Mediolanum) مستقرا ومقاما . وبهذا وجد البابا نفسه سيد روما بلا منازع ، وسرعان ما ضم الى سلطاته الروحية سلطة زمنية عندما خرج يفاوض زعماء الجرمان الذين احدقوا بروما فى القرن الخامس .

نتيجة لذلك ، وبسبب انشغال أباطرة بيزنطة فى الخلافات العقيدية التى سعر لهيب جدالها فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، وتصديهم المستمر لجماعات الجرمان على الدانوب وفى البلقان ، والفرس على الفرات ، ثم المسلمين من بعد فى سوريا وآسيا الصغرى ومصر وشمال افريقيا والبحر المتوسط ، ومن جراء التباعد المذهبى العقيدى بين كنيستى روما والقسطنطينية ، امتدادا للتباين الفكرى بين الشرق اليونانى والغرب

اللاتينى ، ازداد نفوذ البابوية وسلطانها . ودعم من هـذا النفوذ تلك الشخصيات القوية التى اعتلت عرشها ، ليو الأول Leo I (٤٤٠ — ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius I (٤٩٢ — ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius I (٥٩٠ — ٦٠٤) وليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ — ١٠٥٤) وجريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) وانوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ — ١٢١٦) . يضاف الى ذلك ان حركة الاصلاح الديرانية الكلونية قد ساهمت بنصيب وافر فى اعلاء شأن البابوية . وظهرت النظريات وزيفت الوثائق من أجل تدعيم سلطان البابوية كالنظرية البطرسية ، والآراء الجلازية ، ونظرية السيفين ، وهبة قسطنطين ، والمراسيم البابوية التى أصدرها جريجورى السابع .

ولهذا فقد شهد تاريخ العصور الوسطى الغربية بعد قيام امبراطورية شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) ثم احياء الامبراطورية زمن أوتو الأول Otto I (سنة ٩٦٢) صراعا عنيفا وداميا بين البابوية والامبراطورية ، بلغ أوجه فى اذلال كانوسا Canossa عـام ١٠٧٦ ، على عهـد الامبراطور هنرى الرابع والبـابا جريجورى السابع ، ثم فى عهد الامبراطور فردريك برباروسا Frederick I Barbarossa (١١٥٢ — ١١٩٠) وذلك فى محاولة لاعلاء شأو احدى السلطتين على الأخرى ، الزمنية او الروحية . وكان هذا الصراع هو السمة الرئيسية التى صبغت العصور الوسطى الرئيسية ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على كل ما توفر لدى من المصادر الأصلية، كتابات أثناسيوس Athanasius أسـقف الاسـكندرية (٣٢٨ — ٣٧٣) والتى تبلغ أربعين عملا ما بين كتاب وخطبة ومقال ورسالة ، ومؤلفات التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica ليوساب القيسارى وسقراط وسوزومين Sozomenos وثيودوريت Theodoretus وكتابات لاكتانتيوس Lactantius والقديسين أوغسطين Augustinus وجيروم Hieronymus

ورغم المادة العلمية الوفيرة التى تقدمها هذه المصادر ، الا ان بعضها تغلب عليه بشكل واضح روح العصر من الاهتمام بذكر المعجزات والخرافات

وخاصة التاريخ الكنسى لسوزومين . اما الصفة التى تجمع بينها ، فهى أنها تعبر عن وجهة نظر الكنيسة الجامعة ، ومن ثم تصب لعناتها على الفرق الخارجة عن دائرة الكنيسة ، ولهذا كان علينا ان نأخذ رواياتها وآرائها بحذر وان نعالجها بروية . ولعلى اكون قد وفقت فى هذا السبيل ، وقدمت بهذا الجهد للمكتبة التاريخية والدراسات البيزنطية عملا أشعر أنها فى أشد الحاجة اليه .

والآن .. على ان أسعى الى محراب العرفان ، لأقدم كل التقدير والثناء للاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية باعتباره صاحب الفضل الأول فى اخراج هذا الكتاب الى دائرة الضوء ، والأستاذ الدكتور مراد وهبة استاذ الفلسفة بجامعة عين شمس والدكتور على الغمراوى والدكتور اسحق عبيد الأساتذين المساعدين بآداب عين شمس ، والأب الدكتور جورج قنواتى رئيس دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة ، ونيافة الأنبا غريغوريوس اسقف البحث العلمى بالكنيسة المرقسية ، لما بذلوه جميعا من جهد ربما فاق جهدى ، ودقة بالغة صقلت فكرى ، فقد أفسح الجميع لى صدورهم نقاشا ، وقدموا لى يدا مبيئة بالعون كل العون . وشكرى العميق لأمناء مكتبات الدير ومعهد الدراسات القبطية والكلية الاكليريكية وجامعات عين شمس والقاهرة والاسكندرية . والأستاذ لبيب اسكندر لما لمسته فيه أثناء اشرافه على طباعة هذا الكتاب من صدق واخلاص .

ومع يقينى ان كلمات تتلى فى محراب الشكر والعرفان غير كافيه ، الا ان قلمى لا يملك سواها ، وان كان قلبى يحمل لهم بين ثناياه الكثير .

ذلك مبلغى من العلم ، فان أصبت فمن الله ، وان اخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد

مدينة نصر فى أول أكتوبر ١٩٧٤

الفصل الأول
الإمبراطورية والمسيحية حتى اعتزال دقلديانوس



دفعت رغبة السلام الامبراطور أوغسطس الى القيام بحركة اصلاح فى الجهاز الحكومى ، ومحاولة احياء الفضائل الرومانية القديمة التى اضاعتها كثرة الحروب الأهلية ، وانصراف الكثيرين الى عبادات جديدة ، كما عنى ببعث الديانات القديمة الى جانب بقية الآلهة التى كانت تلقى رواجا ايام الحروب الأهلية مثل آلهة الحظ والسلام والصحة والخير ، واضاف الى كل منها لفظ التعظيم الذى يحمله مثل

Pax Augusta, Fortune Augusta, Mercurius Augustus (١)

ويبدو من المستحيل اعطاء صورة دقيقة عن الديانة الوثنية فى الامبراطورية الرومانية وخاصة فى تلك القرون الأولى للميلاد ، وهى الفترة التى قضتها الديانة المسيحية حبيسة قالب الاضطهاد ، قبل أن تحصل على اعتراف حكومى شأن سائر الديانات الأخرى فى الامبراطورية ، يبيح لأتباعها ممارسة شعائرهم واجراء طقوسهم . وترجع هذه الاستحالة الى ان الوثنية لم تكن فى هذه الفترة ذات طابع ثابت ، بل كانت خليطا عجيبا من المعتقدات والعبادات من مختلف البلاد وشتى الثقافات ، فقد اختلطت بها منذ مدة طويلة آلهة الاغريق الأوليمبية بعد أن سادت روما بلاد اليونان بل لعله من الحرى القول أن الرومان نقلوا آلهة الاغريق بكل أسرارها وطقوسها ، وخلعوا عليها فقط أسماء رومانية ، بل ان بعضا منها

---

(١) Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 272.

ظل يحمل اسمه الاغريقى . وتمثلت هذه الديانة اليونانية الرومانية فى الآلهة التى تجلب الخير والرخاء والصحة والعدالة . على أن هناك مجالا للشك فى أنه كان لهذه الآلهة خارج ايطاليا واليونان – موطنهما الأصلى – تأثير كبير أو عزاء روحى لدى الأهلين(١) فقد كان لدى هؤلاء الأهلين فى الولايات الرومانية ، لا سيما فلاحيها وأهل المدن ، آلهتهم المحلية التى يلقون اليها الاحترام والتقديس ، وكان هذا يبدو بصورة أوضح فى المدن الصغيرة حيث كان يسيطر عليهـا الطابع الريفى . فعبد المصريون الآلهة التى تحمل رءوس الحيوانات فى حياتها وبعد مماتها ، وامتلأت المعابد الكبيرة بالعديد من الكهنة الحليقى الرءوس فى ملابسهم البيضاء ، يباشرون الطقوس الدينية فى لغة قديمة كانوا هم أنفسهم يفهمونها بصعوبة(٢) . أما فى سوريا وشمال أفريقيا فقد عبد الفلاحون وأهالى المدن البعل وعشتار وغيرهما من الآلهة المحلية(٣) ، وفى تراقيا عبد الناس آلهة الجبال المحاربة ، وكانت الشمس التى لا تقهر تحظى بالنصيب الأكبر فى ايلليريا(٤) ، أما عند الكلت فقد انتشرت بينهم عبادة الطبيعة ، وكان الولاء يقدم لآلهة الربيـع والأنهار والغابات وعلى رأسها جميعا الشمس(٥) .

حقيقة احتلت بعض الآلهة الزعامة الرسمية فى البانثيون الرومانى ، وظلت لفترة طويلة تعبد فى العصر الجمهورى ، وخاصة Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الاغريق وما يرتبط به مثل Juno (٦) Minerva و Mars (٧) . غير أن الطبقة المثقفة ورجال

---

(١) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

(٢) Jones, Constantine, p. 31.

(٣) Id.

(٤) Id.

(٥) Id.

(٦) كانت يونو ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج فى شهرها – شهر يونيو – ويقولون أن الزواج فيه أسعد الزيجات ، على حين كانت منيرفا الهة الحكمة والصناعات اليدوية وطوائف الصناع والممثلين والموسيقيين والكتبة ، أما مارس فقد كان الها معظما عند الشعب . وكان أولا اله الحرث ثم كاد أن يكون رمز روما وشعارها . وكانت كل قبيلة فى ايطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور .

راجع : ديورنت : قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، جـ ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٧) Boak, op. cit. p. 389.

السناتو ، والنبلاء ، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية فى الولايات ، والتى اشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكى اليونانى والرومانى ، ربطت مجدها الدينى وتراثها فى الفن والأدب ، وتاريخها بهذه الآلهة وان لم يكن هذا فى الغالب أكثر من ارتباط عاطفى تاريخى(١) . وتملكت نفوس هذه الطبقة المثقفة حالة من القلق والشك فى مقدرة هذه الأرباب فى نهاية العصر الجمهورى الذى شهد بين الرومان حربا اهلية طاحنة دون أن تبدى الآلهة حراكا لوضع حد لهذه الفوضى ، فبدأ الايمان لديهم يتزعزع تجاه آلهتهم القديمة ، فولوا وجههم شطر الفلسفة ، التى كانت فى هذه الفترة قد توقفت عن أن تصبح موضوعا دراسيا واسع الانتشار ، واضحت أساسا على وفاق مع الدين(٢) . ووجدت هذه الطبقة الى حد ما سلواها فى الرواقية بما تنطوى عليه من من اخلاق سامية وايمان بكل الآلهة(٣) . والى جوار هذه كانت توجد أيضا الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوى فى الاعتقاد ، وتعتبران المادة شرا ، والجسد سجنا ، والخلاص لا يتأتى الا عن طريق اذلال الجسد والتأمل فى طهارة الروح الالهية وممارسة للتصوف والزهد .

غير انه لم يكن فى قدرة الدين القديم او الفلسفة أن تهب العامة ايمانا

---

(١) Jones, Constantine, p. 29.

(٢) Cary, A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

(٣) تقوم الرواقية على جعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعا ، وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه ، وهى تقدم للانسان الحائر فى مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال ، أساسا أخلاقيا للسلوك ، ومبدأ راسخا للحياة الفاضلة . ومن ثم فهى من هذه الناحية تعد عقيدة أخلاقية . انظر ص ١٠ من تصدير الطبعة الثانية لكتاب الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين . القاهرة ١٩٧١ . وراجع أيضا تراث العالم القديم تأليف W.G. De Burge وترجمة زكى سوس ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٤١ . وكان من أشهر رجالاتها ابيكتيت Epictetus الذى استطاع أن يضم الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) الى حلقة سامعيه ، وكان الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) من أعلام الفلاسفة الرواقيين . راجع :
Cary, op. cit. p. 596.

يخفف عنها شعورها بفقرها ويواسيها فى احزانها . ففى الوقت الذى كان الناس فى حاجة الى من يخاطب روحهم ووجدانهم ، كان الدين لا يقدم لهم الا طقوسا ومراسم(١) . اما الفلسفة فكانت بأفكارها وجدلها لا تتناسب وعقول العامة الذين راحوا يفتشون عن ارباب اخر ، يجدون فى الايمان بها هدوء الخاطر ، وسرعان ما وجدوا هذه الأرباب فى الديانات الشرقية التى استطاعت ان تقدم لمعتنقيهـا كل ما عجزت العبادات الرسمية للامبراطورية أن تمدهم به(٢) من الرضى النفسى ، والأمل فى المستقبل والهروب من هذا العالم المليء بالبؤس والشقاء الذى يحيونه الى عالم الروح وما يعدهم به من نعيم مقيم . وكل ذلك كانت تفتقده العبادات الرسمية التى كانت ذات طابع سياسى صرف وأداة طيعة من ادوات الحكم(٣) . وقد وجد الناس فى هذه العبادات الشرقية الجديدة عددا من شعائر أثارت نفوسهم وأشبعت عواطفهم . فالعابد بممارسته اياها ، يشعر وكأنه وصل الى درجة الغيبوبة الروحية يحس فيها أنه فى اتحاد مع الاله المعبود . وباتمام شعائر الأسرار يحس ان نفسه قد تطهرت من دنس حياته الأرضية ، وأصبح مستعدا لتقبل حياة روحية نقية(٤) .

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك ثلاث منهـا حظيت باهتمام كبير من جانب الرومان على المستويين الشعبى والرسمى ، هى عبادة الأم العظيمة Magna Mater من Pessinus وموطنها الأصلى فى فريجيا Phrigia بآسيا الصغرى حيث كانت تعرف بالآلهة Cybele وقد أشرك معها فى العبادة قرينها Attis الذى تروى الأساطير المقدسة ان كيبيلى قد أعادته الى الحياة ثانية — بعد ان كان قد ذبح — بقوة حبها اياه(٥) . وقد نقل الحجر الأسود الذى كان يمثل صورتها مع كهنتها من الخصيان بكل وقار واحترام من بسينوس الى روما فى الأيام المشئومة للحرب البونية الثانية (٢٠٥ ق.م)(٦) وذلك بعد أن فشلت أرباب

(١) ديورنت ، المصدر السابق ، مجلد ٣ ج ٢ ص ٣٥٥ .
(٢) Stephenson, Mediaeval history, p. 39.
(٣) Boak, op. cit. p. 391.
(٤) Ibid, p. 391.
(٥) Stephenson, op. cit. p. 39.
(٦) Boak, op. cit. p. 391.

الرومان فى أن تهدىء من روع السكان الذين أصيبوا بخيبة الأمل ، غير أن السناتو الرومانى حصر عبادتها فى معبدها على البلاتين . ولكن ما أن جاء عصر كلوديوس Claudius (٤١ — ٥٤) حتى تخطم هـذا الحصار الذى فرضه السناتو على « الأم العظيمـة البسينية »(١) ، وانتشرت عبادتها سريعا بين سكان روما وايطاليا وكثير من مدن الولايات فى ليديا Lydia وفريجيا وأفريقية(٢) .

وقد احتلت هذه العبادة مكانة مرموقة بين سائر العبادات الأخرى القادمة من الشرق نتيجة استحسان ورضى الدولة الرومانية عنها(٣) .

اما الآلهة المصرية ايزيس فانها عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الانسانى ، وقد عبد معها قرينها سيرابيس ، ولقيا انتباها خاصا عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة فى كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم(٤) وقد ساعد على انتشار عبادة ايزيس فى الامبراطورية ما انطوت عليه قصة هـذه الآلهة من الحنـو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جو مرح ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، ولترحيبهـا الشامل بالناس جميعا على اختلاف أممهم وطبقاتهم — كما أنها رحبت بالنساء(٥) على عكس عبادة الاله مثرا .

---

(١) Dudley, The Civilization of Rome, p. 230.

(٢) كان كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل قرينها أتيس ، ويصوم عبـادها ويصلون ويحزنون لموت اتيس وذلك أثناء الاحتفال بعيدها الربيعى (١٥ — ٢٥ مارس) ، حيث كان الكهنة أيضا يجرحون سواعدهم ويشربون دماءهم وفى موكب مهيب يحمـل الاله الشاب الى قبره ، فاذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع باصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس . فاذا ما حل اليوم الأخير من أيام الاحتفال حملت صورة الأم العظيمة فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تحييها وتناديهـا فى روما باسـم « أمنا » Nostra Domina

راجع : Jones, op. cit. p. 35 وأنظر ايضا : Dulley, op. cit. p. 115 وكذلك ديورنت : قصة الحضارة ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣) Jones, op. cit. p. 34.

(٤) Dudley, op. cit. p. 231.

(٥) Ibid. p. 230

وراجع أيضا ديورنت : المصدر السابق ص ١٤٨ .

وقد انتقلت هذه العبادة الى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك . وتم هذا على يد الاغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لايطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الايجى وصقلية ، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الأرستقراطية مما دفع السناتو الى تحديها ، كما اصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ ق.م أمرا بهدم هياكل ايزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة ، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع ايزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما . وفى عهد صلا Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح ، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة ايزيس خاصة وانه كان زعيما للحزب الديمقراطى او الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من افراد الطبقة الدنيا وهى اكثر الطبقات اقبالا على العبادات الأجنبية ، واحرزت ديانة ايزيس تقدما مطردا حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسميا فى عام ٤٣ ق.م . وقد تعثرت عبادة ايزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين اكتافيانوس Octavianus وماركوس أنطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٢٨ ق.م . ثم طوردت فى كل أنحاء ايطاليا على عهد تيبيريوس Tiberius (١٤ — ٣٧) م(١) الا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب كاليجولا Caligula (٣٧ — ٤١)(٢) واستمرت عبادتها فى الازدهار على عهد خلفائه حتى أن اتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩ ، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ — ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبى لعبادة ايزيس فى روما(٣) .

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها ، غير انها كانت سرعان ما تعود الى استعادة مركزها ثانية ، ولكن بمجىء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius

---

(١) د. عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص ١٤٧ — ١٥٠ .

(٢) Dudley, op. cit. p. 230.

(٣) د. عبد اللطيف : المصدر السابق ، ص ١٥٠ — ١٥٥ .

(١٣٨ — ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الاله الفارسي مثرا Mithra (١) الذى استقرت عبادته لفترة طويلة فى شرق آسيا الصغرى ، ثم بدأت تأخذ طريقها الى الغرب فى فترة متأخرة فى القرن الأول الميلادى ، وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت فى جميع انحاء الدولة الرومانية عبادة مثرا ، الاله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز الى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس(٢) .

ولقد كانت المثرائية هى العبادة الشرقية التى فاقت قريناتها الزاحفة الى الامبراطورية ، وكان مثرا يبدو فى الديانة الزرادشتية كاله للنور (اهورامزدا) ضد اله الظلمة (اهريمان) ، وحيث تأثر بالروح البابلية والاغريقية ، عرف مثرا بأنه اله الشمس ، ثم ظهر فى روما على أنه الشمس التى لا تقهر(٣) Deus Invictus Sol Mithra . ولما كانت هذه العبادة فى شكلها الزرادشتى تمثل صراعا بين الهى النور والظلمة ، فقد اوجد ذلك فى افئدة الناس دافعا وتأييدا للجهاد من اجل الصلاح والبر ، وبذلك قدمت العبادة المثرائية حصانة روحية راسخة(٤) . ولقد تركت المثرائية آثارها الواضحة فى روما والولايات الغربية(٥) وأخذت فى الانتشار السريع خاصة فى الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثرا الها للمعارك الحربية ، وحاميا للجنود الذين غدوا اداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود(٦) .

على اية حال فقد أصبح العالم الرومانى الوثنى يعج بالعقائد المختلفة ، وكانت العبادات الشرقية مادة اضافية جديدة للوثنية الرومانية ، غير انها لم تصبح لها السيادة ، وعلى الرغم من أن بعضها قد اعترف به رسميا ، ولقى التأييد من جانب بعض الأباطرة ، الا أن هذه العبادات ، بقيت عبادات فردية أو خاصة ، ولم تدع فى يوم من الأيام ان لها صفة سياسية ، وكانت

---

(١) Cary, op. cit. pp. 589, 697.

(٢) Dudley, op. cit. pp. 230-232.

(٣) Boak, op. cit. p. 392.

(٤) Stephenson, op. cit. p. 40.

(٥) Ault, Europe in the Middle Ages. p. 39.

(٦) Cary, op. cit. p. 698; Dudley, op. cit. pp. 230-232.

الدولة الرومانيـــة فى نفس الوقت تقف ازاء كل هـــذه الديـــانات موقف المسامحة(١) ، شريطة الا تتعارض طقوسها مع الصالح العام الرومانى(٢) .

غير أن هذه الديانات الجديدة كانت تفتقر الى السلطة المركزية المنظمة المتمثلة فى رجال الكهنوت والتى تستطيع أن تسن قانونا ، أو تضع تنظيما معينا لهذه العبادة أو تلك ، او تحدد الطقوس اللازمة ، وكانت مناصب الكهنوت فى الغالبية العظمى من العبادات المحلية تملأ بواسطة أناس من اهل المنطقة ذاتها ، وقد يجمعون بينها وبين الوظائف العامة احيانا ، وكان معظم الكهنة يختارون بواسطة المجامع المحلية سواء لمدة سنة مثل معظم الوظائف الاخرى فى الامبراطورية ، أو على الدوام كمنصب شرفى(٣) .

ولأجيال عديدة ، فان الديانات ذات الأصل الشرقى كعبادة ايزيس والام العظيمة ومثرا قد أشبعت الى حد ليس باليسير الشعور الدينى عند الرومان ، والذى لم يكن يجد الا غذاء يسيرا فى الديانة الرومانية القديمة(٤) . وكان الغموض والأسرار الخفية فى هذه العبادات ذات اثر فى اجتذاب عدد كبير من المتعلمين والأميين على السواء الى رواقها(٥) ، ولا يمكن القول ان الدين او الفلسفة لم تعط نوعا من التعاليم الأخلاقية . فهذه الأخيرة — الفلسفة — كانت تنـــادى بوجوب تخلص الروح وتطهرهـــا من الشهوة الجسدية والماديات ، وذلك بممارسة الفضيلة من اجل الحصـــول على الطهارة والنقاوة اللازمة للتأمل والتفكر فى الله . وكان قانون العقيـــدة المثرائية — كما أوضحنا — يقسم العالم قسمين ، ويجعل الصراع قائما بينهما ، بين قوة النور وقوة الظلمة ، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا ان يحاربوا فى صفه حتى يستطيعوا الاتحاد به ، كما كانت الطهارة والعفـــة الاخلاقية فى عبادة ايزيس مطلوبة من عبادها اذا كانوا يريدون الحصول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت ، ونيـــل البركات والنعيم

---

(١) Boak, op. cit. p. 302.

(٢) Jones, op. cit. p. 39.

(٣) Ibid. 40.

(٤) Dill, Rome and Society in the last century of the Western Empire, p. 7.

(٥) Stephenson, op. cit. p. 39.

المقيم . غير ان هذه المسائل كلها كانت تتم بصورة فردية ، ولم يحاول أحدهما او كلاهما — الدين والفلسفة — ان يبدى اهتماما بالعدالة الاجتماعية ، كما انه لم يكن عند هذه او ذاك مجرد الرغبة فى انقاذ العالم كوحدة واحدة ، وخلاصه من شروره(١) .

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت فى المسيحية ، تبدت عقيدتها فى اله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر . مات ثم قام ثانية من بين الأموات . وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية ، وغموضها الذى كانت تشترك به مع العبادات الشرقية كلها آنذاك .

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يسوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة ، فهو قد نال الموت من اجل خلاص الناس اجمعين ، وتفردت بتعاليم أخلاقية قابلت الهوى . وعلى خلاف المثرائية التى قصرت عضويتها اقامة شعائرها على الرجال دون النساء(٢) ، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلى وايزيس ، ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة .

ولكن المسيحية لم تلق من الرواج بادىء الأمر ما لقيته هذه الديانات الأخرى . وعلى الرغم من القوة الروحية التى كانت تؤكد مستقبل الايمان المسيحى ، الا ان انتصار المسيحية جاء متأخرا جدا ، وكان على المسيحية ان تقضى طيلة ثلاثة قرون كاملة تتلظى بنيران عداوات الأديان الأخرى ، وسياط الاضطهاد حتى تتخطى العقبات التى صادفتها ، وعلى طريق طويل بلغ مداه ثلاثمائة عام سار المسيح وحواريوه واتباعه رحلة طويلة مليئة بالآلام والتعذيب حتى استطاعت المسيحية أن تحقق نصرا جزئيا فى مطلع القرن الرابع ، ولم يتحقق لها النصر النهائى الا وشمس القرن ذاته تؤذن بالمغيب .

وقد جاء العداء للمسيحية فى هذه القرون الثلاثة الباكرة من جانب

---

(١) Jones, op. cit. p. 38.

(٢) Ault, op. cit. p. 40.

اليهود والوثنيين . فقد كانت اليهودية فى هذه الفترة قد أخذت فى الانتشار الواسع خاصة فى حوض البحر المتوسط الشرقى خلال الشتات الذى تعرض له اليهود ابان العصر الهلنستى(١) ، ذلك أن غزو الاسكندر الأكبر للشرق الأدنى كان داعية لفتح العالم الاغريقى المقدونى كله أمام اليهود ، فاحتلوا مراكز التجارة الهامة فيه ، وسادوا طرق المواصلات التجارية ، ولقيت المستعمرات التى اقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى اعفتهم من الخدمة العسكرية ، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم وانعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها . وبذلك أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى اليهودية Judaea (٢) . وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السليوكيين سببا فى اعادة احياء هذه الديانة ، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين ، واستطاعت اليهودية أن تجتذب اليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من الوثنيين(٣) ، وعلى الرغم من أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى ، واستسلم اليهود المقيمون فيها شيئا فشيئا لما كان فى هذه المنطقة من نزعة هلنستية ، الا انهم ظلوا يكونون شكلا من الوحدة الدينية يتراسه الكاهن الأكبر فى أورشليم ، ونجلى ذلك فى بعض المظاهر ، فبالاضافة الى الضريبة السنوية التى كان مقدارها دراخمتين ، والتى كان على اليهودى أن يدفعها لمعبد يهوه ، كان ينتظر من كل يهودى أن يحج الى اورشليم وأن يقدم فى معبدها اضحية معينة ولو مرة واحدة على الأقل طوال عمره . ومع ذلك فقد كان اتصالهم بجوديا دينيا محضا ولم يكن ذا صبغة سياسية(٤) .

وفى سنة ٦٣ ق.م. اصبحت اليهودية جزءا من ولاية سوريا الرومانية، بعد أن انتصر بمبى لهركان الثانى ضد اخيه ، واستطاع أن يفتح العاصمة المقدسة بعد حصار دام ثلاثة اشهر . وحفظت روما لليهود موقفهم ازاءها اثناء عدائها الباكر مع دولة السليوكيين ونتيجة لموقفهم ايضا أثناء النزاع

---

(١) Cary, op. cit. p. 589.
(٢) Boak, op. cit. p. 394.
(٣) Cary, op. cit. p. 589.
(٤) Boak, op. cit. p. 394.

بين أوكتافيانوس من ناحية وانطونيوس وكليوباترة من ناحية أخرى وتخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة(١) . فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من المدن الهلنستية ، هذا بالاضافة الى أنه لم يطلب اليهم ان يشاركوا فى العبادة الامبراطورية . واتبعت الحكومة حيالهم سياسة من التسامح ، ولعل الذى دفع الحكومة الرومانية الى ان تسلك هذا السلوك من التسامح تجاه اليهود هو ما كانت تشعر به من اتجاهات ايجابية فى العقيدة اليهودية ذاتها(٢) . أو لعله أيضا يرجع الى أنهم كانوا رغم انفراد ديانتهم بقوانينها الخاصة يعدون مجتمعا ليس بذى شعبية كبيرة بحيث يمثل خطرا على الامبراطورية الرومانية(٣) .

فلما جاء كاليجولا الى العرش اراد ان يجعل عبادة الامبراطور دينا يوحد به أجزاء الامبراطورية المختلفة ، فأمر أن يقدم أتباع كل العبادات قربانا لصورته ، واصدر تعليماته الى الموظفين فى اورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل(٤) . ولكن اليهود كانوا ينفرون من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم ، وان كانوا قد قطعوا نصف الطريق الى ترضية الأباطرة بقبولهم ان يضحوا ليهوه باسم الامبراطور ، وقد أنهى كاليجولا المشكلة بموته(٥) .

وفى ستينيات القرن الأول الميلادى ثار اليهود فى جودايا ثورة عارمة ، غير أن جيوش الامبراطورية بقيادة تيطس **Titus** استطاعت أن تقضى على هذا التمرد ، وأن تدمر الهيكل ، وان تذبح اعدادا كبيرة منهم ، وفرض الامبراطور فسباسيان **Vespasianus** (٦٩ — ٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم الى الهيكل الوثنى فى روما(٦) . غير أن اليهود ما لبثوا ان جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى فى عامى ١١٥ — ١١٦ ، وشملت الثورة هذه المرة مناطق

---

(١) د. مصطفى عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، ص ٥١ .

(٢) **Boak, op. cit. p. 394.**

(٣) **Stephenson, op. cit. p. 48.**

(٤) **Dudley, op. cit. p. 162.**

(٥) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ ج ٣ ص ١٨٥ .

(٦) **Boak, op. cit. p. 394.**

عدة من الامبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وارض الجزيرة(١) . ولكن الامبراطور هادريان **Hadrianus** اخمد بلا هوادة هـذا التمرد الخطير ، واصدر فى سنة ١٣١ مرسوما يحرم الختان او الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو اقامة اى طقس من الطقوس اليهودية علانية ، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس الا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجىء للبكاء أمام خرائب الهيكل .

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الامبراطورية الرومانية ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة اينما ثقفوا ، وكان مما يقلق بال اليهود ان يدفعوا ضريبة لسيد وثنى(٢) ، ونظر اليهود الى ماضيهم فألفوا انفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من الاذلال والشتات ، بدأ بالآشـوريين فالبابليين فالفرس فالاغريق ثم فى النهاية الرومان ، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير امل ، وتوقع محدد صريح أن الههم لابد وان يخلصهم يوما ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبى(٣) . وكان التفكير السائد — حسبما جاء فى نبوءات انبياء بنى اسرائيل(٤) — ان الوسـيلة الوحيدة لذلك هو ان يرسل يهوه مسيحا خصيصا لهذا الغرض ، يخرجهم من الظلمات الى النور — المادى الحسى — ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان ، ويحقق لهم عهدا جديدا من السلام والرخاء ، من القوة والعظمة ، وينهى بقوته والى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال ، وأن يهوه لابد وان يعيد الى شـعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق(٥) .

---

(١) EVSEB. Hist. eccl. IV, 2.

(٢) Gibbon, The decline and fall of the Roman Empire, I, p. 78.

(٣) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 27.

وراجع أيضا : Stephenson, op. cit. p. 40.

(٤) جاء فى سفر أشعياء (٦/٩ — ٧) لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ، وتكون الرياسة، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا أبا أبديا ، رئيس السلام ، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن الى الأبد » .

وجاء أيضا فى نفس السفر (١/١١ — ٢) « ويخرج قضيب من جـذع يسى ، وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب » .

(٥) دانيال ٤٤/٢ . أشعياء ٤/٢ .

غير ان اليهود اصيبوا بخيبة امل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات ، ويعدهم وعدا حسنا فى الدار الآخرة ، وادرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى ، واعضاء مجلس السنهدرين اليهودى(١) أن مكانتهم الى نهاية ، وان نفوذهم لا محالة ضائع . ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به ، ونالوا منه ومن دعوته واتباعه ، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعا شعب الرومان والحكومة . وبذلك لقى المسيحيون من اليهود كبير عنت .

اما المجتمع الرومانى فكانت نظرته الى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التى ينتمى اليها هذا البعض أو ذاك ، هذا بالاضافة الى موقف السلطات الحكومية ذاتها ، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو الى المساواة والأخذ بيد الفقراء ، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها ، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها(٢) ، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر . ومن ثم اتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها ، وراحوا ينظرون اليها بعين الشك والارتياب . اما الطبقة العليا وخاصة اولئك الذين وضعوا فى مناصب تتطلب منهم الحفاظ على أمن الدولة وسلامتها ، والذين يرتبطون بالأسلاف بصورة حقيقية أو خيالية ، والذين كانوا يرون أن ديانتهم الوثنية جزء من كيان الحكومة ونظامها ، واعتادوا أن يربطوا بين اربابهم وبين مجد الدولة وعظمتها ، فقد كان من الصعب عليهم هجران ديانتهم وعقائدهم بعد ما راوا ان المسيحى ينظر الى دينه على

---

(١) هو المجلس الأعظم المكون من كبراء اسرائيل ، ويظن أنه نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق.م.) . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادىء الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ويضم المجلس واحدا وسبعين عضوا يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة .

(٢) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك ، « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون » (متى ١٩/٦) ، « ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء » (متى ٢١/١٩ ، مرقس ٢١/١٠) ، « مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » (مرقس ٢٥/١٠) .

انه شيء منفصل عن المجتمع السياسى ، وانه اسمى من هذا المجتمع تماما ، ولا يدين بولاء للقيصر ولكن بأعظمه للمسيح(١) .

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة الى من يثير عاطفتها ضد هذه الدعوة الجديدة واتباعها ، وكان الذى ادى الى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخاص النابع من المسيحية . ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما نيه اى تعصب فى الوصول الى اتفاق معين او تراض مع العبادات الأجنبية الأخرى. وكان مذهب تعدد الآلهة على استعداد لأن يقبل فى البانثيون الرومانى آلهة جددا ، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعياد كما لو كانت أي اله رومانى ، وبينما كان الوجدان الوثنى لا يرضى طواعية باله واحد ، بدأت المسيحية ديانة توحيدية ، وكان هناك فى الحقيقة اله واحد ، وقد أظهر هذا الاله نفسه فى « العهد القديم » غير متسامح البتة مع الآلهة الأخرى ، ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الوثنية المتعددة الآلهة فى الامبراطورية الرومانية ، بل يجب فى — نظرها — ألا يكون هناك تسامح مطلقا لا مع الوثنية ولا مع اتباعها(٢) .

وبناء على هذا المعتقد لدى المسيحيين ، عزل هؤلاء أنفســـهم عن المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة ، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة ، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم ، بل أغلقوا على انفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى اشاعها آباء المسيحية الأول عن فســـاد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد ، وأن من اتبع هواه واطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى ، واما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب ، واحتقر الحياة الدنيا ، فســـوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المســـيح فى السماوات العلا . ولقد كانت هذه المحاولة لاقامة مجتمع من الأخيار بين الأخوة ، والدفاع العنيف عن حياة التبتل ، تجرى فى تيار مخالف تماما لمـــا كانت عليه الحال فى تلك الفترة(٣) . ولمـــا كان زعماء المسيحيين يحضونهم

---

(١) Dill, op. cit. p. 3.

(٢) Latourette, expansion of Christianity, I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 25.

(٣) Boak, op. cit. p. 395.

على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وان يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم والا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور ، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية فى نظر الوثنى وكأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومى والارادة القومية(١) . وقد جاء هذا الاعتزال ايضا نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال ، والمسيحيون فيها غرباء ، فموطنهم الأصلى هو السماء ، انهم مواطنون فى مملكة الله الآتية(٢) . وكانت الكنيسة الأولى تعتقد باخلاص فى قرب مجىء ملكوت السماوات ، ومن ثم لم تقدم شيئا لهذا العالم الذى تعيش فيه ، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة(٣) . ولما كان قد حرم على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تقترن بغير مسيحى ، اتهم الوثنيون المسيحيين بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع ، واتهم الدين المسيحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت(٤) ، ومما اكد هذا الاتهام ايضا ان حماس المسيحيين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم ، تبعا للتعاليم المسيحية الى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل ايمانه ، وان يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة(٥) . واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم ، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها اصلا للأوثان(٦) . وكان اظهار الشماتة من جانب المسيحيين اذا ما حل بالامبراطورية مكروه ، وما اذاعوه من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الامبراطورية ، كل ذلك أوحى الى الوثنيين بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة(٧) .

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان انهم ازاء جماعة منعزلة تأبى

---

(١) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢ .

(٢) Latourette, expansion of Christianity, I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 29.

(٣) Boak, op. cit. p. 395.

(٤) ديورنت : المصدر السابق ص ٣٧٢ .

(٥) Gibbon, op. cit. I, p. 84.

(٦) Jones, Constantine, p. 41.

(٧) Gibbon, op. cit. I, p. 84.

الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها ، ولا تؤدى اى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش ، ومن ثم كان سخط الجموع الوثنية ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة انفسهم فى بادىء الأمر(١) .

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئة او تلك ، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة ، وكانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة ، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الامبراطور وتأليهه(٢) ، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور امامه فى المناسبات العامة ، وكان احراق البخور امام تمثال الامبراطور قد اصبح رمزا للولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء .

وترجع بدعة عبادة الامبراطور الى ذلك الزمن الذى حاول فيه اوغسطس ان يوجد رابطة جديدة من الولاء لروما عند أهالى الولايات وذلك باللعب على احاسيسهم الدينية(٣) أو حتى قبل ذلك بزمن طويل عندما بدات روما تطيح بسلطة الحكومات الهلنستية التى كانت عبادة أفرادها من جانب رعاياهم الأساس الذى قام عليه الحكم الأوتوقراطى لتلك الحكومات(٤) . فالمواطنون الهلنستيون مذ دخل الرومان بلادهم غازين — عبروا عن احترامهم او خوفهم لروما بأن أقاموا هنا وهناك مذابح للآلهة « روما » أو للقواد الرومان(٥) وكان قد حظى بهذه العبادة أيضا افراد رومان مثل صلا Sulla ، وقيصر Caesar وماركوس انطونيوس(٦) ، وفى سنة ٢٩ ق.م. ، شيدت مدن برجام Pergamum فى آسيا الصغرى ونيقوميديا فى بيثينيا معابد كرستها لعبادة روما واوغسطس(٧) ، وقد قبل اوغسطس الهدية ووافق على وجود هذه العبادة فى مناطق أخرى من الولايات

---

(١) ديورنت : المصدر السابق ص ٣٧٢ .

(٢) Ault, op. cit. p. 43.

(٣) Cary, op. cit. p. 510.

(٤) Boak, op. cit. p. 273.

(٥) Cary, op. cit. p. 510.

(٦) Boak, op. cit. p. 273.

(٧) Id.

الشرقية(١) وقد ظهرت فى الغرب هذه العبادة الامبراطورية الآتية من الشرق ، ففى سنة ١٢ ق.م. دشن دروزس Drusus ربيب اوغسطس مذبحا لروما واوغسطس فى Lugdunum (٢) (ليون الحالية) ، واقيم آخر فى كولونى Cologne ، وقبل موت اوغسطس كان لدى كل ولاية فى الشرق على الأقل مذبح أو معبد كرس لروما واوغسطس ، وقد ارتضى الامبراطور كل ذلك وشجعه حيث وجد فيه مصدرا يحقق الاحترام السياسى والولاء الامبراطورى(٣) .

وعلى الرغم من ان الامبراطور قد أعطى تأييده لعبادة روما واوغسطس فى مختلف الولايات الشرقية ، وبدأها فى غالة وجرمانيا ، لم ينتظر أهالى ايطاليا موته حتى يعبدوه ، فسرعان ما شيدت المعابد باسمه فى غالبية المدن، وقد سمح الامبراطور — على مضض — بعبادته فى روما وقصر ذلك على المعدمين فقط(٤) . ولم يكن اوغسطس يرحب بهذه العبادة فى روما وايطاليا لأنه سيبدو بذلك فى نظر الشعب الرومانى ناكرا كونه زعيما رومانيا ، يستمد سلطته من الشعب الرومانى وبذلك سوف يطبع حكومته بطابع الموناركية الأوتوقراطية ، وكان هو غير راغب فى ذلك(٥) .

وهكذا كانت العبادة الامبراطورية فى الولايات دليلا على السلطة الكاملة لروما واوغسطس على رعايا الامبراطورية(٦) ، وتجمعت الولايات الرومانية كلها حول عبادة واحدة ، ولم تكن المدن الهلنستية فقط — حيث كانت عبادة الملك شيئا ثابتا — بل حتى فى جرمانيا وغالة أصبح الجميع معتودين لقبول رئاسة كاهن أعلى(٧) .

---

(١) Cary, op. cit. p. 510.

(٢) Id.

(٣) انظر : تراث العالم القديم ، جـ ١ ص ٣٠٠ — ٣٠١ وايضا :
Boak, op. cit. p. 273.

(٤) Cary, op. cit. p. 516.

(٥) Boak, op. cit. p. 273.

(٦) انظر : تراث العالم القديم ، جـ ١ ص ٣٠١ ، وأيضا : سباين : تطور الفكر السياسى ، جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٧) Cary, op. cit. p. 511.

ولقد شاعت عبادة الأوغسطس بعد موته ، وخاصة ذلك الذى يؤلهه السناتو ، ولعبت العبادة الامبراطورية بذلك دورا بارزا فى ايجاد الاتوقراطية ، واصبح ينظر الى السلطة الامبراطورية باعتبارها مستمدة من قبل الآلهة ، وأصبح كل حاكم يمارس هذه السلطة على كونها موكلة من الأرباب ، وصدرت العملة فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث تشير الى الترابط التام بين الحكام « كعبادة أرضية » وبين من فوقهم من الأرباب(١) .

غير أن الحماس الذى واكب اول امبراطور فى هذه العبادة كان مقضيا عليه بالفتور بعد أن استقرت الأمور فى الامبراطورية ، فمن بين خلفاء اوغسطس لم يكن سوى كاليجولا الذى حاول بالقوة فرض العبادة الامبراطورية على رعيته ، ونيرون الذى طالب السناتو بأن يقرر عبادة رسمية فى روما لكلوديوس Divus Claudius (٢) الذى كان قد سخر هو نفسه من محاولة تأليهه ، أما تيبيريوس Tbierius فقد رفض كل محاولة ترمى الى تأليهه(٣) .

وعلى الرغم من أن عبادة الأباطرة — أحياء وأمواتا — كانت من الناحية الدينية اقل اقناعا حيث لم يكن هناك من يعتقد أن الأباطرة كانوا آلهة ، فان أحدا لم يصل لهم فى سقمه أو فاقته ، الا أن عبادتهم كانت رمزا تقليديا كدليل على الاحترام لرأس الدولة(٤) ودليلا على الولاء للامبراطورية . وكان الرومان ينظرون الى عبادة آلهة الدولة بما فيها العبادة الامبراطورية من وجهة نظر سياسية ، معتبرين رفض الاشتراك فى هذه العبادة خيانة ضد الدولة تقابلها عقوبة الاعدام(٥) .

وقد آلم الأباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم ، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لانها تتصل

---

(١) Boak, op. cit. p. 390.
(٢) Cary, op. cit. p. 568.
(٣) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٢ ص ١٢٤ ، ١٠٠
(٤) Jones, Constantine, p. 30.
(٥) انظر : تراث العالم القديم ، جـ ١ ص ٣٠٠ وأيضا
Thompson, op. cit. p. 30.

بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها ، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة ، واعترافهم بألوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية الى صفوف الوثنيين ، وكانت الكنيسة ترى فى عبادة الامبراطور ضربا من الشرك وعبادة الأصنام ، وبذلك أمرت اتباعها ان يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الأذى بسبب هذا الرفض(١) . لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق ولائهم للدولة(٢) .

لقد كان فى وسع المسيحيين ان يصلوا من أجل الامبراطور ولكن ليس للامبراطور(٣) وان يدعوا للامبراطورية وأن أبوا أن يحاربوا من أجلها ، ذلك ان المسيحيين فى بادىء الأمر كانوا يرفضون الاشتراك فى الخدمة العسكرية للدفاع عن الامبراطورية(٤) ، فانهم بأدائهم العمل العسكرى ينخرطون فى العبادة الوثنية ، ولأنهم باعتبارهم جنود الرب فانهم لم يكونوا يستطيعون اعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا فى كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان(٥) . فالمسيحى كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر ، ويعظم أسقفه اكثر مما يعظم الحاكم الرومانى ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفى الدولة(٦) .

فاذا اضفنا الى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة ، ورفضهم عبادة الامبراطور ، وامتناعهم عن الاشتراك فى الخدمة العسكرية ، اذا أضفنا

---

(١) يجب أن ندخل فى اعتبارنا أن احترام السلطة السياسية القائمة ، أمر فرضته التعاليم المسيحية منذ البداية ، يدل على ذلك قول المسيح « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢١/٢٢) وما جاء فى رسالة القديس بولس الى أهل روما « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنه ليس سلطان الا من الله ... حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله » (١/١٣ - ٢) .

(٢) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 11-12.

وانظر أيضا : سباين : تطور الفكر السياسى ، جـ ٢ ص ٢٦٧

(٣) Boak, op. cit. p. 396.

(٤) Painter, A history of the Middle Ages, p. 15.

(٥) Jones, Constantine, p. 41.

(٦) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢

الى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى الدولة(١) مما عد تهربا من تحمل مسئوليات المجتمع الذى الذى يحتويهم ، ادركنا الى اى حد كان الأباطرة ينظرون الى هذه الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب .

ونتيجة لهذه النظرة التى احيط بها المسيحيون من اعين معظم طبقات المجتمع ، راح المسيحيون يلتقون خفية ، ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية . مما زاد الطين بلة ، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى بأسها على سلامة الدولة(٢) ، خاصة وان قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئا غريبا تماما عن الفكر الرومانى عندئذ . فتبعا للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والامبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام او الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة ، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك فى أن يعتنق ما يريد ، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام(٣) .

وكان من المستحيل ان تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة . وكان من المستحيل بالتالى على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة .

هكذا توجس الأباطرة خيفة من هذه العقيدة واتباعها ، الا انه يجب ان ندخل فى اعتبارنا عند الحديث عن موقف الأباطرة الرومان من المسيحية ان وقتا طويلا قد انقضى قبل أن يجذب المسيحيون ـ كطائفة جديدة ـ نظر السلطة الامبراطورية(٤) ، ذلك أن الحكومة الرومانية ظلت لفترة ما تنظر الى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود(٥) ، ومن ثم استفاد المسيحيون

---

(١) Thompson & Johnson, op. cit. p. 30; Schaff, History of the Christian Church, II, p. 43.

(٢) Gibbon, op. cit. I. p. 83; Painter, op. cit. p. 13.

(٣) Stephenson, op. cit. p. 43.

(٤) Gibbon, op. cit. I. p. 67.

(٥) Painter, op. cit. p. 13.

من اتجاه روما نحوهم(١) . ذلك أن اليهود وقد كانوا جماعة تمارس العبادة التقليدية لاسلافهم ، حصلوا منذ زمن مبكر على اعتراف رسمى لهذه الطقوس الخاصة ، ونتيجة للاحترام العظيم لعادات وتقاليد الأسلاف ، فقد تسامح الرومان مع اليهود ، بل ومنحوهم بعض الامتيازات(٢) ، غير أنه فى نهاية القرن الأول وعلى وجه الخصوص بعد تدمير اورشليم سنة ٧٠ أصبح السبيل ممهدا لسيادة العناصرغير اليهودية بين الطبقات المسيحية ، بعد أن اخذت العقيدة الجديدة تنتشر بين الوثنيين ، واضحى من المستحيل أن تتعايش الطائفتان اليهودية والمسيحية طويلا سويا بعد ذلك(٣) . ومن ثم رأى المسيحيون أن يتحرروا من المبادىء اليهودية وليؤكدوا هذه الحقيقة فانهم خصوا بالتعظيم اول أيام اسبوع اليهود بدلا من سبتهم ، كما أن المسيحيين كانوا على خلاف اليهود وتمشيا مع عقيدتهم فى التوحيد لا يتسامحون اطلاقا مع العقائد الأخرى(٤) . ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا الا منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوبه فيها(٥) . وقد أدى ذلك بالمسيحيين الى أن يتعرضوا للاضطهاد لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب ، بل من جانب أباطرة خيرين أمثال تراجان ، وهادريان ، وانطونينوس بيوس ، وماركوس أوريليوس(٦) .

وكان نيرون اول الأباطرة المضطهدين لمعتنقى المسيحية كما يخبرنا بذلك لاكتانيتوس(٧) ويؤكد يوساب(٨) أيضا هذه الناحية فى قوله أن نيرون بدأ سلسة اجراءات قاسية وتجند لمحاربة اله الكون ، وكان أول امبراطور أعلن العداء للديانة المسيحية . ويبدو أن هذا الاضطهاد كان راجعا الى ما كانت تطالب به الجماهير الغضبى من تقديم كبش فداء للحريق الهائل الذى

---

(١) Boak, op. cit. p. 395.

(٢) Jones, Constantine, p. 42.

(٣) Boak, op. cit. p. 395.

(٤) Stephenson, op. cit. p. 43.

(٥) Jones, Constantine, p. 42.

(٦) Stephenson, op. cit. p. 44.

(٧) LACT. mort. pers. 2.

(٨) EVSEB, hist. eccl. II, 22 - 25.

شب فى روما سنة ٦٤ ، ولم يجد مستشارو الامبراطور بدا من ارضاء الجماهير الغاضبة ، فأشارت أصابع الاتهام الى المسيحيين ، تلك الطائفة المنعزلة عن المجتمع(١) ، ومنذ ذلك الزمن فصاعدا أصبحت الحكومة الرومانية تنظر الى المسيحيين باعتبارهم أشخاصا ذوى نيات عدائية للدولة والمجتمع(٢) ، غير أنه مع ذلك لم تكن توجد فى هذا الوقت قوانين أو مراسيم للسناتوسارية المفعول ضد المسيحيين تحرم عليهم ممارسة الطقوس الدينية(٣) .

ويخبرنا الكتاب الكنسيون(٤) أيضا أن دومتيانوس **Dometianus** (٨١ — ٩٦) لم يكن أقل طغيانا وقسوة من نيرون ، وكان ثانى امبراطور يتابع سياسة الاضطهاد ، وعلى الرغم من أن المسيحيين فى آسيا الصغرى قد لاقوا خلال عهده اضطهادا قاسيا من جانب السلطات المحلية الا أن البعض(٥) يشك فى وقوع هذا الاضطهاد بالصورة التى يرويها المؤرخون الكنسيون لعدم توافر الأدلة على ذلك .

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر **Plinius** حاكم بيثينا سنة ١١٢ والامبراطور تراجان (٩٧ — ١١٧) ، وقد جاء فى رسالة بلينى « أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون فاذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون اذا أصروا على قولهم ، فاذا أصروا عليها أمرت بقتلهم ، وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتداح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة(٦) ، كما أمر الامبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماع لاتهامات مجهولة ، ولكن اذا وجد

---

(١) Boak, op. cit. p. 298.
(٢) Ibid. p. 396.
(٣) Gibbon, op. cit. I, p. 98.
(٤) LACT. mort. pers. 3; EVSEB. hist. eccl. III, 17.
(٥) Boak, op. cit. p. 396.
(٦) Stephenson, op. cit. p. 44.

المسيحيون ورفضوا اظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب(١) . أما هادريان (١١٧ — ١٣٨) فقد أرسل الى واليه فى آسيا مينوكيوس الفوندى **Minucius Fundanus** يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة ، ويجب ألا يتعرض أى مسيحى للعقوبة الا بعد التحقق من ذلك(٢) ، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨ — ١٦١) الى الجمعية العامة فى افسوس رسالة بهذا المعنى أيضا(٣) ، ولم يكن اضطهاد المسيحيين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) استثناء من السياسة العامة التى درج عليها أباطرة القرن الثانى(٤) ، وكانت الاضطهادات التى وقعت على عهد هذا الامبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والاوبئة والحروب ، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع الى الانصراف عن آلهة الرومان وانكارها ، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها فأصدر فى عام ١٧٧ مرسما يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة(٥) .

وقد خفت حدة الاضطهاد فى عهد كومودوس **Commodus** (١٨٠ — ١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام(٦) ولكن سرعان ما عادت الى ما كانت عليه بتولى سبتميوس سفروس **Septimuis Severus** (١٩٣ — ٢١١) عرش الامبراطورية وربما كان ذلك راجعا الى ما تعرضت له الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين(٧) وتابع من جديد ماكسيمين قيصر **Maximinus** (٢٣٥ — ٢٣٨) سياسة الاضطهاد ، واصدر امرا بقتل آباء الكنائس باعتبارهم أصحاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم ،

---

(١) EVSEB. hist. eccl. III, 33; Schaff, op. cit. II, p. 46.

(٢) EVSEB. hist. eccl. IV, 9.

(٣) Ibid. 13.

(٤) Boak, op. cit. p. 397.

(٥) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٥ .

(٦) EVSEB. hist. eccl. V, 21.

(٧) Lebretson & Zeiller, The history of the primitive church, II, p. 753.

وعلى ذلك كتب أورجين Origenes اللاهوتى المسيحى الشهير فى القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد(١) .

هذا الموقف الذى اتخذته الامبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القن الثالث كان يتميز بالطابع المحلى(٢) . اذ لم يكن هناك قانون عام يسرى فى الامبراطورية باسرها يحدد معاملة المسيحيين ،ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضى به الصالح العام للامبراطورية ، ورغم هذه الاضطهادات واجراءات القمع التى اتخذت الا انها كانت متقطعة ومتباعدة ، ولم تتخذ الحكومة الامبراطورية اجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضد هذه العبادات المسيحية(٣) ، وكان هؤلاء الاباطرة الذين اقدموا على الاضطهاد فى تلك الفترة — اذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثانى من القرن الثالث — غير عنيفين فى اضطهاداتهم ، كما ان الكنيسة نعمت فى عهد كثيرين من اباطرة هذه الفترة بعهود من السلام والهدوء(٤) .

غير ان الحال بدأ فى التغيير التام مع بداية النصف الثانى من القرن الثالث ، حيث تعد هذه الفترة التى تمتد حتى سنة ٢٨٤ ، عندما اعتلى دقلديانوس العرش الامبراطورى من احلك الفترات التى مرت بها الامبراطورية واشدها خطورة ، نتيجة للحروب الأهلية التى وقعت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة ، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب ، والفرس من الشرق ، واذدياد متطلبات الامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ، ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الأمراض والاوبئة والطواعين ، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة ، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط ٠

ولقد كان السبب الجذرى لهذه المتاعب التى سادت الامبراطورية

---

(١) EVSEB. hist. eccl. VI, 28.

(٢) Thompson, op. cit, p. 80.

(٣) Jones, Constantine, p. 43.

(٤) Gibbon, op. cit, I, 87.

على مدى جيلين يتركز فى عدم انتظام الجيش وفى الطموح السياسى لقواده العسكريين(١) وكان الأباطرة ولا شك يتحملون جزءا من هذه الفوضى التى تردى فيها النظام العسكرى الرومانى ، ذلك أن الاباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية استيلاء هؤلاء على السلطة الامبراطورية حيث انه لم يكن هناك نظام ثابت فى وراثة العرش ، هذا بالاضافة الى أن الطبقة البورجوازية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية ، ومن ثم لم يصبح امام الاباطرة الا طريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم ، اما من العبيد وطبقة البروليتاريا ، وأما من اعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية ، ولاشك انه كان لهذه الناحية أسوأ الأثر على تكوين الجيش الرومانى الذى اخذ بالتالى يفقد حيويته واصالته التى امتاز بهما لقرنيين قبل الميلاد وبعده(٢) . وكانت السنة الشهيرة للاباطرة الأربعة — سنة ٦٩ — قد علمت الجيش أن الامبراطور يستطيع ان يوجد فى أى مكان خارج روما ، غير ان الجيش لم يحاول لمدة قرن تقريبا بعد ذلك استغلال هذه المعرفة ، وادت الحرب الاهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ الى نتائج هامة كان ابرزها اقتناع سبتيميوس سفروس بأن القوة العسكرية هى كل شىء وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده ، ونصيحته الى ولده قائلا « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين »(٣) .

وليس ادل على هذه الفوضى العسكرية ، وتدخل الجيش فى شئون الحكم ، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من انه فى فترة نصف القرن الواقعة بين عامى ٢٣٥ — ٢٨٥ تولى عرش الامبراطورية ستة وعشرون امبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعية الا امبراطور واحد(٤) . وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ — ٢٧٣ كان هناك خمسة اباطرة(٥) . وساعدت الفوضى أيضا على ان يسيطر اذينة ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم

---

(١) Jones, Constantine, p. 2.

(٢) Cantor, Medieval history, p. 28.

(٣) Jones, Constantine, p. 2.

(٤) Boak, op. cit. p. 401.

(٥) Jones, Constantine, p. 3.

الممتدة من آسيا الصغرى الى مصر بصورة اضطر معها الامبراطور جاللينوس Gallienus (٢٦٠ — ٢٦٧) أن يمنح أذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيسا للفيالق الرومانية على الفرات ومصر(١) .

وزاد الأمر سوءا ضغط الجرمان على الراين والدانوب ، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة ، بينما هدد الالمان أعالى الراين والدانوب . واحتل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم — على عهد الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ — ٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية ، وأخذوا بيزنطة Byzantium بغتة ، وعبروا البسفور الى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧(٢) ، ولم تنج الامبراطورية من شرهم الا بعد أن أوقع بهم الامبراطور كلوديوس هزيمة ساحقة فى ٢٦٩/٢٧٠(٣) .

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشمال والغرب فقط ، بل تعرضت لما هو أسوا من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات ، وتجسد هذا الخطر فى الامبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية ، وكانت أوضح صورة لهذا الخطر الداهم تلك التى شهدتها الامبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عندما استطاعت قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للامبراطورية الرومانية ، وأن توقع بالامبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠(٤) . فتعرضت هيبة الامبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فاذا ما أضفنا الى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الامبراطورية غاية فى السوء ، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لاقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فسادا فى أراضى الامبراطورية فى الشمال والغرب والشرق ، ولم يكن خطر الحروب الأهلية

---

(١) Cary, op. cit. p. 725.

(٢) Boak, op. cit. p. 403.

(٣) Cary, op. cit. p. 727.

(٤) Gibbon, op. cit. I, p. 290.

اقل شأنا من الخطر الخارجى ، واثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الانتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية ، وتوقفت الأخيرة أيضا نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق المواصلات لسبب او لآخر . ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الامبراطورية الطامعين فيه ، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود ، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم ، ولم يكن من سبيل لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة الا عن طريق زيادة الضرائب التى اثقلت كواهل الأهلين ، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة فى الامبراطورية . فغرقت هذه نتيجة هذا كله حتى آذانها فى حالة من الاعياء الشامل والشلل التام ، ولم ينقذها من هذا الهول الا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ .

ولقد عبر المؤرخ جونز(١) عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله « لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء ، حقا لقد كان الرجال فخورين بأنهم مواطنون رومان وليسوا برابرة ، ولكن عاطفة الولاء لم تحرك أحدا منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله . لقد كانت الامبراطورية شديدة الاتساع ، وكان الأباطرة بعيدين جدا عن القدرة على احياء اية عاطفة سوى شعور الخوف . لقد كانت العواطف التى تعتمد عليها الامبراطورية عواطف ولاء محلية ، فالجندى يحارب من اجل شرف فرقته او قائده ، وحاكم المدينة يعمل وينفق ماله من اجل مدينته ، والقواد والاداريون وطبقة السناتو والفرسان يتحركون بدافع التقاليد الطبقية أكثر منها خدمة الامبراطورية . لقد اختفى شعور النبالة الملازمة بين الطبقة الارستقراطية ، وانتهى الاحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة ، وانحل النظام بين جحافل الجند . لقد ضاع كل شىء ! » .

على الرغم من كل ذلك ، وفى نفس الوقت نتيجة لكل ذلك ، وبدافع الرغبة فى الانقاذ ، حمل عدة أباطرة فى هذه الفترة أملا كبيرا فى تجميع كل العناصر السكانية فى الامبراطورية كجبهة متحدة فى مواجهة أعداء الدولة ، وكان المسيحيون بالطبع ضمن هذه العناصر التى كان الأباطرة يعلقون عليها

---

(١) Jones, Constantine, p. 11.

الآمال(١) ، غير ان خيبة الأمل لاحقت الأباطرة فى هذه النظرة ، ذلك انه فى وسط هذا الجو المتوتر المخيف اجتاحت الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية ، هرع على أثرها الرجال والنساء الى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون اليها بالصلوات والدعوات ، فى الوقت الذى وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذى لا يعنيه الأمر ، وظلوا كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة ، يشجعهم على التمادى فى ذلك زعماؤهم(٢) ، ويفسرون انهيار الامبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح(٣) .

وقد راى الامبراطور دكيوس فى حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطنى والوحدة القومية ، فأصدر مرسوما يطلب فيه الى جميع سكان الامبراطورية ان يتقدموا الى آلهة روما بعمل يتقربون به اليها ويردون به غضبها . ويلوح انه لم يطلب الى المسيحيين التنكر لدينهم ، بل امروا ان يشتركوا فى التوسل الى الآلهة التى طالما انقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة(٤) . وكان النجاح الظاهرى لهذه الاجراءات واضحا جليا ، فقد استسلم آلاف من المسيحيين — خاصة الطبقات الأرستقراطية — لقرارات الامبراطور ، هذا فى الوقت الذى اختفى فيه كثيرون منهم ، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والاعدام(٥) .

كان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاما فى الامبراطورية ، وكان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلى(٦) ، وقد قتل فى هذا الاضطهاد فابيانوس **Fabianus** أسقف روما ، واسكندر **Alexander**

---

(١) **Boak, op. cit. p. 400.**

(٢) **Boak, op. cit. p. 400.**

(٣) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٧ .

(٤) **Lebretson & Zeiller, op. cit. II, pp. 793-797.**

(٥) **Id.; Jones, Constantine, p. 44.**

(٦) **Thompson & Johnson, op. cit. p. 30.**

أسقف اورشليم ، وبابيلاس Babylas أسقف انطاكية ، كما عذب اوريجين السكندرى ، وديونيسيوس Dionysius أسقف الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى اعداد كثيرة أحرقت أو ألقيت لتفترسها الحيوانات فى الاحتفالات والأعياد(١) .

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١ ، غير ان سياسته سرعان ما عادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧(٢) . فنتيجة لأزمة أخرى بثت الرعب فى نفوس الامبراطور والرومان ، تمثلت فى الأخطار التى كانت تهدد الامبراطورية من كل ناحية . فالفرنجة والألمانى وقبائل جرمانية اخرى تهدد الراين ، والقوط يهددون شواطىء البحر الأسود وبحر ايجه ، وثورات البربر فى شمال افريقيا لا تهدأ ، والغزو الفارسى للولايات الشرقية سائر قدما(٣) ، نتيجة لكل ذلك امر الامبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية ، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للأرباب ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية(٤) ، ثم قام باضطهاد المخالفين واعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة(٥) وتعرض أسقفا الاسكندرية فى عهده ديونيسيوس وخلفه ماكسيموس لأشد أنواع الاضطهاد ونفيا الى ليبيا(٦) . وانهى الامبراطور فاليريان اضطهاده بوقوعه أسيرا فى يد الفرس سنة ٢٦٠ .

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التى تم بها من الاغتيال والأسر وما شاكله — فى نظر مؤرخى الكنيسة — انتقاما عدلا من الرب الذى كان لأعداء رعيته بالمرصاد ، ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضربا من ضروب الانتقام الالهى(٧) .

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت اربعين عاما ، دخل الناس خلالها فيها أفواجا ، بعد ان اخذوا يفرون من اربابهم الذين

---

(١) EVSEB. hist. eccl. VI, 39-40.

(٢) Boak, op. cit. p. 413.

(٣) Lebretson & Zeiller op. cit. II, p. 801; Gibbon op. cit. I, p. 274-290.

(٤) Latourette, A history of Christianity, pp. 88-89.

(٥) Jones, Constantine, p. 44.

(٦) EVSEB. hist. eccl. VII, 11.

(٧) LACT. mort. pers. 2-6. EVSEB. hist. eccl. VI, 28, 39-40. VII, 13.

لم يجدوا لديهم المأوى ، والذين لم يستطيعوا حماية الدولة من أعدائها ، ووجدوا السلوى فى المسيحية أكثر مما وجدوها فى غيرها . ونتيجة لتحول عدد من الأغنياء الى المسيحية ، شيدت الكنائس الفخمة فى كثير من المدن(١)، وترتب على ذلك أيضا أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى ، بل وأصبح المسيحيون حكاما للولايات(٢) ، ووجد منهم أيضا من يحتل مناصب عليا فى البلاط الامبراطورى(٣) . وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كى تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلى ، وأصبح التقليد العملى ان يجتمع أساقفة كل اقليم أو ولاية فى عاصمتها بصورة منتظمة ، كما كان لأسقف العاصمة او المطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته ، واخذ التنظيم الكنسى يميل الى تشكيل نفسه على أسس مدنية ، فأصبحت المدينة التى يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعى للاجتماعات الكبرى ، وحصل أسقفها على سلطات واسعة فى دائرة اختصاصه ، فقد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لافريقيا ، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الاسكندرية مركزا مرموقا(٤) .

ولقد كان الامبراطور جالليـنوس صاحب الفضل الأول فى بدء اقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية ، ذلك أنه أصدر مرسوما سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى ، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها ، وامر بأن يرد الى المسيحيين ما كان قد صودر من املاكهم(٥) . وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسى يوساب صورة رسالة موجهة من الامبراطور الى اسقف الاسكندرية واسقف انطاكية جاء فيها « لقد أصدرت أمرى باغداق هباتى على كل العالم ، وان يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة (الخاصة بالمسيحيين) ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمرى كى لا يزعجكم أحد »(٦) .

---

(١) Jones, Constantine, p. 44.

(٢) EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.

(٣) Boak, op. cit. p. 428.

(٤) Jones, Constantine, p. 45.

(٥) Lebretson — Zeiller, op. cit. II, p. 806.

(٦) EVSEB. hist. eccl. VII, 13-15.

وهكذا اقدم الامبراطور جاللينوس على خطوة جريئة لم يسبقه اليها امبراطور ، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريوس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس ، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومى(١) يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ، ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية ، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية .

غير ان مرسوم جاللينوس لم يلق من العناية أو الاهتمام — من جانب الدارسين — ما لقيه أمثاله من المراسيم التى صدرت بعد ذلك ، بل ان هذا المرسوم لم يؤخذ مأخذ الجد من جانب حكام الولايات ، مما يدل على عظم نفوذهم فى هذه الفترة ويعد هذا شيئا طبيعيا فى وقت هوت فيه الامبراطورية الى درجة كبيرة من الفوضى والانحلال ضاعت معها سلطة الأباطرة . ويشهد على ذلك ما ذكره يوساب(٢) من أن ماكرينوس Macrinus والى مصر كان لا يزال صاحب نفوذ كبير ، وقد تلكأ فى تنفيذ أوامر الامبراطور مما ادى الى مقتل مارينوس Marinus احد رجال قيسارية فلسطين الشهيرين . وحتى الأباطرة انفسهم الذين خلفوا جاللينوس لم يلقوا بالا فى غمرة صراعاتهم الداخلية والأخطار الخارجية — الى هذا المرسوم ، فألمت على عهودهم بالمسيحيين بعض من اضطهادات .

وفى عام ٢٨٤ اعتلى دقلديانوس Diocletianus عرش الامبراطورية ، فولى ظهره لروما ، تلك العاصمة الامبراطورية التليدة ، والتى اضحت منذ مدة طويلة غير ذات مقام للأباطرة ، واتخذ من نيقوميديا Nicomedia بآسيا الصغرى عاصمة جديدة له ، فأضحى بذلك على مقربة من التقاليد الهلنستية والأوتوقراطية الفارسية ، فنهل من هذه وتلك فى سبيل اعادة شباب الامبراطورية لانقاذها من أزمة القرن الثالث الطاحنة .

تتلخص اصلاحات دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) فى تقرير بناء حكم

---

(١) Schaff, op. cit. II, p. 63.

(٢) EVSEB. hist. eccl. VII, 15.

مركزى صارم ، وادخال نظام بيروقراطى واسع المدى ، وايضا بفصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية ، فأخذت الامبراطورية بذلك تؤكد ما كانت قد بدأت تنحـــو اليه منذ زمن مبكر وهو مركزية السلطة(١) ، ولمـــا كان دقلديانوس قد أمضى من حياته فترة طويلة فى نيقوميديا ، وكان على العموم ميالا للشرق ، فانه اقتبس كثيرا من سمات الملكيات الشرقية . لقد كان اوتوقراطيا صرفا ، وامبراطورا الها متحليا بالتاج الامبراطورى ؛وجد ابزخ الشرقى والطقوس الحافـــلة طريقهما الى بلاطه ، وكان على رعاياه اذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه ، أن يخروا سجدا قبل أن تجرؤ عيونهم على ان ترمق صاحب الجلالة ، فلقد كان لكل ما يخص الامبراطور قداسة ، كلماته ، بلاطه ، خزانته ، اذ كان الامبراطور نفسه مقدسا(٢) .

وفى سبيل تنظيم الادارة الامبراطورية الشاسعة استحدث دقلديانوس نظام « الحكومة الرباعية » التى كانت تضم أوغسطين لكل منها ســـلطة مطلقة ، يقيم أحدهما فى الشرق — وكان ذلك هو دقلديانوس نفسه — والآخر فى الغرب وهو ماكسيميان **Maximianus** . ويعين كلا منهما قيصر يحل محله عند وفاته أو اعتزاله وهما جاليريوس وقسطنطيوس . وكان قصد دقلديانوس بذلك أن يفوت الفرصـــة على الفيالق الرومانية وتدخلها فى اختيار الأباطرة ، غير أن نظامه سرعان ما عصفت به الأنواء بعد اعتزاله بعام واحد .

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيرا من جراء اتهامه بالمسئولية الاولى فى الاقـــدام على البدء بالاضـــطهاد الأخير والاعظم للمسيحيين . ومعلوماتنا عن هذه النقطة نستقيها من مصدرين هامين خلفهما لنا كاتبان مسيحيان عاصرا أحداث تلك الفترة .

فينبئنا يوساب أن الاضطهاد قد وقع فى السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس(٣) أى عام ٣٠٣ . ويصور أسباب هـــذا الاضطهاد فى صورة تحذير الهى لجماعة المسيحيين حتى يتطهروا من أدرانهم فيقول : « عندما

(١) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, I, p. 60.

(٢) Ibid. p. 62.

(٣) EVSEB. hist. eccl. VIII, 2.

سقطنا فى التراخى والكسل بسبب زيادة الحرية ، وصرنا نحسد وننهين بعضنا بعضا ، والشعب يؤلف الأحزاب ضد الشعب ، وبلغ الرياء والنفاق أعظم حدود الشر ، فان العدل الالهى سمح بازعاج الكنيسة »(١) .

غير ان هذا القول لا ينقع غلة ، فالذى يتبادر الى الذهن لأول وهلة من عبارة يوساب انه يقصد بهذا القول ذلك النزاع العقائدى الذى نشأ بين الفرق المسيحية المختلفة ، ولم يكن هذا الأمر يعنى الامبراطورية فى شىء الا الخوف من حدوث الشقاق والانقسام بين رعايا الدولة مما يهدد وحدتها . ولكن السلطة الامبراطورية فى هذه الفترة كانت تنظر الى المسيحية باعتبارها كلا واحدا كطائفة قائمة بذاتها ، بكل ما فيها من عناصر الاختلاف والفرقة حول المشاكل العقائدية التى لم تكن تعنى الدولة فى شىء ، ومن ثم لا يمكن أن يكون النزاع العقائدى والخوف من مغبة الانقسام سببا فى هذا الاضطهاد الدقلديانى . اما مسألة « العدل الالهى الذى سمح بازعاج الكنيسة » فذلك شىء لا يفسر تماما هذه الناحية .

اما لاكتانتيوس وكان يقيم فى نيقوميديا آنئذ ــ فانه يسوق حادثة طريفة كانت شرارة البدء فى هذا الاضطهاد ، ذلك أنه حدث اثناء قيام الامبراطور وقيصره جاليريوس بتقريب الأضحيات للآلهة ــ كسبا لرضاها ــ أن ارادا استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للامبراطورية ، وتصادف وجود عدد من المسيحيين من موظفى البلاط اثناء ذلك الاحتفال وقد رسموا شارة الصليب ليتقوا بها كافة الشرور ، فلما نحرت الأضحيات ، وفحصت أكبادها لاستطلاع ذلك المجهول ، عجز العرافون عن التنبؤ بشىء ، فأعادوا الكرة ثانية دون جدوى ، فارتعدوا واعلن زعيمهم تاجيس **Tagis** أن ذلك راجع الى وجود أفراد ملحدين مدنسين فى الاحتفال . وهنا جن جنون دقلديانوس ــ كما يروى لاكتانتيوس(٢) ــ وأمر ــ ليس أولئك الموجودين فحسب ، بل كل من يقيم فى القصر ، بتقريب القرابين للأرباب ، على ان يجلد اى فرد يأبى ذلك ، وسرعان ما صدرت الخطابات منه الى

(١) **EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.**

(٢) **LACT. mort. pers. 10.**

قواده حاملة أوامره بوجوب تنفيذ الجنود جميعا لهذه التعليمات ، والا تعرضوا للطرد من الخدمة نهائيا .

ويبسط لاكتانيتوس المسألة فى صورة غريبة حقا ، فهو ينفى عن دقلديانوس تهمة الرغبة الحقيقية فى اشعال نيران هذا الاضطهاد ، ويعزوها كلية الى قيصره جاليريوس ، ويذكر أن هذا القيصر كان واقعا تحت تأثير امه التى كانت تتعلق بآلهة الجبال ، وتضحى لها باستمرار ، وحدث فى احدى المرات أثناء تقريبها الأضحيات أنه لم يشترك معها أحد من أفراد أسرتها الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية ، فتسلطت عليها روح شريرة ورغبة جامحة فى الخلاص من هؤلاء المسيحيين ، ومن ثم أوحت الى ابنها بذلك ، فانتهز فرصة وجود دقلديانوس فى بيثينيا وعقد معه عدة اجتماعات ثنائية لم يحضرها أحد غيرهما ، تناولت بالطبع شئون الامبراطورية ومن بينها مشكلة المسيحيين هذه(١) .

ويضيف مؤرخنا أن دقلديانوس عارض طويلا الحاح جاليريوس موضحا له الضرار البالغ والاضطرابات التى سيشهدها العالم الرومانى ، وكم من الدماء سيراق من جراء ذلك لأن المسيحيين — كما يعلم — سوف يقبلون على الموت غير مترددين ، وان ذلك لابد وان يشمل عددا كبيرا منهم سواء فى البلاط أو فى الجيش ، ولكن دقلديانوس لم يستطع أن يكبح جماح ذلك الرجل العنيد ، ومن أجل ذلك عزم على الأخذ برأى أصدقائه ومستشاريه ، فدعاهم اليه وطرح المسألة امامهم ، فوقف عدد منهم ينادى بوجوب استئصال شأفة المسيحيين ، اما الآخرون الذين كانوا يفكرون بطريقة مختلفة تماما عن ذلك — وقد فطنوا الى اغراض جاليريوس سواء بالخوف من اثارة غضبه ، أو الرغبة فى ادخال السرور على قلبه — انضموا لأصحاب الرأى الأول . غير ان الامبراطور مع ذلك لم يذعن وعزم على استلهام وحى الآلهة ، فبعث من يأتى له برأى الاله ابوللو . الذى كانت اجابته — على حد قول لاكتانتيوس معروفة مقدما كعدو للديانة المسيحية . وهكذا استميل دقلديانوس ولم يستطع مقاومة قيصره ومستشاريه وربه ،

(١) LACT. mort. pers. 11.

وكان راغبا فى اتمام هذه الاجراءات بشىء من الاعتدال دون اراقة الدماء ، بينما أمر جاليريوس أن يحرق حيا كل من يرفض تقريب القرابين(١) .

تلك صورة يرسمها لاكتانتيوس للامبراطور دقلديانوس ، ويؤكد هذه المسألة بقوله أن الامبراطور كان يخشى جاليريوس تماما ، ويقيم له كل اعتبار مذ قام ملك الفرس نارسيوس Narseus بشن حرب على الامبراطورية يبغى من ورائها الاستيلاء على أقاليمها الشرقية ، ولما كان دقلديانوس يخشى أن يشرب من كأس الأسر الذى تجرعه فاليريان من قبله ، فقد بعث بجاليريوس لمقابلته ، بينما قبع هو فى الأقاليم الشرقية . فلما انتصر جاليريوس ازداد دقلديانوس هلعا منه وخشية(٢) .

اذن فالصورة التى رسمتها ريشة لاكتانتيوس توضح دقلديانوس رجلا حذرا بصيرا بالعواقب ، عندما راح يجادل جاليريوس الراى حول النتائج الخطيرة التى ستنجم عن الاقدام على هذه السياسة ، وما سيصيب الامبراطورية من جراء ذلك من بالغ الأضرار — ولكنه الى جانب ذلك رجل مسلوب الارادة ، على حين كان قيدمره جاليريوس — رغم كونه الرجل الثالث فى الامبراطورية — الرجل الأقوى الذى ينفذ دائما ما يبتغى وفى الوقت الذى يريد ، وسنجد أن لاكتانتيوس يضرب بصفة مستمرة على أوتار الضعف لدى دقلديانوس عند مسألة الاقدام على احراق كنيسة نيقوميديا ، أو ازدياد العنف والصرامة فى مراسيم الاضطهاد ، أو عند اعتزاله واختيار من يخلفه ، ومن ثم يبدو جاليريوس المحرك الأساسى لهذه الأحداث جميعها .

ولقد أقدم دقلديانوس — رغم علمه بخطأ ما هو عليه مقدم على حرمان المعترفين بقانون الايمان المسيحى من البقاء داخل جدران قصره ، أو تحت النسر الرومانى فى جيشه ، وكان ذلك بالطبع كريها الى نفسه — كما يعتقد لاكتانتيوس ، لسابق معرفته بما سوف يخسره الجيش والادارة من جراء هذه السياسة .

ولكن هل يعقل ان رجلا كدقلديانوس — ذلك الامبراطور القدير

(١) LACT. mort. pers. 11.

(٢) Ibid. 9.

كما برهن عن نفسه دائما فى سياسته ، فعلى الرغم من أنه لم يكن قائدا عسكريا ماهرا على غرار من سبقه من الأباطرة ، الا انه كان يتمتع بمقدرة ادارية فائقة(١) . وهذا واضح خلال ثمانية عشر عاما قضاها منذ بداية حكمه ، حتى انفجار ذلك الاضطهاد ، فى اصلاح شئون الامبراطورية وتنظيم أمورها وانتشالها من وهدتها التى ترددت فيها طيلة نصف قرن كامل أو يزيد(٢) . هل يعقل أن رجلا هذا شأنه يلقى بقياد أمره ويستسلم ببساطة الى لجاجة والحاح رجل آخر يعد صنيعته ، واحد اتباعه ؟ ويقدم على اتخاذ خطوات غاية فى الخطورة كان يعلم هو مقدما ما الذى ستؤدى اليه فى داخل الامبراطورية لا لشىء سوى أن قيصره أراد ذلك ؟

اذن فلنبحث عن شىء آخر يقودنا الى حقيقة ذلك الأمر . ونطرح المسألة فى صيغة سؤال : ما الذى دفع دقلديانوس — بعدثمانية عشر عاما — لأن يغير سياسته تجاه المسيحيين ؟

لا يمكن القول مطلقا أن اقدام الامبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثورة جماهيرية غاضبة ، كما شهدناه يحدث مثلا على عهدى دكيوس وفاليريان . فالأمور فى الامبراطورية كانت مستقرة بوجه عام فى هذه الآونة سنة ٣٠٣ ، ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها ، وكان دقلديانوس قد اعاد تنظيم الادارة الامبراطورية ، والجيش الرومانى ، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة . وعلى ذلك فلم يكن هناك غضب جماهيرى يتأجج فى صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لآخر .

كما انه لا يمكن القول ايضا ان هذا الاضطهاد جاء نتيجة لوحى الهى تلقاه الكهنة وبلغوه الى الامبراطور فأقدم على تنفيذه ، فالمسيحيون كانوا يحتلون كثيرا من المناصب العامة فى الادارة وحكومات الولايات والجيش والقصر الامبراطورى ذاته ، ولم يحاول دقلديانوس طوال الثمانى عشرة سنة أن يستجيب لنداء كهنوتى صادر من الأرباب ضد هذه الجماعة .

ويعلل بوركهارت(٣) هذا التغير فى سياسة دقلديانوس باكتشاف

---

(١) Cary, op. cit. p. 780.

(٢) Boak, 428 op. cit. p. 428.

(٣) Burckhardt, The age of Constantine the great, pp. 250-251

مؤامرة بين المسيحيين ترمى الى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة ، ولكن بوركهارت لا يعطينا فى نفس الوقت تبريرا معقولا قاد المسيحيين الى الثورة أو الاقدام على خيانة امبراطور أبدى لهم من التسامح الكثير خلال فترة طويلة من عهده .

ويقدم آخر(١) تعليلا ثانيا لذلك فحواه أن عددا من موظفى القصر والخدم المسيحيين لدى دقلديانوس كانوا يخشون ما سيحدث لهم عقب خلافة جاليريوس للامبراطور لما يعرفونه عنه من عداء للمسيحية والمسيحيين ، وانهم — على الأقل — ان لم تنلهم أيدى التعذيب فلا أقل من أن تمتد اليهم يد الطرد من الخدمة ، وعليه فقد سعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافة العرش ، ومحاولة الاحتفاظ بالعرش لشخص يرون فيه تعاطفا مع المسيحيين ، وربما قسطنطين الذى كان يقيهم عندئذ فى بلاط دقلديانوس ، وكان مكروها من جاليريوس كرها عميقا ، بل لقد ذهب الأمل ببعضهم الى حد الاعتقاد بأنه يمكن تحويل دقلديانوس الى المسيحية ، والتأثير عليه بسهولة آنذاك لاقصاء جاليريوس عن عرش الامبراطورية المتوقع . وعلى الرغم من انه لم يكن يدور بخلد أى منهم شىء عن الغدر أو الخيانة ، الا ان تحركاتهم كانت كافية لاثارة الشك والارتياب لدى القيصر نفسه ، والذى كان الأمر يهمه كثيرا . وكان أيضا على علم تام بما يحمله المسيحيون له من حقد دفين ، ومن ثم دفعه ذلك الى أن يختلى بدقلديانوس فى شتاء سنة ٣٠٣ ويعقدا معا اجتماعات سرية . ومع تحركاته لدى الامبراطور ، ازداد خوف مسيحيى القصر من نياته ، وهكذا نتصور انه بينما كان جاليريوس يفتش عن الأدلة التى تثبت التآمر ضده ، كان التآمر نفسه ينمو ويأخذ شكلا معينا — على الأقل فى نفوس بعض الجسورين من المسيحيين ، ونتيجة لذلك تجمعت الادلة التى كانت كافية حتى لتقنع دقلديانوس نفسه بأن هناك بالفعل تآمرا ، وأن المتآمرين مسيحيون .

ويضيف صاحب هذا الراى انه ارتفع فى هذه الآونة لدى دقلديانوس

---

(١) McGiffert, notes on (EVSEB. hist. eccl.) Nicene and P.N.F. I, pp. 398-399.

سؤال عن الخطة التى سوف تتبع ازاء هذه الأحداث ؟ وقد نتج عن ذلك تلك الدعوة التى وجهت الى مستشارى الامبراطور وكهنة ابوللو كما أسلفنا. ويقول ان جاليريوس كان يرغب فى ابادة المسيحيين عامة لعلمه بعداوتهم ضده ، لكن دقلديانوس كان يريد معاقبة من اشترك فى التآمر فقط ، وعلى الرغم من أنه اقتنع أن المسيحيين عامة قد اشتركوا فيه ، الا أن قراراته الأولى فى هذا الصدد تؤكد رغبته ، فبدلا من اصدار مرسوم ضد المسيحيين عامة وجه دقلديانوس ضرباته أولا الى المسيحيين فى الدوائر الحكومية والوظائف العامة والخدم فى القصر الامبراطورى ، ولا شك ان هذه الاجراءات ليست اجراءات امبراطور يضطهد لأسباب دينية(١) .

خلاصة القول أن صاحب هذا الرأى يؤكد أن الأسباب التى دفعت دقلديانوس الى هذا الاضطهاد كانت اسبابا سياسية وليست دينية(٢) .

ويزيد الأمر تعقيدا ذلك الصمت من جانب يوساب ، والتحفظ من ناحية لاكتانتيوس فالأول — كما قدمنا — يعلل المسألة تعليلا دينيا صرفا ويضفى عليها طابع العدل الالهى بعد أن فسد المسيحيون — على حد قوله — ولا يعطينا أى سبب واضح لهذا الاضطهاد ، على خلاف ما ذكره مثلا عن الاضطهاد الذى وقع على عهدى دكيوس وفاليريان .

اما لاكتانتيوس فيسوق القصة التى أوردناها عما يعتقد أنه سبب كاف للاضطهاد ويقدم لها بقوله « لقد نما الى علمى أن سبب غضبه (يعنى دقلديانوس) كان كما يلى ، ثم يورد القصة التى قدمناها . فاذا أضفنا تحفظ لاكتانتيوس الى محاولاته المتكررة الدفاع عن دقلديانوس بتجريده من ارادته وتسليم قياده الى قيصره ، ادركنا انه ربما كان هناك دافع معين حدا بلاكتانتيوس الى ذلك ، خاصة وانه كان يقيم فى نيقوميديا ، وعلى مقربة من القصر الامبراطورى ، وذلك شىء يمكنه من ان يغدو شاهد عيان لتلك الأحداث وما يدور فى الخفاء .

قد يكون من معقول القول ان لاكتانتيوس كان يدافع عن دقلديانوس

---

(١) McGriffert, op. cit. pp. 398-399.

(٢) Id.

— ولا نقصد بالدفاع هنا وقوفه فى صفه وانما محاولته نفى أو على الأقل تخفيف اتهامه بالمسئولية الكاملة عن هذه الاضطهادات — حفظا لمعروف أسداه اليه دقلديانوس . ذلك ان الامبراطور دقلديانوس كان قد استدعى لاكتانتيوس من افريقيا وعينه معلما للبيان فى نيقوميديا ، وكان هذا فى حد ذاته تقديرا للكاتب المسيحى الذى رأى أن يرد على الامبراطور تلك اليد البيضاء ، فحاول جاهدا انصافه من التورط الكامل فى مسئولية الاضطهاد . ولعل هذا يبرر موقف كاتبنا .

لقد كان دقلديانوس خير انموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى اراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده ، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، وقد سعى جاهدا ليحقق ذلك ونجح فيه الى حد كبير ، ومن ثم لم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا ان تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه ، وان تغدو بذلك دولة داخل الدولة ، وكان يعتقد والقلق يملأ عليه كل نفسه — أن النظام المسيحى على هـذه الصورة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة هذه السنوات فى سبيل وحدة الامبراطورية وتقويتها(١) . ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشىء الكثير ، وتشرب مبادىء الشرق الهلنستى والامبراطوية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه ، فقد سعى الى تقليد تلك النظم وغدا الامبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال . واضحى صاحب السلطة المطلقة فى الامبراطورية كلها ، وبذلك كان يرى — كما يرى جاليريوس — أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل هذه السلطة . وكان جاليريوس بالطبع يدرك ما تنطوى عليه نفس الامبراطور من طموح وحب للسيادة المطلقة ونزعة طاغية للعظمة ، فراح يزين له هذا السبيل ، ولم يدع فرصة واحدة دون أن يضرب للامبراطور على انغام استكمال هذه العظمة وذلك السلطان الذى لن يتأتى الا عن طريق اتمام الوحدة الدينية فى الامبراطورية بالقضاء على المسيحية .

ولنضف الى هذا سببا على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن عددا

---

(١) **Cantor, op. cit. p. 43.**

ليس بالقليل من أفراد الجيش كان قد اعتنق المسيحية(١) ، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصة بتقريب الأضحيات واحراق البخور امام تمثال الامبراطور وهو الاجراء الذى كان فى حد ذاته يعد دليلا على الولاء للامبراطور رأس الدولة — كما قدمنا — وادرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الامبراطور ، فما « الحكومة الرباعية » التى انشأها لادارة شئون الامبراطورية الا نظام قصد به القضاء على تلاعب الجيش بالأباطرة ، فكيف يصبح الحال الآن والجند لا يكنون لقوادهم الوثنين ولا لامبراطورهم الوثنى كذلك اى عاطفة من الولاء ؟ .

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوساب(٢) من أن الاضطهاد بدأ « بالاخوة الذين فى الجيش » .

على أية حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم اربعة صدرت فى عام ٣٠٣ ، ينص الأول منها على تدمير الكنائس المسيحية ، واحراق الكتب المقدسة ، ويقضى الثانى والثالث بالقبض على كافة رجال الاكليروس بمختلف طبقاتهم وعدم الافراج عنهم الا بعد ان يقدموا القرابين لآلهة الدولة ، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته(٣) .

وقد اذيعت هذه المراسيم — وخاصة الثلاثة الأول منها — فى الامبراطورية كلها ، غير أن تنفيذها لم يكن بنفس الدرجة فى الشرق والغرب(٤) ، فالأقاليم التى كانت خاضعة لدقلديانوس وجاليريوس بلغت الحال فيها حدا كبيرا من العنف ، ونفذ ماكسيميان المراسيم الامبراطورية فى ايطاليا واسبانيا وافريقيا . أما قسطنطيوس Constantius قيصر غالة وبريطانيا فلم يأخذ المسألة مأخذ الجد الذى سارت به فى الشرق ، وحتى لا يبدو فى صورة المعارض لرئيسه الامبراطور ، فقد امر فقط بهدم

---

(١) Jones, Later Roman Empire, I, 71.
(٢) EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.
(٣) Ibid. 2.
(٤) Jones, Later Roman Empire I, 72.

حوائط الكنائس وبصورة تمكن من سهولة اعادة بنائها ثانية(١) ، ويبدو أنه لم يلزم نفسه سوى بتنفيذ المرسوم الاول فقط ، ولم يلق بالا الى بقية المراسيم ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى قلة عدد المسيحيين فى اقصى الغرب الذى كان يسيطر عليه اذا ما قورن بالمسيحيين فى الشرق(٢) .

ويخبرنا لاكتانتيوس(٣) أن دقلديانوس وقيصره راحا يتبادلان الرأى حول احراق كنيسة نيقوميديا التى كانت مواجهة للقصر الامبراطورى ، واستقر رأيهما فى النهاية على هدمها خوفا من أن تمتد النيران منها الى الأبنية المجاورة التى تحيط بها ، وسرعان ما سويت الكنيسة بالأرض .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية فى سوريا ، وأضرمت النيران فى القصر الامبراطورى مرتين فى مدة قصيرة ، ويذكر لاكتانتيوس(٤) أن جاليريوس هو الذى أرسل تابعيه لاحداث ذلك حتى يزيد من غضب الامبراطور وسخطه على المسيحيين ، الذين ردوا عليه عليه بدورهم التهمة بمثلها ، وكانت النتيجة أن ألقى القبض على عدد كبير من المسيحيين وقعوا تحت طائلة التعذيب حتى يعترفوا بارتكاب جريمة الحرق العمد(٥) .

ويصف معلم البيان الأفريقى(٦) الحالة بقوله « أصبح اضطهاد دقلديانوس الان عاما وشاملا فقد بدأ بقهر ابنته فاليريا Valeria (زوجة جاليريوس) ، وزوجته بريسكا Prisca ، وكانتا مسيحيتين على ان تقربا الأضحيات ، كما ذبح أحد الخصيان الذى كان صاحب سطوة كبيرة فى القصر ، وسيق القسس والموظفون وعائلاتهم ، وبلا اعتراف او محاكمة — الى القتل زمرا ، أما الحرق حيا فلم يكن يفرق فيه بسبب جنس او سن ، ولما كانت أعداد هؤلاء كبيرة فلم يكونوا يحرقون فرادى ،

---

(١) LACT. mort. pers. 15.
(٢) Boak, op. cit. p. 429.
(٣) LACT. mort. pers. 12,
(٤) Ibid. 14.
(٥) Id.
(٦) Ibid. 15.

بل كانت توقد لهم نار واحدة تضمهم جميعا ، وغصت السجون بمن فيها وارتاعت الامبراطورية لهذه الويلات .

أما يوساب فيفصل المسألة تفصيلا دقيقا ، ويذكر باسهاب طويل صور التعذيب ووسائله ، واولئك الذين نالوا الشهادة من أجل الرب ، أو نالتهم يد العذاب ، ويكفينا فقط أن نقول هنا أنه أفرد لعصر دقلديانوس وحده الكتاب الثامن من تاريخه الكنسى — وعقد لشهداء فلسطين فى هذه الفترة فصلا خاصا .

ونحن اذ نستقى معلوماتنا عن هذه الأحداث من كاتبين مسيحيين هما لاكتانتيوس ويوساب يجب أن نضع اعتبارا لموجة الحماس الجارف التى كانت تتملك على الكاتبين مشاعرهما ، وهما يخطان للأجيال قصة الكنيسة المسيحية ، وما كان يسيطر على أولهما من كره عميق تجاه هؤلاء المضطهدين ، وما كان يختلج فى نفس الثانى من شعور الاعزاز والفخر للكنيسة المسيحية وتمجيدها وتقديس أرواح شهدائها ، وليس بمستبعد ازاء هذا الشعور أن يكون المصدران على شىء من المبالغة ، ولكنهما أيضا يضمان الكثير من الحقيقة .

على اية حال فان الاتجاه العدائى السافر من جانب الامبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية . فى هذه الفترة بالذات جاء متأخرا جدا ، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة خمس سكان العالم الرومانى . لقد أخفقت الدولة فى تحطيم الكنيسة(١) .

---

(١) Cantor, op. cit. p. 43.

الفصل الثاني

الحروب الأهلية وسياسة المتصارعين إزاء المسيحية



بدا لفترة ما أن نظام « الحكومة الرباعية » الذى اقامه دقلديانوس قد اضحى وطيد الأركان ، ولكن هذا النظام لم يكن راجعـــا فى ثباته الى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعا الى سطوة الامبراطور التى وضعت حدا لطموح شركائه(١) ، ولم يستطع ذهن دقلديانوس ان يتصور أنه اذا كان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه امبراطورا لهم وســـيدا ، حيث كان ولى نعمتهم ، فلقد كان من الصعب على أحدهم ان يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس — طالما كانوا جميعا شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والاخر لقب القيصر . فما أن القى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد ان تخلىّ دقلديانوس وزميله ماكسيميان Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح اولئك الرفاق وصراعهم ، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عددا .

ما ان تخلى الرفيقان عن الســـلطة الامبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius

(١) Cary, op cit. p. 732.

الى مرتبة الأوغسطس بدلا منهما ، أولهما فى الشرق ، وثانيهما فى الغرب . ولم يدع كاتبنا لاكتانتيوس هذه الحادثة تمر دون ان يعيد الى الأذهان من جديد صورة ذلك النفوذ القوى الذى طالما نبه اليه متمثلا فى جاليريوس ، وهذا الضعف والانقياد باديا فى دقلديانوس ، فيدخل فى روعنا ان اعتزال كل من دقلديانوس وماكسيميان تم برغبة جاليريوس وتهديده . ويخبرنا أن الأخير انتهز فرصة المرض الذى ألم بالامبراطور وألح عليه بالاعتزال وضرب له مثلا الامبراطور نيرفا (٩٦ — ٩٨) ولكن الامبراطور راح يستعطف قيصره مبديا استعداده التام لأن يخلع عليـــه وزميله قســـطنطيوس لقب الأوغسطس اذا كانا يرغبان فى ذلك(١) . غير أن جاليريوس كان يطمع فى ان يحمل لقب « الامبراطور » وحده ، فرفض العرض ، وتعلل بأن النظام الذى أوجده الامبراطور لابد أن يبقى حرما لا ينتهك ، ولكنه فى نفس الوقت جهر للامبراطور بما يختلج فى نفسه من مشاعر كامنة ، قائلا أنه لم يعـــد يحتمل البقاء فى مرتبة أدنى ، وأنه قد ظل لفترة طويلة خلت كما لو كان منفيا فى الليريا وشواطىء الدانوب ، يجاهد دوما البرابرة ، بينما الاخرون يحكمون مناطق أكثر اتساعا وأفضل مدنية(٢) . ولمـــا كان دقلديانوس قد أتته رسالة من ماكسيميان تنبئه أن جاليريوس قد حشد جيشا كبيرا ينتظر تلقى أوامر سيده ، وأنه قد استحثه على التخلى عن السلطة الامبراطورية ، ثم ها هو دقلديانوس نفسه يسمع الان قالة قيصره ، أدرك ان هذا قد أعد للأمر عدته ، فانفجر باكيا — ذلك الرجل الذى غدا بلا روح — وخاطب ، والدموع تنهمر من مآقيه ، جاليريوس قائلا : ليكن ما تريد »(٣) .

ولكن يبدو أن دقلديانوس قد أدرك بعد ما اصابه من مرض أن حالته الصحية لم تعد تسمح له بتحمل أعباء الحكم فترة أخرى ، ففضل الاعتزال تاركا أعباء السلطة لخلفائه ، وحتى لا يحدث نزاع — كما توهم — بين أولئك استحث زميله ماكسيميان على أن يحذو حذوه ، ومما يرجح ما نذهب اليه ما يذكره لاكتانتيوس نفسه(٤) من أن الامبراطور بعد أن دهمه المرض

---

(١) LACT. mort. pers. 18.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) Ibid. 17.

داخله شعور بأنه لم يعد يقوى على مهام الحكم ، ويحتمل أيضا أن يكون دقلديانوس قد نظر الى مرضه كنوع من انتقام السماء ابتلاه به اله المسيحيين ، ومن ثم أراد أن لا يتحمل اكثر من ذلك مسئولية الاضطهاد(١) .

على أية حال فقد ارتقى جاليريوس وقسطنطيوس الى مرتبة الامبراطور ، أولهما فى الشرق والثانى فى الغرب ، واصبحت المشكلة الآن تنحصر فى اختيار القيصرين الجديدين ، ولقد كان هناك على الأقل اعتقاد بأن قسطنطين بن قسطنطيوس الذى كان يقيم الآن فى البلاط الامبراطورى بنيقوميديا سوف يكون أحد هذين القيصرين ، وكان هناك من الأسباب ما يبرر هذا الاعتقاد ، فقد كان ابنا لأوغسطس الغرب(٢) ، وكان قد أبدى نشاطا عسكريا على الدانوب(٣) واشترك فى الحملة التى قادها دقلديانوس الى مصر(٤) . غير أنه لاقسطنطين ولا حتى ماكسنتيوس Maxentius بن ماكسيميان كانا بين المرشحين .

ومرة اخرى يأخذنا لاكتانتيوس ليطلعنا على ما يجرى وراء أستار القصر الامبراطورى فى نيقوميديا ، فيرسم صورة بزت ما قبلها ، تكشف عن مدى سطوة جاليريوس واستسلام دقلديانوس ، وفى حوار رائع بديع ، وبأسلوب ساخر يرسم على الشفاة ابتسامة رقيقة ، ويبعث فى النفس حسرة على ذلك الامبراطور المغلوب على أمره ، يوضح كاتبنا الطريقة التى تم بها اختيار القيصرين الجديدين فيقول :

> والآن . . ما الذى يجب علينا ان نفعله ؟ « قال جاليريوس : « بالنسبة لماكسنتيوس فانه لا يستحق هذا المنصب ، فها هو بعد رجل عادى ومع ذلك يعاملنى باحتقار ، فكيف به اذا ما غدا صاحب جاه ؟ ولكن قسطنطين محبوب ، ويتمتع بفضائل عديدة ــ وليكن ذلك الا اذا كانت رغباتى وقراراتى سوف لا يقام لها وزن ، ان هؤلاء الرجال يجب

---

(١) Jones, Constantine, p. 56.

(٢) C.M.H. I, p. 3.

(٣) Jones, Constantine, p. 57.

(٤) EVSEB, Vita Const. I, 19.

ان يعينوا بناء على اقتراحى ، وسوف أختار أولئك الذين لا يخشون أحدا غيرى ، ولا يحركون ساكنا الا بايعاز منى — اذن .. فمن يا ترى يكون أولئك الرجال — سفروس Severus من ؟ . ذلك الداعر الذى يواصل ليله بنهاره ولا يكاد يفيق ؟ — انه يستحق المنصب . لقد أثبت جدارته كصراف ومورد للجيش ، وقد بعثت به فعلا ليتسلم السلطة من يد ماكسيميان — حسنا ، لا اعتراض . وأى شخص آخر تفضل ؟ — هو ذاك . قالها جاليريوس مشيرا الى دازا Daza ذلك الرجل القصير النصف بربرى وقد خلع عليه جاليريوس مؤخرا جزءا من اسمه(١) ودعاه ماكسيمين Maximinus فأعاد بذلك نفس ما حدث عندما أنعم عليه دقلديانوس سابقا بلقب ماكسيمين . من تراه يكون ذلك الذى ترشحه ؟ انه أحد أقربائى(٢) — يا للحسرة . تأوه بها دقلديانوس ، ثم أردف قائلا ، ولكنك اخترت أناسا لا يصلحون لهذه المهام الجسام . — انى أثق فيهم(٣) » .

وفى حفل رسمى راح دقلديانوس وجاليريوس يعلنان للحاضرين ما تم عليه اتفاقهما ، ويصور لاكتانتيوس تلك اللهفة التى كانت فى أعين الناس بادية ، ونظراتهم المركزة على قسطنطين ، فقد كان الجميع يتوقعون اختياره ، ولكن دقلديانوس وقف يخاطبهم جميعا والعبرات تنحدر من عينيه مبينا لهم أنه شعر بالحاجة الى الراحة بعد هذا العناء الطويل ؛ وانه يتخلى عن الحكم ليضعه فى يد قوية أمينة تصونه وترعاه ، ووسط هذا الجو « الدرامى » المتوتر اعلن دقلديانوس اختيار سفروس وماكسيمين دازا . وعقدت الدهشة السنة الجميع ، واعتقدوا ان قسطنطين لابد وان يكون قد حمل لقب ماكسيمين ، ولكن جاليريوس ازاح قسطنطين بيده ،

---

(١) Galerius Valerius Maximinus.

(٢) كانت والدة دازا أختا لجاليريوس ، أنظر Gibbon, op. cit, I, 427.

(٣) LACT. mort. pers. 18.

وقدم للناس دازا ولم يستطع احدهم أن ينبس ببنت شفة خوفا من جاليريوس ، وهكذا تم اختيار القيصرين الجديدين(١) .

ويعلق لاكتانتيوس على ذلك بقوله : « أما دقلديانوس فقد مر عبر نيقوميديا اشبه بجندى سرح من الخدمة وطرد الى بلده ، بينما غدا دازا ، راعى الغنم ، قائدا للجيش(٢) .

ولما كنا قد عرضنا — فى الفصل الأول — لوجهة نظرنا فى الموقف الذى اتخذه لنفسه لاكتانتيوس ازاء دقلديانوس وجاليريوس ، فاننا نضيف أن جاليريوس كان شديد الطموح . ولما كان زوجا لابنة دقلديانوس وقيصرا له طيلة سنوات عديدة ، فقد كان يتمتع لديه بنفوذ كبير ، ومن ثم استطاع أن يستميله الى تعيين هذين القيصرين ، وقد كانا خير من يحققا اطماع جاليريوس وطموحه(٣) .

ولفترة قصيرة جدا اتخذت « الحكومة الرباعية الثانية » شكلها ، فأخذ جاليريوس أوغسطس الشرق اقاليم Pontica, Asiana, Thrace, Moesia ، بينما اضاف قسطنطيوس — اوغسطس الغرب — اسبانيا الى اقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا ، أما سفروس فقد خصصت له ايطاليا وافريقيا وبانونيا Pannonia ، على حين حكم ماكسيمين المناطق الشرقية (مصر وسوريا)(٤) . وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة ارباع الامبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمين بالاضافة الى دائرة نفوذه . وكانت الأحلام تداعب خياله عن الانفراد بحكم الامبراطورية كلها بلا منازع ، ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس(٥) ، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الامبراطورية تحت

---

(١) LACT. mort. pers. 19.
(٢) Id.
(٣) Gibbon, op. cit. I, p. 427.
(٤) Jones, Constantine, p. 56.
(٥) LACT. mort. pers. 20.

سلطانه وحده ، هما اختيار قسطنطين خلفا لأبيه فى الغرب ، والمناداة بماكسنتيوس امبراطورا فى روما سنة ٣٠٦ .

ذلك أن قسطنطيوس بعد أن غدا أوغسطس الغرب طلب الى جاليريوس أن يبعث اليه بابنه قسطنطين الذى كان رهين البلاط الامبراطورى فى نيقوميديا منذ ايام دقلديانوس . غير أن جاليريوس كان يتخوف من ذلك ، فقد كان لديه آمال كبار يعلقها على وفاة أوغسطس الغرب ومن ثم كان يخشى لحاق قسطنطين بوالده خوفا من أن يخلفه فى منصبه ، ولهذا فقد راح يسوف فى الأمر ويتلكأ فى اجابة مطلب قسطنطيوس ، غير أنه أمام الحاح الأخير سمح للابن بالرحيل ، ولكن لاكتانتيوس كعادته يسوق رحيل قسطنطين فى صورة هروب جن معه جنون جاليريوس ، فأمر فرسانه باللحاق به واعادته ثانيا دون جدوى ، « فقد كانت ترعاه عناية الرب »(١) .

أدرك قسطنطين والده فى ميناء بولونى Boulogne وهو يستعد للعبور الى بريطانيا(٢) ، وما أن أقر قسطنطيوس الأمور فى بريطانيا حتى عاد الى يورك Eburacum وهناك ادركته منيته فى ٢٥ يوليو سنة ٣٠٦(٣) . وبدا لبرهة وجيزة ان آمال جاليريوس قد أضحت حقيقة ولكن ذلك لم يحدث(٤) ، ففى نفس اليوم أعلنت فيالق قسطنطيوس اختيارها

---

(١) يقول لاكتانتيوس : « ذات مساء ، وامام الحاح قسطنطيوس ورسائله المتكررة لم يجد جاليريوس بدا من الموافقة على سفر قسطنطين ، فأذن له بذلك على أن يعطيه فى الصباح الرسائل الامبراطورية الخاصة بذلك . ولكنه كان يضمر الشر فى نفسه ، علة يجد سببا يمنع به قسطنطين من الرحيل ، أو يأمر سفروس بالقبض عليه أثناء الطريق ، غير أن قسطنطين أدرك ما يجول بخاطر جاليريوس ، فما أن أوى الامبراطور الى فراشه بعد العشاء حتى انتهز قسطنطين الفرصة وهرب . وفى اليوم التالى ، وعند الظهيرة استدعى جاليريوس قسطنطين ولكنه علم بهروبه ، فجن جنونه ، وأمر بالبحث عنه واللحاق به ، ولكن دون جدوى ، فلم يستطع جاليريوس الا بشق الأنفس أن يحبس الدموع » . أنظر : LACT. mort. pers. 24.

(٢) EVSEB. Vita Const. I, 21.

(٣) Jones, Constantine. p. 58.

(٤) Cary, op. cit. p. 372.

لابنه قسطنطين أوغسطسا(١) ويجمع كل من يوسـاب(٢) ولاكتانتيوس(٣) على ان قسطنطين ابى أن يحمل هذا اللقب آنئذ ، وراح يحاول تدعيم مركزه لما كان يعلمه من قوة جاليريوس الذى أصبح الآن الامبراطور السيد(٤) . فأرسل اليه قسطنطين يطلب الاعتراف به ، وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظا لما اعتبره اغتصابا للسلطة من جانب قسطنطين ، الا انه آثر قبول سياسة الأمر الواقع ، فاعترف بقسطنطين قيصرا وليس امبراطورا ، بينما انعم على سفروس بلقب الامبراطور ، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية الى الرابعة(٥) وهكذا — ولزمن يسير — عادت الحكومة الرباعية من جديد ، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أوغسطس ، بينما استحوذ كل من ماكسيمين وقسطنطين على مرتبة القيصر . ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب « المتواضع » انتظارا لما تأتى به الأيام(٦) .

غير أن ثورة شبت فى نفس العام (٣٠٦) فى روما ، قام بها الحرس البريتورى ، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميان امبراطورا فى ٢٨ اكتوبر ، وبدا أن ايطاليا كلها قد أضحت فى قبضة ذلك المغتصب(٧) ، وقد سعى ماكسينتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به ، وسمى نفسه على عملته عندئذ « الأمير الذى لا يقهر »(٨) . وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع ، وملأ الكره قلبه نحو ماكسنتيوس ، الذى كان زوجا لابنته ، ولما لم يكن هناك مكان لقيصر ثالث ، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب(٩) . وترجع هذه الثورة التى اتت بماكسنتيوس للعرش الى ما اقدم عليه سفروس من اجراء تعداد

---

(١) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.
(٢) EVSEB. vita Const. I, 22; hist. eccl. VIII, 13.
(٣) LACT. mort. pers. 25.
(٤) Jones, Constantine, p. 59.
(٥) LACT. mort. pers. 25.
(٦) Jones, Constantine, p. 59.
(٧) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(٨) Jones, Constantine, p. 59.
(٩) LACT. mort. pers. 26.

للسكان فى ايطاليا وروما مما سبب سخطا وتذمرا بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب(١) . وان كان لاكتانتيوس يحمل جاليريوس مسئولية ما أقدم عليه سفروس(٢) ، وازاء ذلك أرسل جاليريوس الى سفروس يستحثه على استعادة سلطته واقاليمه الضائعة من قبضـة ماكسنتيوس ، ووضـع تحت امرته ذلك الجيش الذى كان ماكسيميان يرأسه من قبل(٣) وكان على ماكسنتيوس أن يستعد لمواجهـة هذا التحدى ، فبعث الى أبيه ماكسيميان يطلب اليه العون ، محييا اياه ثانية بلقب « الأوغسطس » ، واهتبل الأب ، الذى كان قد تخـلى كارها عن السلطة مع دقلديانوس ، الفرصة وعـاد من جـديد الى ارتداء العـباءة الامبراطورية(٤) . وهـكذا أصبح فى الامبراطورية اباطرة أربعـة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميان ، وقيصران هما ماكسيمين وقسطنطين .

تقدم سفروس بقواته ميمما شطر روما ، وكان عليه ان يواجه خصما عنيدا ، فماكسنتيوس كان قد اعلن نفسه أوغسطسا ، وضم اليه أفريقيا واسبانيا ، وضمن ايضا تعضيد والده . وسرعان ما فعل اسم ماكسيميان فعل السحر ، لا فى نفوس جنود ولده فحسب ، بل فى افئدة قوات سفروس نفسه(٥) ، فما لبثت هذه القوات ــ التى كان معظمها تحت قيادة ماكسيميان من قبل ، أن تخلت عن سفروس وانضمت الى أعدائه(٦) ، فلم يجد سفروس امامه بدا من التحصن فى رافنا Ravenna غير ان ذلك لم يحمـه من القتل(٧) .

وقد خشى ماكسيميان ، الذى كان يعلم مزاج جاليريوس الجامح ، مغبة ذلك الأمر ، وجالت بخاطره افكار هيأت له أن جاليريوس لابد وأن

---

(١) Jones, Constantine, p. 59.
(٢) LACT. mort. pers. 26.
(٣) Id.
(٤) LACT. mort. pers. 26.
(٥) Jones, Constantine, p. 60.
(٦) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(٧) LACT. mort. pers. 26.

يمتلىء حنقا لمقتل سفروس وانه لا يلبث حتى يسير الى ايطاليا فى قوات ضخمة لقتاله ، ومن ثم شرع يعد للامر عدته(١) .

كان على ماكسيميان أن يبحث عن حليف جديد يقف الى جواره فى صراعه المرتقب مع جاليريوس ، ولا يمكن أن يكون هذا الحليف بالطبع ماكسيمين قيصر الشرق ، فقد كان تابعا امينا لجاليريوس ، ولذلك اتجه طبيعيا الى قيصر الغرب قسطنطين ، فارتحل ماكسيميان الى غالة ليعرض على القيصر صداقته ، وليقدم له عربونا على هذه الصداقة يد ابنته فاوستا Fausta (٢) ولقب الأوغسطس(٣) . وقد كانت لحظة حرجة تلك التى كان يمر بها قسطنطين ، فجاليريوس هو الأوغسطس الشرعى السيد الآن للامبراطورية ، وهو الذى منحه لقب القيصر قبل ذلك . ولكن قسطنطين كان يعلم ايضا أن جاليريوس وافق على اعطائه لقب القيصر مرغما أمام الأمر الواقع ، وانه ليس من المستبعد ان يقدم جاليريوس على سحبه منه ثانية عندما تواتيه الفرصة ، ثم ها هو ماكسيميان ، الذى كان ادعاؤه للسلطة الآن غير شرعى . الا أنه يحمل قانونا لقب الأوغسطس ، يعرض عليه لقب الأوغسطس ويد ابنته . ولقد قبل قسطنطين العرض(٤) ، ومع انه لم يقدم على عمل عدائى جدى ضد جاليريوس ، الا أن انضمامه علانية الى جانب ماكسيميان يعد تحديا صريحا له .

جهز جاليريوس قواته ، وتقدم الى ايطاليا موليا وجهه روما ، وقد عزم على أن يؤدب السناتو ، وأن يضع تحت السيف أولئك الثائرين الرومان(٥) . ولكن حملة جاليريوس لم تكن اسعد حظا من تلك التى شنها سفروس ، فماكسيميان كان قد حصن روما تحصينا قويا ، كما أن قوات جاليريوس لم تكن كافية لحصار المدينة(٦) ، ولما كان جاليريوس يشك فى

---

(١) LACT. mort. pers. 27.

(٢) Id.

(٣) Gibbon, op. cit. I, p. 437.

(٤) Jones, Constantine, p. 60.

(٥) LACT. mort. pers. 27.

(٦) Id.

ولاء قواته(١) فقد أسرع بالانسحاب ثانية دون انتظام ، وخوفا من ان يلحق به عدوه ، فقد أباح لجنوده أن يخربوا كل المناطق التى يمرون بها أثناء تراجعهم ، فعم الدمار بذلك كل أراضى ايطاليا الشمالية(٢) . وهكذا فشلت حملة جاليريوس . وكان من نتيجة هذا الفشل ان دار الصراع الآن سافرا بين ماكسيميان وابنه ماكسنتيوس . فبينما اراد الأب ان ينفرد بالسلطة دون ابنه ، رفض الولد ان يشاركه أبوه السلطان ، وعلى الرغم من ان ماكسيميان اهان ولده أمام جحافل الجنود ، ومزق عنه رداءه الامبراطورى ، الا ان الجنود ايدت ماكسنتيوس واجبرت ذلك الشيخ الفانى على الفرار خارج روما(٣) . فلم يجد ملجأ له الا صهره قسطنطين فارتحل الى غاله ثانية ، واكرم قسطنطين وفادته .

ويحتمل أن يكون هذا الشاب الذى كشفت بعد ذلك الأحداث عن طموحه الفياض ، قد رأى فى ماكسيميان ورقة رابحة يستغلها لتحقيق اغراضه التى كان يسعى اليها فى حذر ، فماكسنتيوس كان قد استولى على اسبانيا التى كانت قد خضعت لقسطنطيوس قبل وفاته سنة ٣٠٦ ، ثم ها هو يسيطر الان على ايطاليا وافريقيا ، ولابد أن يكون قسطنطين قد ادرك ان فى اتساع نفوذ ماكسنتيوس تهديدا خطيرا لسلطانه ، ومن ثم راح يسعى لتقوية مركزه ، ولئن كان ماكسيميان حليفا خالى الوفاض ، الا أن قسطنطين قد رأى على الرغم من ذلك ان يفيد منه فى صراعه المحتوم ضد ماكسنتيوس . ولئن كانت الأحداث قد خيبت فأل قسطنطين حيث تمرد عليه ماكسيميان نفسه بعد ذلك الا انه بسياسته هذه قد ضمن عدم تأييد الأب لابنه ، أو تحالفهما معا ضده .

شغر منصب « الأوغسطس الثانى » الشرعى بمقتل سفروس ، فعين جاليريوس رفيق السلاح ليكين Licinius اوغسطسا ، وعهد اليه باقليم بانونيا Pannonia حتى يمكن استعادة الاقاليم المغتصبة من

---

(١) Jones, Constantine, p. 61.

(٢) LACT. mort. pers. 27.

(٣) Ibid. 28.

قبضــة ماكسنتيوس ، وتم ذلك فى مؤتمر عقد فى ســنة ٣٠٧(١) وحضره دقلديانوس ، الذى كان يعيش فى عزلة منذ تخليه عن منصبه ، وماكسيميان الذى كان قد ارتحل من غالة ، وجاليريوس ، ولكن هذه الخطوة من جانب الأخير لم تؤد الا الى امتعاض ماكسيمين الذى راى فى ارتقاء ليكين مرة واحدة الى منصب الامبراطور ، اهانة له ، فطلب الى جاليريوس منحه لقب الأوغسطس ، ولكن جاليريوس حاول ايجــاد حل وسط لهذه الفوضى التى اخذت تعبث بالامبراطورية ، فأنعم على القيصرين ماكسيمين وقسطنطين بلقب « ابناء الاباطرة »(٢) . غير ان ماكسيمين لم يقنع بذلك ، كما أن قسطنطين الذى كان يحمل لقب الأوغسطس منذ منحه اياه ماكسيميان ، شارك ماكسيمين رفضه ، فلم يجد جاليريوس بدا من الاذعــان لذلك ، فمنحهما سنة ٣٠٨ لقب الأوغسطس(٣) ، وهكذا أصبح فى الامبراطــورية ستة اباطرة هم جاليريوس ، ليكين ، ماكسيمين ، قسطنطين ، ماكسنتيوس ، ماكسيميان . لكل منهم اقليمه الذى يحكمه صــغر هذا الاقليم او كبر ، الا ماكسيميان فقد كان امبراطورا بلا ارض ، واميرا بلا ناس ، ولم يجد امامه ثانية الا الذهاب الى غالة حيث صهره قسطنطين ، ولكنه فى هــذه المرة قد تأبط شرا ، فقد جاء وفى نيته الاستيلاء على السلطة من صهره(٤) . وظل يتحين الفرصة لبلوغ مأربه ، وعلى الرغم من أن قسطنطين وزوجته فاوستا لقيــا ماكسيميان بترحاب واحترام(٥) الا انه كان يدرك فى قرارة نفسه أنه لم يعد صاحب فضل على قسطنطين بعد ان أصبح هذا امبراطورا شرعيا بعد قرار جاليريوس .

وقد واتت ماكسيميان الفرصة فى ربيع سنة ٣١٠ عندما ثارت بعض قبائل الفرنجة التى كانت تحتل الضــفة الشرقية للراين قبــالة كولونى Cologne ، ويروى لاكتانيوس(٦) هــذه الأحداث فى شكل خدعة من

---

(١) Burckhardt, op. cit. p. 266.
(٢) LACT. mort. pers. 32.
(٣) Id.
(٤) Ibid. 29.
(٥) Gibbon, op. cit. I, p. 441.
(٦) LACT. mort. pers. 29.

جانب ماكسيميان أراد بها القضاء على صهره ، فقد نصحه الا يصطحب معه عددا كبيرا من جنوده بحجة أن قوات قليلة العدد كافية لاخماد هذا التمرد ، وكان يريد بذلك تحقيق هدفين ، هزيمة قسطنطين ومقتله على يد تلك القبائل الثائرة والاستفادة بالجزء الباقى من جيش قسطنطين لتحقيق أغراضه فى استعادة منصبه الامبراطورى ، ويمضى كاتبنا قائلا أن قسطنطين قد أصغى طائعا الى هذه النصيحة دون أن يتسرب الشك الى نفسه فى نيات صهره « الوفى » ، هذا بالاضافة الى أن قسطنطين كان يعتقد ان لماكسيميان من الخبرة العسكرية والتجربة ما يفوق تجربته وخبرته .

غير ان قصة على هذا النحو لايمكن قبولها على علاتها ، فقسطنطين لم يكن غافلا عن طموح ماكسيميان ورغبته الجامحة فى استعادة سلطانه ، وكان يدرك ان ماكسيميان ما جاء هذه المرة ، الا وقد اعتزم أمرا بعد أن فوت عليه جاليريوس ودقلديانوس الفرصة فى مؤتمر عام ٣٠٧ ، كما ان قسطنطين لم يكن بأحب لماكسيميان من ابنه ماكسنتيوس الذى حاول والده أن ينتزع منه السلطة قبل ذلك ، أضف الى هذا ان ذكاء قسطنطين وخبرته العسكرية مع الجرمان على شواطىء الدانوب على عهد دقلديانوس ، والحملات العسكرية التى خاضها عقب وفاة أبيه لتثبيت سلطانه فى غرب الامبراطورية قد أعطته صورة واضحة عن مدى قوة هذه القبائل ، ومايجب عليه اتخاذه ازاءها من احتياطات واستعدادات عسكرية .

مكث ماكسيميان غير بعيد عقب ارتحال قسطنطين بقواته الى ضفاف الراين ، ثم أعلن فجأة عن ارتدائه العباءة الامبراطورية ، واستولى على الخزانة العامة ، ونفح الحامية التى خلفها قسطنطين وراءه كثيرا من المال ، ولما تأكد لديه أن قسطنطين قد قارب كولونى اشاع نبأ وفاته(١) ، غير أن ماكسيميان أخطأ فى تقدير قوة خصمه ، ومدى ولاء الجنود له ، فما أن وصلت الأنباء الى كولونى حتى عاد قسطنطين مسرعا عن طريق الساءون Saone والرون Rhone وحط رحاله امام آرل Arles حيث كان

---

(١) LACT. mort. pers. 29.

ماكسيميان(١) ولما لم يكن هذا قد أكمل بعد استعداداته لتلقى هذا الهجوم المباغت فقد آثر الهروب الى مرسيليا Massilia ، ولكن قسطنطين لحق به ، ولم يلبث اهلوها أن اسلموا ماكسيميان ليد قسطنطين ، ولكن الأخير ابقى على حياته(٢) .

ومن المحتمل أن يكون قسنطين قد اقدم على هذا العفو لعدة احتمالات نؤثرها ، فقد كان يوقن أن ماكسيميان قد امسى رجلا لا يخشى بأسه بعد ان تحطمت كل آماله ، وهزم هذه الهزيمة الأخيرة ، وأنه بهذا التسامى والترفع عن قتله يستطيع ان يمن عليه بهذه اليد العليا مستغلا اياه ، كما اسلفنا ورقة رابحة فى صراع حتمى ضد ماكسنتيوس ، يضاف الى ذلك أن قسطنطين لم يكن يريد فى هذه الظروف التى يمر بها ، محاولا توطيد سلطاته فى المناطق الخاضعة له ، فتح باب الصراع ، أو على الأقل تعجله مع ماكسنتيوس ، ومن ثم اراد ان يحرم ماكسنتيوس فرصة قد يتخذها ذريعة لشن الهجوم عليه اذا ما اقدم على قتل والده كما حدث بعد ذلك عندما طالب ماكسنتيوس بثأر ابيه من قسطنطين ، وان لم يكن أباه يعنيه بقدر ما كان يعنيه تحطيم قسطنطين .

وفى صورة درامية عنيفة ينهى لاكتانتيوس حياة ماكسيميان ، نيذكر أنه تنكر لهذا المعروف الذى أسداه اليه قسطنطين وراح يحيك المؤامرات ضده ، وحاول أن يجر معه ابنته فاوستا فى هذا السبيل ، ولكنها افضت الى زوجها بذلك ، وتم اكتشاف المؤامرة واحباطها فى مهدها واعدام ماكسيميان سنة ٣١٠(٢) . ولعل هذه الصورة التى رسمها لاكتانتيوس عن ماكسيميان قد أوحت الى احد المؤرخين المحدثين الى القول بأن الرواية

---

(١) Gibbon, op. cit. I. p. 442.

(٢) LACT. mort. pers. 29.

(٣) تتلخص قصة المؤامرة التى يرويها لاكتانتيوس أن ماكسيميان طلب الى ابنته فاوستا أن تترك باب غرفة زوجها مفتوحا أثناء نومه حتى يتمكن من الدخول واغتيال قسطنطين بيده . وقد تظاهرت فاوستا بالموافقة ثم أنبأت زوجها بالأمر ، فاتخذ من الاحتياطات ما يكفى لوقوع ماكسيميان فى يده . وقد استطاع هذا الأخير أن يتخطى الحرس بايهامهم أنه يريد أن يفضى الى الامبراطور بحديث هام . ولكن قسطنطين استطاع أن يباغته بخاصة حرسه وان يلقى عليه القبض ويجبره على شنق نفسه . راجع LACT. mort. pers. 30

الشائعة عن المعاملة السيئة التى يلقاها الزوج من أم زوجته لا يمكن أن تقارن بما فعله ماكسيميان ازاء زوج ابنته(١) .

ولم يكد يمضى على هذه الأحداث عام حتى مات جاليريوس (مايو ٣١١) بعد أن دهمه المرض فترة طويلة ، فأعطى موته اشارة البدء فى ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة . فقسطنطين كان يسود غالة وبريطانيا ، بينما كان ماكسنتيوس يحكم ايطاليا واسبانيا وأفريقيا ، كما ليكين فخضعت له الليريا وبلاد اليونان وتراقيا ، على حين اختص ماكسيمين بكل ما يقع وراء البسفور من الأراضى الآسيوية ومصر(٢) وقبل ان نشهد هذا الصراع العنيف يجدر بنا أن نتوقف بعض الشىء لنتعرف على سياسة جاليريوس ازاء المسيحية .

كان جاليريوس يكن للمسيحية والمسيحيين كبير عداء ، إذ كان قيصرا على عهد الامبراطور دقلديانوس ، فلما اعتلى عرش الامبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه فى الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ماكسيمين فى سوريا وفلسطين ومصر(٣) . ففى سنة ٣٠٦ اعدت قوائم والزم الأفراد جميعا بتقديم القرابين ، وفى سنة ٣٠٨ صدرت الأوامر لرؤساء المدن والموثقين الذين يحتفظون لديهم بسجلات التعداد بتنفيذ المرسوم السابق الذكر(٤) ، وامعانا فى تنفيذ هذا الأمر وضع الحراس على ابواب الحمامات العامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات(٥) ويصف لاكتانتيوس الحالة بقوله : لقد راح جاليريوس يضطهد المسيحيين ويتفنن فى وسائل التعذيب والاضطهاد ، ويعطى كاتبنا صورا فظيعة من هذا التعذيب الذى كان يلقاه المسيحيون(٦) . ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه الى كل شئون الحياة ،

---

(١) Richardson, introduction to (EVSEB. Vita Const.) Nicene and P.N.F. I, p. 413.

(٢) C.M.H. I, p. 3.

(٣) Gibbon, op. cit. II. p. 140.

(٤) Jones, Later Roman Empire, I, p. 72.

(٥) Jones, Constantine, p. 68.

(٦) LACT. mort. pers. 21.

فتوقفت دواليب العمــل وأهملت سيادة القــانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخدلاء . لقد تملك حكومة جاليريوس مس من الشيطان(١) . ومما زاد الطين بله . تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينــة ، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصون كل شيء ، الناس والشجر والدواب ، واجبر العبيد على أن يفصحوا عما يخبئه أسيادهم ؛ وعذبت النساء حتى يعترفن بما لدى أزواجهن ، ولم يفلت من هــذا العذاب شيخ ولا طفل ولم ينج منه مريض ولا ضعيف . لقد كان ذلك أشبه شيء بما يفعله قائد منتصر بخصم دارت عليه الدائرة(٢) . هذا حسب ما يرويه لاكتانتيوس وان كنا قد نبهنا الى المبالغة التى تخالط كتابات مؤرخى الكنيسة فى هذا المجــال بالذات .

غير ان جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ ابريل سنة ٣١١ بمرسوم اصدره جاء فيه :

« كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظا على الصالح العام ما سبق أن ابدينا من الرغبة فى رد الأوضاع الى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام ، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة اجدادهم الى حالة طيبة ، لأنه قد تملكهم الكبر الى حد ، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم ، وأقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم ، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة . ولما أصدرنا اوامرنا بوجوب رجوعهم الى نظم الأقدمين خضع الكثيرون امام التحدى . ولكن عددا ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت ، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة السماء ما يليق بها من عبادة ، فان محبتنا وما ألفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا الى أن يشمل عفونا هذه الأمور ايضا ، حتى يعودوا الى

---

(١) LACT. mort. pers. 22.

(٢) Ibid. 23.

مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها ، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام . وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه . وبناء على ذلك يجب عليهم ان يضرعوا لالههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب ، ولكى يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام ، وحتى يحيوا فى ديارهم آمنين(١) » .

وقد أذيع هـذا المرسوم فى نيقوميديا ، وعلى اثره فتحت أبواب السجون وخرج منها من كان بها ، غير أن هذا المرسوم لم يؤت ثمرته المرجوة ، ذلك أن جاليريوس ما لبث أن مات بعد ذيوعه بأيام قلائل(٢) .

ويتفق لاكتانتيوس(٣) ويوساب(٤) على أن الباعث الأصلى لصدور هـذا المرسوم هو ذلك المرض الذى دهم جاليريوس ، فاعتقد أن اله المسيحيين قد انتقم منه بهذا الداء . ومن ثم أراد أن يخفف عن رعاياه ويلات هذا الاضطهاد ، ولكن ذلك فى رأى الكاتبين لم ينج جاليريوس من انتقام الرب العـدل !

ومما يلفت النظر فى هذا المرسوم أن ديباجته تضمنت صدوره عن الأباطرة الثلاثة جاليريوس وليكين وقسطنطين . فى الوقت الذى خلا فيه من اسم ماكسيمين ، ولعل فيما يذكره يوساب فى تاريخه الكنسى(٥) خير تعليل لذلك ، حيث يذكر أن ماكسيمين لم يكن راغبا فى أن يضع اسمه على وثيقة هو عنها غير راض . ومما يرجح هذا القول السياسة التى سار عليها ماكسيمين بعد ذلك ، حيث استمر يمارس الاضطهاد مع المسيحيين . أما ماكسنتيوس فكان امبراطورا غير معترف به من أى من أولئك الأباطرة . ولا يعنى صدور المرسوم التزام الأباطرة الثلاثة جميعا به ، فلم تمهل الأيام

---

(١) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17; LACT. mort. pers. 34.

(٢) LACT. mort. pers. 35.

(٣) Ibid. 33.

(٤) EVSEB. hist. eccl. VIII. 17.

(٥) EVSEB. hist. eccl. IX. 1.

جاليريوس حتى يشرف بنفسه على تنفيذه . اما الآخران فقد اختلفت سياستهما قبل المسيحيين .

وعبارة المرسوم « على شريطة الا يقوموا بعمل ضد النظام العام » قد تبدو غامضة وليس من السهل تحديد مدلولها حتى يمكن معرفة تلك الأعمال التى تتعارض والنظام العام ، ويبدو أن المرسوم لم يوضح ذلك اعتمادا على ما ذكره جاليريوس من انه سينهى فى رسالة الى عماله ما يجب عليهم اتباعه ، ولكن هذه الرسالة ضاعت للأسف(١) . وان كان يمكن القول ان هذه الأعمال تتلخص فى موقف المسيحيين العام ازاء الدولة على النحو الذى عرضنا له فى الفصل الأول .

على ان المرسوم فى حد ذاته يعد اعترافا صريحا من جانب جاليريوس بما اقدم عليه من تحديات للمسيحيين ، وفى نفس الوقت يعتبر دليلا واضحا على فشل سياسة الاضطهاد التى سار عليها ، وذلك يبين مما جاء فى المرسوم من أن كثيرين رفضوا الاذعان لأوامر الامبراطور ، ولما كانت هذه السياسة قد استمرت قرابة ثمان سنوات (٣٠٣ - ٣١١) دون أن يبدو لها فى الأفق اى بادرة من بوادر النجاح ، فقد ادرك جاليريوس مدى خطورة هذه السياسة والنتائج المترتبة عليها بالنسبة لقوة الامبراطورية ووحدتها ، خاصة اذا علمنا أن جاليريوس قد ركز ضرباته ضد أولئك الجنود المسيحيين فى الجيش(٢) .

ويقول المؤرخ جيبون(٣) تعليقا على هذا المرسوم « لا يحسن بنا أن نبحث عن حقيقة الشخصيات التاريخية أو الدوافع الكامنة من منطوق المراسيم والبيانات ، ولكن ما دامت هذه كلمات امبراطور يحتضر فانه يجوز لنا قبولها دليلا على صدقه وحسن نيته » .

صدر هذا المرسوم فى ٣٠ ابريل ٣١١ ، ومات جاليريوس فى مايو بعد ان تمكن منه المرض ، ولكن يوساب يزعم ان جاليريوس قد خفت عنه شيئا حدة المرض فعاود اضطهاد المسيحيين قبل ان تعاجله منيته(٤) .

---

(١) Richardson, op. cit. n. 9 p. 430.

(٢) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

(٣) Gibbon, op. cit. II, p. 142.

(٤) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

خلاصة القول أن مرسوم ٣١١ لم ينفذ تماما فى كل ارجاء الامبراطورية نتيجة الأحداث التى أعقبت وفاة جاليريوس مباشرة .

فما ان تلقى ماكسيمين نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه فى الشرق ، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالى الى صفه فأمر بالغاء الضرائب التى كان الامبراطور الراحل قد فرضها ، هذا بينما تباطأ ليكين فى أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدونى(١) . وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الامبراطورين الطامعين ، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنيمة ، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطىء البسفور ، ولكن الامبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت ، فتباعدت الحرب بينهما الى أجل آت لا ريب فيه ، ولما أعتقد ماكسيمين ان كل شىء قد انتهى عاد ادراجه الى نيقوميديا(٢) .

اما فى الغرب فكان الزمن يجرى سراعا يعجل صراعا حتوما بين قسطنطين وماكسنتيوس ، فقد وجد هذا الابن العاق ، الذى رفض مرارا ان يقبل والده شريكا له فى الحكم ، فى مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لاشعال نيران الحرب ضده ، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ماكسنتيوس الذى غدا فجأة ابنا بارا بوالده(٣) .

هكذا كان طموح الأباطرة الأربعة واهواؤهم سببا فى اذكاء نيران حرب أهلية فى الامبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة ، وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره ، فامبراطور الشرق ليكين وماكسيمين يتربص كل منهما بصاحبه الدوائر لينفرد بحكم الجزء الشرقى ، وهكذا كان امبراطورا الغرب قسطنطين وماكسنتيوس . وأملت طبيعة الصراع على كل منهم أن يوطد صداقته مع الحليف الأبعد ضد جاره القريب ، فقفز قسطنطين عبر ايطاليا وماكسنتيوس ليتحالف مع

---

(١) LACT. mort. pers. 36.

(٢) Id.

(٣) Ibid. 43.

ليكين ، بينما خطى ماكسيميين خطوة واسعة فوق الليريا وتراقيا وليكين ليصل الى ماكسنتيوس ، ذلك ان قسطنطين قد رحب بزواج اخته قسطنديا من ليكين(١) ، وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التى ساورت ماكسيمين عن نيات الامبراطورين فى التحالف ضده ، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكين عقب وفاة جاليريوس ، فسارع الى ارسال سفرائه الى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس فرحب هذا بهم واكرم وفادتهم ، واعتبر ذلك العرض عونا الهيا ، حيث كان على وشك الدخول فى حرب مع قسطنطين(٢). وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين فى روما على بعض الرسائل التى كان ماكسيمين قد بعث بها الى حليفه(٣) .

فى صيف عام ٣١٢ كان ماكسنتيوس قد أعد للامر عدته ، واستطاع ان يقوى مركزه باعادة غزو افريقية(٤) ، وكانت هذه الولاية قد آلمها مطالب ماكسنتيوس التعسفية من الأموال والغلال ، فشبت فيها الثورة منادية بدوميتيوس اسكندر **Domitius Alexander** نائب الحاكم أوغسطسا ، فتمكن ماكسنتيوس من استعادتها ثانية(٥) .

ويلقى مؤرخ الكنيسة يوساب مسألة طموح هؤلاء الأباطرة جانبا ، ويأخذنا فى خضم علل دينية وانسانية صرفة يقدمها سببا رئيسيا لهـذا الصراع المحموم ، فقد كان ماكسنتيوس حسبما يروى يوساب(٦) يعتمد اعتمادا تاما على السحر والتنجيم ، بل ان ذلك كان اسوأ ما فيه على حد قوله ، ولم يكن يقيم لاله العالم الحق وزنا ، وكان بهذا السحر والتنجيم يرفع نساء وأطفالا الى مهام المراكز ، ويخفض بهما ايضا اقدر الرجال الى الدرك الأسفل ، ويضيف أن الحال فى روما آنئذ قد بلغت من السوء حدا لا يمكن تقديره حيث عصفت بها الأوبئة وعضتها المجاعة(٧) والمذابح المروعة

---

(١) LACT. mort. pers. 43.

(٢) Id; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.

(٣) LACT. mort. pers. 44.

(٤) Jones, Constantine, p. 74.

(٥) Burckhardt, op. cit. p. 269.

(٦) EVSEB. vita Const. I, 36.

(٧) Id.

التى أنزلها ماكسنتيوس بأهل المدينة(١) دون أن يقدم يوساب لذلك سببا ، هذا بينما كان قسطنطين فى قرارة نفسه يشفق على أهل روما(٢) ، وكان ينظر الى العالم باعتباره كلا متكاملا ، ويدرك أن على رأس هذا العالم تتربع مدينة للامبراطورية الرومانية خالدة ، غير انها الان تقع تحت جناح العسف والجور لواحد من الطغاة ، ويأمل أن يتم تحرير المدينة على يد اولئك الذين يحكمون مناطق أخرى من الامبراطورية ، فقد كان يميل الى السلام ، ولكنه عندما رأى هؤلاء لا يقدمون شيئا لانقاذها ، أيقن أن الحياة ستكون له غاية التعاسة ، ومن ثم أعد نفسه لمواجهة هذا الطاغية(٣) ۰ ولم يكن الاعداد قاصرا على الناحية العسكرية ، بل راح قسطنطين يبحث جادا عن عون يأتيه من قوة تفوق قوة الجند والسلاح(٤) ، ولم يجد هذا القوة فى السحر والعرافة ، ولم يلمسها فى الأرباب التى اياها عبد الأباطرة السابقون ولها قربوا ، ولكن بصيرته هدته الى رب أبيه(٥) .

على هذا النحو يمهد يوساب لقصته الشهيرة عن ميل قسطنطين للمسيحية ، ويتغافل تماما عن الدوافع الحقيقية التى ادت الى قيام هذا الصراع بين المتنافسين ، غاضا الطرف عن تلك الحقيقة الواضحة وهى ان قسطنطين لم يكن ليقنع على الاطلاق بأن يظل قابعا داخل جدران ذلك الموضع الصغير الذى وجد فيه فى جزء من الجزء الغربى للامبراطورية(٦) .

يذكر لاكتانتيوس أن قسطنطين قد أقدم على طرح تماثيل ماكسيميان أرضا وازالة الصور التى كانت قد أقيمت له(٧) ۰ فرد عليه ماكسنتيوس بأجراء مشابه ، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن ايطاليا(٨) . وهكذا أعلنت الحرب رسميا بين الامبراطورين ۰ وكان لدى ماكسنتيوس من

---

(١) EVSEB. vita Const. 33, 35.

(٢) EVSEB. hist. eccl. IX, 9.

(٣) EVSEB. vita Const. I, 26.

(٤) Latourette, Christianity, p. 91.

(٥) EVSEB. vita Const. I, 27.

(٦) Jones, Later Roman Emipre, I, p. 79.

(٧) LACT. mort. pers. 42.

(٨) Jones, Constantine, p. 74.

المشاة مائة وسبعون الفا ، وثمانية عشر الف فارس ، فاذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى افريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فان ماكسنتيوس لم يتمكن الا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال ، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين الفا من المشاة وثمانية آلاف على الخيل ، وان كان قد ترك جزءا من هذه القوات لتحمى جبهة الراين(١) .

وكانت خطة ماكسنتيوس تقوم على اساس الحيلولة دون اتصال قوات قسطنطين وليكين اذا ما حاولت قوات الأخير ان تنضم الى صهره ، فمركز عددا ضخما من قواته عند فيرونا Verona التى تعد مدخل ممر برنر Brener ، غير ان قسطنطين عبر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط الى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة ، واستطاع رجاله الاستيلاء عليها بعد ان اشعلوا النيران فى ابوابها ، وتسلقوا أسوارها ، وان كان قسطنطين قد اصدر أوامره باخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة(٢) وامام تورينو Augusta Taurinorum قوبل قسطنطين بخيالة عدوه ، فاستطاع بمناورة عسكرية ان يوقع مذبحة مروعة بهؤلاء الفرسان ، ففتحت على أثرها تورينو ابوابها للظافر ، ثم استسلمت على اثرها ميلانو ، فمكث فيها قسطنطين قليلا ثم واصل سيره ، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشيا Brescia (Brixia) فكانت الغلبة لجنوده(٣) .

وكانت القوة الرئيسية لماكسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبى Ruricius Pompeianus ، وكان موقفه قويا الى حد كبير حيث كانت المدينة محصنة ، وقد فرض قسطنطين عليها الحصار ، الا ان القائد استطاع الافلات خلسة ليعود من جديد وفى صحبته مدد آخر(٤) وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الأخرى ان اسلمت للمنتصر قيادها ، فاصبح الطريق مفتوحا الى روما ، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر فى ٢٦ اكتوبر ٣١٢(٥) .

---

(١) Jones, Constantine, p. 74.

(٢) Ibid. 75.

(٣) Richardson, op. cit. p. 416.

(٤) Jones, Constantine, p. 76.

(٥) Richardson, op. cit. p. 416.

وأثناء هذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين فى السماء — ما اخبر به يوساب(١) وهى تلك الهالة المضيئة تحيط صليبا ارتسمت تحته عبارة « بهذا ستنتصر TouTwvika ثم زاره السيد المسيح أثناء نومه مؤكدا له ما سبق أن تراءى له(٢) ، وهذه كلها امور سنتناولها بالدراسة فى الفصل التالى .

كان واضحا أن ماكسنتيوس بعد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال ، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها ، وكانت أسوارها منيعة للغاية ، كما انه كانت لديه كميات وفيرة من قمح افريقيا ، وقوة من الجند لا يستهان بها ، وقوى من هذا الاقتراح عنده ما أنبأه به العرافون من ان خروجه سيسبب له كارثة فادحة(٣) ، غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما اشيع بين الناس القول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية . فانزعج ماكسنتيوس وامر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب ، فأخبروه ان هناك نبوءة تقول انه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان ، ولما كان ماكسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة ، فقد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش ، ومن ثم فقد عزم على أن يقابل عدوه فى هذا اليوم(٤) ، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر(٥) ليلتقى بعدوه فى مكان يسمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفية(٦) Mulvius pons وكانت هذه الخطة التى اقدم عليها ماكسنتيوس جهلا بفنون الحرب ، اذ بدلا من ان يترك لخصمه مشقة عبور النهر فيسهل القضاء عليه ، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة ، فكان عاقبة امره خسرا ، حيث تمكن قسطنطين من انزال الهزيمة بقواته واجبارها على التراجع نحو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم(٧) ، ولما حاولت بعض الجموع وعلى راسها ماكسنتيوس

---

(١) EVSEB. vita Const. I, 28.

(٢) Ibid. 29. LACT. mort. pers. 44, SOZOM. hist. eccl. I, 3.

(٣) LACT. mort. pers. 44.

(٤) Jones, Constantine, pp. 76-77.

(٥) Richardson, op. cit. p. 416.

(٦) Vasiliev, op. cit. I. p. 44

(٧) LACT. mort. pers. 44.

الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الامبراطور ، وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢(١) . ويشبه يوسـاب ما حدث هنا بما كان من امر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليم لأنهم — كماكسنتيوس من بعد — عصوا أمر الرب(٢) .

وفى اليوم التالى لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالى الذين عمد هو منذ البداية الى التودد اليهم ، وفرض بعض العقوبات على اتباع ماكسنتيوس ، وفرق الحرس البريتورى(٣) وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينـة من قوتهـا ، وخلع السـناتو الرومانى على قسـطنطين لقب Maximus (٤) ، بينما استخرجت جثة ماكسـنتيوس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بها روما حتى يشهدها العامة ، ثم ارسل بها الى افريقيا لتقر بتغيير سيدها(٥) .

بهذا غدت روما وايطاليا وافريقيا واسبانيا فى قبضـة قسطنطين ، بالاضافة الى غالة وبريطانيا ، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع ، ولكن طموح قسطنطين كان اكبر من أن يتسع له هذا الجزء ، فقنع مؤقتا بما جادت به الأيام وانتظر ما تجىء به ، ولم يكن فى انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث ، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للامبراطورية كلها سيدا .

لم يمكث قسطنطين فى روما طويلا ، فبعد أن تأكد لديه أن الأمور قد استقرت غادرها الى ميـلانو حيث وافاه هناك ليكين ليتسـلم زوجته

---

(١) Jones, Constantine, p. 77.
(٢) EVSEB. vita Const. I, 38.
(٣) Richardson, op. cit. p. 416.
(٤) LACT. mort. pers. 44.
(٥) Jones, Constantine, pp. 77-78.

قسطنديا(١) . وشهدت المدينة الى جوار الاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هـذا البعض من رعايا الامبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواما طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد ، ووضع حد لهـذه المشكلة الدامية التى أرهقت السياسة الداخلية للامبراطورية دون ان تفلح هذه فى ايجاد حل لها ، فاتفق الطرفان على اطلاق حرية العقيـدة لجميع الرعايا الخاضعين لسـلطانهم شريطة الا يتعارض ذلك مع الصالح العام للامبراطورية(٢) وهو الاتفاق الذى شاع عند المؤرخين باسم « مرسوم ميلانو » فى عام ٣١٣ .

هذا على حين كان ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ينهج نهجا مخالفا ، فقد كان من أكبر أنصـار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس بل انه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه(٣) . فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١ ، لم يكن ماكسيمين راغبا فى اتباعه ، ولذلك فانه بدلا من ارسال نص المرسوم الى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين ، لانه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده(٤) . غير ان سابينوس **Sabinus** محافظه البريتورى ، وجـه رسائل خاصـة الى كل حكام الولايات التابعة لماكسيمين جاء فيها :

> « سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة النقية السليمة ، وحتى يقدم أولئك الذين يحيون بصـورة لا تتفق مع الرومان العبادة الواجبة للارباب الخالدين ، ولكن عنـاد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهبا الى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد انملة عن مقصدهم رغم ما أعطى اليهم من اوامر ،

---

(١) LACT. mort. pers. 45.

(٢) EVSEB. hist. eccl. X, 5; LACT. mort. pers. 48.

(٣) LACT. mort. pers. 37, 38; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.

(٤) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.

ولا خارت نفوسهم رغم ما توعدهم من قصاص . ونظرا لأن الكثيرين — بمثل هذا السلوك — قد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فان أصحاب الجلالة الأباطرة بسبب ما جلبت عليه نفوسهم من نبالة وتقى ، وجدوا انه مما يتنافى مع مقصد جلالتهم ان يعرضوا — نتيجة لذلك — اناسا للخطر ، فأمروا خادمهم الأمين — اعنى شخصى لكى اكتب الى فطنتك بأنه لا يجب ازعاج أى مسـيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر ، لذلك احرص على ان تكتب لأولى الأمر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا اياهم بهذا الأمر[١] » .

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر الى من تعنيهم ، وسعوا بأسرع ما يمكن لاتمام ما حسبوه رغبة الامبراطور الحقة ، فأطلقوا سراح أولئك المسجونين ، واعادوا من النفى من كانوا قد بعثوا بهم الى المناجم لأنهم ، على حـد قول يوساب ، ظنوا خطأ ان هـذه هى رغبة الامبراطور[٢] .

على ان ماكسيمين لم يسمح بذلك اكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهاد المسيحيين ، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى انطاكية يوافق الامبراطور ميوله فصب جام غضبه على المسيحيين ، وأقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر ، واوعز الى الامبراطور أن الآلهة أمرت بطرد المسيحيين — كأعداء له — خارج حدود المدينة وما جاورها من اقاليم . وقد ادى نجاحه فى ذلك الى اغراء كل مواطنى المدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حذوه ما دام ذلك يرضى الامبراطور[٣] ، ومن ثم انهالت على ماكسيمين رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب اليه منع المسيحيين من البقـاء أو الاقامة داخل أسوار هـذه المدن[٤] . وقد عين

---

(١) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.

(٢) Id.

(٣) Ibid, IX, 2-4.

(٤) LACT. mort. pers. 36.

ماكسيمين فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين من بناء كنائسهم أو ممارسة طقوسهم وشعائرهم ، وامرهم بأن يجبروا المسيحيين على التضحية للالهة ، فاذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم(١) . وقد حفظ يوساب صورة من هـذا الأمر وجدت فى مدينـة صـور جاء فيه : « اما اذا اصروا — المسيحيون — على ضلالتهم اللعينة ، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما اردت لكى تستطيع مدينتك — اذ تتحرر من كل دنس وكفر — ممارسة الشعائر المقدسة للالهة الخالدة(٢) .

غير انه قبل نهاية عام ٣١٢ عاد ماكسيمين من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد ، فبعث برسالة الى سابينوس ، حاول فيها ان يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وان يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الاجراءات ، وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وماكسيميان فى اعادة أولئك الذين هجروا عبادة الالهة واعتنقوا المسيحية الى سابق عهدهم عن طريق التأديب العلنى والقصاص ، ويذكر أنه سعى الى تخفيف حدة هذه الاجراءات بعد ما رأى من امكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأدية الخدمات العامة ، فأمر القضاة الا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة . غير أنه عنـدما اتى الى نيقوميديا بعـد وفاة جاليريوس ، تقدم اليه بعض اهلها يلتمسون منه ان لا يسمح للمسيحيين بالاقامة بين ظهرانيهم ، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى ، فلم يربدا من اجابتهم لمـا يريدون ، ولكنه كان يرى ، كما يذكر ، أن الاقناع هو خير وسيلة لاعادة هذا القبيل من الناس الى قدس الأرباب ثانية ، ومن ثم فانه يجب ان لا يضار احد بسبب عقيدته ، بل تترك الحرية الدينية للجميع ، وان كان من المفضل استمالة المواطنين بالنصح والترغيب ، لا العنف والترهيب ، الى عبادة الالهة(٣) .

ويذكر يوساب ان ماكسيمين قد كتب هـذه الرسالة بعد اجتماع

---

(١) LACT. mort. pers. 36.

(٢) EVSEB. hist. eccl. IX, 7.

(٣) Ibid. IX. 9.

الامبراطورين قسطنطين وليكين فى ميلانو ، واتباعهما سياسة المسامحة مع المسيحيين ، وان خوفه منهما كان دافعه الرئيسي لسلوك هذا السبيل(١). غير أن هـذا القول لا يمكن التسـليم به بداهة ، فمن المعلوم لدينا ان ماكسنتيوس قد هزم فى نهاية اكتوبر ٣١٢ ، وأن قسطنطين قد مكث فى روما بعضا من الوقت نظم فيه شئون اقاليمه الجديدة ، ثم ارتحل فى مارس ٣١٣ الى ميلانو حيث قابل ليكين(٢) ، وحيث اتفقا على سياستهما ازاء المسيحيين . ولمـا كان قد جاء فى رسالة ماكسيمين هذه الى سابينوس عبارة تقول : « غير أنى لمـا ذهبت فيما بعد الى نيقوميديا السنة الماضية »، ولمـا كنا نعلم من لاكتانتيوس(٣) أن ماكسيمين اتى نيقوميديا عقب وفـاة جاليريوس مباشرة ، ولما كانت هذه الوفاة قد حدثت فى مايو سنة ٣١١ ، كانت عبارة « السنة الماضية » التى جاءت فى رسالة ماكسيمين تعنى أنه الان فى سنة ٣١٢ ، اى قبل اجتماع ميلانو بأشهر قلائل على وجه الترجيح ، ومن ثم يحتمل كتابتها قبل نهاية عام ٣١٢ ، اذ أن ماكسيمين أصدر بعد هزيمته امام ليكين فى هرقليا عام ٣١٣ ، وفراره الى نيقوميديا مرسوما فى صالح المسيحيين جاء فيه : « أرسلت رسائل فى العام الماضى الى حاكم كل مقاطعة تأمره فيها بالسماح لكل فرد بتأدية شعائره الدينية ايا كان نوعها وبلا عائق » وهذه اشارة صريحة الى رسالته لسابينوس .

وعلى هذا الأساس يمسى دافع الخوف الذى يسوقه يوسبب محركا للامبراطور على انتهاج هذا السبيل ، لغوا . فما الذى أجبر ماكسيمين على ان يغير من سياسته ؟

يذكر البعض(٤) أن ماكسيمين شعر بتأنيب الضمير نتيجة سياسة الاضطهاد التى انتهجهـا حيال المسيحيين ، وتحول هـذا الشعور الى احساس بالخوف من ذلك الاله الذى اياه يعبد المسيحيون ، بعد أن هزم على يد ملك ارمينيا المسيحى سنة ٣١٢ ، وبعد ان تعرضت اقاليمه لمجاعة طاحنة وطاعون فتاك ، ومن ثم اقدم على هذا الاجراء . على حين يرى

(١) EVSEB. hist. eccl. IX, 9.

(٢) Gibbon,, op. cit. I, p. 459.

(٣) LACT. mort. pers. 36.

(٤) Jones, Constantine, pp. 87 - 88.

آخر ان الظروف السياسية التى احاطت بماكسيمين هى التى دفعته الى ذلك(١) . ونميل الى الأخذ بهذا الرأى ، ذلك ان ماكسيمين أدرك حرج موقفه بعد الهزيمة السريعة الفادحة التى لحقت بحليفه ماكسنتيوس وأدرك ان انتصار قسطنطين تدعيم لمركز رفيقه ليكين ، ومن ثم استشعر الخطر من هذه الأحداث ، وادرك أن الحرب بينه وبين خصمه ليكين أضحت وشيكة الوقوع ، ولما كان غالب رعاياه فى الولايات الشرقية التى يسيطر عليها من المسيحيين المضطهدين ، فقد أراد التقرب اليهم علهم يكونون عونا له فى هذا الصراع ، او حتى على أقل تقدير ليضمن عدم ممالأتهم لعدوه وثورتهم اثناء انشغاله فى هذه الحرب مما يهدد كيانه بخطر جسيم . خاصة وانه كان يتوقع تفوق قوات عدوه عليه اذا ما انضمت جيوش قسطنطين الى ليكين .

كانت الحرب بين ماكسيمين وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وان هذا الأخير لم يكن قد أشرك فى أى جزء من الأقاليم التى غنمهـا مؤخرا قسطنطين ، بل ترك ليمد نفوذه هو الاخر على حساب جاره ماكسيمين(٢) ، ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه ، فقد كان لا يقتنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها(٣) . وكادت الحرب ان تنشب بينه وبين ليكين عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ الى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة .

كانت خطة ماكسيمين تقوم على أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة ، مما يجعل ليكين يدفع بقواته لمناصرة حليفه ، وبهذا تسنح الفرصة لماكسيمين ليهاجم اقاليم جاره أثناء خلوها من القوات(٤) . ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى غير ما كان يهوى فؤاده ، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة أخذت من اليوم بعضه انقشع غبارها عن ابتلاع التيبر لماكسنتيوس وجنوده ، وما هو الا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين ، فهلل لها أهلوها ورفعه السناتو مكانا

---

(١) McGiffert, op. cit. n. 18 p. 364.

(٢) Boak, op. cit. p. 431.

(٣) Jones, Later Roman Empire, I, 79.

(٤) Jones, Constantine, p. 84.

عليا ، ثم لم تكن الا اشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميلانو يرسمان للمستقبل سياستهما ، ويدشنان تآلفهما بحفل زواج ليكين وقسطنديا ، ودخل فى روع ماكسيمين أن فى خطتهما للمستقبل نهايته ، وأن فى انشغالهما بهذا العرس فرصته . ومن ثم صمم على ان يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع الى الأبد .

ويصحبنا لاكتانتيوس(١) فى ركاب جيش ماكسيمان مذ تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة ، واستطاع بصعوبة بالغة الوصول الى بيثينيا بعد أن أنهكت قواه وفقد منه عدد كبير ، حيث كانت أشلاؤه مبعثرة على طول الطريق ، وكان ذلك — على حد قوله — اشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة ، ورغم ذلك لم يتوقف ماكسيمين ، بل واصل زحفه عابرا البسفور الى تراقيا ، واقترب فى سلوك عدائى من أبواب بيزنطة التى كان ليكين قد ترك بها حامية لتصد أى هجوم قد يفكر فيه ماكسيمين . وقد حاول هذا استمالة الحامية اول الأمر عن طريق الاغراء بالمنح والعطايا ، ولكن هذه الخطة لم تفلح ، فاستبدلها بالعنف ، وفرض على المدينة حصاره الذى استمر أحد عشر يوما ، سلمت المدينة على أثرها حيث لم تقو على مجابهة الحصار . ولم يضع ماكسيمين وقتا ، فسار مباشرة الى هرقليا واخضعها لسلطانه ، ولكنه لم يبتعد عنها بأكثر من ثمانية عشر ميلا حتى وافته الأنباء بأن ليكين قد خرج اليه من أدريانوبل Adrianopolis وكان قد جاءها على عجل من ميلانو بعد ان سمع بأنباء هجوم ماكسيمين . وقد راح ليكين يلتقط ما تصل اليه يداه من الجنود من هنا وهناك ، وتقدم نحو عدوه ليمنعه من التقدم « دون أن يكون له فى الحرب رغبة او فى النصر أمل » كما يقول لاكتانتيوس(٢) ، معللا ذلك بأن ماكسيمين كان يمتلك جيشا يربو على سبعين الف مقاتل ، بينما لم يكن لدى ليكين سوى ثلاثين الف رجل ، ولم يستطع قسطنطين ان يمد لحليفه يد العون حيث استدعى من ميلانو فى نفس اللحظة ليرد عدوانا على الراين شنته قبائل الفرنجة(٣) .

---

(١) LACT. mort. pers. 45.

(٢) Id.

(٣) Gibbon, op. cit. I. p. 459.

التقى الجيشان قرب هرقليا Heraclia واصبحت المعركة وشيكة الوقوع ، ويقول لاكتانتيوس(١) أن ماكسيمين قد نذر لان اظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحيين ، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرناه عن الخطة التى اتبعها ماكسيمين للتودد الى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى اصدره فى شتاء ٣١٢/٣١٣ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد ، ولم يكن ماكسيمين من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعور جزء كبير من رعيته وهو على أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه ، أضف الى ذلك ايضا أن ما أقدم عليه ماكسيمين بعد هزيمته أمام ليكين ازاء المسيحيين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار .

واذ جعل لاكتانتيوس اعتماد ماكسيمين على جوبتر ، فلابد أن يعتمد ليكين على قوة الهية مضادة ، ولما كان قد اتفق وقسطنطين فى ميلانو على منح المسيحيين حرية العقيدة ، فقد أخبرنا كاتبنا أنه قد ظهر له أثناء نومه ملاك الرب واستحثه على النهوض مسرعا وترتيل صلوات معينة للاله الأعلى ، ووعده بأن النصر فى جانبه اذا ما نفذ ذلك ، وهب ليكين من غفوته وأيقظ مستشاره الذى كان بجواره وعلمه كيف يصلى ، ثم استدعى اليه أحد خاصته وأملى عليه تلك الصلوات وامره أن يعطيها قواد جيشه ليرددوها والجند من ورائهم ، فتعالت صيحاتهم مرددة :

« أيها الاله العلى .. اليك نضرع .. أيها الرب المقدس
اياك ندعو .. فيك نرى كل عدالة ، ومنك نستمد كل امن ،
واليك نكل امر امبراطوريتنا . بك نحيا ، وبقدرتك ننتصر ،
اللهم ياذا القداسة والمهابة .. تقبل دعاءنا ، اليك نبسط
أكفنا ، فاستمع لنا ياذا العظمة والجلال(٢) » .

ويبدو أن حماس لاكتانتيوس للمسيحية ، وشديد بغضه لماكسيمين لما أوقعه بالمسيحيين فى أقاليمه من اضطهاد ، قد أنساه ذكر قوله فى أول

---

(١) LACT. mort. pers. 47.
(٢) Id.

الأمر من انه لم يكن لدى ليكين أى رغبة فى الحرب أو أمل فى النصر ، فهو يخبر الان(١) ان ليكين اراد ان لا تحدث المعركة الا فى اول مايو ، وهو اليوم الذى يوافق تمام السنة الثامنة من حكم ماكسيمين ، حتى يحطمه فى يوم عيد جلوسه على العرش ، كما فعل قسطنطين مع ماكسنتيوس من قبل ، غير أن لاكتانتيوس لا يجد رهقا فى تقديم تعليل لذلك ، فقد امتلأ ليكين وجنده حماسة بهــذه الأدعية التى جاءته فى نومه وحيا ، هــذا على حين كان ماكسيمين يتوق الى أن تنشب المعركة فى اليوم الأخير من ابريل حتى يحارب فى اليوم السابق على توليه السلطة ، فان كان النصر حليفه جعل غداته أســعد أيامه .

وفى ٣٠ ابريل ٣١٣ التقى الجمعان ، فتحقق لماكسيمين بذلك بعض ما كان يبغى ، غير أن أمله فى النصر لم يأته أبدا ، ففى معركة خاطفة هزم ماكسيمين هزيمة ساحقة ، ولم تختلف معركة هرقليا عن موقعة الصخور الحمراء من حيث نتائجها الا فى شىء واحد هو فرار ماكسيمين على حين غرق ماكسنتيوس .

ومع ما قاله لاكتانتيوس عن انتصار ليكين ودواعيه ، فقد كان طبيعيا أن يلقى ماكسيمين الهزيمة ، وقد أخبرنا الكاتب نفسه ان جيش هذا قد فقد عددا ليس باليسير من افراده ، وان أشلاءهم تبعثرت من خلفهم ، وأن قوى هذا الجيش قد أنهكت طيلة هذه الرحلة خلال الشتاء القارص ، ثم يعلق بقوله « وكان ذلك اشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة » .

ولنا ان نتصور تلك الفترة الوجيزة التى استغرقتها هذه الرحلة من سوريا الى تراقيا ، فاذا علمنا أن التقاء الحليفين ليكين وقسطنطين تم فى ميلانو فى مارس ٣١٣ ، وان موقعة هرقليا كانت فى ٣٠ ابريل من نفس العام ، ادركنا مدى السرعة التى كان جيش ماكسيمين يسير بها ليقطع هذه المسافة الطويلة عبر شمال سوريا فآسيا الصغرى فالبسفور الى تراقيا ، أضف الى ذلك مقاومة بيزنطة وهرقليا ، فاذا أضفنا الى هذا كله عدم ملاءمة الأحوال الجوية عندئذ ، تأكد لدينا صعوبة الظروف التى تهيأ

---

(١) LACT. mort. pers. 47.

فيها جيش ماكسيمين للقتال ، ويؤكد هذا ما يذكره لاكتانتيوس نفسه فى قوله : « .. ولما تأكد لدى دازا (ماكسيمين) أن الامبراطورين مشغولان فى حفل الزواج ، تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة »(١) . ومن ثم كان لنا أن ندرك الاعياء والحالة المعنوية السيئة التى كان عليها جيش ماكسيمين ، ولم يكن التفوق العددى ليغنه شيئا عن خسارته الجسمانية والنفسية .

استطاع ماكسيمين ان يفر بنفسه من هذه المعركة ، وتبعه عدد من جنده ، ويعلق البيانى الأفريقى على ذلك بقوله : « لم يصبح من العار أن يهرب من اراد النجاة »(٢) اذ أن الامبراطور نفسه قد ضرب لهم المثل . وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول من مايو كان ماكسيمين قد وصل الى نيقوميديا على الرغم من أن المسافة بينها وبين ارض المعركة كانت تزيد على مائة وستين ميلا(٣) ، ويعلق جيبون على ذلك ساخرا : « ان السرعة المذهلة التى استخدمها ماكسيمين فى هروبه لجديرة بالتمجيد أكثر من جراته فى المعركة »(٤) .

حالما وصل ماكسيمين الى نيقوميديا اراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم الى جواره فى معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكين ، فأصدر مرسوما فى صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه ، وانه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبوا عديدا من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التى كان قد أصدرها دقلديانوس وماكسيميان لتحريم اجتماعات المسيحيين ، ونلاحظ انه يلقى بالتبعية كاملة هنا وفى رسالته السابقة الذكر الى سابينوس على هذين الامبراطورين ، ويستطرد فى مرسومه موضحا أنه نتيجة ذلك عمل على تخليص هؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين ، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته الى سابينوس وما جاء فيها من حرية العبادة

---

(١) LACT. mort. pers. 45.

(٢) Ibid. 47.

(٣) Id.

(٤) Gibbon, op. cit. I, p. 460.

للمسيحيين ، ولكن قضاته وموظفيه — على حد قوله — حرفوا هذه الأوامر ، لذلك رأى أن يذيع أمرا امبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه ، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبادة ، كما أمر برد الكنائس المصادرة الى ملكيتها المسيحية(١) . غير أن ذلك كله لم يجده نفعا ، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته فى هرقليا ، واضحت جهوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لا جدوى وراءها .

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمين وبصحبته اهله ، وفى معيته بلاطه ميمما شطر سوريا ، ولكنه توقف فى كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الامبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره(٢) . فكان ذلك ايذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكين ، وكان هذا قد وصل الى نيقوميديا ، وبعث فى ١٣ يونيو ٣١٣ رسالة الى حاكم بيثينيا(٣) ، وهى الرسالة التى ذاعت فى التاريخ خطأ باسم بمرسوم ميلانو .

تقهقر ماكسيمين حتى وصل الى طرسوس Tarsus وتحصن بها ، ولكن عاجلته المنية(٤) ، فوضع موته المفاجىء فى هذه اللحظة ليكين سيدا على الولايات الشرقية(٥) . وهكذا اصبح فى الحكم امبراطوران ، ليكين فى الشرق ، وفى الغرب قسطنطين . وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخل الامبراطورية قد بقيت لم تطو بعد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين . ويقول جيبون فى هذا الصدد ، لقد كان المتوقع ان يكون الاعياء الذى حل بالامبراطورين الظافرين نتيجة الحروب الأهلية ، والارتباط الذى كان قائما بينهما ، مدعاة لأن يطلقا أو على الأقل يكبحا جماح نزوات الطموح ، غير انه لم يكد ينقضى عام على وفاة ماكسيمين حتى شهر الحليفان سلاحهما كل فى وجه صاحبه(٦) ، ذلك أن وضع الامبراطورين كان يحتم على كل منهما النزاع من أجل تفوق أحدهما على الاخر واستئثاره بالسلطة(٧) .

---

(١) EVSEB. hist. eccl. IX, 10.

(٢) LACT. mort. pers. 47.

(٣) Ibid. 48.

(٤) Ibid. 49.

(٥) Cary, op. cit. p. 735.

(٦) Gibbon, op. cit. I, p. 463.

(٧) McGiffert, op. cit. n. 1 p. 384.

ربما كان ليكين راغبا عن الدخول فى حرب ضد حليفه ، قانعا باقليمه ذلك المتسع الذى يمتد من حدود ارمينيا شرقا حتى بحر ادريا غربا ، يدلنا على ذلك استقراء تاريخه العسكرى مذ عينه جاليريوس اوغسطسا عام ٣٠٧ حتى سنة ٣١٣ عندما شبت الحرب بينه وبين ماكسيمين . فعلى الرغم من انه سيطر على اقليم بانونيا الى أن يتم استعادة المنطقة التى اغتصبها ماكسنتيوس ، الا انه لم يحرك ساكنا فى سبيل الزام خصمه على التخلى عنها ، وتركه يثبت أقدامه ويقوى نفوذه فى ايطاليا وأسبانيا وأفريقيا وقبع هو فى بانونيا ، ولما مات جاليريوس وأصبح وماكسيمين لا يفصل بينهما الا البسفور ، آثر السلام مكتفيا بما وصلت اليه سلطته الان . ولم يحاول مطلقا مناقشة قسطنطين الراى حول استيلاء الأخير على ايطاليا واسبانيا وافريقيا بعد هزيمة ماكسنتيوس ، والمطالبة ولو بجزء من هذه الأراضى الشاسعة التى كانت تعد قانونا من أملاك ليكين نفسه حسب القرار الذى اتخذه دقلديانوس وماكسيميان وجاليريوس فى مؤتمر عام ٣٠٧ ، ولم يكن ليكين هو الذى اشعل الحرب مع ماكسيمين ، بل كان « غير راغب فى الحرب ، بلا أمل فى النصر » . ولكن الأقدار ساقت له جيشا متهالكا ، واهدت اليه غنم معركة خاطفة ، وزينت جبينه بأقاليم الشرق ، وازاحت بيدها — لا بيده — ماكسيمين من طريقه ، فغدا بلا كبير عناء سيدا على أعظم مناطق الامبراطورية خصبا وثراء . ذلك شىء يجعل الشك حول رغبة ليكين اذكاء نيران حرب جديدة أمرا واقعا .

ولكن ليكين كان يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين ، فقد كان يدرك تماما مبلغ طموح هذا الرجل مذ عرفه قيصرا ، فامبراطورا شريكا ، فحليفا ، وكان فى سياسة قسطنطين قبل ماكسيميان وولده دليل واضح على نياته ، مما زاد الشكوك فى صدر ليكين ، وذهبت به الظنون كل مذهب ، وقويت هذه لديه بما أتت به الأحداث ، فأقدم على ارتكاب عدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها . فأضحى على اثرها سيد الامبراطورية .

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه واحقاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال حليف الأمس ، فقد كانت قوته ترتكز اساسا على

جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا واقلها سكانا(١) فى الوقت الذى كان فيه ليكين يحوز اقليم الليريا الذى طالما قدم للجيش الرومانى أقوى الرجال(٢) ، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية ، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الاقليم من أهمية بالنسبة لمشروعاته القادمة ، ومن ثم عول على ان تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب .

ولما كان قسطنطين قد استدعى الى غالة عقب اجتماع ميلانو لردع تحركات الفرنجة هناك فانه فكر فى اقامة مناطق حاجزة بينه وبين ليكين(٣) على غرار نظام القياصرة الذى كان دقلديانوس قد ابتدعه(٤) . فأراد تعيين باسيانوس Bassianus زوج أخته اناستاسيا Anastasia قيصرا ، وطلب الى ليكين الموافقة على ذلك . وقد أدى هذا الاقتراح الى حدوث نزاع بين الامبراطورين(٥) . ويقول جيبون أن ليكين قد وافق فى النهاية على هذا الاقتراح محاولا استغلال الظروف لصالحه بالدخول مع هذا القيصر فى تحالف ضد قسطنطين(٦) ، وقد بنى جيبون والمؤرخون المحدثون رايهم هذا ، وما ترتب عليه من اعتبار ليكين المسئول عن اندلاع الحرب الأولى بينه وبين قسطنطين ، على ما ذكره يوساب(٧) من وجود مؤامرة تستهدف القضاء على قسطنطين دبرها سنكيو Senecio الذى كان فى خدمة ليكين بالاشتراك مع أخيه باسيانوس زوج اخت قسطنطين ، غير أن هذا الأخير استطاع ان يقضى على المؤامرة فى مهدها ، وأن يقدم للاعدام صهره ، ثم طلب من ليكين أن يسلمه سنكيو ، فلما رفض وجد قسطنطين فى ذلك ذريعة لشن الحرب .

واذا جاز أن نعتبر هذه المؤامرة — ان صحت رواية يوساب — سبب

---

(١) Cantor, op. cit. p. 44.
(٢) C.M.H. I, p. 6.
(٣) Gibbon, op. cit. I, p. 463.
(٤) Boak, op. cit. p. 431.
(٥) Jones, Constantine, p. 126.
(٦) Gibbon, op. cit. I, p. 464.
(٧) EVSEB. vita Const. I, 50.

الحرب الأولى ، الا أنها لم تكن كل السبب ، فقد ذكرنا ما كان يعتمل فى نفس قسطنطين من حقد دفين سببه سيادة زميله على مناطق اكثر غنى ورخاء من تلك التى فى قبضته ، وستدعم الأحداث بعد قليل ما نذهب اليه .
هذا بالاضافة الى ما نعرفه عن أخلاق ليكين وعدم حبه للمغامرة .

أوقع قسطنطين بالفرنجة على الراين هزيمة ساحقة ، ومكث فى ترير Trier (تريف) Augusta Treverorum حتى نهاية صيف عام ٣١٤ حيث تحرك بقوة يبلغ تعدادها عشرين ألف مقاتل لغزو أقاليم ليكين الذى كان فى حوزته ٣٥٫٠٠٠ جندى ، ورغم هذا التفوق العددى الا أن الهزيمة لحقت به فى Cibalae بين الساف والدراف(١) ، فى الثامن من أكتوبر ، فارتد الى سرميوم Sirmium التى تبعد عنها بخمسين ميلا ومنها الى داشيا ، فتبعه قسطنطين محتلا سرميوم(٢) ولحق به فى وادى ماردیا Mardia فى تراقيا حيث دارت رحى معركة أخرى لم تكن اقل من سابقتها عنفا وضراوة ، أيقن ليكين بعد هزيمته فيها أن لا أمل له فى النصر ، فأرسل من قبله مندوبين للتفاوض مع قسطنطين(٣) ، وفى ديسمبر ٣١٤ عقدت بين الخصمين معاهدة تنازل ليكين بمقتضاها لقسطنطين عن كل أقاليمه فى أوروبا عدا تراقيا ، واحتفظ لنفسه بهذه وما وراء البسفور(٤) ، وبهذه المساحة الضخمة المليئة بالمال والرجال والتى فقدها ليكين ألقى الحظ بثقله فى كفة قسطنطين(٥) .

وهكذا تحقق لسيد الغرب ما أراد فى السيطرة على اقليم كان فى مسيس الحاجة اليه ليدعم به قواته ونفوذه ، ولقد أخذ يزداد بوضوح أن قسطنطين ما كان ليقنع أبدا بذلك الجزء الكبير من الامبراطورية ، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يتعجل الأمور ويستحث خطاها ، فقد اكتفى مؤقتا بهذا النصر الساحق وتلك المكاسب الضخمة التى حققها مؤجلا ضربته الأخيرة ليوم تصبح فيه قاضـــية .

---

(١) F. Jackson, The history of the Christian Church, p. 295.
(٢) Jones, Constantine, p. 127.
(٣) Gibbon, op. cit. I. pp. 465-466.
(٤) Id.
(٥) Cary, op. cit. p. 733.

وقد أعطى ليكين بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله ، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو ، وحظى المسيحيون ورجال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة ، لم يحاول ليكين ان يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية . ومع أنه حتى عام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين ، الا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحدة نحو كسب صداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعل قسطنطين(١) . ونتيجة هذا كان مسيحيو الشرق ينظرون بعين الحسد والغيرة الى زملائهم مسيحيى الغرب لما يتقلبون فيه من نعم اغدقتها حكومة قسطنطين ، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليكين المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب ، فى نفس الوقت الذى راوا فيه فى قسطنطين « محبوب الرب » ، فتعاطفت معه قلوبهم ، فوجد انعدام الثقة بذلك بابا نفذ منه بين ليكين وشعبه ، فاعتبروه مضطهدا جديدا ، وعدهم هو صنائع قسطنطين(٢) .

ويقدم يوساب صورة لموقف ليكين قبل المسيحيين . فبعد أن اتهم ممثلى الرب — الأساقفة — بالاتصال بقسطنطين حرم عليهم عقد الاجتماعات ، ومنعهم من الانتقال أو زيارة الأسقفيات المجاورة(٣) ، ثم صادر كثيرا من الأملاك الخاصة بالكنائس والافراد وضمها الى أملاكه(٤) ، ونهى المسيحيين عن عقد اجتماعاتهم داخل اسوار المدن ، والا يجتمع الرجال والنساء فى الكنائس فى وقت واحد(٥) ، واصدر اوامره بطرد الجنود والموظفين اذا ما رفضوا أن يقربوا للأرباب ، وسجن باقى المسيحيين الذين يأبون اطاعة هذه الأوامر وحرمانهم من الطعام فى السجن حتى يدركهم الموت جوعا(٦) ، وبلغ اضطهاد المسيحيين درجة كبيرة فى آماسيا

---

(١) McGiffert, op. cit. n. 5 p. 384.

(٢) EVSEB. hist. eccl. X, 8.

(٣) EVSEB. vita Const. 1,51.

(٤) Ibid. 52.

(٥) Ibid. 53.

(٦) Ibid. 54; hist. eccl. X, 8.

Amasia فى بنطس Pontus حيث سويت بالأرض عديد من الكنائس(١) .

ولكن على الرغم من كل ذلك فان اضطهاد ليكين لم يأخذ صورة العنف التى شهدتها الاضطهادات السابقة ، ومن الأدلة على ذلك أن يوساب أسقف نيقوميديا وكثيرين غيره من رجال الاكليروس ظلوا كأصدقاء له وظلت معاملته لهم حسنة كما كانت(٢) . ويضاف الى هذا أن ليكين لم يصدر مرسوما عاما ينص على اضطهاد المسيحيين ، وانما كل ما حدث هو بعض من النفى والسجن والمصادرات ، ويبدو أن قلة قليلة من الأساقفة تعرضت للموت ، ولكن ليس هناك ما يدعو الى القول بأنهم تعرضوا لذلك نتيجة لأوامر ليكين نفسه(٣) ، فمن المرجح أن يكون ذلك راجعا الى تعصب بعض الموظفين الوثنيين الذين انتهزوا فرصة الشعور العدائى ضد المسيحيين ، بحجة انهم على اتصال بقسطنطين ، لانتهاك حرمة القوانين الموجودة ، ولوضع بعض الأساقفة المكروهين لديهم تحت طائلة العقاب بحجة أو بأخرى كما يخبرنا بذلك يوساب نفسه(٤) ، الا أن هذه الحوادث كانت نادرة ولم يؤثر انه حدثت مذابح جماعية للمسيحيين(٥) .

وعلى هذا النحو لم يكن غريبا أن يذكر يوساب أن قسطنطين تقدم بجيوشه لينقذ هذا الجزء من رعية المسيح من سطوة هذا الطاغوت مثلما فعل من قبل مع أهل روما ضد ماكسنتيوس(٦) .

لقد كانت السياسة التى اقدم عليها ليكين خطوة غاية فى الحماقة يمكن أن يقدم عليها انسان فى مثل تلك الظروف الحرجة ، فقد كان فى وقت يحتاج فيه لولاء وعطف كل رعاياه ، ولكنه بطيشه استغنى عن جزء كبير وهام منهم واعطاهم بهذا العمل سببا لا غبار عليه ليصبحوا من اشد

---

(١) EVSEB. vita Const. II, 1; hist. eccl. X, 8.
(٢) McGiffert, op. cit., n. 5, pp. 384-385.
(٣) Id.
(٤) EVSEB. hist. eccl. X, 8; vita Const. II, 2.
(٥) McGiffert, op. cit., n. 5, pp. 384-385.
(٦) EVSEB. vita Const. II, 3; hist. eccl. X, 9.

المتحمسين لخصمه(١) ، وقد عرف هذا الخصم كيف يستفيد تماما من هذا الخطـأ .

ولقد ساهم قسطنطين بنفسه فى اثارة الشكوك لدى ليكين ومخاوفه من جموع المسيحيين فى اقاليمه ، فقد قضى قسطنطين الستة شهور الأولى من عام ٣١٥ يتفقد اقاليمه الجديدة فى البلقان ، ثم زار روما فى عجالة ومنها الى غالة ، وفى خريف سنة ٣١٦ تحرك ثانية الى البلقان ولم يغادرها بعد ذلك الا مرة واحدة زار فيها ميلانو ، وهكذا مكث فى البلقان طيلة ثمان سنوات ، ولا شك أن قربه من اقاليم خصمه ، وسياسته التى جرى عليها فى معاملة المسيحيين فى أقليمه ، كان لها أكبر الأثر فى شعور مسيحيى الشرق ونفس ليكين .

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الامبراطورية منفردا ، ولما آنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١ ، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكين ، فأعلن ولديه كريسبوس **Crispus** وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكين(٢) . وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماتيين **Sarmatians** (٣) ، وقام بهجوم ضخم على القوط سنة ٣٢٣ ، واقتضاه تتبع القوط اجتياز اقليم تراقيا الخاضع لليكين ، فلم يستطع هذا أن يكظم غيظه اكثر من ذلك ، فاحتج لدى قسطنطين على انتهاك حرمة اراضيه ، ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التى كان يبحث عنها منذ أمد طويل ، فرفض أن يقدم ترضية ما لزميله(٤) ، فأعطى ذلك اشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة .

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب ، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكين ، او على الأقل تخليهم عن نصرته ، وبالطبع

---

(١) **McGiffert, op. cit., n. 5, pp. 384-385.**

(٢) **Jones, Constantine, p. 129.**

(٣) **Hefele, Histoire des Conciles, I, 1, p. 361.**

(٤) **Boak, op. cit., p. 432.**

كانت هذه فى حد ذاتها — أعنى رغبته فى نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت اضطهاد ليكين — هى الحجة التى تذرع بها ووجدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب ، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين فى الشرق وتعاطفهم معه ، ومن هذا السياق يتضح ان قسطنطين كان هو البادىء بالعدوان فعلا فى هذه الحرب ، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان ، ومن ثم فما يقدمه يوساب فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد حجة واهية اذا قيست بالدوافع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الامبراطورية .

كان ليكين يتفوق على عدوه هذه المرة أيضا ، ولكن هذا التفوق لم يجده نفعا ، فقد كان لديه ١٥٠٫٠٠٠ من المشاة ، وخمسة عشر ألف فارس من أحسن فرسان فريجيا Phrygia وكبادوكيا Cappadocia ، بينما لم تزد قوات قسطنطين فى مختلف الأسلحة عن مائة وعشرين الف جندى ، ولكنهم كانوا يفوقون خصومهم بتمرسهم فى شئون الحرب بصفة مستمرة(١) .

وعند أدريانوبل (حاليا ادرنه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكين أول هزائمه فى هذا الصراع ، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على بيزنطة وتمكن من ان يحقق نصرا بحريا كبيرا على اسطول خصمه(٢) ، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس Chrysopolis حيث فقد ليكين كل شىء ، واسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه الى تسالونيكا ، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى(٣) .

وهكذا قدر لحرب أهلية طويلة ان يخمد اوارها ، وان تشهد الامبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه امبراطور فرد ، وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها

---

(١) Gibbon, op. cit. I, p. 417.

(٢) Burckhardt, op. cit., p. 281.

(٣) EVSEB. vita Const. II, 17; hist. eccl. X, 9;

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 4; SOZOM. hist. eccl. 1, 7.

يداه فى الغرب الاوروبى ، وحق لمادحه يوساب(١) أن يتغنى بذلك قائلا : « وهكذا استطاع قسطنطين البطل الظافر الذى يرفل فى ثياب الفضيلة والتقى ، وابنه كريسبوس الأمير محبوب الرب ، الذى فى كل شىء يماثل أباه ، استطاعا أن يستردا الشرق ، ويؤسسا امبراطورية رومانية واحدة موحدة مخضعين لرحيم حكمهما العالم كله من مشرق الشمس الى مغربها ».

(١) EVSEB. hist. eccl. X, 9.



الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية



لم يختلف الدارسون فى شىء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين ، ولقد صاغت المشكلة ذاتها فى سؤال ذى شقين ، هل كان وضع قسطنطين عن المسيحيين اصرهم والاغلال التى كانت عليهم نابعا عن معتقد يقينى بربهم ؟ أم كان للدوافع السياسية كبير شأن فى اتخاذه جانبهم ؟ وانجذابا الى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك ، واعتلى كل منصة حججه يدفع بأسانيد جمعها عن صـــدق رايه ، ويدحض بها قول معترضه . على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقى سؤال سبق توا ذكره ، يدعم أولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين الى حواريى المسيح الاثنى عشر رسولا جديدا ، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين المحدثين جاعلين من قسطنطين سياسيا حاذقا .

كان يوساب القيسارى أول من زاد قائمة الحواريين واحدا ، ونسج بقلمه خيوط ضوء قدسى مهيب يزين فى جلال جبين قسطنطين ، سداه احتواء كل فضيلة ، ولحمته ترفع عن اية رذيلة ، فحفظ للبشر على مر الأعصر « حياة قسطنطين » **Vita Constantini** .

ولم يكن قسطنطين فى راى يوساب ومؤرخى الكنيسة ليهتدى الى

المسيحية على لسان بشر ، اذن لغدا أحدهم ، ولكنهم جعلوا السماء داعيه في يقظته ، ويسوع المسيح مبشره فى نومه ، والصليب شارته ، وخدام الرب مشاعل جنده ، والرب يبارك منه الخطى!! كان ذلك فى خريف عام عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته الى روما « ليخرج من الظلمات الى النور » أناسا طال عليهم الأمد ، وليقضى على « طاغيه » بها تجبر ، عندما مالت شمس الظهيرة الى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسى ، واذا بهالة تضىء كبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور « بهذا ستنتصر Toutw vika » فعقدت لسانه وجيشه الدهشة »(١) ، وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى ، وذهبت به الظنون كل مذهب ، وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التى رآها بيمناه ، يأمره أن يتخذ أياها له شعارا ، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية(٢) . وسارع قسطنطين فى اليوم التالى فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة ، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة(٣) لتوضع على رأس كل جندى من جيشه(٤) ، وما لبث قسطنطين أن دعى اليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى ، فأعطوه صفته وانه الرب ، الابن الوحيد المولود من الآب الواحد ، وأن ما رآه هو علامة الخلود ، فوطن قسطنطين نفسه منذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس ، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين ، ومنى بعراض الآمال نفسه ، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس(٥) .

بهذه الصورة يسوق يوساب قصة اهتداء قسطنطين الى المسيحية ، وعلى منواله ينهج مؤرخو الكنيسة التالون وعلى رأسهم سقراط(٦) وسوزومين(٧) .

---

(١) EVSEB. vita Const. I, 28.

(٢) Ibid. I, 29.

(٣) Ibid. 30.

(٤) Ibid. 31.

(٥) Ibid. 32.

(٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 2.

(٧) SOZOM. hist. eccl. I, 3.

ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقا ؟

يذكر يوساب أن قسطنطين وحده لم يكن هو الذى رأى تلك « المعجزة » فى السماء ، بل شاركه الرؤية أفراد جيشه أجمعون ، واعترتهم كلهم الدهشة للذى يرون ، ومعنى ذلك أن تكون هذه الرؤية شيئا شائعا بين الجميع . ولكن يوساب يخبرنا أن قسطنطين نفسه هو الذى قص عليه ذلك صراحة بعد فترة طويلة وفى لحظة من لحظات راحته ، وشفع ذلك بأيمان مغلظة ، ثم يعلق على ذلك قائلا : فمن ذا الذى يتردد للحظة فى تصديق هذه الرواية ونسبتها اليه خاصة(١) . ولكن كثيرين بالفعل ترددوا فى قبولها ، ويكفينا أن نذكر منهم كاتبا مسيحيا « يوحنا موسهيم » وكتابه « تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة » الذى قال عنه القس هنرى هس « أنه من أعظم الكتب التى وضعت فى تاريخ الكنيسة يمتاز بالحيدة وعدم التعصب »(٢) . يتساءل المؤرخ : « لماذا لم يستند يوساب الا الى شهادة الامبراطور دون ذكر شهادة أحد من الألوف الذين كان ينبغى ان يكونوا قد شاهدوا ذلك ؟ ولماذا لم يقل ان الخبر شاع فى العالم واعتمد على شهادة كثيرين عوضا عن ذكره مجرد شهادة قسطنطين بالانفراد معه ؟ وان كان الله قد قصد انارة عقل قسطنطين ، هل يصدق بأن الله أراه مجرد صورة صليب بدلا من أن يوحى اليه ؟ وهل يصدق أن يسوع المسيح ملك الملوك امر ذلك الامبراطور بصنع صليب مادى جعل عليه كل اتكاله من أجل النصر ؟ وكيف يمكن أن تكون هذه القصة غير معروفة للعالم المسيحى حتى بعد حدوثها بخمس وعشرين سنة ؟ ولما عرفت كان ذلك عن حديث بين يوساب وقسطنطين . الا يكون الأرجح أن يوساب استنتج ذلك من حديث الامبراطور عن هالة براقة ظهرت حول الشمس نهارا وعن حلم مؤثر رآه فى الليلة التالية مما جعله يصنع الصليب المرصع ويستخدمه راية لجيشه(٣) ؟ .

---

(١) EVSEB. vita Const. I, 28.

(٢) راجع مقدمة الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة » بقلم القس هنرى هس .

(٣) موسهيم ، حاشية ١ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

أما جونز فيرى أن قسطنطين قد تخيل هذه الرؤية أخيرا ، ويتأكد ذلك من الطريقة التى يقدم بها يوساب القصة من ان الامبراطور لم ينشر هذه الحادثة بل أفضى له بها فى لحظة من لحظات الألفة والمودة ، ويقول أن ما يحتمل أن يكون قسطنطين قد رآه ليس سوى ظاهرة نادرة لهالة طبيعية مشابهة لقوس قزح نتجت عن سقوط — لا المطر ولكن — كرات الثلج خلال أشعة الشمس ، وهى عادة تأخذ شكل شموس مصطنعة أو حلقات من الضوء تحيط بالشمس ، وربما تكون الفترة التى تبدى فيها ذلك قصيرة ، والعرض غير مكتمل المشاهدة ، ولكنه كان بالنسبة لخيال قسطنطين المكدود المنهك ذا دلالة كبيرة ، فهى الشمس التى يقدسها ؛ وفى ساعة من ساعات احتياجه بعثت اليه الشمس بعلامة ، وكانت العلامة الصليب شعار المسيحيين ، وأيما كانت تعنى .. المسيح مظهرا للشمس التى لا تقهر ، أو أن الشمس هى رمز القوة الالهية التى اياها يعبد المسيحيون ، فقد كان واضحا أن المسيح ، سيد الصليب ، قد أصبح بالنسبة لقسطنطين بطله وحاميه(١) . اما ديفز **Davis** فيشك فى الرواية اطلاقا وان كانت تحمل فى رأيه معان هامة(٢) .

والشىء الذى يدعو للتساؤل حقا ان يوساب قد أورد لنا هذه القصة فى كتابه حياة قسطنطين على لسان الامبراطور نفسه ، ولما كان هذا الكتاب قد وضع بعد وفاة الامبراطور ، فان خمسة وعشرين عاما تفصل بين الحادثة وذكرها ، أما فى تاريخه الكنسى فلم يذكر لنا شيئا ، وكل ما يقوله عن الفترة التى سبقت الحرب بين قسطنطين وماكسنتيوس نصه : « اما قسطنطين الذى كان متقدما فى المقام والمركز الامبراطورى فانه فى بداية الأمر اذ أشفق على من ظلموا روما ، واذ لجأ بالصلاة الى اله السماء وكلمته يسوع المسيح مخلص الجميع كعون له ، تقدم بجيشه .. »(٣) ويكاد يكون هذا القول هو نفس ما يذكره يوساب عن ليكين فى صراعه ضد ماكسيمين(٤) .

---

(١) Jones, Constantine, p. 96.

(٢) Davis, op. cit. p. 14.

(٣) EVSEB. hist. eccl, IX, 9.

(٤) Ibid. 10.

ما لاكتانتيوس فلم يكن ليسكت عن شيء من هذا القبيل لو أن خبرا كهذا ذاع آنذاك ، خاصة وانه كان قد استدعى ليصبح معلما لكريسبوس بن قسطنطين ، وقد عهدناه يخبرنا بما يجرى وراء أستار القصر الامبراطورى فى نيقوميديا ، فلا عليه اذن أن يحدث عما لابد وان يكون قد شاع وقتها بين العسكر والناس حول هذه الرؤية ، ولكن لاكتانتيوس لا يذكر شيئا البتة عن هالة من نور تحيط بصليب ظهر فى السماء ، بل كل ما يذكره أن قسطنطين أرشد فى حلم رآه الى اتخاذ علامة المسيح شعارا يضعه على دروع جنده ، وان يتقدم به الى المعركة ، فصدع قسطنطين بالأمر(١) . وكان ملاك الرب الذى تبدى لقسطنطين فى حلمه هو نفسه الذى زار ليكين فى نومه ولقنه صيغة الصلوات والدعوات التى تضمن له النصر على خصمه(٢) . ومن ثم فالمسألة عند لاكتانتيوس لا تعدو حلما رآه كل من قسطنطين وليكين قبل أن يدخل كل منهما الحرب ضد منافسه ، وأن ملاكا للرب جاء اليهما فى نومهما أعطى الأول شارة النصر ولقن الثانى ادعية الانتصار .

وهكذا نرى يوساب يعطينا روايتين تخالف كل منهما الأخرى ، وكلاهما يختلف ورواية لاكتانتيوس الا فى مسألة « الحلم » فقط ، واضطراب الروايات عند هذين الكاتبين ، بل عند يوساب وحده تدعونا الى الشك فى قبول اى منها .

ولكن ما لنا نناقش حول قصة يوساب وقد انبأنا فى بداية مؤلفه عن « حياة قسطنطين » أن من العار عليه الا يحدث عن امبراطور فاق الجميع فى محبته لله ، « محبوب الرب » ذلك الذى اختارته العناية الالهية ليقر السلام على الأرض »(٣) ، ولم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدى الى المسيحية على لسان قس مسيحى أو مبشر ، والا لما تفرد الامبراطور بشيء عن غيره من ولد آدم ، وانى لأخال يوساب يضع لقادم الأجيال قصة رجل انقذ

---

(١) LACT. mort. pers. 44.

(٢) Ibid. 47.

(٣) EVSEB. vita Const. III, 2.

من الضياع المسيحية ، يضفى على أفعاله ارادة السماء لا رغبات البشر ، وعناية الرب لا عون الانسان ، وفرق كبير بين أن تعى الأجيال المسيحية أن معتقدها على الأرض قد رسخ بيد امبراطور هدته السماء ، وبين ادراكها انها حيث نتيجة ارادة حاكم جذبته الى صفها السن بنى البشر !!

دخل قسطنطين دخول الظافر روما ، فرفعه الشعب والسناتو الى عليين ، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لالآم المخلص تذكارا ، ونقش على قاعدته « بهذه العقيدة المقتدرة ، رمز الشجاعة الخالصة ، أنقذت مدينتكم ، ومن نير الطاغية فككت عقالها ، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم الى قديم مجدهم وشرفهم »(١) .

بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحه مع المسيحيين ، ولكنه لم يقف عن حد المسامحة بل ذهب — بعد دخوله روما مباشرة — الى ما هو ابعد من ذلك ، فأظل الكنيسة بوارف رحمته ، وشملها بعطفه ورعايته ، وهذا بين من رسالة بعث بها فى شتاء عام ٣١٣/٣١٢ الى انوللينوس Anullinus بروقنصل أفريقيا ، يقول :

« انوللينوس .. عزيزى . تحياتى . نظرا لما كشفت عنه ظروف كثيرة من أنه عندما تزدرى ديانة فيها يكمن اعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة ، يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار ، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر ، تهديهما رحمة الرب اذا ما حظيت بالاحياء والحماية ذات العبادة ، فقد تقرر يا عزيزى ان ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون ، متبعين هذه الديانة الالهية ، تعويضا عن هذه الخدمات ، ويسرنى أن يعفى تماما من اداء الواجبات العامة ، اعضاء الكنيسة الجامعة التى يراسها كايكليانوس Caecilianus والمدعوون رجال الدين ، القائمون بخدمة هذه الديانة المقدسة ،

(١) EVSEB. hist. eccl. IX, 9; Vita Const. I, 40.

المقيمون فى دائرة ولايتك ، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية ، أو يصرفهم دنس ، ولشرائعهم بلا اى عائق يجب ان يكرستوا انفسهم . فكم من خير تفيده الدولة حالما للاله قدم هؤلاء خالص العبادة . صحبتك السـلامة عزيزى المحبوب انوللينوس(١) » .

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبـات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم فى الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له وبحمده نتيجة لها رجال الكنيسـة ، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة ، وكفه ايديهم بصورة لبقة عن التدخل فى أمور ولاية تعد آنئذ من اهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية ، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك ان ينصرفوا الى ممارسة شعائرهم وطقوسهم ، ولا يعوقهم عن توقير ربهم عائق ، متطهرين من كل ما قد يعلق بأرواحهم جزاء اشتغالهم بتلك الواجبات العامة . ولابد ان قسطنطين كان يدرك مدى الأثر الكبير الذى يمكن ان يتركه رجال الدين المسيحى فى نفوس رعيتهم لتعضيد الحاكم أو التمرد على سطوته ، ومن ثم اراد ان يكتسب الى صفه رجالا ذوى نفوذ كبير فى انفس الجموع المسيحية ، لمـا يعلمه من اهمية هذه الفئة ومدى تأثيرها على مشروعاته القابلة ، وقد افصح هو نفسه عن ذلك صراحة فى ذات الرسالة حين اعتبر المسيحية مسألة حيوية بالنسبة لكيان الامبراطورية ، فقهرها واضطهاد اتباعها لم يجر على الدولة سوى الخراب والفوضى ، على حين افرخ الصفح عنها ضياء الرخاء والاستقرار ، ولا شك ان قسطنطين كان يقرأ قرطاس الواقع الذى شهدته عيناه ايام كان فى القصر الامبراطورى بنيقوميديا زمن دقلديانوس وجاليريوس ، وما سـمعه عن اضطهادات ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ، لذا لم يكن عجبا أن يربط قسطنطين بين العطف على المسحية والأخذ بيد اتباعها ، وبين « الصالح العام » للدولة .

---

(١) EVSEB. hist. eccl. X. 7.

وشبيه بهذه الرسالة تلك التى بعث بها من بعد الى أهالى فلسطين يمجد فيها الرب ويشيد بالعقيدة المسيحية(١) ، ثم يرسم صورة للاضطهادات التى سادت قبل عصره والتى مارسها ضد المسيحية أباطرة سبقوه ، ثم كيف ادت هذه السياسة الى هلاك الكثيرين واشعال نيران العداوة والبغضاء بين الجميع(٢) ، ويوضح الامبراطور بعد ذلك انه مبعوث السماء الى الأرض ، الذى اختاره الرب ليبدد دياجير الظلام مذ كان فى بريطانيا ، وليضرب بيد العنف على كل من يقترف الشر ، تؤيده فى ذلك وترعاه يد اله مقتدر(٣) .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فاذا كان قسطنطين قد حرر رجال الاكليروس من عبء صدورهم به ضاقت ، وهيأ لهم الفرصة الاجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر ، الا أن هؤلاء كانوا يتطلعون فى حسرة الى دور عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد الى أيدى أفراد أخر ، ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك العيون وتطلعاتها ، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا . قال :

« سلاما عزيزى انوللينوس .. ان طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى الا ان ترد على الآخرين حقوقهم ، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد الى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن فى حوزة المواطنين او غيرهم ، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء الى أصحابها . ولما كان فطنتك يدرك مدى وضوح سياق امرنا فأعد الى الكنائس كل ما كان فى السابق لها ملكا ، حدائق ودورا وأملاكا حتى نعلم انك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص . ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس(٤) .

(١) EVSEB. vita Const. II, 24.

(٢) Ibid. 25 - 27.

(٣) Ibid. 28.

(٤) EVSEB. hist. eccl. X. 5.

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى ، ولكن بقى شىء كان على الامبراطور حتما ان يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها، ذلك ان يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا ، وهو عطف الدولة عليها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد ، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة فى رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين ، وكان ذلك فى حد ذاته شيئا يبهر اعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا الا بأوامر تهدم كنائسها ، وتصادر املاكها وتضطهد افرادها ، فاذا بقسطنطين يحرر الأنفس ، ويعيد الأملاك ، ثم ينعم بالاموال ، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة راسها متمردة ثائرة ؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الالهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة **Carthage** رسالة من الامبراطور جاء فيها :

> « قسطنطين أوغسطس الى كايكيليانوس اسقف قرطاجة .. لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقاتهم خدام الكنيسة الكاثوليكية ، لذا سطرت الى اورسوس **Ursus** مأمور الحسابات فى افريقيا آمره أن يدفع الى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس **Folles** ... واذا تبين لك ان عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هذا الخصوص تجاه الجميع، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس **Heraclides** وكيل املاكنا ، ما انت اليه فى حاجة ، فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير اى مبلغ يطلب جنابكم(١) » .

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعاياها المسيحيين ، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة اشد ما يكون حاجة لمثل هذا الولاء ، والى ان يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا ، ومن املاك ليكين قانونا . اما وقد نال الاول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرها

---

(١) **EVSEB. hist. eccl. X, 6.**

تحت سطوة المنتصر وتدخل ضمن دائرة نفوذه بمنطق القوة والغصب . أما ليكين صاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هذا المنطق الا ان يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها . ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين ان يقدم على مذبح الولاء قربانا . ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة ، قاست صنوف العذاب الوانا طيلة قرون ثلاثة ، من غيابة الاضطهاد ، ثم رده اليها ما كان لها ، والاغداق عليها من جانب امبراطور كان أسلافه الذين قذفوا بها فيها . وكان قسطنطين بارع الدعائية،فقد احتزت راس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهـــاية عصر « الطاغية » فى روما ، وتومىء ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد ، وفى الناحية الأخرى اعفاءات تمنح وهبـــات .

ويلفت النظر فى رسائل قسطنطين الى انوللينوس وكايكيليانوس قوله « الكنيسة الجامعة »(١) ، تلك العبارة التى ترددت دوما فى تلك الرسائل ، ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنهـــا تلك « التى يراسها كايكيليانوس(٢) ، وقد دفع قسطنطين الى هـــذا التحديد ما يذكره هو نفسه فى رسالته الى أسقف قرطاجة كايكيليانوس يقول : « لمـــا كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعـــم ودنسها »(٣) . وهو يشير ها هنا الى الدوناتيين الذين سنتحدث عنهم فى الفصل التالى . ولنا بالطبع ان نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين الى تخصيص رعايا « الكنيسة المقدسة الجامعة » بالذات دون أتبـــاع دوناتوس ؟

جاء فى رسالة الامبراطور السالفة الى أسقف قرطاجة : « متى تسلمت المبلغ المشار اليه ، فانى أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه

---

(١) EVSEB. hist. eccl. X, 5 - 6.

(٢) Ibid. 7.

(٣) Ibid. 6.

وفقا للقائمة التى بعث اليك بها هوسيوس "Hosius" » (١) ونعلم من سقراط(٢) أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة ، وانه كان عندئذ مستشار قسطنطين للشئون الدينية ، ومجىء اسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية(٣) . ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الامبراطور الى جانب المسيحيين بداءة(٤) . ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين ، متحركا نشطا فى الاحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة فى مسألة الصراع الآريوسى ، وسيظل كذلك الى ان يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الامبراطور قسطنطيوس من بعد .

ولا أظن شيئا من المغالاة يصاحب قولنا أن قسطنطين وقد فتح على نفسه باب عقيدة جديدة ، كان فى حاجة الى من يهدى الخطى منه فى دروب هذا الدين الجديد . حقيقة لقد رسم لنفسه طريق هدايته بضياء من عل ، أما التفاصيل الأخرى الخاصة باتباع الدين الجديد فلا ضير أن يتلقاها من البشر فهم بها اعلم . وكما أن بلاطه وجيشه ودواوين حكومته كانت تعج بالوثنيين والى جواره منهم المستشارون ، فلابد أن يكون الى جانبه بضع أناس من ذوى المكانة بين اصحاب هذه العقيدة الجديدة ، وهذا هو ما يخبرنا به يوساب نفسه(٥) وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا الى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة ، وبالتالى كان أسقفها ، اذا ما قورنت بروما والبابا ، ولما كان قسطنطين يكره لأحد ما اى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه ، ويخشى اذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين ، كان « هوسيوس » المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع ، ودليلنا على ذلك انه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة

---

(١) EVSEB. hist. eccl. X, 6.

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I. 7.

(٣) Jones, Constantine, p. 82.

(٤) Burkhardt, op. cit., p. 301.

(٥) EVSEB. vita Const. I. 32.

ومركز ممتاز ، لكنه أغفل أساقفتها ، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما ، وظل مبقيا على هوسيوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له لفترة طويلة من عهده ، وكان أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الامبراطور على الكنيسة الكاثوليكية فقط دون اتباع دوناتوس .

لم يمكث قسطنطين فى روما بعد انتصاره على خصمه ، الا عدة أشهر ، ثم شخص فى مارس ٣١٣ الى ميلانو حيث وافاه ليكين هناك ، ويقول جاكسون ان اختيار قسطنطين لميلانو بالذات مكانا للقائه مع ليكين يرجع الى رغبته فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الوثنية وادعاءات رجال السناتو(١) ، ولم يشغل صخب وضجيج احتفالات الزواج التى شهدتها المدينة الامبراطورين عن عقد اجتماعات انتهت الى تقرير سياسة معينة اتفق الطرفان على التزامها ، وكان من بين الموضوعات التى تناولتها المحادثات بين الزعيمين ، مسألة معاملة الرعايا المسيحيين فى الامبراطورية ، وتعهدا بمنح الحرية الدينية لكل سكان الامبراطورية شريطة ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة . ولم تصلنا سجلات تلك الاجتماعات ، ولكن هذه النية حفظتها لنا رسالة بعث بها ليكين الى نائبه فى نيقوميديا بعد انتصاره على ماكسيمين(٢) ، تضمنت السياسة التى راى الطرفان اتباعها فيما يختص بالمشكلة الدينية ، ولهذا شاع بين المؤرخين خطأ تسمية هذه الرسالة « بمرسوم ميلانو » ، والحقيقة انها ليست بيانا رسميا صدر عقب انتهاء المحادثات بين قسطنطين وليكين ، ولكنها رسالة اذاعها النائب الامبراطورى فى نيقوميديا بعد أن جاءته من سيد الشرق الجديد ، واحد قطبى ميلانو ، وقد حفظ لاكتانتيوس نص الرسالة ، واورد يوساب ترجمة يونانية لها(٣) . وقد ظهرت هذه النظرية اولا ، وهى أن مرسوما لم يصدر البتة من ميلانو ، على يد العالم الألمانى O. Seeck سنة ١٨٩١(٤) . على أية حال

---

(١) F. Jackson, op. cit., p. 283.

(٢) LACT. mort. pers. 48.

(٣) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

(٤) Vasiliev, op. cit., I, p. 51.

فقد كانت رسالة ليكين هذه تعبيرا عما استقر عليه الطرفان فى ميلانو سنة ٣١٣ ، وقد جاء فيها :

« لما كنا قد أدركنا منذ عهد أن أحدا يجب أن لا يحرم من حريته العقائدية بل يحق أن تترك لارادته وفطنته حرية اختيار مقدساته الدينية ، فقد أصدرنا قبلا أوامرنا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشعائرهم ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود ، بعد صدور ذلك المرسوم الذى به حصل المسيحيون على حريتهم » .

والاشارة هنا الى مرسوم صدر قبل اجتماع ميلانو ، ولكنا لا نعلم شيئا من هذا القبيل ، واغلب الظن أن المرسوم المشار اليه هنا هو ذلك الذى صدر سنة ٣١١ باسم الأباطرة الثلاثة ، وهو المرسوم الذى لم تتح له الفرصة ليوضع موضع التنفيذ نتيجة للصراع العنيف الذى شب عقب وفاة جاليريوس .

وتمضى الرسالة قائلة :

« وعندما اتينا ميلانو ، وتأملنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع ، اعتزمنا ابتداء ان نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس ، وفى سبيل ذلك يمنح المسيحيون وسائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم ، وان لا يحرم اى انسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين او فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه حتى يتفضل علينا الرب بجميل نعمائه » .

على هذا النحو بدأت الرسالة باطلاق حرية العقيدة لكل رعايا الامبراطورية بلا تمييز ، وأقرت حق الفرد فى الايمان بما يتفق وقلبه ، ويتأكد هذا المعنى بصورة أكثر وضوحا فى النص الذى يقول : « ان السلام الشامل فى ايامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى اله يريد ، دافعنا الى ذلك أن لا يتوهمن انسان انا لأى من الديانات أسأنا » . وجاء فى الرسالة ايضا : « .. وكل من يهوى اتباع ديانة المسيحيين فله ذلك

دون ما مانع .. لقد منحنا المسيحيين فى ممارسة شعائر ديانتهم كامل الحرية » .

بهذا الاعتراف الحكومى غدت المسيحية والديانات الأخرى داخل الامبراطورية على قدم المساواة ، واضحت دينا شرعيا شأن قريناتها(١) وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية ، وساد الكنيسة سلام طالما اليه تاقت ، وقد هللت الكنيسة لهذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ ، ولا ادل على ذلك مما عبر به يوساب عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله :

« اخيرا .. أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام ، وبأشعة نور سماوى اضاء فى العالم كنائس المسيح ، وحتى أولئك الذين ليسوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات ، او على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى اغدقها الرب علينا(٢) » .

وفى هذا القول الأخير اشارة الى أن الحرية الدينية لم تكن قاصرة على المسيحيين فحسب بل تمتع بها كل فرد فى الامبراطورية ، وهو ما ورد فى صدر رسالة ليكين :

« واخيرا فقد رد على المسيحيين ماكان منهم قد اخذ : فاذا حدث أن اماكن المسيحيين التى درجوا على الاجتماع بها .. قد اشترتها خزانتنا او اشخاص آخرون ، وجب ردها الى المسيحيين على الفور دون عوض ، وحتى اولئك الذين حازوا مثل هذه الأماكن هبة او هدية ، عليهم تسليمها لأصحابها ، بلا تردد او تأخير ، وليذهبوا الى نائبنا ان شاءوا لينالوا من عطائنا ما يرضيهم . ولما كان معلوما ان هؤلاء المسيحيين لم يتملكوا مجرد هذه الأماكن ، بل اماكن أخرى تعتبر من املاكهم كجماعة ، وجب ردها ايضا دون ابطاء » .

---

(١) Cochrane, Christianity and classical culture, p. 178.

(٢) EVSEB. hist. eccl, X, 1.

تلك أهم النقاط التى من حولها دار البحث بين الامبراطورين فى ميلانو، وعليها قر رايهما ، وحملتها الينا رسالة نيقوميديا ، على أن الشىء الذى يجب أن تعيه ذاكرتنا أن اتفاق ميلانو لم يكن اول اتفاق من نوعه على جعل الديانة المسيحية شرعية فى الامبراطورية ، بل سبقه الى ذلك مرسوم سنة ٣١١ ، حتى يجوز لنا القول أن ما جاءت به رسالة ليكين ليس الا تأكيدا لمرسوم جاليريوس ورفيقيه . فهذا الأخير قد تضمن الصفح والعفو عن المسيحيين الذين ناوءوا الحكومة متمسكين بعقيدتهم وسمح لهم باقامة الشعائر ، واباح لهم اعادة بناء وتعمير دور اجتماعاتهم وعبادتهم(١) ، ولم تزد رسالة نيقوميديا عن ذلك شيئا اللهم الا النص على اطلاق الحرية الدينية لكل الأفراد ، وذلك شىء لم يكن مرسوم سنة ٣١١ فى حاجة الى توضيحه ، لأن هذه الحرية يتمتع بها فعلا اتباع الديانات الأخرى ، ولم يكن منها محروما الا المسيحيون . ولذلك منحهم المرسوم اياها ، والا تكفل الدولة بأن تدفع تعويضا للافراد الذين سيتخلون عما أخذوه آنفا من الكنيسة ، اما فيما عدا ذلك فليس اتفاق ميلانو الا اقرار لما سبق اليه مرسوم جاليريوس الذى لم يدخل قط دائرة التنفيذ ، وذلك شىء تعترف به منذ البداية الرسالة التى بين ايدينا ، حيث تذكر على لسان الامبراطورين: « فقد اصدرنا اوامرنا قبلا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشرائعهم ، ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود عدة بعد صدور ذلك المرسوم الذى حصل به المسيحيون على هذه الحرية » . وحتى ذلك الذى تم عليه الاتفاق فى ميلانو لم يؤخذ هو الآخر مأخذ الجد ، فقد رأينا ليكين يعود من جديد لاضطهاد المسيحيين .

خلاصة القول انه ليس هناك حتى الآن ما يسمى بمرسوم ميلانو ، وكل ما لدينا رسالة تلقاها نائب الامبراطور فى نيقوميديا من سيد الشرق الجديد ليكين تفصح لنا عما دار بين الامبراطورين فى ميلانو . المهم أن هذه الرسالة أفصحت فى جلاء عن البواعث التى دفعت الزعيمين الى انتهاج تلك السياسة قبالة المسيحيين ، فقد جاء فيها : «ان السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى اله يريد » ، واختتمت الرسالة

(١) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.

على النحو التالي فى صيغة الأمر للنائب الامبراطورى : « لكى يعم الهدوء ويسود السلام ، أبذلوا كل جهدكم لاتمام أوامرنا بسرعة لأننا بهذا السبيل نضمن دوام رحمة الرب ، وذلك أمر فى كثير من الأمور وعيناه » .

وبشيء من التحديد يمكن القول أن « سلام » الامبراطورية و «وحدتها» و « صالحها العام » كان دافع قطبى ميلانو للمبادرة باختطاط هذه السياسة، وهذا المعنى ورد فى رسائل قسطنطين العديدة التى بعث بها الى شمال افريقيا فى ذلك الحين . وتلك التى كتبها بعد أن غدا امبراطورا على الامبراطورية فردا . ولكنا نقنع الآن بما جاء فى رسالته الى انوللينوس والتى سبق الحديث عنها ، وفيها يذكر قسطنطين الضرار التى يمكن أن تتعرض لها الامبراطورية بمهاجمة هذه الديانة وأتباعها ، ومدى ما يمكن أن تفيده الدولة اذا ما وقرت المسيحية .

كان يوساب وفيا بعهده الذى قطعه على نفسه منذ البداية بأن يحدث عن فضائل قسطنطين واياديه البيضاء التى قدمها للكنيسة طيلة فترة حكمه، فذكر أن الامبراطور قرر عودة المسيحيين الذين نفتهم السلطات الحكومية قبلا الى جزر نائية أو مناطق جبلية موحشة(١) ، وعفى عن اولئك الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم او سخروا فى الأعمال العامة(٢) ، وحرر هؤلاء الذين كانوا ينتمون الى المجتمع الراقى ثم انزلوا الى مرتبة العبودية وأجبروا على الخدمة فى المنازل(٣) ، وسمح للجنود أو الضباط الذين حرموا من رتبهم العسكرية اما بالعودة الى مناصبهم مرة أخرى واما بالعيش الهادىء بعد أن يرد اعتبارهم(٤) ، وأمر بأن تعاد مقابر الشهداء الى ملكية الكنيسة وأن تصبح تحت ادارتها(٥) ، وأن تعود أملاكهم المصادرة الى اقرب أقربائهم فان لم يكن لهم ورثتهم الكنيسة(٦) ، وأباح لهذه الحصول على الهبات والتبرعات التى يقدمها المواطنون(٧) ، ورد الى الذين انتزعت منهم بسبب

(١) EVSEB. vita Const. II, 30 - 31.

(٢) Ibid. 32.

(٣) Ibid. 34.

(٤) Ibid. 33.

(٥) Ibid. 40.

(٦) Ibid. 35.

(٧) Ibid. 36.

عقيدتهم املاكهم من الأراضى والحدائق والدور(١) حتى ولو كانت هـذه قد أصبحت فى حوزة الخزانة الامبراطورية(٢) ، وعلى الذين ابتاعوا ممتلكات تخص الكنيسة أو تسلموها هبة المبادرة التى تسليمها ثانية(٣) ، وفتح أمام المسيحيين باب الوظائف الحكومية وسلم الترقى فيها(٤) ومنح المحاكم الأسقفية امتيازات هائلة حيث أصبح من حق أى فرد ، باتفاق طرفى الخصومة ، رفع دعوى مدنية لدى المحاكم الأسقفية حتى ولو كان قد تم السير فى اجراءات تلك الدعوى أمام المحكمة المدنية ، وعلى مشارف نهاية حكم قسطنطين وسع اختصاصات المحاكم الأسقفية حيث عد حكم الأسقف نهائيا فى مختلف الدعاوى ، وغدا فى الامكان احالة أية دعوى مدنية الى المحكمة الأسقفية فى اى مرحلة من اجراءاتها حتى ولو لم يقبل أحد الخصوم ، واوجب تصديق القضاة المدنيين على أحكام المحاكم الأسقفية ، وبذا زادت سلطات الأساقفة فى المجتمع(٥) ، وبعث قسطنطين الى عماله فى مختلف الأقاليم يوجههم الى المساعدة فى اقامة الكنائس ، وان لا يبخلوا بشىء فى سبيل ذلك حتى من الخزانة الامبراطورية ذاتها ، وارسل الى الأساقفة ايضا رسائل تتضمن هذا المعنى ، وكان يوساب بالطبع من بين هؤلاء الأساقفة ، ويذكر أنها كانت أول رسالة تلقاها من الامبراطور(٦) ، وتضمنت — وهى على غرار رسائله الأخرى الى باقى الأساقفة — حديثا عن نهاية العهد الذى كانت فيه الكنائس عرضة للتدمير والتخريب ، أما الآن وقد أظل الامبراطورية من السلام عهد جديد فلهم أن يقوموا باصلاح ما عطب من دور العبادة هذه ، وانشاء كنائس اخرى جديدة ، واذا ما اعوزتهم للنقود الحاجة فما عليهم الا أن يلجأوا الى حاكم الولاية التى تقع فيها دائرتهم(٧) .

ويضيف يوساب ان الامبراطور خط بيمينه رسالة الى سكان

---

(١) EVSEB. vita Const. 37.
(٢) Ibid. 39.
(٣) Ibid. 41.
(٤) Ibid. 44; SOCRAT. hist. eccl. I, 18; SOZOM. hist. eccl. I, 8.
(٥) Vasiliev, op. cit. I, p. 53.
(٦) EVSEB. vita Const. II, 45.
(٧) Ibid. 46; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

الامبراطورية جمعاء يدين فيها الوثنية ويمجد المسيحية(١) ، أورد فيها تبريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله ، وبداها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة ، وقارن بين ورع والده وتقواه وعطفه على المسيحيين . وخبث دقلديانوس وماكسيميان واضطهادهما لهم ، ويعدد قسطنطين صنوف المخاطر وألوان التعذيب الذى تعرضت له هذه الجماعة على أيدى تلك الطغمة الآثمة ، ويذكر — والعار يملأ حديثه — كيف كانت معاملة البرابرة لأولئك المسيحيين الهاربين حسنة رقيقة ، فى الوقت الذى لقوا فيه الاضطهاد من العالم الرومانى المتمدين ، ويعود الامبراطور ليؤكد من جديد الانتقام الالهى الذى لحق بهؤلاء المضطهدين جزاء ما قدمت أيديهم . ثم لا يلبث أن يذكر ما فعله هو من أجل تمجيد الرب واعلاء شارة الصليب ، وكيف أنه كان يصلى دائما من أجل الكنيسة والجموع ، بل لقد كانت صلاته دعاء الى الرب أن يهدى الى المسيحية العالم أجمع ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجبر أحدا على ذلك ، فلما نظر الرب الى هذه الفعال من جانب الامبراطور أنعم عليه بهذه الحكومة العالمية ، ويختتم رسالته بتحذير يعظ به الجميع حاثا اياهم على العيش فى سلام والاخلاد الى الهدوء(٢) .

هكذا .. وعلى قيثارة « المن » راح قسطنطين يعزف للكنيسة لحن « الخيرات » التى اغرقتها فى أنغامها ، ويردد على مسامع جمهورها دائما تلك المقطوعة التى لم يمل منها وجيز برهة ، وأرهفت الكنيسة أذنيها لتسمع ، فقد كان لابد لها أن تسمع بل وأن تعى من اللحن كل نغمة ، ولم يفت الامبراطور أن يذكر دوما فى أنشودته انه مبعوث الرب ، وأن الاله الأعلى هو الذى فى البدء هداه ، وها هو ذا يسدد خطاه .. فما على الكنيسة اذن الا أن تسبح بحمد هذه الرحمة الالهية ، ولها تدعو واياه توقر !!

وكأنى بقسطنطين يريد أن يضع امام اعين رجالات الكنيسة صورة لمدى عون الرب له بمنحه هذه « الحكومة العالمية » التى يحدث عنها ؛ والتى

---

(١) EVSEB. vita Const. II, 47.

(٢) EVSEB. vita Const. II, 48 - 60.

لم تكن لتشمل الرومان وحدهم ، بل تخضع البرابرة أيضا . ففى رسالة بعث بها الى مجمع الأساقفة المنعقد فى صور سنة ٣٣٥ يقول قسطنطين :

« بفضل جهدى ، ولأنى لله نعم الخادم ، آمن البرابرة بعبادة الرب ، وما ذلك الا لأنهم أيقنوا أنه حافظنى وحامينى فى كل خطو ودرب . ولأنهم من خشيتنا أدخلوا الى المعرفة الحقة للاله الذى هم الآن بعبادته قائمون(١) » .

وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب الى ملك فارس رسالة(٢) يردد فى صدرها من جديد أنغام فضله على المسيحيين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها ، فيفتتحها قائلا :

«انى كما تبرهن أعمالى أعترف بأقدس عقيدة ، فهذه العبادة ذاتها تقودنى الى معرفة الرب القدوس ، الذى بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصى المحيط ، كل امة فى هذا العالم لتلمح الأمل فى الأمان ، وعليه فان كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة ، قد بعثوا من جديد بفضل حكمى وارسائى قواعد أسعد دولة » .

ولا يختلف هذا المعنى — كما نرى — عن سابقه ، وتلك على التتابع كانت عادة قسطنطين . فما من رسالة كتبها أو أمر بها الا وفيها لأنشودة فضل حكمه على المسيحيين مقام معلوم ، والمقصد من هذا كله بين جلى .

واذا كان قسطنطين قد ساق بالقوة البرابرة — كما يدعى — الى حظيرة المسيحية ، فنال بذلك تهليل الكنيسة واستحسانها ، فلا اقل من أن يستحث ملك فارس على رفع الظلم عن كواهل رعاياه المسيحيين ، فدعاه فى رسالته الى معاملتهم معاملة طيبة وان يشملهم بعطفه ورعايته ، حتى ينال بذلك رضى ربهم وجميل نعمائه ، فيقول الامبراطور :

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(٢) EVSEB. vita Const. IV 9 - 13.

« انى لأضرع أن يحل عليك الرخاء واياهم ، وان تشملكما على قدر واحد البركات ، فبهذا السبيل سوف تعاين حب الله وعطفه ، الرب أب الجميع والسيد . والآن ، وأنت صاحب السلطان أوصيك بهم خيرا ، فلتسعهم رحمتك ولتكلأهم رعايتك ، فتقواك للعيان بادية ، ولتبسط عليهم جميل فضلك وعطفك . فانك بهذا السبيل تضمن لك ولنا عظيم النعم » .

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معانى اخرى :

« هذا الرب .. وأنا على ركبتى جاث ، اياه أستعيذ من هول دماء تلك الأضحيات ، واليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة ، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية ، وما ذلك الا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة ، قد اوردت جل لا بل كل امم العالم الوثنى ورد الهلاك . فرب الكل السيد ، وقد كرم بنى آدم ورفع قدرهم ، واحب البشرية ، وهبها البركات ، ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف ارضاء لخاص الشهوات . وليس للرب على الانسان الا نقاوة عقل ، واستقامة روح ، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها ، فمسرة الله لكيانة من البشر واعتدال . يحب الحليم ويبغض اللئيم .. يبتهج للايمان ومن الكفر يقتص . يهوى بجبروته كل عات ، ومن صلف كل متكبر ينتقم . وفى الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس ، ولكنه يجزى المتضع ، وبما استحق من جزاء يثيب ، وبمثل هذا يمد الرب عونه لملكة بالعدل قائمة ، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام ..... وبعد يا اخى .. فأنا على يقين بأنى غير مخطىء فى اعترافى بهذا الاله الواحد . المبدع ، الآب لكل الأشياء ، الذى جافاه كثير من أسلافى ، مقودين بجنون الخطيئة ، مما جر عليهم رادع العقاب حتى لقد راح ما تلاهم من أجيال يتندر بما حل بهم

تحذيرا لمن تداعبه الرغبة فى سلوك الدرب ، ومن عداد هؤلاء واحد حدث به صاعقة العذاب الهون ، فراح من هنا طريدا ، وكانت أراضيكم له المنفى والمصير . وكان العار الذى لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم(١) وانها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذى حل بكل أولئك — على النحو الذى اوضحت — بينا للجميع فى عصرنا ، ذلك أنى قد عاينت نهاية أولئك الذين ، بكافر مراسيمهم ، ناكدوا عباد الرب . وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله . فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام . وعليه فانى لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الآمن . فاذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا ، يقدسون ذاته ، تعطف الرب فآواهم الى رحابه » .

بهذا الترديد فى رسالته يقدم قسطنطين لشىء واحد يريد قوله منذ البدء ، ذلك هو حث سابور الثانى **Sapor II** على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد ، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة ، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية ايمان يعظ أمام المذبح جموعا !! .

لقد كان فى مقدور الامبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى انصاف عباد الاله الواحد بداءة وينتهى . ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته ، واذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الامبراطور لرأيناه عمد الى ذلك قصدا مقصودا . فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الاله الواحد الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من انه بعبادته قائم ، ولا يرتاب فى أن ما امتلأت به رسالته من ابتهالات لهذا الرب وضراعة لا تعنى البتة شيئا لدى هذا الملك الثنوى ، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع

---

(١) يشير قسطنطين هنا الى ما كان من أمر هزيمة الامبراطور الرومانى فاليريان (٢٥٧ — ٢٦٠) على يد الفرس وأسره . راجع ص ٤٠ .

كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد . رغم علمه بكل ذلك ، الا أنه ذكره مقرنا اياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسـلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وآذوا ناسها ، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصوير غضب الرب العاتى ونقمته اللذين حلا بأولئك « الملاحدة » أعداء الاله الواحد سيد الجميع . وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر ، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى . وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لمـا يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى ، طالما أنه لا يؤمن بالواحد ، وطالما كان يضطهد عباده . أما قسطنطين فالرب على الدوام آخذ بيده ، يبارك خطاه ، وينصره على أعدائه أعـداء الرب ، لأنه يسلك سبل دينه ، ويهتـدى بنور شرعه . والا فبماذا نعلل كل هذا السياق اذا لم يكن قسطنطين قد قصد الى ذلك فعـلا ؟ .

شىء آخر لا نظنه من الحقيقة ببعيد ، فقسطنطين يريد أن يضيف الى مآثره على الكنيسة فضلا جديدا بأن يجعل من نفسه للايمان داعية ، وأن يظهر بصورة حامى ذمار هذا الدين فى داخل دولته وعبر أسوارها ، وعند عدو للرومان لدود ، وكأنه يريد بذلك أن يدخل فى روع الكنيسة حرصـه على ضم بيعة جديدة اليها ، فيمتد بذلك نفوذها الى جهة كانت توقن أنها عن أيديها بعيدة المنـال .

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعل عنيفا فى الأوساط الفارسية ، وساورت الشكوك الملك الفارسى فى نيات امبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا اياهم صنائع عدوه(١) وربما يعود ذلك لما نما الى علم الامبراطور من خاصته بأن كل المسيحيين فى مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية ، وأن سمعان أسقف سلوقية Seleucia يرسل الى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث فى فارس(٢) . ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء فى رسالة قسطنطين سالفة الذكر الى سابور حيث يقول : « انه لفى روعى والسرور يملأنى ، بعد أن

---

(١) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٢) موسهيم : تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ١٣٥ .

انتنى أنباء سارة تتناغم ورغبتنا ، ان اكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم اتحدث اليكم الآن .. أعنى المسيحيين »(١) . ويرجع هذا الارتياب فى نفس سابور الى وقت طويل عندما تسلم زمام السلطة فى المملكة ، فهاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة فى بابل وسلوقية وجنديسابور وآشور وغيرها(٢) فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات فى سنوات ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما(٣) . وعقد فى سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسى أقر فيه نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا(٤) .

ومما زاد فى ارتياب الملك الفارسى أن تيريداتس الثالث **Tiridates III** (٢٦١ — ٣١٧) ملك ارمينيا ، الذى أعاده دقلديانوس الى عرشه ، قد تحول فى مطلع القرن الرابع الى المسيحية ، وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته(٥) . مما أدى بالتالى الى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين(٦) ، ومن ثم لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى واحياء التحالف القديم ثانية(٧) . ولا شك ان ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته . وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى الى القبض على تيجرانس **Tigranes** ملك ارمينيا المسيحى واحتلال بلاده ، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة ، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان **Hannibalianus** ملكا ، وكان هذا بالطبع يعنى الحرب مع فارس ، ولم يؤخر انفجارها الا موت قسطنطين(٨) .

---

(١) EVSEB. vita Const. IV, 9 - 13.

(٢) أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٧٥ .

(٣) موسهيم : تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ٣٥ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ، ص ٧٥ .

(٥) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٦) Cary, op. cit, p. 732.

(٧) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٨) Id.

لهذا لا نستبعد أن يكون قسطنطين فى رسالته الى ملك فارس يتحرش به ويستفزه ، ليدخل معه فى جولة من جولات الصراع يجرب فيها للمرة الثالثة قوة ذلك الاله الذى خبره قبل ذلك على ضفاف التيبر وتحت أسوار خريسوبوليس . ولكن قدره لم يسعفه ، فترك لخلفه مهمة اتمام هــذه التجــربة .

لم يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المــادى بصوره المختلفة ، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة ، بل تخطاه الى حيز الواقع العملى ، أعنى اقامة دور العبادة ، فينبئنا يوساب أن الامبراطور بعد ارفضاض مجمع نيقية ســنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمــل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات ، وكان هذا العمل هو انشاء كنيسة فى الموضع الذى « قام فيه المسيح ثانية من بين الأموات » ، ويقول مؤرخنا أن قسطنطين لم يكن يصدر فى عمله هذا عن تفكيره المحض بل كان يتحرك بروح من المخلص نفسه(١) ، وقد أمر الامبراطور بازالة القمامة والمخلفات التى كانت تغطى ذلك المكان(٢) ، وذهب الى أبعد من ذلك وأمر أن تحفر الأرض الى عمــق معين حتى تتطهــر من كل رجس يكون قد علق بهــا من جراء الدنس الذى أقدم عليه أعداء الرب(٣) ، وكانت مفاجأة للجميــع عندما عثر أثناء الحفر على القبر المقدس(٤) ، وقد أردف قسطنطين ذلك برسالة بعث بها الى حكام الولايات الشرقية يأمرهم فيها ان يقدموا الأموال لاتمام بناء الكنيسة عند القبر المقدس ، وأن لا يبخلوا فى هذا المقصــد بشىء ، وحملت نفس المعنى رســالته الى مكاريــوس **Macarius** أسقف أورشليم(٥) ، وأوضحت مدى اهتمام الامبراطور واحترامه وسعيه الدائب لاتمام هذا العمل بصورة تليق بالمخلص(٦) ، واقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها(٧) .

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 25.

(٢) Ibid. 26.

(٣) Ibid. 27.

(٤) Ibid. 28.

(٥) Ibid. 29.

(٦) Ibid. 30; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

(٧) EVSEB. vita Const. III, 31.

ويضيف يوساب أن الامبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة(١) . وقام الامبراطور أيضا بانشاء كنيستين آخريتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون(٢) وزارت هيلينا Helena ام الامبراطور ، الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام ، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين(٣). وحظيت مناطق اخرى عديدة بما نالته فلسطين ، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية(٤) . ويذكر يوساب أيضا أن الامبراطور قام فى سنى حكمه الأخيرة بانشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية ، ويعطينا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها(٥) .

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الوثنية ، مثل معبد اسكليبيوس Asclepius فى ايجى بكيليكيا Aegae (Cilicia) ومعبدى Apheca و Hiliopolis فى فينيقيا Phoenicia واقتلع ابوابها واسقط أسقفها وامتدت أيديه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة(٦) . ويعلق جونز على ذلك بقوله ان قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد فى اصلاحه النقدى(٧) . ويرجح ايضا أن يكون قسطنطين قد صادر ضياع هذه المعابد(٨) ، ويذكر يوساب أن هذه الاجراءات التى اقدم عليها الامبراطور أطاحت بهيبة الأرباب القديمة ، واضحت منارا للسخرية ، وقد ظهر عجزها فى دفع الأذى عن نفسها ، وكان ذلك داعية لهجر كثير من الوثنيين ديانتهم وتحولهم الى المسيحية(٩) .

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 40.
(٢) Ibid. 41.
(٣) Ibid. 42, 43; SOCRAT. hist. eccl. I, 17.
(٤) EVSEB. vita Const. III, 50; SOCRAT. hist. eccl. I, 18.
(٥) EVSEB. vita Const. IV, 58 - 59.
(٦) EVSEB. vita Const. III, 54, 56, 58.
(٧) Jones, Later Roman Empire, I, p. 92.
(٨) Id.
(٩) EVSEB. vita Const. III, 57.

بهذا كله غدا قسطنطين فى نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولا ، تخيرته السماء ليمجد الرب فى الأعالى ، وليحل على الأرض السلام ، وليعيد للكنيسة عهدا من الأمان حرمت منه مذ ولدت ، ولتنتشر بفيض رحمة الرب تعاليم المخلص وهديه ، وقد عبر قسطنطين عن ذلك أحسن تعبير فى تلك الرسالة التى بعث بها الى فلسطين حيث يقول :

« لقد كنت عدة الرب التى اختارها ، وقدر صلاحها لانفاذ مشيئته وعليه فانه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة ، تستتر الشمس فيها بالأفق ، وبمدد الهى ، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت ، آملا ، وأداتيتى للرب تنير خطوى ، أن يرعى البشر ناموس الاله المقدس ، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوى(١) » .

وبعد أن يعترف قسطنطين بفضائل الاله عليه ، واعتبار كل خدمة توكل اليه من عند الرب هبة ، يضيف قائلا :

« ها أنذا الى اقاليم الشرق أسعى ، حيث أمست تحت نير الكوارث الجسام تتحرق لطباب شاف على يدى(٢) » .

وبعد .. فقد يبدو غريبا أن يظهر قسطنطين تعاطفه بهذه الصورة مع المسيحيين وهو يعلم يقينا أن المسيحيين يمثلون قلة فى الامبراطورية ، بل ونوق ذلك قلة مضطهدة ، وهى لا تتجاوز فى تعدادها خمس سكان الامبراطورية . وكان أغلبهم ينتمى الى الطبقات الشعبية التى كانت على أقل تقدير تمثل سياسيا واجتماعيا الطبقات المتوسطة والأدنى فى المدن ، وكان السناتو الرومانى كله تقريبا ، وهو معقل الارستقراطية الرومانية ، وثنيا ، كما كان كبار الموظفين . وأهم من هذا جميعا كان جل الجيش ضباطا وجنودا يدينون بالوثنية(٣) . فهل كان قسطنطين فى انجذابه للمسيحيين يصدر عن

---

(١) EVSEB. vita Const. II, 28.

(٢) Ibid. 29.

(٣) Jones. Constantine, pp. 79 - 80.

ايمان حقيقى باله المسيحية ؟ أم أن ذلك سلوك فرضته الظروف واقتضته طبيعة الأحداث آنئذ ؟ .

لم يكن قسطنطين على قدر كبير من الثقافة(١) ، وكان بمولده ونشأته الأولى وثنيا(٢) ، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها ، فوالده يحملان نفس العقيدة ، وان كان أبوه قد لجأ الى صورة من صور التوحيد الوثنى حيث كان من عباد اله الشمس(٣) ، أما هيلينا فيبدو انها لم تعرف المسيحية قبل وليدها(٤) . وقد بقى قسطنطين مع أمه فى Drepanum — (مدينة على الساحل الغربى لصقلية وتسمى الآن Trapani) موطنها الأصلى الى أن غدا والده قسطنطيوس سنة ٢٩٣ قيصرا وطلق هيلينا(٥) ليتزوج من ربيبة ماكسيميان تيودورا(٦) . فأخذ قسطنطين الى نيقوميديا ليقيم فى القصر الامبراطورى هناك بحجة تثقيفه وتهذيبه ، ولكن الحقيقة أنه كان رهينة لدى دقلديانوس حتى يضمن حسن سيرة قيصر الغرب(٧) . ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فيما أورده لاكتانتيوس(٨) عن ذلك الالحاح المستمر الذى ابداه قسطنطيوس للسماح لولده باللحاق به عقب وفاة دقلديانوس ، وما كان من رفض جاليريوس وعنته .

ولما كان البلاط النيقوميدى يسوده المعتقد الوثنى ، وليس للمسيحية فيه الا بضع موظفين ، لم تتح بالتالى الفرصة لقسطنطين ليعرف المسيحية عن كثب ، وزاد فى ذلك أيضا اشتراكه فى عدة حملات كان اشهرها تلك التى صاحب فيها دقلديانوس الى مصر ، ولعل ذلك كله يفسر عدم معرفة قسطنطين بامور العقيدة المسيحية . ويدعم ذلك حقيقتان ، فقسطنطين بعد ما تراءى له فى السماء اثناء صحوه ، وعلى الأرض ابان غفوته ، على

---

(١) Cantor, op. cit., p. 46.
(٢) Boak, op. cit., p. 432.
(٣) Burckhardt, op. cit. p. 202.
(٤) Boak, op. cit., p. 432.
(٥) Richardson, op. cit., p. 411.
(٦) Jones, Constantine, p. 14.
(٧) Richardson, op. cit., p. 412.
(٨) LACT. mort. pers. 24.

حد زعمه أو ادعاء يوساب،قبل معركة القنطرة الملفية ، دعى اليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ، كما أخبرنا يوساب،وطلب اليهم تفسيرذلك ، فأخبروه حقيقة الأمر كما قدمنا ، وهذا فى حد ذاته يدل على أن قسطنطين لم يكن حتى هذا الحين يعى من أمر العقيدة المسيحية شيئا ، رغم وجود أساقفة مسيحيين فى معيته آنذاك مثل هوسيوس . ورغم أن يوساب يذكر ان حالة قسطنطين اثناء اقامته بالبلاط الامبراطورى فى نيقوميديا لا تختلف عما كان عليه الحال بين موسى وفرعون ، وانه كان لا يكف عن الصلاة والضراعة ، ولم يكن يشارك الامبراطور وقيصره اى لون من الوان حياتهم المفتقرة الى التقوى والصلاح(١) . والحقيقة الثانية أن فكر قسطنطين حتى سنة ٣٢٤ لم يكن يدرك شيئا من مسائل اللاهوت المسيحى ، وذلك واضح كل الوضوح فى رسالته(٢) التى بعث بها الى كل من اسكندر وآريوس رجلى الدين المسيحى فى كنيسة الاسكندرية ، عندما اتاه نبأ تخاصمهما حول مسائل كريستولوجية ، فكانت الرسالة كلها تقريعا للرجلين ، بسبب السماح لنفسيهما بفتح باب المناقشة فى هذا « الموضوع الذى لا طائل وراءه » والخوض فى « مسائل جدلية لا توائم العقل » والجدل حول « أمر تافه للغاية » و « وليس له ادنى اهمية جوهرية » . وتلك أمور لا يمكن لباحث أن يسقطها من حسابه عندما يثور الجدل حول مسيحية قسطنطين .

ويبدو ان قسطنطين قد سار على خطو والده فى هذا الاعتقاد التوحيدى الذى اختطه لنفسه(٣) ، ذلك ان اباه يرجع فى نسبه لأمه الى الامبراطور كلوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ — ٢٧٠)(٤) ، فلما غدا لماكسيميان قيصرا سنة ٢٩٣ حمل لقب الأسرة التى يكنى بها ذلك الأوغسطس ، وكان ماكسيميان قد نسب نفسه ، توثيقا لعرى الصداقة بينه وبين دقلديانوس ، الى هرقل Hercules الذى كد تحت هدى أبيه جوبتر Jupiter لنفع البشرية ، وقد وضع دقلديانوس نفسه بذلك

---

(١) EVSEB. vita Const. I. 12. 19.

(٢) Ibid. II. 69.

(٣) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 43.

(٤) Burckhardt, op. cit. p. 45.

أبا لماكسيميان حيث ارجع اصله لرب الأرباب(١) ، وقد فعل قسطنطين مثلما فعل أبوه من قبل ، فأصبح ضمن عداد الأسرة الهرقلية مذ قبل صداقة ماكسيميان وتحالفه عام ٣٠٧ ، وكان ذلك شيئا طبيعيا يتمشى مع السياسة التى رسمها لنفسه قسطنطين فى تلك الآونة ، فلما دخل روما عقب وقعة القنطرة الملفية نزع نفسه من قائمة الهرقليين وأعلن انحداره من سلالة كلوديوس ، وعليه فقد أظهر نوعا خاصا من التعبد للشمس التى لا تقهر ، العبادة الفضلى لدى سلفه الأثير وأبيه(٢) . وظهر ذلك فى العملة التى ظل يضربها حاملة هذا الرسم حتى عام ٣٢٣(٣) .

وفى سنة ٣٢١ قرر قسطنطين جعل يوم الأحد عيدا أسبوعيا(٤) ، ولكن الامبراطور لم يدع هـذا اليوم أبدا بيوم السيد ، بل أسماه يوم الشمس dies solis مؤكدا بذلك قدسيته بالنسبة للشمس ، وعلى ذلك يمكن القول أن قسطنطين قد عمد الى هذا الاسم الذى لا يمكن أن يضايق مسامع رعيته الوثنية(٥) .

ولم يكن ما تم الاتفاق عليه بين قطبى ميلانو عام ٣١٣ ونشرته رسالة نيقوميديا ، فى جانب المسيحيين أو انحيازا لهم كما قد يبدو ، ولكن الحقيقة أن الزعيمين أعطيا لهذه الفئة المستضعفة حقا كانت قد حرمت منه فترة من الزمن طويلة بلغ مداها القرون الثلاثة ، وذلك جلى فيما كانت تضغط عليه الرسالة باصرار فى منح الحرية الدينية للأناس جميعهم حسبما تهوى أفئدتهم ، ولم يكن قسطنطين ورفيقه فى هذا المضمار صاحبى سبق ، فقد سبقهما الى ذلك جاليريوس سنة ٣١١ بل وجاللينوس أيضا فى القرن الثالث . وكانت البواعث التى حفزت الامبراطورين على انتهاج هذا السبيل هو الحفاظ على سلام الامبراطورية وأمنها كما افصحت عنه رسالة نيقوميديا كذلك ، وهى فى حقيقة أمرها دوافع محض سياسية(٦) . وفى ذلك يقول فازيلييف « لقد منح

---

(١) Jones, Constantine, pp. 13 - 14.

(٢) Ibid. 66.

(٣) Latourette, Christianity, p. 92.

(٤) EVSEB. vita Const. IV, 20.

(٥) Gibbon, op. cit., II, p. 308, n. 8.

(٦) C.M.H. I, p. 5; Thompson & Johnson, op. cit., p. 31.

قسطنطين وليكين المسـيحية نفس الحقوق التى كانت تتمتع بها الديانات الأخرى بما فيها الوثنية(١) .

معنى ذلك أن المسيحية لم تحقق على الديانات الأخرى تفوقا ملحوظا ، وان كان انهاء الكيان غير الشرعى للمسيحيين فى الامبراطورية ، واعلان الحرية العقائدية التامة قد قلل من شأن الوثنية بصفتها السابقة ديانة الدولة الرسمية وذلك بوضعها فى مصاف العقائد الأخرى(٢) ، ولم نشهد من قسطنطين مراسيم تحرم عبادة الأرباب الوثنية ، أو توقع بالوثنيين من أجل ديانتهم لونا من الاضطهاد كتلك التى عاناها المسيحيون على عهد الأباطرة الأسلاف . حقيقة منع قسطنطين — كما انبأنا يوساب — بعض الطقوس الخاصة بتقريب الأضحيات ، أو بتقديمها على الاطلاق(٣) ولكن المعابد الوثنية ظلت مفتوحة للعبادة العامة(٤) هـذا على حين أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية ، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، مخافة الانقسام فى الدولة . وقد جاء فى المرسوم الأول :

« على رنين هذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين **Novatians** والفالنتينيين **Valentinians** والمارسيونيين **Marcionites** والبيالصة **Paulians** أنتم أيها البلهاء **Cataphrygians** وجميعكم يا من تعضـدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية . انتبهوا الى أنكم بنسيج زيف وغرور، وسام الضلالة ومهلكها ، تحيكون عقيدتكم . من أجل ذلك ، وبكم تصاب بالداء كل روح طيب ، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم . يا كارهى الحق . يا أعداء الحياة . يا أحلاف الخراب . ان آراءكم كلها للحقيقة ضد ، تنضح بالخسة ، تغص بالسخافات والأوهام . بها تصوغون النفـاق ، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الايمان .

---

(١) Vasiliev, op. cit. I, p. 52.

(٢) Id.

(٣) EVSEB. vita Const. II, 45, IV, 23.

(٤) Richardson, op. cit. n. 1 c. 45 p. 511.

بآثامكم دوما تحت قناع التقوى ، تملأون بالدنس كل شيء ، وتنفذون بعميق الجراح فى نقى الضمائر ، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار . ولكن مالى أطيل ؟ ان الحديث عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه . فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة .. يقصر عن سردها يوم ، وكم يحسن بالمرء ان يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن الطوية . وانى لأسائل نفسى .. علام الصبر اذن على شر مستطير ، خاصة أن هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل . لم اذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث ؟ وما ذلك الا بأن نعلن على الملأ الاستياء(١) » .

ومكث قسطنطين غير بعيد ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرر فيه ما سبق ان حذر به فى السابق يقول :

« أما وقد ضاق الصدر عن تحمل وبيل ضلالكم ، فانا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد اى اجتماع . وبهذا أصدرنا أوامرنا .. نخرجكم من ديار جمعتكم وامتدت ارادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة . فلتدعوا اذن ذلك النفر منكم ، الراغبين فى اعتناق دين الحق ، ليسلكوا سبيل الصواب بالانضواء فى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها فى زمالة مقدسة حيث يستأهلون الوصول الى الحقيقة . ومهما يكن من امر فان هوس فهمكم الأضل لابد وان يحجم عن ان يشوب او يعطب غبطة زماننا ، نعنى ميلا مزدوجا لدى الهراطقة والمنشقين تعسا ملحدا . فانه من واجب الوفاء بالنعمة ، التى بفضل الرب منحنا ، ان نداب لنخرج

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 64.

> أولئك الذين عاشوا فى الماضى يحلمون بنعمة المستقبل ، من الشذوذ والآثام الى الصراط المستقيم ، من الظلمات الى النور ، من الضلال الى الحق ، من الهلاك الى النجاة، وحتى يصبح هذ الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا — كما قيل من قبل — بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة ، أقصد دور الصلاة ، ان جاز استخدام هذا اللفظ ، التى يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة ، ومصادرة أى مواضع لصالح الدولة ، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء . فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد فى السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما(١) » .

وأول ما نسجله على هذين المرسومين ، والثانى منهما بخاصة انهما يعتبران خروجا على السياسة التى جرى فى ميلانو رسمها سنة ٣١٣ ، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم ساسة ميلانو « سائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم ، وأن لا يحرم أى انسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين او فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه » . ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه ازاء سائر العقائد . بل لقد ذهب الى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك ، وليس حتما أن يتمثل الاضطهاد بايقاع العذاب البدنى بهم ، ولكنه أخذ هنا شكلا آخر فى تحريم اجتماعاتهم ما ظهر منها وما بطن ، ومصادرة دور عباداتهم . وهى اجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك . ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة . فقد ذكرنا أن الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية ، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة الى عدد من الفرق قليل أو كثير — اما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية فى الدولة ، واضحى لأتباعها صوت مسموع الى جوار اتباع الديانات الأخرى ، فان أى انقسام فى الرأى بين أولئك الاتباع لابد وأن

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 65.

يصر بالوحدة العامة للامبراطورية . ومن ثم عول قسطنطين على القضاء على أى مظهر من هذا النوع . وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية .

هذان اذن مرسومان أصدرهما قسطنطين ضد فرق مسيحية وقفت من الكنيسة الكاثوليكية مناوئة ، تفوح من جنباتهما رائحة عنف وتهديد ، وصيحات حرمان وتجريد ومصادرة ، على حين لم يصدر تجاه الوثنية وتابعيها شيئا من هذا القبيل ، ولم يخاطبهم بهذه اللهجة من العنف والصرامة ، وما فعل قسطنطين ذلك الا خوفا من تعميق هوة الفرقة فى الكنيسة ، ورأبا لصدع يزلزل وحدتها ، وقد يمتد أثره فيصيب بالهزات الدولة ، وبالانقسام امبراطورية ظل يكدح زهرة شبابه ورجولته من أجل وحدتها وحكمها فردا .

لقد كان اخشى ما يخشاه قسطنطين انقساما فى امبراطورية اتم على التو توحيدها ، فأدخل فى روع نفسه وجموع رعيته المسيحية أن خلافا بينهم لابد مصيب دولته بالدوار ، ومن ثم ماكان ليقبل مطلقا اىشقاق يقع فى صفوف الكنيسة ، وهذا واضح من صيغة هذين المرسومين ، ومن موقفه ازاء المشكلتين الدوناتية والمليتية ، والنزاع الآريوسى .

ولكن ماله يحرص على وحدة الكنيسة ويربط بها وحدة الدولة ، والمسيحيون كما علمنا يمثلون فى الامبراطورية أقلية مستضعفة ، والوثنيون رغم كثرتهم اشد منهم انقساما فى اربابهم ؟

يجيب المؤرخ الانجليزى هربرت فيشر **H. Fisher** عن ذلك بقوله: « لم يغب عن بصيرة امبراطور حصيف مثل قسطنطين ، ان اتخاذه الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام ، ويهديها الايمان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، اجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى(١) . ويقول ول ديورنت : « حقيقة ان اتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة . ولكنهم كانوا بالقياس الى غيرهم قلة متحدة مستبسلة قوية ، على حين ان الأغلبية الوثنية كانت منقسمة الى عدة شيع دينية ،

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٧ .

وكان من بينها عدد كبير من النفوس لا نفوذ لها فى الدولة ولا عقيدة(١) . لقد أمست الوثنية دينا باهتا ، وهيهات لمن تلك صورته أن تنجو على ظلاله الامبراطورية .

وقد لمس قسطنطين هذه الناحية بنفسه ابان تلك الفترة التى قضاها فى نيقوميديا ، حيث شهد بعينى رأسه تلك التحديات التى أبدتها القلة المسيحية فى وجه السلطات الحاكمة ، ومدى ما تحملته الجموع المسيحية من ويلات دون أن يتزعزع ايمانها أو تنكص على عقبيها ، وأدرك ايضا أن الوثنية التى يجاهد الأباطرة لبعثها ، قد دخلت فى طور من الكهولة مميت . وعلى ذلك ايقن قسطنطين أن القدر يجرى فى صف هذه القلة المستضعفة ، ولو وجدت من البشر أحدا يمد لها يد عون لسمت على ما عداها ، ولسبحت دوما بحمده .

ولم يمد قسطنطين للمسيحية فقط يدعون ، بل بسط لها راحتيه لتعلو بهما لا عليهما — سمت رفعة وازدهار . لقد كان قسطنطين يدرك مثل سلفه العظيم أوغسطس أن الامبراطورية فى حاجة الى بعث أخلاقى جديد ، بعد أن هوت فضائل الرومان الأقدمين خلال عصر قد سلف ، شهد فقدان الرومان الثقة فى أربابهم ، نتيجة لحروب أهلية وضعت على التو أوزارها ، ولفوضى عامة تردت فيها الدولة وجهازها الادارى بعد أن اثبت نظام الحكومة الرباعية الدقلديانى فشله ، ولأهواء ومطامح رفاق كان كلهم يتوق الى حكم الامبراطورية فردا . وكانت وسيلة البعث الأخلاقى بعد هذا الانهيار تعتمد على الدين ، وترسم قسطنطين خطى سلفه ، فبينما أحيا أوغسطس العبادات القديمة ، واحتضن ديانات جديدة من الشرق جاءت ، أبقى قسطنطين على الوثنية واعان ايضا ديانة من الشرق اتت ، وكان يوقن تماما أنه بعونه اياها قادر على ان يضيف الى جنده فيلقا آخر يسبح بحمده ويشكر له جميل نعمائه ، فى وقت لا تجد فيه الفيالق الأخرى مبررا واحدا للتخلى عنه ما دام هو على دينها مبق .

---

(١) ديورنت : قصة الحضارة ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٨٨ .

ولقد استطاع قسطنطين أن يأسر الكنيسة بما أغدقه عليها من الخيرات ، وبما أولاها من نعم ، فكسب ولاء رجالاتها وتأييدهم ، وكان الامبراطور فى مسيس الحاجة لمدد هؤلاء القوم يعتمد عليهم فى تسكين خواطر رعاياهم لما يعلمه عن نفوذهم الكبير عليهم . لقد غدا رجال الكنيسة فى حكومة قسطنطين « شرطة نبيلة » أمل فيها الامبراطور أن تحفظ بالهدوء الأمن ، وتنشر بالسكينة السلام . ويقول سباين « لقد كان السبب الحقيقى لاعتراف قسطنطين للكنيسة بمركز قانونى خاص هو ما تخيله عن قدرتها على مد تأييدها للدولة »(١) .

يقول ول ديورنت(٢) — « لقد أعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحيين ، وطاعتهم لرؤسائهم الدينيين ، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة ، ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان . ولقد تعلم المسيحيون على يد رؤسائهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، وكان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان ، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين . وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية ، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها » . وليس ببعيد عن هذا الحديث قول صاحب كتاب « المسيحية والثقافة الكلاسيكية » من أن الاستبداد والحكم المطلق الذى يتطلب كبت الحرية السياسية لا يحمل بالضرورة عداء للعقيدة ، ففى هذا النظام من الحكم وجدت الكنيسة وما كان قد تبقى من التقاليد الجمهورية القديمة القواعد التى يمكن أن يتقارب عليها الاثنان . وفى قسطنطين وجدا حاميا لهما ، لقد كانت جسارة الامبراطور تكمن فى تلك الحقيقة الواضحة وهى أنه وجد الفرصة السانحة فاهتبلها(٣) .

من هذا الجانب نظر الدارسون الى مسيحية قسطنطين ، معللين

---

(١) تطور الفكر السياسى ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) ديورنت : نفس المصدر والصحيفة .

(٣) Cochrane, op. cit. p. 182.

عونه للمسيحية تعليلا سياسيا ، متكئين على ما واكب عطفه على المسيحيين من سلوك كانت وحدة الامبراطورية هدفه ومنتهاه ، وارضاء كل العناصر فى الدولة وسيلته ومسعاه .

يقول استروجورسكى **Ostrogorsky** .. من اليسير على المرء أن يجد من الأدلة ما يدعم وجهتى النظر المتضادتين بشأن مسيحية قسطنطين . ولكنه بدا واضحا للعيان أن سياسة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لم تثمر غير الفشل ، وظهر أن الاتجاه الشرقى فى الامبراطورية يعد مستحيلا مع استمرار العداء نحو الديانة المسيحية ، وقد اثبتت الأحداث أن قسطنطين كان رجلا ذا خبرات مع كل من الوثنية والمسيحية ، ولم يكن اتخاذه جانب المسيحية فى عام ٣١٢ يعنى أنه كرس نفسه لهذه العقيدة وحدها محطما كل التقاليد الوثنية ، وانه أصبح مسيحيا فى احساسه على النحو الذى سيصبح عليه خلفاؤه من بعد ، فقد سمح بممارسة الطقوس الوثنية ، بل وشارك فى بعضها أحيانا وخاصة ما يتعلق باله الشمس ، وكان اعتبار المسيحية دينا وحيدا فى الدولة يبدو شيئا غريبا بعيدا عن العقل فى عصر كانت أبرز صفاته ميوله الى المفاضلة ، ولابد أن ذلك هو عين ما بدا لقسطنطين(١) .

أما جونز فيقول أن تحول قسطنطين الى المسيحية يرجع الى خبرة دينية ، ولو أن دوافعه الأولى كانت اتمام السيادة العالمية ، ومن أجل هذا ظل حتى النهاية يستمد عونه من الرب لا من البشر ، ورغم ذلك لم يكن يهتم أو يعرف شيئا عن فلسفة المسيحية وآدابها عندما أصبح مهتما باله المسيحيين ، وكان ببساطة يرغب فى ان يسجل الى جانبه دائما تلك القوة الالهية التى أعتقد أنها هدته(٢) .

على حين يحدث نورمان كانتور قائلا .. من الواضح أن قسطنطين لم يكن قديسا ، ولكنه رأى نفسه رجلا صاحب رسالة ، دعى لينقذ الدولة الرومانية ويعضد الكنيسة المسيحية ، وجمعت افكاره المهمتين فى خط

---

(١) Ostrogorsky, op. cit. p. 43.

(٢) Jones, Constantine, p. 102.

واحد ، ووعى قسطنطين باحساسه أن الكنيســة يمكن أن تكون للدولة عمودها الفقرى ، ومن ثم فقد بذل محاولات يائسة ليحتفظ بوحدة الكنيسة مؤمنا أن الاله قد وهبه تفويضا شخصيا من أجل هذا المبتغى(١) .

ويجيء دور بوركهارت ليدلى بدلوه فى هذا الموضوع فيخبرنا أنه كثيرا ما تبذل محاولات للتغلغل فى ضمير قسطنطين العقائدى ولرسم صــورة للتغييرات التى يحتمل انها طرات على معتقداته الدينية ، وهذه كلهــا محاولات لا طائل وراءها . اذ أنه فى حالة هــذا الرجل العبقرى ، الذى شغلت مطامحه وتعطشه للسلطان كل لحظة من لحظات عمره ، من المحال ان يتواجد موضوع حول مسيحية ووثنية ، حول تدين نابع عن ايمان أو عدم تدين على الاطلاق ، مثل هذا الرجل بالضرورة لا دينى ، اذا توقف للحظة واحدة ليختبر شعوره الدينى الحق لأدى ذلك الى التهلكة . فعندما أدرك قسطنطين أنه كان مقدرا للمسيحية أن تغدو قوة عالمية اتخذها أداة من وجهة النظر تلك على وجه التحديد . لقد كان قسطنطين على استعداد لأن ينجز ويحتضن كل ما من شأنه أن يوسع دائرة سلطانه الشخصى(٢) .

ويجزم فيشر بأنه ليس فى استطاعة باحث أن يجرؤ على التأكيد بأن ذلك الامبراطور العسكرى القادر كان على الدين المسيحى ، لأنه وان لم يكن من المستطاع اتهامه بالقاء الأسرى من الجرمان للوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظارة . فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه . على أن جرائم القتل لا تلبث أن تصير نسيا منسيا فى عصر يطفح بحوادث العنف والحرب . وسرعان ما اختفت نقائص قسطنطين تحت ستار الأعمــال المجيدة التى جعلته الحوارى الثالث عشر فى عداد الحواريين(٣) .

ويتساءل فى النهاية ول ديورنت .. ترى هل كان قســطنطين حين تحول الى المسيحية مخلصا فى عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ؟ أم هل كان هذا العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر

---

(١) Cantor, op. cit. p. 47.

(٢) Burckhardt, op. cit. pp. 292-293.

(٣) فيشر : المصدر السابق ج ١ ص ٦ .

انظن ان الرأى الأخير هو الصواب . لقد أحاط قسطنطين نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين ، وقلما كان بعد تحوله الى الدين الجديد يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس ، ولم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الامبراطورية ، وكان يعامل الأساقفة على أنهم اعوانه السياسيون ، يستدعيهم اليه ، ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تقره اغلبيتهم ، ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ ، ولكن الآية انعكست فكانت المسيحية وسيلة لا غاية(١) .

خلاصة القول ان الكنيسة المسيحية كانت فى مطلع القرن الرابع أشبه شىء بغريق القاه قدره فى بحر لجى ، يتقاذفه الموج من كل ناحية . ويغشاه الموت من كل مكان ، وهو يأبى هذا ويصارع ذاك ، يتلفت يمنة ويسرة عله يجد فى النجاة بارقة امل .. وكان قسطنطين قارب النجاة للكنيسة المسيحية والمسيحية .. فلم تلبث ان تعلقت به ، بل وألقت بنفسها فيه جملة واحدة . بلا تردد ، وبلا وعى ، وفضلت ان تغوص فى القاع بدلا من أن يبتعلها اليم . وادرك قسطنطين بثاقب نظره كل ذاك . بل ولابد أن كان يدركه كله قبلا ، ومن ثم مد فى اللحظة الحاسمة يده لانتشال الكنيسة وقد أشرفت على الهلاك ، وساعده على ذلك مجريات الأحداث . نحفظت له الكنيسة جميل انعمه ، ففرض هو عليها بالتالى قاهر ارادته .

لقد حاولت الحكومة الوثنية ان تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية . فأخفقت فى ذلك ، وكان النجاح حليف قسطنطين حين حاول ان يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة(٢) .

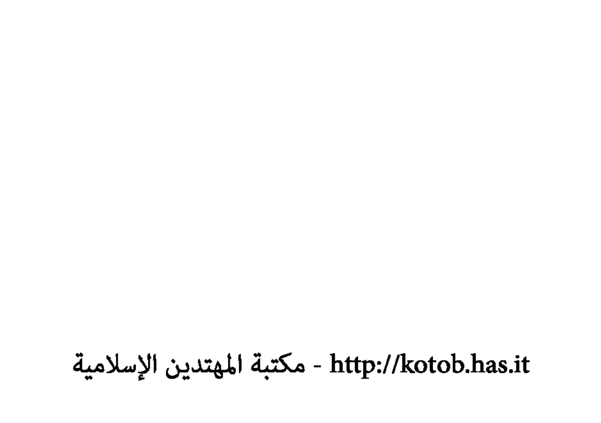
---

(١) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٢ جـ ٣ ص ٣٨٧ .

(٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥ .

الفصل الرابع

المسألة الدوناتية



لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفسه ان يرى فى الأفق ضباء وصليبا ، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر ، وما دار بخلده لحظة اتفق مع دليفه ليكين فى ميلانو ، أن يضعا عن المسيحية اصرها والأغلال التى كانت عليها ، أن رجالات كنيستها سيحملون الى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى ، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال ، وذلك شىء يخفق له قلب الامبراطور رعبا وهلعا ، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة .

كانت دنيا الامبراطور التى يحياها آنئذ غرب الامبراطورية ، والامبراطورية كلها عالمه الذى يأمل . اما وهو الآن سيد الغرب فحسب بعد ان دحر منافسه ماكسنتيوس ، فلا اقل من ان تكون الوحدة شاملة هذا الغرب .

فى سبيل ذلك حرر المسيحيين ، ولم يضطهد الوثنيين ، فضمن أن يقف الى جواره فى مشروعات له آتية لا ريب فيها ، عنصرا قاطنى جزء الامبراطورية الغربى . انه يتطلع الى الشرق ، وفؤاده يهفو اليه ، ولابد

أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده ، لا محل لخلاف أو نزاع ، ولا مجال لفرقة أو انقسام .

ولكن قسطنطين انتقل الى الشرق وترك وراءه غربا قد كلم ، يئن لجراح انقسام ألمت به ، ولم يستطع الامبراطور ازاءها أن يفعل شيئا . حقيقة حاول الكثير ، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح ، ولم يكتب لها فى عهده اخفاق ، بل كانت أشبه شىء بسياسة تهدئة . وصلت فى نهاية أمرها الى حد العنف ثم هوت الى لا شىء !

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة فى مسألة العقيدة ، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وانفسهم ، بل كانت نظرتهم لهم كلية ، تختلف من امبراطور لآخر عداوة أو مسامحة ، أما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة الوثنية قليل اهتمام ، أما وقد اعترفت الدولة الآن بحق المسيحيين فى حياة عقائدية حرة ، فانه أصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار الى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة .

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم اليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية أفريقيا ، ثم شخص الى ميلانو ليزف الى ليكين أخته ، وليحالفه الى حين ، وعلمنا أيضا ما انتهى اليه تحالفهما من اطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين ، وبدا لقسطنطين أنه قد وضع فى جيبه ورقة ربح جديدة ، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء فى بادىء الأمر تمشى على استحياء تقول ان فى كنيسة افريقيا انقساما ، وتدعوه الى تدارك الخطر ، وما تلك الا رسالة(١) بعث بها أنوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتيين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يرأسها كايكيليانوس آنئذ .

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام ، كما يتضح من رسائله الى نائبه فى أفريقيا والى أسقف قرطاجة (٢) ، ولكنه

(١) Jones, Constantine, pp. 103-104.

(٢) راجع الفصل الثالث .

لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها .

وتعود بنا الأحداث الى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الامبراطورية باحراق الكتب المقدسة ، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن ، وهوادة وعنف . فبعضهم آثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية ، وآخر استمع فى دهاء للنغمة الامبراطورية فألقى فى النار كتبا اخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، وثالث رافه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة ، واودع ما تبقى فى قلبه من ايمان معها قسرا أو طواعية ، عندما سعى الى الأوثان يضحى على مذبحها . وأخير رفض الاذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة ، وامتدت بالانقاذ للقلة منهم يد السماء !

وكان منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلا ، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة ، تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الراى لتستولى عليها السلطات الحاكمة ارضاء لرغبات الامبراطور، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا ، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك ، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم الى ساحة الشهادة باعلانهم ان فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها ، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها(١) . وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون اليه تسليم ما لديه مما يبتغون ، فصاح فيهم بأنه مسيحى وليس مارقا على الدين(٢) .

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها ، وساد الكنيسة سلام ، ولكن خلافات العقيدة والكنيسة ابت الا أن تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمنته الكنيسة طيلة قرون ثلاثة ، فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس ، وأخذ كل منهما يحدد موقفه ازاء من زلت فى

---

(١) S.M. Jackson, The new Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge, III; F. Jackson, op. cit. pp. 290-291; Lietzmann' from Constantine to Julian, p. 84.

(٢) Jones, Constantine, p. 105.

الخطيئة اقدامهم ابان فترة الاضطهاد ، فقربوا للاوثان ، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يدرءوا عن انفسهم الموت أو العذاب . وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الخطاة وقبولهم فى رعية الكنيسة .

ويقر القديس أوغسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن ينكر عليهم مراسيمه . وأن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم تعميده على نحو سليم يتوافق وطقوس الكنيسة الجامعة ويستقيم جوازه(١). ونرى أوغسطين يستطرد مؤكدا « .. فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية .. هـذا ما نجهر به وهم له منكرون ، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم .. ذلك شىء آمنا به وهم به كافرون ، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصواب فى شىء ، تلك حقيقة نعيها وهم عنها معرضون »(٢) .

« واذا ما أخفق انسان فى التوفيق بين اصرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جماعة دوناتوس ، وبين اعترافنا بأنه قائم بينهم فعليه أن ينتبه الى أننا ننكر تماما وجوده بينهم على نهج قويم ، وذلك فى مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه واياهم »(٣) .

وكانت المسألة فى جوهرها تمس شخص من يقوم بالشعيرة ، وتصل الى أغوار خلقه ، وتوغل فى صلاحه ، ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها ، ونظروا الى الاضطهاد كما لو كان قد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة ، يقفون والضد من الكنيسة الكاثوليكية ، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليها ، الهراطقة ، والمنشقين ، وتعتبر الدوناتيين فصلا فى الأخيرين ، وان كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية(٤) . ويحتج الدوناتيون على وضعهم فى عداد الهراطقة ، ذلك انه يمكن القول أن كل الهراطقة منشقون على الكنيسة ، فى الوقت

---

(١) AVG. bapt. I. 4.

(٢) Ibid. 1, 3, 4.

(٣) Ibid. 4.

(٤) S.M. Jackson. op. cit. Art. Donatism.

الذى لا يجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنيسية هرطقة(١) . اذ أن الانشقاق يقع لخلاف فى النظام الكنسى أو التعاليم .. على عكس الهرطقة التى تمس جوهر العقيدة .

ومما هو جدير بالذكر ، أنه بينما غرق الشرق الرومانى فى لجة عميقة من الصراع الدينى حول طبيعة المسيح ، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة ، أفلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكرى العميق العقيم ، وحصر نفسه وخلافاته فى دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية . ولا شك أن هذا يعود فى الدرجة الأولى الى التكوين الحضارى والفكرى لكل من المنطقتين ، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصة الاسكندرية وأنطاكية وبرجامه الى جانب أثينا ، بالمدارس الفلسفية العديدة ، والثقافات الاغريقية . بالاضافة الى الأصول الحضارية القديمة للشرق الهلنستى .

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التى يقوم بها غير المقدسين أو غير الثقاة من رجال الاكليروس ذاتهم ، وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الاكليروس القائم(٢) ، لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية ، فكل رجل دين سواء(٣) .

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هذا النزاع ويعلق عليه فيقول أنه لما كان زمن الاضطهاد الدقلديانى سلك حاكم ولاية أفريقيا جادة اللين ، فطلب اليهم أن يقدموا ، رمزا لنكران العقيدة ، الكتب المقدسة ، فارتضى ذوو اليسار المسيحيون هذا الرأى ، فلما انقشعت غمة هذا الاضطهاد ، الفى ذاك الفريق نفسه وقد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة ، راحت تحاج بأن القديسين الأطهار ، ولم يصب ايمانهم دنس ، هم وحدهم عمد الكنيسة ، واشاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قد فقدوا اهليتهم

---

(١) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(٢) Latourette, expansion oof Christionity, I, p. 348.

(٣) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.

ومسـيحيتهم لذلك . وراحوا ينادون بحتمية اقامة المعمودية على يد قسيسين شفافى النفوس ، هذا واكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الاكليركية سندا لحسن المعمودية ، لا السجايا والخلال . ذاك الخلاف . كنيسة للطهار ، والكنيسة الجامعة(١) .

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا ، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه ، وهى تمثل تحديا لاتجاه بدات المعمودية بمقتضاه تنتقل على مر الوقت الى محفل من البشر ينتظم مختلفا اخلاقيا ، مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة ، غير ان هذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد فى حد ذاته بعيدا عن ممارسيه ، وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها .

على هذا النحو راحت هوة الخلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين عليها ، الا ان ذلك كله لم يعد خلافا فى الراى ، وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصراع وتنقله الى حيز الواقع العملى ، وما لبثت الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط الموت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلى منصبه الشاغر(٢) .

اتجهت أنظار الكنيسة الكاثوليكية الى رئيس شمامسته كايكيليانوس **Caecilianus** وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده فى معارضته لمسلك أشياع كنيسة القديسين ، كما كان شديد التحمس لمبادىء الاعتدال فى النظام الكنسى(٣) . وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة فى اختيار أسقف قرطاجة(٤) ، ولكن أساقفة الفريق الكاثوليكى تغاضوا عن هذا العرف ، واقدموا فى شىء من العجلة على اختيار كايكيليانوس للأسقفية(٥) ، ويمكننا ان نعلل سلوكهم هذا

---

(١) Cantor, op. cit. p. 49.

(٢) Palanque-Bardy-Labriolle, Histoire de l'église depuis les origines jusque à nos jours, III, p. 42; F. Jackson, op. cit. p. 291.

(٣) McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

(٤) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism; Hefele, op. cit. I, 1, p. 266

(٥) Jones, Constantine, p. 106; Duchesne, Histoire ancienne de l'église, II, pp. 106-107.

بعلمهم ان اسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار ، فقد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفى نقيض ، ولما كان كايكيليانوس تلميذا لمنسوريوس فقد كان من البدهى أن يكون سكوندوس ورجال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهذا المنصب . ومن ثم ارادت كنيسة قرطاجة ان تضع خصومها امام الأمر الواقع .

من هنا عمد رجال الاكليروس فى قرطاجة الى سرعة اتمام اجراءات اختيار كايكيليانوس ، وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس **Felix** اسقف ابتونجا **Aptunga** ونوفللوس **Novellus** اسقف تيزيك **Tyzicum** وفاوستينوس **Faustinus** اسقف توبوربو **Tuburbo** . وتولى سيامته فيلكس **Felix** الأبتونجى(١) . وكانت كنيسة نوميديا قد ارسلت من لدنها مندوبين لحضور مراسم الاختيار ، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس **Donatus** اسقف مدينة **Casae Nigrae** (٢) . وهو غير دوناتوس الكبير الذى تولى الأسقفية بعد ماجورينوس اول اساقفة هذه الطائفة ، والذى يرجح أن تكون الطائفة قد اشتقت منه اسمها(٣) . وان كان من العسير حقيقة أن نجزم لأى من الرجلين تنسب(٤) .

الفى اساقفة نوميديا انفسهم وقد خرج الأمر من ايديهم ، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سبيل ينفذون منه لتحقيق اغراضهم ، ولما لم يجدوا فى شخص كايكيليانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه ، اشاعوا ان الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم ، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب ، ولكن هذا لم يكن شيئا الى جوار الاعتراض الاخر القائل بأن فيلكس مارق ، لما اتاه ابان فترة الاضطهاد(٥) . وعليه يغدو رسم كايكيلياتوس غير ذى صلاحية . وقد

---

(١) Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit, p. 84.

(٢) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(٣) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III 43; Hefele, op. cit. I, 1, p. 270.

(٤) Adictionary of Christian biography, art. Donatism

(٥) Ibid. McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.

حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد ، فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية . ولكن أساقفة نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس ، ولجوا فى عنادهم(١) . والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفا ، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفا وعزله ، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس(٢) ، ثم قام المجمع بارسال رسالة الى جميع أساقفة أفريقيا يطلعهم فيها على ما تم اجراؤه(٣) ، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة الى حزبين متضادين ، أحدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية ويتزعمه كايكيليانوس والاخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينوس **Magorinus** .

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين ، وراح كل فريق يجذب الى صفه الأنصار ، وينادى بأنه على الحق المبين ، وتلك كانت الصورة التى أضحى عليها الشمال الافريقى غداة انتصار قسطنطين على « طاغية روما » سنة ٣١٢ . وأنه لجدير بالملاحظة ان سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية ، ويتضح ذلك من أنه قصر اعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر انه على الحق ، وهو الكنيسة الكاثوليكية(٤) . وكان المصدر الذى استقى منه الامبراطور هذه الايضاحات هوسيوس أسقف قرطبة(٥) . ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى ، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل ، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف . وظل الامبراطور هكذا الى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر(٦) ، وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى اتخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الامبراطورية التى انعم بها قسطنطين على الكنيسة(٧) .

---

(١) Lietzmann, op. cit. p. 84.

(٢) Id.

(٣) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

(٤) EVSEB. hist. eccl. X, 6-7.

(٥) Jones, Constantine, p. 81.

(٦) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

(٧) C.A.H. XII. p. 692.

غير ان شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين ، ولنبحث عن هذا الشىء عند الامبراطور ذاته . ففى رسالته الى كايكيليانوس ، والتى يحـــدد فيها مبلغا من المال للكنائس(١) ، اختتم قسطنطين هـــذه بقوله :

> لمـــا كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة ، بخزى المزاعم ودنسها ، حق أن تعلم انى قد زودت انوللينوس البروقنصـــل ، وباتريكيوس Patricius نائبه ، عنـــدما كانا فى حضرتنا ، بأوامر فحواها أنه الى جانب كل مسئولياتهم الأخرى ، عليهم ان يبذلوا لهذا الأمر فائق عنايتهم ، وأن لا تغفل للحظة اعينهما عن تدارك اى حدث ، وعليه . فان عاينت أناسا ماضون فى عتههم ، فاشخص على التو الى موظفينا هذين ، واجل لهما القضـــية ، فيسلكان معهـــم حسب رأيى ، وليحفظك لاهوت الرب العظيم سنين عددا(٢) .

واضح من مقتطف رسالة قسطنطين انحيازه الى جانب واحد دون ان يتحقق فحوى القضية ، وهو فى اتخاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسبانى اليه . وسلوكه سبيل العنف ازاء فريق لم يسمع بعد شكايته ، تعطينا معنى واخدا لسياسته ، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث اى صدع فى رعية تملك زمام أمرها البارحة . وهذا هو ما يجعلنا نميل الى القول أنه بالاضافة الى حرمان الفريق الدوناتى من الهبة الامبراطورية ، فان احساس هذا الفريق بميل دفة الدولة الى خصومه دون تقص للحقيقة أو تمحيص ، جعله يبعث الى الامبراطور بلتمسا .

كان رجاء الدوناتيين الى الامبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية ، فالدوناتيون لم يلجأوا للبابا مباشرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية ، وان لم تكن البابوية بعد قد حققت سموا فى المرتبة ؛

---

(١) راجع الفصل السابق .

(٢) EVSEB. hist, eccl, X, 6.

وعلى ذلك فهو يخالفهم الرأى(١) . ولكنهم لجأوا الى الامبراطور رأس الدولة ، ولكن لا ليفصل هو بنفسه بينهم ، بل ليكل القضية برمتها الى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة . ذلك أن غالة لم تكن قد قاست كغيرها من ولايات الامبراطورية أثناء الاضطهاد(٢) . ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله : « انه لمما يجدر ذكره أن الأساقفة المنشقين لم يلجأوا الى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا ، فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة فى أفريقيا(٣) .

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول فى علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح ، وكانت سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة اذ عدت دعوة صريحة للتدخل فى شئونها الداخلية(٤) . لقد كانت الكنيسة طوال القرون الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخليــة ، وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات . ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئا ، بل لم يكن يعنيها فى شىء البتة . أما الان ، وقد أصبح على رأس الامبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية ، فلا عجب اذا رأينا الكنيسة تسعى اليه ، تعرض عليه خلافاتها ، وتضع أمامه ما يعتمل فى داخلها ، وتطلب اليه الرأى . وكان قسطنطين ذكيا غاية الذكاء ، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد فى هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته ، بما فيها الكنيسة ، حسب ارادته ووفق صالحه . وكانت تلك فرصة جاءته على غير توقع ، فاستغلها بغير انتظار . ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر ، عندما دالت الدولة البيزنطية ، لم يتخلف امبراطور واحد عن السير فى الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين ، وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة ، وهذه بتلك ، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما ، وقد لمس هذه الحقيقة حتى فى فترة مبكرة ، سقراط مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى ، حيث يقول :

---

(١) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.

(٢) Lietzmann, op. cit. p. 85.

(٣) Jones, Constantine, p. 104.

(٤) Backhouse, Early Church history to the death of Constantine, p. 372.

« اذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة ، عمت الفوضى شئون الكنيسة ، وكأن انجذابا روحيا يربط بينهما » .

الدوناتيون اذن يرغبون فى الاحتكام الى أسقف غالى ، وقسطنطين يبتغى اثبات ذاته فى القضية وسطوته للوهلة الأولى ، فعهد بفض النزاع الى البابا فى روما واشرك معه ثلاثة من أساقفة غاليا . وبعث برسالة الى اسقف روما ضمنها عدة معان :

« قسطنطين أوغسطس الى ملتيادس Miltiades اسقف روما ، والى مرقس[1] Marcus ، حيث أن رسائل عدة قد أتتنى من أنوللينوس العظيم ، بروقنصل افريقيا ، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه اليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا ، ولما كان الأمر يبدو لى جد خطير ، حيث أنه فى هذه الأقاليم التى وضعت العناية الالهية ثقتها فى اخلاصى لادارتها ، وحيث أنها منطقة بالأهلين آهلة . سوف يجد الناس انفسهم فى حالة من الشقاق ، وفى حال من الكآبة دائم ، والأساقفة فيما بينهم منقسمون . لذا قررت أن يبحر على الفور الى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته ، وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام ، فهناك يمكن سماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب . وذلك فى حضرتكم وزملائكم رتيكيوس Reticius[2] وماترنوس[3] Maternus ومارينوس[4] Marinus الذين أمرتهم بالاسراع الى روما لذات الغرض . وحتى تكون على علم تام بهذه الأمور فقد ضمنت رسالتى نسخا من الوثائق التى بعث بها الى

---

(١) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيادس المسن . راجع
Jones, Constantine, p. 107.

(٢) أسقف Auton فى غالة . ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتيين . راجع HIER. vir. ill. 82.

(٣) أسقف كولون

(٤) أسقف آرل . راجع McGriffert, op. cit. n. 23, 24 p. 381.

انوللينوس ، وأرسلت منها صورا كذلك الى زملائك المشار اليهم ، وحالة تسلمك اياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل ، حيث لا يخفى على فطنتك انى اكن كل اجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية ، ولى كبير الأمل ان لا تخلفوا وراءكم اى صدع أو انقسام ، ولتحفظك يا سيدى العزيز عناية الاله العظيم أعواما طوالا(١) » .

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذى لعبه قسطنطين فى أول اتصال مباشر بين الكنيسة والدولة ، فهو الذى اختار القضاة ، وعين مكان التقاضى وزمانه ، وحدد عدد المتقاضين من كلا الحزبين ، ورسم الخطوط العامة لسير القضية ، واوحى الى القضاة بمنطوق حكمهم عندما اعلن فى رسائله اليهم ان قلبه يحمل كل الاحترام « للكنيسة الكاثوليكية الشرعية » . حقيقة لقد كان قسطنطين يتفق اساسا والراى القائل به هوسيوس عن الحالة فى أفريقيا من اعتبار خصوم كايكيليانوس مردة منشقين ، وكان شديد الاقتناع بما ينطوى عليه الانشقاق من اخطار وبلاء ، وظل هذا الاقتناع قرين فكره حتى يوم رحيله الى عالم الموتى . ولكنه من ناحية أخرى اقدم الان على خطوة مستقلة ، واتجاه قضائى فى مسألة الفريق الذى احدث الشقاق ، وقرر من عندياته وجوب فحص القضية . فاختار القضاة ، ودعى الفريقين ، وكانت رسالته الى ملتيادس تحمل فى طياتها نغمة تفيض « مكتبية » ، لقد كانت حسب تعبير جونز اشبه شىء بمذكرة بعثت الى موظف مدنى »(٢) !! وليس أدل على صحة هذا القول من ان قسطنطين قد وجه رسالته الى ملتيادس وآخر يدعى مرقس على قدم سواء ، ولا ندرى من هو مرقس هذا ، وربما كان أحد مساعدى البابا ، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بها الامبراطور الى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية « التى يكن لها كل اجلال » !!

شىء آخر يجذب الاهتمام ، ذلك ان قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحداث على شيئين جاءت بهما رسالته ، فتلك مناطق عهدت اليه بحكمها

---

(١) EVSEB. hist. eccl. X. 5.

(٢) Jones, Constantine, p. 108.

عناية الرب القـــدير ، وهذه نعمة الفناها من قبل ، وهى أيضا أقاليم قد غصت بالسكان ، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى الى تحزب الأهـــالى الى أى الفريقين . وتلك نقطة على جانب كبير من الأهميـــة ؛ فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هناك ، وأصبح الســـلام فى غالة مســـتقرا بعد ذلك لفترة طويلة(١) . والامبراطور يعد لجولة جديدة فى الشرق . فلا اقل اذن من أن يضمن هدوء هذه المنطقة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لانجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير ، خاصة وان هذا الأقليم « الآهل بالسكان » ، على حد قوله ، يمكن الاعتماد على رجاله الأشداء فى قابل الايام . فاذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أن قمح روما كان يأتيها من شمال افريقيا(٢) ، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها ، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا اشد الحرص على استتباب الأمن والنظام ، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة .

اجتمع الأساقفة فى روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣(٣) ، لا بالطريقة التى أرادها قسطنطين ، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس ، والتى جرت عليها الكنيسة قبلا فى بحث مثل هذه المسائل التى تهم الكنيسة عقيدة أو تنظيما . ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على اجراء البابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا ، وانما هو اجراء شكلى ارتضته الكنيسة ، فلا ضير من اتباعه . فقد قام ملتيادس بتحويل ذلك المجلس الامبراطورى الى « مجمع كنسى » بعد أن ضم الى أعضائه خمسة عشر أسقفا من كنائس ايطاليا المختلفة(٤) فى ريمينى وفلورنسة وبيزا وكابوا وبنفنتو وتراكينا(٥) . وبحث المجمع القضية المطروحة أمامه ، وفى النهاية تمخضت مناقشاتهم عن تبرئة ســـاحة كايكيليانس من التهم التى وجهت اليه ورفض دعـــوى الفريق الدوناتى(٦) .

---

(١) C.A.H. XII, p. 69.

(٢) Jones, Later Roman Empire II, p. 828.

(٣) Backhouse, op. cit. p. 373.

(٤) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. p. 45.

(٥) Lietzmann, op. cit. p. 86.

(٦) Hefele, op. cit, I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 112.

ومن رسالة قسطنطين الى أسقف سيراكوزا نتبين ان الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما ، محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح ، وانهم تعجلوا فى اصدار حكمهم ، وفى هذه الرسالة شرح الامبراطور للأسقف الأمور من بدايتها واطلعه على سير الأحداث منذ اللحظة التى وصلته انباء هذا النزاع ، قال :

« لما كان البعض فى خبث وزيغ قد افسحا للشقاق بينهم مكانا ، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة ، وقوة السماء ، والعقيدة الجامعة ، حدتنى الرغبة فى أن أحسم هذا الجدل ، فأصدرت امرى بأن يجىء من غالة بعض اساقفة، وان يستدعى من افريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا . ففى مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة . ولكن الذى حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه ، والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسة ، فلم يضع للعداوة حدا ، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره ، وزعم أن أولئك الذين أدلوا بفكرهم وقراراتهم كانوا قلة ، او انهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل ان تفحص بدقة امور غاية فى الأهمية . من اجل هذا فان هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام ، أمسوا ، ويا للعار والشناعة ، على أنفسهم منقسمين ، وغدوا اضحوكة رجال أرواحهم عن العقيدة المقدسة بعيدة . لذلك يبدو لى ضروريا ان هذا الانقسام ، الذى كان من الواجب توقفه نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم ، يتعين على الفور ، أذا كان ذلك ممكنا ، شجبه بحضور الكثيرين(١) » .

واول شىء نلمسه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها ، وما ذلك الا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم آماله . وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك ، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع « على الفور » تفصح عن مدى

(١) EVSEB. hist. eccl. X. 5.

قلقه وهلعه . فنحن الان فى عام ٣١٤ ، واذا علمنا أن الامبراطور قد وجه الدعوة الى أساقفة الغرب لعقد اجتماع جديد فى مدينة آرل Arles قبل نهاية اغسطس ، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكين قد نشبت فى أكتوبر(١) ، وانه كان يعلق على هذه الحرب اهمية بالغة لما يبتغيه من ضم اقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال(٢) ، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام فى الشمال الافريقى ، ويتحرق شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية . فما كان له أن يواجه عدوه ، وظهره بسهام الفرقة يطعن !

لهذا كتب الامبراطور فى رسالته السالفة يقول :

« لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق ، وذلك قبل نهاية أغسطس ، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب اليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية . يقع عليهما اختيارك ، مضيفا اليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك ، واسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب ، ونحن على يقين أنه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق ، ذلك الذى لا زال بشكل معيب قائما ، وما جلبه الا جدل مخجل . فليصغ كل لما يدلى به الحزبان المتنازعان ، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور ، ولينته الأمر وفق الايمان الأمثل ، وليعد من جديد أخوى الوئام . متعك بالصحة سنين عددا اله مقتدر(٣) » .

والى آرل ، ومن كل بقعة يمتد اليها فى الغرب سلطان قسطنطين ، توافد الأساقفة(٤) لحسم هذا الجدل ، واعادة النظر فيما سبق أن قرره مجمع

---

(١) Gibbon, op. cit, I, p. 464.

(٢) راجع الفصل الثانى .

(٣) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

(٤) C.A.H. XII, 693.

روما ، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقوله « لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القرار الرومانى والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم(١) .

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التى أقدم عليها الامبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولى فى ذلك . واذا كان قسطنطين قد فوض المسألة فى أول الأمر الى ثلاثة من أساقفة غاليا ، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف الى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا ايطاليا ، فانه فى هذه المرة قد وسع دائرة قضاته حتى يكون الحكم الذى يصدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا . فمجمع آرل اذن يمثل من هذه الزاوية « العالمية » . ولكن فى النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الامبراطورية الغربى(٢) . وقد حرص الامبراطور على ابراز هذه الناحية فى رسالته مرتين فى قوله « يتعين على الفور اذا كان ذلك ممكنا ، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين » والأخرى عندما ذكر أنه أمر « أن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق » .

وفى أول أغسطس ٣١٤ اجتمع فى آرل ثلاثة وثلاثون أسقفا(٣) . ومع ان الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب(٤) ، الا أن هذه هى التى تعنينا هنا ، وقد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها اليهما الدوناتيون(٥) ، وأيد الحكم الذى أصدره قبلا مجمع روما . وكان ذلك بالطبع يعنى ادانة الدوناتيين ثانية(٦) . وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصورة من قراراته الى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها فى مختلف الكنائس(٧) .

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع ، وهىء له أن حكما اشترك

---

(١) C.A.H. XII, 693.

(٢) Hefele, op. cit. I, 1, p. 277.

(٣) McGiffert, op. cit. p. 382 n. 32; Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.

(٤) Lietzmann, op. cit. p. 88; Hefele, op. cit. I, 1, pp. 280-295.

(٥) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(٦) Jones, Constantine, p. 112.

(٧) Lietzmann, op. cit. p. 89.

فيه اساقفة الغرب اللاتينى على هذه الصورة من الاجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة الى هذه المنطقة ، وما لبث قسطنطين أن هاجم اراضي حليفه ليكين سنة ٣١٤ ولم ينته العام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكين فى أوروبا عدا تراقيا . فحقق بذلك بعض حلمه ، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بها عبر البسفور الى جناح الامبراطورية الشرقى ، ولم يكن قسطنطين يتصور ان مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعد مجمع آرل . غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى ، ذلك أن الدوناتيين رفضوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير ، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا ، اذ لجأوا الى الامبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع(١) .

وجد قسطنطين نفسه ازاء موقف جديد تماما . فالدوناتيون قد رفضوا لمرتين على التوالى حكم رجالات الكنيسة ، وها هم الان يحتكمون الى الامبراطور طالبين اليه نظر قضيتهم بنفسه ، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة ، ولم يرفضه فى نفس الوقت جملة ، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الاقدام والاحجام(٢) ، غير انه فى نهاية الأمر قرر اجابة ملتمسهم ونظر قضيتهم . فدعا الحزبين للمثول بين يديه فى روما سنة ٣١٥ حيث كان الامبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه(٣) ، فلبى الدوناتيون الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر(٤) فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لاصدار حكم غيابى ضد أسقف قرطاجة ، واستعدوا لمغادرة المدينة ، ولكن قسطنطين اعتقلهم(٥) ، وفى نوفمبر ٣١٦ انتقل الامبراطور الى ميلانو(٦) ، واليها أحضر الأساقفة الدوناتيين ، واستدعى اليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب الى حضرة الامبراطور(٧) . وفصل قسطنطين بين المتنازعين ، وما كان ليخرج فى قراره عما أقره قبلا مجمعا روما وآرل . ويتساءل

---

(١) C.R.H. XII, p. 693, Hefele, op. cit. I, 1, p. 296.

(٢) Id.

(٣) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

(٤) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(٥) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

(٦) C.A.H. XII, p. 693.

(٧) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

البعض فى عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين واهماله اياهما ، والتلاعب بهما من روما الى بريشا الى ميلانو ، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث ، وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التى صدرت فى روما وآرل للوصول الى هذه النتيجة التى انتهى اليها الامبراطور(١) !

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن احتل مركز الفيصل فى شئون الكنيسة . ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة ، فقد غدا مهيمنا على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه ، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب اليه أن يعيدها حقا سلبه اياها . فقد أعطاها الكثير . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه الى ما هو أخطر من ذلك ، ألا وهو تعيين الأساقفة ! .

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكيليانوس ، وانكر على الدوناتيين حججهم ، رأى أن يخلص هذا الاقليم من أسباب هذا النزاع ، فأبقى لديه زعيمى الفريقين كايكيليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس ، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius الى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا الخلاف(٢) . غير أن سياسة الحل الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقه قسطنطين عليها ، اذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا الى أفريقيا حيث تبعه كايكيليانوس(٣) . وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه وخاصة بعد أن جاءته الأنباء من نائبه فى أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين(٤) ، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحة مع مختلف العقائد ، أول اضطهاد فى المسيحية . فقد أمر قسطنطين بمصادرة كنائس الدوناتيين وبيعهم(٥) ، وجرت كثير

---

(١) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, pp. 48-50.

(٢) Ibid. 48.

(٣) Jones, Constantine, p. 119.

(٤) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 49.

(٥) C.A.H. XII, 693; Hughes, A history of the Church, p. 5.

من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق(١) مما جعل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هـذا القمع العسـكرى فى عداد الشهداء(٢) . ويبدو أن الفوضى فى الولاية الأفريقية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحلية عن قمعها مما اضطر الامبراطور الى ارسال قوة عسكرية بقيادة أورساكيوس ursacius (٣) ، لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصـدى لها .

بعد قسـطنطين باجراءاته هذه عن الصـواب ، وجر على نفسه واقليمه هذا كثيرا من الويلات ، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الاخرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم . واخذت مبادىء الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما اضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجة العطايا التى حصلت عليها من الامبراطور ، والتى لم تتذوق منها هذه الطبقات شيئا . فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس ، وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح ، واشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا(٤) ويعلق احد المؤرخين على ذلك بقوله « لابد لنا أن نعترف ان كل هذه الأحداث كانت أولى ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة(٥) » ، وبلغت ذروة التحـدى من جانب الدوناتيين للامبراطور ذاته عندما ارسل اليه أساقفتهم يقولون أنهم لن يتعاملوا قط مع أسقفه الوغد ، وأنهم على استعداد لتحمل أى عذاب يفرضه عليهم(٦) .

عندها ادرك قسطنطين أن عليه أن يختط لنفسه سياسة جديدة ، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء . فأرسل فى عام ٣١٧ الى نائبه فى أفريقيا والى كايكيليانوس والأساقفة الكاثوليك باتباع سياسة جديدة تقوم على

---

(١) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(٢) C.A.H. XII, p. 693.
(٣) Lietzmann, op. cit. p. 91; Backhouse, op. cit. p. 375.
(٤) F. Jackson, op. cit. p. 294.
(٥) Backhouse, op. cit. p. 376.
(٦) Jones, Constantine, p. 1[illegible].

الاعتـــدال والتسامح(١) وارســـل هو بدوره أوامر بالسماح للأســـاقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة الى ديارهم(٢) .

وفى ٥ مايو ٣٢١ أرسل الامبراطور مرســـوما الى نائبه فى افريقيا بالعفـــو عن الدوناتيين وان ترد اليهم كنائسهم المصـــادرة(٣) ، ثم دعى الفريقين الى حل مشاكلهما عن طريق السلام ، وليس ادل على ذلك ممـــا اقدم عليه الامبراطور ذاته ، فقد بنى كنيسة للكاثوليك فى Cirta ، فقام الدوناتيون بالاستيلاء عليها ، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الامبراطور طالبين منه المساعدة ، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه ، فقد أمر الامبراطور بارساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب(٤) . ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسة لأنه كان على وشك الدخول فى صراع مع ليكين ومن ثم لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هذه المتاعب التى تشيع الانقسام ، كما أنه لم يكن راغبا أيضا فى ان يتحـــدث عنه الشرق المسيحى ــ الذى كان الامبراطور يتطلع اليه فى لهفة ــ على انه امبراطور مضطهد ، فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم(٥) ولم تحاول الحكومة التدخل فى هذه المشكلة حتى نهاية عهـــد قسطنطين(٦) .

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة فى العلاقة بين الدولة والكنيســة ، خاضها قسطنطين . وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة ! ولئن كانت جهوده قد أتت اليه بغير ما اشتهى ، الا انه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى فى شئون الكنيســة . ذاك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه ، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للامبراطورية حياة .

---

(١) F. Jackson, op. cit. p. 295; A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(٢) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(٣) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 51.

(٤) Lietzmann, op. cit. p. 92.

(٥) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.

(٦) F. Jackson, op. cit. p. 295.

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث فى الغرب الامبراطورى نتيجة خلاف فى النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية ، الا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى فى اتخاذها سبيل العنف من بعد . فأثرياء المسيحية هم الذين أذعنوا للاوامر الامبراطورية زمن الاضطهاد الدقلديانى الجاليرى وقربوا للارباب ، فى الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة ، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد ، وراح يغدق انعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم ، وأعيدت للكنيسة والاثرياء أملاكهم ، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة ، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الأثرياء ، والكنيسة الكاثوليكية ، متخذة من المبادىء الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها . ويتضح هـذا بصورة جلية فى الهجمات التى شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سراة المسيحية فى ولايتى أفريقيا ونوميديا .

ولا يبعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هذه المنطقة ، الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد ، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية ، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة ، اذ كانت أفريقيا تمثل الى جوار مصر قبو الحنطة للامبراطورية . وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes الى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية « حرب الفلاحين »(١) .

---

(١) Hughes, A history of the church, p. 6.



الفصل الخامس

الآريوسية والمليتية



توارت بالحجب أنجم ليكين ، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر فى خريسوبوليس تعلن فى الملأ أن هذا قد أصبح للامبراطورية العاهل الأوحد ، واذا بقسطنطين يخر سجدا يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب ، واغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة ، فاذا الامبراطورية كلها طوع امره ، واذا هو لبشرها سيد !!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوه ، وراح يعود الى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق ببصره اليباب والوديان ، تجاه تلك البقعة القصية التى يهواها فؤاده ، الشرق ، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة مذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكانا عليا ، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميان ، ثم كيف تألب عليه ، وما كان من امر ماكسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكين وحربه ضده . وافاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقد غدا سيد الامبراطورية الواحدة الأوحـــد .

ولم يغب عن بال الامبراطور طيلة هذه الرحلة الشاقة انه قد أنقذ من الضياع المسيحيين ، وشد من ازرهم ، وأنعم بالكثير عليهم ، وكم آلمه أن يرى وحدتهم فى الشمال الأفريقى تنفصم ، وأن يرى جهوده فى لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد ، وكم أمل أن يجد فى الشرق تلك الوحدة الدينية التى افتقدها فى الغرب(١) . وهىء « لمحبوب الرب » أن وجوده فى هذه الأقاليم الجديدة التى تزخر بأشياع المسيحية والتى فيها نبتت هذه ، سيهىء له ضمينا قويا يمده العون ، ويكفل له النجاح ، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام(٢) .

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين فى الشرق بأسعد حظا منه فى الغرب ، فاذا كان دوناتيو المغرب افسدوا عليه بهجة نصره على « طاغية روما » فان آريوسيى المشرق والمليتيين قد عكروا عليه صفو غنمه حليف الأمس ليكين ، ولم يكن قسطنطين ليسمح لجمهور النظارة فى هذه البقعة أن يشهد مسرحية « الانشقاق » التى كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا . ولم يكتمل بعد مشهدها . فقد كان قسطنطين يعى تماما أن أى حادث كذلك الذى جرى فى ولاية افريقيا يتعرض له الشرق لابد وان يعصف بجهوده وآماله تماما . فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت . ولابد ان يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى!!

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الامبراطورية الفرد حتى حملت اليه رياح الشرق انباء حدوث انشقاق فى كنيسة الاسكندرية ، وأن هذا قد تخطى هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى ، ولم يكن قد ذهب من مخيلة الامبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة فى الولاية الافريقية نتيجة انشقاق كنسى ايضا ، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان .

وقد كان طبيعيا أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة فى الاسكندرية .

---

(١) C.A.H. XII, p. 697.

(٢) EVSEB. Vita Const. II, 67.

فقد كانت لقرون خلت مركزا لثقافة فى الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار(١) . فلما جاءتها المسيحية ، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق ، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب ، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة ، وقدر لها بذلك أن تؤدى دورا بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا ، الى الحد الذى دفع واحدا من المؤرخين(٢) الى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد ، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بدمماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية .

وقد قدمت الاسكندرية للعالم المسيحى أشهر آبائه فى الفكر اللاهوتى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، كان أبرزهم على الاطلاق كلمنت **Clemens** (حوالى ١٥٠ — ٢١٥) ، واوريجن **Origenes** (١٨٥ — ٢٥٤) وديونيسيوس **Dionysius** (٢٤٦ — ٢٦٥) ، وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق ، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين والعلم(٣) .

وكان الخلاف فى الرأى بين آريوس **Arius** رجل الكنيسة السكندرية ، واسكندر **Alexander** أسقفها ، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهى العلاقة بين الآب والابن ، الكلمة المتجسدة(٤) ، داعية هذا الجدال الذى اشتد أواره بين كنائس الامبراطورية على حد قول الامبراطور نفسه فى رسالته اليهما(٥) .

أما معلوماتنا عن آريوس فنستقيها من مخاصميه . وان لم ينكر عليه

---

(١) F Jackson, op. cit. pp. 269-270.

(٢) Creed, Egypt and the christian church, p. 300.

(٣) Vasiliev, op. cit. I, p. 54.

(٤) Thompson, op. cit. p. 39; Latourette, expansion of Christianity, I, p. 348; Painter, op. cit. p. 16.

(٥) EVSEB. vita Const. II, 69.

هؤلاء واسع علمه واطلاعه واضطلاعه من المنطق حتى انه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها(١) ، الا أنهم عارضوه الرأى حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة ، وذلك شأن مؤرخى الكنيسة جميعا . ويخبرنا سوزومين(٢) — دون غيره — أن آريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitius أسقف أسيوط الذى انشق على كنيسة الاسكندرية فى أسقفية بطرس وشايع رأيه ، ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماسا على يد بطرس أسقف الاسكندرية ، وفى عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة ازاء الأساقفة المليتيين(٣) . ولما مات بطرس خلفه اشيلاس Achillas على الأسقفية(٤) ، وتمكن آريوس من الحصول على الغفران ، واعيد فى عام ٣١٣ الى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلا ، ثم رقى الى مرتبة القسيسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة(٥) .

ومن رسالة بعث بها آريوس الى صديقه يوساب أسقف نيقوميديا ، نعلم أنه كان تلميذ لوسيان Lucianus الأنطاكى(٦) الذى كان قد أسس بها مدرسة لتفسير الكتاب المقدس(٧) . وتدلنا الرسالة ذاتها على ان آريوس ورفاقه قد تأثروا الى حد كبير بتعاليم لوسيان ، ولقد شاع اخيرا مسئولية لوسيان عن العقيدة الآريوسية(٨) حتى لقد قيل أن مدرسة انطاكية لتفسير

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I. 5.

(٥) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٦) THEOD. hist. eccl. I, 4.

(٧) HIER. vir. ill. 77.

نشأت فى كل من الاسكندرية وانطاكية مدرستان لتفسير الكتاب المقدس . وقد اتخذت كل منهما اتجاها مغايرا للأخرى ، فبينما اعتمدت مدرسة أنطاكية المنهج العقلى ، سلكت مدرسة الاسكندرية سبيل التفسير الصوفى المجازى . وكان أشهر أساتذتها فى هذا المجال اللاهوتى السكندرى أوريجن .

(٨) Downey, A history of Antioch in Syria, p. 338; Lietzmann, op. cit. p. 107.

الكتاب المقدس هى موطن العقيدة الاريوسية ، كما كان لوسيان ، رأسها ، هو الآريوسى قبل آريوس نفسه(١) . ويصفه يوساب بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية(٢) .

اما تعاليم آريوس فنقف عليها من رسالة لاسكندر أسقف الاسكندرية الى سميه أسقف بيزنطة ، واخرى بعث بها الى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين آريوس والدوافع التى حفزته الى حرمه من الكنيسة ، ومن مقالات أثناسيوس **Athanasius** خليفته ورسائله ضد الآريوســيين وعرضه لتاريخ الآريوســية وردوده على ما اثاره الفريق الاريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية . ثم من رسالة آريوس الى زميله أسقف نيقوميديا يوساب ، ورسالة هذا الى باولينوس **Paulinus** أسقف صور ووثيقة ايمان آريوس التى قدمها الى قسطنطين بعد عودته من المنفى.

تضمنت رسالة الأسقف السكندرى الى صديقه الأسقف البيزنطى فى بدايتها اسفا بالغا لروح الشر التى نفثت سمومها فى نفوس أناس ضعيفى الايمان ، دفعتهم جسارة وقحة الى التهجم على الايمان القويم ، وتحذيرا مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول فى الكنيسة بزيف القول وغروره ، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمى هذه الحركة وهما آريوس وآشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك فى اطناب بالغ يشرح لزميله مبادىء آريوس ويورد الأدلة التى اعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس ، ويتولى الرد على هذه الفكر الآريوسية محاولا دحضها ، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هنا عنها فى رسالته الى عموم الأبســاقفة فى مختلف الكنائس(٣) ، ومن الرسالتين معا يمكننا أن نقف على آراء آريوس كما يراها اسكندر .

فالله عند آريوس لم يكن دوما آبا ، فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله آبا . وكلمة الله لم تكن دواما ، ولكنها من العدم نشأت ، فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له . وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا . ذلك أن الابن مخلوق . لا يساوى الآب فى الجوهر ،

---

(١) Vasiliev, op. cit. I, p. 55.

(٢) EVSEB. hist. eccl. VIII, 13; IX, 6.

(٣) THEOD. hist. eccl. I, 3.

ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب . ليس حكمته الحقة . انما هو أحد الخلائق . دعى الكلمة خطأ والحكمة . فهو قد نشأ بذات كلمة الله ، وبالحكمة الكامنة فيه — التى بها سواه الله وسواه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والكلمة غريبة عن جوهر الآب . بعيدة عنه ومنفصلة . والآب .. كيف يصفه الابن ؟ ! ان الكلمة لا تعرف الآب كنهه . والابن لا يعاين الآب يقينا . والابن لا يعرف ذاته الجوهر هو . من اجلنا جبل . يخلقنا الله به . به اذن يؤدى . لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا . واذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث فى الشيطان ما خجلوا عن الايجاب ، حاجين انه جبل وخلق ، فطبيعته للتحول قابلة(١) .

أما أثناسيوس ففى رسائله ضد الآريوسيين . وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية ، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الاطلاق عن شروح اسقفه اسكندر . ويضيف صراحة ان الفريق الآريوسى ينكر لاهوت المسيح ، فالابن عندهم ليس الها حقـــا(٢) .

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى ان الآب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا . فهما متعارضان بالضرورة على اساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق . ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين ، الهان لا متناهيان(٣) والابن ليس غـــير مولود وليس جزءا من غـــير المولود . ولا يستمد كيانه من مادة ، وانما بالارادة والقصد وجد قبل كل العالمين . وانه قبل أن ولد أو خلق أو قصد . لم يكن . لأنه كان غير مولود(٤) . وعلى ذلك فالله لم يكن دائما آبا . لأنه كان وحيدا ، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وجدت بعد ، ثم اراد الله أن يخلق موجودا معينا أسماه اللوجوس . الحكمة . الابن ، حتى يمكن ان يخلقنا بواسطته . ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله واخرى يشارك فيها الابن . كما ان فى الله لوجوس آخر

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 3; ATHANAS. depos. Ar.
(٢) ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.
(٣) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1784.
(٤) THEOD. hist. eccl. I, 4.

غير الابن ، وقد سمى الابن تكريما له باللوجوس(١) ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شىء ، سرمدية . اما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وانما هو احدى هذه القوى ، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق ، أما علاقته بالآب فهو مخلوق ، وآلة للخلق وأداة(٢) . والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات ، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال . الابن فى راى آريس قمة الخلائق ، غير متغير وثابت ، وليس كباقى المخلوقات، ولكن الثبات وعدم التغير هنا لا يعنى ثباتا فى ماهية الابن ذاتها ، ولكنه ثبات بحكم الواقع حسب ارادة الله(٣) . ومعرفة الابن بالله معرفة غير كاملة ، وذلك لأن الآب غير منظور للابن ، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماما الآب . وما يراه الابن وما يعرفه فانما يعرفه بالنسبة لقواه ، ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو(٤) .

خلاصة القول عند الآريوسيين أن المسيح لم يعد الهـا حقا ، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الاله الحق . وبالتالى فهم يرتبون على ذلك أن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقى أو بالحرى المستوى الانسانى(٥) .

ويشبه اسكندر اسقف الاسكندرية فى رسالته الى عموم الأساقفة آراء آريوس ورفاقه بآخرين سبقوهم قبل ذلك وادانتهم الكنيسة(٦) يقول :

---

(١) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) Id.

(٥) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786; F. Jackson, op. cit. p. 109; Davis, op. cit. p. 17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op. cit. p. 16; A dictionary of Christian biography. art. Arianism.

(٦) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود ، ومضيها الى طريق امم ، أن تخلت عن أسلوبها التبشيرى البسيط بمعجزات المسيح ، واختلطت بافكار هؤلاء الأمميين وفلسفاتهم ، واخذت عنهم واعطتهم ، ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحديات المفكرين والفلاسفة ، ونتيجة لذلك ظهرت فى المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح ، فى محاولة لارساء العقيدة المسيحية عـلى أسس عقلانية . وكان من بينها المرسيونية Marcionism نسبة الى مرسيون الذى فرق بين اله المسيح والاله يهوه ــ وأصدر عهدا جديدا غير العهد الجديد المعروف يضم انجيل لوقا ورسائل بولس فقط . والمونتانية Montanism التى نددت بتعلق المسيحيين بهذا العالم وازدياد

« ان هؤلاء الأفراد فى سعيهم الدائب بكل مغالطاتهم لانكار الوهية الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم(١) » ومن رسالته الى اسكندر البيزنطى يشير الى هؤلاء الأفراد وهم « ابيون Epion وأرتماس Artemas وبولس Paul السميسطائى أسقف أنطاكية الذى نادى بأن المسيح مجرد انسان وصل الى درجة الالوهية بكماله الخلقى ، وأنكر بولس اقنومى الابن والروح القدس ، معتبرا اياهما مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الانسان . وقد حرم على يد مجمع عقد فى سنة ٢٦٢ . ويذكر يوساب أن كلا من ابيون وبولس ينكران لاهوت المسيح ، كما أن ارتماس نادى بنفس العقيدة ، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوس Zephyrinus (٢٠٢ — ٢٢١)(٢)

وهذه الآراء احتوتها وثيقة هامة وهى رسالة بعث بها يوساب النيقوميدى الى باولينوس أسقف صور جاء فيها :

« البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين ، وما علمنا بانقسام الواحد الى اثنين ، ولم نع وعلى الاطلاق لم نعتقد أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد . ولكنا نؤكد أن الغير مولود واحد . وواحد كذلك الذى يحيا فيه بالحق . ولكنه من جوهره لم يجبل ، ولم يشترك أبدا والغير مولود طبيعة أو جوهرا . متميز تماما فى الطبيعة والاقتدار . جبل على شبه بالخالق سجية ومقدرة . انا نؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنه بالقول ولا حتى بالفكر ، كما أنها على البشر خافية . ومن من الكائنات منهم أعلى . تلك آراء ندعو بها لا لأنا من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتاب المقدس من حيث نعلم أن الابن خلق ، ثبت ... وقد قال

سلطان الأساقفة . وأتباع كيرنثوس Cryinthus القائلين بأن الله لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه . وفى القرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميسطائى . وفى القرن الرابع كانت دعوة آريوس .

(١) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(٢) EVSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

السيد « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعمـــاله منذ القدم ، منذ الأزل مسـحت . منذ البدء منذ أوائل الأرض . اذا لم يكن غمر ابدئت اذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه ، من قبل ان تقررت الجبـــال ، قبـــل التلال ابدئت » (أمثال ٨/٢٢ — ٢٦) .

ذلك انه لو كان من خلاله او منه . جزء منه أو منبثق من جوهره . لاستحال القول بخلقه . لأن ما هو من الغير مولود لا يمكن القول بخلقه ، ســـواء به او سواه . لأنه غير مولود منذ البدء ولكن اذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود ، تدعو البعض الى الجهر بأنه قد أتى من نفس جوهر الآب ، ويحمل من الآب فى الطبيعة شبها ، لأجبناهم انه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود، بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة ، فقد ورد على لسان بشر « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصـــوا على » (اشعياء ١/٢) وايضا « من ولد مآجل الطل » (أيوب ٣٨/٢٨) . والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكة لله فى طبيعته ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق ارادته . ليس هناك والحـــق اقول شىء من جوهره ، وانما كل ما فى الوجود من صنع ارادته . هو الله ، كل شىء قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته ، خلقت بمحض ارادته هو . كل شىء من الله »(١) .

ويصف آريوس آراء خصومه فى هذا الجدال بقوله « انهم يقولون بان الله على الدوم كان . وكذا الابن كان . مثلما يكون الآب . . الابن يكون ازلى . الاب لا يستبق الابن فى الفكر او لبرهة . ازلى الا له . ازلى الابن . الذى من الغير مولود مولود . الابن من الله »(٢) .

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 5.

(٢) Ibid. 4.

ويعطينا أسقف الاسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله :

« نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية ، بالآب الوحيد الغير مولود ، الواجب الوجود ، لا يتغير ولا يزول ، هو هو غاية الكمال . لايتكثر عليه نقصان او زيادة . معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل . رب الانبياء والرسل وكل القديسين ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود . ليس مولودا من العدم بل من الآب . على نحو لا يدركه العقل ، فوق التعبير . ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة . والاب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الالهية من الآب . ولا تزال فى آذاننا تتردد أصداء قول المخلص « ليس احد يعرف الابن الا الآب . ولا احد يعرف الآب الا الابن « (متى ١١/٢٧) . الابن لايتغير ، والآب . الابن لاينقص عن الآب شيئا سوى انه ليس غير مولود . هو الابن الكامل وصورة الآب التامة(١) .

هذان خصمان اختصموا فى دينهم ، راح كل يبشر بدعواه فى دوائر الكنيسة ، ويخبرنا سوزومين أن أسقف الاسكندرية لم يرد فى أول الامر ان يشجب هذا الجدل دفعة واحدة ، ولكنه فضل السماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره فى حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم(٢) . وسواء صح هذا القول أم ظللته سحابة من الشك ، فالذى يعنينا أن عديدا من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيرت فيها تلك النقاط موضوع الخلاف ، ولكن اتفاقا فى الراى لم يصل اليه الحزبان . وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وامر آريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الآب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية . ولكن آريوس لم يذعن لهذا الأمر ، فعقد اسكندر مجمعا فى الاسكندرية سنة ٣١٩ قضى بادانة تعاليم آريوس(٣) .

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(٢) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٣) Id.

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس، الا انه يبدو أن افكار الأخير قد لاقت رواجا بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الاسكندرية . ونقف على ذلك من رسالة اسكندر الى الاساقفة حيث يذكر أن من أرتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم .. أشيلاس Achillas الكاهن ، ايثالس Aeithales كاربونس Carpones ،وآخر يدعى آريوس Arius ،وسارماتس Sarmates ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius ، ولوقا Lucius يوليوس Julius ، ميناس Menas ، هيللاديوس Helladius جليوس Gaius (١) . هذا بالاضافة الى أن كثيرا من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه ايمانا منهم أن عقيدتهم هى الحق ، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم أن الآريوسيين قد أسيئت معاملهم وان حرمانهم ليس من العدالة فى شىء(٢) .

كان ذلك هو الوضع فى الاسكندرية فى مطلع عشرينات القرن الرابع ، غير أن الفريق الآريوسى رأى من الحكمة والحصافة ، على حد تعبير سوزومين(٣) ، أن يبحث عن نصير خارج المدينة ، فارسلوا من لدنهم مندوبين الى بقية المدن الأخرى فى الامبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين اياهم ، اذا ما ارتأوا أنهم على الحق ، أن يرسلوا الى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم ، واذا ما استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا اليهم يعلمونهم الايمان القويم(٤) ويعلق سوزمين على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله : لم يكن الاجراء الذى لجأ اليه فريق الآريوسيين عديم الاهمية ، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى الى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة ، وكتب بعضهم الى اسكندر يتوسل اليه الا يقبل أشياع آريوس فى شركة الكنيسة مالم يطلقوا آراءهم بلا رجعة ، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيما(٥) .

---

(١) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist eccl. I, 3.

(٢) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٣) Id.

(٤) Id.

(٥) Id.

ومن رسالة آريوس الى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطورية ، فقد جاء فيهـا ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم يوساب أسقف قيسارية ، ثيودوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وباولينوس أسقف صور ، وأثناسيوس Athanasius اسقف عين زربة Anazarbus أهم مدن كيليكيا Cilicia وجريجورى Gregorius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius اسقف اللد Diosopolis . ثم يضيف آريوس قائلا : وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius اسقف انطاكية ، هيللانكوس Hellanicus أسقف طرابلس ، ومكاريوس Macarius اسقف أورشليم(١) .

حتى ذلك الحين ، ورغم هذا الانتشار السريع للعقيدة الآريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطورية ، الا أن الدولة لم تسلك ازاءها بصورة ما . ذلك ان هذا الصراع الدائر فى الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ فى شيء . فقد كان ليكين لا يزال سيد الشرق ، وكان قد بدأ فى سنة ٣١٩ — كما قدمنا — يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها ، ومن ثم لم تختلف نظرته لاشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهى النظرة الكلية . ولم يكن امبراطور الشرق يخشى من هـذا الذى يدور فى الكنيسة رحاه ، فانقسام الراى فى الكنيسة المسيحية لا يضيره فى شيء ما دام لا يفرق بين مسيحى وآخر وحيث ان حكومته تقف من المسيحية جملة موقفا عدائيا .

اما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل فى داخلها من صراعات عنيفة ، وكان أسقف الاسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحال لراب هذا الصدع الذى أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير ، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث ، دعى الى عقد مجمع فى الاسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا ، وبلغ عدد من حضره اكثر من مائة أسقف قرر لعن آريوس واتباعه الذين سبق لنا ذكرهم بالاضافة الى سكوندوس

---

(١) THEOD. hist. eccl. I. 4.

Secundus : أسقف بطوليمايا Ptolemais احدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica (١).

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه ، ومن ثم رحل عن الاسكندرية شاخصا الى فلسطين ومنها الى نيقوميديا حيث صديقه يوساب الذى كان يحتل مكانة مرموقة فى القصر الامبراطورى(٢) وراح يشكو بثه وحزنه وما انزل به ورفاقه اسكندر من اضطهاد . وكانت رسالته السابقة اليه قد افصحت عن ذلك . حيث يقول آريوس : « لقد أمسينا نعانى تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا ، وما من حجر الا وقذفت به وجوهنا ، لفظونا ملاحدة خارج المدينة »(٣) .

دعا يوساب الى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا ، شرر اتخاذ جانب آريوس وكتب الى جمهور الاساقفة يدعوهم الى نصرة الآريوسيين وقبولهم فى الشركة ، وطلب الى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة آريوس ثانية الى الكنيسة(٤) . غير أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة ، وكتب بدوره الى أولئك الاساقفة يشرح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدة آريوس وعمد الاستقامة فى ايمانه « فانا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بايمان الكنيسة القويم ، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابى علما . فاذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم ، فلا تقبلوهم ، ولا تنصاعوا لرغائب يوساب ومشايعيه . وانه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولى دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكرا . انهم أعداء الرب للأرواح مفسدون(٥) .

هكذا تحزب الفريقان ، وازدادت فى واقع الأمر هوة الخلاف ، وعد الفريق الآريوسى رفض اسكندر قبول زعيمه فى الكنيسة ثانية اهانة بالغة ،

---

(١) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.

(٢) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٣) THEOD. hist. eccl. I, 4.

(٤) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٥) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.

فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية(١) . وارسل آريوس بدوره رسائل الى كل من يوساب القيسارى وباولينوس الصورى ، وباتروفيلوس Patrophilus البيسانى Scythopolis يلتمس السماح لنفسه وشيعته ، حيث كانوا قبلا قد وصلوا الى منصب القسوسية،بالتبشير والعظة(٢) . وتلاقت آراء، الأساقفة الثلاثة وغيرهم من اساقفة فلسطين عام ٣٢٣ حول تأييد وجهة نظر آريوس بالسماح له واتباعه بلقاء رعيتهم فى الكنائس كحالهم من قبل ، شريطة الخضوع لاسكندر ، آمرين فى نفس الوقت آريوس أن لا يدخر وسعا فى اعادة السلام مع الأسقف السكندرى حتى يرفرف على الكنيسة وئام(٣) .

على هذا النحو بدا للجميع ان كنيسة الاسكندرية تقف فى جانب ، وفى الآخر جل كنائس الشرق الرومانى ، ولاقت عقيدة آريوس على النحو الذى رأينا رواجا كبيرا فى الدوائر الكنسية ، فى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى. وزاد فى قوة آريوس انضمام أساقفة من ذوى الشهرة والمكانة الى صفه شأن يوساب النيقوميدى ، وباولينوس أسقف صور ، ويوساب أسقف قيسارية وغيرهم كثير(٤) . وغدت المسألة فى غاية الحساسية والأهمية بين الآريوسيين وخصومهم ، مجموعة تحاول جاهدة اقناع الرجال المثقفين ، واخرى تعتمد أساسا على الجموع ، الأولى كانت قلقة تتطلع الى ارساء العقيدة المسيحية على اساس منطقى عقلى والاخرى تعتمد العاطفة فى جوهرها ، وكان لابد أن تصطدم الطائفتان(٥) . وقد تشجع آريوس — خاصة بعد القرار الذى اصدره أساقفة فلسطين ، فعاد الى الاسكندرية ثانية ، وعقد انصار كل من الفريقين العديد من المجامع لاصلاح ذات البين ، أسفرت فى النهاية عن تعميق هوة النزاع بين الجانبين(٦) . وبذلك تعرضت الكنيسة لما لم تشهده من قبل ، حقيقة خرج عليها كثير من رجالها يدعون بآراء جديدة ، ويناوئونها السلطان ، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من الخطورة . وتأكل

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) EVSEB. vita Const. II, 61. SOCRAT. hist. eccl. I, 6.

(٥) Painter, op. cit, p. 16.

(٦) SOZOM. hist. eccl. I, 16.

الحسرة قلب مؤرخ الكنيسة يوساب لهذا الانقسام الذي يراه ماثلا فى الكنيسة بعد أن من عليها الرب بقبس من ضياء الحرية وسلام ، فيلقى تبعة هذه الأحداث على حساد المسيحية وباغضيها(١) .

تلك كانت حال الكنيسة ، ولم تكن الدولة أسعد حظا . ففى مطلع عام ٣٢٤ كانت لا تزال هناك صفحة من صحائف الحرب الأهلية فى الامبراطورية لم تطوها المقادير بعد ، وكانت أقلام من الدم مدادها قد أعدت نفسها لتخط عليها قصة حرب طال توقعها بين قسطنطين وليكين . ولم يكد العام يولى حتى هوى فى الظل سيد الشرق ، وخط يراع قسطنطين صحيفة نصره ونهاية حلم . وكم كانت فرحة الامبراطور الجديد عندما ايقن أنه قد أصبح بين ظهرانى المستضعفين ممن وهبهم الحياة(٢) .

وكم كان حزن قسطنطين عميقا عندما واتته الكتب تحمل له نبأ انقسام استفحل خطره فى كنائس الاسكندرية والمشرق ، ولم يكن الامبراطور قد أفاق بعد من هول صدمة الشقاق الدوناتى ، وها هو ذا يواجه انقساما أشد منه انقساما . ولم يكن قسطنطين يعلم أبعاد هذه التفرقة ، ولكن ما أثار شجونه ان يرى فى موطن المسيحية ، الشرق ، أمله ومبتغاه ، صدعا . ويقول سوزمين « ... لقد شاعت فى نفس قسطنطين الحيرة واستبد به الغضب وساده اضطراب لهذا الذى يرى »(٣) . حسب العقيدة تجرى لمستقرها فى درب الهدوء ، فوجد فتنة تسبح فى بحر الشغب .

عزم قسطنطين على أن يتدارك الامر منذ البداية ، وهيأت له نشوة نصره وزهو كبريائه أن بعض كلمات منه كافية لحسم هذا الأمر ، فاختار مستشاره فى الدين هوسيوس ليكون مبعوثه الى اسكندر وآريوس فى الاسكندرية(٤) . وحمله رسالة الى كل منهما تضمنت بالغ الحرص وعظيم القلق من أجل احلال السلام فى ربوع الامبراطورية(٥) ونوه بأنه عمل على

---

(١) EVSEB. vita Const. II, 61.

(٢) Ibid. 67.

(٣) SOZOM. hist. eccl. I, 16.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.

(٥) EVSEB. vita Const. II, 65.

تسوية النزاع الذي نشب فى أفريقيا(١) مشـــيرا الى الدوناتيين بذلك ، وأشار الى الشرق باعتباره مهد هذا الدين ، وكيف كان يأمـــل ان يجـــد نبه الوحدة والأمان(٢) . وأوضح الى أى حد اغتم وحزن نتيجة هذا الانقسام الذى حل بالكنيسة(٣) ثم عرض بعد ذلك وجهة نظره فىهذا الصراع ، قال :

« وبعد .. فأنا على يقين أن منبع الجدل الماثل هو ذلك . فأنت يا اسكندر عندما طلبت الى القسيسين ابداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس . أو بالحرى .. يحسن قولى ، عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فانك يا آريوس ، أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسنا أن تعمل الفكر فيه . ولئن خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان ، وها هو بينكما الخلف قد نشب ، بعد أن أغفلتما حق الأخوة ، ووقعت الرعية المقدسة فى تمزق حزبى . ولم يعد للجسد الواحد وجود !

والآن .. أكلاكما على استعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدرا واحدا فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه بارا قويما ؟!(٤) »

هكذا القى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعه الاحداث وحمل اياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق على الرأى الحر فكره . ويتسائل الامبراطور .

« كيف يا ترى يكون نصحى ؟!

خطأ فى البدأ أن تطرح القضايا على نهج هذا ، والخطأ بعد فى نقاشها ، فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب ، وتمليها روح صراع وليدة فراغ أسىء شغله ، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن ، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا ،

---

(١) EVSEB. vita Const. II, 66.

(٢) Ibid. 67.

(٣) Ibid. 68.

(٤) EVSEB. vita Const. II, 69.

بعيدة عن آذان الجموع . اليست قلة تلك التى تعى مثلها ؟ فهى أمور علوية ذات طبيعة خفية ، ولنقل أن واحدا قادر على ادراكها ، فكم يا ترى من الجمع يلم بها ؟! وحتى هذا الذى يعيها تراه لا يحيد عن سوى الصراط ؟ يتحتم علينا من ثم أن نقصد فى القول لاننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل ، ولئناستطعنا الى ذلك سبيلا فمن من السامعين عساه أن يفهم . فالرعية لسبب او لسبب قد تجدف أو تنشق(١) » .

فالخلاف كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه فى شىء قدر ما يعنيه جدل الرعية ، فلو أن آريوس واسكندر أغلقا على نفسيهما أبواب الكنيسة وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصولا الى لقاء ، ماحرك ذلك شعرة من راس الامبراطور ، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف ، فذلك شىء يثير غضب الامبراطور ويؤرقه ! فالناس على جهلهم سائرون الى فرقة او زيغ ، ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه ، وراح فى لهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات ، يحملهما تبعة الفوضى ، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع . قال :

« ولنر هل أصبنا حيث اختلفنا فى كلمات العبث والغباوة ان نعادى بعضنا بعضا ، وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما ، أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هى تافهة وضيعة ، سوقية هى . وخلة حمق صبيانى ، تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء ، ذلك حديث اقوله لكما دون رغبة فى قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه طبيعتها . وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها ، فعليكما ان صعب الوئام ، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل »(٢) .

واجتتم قسطنطين رسالته بقوله «أعيدوا الى اياما خوالى . ولبال

(١) EVSEB. vita Const. II, 69.

(٢) Ibid. 71.

غفت فيها جفونى حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة »(١)

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه فى أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الامبراطورية فى قسمها الشرقى ، وواضح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية .

جاء هوسيوس برسالة الامبراطور الى الاسكندرية ، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد الى الكنائس الأخرى . فدعا الى عقد مجمع دينى فى الاسكندرية عام ٣٢٤ قرر حرم آريوس ورفاقه(٢) . وعاد الى الامبراطور يحمل اليه أنباء اخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس واسكندر . وفى طريق العودة توقف فى انطاكية منتهزا فرصة وفاة أسقفها فيلوجون Philogonius حيث دعا فى ديسمبر سنة ٣٢٤ الى عقد مجمع كبير ضم الأساقفة من كل الاقاليم التى تنظر الى انطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية ، من كيليكيا وميزوبوتاميا فى الشمال حتى فلسطين جنوبا ، وكان المجمع فى جملته معاديا للآريوسية فقرر اختيار يوستاثيوس Eustathius خصم الآريوسية العنيد أسقفا للمدينة خلفا لفيلوجون(٣) ، وقرر المجمع أيضا ادانة العقيدة الآريوسية(٤) وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركيسوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس) ، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea ويوساب أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، وبعث المجمع بقراراته هذه لا الى أساقفة الشرق فحسب بل الى أسقف روما أيضا لاذاعتها فى الغرب(٥) .

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع انطاكية صراعا ظل خاصا بالقسم الشرقى من الامبراطورية عدة سنوات الى الغرب ، واضحى الجدال حول العقيدة الآريوسية يغطى كنائس الامبراطورية بضوضائه . وقد انعكس هذا

---

(١) EVSEB. vita Const. II. 72.

(٢) Ibid. 73.

(٣) Jones, Later Roman Emire, I, p. 86.

(٤) Downey, op. cit. p. 351.

(٥) Jones, Constantine, p. 150.

على سلوك الامبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التى اتسعت حلقة روادها ، فقد كانت النية متجهة فى أول الأمر ، بعد أن تبين اخفاق هوسيوس فى الاسكندرية ، الى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة انقره . وقد ظهرت هذه الفكرة أولا لدى المجمع الذى عقد مؤخرا فى أنطاكية(١) . على اعتبار أن هذا الجدل قائم فى الولايات الشرقية فلما أنبأ مجمع انطاكية البابا بحقيقة النزاع ، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب . قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونيا يضم أساقفة الامبراطورية كلها ، ليكون قرارهم عاما حازما . وراى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية **Nicaea** فى بيثينيا (مكانها الآن قرية ازنيق **Isnik** التركية)(٢) حتى يتمكن أساقفة ايطاليا وباقى كنائس اوروبا من حضور المجمع ولملائمة مناخها ، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم(٣) .

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى **Ecumenical** شهدته الكنيسة ، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الامبراطور قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية ويعد يوساب ذلك العمل من جانب الامبراطور اعترافا منه بأيادى المخلص البيضاء عليه(٤) ، وكان فى حد ذاته محاولة جديدة وجريئة لحل الخلاف الحادث فى الكنيسة . حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلا على عقد المجامع الدينية لادانة « بدعة » جديدة أو القضاء على « انشقاق » ، ولكنها كانت فى معظمها مجامع محلية **Synods** يلتقى فيها الأسقف والقسوس والشمامسة فى مركز كل ابروشية ، وربما اتسعت قليلا لتشمل كنائس الولاية أو الاقليم(٥) .

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا ، خاصة وان الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل ، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ ، ويمثل عالمية عالم

---

(١) **Downey, op cit. p. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 80.**

(٢) **Backhouse, op. cit. p. 399.**

(٣) **EVSEB. vita Const. III, 6, 7.**

(٤) **Ibid. 8.**

(٥) **Thompson & Johnson, op. cit. pp. 46-47.**

قسطنطين انذاك . الا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما اسفر عنه لقاء الاساقفة ، فلا يبعد اذن أن يكون الامبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضيا جملة وتفصيلا على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة . ولابد ان يكون قسطنطين قد وعى تماما مدى الخطورة التى تهدد وحدة الامبراطورية من جزاء هذا الصراع . فاذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولايةافريقيا وحدها ، فأخذت بذلك الطابع المكانى ، فان الاريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الاسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وهى مناطق طالما هفا اليها فؤاد الامبراطور وكم راودته آمال هدوء وسلام امل أن يجدها هناك . ومن ثم فقد اراد الامبراطور ان يحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب ، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه الى اعضاء المجمع ، يقول :

« أحسست وخزا فى روحى ، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية ، ومن ثم فقد حدثتنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر ، وعليه فقد دعوتكم للحضور ، وانى اذ اشعر بارتياح عظيم وأنا أشهد مجمعكم ، لعلى يقين بان آمالى ستغدو حقيقة اذا ما قدر لى أن أرى وحدة قراركم(١) » .

ثم ها هو قسطنطين يبتهل الى الاساقفة آمرا أن يجدوا طريقهم على الفور الى الوحدة والوئام قائلا :

« يارفاقى الاعزاء .. يا رجال الله ، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص .. بالله لا تتباطأوا .. لا تتوانوا ، لتبدؤن على التو فى نبذ دواعى فرقة شاعت بينكم ، ولتمحون ركائز جدالكم ، وما ذلك الا بأن تحتضنوا اغصان السلام ، فان فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقا رضى عنه الرب العلى ، وتقدمون لشخصى فضلا كبيرا .. أنا ولبكم والصفى(٢)

(١) EVSEB. vita Const. III. 12.

(٢) Id.

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الاساقفة ، بناء على دعوته ، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة وأن يظهر للرعية المسيحية مدى حرصه على نقاء العقيدة وحدبه على تخليصها من أية شائبة ، وذلك شيء نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة فى الاشتراك فى المناقشات الجدالية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس(١) رغم عدم الم[illegible]ه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته الى أسكندر وآريوس .

على اية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الامبراطور اعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها ، فكما كان الامبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن الاعظم **Pontifix Maximus** وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين ، فقد أراد بالتالى هنا أن يغدو رجل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الالهية ليقر على الأرض السلام ، وليمجد الرب فى الأعالى !!

ولم يقف دور قسطنطين عند حد ارسال دعوته الى الاساقفة وحسب ، بل تخطاه الى التكفل بنقل المدعوين الى نيقية ، فسمح للبعض باستخدام وسائل النقل العامة ، وأمد البعض الآخر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله بضائقة أو مشقة(٢) . ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا الى هناك يحدوهم جميعا الأمل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنها هذا الاجتماع(٣) . ومثل فى المجمع أساقفة من سوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآسيا وفريجيا وجالاتيا وبامفيليا وكبادوكيا ومقدونيا وآخايا وابيروس وتراقيا وأسبانيا ، كما حضره مندوبون من فارس وسكيثيا وبزنطس . اما سلفستر أسقف روما فلم يحضر وارسل فيتو **Vito** وفيكينتيوس **Vicentius** مندوبين عنه(٤) ، ويذكر سقراط أن قسطنطين

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 6-7.

(٢) Ibid. 6,

(٣) Id.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.

دعا الى الاجتماع اكسيوس **Acesius** أسقف النوفاتيين(١) ، ويضيف أن احدا قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوساب نفسه ، ويقول أنه تلقاها عن رجل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث(٢) .

ويختلف المؤرخون فى عدد اساقفة المجمع ، فيذكر يوساب(٣) أنهم حوالى ٢٥٠ أسقفا ، على حين يحددهم سقراط بـ ٣٠٠ أسقف(٤) ، أما سوزومين فيقول إن عددهم كان ٣٢٠(٥) ، ويخبر اثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفا(٦) وان كان عددهم عند ثيودوريت يصل الى ٢٧٠(٧) وربما كان هذا التفاوت راجعا الى تعمد هؤلاء ، وكلهم للآريوسية عدو ، اغفال ذكر اسماء الأساقفة الآريوسيين وان كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفا(٨) . وكان اغلب الحضور يمثل أساقفة الكنائس الشرقية اما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية . وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين فى الشرق على غرار اسكندر اسقف الاسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره من الآريوسيين ، ويوساب أسقف قيسارية ، ويوساب الأسقف النيقوميدى ، ويوستاتيوس اسقف أنطاكية ، وماركللوس اسقف أنفره ، ومكاريوس أسقف أورشليم(٩) .

ويرسم سوزومين صورة حية لما كانت عليه الحال فى نيقية عندئذ ، ويحدثنا حديثا شيقا عن اولئك الأساقفة شهود المجمع ، فبعضهم تحنى له الهام تقديرا لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس ، وبعض ثان تعرف فى

---

(١) نسبة الى نوفاتيانوس **Novatianus** أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما . الذى ناصب كورنيليوس **Cornelius** أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث ، العداء ، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة ، ويطلقون على أنفسهم المتطهرين . شأن الدوناتيين فى افريقيا والمليتيين فى مصر ، وكان سقراط المؤرخ يميل الى هذه الطائفة .

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.

(٣) EVESB. vita Const. III, 8.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(٥) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(٦) ATHANAS. hist. Arian. 66.

(٧) THEOD. hist. eccl. I, 7.

(٨) Duchesne, op. cit. II, 144.

(٩) SOCRAT. hist. eccl. I, 13, SOZOM. hist. eccl. I, 17.

وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع ، وثالث جمع هذا كله ، ومن الرجال من مهر فى الجدل وبرع فى النقاش . ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الأساقفة الى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد ان وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به او ظلم آلمه ، وغيرهم راح يتلمس اخطاء الآخرين ليقدمها فى شكاية الى الامبراطور طالبا منه العدل والقصاص(١) .

وفى ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع(٢) ، ويصور يوساب اللحظات التى سبقت دخول الامبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التى « شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء » ، ويمضى المؤرخ الكنسى بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على امبراطوره(٣) . ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به ، والذى كان هو أحدهم ، ثم يقول ان الأسقف الذى كان يحتل المكان الرئيسى عن يمين الامبراطور نهض وخاطبه شاكرا حسن صنيعه الذى اسداه للدين القويم ، مثنيا على فضائله وعظيم خلاله وسجاياه(٤) . وعلى الرغم من أن يوساب لم يفصح لنا عن شخص ذلك الأسقف ، الا انا نعلم من سوزومين انه لم يكن سوى يوساب نفسه(٥) .

انتهى يوساب من القاء كلمة الافتتاح والترحيب بالامبراطور ، فظللت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالامبراطور الذى ما لبث ان قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة :

> « أعزائى .. لكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد . والان وقد تحقق الأمل ، اشعر لزاما على ان اتقدم بالشكران لاله الكون ، فقد أنعم على بخير جديد ، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق ، فها انذا

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(٢) Hefele, op. cit. I, 1, pp. 416-419; Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. III, p. 83.

(٣) EVSEB. vita Const. III, 10.

(٤) Ibid. 11.

(٥) SOZOM. hist. eccl. I, 19.

اشهدكم وقد جمكم على الوحدة وئام عاطفة واحـــدة .
الى الله أبتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا وأن
لا يسمح لخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد واليه
اضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا ، بفضاء الطواغيت
الآثمين ، الا تقدم نفس أمارة بالسوء تحيـــك المؤامرات
الدنيئة من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ .
فالصراع الداخلى فى الكنيسة ــ يعد فى رايى ــ اشد خطرا
من اى حرب أو نزاع . ان خلافاتنا هذه تبدو لى اكثر
فاجعة اذا ما قورنت بأى شكل خارجى ، وعليه لمـــا كنت
بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الأعداء ، قدرت انه لم يعد
باقيا الا أن أقدم فرائض الشكر لله والثناء ، واشارك
بهجة هؤلاء الذين رد اليهم الله الحرية بى(١) » .

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى حفزته الى توجيه الدعوة اليهم للاجتماع ، وامله الكبير فى أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه ، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام . ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية ، الا أن الامبراطور القى كلمته باللاتينية ، ويبدو هذا امرا طبيعيا يتفق وقلة المامه باليونانية ، وذلك شىء نعلمه من يوساب وسوزومين(٢) . وان كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله أن قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للامبراطورية(٣) . خاصة وأن اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة(٤) .

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه اشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم ، ولكنهم بدلا من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا ، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات ، واستحالت القاعة الى ميدان يتبارى فيه

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 12.

(٢) EVSEB. vita Const. III, 13; SOZOM. hist. eccl. I, 20.

(٣) Jones, Constantine, p. 156.

(٤) Davis, op. cit. p. 18.

المتخاصمون(١) . فوقف الامبراطور بذلك على حقيقة ما كان يتمنى رؤياها ، ووضح له أن امل وحدة الامبراطورية عقيديا ليس بالسهولة التى طواها به سياسيا وعسكريا .

ومرت الأيام والامبراطور يشهد كل يوم مزيدا من هذه الشكايات ، فلما هاله ما رأى حدد يوما وأمر بالاتهامات وردوها فجىء بها ، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطبا ضمائرهم وعقولهم قائلا :

« ترى .. ما كل هـــذا ؟! ذاك شىء يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب يفصل فيه القاضى الأعظم .. أما أنا فلست الا بشرا مثلكم . وانه لشر لى أن تشملنى فى كل الأمور صلاحية ، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله !! ما كان لهم أن يقفوا واياهم طرفى نقيض . فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب ، وليحل بينكم الوئام . اذن .. لنطرح على التو شكاياتنا ، ولنعط كل اهتمامنا لشىء من أجله جئنا . ذلكم هو الايمان(٢) » .

وعليه فقد اصدر الامبراطور أمرا فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات واطعمت بها النيران(٣) .

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة ، ومحاولة التوصـــل الى صيغة للايمان ترضاها الكنيسة كلها ، وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعى اليها آريوس ليوضح عقيدته . وراح كل فريق يعرض حججه واسانيده، ولكنها لم تسفر عن شىء سوى شهرة اكتسبتها بعض الشخصيات منهـــا أثناسيوس السكندرى(٤) . وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع . ويمتدح يوساب صبر الامبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك . مثنيا على أولئك الذين أحسنوا الحديث ، مستهجنا

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(٢) Id.

(٣) SOCRAT. hsit. eccl. I, 8.

(٤) Id.

من أبدى ميلا للعناد والمهاترة ، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد ، بل انه قاد أحيانا أشد المتخاصمين وأعتاهم الى التسامح والوئام ، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثه الى الجميع ، ان يظهر بصورة جذبت اليه افئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم(١) .

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه ، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى الكنيسة يوساب يروى ذلك . كما رواه من قبل لأهل بيعته فى قيسارية فى رسالته التى بعث بها اليهم ابان انعقاد المجمع يقول : « لعله قد نما الى علمكم من مصادر اخرى ما تقرر بشأن ايمان الكنيسة فى مجمع الأساقفة العام فى نيقية . فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه . ونكن خشيتى من تسرب شائعات لا تتفق والصدق ، قدرت لزاما على ان أوافيكم اولا بصيغة الايمان التى عرضناها ، وأثنى بتلك التى نشرت مع الاضافات التى ادخلت على دستورنا ، وفيما يلى سأتلو عليكم ما قرأته فى حضرة امبراطورنا الورع ، والذى قيل عنه أنه على الحق المبين . ذلكم قانون ايماننا .

« وفق ما تعلمنا بادىء ذى بدء ، وما لقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا ، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسون والأساقفة وبه يبشرون . نؤمن نحن ، ونفصح على الأساس عن ايماننا . . نؤمن باله واحد . آب قدير . خالق كل شىء . ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ، كلمة الله . . اله من اله . نور من نور . حياة من حياة . الابن الوحيد المولود . أول من ولد دون سائر الخلائق ، مولود من الأب قبل كل الدهور . كل شىء به كان ، الذى من اجل خلاصنا تجسد ، وعاش بين البشر ، تألم وقام فى اليوم الثالث ، وصعد الى الآب وسيأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات . نؤمن بالروح القدس الواحد . نؤمن

(١) EVSEB. vita Const. III, 13.

بوجود ودوام كل ذلك ، الآب فى الحق هو الآب ، والابن هو الابن . والروح القدس هو الروح القدس ، كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشرا بالانجيل قائلا : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ١٩/٢٨) .

نحن مستمسكون بالايمان هذا ، وعليه نحيى حتى نموت ، لاعنين كل هرطقة دنسة ، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح ، أننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا مذ وعت نفوسنا ذواتنا ، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم انا بهـــذا آمنا وكرزنا .

« عندما افصحنا عن هذه العقيدة ، لم يكن هناك من يفندها ، بل أن امبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق ايماننا ، وتوافقت معها آراؤه ، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها ، وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف اليها عبارة واحــدة هى « من نفس الجوهر » « الهوموسية » "Homoousius" (Consubstantial) واوضح الامبراطور أن هذه الاضافة لا تعنى اية صفات جدية او تحول ، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق ، ذلك ان الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول ، تلك أمور ينبغى ادراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية ، على هــذه الشاكلة حاج امبراطورنا التقى الحكيم . وقد اسفرت اضافة عبارة « من نفس الجوهر » عن ايجاد الصيغة التالية :

نؤمن باله واحد . الله الآب . ضابط الكل . خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح . المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور . اله حق من اله حق . مولود غير مخلوق . مساو للآب فى الجوهر . الذى كل شىء به كان . هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء . تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى ، تألم وقبر وقام من بين الأموات فى

اليوم الثالث كما فى الكتب . وصعد الى السماوات وجلس عن يمين ابيه ، وايضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه انقضاء .

وعندما سجلوا هذه الصيغة لم نتركها دون فحص فى جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش ، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول ، وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة « من نفس الجوهر » تعنى أن الابن من الآب . وليس جزءا منه . ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأى حبا فى السلام ، وخشية الانحراف عن قويم الايمان . ولنفس العلة قلبنا عبارة « مولود غير مخلوق » . فقد قالوا أن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق ، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشىء مخلوق ، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق . والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب ادراكها ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر . ونفس الشىء يخص عبارة « من نفس الجوهر مع الآب » وعندما فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية ، وقد اتضح ايضا ان هذا لا يعنى انقساما فى الجوهر أو انبثاقا أو تحولا أو تغييرا أو تضاؤلا لقدرة الآب ، فذلك كله غريب عن طبيعة الغير مولود . ولقد استقر الرأى على أن القول بعبارة « من نفس الجوهر مع الآب » تعنى أن ابن الله لا يشبه ، بأى حال من الأحوال المخلوقات التى جبلها ، ولكنه بالنسبة للآب ، الذى ولده ، مثيل له تماما فى كل شىء لأنه من جوهر وفحوى الآب . وبعد ان أعطى هذا التفسير للعقيدة ، بدى لنا صواب موافقتنا عليه ، خاصة واننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة ، قد استعملوا عبارة « من نفس الجوهر » للتدليل على الوهية الآب والابن .

« تلكم هى الظروف التى رأيت لزاما على ابلاغكم اياها حول الصيغة التى نشرت عن الايمان ، ولقد وافق عليها جمعنا بعد تمحيص وفحص للآراء دقيق فى حضرة امبراطورنا الحبيب . ومن أجل الدواعى التى سبق لنا ذكرها قبلنا جميعا هذه الصيغة . وكذلك أبدينا موافقتنا على اللعنة التى ذيلو بها الصيغة المذكورة ، لانها تحرم استخدام الالفاظ التى لم ترد فى الكتاب المقدس، والتى بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة . وحيث ان الكتاب المقدس

أو ما هو من شكلها ، بدا لنا عدم معقولية تداول هـــذه العبارات ، واقتناعا بهذا الرأى ، رأينا صواب الموافقة لاننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات . وزيادة على ذلك فان ادانة القول بأن « الابن لم يكن قبل أن يوجد » لم يرد عبارات من قبيل « من العدم » و « وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن » لاتبدو متضمنة عدم تناسب او ملائمة ، فالجميع متفق على حقيقة أنه ابن الله قبل ولادته بالجسد . ولقد راح امبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الالهى ووجوده قبل كل الدهور ، لأنه بحق كان فى الآب دون توالد حتى قبل ولادته . فالآب دوما هو الآب . تماما كما أنه على الدوام الملك المخلص ، وبحق هو كل شىء لم يعتوره تغير أو تبديل »(١) .

هذه صورة لمــا دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للايمـــان القويم ترتضيه الكنيسة الجامعـــة ، ونعلم من اثناسيوس(٢) ايضا ان مسألة الاتفاق على صيغة لهذا القانون لم تكن سهلة ميسرة . فقد طلب بداءة الى الفريق الآريوسى ان يعرض آراءه ، ولمــا تم ذلك تولى الأساقفة المعارضون الرد عليها وشجبها ، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة ، وبعدها راح المؤتمرون يناقشون حـــول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا اليها على النحو الذى اعلمنا اياه يوساب.

يتضح لنا من رسالة يوســـاب ان اهم نقطتين للخلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر والأزلية ، فهـــذه تمسك بهـــا مناهضو الآريوسية التى أصر اتباعها على القول بأن الابن مشابه للأب فى الجوهر « الهومويوسية » **Homoiousius** وليس مساويا له فى الأزلية لأن الآب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن(٣) . والثانية

---

(١) **SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. hist. eccl. I, 11.**

(٢) **ATHANAS. de decr. II, 3.**

(٣) من الطريف أن هذا الخلاف العقيدى بين الفريقـــين ، ينحصر لغويا فى حرف اليوتا "i" اليونانى ، فالمساواة فى الجوهر « الهوموسية **Homoousius** » التى أقرها مجمع نيقية ، اذا ما آدخلنا عليها حرف "i" تحولت الكلمة الى الفريق المضاد لتعنى « التشابه فى الجوهر » « الهومويوسية **Homoiousius** » ، وان كانت هذه الأخيرة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار الا فى عهد الامبراطور قسطنطيوس **Constantius** (٣٣٧ ـ ٣٦١) ابن قسطنطين ، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لاحدى الفرق التى تشعبت اليها الآريوسية فيما بعد ، والتى اصبحت تعرف باسم أنصاف الآريوسيين **Semi-Arians** .

القول بالخلق أو الولادة . فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولود ومخلوق ، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى ، وتلك حقيقة نلمسها من رسالة يوساب القيسارى الى أهل بيعته ، ففى قانون ايمانه الذى قدمه الى المجمع النيقى لم يذكر شيئا من هذا القبيل ، ولكنا وجدنا عبارة « مولود غير مخلوق » قد احتواها قانون الايمان النيقى ، ويذكر يوساب بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللا بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشياء التى خلقت بالابن ، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشىء مخلوق شأن ما خلقه بيده ، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق(١) . أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك ، وذلك يبين من قول آريوس حيث يذكر « أنه قبل ان ولد أو خلق .. لم يكن »(٢)

على أن الذى يعنينا من رسالة يوساب وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبه الامبراطور فى المجمع ، فقد أسلفنا انه امسك بدفة المناقشة يديرها يستحسن ويستهجن ، ويؤيد هذا ويعارض ذاك ، وكان من قبل قد دعا الحضور الى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعا ، الى هذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به ، أما أن يتدخل الامبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالاضافة أو الحذف ، فذلك شىء يدعو للتساؤل حقا ، اذا كان الامبراطور قد سمح لنفسه ان يفعل هذا ، فكيف تسمح له الكنيسة اذن أن يقدم على ذلك ؟!

لقد وقفنا على عدم المام الامبراطور بأمور العقيدة من رسالته التى بعثها الى اسكندر وآريوس منذ عدة أشهر ، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة ، اذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة ، ثم يقترح أيضا نصا فى جوهر العقيدة ، يصبح أحد عمد قانون الايمان القويم بعد ذلك ، والكنيسة به معتزة له حافظة ! لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه . ولما عرض يوساب قانون ايمان بيعته ، جاء خلوا من هذه العبارة ، ورغم ذلك فقد

---

(١) SOCART. hist. eccl. I, 8.

(٢) THEOD. hist. eccl. I, 4; Lietzmann, op. cit. p. 109.

ارتضاها الجمع وشهدوا بأرثوذكسيتها ، وراح الامبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحا فى نفس الوقت اضافة عبارة « من نفس الجوهر » وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير ، ذلك أن وثيقة هامة يرتكن اليها اعداء الآريوسية أعنى رسالة اسكندر السكندرى الى زملائه الأساقفة ، لم تتضمن شيئا من هذا القبيل ، كما أن رسالته الى سميه البيزنطى لم تحوها . يضاف الى هذا أيضا أن مجمع انطاكية المنعقد سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس الأسقف الأسبانى ، لم يشر الى هذا النص فى قليل أو كثير . وان كان الحزب المعادى للآريوسية يملك سببا وجيها لتجنب مثل هذا القول ، فديونيسيوس Dionysius الكبير أسقف الاسكندرية خلال اضطهاد دكيوس Decius وفاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثناء محاوراته مع بعض أساقفة ليبيا ، ولو انه احتراما لسميه أسقف روما اضطر أخيرا لقبولها ، وان كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد(١) . ويقول جونز أنه اذا كانت الهوموسية مكروهة تماما فى الشرق لدى عدد كبير من المثقفين ، فانها كانت مقبولة فى الغرب الغير فلسفى لمدة تزيد على قرن . وقد رأينا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندرى للموافقة ، ولو مع التحفظ على هذا الاصطلاح(٢) .

ولكن الذى يدعو للتساؤل حقا ، هو انه اذا كان الأساقفة قد أجازوا ايمان كنيسة قيسارية الذى قدمه اسقفها . فما الذى حدا بالامبراطور اذن الى اقتراح مثل هذه الاضافة ؟ ولم يكن اقتراح الامبراطور الا أمرا واجب التنفيذ .

لعله من معقول القول ان نذكر أن الامبراطور كان واثقا تمام الثقة ان اساقفة الشرق وعلى راسهم اسكندر لن يعارضوا هذه الارادة التى فرضت قولا ما كانوا يقبلونه قبلا ، ولما كان الامبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة ، وكان هذا الاصطلاح سائدا فى الغرب ، فلا يبعد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربى هو الذى أوحى

---

(١) Hefele, op. cit. I. 1, 342-346. Jones, Constantine, p. 161; Lietzmann, op. cit. pp. 95-99; Duchesne, op. cit. II, p. 154.

(٢) Jones, Constantine, p. 162.

اليه بهذا المصطلح(١) ، وربما يكون هوسبوس قد ضمن سكوت الأسقف السكندرى وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجراه معه خاصة وأن اسكندر كانت أمامه سابقة فى تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وان كان مرغما(٢) .

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعا له على تقبل أى اقتراح يوحى به اليه ذلك الأسقف الأسبانى . فقد كان هوسيوس يمثل على الاقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب ، وقد رأى الامبراطور ان اجابة هوسيوس الى مطلبه كفيلة بأن تجعل كنائس غرب الامبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة ، ومن نفس الزاوية ننظر أيضا الى موافقة الامبراطور والأساقفة على قانون الايمان اليوسابى القيسارى . فقد كان يوساب بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة(٣) ، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤ .

وهكذا أيقن الامبراطور أن الموافقة على قانون للايمان تقبله كنائس الغرب ، ولا ترفضه كنائس الشرق ، واضافة نص ترتضيه هذه ولا سبيل لتلك للاعتراض عليه ، طريق الى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب وجمعها على كلمة سواء . وذلك واضح من قول يوساب فى رسالته أن الامبراطور كد لشرح معنى هذه الاضافة وراح يحث جموع الأساقفة على الايمان بها ، ولم يجد الامبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وان معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمور اللاهوتية العميقة ، وذلك شىء نقف عليه من سوزومين نفسه عند حديثه عن صنوف الوافدين(٤) . وان كان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتية . وتفصح رسالة يوساب ان الأساقفة أجبروا على الموافقة ، ونلمح فى قوله طوال

---

(١) Hefele. op. cit. I. 1. pp. 342-346; Duchesne, op. cit. p. 155.

(٢) Jones, Constantine, p. 162.

(٣) Latourette, Christianity, 154-155.

(٤) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

رسالته نبرة امتعاض لما ادخل على عقيدته من اضافات لم تعرفها قبلا . وذلك شيء واضح فى مقدمة رسالته ونهايتها . وكأنه يعتذر لرعيته عن الاسباب التى دفعته الى قبول ذلك « ايثارا للسلام وخشية الانحراف عن قويم الايمان » ، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومين(١) من أن يوساب قد تباطأ قليلا فى التوقيع على قانون الايمان النيقى .

ولقد كان طبيعيا أن يعترض الفريق الآريوسى على قانون الايمان هذا ، ويخبرنا سوزومين أن عدد من وقفوا الى جوار آريوس فى أول الأمر قد بلغ سبعة عشرة أسقفا(٢) ، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك الى خمسة اساقفة هم يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنيس **Theognis** اسقف نيقية ، وماريس **Maris** أسقف خلقيدونية ، وثيوناس **Theonas** أسقف مارماريكا **Marmarica** وسكوندوس **Secundus** أسقف بطوليمايا **Ptolemais** (٣) وان كان مجمع نيقية فى رسالته الى الاسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الاخيرين فقط(٤) . الا أن هؤلاء الاساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الايمان النيقى وان لم يوافقوا على قرار حرمان آريوس(٥) ، ولم يعترض على قانون الايمان جملة وتفصيلا سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس **Euzious** (٦) . ويخبرنا سوزومين أن الامبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كل من يخالف رأى المجمع(٧) . على هذا النحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث . حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر ، الأول يتزعمه آريوس وثيوناس وسكوندوس ويوساب النيقوميدى ، والآخر على رأسه ماركللوس أسقف أنقره واثناسيوس الشماس المصرى ، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع(٨) .

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 24.
(٢) Ibid. 20.
(٣) SORAT. hist. eccl. I, 8.
(٤) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(٦) Ibid. 25.
(٧) SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(٨) F. Jackson op. cit. pp. 306-307.

هكذا اقر المجمع أن الابن مساو للآب فى الجوهر والأزلية ، وحرم كل من يقول بغير هذا ، أو انه قبل ولادته لم يكن ، أو انه من العدم وجد(١) وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه واياهم من دخول الاسكندرية(٢) ، كما قرر المجمع اعدام عمله الذى وضعه فى هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia (٣) .

وحملت الأنباء هذه الى كنيسة الاسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها :

« الى كنيسة الاسكندرية ، التى حازت بفضل من الله ونعمة كل عظمة وقداسة ، الى الاخوة الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس .. نرسل نحن أساقفة المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب .

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله ، ورشد امبراطورنا التقى ، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن ، وجدناه حريا بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقدس ، نعلمكم اى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقرر .

بداءة ، وفى حضرة امبراطورنا الدين قسطنطين فحصت عقيدة آريوس الدنسة ، واجمع المجمع على ادانتها ولعنها ، سواء بسواء مع لغة التجديف التى روج لها زاعما أن ابن الله جاء من عدم ، وانه ما كان قبل أن ولد . وان هناك وقت لم يكن . وان بمقدوره ، وفق ارادته الحرة ان يتحكم فى الفضيلة والرذيلة .

لقد لعن المجمع المقدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفا . ولعلكم

---

(١) SOZOM. hist. eccl. I, 21.

(٢) Id.

(٣) ATHANAS. orat. C. Arian. I, 4.

تعلمون القرار النهائى المتعلق به ، او لعلكم ستسمعونه قريبا ، ولكنا نمسك الآن عن اذاعته حتى لا نبدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلا نال لأجل خطاياه عادل القصاص(١) »

وقد بدأ الامبراطور فعلا ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيدة المجمع الخارجين عن قانون ايمانه . فأمر ينفى آريوس خارج الاسكندرية هو وزميله يوزيوس(٢) والحق بهما سكوندوس وثيوناس الى الليريا(٣) وامتد قراره ليشمل ايضا يوساب النيقوميدى وثيوجنيس النيقى الى غالة(٤) وخلفهما على كرسيى الأسقفيتين أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى(٥) ، وذلك راجع لما يذكره سوزومين من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة ، اشتعلت مرة اخرى المناقشات الجدلية بين الفريقين فى كثير من المناطق وخاصة فى بيثينيا وهللسبونت والقسطنطينية ، وراح يوساب وثيوجنس يعلمان ، خلافا لما وقعا عليه فى نيقية ، بأن الابن ليس من جوهر مع الأب واحد . ولما اتهم يوساب بذلك صراحة أمام الامبراطور ، أصر فى جراة على رأيه وقال موجها حديثه لقسطنطين « هب أن هذا الرداء قد انفصم أمام ناظرى شطرين ، لعجزت أن احاج بأن ايا منهما ينتمى الى نفس المادة » . فازداد الامبراطور حنقا وتولى حزنا ألا يجد أن المسألة العقائدية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع نيقية ، وها هو يراهم ثانية ينشقون على أنفسهم(٦) . ويضيف أن الامبراطور أسف أشد الأسف لما اقدم عليه كل من يوساب وثيوجنس من قبول بعض السكندريين المعاقبين فى الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيه أنفسهم من « هرطقة » ، وعلى الرغم من أن الامبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج أراضيهم باعتبارهم داعية الانقسام(٧) . ولقد ضمن قسطنطين ذلك كله فى رسالة بعث بها الى اهالى نيقوميديا تقول :

(١) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(٣) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit. II, p. 155.
(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; Duchesne, op. cit. II, p. 156.
(٥) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(٦) Id.
(٧) Ibid. II, 22.

« من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟! من الواضح أنه يوساب شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما اقدم عليه ذلك الطاغوت(١) . ولقد انجلت الحقيقة فأثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا أخيارا .

ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من اهانات أتاها متآمرو الفريق المضاد ، بل لقد جاء أمرا ادا ، اذ بعث بالعيون ترقبنى ، ولم يأل جهدا فى جمع كتائب للجبابرة معضدة ، ولا يعتقدن أحد أنى مدع شيئا أنا على اثباته قادر . عندى الدليل . فقد جىء بالأساقفة والقسوس من اتباعه وقد قبض عليهم . ولكن لنتخط هذه الحقائق كلها ، وما ذكرتها الا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل ، لا من اجل اثارة شعور بالندم .

غير أن هناك أمرا أخشاه ، بات يقض مضجعى ، رأيتكم قد جمعكم الاتهام واياه . لقد تأثرتم بعقيدة يوساب فضللتم بذلك طريق الصواب . ولكن ابلالكم يرجى اذا ما غنمتم أسقفا قلبه بقويم الايمان معلق ، واذا ما جعلتم على الاله اتكالكم . ذلك شىء أنتم عليه قادرون ، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوساب . وطغمة تؤيده عاتية . استغلت السلطان فضاع النظام .

وانى لأرى لزاما على ان أحدثكم شيئا ما عن يوساب فلعلكم تذكرون ان مجمعا عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى ، يدفعنى الرجاء فى الوحدة ، وتسوقنى الحمية لاستئصال اذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى ، التى تأجج لهيبها بفعال يوساب الحمقى ، ولكن ، اخوتى واحبابى ، لا تدرون كيف أن يوساب ظل سادرا فى غيه

---

(١) يشير قسطنطين هنا الى ليكين وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف والامبراطور النصف الشرقى من الامبراطورية قبل ذلك .

الذى من الجمع ادين . ولقد راح يبعث لى خفية أناسا يرجونني لأجله ، وبذاته توسل الى يطلب عوني لوقف قرار عزله من أسقفيته ، رغم أن جرائمة للعيان بادية . انى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم واياى بوافر أنعمه شاهد على صدق قولى ، ولقد غرر بى يوساب وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جليا ، لقد كان يعمل وفق رغائبه ، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور . وانى وان كنت أحجم عن ذكر بقية آثامه . أراه حسنا انباءكم بخطية مؤخرا جناها ، متواطئا مع ثيوجنس شريك تآمره ، ولقد بعثت الى الاسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الأيمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالا ، ولكن هذا النفر من الأساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا اليهم أولئك ، وشاركوهم دنس أعمالهم . ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم الى مكان قصى(١) .

انه الآن واجبكم أن تتجهوا الى الله بنفس الايمان الذى تمسكتم به دوما . دعونا نسعد بتعيين أساقفة قويمين للخير محبين ، واذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكرا لهؤلاء المخربين فليعلم تماما أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم . ليحفظكم الرب اخوتى الأحبة(٢) » .

وارسل الامبراطور الى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الامبراطورية يخبرهم أن آريوس ورفاقه مبتدعون مضللون ، وأن عليهم لعنة الله والامبراطور والأساقفة أجمعين(٣) . أما كتاباتهم « فاذا عثر على أية

---

(١) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا الى غالة . راجع Lietzmann, op. cit. p. 121; Jones, Constantine, p. 174.

(٢) THEOD. hist. eccl. I, 19.

(٣) SOZOM. hist. eccl. I, 21.

مقالة لآريوس ، فلتقدم طعما للنار ، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه الى الأبد ، ومن ثم فانى قد قررت لئن ضبطن احد يخفى كتابا من وضع آريوس ، ولم يتقدم به على التو ملقيا اياه فى النار ، موتا يموت جزاء هذه الخطيئة ، وفور انتهاء المحاكمة سوف يلقى المذنب رادع الجزاء »(١) .

هكذا قرت عين الامبراطور بهذا الذى وصل اليه المجمع المسكونى الأول ، وخيل اليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته ، فاذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال ، وضمن بلا ريب سيادته منفردة فى طول الامبراطورية وعرضها ، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف ، وعد الامبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله(٢) . ويقول نورمان بينز تعليقا على ذلك « لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس(٣) » . وتدشينا لهذا النصر دعى قسطنطين جموع الأساقفة الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى **Vicennalia** لجلوسه على العرش(٤) . ويعطينا يوساب صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه الأساقفة الامبراطور طعامه وشرابه(٥) ، ولما أذن مؤذن الرحيل دعى الامبراطور اليه جموع الأساقفة وطلب اليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود الى النزاع والتخاصم ، واوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض ، والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام(٦) ، ثم تفضل الامبراطور فزود كلا منهم بهدية تتفق ومرتبته الكهنوتية ، وامتدت نعماؤه لتشمل ايضا أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع(٧) . واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة ، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة فى مجمع

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

(٢) EVSEB. vita Const. III, 14.

(٣) C.A.H. XII, p. 697.

(٤) EVSEB. vita Const. III, 14.

(٥) Ibid. 15.

(٦) Ibid. 21.

(٧) Ibid. 16.

نيقية(١) . وسلم الامبراطور كل اسقف رسالة الى كنيسة تضمنت تمجيداً لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير واشادة بجميل صنعه(٢) ، وحثا للجميع على اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلا يحتذى ، والانصياع لقرارات المجمع . ثم راح يحدثهم قائلا :

«يقينا بالبرهان . . حفاظا على رخاء ورفاهية الامبراطورية ، فكم كان فضل الله علينا عظيما . قررت أنه ينبغى ان يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الايمان وصادق المحبة ، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة الله القدير ، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية ، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى الا اذا تلاقى من الأساقفة جمع كبير او على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد ، والا اذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة ـ لم يكن هناك بد من جمع اكبر عدد ممكن فى مجمع عام . وقد حضرت بنفسى هذا المجمع . فردا عاديا وكأنى احدكم ، وانى لفرح فخور بأن اجد نفسى زميلكم ، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه الذى احاط بكل شىء علما ، والذى شاء لنا باقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا الى الوحدة والوئام ، وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار ، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الايمان(٣) . . فلتقبلوا اذن بكل رغبة وحازم الإرادة هذا الايضاح الالهى الحق . ولتنظروه بأنه الحق المبين ، من عند الله هبة . فما يقره مجمع الأساقفة المقدس لخليق أن يعد تعبيرا لارادة السماء(٤) » .

واضح من هذه الرسالة مدى الجهد الذى بذله قسطنطين فى سبيل

(١) EVSEB. vita. Const. III, 22.

(٢) Ibid. 17.

(٣) Id.

(٤) Ibid. 20.

تجميع اكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة ، ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعى الدائم الى اتمام هذا العمل ونجاحه ، وهى « وحدة الرعية » على حد تعبيره ، وبالتالى وحدة الدولة . فقد كان هذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين .

واذا كان قد جاء فى رسالة الامبراطور هذه انه « واحد من الأساقفة » أو أنه « زميل لهم » ، فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين ، ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة ، الحاكم السياسى والقائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الأساقفة . وهذا شىء أنبأتنا عنه الأحداث ، وأفصحت عنه رسالته الى ملتيادس أسقف روما ، وسياسته تجاه الدونانتيين ، ورئاسته لمجمع نيقية ، « وقهره » الأساقفة فيه على قبول صيغة الايمان التى ارتضاها بوحى من مستشاره الدينى ، وسوف تكشف عنه أيضا سنوات عمره الآتية .

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها ، بل تعرض لعدد آخر من المسائل التى تهم الكنيسة ، مثل مسألتى تحديد عيد الفصح وعماد الهراطقة(١) ، الا أن هذه الأمور لا يعنينا منها الان ما قر عليه فيها رأى المجمع ، ولكن الذى يهمنا حقا هو المشكلة الأخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة المليتية الكامنة فى مصر(٢) .

تعود جذور هذه المشكلة الى تلك الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية ابان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين ، فيخبر يوساب ان بطرس اسقف الاسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هذا المنصب(٣) ، قد قبض عليه وسيق مع عدد من القسوس هم فوستوس **Phostus** وديوس **Dius** وآمون **Ammonius** الى ساحة السجن ، واقتيد معهم أيضا فيلياس **Phileas** أسقف

---

(١) EVSEB. vita Const. III, 18; Hefele. op. cit. I, 1. pp. 451-477.

(٢) Hefele, op. cit. I, 1, p. 488.

(٣) EVSEB. hist. eccl. VII, 32.

كنيسة تمويس **Thmuis** (تمى الأمديد) ، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله(١) وهسيكيوس **Hesychius** ، وباخوم **Pachomius** وثيودور **Theodore** وهم أساقفة فى الكنائس المصرية المختلفة(٢) وفى السنة التاسعة للاضطهاد (٣١١) « كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة(٣) » .

بايداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد ، آلت العناية الروحية لهذه المحافل الكنسية الشاغرة الى أيدى جماعة من الأساقفة او المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقا ، حتى الاسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى مذ اكره بطرس على ترك اسقفيته . فى هذه الظروف العسرة كان هناك رجل واحد اظهر انه رجل الساعة هو مليتيوس **Melitius** أسقف اسيوط **Lycopolis** ، فلم يكن يتنقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب ، بل راح يعين لها أساقفة جددا(٤) ، غير أن هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الاسكندرية . فنحن نعلم من سوزومين ان لكل كنيسة فى الاسكندرية قسيسها وكنائس اخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها ، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من اسقفيته او كنيسته الى غيرها . ثم يقول وتلك حال الاسكندرية دائما(٥) باعتبار ان أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى رئاسة كنائس الاقليم كله ، وذلك شىء أكده مجمع نيقية فى قوانينه التى أصدرها ، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشمامسة من كنيسة لأخرى ، ونص القانون السادس على اعطاء بطريرك الاسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس(٦) .

وربما يكن مليتيوس قد اراد بهذا العمل ان يجعل من نفسه أسقفا

---

(١) EVSEB. hist. eccl. VIII, 9.

(٢) Ibid. 13.

(٣) Ibid. VII, 22.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele, op. cit. I, 1, p. 491.

(٥) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٦) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) pp. 15, 32.

أعلى لمصر وان ينقل الى أسيوط ما كان للاسكندرية حقا معلوما ، أو لعله أراد الانتقال من اسقفيته الى الاسكندرية(١) وينبئنا تيودوريت أن هـذه الفعال قد نمت الى علم بطرس وهو بعد فى سجنه ، فاستهجن هذا سلوك اسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه(٢) . غير أن الأسقف الأسيوطى لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبة والمناطق المجاورة لها فى مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريت(٣) الذى لابد أنه يعنى بذلك استمراره فى تعيين الأساقفة والقسس فى الكنائس الشاغرة ، لأنه يضيف قائلا أنه تجاسر على التدخل فى شئون أسقفية الاسكندرية ذاتها ، فعزل اثنين من قساوستها ورسم آخرين مكانهما(٤) .

تلك رواية نقلناها عن شتات ما تبعثر حول مليتيوس عند مؤرخى الكنيسة ، على أن هناك رواية أخرى يذكرها ابيفانيوس Epiphanius ، وهى تقترب من سابقتها تقول ان بطرس بعد أن قبض عليه ، دخل معه السجن مليتيوس وعدد من رجال الاكليروس ، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق من المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الاخر انفسهم واموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح ارباب الوثنية . وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة ، غير انهم سرعان ما ندموا بعد ذلك واجتهدوا ليقبلوا فى الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة ، وكان على راس هؤلاء مليتيوس الذى أظهر اتجاها متذبذبا ــ على الأقل ــ طوال فترة الاضطهاد ، ثم اختط لنفسه طريقا متشددا بعيد الاضطهد ، بينما تراس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقا آخر تبنى الاتجاه المعتدل ، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين هى قبول الخطاة ثانية فى الكنيسة ، وهكذا وجدت كنيســـة للشهداء يتزعمهـــا مليتيوس تقف والضد من الكنيســـة الكاثوليكية(٥) ولمـــا أن راح اسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلا بذلك عما جرى عليه العرف فى الكنيسة السكندرية ، لم يكن أمام بطرس

(١) Hefele, op. cit. I, 1, p. 501.
(٢) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(٣) Id.
(٤) Id.; Duchesne, op. cit. II, pp. 98-99.
(٥) S.M. Jackson. op. cit. VII, art. Meletianism.

الا ان يصدر ضده قرارى العزل والحرمان ، وتلك كلها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية الى كنيسة الاسكندرية بخصوص هذا الأمر(١) .

ويمكننا التوفيق بين هتين الروايتين اذا ذكرنا ما أورده لنا ابيفانيوس عن أصل هذا الخلاف ، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس ومليتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقا مخالفا ، وأخذ يعين الأساقفة والقسوس فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس الى عزله وحرمه .

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماما ما حدث فى روما وافريقيا ، أعنى المسألتين ، النوفاتية والدوناتية ، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة ، وموقف كنيستى روما والاسكندرية تجاه آراء الفريق المضاد متفقة ، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عند الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى المليتيين وثيق الصلة ، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال ان المليتيين كانوا بمثابة دوناتيى مصر(٢) .

ولا شك ان فترة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة ، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة ، قد أحدثت فى الكنيسة كثيرا من أمور الجدل حول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسى ، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقا ما بعده شقاق ، ورزقتها بعدد لا حصر له من الفرق المخالفة فى الرأى ، ساعد الأحداث على الاتيان بها ، ما رفلت فيه المسيحية بعد التسامح من حلل العيش ورغده ، فطفرت الى السطح امور كانت كامنة ، وتولدت عنها مشاكل ما كانت قائمة .

كان على مجمع نيقية أن يعالج هذه المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها ، اما الامبراطور فلابد انه قد افاد مما وقع له فى أفريقيا مع الدوناتيين ، فمجمع مكانى عقد فى روما سنة ٣١٣ لم يكن كافيا لشجب النزاع الدوناتى الكاثوليكى ، ومجمع يقترب من العالمية فى آرل سنة ٣١٤ لم يكن أسعد حظا من سابقه ، وقضاء امبراطورى فى القضية فى ميلانو سنة

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 8.
وأيضا : ATHANAS. Apol. C. Arian. 59.
(٢) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

٣١٦ ما ردع الفريق الدوناتى ولا اتى بجديد فى عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية ، بل كل ما جاء به عنفا بلا هوادة وتحد صريح لسلطة الامبراطور ذاته ، واضطهادا مسيحيا ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته المرجوة ، هكذا ادرك قسطنطين ان لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة ، فافرج عن الدوناتيين واعاد اليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع .

كانت تلك تجربة افـــاد منها قسطنطين ، فلم يقـــدم على شيء من هذا على الاطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر ، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب ، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك ، وعمل الحضور بنصح الامبراطور ، وقد حفظ ثيودوريت ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هى رســـالة المجمع الى كنيسة الاسكندرية جاء فيهـــا :

« احباءنا .. ها نحن الان نخبركم بما قر عليه راى المجمع فى هذا الصدد . لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس ، مع أنه ، وحتى نكون من انفسنا صادقين ، ما كان يستحق من الشفقة اقلها ، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجردا من كل ســـلطة تجيز له تعيين الغـــير او سيامتهم ، محروما حتى الظهور فى اية ولاية او مدينة لهذه الدواعى . ولكن ليحمل لقبه فقط عـــاريا من كل نفـــوذ(١) « .

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر ، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الاسكندرية واسقفها ، تخالف ما شهدناه قبـــلا فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قســـطنطين ازاء الدوناتيين ، ولا شك ان هذه السياسة الجديدة التى لجأ اليها مجمع نيقية تجـــاه المليتيين كانت رد فعل صريح لفشـــل السياسة التى ســـار عليها الامبراطور فى علاجه للمشكلة الدوناتية ، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه ، واعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرهـــا !!

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 8.

واضافت رسالة المجمع :

« اما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى ، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة ، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر ، زميلنا الكاهن المبجل ، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين آخرين للكهنوت أو الاقدام على أى شىء دون موافقة أساقفة الكنيسة الكثوليكية(١) الرسولية المنضوين تحت نفوذ اسكندر .

ولكن هؤلاء ، من بنعمة الله ، وفضل صلواتكم ، لم يدنسهم تيار الانشقاق ، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة ، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنسية ، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها ، فاذا ما شاء القدر واختطف الموت واحدا ممن يتسنمون الان احدى الوظائف الكنسية ، فليرتق الجدد الى شرف الراحلين اذا كانوا للمنصب مستحقين ، وعلى يد الرعية مختارين ، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الاسكندرية الكاثوليكى(٢) » .

---

(١) حتى منتصف القرن الخامس كان لفظا كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus (مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة ، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات ايمان قويم · وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الايمان القائل بكمال الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح ، ورفضت كنيسة الاسكندرية هذا المعتقد ، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من طبيعتين ، كما آمن بها أسقفها كيرلس Cyrillus وخليفته ديوسقورس ، واختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية · وان كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضا بالأرثوذكسية الخلقيدونية · أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية ، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود الى القرن التاسع ، عندما أضافت روما على قانون الايمان عبارة « والابن » Filioque .

(٢) THEOD. hist. eccl. I, 8.

لم يقف قرار المجمع اذن فى هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة المليتية فى حد ذاتها ، ولكنه تخطاها ، آخذا من أحداثها مدارا لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلف الكنائس ، ولا شك أن دافعه الى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر فى الاسكندرية أو غيرها من مدن الامبراطورية تلك الحوادث التى جرت من قبل على يد مليتيوس من قيامه بسيامة اساقفة وقسيسين .

ثم تعود الرسالة فتعرج بعد ذلك ثانية على الرجل فتقول « اما عن مليتيوس على اية حال ، فهناك استثناء قد وقع ، بسبب عصيانه السالف ، ونتيجة مزاجه المتهور وطبعه الطائش ، ذلك لأنه ان منح اقل سلطان فانه سوف يسيء استغلاله باثارة الاضطراب من جديد(١) » .

وبعد أن يخبر المجمع السكندريين فى رسالته بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار فى المجمع وما قر عليه راى رجال الاكليروس حضور نيقية ، ويزف اليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الامبراطورية والغرب(٢) يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة :

« فلتفرحوا اذن لنجاح ما تعهدنا القيام به ، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق ، واستئصال دنس الهرطقة ، ولتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد اسكندر محبوبنا ، اسقفكم الذى جلب على مجمعنا البهجة بحضوره ، والذى رغم تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية اعادة السلام اليكم .

صلوا من اجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتا وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح ، ان كل ما أتممناه بنعمة الله الآب وبوحى الروح القدس صار .. له المجد ابد الآبدين(٣) » .

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 8.

(٢) Id.

(٣) Id.

على هذا النحو اتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين الى كنائسهم يسبحون بحمد الامبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه ، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة ، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة الى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمه وتقوية سلطانه فى أرجاء الامبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم . وقد آتت هذه السياسة اكلها ، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين « مبعوث الرب » حاميها ، وباعث حياتها ، ورفعته مكانا عليا ، الى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها فى زمانه ، أعنى يوساب القيسارى ، ليضع عنه كتابا يرفعه به الى مصاف الرسل ، جاعلا منه الحوارى الثالث عشر .

خيل للامبراطور ساعتئذ انه قد حقق بذلك أعظم انتصراته ، فقد تبدى له انه حفظ على الامبراطورية وحدتها سياسيا وعقائديا ، وانه أعاد بذلك السلام الى الكنيسة وانجاها من شر مستطير كاد يودى بوحدتها ، وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها . ولقد تحمل قسطنطين العبء الأكبر . بل العبء كله فى الاعداد لهذا المجمع الكبير ، واثناء انعقاده وبعده ، ولعب دورا هاما وشارك مشاركة ايجابية فى كل حركة وسكنة من اداء المجمع ، فحقق بذلك رغبته التى ابداها فى رسالته التى بعث بها الى الأساقفة يدعوهم للحضور الى نيقية .

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه فى الدعوة لعقد المجامع سنة سار عليها خلفاؤه من بعد ، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة الا ووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكونى لبحث هذا الأمر ، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من راس الكنيسة او من غيره ، بل موجهة من الامبراطور ذاته ، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التى عقدت فى الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامى ٣٢٥ ، ٧٨٧ على عهد الامبراطورة ايرينى .

وعلى هذا النحو ايضا وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التى بلغت فى عهد من جاء بعده من الأباطرة شأوا عظيما ، واضحت الكنيسة الشرقية فى هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة واسقفها موظفا كبيرا لدى الامبراطور ، وتمتع هذا بسطوة واسعة

وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين اضحوا فى غالب فترات تاريخ الكنيسة الشرقية جند الامبراطور .

واذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة ، فان الكنائس الأخرى فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، والاسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبدا . فأساقفة الاسكندرية كانوا يعرفون يقينا ويقدرون مركز كنيستهم فى عالم المسيحية ، ومدينتهم فى دنيا الفكر والحضارة . فاذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقام الأباطرة ، وانها نشأت على المسيحية ، ولم تدنس جبهتها لوثن ، وانطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيسة فيها قبل روما ، فان الاسكندرية كانت تفخر بأن القديس مرقس الانجيلى ، ابن بطرس بالتبنى ، وتلميذه ، ورفيقه ، هو الذى رفع القواعد من كنيستها . ولكنها الى جانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة ، وفكر آبائها ، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الامبراطورية تستطيع أن تتطاول الى هذه المكانة ، بل ان عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية ، كان يسعى الى الاسكندرية ينتظر فى امر العقيدة ، القول الفصل من كنيستها .

من أجل هذا ، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والاسكندرية بخاصة ، وقفت كنيسة الاسكندرية تعارض الاباطرة الراى وترفض تهديداتهم ، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صراعا عنيفا بين اباطرة بيزنطة واساقفة الاسكندرية ، لم تستسلم فيه الاسكندرية طيلة هذه الفترة .

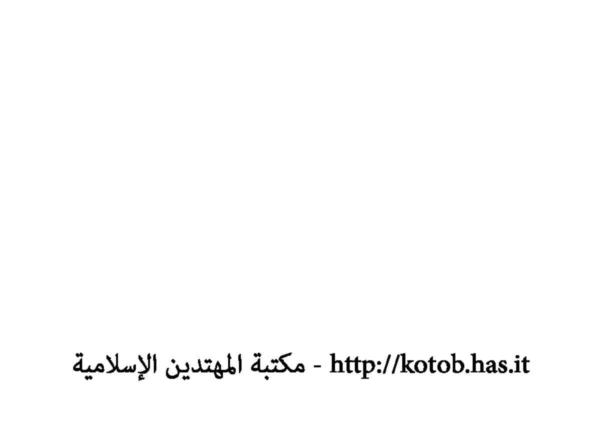
فاذا ما تجاوزنا الاسكندرية ، وحاولنا أن نبحث عن الأسباب التى دفعت الكنيسة بعامة على عهد قسطنطين الى تقبل هذا الوضع الجديد فى العلاقة بينها وبين الدولة طائعة قانعة ، لأدركنا على الفور الحال التى كانت عليها قبل قسطنطين ، ثم ما كان من أمر تعاطفه مع المسيحية ، وما اغدقه على رجالاتها من أنعمه وعطاياه ، وما أغرق فيه الكنيسة من المنح . ومن ثم فما كان للكنيسة اذن أن ترفع الرأس بعد ذلك معارضة عاصية ، ولكنها اسلمت أمرها وقيادها الى ذلك الامبراطور الذى أمسك بتلابيب هذه الفرصة الكبيرة وأشاع فى عقول معاصريه وخلفه انه مبعوث

العناية الالهية لاحلال السلام على الأرض ، وان الرب قد اختاره من بين عباده وعهد اليه بحكم هذه الامبراطورية ، وذلك شيء نلمسه في رسائل قسطنطين وخطبه العديدة . ويقول نورمان بينز : « لابد أن نعى أن قسطنطين كان قبل كل شيء امبراطورا رومانيا ورجل سياسة ، وكانت سياسته الدينية جزءا من سياسته الامبراطورية ، فهذه كانت قائمة فى فكره على تصور بأنه المبعوث خدمة لرب المسيحيين(١) .

ولا يمكن ايضا انكار الدور الذى لعبه شيخ مؤرخى الكنيسة فى هذا السبيل ، فكتابه العاشر من تاريخه الكنسى يدل على ان قيام الدولة والكنيسة قد بدأ سويا فى وقت واحد ، ولذلك نراه يتحدث بنغمة التفاؤل والحبور ، أما « حياة قسطنطين » فكله دعائية للامبراطور « محبوب الرب » و « مبعوثه » الى البشر ، وقد آتت كتابات يوساب القيسارى ثمارها فى حقل الكنيسة وبين رجالاتها ، وكان لها اكبر الأثر فى بنيان العلاقة بين الكنيسة الدولة .

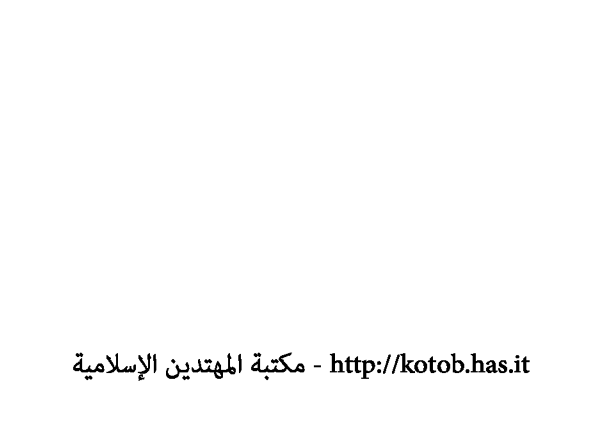
---

(١) C.A.H. XII, p. 696.



الفصل السادس

إحياء الآريوسية وصحوة المليتية



كان قلب قسطنطين يهوى الشرق ، ولكن بصره كان معلقا بالغرب . وبين قلب الامبراطور وبصره تأرجحت سياسته ، وراح فؤاده والحواس ينتقلن بين هذا الجانب أو ذاك ، وما كان فى مقدور قسطنطين ان ينظر الى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة ، وان كان باستطاعته أن يغمض عينه على الغرب لهدوء متقطع فيه باد . وكم حزن الامبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين ، وكم طاب خاطرا لغرب آثر ان يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد !!

فقسطنطين وان كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره ، الا انه جعل الشرق كل فكره . وكان قد قضى من عمره فى الشرق سنين عددا رهين قصر نيقوميديا ، ولمس بنفسه اساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الادارة ، وكانت نظم الحكم هنا تنحو الى الطابع الاستبدادى سواء فى الملكيات الهلنستية القديمة أو الامبراطورية الفارسية ، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة ، فلما جاء الى الشرق كان مصمما على ان يكمل خطى سلفه . فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع ، وراح يشع على أطلال بيزنطة المدينة الاغريقية

القديمة اسس عاصمة جديدة ، فأظهر للجميع بذلك عزمه على ان يكون الشرق مستقره ومثواه ، وأمل أن يجد فى هذه البقاع سكينة كان ينشدها والهدوء ، وتعلقت آماله برعاياه المسيحيين عله يجد فيهم خير عون لنظم حكومته ، ويقول ول ديورنت ، لقد كان قسطنطين يأمل ان يكون حاكما مطلق السلطان ، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام حكومته ، ولعل هـذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح آداء لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها(١) . ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه اساقفه مجمع نيقية وما اغرقهم فيه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك .

ولكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى ، ثم فجع اخرى اشد واقسى عندما وطئت قدمه الشرق ، فسارع الى دعوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية ، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الايمان رايهم ، قرت كذلك عين الامبراطور ، ونفى مخالفيه وعلى راسهم زعيمهم آريوس ، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى . وهىء لقسطنطين انه بذلك قد نجا والامبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وامنها ، ولكن الأحداث سرعان ما اطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين .

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعود أساقفته كل الى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد ، ولقد علمنا من الفصل السابق ان يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية ، قد عادا سيرتهما الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الأب ، مما اضطر الامبراطور الى ان يصدر قرارا بعزلهما ونفيهما ، وتعيين بديلين عنهما ، وبذلك ضمن قسطنطين — الى حين — هدوء هذه المنطقة .

أما فى مصر فيخبرنا يوساب القيسارى أن الحال فيها كانت غاية السوء

---

(١) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٨٨ .

عقب المجمع نتيجة انقسام داخلى(١) ، الا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط الى اتهامه بالمكر والمراوغة ، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هذه وذلك لميله الى الفريق الآريوسى(٢) . ولكن سوزومين يفسر هذه الأحداث بقوله أن اسكندر بعد عودته الى الاسكندرية عقب ارفضاض مجمع نيقية ، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد أخذها قبلا(٣) ، وعاد ثانية الى مقره فى أسيوط تنفيذا لقرارات المجمع المسكونى ، الا انه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس مليتيوس دنو أجله ، فعين شخصا يدعى يوحنا Iohannes خلفا له كان يعد أقرب أصدقائه ، وذلك خلافا لما أقره المجمع النيقى(٤) . وهكذا برزت الى الوجود قضية المليتية ثانية واضحت مثارا للخلاف والشقاق . ويمضى سوزومين قائلا ، وعندما علم الآريوسيون بما ابتدعه المليتيون بدأوا هم الاخرون يناوئون الكنيسة السلطان ، فتبعهم من جديد أناس كثيرون ، بينما مال الى المليتيين جمع راوا من حقهم ترؤس كنائسهم . وعلى الرغم من ان الفريقين لم يكونا على وئام الا انه جمعهما شىء واحد هو معارضة الكنيسة الجامعة وعدواتهما للاكليروس السكندرى ، وبلغ من تقاربهما ان راح البعض يطلق على المليتيين صفة الآريوسية(٥) . وان كان انشقاقهم ، كما يعلق مؤرخنا ، يعود الى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاسة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسية مسألة عقائدية ، وعلى الرغم من ان كليهما ينكر تعاليم الاخر الا انهما اصطنعا المداهنة سبيلا يعامل به أحدهما الاخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك(٦) . ومنذ ذلك الزمن تقبل المليتيون ، بعد مناقشات حادة ، العقيدة الاريوسية وحملوا نفس أفكار آريوس عن الاله . وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته ، وأدى بالتالى الى انشقاق طائفة من العلمانيين ورجال الاكليروس

---

(١) EVSEB. vita Const. IIII, 23.

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 23.

(٣) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

(٥) Id.

(٦) Id.

عن غيرهم من الكنيسة ، وحمى وطيس الجدل ثانية حول آريوس وعقيدته في كثير من مناطق الامبراطورية(١) .

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهاء مجمع نيقية حيث يبدو من أقوال سوزومين أن قرار المجمع في هذا السبيل لم يؤد الى اماتة العقيدة الاريوسية أو رأب الصدع المليتي ، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره ان محاولة لحسم الخلاف واعادة الوحدة للامبراطورية لن تؤتي ثمارها اذا بقي زعماء الفريق الآريوسي خارج حظيرة الايمان النيقي . واذا ظل آريوس بالذات يتحدى قرار أساقفه المجمع المسكوني ، ومن ثم عزم على استمالته الى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف . وتلك كانت سياسة قسطنطين دائما ، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها ، يقرب اليه فريقا من المتصارعين ، حتى اذا أدرك ان زعماء هذا الفريق قد بدأوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم ، قلب لهم ظهر المجن ، وعاد الى استمالة الفريق الاخر الذي كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد ، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت . لقد كن كل همه أن يظل حاكما قويا فردا في امبراطورية موحدة ، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقوى شوكته او يستشعر السلطان .

وأمامنا الان روايتان لسقراط وسوزومين حول عودة آريوس ، تشير أولاهما الى أن الامبراطور قد عفى عن أسقفي نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما الى منصبيهما ثانية ، وتكفل يوساب بعد ذلك بمحاولة اعادة آريوس الى الكنيسة ثانية ، وتبرئة ساحته . ويقول سقراط ان الأسقف النيقوميدي استطاع ان يتحالف مع أحد رجال الدين الضالعين في الاريوسية كان في معية قسطنديا أخت قسطنطين وارملة ليكين ، واوحى اليه يوساب أن ينتهز فرصة احدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقي بادانة آريوس كان بعيدا عن روح العدالة ، وان التقرير الشائع الذي ينسب الى آريوس غير حقيقي . وقد اعطت الأميرة ثقتها الكاملة لهذا الرجل ، غير انها لم تطلع الامبراطور على شيء من ذلك . فلما أحست دنو أجلها وجاء اليها أخوها يعودها راحت تمتدح للامبراطور محاسن ذلك الرجل

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

مثنية على ورعه وتقواه ، ولكنها لم تفض اليه بشيء عن آريوس وظلامته . فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الامبراطور ، وازداد على الأيام قربا منه ، وودا له ، فلما أمكن منه قص على مسامعه ما سبق ان ردده على آذان اخته ، مؤكدا له ان آريوس ليس لديه اية آراء اخرى غير تلك التى اقرها المجمع ، واذا ما سمح له بالمثول امام الحضرة الامبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما اقره الأساقفة فى نيقية . ولما تبدى ذلك عجبا لدى الامبراطور انبسطت اساريره وصرح بأنه اذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه ، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه الى الاسكندرية مبجلا . وقام الامبراطور من فوره ليرسل الى آريوس بهذا المعنى(١) .

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتها ، فمجمع نيقية أدان الآريوسية وأشياعها ، وتتبع الامبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمور وهدوئها تمشيا مع قرارات رجال الكنيسة ، وكان من الطبيعى ان يبدأ قسطنطين بتطهير بلاطه وقصره من هذا الفريق ، فكيف نفسر اذن بقاء رجل من الضالعين فى العقيدة الاريوسية فى القصر الامبراطورى هاديا لأخت الامبراطور ؟ وما كان هذا براغب فى اثارة الشكوك حول نفسه ، ولا أن يجلب عليها نفور رجال الكنيسة وهو طالما سعى الى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه ، وكان عليه اذا ما نفذ قرارات المجمع الذى عده فى رسائله يصدر بوحى من الروح القدس(٢) أن يبدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين ، هذه ناحية . والأخرى أنه لو كان صادقا ما يرويه سقراط لكانت قسطنديا ، بفعل ذلك الرجل ، اشد حبا لآريوس وأكثر حماسا لقضيته ، ومن ثم يضحى تأثيرها على الامبراطور أوقع . الا انها لم تخبر اخاها بشيء عن آريوس ولم تطلب منه عنه عفوا ولم تسأله صفحا . وفوق هذا وذاك ما يكنه الامبراطور ليوساب جزاء تحديه للاساقفة وتبجحه فى حضرة الامبراطور ، وفى رسالة قسطنطين الى اهالى نيقوميديا نقف على مدى الاتهامات التى يقذف بها الامبراطور أسقف المدينة . ويقول

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(٢) EVSEB. vita. Const. III, 17.

وراجع أيضا : SOZOM. hist. eccl. I, 21.

زنوس Zenos ان سقراط ذكر تلك الحادثة فى غير موضعها ، والذى نعلمه أن قرار العفو عن يوساب وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ اى بعد أم أمضيا فى المنفى ثلاث سنين سويا(١) .

أما رواية سوزمين فنتفق منها على أن الامبراطور قد أعاد آريوس من منفاه أولا ، ولكن قرار منعه من دخول الاسكندرية ظل ساريا ، وسرعان ما عاد كل من يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى الى كنيستيهما بعد أن قدما الى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما انما يتبعان الايمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية(٢) .

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوساب بعد عودته من المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الاسكندرية ثانية ، وكان الامبراطور قد عفى عنه ولم يعد الى الاسكندرية بعد ، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الامبراطور قد أصدر فعلا قرار عفوه عنه .

والذى نراه أن الامبراطور وقد رأى أن المجمع لم ينجح فى القضاء على الآريوسية وأن خطرها لا زال كامنا فى أفئدة الكثيرين ، وهاهم الان يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى ، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها ، بعد هذا الاجماع الكبير على صيغة قانون الايمان النيقى ، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الامبراطور ، ولهذا أيقن قسطنطين تمشيا مع سياسته ان السبيل الوحيد لايجاد التوازن ان يعيد زعيم الآريوسية الى دائرة الكنيسة وحتى يضمن ايضا بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هذا الانقسام فى الراى . على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعوه للعودة الى حظيرة الايمان القويم . وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الامبراطور الى آريوس جاء فيها :

« لزمن مضى ، بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود الى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء ، وكم كانت دهشتنا بالغة

---

(١) Zenos, introduction to (SOCRAT. hist. eccl. Nicene) II, p. 19, n. 1.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

لتوانيكم فى الاقدام . وعليه اذن .. بادروا بالارتحال مسرعين الى بلاطنا ، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا اياكم تضمنون العودة الى دياركم . دعائى الى الله أن يحفظكم عزيزى(١) » .

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله : تلكم هى رسالة الامبراطور الى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئا سوى أن أبدى اعجابى لتلك الغيرة والحماسة التى اظهرها الامبراطور من أجل الديانة(٢) !!

ويتضح من رسالة الامبراطور عدة أمور على جانب كبير من اهمية ، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين ، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط(٣) . فحديث الامبراطور يوحى انه بعث الى آريوس قبلا يدعوه للحضور اليه ، وآريوس يتجاهل . ويبدى الامبراطور دهشته الكبيرة لذلك الاحجام من جانب آريوس ، والرسالة تحمل فى طياتها نغمة عتاب للرجل على توانيه فى المثول أمام الامبراطور رغم أن ذلك عرض عليه أكثر من مرة ، كما يتضح ايضا مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالاذن له بالعودة الى الاسكندرية ، ولعلنا ندرك من قول الامبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة امبراطوريته واقرار السلام بها ، وذلك شىء يفسره سقراط بغيرة الامبراطور وحماسته الدينية !!

أمام الحاح الامبراطور جاء آريوس الى القسطنطينية يصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر قد حرمه باعتباره نصير آريوس عند بداية الجدال بين الرجلين(٤) ، وقد استقبلهما الامبراطور وسألهما عما اذا كانا قد وافقا على قانون الايمان النيقى ، فأعطياه موافقتهما ، فطلب اليهما أن يقدما اليه مكتوبا يؤكد قولهما(٥) ، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الامبراطور وقدما اليه الصيغة التالية :

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(٥) SCORAT. hist. eccl. I, 25.

« آريوس ويوزيوس .. الى سيدنا التقى الورع قسطنطين الامبراطور .. أيها السيد الحاكم ، وفقا لأمر جنابكم البار ها نحن نعلن ايماننا ، ونعترف أمام الله كتابة انا وأشياعنا نؤمن هكذا .. نؤمن باله واحد .. الآب القدير .. وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور . الله الكلمة الذى به خلق كل شىء فى السماء وعلى الأرض ، الذى نزل وتجسد ، وتألم ، وقام ثانية وصعد الى السماء ، وسوف يأتى ثانية ليدين الأحياء والأموات . (نؤمن) أيضا بالروح القدس ، بقيامه الجسد ، بالحياة الاخرة ، بملكوت السماوات . بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل ارضين .

هذا الايمان عن الأناجيل المقدسة تلقيناه ، حيث يقول السيد لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ١٩/٢٨) .

وانا ان لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيها) فالله قاضينا كلينا الآن ويوم الدينونة

أيها الامبراطور القانت . نضرع الى تقواكم ، نحن يا من كرسنا للاكليروس ، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسة والكتب المقدسة .. هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية الى امنا الكنيسة . ولنلق جانبا سطحى المسائل والجدال . عندها يغدو كلانا والكنيسة وقد احتوانا سلام . لعهدكم الأمين ، ولأجل الاسرة كلها نقدم صلواتنا والابتهال(١) » .

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 26.

واول ما يلفت النظر أن صيغة الايمان هذه جاءت خلوا من عبارة « من نفس الجوهر » (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجدل طيلة طرح هذه القضية فى المجمع ، وهى العبارة التى أخبر يوساب القيسارى أن الامبراطور نفسه هو الذى اقترح اضافتها الى العقيدة . يضاف الى هذا خلوها أيضا من عبارة « مولود غير مخلوق » وهى التى ادخلت ايضا برأى المجمع على مرسوم الايمان القيسارى . ويقول جونز أن صيغة الايمان التى قدمها آريوس ويوزيبوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة(١) . وعلى الرغم من كل هذا الا ان الامبراطور لم يلق بالا الى هذه الموضوعات التى كانت سببا فى الانقسام ، لعدم ادراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية ، متلهفا على اعادة الوحدة الى الكنيسة والدولة ، فعد هذه الصيغة اعترافا من الزعيم الآريوسى بمرسوم الايمان النيقى ، وقبل منه وزميله ذلك ، وقد رآه حسنا ، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسهما ، واصدر أوامره بالعفو عن آريوس وصاحبه . ولم يلبث الامبراطور أيضا أن قرر استدعاء كل من يوساب وثيوجنس من المنفى ، وامر بعودتهما ثانية كلا الى كنيسته بعد أن قدما وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما يتبعان الايمان القويم(٢) . وكان هذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البديلين امفيون وكرستوس اللذين أختيرا من قبل .

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الامبراطور فى تحريكها ، فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته الى بلاطه وطلبه اليه تقديم صيغة للايمان موافقة للكنيسة ، وقبوله بنفسه لهذه الصيغة دون أن يرجع فى شىء من هذا كله الى اى من رجال الكنيسة ، ولم يطلب اليها رأيا او يستمد نصحا . وذلك شىء لم يكن من غير الطبيعى فى شىء ما دامت الكنيسة قد هللت للامبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والاضافة ، فلا غرو اذن أن يحرم الامبراطور ، ويمنع ، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشىء من هذا . واستسلمت الكنيسة طوعا وكرها ، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب

---

(١) Jones, Constantine, p. 175.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة ، للأباطرة حق تعيين كبـــار موظفيها وعزلهم .

غير ان شيئا لم يكن فى الحسبان جاء قسطنطين على غير توقع ، وبدد حلم سلامه وأمل الوحـــدة لديه ، ذلك أن كنيســـة الاسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الامبراطور ، ووقفت وحدها ، على الأقل ، من بين كنائس الامبراطورية تدافع عن الايمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الامبراطور ، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة . وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصرية هو أثناسيوس ، أسقف الاسكندرية ، شماس المجمع النيقى الشهير ، الذى تولى الأسقفية خلفـــا لسلفه اسكندر عام ٣٢٨ ، فبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار الا فى القرن السابع والمسلمون يدقون طبول التسامح على أبواب مصر .

خيل للامبراطور أن سنوات عمره الباقية ستنقضى فى هدوء كان دائما ينشده ، فها هو آريوس نفسه قد عاد الى الاعتراف ، على الأقل من وجهة نظر الامبراطور ، بالايمان النيقى . وها هم صحبه قد سلكوا ايضا نفس السبيل ، ولم يبق اذن الا أن يقبل الأسقف السكندرى أثناسيوس آريوس فى الكنيسة ثانية . ولكن الامبراطور كان واهما فى تصوره ، فالأســـاقفة الآريوسيون وان كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية الا أن ذلك لم يكن صادرا عن رغبة أكيدة فى اعتناق هـــذا الايمان فعلا . وذلك شىء برهنت عليه أحداث ما يقرب من قرن من الزمان . ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يؤمنون تمام الايمان أن آريوس على اليقين وأن خصـــومه عن الحق بعيدون . ومن ثم راحوا يســـعون جاهدين لكسب الامبراطور الى جانبهم لتأييد قضيتهم . وساعدتهم على ذلك الأحداث .

يخبرنا سقراط(١) وسوزومين(٢) أن يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الامبراطور وعقب عودتهمـــا من المنفى بمكانة كبيرة

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

وحرية فى القول وتأثير كبير على الامبراطور ، وقد يبدو ذلك عجيبا اذا ما عدنا الى الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى أهالى نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوساب ورفيقه ، ولكن سرعان ما يزول العجب اذا أدركنا أن الامبراطور كان يبغى كسب ولاء هذين الرجلين باعتبارهما أبرز شخصيات الفريق الآريوسى عله بذلك يضمن ولاء انصارهما ، ومن ثم قربهما الامبراطور اليه متغاضيا عن كل ما جرى على قلمه عنهما آنفا . هذا من ناحية ، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة ايمان عدها قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما . أما الثالثة فقد كان للاتجاه الذى اتخذه أثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى ايغار صدر الامبراطور عليه وتقريبه بالتالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم .

سعى الشيخان لدى الامبراطور لاعادة آريوس ثانية الى كنيسة الاسكندرية ، وكان قسطنطين على وعده الذى واعد به آريوس فى رسالته الأخيرة اليه ، فكتب الى الأسقف السكندرى يطلب اليه قبول آريوس(١) . كما كتب يوساب النيقوميدى ايضا الى أثناسيوس بهذا المعنى ، وان كانت لهجة يوساب تحمل ضمنا معانى التهديد(٢) . غير أن أثناسيوس أرسل الى الامبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الآريوسى فى بيعته(٣) .

ذلك أمر لم يكن يتوقع الامبراطور حدوثه . فقد حسب أن أحدا من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقدرة للاعتراض على اى قرار للامبراطور ، ومن ثم استشاط غضبا لهذا الذى يسمع ويرى !! وزاد الطين بله أنه قد بلغه ايضا أن أثناسيوس رفض قبول المليتيين فى الكنيسة ، واحتج على اختيار يوحنا المليتى خلفا لمليتيوس(٤) . وكان المليتيون قد جأروا بالشكوى للامبراطور من المعاملة التى يلقونها على يد أسقف الاسكندرية ، ويصور سوزومين حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول « أصبح الامبراطور من أمره فى حيرة .. اى الفريقين يصدق ؟! لقد كان امامه كثير

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 18.

(٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

من الاتهامات التى الصقوها ببعضهم ، وهناك ايضا العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان ، فلما عاين الامبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حدا كبيرا »(١) . فكتب ، فى محاولة لاعادة الوئام ، الى أثناسيوس متوعدا ، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتيوس Gaudentius (٢) وجاء فيها :

« انك ولا شك تعى تماما ارادتنا . لا تحل البتة بين أى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة ، ولتدرك جيدا أنه اذا ما نما الى علمنا أن احدا ممن يرغبون فى العودة الى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى لأبعثن على التومن يقوم بعزلك انفاذا لمشيئتى ويرسل بكم الى المنفى(٣) » .

ويبدو أن الامبراطور لم يكن جادا فى تهديده هذه المرة ، فقد قصد بذلك مجرد قهر اثناسيوس على الامتثال لأوامره ، وذلك شىء دلت عليه الأحداث بعد ذلك واوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله ان الامبراطور ما أقدم على ذلك الا مدفوعا بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة . فطالما جاهد الامبراطور ليجمع على الوئام صفوفهم(٤) » .

ومهما يكن من أمر فقد اتضح الآن أن الفريق الاريوسى قد بدا يفيق الى حد بعد اللكمة التى كالها له مجمع نيقية ، واخذ الامبراطور بالتالى يدخل هذه الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها ، الا أن أحداثا أخرى وقعت خارج الاسكندرية جذبت اهتمام الامبراطور الى حين ، وكان منشؤها كما يقول سقراط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية ، ان عبارة « من نفس الجوهر » قد سببت المتاعب للكثيرين منهم ، ولذلك فانهم شغلوا انفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما ادى بالتالى الى اشعال نيران الجدال بينهم ثانية ، ويضيف سقراط « يبدو ان المسألة

---

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(٣) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

كانت نزاعا فى ظلام لأن احــدا من الحزبين لم يحــاول فهم موقف الآخر والأسس التى يعتمد عليها ، فهؤلاء الذين يعارضون هذه العبارة يعتقدون أن انصارها يتحمسون لآراء ســابليوس(١) ومونتانوس ، ومن ثم أطلقوا عليهم مجــدفين أو ملاحدة . هذا على حين يتهم اصحاب هــذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعدد الآلهــة معتبرين اياهم وثنيين يؤمنــون بالخزعبلات(٢) ، وعلى هذه الشاكلة اتهم يوستاتيوس **Eustathius** أسقف انطاكية يوساب أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الايمان النيقى ، فأنكر يوساب ذلك ورد التهمة اليه بأنه مدافع عن أفكار سابليوس ، ونتيجة لذلك او لسوء الفهم هذا ، على حد تعبير سقراط ، كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا(٣) .

الحقيقة انه لدينا عديدا من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضد يوستاتيوس ، فيوساب صاحب النزاع معه لا يعطينا اى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع ، ولعل ذلك قد يبدو متفقا مع نهجه فى كتابه « حياة قسطنطين » ، ولا يذكر شيئا عن هذه الحوادث سوى أن « تدابير الشيطان وعيون الحاسدين » هى التى أحدثت هذه الاضطرابات فى انطاكية بزعــامة يوستاتيوس(٤) . أما اثناسيوس فانه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم ايمانه مما لم يرض خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الامبراطور مدعين بأنه اهان هيلينا(٥) . على حين ان ثيودوريت يوســع دائرة الخلاف لتشمل يوساب النيقوميدى معتبرا اياه سبب كل هذا البلاء ، ويقول أنه أبدى رغبته للامبراطور فى السفر الى اورشليم لحضور الاحتفالات المقامة لتدشين الكنيســة التى اقامها الامبراطور هناك . ولمــا كان قسطنطين

---

(١) سابليوس **Sabellius** أحد مواطنى طلميثه **Ptolemais** (احدى المدن الخمس الغربية) وقد نادى فى القرن الثالث الميلادى بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة ، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث . وقد تصدى للرد عليه الأسقف السكندرى ديونيسيوس. انظر : ATHANAS. Orat. C. Arian. IV, 9.

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 23.

(٣) Id.

(٤) EVSEB. vita Const. III, 59.

(٥) ATHANAS. hist. Arian. 4.

قد اطمأن لأقواله فقد سـمح له بذلك وزوده بكل ما يحتـاج اليه فى حله وترحاله ، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحبه معه فى سفره ، فلما وصلا الى الأماكن المقدسة تلاقت وجهات نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصة يوساب أسقف قيسارية ، وباتروفيلوس اسقف بيسان ، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية ، وآخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدة الآريوسية ، وقر رأيهم على تدبير مؤامرة معينة . ومن ثم رحلوا الى انطاكية وكان ادعاؤهم الذى زعموه لهذه الرحلة هو رد اعتبار يوساب(١) . ولكن الغموض يكتنف هذه القصة ، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم عام ٣٣٥ ، بينما وقعت هذه الأحداث سنة ٣٣٠(٢) . وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات الا أن الاجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنها كان السبب الرئيسى فى حدوث هذه الاضطرابات . ولحسم هذا الخلاف دعى الى عقد مجمع فى أنطاكية(٣) ترأسه يوساب القيسارى(٤) . ويسوق ثيودوريت صورة من الاتهامات التى وجهت ضد يوستاتيوس(٥) ، ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقية لأنها لم ترد فى كتابات سقراط أو سوزومين او أثناسيوس . ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس **Cyrus** أسقف بيرويا **Beroea** (حلب) قد تولى مهمة الادعاء ضد يوستاتيوس ، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية(٦) ، ولما كانت غالبية الحاضرين فى المجمع من مؤيدى يوساب تم عزل يوستاتيوس من منصبه(٧) ، وأصدر الامبراطور اوامره بنفيه الى ترجانابوليس فى ترقيا(٨) . وحول ما يقوله سقراط عن عزل

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٢) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jackson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 102.

(٣) EVSEB. vita Const. III, 60.

(٤) Downey, op. cit. p. 352.

(٥) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(٧) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24; SOZOM. hist. eccl. II, 19; THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٨) HIER. vir. ill. 85.

أسقف أنطاكية تتضح الحالة التى كانت تسود الكنيسة عندئذ ، والعداوات المتأصلة بين رجالها ، فبعد أن يسوق حادث العزل يقول أن هذا الاجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة ، وقد كان هذا أمرا شائع الجدوث ، فقد اعتاد الأساقفة ان يفعلوا ذلك فى كثير من الأحوال ، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريرا لهذا العمل(١) .

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاتيوس حتى شبت الثورة فى انطاكية وانقسم الناس الى فريقين ، بين مؤيد للقرار ومعارض ، وحمل كلاهما السلاح وأضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية ، وارتاع الامبراطور لهذه الأحداث ، وأصبح الامر فى نظره غاية فى السوء ، وامتلأ على حد تعبير سوزومين غيظا وحنقا ، وأرسل على الفـور من لدنه قائدا كبيرا خوله سلطات ضخمة لاخماد هذه الفتنة(٢) هو موزونيانوس **Musonianus** (٣) ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء الى العنف كلما أمكن ذلك(٤) .

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاتيوس على أسقفية انطاكية ، فسقراط(٥) وسوزمين(٦) يعطيانا اسم يوساب القيسارى مباشرة مرشحا لهذا المنصب ، على حين نعلم من رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف اسقف الأنطاكى المعزول مدة ستة أشهر فقط(٧) ، ثم تبعه بعد ذلك يولاليوس **Eulalius** والذى لم يمض عليه الا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودوريت(٨) . ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوساب القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر(٩) . ويقول سوزومين : لقد دخل فى روع اولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى انطاكية واصـدروا قرارهم بعزل

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٣) Downey, op. cit. p. 352.
(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(٦) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٧) مات باولينوس قبل مجمع نيقية . أنظر : McGiffert, op. cit. p. 45
(٨) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(٩) Id.

يوستاتيوس ، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والامبراطور خاصة اذا ما رفعوا الى الكرسى الأسقفى بدلا منه رجلا يميل الى آرائهم معروفا لدى الامبراطور قريبا منه ، مرموقا فى علمه وفصاحته . ومن ثم قر رأيهم على يوساب القيسارى ، وكتبوا الى الامبراطور بخصوص هذا الموضوع واكدوا له أن هذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية(١) . غير أن يوساب رفض قبول هذا المنصب وكتب الى الامبراطور رسالة بهذا المعنى(٢) .

وكان قرار يوساب بعدم قبول هذا الكرسى الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه . فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة اذا ما راوا أن يوساب خصم ستاتيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة . وكان يوساب غير راغب فى احداث صدع فى الكنيسة(٣) . هذا بالاضافة الى ان هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلا فى مثل عمر يوساب كان مزاجه آنئذ محبا للسلام وذوقه مدرسيا ، ففى قيسارية قضى يوساب الجزء الأكبر من حياته ، وبها مكتبة أستاذه بامفليوس تحت تصرفه ، كما ان الفرصة له هنا سانحة لمتابعة اعماله الأدبية والعقائدية . اما فى انطاكية فلسوف يجد نفسه مرغما على الغوص فى فتن من كافة النواحى . وسوف يجد نفسه ملزما لتكريس انتباهه فى انجاز مهامه الرسمية وحدها(٤) .

هذا من ناحية ، ومن الأخرى لا يخفى علينا علاقة يوساب بالامبراطور . وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحدة الكنيسة وبالتالى وحدة الدولة ، ويدرك تماما ما انتاب الامبراطور من ضجر وغيظ لدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة فى مصر وما جره هذا الانقسام على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم . ولذلك ما كان يوساب يرغب مطلقا فى ان يزيد الى آلام الامبراطور جرحا آخر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق فى أنطاكية . وما كان ليجر على نفسه غضب الامبراطور ونقمته ،

---

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(٢) Id.; SCORAT. hist. eccl. I, 24.

(٣) McGiffert op. cit. p. 22.

(٤) Id.

بل لا شك أن يوساب كان يعلم أن الامبراطور سوف يرفض مثل هـذا الاقتراح ، لهذا آثر الانسحاب بنفسه قبل أن يرغمه الامبراطور .

تبدى اهتمام قسطنطين البالغ بهذه المشكلة فى الموقف الذى اتخذه حيالها ، فقد بعث بثلاث رسائل الى شعب أنطاكية ويوساب ومجمع الأساقفة بها ، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الاطلاق لانها تفصح بجلاء عن قلق الامبراطور واضطرابه ورغبته فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة . وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السلام والتمسك بالقانون الالهى وضرورة احلال الوئام بين الجميع . ثم يقول :

« لعلكم الآن تقفون مشدوهين ، ولعلكم أيضا فى حيرة من امركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد . أصدقكم القول .. ما أن طالعت كتاباتكم الى والتى تعلى فى الخافقين ذكر يوساب أسقف قيسارية ، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعرفة وأكن لعلمه واعتداله كل تقدير ، حتى أدركت أنكم به متعلقون ، وفى الاستئثار به راغبون . أية أفكار اذن تظنون انى أحملها حول هذا الأمر ، وانتم تعلمون رغبتى فى البحث من اجل الحق وانقاذ مبادئه ؟! الا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟ ... ان الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيدا على النصر ذاته . وحيث يبدو الطريق عند أى اختيار قويما بينا ، فلن يتردد امرؤ أن يسلك جادته . والآن .. اخوتى ، انى لأتساءل .. لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالاخرين بالغ الضرار ؟ لماذا نتشهى أمورا لابد ملحقة بسمعتنا الدنس ؟! انى لأكن ذاتى لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب ، التقدير . الا انه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبادىء التى يجب على جميعنا مراعاتها ، فينال كلنا حقه المشروع ، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشحين آخرين ، افتراض أن واحدا بعينه استحوذ الصلاح كله . فقد يكون هناك كثيرون بالمنصب جديرين . وحيث أن

الكنيسة لا تتعرض كرامتها للعنف والفلظة ، فان هؤلاء جميعا يصبحون على قدم المساواة ويستحقون اذن منا نفس التقـــدير(١) » .

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى انطاكية بجميل القول عن اختيار يوساب القيسارى أسقفا خلفا ليوستاتيوس وأوضح لهم بمعسول الحديث ان هناك غير يوساب كثير من الكفاءات والقدرات التى يمكن أن تقوم بنفس عمله هذا على أن الشىء الواضح فى هذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التى تراود اهل البيعة الانطاكية . وهذا شىء يفيض به الجزء الباقى من الرسالة ، وفيه نهج الامبراطور نهج الحـــزم والصرامة مبديا ســـخطه وامتعاضه لمـــا ينتوى الانطاكيون القيام به . يقول :

« اذا كان الأمر كذلك فدعونى اقول لكم أنكم بهذا تضعون أنفسكم موضع الاتهام ، لا بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب ، بل بنقله بغير طريق الصواب ، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل ، وعلى اى نحو فكر الآخرون فانى أؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الاجراء سوف يفجر اسوأ اضطراب حزبى ، ذلك أن الرعية حتى ولو كانت مسالمة الا انه فى مقدورها ابداء سلطان الحق فى قوة عندما تبدأ عناية راعيهم فى التقلص ، ويجدوا أنفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته .. واذا كانت المسألة اذن بهذا الشـــكل ، واذا لم يخدعنى التقدير ، فليكن هذا ايها الأخـــوة أول الاعتبارات امامكم ، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليكم ، اذ انتم ما ضون على عزمكم .. ولكن اليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم القائم فيكم للانحسار ، ولتتذكروا ثانية ان هذا الذى حل بينكم يخلص النصح ، ينعم الآن بما يستحق من ثواب علوى لأنه

---

(١) EVSEB. vita. Const. III, 60.

تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم .

وأخيرا .. وتمشيا مع تقديركم الصائب ، هل باختياركم هذا الرجل الذى تشعرون بالحاجة اليه ، قد ابديتم الحصافة اللازمة فى هذا الاختيار وانتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة ، وهل تعلمون أن هذا هو الخطأ بعينه ؟ وان الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شرارا ولهيبا(١) » .

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجدل أو المناقشة والذى اضحى تنفيذه على الجميع واجبا :

« انى لأحتج بشدة على مسلككم ، فذلك شىء لايرضى الله . وليس من صالحكم فى شىء ، كما أنى أرى فى موقفكم هذا تهديدا لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى واياكم وامنياتكم .. انى لأحببكم ، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضلالة وأقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق ، فثبتم بذلك عالم السلام المقدس ، حتى ليحق للمرء ان يقول أنكم محصنون بخوذة حديدية وانتم تصعدون درج السماوات العلا . ولتحملوا فى سفينكم تجارة لاتفسد، لأنكم قد أفلحتم فى نتح ماء كان يتهددها بالغرق . ولتعنوا من الآن فصاعدا ، لضمان الحفاظ على النعم التى تتقلبون فيها ، حتى لا يقول عنكم الناس فيما بعد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة أو حماس معيب . أو أنكم اندفعتم فى حمق تتخبطون فى دروب المجهول . لعل الله يحفظكم أيها الاخوة الأحباب(٢) » .

هكذا افصح قسطنطين صراحة عن رأيه فى ترشيح يوساب ، فقد

---

(١) EVSEB. vita. Const. III, 60.

(٢) Id.

كان الرجل صديقه الحميم ، وكان الامبراطور يجمل له كل تقدير واعجاب ، ولكن صالح الدولة العام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات ، ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الاقدام على مثل هذا الاجراء لما سينتهى اليه ذلك من ازدياد حدة الانقسام وعموم الفوضى والاضطراب .

وكم كانت سعادة الامبراطور عندما اتاه خطاب يوساب يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذى اقترح أهالى انطاكية والأساقفة خلعه عليه ، معلنا تمسكه بالتقاليد الكَنسية التى تحرم انتقال الأساقفة من بيعهم الى أخرى . فرد عليه الامبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه .. جاء فيها :

« لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك ، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التى ارتضها الكنيسة . وان التزامك بما يبهج الاله ويتفق والعرف الرسولى لبرهان على تقواك . وبهذا يحق لك ان تشعر بغبطة انت بها جدير لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسره . فأنت تملك البصيرة التى تتمناها اية كنيسة . وما من شك فى أن الرغبة التى أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعيا) قد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الكل عليه .. وعلى الرغم من ذلك ، فان نيافتكم ، فى اصراركم على مراعاة الشرائع الالهية والقوانين الرسولية ، قد فعلت حسنا برفضك أسقفية انطاكية . ورغبتك البقاء فى بيعتك التى رسمت عليها من قبل بارادة الله .

ولقد كتبت فى هذا الصدد الى شعب أنطاكية ، والى زملائك الأساقفة الذين تقدموا الى فى هذا الأمر يطلبون نصحى ، واذا ما اطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قداسنكم أن العدالة لا تتفق مطلقا وما يرتجيه هؤلاء . لقد كتبت اليهم بوحى من الله . على انه يحسن بجنابكم التواجد

فى مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة انطاكية ..
حفظك الله اخى الحبيب(١) » .

اطمأن قسطنطين بذلك الى ان شعب أنطاكية لن يقدم على ما انتواه بعد ان انذره بالويل والثبور بغوامض الكلم او صريحه ، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى ، وبقى على قسطنطين ان يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح انطاكية . ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها ، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الدور ، بعد ان اضحى فى شئون الكنيسة على كل شىء قدير !! منح لنفسه الحق مذ ادعى ان السماء دون البشر هدته ، وتقدمت به اليه الكنيسة مذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء ، فاذا كان هذا شأنه والعقيدة . فما باله والرجال !!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثا عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه سوى ستة أشهر فقط ، وانقذتهم من حيرتهم رسالة الامبراطور اليهم ، أشار فيها قسطنطين الى رسالته التى بعث بها الى اهالى انطاكية ، وارفق بها صورة هذه الرسالة حتى « يقفوا على رايه فى هذا الخصوص » ثم أومأ الى رسالة يوساب اليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية ، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح .

« يحسن بنا ان نطلع نيافتكم فى هذا الأمر رأينا . ذلك أنه قد نما الى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن ، احد مواطنى قيسارية كبادوكيا ، وجورج كاهن ارثوذا (الرستن) .. George of Arethusa الذى رسم قبلا على يد اسكندر فى الاسكندرية ، انما هما رجلان ذوى ايمان عميق ، وعلى هذا فانه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما ، ان تصدروا فى قراركم بوحى من تقاليد

(١) EVSEB. vita. Const. III, 61.

الرسل . وبهذا يغدو فى مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولى حتى يتحقق النظام الكنسى .. رعاكم الله اخوتى الأحبة(١) » .

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلا غير الذى رسمه لهم قسطنطين . فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق امرهم بالمفاضلة بين رجلين ، وعلى اثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم يوفرونيوس الكبادوكى اسقفا على انطاكية(٢) . ولكن هذا لم يمكث فيها الا عاما واحدا وبضعة أشهر ، فخلفه فلاكيللوس Flaccillus (٣) ، ويعلق ثيودوريت على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الآريوسية(٤) .

وكان هذا الاجراء الذى أقدم عليه قسطنطين ، بتعيين الأساقفة ، كما حدث بوضوح عقب عزل يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥ ، أو بترشيح اثنين للمفاضلة بين أحدهما ، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية ، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر ، كان هذا كله سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة ، لم يتخل عنها خلفاء قسطنطين ، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى ، وما صحبها من نزاع بين الامبراطورية والبابوية .

ولقد كانت انطاكية تمثل مركزا غاية فى الأهمية بالنسبة لأباطرة الرومان ، فقد كانت دائما مبتغى ملوك فارس فى صراعهم المستمر مع الامبراطورية الرومانية . ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت اثناء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس ، كما لم يكن يخفى عليه ايضا مركز انطاكية الاستراتيجى فى اى حرب مقبلة مع فارس . وقد قدمنا أن الملك الفارسى كان ينتهج سياسة عدائية ازاء الرعايا المسيحيين هناك . وعلى ذلك فمن المحتمل ايضا أن يكون قسطنطين قد سارع جاهدا لحل المشكلة الأنطاكية حتى

---

(١) EVSEB. vita. Const. III, 62.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(٣) THEOD. hist. eccl. I, 21.

(٤) Id.

. يجنب المدينة اندلاع حرب اهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها.
هذا بالطبع الى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له امبراطوريته .

هدأت بهدوء الأحوال فى أنطاكية سريرة الامبراطور ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ، ذلك ان الفريق الآريوسى ، ما كان ليرضخ بصورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين ، وها هو الآن يتقدم وئيد الخطو محاولا تثبيت أقدامه ، فالامبراطور قد عفى عن زعمائه ، واستطاع هؤلاء ازاحة خصم لهم لدود من كرسى أسقفية أنطاكية ، ولم يبق أمامهم اذن الا ألد هؤلاء الخصوم على الاطلاق ، أثناسيوس الأسقف السكندرى !

وكان قسطنطين قد بعث برسالة الى الاسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة الى الكنيسة ، يعنى بذلك الآريوسيين والمليتيين ، غير أن أثناسيوس أصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور ، وكتب اليه محاولا اقناعه بأن أولئك « المهرطقين » لا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية(١) . وكانت تلك اذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صدر قسطنطين على أسقف الاسكندرية(٢) . وكان يوساب أسقف نيقوميديا هو الذى يترأس الان جماعة الآريوسيين ، كما كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية ، ماريس Maris اسقف خلقيدونية ، أورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum (بلجراد) ، فالنز Valens أسقف Mursa (أوسيك فى يوغسلافيا)(٣) وراح هذا الفريق يوثق صلاته بجماعة المليتيين فى مصر فى محاولة لتوحيد جهودهما ضد الأسقف السكندرى(٤) . ولخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين ، استخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحة الدعاية والاتهام ، والامبراطور ينفذ سياسته بدقة ، فتارة

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(٢) Id.
(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٤) Id.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
SOZOM. hist. eccl. II, 22.

ينتصر لهذا الفريق ، واخرى يعدل عن رأيه ، وهو فى هذا وذاك تلهث أنفاسه فى محاولة للخلاص من هذا الشقاق فى الكنيسة الذى يهدد الدولة كلهـا .

رسم الحزب اليوسابى خطته على مرحلتين ، الأولى اثارة غضب الامبراطور على أسقف الاسكندرية ، والثانية اشاعة روح السخط والتذمر عند الأساقفة جميعا على زعيم الايمان النيقى .

كان يوساب ورفاقه يعلمون تماما مزاج الامبراطور وطبعه الأوتوقراطى ورغبته الجامحة فى الاستبداد بالسلطة ، ولم يكن من العسير على احد عايش قسطنطين فترة من الزمن وعاين الأحداث التى مر بها ، ان يدرك على الفور نفسية قسطنطين . لقد كانت سياسته تتبلور حول شىء واحد دلت عليه أحداث عصره مذ كان بعد فى بريطانيا ، ذلك هو دولة واحدة وحاكم واحد . ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقا بانقسام فى امبراطوريته ، كما لم يكن يسمح لانسان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان ، أو على الأقل ينتقص منه شيئا . من أجل هذا أشاع فى الناس ، وروج له « مادحه » يوساب القيسارى انه «مبعوث السماء الى الأرض» ، «حوارى المسيح» !!

وعلى اوتار الوحـدة الامبراطورية وانغـام السلطان راح الفريق اليوسابى يعزف للامبراطور لحنا واحدا طوال خمس سـنوات ، حتى استطاع أن يجبره فى النهاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الاسكندرية !!

لمـا كان من غير المعقول اتهام أثناسيوس بالهرطقة او الزيغ ، فقد كان لابد من البحث عن طريق آخر غير طريق العقيدة ، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قد فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى(١) . كما وأن هذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهـذا الاتهام(٢) . وكان ازيون **Ision** ويودايمـون **Eudaemon** وكاللينيكوس **Callinicus** وهم من الفريق المليتى اصـحاب ذلك الاتهام(٣) . ويجمع المؤرخون الكنسيون على ان ذلك كان نتيجـة اغراء

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

يوساب ورفاقه . ولعلنا نلمس مدى الأهمية التى علقها الامبراطور على هذا الاتهام ، فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه . اذ أرسل يستدعى اليه فورا أثناسيوس ليدفع عن نفسه ذلك القول ، وما كان أيسر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوبا عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها ، ولكن استدعاء أثناسيوس اليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى اخضاعهم لسطانه . ويعد فى الوقت ذاته تحذيرا للأسقف السكندرى على مسلكه السابق تجاه الامبراطور ، برفضه تحقيق رغبة قسطنطين فى اعادة آريوس الى شركة كنيسة الاسكندرية .

ولقد تصادف وجود قسيسين مصريين فى العاصمة الامبراطورية عندئذ هما ابيس **Apis** ومقار **Macarius** فتقدما الى الامبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم ، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء(١) . ولكن ذلك لم يكن ليثنى الامبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الاسكندرية . وما أن جاء هذا الى البلاط الامبراطورى حتى كان الفريق اليوسابى قد أعد ضده اتهاما جديدا يمس حياة الامبراطور ذاته ، فقد اذاع أن اثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور ، وانه ارسل صندوقا مملوءا بالذهب الى شخص يدعى فيلومنوس **Philumenus** كان رئيسا للحرس لتنفيذ مخططه(٢) . وقد قام الامبراطور بفحص هذه القضية ، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين ، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له بالعودة الى بيعته(٣) ، وشيعه برسالة الى رعيته يمتدح اسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفا به رجلا من رجال الله ، مبينا أنه لما كان الحسد وحده هو سبب اتهامه الان ، فانه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات(٤) . ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلا من الفرق المتنازعة على الانصراف الى تبجيل الاله ورعاية حق أثناسيوس ، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض . ويعلق سوزومين على ذلك قائلا : هكذا

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(٢) Id.
(٣) Id.
(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

كتب الامبراطور الى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعيا الى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة(١) .

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الامبراطور قد أعاد أثناسيوس الى كنيسته معززا مكرما ، الا أنه قد تأكد لديه أيضا ان وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى ، وكان هذا هو ما يسعى اليه الحزب اليوسابى ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها . وان كان الامبراطور قد أدرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس .

بقى اذن أن يثير يوساب ورفاقه الأساقفة ضد أثناسيوس ، ولا يتأتى ذلك الا باظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الاكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم .

كانت مريوط **Mareotes** اقليما تابعا للاسكندرية ، وكانت تضم قرى عديدة تمتلىء بالسكان وبعدد من الكنائس الزاهرة ، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الاسكندرية(٢) . الا أن شخصا يدعى اسخيراس **Ischyras** لم يكن من رجال الاكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس(٣) . وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى ، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزيارته المعتادة للاقليم ، فأوفد الأسقف السكندرى قسيسا يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لاحضار اسخيراس ، غير أنهم ألفوه يعانى آلام المرض ، فطلبا الى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه ، ولكنه ما أن أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار فيما كان يدعيه حتى فر هاربا الى الميليتيين(٤) ، ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك الى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى ، ويخبرنا أيضا أن يوساب استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه بشرف الأسقفية كذلك اذا ما استطاع أن

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(٣) Id.
(٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

يجد اتهاما ضد اثناسيوس(١) . فاذاع اسخيراس تقريرا يعلن فيه أن مقار وصحبه اثناء حضورهم اليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة ، وكسروا الأوانى المقدسة واحرقوا الكتب ، وأن أسقفا يدعى أرسنيوس **Arsenius** قد قتل على يد أثناسيوس أيضا وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل(٢) . ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد اعد بعد ذلك فى وقت تال ، بينما كان الاتهام الأخير هو الذى شغل الاذهان بادىء الآمر(٣) .

ويذكر سوزومين(٤) أن أرسنيوس هذا أسقف لمدينة **Hypselitae** شطب جنوب أسيوط) ، ولابد أن يكون قد أتى أمورا تخالف العقيدة أو النظام الكنسى ، وان كان سوزومين لم يدل الينا بأية تفصيلات فى هذا الخصوص . ثم يضيف أنه خوفا من عقاب أسقفه هرب الى مكان ما ، فاستغل الآريوسيون والمليتيون هذه الفرصة وبحثوا عنه حتى وجدوه واظهروا له كثيرا من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان اذا أطاع أمرهم . هكذا يقول سوزومين(٥) . ويبدو أن أرسنيوس كان واحدا من المليتيين ، يدل على ذلك موقع المدينة التى كان راعيا لكنيستها ، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الاسكندرية ، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجد العطف من الفريق المضاد لاثناسيوس ، وراح يتنقل من مكان لاخر هربا من أسقف الاسكندرية الذى جد فى طلبه .

عندما شاعت هذه الاتهامات ، وملأت آذان الناس ، ادرك أثناسيوس أنه من العسير عليه تماما أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليه بارتكاب هذا الجرم مسبقا دون انتظار لفحص أو تمحيص ، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحق وسط زحام الأباطيل(٦) . وفى نفس الوقت علم الامبراطور بكل ذلك ، فسارع بالكتابة الى دلماتيوس **Dalmatius** رقيب أنطاكية يأمره ببحث هذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق ، وطلب اليه معاقبة من تسببوا فى اشاعة هذه الفوضى بالقول أو العمل ،

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.

(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(٥) Id.

(٦) Id.

وارسل الى هناك أيضا كلا من يوساب وثيوجنس بعد ان رأى ضرورة مناقشة القضية أمامهما(١) ، وقد أرسل دلماتيوس رسالة الى اثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب الى أنطاكية للدفاع عن نفسه(٢) . ويقول أثناسيوس انه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى اتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء ، الا أن تحرك الامبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للامر اهتمامه البالغ(٣) . فقد كان الأسقف يعلم جيدا مدى حرص الامبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى ، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الامبراطور لدى سماعه بضريبة الكتان والتآمر على حياته .

وعلى هذا الأساس ما أن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة الى كل زملائه من رجال الاكليروس فى مصر يستحثهم على الادلاء اليه بأية معلومات عن شخصية ارسنيوس هذا ومكان اختفائه ، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه لخمس سنوات تقريبا(٤) ، كما قام من ناحيته أيضا بارسال أحد شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان . وقد جاء هذا الشماس الى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبىء أرسنيوس(٥) . فلما وصل الى أحد الأديرة هناك ، أنكر باترينس Patrines الراهب ويسميه اثناسيوس بينس Pinnes (٦) ، وجوده لديه ، وكان المعتقد انه مختف هناك(٧) ، ذلك أنه كما يقول سوزومين ما أن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية الى مصر السفلى ، فقام الشماس بالقبض على بينس وساقه الى الاسكندرية مع زميل له يدعى الياس Elias قيل انه سهل لأرسنيوس مهمة الفرار الى مكان آخر ، وسلم الاثنين الى السلطات الامبراطورية فى مصر ، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة ، وانه يعيش فى مصر(٨) .

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(٤) Id.
(٥) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(٦) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(٧) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(٨) Id.

وهذه المعلومات عينها نعلمها أيضا من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا الى يوحنا الأسقف المليتى ينبئه فيها تفصيلا بكل هذه الأحداث ويعتذر اليه عن اعترافه ببقاء أرسنيوس حيا ، لان بعض كهنة الدير مثل بكيسيوس **Pecysius** وسلفانوس **Silvanus** أخ الياس ، وبولس **Paul** راهب **Hypselae** قد اعترفوا صراحــة بأن أرسنيوس كان يقيم بينهم ، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام اثناسيوس بهذا الادعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر(١) . فلما تم ذلك كتب اثناسيوس الى الامبراطور يطلعه على كل هذه الأمور(٢) . فأصدر قسطنطين اوامره الى دلماتيوس بوقف اجراءات التحقيق فى هذا الحادث(٣) . وامر يوساب واعوانه الذين كانوا فى طريقهم الى الشرق للاشتراك فى نظر القضية بالعودة ثانية الى كنائسهم(٤) . وكتب رسالة الى أثناسيوس دعاه فيها الى الالتفات الى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالا الى ترهات وأباطيل أولئك الحسود(٥) .

ويتضح من رسالة الامبراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيون فى هذا السبيل ، فهو يعزو اليهم كل هذه الأحداث ويتهمهم بالزيغ والضلال خاصة «بعد أن ظهر للجميع ان من ادعوا ذبحه لا يزال حيا باستطاعته أن يحدثهم» . ثم انحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلنا أن العناية الالهية لا يمكن ان تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أو الرشاد ، واختتم رسالته برغبته الأكيدة ان تقرأ على القوم جميعا حتى تصل الى آذان أولئك الذين تسببوا فى اثارة مثل هذه الاضطرابات ، ثم صرح بأنه قد قرر محاكمة هؤلاء الناس اذا ما أقدموا ثانية على ارتكاب مثل هذه الفعال لا تبعا للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية ، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الانسانية بل ضد العقيــدة الالهيــة ذاتهــا(٦) .

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(٢) Ibid. 65.
(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(٥) Ibid. 68.
(٦) Id.

ويذكر أثناسيوس أن اسخيراس قد بعث اليه برسالة بعد ان اتضحت كل هذه الأمور(١) يعلن له فيها أن كل الادعاءات التى ساقها ضده انما صدرت منه قسرا بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسى المليتى ، ويعين له أسماء رجال منهم مثل اسحق Isac وهيراكليدس Heraclides واسحق أسقف لتوبوليس (اسنا) Letopolis ، وأن شيئا من هذه الاتهامات لم يكن صحيحا بالمرة ، ثم يرجوه أن يعفو عنه وان يقبله ثانية فى جماعته(٢) . ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية ، فكتب الى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية ، ووعده أن لا يصغى ثانية الى أقوال أولئك الذين جرفوه بادىء الأمر فى تيارهم ، وألا يشترك معهم فى محفل أو يوافقهم الراى ورجا اثناسيوس أن يرسل اليه ردا يطمئنه بتحقيق امانيه ، وأن يكتب بالتالى الى الكنائس المختلفة يعلمها أنه قد عفى عنه وأنه عنه راض(٣) .

وقد أدرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الامبراطور بمحاكمة المليتيين امام المحاكم المدنية اذا ما استمروا فى عنادهم للاسقف السكندرى ، يعد تهديدا خطيرا لكيانهم وأدرك أن الامبراطور لن يتورع فعلا عن تنفيذ ما اعتزمه ، ومن ثم بادر بالكتابة الى قسطنطين يخبره أنه قد عاد الى الوئام مع أثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية(٤) .

وما أن تلقى الامبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف فى هذه الفوضى المستشرية فى مصر ، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة الى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين المليتيين وكنيسة الاسكندرية . فربما أدى به الأمر فى النهاية الى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم فى ولاية أفريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية . بل ان هذا الخطر القائم فى مصر يفوق قرينه الغربى ، فاذا كان الأخير قد

---

(١) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لأننا نعلم أن أسخيراس كان أحد متهمى أثناسيوس فى المجمع . راجع : SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(٣) Ibid. 69.

(٤) Ibid. 70.

اقتصر على افريقيا وحدها ، الا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشرق ، وعلى ذلك فقد سارع الامبراطور بالرد على رئيس الأساقفة المليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السلام بينه واثناسيوس مرة اخرى ، تلك الأنباء التى كان يتوق الى سماعها لفترة طويلة مضت ، ويثنى على سلوكه ، هذا الذى ادخل السرور على قلب الاله ، واعاد الى الكنيسة وحدتها وأمنها ، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعى يوحنا للشخوص على الفور الى البلاط الامبراطورى حتى تشمله عن كثب بركات الامبراطور ورعايته(١) .

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة ان الحال آخذة فى الهدوء . فالاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتها ، ورئيس الأساقفة المليتيين أعلن للامبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى ، وها هو الآن يتأهب للرحيل الى العاصمة الامبراطورية لينال حظوة الامبراطور ، ولكن على الرغم من هذا الهدوء الظاهرى الا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته ، فآريوس حقا قد شمله عفو الامبراطور وعاد من منفاه ، ولكن كنيسة الاسكندرية لا زالت تلفظه خارجها ، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام الى الكنيسة ما بقى آريوس خارجها . ولن يعود هذا الى الكنيسة اذا ظل فى الأسقفية أثناسيوس . والامبراطور بين هؤلاء واولئك أشبه شىء بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته ، فراح يضرب بيده يمنة تارة ويسرة اخرى ، ليصل بالسفينة الى بر النجاة .

عاود الفريق اليوسابى نشاطه ثانية فى دوائر البلاط ، وراح يوحى الى الامبراطور أن اثناسيوس لابد وأن يبرىء ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض ، ووافقت الفكرة هوى الامبراطور ، وحسب أن فى عقد المجمع قضاء أخير على هذا الاضطراب ، وربما عد ذلك استكمالا لجهود المجمع النيقى ، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعوة سنة

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

٣٣٣ الى الأساقفة للاجتماع فى قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة ضد أسقف الاسكندرية ، وطلب الى هذا القدوم الى المجمع « ليدافع عن نفسه فى حضرة رجال الله »(١) .

قلنا آنفا أن سياسة الفريق اليوسابى قد قامت على مرحلتين ، اثارة غضب الامبراطور على اثناسيوس ، واثارة سخط الأساقفة ضده ، وحتى الآن لا يمكننا القول انهم أفلحوا فى المرحلة الأولى تماما ، وان كانوا قد ادخلوا على الأقل فى روع قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة فى الأسقف السكندرى . وكانت الدعوة لعقد مجمع الاساقفة فى قيسارية نجاحا تاما للمرحلة الثانية من نضالهم ضد انصار نيقية ، بل أن نجاح هذه الخطوة امتد أثره ليشمل الامبراطور ايضا . وهكذا وفى جولة واحدة كسب اليوسابيون الى صفهم الأساقفة والامبراطور ، وقد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة .

كان اختيار مكان المجمع دليلا على سياسة قسطنطين فى ارتضائه الحلول الوسطى فى هذه المشاكل المعقدة ، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوساب صديق الامبراطور والمعروف بميوله المعتدلة . فلا هو بقلبه يؤيد النيقيين ، ولا هو صراحة مالأ الأريوسيين . ولما كان من البدهى أن يصبح يوساب القيسارى رئيسا لهذا المجمع المقترح ، فقد أمل قسطنطين أن يجد فى جهده رمزا ما للسلام . ولكن أثناسيوس كان يرى فى يوساب هذا خطرا مباشرا عليه ، خاصة وهو يعلم أن يوساب لن يكون صاحب الكلمة الأولى فى المجمع ما دام الى جواره اساقفة آخرون يمثلون العداء الصارخ له على راسهم يوساب النيقوميدى وكثيرون غيره من رجال الآريوسية ، فتوجس فى نفسه خيفة أثناسيوس ، ورفض دعوة الامبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهرا رغم الالحاح المستمر فى طلبه(٢) .

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الامبراطور الى

---

(١) THEOD. hist. eccl. I, 28.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

صفه ثانية ، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته ، أو يحول دون رغائبه ، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الاسكندرية تحديا لسلطانه، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماما ، وبذلك وفى وقت واحد ، ثارت حفيظة الامبراطور والأساقفة ضد أسقف الاسكندرية العنيد .

صمم الامبراطور اذن على أن يسير فى الشوط حتى منتهاه ، فوجه الدعوة من جديد لعقد مجمع للأساقفة فى صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفا(١) . وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس **Dionysius** الى هناك ، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الامبراطور الى الأساقفة ، « رئاسة وضبط أعمال المجمع والحفاظ على النظام »(٢) . كما كتب الى أثناسيوس يأمره بالذهاب الى صور ، ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغبا فى ذلك ، الا أنه امتثل للامر على كره منه(٣) . ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلا أن امتعاض أثناسيوس من الذهاب الى هناك كان صادرا عن ايمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة اليه ، هذا بالاضافة الى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الايمان النيقى(٤) ، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول « ان أسقف الاسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها اليه الامبراطور متوعدا اياه بحمله على الحضور عنوة اذا لم يحضر طواعية(٥) .

وقد كتب قسطنطين الى الأساقفة المجتمعين فى صور رسالة أبدى لهم فى بدايتها أمله الكبير فى أن تعود الى الكنيسة ثانية وحدتها ، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى ، وحث الأساقفة جميعا على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق واظهار الحقيقة ، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه :

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(٢) EVSEB. vita. Const. IV. 42.
(٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(٥) Id.

« ولئن تجاسر احد ، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون ، على عصيان أمرى ، ورفض الحضور الى المجمع ، فلأرسلن اليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ويلقنه انه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور حين يكون عن الحق دفاعه(١) » .

ولا شك أن هذا التهديد موجه صراحة الى أثناسيوس . وهكذا اقفل باب سلام يرتجى بين الامبراطور والزعيم السكندرى ، ولم يكن الامبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقدا على أثناسيوس أو كرها له ، فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسابى المليتى .

وفى منتصف عام ٣٣٥ التأم عقد مجمع صور ، واصطحب أسقف الاسكندرية معه عددا كبيرا من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين(٢) ، وسيق مقار من الاسكندرية الى صور مكبلا فى أغلاله(٣) . ويصف أثناسيوس الحالة فى المجمع عندئذ بقوله : تقاسم المليتيون الذين طردهم بطرس من الكنيسة ، والآريوسيون المؤامرة فيما بينهم ، وعلى حين وقف فريق منهم ازائى موقف المدع ، جلس الحزب الآخر فى منصة القضاء . وقد اعترضت لدى يوساب موضحا له انه ليس من العدل أن يكون خصومى قضاتى ، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذى اتهمنى قبلا لم يكن فى يوم من الأيام قسيسا ، واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التى كان مليتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر عن أتباعه فى أنحاء مصر كلها(٤) ، ومن خلالها لا يظهر اسم اسخيراس على الاطلاق ، ولم يبد البتة انه كان أحد رجال الاكليروس فى مريوط .وعلى الرغم من كل ذلك الا ان خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم ، وكان الكونت على استعداد لاستخدام العنف ضدنا وتسيير جنوده فى ذلك(٥) .

تولى المليتيون اقامة الدعوى ضد أثناسيوس ، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium انه عزله من منصبه ،

(١) EVSEB. vita. Const. IV. 42.
(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(٥) Ibid. 72.

وعين بدلا منه شخصا آخر ، ووضعه تحت حراسة عسكرية ، وراح يذيقه العذاب الوانا حتى يحصل منه على اعترافات تدحض اتهام أثناسيوس بتحطيم الأوانى المقدسة ، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه فى الاغلال رغم مرتبته الكهنوتية ، واذاعوا ايضا انهم انبأوا قبلا هيجينوس Hyginus أحد موظفى الامبراطور فى مصر انه قذف بالأحجار تماثيل الامبراطور(١) ، واشيلاس Achillas وباخوم Pachomius واسحق Isaac اما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم اساقفة مليتيون ، فقد راحوا يشككون فى الطريقة التى تم بها اختيار اثناسيوس للأسقفية ، وأن ذلك تم بطريق غير شرعى بناء على تآمر بعض الأفراد ، مما دفع بهؤلاء الأساقفة الى قطع أنفسهم من الكنيسة احتجاجا على ذلك ، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيابة السجون(٢) . كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسينيوس(٣) .

وفيما يخص هذا الاتهام الأخير ، يذكر سقراط أن أرسينيوس ، متجاهلا التحذيرات التى وجهت اليه من الفريق اليوسابى المليتى ، جاء الى صور متنكرا ليشهد أحداث المجمع ، وقد نما الى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الأقليم ، أن أرسنيوس ، الذى من المفروض كونه فى عداد الأموات الآن ، يوجد متخفيا عند احد المواطنين . فما لبثوا أن نقلوا ذلك الى سيدهم الذى أصدر أوامره بالبحث عن الرجل ، فلما عثر عليه وجىء به أنكر شخصه ، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه ، وعندما أحضر الى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه اثناسيوس قائلا : « أرسنيوس .. ها انت كما ترى تمتلك كفين ، فدع متهمى يشيرون الى مكان اليد الثالثة التى قطعت(٤) » .

---

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(٢) Id.

(٣) Id.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl. I, 28.

وقد استطاع أثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات التى وجهت اليه . غير ان الحيرة انتابته أمام هذا الجم الغفير من الشهود الذين أحضرهم خصومه ، ومن ثم أدرك الأسقف السكندرى أن أعداءه عازمون على تحطيمه تماما . وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيهـــا فى بحر من الفوضى والاضطراب ، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعـــزل اثناسيوس ، ولم يحسم الأمر الا تدخل ديونسيوس المندوب الامبراطورى(١) .

وكانت مسألة اتهام مقار بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة ، واحتاج الامر الى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر ارسالها الى مريوط لبحث القضية فى موضعها(٢) . وتألفت اللجنة من ثيوجنس ، وماريس ، وثيودور ، وماسيدون ، وأورساكيوس وفالنز(٣) . احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه ، كما احتج أيضا على اصطحاب اسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده(٤) . وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على ايفاد لجنة الى مريوط على الاطلاق مبينا لديونيسيوس عدم جدواها(٥) . ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على ارسال اللجنة يشير الى احتمال صحة هذه الأحداث فعلا ، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة(٦) .

وكتبت رسالة الى حاكم مصر ، وزودت اللجنة بالعون العســكرى اللازم لحمايتها(٧) أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط الى الأساقفة المجتمعين فى صور ، وقد ذكروا فيها ما سبق ان اوضحه اثناسيوس من ان اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلا من رجال الاكليروس ، وانه انما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر ورسم عددا من القساوسة ، وتمت

---

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 31.
(٣) Id.
(٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(٥) Id.
(٦) Jones, Constantine, p. 195.
(٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

ادانته واعادته الى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الاسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى .

اما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا انها اصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعددا من جنده ، ولما تقدم اليهم رجال الاكليروس يطلبون اشراكهم فى اجراءات التحقيق ، رفضت اللجنة سماع مقترحهم ، وتمكنوا عن طريق القوة والتهديد من جانب الوالى ، كما تقول الرسالة ، من الحصول على البيانات التى يريدونها ، وعادوا أدراجهم ثانية(١) . وعلى غرارها كتب هؤلاء القسوس رسالة الى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر(٢) . أما الأساقفة المصريون الذين صحبوا اثناسيوس الى المجمع فقد كتبوا رسالة الى ديونيسيوس المندوب الامبراطورى اوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسابى بغية تقويض الايمان القويم ، والتخلص من زعيمه المدافع عنه اثناسيوس ، واضافوا ان مريوط لم يكن بها احد من المليتيين قبلا ، اما الان فهى تفيض بهم بعد ان ارسل المليتيون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنة لتجمع المليتيين وتحشدهم فى مريوط ، هذا بالاضافة الى الآريوسيين والكوللوتيين ، وحذروه من التمادى فى اطاعة هذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله(٣) .

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالا الى هذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصريين هؤلاء الا ان بعثوا اليه خطابا شديد اللهجة جاء فيه :

> « انا نرى انفسنا مرغمين على الشكوى ثانية ، لقد لاحظنا ان تأييدا كبيرا قد أصبح الان فى جانب المليتيين ، وان مؤامرة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى مصر ، فى اشخاصنا ، قد دبرت . وعلى ذلك ، نقدم هذه الرسالة اليك راجين ان تضع فى عقلك قوة الاله القدير الذى يحمى مملكة

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

(٢) Id.

(٣) Ibid. 78.

امبراطورنا التقى الورع قسطنطين ، وأن تنقل الى مسامع الامبراطور ذاته كل هذه الأمور التى تهمنا . لقد بعثت من قبل عظمته لتعى تماما هذه الأحداث ، ولتعلم أنا لم نعد نحتمل أن نعدو على الدوام هدفا لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم . يوساب وبطانته ، وعليه نرجوك أن تعرض قضيتنا على الامبراطور الورع محبوب الرب ، أمام ذلك الذى يمكننا أن نعرض عليه شكاياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا ، لن يديننا . ولذلك نناشدك ثانية بالاله القدير ، وبامبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار فى تقواهم ، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين ، لا ترهقوا أنفسكم فى محاولة عرض أمرنا على المجمع ثانيـــة ، بل أبلغ الامبراطور أمرنا(١) » .

ولعل هذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشـــكلة الدوناتية قبلا ، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعى روما وآرل واحتكموا للامبراطور شخصيا . وها هم الأساقفة المصريون يســلكون نفس السبيل ، بعد أن أصبح واضحا لهم أن الاتجـــاه الســائد فى مجمع صور قد نحى نحوا مضادا لهم . ومن ثم أدركوا أن شيئا من الأنصـــاف لن يتيسر لهم الحصول عليه ، فلما لم يصغ ديونيسيوس لرجائهم ، لم يجد زعيمهم بدا من عرض الأمر بنفســه على الامبراطور ، وعلى هذا النحو شخص أثناسيوس الى القسطنطينية لمقابلة قسطنطين والاحتكام اليه(٢) .

ادرك ديونيسيوس أن الأمر قد افلت من يديه ، وخاصة بعد أن أرسل اليه اسكندر أسقف تسالونيكا رسالة يستنكر فيها سماحه لهؤلاء الأفراد بالذات الذهاب الى مصر ، ويحيطه علمـــا أن تلك مؤامرة مدبرة ضـــد أثناسيوس ، ويلومه على هذا التخاذل ازاء الفريق اليوسابى المليتى(٣) .

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.

وعلى ذلك فقد كتب ديونيسيوس الى يوساب وأتباعه رسالة ينبئهم فيها بقول اسكندر مؤيدا ما جاء فيها ، ويبدو من عبارات رسالته انه يستعطف هذا الفريق لالتزام جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد(١) .

اخذ يوساب ورفاقه الان بيدهم زمام المبادرة ، وانتهزوا فرصة غياب اثناسيوس عن المجمع قبل ان ينهى هذا أعماله ، وكانت التقارير التى اعدتها لجنة تقصى الحقائق العائدة من مريوط قد إعدت وأطلع عليها الجميع(٢) ، فأصدر المجمع قراراته بادانة أثناسيوس وعزله من منصبه ، وحرم عليه الاقامة فى الإسكندرية خشية ان يؤدى وجوده فيها الى اشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد ، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة المليتيين وتابعيه ثانية الى الكنيسة ورد الى كل منهم مركزه الاكليروسى(٣) . وكان من بين المقبولين ثانية أرسينيوس ، وقد وقع على قرار ، عزل أثناسيوس بوصفه أسقفا لمدينة Hypsalopolis (٤) . وبعث المجمع بتقرير عن عمله الى الامبراطور ، وبمثله الى اساقفة مختلف البلدان ناصحين اياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا اليه أو يتلقوا منه أية رسائل ، وذكروا فى رسالتهم هذه أنهم اضطروا للموافقة على ادانة اسقف الاسكندرية لأنه رفض الامتثال للامر الامبراطورى الصادر اليه قبلا بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية ، مستخفا بالاساقفة ، متحديا أوامر الحاكم ، هذا بالاضافة الى انه حضر الى صور وبصحبته عدد كبير من الاتباع بغية اثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع ، كما ان اثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الاجابة عن الاتهامات الموجهة اليه ، واهان بعض الأساقفة ، وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه اذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك اعضاء اللجنة(٥) .

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى

---

(١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.

(٣) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.

(٥) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

اثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته الى الامبراطور والأساقفة ، على انه ينبغى لنا ان ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وان كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف . الا انها لا شك أيضا تحمل جانبا ولو يسيرا من الحقيقة ، ولعل دليلنا على ذلك ان هـــذه المعلومات كلها استقيناها ، من أقلام اثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الاخرين . وهذا ولا شك شىء يدعو للحذر ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الاسكندرية كان بلا ريب يتمتـــع بشخصية قوية ونفوذ كبير ، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه ارادته . هذا واضح من تحديه المستمر للفريق الآريوسى ، بل ورفضه الفريق المليتى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناء على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقية ، فلا شك اذن ان يؤدى ذلك الى اثارة حفيظة وغيرة كثير من زملائه رجال الاكليروس لا فى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى . وكانت نيقوميديا على راس هذه الكنائس ، واذا ادخلنا فى اعتبارنا ان نيقوميديا قد ظلت لفترة تقترب من نصف قرن عاصمة الامبراطورية ، فلا عجب أن يتطلع اسقفها الى شىء من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى ، بل وان يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبر من نيقوميديا ، وسينجح يوساب فعلا فى ذلك عندما يصبح اســـقفا للقسطنطينية ، وان كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين . ومن ثم راينا يوساب يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الاسكندرية . واذا كانت هذه تعتز بتراثها التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية واثرها الواضح على المسيحية ، وما كان لها بكل هذه العظمة ان تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شىء من هذا ، فان نيقوميديا وليس لها من هذا شىء ، لابد وان تعتز بأنها مقر الأباطرة وعاصمة ملكهم ، وانه ليس من حق أسقفية ولاية ان تنازع اسقفية العاصمة السلطان والنفوذ ، وحتى عندما انتقلت العاصمة الى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية من حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث .

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية الى صراع على الزعامة تحت ستار العقيدة ، ويقول جلانفيل داونى **Glanville Downey** « ليس غريبا ان يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين ، الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم الى المنـــاورات

الدبلوماسية فى البلاط الامبراطورى ، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الامبراطور لحلها ، فأصبح واجبا على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة أن تسعى الى كسب الامبراطور ومستشاريه الى صفها(١) . فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية اخلد بعد نفيه الى الهدوء ، ولم يأت به الى مسرح الأحداث ثانية الا الامبراطور ذاته وربما على كره من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الامبراطور اليه ، وحتى بعد عودته ظل بعيدا لا يشارك فى شىء من هذه الحوادث كلها . لقد كان الرجل شيخا طاعنا ، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح الى سلطان ، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة آمن بها وايقن انها الحق المبين ، وما عداها أفك وضلال . على حين كان يوساب هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية وطوال عشر سنوات كاملة (٣٢٨ — ٣٣٧) ، ولم يأت على لسان الأطراف المتنازعة ، ولم تسجل اقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئا من امور العقيدة ، ولم تمس الاتهامات التى وجهت الى اثناسيوس طرفا من رداء الدين ، ولم يتعرض مجمع الأساقفة فى صور الى العقيدة فى قليل أو كثير ، بل حتى لم يطلب اليه بحث مسألة اعادة آريوس الى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة ، وحتى مبررات الحكم ضد اثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماما عن الديانة وأسرارها . ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسابى منذ البداية ، أعنى اثارة غضب الامبراطور وجلب حنق الأساقفة . وكان الفريق اليوسابى يعلم مزاج الامبراطور ، فعرف كيف يصور له اثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته ، المتحدى لسطانه وساعد اثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الامبراطور .

وان كان اليوسابيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضا ، ولهذا فانهم رغم سعيهم الدائب لاثارة الامبراطور ضد اثناسيوس ، لم يضعوا ذلك فى اطار النزاع الشخصى بين قسطنطين واثناسيوس ، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلا فى نظر رعيته يناضل ضد الامبراطور.

---

(١) داونى ، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس . ترجمة دكتور البرت بطرس . ص ٨٣ .

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من الامبراطور يدعوهم فيها للتوجه الى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التى اقامها الامبراطور هناك ، والذى يوافق الاحتفال أيضا بالعيد الثلاثينى لحكم الامبراطور(١) . ويصور يوساب ذلك بقوله ان المدينة قد غدت مسرحا ضم عديدا من مختلف الشخصيات الكنسية ، فقد جاء الى هناك اسكندر أسقف تسالونيكا ، ومن بانونيا حضر أورسباكيوس وفالنز ، وأحد أساقفة فارس ، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالاضافة الى أساقفة كيليكيا وكباودكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة ، الى جانب عدد هائل من موظفى القصر الذن ارسلوا للاشراف على هذا الحفل والارتفاع به الى ما يناسب مقام الامبراطور السامى(٢) ، ثم يخبرنا يوساب بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناء على الأوامر الامبراطورية بتوزيع الهدايا والمنح والعطايا التى انعم بها الامبراطور على رجال الله(٣) . وقد قابل الأساقفة ذلك بالقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الامبراطور والاشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذى اقدم عليه ، والدعاء الى الرب بأن يحفظه ويرعاه ، ويذكر يوساب انه شارك هو الاخر فى هذه المباراة واوضح فى خطبته ان تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء فى نبوءات الأنبياء قبل ذلك(٤) !!

ولا شك أن الامبراطور عندما واتته انباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة ، فها هو يشهد اساقفة الشرق جميعا ، وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد ، ثم نظر فاذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة ، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس الى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عددا ، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيوس الى مجمع الأساقفة فى أورشليم سنة ٣٣٥ ، واخبرهم انه قد اطلع على وثيقة ايمانهما التى قدماها اليه ،

---

(١) EVSEB. vita Const. IV, 43.

(٢) Id.

(٣) Ibid. 44.

(٤) Ibid. 45.

وانه مقتنع بكل ما جاء فيها ، وحثهم على قبول هذه الوثيقة واعادة آريوس وصحبه الى الكنيسة(١) . ولم يكن الأساقفة فى حاجة الى توصية الامبراطور ، فقد كانوا جميعا من مؤيدى آريوس ، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان وهى التى اشرنا اليها آنفا . واعادة قبولهما فى الكنيسة ، وعودتهما الى كنيسة الاسكندرية ، وكتبوا الى الامبراطور يخبرونه بكل ما حدث(٢) . كما أرسلوا أيضا رسائل بهذا المعنى الى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر حاثين اياهم على قبول آريوس وشيعته ، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق ايمان آريوس وصحبه ، وان الامبراطور محبوب الرب التقى الورع ، قد شهد فى خطابه لهم بصحة ايمان الرجلين وأوصى بقبولهما فى الكنيسة(٣) .

ويبدو أن رسالة الامبراطور الى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة ، قد بعثت قبل أن يلتقى الامبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقاد مجمع صور ، وشخص الى القسطنطينية ليعرض على الامبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به ، ذلك أن الامبراطور ما ان التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة الى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم ، ويبدو أن الامبراطور قد تأثر الى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس ، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول :

> « انى فى واقع الأمر لا اعلم شيئا عما اتخذه مجمعكم من قرارات فى جو عاصف صاخب ، غير انه يبدو لى أن الحق قد تعرض للتحريف نتيجة اجراءات فوضوية مضطربة . ذلك لأنكم ، كما يقال ، حبا فى الجدال ، اغفلتم أمورا يرتضيها الاله ، وانى لأرجو الله ، وكلى ثقة ، أن تعمل

(١) SOZOM. hist. eccl. II, 27.

(٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

العناية السماوية على اذابة مآس خلفها التنافس الحاد ، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقة ، وانى لامل ان توضحوا اذا ما كنتم قد راعيتم فى مجلسكم مضمون الحق ، واذا ما كنتم ايضا قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز او تعصب(١) » .

وبعد أن يخبرهم قسطنطين ان سلوكه قد ادخل البرابرة فى حظيرة المسيحية ، يوجه اليهم اللوم قائلا :

« أما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة ، واسرارها المقدسة ، (ولا اقول حراسها) ، لا نفعل الا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة ، ولأكون معكم صريحا ، نعمل على دمار البشرية(٢) » .

ولندع قسطنطين الان يحدثنا بنفسه عن المقابلة التى حدثت بينه وبين أثناسيوس ، حيث يتضح من حديثه انه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندرى ، يقول الامبراطور :

« بينما أنا داخل المدينة التى تحمل اسمنا ، فى هذه الديار الزاهرة ، القسطنطينية . وكنت ساعتها ممتطيا صهوة جوادى . اعترضنا فجأة الأسقف أثناسيوس ، يحيط به بعض من رجال الدين ، يبتغون السماح لهم بمقابلتنا ، ويعلم الله ، الذى أحاط بكل شىء علما ، انى لم اتبين للوهلة الأولى شخصه حتى انبأنى عنه بعض خاصتى ، بعد ان سألتهم ذلك . وانبأونى ايضا كم من الآلام قاسى ، وحتى ذلك الحين لم احادثه ، أو اجرى اتصالا معه ، ولكنه راح يلح طالبا الاذن له بلقائنا ، ورغم انى رفضت ذلك مرارا ، وأمرت بابعاده عن حضرتنا إلا انه اعلن فى جراة فائقة انه لا يطلب سوى شيئا واحدا ، هو ان تمثلوا

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(٢) Id.

جميعا الى هنا ، حتى يجد فى حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته(١) » .

وقد وجه قسطنطين اوامره الى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة الى بلاطه ، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة ، من أن دعوته اياهم للحضور قد جاءت فى رسالته هذه فى ثلاثة مواضع متقاربة ، كلها تتعجل رحيلهم الى القسطنطينية لحسم هذا الأمر فى حضرة الامبراطور .

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين الى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الامبراطورية ، وان كان اثناسيوس(٢) وسقراط(٣) وسوزومين(٤) يخلعون على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض الى الاسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة الى ديارهم . غير ان يوساب النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر لملاقاة الامبراطور فى القسطنطينية . وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس، وماريس ، وباتروفيلوس ، وأورساكيوس ، وفالنز(٥) . ويقول سوزمين ان هذا الجمع قد بين للامبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شىء ضد أثناسيوس ، وانما توخى العدالة تماما ، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأوانى المقدسة(٦) . وأن كان أثناسيوس ينفى ذلك ويقول ان هذا الأمر شىء ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره ، ولكنهم جاءوا الى الامبراطور باتهام جديد فحواه أن اسقف الاسكندرية هدد بمنع ارسال القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية(٧) . وأكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتى اثناسيوس وسمعته آذان عدد من الأساقفة من بينهم آدامانتيوس

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(٥) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(٦) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.

Adamantius وأنوبيون **Anubion** ، وارباثيون **Arbathion** ، وبطرس **Peter** (١) . ويصف أثناسيوس حالة الامبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله : « اشتعل على الفور غيظ الامبراطور واشتد حنقه ، وبدلا من أن يرسل الى لسماع قولى أمر بنفى الى غالة »(٢) . ويقول سقراط معلقا على ذلك بأن الامبراطور اصدر هذا القرار بدافع الرغبة فى توحيد الكنيسة حيث أن أثناسيوس رفض المصلحة مع آريوس(٣) .

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة ، فبالاضافة الى أن الامبراطور كان يتميز غيظا لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد ، سواء كان هذا الادعاء باطلا أم حدث فعلا ، فقسطنطين كان يدرك يقينا الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من اهمية للعاصمة الجديدة ، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقا أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته فى احداث مجاعة فى روما الجديدة ! هذا من ناحية . والأخرى انه ضاق ذرعا بعناد أثناسيوس فقد حاول كثيرا أن يلتقى واياه على طريق وسط ، ولكن الأسقف السكندرى لم يكن ممن يقبلون هذه السياسة . فقد كان متشددا فى موقفه لا يقبل المساومة ، ووصل به الأمر ذات مرة الى حد رفض الاذعان لأوامر الامبراطور عندما قرر الامتناع عن الظهور امام مجمع الأساقفة فى قيسارية سنة ٣٣٣ ، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسيين او المليتيين ، ولم يحاول بذلك اعادة السلام الى الكنيسة والوحدة ، وذلك شىء كانت تتوق اليه نفس الامبراطور ، وادرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن أثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل اعادة الوحدة الى الكنيسة ، ومن ثم قرر التخلص منه بنفيه ، فكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة .

على هذا النحو حقق الفريق اليوسابى نصره على زعيم الايمان النيقى ، وفى نفس الوقت حقق نصرا آخر ، ذلك ان ماركللوس **Marcellus**

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

اسقف أنقرة كان قد كتب عدة كتابات ضد الآريوسية(١) ردا على رسالة كان آستريوس Asterius أحد مواطنى كبادوكيا قد كتبها يدافع من العقيدة الآريوسية ، وراح يذيعها فى عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة ، ومن ثم أخذ ماركللوس على عاتقه مهمة دحض هذه الأقوال ، فأدى ذلك به سواء بوعى أو بلا وعى الى ترديد آراء بولس السميسطائى(٢) .

وقد عده اليوسابيون خصما لهم ، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التى اقرها مجمع أورشليم عام ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس وصحبه ثانية فى الكنيسة ، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض ، ويذكر سوزومين أن الفريق اليوسابى ركز علي هذه النقطة بالذات وأثارها لدى الامبراطور مبينا له أن ذلك يعد اهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم(٣) . ولعل هذا يؤكد ما نذهب اليه من أن المسألة كانت فى حقيقة امرها تستتر برداء العقيدة ، ولم تكن سوى نزاعا شخصيا ، ولذلك كان الفريق اليوسابى يصور المسألة للامبراطور باعتبارها تمس شخصه مباشرة ، وتمثل انتقاصا لسيادته ، مما يثير بالتالى غضبه . وعلى هذا النحو اجتمع الأساقفة هؤلاء فى القسطنطينية وأصدروا قرارهم بعزل ماركللوس من اسقفيته(٤) .

أما ما كان من أمر آريوس فانه عاد ثانية الى الاسكندرية بعد ان أصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه فى الكنيسة ، الا ان الأساقفة المصريين أنصار أثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع ، فأدي هذا بالتالي الى حدوث الاضطرابات من جديد فى الاسكندرية(٥) ، ولما كان الامبراطور غير راغب فى السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه ، فقد ارسل الى آريوس يستدعيه فورا الى القسطنطينية . وكان اسقف المدينة فى هذا

---

(١) HIER. vir. ill. 86.

(٢) SOZOM. hist. eccl. II, 33;

وراجع أيضا : SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(٣) SOZOM. hist. eccl. II, 33.

(٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(٥) Ibid. 37.

الوقت اسكندر الذى دخل فى صراع مع آريوس منذ وصوله الى العاصمة كما ينبئنا بذلك سقراط(١) . ولعل ذلك يرجع الى ما يكون قد نما الى علم اسكندر من رغبة الفريق اليوسابى فى أن يقوم اسقف القسطنطينية بقبول آريوس فى الكنيســـة حتى يكون ذلك انموذجا تحتـــذى به بقيـــة كنائس الامبراطورية . وقد تأكد هذا فعلا عندما طلب الامبراطور اليه الاقدام على هذه الخطوة ، وهدده يوساب بالسعى لدى الامبراطور لعزله اذا ما رفض قبول آريوس(٢) .

على هذه الشاكلة انتقلت الفوضى من الاسكندرية الى القسطنطينية ، فانقسمت المدينة الى فريقين ، أحدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى ، والآخر يناضل من أجل آريوس . وادرك الامبراطور خطورة الحال ، فدعى اليه اسكندر وآريوس وطلب الى الأخير الاعتراف بقرارات مجمـــع نيقية والقسم على صحة ايمانه(٣) ففعل ، وقبل الامبراطور منه صيغة ايمانه ودعى اسكندر الى قبوله فى الكنيسة . ولكن هذا كان غير راغب فى ذلك تماما ، وتحرج موقفه أمام الامبراطور الذى حدد يوما يتم فيه ذلك على مرأى من الجميع ، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث ان حلت فجأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦ . وعد خصومه وفاته دليـــلا على الغضب الالهى ، كما جرت بذلك اقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم !!

ولعنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الامبراطورى طيلة هذه السنين . الحقيقة أنه أخلد الى الهدوء بعد مجمع نيقية اذا استثنينا احـداث ولاية افريقيا . وقنع بقانون الايمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصة بعد ان تضمن هذا القانون نصوصا كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة . وبدا ان المشكلة برمتها لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير . فوقف من الأحداث موقف المتفرج . وكان الامبراطور قرير العين بهذا السلوك . فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام . ولكن الغرب والامبراطور لم يقدرا انه لن تمضى على وفاة قسطنطين سنوات قلائل حتى يشمله ذلك

---

(١) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

(٢) Id.

(٣) Id.

الصراع ، وكان لوجود أثناسيوس هناك منفيا أو من بعد هاربا أكبر الأثر فى ذلك . ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفاء قسطنطين المشكلة الآريوسية ، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية ، فترحل الاريوسية من الشرق مكرهة لتمكث فى الغرب قرونا للجرمان دينا !!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عام واحد ، قدر له فيه أن يشهد هدوءا مشوبا بالقلق فى أمر العقيدة ، وراح يجتر أحلاما داعبته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام . لقد حقق الامبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة ، ولكن « مبعوث الرب » عجز عن أن يضمن للكنيسة وحدتها ، فتركها اكثر انقساما من البدء واشد فرقة ، وراح ليموت والألم يعتصر فؤاده على عمر افناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد !!

....

المصادر

كان قسطنطين على قدر كبير من الذكاء ، أدرك من خلاله الى اين يتجه تيار المسيحية وقدرها ، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة ، وعرف كيف يفيد منها الى أقصى درجة .

لقد شهد بعينى راسه وهو بعد فى بلاط نيقوميديا رهينة ، اصرار المسيحيين وعنادهم رغم الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهد دقلديانوس وجاليريوس قيصره ، وتأكد لديه ذلك بصورة اكثر وضوحا خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس الى مصر ، وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، ولهذا أيقن بفطنته ان يدا رحيمة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها ، وتخفف عنها ويلات آلامها ، يمكن أن تجعل منها انصارا مخلصين وجندا أوفياء .

ولم يتردد فى الاقدام على هذه الخطوة بل سارع اليها على مهل ، واهتبل فرصتها فى روية ، واستغل أخطاء ، بل ربما حماقات خصومه ومنافسيه على العرش الامبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمين دازا وليكين ،

ليسحب الأرض من تحت أقدامهم . لقد عادى هؤلاء جميعا المسيحيين ونكلوا بهم أن عنفا أو فى هوادة ، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للوثنية جديدا يمكن أن تنهض به ، أو يبعثها من الرقاد .

كان قسطنطين حصيف الرأى ، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنة وذكاء ، فاختار مستشاره للشئون الدينية من الغرب الامبراطورى ، هوسيوس أسقف قرطبة ، وهو رجل ترضى عنه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك . وانتقى أيضا مادحه ورئيس جهاز دعايته من النصف الشرقى ، يوساب أسقف قيسارية فلسطين ، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة ، والذى حاز ثقة كل الأطراف والفرق الدينية المتصارعة . ولم تكن الصلة بين الامبراطور والأسقف لقيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الامبراطورية ، ولكن يوساب القيسارى — كما تشير المصادر المعاصرة — تعرف الى قسطنطين وهو فى طريقه الى مصر فى حملة دقلديانوس . ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين فى هذا الوقت المبكر ، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما ازاء الآخر ، وان كان قد أفاد امبراطور الغد كثيرا ، فرسم للرجل فى مخيلته صورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح .

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن ، أن لا يثير شكوك رعيته الوثنية ، والتى تمثل جل امبراطوريته ، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذى وحد الامبراطورية وانقذهم من ويلات الحروب الأهلية الطاحنة . حقيقة سمح للمسيحيين بممارسة طقوس عبادتهم ، وأعاد اليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة ، وأباح لهم حرية اقامة كنائس جديدة واصلاح ما تهدم من دور العبادة تحت وطأة الاضطهاد ، بل وشارك بنفسه ومن خزانة الدولة ، فى بناء عدد من الكنائس ، وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين ، وحقيقة أيضا أصدر أوامره بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا ، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس فى سياسته تجاه المسيحية ، فلم يصدر ضد الوثنية مرسوما عاما بالاضطهاد أو بهدم المعابد الوثنية فى كل أنحاء الامبراطورية ، أو باحراق كتبهم المقدسة ، أو يسوق كهنتهم الى العذاب زمرا ، أو يتعقب الجموع الوثنية وحرمانها من ممارسة الطقوس نحو اربابها . بل ان هذه المعابد التى تم هدمها ، لم

يكن ذلك بصفتها الوثنية ، ولكن لأنها كانت قد أمست مباءة فجور بعد ان هجرتها الأرباب اذ تخلى عنها عبادها !!

وفى الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحد المقدس عند المسيحيين وجعل منه عيدا أسبوعيا ، دعاه يوم الشمس ولم يدعه ابدا بيوم السيد ، وبينما جعل من لابرومة المسيح شعارا له ، استمرت العملة تصدر حتى سنة ٣٢٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر ، وقبل كل هذا وذاك فان وثيقة التسامح التى قدمناها باسم رسالة نيقوميديا ، لم تقدم امتيازا خاصا للمسيحيين ، ولكنها حملت لرعايا الامبراطورية كلها حرية العقيدة الدينية .

لقد أدرك الامبراطور بثاقب نظره أن نجم الوثنية الى أفول ، وأنها تسير بخطوات ، وان كانت وئيدة ، الى النهاية المحتومة . فلم يحاول أن يبعث فيها الحياة ، ولم يتعجل يوم آخرتها . ولكن سياسته ازاءها وتجاه المسيحية كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الانسانية ، ليس من الغريب أن يطلق عليها Moss فى كتابه The birth of the Middle Ages الحد الفاصل بين عالمى العصور القديمة والوسطى .

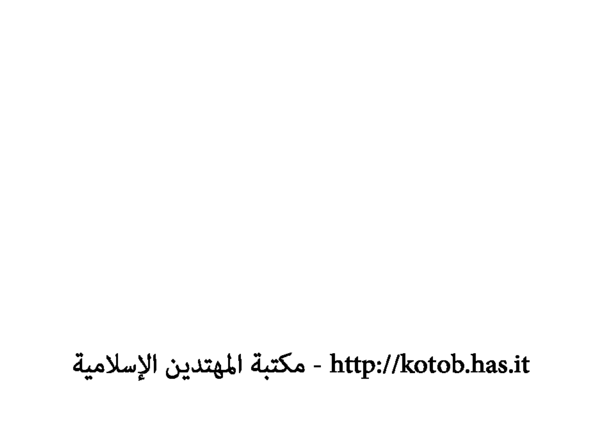
وكان قسطنطين بارع الدعائية ، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته ، وأغدق عليها من فيض أنعمه ، يبدى اهتمامه البالغ ، بل وقلقه ، من أجل الانشقاقات التى تحدث فى الكنيسة ، ويدعو لعقد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى ، ويحمل الأساقفة على المركبات العامة ، ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم ، ويشترك فى مناقشاتهم ، ويرسل الى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين . فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها ، والملجأ لها والملاذ . ولكن قسطنطين طوال رحلة الحكم التى سارها وفى علاقته بالكنيسة ، لم ينس مطلقا أنه امبراطور رومانى ؛ وانه صاحب السلطان المطلق فى الامبراطورية ، وأن النظرية السياسية الرومانية لا يمكن ان تقبل مطلقا بقيام هيئة مستقلة داخل الدولة ، أو بمعنى أكثر دقة ، دولة داخل الدولة ، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنيسية ، وصدق على قراراتها ، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم . لقد أصبح الامبراطور الان — رغم عدم اعتناقه المسيحية — الأسقف الأعلى ، بعد أن كان فى الوثنية الكاهن الاعظم . وان ظل يحمل هذا اللقب الوثنى طيلة

حياته ، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الامبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥ — ٣٨٣) .

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيدا مطلقا لامبراطورية موحدة ، قضى ثمانية عشر عاما (٣٠٦ — ٣٢٤) فى سبيل جمع شتاتها . ولهذا فان حدوث أى انقسام ، فى هذه الجماعة الجديدة التى ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤدى بصورة ما الى التأثير فى وحدة الامبراطورية . ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة . وانطلاقا من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة طفت على السطح فى عهده ، اعنى الدوناتية . ولهذا اتخذ جانب الكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالا لجماعة الدوناتيين ولا حتى لسماع دعواهم . فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخر عن طريق ايجاد التوازن بين مختلف الأطراف ، بحيث يصبح الامبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينها . ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول ، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه ، ويقبل منهم وثيقة ايمانهم دون الرجوع الى الكنيسة . ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى ازاء المشكلة المليتية فى مصر ، والذى جاء بوحى من الامبراطور ، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ اليها قسطنطين .

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حيا لهذه السياسة ، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر . فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين . والى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة ، هوسيوس أسقف قرطبة ، النيقى المتحمس . وفى الناحية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد ، صاحب الحظوة لدى الامبراطور بعد عودته من المنفى . وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوساب القيسارى ، رجل الفكر المعتدل . وقد استطاع قسطنطين أن يوحى الى هؤلاء جميعا انه « مبعوث الرب » الذى عهد اليه بادارة الامبراطورية ، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء الى شطآن النجاة . ولقد حاول قسطنطين الكثير ، ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة . ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيدا مما توقع قسطنطين .

المصادر والمراجع



أولا — المصادر الأصلية

ATHANASIVS :

Apologia Contra Arianos : Nicene IV 2, 100 - 147 (= P.G. XXV 248-409).

Ad episcopos Aegypti et Libyae : Nicene IV 2, 223-235 (= P.G. XXV 537-593).

Ad Serapionem de morte Arii : Nicene IV 2, 564-566 (= P.G. XXVI 855-889).

Chronicon Athanasianum (The festal letters and their index) : Nicene IV 2, 500-553.

Depositio Arii : Nicene IV 2, 69-71 (= P.G. XXV 1, 691-695).

Epistola de decretis Nicaenae Synodi Contra Arianos: Nicene IV 2, 150-172 (= P.G. XXV 1, 415-476).

Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciae in Isauria celebratis : Nicene IV 2, 451-480 (= P.G. XXVI 681-793).

Historia Arianorum ad monachos, Nicene IV. 2, 270-302 (= P.G. XXV 696-796).

Orationes Contra Arianos : Nicene IV 2, 306-447 (= P.G. XXVI 12-525).

AVGVSTINVS :

De baptismo Contra Donatistas : Nicene IV 1, 407-514 (= P.L. XLIII 107-244).

Contra Cresconium grammaticum Donatistam : P. L. XLIII 445-594.

EVSEBIVS :

Historia ecclesiastica : Nicene I 2, 73-387 (= P.G. XX 45-906).

Vita Constantini : Nicene I 2, 473-580 (= P.G. XX 905-1232).

GREGORIVS NAZIANZENVS :

In laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI : Nicene VII 2, 269-280 (= P.G. XXXV 1081-1128) Adversus Arianos, oratio XXXIII : Nicene VII 2, 328-334 (= P.G. XXXVI 213-238).

HIERONIMVS :

De viris illustribus : Nicene III 2, 359-384 (= P.L. XXIII 2, 601-720).

LACTANTIVS :

De mortibus persecutorum : Ante-Nicene VII 301-322 (= P.L. VII 2, 189-276).

Patrologiae cursus completus, series, graeca. ed. Migne. Paris 1845 et sqq.

Patrologiae cursus completus, Series Latina. ed. Migne. Paris 1844 et sqq.

RVFINVS :

Historia ecclesiastica : P.L. XXI 467-538.

SOCRATES :

Historia ecclesiastica : Nicene II 2, 1-17 (= P.G. LXVII 29-842).

SOZOMENOS :

Historia ecclesiastica : Nicene II 2, 239-427 (= P.G. LXVII 843-1630).

SVLPECIVS SEVERVS :

Historia Sacra : Nicene XI 2, 71-122 (= P.L. XX 95-160).

THEODORETVS :

Historia ecclesiastica : Nicene III 2, 33-159 (= P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانيا ــ المراجع الأوروبية الحديثة

Ante-Nicene Fathers. ed. A. Roberts — J. Donaldson. Michigan 1892 et Sqq.

Ault (Q.W.) :

Europe in the Middle Ages. Boston 1946.

Atiya (A.S.) :

A history of Eastern Christianity. London 1968.

Backhouse (E.) :

Early church history to the death of Constantine. London 1884.

Bardenhewer (O.) :

Les Pères de l'église, leur vie et leur ouvres. 3 tomes. Paris 1899.

Baynes (N. H.) :

Constantine (C.A.H. vol. XII).

Boak (A.E. R.) :

A history of Rome to 565 A.D. New Yorrk 1956.

Bullough (S.) :

Roman Catholicism. London 1963.

Burckhardt (J.) :

The age of Constantine the grat. transl. by Moses Hadas. U.S.A. 1949.

Burkitt (F.C.) :

The Christian church in the East, (C.A.H. Vol. XII).

Butcher (E.L.) :

The story of the church of Egypt. 2 vols. London 1897.

Cambridge Ancient History, ed. by J.B. Bury, S.A. Cook; F.E, Adcock. 12 vols. Cambridge 1936.

Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury. 8 vols. Cambridge 1936.

Cantor (N.) :

Medieval history, the life and death of a civilisation. New York 1965.

Cary (M.) :

A history of Rome down to the reign of Constantine. London 1954.

The Catholic Encyclopedia, 15 vols. New York 1913.

Cochrane (C.N.) :

Christianity and classical culture, a study of thought and action from Augustus to Augustine. oxford 1940.

Creed (J.M.) :

Egypt and the christian church (Legacy of Egypt). oxford 1947.

Davis (R.H.C.) :

A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis. London 1919.

Dictionnaire de théologie Catholique. 15 tomes. Paris 1932 et. Sqq.

A Dictionary of Christian Biography. 4 vols. ed. by William Smith and Henry wace. London 1877.

Dill (S.) :

Rome and Society in the last century of the Western empire. London 1919.

Downey (G.) :

A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. New Jersey 1961.

Duchesne (M.L.) :

Histoire ancienne de l'église. 3 tomes. Paris 1911.

Dudley (D.R.) :

The civilisation of Rome. New York 1962.

Encyclopaedia of religion and ethics. 12 vols. London 1925 et Sqq.

Fletcher (W.) :

Prolegomena (LACT. mort. pers.) : Ante-Nicene VII. 3-7.

Gibbon (E.) :

The decline and fall of the Roman empire, ed. by J.B. Bury in 7 vols. London 1929.

Hardy (E.R.) :

Christian Egypt, church and people, christianity and nationalism in the Patriarchate of Alexandria. New York 1952.

Hartranft (C.D.) :

Prolegomena (SOZOM. hist. eccl.) : Nicene II 2, 181-234.

Hefele (C.J.) :

Histoire des conciles. 8 tomes. Paris 1907 et Sqq.

Hughus (PH.) :

A history of the church, vol. 2, London 1948.

Hulme (E.M.) :

The Middle Agaes. New York 1938.

Jackson (B.) :

Prolegomena (THEOD. hist. eccl.) : Nicene III 2, 1-31.

Jackson (F.) :

The history of the christian church from the earliest times to the death of St. Leo the great A.D. 461. London 1909.

Jackson (S.M.) :

The New Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge. 13 vols. Michigan 1957 et Sqq.

Jones (A.H.M.) :

Constantine and the conversion of Europe. London 1948.

The Later Roman Empire 284-602. 3 vols. Oxford 1964.

Latourette (K.S.) :

A history of the expansion of christianity. 7 vols. New York 1937 et Sqq.

A history of christianity. London 1955.

Lebreton (J.) — Zeiler (J.) :

The history of the primitive church. trnsl. in 2 vols. by Ernest C. Messenger. New York 1947.

Lietzmann (H.) :

From Constantine to Julian, a history of the early church. transl. by Bertram Lee woolf. London 1960.

Lot (F.) :

The end of the Ancient world and the beginnings of the Middle Ages. London 1953.

McGiffert (A.C.) :

Prolegomena (EVSEB. hist. eccl.) : Nicene I 2, 3-72.

Milne (J.G.) :

A history of Egypt under Roman rule. London 1924.

Nicene and Post-Nicene Fathers of the christian church, ed. by Philip Schaff and Henry Wace. Michigan 1891 et Sqq.

Nock (A.D.) :

The development of paganism in the Roman empire (C.A.H. Vol. XII).

Ostrogorsky (G.) :

History of the Byzantine state, transl. by Joan Hussy. New Jersey 1937.

Painter (S.) :

A history of the Middle Ages 284-1500. New York 1954.

Palanque (J.) — Bardy (G.) — De Labroille (P.) :

Histoire de l'église depuis les origines jusque à nos jours. tome III. Paris 1947.

Percival (H.R.) :

The seven ecumenical councils : Nicene, vol. XIV. Michigan 1899.

Richardson (E.C.) :

Introduction (EVSEB. Vita Const.) : Nicene I 2, 411-469.

Robertson (A.) :

Prolegomena (ATHANAS. opera omnia) : Nicene IV 2, 11-87.

Rostovtzeff (M.) :

A history of the Ancient world. transl. by J.D. Duff. oxford 1933.

Schaff (Ph.) :

History of the christian church. 8 vols. Michigan 1956 et Sqq.

Stephenson (C.) :

Mediaeval history, Europe from the second to the sixteenth century. New York 1962.

Thompson (J.) — Johnson (E.) :

An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965.

Vasiliev (A.A.) :

History of the Byzantine empire 324-1453. 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

Ware (T.) :

The Orthodox church. England 1964.

Zenos (A.C.) :

Introduction (SOCRAT. hist. eccl.): Nicene II 2, 7-17.

ثالثا ــ الكتب العربيــة

اســـد رستم (دكتور) :

ــ كنيسة انطاكية مدينة الله العظمى ٣ اجزاء ، بيروت ١٩٥٨ .

ــ الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب جزءان ، بيروت ١٩٥٥ .

ج. ج. كولتون :

عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف . القاهرة ١٩٦٧ .

جلانفيل داونى :

أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير ، ترجمة الدكتور البرت بطرس . بيروت ١٩٦٨ .

جورج ســـباين :

تطور الفكر السياسى ، خمسة مجلدات ، المجلد الثانى ترجمة حسن جلال العروسى . القاهرة ١٩٦٤ .

عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :

مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية . القاهرة ١٩٦١ .

عثمان أمين (دكتور) :

الفلســـفة الرواقية . القاهرة ١٩٧١ .

كريســـتوفر دوسن :

تكوين أوروبا ، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . القاهرة ١٩٦٧ .

مصطفى كمال عبد العليم (دكتور) :

اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان . القاهرة ١٩٦٨ .

نورمان بينز :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

و. ج. دى بورج :

تراث العالم القديم ، ترجمة زكى سوس . القاهرة ١٩٦٥ .

ول ديورنت :

قصة الحضارة . المجلد الثالث ترجمة محمد بدران . القاهرة ١٩٦٤

يوحنا موســـهيم :

تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة . ترجمة القس هنرى هس . بيروت ١٨٧٥ .

فهــــــرس

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٥/١٨٢٣

مطبعة أطلس

١١ ، ١٣ ش سوق التوفيقية

ت ٤٠٧٩٧ — القاهرة



الجزء الثاني

الدولة .. والكنيسة

الوثنية والمسيحية

د. رأفت عبد الحميد

الناشـــر

دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــاب : الدولة والكنيسة

المـؤلـف : د. رأفت عبدالحميد

رقم الإيداع : ٩٩/١١٩٩٢

الترقيم الدولي : ISBN

977-303-190-X

تاريخ النشـر: ٢٠٠٠م

الناشـر : دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع (عبده غريب)

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ٦

☎ ٢٤٦٢٥٦٢ - فاكس / ٢٤٧٤٠٣٨

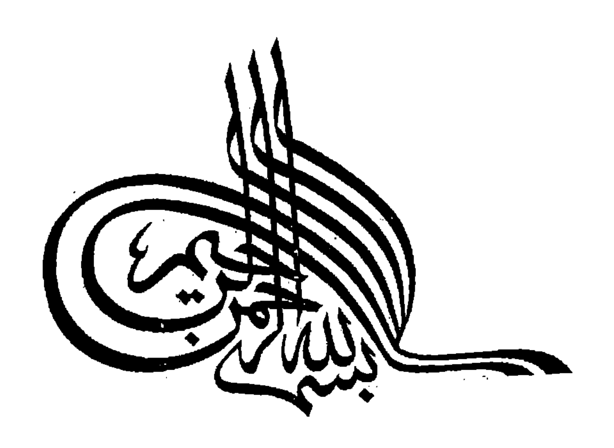
التـوزيع : ١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ : ١٢٢ (الفجالة)

المطابع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

رئيس مجلس الإدارة / أحمد غريب


بسم الله الرحمن الرحيم





مقدمة الطبعة الثالثة

سنوات طوال مضت منذ صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب، شغلت فيها بعدد من البحوث التى نشرت تباعاً حول عدد من القضايا البيزنطية والحروب الصليبية، فلما فرغت منها نسبياً آليت على نفسى أن أعود من جديد إلى " الدولة والكنيسة "، وشجعنى على ذلك كثير من أساتذتى وزملائى مستحثين إياى على ضرورة إخراج هذه المجموعة من جديد وأهمية استكمال الأجزاء الأخرى التى لم تصدر بعد . ووجدت نفسى أمام أمرين، إما أن أتفرغ لكتابة ما بقى من أجزاء موسوعة "الدولة والكنيسة" وخاصة " الجزء الخامس " الذى أعكف عليه منذ زمن ليس بالقصير، وهو " عقدة " هذه الموسوعة، وإما أن أعيد من جديد إصدار ما كان قد صدر من قبل منها، وأدركت أن اختيار هذا الأمر الأخير هو الأقرب إلى الصواب وتأكد لى هذا بعد أن علمت أن الطبعة الأخيرة قد نفدت، وأن المكتبة العربية فى حاجة إلى هذا التسلسل المنطقى .

هكذا عدت ثانية إلى مراجعة " الجزء الثانى " من الدولة والكنيسة، وأضفت إليه الكثير الذى خلت منه الطبعتان السابقتان، وهى إضافات يجدها القارئ واضحة تماماً فى معظم صفحات الكتاب، وهى حصيلة قراءات عديدة خلال هذه السنوات الماضية .

وقد آثرت أن أختار " عنواناً إضافياً " لكل جزء من هذه المجموعة غير الذى كان يسمى به فى الطبعات السابقة، تحت العنوان الرئيسى للموسوعة أعنى " الدولة والكنيسة "، وهذه " التسميات " الإضافية الجديدة تتفق تماماً مع الإضافات التى أدخلت على جوهر الكتاب، والأفكار الجديدة التى طرحت فيه، وطبيعة الموضوع نفسه من الناحية التاريخية .

ومن الجدير بالذكر أن موضوع هذا الكتاب يعالج التجربة الأولى فى الاحتكاك بين الوثنية والمسيحية، وأن الإمبراطور قسطنطين العظيم يمثل مرحلة الانتقال بين هذه وتلك، وقد أدار القضية بذكاء سياسى ومهارة عالية، كانت الأنموذج الذى ود كثير من خلفائه لو اتبعوه، فكان منهم من أفلح، ومنهم من ضل به الطريق .

ذلك مبلغى من العلم، فإذا أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد

القاهرة ١٩٩٩

الفاتحة

تقتصر معظم الدراسات التاريخية للدولة البيزنطية على الناحيتين السياسية والعسكرية، وقد يقترب بعضها على استحياء من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية. أما العلاقة بين الدولة والكنيسة فى دراسة عميقة مستفيضة، فليس لها عند الدارسين نصيب.

وإذا كانت العصور الوسطى قد حملت اسم "عصر الإيمان"، فإن بيزنطة بصفة خاصة تعتبر تجسيدا واقعيا لهذه الحقيقة، لتداخل الخطين الدينى والدنيوى فى كل أمر من أمور الحياة، وتغلغل المسائل العقيدية فى الشئون السياسية والأحوال الاقتصادية والنواحى الاجتماعية، وتأثيرها المباشر على الفنون والآداب والألعاب الرياضية.

وقد عبر عن ذلك المؤرخ نورمان بينز Baynes فى كتابه The Byzantine Empire بقوله: "... كانت الهوايات والنزعات دينية، وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوبا دينيا. لقد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية. فكانت عطلاته أعياداً دينية، وألعابه فى الملعب تستهل بتراتيل، وعقوده التجارية توسم بعلامة الصليب، أو تحتوى على ابتهالات للثالوث المقدس، وإذا أراد أن يستخير الله فى شيء لم يفعل ذلك إلا عن طريق النساك أو الرؤى التى تمثل فيها القديسون الأموات. وكان يتخذ من التمائم تعاويذ له، ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس مات على عمود، أنجع دواء. وكانت حروبه مقدسة، وإمبراطوره خليفة لله فى أرضه، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة، فهى إما نذير يثنيه أو بشير يحفزه. لقد ثار الجيش مرة يطلب إلى الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantinus IV (٦٦٨ – ٦٨٠) أن يشرك فى الحكم معه أخويه هرقل Heraclius وتيبريوس Tiberius، ولما سألهم الإمبراطور لم يريدون ذلك، أجابوه قائلين: "لأننا نؤمن بالثالوث، فلنتوج أباطرة ثلاثة" !!

ولم تكن المسألة العقيدية تشغل فكر رجال الدين أو الساسة أو الطبقة المثقفة فحسب، بل شارك فيها بالوعى حينا وباللاوعى أحايين، الأباطرة ودوائر القصر ودور الحكومة والجيش وفرق المضمار ورجل الشارع، لدينا على ذلك ماكتبه شاهد عيان فى النصف الثانى من القرن الرابع، هو اللاهوتى الكبادوكى الشهير، جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nysaeus حيث يقول: "لقد امتلأ كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة. فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشيء، فلسفوا لى الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم".

وهذا القول يوضح إلى أى حد كان إنسان تلك العصور مهتماً بالعقيدة، مشغولا بالمسائل الاسخاتولوجية. وقد لخص مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس، سقراط Socrates هذا الأمر بقوله إن من الصعب على إنسان أن يرسم خطاً فاصلاً بين أمور الدنيا وشئون الدين، "فإذا ما اضطربت أمور الدولة، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا".

ومنذ بواكير القرن الرابع، هلل شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، لهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة، وعده نبوءة الكتاب المقدس للمسيحية عقيدة وكنيسة.

وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لتحول الدولة عن سياسة العداء التقليدى الذى مارسته إزاء المسيحية طوال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، إلى الاعتراف بها ديانة شرعية religio licita فى أوائل القرن الرابع، ثم جعلت منها العقيدة الرسمية لها فى نهايته. وأدى هذا بالتالى إلى ازدياد اهتمام الدولة بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، وأضحت تقيم وزنا لكل ما يقع فى الكنيسة من خلافات

لاهوتية أو تنظيمية، قد تؤدى إلى هرطقة وإنشقاق، يؤثر بدوره على الإمبراطورية بعد أن غدت المسيحية لها دين وحدة..

ويعد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantinus (٣٠٦- ٣٣٧) مسئولا بصورة مباشرة عن كل هذه النتائج. فعلى الرغم من أنه لم يكن أول أباطرة الرومان الذين اتبعوا سياسة التسامح مع المسيحيين، إلا أنه كان الوحيد من بينهم، الذى تابع بشكل جدى تنفيذ سياسة المسامحة، وتخطى هذه المرحلة إلى مد يد العون للكنيسة، ثم الإغداق عليها حتى أغرقها فى فيض أنعمه. وكان طبيعيا أن تقبل الكنيسة عليه، وأن تفتح له بالحب ذراعيها، مسبحة بحمده، مقدرة حسن الصنيع، رافعة - إياه مكاناً علياً إلى سمت الرسل والقديسين !.

لكن قسطنطين وجد نفسه دون أن يدرى وقد غرق هو الآخر فى خضم هذه المعارك الجدلية حول المسألة الكريستولوجية، وكان عليه بعد إذ جعل من نفسه "مبعوث الرب" وحامى الكنيسة، وقد جاءته هذه تعرض عليه خبىء صراعاتها من حول "الكلمة" أو من أجل النظام الكنسى، أن يفصل بنفسه فى هذه المسائل الشائكة. فدعا إلى عقد المجامع الدينية، المحلية والمسكونية، وترأس جلساتها، وأدار مناقشاتها، وصدق على قراراتها، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم، بل وشارك فى صياغة العقيدة على النحو الذى غدت به بعد قاعدة الإيمان الأرثوذكسى. وبهذا وضع قسطنطين لخلفائه سنة ساروا عليها وتمسكوا بها، ولا نجد إمبراطوراً واحداً منذ ذلك الزمان، حتى ورث العثمانيون القسطنطينية ومن عليها فى منتصف القرن الخامس عشر، يعلم من أمر اللاهوت شيئاً أو لا يعلم، إلا وقد ساق قاربه فى هذا العباب. وهكذا ارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح لا يمكننا، على حد تعبير سقراط، فهم أحدهما دون الآخر.

ومن هنا كان من الصعب، بل من المستحيل على أى باحث، أن يسبر أغوار التاريخ البيزنطى فى حركته السياسية، وتحركاته العسكرية، ونشاطه

الاقتصادى، ومظاهره الاجتماعية، وصوره الفنية، وأشكاله الأدبية، وأنشطته الرياضية، دون أن يمعن الفكر بعمق فى الجوانب الدينية والصراعات العقيدية والشئون الكنسية.

ولما كانت المكتبة العربية تكاد تفتقر إلى هذا النوع من الدراسة التاريخية المتخصصة، التى تعتمد فى جوهرها على المصادر الأصلية، فقد بدأت رحلتى من فترة تقترب من عشر سنوات، لتتبع تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، وكان بدهيا أن يحظى الإمبراطور قسطنطين الذى وضع أسس تلك العلاقة، وحدد معالمها، بهذا الكتاب من هذه الدراسة.

ومما يجدر ذكره أن طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيسة فى العالم البيزنطى، تختلف عن مثيلتها فى الغرب الأوروبى. فقد غدت الكنيسة الشرقية بفعل تدخل الأباطرة فى أدق شئونها، دائرة من دوائر الحكومة، وتمثل هذا بصورة واضحة فى القسطنطينية، حيث أمسى أسقفها موظفاً كبيراً فى البلاط الإمبراطورى، ولم نشهد مجابهة عنيفة، إلا فيما ندر، بين بطريرك العاصمة والإمبراطور طيلة أحد عشر قرناً من الزمان هى عمر الإمبراطورية البيزنطية، وإن كان قد تكفل بذلك الكراسى الأسقفية الأخرى فى الولايات خاصة أسقفيتى الإسكندرية وأنطاكية اللتين ناوأتا بصورة مستمرة، بل وتحدينا أحياناً كثيرة نفوذ كنيسة القسطنطينية ومن ورائه سلطان الأباطرة.

أما فى الغرب فقد كان الحال على غير ذلك تماماً، فقد تزعمت كنيسة روما عالم المسيحية هناك، وأضحى البابا يمثل الزعامة الروحية على كل الكنائس، خاصة بعد أن فقدت ميلانو أشهر أساقفتها فى القرن الرابع، القديس أمبروز Ambrosius وساعد على ذلك تيار الأحداث، منذ هجر الأباطرة روما واتجهوا إلى نيقوميديا Nicomedia ثم القسطنطينية فابتعدت روما بذلك عن التأثير المباشر للإمبراطور. بل إن أباطرة النصف الغربى حتى سنة ٤٧٦ كانوا يتخذون من رافنا

Ravenna أو ميلانو Milano (Mediolanum) مستقراً ومقاماً. وبهذا وجد البابا نفسه سيد روما بلا منازع، وسرعان ما ضم إلى سلطاته الروحية سلطة زمنية عندما خرج يفاوض زعماء الجرمان الذين أحدقوا بروما فى القرن الخامس.

نتيجة لذلك، وبسبب انشغال أباطرة بيزنطة فى الخلافات العقيدية التى سعر لهيب جدالها فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، وتصديهم المستمر لجماعات الجرمان على الدانوب وفي البلقان، والفرس على الفرات، ثم المسلمين من بعد فى سوريا وآسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا والبحر المتوسط، ومن جراء التباعد المذهبى العقيدي بين كنيستى روما والقسطنطينية، إمتداداً للتباين الفكرى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى، ازداد نفوذ البابوية وسلطانها. ودعم من هذا النفوذ تلك الشخصيات القوية التى اعتلت عرشها، ليو الأول Leo I (٤٤٠ – ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius (٤٩٢ – ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius (٥٩٠ – ٦٠٤) وليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ – ١٠٥٤) وجريجورى السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) وانوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ – ١٢١٦). يضاف إلى ذلك أن حركة الإصلاح الديرانية الكلونية قد ساهمت بنصيب وافر من إعلاء شأن البابوية. وظهرت النظريات وزيفت الوثائق من أجل تدعيم سلطان البابوية كالنظرية البطرسية، والآراء الجلازية، ونظرية السيفين، وهبة قسطنطين، والمراسيم البابوية التى أصدرها جريجورى السابع.

ولهذا فقد شهد تاريخ العصور الوسطى الغربية بعد قيام إمبراطورية شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) ثم إحياء الإمبراطورية زمن أوتو الأول Otto I (سنة ٩٦٢) صراعا عنيفاً ودامياً بين البابوية والإمبراطورية، بلغ أوجه فى إذلال كانوسا Canossa عام ١٠٧٦، على عهد الإمبراطور هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع، ثم فى عهد الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick I Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠) وذلك فى

محاولة لإعلاء شأو إحدى السلطتين على الأخرى، الزمنية أو الروحية. وكان هذا الصراع هو السمة الرئيسية التى صبغت العصور الوسطى الرئيسية ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر.

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على كل ما توفر لدى من المصادر الأصلية، كتابات أثناسيوس Athanasius أسقف الإسكندرية (٣٢٨ – ٣٧٣) والتى تبلغ أربعين عملا ما بين كتاب وخطبة ومقال ورسالة، ومؤلفات التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica ليوسيبيوس القيسارى وسقراط وسوزومنوس Sozomenos وثيودوريتوس Theodoretus وكتابات لاكتانتيوس Lactantius والقديسين أوغسطين Augustinus وجيروم Hieronymus.

ورغم المادة العلمية الوفيرة التى تقدمها هذه المصادر، إلا أن بعضها تغلب عليه بشكل واضح روح العصر من الاهتمام بذكر المعجزات والخرافات وخاصة التاريخ الكنسى لسوزومنوس. أما الصفة التى تجمع بينها، فهى أنها تعبر عن وجهة نظر الكنيسة الجامعة، ومن ثم تصب لعناتها على الفرق الخارجة عن دائرة الكنيسة، ولهذا كان علينا أن نأخذ رواياتها وآراءها بحذر وأن نعالجها بروية. ولعلى أكون قد وفقت فى هذا السبيل، وقدمت بهذا الجهد للمكتبة التاريخية والدراسات البيزنطية عملا أشعر أنها فى أشد الحاجة إليه.

والآن .. على أن أسعى إلى محراب العرفان، لأقدم كل التقدير والثناء للأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية باعتباره صاحب الفضل الأول فى إخراج هذا الكتاب إلى دائرة الضوء، والأستاذ الدكتور مراد وهبة أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس والدكتور على الغمراوى والدكتور اسحق عبيد الأستاذين بآداب عين شمس، والأب الدكتور جورج قنواتى رئيس دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة، ونيافة الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى بالكنيسة المرقسية، لما بذلوه جميعاً من جهد ربما فاق

جهدى، ودقة بالغة صقلت فكرى، فقد أفسح الجميع لى صدورهم نقاشا، وقدموا لى يدا مليئة بالعون كل العون. وشكرى العميق لأمناء مكتبات الدير ومعهد الدراسات القبطية والكلية الاكليريكية وجامعات عين شمس والقاهرة والإسكندرية.

ومع يقينى أن كلمات تتلى فى محراب الشكر والعرفان غير كافية، إلا أن قلمى لا يملك سواها، وإن كان قلبى يحمل لهم بين ثناياه الكثير.

ذلك مبلغى من العلم، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسى.

رأفت عبد الحميد

القاهرة - مدينة نصر

أول أكتوبر ١٩٧٤



الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية والمسيحية حتى مطلع القرن الرابع

في عام ٣١ ق. م وعند أكتيوم حقق أوكتافيوس Octavius انتصاره الحاسم علي أعداء الشعب الروماني، زميله في السلطة ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius وكليوباترا السابعة Cleopatra VII آخر ملوك البطالمة في مصر وحليفة الأخير، وتنفس الصعداء بموتهما بعد حرب أهلية طويلة أكتوت روما بنيرانها منذ اقتحم الجنود سياج روما ببزاتهم العسكرية وهتكوا ستر حرمها المقدس مع نهايات القرن الثاني قبل الميلاد وبدايات الأول. وقدر السناتو الروماني جهد الرجل حق قدره، فخلع عليه من ألقاب التشريف والتعظيم ما رفعه مكاناً علياً، فهو "الأوغسطس" Augustus الذي يعني "الإجلال"، وهو "الإمبراطور" Imperator أي "القائد الأعلى"، وهو "المواطن الأول" Princeps، ثم هو "أبو الوطن" Pater Partriae وهو "الكاهن الأعظم" Pontifex Maximus، وبملء كل هذه الهالة التي ألفى نفسه محاطاً بها، داعبته آمال إحياء الفضائل الرومانية القديمة التي تاهت وسط غبار معارك الحروب الأهلية والاصطراع على السلطة في روما، وانصراف الكثيرين خاصة الطبقتين الدنيا والوسطى إلى عبادات جديدة قادمة من الشرق. ولما كانت الوثنية الرومانية لا تمثل ابتعاداً مطلقاً عن النظام السياسي الروماني، إذ أرباب الرومان هم أرباب الدولة، والإمبراطور هو السيد المطلق في أمور الدنيا وشئون الدين، اهتم أوكتافيوس أوغسطس ببعث الفضائل القديمة، إلى جانب عدد من الآلهة التي لقيت رواجا أيام الحروب الأهلية مثل آلهة الحظ والسلام والخير، وأضاف إلى كل منها لفظ التعظيم الذي يحمله فغدت Fartune Augusta; Pax Augusta, Mercurius Augustus.[1]

---

(1) Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 272 .

ويبدو من المستحيل إعطاء صورة دقيقة عن الديانة الوثنية في الإمبراطورية الرومانية وخاصة في تلك القرون الأولى للميلاد، وهى الفترة التى قيل إن الديانة المسيحية قضتها حبيسة قالب الاضطهاد، قبل أن تحصل على اعتراف حكومى شأن سائر الديانات الأخرى فى الإمبراطورية، يبيح لأتباعها ممارسة شعائرهم وإجراء طقوسهم. وترجع هذه الاستحالة إلى أن الوثنية لم تكن فى هذه الفترة ذات طابع ثابت، بل كانت خليطاً عجيباً من المعتقدات والعبادات من مختلف البلاد وشتى الثقافات. فقد اختلطت بها منذ مدة طويلة آلهة الإغريق الأوليمبية بعد أن سادت روما بلاد اليونان، بل لعله من الحرى القول إن الرومان نقلوا آلهة الإغريق بكل أسرارها وطقوسها، وخلعوا عليها أسماء رومانية، بل إن بعضاً منها ظل يحمل اسمه الإغريقى فقد كان الإغريق أهل خيال عريض تمثل فى الميثولوجيا الرائعة التى خلفوها، بينما كان الرومان شعبا عملياً من الطراز الأول. وتمثلت هذه الديانة اليونانية الرومانية فى الآلهة التى تجلب الخير والرخاء والصحة والعدالة. على أن هناك مجالا للشك فى أنه كان لهذه الآلهة خارج إيطاليا واليونان ـــ موطنهما الأصلى ـــ تأثير كبير أو عزاء روحى لدى الأهلين [٢]. فقد كان لدى هؤلاء الأهلين فى الولايات الرومانية، لا سيما فلاحيها وأهل المدن، آلهتهم المحلية التى يلقون إليها الاحترام والتقديس، وكان هذا يبدو بصورة أوضح فى المدن الصغيرة حيث كان يسيطر عليها الطابع الريفى. فعبد المصريون الآلهة التى تحمل رءوس الحيوانات أو الطيور فى حياتها وبعد مماتها، وامتلأت المعابد الكبيرة بالعديد من الكهنة الحليقى الرءوس فى ملابسهم البيضاء، يباشرون الطقوس الدينية فى لغة قديمة كانوا هم أنفسهم يفهمونها بصعوبة [٣]. أما فى سوريا وشمال أفريقيا فقد عبد الفلاحون وأهالى المدن البعل وعشتار وغيرهما من الآلهة المحلية[٤]، وفى تراقيا عبد الناس آلهة الجبال المحاربة، وكانت الشمس التى لا تقهر تحظى بالنصيب الأكبر فى إيلليريا [٥]، أما عند الكلت فقد انتشرت بينهم عبادة

(2) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

(3) Jones, Constantine, p. 31.

(4) Id.

(5) Id.

الطبيعة، وكان الولاء يقدم لآلهة الربيع والأنهار والغابات وعلى رأسها جميعا الشمس(٦).

حقيقة احتلت بعض الآلهة الزعامة الرسمية فى البانثيون الرومانى، وظلت لفترة طويلة تعبد فى العصر الجمهورى، وخاصة جوبتر الكابيتولينى Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الأغريق وما يرتبط به مثل يونو Juno (٧) ومينرفا Minerva ومارس Mars (٨). غير أن الطبقة المثقفة ورجال السناتو، والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة المثقفة ورجال السناتو والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية فى الولايات، والتى أشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكى اليونانى والرومانى، ربطت مجدها الدينى وتراثها فى الفن والأدب، وتاريخها بهذه الآلهة، وإن لم يكن هذا فى الغالب أكثر من ارتباط عاطفى تاريخى(٩). وتملكت نفوس خاصة المثقفين حالة من القلق والشك فى مقدرة هذه الأرباب في نهاية العصر الجمهورى الذي شهد بين الرومان حرباً أهلية طاحنة دون أن تبدى الآلهة حراكا لوضع حد لهذه الفوضى، فبدأ الإيمان لديهم يتزعزع تجاه آلهتهم القديمة، فولوا وجههم شطر الفلسفة، التى كانت فى هذه الفترة قد توقفت عن أن تصبح موضوعاً دراسياً واسع الانتشار، وأضحت أساساً على وفاق مع الدين (١٠). ووجدت هذه الطبقة إلى حد ما سلواها فى الرواقية بما تنطوى عليه من

(6) Id.

(٧) كانت يونو ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة. وكانوا يوصون بالزواج فى شهرها ــ شهر يونيو ــ ويقولون أن الزواج فيه أسعد الزيجات، على حين كانت ميترفا آلهة الحكمة والصناعات اليدوية وطوائف الصناع والممثلين والموسيقيين والكتبة، أما مارس فقد كان آلها معظماً عند الشعب. وكان أولاً إله الحرث ثم كاد أن يكون رمز روما وشعارها. وكانت كل قبيلة فى إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور.

راجع: ديورنت: قصة الحضارة، المجلد الثالث، جـ١ ص ١٢٧، ١٢٨.

(8) Boak, op. Cit. P. 389.

(9) Jones Constantine, p. 29.

(10) Cary, A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

أخلاق سامية وإيمان بكل الآلهة [١١] . وإلى جوار هذه كانت توجد أيضاً الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوى فى الاعتقاد، وتعتبران المادة شراً، والجسد سجناً، والخلاص لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الجسد والتأمل في طهارة الروح الإلهية وممارسة التصوف والزهد.

غير أنه لم يكن فى قدرة الدين القديم أو الفلسفة أن تهب العامة إيماناً يخفف عنها شعورها بفقرها وبواسيها فى أحزانها. ففى الوقت الذى كان الناس فى حاجة إلى من يخاطب روحهم ووجدانهم، كان الدين لا يقدم لهم إلا طقوساً ومراسم [١٢] وأمست الأرباب القديمة أرباب الطبقة التى ارتبطت مكانتها بمجد روما وفخارها وانتصاراتها فى الخارج، نعنى بذلك طبقة السناتو والنبلاء، وبات واضحاً أن حفاظ هذه الطبقة على الأرباب القديمة مجرد حفاظ على روابط تاريخية وتراث بعيد!!. أما الفلسفة فكانت بأفكارها وجدلها لا تتناسب وعقول العامة الذين راحوا يفتشون عن أرباب آخر، يجدون فى الإيمان بها هدوء الخاطر، وسرعان ما وجدوا هذه الأرباب فى الديانات الشرقية التى استطاعت أن تقدم لمعتنقيها كل ما عجزت العبادات الرسمية للإمبراطورية أن تمدهم به [١٣] من الرضى النفسى، والأمل فى المستقبل والهروب من هذا العالم الملئ بالبؤس والشقاء الذى يحيونه إلى عالم الروح وما يعدهم به من نعيم مقيم. وكل ذلك كانت تفتقده العبادات الرسمية التى كانت ذات طابع سياسى صرف وأداة طيعة من أدوات الحكم [١٤]. وقد وجد الناس

---

(١١) تقوم الرواقية على جعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعاً، وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه، وهى تقدم للإنسان الحائر فى مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال، أساساً أخلاقيا للسلوك، ومبدأ راسخاً للحياة الفاضلة. ومن ثم فهى من هذه الناحية تعد عقيدة أخلاقية. انظر ص ١٠ من تصدير الطبعة الثانية لكتاب الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين. القاهرة ١٩٧١. وراجع أيضاً تراث العالم القديم تأليف W.G. De Burge وترجمة زكى سوس جـ١ ص ٢٣٤-٢٤١. وكان من أشهر رجالاتها ابكتيت Epictetus الذى استطاع أن يضم الإمبراطور تراجان (٩٨- ١١٧) إلى حلقة سامعيه، وكان الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) من أعلام الفلاسفة الرواقيين. راجع:

Cary, Op. cit.p 596.

(١٢) ديورنت، المصدر السابق، مجلد٣ جـ٢ ص ٣٥٥.

(13) Stephenson, Mediaeveal history, p. 39.

(14) Boak, op. cit, p. 391.



فى هذه العبادات الشرقية الجديدة عدداً من شعائر أثارت نفوسهم وأشبعت عواطفهم. فالعابد بممارسته إياها يشعر وكأنه وصل إلى درجة الغيبوبة الروحية يحس فيها أنه فى اتحاد مع الإله المعبود. وبإتمام شعائر الأسرار يحس أن نفسه قد تطهرت من دنس حياته الأرضية، وأصبح مستعداً لتقبل حياة روحية نقية (١٥).

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك ثلاث منها حظيت باهتمام كبير من جانب الرومان على المستويين الشعبى والرسمى، هى عبادة الأم العظيمة Magna Mater من Pessinus وموطنها الأصلى فى فريجيا Phrigia بآسيا الصغرى حيث كانت تعرف بالآلهة كيبيلى Cybele وقد أشرك معها فى العبادة قرينها أتيس Attis الذى تروى الأساطير المقدسة أن كيبيلى قد أعادته إلى الحياة ثانية ــ بعد أن كان قد ذبح ــ بقوة حبها إياه (١٦). وقد نقل الحجر الأسود الذى كان يمثل صورتها مع كهنتها من الخصيان بكل وقار واحترام من بسينوس إلى روما فى الأيام المشئومة للحرب البونية الثانية (٢٠٥ ق.م) (١٧) وذلك بعد أن فشلت أرباب الرومان فى أن تهدىء من روع السكان الذين أصيبوا بخيبة الأمل، غير أن السناتو الرومانى حصر عبادتها فى معبدها على تل البلاتين. ولكن ما إن جاء عصر كلوديوس Claudius (٤١-٥٤) حتى تحطم هذا الحصار الذى فرضه السناتو على "الأم العظيمة البسينية" (١٨)، وانتشرت عبادتها سريعاً بين سكان روما وإيطاليا وكثير من مدن الولايات فى ليديا Lydia وفريجيا وأفريقية (١٩).

---

(15) Ibid. p. 391.

(16) Stephenson, op. cit. p. 39.

(17) Boak, op. cit. p. 391.

(18) Dudley, The Civilization of Rome, p. 280.

(١٩) كان كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل قرينها أتيس، ويصوم عبادها ويصلون ويحزنون لموت أتيس. وذلك أثناء الاحتفال بعيدها الربيعى (١٥-٢٥ مارس)، حيث كان الكهنة أيضاً يجرحون سواعدهم ويشربون دماءهم وفى موكب مهيب يحمل الإله الشاب إلى قبره، فإذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس. فإذا ما حل اليوم الأخير من أيام الاحتفال حملت صورة الأم العظيمة فى موكب للنصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تحييها وتناديها فى روما باسم "أمنا" Nostra Domina

راجع: Dudley, op. cit. p. 115 وانظر أيضاً: Jones, op. cit. p. 35 وكذلك ديورنت: قصة الحضارة، مجلد ٣ جـ٣ ص ١٧٤.

وقد احتلت هذه العبادة مكانة مرموقة بين سائر العبادات الأخرى القادمة من الشرق نتيجة استحسان ورضى الدولة الرومانية عنها (٢٠).

أما الإلهة المصرية إيزيس فإنها عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الإنساني، وقد عبد معها قرينها سيرابيس، ولقيا انتباها خاصاً عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة في كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم (٢١). وقد ساعد على انتشار عبادة إيزيس في الإمبراطورية ما انطوت عليه قصة هذه الآلهة من الحنو والرأفة، والأمل في الحياة الآتية، فقد راحت تذرع أقاليم مصر كلها بحثاً عن أشلاء زوجها "أوزيريس" الذى قتله أخوه "ست" إله الشر، وأخذت تضع شلوا إلى جوار شلو آخر حتى اكتمل جثمانه، ثم ذهبت تبكيه، وبدموع الحب أحيت "إيزيس" "أوزيريس". وإلى جانب هذا ما اختصت به طقوسها من الرقة، وما كان يسود هياكلها من جو مرح، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم كما أنها رحبت بالنساء (٢٢) على عكس عبادة الإله مثراً.

وقد انتقلت هذه العبادة إلى روما في غضون القرن الثانى قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. وتم هذا على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الأرستقراطية مما دفع السناتو إلى تحديها، كما أصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ ق.م أمراً بهدم هياكل إيزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع إيزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما. وفى عهد صلاً Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة إيزيس خاصة وأنه كان زعيما للحزب

(20) Jones, op. cit. p.34.
(21) Dudley, op. cit. p.231.
(22) Ibid. p. 230.

وراجع أيضاً ديورنت: المصدر السابق ص ١٤٨.

الديمقراطي أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من أفراد الطبقة الدنيا وهى أكثر الطبقات إقبالاً على العبادات الأجنبية، وأحرزت ديانة إيزيس تقدما مطرداً حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسمياً فى عام ٤٣ق.م. وقد تعثرت عبادة إيزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين أوكتافيوس Octavius وماركوس أنطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٣٨ ق. م . ثم طوردت في كل أنحاء إيطاليا على عهد تيبيريوس Tiberius (١٤-٣٧) م [٢٣] إلا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب كاليجولا Caligula (٣٧-٤١) [٢٤]. واستمرت عبادتها فى الازدهار على عهد خلفائه حتى أن أتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ ــ ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما [٢٥].

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها، غير أنها كانت سرعان ما تعود إلى استعادة مركزها ثانية، ولكن بمجيء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ ــ ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الآله الفارسى مثراً Mithra [٢٦] الذى استقرت عبادته لفترة طويلة فى شرق آسيا الصغرى ثم بدأت تأخذ طريقها إلى الغرب فى فترة متأخرة فى القرن الأول الميلادى، وما إن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت في جميع أنحاء الدولة الرومانية عبادة مثراً، الإله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس [٢٧] .

ولقد كانت المثرائية هى العبادة الشرقية التى فاقت قريناتها الزاحفة إلى الإمبراطورية، وكان مثراً يبدو فى الديانة الزرادشتية كإله للنور (أهورامزدا) ضد

(٢٣) د. عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، ص ١٤٧ ،١٥٠.

(24) Dudley, op. cit. 230.

(٢٥) د. عبد اللطيف: المصدر السابق، ص ١٥٠ ، ١٥٥.

(26) Cart, op. cit. pp. 589, 697.

(27) Dudley, op. cit. p p. 230-232.

إله الظلمة (أهريمان)، وحيث تأثر بالزوح البابلية والإغريقية، عرف مثرا بأنه إله الشمس، ثم ظهر في روما على أنه الشمس التي لا تقهر [٢٨] Deus Invictus Sol Mithra. ولما كانت هذه العبادة في شكلها الزرادشتي تمثل صراعا بين إلهي النور والظلمة، فقد أوجد ذلك في أفئدة الناس دافعاً وتأييداً للجهاد من أجل الصلاح والبر، وبذلك قدمت العبادة المثرائية حصانة روحية راسخة [٢٩]. ولقد تركت المثرائية آثارها الواضحة في روما والولايات الغربية [٣٠] وأخذت في الانتشار السريع خاصة في الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثراً إلهاً للمعارك الحربية، وحامياً للجنود الذين غدوا أداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود [٣١]، خاصة بعد أن فقد إله الحرب الروماني مارس سلطانه وخارت قواه ولم يعد قادراً على قيادة الفيالق الرومانية ضد أعداء الإمبراطورية.

على أية حال فقد أصبح العالم الروماني الوثني يعج بالعقائد المختلفة، وكانت العبادات الشرقية مادة إضافية جديدة للوثنية الرومانية، غير أنها لم تصبح لها السيادة، وعلى الرغم من أن بعضها قد اعترف به رسمياً، ولقى التأييد من جانب بعض الأباطرة، إلا أن هذه العبادات، بقيت عبادات فردية أو خاصة أو حتى على المستوى الشعبي المحدود، ولم تدع في يوم من الأيام أن لها صفة سياسية، وكانت الدولة الرومانية في نفس الوقت تقف إزاء كل هذه الديانات موقف المسامحة [٣٢]، شريطة ألا تتعارض طقوسها مع الصالح العام الروماني [٣٣].

غير أن هذه الديانات الجديدة كانت تفتقر إلى السلطة المركزية المنظمة المتمثلة في رجال الكهنوت والتي تستطيع أن تسن قانوناً، أو تضع تنظيماً معيناً لهذه العبادة أو تلك، أو تحديد الطقوس اللازمة، وكانت مناصب الكهنوت في الغالبية العظمى من العبادات المحلية تملأ بواسطة أناس من أهل المنطقة ذاتها، وقد

(28) Boak, op. cit. p. 392.

(29) Stephenson, op. cit. p. 40.

(30) Ault, Europe in the Middle Ages. p. 39.

(31) Cary, op. cit. p. 698; Dudley, op. cit. p.p. 230-232.

(32) Boak, op. cit. p. 302.

(33) Jones, op. cit. p. 30.

يجمعون بينها وبين الوظائف العامة أحياناً، وكان معظم الكهنة يختارون بواسطة المجامع المحلية سواء لمدة سنة مثل معظم الوظائف الأخرى في الإمبراطورية، أو على الدوام كمنصب شرفي (٣٤).

ولأجيال عديدة، فإن الديانات ذات الأصل الشرقي كعبادة إيزيس والأم العظيمة ومثرا قد أشبعت إلى حد ليس باليسير الشعور الديني عند الرومان، والذي لم يجد إلا غذاء يسيراً في الديانة الرومانية القديمة (٣٥). وكان الغموض والأسرار الخفية في هذه العبادات ذات أثر في اجتذاب عدد كبير من المتعلمين والأميين على السواء إلى رواقها (٣٦)، ولا يمكن القول أن الدين أو الفلسفة لم تعط نوعا من التعاليم الأخلاقية. فهذه الأخيرة ــ الفلسفة ــ كانت تنادي بوجوب تخلص الروح وتطهرها من الشهوة الجسدية والماديات، وذلك بممارسة الفضيلة من أجل الحصول على الطهارة والنقاوة اللازمة للتأمل والتفكير في الله. وكان قانون العقيدة المثرائية ــ كما أوضحنا ــ يقسم العالم قسمين، ويجعل الصراع قائماً بينهما، بين قوة النور وقوة الظلمة، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا أن يحاربوا في صفه حتى يستطيعون الاتحاد به، كما كانت الطهارة والعفة الأخلاقية في عبادة إيزيس مطلوبة من عبادها إذا كانوا يريدون الحصول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت، ونيل البركات والنعيم المقيم. غير أن هذه المسائل كلها كانت تتم بصورة فردية، ولم يحاول أحدهما أو كلاهما ــ الدين والفلسفة ــ أن يبدي اهتماما بالعدالة الاجتماعية، كما أنه لم يكن عند هذه أو ذاك مجرد الرغبة في إنقاذ العالم كوحدة واحدة، وخلاصه من شروره (٣٧).

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت في المسيحية، تبدت عقيدتها في إله مخلص سار في طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر. مات ثم قام ثانية من بين الأموات كما يؤمن به أتباعه. وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية، وغموضها الذي كانت تشترك به مع العبادات الشرقية كلها آنذاك.

(34) Ibid. 46.
(35) Dill, Rome and Society in the last century of the Western Empire, p.7.
(36) Stephenson, op. cit. p. 39 .
(37) Jones, op. cit. p. 38.

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يسوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة، فهو قد نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين، وتفردت بتعاليم أخلاقية قابلت الهوى. وعلى خلاف المثرائية التى قصرت عضويتها إقامة شعائرها على الرجال دون النساء [٣٨]، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلى وإيزيس، ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة.

ولكن المسيحية لم تلق من الرواج بادئ الأمر ما لقيته هذه الديانات الأخرى، وعلى الرغم من القوة الروحية التى كانت تؤكد مستقبل الإيمان المسيحى، إلا أن انتصار المسيحية جاء متأخرا جداً، وكان على المسيحية أن تقضى طيلة ثلاثة قرون كاملة تبحث عن مكان لها بين الأديان الأخرى، محاولة أن تتخطى العقبات التى صادفتها، وعلى طريق طويل بلغ مداه ثلاثمائة عام سار المسيح وحواريوه وأتباعه رحلة طويلة مليئة بالآلام حتى استطاعت المسيحية أن تحقق نصرا جزئياً فى مطلع القرن الرابع، ولم يتحقق لها النصر النهائى إلا وشمس القرن ذاته تؤذن بالمغيب.

وقد جاء العداء للمسيحية فى هذه القرون الثلاثة الباكرة من جانب اليهود والوثنيين. فقد كانت اليهودية فى هذه الفترة قد أخذت فى الانتشار الواسع خاصة فى حوض البحر المتوسط الشرقى خلال الشتات الذى تعرض له اليهود إبان العصر الهلنيستى [٣٩]. ذلك أن غزو الاسكندر الأكبر للشرق الأدنى كان داعية لفتح العالم الإغريقى المقدونى كله أمام اليهود، فاحتلوا مراكز التجارة الهامة فيه، وسادوا طرق المواصلات التجارية، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العسكرية، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها، وبذلك أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى اليهودية Judaea [٤٠]. وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سبباً فى

(38) Ault. op. cit. p. 40.
(39) Cary, op. cit. p. 589.
(40) Boak, op. cit. p. 394.

إعادة إحياء هذه الديانة، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين، واستطاعت اليهودية أن تجتذب إليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من الوثنيين[٤١]، وعلى الرغم أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى، واستسلم اليهود المقيمون فيها فشيئاً لما كان في هذه المنطقة من نزعة هلنستية، إلا أنهم ظلوا يكونون شكلا من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى أورشليم، وتجلى ذلك فى بعض المظاهر، فبالإضافة إلى الضريبة السنوية التى كان مقدارها دراخمتين، والتى كان على اليهودى أن يدفعها لمعبد يهوه، كان ينتظر من كل يهودى أن يحج إلى أورشليم وأن يقدم فى معبدها أضحية معينة ولو مرة واحدة على الأقل طوال عمره. ومع ذلك فقد كان اتصالهم بجوداديا دينيا محضا ولم يكن ذا صبغة سياسية[٤٢].

وفى سنة ٦٣ ق. م. أصبحت منطقة اليهودية جزءاً من ولاية سوريا الرومانية، بعد أن انتصر بُمبى لهركان الثانى ضد أخيه، واستطاع أن يفتح العاصمة المقدسة بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وحفظت روما لليهود موقفهم إزاءها أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين ونتيجة لموقفهم أيضاً أثناء النزاع بين أوكتافيوس من ناحية وأنطونيوس وكليوباترة من ناحية أخرى وتخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة[٤٣] فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من المدن الهلنستية، هذا بالإضافة إلي أنه لم يطلب إليهم أن يشاركوا فى العبادة الإمبراطورية. واتبعت الحكومة حيالهم سياسة من التسامح، ولعل الذى دفع الحكومة الرومانية إلي أن تسلك هذا السلوك من التسامح تجاه اليهود هو ما كانت تشعر به من اتجاهات إيجابية فى العقيدة اليهودية ذاتها[٤٤] فيما يتعلق بالأمور الاقتصادية وخاصة النواحي التجارية. أو لعله أيضاً يرجع إلى أنهم كانوا رغم انفراد ديانتهم بقوانينها الخاصة يعدون مجتمعاً ليس بذى شعبية كبيرة بحيث يمثل خطراً على الإمبراطورية الرومانية[٤٥].

---

(41) Cary, op. cit. p. 589.

(42) Boak, op. cit. p. 394.

(٤٣) د. مصطفى عبد العليم: اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان، ص ٥١.

(44) Boak, op. cit. p. 394.

(45) Stephenson, op. cit. p. 43.

فلما جاء كاليجولا إلى العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة، فأمر أن يقدم أتباع كل العبادات قرباناً لصورته، وأصدر تعليماته إلى الموظفين في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل (٤٦). ولكن اليهود كانوا ينفرون من وضع تمثال منحوت لرجل وثني في هيكلهم، وإن كانوا قد قطعوا نصف الطريق إلى ترضية الأباطرة بقبولهم أن يضحوا ليهوه باسم الإمبراطور، وقد أنهى كاليجولا المشكلة بموته (٤٧) .

وفي ستينيات القرن الأول الميلادي ثار اليهود في جودايا ثورة عارمة، غير أن جيوش الإمبراطورية بقيادة تيطس Titus استطاعت أن تقضي علي هذا التمرد، وأن تدمر الهيكل، وأن تذبح أعداداً كبيرة منهم، وفرض الإمبراطور فسباسيان Veapasianus (٦٩-٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم إلى الهيكل الوثنى فى روما (٤٨). غير أن اليهود ما لبثوا أن جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى عامى ١١٥-١١٦، وشملت الثورة هذه المرة مناطق عدة من الإمبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وأرض الجزيرة(٤٩). ولكن الإمبراطور هادريان Hadrianus أخمد بلا هوادة هذا التمرد الخطير، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوماً يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجيء للبكاء أمام خرائب الهيكل.

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الإمبراطورية الرومانية، وضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا، وكان مما يقلق بال اليهود أن يدفعوا ضريبة لسيد وثنى(٥٠)، ونظر اليهود إلى ماضيهم فألفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من

(46) Dudley, op. cit. p.162.

(٤٧) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ ٣ ص ١٨٥

(٤٨) المرجع نفسه

(49) EVSEB. Hist. Eccl. IV. 2.

(50) Gibbon, The decline and fall of the Roman Empire, I,p. 78.

الإذلال والشتات، بدأ بالآشوريين فالبابليين فالفرس فالإغريق ثم في النهاية الرومان، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل، وتوقع مجدد صريح أن إلههم لابد وأن يخلصهم يوماً ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبي (٥١). وكان التفكير السائد- حسبما جاء في نبوءات أنبياء بني إسرائيل (٥٢) - أن الوسيلة الوحيدة لذلك هو أن يرسل يهوه مسيحاً خصيصاً لهذا الغرض، ويخرجهم من الظلمات إلى النور- المادي الحسي - ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء، من القوة والعظمة، وينهي بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والإذلال، وأن يهوه لابد وأن يعيد إلى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق(٥٣).

غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم وعداً حسناً في الدار الآخرة، وأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى، وأعضاء مجلس السنهدرين اليهودي (٥٤) أن مكانتهم إلى نهاية، وأن نفوذهم لا محالة ضائع. ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعاً شعب الرومان والحكومة. وبذلك لقي المسيحيون من اليهود كبير عنت.

---

(51) Thompson & Johnson, An Introduction to Medieval Europe. p. 27.
راجع أيضاً: Stephenson, op. cit. p. 40.

(٥٢) "جاء في سفر أشعياء (٩/٦-٧) لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابناء، وتكون الرياسة، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أبا أبدياً، رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد".
وجاء أيضاً في نفس السفر (١١/١-٢) "ويخرج قضيب من جذع يسى، وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب".

(٥٣) دانيال ٢/٤٤. أشعياء ٢/٤.

(٥٤) هو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل، ويظن أنه نشأ في أثناء حكم السلوقيين (حوالي عام ٢٠٠ ق.م) وكان الحاخام الأعظم هو الذي يختار في بادىء الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت، ويضم المجلس واحداً وسبعين عضواً يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم في كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة.

أما المجتمع الرومانى فكانت نظرته إلى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التى ينتمى إليها هذا البعض أو ذاك، هذا بالإضافة إلى موقف السلطات ذاتها، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو إلى المساواة والأخذ بيد الفقراء، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها (٥٥)، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر. ومن ثم أتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها، وراحوا ينظرون إليها بعين الشك والارتياب. أما الطبقة العليا وخاصة أولئك الذين وضعوا فى مناصب تتطلب منهم الحفاظ على أمن الدولة وسلامتها، والذين يرتبطون بالأسلاف بصورة حقيقية أو خيالية، والذين كانوا يرون أن ديانتهم الوثنية جزء من كيان الحكومة ونظامها، واعتادوا أن يربطوا بين أربابهم وبين مجد الدولة وعظمتها، فقد كان من الصعب عليهم هجران ديانتهم وعقائدهم بعد ما رأوا أن المسيحى ينظر إلى دينه على أنه شىء منفصل عن المجتمع السياسى، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاماً ولا يدين بولاء للقيصر ولكن بأعظمه للمسيح (٥٦).

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة إلى من يثير عاطفتها ضد هذه الدعوة الجديدة وأتباعها، وكان الذى أدى إلى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخاص النابع من المسيحية. ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما فيه أى تعصب فى الوصول إلى اتفاق معين إو تراض مع العبادات الأجنبية الأخرى. وكان مذهب تعدد الآلهة على استعداد لأن يقبل في البانثيون الروماني آلهة جددا، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعياد كما لو كانت أى إله رومانى، وبينما كان الوجدان الوثنى لا يرضى طواعية بإله واحد، بدت المسيحية ديانة توحيدية، وكان

(٥٥) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك، "لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون" (متى ١٥/٦)، "أن أردت أن تكون كاملاً فأذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء" (متى ٢١/١٩، مرقس ٢١/١٠)، "مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله" (مرقس ٢٥/١٠).

(56) Dill, op. cit. p. 3.

هناك فى الحقيقة إله واحد. وقد أظهر هذا الإله نفسه فى "العهد القديم" غير متسامح البتة مع الآلهة الأخرى، ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الوثنية المتعددة الآلهة فى الإمبراطورية الرومانية، بل يجب فى ــ نظرها ــ ألا يكون هناك تسامح مطلقاً لا مع الوثنية ولا مع أتباعها (٥٧).

وبناء على هذا المعتقد لدى المسيحيين، عزل هؤلاء أنفسهم عن المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل أغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى أشاعها آباء المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب، واحتقر الحياة الدنيا، فسوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا. ولقد كانت هذه المحاولة لإقامة مجتمع من الأخيار بين الأخوة، والدفاع العنيف عن حياة التبتل، تجرى فى تيار مخالف تماماً لما كانت عليه الحال فى تلك الفترة (٥٨). ولما كان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم وألا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية فى نظر الوثنى وكأنه هروب من الواجبات المدنية وعدم الولاء للدولة(٥٩). وقد جاء هذا الاعتزال أيضاً نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال، والمسيحيون فيها غرباء، فموطنهم الأصلى هو السماء، أنهم مواطنون فى مملكة الله الآتية (٦٠). وكانت الكنيسة الأولى تعتقد بإخلاص فى قرب مجىء ملكوت السماوات، ومن ثم لم تقدم شيئاً لهذا العالم الذى تعيش فيه، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة (٦١). ولما كان قد حرم

(57) Latourette, expansion of Christianity. I, p. 128; Thompsn, op. cit. p. 25.

(58) Boak, op. cit. p. 385.

(٥٩) ديوانت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢.

(60) Latourette, expasion of Christianity. I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 395.

(61) Boak, op. cit. p. 395.

على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية، وعلى المسيحية أن تقترن بغير مسيحى، اتهم الوثنيون المسيحيون بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع، واتهم الدين المسيحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت[٦٢]، ومما أكد هذا الاتهام أيضاً أن حماس المسيحيين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم، تبعاً للتعاليم المسيحية إلى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل إيمانه، وأن يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة [٦٣]. واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها أصلاً للأوثان [٦٤]. وكان إظهار الشماتة من جانب المسيحيين إذا ما حل بالإمبراطورية مكروه، وما أذاعوه من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الإمبراطورية، كل ذلك أوحى إلى الوثنيين بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة [٦٥] .

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان أنهم إزاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها، ولا تؤدى أى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش، ومن ثم كان سخط الجموع الوثنية ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة أنفسهم فى بادئ الأمر [٦٦].

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئة أو تلك، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة، وكانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الإمبراطور وتأليهه [٦٧]، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، وكان إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور قد أصبح رمزاً للولاء للإمبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء.

---

(٦٢) ديورنت: المصدر السابق ص ٣٧٢.

(63) Gibbon, op. cit. p. 84.

(64) Jones, Constantine, p. 41.

(65) Gibbon, op. cit. p. 84.

(٦٦) ديورنت: المصدر السابق ص ٣٧٢.

(67) Ault, op. cit. p. 43.

وترجع بدعة عبادة الإمبراطور إلى ذلك الزمن الذى حاول فيه أوغسطس أن يوجد رابطة جديدة من الولاء لروما عند أهالى الولايات وذلك باللعب على أحاسيسهم الدينية[٦٨] أو حتى قبل ذلك بزمن طويل عندما بدأت روما تطيح بسلطة الحكومات الهلنستية التى كانت عبادة أفرادها من جانب رعاياهم الأساس الذى قام عليه الحكم الأوتوقراطى لتلك الحكومات [٦٩]. فالمواطنون الهلنستيون منذ دخل الرومان بلادهم غازين ـ عبروا عن احترامهم أو خوفهم لروما بأن أقاموا هنا وهناك مذابح للآلهة "روما" أو للقواد الرومان[٧٠]. وكان قد حظى بهذه العبادة أيضاً أفراد رومان مثل صُلا Sulla، وقيصر Caesar وماركوس انطونيوس [٧١]، وفى سنة ٢٩ ق.م، شيدت مدن برجام Pergamum فى آسيا الصغرى ونيقوميديا فى بيثينيا معابد كرستها لعبادة روما وأوغسطس [٧٢]، وقد قبل أوغسطس الهدية ووافق على وجود هذه العبادة فى مناطق أخرى من الولايات الشرقية [٧٣]، وقد ظهرت فى الغرب هذه العبادة الإمبراطورية الآتية من الشرق، ففى سنة ١٢ ق.م. دشن دروزس Drusus ربيب أوغسطس مذبحا لروما وأوغسطس فى Lugdunum [٧٤] (ليون الحالية)، وأقيم آخر فى كولونى Cologne، وقبل موت أوغسطس كان لدى كل ولاية فى الشرق على الأقل مذبح أو معبد كرس لروما وأوغسطس، وقد ارتضى الإمبراطور كل ذلك وشجعه حيث وجد فيه مصدرا يحقق الاحترام السياسى والولاء الإمبراطورى [٧٥].

وعلى الرغم من أن الإمبراطور قد أعطى تأييده لعبادة روما وأوغسطس فى

(68) Cary, op. cit. p. 510.
(69) Boak, op. cit. p. 273.
(70) Cary , op. cit. p. 510.
(71) Boak, op. cit. p. 273.
(72) Id.
(73) Cory, op. cit. p. 510.
(74) Id.
(٧٥) انظر: تراث العالم القديم، جـ١ ص ٣٠٠-٣٠١ وأيضاً:
Boak, op. cit. p. 273

مختلف الولايات الشرقية، وبدأها في غالة وجرمانيا، لم ينتظر أهالي إيطاليا موته حتى يعبدوه، فسرعان ما شيدت المعابد باسمه في غالبية المدن، وقد سمح الإمبراطور ـ على مضض ـ بعبادته في روما وقصر ذلك على المعدمين فقط[٧٦]. ولم يكن أوغسطس يرحب بهذه العبادة في روما وإيطاليا لأنه سيبدو بذلك في نظر الشعب الروماني ناكراً كونه زعيماً رومانياً يستمد سلطته من الشعب الروماني، وبذلك سوف يطبع حكومته بطابع الموناركية الأوتوقراطية، وكان هو غير راغب في ذلك [٧٧].

وهكذا كانت العبادة الإمبراطورية في الولايات دليلاً على السلطة الكاملة لروما وأوغسطس على رعايا الإمبراطورية [٧٨]، وتجمعت الولايات الرومانية كلها حول عبادة واحدة، ولم تكن المدن الهلنستية فقط ـ حيث كانت عبادة الملك شيئاً ثابتاً ـ بل حتى في جرمانيا وغالة أصبح الجميع مقودين لقبول رئاسة كاهن أعلى[٧٩] .

ولقد شاعت عبادة الأوغسطس بعد موته، وخاصة ذلك الذي يؤلهه السناتو، ولعبت العبادة الإمبراطورية بذلك دوراً بارزاً في إيجاد الأوتوقراطية، وأصبح ينظر إلى السلطة الإمبراطورية باعتبارها مستمدة من قبل الآلهة، وأضحى كل حاكم يمارس هذه السلطة على كونها موكلة من الأرباب، وصدرت العملة في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث تشير إلى الترابط التام بين الحكام " كعبادة أرضية" وبين من فوقهم من الأرباب [٨٠] .

غير أن الحماس الذي واكب أول إمبراطور في هذه العبادة كان مقضياً عليه بالفتور بعد أن استقرت الأمور في الإمبراطورية، فمن بين خلفاء أوغسطس لم

---

(76) Cary, op. cit. p. 516.
(77) Boak, op. p. 273.
(٧٨) انظر : تراث العالم القديم جـ١ ص٣٠١، وأيضاً : سباين : تطور الفكر السياسي، جـ٢ ص٢٧٠
(78) Cary, op. cit. p. 511 .
(79) Boak, op. cit. p. 390.

يكن سوى كاليجولا الذى حاول بالقوة فرض العبادة الإمبراطورية على رعيته، ونيرون الذى طالب السناتو بأن يقرر عبادة رسمية فى روما لكلوديوس Divus Claudius (٨١) . الذى كان قد سخر هو نفسه من محاولة تأليهه، أما تيبيريوس Tiberius فقد رفض كل محاولة ترمى إلى تأليهه (٨٢) .

وعلى الرغم من أن عبادة الأباطرة ـ أحياء وأمواتاً ـ كانت من الناحية الدينية أقل إقناعاً حيث لم يكن هناك من يعتقد أن الأباطرة كانوا آلهة، فإن أحد لم يُصلِّ لهم فى سقمه أو فاقته، إلا أن عبادتهم كانت رمزاً تقليدياً كدليل على الاحترام لرأس الدولة (٨٣) ودليلاً على الولاء للإمبراطورية . وكان الرومان ينظرون إلى عبادة آلهة الدولة بما فيها العبادة الإمبراطورية من وجهة نظر سياسية، معتبرين رفض الاشتراك فى هذه العبادة خيانة ضد الدولة تقابلها عقوبة الإعدام (٨٤) .

وقد آلم الأباطرة كثيراً أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لأنها تتصل بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة واعترافهم بألوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية إلى صفوف الوثنيين، وكانت الكنيسة ترى فى عبادة الإمبراطور ضرباً من الشرك وعبادة الأصنام، وبذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الأذى بسبب هذا الرفض(٨٥) . لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق ولائهم للدولة (٨٦) .

---

(80) Cary, op. cit. p. 599.

(٨٢) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٢ ص١٢٤، ١٠٠ .

(83) Jones, Constantine. p. 30.

(٨٤) انظر : تراث العالم القديم، جـ١ ص٣٠٠ وأيضاً Thompson, op. cit. p. 30.

(٨٥) يجب أن ندخل فى اعتبارنا أن احترام السلطة السياسية القائمة، أمر فرضته التعاليم المسيحية منذ البداية، يدل على ذلك قول المسيح " أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله " (متى٢٢/٢١) وما جاء فى رسالة القديس بولس إلى أهل روما " لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنه ليس سلطان إلا من الله. . حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله " (١٣/١-٢) .

(86) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 11-12 .

وانظر أيضاً : سباين : تطور الفكر السياسى، جـ٢ ص٢٦٧ .

كان في وسع المسيحيين أن يصلوا من أجل الإمبراطور ولكن ليس للإمبراطور [٨٧]، وأن يدعوا للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها، ذلك أن المسيحيين في بادئ الأمر كانوا يرفضون الاشتراك في الخدمة العسكرية للدفاع عن الإمبراطورية [٨٨]، فهم بأدائهم العمل العسكري ينخرطون في العبادة الوثنية، وباعتبارهم جنود الرب فإنهم لم يكونوا يستطيعون إعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا في كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان [٨٩]. فالمسيحي كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر، ويعظم أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم الروماني، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة [٩٠].

فإذا أضفنا إلى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة، ورفضهم عبادة الإمبراطور، وامتناعهم عن الاشتراك في الخدمة العسكرية، إذا أضفنا إلى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولي المناصب العامة في الدولة [٩١] مما عد تهرباً من تحمل مسئوليات المجتمع الذي يحتويهم، أدركنا إلى أي حد كان الأباطرة ينظرون إلى الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب.

ونتيجة لهذه النظرة التي أحيط بها المسيحيون من أعين معظم طبقات المجتمع، راح المسيحيون يلتقون خفية، ويعقدون اجتماعاتهم في سرية، مما زاد الطين بلة، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى بأسها على سلامة الدولة [٩٢]، خاصة وأن قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئاً غريباً تماماً عن الفكر الروماني عندئذ، فتبعاً للنظم التي كانت

(87) Boak, op. p. 396.
(88) Painter, A history of the Middle Ages , p.13 .
(89) Jones, Constantine, p. 41.
(٩٠) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٢.
(91) Thompson & Johnson,op. cit. p. 30; Schaff, History of the Christian Church, II. P. 43.
(92) Gibbon. op. oit. p. 83; Painter, op. cit. p. 13.

سائدة في العصرين الجمهوري والإمبراطوري كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الروماني يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك أن يعتنق ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الروماني والنظام العام [٩٣] .

وكان من المستحيل أن تلتقي هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التي كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة .. وكان من المستحيل بالتالي على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة .

هكذا توجس الأباطرة خيفة من هذه العقيدة وأتباعها، إلا أنه يجب أن ندخل في اعتبارنا عند الحديث عن موقف الأباطرة الرومان من المسيحية أن وقتاً طويلاً قد انقضى قبل أن يجذب المسيحيون — كطائفة جديدة — نظر السلطة الإمبراطورية[٩٤]، ذلك أن الحكومة الرومانية ظلت لفترة ما تنظر إلى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود [٩٥]، ومن ثم استفاد المسيحيون من اتجاه روما نحوهم[٩٦]: ذلك أن اليهود وقد كانوا جماعة تمارس العبادة التقليدية لأسلافهم، حصلوا منذ زمن مبكر على اعتراف رسمي لهذه الطقوس الخاصة، ونتيجة للاحترام العظيم لعادات وتقاليد الأسلاف، فقد تسامح الرومان مع اليهود، بل ومنحوهم بعض الامتيازات[٩٧] . غير أنه في نهاية القرن الأول وعلى وجه الخصوص بعد تدمير أورشليم سنة ٧٠ أصبح السبيل ممهداً لسيادة العناصر غير اليهودية بين الطبقات المسيحية، بعد أن أخذت العقيدة الجديدة تنتشر بين الوثنيين، وأضحى من المستحيل أن تتعايش الطائفتان اليهودية والمسيحية طويلاً سوياً بعد ذلك [٩٨] . ومن ثم رأى

(93) Stephenson, op. cit. p. 43.
(94) Gibbon, op. cit. p. 87 .
(95) Painter, op. cit. p. 13.
(96) Boak, op. cit. p. 395.
(97) Jones, Constantine, p. 42.
(98) Boak, op. cit. p. 395.

المسيحيون أن يتحرروا من المبادئ اليهودية وليؤكدوا هذه الحقيقة فإنهم خصوا بالتعظيم أول أيام أسبوع اليهود بدلاً من سبتهم، كما أن المسيحيين كانوا على خلاف اليهود وتمشياً مع عقيدتهم فى التوحيد لا يتسامحون إطلاقاً مع العقائد الأخرى (٩٩) . ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا إلا منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها (١٠٠) . وقد أدى ذلك بالمسيحيين إلى أن يتعرضوا لنظرة العداء لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب، بل من جانب أباطرة خيرين أمثال تراجان وهادريان، وأنطونينوس بيوس، وماركوس أوريليوس(١٠١) .

وكان نيرون أول الأباطرة المضطهدين لمعتنقى المسيحية كما يخبرنا بذلك لاكتانيتوس (١٠٢) ويؤكد يوسيبيوس (١٠٣) أيضاً هذه الناحية فى قوله إن نيرون بدأ سلسلة إجراءات قاسية وتجند لمحاربة إله الكون، وكان أول إمبراطور أعلن العداء للديانة المسيحية . ويبدو أن هذا الاضطهاد كان راجعاً إلى ما كانت تطالب به الجماهير الغضبى من تقديم كبش فداء للحريق الهائل الذى شب فى روما سنة ٦٤، ولم يجد مستشارو الإمبراطور بدأ من إرضاء الجماهير الغاضبة، فأشارت أصابع الاتهام إلى المسيحيين، تلك الطائفة المنعزلة عن المجتمع (١٠٤)، ومنذ ذلك الزمن فصاعداً أصبحت الحكومة الرومانية تنظر إلى المسيحيين باعتبارهم أشخاصاً ذوى نيات عدائية للدولة والمجتمع (١٠٥)، غير أنه مع ذلك لم تكن فى هذا الوقت قوانين أو مراسيم للسناتو أو الإمبراطور سارية المفعول ضد المسيحيين تحرم عليها ممارسة الطقوس الدينية (١٠٦) .

---

(99) Stephenson, op. cit. p. 43.
(100) Jones, Constantine, p. 42.
(101) Stephenson, op. cit. p. 44.
(102) LACT, mort, pers. 2.
(103) EVSEB, hist. Eccl. II, 22-25.
(104)Baok, op. cit. p. 298 .
(105) Ibid. p. 396.
(106) Gibbon,. op. cit. I, p. 98.

- ويخبرنا الكتاب الكنسيون [١٠٧] أيضاً أن دومتيانوس Dometianus (٨١-٩٦) لم يكن أقل طغياناً وقسوة من نيرون، وكان ثانى إمبراطور يتابع سياسة العنف، وعلى الرغم من أن المسيحيين فى آسيا الصغرى قد لاقوا خلال عهده اضطهاداً قاسياً من جانب السلطات المحلية إلا أن البعض [١٠٨] يشك فى وقوع هذا الاضطهاد بالصورة التى يرويها المؤرخون الكنسيون لعدم توافر الأدلة على ذلك .

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية إزاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر Plinius حاكم بيثينا سنة ١١٢ والإمبراطور تراجان (٩٧-١١٧)، وقد جاء فى رسالة بلينى " أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم، فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم، وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتداح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة [١٠٩]، كما أمر الإمبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماح لاتهامات مجهولة، ولكن إذا وجد المسيحيون ورفضوا إظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب [١١٠] . أما هادريان (١١٧-١٣٨) فقد أرسل إلى واليه فى آسيا مينوكيوس الفوندى Minucius Fundanus يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة، ويجب ألا يتعرض أى مسيحى للعقوبة إلا بعد التحقق من ذلك [١١١]، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١) إلى الجمعية العامة فى أفسوس رسالة بهذا المعنى أيضاً [١١٢]، ولم يكن اضطهاد المسيحيين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) استثناء من

(107) LACT. Mort. Pers. 3; EVSEB, hist. Eccl. III, 17.

(108) Boak, op. cit. p. 396 .

(109) Stephenson, op. cit. p. 44.

(110) EVSEB. Hist, Eccl. III, 33; Schaff, op. cit. II, p.46.

(111) EVSEB. Hist. Eccl. IV, 9.

(112) Ibid. 13 .

السياسة العامة التي درج عليها أباطرة القرن الثانى [113]، وكانت الاضطهادات التي وقعت على عهد هذا الإمبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والأوبئة والحروب، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع إلى الانصراف عن آلهة الرومان وإنكارها، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها، أو لعله خضع لها فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوماً يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة [114].

وقد خفت حدة الاضطهاد في عهد كومودوس Commodus (١٨٠-١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام [115] ولكن سرعان ما عادت إلى ما كانت عليه بتولى سبتميوس سفروس Septimuis Severus (١٩٣-٢١١) عرش الإمبراطورية وربما كان ذلك راجعاً إلى ما تعرضت إليه الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين [116] وتابع من جديد ماكسيميين قيصر Maximinus (٢٣٥-٢٣٨) سياسة الاضطهاد، وأصدر أمراً بقتل أباء الكنائس باعتبارهم أصحاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم، وعلى ذلك كتب أوريجين Orignes اللاهوتى المسيحى الشهير فى القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد [117].

هذا الموقف الذى اتخذته الإمبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث كان يتميز بالطابع المحلى [118]. إذ لم يكن هناك قانون عام يسرى فى الإمبراطورية بأسرها يحدد معاملة المسيحيين، ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضى به الصالح العام للإمبراطورية، ورغم هذه الاضطهادات وإجراءات القمع التى اتخذت إلا أنها كانت متقطعة ومتباعدة، ولم تتخذ الحكومة الإمبراطورية إجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضد هذه العقيدة

(113) Boak, op. cit. p.397.

(١١٤) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٥ .

(115) EVSEB. Hist. Eccl. V, 21.

(116) Lebretson & Zeiller, The history of the primitive church, II, p. 753.

(117) EVSEB . hist. Eccl. VI, 28.

(118) Thompson, op. cit. p. 30.

المسيحية [١١٩]، وكان هؤلاء الأباطرة الذين أقدموا على الاضطهاد في تلك الفترة إذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثاني من القرن الثالث – غير عنيفين في اضطهاداتهم، كما أن الكنيسة نعمت في عهد كثيرين من أباطرة هذه الفترة بعهود من السلام والهدوء [١٢٠]، وخلاصة القول إنه حتى بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي لم يكن هناك مرسوم عام بالاضطهاد، بمعنى أنه لم يكن هناك اضطهاد عام .

غير أن الحال بدأ في التغيير التام مع بداية النصف الثاني من القرن الثالث، حيث تعد هذه الفترة . التي تمتد حتى سنة ٢٨٤، عندما اعتلى دقلديانوس العرش الإمبراطوري من أحلك الفترات التي مرت بها الإمبراطورية وأشدها خطورة، نتيجة للحروب الأهلية التي وقعت بين قواد الفرق الرومانية في الولايات المختلفة، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب، والفرس من الشرق، وازدياد متطلبات الإمبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشي الأمراض والأوبئة والطواعين، وانخطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط .

ولقد كان السبب الجذري لهذه المتاعب التي سادت الإمبراطورية على مدى جيلين يتركز في عدم انتظام الجيش وفي الطموح السياسي لقواده العسكريين [١٢١] خاصة وأنه لم تكن هناك قاعدة ثابتة لاختيار الجالس على العرش، فقد انتقلت سلطة الاختيار هذه من يد السناتو إلى يد الإمبراطور نفسه خلال القرن الأول الميلادي، فلما ازداد النفوذ العسكري واختفت طبقة النبلاء الأصيلة، أصبح الأمر معقوداً بإرادة الجنود، وأصبح ولاؤهم المباشر لقادتهم دون روما . وكان الأباطرة ولا شك يتحملون جزءً من هذه الفوضى التي تردى فيها النظام العسكري الروماني، ذلك أن الأباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية استيلاء هؤلاء على السلطة الإمبراطورية حيث أنه لم يكن هناك نظام ثابت في

(119) Jones, Constantine, p. 43.
(120) Gibbon, op. cit. I, 87 .
(121) Jones, Constantine, p. 2.

وراثة العرش كما أشرنا تواً، هذا بالإضافة إلى أن الطبقة البرجوازية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية، ومن ثم لم يصبح أمام الأباطرة إلا طريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم، إما من العبيد والطبقة العاملة، وإما من أعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية. ولا شك أنه كان لهذه الناحية أسوأ الأثر على تكوين الجيش الرومانى الذى أخذ بالتالى يفقد حيويته وأصالته التى امتاز بها فى القرنين الأولين قبل الميلاد وبعده (١٢٢) . وكانت السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة ـ سنة ٦٩ ـ قد علمت الجيش أن الإمبراطور يستطيع أن يوجد فى أى مكان خارج روما، غير أن الجيش لم يحاول لمدة قرن تقريباً بعد ذلك استغلال هذه المعرفة، وأدت الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ إلى نتائج هامة كان أبرزها اقتناع سبتيميوس سفروس بأن القوة العسكرية هى كل شىء وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده، ونصيحته إلى ولده قائلاً : " أجزل العطاء للجند ولا تلق بالاً للآخرين " (١٢٣) .

وليس أدل على هذه الفوضى العسكرية، وتدخل الجيش فى شئون الحكم، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من أنه فى فترة نصف القرن الواقعة بين عامى ٢٣٥-٢٨٤ تولى عرش الإمبراطورية ستة وعشرون إمبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعية إلا إمبراطور واحد (١٢٤) . وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧-٢٧٣ كان هناك خمسة أباطرة (١٢٥) وساعدت الفوضى أيضاً على أن يسيطر أذينة ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم الممتدة من آسيا الصغرى إلى مصر بصورة اضطر معها الإمبراطور جاللينوس Gallienus (٢٦٠-٢٦٧) أن يمنح أذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيساً للفيالق الرومانية على الفرات ومصر (١٢٦).

(122) Cantor, Medieval history, p. 28.
(123) Jones, Constantine, p. 2.
(124) Boak, op. cit. p. 401.
(125) Jones, Constantine, p. 2.
(126) Cary, op. cit. p. 725

وزاد الأمر سوءاً ضغط الجرمان على الراين والدانوب، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة، بينما هدد الألمان أعالي الراين والدانوب، واحتل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم - على عهد الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية وأخذوا بيزنطة Byzantium بغتة، وعبروا البسفور إلى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧ (١٢٧)، ولم تنج الإمبراطورية من شرهم إلا بعد أن أوقع بهم الإمبراطور كلوديوس هزيمة ساحقة فى ٢٦٩/٢٧٠ (١٢٨) .

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشمال والغرب فقط، بل تعرضت لما هو أسوأ من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات وتجسد هذا الخطر فى الإمبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية، وكانت أوضح صورة لهذا الخطر الداهم تلك التى شهدتها الإمبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عندما استطاعت قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية، وأن توقع بالإمبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠ (١٢٩) . فتعرضت هيبة الإمبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فإذا ما أضفنا إلى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الإمبراطورية غاية فى السوء، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لإقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فساداً فى أراضى الإمبراطورية فى الشمال والغرب والشرق، ولم يكن خطر الحروب الأهلية أقل شأناً من الخطر الخارجى، وأثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الإنتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية، وتوقفت الأخيرة أيضاً نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق

---

(127) Boak, op. cit. p. 408.

(128) Cary, op. cit. p. 727.

(129) Gibbon, op. cit. I, p. 290.

المواصلات لسبب أو لآخر . ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الإمبراطورية الطامعين فيه، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم، ولم يكن من سبيل لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة إلا عن طريق زيادة الضرائب التي أثقلت كواهل الأهلين، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة في الإمبراطورية . فغرقت هذه نتيجة هذا كله حتى آذانها في حالة من الأعياء الشامل والشلل التام، ولم ينقذها من هذا الهول إلا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ .

ولقد عبر المؤرخ جونز [١٣٠] عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله " لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء، حقاً لقد كان الرجال فخورين بأنهم مواطنون رومان وليسوا برابرة، ولكن عاطفة الولاء لم تحرك أحداً منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله، لقد كانت الإمبراطورية شديدة الاتساع، وكان الأباطرة بعيدين جداً عن القدرة على إحياء أية عاطفة سوى شعور الخوف . لقد كانت العواطف التي تعتمد عليها الإمبراطورية عواطف ولاء محلية، فالجندى يحارب من أجل شرف فرقته أو قائده، وحاكم المدينة يعمل وينفق ماله من أجل مدينته، والقواد والإداريون وطبقة السناتو والفرسان يتحركون بدافع الطبقية أكثر منها خدمة الإمبراطورية . لقد اختفى شعور النبالة الملزمة بين الطبقة الأرستقراطية، وانتهى الإحساس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة، وانحل النظام بين جحافل الجند . لقد ضاع كل شيء ! "

على الرغم من كل ذلك، وفى نفس الوقت نتيجة لكل ذلك، وبدافع الرغبة فى الإنقاذ، حمل عدة أباطرة فى هذه الفترة أملاً كبيراً فى تجميع كل العناصر السكانية فى الإمبراطورية كجبهة متحدة فى مواجهة أعداء الدولة، وكان المسيحيون بالطبع ضمن هذه العناصر التى كان الأباطرة يعلقون عليها الآمال [١٣١]، غير أن خيبة الأمل لاحقت الأباطرة فى هذه النظرة، ذلك أنه فى وسط هذا الجو المتوتر المخيف

(130) Jones, Constantine, p. 11.
(131) Boak, op. cit. p. 400 .

اجتاحت الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية، هرع على أثرها الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلوات والدعوات، في الوقت الذي وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذي لا يعنيه الأمر، وظلوا كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة، يشجعهم على التمادي في ذلك زعماؤهم [132]، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التي وردت في النبوءات عن تدمير "بابل" وعودة المسيح [133].

وقد رأى الإمبراطور دكيوس في حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطني والوحدة القومية، فأصدر مرسوماً يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة روما بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها . ويلوح أنه لم يطلب إلى المسيحيين التنكر لدينهم، بل أمروا أن يشتركوا في التوسل إلى الآلهة التي طالما أنقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة [134]. وكان النجاح الظاهري لهذه الإجراءات واضحا جلياً فقد استسلم آلاف من المسيحيين ـ خاصة الطبقات الأرستقراطية ـ لقرارات الإمبراطور، هذا في الوقت الذي اختفى فيه كثيرون منهم، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والإعدام [135].

هكذا صدر أول مرسوم عام بالاضطهاد في محاولة للخروج من الأزمة الطاحنة، وكان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاماً في الإمبراطورية، بعد أن كان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلي [136]، وقد قتل في هذا الاضطهاد فابيانوس Fabianus أسقف روما، واسكندر Alexander أسقف أورشليم، وبابيلاس Babylas أسقف أنطاكية، كما عذب أوريجين السكندري وديونيسيوس Dionysius أسقف الإسكندرية، هذا بالإضافة إلى أعداد كثيرة

(132) Boak, op. cit, p. 400 .

(١٣٣) ديورنت : المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٧٧ .

(134) Lebretson & Zeiller, op. cit. II, pp. 793-797 .

(135) Id. ; Jones, Constantine, p. 44 .

(136) Thompson & Johnson, op. cit. p. 30.

أحرقت أو ألقيت لتفترسها الحيوانات في الاحتفالات والأعياد على حد روايات مؤرخي الكنيسة (١٣٧).

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١، غير أن سياسته سرعان ما عادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧ (١٣٨) . فنتيجة لأزمة أخرى بثت الرعب في نفوس الإمبراطور والرومان، تمثلت في الأخطار التي كانت تهدد الإمبراطور من كل ناحية، فالفرنجة والألمان وقبائل جرمانية أخرى تهدد الراين، والقوط يهددون شواطئ البحر الأسود وبحر إيجة، وثورات البربر في شمال أفريقيا لا تهدأ، والغزو الفارسي للولايات الشرقية سائر قدماً (١٣٩)، نتيجة لكل ذلك أمر الإمبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للأرباب، وحرم الاجتماعات المسيحية (١٤٠)، ثم قام باضطهاد المخالفين وإعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة (١٤١)، وتعرض أسقفا الإسكندرية في عهده ديونيسيوس وخلفه ماكسيموس لأشد أنواع الاضطهاد ونفياً إلى ليبيا (١٤٢) . وأنهى الإمبراطور فاليريان اضطهاده بوقوعه أسيراً في يد الفرس سنة ٢٦٠ .

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التي تم بها من الاغتيال والأسر وما شاكله – في نظر مؤرخي الكنيسة – انتقاماً عدلاً من الرب الذي كان لأعداء رعيته بالمرصاد،ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضرباً من ضروب الانتقام الإلهي (١٤٣) .

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت أربعين عاماً دخل الناس خلالها فيها أفواجاً، بعد أن أخذوا يفرون من أربابهم الذين لم يجدوا لديهم المأوى، والذين لم يستطيعوا حماية الدولة من أعدائها، ووجدوا السلوى في

---

(137) EVSEB, hist. Eccl. VI, 39-40.

(138) Boak, op. cit. p. 413.

(139) Lebretson & Zeiller op. cit. II, p. 801; Gibbon op. cit. I, p. 274-290 .

(140) Latourette, A History of Chistianity, pp. 88-89

(141) Jones, Constantine, p. 44

(142) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 11 .

(143) LACT. Mort. Pers. 2-6 EVSEB . hist . eccl. VI, 28,3940, VII, 13.

المسيحية أكثر مما وجدوها في غيرها ،ونتيجة لتحول عدد من الأغنياء إلى المسيحية، شيدت الكنائس الفخمة في كثير من المدن (١٤٤) . وترتب على ذلك أيضاً أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى، بل وأصبح المسيحيون حكاماً للولايات (١٤٥)، ووجد منهم أيضاً من يحتل مناصب عليا في البلاط الإمبراطوري (١٤٦) . وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كي تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلي، وأصبح التقليد العملي أن يجتمع أساقفة كل إقليم أو ولاية في عاصمتها بصورة منظمة، كما كان لأسقف العاصمة أو المطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته، وأخذ التنظيم الكنسي يميل إلى تشكيل نفسه على أسس مدنية، فأصبحت المدينة التي يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعي للاجتماعات الكبرى، وحصل أسقفها على سلطات واسعة في دائرة اختصاصه، فقد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لأفريقيا، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الإسكندرية مركزاً مرموقاً (١٤٧).

ولقد كان الإمبراطور جاللينوس صاحب الفضل الأول في بدء إقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية، ذلك أنه أصدر مرسوماً سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها، وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم (١٤٨). وذلك بعد أحد عشر عاماً من صدور مرسوم عام بالاضطهاد على يد الإمبراطور دكيوس، وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسي يوسيبيوس صورة رسالة موجهة من الإمبراطور إلى أسقف الإسكندرية وأسقف أنطاكية جاء فيها : " لقد أصدرت أمري بإغداق هباتي على كل العالم، وأن يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة (الخاصة بالمسيحيين) ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمري كي لا يزعجكم أحد " (١٤٩).

---

(144) Jones, Constantine, p. 44.

(145) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.

(146) Boak, op. cit. p. 423 .

(147) Jones, Constantine, p. 45 .

(148) Lebreton & Zeiller, op. cit. II, p. 806.

(149) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 13-15.

وهكذا أقدم الإمبراطور جاللينيوس على خطوة جريئة لم يسبقه إليها إمبراطور، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريوس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومى [١٥٠] يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية .

غير أن مرسوم جاللينوس لم يلق من العناية أو الاهتمام – من جانب الدارسين – ما لقيه أمثاله من المراسيم التى صدرت بعد ذلك، بل إن هذا المرسوم لم يؤخذ مأخذ الجد من جانب حكام الولايات، مما يدل على عظم نفوذهم فى هذه الفترة، ويعد هذا شيئاً طبيعياً فى وقت هوت فيه الإمبراطورية إلى درجة كبيرة من الفوضى والانحلال ضاعت معها سلطة الأباطرة . ويشهد على ذلك ما ذكره يوسيبيوس [١٥١] من أن ماكرينوس Macrinus والى مصر كان لا يزال صاحب نفوذ كبير، وقد تلكأ فى تنفيذ أوامر الإمبراطور مما أدى إلى مقتل مارينوس Marinus أحد رجال قيسارية فلسطين الشهيرين، وحتى الأباطرة أنفسهم الذين خلفوا جاللينوس لم يلقوا بالاً فى غمرة صراعاتهم الداخلية والأخطار الخارجية – إلى هذا المرسوم، فألمت على عهودهم بالمسيحيين بعض من اضطهادات .

وفى عام ٢٨٤ اعتلى دقلديانوس Diocletianus عرش الإمبراطورية، فولى ظهره لروما، تلك العاصمة الإمبراطورية التليدة، والتى أضحت منذ مدة طويلة غير ذات مقام للأباطرة، واتخذ من نيقوميديا Nicomedia بآسيا الصغرى عاصمة جديدة له، فأضحى بذلك على مقربة من التقاليد الهلنستية والأوتوقراطية الفارسية، فنهل من هذه وتلك فى سبيل إعادة شباب الإمبراطورية لإنقاذها من أزمة القرن الثالث الطاحنة.

تتلخص إصلاحات دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) فى تقرير بناء حكم مركزى

(150) Schaff, op. cit. II, p. 63.
(151) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 15 .

صارم، وإدخال نظام بيروقراطي واسع المدى، وأيضاً بفصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية، فأخذت الإمبراطورية بذلك تؤكد ما كانت قد بدأت تنحو إليه منذ زمن مبكر وهو مركزية السلطة (١٥٢) . ولما كان دقلديانوس قد أمضى من حياته فترة طويلة في نيقوميديا . وكان على العموم ميالاً للشرق، فإنه اقتبس كثيراً من سمات الملكيات الشرقية . لقد كان أوتوقراطياً صرفاً، وإمبراطوراً إلهاً متحلياً بالتاج الإمبراطورى، وجد البذخ الشرقى والطقوس الحافلة طريقاً إلى بلاطه، وكان على رعاياه إذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه، أن يخروا سجداً قبل أن تجرؤ عيونهم على أن ترمق صاحب الجلالة، فلقد كان لكل ما يخص الإمبراطور قداسة، كلماته، بلاطه، خزانته، إذ كان الإمبراطور نفسه مقدساً (١٥٣) .

وفي سبيل تنظيم الإدارة الإمبراطورية الشاسعة استحدث دقلديانوس نظام "الحكومة الرباعية" التي كانت تضم أوغسطسين لكل منهما سلطة مطلقة، يقيم أحدهما في الشرق – وكان ذلك هو دقلديانوس نفسه – والآخر في الغرب وهو ماكسيميان Maximianus . ويعين كل منهما قيصراً يحل محله عند وفاته أو اعتزاله وهما جالريوس وقسطنطيوس . وكان قصد دقلديانوس بذلك أن يفوت الفرصة على الفيالق الرومانية وتدخلها في اختيار الأباطرة، غير أن نظامه سرعان ما عصفت به الأنواء بعد اعتزاله بعام واحد.

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيراً من جراء اتهامه بالمسئولية الأولى في الإقدام على البدء بالاضطهاد الأخير والأعظم للمسيحيين، ومعلوماتنا عن هذه النقطة نستقيها من مصدرين هامين خلفهما لنا كاتبان مسيحيان عاصرا أحداث تلك الفترة .

فينبئنا يوسيبيوس أن الاضطهاد قد وقع في السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس (١٥٤) . أي عام ٣٠٣ . ويصور أسباب هذا الاضطهاد في صورة تحذير

(152) Vasiliev, History of the Byzantin Empire, 1, p.60 .
(153) Ibid. p. 62 .
(154) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 2.

إلهى لجماعة المسيحيين حتى يتطهروا من أدرانهم فيقول : " عندما سقطنا فى التراخى والكسل بسبب زيادة الحرية، وصرنا نحسد ونهين بعضنا بعضاً، والشعب يؤلف الأحزاب ضد الشعب، وبلغ الرياء والنفاق أعظم حدود الشر، فإن العدل الإلهى سمح بإزعاج الكنيسة " (١٥٥).

غير أن هذا القول لا ينقع غلة، فالذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من عبارة يوسيبيوس أنه يقصد بهذا القول ذلك النزاع العقائدى الذى نشأ بين الفرق المسيحية المختلفة، ولم يكن هذا الأمر يعنى الإمبراطورية فى شىء إلا الخوف من حدوث الشقاق والانقسام بين رعايا الدولة مما يهدد وحدتها. ولكن السلطة الإمبراطورية فى هذه الفترة كانت تنظر إلى المسيحية باعتبارها كلاً واحداً كطائفة قائمة بذاتها، بكل ما فيها من عناصر الاختلاف والفرقة حول المشاكل العقائدية التى لم تكن تعنى الدولة فى شىء، ومن ثم لا يمكن أن يكون النزاع العقائدى والخوف من مغبة الانقسام سبباً فى هذا الاضطهاد الدقلديانى . أما مسألة " العدل الإلهى " الذى سمح بإزعاج الكنيسة، فذلك شىء لا يفسر تماماً هذه الناحية . أما لاكتانتيوس وكان يقيم فى نيقوميديا آنئذ، فإنه يسوق حادثة طريفة كانت شرارة البدء فى هذا الاضطهاد، ذلك أنه حدث أثناء قيام الإمبراطور وقيصره جاليريوس بتقريب الأضحيات الإلهية ـ كسباً لرضاها ـ أن أراد استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للإمبراطورية، وتصادف وجود عدد من المسيحيين من موظفى البلاط أثناء ذلك الاحتفال وقد رسموا شارة الصليب ليتقوا بها كافة الشرور، فلما نحرت الأضحيات، وفحصت أكبادها لاستطلاع ذلك المجهول، عجز العرافون عن التنبؤ بشىء، فأعادوا الكرة ثانية دون جدوى، فارتعدوا وأعلن زعيمهم تاجيس Tagis أن ذلك راجع إلى وجود أفراد ملحدين فى الاحتفال . وهنا جن جنون دقلديانوس كما يروى لاكتانتيوس (١٥٦) ـ وأمر ـ ليس أولئك الموجودين فحسب، بل كل من يقيم فى القصر، بتقريب القرابين للأرباب، على أن يجلد أى

(155)EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.
(156) LACT. Mort. Pers. 10.

فرد يأبى ذلك، وسرعان ما صدرت الخطابات منه إلى قواده حاملة أوامره بوجوب تنفيذ الجنود جميعاً لهذه التعليمات وإلا تعرضوا للطرد من الخدمة نهائياً.

ويبسط لاكتانتيوس المسألة فى صورة غريبة حقاً، فهو ينفى عن دقلديانوس تهمة الرغبة الحقيقية فى إشعال نيران هذا الاضطهاد، ويعزوها كلية إلى قيصره جاليريوس، ويذكر أن هذا القيصر كان واقعاً تحت تأثير أمه التى كانت تتعلق بآلهة الجبال، وتضحى لها باستمرار، وحدث فى إحدى المرات أثناء تقريبها الأضحيات أنه لم يشترك معها أحد من أفراد أسرتها الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية، فتسلطت عليها روح شريرة ورغبة جامحة فى الخلاص من هؤلاء المسيحيين، ومن ثم أوحت إلى ابنها بذلك، فانتهز فرصة وجود دقلديانوس فى بيثينيا وعقد معه عدة اجتماعات ثنائية لم يحضرها أحد غيرهما، تناولت بالطبع شئون الإمبراطورية ومن بينها مشكلة المسيحيين هذه (١٥٧).

ويضيف مؤرخنا أن دقلديانوس عارض طويلاً إلحاح جاليريوس موضحاً له الضرار البالغ والاضطرابات التى سيشهدها العالم الرومانى، وكم من الدماء سيراق من جراء ذلك لأن المسيحيين – كما يعلم – سوف يقبلون على الموت غير مترددين، وأن ذلك لابد وأن يشمل عدداً كبيراً منهم سواء فى البلاط أو فى الجيش، ولكن دقلديانوس لم يستطع أن يكبح جماح ذلك الرجل العنيد، ومن أجل ذلك عزم على الأخذ برأى أصدقائه ومستشاريه، فدعاهم إليه وطرح المسألة أمامهم، فوقف عدد منهم ينادى بوجوب استئصال شأفة المسيحيين، أما الآخرون الذين كانوا يفكرون بطريقة مختلفة تماماً عن ذلك، وقد فطنوا إلى أغراض جاليريوس سواء بالخوف من إثارة غضبه، أو الرغبة فى إدخال السرور على قلبه – انضموا لأصحاب الرأى الأول. غير أن الإمبراطور مع ذلك لم يذعن وعزم على استلهام وحى الآلهة، فبعث من يأتى له برأى الإله أبوللو. الذى كانت إجابته على حد قوله لاكتانتيوس معروفة مقدماً كعدو للديانة المسيحية، وهكذا استميل دقلديانوس ولم يستطع مقاومة قيصره ومستشاريه وربه، وكان راغباً فى إتمام هذه الإجراءات

(157) LACT. Mort. Pers. 11.

بشيء من الاعتدال دون إراقة الدماء بينما أمر جاليريوس أن يحرق حياً كل من يرفض تقريب القرابين (١٥٨) .

تلك صورة يرسمها لاكتانتيوس للإمبراطور دقلديانوس، ويؤكد هذه المسألة بقوله إن الإمبراطور كان يخشى جاليريوس تماماً، ويقيم له كل اعتبار منذ قام ملك الفرس نارسيوس Narseus بشن حرب على الإمبراطورية يبغى من ورائها الاستيلاء على أقاليمها الشرقية، ولما كان دقلديانوس يخشى أن يشرب من كأس الأسر الذى تجرعه فاليريان من قبله، فقد بعث بجاليريوس لمقابلته، بينما قبع هو فى الأقاليم الشرقية، فلما انتصر جاليريوس ازداد دقلديانوس هلعاً منه وخشية(١٥٩).

إذن فالصورة التى رسمتها ريشة لاكتانتيوس توضح دقلديانوس رجلاً حذراً بصيراً بالعواقب، عندما راح يجادل جاليريوس الرأى حول النتائج الخطيرة التى ستنجم عن الإقدام على هذه السياسة، وما سيصيب الإمبراطورية من جراء ذلك من بالغ الضرر، ولكنه إلى جانب ذلك رجل مسلوب الإرادة، على حين قيصره جاليريوس ـ رغم كونه الرجل الثالث فى الإمبراطورية ـ الرجل الأقوى الذي ينفذ دائماً ما يبتغى وفي الوقت الذي يريد، وسنجد أن لاكتانتيوس يضرب بصفة مستمرة على أوتار الضعف لدى دقلديانوس عند مسألة الإقدام على إحراق كنيسة نيقوميديا، أو ازدياد العنف والصرامة فى مراسيم الاضطهاد، أو عند اعتزاله واختيار من يخلفه، ومن ثم يبدو جاليريوس المحرك الأساسى لهذه الأحداث جميعها، ولقد أقدم دقلديانوس ـ رغم علمه بخطأ ما هو عليه مقدم ـ على حرمان المعترفين بقانون الإيمان المسيحى من البقاء داخل جدران قصره، أو تحت النسر الرومانى فى جيشه، وكان ذلك بالطبع كريهاً إلى نفسه، كما يعتقد لاكتانتيوس، لسابق معرفته بما سوف يخسره الجيش والإدارة من جراء هذه السياسة .

ولكن هل يعقل أن رجلاً كدقلديانوس ذلك الإمبراطور القدير كما برهن عن نفسه دائماً فى سياسته، فعلى الرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً ماهراً على

(158) LACT. Mort. Pers. II.
(159) Ibid. 9.

غزار من سبقه من الأباطرة، إلا أنه كان يتمتع بمقدرة إدارية فائقة [١٦٠] . وهذا واضح خلال ثمانية عشر عاماً قضاها منذ بداية حكمه، حتى انفجار ذلك الاضطهاد، في إصلاح شئون الإمبراطورية وتنظيم أمورها وانتشالها من وهدتها التي ترددت فيها طيلة نصف قرن كامل أو يزيد [١٦١] . هل يعقل أن رجلاً هذا شأنه يلقي بقياد أمره ويستسلم ببساطة إلى لجاجة وإلحاح رجل آخر يعد صنيعته، وأحد أتباعه ؟ ويقدم على اتخاذ خطوات غاية في الخطورة كان يعلم هو مقدماً ما الذي ستؤدي إليه في داخل الإمبراطورية لا لشيء سوى أن قيصره أراد ذلك ؟

إذن فلنبحث عن شيء آخر يقودنا إلى حقيقة ذلك الأمر .

ونطرح المسألة في صيغة سؤال : ما الذي دفع دقلديانوس بعد ثمانية عشر عاماً لأن يغير سياسته تجاه المسيحيين ؟

لا يمكن القول مطلقاً أن إقدام الإمبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثورة جماهيرية غاضبة كما شهدناه يحدث مثلاً على عهدي دكيوس وفاليريان، فالأمور في الإمبراطورية كانت مستقرة بوجه عام في هذه الآونة سنة ٣٠٣، ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها، وكان دقلديانوس قد أعاد تنظيم الإدارة الإمبراطورية، والجيش الروماني، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة . وعلى ذلك لم يكن هناك غضب جماهيري يتأجج في صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لآخـــر .

كما أنه لا يمكن القول أيضاً أن هذا الاضطهاد جاء نتيجة لوحي إلهي تلقاه الكهنة وأبلغوه إلى الإمبراطور فأقدم على تنفيذه فالمسيحيون كانوا يحتلون كثيراً من المناصب العامة في الإدارة وحكومات الولايات والجيش والقصر الإمبراطوري ذاته، ولم يحاول دقلديانوس طوال الثماني عشرة سنة أن يستجيب لنداء كهنوتي صادر من الأرباب ضد هذه الجماعة .

(160) Cary, op. cit. p. 730.
(161) Boak, op. cit. p. 428.

ويعلل بوركهات [١٦٢] هذا التغير فى سياسة دقلديانوس باكتشاف مؤامرة بين المسيحيين ترمى إلى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة، ولكن بوركهات لا يعطينا فى نفس الوقت تبريراً معقولاً قاد المسيحيين إلى الثورة أو الإقدام على خيانة إمبراطور أبدى لهم من التسامح الكثير خلال فترة طويلة من عهده.بل إن ما يقوله بوركهارت لا يتفق مطلقاً مع العقل، إذ كيف يمكن أن يقدم المسيحيون على تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم وهم آنذاك لا يملكون أى قدر من مقومات هذه المؤامرة، فعددهم لم يكن قد وصل حتى إلى عُشر سكان الإمبراطورية، وهو العشر المستضعف الذى لا حول له ولا قوة، والجيش كله – دعامة الانقلاب– كان على الوثنية، وكبار موظفى الدولة كانوا كذلك . فكيف يمكن أن يدور بخلد نفر من المسيحيين يعملون فى القصر تدبير انقلاب للاستيلاء على السلطة ؟!

ويقدم آخر [١٦٣] تعليلاً ثانياً لذلك فحواه أن عدداً من موظفى القصر والخدم المسيحيين لدى دقلديانوس كانوا يخشون ما سيحدث لهم عقب خلافة جاليريوس للإمبراطور لما يعرفونه عنه من عداء للمسيحية والمسيحيين، وأنهم – على الأقل– إن لم تتلهم أيدى التعذيب فلا أقل من أن تمتد إليهم يد الطرد من الخدمة، وعليه فقد سعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافة العرش، ومحاولة الاحتفاظ بالعرش لشخص يرون فيه تعاطفاً مع المسيحيين، وربما قسطنطين الذى كان يقيم عندئذ فى بلاط دقلديانوس، وكان مكروهاً من جاليريوس كرهاً عميقاً، بل لقد ذهب الأمل ببعضهم إلى حد الاعتقاد بأنه يمكن تحويل دقلديانوس إلى المسيحية، والتأثير عليه بسهولة آنذاك لإقصاء جاليريوس عن عرش الإمبراطورية المتوقع . وعلى الرغم من أنه لم يكن يدور بخلد أى منهم شىء عن الغدر أو الخيانة، إلا أن تحركاتهم كانت كافية لإثارة الشك والارتياب لدى القيصر نفسه، والذى كان الأمر يهمه كثيراً .وكان أيضاً على علم تام بما يحمله المسيحيون له من حقد دفين، ومن ثم دفعه ذلك إلى أن يختلى بدقلديانوس فى شتاء سنة ٣٠٣ ويعقدا

(162) Burckhardt, The age of Constantine the great, pp. 250-251 .

(163) Mc Giffert, notes on (EVSEB. Hist. Eccl.) Nicene and N.P.N.F. 1, pp. 398-399

معاً اجتماعات سرية ومع تحركاته لدى الإمبراطور، ازداد خوف مسيحيي القصر في نياته، وهكذا نتصور أنه بينما كان جاليريوس يفتش عن الأدلة التي تثبت التآمر ضده، كان التآمر نفسه ينمو ويأخذ شكلاً معيناً - على الأقل في نفوس بعض الجسورين من المسيحيين، ونتيجة لذلك تجمعت الأدلة التي كانت كافية حتى لتقنع دقلديانوس نفسه بأن هناك بالفعل تآمراً، وأن المتآمرين مسيحيون ؛ ولعل ما ذكرناه عن الرأي الأول ينسحب تلقائياً على هذا الرأي .

ويضيف صاحب هذا الرأي أنه ارتفع في هذه الآونة لدى دقلديانوس سؤال عن الخطة التي سوف تتبع إزاء هذه الأحداث ؟ وقد نتج عن ذلك تلك الدعوة التي وجهت إلى مستشاري الإمبراطور وكهنة أبوللو كما أسلفنا . ويقول إن جاليريوس كان يرغب في إبادة المسيحيين عامة لعلمه بعداوتهم ضده، لكن دقلديانوس كان يريد معاقبة من اشترك في التآمر فقط، وعلى الرغم من أنه اقتنع أن المسيحيين عامة قد اشتركوا فيه، إلا أن قراراته الأولى في هذا الصدد تؤكد رغبته، فبدلا من إصدار مرسوم ضد المسيحيين عامة وجه دقلديانوس ضرباته أولاً إلى المسيحيين في الدوائر الحكومية والوظائف العامة والخدم في القصر الإمبراطوري، ولا شك أن هذه الإجراءات ليست إجراءات إمبراطور يضطهد لأسباب دينية [١٦٤].

خلاصة القول أن صاحب هذا الرأي يؤكد أن الأسباب التي دفعت دقلديانوس إلى هذا الاضطهاد كانت أسباباً سياسية وليست دينية [١٦٥] .

ويزيد الأمر تعقيداً ذلك الصمت من جانب يوساب، والتحفظ من ناحية لاكتانتيوس فالأول - كما قدمنا - يعلل المسألة تعليلاً دينياً صرفا ويضفي عليها طابع العدل الإلهي بعد أن فسد المسيحيون - على حد قوله - ولا يعطينا أي سبب واقعي لهذا الاضطهاد، على خلاف ما ذكره مثلاً عن الاضطهاد الذي وقع على عهدي دكيوس وفاليريان .

(164) Mc Griffert, op. cit. p.p. 398-399 .

(165) Id .

أما لاكتانتيوس فيسوق القصة التى أوردناها عما اعتقد أنه سبب كاف للاضطهاد ويقدم لها بقوله " لقد نما إلى علمي أن سبب غضبه (يعني دقلديانوس) كان كما يلى، ثم يورد القصة التي قدمناها . فإذا أضفنا تحفظ لاكتانتيوس إلي محاولاته المتكررة الدفاع عن دقلديانوس بتجريده من إرادته وتسليم قيادته إلى قيصره، أدركنا أنه ربما كان هناك دافع معين جدا بلاكتانتيوس إلى ذلك، خاصة وأنه كان يقيم فى نيقوميديا، وعلي مقربة من القصر الإمبراطورى، وذلك شئ يمكنه من أن يغدو شاهد عيان لتلك الأحداث وما يدور فى الخفاء .

قد يكون من معقول القول أن لاكتانتيوس كان يدافع عن دقلديانوس ـ ولا نقصد بالدفاع هنا وقوفه فى صفه وإنما محاولته نفى أو على الأقل تخفيف اتهامه بالمسئولية الكاملة عن هذه الاضطهادات – حفظاً لمعروف أسداه إليه دقلديانوس . ذلك أن الإمبراطور دقلديانوس كان قد استدعي لاكتانتيوس من أفريقيا وعيّنه معلماً للبيان في نيقوميديا، وكان هذا فى حد ذاته تقديراً للكاتب المسيحى الذى رأى أن يرد على الإمبراطور تلك اليد البيضاء، فحاول جاهداً إنصافه من التورط الكامل فى مسئولية الاضطهاد . ولعل هذا يبرر موقف كاتبنا .

لقد كان دقلديانوس خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة، وقد سعى جاهداً ليحقق ذلك ونجح فيه إلى حد كبير . وأصبحت الإمبراطورية كلها طوع أمره، وحتى شركاؤه كانوا صنائعه ورجاله، وهو صاحب القول الفصل فى كل الأمور، ومن خلال هذه السلطة التى مارسها تمكن من انتشال الإمبراطورية من حالة الضياع التى عايشتها طيلة نصف قرن وعرفت بأزمة القرن الثالث، ومن ثم لم يكن ليقبل مطلقاً انتقاص سلطانه بأى صورة من الصور . ولعل هذا يفسر لنا أنه لم يقدم على الاضطهاد إلا فى السنة التاسعة عشرة من حكمه لأنه لم يكن يتصور مطلقاً أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة، وكان يعتقد والقلق يملأ عليه كل نفسه أن النظام المسيحى على هذه الصورة سوف يؤدى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة

هذه السنوات فى سبيل وحدة الإمبراطورية وتقويتها [١٦٦] . ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشىء الكثير، وتشرب مبادئ الشرق الهلنستى والإمبراطورية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه، فقد سعى إلى تقليد تلك النظم وغدا الإمبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال . وأضحى السلطة المطلقة فى الإمبراطورية كلها، وبذلك كان يرى – كما يرى جاليريوس – أن المسيحية هى آخر العقبات القائمة فى سبيل هذه السلطة . وكان جاليريوس بالطبع يدرك ما تنطوى عليه نفس الإمبراطور من طموح وحب للسيادة المطلقة ونزعة طاغية للعظمة، فراح يزين له هذا السبيل، ولم يدع فرصة واحدة دون أن يضرب للإمبراطور على أنغام استكمال هذه العظمة وذلك السلطان الذى لن يتأتى إلا عن طريق إتمام الوحدة الدينية فى الإمبراطورية بالقضاء على المسيحية .

ولنضف إلى هذا سبباً على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن عدداً – وإن كان قليلاً جداً – من أفراد الجيش كان قد اعتنق المسيحية [١٦٧]، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصة بتقريب الأضحيات وإحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور وهو الإجراء الذى كان فى حد ذاته يعد دليلاً على الولاء للإمبراطور رأس الدولة – كما قدمنا – وأدرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة لو قدر لها أن تنتشر بين أفراد الجيش سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الإمبراطور، فما " الحكومة الرباعية " التى أنشأها لإدارة شئون الإمبراطورية إلا نظام قصد به القضاء على تلاعب الجيش بالأباطرة، فكيف يصبح الحال الآن والجند – بعد تحولهم إلى عقيدة جديدة – لا يكنون لقوادهم الوثنيين ولا لإمبراطورهم الوثنى كذلك أى عاطفة من الولاء ؟

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوسيبيوس [١٦٨] من أن الاضطهاد بدأ " بالأخوة الذين فى الجيش "، رغم أن عددهم كان قليلاً، ولكن الإمبراطور آثر أن يطفئ مستصغر الشرر منذ البداية قبل أن يشتعل .

(166) Cantor, op. cit. P. 43.

(167) Jones, Later Roman Empire , 1,p. 71.

(168) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 1.

على أية حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم أربعة صدرت ثلاثة منها فى عام ٣٠٣، ينص الأول على تدمير الكنائس المسيحية، وإحراق الكتب المقدسة، ويقضى الثانى والثالث بالقبض على كافة رجال الأكليروس بمختلف طبقاتهم وعدم الإفراج عنهم إلا بعد أن يقدموا القرابين لآلهة الدولة، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته(١٦٩) .

وقد أذيعت هذه المراسيم، وخاصة الثلاثة الأولى منها، فى الإمبراطورية كلها، غير أن تنفيذها لم يكن بنفس الدرجة فى الشرق والغرب (١٧٠)، فالأقاليم التى كانت خاضعة لدقلديانوس وجاليريوس بلغت الحال فيها حداً كبيراً من العنف، ونفذ ماكسيميانوس المراسيم الإمبراطورية فى إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا . أما قسطنطيوس Constantius قيصر غالة وبريطانيا فلم يأخذ المسألة مأخذ الجد الذى سارت به فى الشرق، وحتى لا يبدو فى صورة المعارض لرئيسه الإمبراطور فقد أمر بهدم حوائط الكنائس وبصورة تمكن من سهولة إعادة بنائها ثانية (١٧١) ويبدو أنه لم يلزم نفسه سوى بتنفيذ المرسوم الأول فقط، ولم يلق بالاً إلى بقية المراسيم، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قلة عدد المسيحيين فى أقصى الغرب الذى كان يسيطر عليه إذا ما قورن بالمسيحيين فى الشرق (١٧٢) .

ويخبرنا لاكتانتيوس (١٧٣) أن دقلديانوس وقيصره راحا يتبادلان الرأى حول إحراق كنيسة نيقوميديا التى كانت مواجهة للقصر الإمبراطورى واستقر رأيهما فى النهاية على هدمها خوفاً من أن يمتد النيران منها إلى الأبنية المجاورة التى تحيط بها، وسرعان ما سويت الكنيسة بالأرض .

وكان المسيحيون وقتئذ على قدر يستطيعون معه رد العدوان بمثله، فقامت

(169) Ibid. 2.

(170) Jones, Later Roman Empire I,p 72.

(171) LACT. Mort. Pers. 15.

(172) Boak, op. cit. p. 429.

(173) LACT. Mort. Pers. 12.

حركة ثورية في سوريا، وأضرمت النيران في القصر الإمبراطوري مرتين في مدة قصيرة، ويذكر لاكتانتيوس [١٧٤] أن جاليريوس هو الذي أرسل تابعيه لإحداث ذلك حتى يزيد من غضب الإمبراطور وسخطه على المسيحيين، الذين ردوا عليه بدورهم التهمة بمثلها، وكانت النتيجة أن ألقى القبض على عدد كبير من المسيحيين وقعوا تحت طائلة التعذيب حتى يعترفوا بارتكاب جريمة الحرق العمد[١٧٥] .

ويصف معلم البيان الأفريقي [١٧٦] الحالة بقوله " أصبح اضطهاد دقلديانوس الآن عاماً وشاملاً فقد بدأ بقهر ابنته فاليريا Valeria (زوجة جاليريوس)، وزوجته بريسا Prisca، وكانتا مسيحيتين على أن تقربا الأضحيات، كما ذبح أحد الخصيان الذي كان صاحب سطوة كبيرة في القصر، وسيق القسس والموظفون وعائلاتهم، وبلا اعتراف أو محاكمة، إلى القتل زمرا، أما الحرق حياً فلم يكن يفرق فيه بسبب جنس أو سن ولما كانت أعداد هؤلاء كبيرة فلم يكونوا يحرقون فرادى، بل كانت توقد لهم نار واحدة تضمهم جميعاً، وغصت السجون بمن فيها وارتاعت الإمبراطورية لهذه الويلات .

أما يوساب فيفصل المسألة تفصيلاً دقيقاً، ويذكر بإسهاب طويل صور التعذيب ووسائله، وأولئك الذين نالوا الشهادة من أجل الرب، أو نالتهم يد العذاب، ويكفينا فقط أن نقول هنا أنه أفرد لعصر دقلديانوس وحده الكتاب الثامن من تاريخه الكنسي، وعقد لشهداء فلسطين في هذه الفترة فصلاً خاصاً .

ونحن إذ نستقي معلوماتنا عن هذه الأحداث من كاتبين مسيحيين هما لاكتانتيوس ويوساب يجب أن نضع اعتباراً لموجة الحماس الجارف التي كانت تتملك على الكاتبين مشاعرهما، وهما يخطان للأجيال قصة الكنيسة المسيحية، وما كان يسيطر على أولهما من كره عميق تجاه هؤلاء المضطهدين، وما كان يختلج

(174) Ibid. 14 .
(175) Id .
(176) Ibid. 15.

فى نفس الثانى من شعور الاعتزاز والفخر للكنيسة المسيحية وتمجيدها وتقديس أرواح شهدائها، وليس بمستبعد إزاء هذا الشعور أن يكون المصدران على شىء من المبالغة، ولكنهما أيضاً يضمنان الكثير من الحقيقة.

على أية حال فإن الاتجاه العدائى السافر من جانب الإمبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية فى هذه الفترة بالذات جاء متأخراً جداً، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة عشر سكان العالم الرومانى . لقد أخفقت الدولة فى تحطيم الكنيسة[177] .

(177) Cantor, op. cit. p. 43 .

الفصل الثاني

الحروب الأهلية
وسياسة المتصارعين إزاء المسيحية

بدا لفترة ما أن نظام " الحكومة الرباعية " الذى أقامه دقلديانوس قد أضحى وطيد الأركان، ولكن هذا النظام لم يكن يعود فى ثباته إلى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعاً إلى سطوة الإمبراطور التي وضعت حداً لطموح شركائه [1]، ولم يستطع ذهن دقلديانوس أن يتصور أنه إذا كان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه إمبراطوراً لهم وسيداً، حيث كان ولى نعمتهم ، فلقد كان من الصعب على أحدهم أن يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس، طالما كانوا جميعاً شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والآخر لقب القيصر . فما إن ألقى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد أن تخلى دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح أولئك الرفاق وصراعهم، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عدداً .

ما إن تخلى الرفيقان عن السلطة الإمبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius إلى مرتبة الأوغسطس بدلاً منهما، أولهما في الشرق، وثانيهما فى الغرب . ولم يدع كاتبنا لاكتانتيوس هذه الحادثة تمر دون أن يعيد إلى الأذهان من جديد صورة ذلك النفوذ القوى الذى طالما نبه إليه متمثلاً في جاليريوس وهذا الضعف والانقياد بادياً فى دقلديانوس، فيدخل فى روعنا أن اعتزال كل من دقلديانوس وماكسيميانوس تم برغبة جاليريوس وتهديده، ويخبرنا أن الأخيـــر انتهز فرصة المرض الذى ألم بالإمبراطور وألح عليه بالاعتزال وضرب له مثلاً الإمبراطور نيرفا (٩٦-٩٨) ولكن الإمبراطور راح يستعطف قيصره مبدياً استعداده التام لأن يخلع عليه وزميله

(1) Cary,op. cit. p. 732.

قسطنطيوس لقب الأوغسطس إذا كانا يرغبان فى ذلك [٢] . غير أن جاليريوس كان يطمع في أن يحمل لقب " الإمبراطور " وحده، فرفض العرض وتعلل بأن النظام الذى أوجده الإمبراطور لابد أن يبقى حرماً لا ينتهك، ولكنه فى نفس الوقت جهر للإمبراطور بما يختلج فى نفسه من مشاعر كامنة قائلاً إنه لم يعد يحتمل البقاء فى مرتبة أدنى، وأنه قد ظل لفترة طويلة خلت كما لو كان منفياً فى الليريا وشواطئ الدانوب، ويجاهد دوماً البرابرة، بينما الآخرون يحكمون مناطق أكثر اتساعاً وأفضل مدنية [٣] . ولما كان دقلديانوس قد أتته رسالة من ماكسيميانوس تنبئه أن جاليريوس قد حشد جيشاً كبيراً ينتظر تلقى أوامر سيده، وأنه قد استحث على التخلي عن السلطة الإمبراطورية، ثم هاهو دقلديانوس نفسه يسمع الآن قالة قيصره أدرك أن هذا قد أعد للأمر عدته، فانفجر باكياً – ذلك الرجل الذى غدا بلا روح وخاطب، والدموع تنهمر من مآقيه، جاليريوس قائلاً : ليكن ما تريد "[٤].

ولكن يبدو أن دقلديانوس قد أدرك بعد ما أصابه من مرض أن حالته الصحية لم تعد تسمح له بتحمل أعباء الحكم فترة أخرى، ففضل الاعتزال تاركاً أعباء السلطة لخلفائه، وحتى لا يحدث نزاع ـ كما توهم ـ بين أولئك استحث زميله ماكسيميانوس على أن يحذو حذوه، ومما يرجح ما نذهب إليه ما يذكره لاكتانتيوس نفسه [٥] من أن الإمبراطور بعد أن دهمه المرض داخله شعور بأنه لم يعد يقوى على مهام الحكم، ويحتمل أيضاً أن يكون دقلديانوس قد نظر إلى مرضه كنوع من انتقام السماء ابتلاه به إله المسيحيين، ومن ثم أراد أن لا يتحمل أكثر من ذلك مسئولية الاضطهاد [٦] .

على أية حال فقد ارتقى جاليريوس وقسطنطيوس إلى مرتبة الإمبراطور، أولهما فى الشرق والثانى فى الغرب،وأصبحت المشكلة الآن تنحصر فى اختيار

(2) LACT. Mort. Pers. 18.

(3) Id.

(4) Id.

(5) Ibid. 17.

(6) Jones, Constantine, p. 56.

القيصرين الجديدين، ولقد كان هناك على الأقل اعتقاد بأن قسطنطين بن قسطنطيوس الذى كان يقيم الآن فى البلاط الإمبراطورى بنيقوميديا سوف يكون أحد هذين القيصرين، وكان هناك من الأسباب ما يبرر هذا الاعتقاد، فقد كان ابناً لأوغسطس الغرب (٧)، وكان قد أبدى نشاطاً عسكرياً على الدانوب (٨) واشترك فى الحملة التى قادها دقلديانوس إلى مصر (٩) . غير أنه لا قسطنطين ولا حتى ماكسنتيوس Maxentius بن ماكسيميانوس كانا بين المرشحين .

ومرة أخرى يأخذنا لاكتانتيوس ليطلعنا على ما يجرى وراء أستار القصر الإمبراطورى فى نيقوميديا، فيرسم صورة بزت ما قبلها، تكشف – فى رأيه طبعاً – عن مدى سطوة جاليريوس واستسلام دقلديانوس، وفى حوار رائع بديع وبأسلوب ساخر يرسم على الشفاة ابتسامة رقيقة، يبعث فى النفس حسرة على ذلك الإمبراطور المغلوب على أمره ! يوضح كاتبنا الطريقة التى تم بها اختيار القيصرين الجديدين فيقول : سأل دقلديانوس :

" والآن .. ما الذى يجب علينا أن نفعله ؟ " قال جاليريوس : " بالنسبة لماكسنتيوس فإنه لا يستحق هذا المنصب، فها هو بعد رجل عادى ومع ذلك يعاملنى باحتقار، فكيف به إذا ما غدا صاحب جاه ؟ – ولكن قسطنطين محبوب، ويتمتع بفضائل عديدة – وليكن ذلك . إلا إذا كانت رغباتى وقراراتى سوف لا يقام لها وزن، وأن هؤلاء الرجال يجب أن يعينوا بناء على اقتراحى، وسوف أختار أولئك الذين لا يخشون أحداً غيرى ولا يحركون ساكناً إلا بإيعاز منى – إذن .. فمن يا ترى يكون أولئك الرجال ؟ – سفروس Severus – ؟! ذلك الداعر الذى يواصل ليله بنهاره ولا يكاد يفيق ؟ – إنه يستحق المنصب . لقد أثبت جدارته كصراف ومورد للجيش، وقد بعثت به فعلاً ليتسلم السلطة من يد ماكسيميانوس – حسناً، لا اعتراض . وأى شخص آخر تفضل ؟ – هو ذاك . قالها جاليريوس

(7) C.M.H. I, p. 3.
(8) Jones, Contantine, p. 57 .
(9) EVSEB, Vita Const. I, 19.

مشيراً إلى دازا Daza ذلك الرجل القصير النصف بربرى وقد خلع عليه جاليريوس مؤخراً جزءاً من اسمه [١٠] ودعاه ماكسيمينوس Maximinus فأعاد بذلك نفس ما حدث عندما أنعم عليه دقلديانوس سابقاً بلقب ماكسيمينوس – من تراه يكون ذلك الذى ترشحه ؟ – إنه أحد أقربائى [١١] – يا للحسرة تأوه بها دقلديانوس، ثم أردف قائلاً، ولكنك اخترت أناساً لا يصلحون لهذه المهام الجسام . فاختتم جاليريوس حديثه قائلاً، إننى أثق فيهم"[١٢].

وفى حفل رسمى راح دقلديانوس وجاليريوس يعلنان للحاضرين ما تم عليه اتفاقهما، أو بتعبير أدق ما تم عليه قهر دقلديانوس حسب رواية لاكتانتيوس، ويصور لاكتانتيوس تلك اللهفة التى كانت فى أعين الناس بادية، ونظراتهم المركزة على قسطنطين، فقد كان الجميع يتوقعون اختياره، ولكن دقلديانوس وقف يخاطبهم جميعاً والعبرات تنحدر من عينيه مبيناً لهم أنه شعر بالحاجة إلى الراحة بعد هذا العناء الطويل، وأنه يتخلى عن الحكم ليضعه فى يد قوية أمينة تصونه وترعاه، ووسط هذا الجو " الدرامى " المتوتر أعلن دقلديانوس اختيار سفروس وماكسيمينوس دازا وعقدت الدهشة ألسنة الجميع، واعتقدوا أن قسطنطين لابد وأن يكون قد حمل لقب ماكسيمينوس، ولكن جاليريوس أزاح قسطنطين بيده وقدم للناس دازا ولم يستطع أحدهم أن ينبس ببنت شفة خوفاً من جاليريوس، وهكذا تم اختيار القيصرين الجديدين[١٣] .

ويعلق لاكتانتيوس على ذلك بقوله : " أما دقلديانوس فقد مر عبر نيقوميديا أشبه بجندى سرح من الخدمة وطرد إلى بلده، بينما غدا دازا، راعى الغنم، قائداً للجيش "[١٤].

ولما كنا قد عرضنا – فى الفصل الأول – لوجهة نظرنا فى الموقف الذى

---

(10) Galerius Valerius Maximinus

(11) Gibbon, op. cit. I, 327.

(12) LACT. Mort. Pers. 18.

(13) LACT. Mort. Pers. 19.

اتخذه لنفسه لاكتانتيوس إزاء دقلديانوس وجاليريوس، فإننا نضيف أن جاليريوس كان شديد الطموح . ولما كان زوجاً لابنة دقلديانوس وقيصراً له طيلة سنوات عديدة، فقد كان يتمتع لديه بنفوذ كبير، ومن ثم استطاع أن يستميله إلى تعيين هذين القيصرين، وقد كانا خير من يحققا أطماع جاليريوس وطموحه (١٥).

ولفترة قصيرة جداً اتخذت " الحكومة الرباعية الثانية " شكلها، فأخذ جاليريوس أوغسطس الشرق أقاليم Pontica, Asiana, Thrace, Moesia بينما أضاف قسطنطيوس – أوغسطس الغرب – أسبانيا إلى أقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا، أما سفروس فقد خصصت له إيطاليا وأفريقيا وبانونيا Pannonia، على حين حكم ماكسيمينوس المناطق الشرقية (مصر وسوريا) (١٦) . وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة أرباع الإمبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمينوس بالإضافة إلى دائرة نفوذه .وكانت الأحلام تداعب خياله عن الانفراد بحكم الإمبراطورية كلها بلا منازع، ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس (١٧)، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الإمبراطورية تحت سلطانه وحده، هما اختيار قسطنطين خلفاً لأبيه فى الغرب، والمناداة بماكسنتيوس إمبراطورا فى روما سنة ٣٠٦.

ذلك أن قسطنطيوس بعد أن غدا أوغسطس الغرب طلب إلى جاليريوس أن يبعث إليه بابنه قسطنطين الذى كان رهين البلاط الإمبراطورى فى نيقوميديا منذ أيام دقلديانوس . غير أن جاليريوس كان يتخوف من ذلك، فقد كان لديه آمال كبار يعلقها على وفاة أوغسطس الغرب، ومن ثم كان يخشى لحاق قسطنطين بوالده خوفاً من أن يخلفه فى منصبه، ولهذا فقد راح يسوف فى الأمر ويتلكأ فى إجابة مطلب قسطنطيوس، غير أنه أمام إلحاح الأخير سمح للابن بالرحيل، ولكن

(15) Gibbon, op. cit. I, p. 427 .
(16) Jones, Constantine, p. 56.
(17) LACT. Mort. Pers. 20.

لاكتانتيوس كعادته يسوق رجيل قسطنطين في صورة هروب جن معه جنون جاليريوس، فأمر فرسانه باللحاق به وإعادته ثانية دون جدوى ." فقد كانت ترعاه عناية الرب " (١٨).

أدرك قسطنطين والده في ميناء بولوني Boulogne وهو يستعد للعبور إلى بريطانيا (١٩)، وما إن أقر قسطنطيوس الأمور في بريطانيا حتى عاد إلى يورك Eburacum وهناك أدركته منيته في ٢٥ يوليو سنة ٣٠٦ (٢٠) . وبدا لبرهة وجيزة أن آمال جاليريوس قد أضحت حقيقة . ولكن ذلك لم يحدث (٢١)، ففي نفس اليوم أعلنت فيالق قسطنطيوس اختيارها لابنه قسطنطين أوغسطسا (٢٢) . ويجمع كل من يوسبيبوس (٢٣) . ولاكتانتيوس (٢٤) على أن قسطنطين أبى أن يحمل هذا اللقب آنئذ، وراح يحاول تدعيم مركزه لما كان يعلمه من قوة جاليريوس الذي أصبح الآن الإمبراطور السيد (٢٥) . فأرسل إليه قسطنطين يطلب الاعتراف به، وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظاً لما اعتبره اغتصاباً للسلطة من جانب قسطنطين، إلا أنه آثر قبول سياسة الأمر الواقع . فاعترف بقسطنطين

---

(١٨) يقــول لاكتانــتيوس : " ذات مساء، وأمام إلحاح قسطنطيوس ورسائله المتكررة لم يجد جاليريوس بدا مــن الموافقــة على سفر قسطنطين فأذن له بذلك على أن يعطيه في الصباح الرسائل الإمبراطورية الخاصــة بذلــك . ولكنه كان يضمر الشر في نفسه، عله يجد سبباً يمنع به قسطنطين من الرحيل، أو يأمــر سفروس بالقبض عليه أثناء الطريق، غير أن قسطنطين أدرك ما يجول بخاطر جاليريوس، فما إن أوى الإمــبراطور إلى فراشه بعد العشاء حتى انتهز قسطنطين الفرصة وهرب . وفي اليوم التالي وعــند الظهيــرة اســتدعى جاليريوس قسطنطين ولكنه علم بهروبه، فجن جنونه، وأمر بالبحث عنه والــلحاق به، ولكن دون جدوى، فلم يستطع جاليريوس إلا بشق الأنفس أن يحبس الدموع ". انظر: LACT. Mort. Pers. 24.

(19) EVSEB. Vita Const . I, 21.

(20) Jones, Constantine, p. 58 .

(21) Cary, op. cit. p. 372.

(22) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.

(23) EVSAB. Vita Const. I, 22; hist. Eccl. VIII, 13.

(24) LACT. Mort. Pers. 25 .

(25) Jones, Constantine, p. 59 .

قيصراً وليس إمبراطوراً، بينما أنعم على سفروس بلقب الإمبراطور، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية إلى الرابعة [٢٦] وهكذا، ولزمن يسير، عادت الحكومة الرباعية من جديد، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أوغسطس، بينما استحوذ كل من ماكسيمينوس وقسطنطين على مرتبة القيصر. ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب " المتواضع " انتظاراً لما تأتى به الأيام [٢٧].

غير أن ثورة شبت فى نفس العام ٣٠٦ فى روما، قام بها الحرس البريتورى، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميانوس إمبراطوراً فى ٢٨ أكتوبر، وبدا أن إيطاليا كلها قد أضحت فى قبضة ذلك المغتصب [٢٨]. وقد سعى ماكسنتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به، وسمى نفسه على عملته عندئذ "الأمير الذى لا يقهر" [٢٩]. وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع، وملأ الكره قلبه نحو ماكسنتيوس، الذى كان زوجاً لابنته، ولما لم يكن هناك مكان لقيصر ثالث، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب [٣٠]. وترجع هذه الثورة التى أتت بماكسنتيوس للعرش إلى ما أقدم عليه سفروس من إجراء تعداد للسكان فى إيطاليا وروما مما سبب سخطاً وتذمراً بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب [٣١]. وإن كان لاكتانتيوس يحمل جاليريوس مسئولية ما أقدم عليه سفروس [٣٢]، وإزاء ذلك أرسل جاليريوس إلى سفروس يستحثه على استعادة سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة ماكسنتيوس، ووضع تحت إمرته ذلك الجيش الذى كان ماكسيميانوس يرأسه من قبل [٣٣] وكان على ماكسنتيوس أن يستعد لمواجهة هذا التحدى فبعث إلى أبيه

(26) LACT. Mort. Pers. 25.
(27) Jones, Constantine, p. 59.
(28) Burckhardt, op. cit. p. 265.
(29) Jones, Constantine, p. 59.
(30) LACT. Mort. Pers. 26.
(31) Jones, Constantine, p. 59.
(32) LACT. Mort. Pers. 26.
(33) Id.

ماكسيميانوس يطلب إليه العون، محيياً إياه ثانية بلقب " الأوغسطس "، واهتبل الأب، الذى كان قد تخلى كارهاً عن السلطة مع دقلديانوس، الفرصة وعاد من جديد إلى ارتداء العباءة الإمبراطورية [٣٤] . وهكذا أصبح في الإمبراطورية أباطرة أربعة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميانوس، وقيصران هما ماكسيمينوس وقسطنطين .

تقدم سفروس بقواته ميمماً شطر روما، وكان عليه أن يواجه خصماً عنيداً، فماكسنتيوس كان قد أعلن نفسه أوغسطساً، وضم إليه إفريقيا وأسبانيا، وضمن أيضاً تعضيد والده . وسرعان ما فعل اسم ماكسيميانوس فعل السحر، لا في نفوس جنود ولده فحسب، بل في أفئدة قوات سفروس نفسه [٣٥]، فما لبثت هذه القوات – التى كان معظمها تحت قيادة ماكسيميانوس من قبل، أن تخلت عن سفروس وانضمت إلى أعدائه [٣٦] . فلم يجد سفروس أمامه بدا من التحصن في رافنا Ravenna غير أن ذلك لم يحمه من القتل [٣٧] .

وقد خشى ماكسيميانوس، الذي كان يعلم مزاج جاليريوس الجامح مغبة ذلك الأمر، وجالت بخاطره أفكار هيأت له أن جاليريوس لابد وأن يمتلئ حنقاً لمقتل سفروس وأنه لا يلبث حتى يسير إلى إيطاليا في قوات ضخمة لقتاله، ومن ثم شرع يعد للأمر عدته [٣٨] .

كان على ماكسيميانوس أن يبحث عن حليف جديد يقف إلى جواره في صراعه المرتقب مع جاليريوس، ولا يمكن أن يكون هذا الحليف بالطبع ماكسيمينوس قيصر الشرق، فقد كان تابعاً أميناً لجاليريوس، ولذلك اتجه طبيعياً إلى قيصر الغرب قسطنطين، فارتحل ماكسيميانوس إلى غالة ليعرض على القيصر

(34) LACT. Mort. Pers. 26.
(35) Jones, Constantine, p. 60.
(36) Burckhardt, op. cit. p. 265 .
(37) LACT. Mort. Pers. 26.
(38) LACT. Mort . pers. 27.

صداقته، وليقدم له عربوناً على هذه الصداقة يد ابنته فاوستا Fausta [39] ولقب الأوغسطس [40] . ولقد كانت لحظة حرجة تلك التى كان يمر بها قسطنطين، فجاليريوس هو الأوغسطس الشرعى السيد الآن للإمبراطورية، وهو الذى منحه لقب القيصر قبل ذلك . ولكن قسطنطين كان يعلم أيضاً أن جاليريوس وافق على إعطائه لقب القيصر مرغماً أمام الأمر الواقع، وأنه ليس من المستبعد أن يقدم جاليريوس على سحبه منه ثانية عندما تواتيه الفرصة، ثم هاهو ماكسيميانوس، الذى كان ادعاؤه للسلطة الآن غير شرعى، إلا أنه يحمل قانوناً لقب الأوغسطس يعرض عليه لقب الأوغسطس ويد ابنته . ولقد قبل قسطنطين العرض[41]، ومع أنه لم يقدم على عمل عدائى جدى ضد جاليريوس، إلا أن انضمامه علانية إلى جانب ماكسيميانوس يعد تحدياً صريحاً له.

جهز جاليريوس قواته، وتقدم إلى إيطاليا مولياً وجهه روما، وقد عزم على أن يؤدب السناتو، وأن يضع تحت السيف أولئك الثائرين الرومان [42] . ولكن حملة جاليريوس لم تكن أسعد حظاً من تلك التى شنها سفروس، فماكسيميانوس كان قد حصن روما تحصينا قوياً، كما أن قوات جاليريوس لم تكن كافية لحصار المدينة[43]، ولما كان جاليريوس يشك فى ولاء قواته [44] . فقد أسرع بالإنسحاب ثانية دون انتظام، وخوفاً من أن يلحق به عدوه، فقد أباح لجنوده أن يخربوا كل المناطق التى يمرون بها أثناء تراجعهم، فعم الدمار بذلك كل أراضى إيطاليا الشمالية [45] . هكذا فشلت حملة جاليريوس . وكان من نتيجة هذا الفشل أن دار الصراع الآن سافراً بين ماكسيميانوس وابنه ماكسنتيوس . فبينما أراد الأب أن ينفرد بالسلطة دون ابنه، رفض الولد أن يشاركه أبوه السلطان، وعلى الرغم من أن

(39) Id.

(40) Gibbon, op. Cit. I, p. 437.

(41) Jones, Constantine, p. 60.

(42) LACT. Mort . pers. 27.

(43) Id.

(44) Jones, Constantine, p. 61.

(45) LACT. Mort . pers. 27

ماكسيميانوس أهان ولده أمام جحافل الجنود، ومزق عنه رداءه الإمبراطورى، إلا أن الجنود أيدت ماكسنتيوس وأجبرت ذلك الشيخ الفانى على الفرار خارج روما(٤٦) . فلم يجد ملجأ له إلا صهره قسطنطين فارتحل إلى غالة ثانية، وأكرم قسطنطين وفادته .

ويحتمل أن يكون هذا الشاب الذى كشفت بعد ذلك الأحداث عن طموحه الفياض، قد رأى فى ماكسيميانوس ورقة رابحة يستغلها لتحقيق أغراضه التى كان يسعى إليها فى حذر، فماكسنتيوس كان قد استولى على أسبانيا التى كانت قد خضعت لقسطنطيوس قبل وفاته سنة ٣٠٦، ثم هاهو يسيطر الآن على إيطاليا وأفريقيا، ولابد أن يكون قسطنطين قد أدرك أن فى اتساع نفوذ ماكسنتيوس تهديداً خطيراً لسلطانه، ومن ثم راح يسعى لتقوية مركزه، ولئن كان ماكسيميانوس حليفاً خالى الوفاض إلا أن قسطنطين قد رأى على الرغم من ذلك أن يفيد منه فى صراعه المحتوم ضد ماكسنتيوس .ولئن كانت الأحداث قد خيبت فأل قسطنطين حيث تمرد عليه ماكسيميانوس نفسه بعد ذلك إلا أنه بسياسته هذه قد ضمن عدم تأييد الأب لابنه، أو تحالفهما معاً ضده .

شغر منصب " الأوغسطس الثانى " الشرعى بمقتل سفروس، فعين جاليريوس رفيق السلاح ليكينيوس Lieinius أوغسطساً، وعهد إليه بإقليم بانونيا Panonia حتى يمكن استعادة الأقاليم المغتصبة من قبضة ماكسنتيوس، تم ذلك فى مؤتمر عقد فى سنة ٣٠٧ (٤٧) وحضره دقلديانوس، الذى كان يعيش فى عزلة منذ تخليه عن منصبه، وماكسيميانوس الذى كان قد ارتحل من غالة، وجاليريوس، ولكن هذه الخطوة من جانب الأخير لم تؤد إلا إلى امتعاض ماكسيمينوس الذى رأى فى ارتقاء ليكينيوس مرة واحدة إلى منصب الإمبراطور، إهانة له، فطلب إلى جاليريوس منحه لقب الأوغسطس .ولكن جاليريوس حاول إيجاد حل وسط لهذه الفوضى التى أخذت تعبث بالإمبراطورية، فأنعم على القيصرين ماكسيمينوس

(46) Ibid. 28.
(47) Burckhardt, op. cit. 265.

وقسطنطين بلقب "أبناء الأباطرة " [٤٨] . غير أن ماكسيمينوس لم يقنع بذلك، كما أن قسطنطين الذى كان يحمل لقب الأوغسطس منذ منحه إياه ماكسيميانوس، شارك ماكسيمينوس رفضه، فلم يجد جاليريوس بدا من الإذعان لذلك،فمنحهما سنة ٣٠٨ لقب الأوغسطس [٤٩]، وهكذا أصبح فى الإمبراطورية ستة أباطرة هم جاليريوس، ليكينيوس، ماكسيمين، قسطنطين، ماكسنتيوس، ماكسيميانوس، لكل منهم إقليمه الذى يحكمه صغر هذا الإقليم أو كبر، إلا ماكسيميانوس فقد كان إمبراطوراً بلا أرض، وأميراً بلا ناس، ولم يجد أمامه ثانية إلا الذهاب إلى غالة حيث صهره قسطنطين، ولكنه فى هذه المرة قد تأبط شراً، فقد جاء وفى نيته الاستيلاء على السلطة من صهره [٥٠] . وظل يتحين الفرصة لبلوغ مأربه، وعلى الرغم من أن قسطنطين وزوجته فاوستا لقيا ماكسيميانوس بترحاب واحترام [٥١] إلا أنه كان يدرك فى قرارة نفسه أنه لم يعد صاحب فضل على قسطنطين بعد أن أصبح هذا إمبراطوراً شرعياً بعد قرار جاليريوس .

وقد واتت ماكسيميانوس الفرصة فى ربيع سنة ٣١٠ عندما ثارت بعض قبائل الفرنجة التى كانت تحتل الضفة الشرقية للراين قبالة كولونى Cologne ويروى لاكتانتيوس [٥٢] هذه الأحداث فى شكل خدعة من جانب ماكسيميانوس أراد بها القضاء على صهره، فقد نصحه ألا يصطحب معه عدداً كبيراً من جنوده بحجة أن قوات قليلة العدد كافية لإخماد هذا التمرد، وكان يريد بذلك تحقيق هدفين، هزيمة قسطنطين ومقتله على يد تلك القبائل الثائرة والاستفادة بالجزء الثانى من جيش قسطنطين لتحقيق أغراضه في استعادة منصبه الإمبراطورى، ويمضى كاتبنا قائلاً إن قسطنطين قد أصغى طائعاً إلى هذه النصيحة دون أن يتسرب الشك إلى نفسه في نيات صهره " الوفى "، هذا بالإضافة إلى أن قسطنطين كان يعتقد أن لماكسيميانوس من الخبرة العسكرية والتجربة ما يفوق تجربته وخبرته .

(48) LACT. Mort. Pers. 32.
(49) Id.
(50) Ibid. 29 .
(51) Gibbon op. cit. p. 441.
(52) LACT. Mort. Pers. 29 .

غير أن قصة على هذا النحو لا يمكن قبولها على علاتها، فقسطنطين لم يكن غافلاً عن طموح ماكسيميانوس ورغبته الجامحة في استعادة سلطانه . وكان يدرك أن ماكسيميانوس ما جاء هذه المرة، إلا وقد اعتزم أمراً بعد أن فوت عليه جاليريوس ودقلديانوس الفرصة في مؤتمر عام ٣٠٧، كما أن قسطنطين لم يكن بأحب لماكسيميانوس من ابنه ماكسنتيوس الذى حاول والده أن ينتزع منه السلطة قبل ذلك، أضف إلى هذا أن ذكاء قسطنطين وخبرته العسكرية مع الجرمان على شواطئ الدانوب على عهد دقلديانوس والحملات العسكرية التى خاضها عقب وفاة أبيه لتثبيت سلطانه فى غرب الإمبراطورية قد أعطته صورة واضحة عن مدى قوة هذه القبائل، وما يجب عليه اتخاذه إزاءها من احتياطات واستعدادات عسكرية .

مكث ماكسيميانوس غير بعيد عقب ارتحال قسطنطين بقواته إلى ضفاف الراين، ثم أعلن فجأة عن ارتدائه العباءة الإمبراطورية، واستولى على الخزانة العامة، ونفح الحامية التى خلفها قسطنطين وراءه كثيراً من المال، ولما تأكد لديه أن قسطنطين قد قارب كولوني أشاع نبأ وفاته [٥٣]، غير أن ماكسيميانوس أخطأ فى تقدير قوة خصمه، ومدى ولاء الجنود له، فما إن وصلت الأنباء إلى كولونى حتى عاد قسطنطين مسرعاً عن طريق الساءون Saone والرون Rhone وحط رحاله أمام آرل Arles حيث كان ماكسيميانوس [٥٤] ولما لم يكن هذا قد أكمل بعد استعداداته لتلقى هذا الهجوم المباغت فقد أثر الهروب إلى مرسيليا Massilia، ولكن قسطنطين لحق به، ولم يلبث أهلوها أن أسلموا ماكسيميانوس ليد قسطنطين، ولكن الأخير أبقى على حياته [٥٥] .

ومن المحتمل أن يكون قسطنطين قد أقدم على هذا العفو لعدة احتمالات نؤثرها، فقد كان يوقن أن ماكسيميانوس قد أمسى رجلاً لا يخشى بأسه بعد أن تحطمت كل آماله، وهزم هذه الهزيمة الأخيرة، وأنه بهذا التسامى والترفع عن قتله

(53) LACT. Mort. Pers. 29 .
(54) Gibbon, op. cit. I, 442.
(55) LACT. Mort. Pers. 29 .

يستطيع أن يمنّ عليه بهذه اليد العليا مستغلاً إياه، كما أسلفنا ورقة رابحة في صراع حتمي ضد ماكسنتيوس، يضاف إلى ذلك أن قسطنطين لم يكن يريد في هذه الظروف التي يمر بها، محاولاً توطيد سلطاته في المناطق الخاضعة له، فتح باب الصراع، أو على الأقل تعجله مع ماكسنتيوس، ومن ثم أراد أن يحرم ماكسنتيوس فرصة قد يتخذها ذريعة لشن الهجوم عليه إذا ما أقدم على قتل والده كما حدث بعد ذلك عندما طالب ماكسنتيوس بثأر أبيه من قسطنطين، وإن لم يكن أباه يعنيه بقدر ما كان يعنيه تحطيم قسطنطين .

وفي صورة درامية عنيفة ينهي لاكتانتيوس حياة ماكسيميانوس، فيذكر أنه تنكر لهذا المعروف الذي أسداه إليه قسطنطين وراح يحيك المؤامرات ضده، وحاول أن يجر معه ابنته فاوستا في هذا السبيل، ولكنها أفضت إلى زوجها بذلك، وتم اكتشاف المؤامرة وإحباطها في مهدها وأعدم ماكسيميانوس سنة ٣١٠ [٥٦] . ولعل هذه الصورة التي رسمها لاكتانتيوس عن ماكسيميانوس قد أوحت إلى أحد المؤرخين المحدثين إلى القول بأن الرواية الشائعة عن المعاملة السيئة التي يلقاها الزوج من أم زوجته لا يمكن أن تقارن بما فعله ماكسيميانوس إزاء زوج ابنته[٥٧] .

ولم يكد يمضي على هذه الأحداث عام حتى مات جاليريوس (مايو ٣١١) بعد أن دهمه المرض فترة طويلة، فأعطى موته إشارة البدء في ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة - فقسطنطين كان يسود غالة وبريطانيا، بينما كان ماكسنتيوس يحكم إيطاليا وإسبانيا وأفريقيا، أما ليكينيوس فخضعت له الليريا وبلاد اليونان وتراقيا، على حين اختص ماكسيمينوس بكل ما يقع وراء البسفور من

(٥٦) تتلخص قصة المؤامرة التي يرويها لاكتانتيوس في أن ماكسيميانوس طلب إلى ابنته فاوستا أن تترك باب غرفة زوجها مفتوحاً أثناء نومه حتى يتمكن من الدخول واغتيال قسطنطين بيده . وقد تظاهرت فاوستا بالموافقة ثم أنبأت زوجها بالأمر، فاتخذ من الاحتياطات ما يكفي لوقوع ماكسيميانوس في يده . وقد استطاع هذا الأخير أن يتخطى الحرس بإيهامهم أنه يريد أن يفضي إلى الإمبراطور بحديث هام. ولكن قسطنطين استطاع أن يباغته بخاصة حرسه وأن يلقي عليه القبض ويجبره على إعدام نفسه . راجع : LACT. Mort. Pers.30

(57) Richardson, introduction to (EVSEB.Vita Contst.) Nicene and P.N. F. I, p. 413.

الأراضى الآسيوية ومصر [٥٨] . وقبل أن نشهد هذا الصراع العنيف يجدر بنا أن نتوقف بعض الشىء لنتعرف على سياسة جاليريوس إزاء المسيحية .

كان جاليريوس يكن للمسيحية والمسيحيين كبير عداء، منذ كان قيصراً على عهد الإمبراطور دقلديانوس ، فلما اعتلى عرش الإمبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه فى الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ماكسيميئوس فى سوريا وفلسطين ومصر [٥٩] . ففى سنة ٣٠٦ أعدت قوائم وألزم الأفراد جميعاً بتقديم القرابين، وفى سنة ٣٠٨ صدرت الأوامر لرؤساء المدن والموثقين الذين يحتفظون لديهم بسجلات التعداد بتنفيذ المرسوم السابق الذكر [٦٠] . وإمعاناً فى تنفيذ هذا الأمر وضع الحراس على أبواب الحمامات العامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات [٦١] ويصف لاكتانتيوس الحالة بقوله : " لقد راح جاليريوس يضطهد المسيحيين ويتفنن فى وسائل التعذيب والاضطهاد " ويعطى كاتبنا صوراً فظيعة من هذا التعذيب الذى كان يلقاه المسيحيون [٦٢] . ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه إلى كل شئون الحياة، " فتوقفت دواليب العمل وأهملت سيادة القانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخطباء. لقد تملك حكومة جاليريوس – على حد قول لاكتانتيوس – مس من الشيطان [٦٣] . ومما زاد الطين بلة تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينة، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصون كل شىء، الناس والشجر والدواب، وأجبر العبيد على أن يفصحوا عما يخبئه أسيادهم، وعذبت النساء حتى يعترفن بما لدى أزواجهن، ولم يفلت من هذا العذاب شيخ ولا طفل ولم ينج منه مريض ولا ضعيف . لقد كان ذلك أشبه شىء بما يفعله قائد منتصر بخصيم دارت عليه

(58) C.M.H. I, p.3.
(59) Gibbon op. cit. p. 140.
(60) Jones, Later Roman Empire, I, p. 72.
(61) Jones, Constantine, p. 68.
(62) LACT. Mort. Pers. 21 .
(63) LACT. Mort. Pers. 22 .

الدائرة"(٦٤) . هذا حسب ما يرويه لاكتانتيوس وإن كنا قد نبهنا إلى المبالغة التى تخالط كتابات مؤرخى الكنيسة في هذا المجال بالذات .

غير أن جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ أبريل سنة ٣١١ بمرسوم أصدره جاء فيه :

" كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظاً على الصالح العام ما سبق أن أبدينا من الرغبة فى رد الأوضاع إلى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم إلى حالة طيبة، لأنه قد تملكهم الكبر إلى حد، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم، وأقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة . ولما أصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم إلى نظام الأقدمين خضع الكثيرون أمام التحدى، ولكن عدداً ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة السماء ما يليق بها من عبادة، فإن محبتنا وما ألفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا إلى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضاً، حتى يعودوا إلى مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام . وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه . وبناء على ذلك يجب عليهم أن يضرعوا لإلههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب، لكى يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام، وحتى يحيوا فى ديارهم آمنيـــن " (٦٥) .

وقد أذيع هذا المرسوم فى نيقوميديا، وعلى أثره فتحت أبواب السجون وخرج منها من كان بها، غير أن هذا المرسوم لم يؤت ثمرته المرجوة، ذلك أن جاليريوس ما لبث أن مات بعد ذيوعه بأيام قلائل (٦٦) .

(64) Ibid. 23.

(65) EVSEB. Hist. Eccl VIII, 17; LACT. Mort. Pers. 34.

(66) LACT. Mort. Pers. 35 .

ويتفق لاكتانتيوس [٦٧] ويوسيبيوس [٦٨] على أن الباعث الأصلى لصدور هذا المرسوم هو ذلك المرض الذى دهم جاليريوس،، فاعتقد أن إله المسيحيين قد انتقم منه بهذا الداء . ومن ثم أراد أن يخفف عن رعاياه ويلات هذا الاضطهاد، ولكن ذلك فى رأى الكاتبين لم ينج جاليريوس من انتقام الرب العدل !

ومما يلفت النظر فى هذا المرسوم أن ديباجته تضمنت صدوره عن الأباطرة الثلاثة جاليريوس وليكينيوس وقسطنطين . فى الوقت الذى خلا فيه من اسم ماكسيمينوس، ولعل فيما يذكره يوسيبيوس فى تاريخه الكنسى [٦٩] خير تعليل لذلك، حيث يذكر أن ماكسيمينوس لم يكن راغباً في أن يضع إسمه على وثيقة هو عنها غير راض، حيث استمر يمارس الاضطهاد مع المسيحيين . أما ماكسنتيوس فكان إمبراطوراً غير معترف به من أى من أولئك الأباطرة . ولا يعنى صدور المرسوم التزام الأباطرة الثلاثة جميعاً به، فلم تمهل الأيام جاليريوس حتى يشرف بنفسه على تنفيذه . أما الآخران فقد اختلفت سياستهما قبل المسيحيين .

وعبارة المرسوم " على شريطة ألا يقوموا بعمل ضد النظام العام " قد تبدو غامضة وليس من السهل تحديد مدلولها حتى يمكن معرفة تلك الأعمال التى تتعارض والنظام العام، ويبدو أن المرسوم لم يوضح ذلك اعتماداً على ما ذكره جاليريوس من أنه سينهى فى رسالة إلى عماله ما يجب عليهم اتباعه، ولكن هذه الرسالة ضاعت للأسف [٧٠] . وإن كان يمكن القول إن هذه الأعمال تتلخص فى موقف المسيحيين العام إزاء الدولة على النحو الذى عرضنا له فى الفصل الأول .

على أن المرسوم فى حد ذاته يعد اعترافاً صريحاً من جانب جاليريوس بما أقدم عليه من تحديات للمسيحيين، وفى نفس الوقت يعتبر دليلاً واضحاً على فشل سياسة الاضطهاد التى سار عليها، وذلك يبين مما جاء فى المرسوم من أن كثيرين

(67) Ibid. 33.
(68) EVSEB. Hist. Eccl VIII, 17
(69) EVSEB. Hist. Eccl. IX, 1.
(70) Ricahardson, op. cit. N. 9 p. 340.

رفضوا الإذعان لأوامر الإمبراطور، ولما كانت هذه السياسة قد استمرت قرابة ثمان سنوات (٣٠٣-٣١١) دون أن يبدو لها في الأفق أي بادرة من بوادر النجاح، فقد أدرك جاليريوس مدى خطورة هذه السياسة والنتائج المترتبة عليها بالنسبة لقوة الإمبراطورية ووحدتها، خاصة إذا علمنا أن جاليريوس قد ركز ضرباته ضد أولئك الجنود المسيحيين في الجيش [٧١].

ويقول المؤرخ جيبون [٧٢] تعليقاً على هذا المرسوم " لا يحسن بنا أن نبحث عن حقيقة الشخصيات التاريخية أو الدوافع الكامنة من منطوق المراسيم والبيانات، ولكن ما دامت هذه كلمات إمبراطور يحتضر فإنه يجوز لنا قبولها دليلاً على صدقه وحسن نيته " .

صدر هذا المرسوم في ٣٠ أبريل ٣١١، ومات جاليريوس في مايو بعد أن تمكن منه المرض، ولكن يوسيبيوس يزعم أن جاليريوس قد خفت عنه شيئاً حدة المرض فعاود اضطهاد المسيحيين قبل أن تعاجله منيته [٧٣] . خلاصة القول أن مرسوم ٣١١ لم ينفذ تماماً في كل أرجاء الإمبراطورية نتيجة الأحداث التي أعقبت وفاة جاليريوس مباشرة .

فما إن تلقى ماكسيمينوس نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه في الشرق، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالي إلى صفه فأمر بإلغاء الضرائب التي كان الإمبراطور الراحل قد فرضها . هذا بينما تباطأ ليكينيوس في أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدوني [٧٤]، وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الإمبراطورين الطامعين، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنيمة، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطئ البسفور، ولكن الإمبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت، فتباعدت الحرب

(71) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 17.
(72) Gibbon, op cit. II, p. 142 .
(73) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 17.
(74) LACT. Mort. Pres. 36.

بينهما إلى أجل آت لا ريب فيه، ولما اعتقد ماكسيمينوس أن كل شيء قد انتهى عاد أدراجه إلى نيقوميديا (٧٥).

أما في الغرب فكان الزمن يجري سراعاً يعجل صراعاً محتوماً بين قسطنطين وماكسنتيوس، فقد وجد هذا الابن العاق، الذي رفض مراراً أن يقبل والده شريكاً له في الحكم، في مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لإشعال نيران الحرب ضده، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ماكسنتيوس الذي غدا فجأة ابناً باراً بوالده (٧٦).

وهكذا كان طموح الأباطرة الأربعة وأهواؤهم سبباً في إذكاء نيران حرب أهلية في الإمبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة . وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره. فإمبراطورا الشرق ليكينيوس وماكسيمينوس يتربص كل منهما بصاحبه الدوائر لينفرد بحكم الجزء الشرقي، وهكذا كان إمبراطورا الغرب قسطنطين وماكسنتيوس . وأملت طبيعة الصراع على كل منهم أن يوطد صداقته مع الحليف الأبعد ضد جاره القريب، فقفز قسطنطين عبر إيطاليا وماكسنتيوس ليتحالف مع ليكينيوس، بينما خطا ماكسيمينوس خطوة واسعة فوق الليريا وتراقيا وليكينيوس ليصل إلى ماكسنتيوس، ذلك أن قسطنطين قد رحب بزواج أخته قسطنديا من ليكينيوس (٧٧) . وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التي ساورت ماكسيمينوس عن نيات الإمبراطورين في التحالف ضده، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكينيوس عقب وفاة جاليريوس، فسارع إلى إرسال سفرائه إلى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس، فرحب هذا بهم وأكرم وفادتهم واعتبر ذلك العرض عوناً إلهياً، حيث كان على وشك الدخول في حرب مع قسطنطين(٧٨). وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين في روما على بعض الرسائل التي كان ماكسيمينوس قد بعث بها إلى حليفه (٧٩) .

(75) Id.
(76) Ibid. 43 .
(77) LACT. mort. Pers. 43.
(78) Id; EVSAB. Hist. Eccl. VIII, 14.
(79) LACT. Mort. Pers. 44 .

في صيف عام ٣١٢ كان ماكسنتيوس قد أعد للأمر عدته، واستطاع أن يقوى مركزه بإعادة غزو أفريقية [٨٠]، وكانت هذه الولاية قد آلمها مطالب ماكسنتيوس التعسفية من الأموال والغلال، فشبت فيها الثورة منادية بدوميتيوس إسكندر Domitius Alexander نائب الحاكم أوغسطسا، فتمكن ماكسنتيوس من استعادتها ثانية [٨١].

ويلقى مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس مسألة طموح هؤلاء الأباطرة جانباً، ويأخذنا في خضم علل دينية وإنسانية صرفة يقدمها سبباً رئيسياً لهذا الصراع المحموم، فقد كان ماكسنتيوس حسبما يروي يوسيبيوس [٨٢] يعتمد اعتماداً تاماً على السحر والتنجيم، بل إن ذلك كان أسوأ ما فيه على حد قوله، ولم يكن يقيم لإله العالم الحق وزناً، وكان بهذا السحر والتنجيم يرفع نساء وأطفالاً إلى مهام المراكز، ويخفض بهما أيضاً أقدر الرجال إلى الدرك الأسفل، ويضيف أن الحال في روما آنئذ قد بلغت من السوء حداً لا يمكن تقديره حيث عصفت بها الأوبئة وعضتها المجاعة [٨٣] والمذابح المروعة التي أنزلها ماكسنتيوس بأهل المدينة [٨٤] دون أن يقدم يوسيبيوس لذلك سبباً، هذا بينما كان قسطنطين في قرارة نفسه يشفق على أهل روما [٨٥]، وكان ينظر إلى العالم باعتباره كلاً متكاملاً، ويدرك أن على رأس هذا العالم تتربع مدينة للإمبراطورية الرومانية خالدة، غير أنها الآن تقع تحت جناح العسف والجور لواحد من الطغاة، ويأمل أن يتم تحرير المدينة على يد أولئك الذين يحكمون مناطق أخرى من الإمبراطورية، فقد كان يميل إلى السلام، ولكنه عندما رأى هؤلاء لا يقدمون شيئاً لإنقاذها، أيقن أن الحياة ستكون له غاية التعاسة، ومن ثم أعد نفسه لمواجهة هذه الطاغية [٨٦]. ولم يكن الإعداد قاصراً على الناحية

(80) Jones, Constantine, p. 74.
(81) Burckhardt, op. Cit. P. 269.
(82) EVSEB. Vita Const. I, 36.
(83) Id.
(84) EVSEB. Vita Const. 33, 35.
(85) EVSEB. Hist. Eccl. IX, 9.
(86) EVSEB. Vita Const. I, 26.

العسكرية، بل راح قسطنطين يبحث جاداً عن عون يأتيه من قوة الجند والسلاح (٨٧)، ولم يجد هذا، القوة فى السحر والعرافة، ولم يلمسها فى الأرباب التى إياها عبد الأباطرة السابقون ولها قربوا، ولكن بصيرته هدته إلى رب أبيه(٨٨).

على هذا النحو يمهد يوسيبيوس لقصته الشهيرة عن ميل قسطنطين للمسيحية، ويتغافل تماماً عن الدوافع الحقيقية التى أدت إلى قيام هذا الصراع بين المتنافسين، غاضا الطرف عن تلك الحقيقة الواضحة وهى أن قسطنطين لم يكن ليقنع على الإطلاق بأن يظل قابعاً داخل جدران ذلك الموضع الصغير الذى وجد فيه فى جزء من الجزء الغربى للإمبراطورية (٨٩).

يذكر لاكتانتيوس أن قسطنطين قد أقدم على طرح تماثيل ماكسيميانوس أرضاً وإزالة الصور التى كانت قد أقيمت له (٩٠) . فرد عليه ماكسنتيوس بإجراء مشابه، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن إيطاليا (٩١) . وهكذا أعلنت الحرب رسمياً بين الإمبراطورين . وكان لدى ماكسنتيوس من المشاة مائة وسبعون ألفاً، وثمانية عشر ألف فارس، فإذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى أفريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية، فإن ماكسنتيوس لم يتمكن إلا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين ألفاً من المشاة وثمانية آلاف على الخيل، وإن كان قد ترك جزءاً من هذه القوات لتحمى جبهة الراين (٩٢).

وكانت خطة ماكسنتيوس تقوم على أساس الحيلولة دون اتصال قوات قسطنطين وليكينيوس إذا ما حاولت قوات الأخير أن تنضم إلى صهره، فمركز

(87) Latourette, Christianity, p. 91.
(88) EVSEB. Vita Const. I, 27.
(89) Jones, Later Roman Empire, I, p. 79.
(90) LACT. Mort. Pers. 42.
(91) Jones, Constantine, p.74.
(92) Jones, Constantine, p.74.

عددا ضخماً من قواته عن فيرونا Verona التي تعد مدخل ممر برنر Brener، غير أن قسطنطين عبر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط إلى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة، واستطاع رجاله الاستيلاء عليها بعد أن أشعلوا النيران في أبوابها، وتسلقوا أسوارها، وإن كان قسطنطين قد أصدر أوامره بإخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة [٩٣]. وأمام تورينو AugustaTaurinorum قوبل قسطنطين بخيالة عدوه، فاستطاع بمناورة عسكرية أن يوقع مذبحة مروعة بهؤلاء الفرسان، فتحت على أثرها تورينو أبوابها للظافر، ثم استسلمت بعدها ميلانو، فمكث بها قسطنطين قليلاً ثم واصل سيره، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشا Brescia (Vrixia) فكانت الغلبة لجنوده [٩٤].

وكانت القوة الرئيسية لماكسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبي Ruricius Pompeianus، وكان موقفه قوياً إلى حد كبير حيث كانت المدينة محصنة، وقد فرض قسطنطين عليها الحصار، إلا أن القائد استطاع الإفلات خلسة ليعود من جديد وفي صحبته مدد آخر [٩٥] وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الأخرى أن أسلمت للمنتصر قيادها، فأصبح الطريق مفتوحاً إلى روما، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر في ٢٦ أكتوبر ٣١٢ [٩٦].

وأثناء هذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين في السماء – ما أخبر به يوسيبيوس [٩٧] وهي تلك الهالة المضيئة تحيط صليباً ارتسمت تحته عبارة " بهذا ستنتصر Toutw nika ثم زاره السيد المسيح أثناء نومه مؤكداً له ما سبق أن تراءى له [٩٨]، وهذه كلها أموراً سنتناولها بالدراسة في الفصل التالي .

(93) Ibid. 75.
(94) Richardson, op. cit. p. 416
(95) Jones, Constantine, p. 76.
(96) Richardson, op. cit. p. 416 .
(97) EVSEB. Vita Const. I, 28.
(98) Ibid. 29. LACT. Mort. Pres. 44, SOZOM. Hist. Eccl. I, 3.

كان واضحاً أن ماكسنتيوس بعد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها، وكانت أسوارها منيعة للغاية، كما أنه كانت لديه كميات وفيرة من قمح أفريقيا، وقوة من الجند لا يستهان بها، وقوى من هذا الاقتراح عنده ما أنبأ به العرافون من أن خروجه سيسبب له كارثة فادحة(٩٩)، غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما أشيع بين الناس القول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية، فانزعج ماكسنتيوس وأمر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب، فأخبروه أن هناك نبوءة تقول أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان، ولما كان ماكسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة، فقد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش، ومن ثم فقد عزم على أن يقابل عدوه في هذا اليوم (١٠٠)، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر (١٠١) ليلتقى بعدوه فى مكان يسمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفية Mulvius pons (١٠٢) وكانت هذه الخطة التى أقدم عليها ماكسنتيوس جهلاً بفنون الحرب، إذ بدلاً من أن يترك لخصمه مشقة عبور النهر فيسهل القضاء عليه، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة، فكان عاقبة أمره خسراً، حيث تمكن قسطنطين من إنزال الهزيمة بقواته وإجبارها على التراجع نحو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم (١٠٣).، ولما حاولت بعض الجموع وعلى رأسها ماكسنتيوس الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الإمبراطور، وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢ (١٠٤) . ويشبه يوسيبيوس ما حدث هنا بما كان من أمر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليم لأنهم – كماكسنتيوس من بعد – عصوا أمر الرب(١٠٥) .

(99) LACT. Mort. Pres. 44.
(100) Jones, Constantine, pp. 76-77.
(101) Richardson, op. cit. p. 416.
(102) Vasiliev, op. cit. I, p. 44.
(103) LACT. Mort. Pres. 44.
(104) Jones, Constantine, p. 77.
(105) EVSEB. Vita Const. I, 38 .

وفي اليوم التالي لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالي الذين عمد هو منذ البداية إلى التودد إليهم، وفرض بعض العقوبات على أتباع ماكسنتيوس، وفرق الحرس البريتوري [١٠٦] وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينة من قوتها، وخلع السناتو الروماني على قسطنطين لقب Maximus [١٠٧]، بينما استخرجت جثة ماكسنتيوس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بها روما حتى يشهدها العامة، ثم أرسل بها إلى أفريقيا لتقر بتغيير سيدها [١٠٨].

بهذا غدت روما وإيطاليا وأفريقيا وأسبانيا في قبضة قسطنطين بالإضافة إلى غالة وبريطانيا، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع، ولكن طموح قسطنطين كان أكبر من أن يتسع له هذا الجزء، فقنع مؤقتاً بما جادت به الأيام وانتظر ما تجيء به، ولم يكن في انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للإمبراطورية كلها سيدا.

لم يمكث قسطنطين في روما طويلا، فبعد أن تأكد لديه أن الأمور قد استقرت غادرها إلى ميلانو حيث وافاه هناك ليكينيوس ليتسلم زوجته قسطنديا[١٠٩]. وشهدت المدينة إلى جوار الاحتفالات الضخمة التي أقيمت في هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هذا البعض من رعايا الإمبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواما طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد، ووضع حد لهذة المشكلة الدامية التي أرهقت السياسة الداخلية للإمبراطورية دون أن تفلح هذه في إيجاد حل لها، فاتفق الطرفان على إطلاق حرية العقيدة لجميع الرعايا الخاضعين لسلطانهم شريطة ألا يتعارض ذلك مع الصالح العام للإمبراطورية[١١٠] وهو الاتفاق الذي شاع عند المؤرخين باسم "مرسوم ميلانو" في عام ٣١٣.

(106) Richardson, op. cit. p. 416 .
(107) LACT. Mort. Pres. 44
(108) Jones, Constantine, pp. 77.
(109) LACT. Mort. Pers. 45.
(110) EVSEB. hist. eccl. X, 5; LACT. Mort. Pers. 48.

هذا على حين كان ماكسيميئوس فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ينهج نهجا مخالفا، فقد كان من أكبر أنصار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس، بل إنه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه(١١١). فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١، لم يكن ماكسيميئوس راغبا فى اتباعه، ولذلك فإنه بدلا من إرسال نص المرسوم إلى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين، لأنه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده(١١٢). غير أن سابينوس Sabinus محافظه البريتورى، وجه رسائل خاصة إلى كل حكام الولايات التابعة لماكسمينوس جاء فيها:

"سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة النقية السليمة، وحتى يقدم أولئك الذين يحيون بصورة لا تتفق مع الزمان، العبادة الواجبة للأرباب الخالدين، ولكن عناد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهبا إلى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد أنملة عن مقصدهم رغم ما أعطى إليهم من أوامر، ولا خارت نفوسهم رغم ما توعدهم من قصاص. ونظرا لأن الكثيرين - بمثل هذا السلوك - قد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فإن أصحاب الجلالة الأباطرة بسبب ما جلبت عليه نفوسهم من نبالة وتقى، وجدوا أنه مما يتنافى مع مقصد جلالتهم أن يعرضوا - نتيجة لذلك - أناسا للخطر، فأمروا خادمهم الأمين - أعنى شخصى لكى اكتب إلى فطنتك بأنه لا يجب إزعاج أى مسيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر، لذلك أحرص على أن نكتب لأولى الأمر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا إياهم بهذا الأمر(١١٣)".

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر إلى من تعنيهم، وسعوا بأسرع ما يمكن لإتمام ما حسبوه رغبة الإمبراطور الحقة، فأطلقوا سراح أولئك المسجونين، وأعادوا من النفى من كانوا قد بعثوا بهم إلى المناجم لأنهم على حد قول يوسيبيوس ظنوا خطأ أن هذه هى رغبة الإمبراطور(١١٤).

(111) LACT. Mort. Pers. 37, 38; EVSEB. hist. eccl. VIII, 14.
(112) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(113) EVSEB. hist. eccl. IX, 1.
(114) Id.

على أن ماكسيمينوس لم يسمح بذلك أكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهاد المسيحيين، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى أنطاكية يوافق الإمبراطور ميوله فصب جام غضبه على المسيحيين، وأقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر، وأوعز إلى الإمبراطور أن الآلهة أمرت بطرد المسيحيين – كأعداء له – خارج حدود المدينة وما جاورها من أقاليم. وقد أدى نجاحه فى ذلك إلى إغراء كل مواطنى المدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حذوه ما دام ذلك يرضى الإمبراطور(١١٥)، ومن ثم انهالت على ماكسيمينوس رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب إليه منع المسيحيين من البقاء أو الإقامة داخل أسوار هذه المدن(١١٦). وقد عين ماكسيمينوس فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين من بناء كنائسهم أو ممارسة طقوسهم وشعائرهم، وأمرهم بأن يجبروا المسيحيين على التضحية للآلهة، فإذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم(١١٧). وقد حفظ يوسيبيوس صورة من هذا الأمر وجدت فى مدينة صور جاء فيه: "أما إذا أصروا – المسيحيون – على ضلالتهم اللعينة، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما أردت لكى تستطيع مدينتك – إذ تتحرر من كل دنس وكفر – ممارسة الشعائر المقدسة للآلهة الخالدة(١١٨)".

غير أنه قبل نهاية ٣١٢ عاد ماكسيمينوس من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد، فبعث برسالة إلى سابينوس، حاول فيها أن يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وأن يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الإجراءات، وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وماكسيميانوس فى إعادة أولئك الذين هجروا عبادة الإله واعتنقوا المسيحية إلى سابق عهدهم عن طريق

(115) Ibid. IX. 2-4.
(116) LACT. Mort. Pers. 36.
(117) LACT. Mort. Pers. 36.
(118) EVSEB. hist. eccl. IX, 7.

التأديب العلنى والقصاص، ويذكر أنه سعى إلى تخفيف حدة هذه الإجراءات بعد ما رأى من إمكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأدية الخدمات العامة، فأمر القضاة ألا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة. غير أنه عندما أتى إلى نيقوميديا بعد وفاة جاليريوس، تقدم إليه بعض أهلها يلتمسون منه أن لا يسمح للمسيحيين بالإقامة بين ظهرانيهم، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى، فلم ير بدا من إجابتهم لما يريدون، ولكنه كان يرى، كما يذكر، أن الإقناع هو خير وسيلة لإعادة هذا القبيل من الناس إلى قدس الأرباب ثانية. ومن ثم فإنه يجب أن لا يضار أحد بسبب عقيدته، بل تترك الحرية الدينية للجميع، وإن كان من المفضل إستمالة المواطنين بالنصح والترغيب، لا العنف والترهيب، إلى عبادة الآلهة[١١٩].

ويذكر يوسيبيوس أن ماكسيمينوس قد كتب هذه الرسالة بعد اجتماع الإمبراطورين قسطنطين وليكينيوس فى ميلانو، واتباعهما سياسة المسامحة مع المسيحيين، وأن خوفه منهما كان دافعه الرئيسى لسلوك هذا السبيل[١٢٠]. غير أن هذا القول لا يمكن التسليم به بداهة، فمن المعلوم لدينا أن ماكسنتيوس قد هزم فى نهاية أكتوبر ٣١٢، وأن قسطنطين قد مكث فى روما بعضا من الوقت نظم فيه شئون أقاليمه الجديدة، ثم ارتحل فى مارس ٣١٣ إلى ميلانو حيث قابل ليكينيوس[١٢١]، وحيث اتفقا على سياستهما إزاء المسيحيين. ولما كان قد جاء فى رسالة ماكسيمينوس هذه إلى سابينوس عبارة تقول: "غير أنى لما ذهبت فيما بعد إلى نيقوميديا السنة الماضية"، ولما كنا نعلم من لاكتانتيوس[١٢٢] أن ماكسيمينوس أتى نيقوميديا عقب وفاة جاليريوس مباشرة، ولما كانت هذه الوفاة قد حدثت فى مايو سنة ٣١١، كانت عبارة "السنة الماضية" التى جاءت فى رسالة ماكسيمينوس تعنى أن أنه الآن فى سنة ٣١٢، أى قبل اجتماع ميلانو بأشهر قلائل على وجه الترجيح ومن ثم يحتمل كتابتها قبل نهاية عام ٣١٢، إذ أن ماكسيمينوس أصدر بعد

(119) Ibid. IX, 9.
(120) EVSEB, hist. eccl. IX, 9.
(121) Gibbon, op. cit. I, p. 459.
(122) LACT. Mort. Pers. 36.

هزيمته أمام ليكينيوس في هرقليا عام ٣١٣، وفراره إلى نيقوميديا مرسوما في صالح المسيحيين جاء فيه: "أرسلت رسائل في العام الماضي إلى حاكم كل مقاطعة نأمره فيها بالسماح لكل فرد بتأدية شعائره الدينية أيا كان نوعها وبلا عائق" وهذه إشارة صريحة إلى رسالته لسابينوس.

وعلى هذا الأساس يمسى دافع الخوف الذي يسوقه يوسيبيوس محركا للإمبراطور على انتهاج هذا السبيل، لغوا. فما الذي أجبر ماكسيمينوس على أن يغير من سياسته؟

يذكر البعض(١٢٣) أن ماكسيمينوس شعر بتأنيب الضمير نتيجة سياسة الاضطهاد التي انتهجها حيال المسيحيين، وتحول هذا الشعور إلى إحساس بالخوف من ذلك الإله الذي إياه يعبد المسيحيون، بعد أن هزم على يد ملك أرمينيا المسيحي سنة ٣١٢، وبعد أن تعرضت أقاليمه لمجاعة طاحنة وطاعون فتاك، ومن ثم أقدم على هذا الإجراء. على حين يرى آخر أن الظروف السياسية التي أحاطت بماكسيمينوس هي التي دفعته إلى ذلك(١٢٤)، ونميل إلى الأخذ بهذا الرأي، ذلك أن ماكسيمينوس أدرك حرج موقفه بعد الهزيمة السريعة الفادحة التي لحقت بحليفه ماكسنتيوس وأدرك أن انتصار قسطنطين تدعيم لمركز رفيقه ليكينيوس، ومن ثم استشعر الخطر من هذه الأحداث، وأدرك أن الحرب بينه وبين خصمه ليكينيوس أضحت وشيكة الوقوع، ولما كان غالب رعاياه في الولايات الشرقية التي يسيطر عليها من المسيحيين المضطهدين، فقد أراد التقرب إليهم علهم يكونون عونا له في هذا الصراع، أو حتى على أقل تقدير ليضمن عدم ممالاتهم لعدوه وثورتهم أثناء انشغاله في هذه الحرب مما يهدد كيانه بخطر جسيم. خاصة وأنه كان يتوقع تفوق قوات عدوه عليه إذا ما انضمت جيوش قسطنطين إلى ليكينيوس.

كانت الحرب بين ماكسيمينوس وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وأن هذا الأخير لم يكن قد أشرك في أي جزء من الأقاليم التي غنمها مؤخرا قسطنطين،

(123) Jones, Constantine, pp. 87-88.
(124) McGiffert, op. cit. n. 18 p. 364.

بل ترك ليمد نفوذه هو الآخر علي حساب جاره ماكسيمينوس(١٢٥)، ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه، فقد كان لا يقنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها(١٢٦). وكادت الحرب أن تنشب بينه وبين ليكينيوس عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ إلى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة.

كانت خطة ماكسيمينوس تقوم علي أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة، مما يجعل ليكينيوس يدفع بقواته لمناصرة حليفه، وبهذا تسنح الفرصة لماكسيمينوس ليهاجم أقاليم جاره أثناء خلوها من القوات(١٢٧)، ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى غير ما كان يهوى فؤاده، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة أخذت من اليوم بعضه انقشع غبارها عن ابتلاع التيبر لماكسنتيوس وجنوده، وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين، فهلل أهلوها ورفعه السناتو مكانا عليا، ثم لم تكن إلا أشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميلانو يرسمان للمستقبل سياستهما، ويدشنان تآلفهما بحفل زواج ليكينيوس وقسطنديا، ودخل فى روع ماكسيمينوس أن فى خطتهما للمستقبل نهايته، وأن فى انشغالهما بهذا العرس فرصته. ومن ثم صمم على أن يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع إلى الأبد.

يصحبنا لاكتانتيوس(١٢٨) فى ركاب جيش ماكسيمينوس منذ تحرك خارجا من سوريا فى شتاء غاية فى القسوة، واستطاع بصعوبة بالغة الوصول إلى بيثينيا بعد أن أنهكت قواه وفقد منه عدد كبير، حيث كانت أشلاؤه مبعثرة على طول الطريق، وكان ذلك – على حد قوله – إشعارا بكارثة محققة فى هذه الحرب المقبلة، ورغم ذلك لم يتوقف ماكسيمينوس، بل واصل زحفه عابرا البسفور إلى تراقيا، واقترب فى سلوك عدائى من أبواب بيزنطة التى كان ليكينيوس قد ترك بها حامية لتصد أى هجوم قد يفكر فيه ماكسيمينوس. وقد حاول هذا استمالة الحامية أول الأمر عن طريق الاغراء

(125) Boak, op. cit. p. 431.

(126) Jones, Later Roman Empire, I, 79.

(127) Jones, Constantine, p. 64.

(128) LACT. Mort. Pers. 45.

بالمنح والعطايا، ولكن هذه الخطة لم تفلح، فاستبدلها بالعنف، وفرض على المدينة حصاره الذى استمر أحد عشر يوما، سلمت المدينة على أثرها حيث لم تقو على مجابهة الحصار. ولم يضع ماكسيمينوس وقتا، فسار مباشرة إلى هرقليا وأخضعها لسلطانه، ولكنه لم يبتعد عنها بأكثر من ثمانية عشر ميلا حتى وافته الأنباء بأن ليكينيوس قد خرج إليه من أدريانوبل Adrianopolis وكان قد جاءها على عجل من ميلانو بعد أن سمع بأنباء هجوم ماكسيمينوس. وقد راح ليكينيوس يلتقط ما تصل إليه يداه من الجنود من هنا وهناك، وتقدم نحو عدوه ليمنعه من التقدم دون أن يكون له فى الحرب رغبة أو فى النصر أمل" كما يقول لاكتانتيوس[١٢٩] معللا ذلك بأن ماكسيمينوس كان يمتلك جيشا يربو على سبعين ألف مقاتل، بينما لم يكن لدى ليكينيوس سوى ثلاثين ألف رجل، ولم يستطع قسطنطين أن يمد لحليفه يد العون حيث استدعى من ميلانو فى نفس اللحظة ليرد عدوانا على الراين شنته قبائل الفرنجة[١٣٠].

التقى الجيشان قرب هرقليا Heraclia وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع، يقول لاكتانتيوس[١٣١] إن ماكسيمينوس قد نذر لأن أظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحيين، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرناه عن الخطة التى اتبعها ماكسيمينوس للتودد إلى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى أصدره فى شتاء ٣١٣/٣١٢ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد، ولم يكن ماكسيمينوس من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعور جزء كبير من رعيته وهو على أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه. أضف إلى ذلك أيضا أن ما أقدم عليه ماكسيمينوس بعد هزيمته أمام ليكينيوس إزاء المسيحيين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار.

وإذ جعل لاكتانتيوس إعتماد ماكسيمينوس على جوبتر، فلابد أن يعتمد ليكينيوس على قوة إلهية مضادة، ولما كان قد اتفق وقسطنطين فى ميلانو على منح

(129) Id.
(130) Gibbon, op. cit. I, p. 459.
(131) LACT. Mort. Pers. 47.

المسيحيين حرية العقيدة، فقد أخبرنا كاتبنا أنه قد ظهر له أثناء نومه ملاك الرب واستحثه على النهوض مسرعا وترتيل صلوات معينة للإله الأعلى، ووعده بأن النصر فى جانبه إذا ما نفذ ذلك، وهب ليكينيوس من غفوته وأيقظ مستشاره الذى كان بجواره وعلمه كيف يصلي، ثم استدعى إليه أحد خاصته وأملى عليه تلك الصلوات وأمره أن يعطيها قواد جيشه ليرددوها والجند من ورائهم، فتعالت صيحاتهم مرددة:

"أيها الإله العلى .. إليك نضرع .. أيها الرب المقدس إياك ندعو .. فيك نرى كل عدالة، ومنك نستمد كل أمن، وإليك نكل أمر إمبراطوريتنا. بك نحيا، وبقدرتك ننتصر، اللهم ياذا القداسة والمهابة. تقبل دعاءنا، إليك نبسط أكفنا، فاستمع لنا ياذا العظمة والجلال[١٣٢]".

ويبدو أن حماس لاكتانتيوس للمسيحية، وشديد بغضه لماكسمينوس لما أوقعه بالمسيحيين فى أقاليمه من اضطهاد، قد أنساه ذكر قوله فى أول الأمر من أنه لم يكن لدى ليكينيوس أى رغبة فى الحرب أو أمل فى النصر، فهو يخبر الآن[١٣٣] أن ليكينيوس أراد أن لا تحدث المعركة إلا فى أول مايو، وهو اليوم الذى يوافق تمام السنة الثامنة من حكم ماكسيمينوس، حتى يحطمه فى يوم عيد جلوسه على العرش، كما فعل قسطنطين مع ماكسنتيوس من قبل، غير أن لاكتانتيوس لا يجد زهقا فى تقديم تعليل لذلك، فقد امتلأ ليكينيوس وجنده حماسة بهذه الأدعية التى جاءته فى نومه ونحياه هذا على حين كان ماكسيمينوس يتوق إلى أن تنشب المعركة فى اليوم الأخير من أبريل حتى يحارب فى اليوم السابق على توليه السلطة، فإن كان النصر حليفه جعل غداه أسعد أيامه.

وفي ٣٠ أبريل ٣١٣ التقى الجمعان، فتحقق لماكسيمينوس بذلك بعض ما كان يبغى، غير أن أمله فى النصر لم يأته أبداء ففى معركة خاطفة هزم ماكسيمينوس هزيمة ساحقة، ولم تختلف معركة هرقليا عن موقعة الصخور

(132) Id.
(133) LACT. Mort. Pers. 47.

الحمراء من حيث نتائجها إلا في شيء واحد هو قرار ماكسيمينوس على حين غرق ماكسنتيوس.

ومع ما قاله لاكتانتيوس عن انتصار ليكينيوس ودواعيه، فقد كان طبيعيا أن يلقى ماكسيمينوس الهزيمة، وقد أخبرنا الكاتب نفسه أن جيش هذا قد فقد عددا ليس باليسير من أفراده، وأن أشلاءهم تبعثرت من خلفهم، وأن قوى هذا الجيش قد أنهكت طيلة هذه الرحلة خلال الشتاء القارص، ثم يعلق بقوله "وكان ذلك إشعارا بكارثة محققة في هذه الحرب المقبلة".

ولنا أن نتصور تلك الفترة الوجيزة التي استغرقتها هذه الرحلة من سوريا إلى تراقيا، فإذا علمنا أن التقاء الحليفين ليكينيوس وقسطنطين تم في ميلانو في مارس ٣١٣، وأن موقعة هرقليا كانت في ٣٠ إبريل من نفس العام، أدركنا مدى السرعة التي كان جيش ماكسيمينوس يسير بها ليقطع هذه المسافة الطويلة عبر شمال سوريا فآسيا الصغرى فالبسفور إلى تراقيا، أضف إلى ذلك مقاومة بيزنطة وهرقليا، فإذا أضفنا إلى هذا كله عدم ملاءمة الأحوال الجوية عندئذ، تأكد لدينا صعوبة الظروف التي تهيأ فيها جيش ماكسيميتوس للقتال، ويؤكد هذا ما يذكره لاكتانتيوس نفسه في قوله:".. ولما تأكد لدى دازا (ماكسيمينوس) أن الإمبراطورين مشغولان في حفل الزواج، تحرك خارجا من سوريا في شتاء غاية في القسوة"[١٣٤]. ومن ثم كان لنا أن ندرك الإعياء والحالة المعنوية السيئة التي كان عليها جيش ماكسيميتوس، ولم يكن التفوق العددي ليغنه شيئا عن خسارته الجسمانية والنفسية.

استطاع ماكسيميتوس أن يفر بنفسه من هذه المعركة، وتبعه عدد من جنده، ويعلق البياتي الأفريقي على ذلك بقوله: "لم يصبح من العار أن يهرب من أراد النجاة"[١٣٥] إذ أن الإمبراطور نفسه قد ضرب لهم المثل. وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول من مايو كان ماكسيميتوس قد وصل إلى نيقوميديا على الرغم من أن المسافة بينها وبين أرض المعركة كانت تزيد على مائة وستين ميلا[١٣٦]، ويعلق

(134) LACT. Mort. Pers. 45.
(135) Ibid. 47.
(136) Id.

جيبون على ذلك ساخراً: " إن السرعة المذهلة التي استخدمها ماكسيمينوس في هروبه لجديرة بالتمجيد أكثر من جرأته في المعركة(١٣٧).

حالما وصل ماكسيمينوس إلى نيقوميديا أراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم إلى جواره في معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكينيوس، فأصدر مرسوما في صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه، وأنه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبوا عديدا من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التي كان قد أصدرها دقلديانوس وماكسيميانوس لتحريم اجتماعات المسيحيين، ونلاحظ أنه يلقى بالتبعية كاملة هنا وفي رسالته السابقة الذكر إلى سابينوس علي هذين الإمبراطورين، ويستطرد في مرسومه موضحا أنه نتيجة ذلك عمل على تخليص هؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته إلى سابينوس وما جاء فيها من حرية العبادة للمسيحيين، ولكن قضاته وموظفيه - على حد قوله - حرفوا هذه الأوامر، لذلك رأى أن يذيع أمراً إمبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبادة، كما أمر برد الكنائس المصادرة إلى ملكيتها المسيحية(١٣٨). غير أن ذلك كله لم يجده نفعا، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته في هرقليا، وأضحت جهوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لا جدوى وراءها.

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمينوس وبصحبته أهله، وفي معيته بلاطه ميمما شطر سوريا، ولكنه توقف في كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الإمبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره(١٣٩). فكان ذلك إيذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكينيوس، وكان هذا قد وصل إلى نيقوميديا، وبعث في ١٣ يونية ٣١٣ رسالة إلى حاكم بيثينيا(١٤٠)، وهي الرسالة التي ذاعت في التاريخ خطأ باسم مرسوم ميلانو.

(137) Gibbon, op. cit. I, p. 460.
(138) EVSEB. hist. eccl. IX, 10.
(139) LACT. Mort. Pers. 47.
(140) Ibid. 48.

تقهقر ماكسيمينوس حتى وصل إلى طرسوس Tarsus وتحصن بها، ولكن عاجلته المنية[١٤١]، فوضع موته المفاجئ في هذه اللحظة ليكينيوس سيدا على الولايات الشرقية[١٤٢]. وهكذا أصبح في الحكم إمبراطوران، ليكينيوس في الشرق، وفي الغرب قسطنطين. وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخل الإمبراطورية قد بقيت لم تطو بعد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين. ويقول جيبون في هذا الصدد، لقد كان المتوقع أن يكون الإعياء الذي حل بالإمبراطورين الظافرين نتيجة الحروب الأهلية، والارتباط الذي كان قائما بينهما، مدعاة لأن يطلقا أو على الأقل يكبحا جماح نزوات الطموح، غير أنه لم يكد ينقضي عام على وفاة ماكسيمينوس حتى شهر الحليفان سلاحهما كل في وجه صاحبه[١٤٣]، ذلك أن وضع الإمبراطورين كان يحتم على كل منهما النزاع من أجل تفوق أحدهما على الآخر واستئثاره بالسلطة[١٤٤].

ربما كان ليكينيوس راغبا عن الدخول في حرب ضد حليفه، قانعا بإقليمه ذلك المتسع الذي يمتد من حدود أرمينيا شرقا حتى بحر أدريا غربا، يدلنا على ذلك استقراء تاريخه العسكري منذ عينه جاليريوس أوغسطسا عام ٣٠٧ حتى سنة ٣١٣ عندما شبت الحرب بينه وبين ماكسيمينوس. فعلى الرغم من أنه سيطر على إقليم بانونيا إلى أن يتم استعادة المنطقة التي اغتصبها ماكسنتيوس، إلا أنه لم يحرك ساكنا في سبيل إلزام خصمه على التخلي عنها، وتركه يثبت أقدامه ويقوي نفوذه في إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا وقبع هو في بانونيا، ولما مات جاليريوس وأصبح ماكسيمينوس لا يفصل بينهما إلا البسفور، آثر السلام مكتفيا بما وصلت إليه سلطته الآن. ولم يحاول مطلقا بعد هزيمة ماكسنتيوس، المطالبة ولو بجزء من هذه الأراضي الشاسعة التي كانت تعد قانونا من أملاك ليكينيوس نفسه حسب القرار

(141) Ibid. 49.
(142) Cary, op. cit. p. 735.
(143) Gibbon, op. cit. I, p. 463.
(144) McGiffert, op. cit. n. 1. P. 384.

الذى اتخذه دقلديانوس وماكسيميانوس وجاليريوس فى مؤتمر عام ٣٠٧، ولم يكن ليكينيوس هو الذى أشعل الحرب مع ماكسمينوس، بل كان "غير راغب فى الحرب، بلا أمل فى النصر". ولكن الأقدار ساقت له جيشا متهالكا، وأهدت إليه غنم معركة خاطفة، وزينت جبينه بأقاليم الشرق، وأزاحت بيدها — لابيده — ماكسيمينوس من طريقه، فغدا بلا كبير عناء سيدا على أعظم مناطق الإمبراطورية خصبا وثراء. ذلك شئ يجعل الشك حول رغبة ليكينيوس إذكاء نيران حرب جديدة أمرا واقعا.

ولكن ليكينيوس كان يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين، فقد كان يدرك تماما مبلغ طموح هذا الرجل منذ عرفه قيصرا، فإمبراطورا شريكا، فحليفا، وكان فى سياسة قسطنطين قبل ماكسيميانوس وولده دليل واضح على نياته، مما زاد الشكوك فى صدر ليكينيوس، وذهبت به الظنون كل مذهب، وقويت هذه لديه بما أتت به الأحداث، فأقدم على ارتكاب عدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها، فأضحى على أثرها سيد الإمبراطورية.

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه وأحقاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال حليف الأمس، فقد كانت قوته ترتكز أساسا على جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا وأقلها سكانا[١٤٥] فى الوقت الذى كان فيه ليكينيوس يحوز إقليم الليريا الذى طالما قدم للجيش الرومانى أقوى الرجال[١٤٦]، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الإقليم من أهمية بالنسبة لمشروعاته القادمة، ومن ثم عول على أن تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب.

ولما كان قسطنطين قد استدعى إلى غالة عقب اجتماع ميلانو لردع تحركات الفرنجة هناك فإنه فكر فى إقامة مناطق حاجزة بينه وبين ليكينيوس[١٤٧] على غرار

(145) Cantor, op. cit. p. 4.
(145) C.M.H. I, p. 6.
(147) Gibbon, op. cit. I, p. 463.

نظام القياصرة الذى كان دقلديانوس قد ابتدعه[148]. فأراد تعيين باسيانوس Bassianus زوج أخته اناستاسيا Anastasia قيصرا، وطلب إلى ليكينيوس الموافقة على ذلك. وقد أدى هذا الاقتراح إلى حدوث نزاع بين الإمبراطورين[149]. ويقول جيبون أن ليكينيوس قد وافق فى النهاية على هذا الاقتراح محاولا استغلال الظروف لصالحه بالدخول مع هذا القيصر فى تحالف ضد قسطنطين[150]، وقد بني جيبون والمؤرخون المحدثون رأيهم هذا، وما ترتب عليه من اعتبار ليكينيوس المسئول عن اندلاع الحرب الأولى بينه وبين قسطنطين، على ماذكره يوسيبيوس[151] من وجود مؤامرة تستهدف القضاء على قسطنطين دبرها سنكيو Senecio الذى كان فى خدمة ليكينيوس بالاشتراك مع أخيه باسيانوس زوج أخت قسطنطين، غير أن هذا الأخير استطاع أن يقضى على المؤامرة فى مهدها، وأن يقدم للأعداء صهره، ثم طلب من ليكينيوس أن يسمله سنكيو، فلما رفض وجد قسطنطين فى ذلك ذريعة لشن الحرب.

وإذا جاز أن نعتبر هذه المؤامرة - إن صحت رواية يوسيبيوس - سبب الحرب الأولى، إلا أنها لم تكن كل السبب، فقد ذكرنا ما كان يعتمل فى نفس قسطنطين من حقد دفين سببه سيادة زميله على مناطق أكثر غنى ورخاء من تلك التى فى قبضته، وستدعم الأحداث بعد قليل ما تذهب إليه. هذا بالإضافة إلى ما نعرفه عن أخلاق ليكينيوس وعدم حبه للمغامرة، وما نعرفه أيضا عن صفات قسطنطين وطموحاته الواسعة التى لا تقنع مطلقا بما تحت يديه من ممتلكات، ورغبته الجامحة فى السيادة على الإمبراطورية بأسرها، خاصة وأن مناطق الشرق وقلبها مصر، أغنى ولايات روما، لازالت تحت سيطرة حليف الأمس.

أوقع قسطنطين بالفرنجة على الراين هزيمة ساحقة، ومكث فى ترير Trier (تريف) Augusta Treverorum حتى نهاية صيف عام ٣١٤ حيث تحرك بقوة يبلغ تعدادها عشرون ألف مقاتل لغزو أقاليم ليكينيوس الذى كان فى حوزته ٣٥,٠٠٠

(148) Boak, op. cit. p. 431.
(149) Jones, Constantine, p. 126.
(150) Gibbon, op. cit. I, p. 464.
(151) EVSEB. vita Const. I, 50.

جندى، ورغم هذا التفوق العددى إلا أن الهزيمة لحقت به فى Cibalae بين الساف والدراف[١٥٢]، فى الثامن من أكتوبر، فارتد إلى سرميوم Sirmium التى تبعد عنها بخمسين ميلا ومنها إلى داشيا، فتبعه قسطنطين محتلا سرميوم[١٥٣] ولحق به فى وادى مارديا Mardia فى تراقيا حيث دارت رحى معركة أخرى لم تكن أقل من سابقتها عنفا وضراوة، أيقن ليكينيوس بعد هزيمته فيها أن لا أمل له فى النصر، فأرسل من قبله مندوبين للتفاوض مع قسطنطين[١٥٤]، وفى ديسمبر ٣١٤ عقدت بين الخصمين معاهدة تنازل ليكينيوس بمقتضاها لقسطنطين عن كل أقاليمه فى أوروبا عدا تراقيا، واحتفظ لنفسه بهذه وما وراء البسفور[١٥٥]، وبهذه المساحة الضخمة المليئة بالمال والرجال والتى فقدها ليكينيوس ألقى الحظ بثقله فى كفة قسطنطين[١٥٦].

وهكذا تحقق لسيد الغرب ما أراد فى السيطرة على إقليم كان فى مسيس الحاجة إليه ليدعم به قواته ونفوذه، ولقد أخذ يزداد بوضوح أن قسطنطين ما كان ليقنع أبدا بذلك الجزء الكبير من الإمبراطورية، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يتعجل الأمور ويستحث خطاها، فقد اكتفى مؤقتا بهذا النصر الساحق وتلك المكاسب الضخمة التى حققها مؤجلا ضربته الأخيرة ليوم تصبح فيه قاضية.

وقد أعطى ليكينيوس بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو، وحظى المسيحيون ورجال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة، لم يحاول ليكينيوس أن يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية. ومع أنه حتى عام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين، إلا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحدة نحو كسب صداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعل قسطنطين[١٥٧]. ونتيجة هذا كان مسيحيو الشرق

(152) F. Jackson, The history of the Christian Church, p. 295.
(153) Jones, Constantine, p. 127.
(154) Gibbon, op. cit. I, pp. 465-466.
(155) Id.
(156) Cary, op. cit. p. 733.
(157) McGiffert, op. cit. n. 5. p. 384.

ينظرون بعين الحسد والغيرة إلى زملائهم مسيحيى الغرب لما يتقلبون فيه من نعم أغدقتها حكومة قسطنطين، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليكينيوس المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه فى قسطنطين "محبوب الرب". فتعاطفت معه قلوبهم، فوجد انعدام الثقة بذلك بابا نفذ منه بين ليكينيوس وشعبه، فاعتبروه مضطهدا جديدا، وعدهم هو صنائع قسطنطين(١٥٨).

ويقدم يوسيبيوس صورة لموقف ليكينيوس قبل المسيحيين. فبعد أن اتهم ممثلى الرب – الأساقفة – بالاتصال بقسطنطين، حرم عليهم عقد الاجتماعات، ومنعهم من الانتقال أو زيارة الأسقفيات المجاورة(١٥٩). ثم صادر كثيرا من الأملاك الخاصة بالكنائس والأفراد وضمها إلى أملاكه(١٦٠)، ونهى المسيحيين عن عقد اجتماعاتهم داخل أسوار المدن، وألا يجتمع الرجال والنساء فى الكنائس فى وقت واحد(١٦١)، وأصدر أوامره بطرد الجنود والموظفين إذا ما رفضوا أن يقربوا للأرباب، وسجن باقى المسيحيين الذين يأبون إطاعة هذه الأوامر وحرمانهم من الطعام فى السجن حتى يدركهم الموت جوعا(١٦٢)، وبلغ اضطهاد المسيحيين درجة كبيرة فى أماسيا Amasia فى بنطس Pontus حيث سويت بالأرض عديد من الكنائس(١٦٣).

لكن على الرغم من كل ذلك فإن اضطهاد ليكينيوس لم يأخذ صورة العنف التى شهدتها الاضطهادات السابقة، ومن الأدلة على ذلك أن يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وكثيرين غيره من رجال الاكليروس ظلوا كأصدقاء له وظلت معاملته لهم حسنة كما كانت(١٦٤). ويضاف إلى هذا أن ليكينيوس لم يصدر مرسوما عاما ينص

(158) EVSEB. hist. eccl. X, 8.
(159) EVSEB. vita Const. 1, 51.
(160) Ibid. 52.
(161) Ibid. 53.
(162) Ibid. 54; hist. eccl. X, 8.
(163) EVSEB. vita Const. II, 1; hist. eccl. X, 8.
(164) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.

على اضطهاد المسيحيين، وإنما كل ما حدث هو بعض من النفى والسجن والمصادرات، ويبدو أن قلة قليلة من الأساقفة تعرضت للموت، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى القول بأنهم تعرضوا لذلك نتيجة لأوامر ليكينيوس نفسه(١٦٥)، فمن المرجح أن يكون ذلك راجعا إلى تعصب بعض الموظفين الوثنيين الذين انتهزوا فرصة الشعور العدائى ضد المسيحيين، بحجة أنهم على اتصال بقسطنطين، لانتهاك حرمة القوانين الموجودة، ولوضع بعض الأساقفة المكروهين لديهم تحت طائلة العقاب بحجة أو بأخرى كما يخبرنا بذلك يوسيبيوس نفسه(١٦٦)، إلا أن هذه الحوادث كانت نادرة ولم يؤثر أنه حدثت مذابح جماعية للمسيحيين(١٦٧).

وعلى هذا النحو لم يكن غريبا أن يذكر يوسيبيوس أن قسطنطين تقدم بجيوشه لينقذ هذا الجزء من رعية المسيح من سطوة هذا الطاغوت مثلما فعل من قبل مع أهل روما ضد ماكسنتيوس(١٦٨).

لقد كانت السياسة التى أقدم عليها ليكينيوس خطوة غاية فى الحماقة يمكن أن يقدم عليها إنسان فى مثل تلك الظروف الحرجة، فقد كان فى وقت يحتاج فيه لولاء وعطف كل رعاياه، ولكنه بطيشه استغنى عن جزء منهم وأعطاهم بهذا العمل سببا لا غبار عليه ليصبحوا من أشد المتحمسين لخصيمه(١٦٩)، وقد عرف هذا الخصم كيف يستفيد تماما من هذا الخطأ.

ولقد ساهم قسطنطين بنفسه فى إثارة الشكوك لدى ليكينيوس ومخاوفه من جموع المسيحيين فى أقاليمه، فقد قضى قسطنطين الستة أشهر الأولى من عام ٣١٥ يتفقد أقاليمه الجديدة فى البلقان، ثم زار روما فى عجالة ومنها إلى غالة، وفى خريف سنة ٣١٦ تحرك ثانية إلى البلقان ولم يغادرها بعد ذلك إلا مرة واحدة

---

(165) Id.
(166) EVSEB. hist. eccl. X, 8; vita Const. II, 2.
(167) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.
(168) EVSEB. vita Const. II, 3; hist. eccl. X, 9.
(169) McGiffert, op. cit. n. 5, pp. 384-385.

زار فيها ميلانو، وهكذا مكث في البلقان طيلة ثمان سنوات، ولا شك أن قربه من أقاليم خصمه، وسياسته التى جرى عليها فى معاملة المسيحيين فى إقليمه، كان لها أكبر الأثر في شعور مسيحيى الشرق ونفس ليكينيوس.

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الإمبراطورية منفردا، ولما آنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكينيوس، فأعلن ولديه كريسبوس Crispus وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكينيوس(١٧٠). وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماتيين Sarmatians(١٧١)، وقام بهجوم ضخم على القوط سنة ٣٢٣، واقتضاه تتبع القوط اجتياز إقليم تراقيا الخاضع لليكينيوس، فلم يستطع هذا أن يكظم غيظه أكثر من ذلك، فاحتج لدى قسطنطين على انتهاك حرمة أراضيه، ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التي كان يبحث عنها منذ أمد طويل، فرفض أن يقدم ترضية ما لزميله(١٧٢)، فأعطى ذلك إشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة.

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكينيوس، أو على الأقل تخليهم عن نصرته، وبالطبع كانت هذه فى حد ذاتها- أعني رغبته في نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت اضطهاد ليكينيوس - هي الحجة التى تذرع بها ووجدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين في الشرق وتعاطفهم معه، ومن هذا السياق يتضح أن قسطنطين كان هو البادىء بالعدوان فعلا فى هذه الحرب، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان، ومن ثم فما يقدمه يوسيبيوس فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد

(170) Jones, Constantine, p. 129.

(171) Hefele, Histoire des Conciles, I, 1, p. 381.

(172) Boak, op. cit. p. 342.

حجة واهية إذا قيست بالدوافع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الإمبراطورية.

كان ليكينيوس يتفوق على عدوه هذه المرة أيضا، ولكن هذا التفوق لم يجده نفعا، فقد كان لديه ١٥٠,٠٠٠ من المشاة، وخمسة عشر ألف فارس من أحسن فرسان فريجيا Phrygia وكبادوكيا Cappadocia، بينما لم تزد قوات قسطنطين فى مختلف الأسلحة عن مائة وعشرين ألف جندى، ولكنهم كانوا يفوقون خصومهم بتمرسهم فى شئون الحرب بصفة مستمرة(١٧٣).

وعند أدريانوبل (حاليا ادرنه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكينيوس أول لهزيمة فى هذا الصراع، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على بيزنطة وتمكن من أن يحقق نصرا بحريا كبيرا على أسطول خصمه(١٧٤)، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس Chrysopolis حيث فقد ليكينيوس كل شىء، وأسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه إلى تسالونيكا، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى(١٧٥).

وهكذا قدر لحرب أهلية طويلة أن يخمد أوارها، وأن تشهد الإمبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه إمبراطور فرد. وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها يداه فى الغرب الأوروبى، وحق لمادحه يوسيبيوس(١٧٦) أن يتغنى بذلك قائلا: "وهكذا استطاع قسطنطين البطل الظافر الذى يرفل فى ثياب الفضيلة والتقى، وابنه كريسبوس الأمير محبوب الرب، الذى في كل شىء يماثل أباه، استطاعا أن يستردا الشرق، ويؤسسا إمبراطورية رومانية واحدة موحدة مخضعين لرحيم حكمهما العالم كله من مشرق الشمس إلى مغربها".

(173) Gibbon, op. cit. I, p. 417.
(174) Burckhardt, op. cit. p. 281.
(175) EVSEB. Vita Const. II, 17 hist. eccl. X, 9.
(176) SOCRAT. hist. eccl. I, 4 ; SOZOM. hist. eccl . I. 1,7

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

لم يختلف الدراسون في شيء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين، ولقد صاغت المشكلة ذاتها في سؤال ذي شقين، هل كان وضع قسطنطين عن المسيحيين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم نابعا عن معتقد يقيني بربهم، أم كان للدوافع السياسية كبير شأن في اتخاذه جانبهم؟ وانجذابا إلى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك، واعتلى كل منصة حججه يدفع بأسانيد جمعها عن صدق رأيه، ويدحض بها قول معترضه. على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقي سؤال سبق توا ذكره، يدعم أولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين إلى حواريي المسيح الاثني عشر رسولا جديدا، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين المحدثين جاعلين من قسطنيطين سياسيا حاذقا.

كان يوسيبيوس القيساري أول من زاد قائمة الحواريين واحدا. ونسج بقلمه خيوط ضوء قدسي مهيب يزين في جلال جبين قسطنطين، سداه احتواء كل فضيلة، ولحمته ترفع عن أية رذيلة، فحفظ للبشر على مر الأعصر، "حياة قسطنطين Vita Constantini ".

ولم يكن قسطنطين في رأي يوسيبيوس ومؤرخي الكنيسة ليهتدي إلى المسيحية على لسان بشر، إذن لغدا أحدهم، ولكنهم جعلوا السماء داعيه في يقظته، ويسوع المسيح مبشره في نومه، والصليب شارته، وخدام الرب مشاعل جنده، والرب يبارك منه الخطى!! كان ذلك في خريف عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته إلى روما "ليخرج من الظلمات إلى النور" أناسا طال عليهم الأمد، وليقضي على "طاغية" بها تجبر، عندما مالت شمس الظهيرة إلى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسي، وإذا بهالة تضيء كبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور "بهذا ستنتصر". Toutw nika فعقدت لسانه وجيشه الدهشة" [1]، وساورت

---

(1) EVSEB. vita Const. I, 28.

الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى، وذهبت به الظنون كل مذهب، وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التى رآها بيمناه. يأمره أن يتخذ إياها له شعارا، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية(٢). وأسرع قسطنطين فى اليوم التالي فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة(٣) لتوضع على رأس كل جندى من جيشه(٤). وما لبث قسطنطين أن دعا إليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى، فأعطوه صفته وأنه الرب، الابن الوحيد المولود من الأب الواحد وأن مارآه هو علامة الخلود، فوطن قسطنطين نفسه منذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين، ومنى بعراض الآمال نفسه، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس(٥)".

بهذه الصورة يسوق يوسيبيوس قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية، وعلى منواله ينهج مؤرخو الكنيسة التالون وعلى رأسهم سقراط وسوزومنوس.

ولكن هل تبدو المسألة بهذه البساطة حقا؟

يذكر يوسيبيوس أن قسطنطين وحده لم يكن هو الذى رأى تلك "المعجزة" فى السماء، بل شاركه الرؤية أفراد جيشه أجمعون، واعترتهم كلهم الدهشة للذى يرون، ومعنى ذلك أن تكون هذه الرؤية شيئا شائعا بين الجميع. ولكن يوسيبيوس يخبرنا أن قسطنطين نفسه هو الذى قص عليه ذلك صراحة بعد فترة طويلة وفى لحظة من لحظات راحته، وشفع ذلك بأيمان مغلظة، ثم يعلق على ذلك قائلا "فمن ذا الذى يتردد للحظة فى تصديق هذه الرواية ونسبتها إليه خاصة". ولكن كثيرين بالفعل ترددوا فى قبولها، ويكفينا أن نذكر منهم كاتبا مسيحيا "يوحنا موسهيم" وكتابه "تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة" الذى قال عنه القس هنرى هس " إنه من

(2) Ibid. I, 29.
(3) Ibid. 30.
(4) Ibid. 31.
(5) Ibid. 32.

أعظمَ الكتب التى وضعت فى تاريخ الكنيسة يمتاز بالحيدة وعدم التعصب"[٦].
يتساءل المؤرخ: "لماذا لم يستند يوسيبيوس إلا إلى شهادة الإمبراطور دون ذكر شهادة أحد من الألوف الذين كان ينبغى أن يكونوا قد شاهدوا ذلك؟ ولماذا لم يقل إن الخبر شاع فى العالم واعتمد على شهادة كثيرين عوضا عن ذكر مجرد شهادة قسطنطين بالانفراد معه؟ وإن كان الله قد قصد إنارة عقل قسطنطين، هل يصدق بأن الله أراه مجرد صورة صليب بدلا من أن يوحى إليه؟ وهل يصدق أن يسوع المسيح ملك الملوك أمر ذلك الإمبراطور بصنع صليب مادى جعل عليه كل اتكاله من أجل النصر؟ وكيف يمكن أن تكون هذه القصة غير معروفة للعالم المسيحى حتى بعد حدوثها بخمس وعشرين سنة؟ ولما عرفت كان ذلك عن حديث بين يوسيبيوس وقسطنطين. ألا يكون الأرجح أن يوسيبيوس استنتج ذلك من حديث الإمبراطور عن هالة براقة ظهرت حول الشمس نهارا وعن حلم مؤثر رآه فى الليلة التالية مما جعله يصنع الصليب المرصع ويستخدمه راية لجيشه[٧].

أما جونز فيرى أن قسطنطين قد تخيل هذه الرؤية أخيرا، ويتأكد ذلك من الطريقة التى يقدم بها يوسيبيوس القصة من أن الإمبراطور لم ينشر هذه الحادثة بل أفضى له بها فى لحظة من لحظات الألفة والمودة، ويقول إن ما يحتمل أن يكون قسطنطين قد رآه ليس سوى ظاهرة نادرة لهالة طبيعية مشابهة لقوس قزح نتجت عن سقوط - لا المطر ولكن - كرات الثلج خلال أشعة الشمس، وهى عادة تأخذ شكل شموس مصطنعة أو حلقات من الضوء تحيط بالشمس، وربما تكون الفترة التى تبدى فيها ذلك قصيرة. والعرض غير مكتمل المشاهدة، ولكنه كان بالنسبة لخيال قسطنطين المكدود المنهك ذا دلالة كبيرة، فهى الشمس التى يقدسها، وفى ساعة من ساعات احتياجه بعثت إليه الشمس بعلامة، وكانت العلامة الصليب شعار المسيحيين، وأيما كانت تعنى .. المسيح مظهرا للشمس التى لا تقهر، أو أن

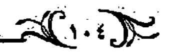
(٦) راجع مقدمة الترجمة العربية لكتاب " تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة " بقلم القس هنرى همن.
(٧) موسهيم، حاشية ١ ص ١٢٧-١٢٨.

الشمس هى رمز القوة الإلهية التى إياها يعبد المسيحيون، فقد كان واضحا أن المسيح، سيد الصليب، قد أصبح بالنسبة لقسطنطين بطله وحاميه(٨). أما ديفز Davis فيشك فى الرواية إطلاقا وإن كانت تحمل فى رأيه معانى هامة(٩).

والآن .. تعالوا بنا نناقش بهدوء رواية شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى حول هداية قسطنطين إلى المسيحية، لندرك إلى أى حد مدى الصدق فيها من عدمه، وما الهدف الأساسى من وضعها .. وما هى أبعادها الحقيقية، وما النتائج البعيدة التى ترتبت على روايتها.

فالشيء الذى يدعو للتساؤل حقا أن يوسيبيوس قد أورد لنا هذه القصة فى كتابه حياة قسطنطين على لسان الإمبراطور نفسه، ولما كان هذا الكتاب قد وضع بعد وفاة الإمبراطور عام ٣٣٧، فإن خمسة وعشرين عاما تفصل بين الحادثة وذكرها، أما فى تاريخه الكنسى والذى أنهاه فى عام ٣٢٤، أى بعد الحادثة بأثنتى عشرة سنة فقط. فلم يذكر لنا شيئا، وكل ما يقوله عن الفترة التى سبقت الحرب بين قسطنطين وماكسنتيوس نصه: "أما قسطنطين الذى كان متقدما فى المقام والمركز الإمبراطورى فإنه فى بداية الأمر إذ أشفق على من ظلموا روما، وإذ لجأ بالصلاة إلى إله السماء وكلمته يسوع المسيح مخلص الجميع كعون له، تقدم بجيشه." (١٠). ويكاد يكون هذا القول هو نفس ما يذكره يوسيبيوس عن ليكينيوس فى صراعه ضد ماكسيمينوس(١١). أما لاكتانتيوس فلم يكن ليسكت عن شيء من هذا القبيل لو أن خبرا كهذا ذاع آنذاك، خاصة وأنه كان قد استدعى ليصبح معلما لكريسبوس بن قسطنطين، وقد عهدناه يخبرنا بما يجرى وراء أستار القصر الإمبراطورى فى نيقوميديا، فلا عليه إذن أن يحدث عما لابد وأن يكون قد شاع وقتها بين العسكر والناس حول هذه الرؤية، ولكن لاكتانتيوس لا يذكر شيئا البتة عن هالة من نور

(8) Jones, Constantine, p. 96.
(9) Davis, op. cit. p. 14.
(10) EVSEB hist. eccl. IX, 9.
(11) Ibid. 10.



تحيط بصليب ظهر في السماء، بل كل ما يذكره أن قسطنطين أُرشد في حلم رآه إلى اتخاذ علامة المسيح شعارا يضعه على دروع جنده، وأن يتقدم به إلى المعركة، فصدع قسطنطين بالأمر(١٢). وكان ملاك الرب الذى تبدى لقسطنطين فى حلمه هو نفسه الذى زار ليكينيوس فى نومه ولقنه صيغة الصلوات والدعوات التى تضمن له النصر على خصمه(١٣). ومن ثم فالمسألة عند لاكتانتيوس لا تعدو حلما رآه كل من قسطنطين وليكينيوس قبل أن يدخل كل منهما الحرب ضد منافسه، وأن ملاكا للرب جاء إليهما فى نومهما أعطى الأول شارة النصر ولقن الثانى أدعية الانتصار.

وهكذا نرى يوسيبيوس يعطينا روايتين تخالف كل منهما الأخرى، وكلاهما يختلف ورواية لاكتانتيوس إلا فى مسألة "الحلم" فقط، واضطراب الروايات عن هذين الكاتبين، بل عند يوسيبيوس وحده تدعونا إلى الشك فى قبول أى منها.

ولكن ما لنا نناقش حول قصة يوسيبيوس وقد أنبأنا فى بداية مؤلفه عن "حياة قسطنطين" أن من العار عليه ألا يحدث عن إمبراطور فاق الجميع فى محبته لله، "محبوب الرب" ذلك الذى اختارته العناية الإلهية ليقر السلام على الأرض"(١٤)، ولم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدى إلى المسيحية على لسان قس مسيحى أو مبشر، وإلا لما تفرد الإمبراطور بشيء عن غيره من ولد آدم، وإنى لأخال يوسيبيوس يضع لقادم الأجيال قصة رجل أنقذ من الضياع المسيحية، يضفى على أفعاله إرادة السماء لا رغبات البشر، وعناية الرب لا عون الإنسان، وفرق كبير بين أن تعى الأجيال المسيحية أن معتقدها على الأرض قد رسخ بيد إمبراطور هدته السماء، وبين إدراكها أنها حيت نتيجة إرادة حاكم جذبته إلى صفها ألسن بنى البشر!!.

دخل قسطنطين دخول الظافر روما، فرفعه الشعب والسناتو إلى عليين، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لآلام المخلص تذكارا، ونقش على قاعدته

(12) LACT. Mort. Pres. 44.
(13) Ibid. 47.
(14) EVSEB. vita Const. III, 2.

"بهذه العقيدة المقتدرة، رمز الشجاعة الخالصة، أنقذت مدينتكم، ومن نير الطاغية فككت عقالها، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم إلى قديم مجدهم وشرفهم"(١٥).

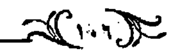
بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحة مع المسيحيين، ولكنه لم يقف عند حد المسامحة بل ذهب – بعد دخوله روما مباشرة – إلى ما هو أبعد من ذلك، فأظل الكنيسة بوارف رحمته، وشملها بعطفه ورعايته، وهذا بين من رسالة بعث بها في شتاء عام ٣١٢/٣١٣ إلى أنولينوس Anullinus بروقنصل أفريقيا، يقول:

"أنوللينوس .. عزيزى . تحياتى . نظرا لما كشفت عن ظروف كثيرة من أنه عندما تُزدرى ديانة فيها يكمن أعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة، يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر، تهديهما رحمة الرب إذا ما حظيت بالإحياء والحماية ذات العبادة، فقد تقرر يا عزيزى أن ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون، متبعين هذه الديانة الإلهية، تعويضا عن هذه الخدمات، ويسرنى أن يعفى تماما من أداء الواجبات العامة، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها كايكليانوس Caecilianus والمدعوون رجال الدين، القائمون بخدمة هذه الديانة المقدسة، المقيمون فى دائرة ولايتك، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية، أو يصرفهم دنس، ولشرائعهم بلا أى عائق يجب أن يكرسوا أنفسهم. فكم من خير تفيده الدولة جالما للإله قدم هؤلاء خالص العبادة. صحبتك السلامة عزيزى المحبوب أنوللينوس"(١٦).

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم فى الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له وبحمده نتيجة لها رجال الكنيسة، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة، وكف أيديهم بصورة لبقة عن التدخل

---

(15) EVSEB. hist. eccl. IX, 9; Vita Const. I, 40.
(16) EVSEB. hist. eccl. X, 7.



فى أمور ولاية تعد آنئذ من أهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك أن ينصرفوا إلى ممارسة شعائرهم وطقوسهم، ولا يعوقهم عن توقير ربهم عائق، متطهرين من كل ما قد يعلق بأرواحهم جزاء انشغالهم بتلك الواجبات العامة. ولابد أن قسطنطين كان يدرك مدى الأثر الكبير الذى يمكن أن يتركه رجال الدين المسيحى فى نفوس رعيتهم لتعضيد الحاكم أو التمرد على سطوته، ومن ثم أراد أن يكتسب إلى صفه رجالا ذوى نفوذ كبير فى أنفس الجموع المسيحية، لما يعلمه من أهمية هذه الفئة ومدى تأثيرها على مشروعاته القابلة، وقد أفصح هو نفسه عن ذلك صراحة فى ذات الرسالة حين اعتبر المسيحية مسألة حيوية بالنسبة لكيان الإمبراطورية، فقهرها واضطهاد اتباعها لم يجر على الدولة سوى الخراب والفوضى، على حين أفرخ الصفح عنها ضياء الرخاء والاستقرار، ولا شك أن قسطنطين كان يقرأ قرطاس الواقع الذى شهدته عيناه أيام كان فى القصر الإمبراطورى بنيقوميديا زمن دقلديانوس وجاليريوس، وما سمعه عن اضطهادات ماكسيمينوس فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية، لذا لم يكن عجبا أن يربط قسطنطين بين العطف على المسيحية والأخذ بيد أتباعها، وبين "الصالح العام" للدولة.

وشبيه بهذه الرسالة تلك التى بعث بها من بعد إلى أهالى فلسطين يمجد فيها الرب ويشيد بالعقيدة المسيحية(١٧)، ثم يرسم صورة للاضطهادات التى سادت قبل عصره والتى مارسها ضد المسيحية أباطرة سبقوه، ثم كيف أدت هذه السياسة إلى هلاك الكثيرين وإشعال نيران العداوة والبغضاء بين الجميع(١٨)، ويوضح الإمبراطور بعد ذلك أنه مبعوث السماء إلى الأرض، الذى اختاره الرب يبدد دياجير الظلام منذ كان فى بريطانيا، وليضرب بيد العنف على كل من يقترف الشر، تؤيده فى ذلك وترعاه يد إله مقتدر(١٩).

---

(17) EVSEB. vita Const. II, 24.

(18) Ibid. 25-27.

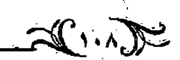
(19) Ibid. 28.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فإذا كان قسطنطين قد حرر رجال الاكليروس من عبء صدورهم به ضاقت، وهيأ لهم الفرصة الإجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر، إلا أن هؤلاء كانوا يتطلعون فى حسرة إلى دور عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد إلى أيدى أفراد أخر، ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك العيون وتطلعاتها، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا. قال:

"سلاما عزيزى أنوللينوس .. إن طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى إلا أن ترد على الآخرين حقوقهم، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد إلى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن فى حوزة المواطنين أو غيرهم، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء إلى أصحابها. ولما كان فطنتك يدرك مدى وضوح سياق أمرنا فأعد إلى الكنائس كل ما كان فى السابق لها ملكا، حدائق ودورا وأملاكا، حتى نعلم أنك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص. ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس[٢٠].

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى، ولكن بقى شيء كان على الإمبراطور حتما أن يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها، ذلك أن يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا، وهو عطف الدولة عليها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة فى رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين، وكان ذلك فى حد ذاته شيئا يبهر أعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا إلا بأوامر تهدم كنائسها، وتصادر أملاكها وتضطهد أفرادها، فإذا بقسطنطين يحرر الأنفس، ويعيد الأملاك، ثم ينعم بالأموال، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة رأسها متمردة ثائرة؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الإلهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة Carthage رسالة من الإمبراطور جاء فيها:

(20) EVSEB. hist. eccl. X, 5.



" قسطنطين أوغسطس إلى كايكيليانوس أسقف قرطاجة ... لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقاتهم خدام الكنيسة الكاثوليكية، لذا سطرت إلى أورسوس Ursus مأمور الحسابات فى أفريقيا آمره أن يدفع إلى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس Folles ... وإذا تبين لك أن عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هذا الخصوص تجاه الجميع، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس Heraclides وكيل أملاكنا، ما أنت إليه فى حاجة؛ فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير أى مبلغ يطلب جنابكم[21]".

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعايا المسيحيين، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة أشد ما يكون حاجة لمثل هذا الولاء، وإلى أن يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا، ومن أملاك ليكينيوس قانونا. أما وقد نال الأول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرها تحت سطوة المنتصر وتدخل ضمن دائرة نفوذه بمنطق القوة والغصب. أما ليكينيوس صاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هذا المنطق إلا أن يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها. ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين أن يقدم على مذبح الولاء قربانا. ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة، قاست صنوف العذاب ألوانا، من غيابة الاضطهاد، ثم رده إليها ما كان لها، والإغداق عليها من جانب إمبراطور كان أسلافه الذين قذفوا بها فيها. وكان قسطنطين بارع الدعائية، فقد احتزت رأس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهاية عصر "الطاغية" فى روما، وتومئ ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد، وفى الناحية الأخرى إعفاءات تمنح وهبات.

ويلفت النظر فى رسائل قسطنطين إلى أنوللينوس وكايكيليانوس قوله "الكنيسة الجامعة"[22]، تلك العبارة التى ترددت دوما فى تلك الرسائل، ثم يزيد

(21) EVSEB. hist. eccl. X, 6.
(22) EVSEB. hist. eccl. X, 5-6.

الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنها تلك "التى يرأسها كايكيليانوس"[٢٣]، وقد دفع قسطنطين إلى هذا التحديد ما يذكره هو نفسه فى رسالته إلى أسقف قرطاجة كايكليانوس يقول: "لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعم ودنسها"[٢٤]. وهو يشيرها هنا إلى الدوناتيين الذين سنتحدث عنهم فى الفصل التالى. ولنا بالطبع أن نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين إلى تخصيص رعايا "الكنيسة المقدسة الجامعة" بالذات دون اتباع دوناتوس؟

جاء فى رسالة الإمبراطور السالفة إلى أسقف قرطاجة: "متى تسلمت المبلغ المشار إليه، فإنى أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه وفقا للقائمة التى بعث إليك بها هوسيوس Hosius"[٢٥] ونعلم من سقراط[٢٦] أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة، وأنه كان عندئذ مستشار قسطنطين للشئون الدينية، ومجيء اسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية[٢٧]. ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الإمبراطور إلى جانب المسيحيين بداءة[٢٨]. ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين، متحركا نشطا فى الأحداث التى وقعت بعد ذلك خاصية فى مسألة الصراع الآريوسى، وسيظل كذلك إلى أن يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الإمبراطور قسطنطيوس من بعد.

ولا أظن شيئا من المغالاة يصاحب قولنا إن قسطنطين وقد فتح على نفسه باب عقيدة جديدة، كان فى حاجة إلى من يُهدى الخطى منه فى دروب هذا الدين الجديد. حقيقة لقد رسم لنفسه طريق هدايته بضياء من عل، أما التفاصيل الأخرى

(23) Ibid. 7.
(24) Ibid. 6.
(25) EVSEB. hist. eccl. X. 6.
(26) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.
(27) Jones, Constantine, p. 82.
(28) Burkhardt, op. cit. p. 301.

الخاصة باتباع الدين الجديد فلا ضير أن يتلقاها من البشر فهم بها أعلم. وكما أن بلاطه وجيشه ودواوين حكومته كانت تعج بالوثنيين وإلى جواره منهم المستشارون، فلابد أن يكون إلى جانبه بضع أناس من ذوى المكانة بين أصحاب هذه العقيدة الجديدة، وهذا هو ما يخبرنا به يوسيبيوس نفسه(٢٩) وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا إلى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة، وبالتالى كان أسقفها، إذا ما قورنت بروما والبابا، ولما كان قسطنطين يكره أن يكون لأحد ما أى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه، ويخشى إذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين، كان "هوسيوس" المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع، ودليلنا على ذلك أنه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة ومركز ممتاز، لكنه أغفل أساقفتها، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما، وظل مبقيا على هوسيوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له لفترة طويلة من عهده، وكان أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الإمبراطور على الكنيسة الكاثوليكية فقط دون أتباع دوناتوس.

لم يمكث قسطنطين فى روما بعد انتصاره على خصمه، إلا عدة أشهر، ثم شخص فى مارس ٣١٣ إلى ميلانو حيث وافاه ليكينيوس هناك، ويقول جاكسون أن اختيار قسطنطين لميلانو بالذات مكانا للقائه مع ليكينيوس يرجع إلى رغبته فى الابتعاد عن روما بتقاليدها الوثنية وادعاءات رجال السناتو(٣٠)، ولم يشغل صخب وضجيج احتفالات الزواج التى شهدتها المدينة الإمبراطورين عن عقد اجتماعات انتهت إلى تقرير سياسة معينة اتفق الطرفان على التزامها، وكان من بين الموضوعات التى تناولتها المحادثات بين الزعيمين، مسألة معاملة الرعايا المسيحيين فى الإمبراطورية، وتعهدا بمنح الحرية الدينية لكل سكان الإمبراطورية

(29) EVSEB. vita. Const. I, 32.
(30) F. Jackson, op. cit., p. 283.

شريطة ألا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة. ولم تصلنا سجلات تلك الاجتماعات، ولكن هذه النية حفظتها لنا رسالة بعث بها ليكينيوس إلى نائبه فى نيقوميديا بعد انتصاره على ماكسيمينوس[31]، تضمنت السياسة التى رأى الطرفان اتباعها فيما يختص بالمشكلة الدينية، ولهذا شاع بين المؤرخين خطأ تسمية هذه الرسالة "بمرسوم ميلانو". والحقيقة أنها ليست بيانا رسميا صدر عقب انتهاء المحادثات بين قسطنطين وليكينيوس، ولكنها رسالة أذاعها النائب الإمبراطورى فى نيقوميديا بعد أن جاءته من سيد الشرق الجديد، وأخذ قطبى ميلانو، وقد حفظ لاكتانتيوس نص الرسالة، وأورد يوسيبيوس ترجمة يونانية لها[32]. وقد ظهرت هذه النظرية أولا، وهى أن مرسوما لم يصدر البتة من ميلانو، على يد العالم الألمانى O. Seeck سنة ١٨٩١[33]. على أية حال فقد كانت رسالة ليكينيوس هذه تعبيرا عما استقر عليه الطرفان فى ميلانو سنة ٣١٢، وقد جاء فيها:

"لما كنا قد أدركنا منذ عهد أن أحدا يجب أن لا يحرم من حريته العقائدية بل يحق أن تترك لإرادته وفطنته حرية اختيار مقدساته الدينية، فقد أصدرنا قبلا أوامرنا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشعائرهم ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود، بعد صدور ذلك المرسوم الذى به حصل المسيحيون على حريتهم".

والإشارة هنا إلى مرسوم صدر قبل اجتماع ميلانو، ولكنا لا نعلم شيئا من هذا القبيل، وأغلب الظن أن المرسوم المشار إليه هنا هو ذلك الذى صدر سنة ٣١١ باسم الأباطرة الثلاثة، وهو المرسوم الذى لم تتح له الفرصة ليوضع موضع التنفيذ نتيجة للصراع العنيف الذى شب عقب وفاة جاليريوس.

وتمضى الرسالة قائلة:

---

(31) LACT. Mort. Pers. 48.
(32) EVSEB. hist. eccl. X, 5.
(33) Vasiliev, op. cit., 1, p. 51.

"وعندما أتينا ميلانو، وتأملنا كل ما يجلب الصالح العام ورفاهية الجميع، اعتزمنا ابتداء أن نصدر من الأوامر ما يعود بالخير على كل نفس، وفى سبيل ذلك يمنح المسيحيون وسائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه حتى يتفضل علينا الرب بجميل نعمائه".

على هذا النحو بدأت الرسالة بإطلاق حرية العقيدة لكل رعايا الإمبراطورية بلا تمييز، وأقرت حق الفرد فى الإيمان بما يتفق وقلبه، ويتأكد هذا المعنى بصورة أكثر وضوحا فى النص الذى يقول: "إن السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى إله يريد، دافعنا إلى ذلك أن لا يتوهمن إنسان أننا لأى من الديانات أسأنا". وجاء فى الرسالة أيضا: ".. وكل من يهوى اتباع ديانة المسيحيين فله ذاك دون ما مانع .. لقد منحنا المسيحيين فى ممارسة شعائر ديانتهم كامل الحرية".

بهذا الاعتراف الحكومى غدت المسيحية والديانات الأخرى داخل الإمبراطورية على قدم المساواة، وأضحت دينا شرعيا شأن قريناتها[٣٤] وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية، وساد الكنيسة سلام طالما إليه تاقت، وقد هللت الكنيسة لهذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ، ولا أدل على ذلك مما عبر به يوسيبيوس عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله:

"أخيرا .. أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام، وبأشعة نور سماوى أضاء فى العالم كنائس المسيح، وحتى أولئك الذين ليسوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات، أو على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى أغدقها الرب علينا[٣٥]".

وفى هذا القول الأخير إشارة إلى أن الحرية الدينية لم تكن قاصرة على

(34) Cochrane, Christianity and classical culture, p. 178.

(35) EVSEB. hist. eccl. X, 1.

المسيحيين فحسب بل تمتع بها كل فرد فى الإمبراطورية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل تضمن الاتفاق أيضا ضرورة عودة كل ممتلكات المسيحيين إليهم أو تعويضهم عنها، وهو ما ورد فى صدر رسالة ليكينيوس:

"وأخيرا فقد رد على المسيحيين ما كان منهم قد أخذ: فإذا حدث أن أماكن المسيحيين التى درجوا على الاجتماع بها .. قد اشترتها خزانتنا أو أشخاص آخرون، وجب ردها إلى المسيحيين على الفور دون عوض، وحتى أولئك الذين حازوا مثل هذه الأماكن هبة أو هدية، عليهم تسليمها لأصحابها، بلا تردد أو تأخير، وليذهبوا إلى نائبنا إن شاءوا لينالوا من عطائنا ما يرضيهم، ولما كان معلوما أن هؤلاء المسيحيين لم يتملكوا مجرد هذه الأماكن، بل أماكن أخرى تعتبر من أملاكهم كجماعة، وجب ردها أيضا دون إبطاء".

تلك أهم النقاط التى من حولها دار البحث بين الإمبراطورين فى ميلانو، وعليها قر رأيهما، وحملتها إلينا رسالة نيقوميديا، على أن الشىء الذى يجب أن تعيه ذاكرتنا أن اتفاق ميلانو لم يكن أول اتفاق من نوعه على جعل الديانة المسيحية شرعية فى الإمبراطورية، بل سبقه إلى ذلك مرسوم سنة ٣١١، حتى يجوز لنا القول إن ما جاءت به رسالة ليكينيوس ليس إلا تأكيدا لمرسوم جاليريوس ورفيقيه. فهذا الأخير قد تضمن الصفح والعفو عن المسيحيين الذين ناوءوا الحكومة متمسكين بعقيدتهم وسمح لهم بإقامة الشعائر، وأباح لهم إعادة بناء وتعمير دور اجتماعاتهم وعبادتهم(٣٦)، ولم تزد رسالة نيقوميديا عن ذلك شيئا اللهم إلا النص على إطلاق الحرية الدينية لكل الأفراد، وذلك شىء لم يكن مرسوم سنة ٣١١ فى حاجة إلى توضيحه. لأن هذه الحرية يتمتع بها فعلا أتباع الديانات الأخرى، ولم يكن منها محروما إلا المسيحيون. ولذلك منحهم المرسوم إياها، وإلا تكفل الدولة بأن تدفع تعويضا للأفراد الذين سيتخلون عما أخذوه آنفا من الكنيسة، أما فيما عدا ذلك فليس اتفاق ميلانو إلا إقرارا لما سبق إليه مرسوم جاليريوس الذى لم يدخل

(36) EVSEB. hist. eccl. VIII, 17.



قط دائرة التنفيذ، وذلك شيء تعترف به منذ البداية الرسالة التى بين أيدينا، حيث تذكر على لسان الإمبراطورين: "فقد أصدرنا أوامرنا قبلا بأن تحفظ للمسيحيين عقائدهم وشرائعهم، ولكن عددا كبيرا منهم منع من ممارسة هذه الشعائر نتيجة لما تعرضت له هذه الحرية من قيود عدة بعد صدور ذلك المرسوم الذى حصل به المسيحيون على هذه الحرية". وحتى ذلك الذى تم عليه الاتفاق فى ميلانو لم يؤخذ هو الآخر مأخذ الجد، فقد رأينا ليكينيوس يعود من جديد لاضطهاد المسيحيين.

خلاصة القول إنه ليس هناك حتى الآن ما يسمى بمرسوم ميلانو، وكل ما لدينا رسالة تلقاها نائب الإمبراطور فى نيقوميديا من سيد الشرق الجديد ليكينيوس تفصح لنا عما دار بين الإمبراطورين فى ميلانو. المهم أن هذه الرسالة أفصحت فى جلاء عن البواعث التى دفعت الزعيمين إلى انتهاج تلك السياسة قبالة المسيحيين، فقد جاء فيها: "إن السلام الشامل فى أيامنا هذه يستوجب أن يمتلك كل فرد حرية عبادة أى إله يريد"، واختتمت الرسالة على النحو التالى فى صيغة الأمر للنائب الإمبراطورى: "لكى يعم الهدوء ويسود السلام، ابذلوا كل جهدكم لإتمام أوامرنا بسرعة لأننا بهذا السبيل نضمن دوام رحمة الرب، وذلك أمر فى كثير من الأمور وعيناه".

وبشىء من التحديد يمكن القول إن "سلام" الإمبراطورية و "وحدتها" و"صالحها العام" كان دافع قطبى ميلانو للمبادرة باختطاط هذه السياسة، وهذا المعنى ورد فى رسائل قسطنطين العديدة التى بعث بها إلى شمال أفريقيا فى ذلك الحين. وتلك التى كتبها بعد أن غدا إمبراطورا على الإمبراطورية فردا. ولكننا نقنع الآن بما جاء فى رسالته إلى أنوللينوس والتى سبق الحديث عنها، وفيها يذكر قسطنطين الضرار التى يمكن أن تتعرض لها الإمبراطورية بمهاجمة هذه الديانة واتباعها، ومدى ما يمكن أن تفيده الدولة إذا ما وقرت المسيحية. والذى لا شك فيه أن الأباطرة الرومان أدركوا أنه رغم موجة العنف التى مارسوها رسميا منذ منتصف القرن الثالث الميلادى ضد المسيحيين، لم تصرف هؤلاء عن عقيدتهم، ولم تدفع بهم إلى الوثنية ثانية، وأن هذه السياسة العنيفة لن تؤدى إلا إلى المزيد من

الصداع المستمر فى رأس اللاإمبراطورية . ومن ثم فلا ضير من التحول عنها إلى سبيل آخر يحقق فى المقام الأول سلام الإمبراطورية وسلطان الحاكم.

كان يوسيبيوس وفيا بتعهده الذى قطعه على نفسه منذ البداية بأن يحدث عن فضائل قسطنطين وأياديه البيضاء التى قدمها للكنيسة طيلة فترة حكمه، فذكر أن الإمبراطور قرر عودة المسيحيين الذين نفتهم السلطات الحكومية قبلا إلى جزر نائية أو مناطق جبلية موحشة[٣٧]، وعفا عن أولئك الذين حكم عليهم بالعمل فى المناجم أو سخروا فى الأعمال العامة[٣٨]، وحرر هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى المجتمع الراقي ثم أنزلوا إلى مرتبة العبودية وأجبروا على الخدمة في المنازل[٣٩]، وسمح للجنود أو الضباط الذين حرموا من رتبهم العسكرية إما بالعودة إلى مناصبهم مرة أخرى وإما بالعيش الهادئ بعد أن يرد اعتبارهم[٤٠]، وأمر بأن تعاد مقابر الشهداء إلى ملكية الكنيسة وأن تصبح تحت إدارتها[٤١]، وأن تعود أملاكهم المصادرة إلى أقرب أقربائهم فإن لم يكن لهم ورثتهم الكنيسة[٤٢]، وأباح لهذه الحصول على الهبات والتبرعات التى يقدمها المواطنون[٤٣]، ورد إلى الذين انتزعت منهم بسبب عقيدتهم أملاكهم من الأراضى والحدائق والدور[٤٤] حتى ولو كانت هذه قد أصبحت فى حوزة الخزانة الإمبراطورية[٤٥]، وعلى الذين ابتاعوا ممتلكات تخص الكنيسة أو تسلموها هبة المبادرة إلى تسليمها ثانية[٤٦]، وفتح أمام المسيحيين باب الوظائف الحكومية وسلم الترقى فيها[٤٧] ومنح المحاكم الأسقفية

(37) EVSEB. vita Const. II, 30-31.
(38) Ibid. 32.
(39) Ibid.34.
(40) Ibid.33.
(41) Ibid.40.
(42) Ibid.35
(43) Ibid. 36.
(44) EVSEB. vita Const. 37.
(45) Ibid. 39.
(46) Ibid. 41.
(47) Ibid. 44; SOCRAt. hist. eccl. I, 18; SOZOM. hist. eccl. I, 8.

امتيازات هائلة حيث أصبح من حق أى فرد، باتفاق طرفى الخصومة، رفع دعوى مدنية لدى المحاكم الأسقفية حتى ولو كان قد تم السير فى إجراءات تلك الدعوى أمام المحكمة المدنية، وعلى مشارف نهاية حكم قسطنطين وسع اختصاصات المحاكم الأسقفية حيث عد حكم الأسقف نهائيا فى مختلف الدعاوى، وغدا فى الإمكان إحالة أية دعوى مدنية إلى المحكمة الأسقفية فى أى مرحلة من إجراءاتها حتى ولو لم يقبل أحد الخصوم، وأوجب تصديق القضاة المدنيين على أحكام المحاكم الأسقفية، وبذا زادت سلطات الأساقفة فى المجتمع(٤٨)، وبعث قسطنطين إلى عماله فى مختلف الأقاليم يوجههم إلى المساعدة فى إقامة الكنائس، وأن لا يبخلوا بشىء فى سبيل ذلك حتى من الخزانة الإمبراطورية ذاتها، وأرسل إلى الأساقفة أيضا رسائل تتضمن هذا المعنى، وكان يوسيبيوس بالطبع من بين هؤلاء الأساقفة، ويذكر أنها كانت أول رسالة تلقاها من الإمبراطور(٤٩)، وتضمنت – وهى على غرار رسائله الأخرى إلى باقى الأساقفة – حديثا عن نهاية العهد الذى كانت فيه الكنائس عرضة للتدمير والتخريب، أما الآن وقد أظل الإمبراطورية من السلام عهد جديد فلهم أن يقوموا بإصلاح ما عطب من دور العبادة هذه، وإنشاء كنائس أخرى جديدة، وإذا ما أعوزتهم النقود الحاجة فما عليهم إلا أن يلجأوا إلى حاكم الولاية التى تقع فيها دائرتهم(٥٠).

ويضيف يوسيبيوس أن الإمبراطور خط بيمينه رسالة إلى سكان الإمبراطورية جمعاء يدين فيها الوثنية ويمجد المسيحية(٥١)، أورد فيها تقريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله، وبدأها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة، وقارن بين ورع والده وتقواه وعطفه على المسيحيين، وخبث دقلديانوس وماكسيميانوس واضطهادهما لهم، ويعدد قسطنطين صنوف المخاطر وألوان التعذيب الذى تعرضت له هذه الجماعة على أيدى تلك الطغمة الآثمة، ويذكر –

(48) Vasiliev, op. cit. I, p. 53.
(49) EVSEB. vita Const. II, 45.
(50) Ibid. 46; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(51) EVSEB. vita Const. II, 47.

والعار يملأ حديثه - كيف كانت معاملة البرابرة لأولئك المسيحيين الهاربين حسنة رقيقة، فى الوقت الذى لقوا فيه الاضطهاد من العالم الرومانى المتمدين، ويعود الإمبراطور ليؤكد من جديد الانتقام الإلهى الذى لحق بهؤلاء المضطهدين جزاء ما قدمت أيديهم، ثم لا يلبث أن يذكر ما فعله هو من أجل تمجيد الرب وإعلاء شارة الصليب، وكيف أنه كان يصلى دائما من أجل الكنيسة والجموع، بل لقد كانت صلاته دعاء إلى الرب أن يهدى إلى المسيحية العالم أجمع، ولكنه فى الوقت نفسه لا يجبر أحدا على ذلك، فلما نظر الرب إلى هذه الفعال من جانب الإمبراطور أنعم عليه بهذه الحكومة العالمية، ويختتم رسالته بتحذير يعظ به الجميع حاثا إياهم على العيش فى سلام والإخلاد إلى الهدوء[٥٢].

هكذا .. وعلى قيثارة "المن" راح قسطنطين يعزف للكنيسة لحن "الخيرات" التى أغرقها فى أنغامها، ويردد على مسامع جمهورها دائما تلك المقطوعة التى لم يمل منها وجيز برهة، وأرهفت الكنيسة أذنيها لتسمع، فقد كان لابد لها أن تسمع بل وأن تعى من اللحن كل نغمة، ولم يفت الإمبراطور أن يذكر دوما فى أنشودته أنه مبعوث الرب، وأن الإله الأعلى هو الذى فى البدء هداه، وهاهو ذا يسدد خطاه .. فما على الكنيسة إذن إلا أن تسبح بحمد هذه الرحمة الإلهية، ولها تدعو وإياها توقر!!

وكأنى بقسطنطين يريد أن يضع أمام أعين رجالات الكنيسة صورة لمدى عون الرب له بمنحه هذه "الحكومة العالمية" التى يحدث عنها، والتى لم تكن لتشمل الرومان وحدهم، بل تخضع البرابرة أيضا. ففى رسالة بعث بها إلى مجمع الأساقفة المنعقد فى صور سنة ٣٣٥ يقول قسطنطين:

"بفضل جهدى، ولأنى لله نعم الخادم، آمن البرابرة بعبادة الرب، وما ذلك إلا لأنهم أيقنوا أنه حافظى وحامينى فى كل خطو ودرب. ولأنهم من خشيتنا أدخلوا إلى المعرفة الحقة للإله الذى هم الآن بعبادته قائمون[٥٣]".

(52) EVSEB. vita Const. II, 48-60.
(53) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.



وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب إلى ملك فارس رسالة(٥٤) يردد في صدرها من جديد أنغام فضله على المسيحيين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها، فيفتتحها قائلا:

"إني كما تبرهن أعمالي اعترف بأقدس عقيدة، فهذه العبادة ذاتها تقودني إلى معرفة الرب القدوس، الذي بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصي المحيط، كل أمة في هذا العالم لتلمح الأمل في الأمان، وعليه فإن كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة، قد بعثوا من جديد بفضل حكمي وإرسائي قواعد أسعد دولة".

ولا يختلف هذا المعني - كما نرى - عن سابقه، وتلك على التتابع كانت عادة قسطنطين. فما من رسالة كتبها أو أمر بها إلا وفيها لأنشودة فضل حكمه على المسيحيين مقام معلوم، والمقصد من هذا كله بين جلي.

وإذا كان قسطنطين قد ساق بالقوة البرابرة - كما يدعي - إلى حظيرة المسيحية وهو مالم يحدث مطلقا في دنيا الواقع، فنال بذلك تهليل الكنيسة واستحسانها، فلا أقل من أن يستحث ملك فارس على رفع الظلم عن كواهل رعاياه المسيحيين، فدعاه في رسالته إلى معاملتهم معاملة طيبة وأن يشملهم بعطفه ورعايته، حتى ينال بذلك رضا ربهم وجميل نعمائه، فيقول الإمبراطور:

"إني لأضرع أن يحل عليك الرخاء وإياهم، وأن تشملكما على قدر واحد البركات، فبهذا السبيل سوف تغاين حب الله وعطفه، الرب أب الجميع والسيد. والآن وأنت صاحب السلطان أوصيك بهم خيرا، فلتسعهم رحمتك ولتكلأهم رعايتك، فتقواك للعيان بادية، ولتبسط عليهم جميل فضلك وعطفك، فإنك بهذا السبيل تضمن لك ولنا عظيم النعم".

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معاني أخرى:

---

(54) EVSEB. vita Const. IV. 9-3.

"هذا الرب ... وأنا على ركبتي جاث، إياه استعيذ من هول دماء تلك الأضحيات، وإليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية، وما ذلك إلا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة، قد أوردت جل لا بل كل أمم العالم الوثني ورد الهلاك. فرب الكل السيد، وهبها البركات، ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف إرضاء لخاص الشهوات. وليس للرب على الإنسان إلا نقاوة عقل، واستقامة روح، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال. يحب الحليم ويبغض اللئيم .. يبتهج للإيمان ومن الكفر يقتص. يهوى بجبروته كل عات، ومن صلف كل متكبر ينتقم. وفي الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس، ولكنه يجزى المتضع، وبما استحق من جزاء يثيب، وبمثل هذا يمد الرب عونه لمملكة بالعدل قائمة، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام ... وبعد يا أخي .. فأنا على يقين بأني غير مخطئ في اعترافي بهذا الإله الواحد. المبدع، الأب لكل الأشياء، الذي جافاه كثير من أسلافي، مقودين بجنون الخطيئة، مما جر عليهم رادع العقاب حتى راح ما تلاهم من أجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعبه الرغبة في سلوك الدرب، ومن عداد هؤلاء واحد حدث به صاعقة العذاب الهون، فراح من هنا طريدا، وكانت أراضيكم له المنفى والمصير. وكان العار الذي لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم[٥٥] وأنها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذي حل بكل أولئك - على النحو الذي أوضحت - بينا للجميع في عصرنا، ذلك أني قد عاينت نهاية أولئك الذين، بكافر مراسيمهم، ناكدوا عباد الرب. وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله. فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام. وعليه فإني لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الآمن. فإذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا، يقدسون ذاته، تعطف الرب فآواهم إلى رحابه".

---

(٥٥) يشـير قسطنطين هنا إلى ما كان من أمر هزيمة الإمبراطور الروماني فاليريان (٢٥٧ - ٢٦٠) على يد الفرس وأسره. راجع ص ٤٠.

بهذا الترديد فى رسالته يقدم قسطنطين لشىء واحد يريد قوله منذ البدء، ذلك هو حث سابور الثانى Sapor II على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية إيمان يعظ أمام المذبح جموعا!!.

لقد كان فى مقدور الإمبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى إنصاف عباد الإله الواحد بداءة وينتهى. ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته، وإذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الإمبراطور لرأيناه عمد إلى ذلك قصدا مقصودا. فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الإله الواحد الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من أنه بعبادته قائم، وأن لم يفصح أبدا صراحة عن ماهية هذا الإله، ولا يرتاب فى أن ما امتلأت به رسالته من ابتهالات لهذا الرب وضراعة لا تعنى البتة شيئا لدى هذا الملك الثنوى، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد. رغم علمه بكل ذلك، إلا أنه ذكره مقرنا إياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وآذوا ناسها، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصوير غضب سيد الجميع. وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى. وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لما يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى، طالما أنه لا يؤمن بالواحد، وطالما كان يضطهد عباده. أما قسطنطين فالرب على الدوام أخذ بيده، ويبارك خطاه، وينصره على أعدائه أعداء الرب، لأنه يسلك سبل دينه، ويهتدي بنور شرعه. وإلا فبماذا نعلل كل هذا السياق إذا لم يكن قسطنطين قد قصد إلى ذلك فعلا؟.

شيء آخر لا نظنه من الحقيقة ببعيد، فقسطنطين يريد أن يضيف إلى مآثره على الكنيسة فضلا جديدا بأن يجعل من نفسه للإيمان داعية، وأن يظهر بصورة حامى ذمار هذا الدين فى داخل دولته وعبر أسوارها، وعند عدو للرومان لدود وكأنه يريد بذلك أن يدخل في روع الكنيسة حرصه على ضم بيعة جديدة إليها، فيمتد بذلك نفوذها إلى جهة كانت توقن أنها عن أيديها بعيدة المنال.

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعل عنيفاً في الأوساط الفارسية، وساورت الشكوك الملك الفارسي في نيات إمبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا إياهم صنائع عدوه[٥٦] وربما يعود ذلك لما نمى إلى علم الإمبراطور من خاصته بأن كل المسيحيين في مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية، وأن سمعان أسقف سلوقية Seleucia يرسل إلى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث في فارس[٥٧]. ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء في رسالة قسطنطين سالفة الذكر إلى سابور حيث يقول: "إنه لفي روعي والسرور يملأني، بعد أن أتتني أنباء سارة تتناغم ورغبتنا، إن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث إليكم الآن .. أعني المسيحيين"[٥٨]. ويرجع هذا الارتياب في نفس سابور إلى وقت طويل عندما تسلم زمام السلطة في المملكة، فهاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة في بابل وسلوقية وجنديسابور وآشور وغيرها[٥٩] فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات في سنوات ٣١٧، ٣٢٩، ٣٣٠، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما[٦٠]. وعقد في سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسي أقر فيه نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا[٦١].

ومما زاد في ارتياب الملك الفارسي أن تيريداتس الثالث Tiridates III (٢٦١ - ٣١٧) ملك أرمينيا، الذي أعاده دقلديانوس إلى عرشه، قد تحول في مطلع القرن الرابع إلى المسيحية، وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته[٦٢]. مما أدى بالتالي إلى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين[٦٣]، ومن ثم

---

(56) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(٥٧) موسهيم: تاريخ الكنيسة المسيحية، ص ١٣٥.

(58) EVSEB. vita Const. IV, 9 - 13.

(٥٩) أسد رستم: الروم جـ١، ص ٧٥.

(٦٠) موسهيم: تاريخ الكنيسة المسيحية، ص ١٣٥.

(٦١) أسد رستم: المصدر السابق، ص ٧٥.

(62) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.

(63) Cary, op. cit. p. 732.

لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى وإحياء التحالف القديم ثانية[٦٤]. ولاشك أن ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته. وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى إلى القبض على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى واحتلال بلاده، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان Hannibalianus ملكا، وكان هذا بالطبع يعنى الحرب مع فارس، ولم يؤخر انفجارها إلا موت قسطنطين[٦٥].

لهذا لا نستبعد أن يكون قسطنطين فى رسالته إلى ملك فارس يتحرش به ويستفزه، ليدخل معه فى جولة من جولات الصراع يجرب فيها للمرة الثالثة قوة ذلك الإله الذى خبره قبل ذلك على ضفاف التيبر وتحت أسوار خريسوبوليس. ولكن قدره لم يسعفه، فترك لخلفه مهمة اتمام هذه التجربة.

لم يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المادى بصوره المختلفة، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة، بل تخطاه إلى حيز الواقع العملى، أعنى إقامة دور العبادة، فينبئنا يوسيبيوس أن الإمبراطور بعد ارفضاض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات، وكان هذا العمل هو إنشاء كنيسة فى الموضع الذى "قام فيه المسيح ثانية من بين الأموات"، ويقول مؤرخنا أن قسطنطين لم يكن يصدر فى عمله هذا عن تفكيره المحض بل كان يتحرك بروح من المخلص نفسه[٦٦]، وقد أمر الإمبراطور بإزالة القمامة والمخلفات التى كانت تغطى ذلك المكان[٦٧]، وذهب إلى أبعد من ذلك وأمر أن تحفر الأرض إلى عمق معين حتى تتطهر من كل رجس يكون قد علق بها من جراء الدنس الذى أقدم عليه أعداء الرب[٦٨]، وكانت مفاجأة للجميع عندما عثر

(64) Jones, Later Roman Empire, I, p. 85.
(65) Id.
(66) EVSEB. vita. Const. III, 25.
(67) Ibid. 26.
(68) Ibid. 27.

أثناء الحفر على القبر المقدس[٦٩]، وقد أردف قسطنطين ذلك برسالة بعث بها إلى حكام الولايات الشرقية يأمرهم فيها أن يقدموا الأموال لإتمام بناء الكنيسة عند القبر المقدس، وأن لا يبخلوا فى هذا المقصد بشيء، وحملت نفس المعنى رسالته إلى مكاريوس Macarius أسقف أورشليم[٧٠]، وأوضحت مدى اهتمام الإمبراطور واحترامه وسعيه الدائم، لإتمام هذا العمل بصورة تليق بالمخلص[٧١]، وإقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها[٧٢]. ويضيف يوسيبيوس أن الإمبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة[٧٣]. وقام الإمبراطور أيضا بإنشاء كنيستين أخرتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون[٧٤] وزارت هيلينا Helena أم الإمبراطور، الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين[٧٥].

ونتيجة لهذه الرحلة التى قامت بها هيلينا، أو هيلانة كما يسميها الشرقيون، من صقلية إلى أورشليم، اعتبرت أول حاجّة فى التاريخ المسيحى، ولتصنع بذلك ومن بعدها القديس جيروم طقس الحج فى المسيحية وحظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية[٧٦]. ويذكر يوسيبيوس أيضا أن الإمبراطور قام فى سنة حكمه الأخيرة بإنشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية، ويعطينا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها[٧٧].

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الوثنية، مثل

(69) Ibid. 28.
(70) Ibid. 29.
(71) Ibid. 30; SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(72) EVSEB. vita Const. III, 31.
(73) EVSEB. vita Const. III, 40.
(74) Ibid. 41.
(75) Ibid. 42, 43; SOCRAT. hist. eccl. I, 17.
(76) EVSEB. vita Const. III, 50; SOCRAT. hist. eccl. I, 18,
(77) EVSEB. vita Const. IV, 58 - 59.

معبد أسكليبيوس Asclepius في ايجى بكيليكيا (Aegae (Cilicia ومعبدى Apheca و Hiliopolis في فينيقيا Phoenicia واقتلع أبوابها وأسقط أسقفها، وامتدت يداه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة[٧٨]. ويعلق جونز على ذلك بقوله أن قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد في إصلاحه النقدى[٧٩]. ويرجح أيضا أن يكون قسطنطين قد صادر ضياع هذه المعابد[٨٠]، ويذكر يوسيبيوس أن هذه الإجراءات التى أقدم عليها الإمبراطور أطاحت بهيبة الأرباب القديمة، وأضحت مثارا للسخرية، وقد ظهر عجزها في دفع الأذى عن نفسها، وكان ذلك داعية لهجر كثير من الوثنيين ديانتهم وتحولهم إلى المسيحية[٨١].

بهذا كله غدا قسطنطين في نظر الكنيسة ومؤرخيها رسولا، تخيرته السماء ليمجد الرب في الأعالى، وليحل على الأرض السلام، وليعيد للكنيسة عهدا من الأمان حرمت منه منذ ولدت، ولتنتشر بفيض رحمة الرب تعاليم المخلص وهديه، وقد عبر قسطنطين عن ذلك أحسن تعبير في تلك الرسالة التى بعث بها إلى فلسطين حيث يقول:

"لقد كنت عدة الرب التى اختارها، وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته. وعليه فإنه ابتداء من المحيط البريطانى البعيد والأقاليم التى وفقا لقانون الطبيعة، تستتر الشمس فيها بالأفق، وبمدد إلهى، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت، آملا، وأداتيتى للرب تنير خطوى، أن يرعى البشر ناموس الإله المقدس، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوى"[٨٢].

وبعد أن يعترف قسطنطين بفضائل الإله عليه، واعتبار كل خدمة توكل إليه من عند الرب هبة، يضيف قائلا:

---

(78) EVSEB. vita Const. III, 54, 56, 58.

(79) Jones, Later Roman Empire, I, p. 92.

(80) Id.

(81) EVSEB. vita Const. III, 57.

(82) EVSEB. vita Const. II, 28.

"هاأنذا إلى أقاليم الشرق أسعى. حيث أمست تحت نير الكوارث الجسام تتحرق لطباب شاف على يدى"[٨٣].

وبعد .. فهذه رحلة طويلة سرناها مع قسطنطين، متخذين من شيخ مؤرخي الكنيسة يوسيبيوس القيساري دليلاً ومرشدا فيما يتعلق بما فعله الإمبراطور مع المسيحيين، وذلك من خلال كتاب مؤرخنا "حياة قسطنطين " والذى يعد قصيدة شعر نظمها الرجل في مدح محبوبه، ولم ينكر هو ذلك فى افتتاحية كتابه هذا، حيث ذكر أنه سوف يحدث عن كل فضيلة للإمبراطور، ولن يعرج على أية نقيصة، وقد سرنا معه هذه الرحلة .. ولكن علينا الآن أن نناقشه فيما ذكر، وأن نسبر غور نيات قسطنطين فيما فعل.

قد يبدو غريبا أن يظهر قسطنطين تعاطفه بهذه الصورة مع المسيحيين وهو يعلم يقينا أن المسيحيين يمثلون قلة فى الإمبراطورية، بل وفوق ذلك قلة مستضعفة، وهى لا تتجاوز فى تعدادها عشر سكان الإمبراطورية. وكان أغلبهم ينتمى إلى الطبقات الشعبية التى كانت على أقل تقدير تمثل سياسيا واجتماعيا الطبقات المتوسطة والأدنى فى المدن، وكان السناتو الرومانى كله تقريبا، وهو معقل الأرستقراطية الرومانية، وثنيا، كما كان كبار الموظفين. وأهم من هذا جميعا كان جل الجيش ضباطاً وجنودا يدينون بالوثنية[٨٤]. فهل كان قسطنطين فى انجذابه للمسيحيين يصدر عن إيمان حقيقى بإله المسيحية؟ أم أن ذلك سلوك فرضته الظروف واقتضته طبيعة الأحداث آنئذ؟

لم يكن قسطنطين على قدر كبير من الثقافة[٨٥]، وكان بمولده ونشأته الأولى وثنيا[٨٦]، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها، فوالداه يحملان نفس العقيدة، وإن كان أبوه قد لجأ إلى صورة من صور التوحيد الوثنى حيث كان من عباد إله

(83) Ibid. 29.
(84) Jones, Constantine, pp. 79 - 80.
(85) Cantor, op. cit. p. 46.
(86) Boak, op. cit., p. 432.

الشمس[٨٧]، أما هيلينا فيبدو أنها لم تعرف المسيحية قبل وليدها[٨٨].وقد بقى قسطنطين مع أمه فى Drepanum (مدينة على الساحل الغربى لصقلية وتسمى الآن Trapani) موطنها الأصلى إلى أن غدا والده قسطنطيوس سنة ٢٩٣ قيصرا وطلق هيلينا[٨٩] ليتزوج من ربيبة ماكسيمينوس تيودورا[٩٠]. فأخذ قسطنطين إلى نيقوميديا ليقيم فى القصر الامبراطورى هناك بحجة تثقيفه وتهذيبه، ولكن الحقيقة أنه كان رهينة لدى دقلديانوس حتى يضمن حسن سيرة قيصر الغرب[٩١]. ولعلنا نلمس هذه الحقيقة فيما أورده لاكتانتيوس[٩٢] عن ذلك الإلحاح المستمر الذى أبداه قسطنطيوس للسماح لولده باللحاق به عقب وفاة دقلديانوس، وما كان من رفض جاليريوس وعنته.

ولما كان البلاط النيقوميدى يسوده المعتقد الوثنى، وليس للمسيحية فيه إلا بضع موظفين، لم تتح بالتالى الفرصة لقسطنطين ليعرف المسيحية عن كثب، وزاد فى ذلك أيضا اشتراكه فى عدة حملات كان أشهرها تلك التى صاحب فيها دقليديانوس إلى مصر، ولعل ذلك كله يفسر عدم معرفة قسطنطين بأمور العقيدة المسيحية. ويدعم ذلك حقيقتان، فقسطنطين بعد ما تراءى له فى السماء أثناء صحوه، وعلى الأرض إبان غفوته، على حد زعمه أو ادعاء يوسيبيوس، قبل معركة القنطرة الملفية، دعا إليه، حاملى أسرار الديانة المقدسة، كما أخبرنا يوسيبيوس، وطلب إليهم تفسير ذلك، فأخبروه حقيقة الأمر كما قدمنا، وهذا فى حد ذاته يدل على أن قسطنطين لم يكن حتى هذا الحين يعى من أمر العقيدة المسيحية شيئا، رغم وجود أساقفة مسيحيين فى معيته آنذاك مثل هوسيوس. ورغم أن يوسيبيوس يذكر أن حالة قسطنطين اثناء إقامته بالبلاط الإمبراطورى فى نيقوميديا

(87) Burckhardt, op. cit., p. 202.
(88) Boak, op. cit., p. 432.
(89) Richardson, op. cit., p. 411.
(90) Jones, Constantine, p. 14.
(91) Richardson, op. cit., p. 412.
(92) LACT. Mort. Pers. 24.

لا تختلف عما كان عليه الحال بين موسى وفرعون وأنه كان لا يكف عن الصلاة والضراعة، ولم يكن يشارك الإمبراطور وقيصره أى لون من ألوان حياتهم المفتقرة إلى التقوى والصلاح[٩٣]. والحقيقة الثانية أن فكر قسطنطين حتى سنة ٣٢٤ لم يكن يدرك شيئا من مسائل اللاهوت المسيحى، وذلك واضح كل الوضوح فى رسالته[٩٤] التى بعث بها إلى كل من اسكندر وآريوس رجلى الدين المسيحى فى كنيسة الاسكندرية، عندما أتاه نبأ تخاصمهما حول مسائل كريسولوجية، فكانت الرسالة كلها تقريعا للرجلين، بسبب السماح لنفسيهما بفتح باب المناقشة فى هذا "الموضوع الذى لا طائل وراءه" والخوض فى "مسائل جدلية لا توائم العقل" والجدل حول "أمر تافه للغاية" و "ليس له أدنى أهمية جوهرية". وتلك أمور لا يمكن لباحث أن يسقطها من حسابه عندما يثور الجدل حول مسيحية قسطنطين.

ويبدو أن قسطنطين قد سار على خطو والده فى هذا الاعتقاد التوحيدى الذى اختطه لنفسه[٩٥]، ذلك أن أباه يرجع فى نسبه لأمه إلى الإمبراطور كلوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ – ٢٧٠) [٩٦]، فلما غدا لماكسيمينوس قيصرا سنة ٢٩٣ حمل لقب الأسرة التى يكنى بها ذلك الأوغسطس، وكان ماكسيميانوس قد نسب نفسه، توثيقا لعرى الصداقة بينه وبين دقلديانوس، إلى هرقل Hercules الذى كد تحت هدى أبيه جوبتر Jupiter لنفع البشرية، وقد وضع دقلديانوس نفسه بذلك أبا لماكسيميانوس حيث أرجع أصله لرب الأرباب[٩٧]، وقد فعل قسطنطين مثلما فعل أبوه من قبل، فأصبح ضمن عداد الأسرة الهرقلية منذ قبل صداقة ماكسيميانوس وتحالفه عام ٣٠٧، وكان ذلك شيئا طبيعيا يتمشى مع السياسة التى رسمها لنفسه قسطنطين فى تلك الآونة، فلما دخل روما عقب وقعة القنطرة الملفية نزع نفسه من قائمة الهرقليين وأعلن انحداره من سلالة كلوديوس، وعليه

(93) EVSEB. vita Const. I, 12, 19.

(94) Ibid. II, 69.

(95) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 43.

(96) Burckhardt. op. cit. p. 45.

(97) Jones, Constantine, pp. 13 - 14.

فقد أظهر نوعا خاصا من التعبد للشمس التى لاتقهر، العبادة الفضلى لدى سلفه الأثير وأبيه[٩٨]. وظهر ذلك فى العملة التى ظل يضربها حاملة هذا الرسم حتى عام ٣٢٣[٩٩].

وفى سنة ٣٢١ قرر قسطنطين جعل يوم الأحد عيدا أسبوعيا[١٠٠]، ولكن الإمبراطور لم يدع هذا اليوم أبدا بيوم السيد، بل أسماه يوم الشمس dies solis مؤكدا بذلك قدسيته بالنسبة للشمس، وعلى ذلك يمكن القول أن قسطنطين قد عمد إلى هذا الاسم الذى لا يمكن أن يضايق مسامع رعيته الوثنية[١٠١]. ولا زال يوم الأحد يحمل الاسم نفسه في اللغات الأوروبية حتى يومنا هذا!!.

ولم يكن ما تم الاتفاق عليه بين قطبى ميلانو عام ٣١٣ ونشرته رسالة نيقوميديا، فى جانب المسيحيين أو انحيازا لهم كما قد يبدو، ولكن الحقيقة أن الزعيمين أعطيا لهذه الفئة المستضعفة حقا كانت قد حرمت منه فترة من الزمن طويلة، وذلك جلى فيما كانت تضغط عليه الرسالة بإصرار فى منح الحرية الدينية للأناسى جميعهم حسبما تهوى افئدتهم، ولم يكن قسطنطين ورفيقه فى هذا المضمار صاحبى سبق، فقد سبقهما إلى ذلك جاليريوس سنة ٣١١ بل وجاللينوس أيضا فى القرن الثالث. وكانت البواعث التى حفزت الإمبراطورين على انتهاج هذا السبيل هو الحفاظ على سلام الإمبراطورية وأمنها كما أفصحت عنه رسالة نيقوميديا كذلك، وهى فى حقيقة أمرها دواع محض سياسية[١٠٢]. وفى ذلك يقول فازيلييف "لقد منح قسطنطين وليكينيوس المسيحية نفس الحقوق التى كانت تتمتع بها الديانات الأخرى بما فيها الوثنية[١٠٣].

(98) Ibid. 66.
(99) Latourette, Christianity, p. 92.
(100) EVSEB. vita Const. IV, 20.
(101) Gibbon, op. cit. II, p. 308, n. 8.
(102) C.M.H. I, p. 5; Thompson & Johnson, op. cit., p. 31.
(103) Vasiliev, op. cit. I, p. 52.

معنى ذلك أن المسيحية لم تحقق علي الديانات الأخرى تفوقا ملحوظا، وإن كان إنهاء الكيان غير الشرعى للمسيحيين فى الإمبراطورية، وإعلان الحرية العقائدية التامة قد قلل من شأن الوثنية بصفتها السابقة ديانة الدولة الرسمية وذلك بوضعها فى مصاف العقائد الأخرى(١٠٤)، ولم نشهد من قسطنطين مراسيم تحرم عبادة الأرباب الوثنية، أو توقع بالوثنيين من أجل ديانتهم لونا من الاضطهاد كتلك التى عاناها المسيحيون على عهد الأباطرة الأسلاف. حقيقة منع قسطنطين - كما أنبأنا يوسيبيوس - بعض الطقوس الخاصة بتقريب الأضحيات، أو بتقديمها على الاطلاق(١٠٥) ولكن المعابد الوثنية ظلت مفتوحة للعبادة العامة(١٠٦) وإذا كان قد أقدم على هدم معبدين - كما أسلفنا، فإن ذلك لم يكن راجعا لأسباب دينية، بل لأسباب أخلاقية بحتة، فقد أمسى المعبدان مباءة يمارس فيها الفجور بعد أن هجرهما الأرباب!! هذا على حين أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، مخافة الانقسام فى الدولة. وقد جاء فى المرسوم الأول:

"على رنين هذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين Novatians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites والبيالصة Paulians أنتم أيها البلهاء Cataphrygians وجميعكم يا من تعضدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية. انتبهوا إلى أنكم بنسيج زيف وغرور، وسأم الضلالة ومهلكها، تحيكون عقيدتكم. من أجل ذلك، وبكم تصاب بالداء كل روح طيب، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم . يا كارهى الحق. يا أعداء الحياة. يا أحلاف الخراب. أن آراءكم كلها للحقيقة ضد، تنضح بالخسة، تغص بالسخافات والأوهام. بها تصوغون النفاق، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الإيمان. بآثامكم دوما تحت قناع التقوى، تملأون بالدنس كل شىء، وتنفذون بعميق الجراح فى نقى الضمائر، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار. ولكن مالى أطيل؟ إن الحديث

(104) Id.
(105) EVSEB. vita Const. II, 45, IV, 23.
(106) Richardson, op. cit. n., 1 c. 45 p. 511.

عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه. فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة .. يقصر عن سردها يوم، وكم يحسن بالمرء أن يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن. إنى لأسائل نفسى .. علام الصبر إذن على شر مستطير، خاصة أن هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل. لم إذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث؟ وما ذلك إلا بأن نعلن على الملأ الاستياء(١٠٧)".

ومكث قسطنطين غير بعيد ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرن فيه ما سبق أن حذر به فى السابق يقول:

"أما وقد ضاق الصدر عن تحمل ويل ضلالكم، فإنا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أى اجتماع. وبهذا أصدرنا أوامرنا .. نخرجكم من ديار جمعتكم، وامتدت إرادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة. فلتدعوا إذن ذلك النفر منكم، الراغبين فى اعتناق دين الحق، ليسلكوا سبيل الصواب بالانضواء فى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها فى زمالة مقدسة حيث يستأهلون الوصول إلى الحقيقة. ومهما يكن من أمر فإن هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا، نعنى ميلا مزدوجا لدى الهراطقة والمنشقين تعسا ملجدا. فإنه من واجب الوفاء بالنعمة، التى بفضل الرب منحنا، أن نداب لنخرج أولئك الذين عاشوا فى الماضى يحلمون بنعمة المستقبل، من الشذوذ والآثام إلى الصراط المستقيم، من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الحق، من الهلاك إلى النجاة، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا – كما قيل من قبل – بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة، أقصد دور الصلاة، إن جاز استخدام هذا اللفظ، التى يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة، ومصادرة أى مواضيع لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء. فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية أن تعقد فى السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما(١٠٨)".

(107) EVSEB. vita Const. III, 64.
(108) EVSEB. vita Const. III, 65.

وأول ما نسجله على هذين المرسومين، والثانى منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التى جرى فى ميلانو رسمها سنة ٣١٣، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم سياسة ميلانو "سائر الناس الحرية فى اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى إنسان من حرية الاختيار فى اتباع عقيدة المسيحيين، أو فى اعتناق الديانة التى يراها متناغمة وهواه". ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه إزاء سائر العقائد. بل لقد ذهب إلى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك، وليس حتما أن يتمثل الاضطهاد بإيقاع العذاب البدنى بهم، ولكنه أخذ هنا شكلا آخر فى تحريم اجتماعاتهم ما ظهر منها وما بطن، ومصادرة دور عباداتهم، وهى إجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك. ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة. فقد ذكرنا أن الإمبراطورية كانت تنظر إلى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة إلى عدد من الفرق فى قليل أو كثير - أما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية فى الدولة، وأضحى لأتباعها صوت مسموع إلى جوار أتباع الديانات الأخرى، فإن أى انقسام فى الرأى بين أولئك الأتباع لابد وأن يضر بالوحدة العامة للإمبراطورية. ومن ثم عول قسطنطين على القضاء على أى مظهر من هذا النوع، ولا يعنى هذا أن قسطنطين كان على علم بأسرار عقيدة هذه الفرق الصغيرة - باستثناء النوفاتية - التى أصدر ضدها هذين المرسومين . لكن قسطنطين كان يصيخ السمع هنا لمستشاره فى الشئون المسيحية، هوسيوس الأسقف القرطبى، وهذا شىء نعلمه من مواقف كثيرة سوف يأتى ذكرها، ولكن كل ما كان يريده قسطنطين أن يظهر للكنيسة الكاثوليكية التى كان يمثلها مستشاره، وتبدو لعينى الإمبراطور أنها تمثل السيادة على الرعايا المسيحيين فى دولته، أنه يقف إلى جانبها، ليضمن بذلك خضوع كل رعاياه المسيحيين لسلطانه وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية. [١]

هذان إذن مرسومان أصدرهما قسطنطين ضد فرق مسيحية وقفت من الكنيسة الكاثوليكية مناوئة، تفوح من جنباتهما رائحة عنف وتهديد، وصيحات حرمان وتجريد ومصادرة، على حين لم يصدر تجاه الوثنية وتابعيها شيئا من هذا

القبيل، ولم يخاطبهم بهذه اللهجة من العنف والصرامة، وما فعل قسطنطين ذلك إلا خوفا من تعميق هوة الفرقة فى الكنيسة، ورأبا لصدع يزلزل وحدتها، وقد يمتد أثره فيصيب بالهزات الدولة، وبالانقسام إمبراطورية ظل يكدح زهرة شبابه ورجولته من أجل وحدتها وحكمها فردا.

لقد كان أخشى ما يخشاه قسطنطين انقساما فى إمبراطورية أتم على التو توحيدها، فأدخل فى روع نفسه وجموع رعيته المسيحية أن خلافا بينهم لابد مصيب دولته بالدوار، ومن ثم ما كان ليقبل مطلقا أى شقاق يقع فى صفوف الكنيسة، وهذا واضح من صيغة هذين المرسومين، ومن موقفه إزاء المشكلتين الدوناتية والمليتية، والنزاع الآريوسى كما سيأتى تفصيله.

ولكن ماله يحرص على وحدة الكنيسة ويربط بها وحدة الدولة، والمسيحيون كما علمنا يمثلون فى الإمبراطورية أقلية مستضعفة، والوثنيون رغم كثرتهم أشد منهم انقساما فى أربابهم؟

يجيب المؤرخ الإنجليزى هربرت فيشر H. Fisher عن ذلك بقوله: "لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قسطنطين، أن اتخاذه الأولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام، ويهديها الإيمان الراسخ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى[١٠٩]". ويقول ول ديورنت: "حقيقة أن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة فى الدولة. ولكنهم كانوا بالقياس إلى غيرهم قلة متحدة مستبسلة قوية، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية، وكان من بينها عدد كبير من النفوس لا نفوذ لها فى الدولة ولا عقيدة[١١٠]. ولقد أمست الوثنية دينا باهتا، وهيهات لمن تلك صورته أن تنجو على ظلاله الإمبراطورية أو يبعث فيها الحياة.

وقد لمس قسطنطين هذه الناحية بنفسه إبان تلك الفترة التى قضاها فى

---

(١٠٩) فيشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى جـ١ ص ٧.

(١١٠) ديورنت: قصة الحضارة، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

نيقوميديا، حيث شهد بعينى رأسه تلك التحديات التى أبدتها القلة المسيحية فى وجه السلطات الحاكمة، ومدى ما تحملته الجموع المسيحية من ويلات دون أن يتزعزع إيمانها أو تنكص على عقبيها، وأدرك أيضا أن الوثنية التى يجاهد الأباطرة لبعثها، قد دخلت فى طور من الكهولة مميت، وعلى ذلك أيقن قسطنطين أن القدر يجرى فى صف هذه القلة المستضعفة، ولو وجدت من البشر أحدا يمد لها يد عون لسمت على ما عداها، ولسبحت دوما بحمده، وهذا بعينه ما أدركته بصيرة قسطنطين.

ولم يمد قسطنطين للمسيحية فقط يد عون، بل بسط لها راحتيه لتعلو بهما لا عليهما - سمت رفعة وازدهار. لقد كان قسطنطين يدرك مثل سلفه العظيم أوغسطس أن الإمبراطورية فى حاجة إلى بعث أخلاقى جديد، بعد أن هوت فضائل الرومان الأقدمين خلال عصر قد سلف، شهد فقدان الرومان الثقة فى أربابهم، نتيجة لحروب أهلية وضعت على التو أوزارها، ولفوضى عامة ترددت فيها الدولة وجهازها الادارى بعد أن اثبت نظام الحكومة الرباعية الدقلديانى فشله، ولأهواء ومطامح رفاق كان كلهم يتوق إلى حكم الإمبراطورية. وكانت وسيلة البعث الأخلاقى بعد هذا الانهيار تعتمد على الدين، وترسم قسطنطين خطا سلفه، فبينما أحيا أوغسطس العبادات القديمة، واحتضن ديانات جديدة من الشرق جاءت، أبقى قسطنطين على الوثنية وأعان أيضا ديانة من الشرق أتت، وكان يوقن تماما أنه بعونه إياها قادر على أن يضيف إلى جنده فيلقا آخر يسبح بحمده ويشكر له جميل نعمائه، فى وقت لا تجد فيه الفيالق الأخرى مبررا واحدا للتخلى عنه ما دام هو على دينها مُبق.

ولقد استطاع قسطنطين أن يأسر الكنيسة بما أغدقه عليها من الخيرات، وبما أولاها من نعم، فكسب ولاء رجالاتها وتأييدهم، وكان الإمبراطور فى مسيس الحاجة لمدد هؤلاء القوم يعتمد عليهم فى تسكين خواطر رعاياهم لما يعلمه عن نفوذهم الكبير عليهم. لقد غدا رجال الكنيسة فى حكومة قسطنطين "شرطة نبيلة" أمل فيها الإمبراطور أن تحفظ بالهدوء الأمن، وتنشر بالسكينة السلام. ويقول سباين "لقد كان السبب الحقيقى لاعتراف قسطنطين للكنيسة بمركز قانونى خاص هو ما تخيله عن قدرتها على مد تأييدها للدولة[١١١]".

---

(١١١) تطور الفكر السياسى، جـ٢، ص ٢٧٢.

يقول ول ديورنت(١١٢) :- "لقد أعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحيين، وبطاعتهم لرؤسائهم الدينيين، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم فى أنهم سيحظون بالسعادة فى الدار الآخرة، ولعله كان يرجو أن يطهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان، ولقد تعلم المسيحيون على يد رؤسائهم واجب الخضوع للسلطات المدنية، وكان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان. وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين. وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها"، وليس ببعيد عن هذا الحديث قول صاحب كتاب "المسيحية والثقافية الكلاسيكية" من أن الاستبداد والحكم المطلق الذى يتطلب كبت الحرية السياسية لا يحمل بالضرورة عداء للعقيدة، ففى هذا النظام من الحكم وجدت الكنيسة، وما كان قد تبقى من التقاليد الجمهورية القديمة، القواعد التى يمكن أن يتقارب عليها الاثنان. وفى قسطنطين وجدا حاميا لهما، لقد كانت جسارة الإمبراطور تكمن فى تلك الحقيقة الواضحة وهى أنه وجد الفرصة السانحة فاهتبلها(١١٣).

من هذا الجانب نظر الدارسون إلى مسيحية قسطنطين، معللين عونه للمسيحية تعليلا سياسيا، متكئين على ما واكب عطفه على المسيحيين من سلوك كانت وحدة الإمبراطورية هدفه ومنتهاه، وإرضاء كل العناصر فى الدولة وسيلته ومسعاه.

يقول استروجورسكى Ostrogorsky .. من اليسير على المرء أن يجد من الأدلة ما يدعم وجهتى النظر المتضادتين بشأن مسيحية قسطنطين. ولكنه بدا واضحا للعيان أن سياسة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لم تثمر غير الفشل، وظهر أن الاتجاه الشرقى فى الإمبراطورية يعد مستحيلاً مع استمرار العداء نحو الديانة المسيحية، وقد أثبتت الأحداث أن قسطنطين كان رجلا ذا خبرات مع كل من الوثنية والمسيحية، ولم يكن اتخاذه جانب المسيحية فى عام ٣١٢ يعنى أنه كرس

---

(١١٢) ديورنت: نفس المصدر والصحيفة.

(113) Cochrane, op. cit. p. 182.

نفسه لهذه العقيدة وحدها محطما كل التقاليد الوثنية، وأنه أصبح مسيحيا فى إحساسه على النحو الذى سيصبح عليه خلفاؤه من بعد، فقد سمح بممارسة الطقوس الوثنية، بل وشارك فى بعضها أحيانا وخاصة ما يتعلق بإله الشمس، وكان اعتبار المسيحية دينا وحيدا فى الدولة يبدو شيئا غريبا بعيداً عن العقل فى عصر كانت أبرز صفاته ميوله إلى المفاضلة، ولابد أن ذلك هو عين ما بدا لقسطنطين(١١٤).

أما جونز فيقول أن تحول قسطنطين إلى المسيحية يرجع إلى خبرة دينية، ولو أن دوافعه الأولى كانت إتمام السيادة العالمية، ومن أجل هذا ظل حتى النهاية يستمد عونه من الرب لا من البشر، ورغم ذلك لم يكن يهتم أو يعرف شيئا عن فلسفة المسيحية وآدابها عندما أصبح مهتماً بإله المسيحيين، وكان ببساطة يرغب فى أن يسجل إلى جانبه دائما تلك القوة الإلهية التى اعتقد أنها هدته(١١٥).

على حين يحدث نورمان كانتور قائلا . . من الواضح أن قسطنطين لم يكن قديسا، ولكنه رأى نفسه رجلا صاحب رسالة، دُعى لينقذ الدولة الرومانية ويعضد الكنيسة المسيحية، وجمعت أفكاره المهتمين فى خط واحد، ووعى قسطنطين بإحساسه أن الكنيسة يمكن أن تكون للدولة عمودها الفقرى، ومن ثم فقد بذل محاولات يائسة ليحتفظ بوحدة الكنيسة مؤمنا أن الإله قد وهبه تـفويضا شخصيا من أجل هذا المبتغى(١١٦).

ويجىء دور بوركهارت ليدلى بدلوه فى هذا الموضوع فيخبرنا أنه كثيرا ما تبذل محاولات للتغلغل فى ضمير قسطنطين العقائدى ولرسم صورة للتغييرات التى يحتمل أنها طرأت على معتقداته الدينية، وهذه كلها محاولات لا طائل وراءها. إذ أنه فى حالة هذا الرجل العبقرى، الذى شغلت مطامحه وتعطشه للسلطان كل لحظة من لحظات عمره، من المحال أن يتواجد موضوع حول مسيحية ووثنية، حول تدين نابع عن إيمان أو عدم تدين على الإطلاق، مثل هذا الرجل بالضرورة لا

(114) Ostrogorsky, op. cit.p. 43.
(115) Jones, Constantine, p. 102.
(116) Cantor, op. cit. p. 47.

دينى، إذا توقف للحظة واحدة ليختبر شعوره الدينى الحق لأدى ذلك إلى التهلكة.؟ فعندما أدرك قسطنطين أنه كان مقدرا للمسيحية أن تغدو قوة عالمية اتخذها أداة من وجهة النظر تلك على وجه التحديد. لقد كان قسطنطين على استعداد لأن ينجز ويحتضن كل ما من شأنه أن يوسع دائرة سلطانه الشخصي(١١٧).

ويجزم فيشر بأنه ليس فى استطاعة باحث أن يجرؤ على التأكيد بأن ذلك الإمبراطور العسكرى القادر كان على الدين المسيحى، لأنه وإن لم يكن من المستطاع اتهامه بإلقاء الأسرى من الجرمان للوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظارة. فمن المؤكد أنه قتل زوجه وابنه. على أن جرائم القتل لا تلبث أن تصير نسيا منسيا فى عصر يطفح بحوادث العنف والحرب. وسرعان ما اختفت نقائص قسطنطين تحت ستار الأعمال المجيدة التى جعلته الحوارى الثالث عشر في عداد الحواريين(١١٨).

ويتساءل في النهاية ول ديورنت . . ترى هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصا فى عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أم هل كان هذا العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الصواب. لقد أحاط قسطنطين نفسه فى بلاطه ببلاد غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين، وقلما كان بعد تحوله إلى الدين الجديد يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس، ولم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون، يستدعيهم إليه، ويرأس مجالسهم، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم، ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ، ولكن الآية انعكست فكانت المسيحية وسيلة لا غاية(١١٩).

خلاصة القول أن الكنيسة المسيحية كانت فى مطلع القرن الرابع أشبه شيء بغريق ألقاه قدره في بحر لجى، يتقاذفه الموج من كل ناحية، ويغشاه الموت من

(117) Burckhardt, op. cit. pp. 292-293.

(١١٨) فيشر: المصدر السابق جـ١، ص ٦.

(١١٩) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣، ص ٣٨٧.

مكان، وهو يأبى هذا ويصارع ذلك، يتلفت يمنة ويسرة علّة يجد فى النجاة بارقة أمل . وكان قسطنطين قارب النجاة للكنيسة المسيحية والمسيحية . فلم تلبث أن تعلقت به، بل وألقت بنفسها فيه جملة واحدة، بلا تردد، وبلا وعى، وفضلت أن تغوص فى القاع بدلا من أن يبتلعها اليم ، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره كل ذلك . بل ولابد أنه كان يدركه كله قبلا، ومن ثم مد فى اللحظة الحاسمة يده لانتشال الكنيسة وقد أشرفت على الهلاك، وساعده على ذلك مجريات الأحداث، فحفظت له الكنيسة جميل أنعمه، ففرض هو عليها بالتالى قاهر إرادته.

لقد حاولت الحكومة الوثنية أن تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية، فأخفقت فى ذلك، وكان النجاح حليف قسطنطين حين حاول أن يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة(١٢٠).

فعندما اختار يوم الأحد عيدا أسبوعيا، أسماه يوم الشمس، وما زال حتى يومنا هذا يحمل الاسم نفسه Sunday، ولما اختار الصليب - كما تقول الرواية التى دبجها يوسيبيوس القيسارى مؤرخه ومداحه - شعارا لجنوده، تصوره فى هيئة لا تغضب الوثنيين، وهم كل جيشه، فجاء صليبه يضم الحرفين الأولين من اسم المسيح فى اليونانية. وهو شكل مألوف للوثنيين بحيث لم يثر أحد منهم ضده. والحرفان هما "الخى X " و "الرو. P." [خريستوس Christos] فجمع حوله بهذا قلوب المسيحيين فى الغرب - على قلتهم - ولم يغضب فى الوقت نفسه رعيته الوثنية، وجاء شكل صليبه نحو وضع الحرفين داخل بعضهما .

على أن الذى تجدر الإشارة إليه، ما يذكره مؤرخو الكنيسة من أن قسطنطين قد تناول سر المعمودية وهو على فراش الموت، ويعتبرون هذا دليلا واضحا على مسيحية قسطنطين، ويشايعهم فى ذلك عديد من المؤرخين المحدثين الذين يعتبرونه أول إمبراطور مسيحى، باعتبار أن الكنيسة لم تكن حتى القرن الرابع الميلادى وبعده تصر على إتمام طقس العماد خلال العام الأول من الميلاد، حتى تترك الباب

---

(١٢٠) بينز: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥.

مفتوحا أمام من شاء من الوثنيين للدخول فى المسيحية، وليس أدل على ذلك من أن أشهر رجالات الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى، القديس أمبروز Ambrosius أسقف ميلانو عندما وقع عليه الاختيار للمنصب الكهنوتى تبين أنه لم يكن قد تلقى سر المعمودية(١٢١). وبالمثل أيضا كان نكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية.

وتناول قسطنطين المعمودية على فراش الموت لا ينهض دليلا فى صف من ينادون بمسيحيته، بل على العكس من ذلك، فلا يصلح القول أن الرجل كان مسيحيا، بل يمكن القول - تجاوزا - أنه مات مسيحيا - وفرق كبير بين هذه وتلك، لأن الرجل بعد أن عُمّد - إذا صحت الرواية - لم يصبح بل مات!!.

وحتى لو سلمنا بفرض صحة هذه الرواية التى جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، لنشأت مشكلة عقيدية لها خطورتها . . مفادها أن قسطنطين تلقى العماد على يد أسقف آريوسى - كما تلمح على استيحاء هذه الروايات نفسها - وتلك قضية أخرى.

---

(١٢١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع للمؤلف: الدولة والكنيسة - الجزء الرابع.



الفصل الرابع

المسألة الدوناتية

لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفسه أن يرى فى الأفق ضياء وصليبا، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر، وما دار بخلده لحظة اتفق مع حليفه ليكينيوس فى ميلانو، أن يضعا عن المسيحية إصرها والأغلال التى كانت عليها، أن رجالات كنيستها سيحملون إلى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال، وذلك شىء يخفق له قلب الإمبراطور رعبا وهلعا، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة .

كانت دنيا الإمبراطور التى يحياها آنئذ غرب الإمبراطورية، والإمبراطورية كلها عالمه الذى يأمل . أما وهو الآن سيد الغرب فحسب بعد أن دحر منافسه ماكسنتيوس، فلا أقل من أن تكون الوحدة شاملة هذا الغرب .

فى سبيل ذلك حرر المسيحيين، ولم يضطهد الوثنيين، فضمن أن يقف إلى جواره فى مشروعات له آتية لا ريب فيها، عنصرا قاطنى جزء الإمبراطورية الغربى، إنه يتطلع إلى الشرق، وفؤاده يهفو إليه، ولابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده، لا محل لخلاف أو نزاع، ولا مجال لفرقة أو انقسام .

ولكن قسطنطين انتقل إلى الشرق وترك وراءه غربا قد كلم، يئن لجراح انقسام ألمت به، ولم يستطع الإمبراطور إزاءها أن يفعل شيئا . حقيقة حاول الكثير، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح، ولم يكتب لها فى عهده إخفاق، بل كانت أشبه شىء بسياسة تهدئة . وصلت فى نهاية أمرها إلى حد العنف ثم هوت إلى لا شىء !

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التى اتبعتها الدولة فى مسألة العقيدة، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، بل كانت نظرتهم لهم كلية، تختلف من إمبراطور لآخر عداوة أو مسامحة، أما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة الوثنية قليل اهتمام،

أما وقد اعترفت الدولة الآن بحق المسيحيين فى حياة عقائدية حرة، فإنه أصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار إلى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة .

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم إليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية أفريقيا، ثم شخص إلى ميلانو ليزف إلى ليكينيوس أخته، وليحالفه إلى حين، وعلمنا أيضاً ما انتهى إليه تحالفهما من إطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين، وبدا لقسطنطين أنه قد وضع فى جيبه ورقة ربح جديدة، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء فى بادئ الأمر تمشى على استحياء تقول إن فى كنيسة أفريقيا انقساما، وتدعوه إلى تدارك الخطر، وما تلك إلا رسالة [1] بعث بها أنوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتيين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يرأسها كايكيليانوس آنئذ.

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام، كما يتضح من رسائله إلى نائبه فى أفريقيا وإلى أسقف قرطاجة [2]، ولكنه لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها .

وتعود بنا الأحداث إلى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الإمبراطورية بإحراق الكتب المقدسة، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن، وهوادة وعنف . فبعضهم آثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية، وآخر استمع فى دهاء للنغمة الإمبراطورية فألقى فى النار كتبا أخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة . وثالث رافه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة وأودع ما تبقى فى قلبه من إيمان معها قسرا أو طواعية، عندما سعى إلى الأوثان يضحى على مذبحها ، وأخيرا رفض الإذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة، وامتدت بالإنقاذ للقلة منهم يد السماء !

(1) Jones, Constantine, pp. 103-104 .

(٢) راجع الفصل الثالث .

وكان منسوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلاً، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة . تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الرأى لتستولى عليها السلطات الحاكمة إرضاء لرغبات الإمبراطور، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم إلى ساحة الشهادة بإعلانهم أن فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها [٣] . وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون إليه تسليم ما لديه مما يبتغون، فصاح فيهم بأنه مسيحي وليس مارقا عن الدين [٤].

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها، وساد الكنيسة سلام ولكن خلافات العقيدة والكنيسة أبت ألا تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمنته الكنيسة طيلة قرون ثلاثة فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس، وأخذ كل منهما يحدد موقفه إزاء من زلت فى الخطيئة أقدامهم إبان فترة الاضطهاد، فقربوا الأوثان، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يرفعوا عن أنفسهم الموت أو العذاب . وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الطغاة وقبولهم فى رعية الكنيسة .

ويقر القديس أوغسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية، ولكن ينكر عليهم مراسيمه . وإن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم تعميده على نحو سليم يتوافق وطقوس الكنيسة الجامعة ويستقيم جوازه [٥] . ونرى أوغسطين يستطرد مؤكدا " .. فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية . . هذا ما نجهر به وهم له منكرون، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم . . ذلك شىء آمنا به وهم به كافرون، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصواب فى شىء، تلك حقيقة نعيها وهم عنها معرضون" [٦] .

(3) S.M.Jackson. The new Schaff-Herzog encydopedia of religious knowledge, III; F. Jackson. op.cit. pp. 190-

(4) Jones, Constanine, p. 105.

(5) AVG, bapt. I, 4.

(6) Ibid. 1, 3, 4.

" وإذا ما أخفق إنسان في التوفيق بين إصرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جماعة دوناتوس، وبين اعترافنا بأنه قائم بينهم فعليه أن ينتبه إلى أننا ننكر تماما وجوده بينهم على نهج قويم، وذلك في مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه وإياهم "(٧).

وكانت المسألة في جوهرها تمس شخص من يقوم بالشعيرة، وتصل إلى أغوار خلقه، وتوغل في صلاحه، ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها، ونظروا إلى الاضطهاد كما لو كان قد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة، يقفون والضد من الكنيسة الكاثوليكية، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليها، الهراطقة، والمنشقين، وتعتبر الدوناتين فصلا في الأخيرين، وإن كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية (٨) . واحتج الدوناتيون على وضعهم في عداد الهراطقة، ذلك أنه يمكن القول إن كل الهراطقة منشقون على الكنيسة . . في الوقت الذي لا يجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنسية هرطقة (٩). إذ إن الانشقاق يقع لخلاف في النظام الكنسي أو التعاليم . . على عكس الهرطقة التي تمس جوهر العقيدة .

ومما هو جدير بالذكر، أنه بينما غرق الشرق الروماني في لجة عميقة من الصراع الديني حول طبيعة المسيح، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة، أفلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكري العميق العقيم، وحصر نفسه وخلافاته في دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية . ولا شك أن هذا يعود في الدرجة الأولى إلى التكوين الحضاري والفكري لكل من المنطقتين، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصة الإسكندرية وأنطاكية وبرجامة إلى جانب أثينا، بالمدارس الفلسفية العديدة، والثقافات الإغريقية. بالإضافة إلى الأصول الحضارية القديمة للشرق الهلنستي، بينما خلا الغرب الروماني من مثل هذه المدارس الفلسفية . ...

(7) Ibid. 4.
(8) S.M. Jackson, op. cit. Art. Donatism.
(9) A dictionary of Christian biography, art/ Donatism.

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التى يقوم بها غير المقدسين أو غير الثقاة من رجال الأكليروس ذاتهم، وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الأكليروس القائم [١٠] . لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية، فكل رجل دين سواء [١١] .

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هذا النزاع ويعلق عليه فيقول أنه لما كان زمن الاضطهاد الدقلديانى سلك حاكم ولاية أفريقيا جادة اللين، فطلب إليهم أن يقدموا، رمزا لنكران العقيدة، الكتب المقدسة فارتضى ذوو اليسار المسيحيون هذا الرأى، فلما انقشعت غمة هذا الاضطهاد، ألفى هذا الفريق نفسه وقد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة، راحت تحاج بأن القديسين الأطهار، ولم يصب إيمانهم دنس، هم وحدهم عمد الكنيسة، وأشاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قد فقدوا أهليتهم ومسيحيتهم لذلك، وراحوا ينادون بحتمية إقامة المعمودية على يد قسيسين شفافى النفوس، هذا وأكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الإكليركية سندا لحسن المعمودية، لا السجايا والخلال . ذلك الخلاف . كنيسة للأطهار، والكنيسة الجامعة[١٢].

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه، وهى تمثل تحديا لاتجاه بدأت المعمودية بمقتضاه تنتقل على مر الوقت إلى محفل من البشر ينتظم مختلفا أخلاقيا مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة، غير أن هذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد فى حد ذاته بعيدا عن ممارسيه، وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها .

على هذا النحو راحت هوة الخلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين

(10) Latourette, expansion of Christianity, I, p. 348.
(11) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.
(12) Cantor, op. cit. p. 49.

عليها، ألا أن ذلك كله لم يعد خلافا فى الرأى . وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصراع وتنقله إلى حيز الواقع العملى، وما لبثت الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط الموت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلى منصبه الشاغر [١٣].

اتجهت أنظار الكنيسة الكاثوليكية إلى رئيس شمامستة كايكيليانوس Caecilianus وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده فى معارضته لمسلك أشياع كنيسة القديسين، كما كان شديد التحمس لمبادئ الاعتدال فى النظام الكنسى [١٤] . وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة في اختيار أسقف قرطاجة [١٥]. ولكن أساقفة الفريق الكاثوليكى تغاضوا عن هذا العرف، وأقدموا فى شىء من العجلة على اختيار كايكيليانوس للأسقفية [١٦]، ويمكننا أن نعلل سلوكهم هذا بعلمهم أن أسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار، فقد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفى نقيض، ولما كان كايكيليانوس تلميذا لمنسوريوس فقد كان من البديهى أن يكون سكوندوس ورجال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهذا المنصب . ومن ثم أرادت كنيسة قرطاجة أن تضع خصومها أمام الأمر الواقع .

من هنا عمد رجال الأكليروس فى قرطاجة إلى سرعة إتمام إجراءات اختيار كايكيليانوس، وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس Felix أسقف أبتونجا Aptunga ونوفللوس Novellus أسقف تيزيك Tyzicum وفاوستينوس Faustinus أسقف توبوربو Tuburbo . وتولى سيامته فيلكس Felix الأبتونجى [١٧] . وكانت كنيسة نوميديا قد أرسلت من لدنها مندوبين

(13) Palanque-Bardy-
jours III, p. 42; F. Jackson, op. cit. p. 291.

(14) McGiffert, op. cit. p. 391 n.20.

(15) S.M. Jackson (op. cit. III, art. Da\onatism; Hefele, op. cit. I, 1, p. 266.

(16) Jones, Constantine,p.106;Duchesne, Histoire ancienne de l'egise, II, p. 106-107.

(17) Palanque-Bardy--Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit. p. 84.

لحضور مراسم الاختيار، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس Donatus أسقف مدنية Casae Nigrae [18] . وهو غير دوناتوس الكبير الذى يتولى الأسقفية بعد ماجورينوس أول أساقفة هذه الطائفة . والذى يرجح أن تكون الطائفة قد اشتقت منه اسمها [19] . وإن كان من العسير حقيقة أن نجزم لأى من الرجلين تنسب [20].

ألفى أساقفة نوميديا أنفسهم وقد خرج الأمر من أيديهم، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سبيل ينفذون منه لتحقيق أغراضهم، ولما لم يجدوا فى شخص كايكيليانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه، أشاعوا أن الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب، ولكن هذا لم يكن شيئاً إلى جوار الاعتراض الآخر القائل بأن فيلكس مارق، لما أتاه إبان فترة الاضطهاد [21] . وعليه يغدو رسم كايكيليانوس غير ذى صلاحية . وقد حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد، فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية . ولكن أساقفة نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس، ولجوا فى عنادهم [22] . والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفاً، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفاً وعزله، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس [23]، ثم قام المجمع بإرسال رسالة إلى جميع أساقفة أفريقيا يطلعهم فيها على ما تم إجراؤه [24]، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة إلى حزبين متضادين أحدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية، ويتزعمه كايكيليانوس والآخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينوس Magorinus .

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين،

(18) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(19) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III. 43; Hefele, op. cit. I, 1, p. 270.

(20) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(21) Ibid. MsGiffert, op. cit. p. 280 n. 16.

(22) Lietzmann, op. cit. p. 84.

(23) Id.

(24) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.

وراح كل فريق يجذب إلى صفه الأنصار، وينادى بأنه على الحق المبين، وتلك كانت الصورة التي أضحى عليها الشمال الأفريقى غداة انتصار قسطنطين على " طاغية روما " سنة ٣١٢ . وإنه لجدير بالملاحظة أن سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية، ويتضح ذلك من أنه قصر أعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر أنه على الحق، وهو الكنيسة الكاثوليكية (٢٥) . وكان المصدر الذى استقى منه الإمبراطور هذه الإيضاحات هوسيوس أسقف قرطبة (٢٦) . ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف، وظل الإمبراطور هكذا إلى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر (٢٧) . وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى اتخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الإمبراطورية التى أنعم بها قسطنطين على الكنيسة (٢٨) .

غير أن شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين ولنبحث عن هذا الشيء عند الإمبراطور ذاته . ففى رسالته إلى كايكيليانوس، والتى يحدد فيها مبلغا من المال للكنائس (٢٩) . اختتم قسطنطين هذه بقوله :

لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة، بخزى المزاعم ودنسها، حق أن تعلم أنى قد زودت أنوللينوس البروقنصل، وباتريكيوس Patricius نائبه، عندما كانا فى حضرتنا، بأوامر فحواها أنه إلى جانب كل مسئولياتهم الأخرى، عليهم أن يبذلوا لهذا الأمر فائق عنايتهم، وأن لا تغفل للحظة أعينهما عن تدارك أى حدث، وعليه . فإن عاينت أناسا ماضون فى عتههم، فاشخص على التو إلى

(25) EVSEB, hist. Eccl. X, 6-7.
(26) Jones, Constantine, p. 81.
(27) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 42.
(28) C.A.H. XII, p. 692.

(٢٩) راجع الفصل السابق

موظفينا هذين، وأجل لهما القضية، فيسلكان معهم حسب رأيي، وليحفظك لأهون الرب العظيم سنين عددا (٣٠) .

واضح من مقتطف رسالة قسطنطين انحيازه إلى جانب واحد دون أن يتحقق فحوى القضية، وهو في اتخاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسباني إليه . وسلوكه سبيل العنف إزاء فريق لم يسمع بعد شكايته، تعطينا معنى واحدا لسياسته، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث أى صدع في رعية تملك زمام أمرها البارحة . وهذا هو ما يجعلنا نميل إلى القول إنه بالإضافة إلى حرمان الفريق الدوناتي من الهبة الإمبراطورية فإن إحساس هذا الفريق بميل دفة الدولة إلى خصومه دون تقص للحقيقة أو تمحيص، جعله يبعث إلى الإمبراطور ملتمسا .

كان رجاء الدوناتيين إلى الإمبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية، فالدوناتيون لم يلجأوا للبابا مباشرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية، وإن لم تكن البابوية بعد قد حققت سموا في المرتبة، وعلى ذلك فهو يخالفهم الرأى(٣١)، ولكنهم لجأوا إلى الإمبراطور رأس الدولة، ولكن لا ليفصل هو بنفسه بينهم، بل ليكل القضية برمتها إلى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة . ذلك أن غالة لم تكن قد قاست كغيرها من ولايات الإمبراطورية أثناء الاضطهاد (٣٢) . ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله : " إنه لمما يجدر ذكره أن الأساقفة المنشقين لم يلجأوا إلى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا، فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة في أفريقيا (٣٣).

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول في علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح . وكانت سابقة خطيرة في تاريخ الكنيسة إذ عدت دعوة صريحة للتدخل في شئونها الداخلية (٣٤) . لقد كانت الكنيسة طوال القرون

(30) EVSEB, hist. Eccl. X, 6.

(31) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.

(32) Leitzmann, op. cit. p. 85.

(33) Jones, Constantine, p. 104.

(34) Backhouse, Early Church history to the death of Constantine, p. 372.

الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخلية وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات . ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئاً، بل لم يكن يعنيها فى شىء البتة. أما الآن، وقد أصبح على رأس الإمبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية، فلا عجب إذا رأينا الكنيسة تسعى إليه، تعرض عليه خلافاتها، وتضع أمامه ما يعتمل فى داخلها، وتطلب إليه الرأى . وكان قسطنطين ذكياً غاية الذكاء، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد فى هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته بما فيها الكنيسة، حسب إرادته ووفق صالحه . وكانت تلك الفرصة جاءته على غير توقع، فاستغلها بغير انتظار . ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر، عندما دالت الدولة البيزنطية، لم يتخلف إمبراطور واحد من السير فى الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما، وقد لمس هذه الحقيقة حتى فى فترة مبكرة، سقراط مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى، حيث يقول : " إذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة، عمت الفوضى شئون الكنيسة، وكأن انجذاباً روحياً يربط بينهما " .

الدوناتيون إذن يرغبون فى الاحتكام إلى أسقف غالى، وقسطنطين يبتغى إثبات ذاته فى القضية وسطوته للوهلة الأولى، فعهد بفض النزاع إلى البابا فى روما واشترك معه ثلاثة من أساقفة غاليا . وبعث برسالة إلى أسقف روما ضمنها عدة معان :

" قسطنطين أوغسطس إلى ملتيادس Miltiades أسقف روما ، وإلى مرقس[٣٥] Marcus، حيث أن رسائل عدة قد أتتنى من أنوللينوس العظيم، بروقنصل أفريقيا، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه إليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا، ولما كان الأمر يبدو لى جد خطير، حيث أنه فى هذه الأقاليم التى وضعت العناية الإلهية ثقتها فى إخلاصى لإدارتها،

---

(٣٥) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيادس المسن.

راجع: Jones, Constantine, p. 107.

وحيث أنها منطقة بالأهلين آهلة . سوف يجد الناس أنفسهم في حالة من الشقاق، وفي حال من الكآبة دائم، والأساقفة فيما بينهم منقسمون، ولذا قررت أن يبحر على الفور إلى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام، فهناك يمكن سماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب . وذلك في حضرتكم وزملائكم ريتيكيوس Reticius [٣٦]، وماتريوس Materius [٣٧] ومارينوس Marinus [٣٨] الذين أمرتهم بالإسراع إلى روما لذات الغرض . وحتى تكون على علم تام بهذه الأمور فقد ضمنت رسالتي نسخا من الوثائق التي بعث بها إلى أنوللينوس، وأرسلت، منها صورا كذلك إلى زملائك المشار إليهم، وحالة تسلمك إياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل، حيث لا يخفى على فطنتك أني أكن كل إجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية، ولي كبير الأمل أن لا تخلفوا وراءكم أي صدع أو انقسام، ولتحفظك يا سيدي العزيز عناية الإله العظيم أعواما طوالا "[٣٩].

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذي لعبه قسطنطين في أول اتصال مباشر بين الكنيسة والدولة، فهو الذي اختار القضاة وعين مكان التقاضي وزمانه، وحدد عدد المتقاضين من كلا الحزبين، ورسم الخطوط العامة لسير القضية، وأوحى إلى القضاة بمنطوق حكمهم عندما أعلن في رسائله إليهم أن قلبه يحمل كل الاحترام " للكنيسة الكاثوليكية الشرعية " . حقيقة لقد كان قسطنطين يتفق أساسا والرأي القائل به هوسيوس عن الحالة في أفريقيا من اعتبار خصوم كايكيليانوس مردة منشقين، وكان شديد الاقتناع بما ينطوي عليه الانشقاق من أخطار وبلاء، وظل هذا الاقتناع قرين فكره حتى يوم رحيله إلى عالم الموتى . ولكنه من ناحية أخرى أقدم الآن على خطوة مستقلة، واتجاه قضائي في مسألة الفريق الذي أحدث

(٣٦) أسقف Auton في غالة. ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتيين راجع. HIER. Vir. Ill. 82.

(٣٧) أسقف كولون.

(٣٨) أسقف أرل. راجع. McGriffert, op. cit. n. 23, 24 p. 381.

(39) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.

الشقاق، وقرر من عندياته وجوب فحص القضية . فاختار القضاة، ودعا الفريقين، وكانت رسالته إلى ملتيادس تحمل في طياتها نغمة تفيض " مكتبية "، لقد كانت حسب تعبير جونز أشبه شيء بمذكرة يبعث إلى موظف مدنى "(٤٠) !! وليس أدل على صحة هذا القول من أن قسطنطين قد وجه رسالته إلى ملتيادس وآخر يدعى مرقس على قدم سواء، ولا ندرى من هو مرقس هذا، وربما كان أحد مساعدى البابا، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بها الإمبراطور إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية " التى يكن لها كل إجلال " !!

شيء آخر يجذب الاهتمام، ذلك أن قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحداث على شيئين جاءت بهما رسالته، فتلك مناطق عهدت إليه بحكمها عناية الرب القدير، وهذه نغمة ألفناها من قبل، وهى أيضاً أقاليم قد غصت بالسكان، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى إلى تحزب الأهالى إلى أى الفريقين . وتلك نقطة على جانب كبير من الأهمية . فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هناك . وأصبح السلام فى غالة مستقرا بعد ذلك لفترة طويلة(٤١) . والإمبراطور يعد لجولة جديدة فى الشرق . فلا أقل إذن من أن يضمن هدوء هذه المنطقة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لإنجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير، خاصة وأن هذا الإقليم " الآهل بالسكان "، على حد قوله، يمكن الاعتماد على رجاله الأشداء فى قابل الأيام . فإذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أن قمح روما كان يأتيها من شمال أفريقيا (٤٢)، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا أشد الحرص على استتباب الأمن والنظام، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة .

اجتمع الأساقفة فى روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣ (٤٣)، لا بالطريقة التى أرادها قسطنطين، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس، والتى جرت عليها الكنيسة

---

(40) Jones, Constantine, p. 108.

(41) C.A.H. XII, p. 69.

(42) Jones, Later Roman Empire II, p. 828.

(43) Backhouse, op. cit. p. 373.

قبلا في بحث مثل هذه المسائل التي تهم الكنيسة عقيدة أو تنظيما . ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على إجراء البابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، وإنما هو إجراء شكلي ارتضته الكنيسة . فلا ضير من اتباعه . فقد قام ملتيادس بتحويل ذلك المجلس الإمبراطوري إلى " مجمع كنسي " بعد أن ضم إلى أعضائه خمسة عشر أسقفا من كنائس إيطاليا المختلفة (٤٤) في ريمني وفلورنسة وبيزا وكابوا وبنفنتو وتراكينا (٤٥) . وبحث المجمع القضية المطروحة أمامه، وفي النهاية تمخضت مناقشاتهم عن تبرئة ساحة كايكليانوس من التهم التي وجهت إليه ورفض دعوى الفريق الدوناتي (٤٦) .

ومن رسالة قسطنطين إلى أسقف سيراكوز نتبين أن الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما، محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح، وأنهم تعجلوا في إصدار حكمهم، في هذه الرسالة شرح الإمبراطور للأسقف الأمور من بدايتها وأطلعه على سير الأحداث منذ اللحظة التي وصلته أنباء هذا النزاع ، قال :

"ولما كان البعض في خبث وزيغ قد أفسح للشقاق بينهم مكانا، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة، وقوة السماء، والعقيدة الجامعة، حدتني الرغبة في أن أحسم هذا الجدل، فأصدرت أمري بأن يجيء من غالة بعض أساقفة، وأن يستدعي من أفريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا . ففي مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة . ولكن الذي حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسة، فلم يضع للعداوة حدا، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره، وزعم أن أولئك الذين أدلوا بفكرهم وقراراتهم كانوا قلة، أو أنهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل أن تفحص بدقة أمور غاية في الأهمية. من أجل هذا فإن هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام، أمسوا، ويا للعار والشناعة، على أنفسهم منقسمين، وغدوا أضحوكة رجال أرواحهم عن

(44) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. p. 45.

(45) Lietzmann, op. cit. p. 86.

(46) Hefele, op. cit. I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 122.

العقيدة المقدسة بعيدة . لذلك يبدو لي ضروريا أن هذا الانقسام، الذي كان من الواجب توقفه نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم، يتعين على الفور، إذا كان ذلك ممكنا، شجبه بحضور الكثيرين " [٤٧].

وأول شيء نلمسه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها، وما ذلك إلا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم آماله . وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع " على الفور " تفصح عن مدى قلقه وهلعه . فنحن الآن فى عام ٣١٤، وإذا علمنا أن الإمبراطور قد وجه الدعوة إلى أساقفة الغرب لعقد اجتماع جديد فى مدينة آرل Arles قبل نهاية أغسطس، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكينيوس قد نشبت فى أكتوبر [٤٨]، وأنه كان يعلق على هذه الحرب أهمية بالغة لما يبتغيه من ضم أقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال [٤٩]، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام الأفريقى، ويتحرق شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية . فما كان له أن يواجه عدوه وظهره بسهام الفرقة تطعن!

لهذا كتب الإمبراطور فى رسالته السالفة يقول :

" لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق، وذلك قبل نهاية أغسطس، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب إليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية . يقع عليهما اختيارك مضيفا إليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك . واسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب، ونحن على يقين أنه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق، ذلك الذى لا زال بشكل معيب قائما، وما جلبه إلا جدل مخجل .

(47) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.

(48) Gibbon, op. cit. I, p. 464.

(٤٩) راجع الفصل الثانى .

فليصغ كل لما يدلي به الحزبان المتنازعان، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور، ولينته الأمر وفق الإيمان الأمثل، وليعد من جديد أخوى الوئام . متعك بالصحة سنين عددا إله مقتدر "(٥٠) .

وإلى أرل، ومن كل بقعة يمتد إليها في الغرب سلطان قسطنطين توافد الأساقفة (٥١) لحسم هذا الجدل، وإعادة النظر فيما سبق أن قرره مجمع روما، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقوله " لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة علي مراجعة القرار الروماني والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم"(٥٢) .

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التي أقدم عليها الإمبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولي في ذلك . وإذا كان قسطنطين قد فوض المسألة في أول الأمر إلى ثلاثة من أساقفة غاليا، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف إلى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا إيطاليا، فإنه في هذه المرة قد وسع دائرة قضائه حتى يكون الحكم الذى يصدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا . فمجمع آرل إذن يمثل من هذه الزاوية " العالمية " . ولكن في النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الإمبراطورية الغربي (٥٣) . وقد حرص الإمبراطور على إبراز هذه الناحية في رسالته مرتين في قوله " يتعين علي الفور إذا كان ذلك ممكنا، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين " والأخرى عندما ذكر أنه أمر " أن يجتمع في مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق " .

وفي أول أغسطس ٣١٤ اجتمع في آرل ثلاثة وثلاثون أسقفا (٥٤) . ومع أن الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب (٥٥)، إلا أن هذه هي

---

(50) EVSEB. Hist. Eccl. X, 5.
(51) C.A.H. XII, 693.
(52) C.A.H. XII, 693.
(53) Hefele, op. cit. I,1, p. 277.
(54) McGiffert, op. cit.p. 382 n. 32; Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.
(55) Lietzmann, op. cit. p. 88; Hefele, op. cit. I, 1, pp. 280-295.

التى تعنينا هنا، وقد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها الدوناتيون [٥٦]، وأيد الحكم الذى أصدره قبلا مجمع روما . وكان ذلك بالطبع يعنى إدانة الدوناتيين ثانية [٥٧] . وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصورة من قراراته إلى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها في مختلف الكنائس [٥٨] .

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع، وهيئ له أن حكما اشترك فيه أساقفة الغرب اللاتيني على هذه الصورة من الإجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة إلى هذه المنطقة، وما لبث قسطنطين أن هاجم أراضى حليفه ليكينيوس سنة ٣١٤ ولم ينته العام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكينيوس فى أوروبا عدا تراقيا . فحقق بذلك بعض حلمه، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بها عبر البسفور إلى جناح الإمبراطورية الشرقى، ولم يكن قسطنطين يتصور أن مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعد مجمع آرل . غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى، ذلك أن الدوناتيين رفضوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا، إذ لجأوا إلى الإمبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع [٥٩] .

وجد قسطنطين نفسه إزاء موقف جديد تماما . فالدوناتيون قد رفضوا لمرتين على التوالى حكم رجالات الكنيسة، وهاهم الآن يحتكمون إلى الإمبراطور طالبين إليه نظر قضيتهم بنفسه، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة، ولم يرفضه فى الوقت نفسه جملة، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الإقدام والإحجام [٦٠]، غير أنه فى نهاية الأمر قرر إجابة ملتمسهم ونظر قضيتهم . فدعا الحزبين للمثول بين يديه فى روما سنة ٣١٥ حيث كان الإمبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه[٦١]،

(56) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(57) Jones, Constantine, p. 112.
(58) Lietzmann, op. cit. p. 89.
(59) C.A.H. XII, p. 693, Hefele, op. cit. I, 1, p. 296.
(60) Id.
(61) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

فلبى الدوناتيين الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر [٦٢] فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لإصدار حكم غيابي ضد أسقف قرطاجة، واستعدوا لمغادرة المدينة، ولكن قسطنطين اعتقلهم [٦٣]، وفي نوفمبر ٣١٦ انتقل الإمبراطور إلى ميلانو [٦٤]، وإليها أحضر الأساقفة الدوناتيين، واستدعى إليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب إلى حضرة الإمبراطور [٦٥] . وفصل قسطنطين بين المتنازعين، وما كان ليخرج فى قراره عما أقره قبلاً مجمعاً روما وآرل . ويتساءل البعض فى عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين وإهماله إياهما، والتلاعب بهما من روما إلى بريشا إلى ميلانو، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث، وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التى صدرت فى روما وآرل للوصول إلى هذه النتيجة التى انتهى إليها الإمبراطور [٦٦] !

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن احتل مركز الفيصل فى شئون الكنيسة . ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة، فقد غدا مهيمناً على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب إليه أن يعيدها حقاً سلبه إياها . فقد أعطاها الكثير . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى ما هو أخطر من ذلك، ألا وهو تعيين الأساقفة !.

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكيليانوس، وأنكر على الدوناتيين حججهم، رأى أن يخلص هذا الإقليم من أسباب هذا النزاع، فأبقى لديه زعيمى الفريقين كايكيليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius إلى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا الخلاف [٦٧] . غير أن سياسة الحل

(62) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(63) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.
(64) C.A.H. XII, p. 693.
(65) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(66) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, pp. 48-50.
(67) Ibid. 48.

الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقه قسطنطين عليها، إذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا إلى أفريقيا حيث تبعه كايكيليانوس [٦٨] . وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه وخاصة بعد أن جاءت الأنباء من نائبه فى أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين [٦٩]، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحة مع مختلف العقائد، أول اضطهاد فى المسيحية، فقد أمر قسطنطين بمصادرة كنائس الدوناتيين وبيعهم [٧٠]، وجرت كثير من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق [٧١] مما جعل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هذا القمع العسكرى فى عداد الشهداء [٧٢] .ويبدو أن الفوضى فى الولاية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحلية عن قمعها مما اضطر الإمبراطور إلى إرسال قوة عسكرية بقيادة أورساكيوس Ursacius [٧٣] . لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصدى لها .

بعد قسطنطين بإجراءاته هذه عن الصواب، وجر على نفسه وإقليمه هذا كثيرا من الويلات، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الآخرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم، وأخذت مبادئ الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما أضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجة العطايا التى حصلت عليها من الإمبراطور، والتى لم تتذوق منها هذه الطبقات شيئا . فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس، وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح، وأشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا [٧٤] ويعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله " لابد لنا أن نعترف أن كل هذه الأحداث كانت أولى

(68) Jones, Constantine, p. 119.
(69) Palanque, Bardy, Labhiolle, op. cit. III, p. 49.
(70) C.A.H. XII, 693; Hughes. A history of the Church. p. 5.
(71) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(72) C.A.H. XII, p. 693.
(73) Lietzmann, op. cit. p. 91; Backhouse, op. cit. p. 375.
(74) F. Jackson, op. cit. p. 294.

ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة (٧٥) "، وبلغت ذروة التحدي من جانب الدوناتيين للإمبراطور ذاته عندما أرسل إليه أساقفتهم يقولون إنهم لن يتعاملوا قط مع أسقفه الوغد، وأنهم على استعداد لتحمل أي عذاب يفرضه عليهم(٧٦).

عندها أدرك قسطنطين أن عليه أن يختط لنفسه سياسة جديدة، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء، فأرسل في عام ٣١٧ إلى نائبه في أفريقيا وإلى كايكيليانوس والأساقفة باتباع سياسة جديدة تقوم على الاعتدال والتسامح (٧٧)، وأرسل هو بدوره أوامر بالسماح للأساقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة إلى ديارهم(٧٨).

وفي ٥ مايو ٣٢١ أرسل الإمبراطور مرسوما إلى نائبه في أفريقيا بالعفو عن الدوناتيين وأن ترد إليهم كنائسهم المصادرة (٧٩)، ثم دعا الفريقين إلى حل مشاكلهما عن طريق السلام، وليس أدل على ذلك مما أقدم عليه الإمبراطور ذاته، فقد بني كنيسة للكاثوليك في Cirta، فقام الدوناتيون بالاستيلاء عليها، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الإمبراطور طالبين منه المساعدة، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه، فقد أمر الإمبراطور بإرساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب (٨٠) . ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسة لأنه كان على وشك الدخول في صراع مع ليكينيوس ومن ثم لم يكن يرغب في أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هذه المتاعب التي تشيع الانقسام، كما أنه لم يكن راغبا أيضا في أن يتحدث عنه الشرق المسيحي الذي كان الإمبراطور يتطلع إليه في لهفة على أنه إمبراطور مضطهد فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم(٨١) ولم تحاول الحكومة التدخل في هذه المشكلة حتى نهاية عهد قسطنطين(٨٢).

(75) Backhouse, op. cit. p. 376.
(76) Jones, Constantine, p. 123.
(77) F. Jackson, op. cit. p. 295; A dictionary of Christian. Biography, art. Donatism.
(78) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.
(79) Palanques, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 51.
(80) Lietzmann, op. cit. p. 92.
(81) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.
(82) F. Jackson, op. cit. p. 295.

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة في العلاقة بين الدولة والكنيسة، خاضها قسطنطين ، وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة ! ولئن كانت جهوده قد أتت إليه بغير ما اشتهى، إلا أنه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى في شئون الكنيسة، ذاك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للإمبراطورية حياة .

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث في الغرب الإمبراطورى نتيجة خلاف في النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى في اتخاذها سبيل العنف من بعد . فأثرياء المسيحية هم الذين أذعنوا للأوامر الإمبراطورية زمن الاضطهاد الدقلديانى الجاليري وقربوا للأرباب، في الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد، وراح يغدق أنعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم، وأعيدت للكنيسة والأثرياء أملاكهم، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الأثرياء، والكنيسة الكاثوليكية، متخذة من المبادئ الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها . ويتضح هذا بصورة جلية في الهجمات التي شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سراة المسيحية في ولايتى أفريقيا ونوميديا .

ولا يبعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هذه المنطقة الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة، إذ كانت أفريقيا تمثل إلى جوار مصر قبو الحنطة للإمبراطورية . وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes إلى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية " حرب الفلاحين " (٨٣) .

(83) Hughes, A history of the chuch, p. 6.

الفصل الخامس

الأريوسية والميليتية

توارت بالحجب أنجم ليكين، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر في خريسوبوليس تعلن في الملأ أن هذا قد أصبح للإمبراطورية العاهل الأوحد، وإذا بقسطنطين يخر ساجداً يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب، وأغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة، فإذا الإمبراطورية كلها طوع أمره، وإذا هو لبشرها سيد !!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوه، وراح يعود إلى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق بصره اليباب والوديان، تجاه تلك البقعة القصية التي يهواها فؤاده، الشرق، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكاناً علياً، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميانوس، ثم كيف تألب عليه، وما كان من أمر ماكسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكينيوس وحربه ضده . وأفاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقد غدا سيد الإمبراطورية الواحدة الأوحد .

ولم يغب عن بال الإمبراطور طيلة هذه الرحلة الشاقة أنه قد أنقذ من الضياع المسيحيين، وشد من أزرهم، وأنعم بالكثير عليهم، وكم آلمه أن يرى وحدتهم في الشمال الأفريقي تنفصم، وأن يرى جهوده في لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد، وكم أمل أن يجد في الشرق تلك الوحدة الدينية التي افتقدها في الغرب [١] . وهيئ " لمحبوب الرب " أن وجوده في هذه الأقاليم الجديدة التي تزخر بأشياع المسيحية والتي فيها نبتت هذه، سيهيئ له ضميناً قوياً يمده العون، ويكفل له النجاح، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام [٢] .

---

(1) C.A.H. XII, p. 697.
(2) EVSEB. Vita Const. II, 67.

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين فى الشرق بأسعد حظاً منه فى الغرب، فإذا كان دوناتيو أفريقية أفسدوا عليه بهجة نصره على " طاغية روما " فإن آريوسيى المشرق والمليتيين قد عكروا عليه صفو غنمه حليف الأمس ليكينيوس، ولم يكن قسطنطين يسمح لجمهور النظارة فى هذه البقعة أن يشهد مسرحية "الانشقاق " التى كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا . ولم يكتمل بعد مشهدها . فقد كان قسطنطين يعي تماماً أن أى حادث كذلك الذى جرى فى ولاية أفريقيا يتعرض له الشرق لابد وأن يعصف بجهوده وآماله تماماً . فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت، ولابد أن يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى !!

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الإمبراطورية الفرد حتى حملت إليه رياح الشرق أنباء حدوث انشقاق في كنيسة الإسكندرية، وأن هذا قد تخطى هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى، ولم يكن قد ذهب من مخيلة الإمبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة فى الولاية الأفريقية نتيجة انشقاق كنسى أيضاً، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان .

وقد كان طبيعياً أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة فى الإسكندرية فقد كانت لقرون خلت مركز الثقافة في الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار [٣]، فلما جاءتها المسيحية، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة . وقدر لها بذلك أن تؤدى دوراً بارزاً فى المسيحية انتشاراً وفكراً، إلى الحد الذى دفع واحداً من المؤرخين [٤] إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقاً من الإسكندرية .

---

(3) F. Jackson, op. cit. pp. 269-270.

(4) Creed, Egypt and the christian church, p. 300.

وراجع أيضاً كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصول الثلاثة الأولى .

وقد قدمت الإسكندرية للعالم المسيحي أشهر آبائه في الفكر اللاهوتي في القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كان أبرزهم على الإطلاق كلمنت Clemens (حوالي ١٥٠-٢١٥)، وأوريجن Orignes (١٨٥-٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius (٢٤٦-٢٦٥)، وأضحى الثغر المصري مركز نمو الفكر اللاهوتي في الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها في العالم المسيحي بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث في أدق المشاكل في الدين والعلم (٥) .

وكان الخلاف في الرأي بين آريوس Arius رجل الكنيسة السكندرية وإسكندر Alexander أسقفها، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهي العلاقة بين الآب والابن، الكلمة المتجسدة (٦)، داعية هذا الجدال الذي اشتد أواره بين كنائس الإمبراطورية على حد قول الإمبراطور نفسه في رسائله إليهما (٧) .

أما معلوماتنا عن آريوس فنستقيها من مخاصميه . وإن لم ينكر عليه هؤلاء واسع علمه واطلاعه وتضلعه من المنطق حتى أنه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (٨)، إلا أنهم عارضوه الرأي حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة، وذلك شأن مؤرخي الكنيسة جميعاً . ويخبرنا سوزومنوس(٩) دون غيره أن آريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitus أسقف أسيوط الذي انشق على كنيسة الإسكندرية في أسقفية بطرس وشايع رأيه، ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماساً على يد بطرس أسقف الإسكندرية، وفي عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة إزاء الأساقفة (١٠) . ولما مات

(5) Vasuiliev, op. cit. I, p. 54.

وراجع أيضا لـلمؤلف، الدولـة والكنيسة، جـ٣، الفصل الأول، وله كذلك الفكر المصرى في العصر المسيحي، الفصل المعنون مدرسة الإسكندرية.

(6) Thompson, op. cit. p. 39; Latourette, expansion of Christianity, I. p. 348; Painter, op. cit. p. 15.

(7) EVSEB. Vita Const. II, 69.

(8) SOZOM. Hist. Eccl. I, 15.

(9) Id.

(10) Id.

بطرس خلفه أشيلاس Achillas على الأسقفية [11]، وتمكن آريوس من الحصول على الغفران وأعيد فى عام ٣١٢ إلى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلاً، ثم رقى إلى مرتبة القسيسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة[12] .

ومن رسالة بعث بها آريوس إلى صديقه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، نعلم أنه كان تلميذ لوقيان Lucianus الأنطاكى [13] . الذى كان قد أسس بها مدرسة لتفسير الكتاب المقدس [14] . وتدلنا الرسالة ذاتها على أن آريوس ورفاقه قد تأثروا إلى حد كبير بتعاليم لوقيان، ولقد شاع أخيراً مسئولية لوقيان عن العقيدة الآريوسية[15] حتى لقد قيل إن مدرسة أنطاكية لتفسير الكتاب المقدس هى موطن العقيدة الآريوسية، كما كان لوقيان، رأسها، وهو الآريوسى قبل آريوس نفسه [16] . ويصفه يوسيبيوس بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية [17].

أما تعاليم آريوس فنقف عليها من رسالة لإسكندر أسقف الإسكندرية إلى سميه أسقف بيزنطة، وأخرى بعث بها إلى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين آريوس والدوافع التى حفزته إلى حرمه من الكنيسة، ومن مقالات أثناسيوس Athanasius خليفته ورسائله ضد الآريوسيين وعرضه لتاريخ الآريوسية وردوده على ما أثاره الفريق الآريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية . ثم من رسالة آريوس إلى زميله أسقف صور ووثيقة إيمان آريوس إلى زميله

(11) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 5.
(12) SOZOM. Hist. Eccl. I, 15.
(13) THEOD. Hist. Eccl. I, 4.
(14) HIER. Vir. ill.77 .
نشأت فى كل من الإسكندرية وأنطاكية مدرستان لتفسير الكتاب المقدس وقد اتخذت كل منها اتجاهاً مغايراً للأخرى، فبينما اعتمدت مدرسة أنطاكية المنهج العقلى سلكت مدرسة الإسكندرية سبيل التفسير الصوفى المجازى، وكان أشهر أساتذتها فى هذا المجال اللاهوتى السكندري أوريجن، راجع للمؤلف، الفكر المصرى فى العصر المسيحى؛ وأيضاً الدولة والكنيسة جـ٣ ف١ .
(15) Downey, A history of Antioch in Syria, p. 338; Lietzmann, op. cit. p. 107.
(16) Vasiliev, op. cit. I, p. 55.
(17) EVSEB. Hist. Eccl. VIII, 13; IX, 6.

أسقف نيقوميديا يوسيبيوس، ورسالة هذا إلى باولينوس Paulinus أسقف صور ووثيقة أيمان آريوس التي قدمها إلى قسطنطين بعد عودته من المنفى .

تضمنت رسالة الأسقف السكندري إلى صديقه الأسقف البيزنطي في بدايتها أسفاً بالغاً لروح الشر التي نفثت سمومها في نفوس أناس ضعيفي الإيمان، دفعتهم جسارة وقحة إلى التهجم على الإيمان القويم، وتحذيراً مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول في الكنيسة بزيف القول وغروره، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمي هذه الحركة وهما آريوس وأشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك في إطناب بالغ يشرح لزميله مبادئ آريوس ويورد الأدلة التي اعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس، ويتولى الرد على هذه الفكر الآريوسية محاولاً دحضها، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هنا عنها في رسالته إلى عموم الأساقفة في مختلف الكنائس (١٨)، ومن الرسالتين معاً يمكننا أن نقف على آراء آريوس كما يراها اسكندر .

فالله عند آريوس لم يكن دوماً آبا، فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله أبا. وكلمة الله لم تكن دواماً، ولكنها من العدم نشأت، فالله قد جعل هذا الذي لم يكن من ذلك الذي لا وجود له . وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا . ذلك أن الابن مخلوق . لا يساوي الآب في الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للآب، ليس حكمته الحقة . إنما هو أحد الخلائق دُعي الكلمة خطأ والحكمة . فهو قد نشأ بذات كلمة الله . وبالحكمة الكامنة فيه – التي بها سوّاه الله وسوّاه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والكلمة غريبة عن جوهر الآب . بعيدة عنه ومنفصلة . والآب .. كيف يصفه الابن ؟ إن الكلمة لا تعرف الآب كنهه . والابن لا يعاين الآب يقيناً . والابن لا يعرف ذات الجوهر هو . من أجلنا جبل . يخلقنا الله به . به إذن يؤدي . لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا .. وإذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث في الشيطان ما خجلوا عن الإيجاب، حاجين أنه جبل وخلق، فطبيعته للتحول قابلة (١٩).

---

(18) THEOD. Hist. Eccl. I, 3.

(19) THEOD. Hist. Eccl. I, 3; ATHANAS. depos. Ar.

أما أثناسيوس ففى رسائله ضد الآريوسيين، وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الإطلاق عن شروح أسقفه اسكندر . ويضيف صراحة أن الفريق الآريوسى ينكر لاهوت المسيح، فالابن عندهم ليس إلها حقاً [٢٠] .

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى أن الآب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلهاً حقاً، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق . ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لا متناهيان [٢١] والابن غير مولود وليس جزءاً من غير المولود، ولا يستمد كيانه من مادة، وإنما بالإرادة والقصد وجد قبل كل العالمين . وأنه قبل أن ولد أو خلق أو قصد، لم يكن، لأنه كان غير مولود [٢٢] .

وعلى ذلك فالله لم يكن دائماً آبا . لأنه كان وحيداً، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وُجدت بعد، ثم أراد الله أن يخلق موجوداً معيناً أسماه اللوجوس، الحكمة، الابن، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته . ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن فى الله لوجوس آخر غير الابن، وقد سمى الابن تكريماً له باللوجوس [٢٣] ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شىء، سرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله، وإنما هو إحدى هذه القوى، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق، أما علاقته بالآب فهو مخلوق، وآلة للخلق وأداة [٢٤] . والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال . الابن فى رأى آريوس قمة الخلائق غير متغير وثابت، وليس كباقى المخلوقات، ولكن الثبات وعدم التغير هنا لا يعنى ثباتاً فى ماهية الابن ذاتها، ولكنه ثبات بحكم الواقع حسب إرادة الله [٢٥] . ومعرفة الابن

(20) ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.
(21) Dict. Theol. Cath. 1, 2, Col. 1784.
(22) THEOD. Hist. Eccl. 1, 4.
(23) Dict. Theol. Cath. I, 2, Col. 1786.
(24) Id.
(25) Id.

بالله معرفة غير كاملة، وذلك لأن الآب غير منظور للابن، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماماً الآب . ما يراه الابن وما يعرفه فإنما يعرفه بالنسبة لقواه، إن الابن لا يعرف حتى طبيعته هو (٢٦).

خلاصة القول عند الآريوسين أن المسيح لم يعد إلهاً، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الإله الحق . وبالتالي فهم يرتبون على ذلك أن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقي أو بالحرى المستوى الإنساني (٢٧).

ويشبه اسكندر أسقف الإسكندرية في رسالته إلى عموم الأساقفة آراء آريوس ورفاقه بآخرين سبقوهم قبل ذلك وأدانتهم الكنيسة (٢٨) ويقول : " إن هؤلاء الأفراد في سعيهم الدائب بكل مغالطتهم لإنكار ألوهية الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم" (٢٩) ومن رسالته إلى اسكندر البيزنطي يشير إلى هؤلاء الأفراد وهم " أبيون Epion وأرتماس Artemas وبولس Paul السميسطائي أسقف أنطاكية الذي نادى بأن المسيح مجرد إنسان وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقي . وأنكر بولس أقنومي الابن والروح القدس، معتبراً إياها مجرد قوتين في الله كقوتي العقل والتفكير في الإنسان، وقد حرم على يد مجمع عقد في سنة ٢٦٢ . ويذكر يوسيبيوس أن كلاً من

---

(26) Id.

(27) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786; F. Jackson, op. cit. p. 109; Davis, op. cit. p. 17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op cit. p. 16; A dictionary of Christian biography. Art. Arianism.

(٢٨) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود، ومضيها إلى طريق أمم، أن تخلت عن أسلوبها التبشيري البسيط بمعجزات المسيح، واختلطت بأفكار هؤلاء الأميين وفلسفاتهم، وأخذت عنهم وأعطتهم ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحديات المفكرين والفلاسفة، ونتيجة لذلك ظهرت في المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح، في محاولة لإرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية . وكان من بينها المرقيونية Marcionism نسبة إلى مرقيون الذي فرق بين إله المسيح والإله يهوه – وأصدر عهداً جديداً غير العهد الجديد المعروف يضم أنجيل لوقا ورسائل بولس فقط . والمونتانية Montanism التي نددت بتعلق المسيحيين بهذا العالم وازدياد سلطان الأساقفة . واتباع كيرنثوس Cyrinthus القائلين بأن الله لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه . وفي القرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميسطائي . وفي القرن الرابع كانت دعوة آريوس.

(29) THEOD. Hist. Eccl. I; 3.

أبيون وبولس ينكران لاهوت المسيح، كما أن أرتماس نادى بنفس العقيدة، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوس Zephyrinus (٢٠٢-٢٢١)[٣٠] .

وهذه الآراء احتوتها وثيقة هامة وهي رسالة بعث بها يوسيبيوس النيقوميدى إلى باولينوس أسقف صور جاء فيها :

" البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين، وما علمنا بانقسام الواحد إلى اثنين، ولم نع على الإطلاق ولم نعتقد أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد . ولكنا نؤكد أن غير المولود واحد . وواحد كذلك الذى يحيا فيه بالحق . ولكنه من جوهره لم يُجبل، ولم يشترك أبداً وغير المولود طبيعية أو جوهراً . متميزاً تماماً فى الطبيعة والاقتدار . جبل على شبه بالخالق سجية ومقدرة . إنا نؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنه بالقول ولا حتى بالفكر، كما أنها على البشر خافية . ومَنْ مِنَ الكائنات منهم أعلى . تلك آراء ندعو بها لا لأنا من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتاب المقدس من حيث نعلم أن الابن خلق، ثبت . . وقد قال السيد " الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم، منذ الأزل مُسحت . . . منذ البدء منذ أوائل الأرض . إذ لم يكن غُمر أبدئت . إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه، من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال أبدئت " (أمثال ٨/٢٢-٢٦) .

" ذلك أنه لو كان من خلاله أو منه . جزء منه أو منبثق من جوهره . لاستحال القول بخلقه . لأن ما هو من غير المولود لا يمكن القول بخلقه، سواء به أو سواه، لأنه غير مولود منذ البدء، ولكن إذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود، تدعو البعض إلى الجهر بأنه قد أتى من نفس جوهر الآب ويحمل من الآب فى الطبيعة شبهاً، لأجبناهم أنه ليس وحده الذي تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود، بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة، فقد ورد على لسان بشر " ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا على " (أشعياء ٢/١) وأيضاً " من ولد مآجل الطل " (أيوب ٣٨/٢٨) . والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكة لله فى طبيعته،

(30) EVSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق إرادته . ليس هناك والحق أقول شئ من جوهره، وإنما كل ما في الوجود من صنع إرادته . هو الله، كل شيء قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته، خلقت بمحض إرادته هو . كل شيء من الله"[٣١].

ويصف آريوس آراء خصومه في هذا الجدال بقوله " إنهم يقولون بأن الله على الدوم كان . وكذا الابن كان . مثلما يكون الآب . . الابن يكون أزلي . الآب لا يستبق الابن في الفكر أو لبرهة . أزلي الإله . أزلي الابن . الذي من غير المولود مولود . الابن من الله" [٣٢] .

ويعطينا أسقف الإسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله :

" نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية، بالآب الوحيد غير المولود، الواجب الوجود، لا يتغير ولا يزول، هو غاية الكمال . لا يتكثر عليه نقصان أو زيادة . معطي الشريعة والأنبياء والأناجيل . رب الأنبياء والرسل وكل القديسين، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود . ليس مولوداً من العدم بل من الآب . على نحو لا يدركه العقل، فوق التعبير . ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة . والآب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الإلهية من الآب . ولا تزال في آذاننا تتردد أصداء قول المخلص " ليس أحد يعرف الابن إلا الآب . ولا أحد يعرف الآب إلا الابن " (متى ٢٧/١١) . الابن لا يتغير، والآب. الابن لا ينقص عن الآب شيئاً سوى أنه ليس غير مولود وهو الابن الكامل وصورة الآب التامة [٣٣] .

هذان خصمان اختصموا في ربهم، راح كل يبشر بدعواه في دوائر الكنيسة، ويخبرنا سوزومنوس أن أسقف الإسكندرية لم يرد في أول الأمر أن يشجب هذا الجدل دفعة واحدة، ولكنه فضل السماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره في

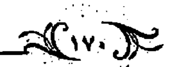
(31) THEOD. hist. eccl. I, 5.
(32)Ibid. 4.
(33) THEOD. hist. eccl. I, 3.

حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم (٣٤) . وسواء صح هذا القول أم أظلته سحابة من الشك، فالذى يعنينا أن عديداً من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيرت فيها تلك النقاط موضوع الخلاف، ولكن اتفاقاً فى الرأى لم يصل إليه الحزبان . وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وأمر آريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الآب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية . ولكن آريوس لم يذعن لهذا الأمر، فعقد اسكندر مجمعاً فى الإسكندرية سنة ٣١٩ قضى بإدانة تعاليم آريوس(٣٥).

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس، إلا أنه يبدو أن أفكار الأخير قد لاقت رواجاً بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الإسكندرية . ونقف على ذلك من رسالة اسكندر إلى الأساقفة حيث يذكر أن من ارتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم . . أشيلاس Achillas الكاهن، أيثالس Aeithales كاربونس Carpones، وآخر يدعى آريوس Arius وسارماتس Sarmates، ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius، ولوقا Lucius يوليوس Julius ميناس Menas، هيلاديوس Helladius جايوس Gaius (٣٦) . هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه إيماناً منهم أن عقيدتهم هى الحق، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم أن الآريوسيين قد أسيئت معاملتهم وأن حرمانهم ليس من العدالة فى شىء (٣٧) .

كان ذلك هو الوضع فى الإسكندرية فى مطلع عشرينيات القرن الرابع، غير أن الفريق الآريوسى رأى من الحكمة والحصافة، على حد تعبير سوزومنوس (٣٨)، أن يبحث عن نصير خارج المدينة، فأرسلوا من لدنهم مندوبين إلى بقية المدن الأخرى فى الإمبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين إياهم، إذا ما ارتأوا أنهم على الحق، أن يرسلوا إلى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم، وإذا ما

(34) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(35) Id.
(36) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist. eccl. I, 3.
(37) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(38) Id.



استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا إليهم يعلمونهم الإيمان القويم [٣٩] . ويعلق سوزومنوس على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله : لم يكن الإجراء الذى لجأ إليه فريق الآريوسين عديم الأهمية، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى إلى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة، وكتب بعضهم إلى اسكندر يتوسل إليه ألا يقبل أشياع آريوس فى شركة الكنيسة ما لم يطلقوا آراءهم بلا رجعة، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيماً [٤٠].

ومن رسالة آريوس إلى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية فى الولايات الشرقية للإمبراطورية، فقد جاء فيها ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم يوسيبيوس أسقف قيسارية، ثيودوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وباولينوس أسقف صور، وأثناسيوس Athanasius أسقف عين زربة Anazarbus أهم مدن كيليكيا Cillica وجريجورى Gregorius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius أسقف اللد Diosopolis . ثم يضيف آريوس قائلاً : وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius أسقف أنطاكية . هيلانكوس Hellanicus أسقف طرابلس، ومكاريوس Macarius أسقف أورشليم[٤١] .

ولم يكن فيما قاله آريوس شيء من المبالغة، إذ إن هذه المناطق الشرقية من الإمبراطورية هى التى سادتها المدارس الفكرية الفلسفية آنذاك، وانتشرت فيها هذه الفكر الجدلية التى كانت عنواناً على الحياة العقلية فى النصف الشرقى الرومانى على عكس ما كان حادثاً فى الغرب الرومانى .

حتى ذلك الحين، ورغم هذا الانتشار السريع للعقيدة الآريوسية فى الولايات الشرقية للإمبراطورية، إلا أن الدولة لم تسلك إزاءها بصورة ما، ذلك أن هذا الصراع الدائر فى الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ فى شيء . فقد

(39) Id.
(40) Id.
(41) THEOD. hist. eccl. I, 4.

كان ليكينيوس لا يزال بيد الشرق، وكان قد بدأ في سنة ٣١٩ - كما قدمنا - يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها، ومن ثم لم تختلف نظرته لأشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهي النظرة الكلية . ولم يكن إمبراطور الشرق يخشى من هذا الذي يدور في الكنيسة رحاه، فانقسام الرأي في الكنيسة المسيحية لا يضيره في شيء ما دام بين مسيحي وآخر، وحيث إن حكومته تقف من المسيحية جملة موقفاً عدائياً .

أما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل في داخلها من صراعات عنيفة، وكان أسقف الإسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحال لرأب هذا الصدع الذي أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث، دعا إلى عقد مجمع في الإسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا، وبلغ عدد من حضره أكثر من مائة أسقف قرر لعن آريوس وأتباعه الذين سبق لنا ذكرهم بالإضافة إلى سكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais إحدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmrica [٤٢].

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه، ومن ثم رحل عن الإسكندرية شاخصاً إلى فلسطين ومنها إلى نيقوميديا حيث صديقه يوسيبيوس الذي كان يحتل مكانة مرموقة في القصر الإمبراطوري [٤٣]، وراح يشكو بثه وحزنه وما أنزله به ورفاقه اسكندر من اضطهاد . وكانت رسالته السابقة إليه قد أفصحت عن ذلك . حيث يقول آريوس : لقد أمسينا نعاني تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا، وما من حجر إلا وقذفت به وجوهنا، لفظونا ملاحدة خارج المدينة " [٤٤].

دعا يوسيبيوس النيقوميدي إلى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا، قرر

(42) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(43) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(44) THEOD. hist. eccl. I, 4.

اتخاذ جانب آريوس وكتب إلى جمهور الأساقفة يدعوهم إلى نصرة الآريوسيين وقبولهم في الشركة، وطلب إلى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لإعادة آريوس ثانية إلى الكنيسة(٤٥). غير أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة، وكتب بدوره إلى أولئك الأساقفة يشرح لهم نواحي الخطيئة في عقيدة آريوس وعدم الاستقامة في إيمانه " فأنا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بإيمان الكنيسة القويم، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابي علماً، فإذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم فلا تقبلوهم، ولا تنصاعوا لرغائب يوسيبيوس ومشايعيه. وإنه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولي دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكراً. أنهم أعداء الرب للأرواح مفسدون (٤٦).

هكذا تحزب الفريقان، وازدادت في واقع الأمر هوة الخلاف، وعد الفريق الآريوسي رفض اسكندر قبول زعيمه في الكنيسة ثانية إهانة بالغة، فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية (٤٧). وأرسل آريوس بدوره رسائل إلى كل من يوسيبيوس القيسارى وباولينوس الصورى، وباتروفيلوس Patrophilus البيسانى Scythopolis يلتمس السماح لنفسه وشيعته، حيث كانوا قبلاً قد وصلوا إلى منصب القسوسية، بالتبشير والعظة(٤٨). وتلاقت آراء الأساقفة الثلاثة وغيرهم من أساقفة فلسطين عام ٣٢٣ حول تأييد وجهة نظر آريوس بالسماح له وأتباعه بلقاء رعيتهم في الكنائس كحالهم من قبل، شريطة الخضوع لاسكندر، آمرين في نفس الوقت آريوس أن لا يدخر وسعاً في إعادة السلام مع الأسقف السكندرى حتى يرفرف على الكنيسة وئام(٤٩).

على هذا النحو بدا للجميع أن كنيسة الإسكندرية تقف في جانب، وفي الآخر جل كنائس الشرق الروماني، ولاقت عقيدة آريوس على النحو الذى رأينا رواجاً

(45) SOZOM. Hist eccl. I, 15.
(46) ATHANAS. depos. Ar:; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(47) SOZOM. Hist. eccl. I, 15.
(48) Id.
(49) Id.

كبيراً في الدوائر الكنسية، في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وزاد في قوة آريوس انضمام أساقفة من ذوى الشهرة والمكانة إلى صفه شأن يوسيبيوس النيقوميدى وباولينوس أسقف صور، ويوسيبيوس أسقف قيسارية وغيرهم كثير (٥٠) . وغدت المسألة في غاية الحساسية والأهمية بين الآريوسيين وخصومهم، مجموعة ترتكز على إقناع الرجال المثقفين وأخرى تعتمد أساساً على الجموع، الأولى كانت قلقة تتطلع إلى إرساء العقيدة المسيحية على أساس منطقى عقلى والأخرى تعتمد العاطفة في جوهرها، وكان لابد أن تصطدم الطائفتان (٥١) . وقد تشجع آريوس - خاصة بعد القرار الذى أصدره أساقفة فلسطين فعاد إلى الإسكندرية ثانية، وعقد أنصار كل من الفريقين العديد من المجامع لإصلاح ذات البين، أسفرت في النهاية عن تعميق هوة النزاع بين الجانبين (٥٢). وبذلك تعرضت الكنيسة لما لم تشهده من قبل، حقيقة خرج عليها كثير من رجالها يدعون بآراء جديدة، ويناوئونها السلطان، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من الخطورة . وتأكل الحسرة قلب مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس لهذا الانقسام الذى يراه ماثلاً في الكنيسة بعد أن مَن عليها الرب بقبس من ضياء الحرية وسلام، فيلقى تبعة هذه الأحداث على حساد المسيحية وباغضيها(٥٣).

تلك كانت حال الكنيسة، ولم تكن الدولة أسعد حظاً ؛ ففى مطلع عام ٣٢٣ كانت لا تزال هناك صفحة من صفحات الحرب الأهلية في الإمبراطورية لم تطوها المقادير بعد، وكانت أقلام من الدم مدادها قد أعدت نفسها لتخط عليها قصة حرب طال توقعها بين قسطنطين وليكينيوس . ولم يكد العام يولى حتى هوى في الظل سيد الشرق، وخط يراع قسطنطين صحيفة نصره ونهاية حلم . وكم كانت فرحة الإمبراطور الجديد عندما أيقن أنه قد أصبح بين ظهرانى المستضعفين ممن وهبهم الحياة على حد تعبير يوسيبيوس (٥٤) . وكم كان حزن قسطنطين عميقاً عندما واتته

(50) EVSEB. Vita Const. II, 61. SOCRAT. Hist. eccl. I, 6.
(51) Painter, op. cit. p. 16.
(52) SOAOM. Hist. eccl. I, 16.
(53) EVSEB. vita Const. II, 61.
(45) Ibid. 67.

الكتب تحمل له نبأ انقسام استفحل خطره في كنائس الإسكندرية والمشرق، ولم يكن الإمبراطور قد أفاق بعد من هول صدمة الشقاق الذوناتى، وهاهو ذا يواجه انقساماً أشد منه انقساماً، ولم يكن قسطنطين يعلم أبعاد هذه التفرقة، ولكن ما أثار شجونه أن يرى في موطن المسيحية، الشرق، أمله ومبتغاه، صدعاً، ويقول سوزومنوس"... لقد شاعت في نفس قسطنطين الحيرة واستبد به الغضب وساده اضطراب لهذا الذي يرى " (٥٥) . حسب العقيدة تجرى لمستقر لها في درب الهدوء، فوجد فتنة تسبح في بحر الشغب .

عزم قسطنطين على أن يتدارك الأمر منذ البداية، وهيأت له نشوة نصره وزهو كبريائه أن بعض كلمات منه كافية لحسم هذا الأمر، فاختار مستشاره في الدين هوسيوس ليكون مبعوثه إلى اسكندر وآريوس في الإسكندرية (٥٦) . وحمله رسالة إلى كل منهما تضمنت بالغ الحرص وعظيم القلق من أجل إحلال السلام في ربوع الإمبراطورية (٥٧) . ونوه بأنه عمل على تسوية النزاع الذى نشب في أفريقيا(٥٨) مشيراً إلى الدوناتيين بذلك، وأشار إلى الشرق باعتباره مهد هذا الدين، وكيف كان يأمل أن يجد فيه الوحدة والأمان (٥٩) . وأوضح إلى أى حد اغتم وحزن نتيجة هذا الانقسام الذى حل بالكنيسة (٦٠) ثم عرض بعد ذلك وجهة نظره في هذا الصراع، قال :

" وبعد .. فأنا على يقين أن منبع الجدل الماثل هو ذلك . فأنت يا اسكندر عندما طلبت إلى القسيسين إبداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس . أو بالحرى.. يحسن قولى، عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فإنك يا آريوس، أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسناً أن تعمل الفكر فيه، ولئن

(55) SOCRAT. hist. eccl. I, 16.
(56) SOCART. hist. eccl. I, 7.
(57) EVSEB. vita Const. II, 65.
(58) EVSEB. vita Const. II, 66.
(59) Ibid. 67.
(60) Ibid. 68.

خامرك ليدفنن في غيابة الكتمان، وهاهو بينكما الخلف قد نشب، بعد أن أغفلتما حق الأخوة، ووقعت الرعية المقدسة في تمزق حزبي . ولم يعد للجسد الواحد وجود !

والآن . . أكلاكما علي استعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدراً واحداً فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه باراً قوياً ؟! (٦١) .

هكذا ألقى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعة الأحداث وحمل إياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق علي الرأي الحر فكره. ويتساءل الإمبراطور .

" كيف يا ترى يكون نصحي ؟!

خطأ في البدء أن تطرح القضايا على نهج هذا، والخطأ بعد في نقاشها. فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب، وتمليها روح صراع وليدة فراغ أسيء شغله، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن، ينبغي أن تظل حبيسة فكرنا، بعيدة عن آذان الجموع . أليست قلة تلك التي تعي مثلها ؟ فهي أمور علوية ذات طبيعة خفية، ولنقل أن واحداً قادر على إدراكها، فكم يا ترى من الجمع يلم بها ؟ وحتى هذا الذي يعيها تراه لا يحيد عن سوى الصراط ؟ يتحتم علينا من ثم أن نقصد في القول لأننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل، ولئن استطعنا إلى ذلك سبيلاً فمن من السامعين عساه أن يفهم . فالرعية لسبب أو لسبب قد تجدف أو تنشق " (٦٢) .

على هذا النحو يكشف قسطنطين عن عدم معرفة مطلقاً بطبيعة الجدل الدائر بين المسيحيين وأنفسهم، فطائفتان تختصمان حول طبيعة المسيح، رأس العقيدة، بينما الإمبراطور لا يعنيه من أمر هذا الجدال شيئاً، بل ويعتبره نتيجة فراغ أسيء استغلاله، فالخلاف إذن كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه في شيء قدر ما يعنيه جدل الرعية، فلو أن آريوس واسكندر أغلقا على نفسيهما أبواب الكنيسة

(61) EVSEB. vita Const. II, 69.
(62) EVSEB. vita Const. II, 69.

وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصولاً إلى لقاء، ما حرك ذلك شعرة من رأس الإمبراطور، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف، فذلك شيء يثير غضب الإمبراطور ويؤرقه ! فالناس على جهلهم سائرون إلى فرقة أو زيغ، ومن ثم أفصح الإمبراطور عن دفين غيظه وراح في لهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات، يحملهما تبعة الفوضى ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع . قال :

" ولنر هل أصبنا حيث اختلفنا في كلمات العبث والغباوة أن نعادى بعضنا بعضاً، وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما . أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هي تافهة وضيعة، سوقية هي !! وخلة حمق صبيانى، تقف والضد من حصافة الأكليروس والعقلاء !! ذلك حديث أقوله لكما دون رغبة في قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه طبيعتها . وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها، فعليكما إن صعب الوئام، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل " (٦٣) .

واختتم قسطنطين رسالته بقوله " أعيدوا إلى أياما خوالى، وليالى غفت فيها جفونى، حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة " (٦٤) .

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه في أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الإمبراطورية في قسمها الشرقى، وواضح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية، وليس أدل على ما ذكرناه في الفصل الثالث عن مسيحية قسطنطين، مما جرى به قلم الإمبراطور نفسه، فحامى حمى المسيحية يصف نقاط الخلاف الجوهرية حول طبيعة المسيح بأنها تافهة ووضيعة وسوقية وأمور صبيانية، أى تفتقر إلى العقل بل إلى كل ما هو نبيل وأخلاقى، ترى هل يمكن أن تصدر هذه العبارات عن إمبراطور ملأ الدنيا ضجيجاً أو ملأها باسمه مداحه

(63) Ibid. 71.
(64) EVSEB. vita Const. II, 72.

يوسيبيوس القيسارى، يدعى المسيحية، أو حتى هل يمكن أن تكون المسيحية قد مست ولو جزءاً يسيراً من شغاف قلبه ؟! فكيف يمكن القول فعلاً أن قسطنطين اعتنق المسيحية ؟ وكيف يقيم بعض المؤرخين الدنيا ويقعدونها حول كونه مسيحياً وهو يصف الحوار حول المسيح بـ" الغباوة " و" التفاهة " و" التدنى " ؟! :

جاء هوسيوس برسالة الإمبراطور إلى الإسكندرية، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد إلى الكنائس الأخرى . فدعا إلى عقد مجمع دينى فى الإسكندرية عام ٣٢٤ قرر حرم آريوس ورفاقه (٦٥) . وعاد إلى الإمبراطور يحمل إليه أنباء إخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس وإسكندر، وفى طريق العودة توقف فى أنطاكية منتهزاً فرصة وفاة أسقفها فيلوجون Philogonius حيث دعا فى ديسمبر سنة ٣٢٤ إلى عقد مجمع كبير ضم الأساقفة من كل الأقاليم التى تنظر إلى أنطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية، من كيليكيا وميزوبوتاميا فى الشمال حتى فلسطين جنوباً، وكان المجمع فى جملته معادياً للآريوسية فقرر اختيار يوستاتيوس Eutstathius خصم الآريوسية العنيد أسقفاً للمدينة خلفاً لفيلوجون (٦٦) . وقرر المجمع أيضاً إدانة العقيدة الآريوسية (٦٧) وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركيسوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس)، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea ويوسيبيوس أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، وبعث المجمع بقراراته هذه لا إلى أساقفة الشرق فحسب بل إلى أسقف روما أيضاً لإذاعتها فى الغرب (٦٨) . وقد يتساءل سائل حول إمكانية إدانة آريوس ورفاقه فى مجمع أنطاكية سنة ٣٢٤ رغم ما ذكرناه آنفاً من تأييد عدد كبير من أساقفة الشرق لآريوس ؟ والذى يجب الانتباه إليه أن معظم من أدانوا آريوس كانوا من صغار الأساقفة الذين يطمحون إلى إرضاء مندوب الإمبراطور ومستشاره هوسيوس، توطئة لكسب جانب الإمبراطور، وكان هذا بداية ظهور جماعة الأساقفة السياسيين الذين سوف يتسع نطاقهم فيما بعد، ولعل ما يؤيد قولنا هذا أن كبار أساقفة الشرق قد تمت إدانتهم أيضاً إلى جانب آريوس .

---

(65) Ibid. 73.
(66) Jones, Later Roman Emire, I, p. 86.
(67) Downey, op. cit. p. 351.
(68) Jones, Constantine, p. 150.

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع أنطاكية صراعاً خاصاً بالقسم الشرقى من الإمبراطورية عدة سنوات إلى الغرب، وأضحى الجدال حول العقيدة الآريوسية يغطى كنائس الإمبراطورية بضوضائه . وقد انعكس هذا على سلوك الإمبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التى اتسعت خلقة روادها، فقد كانت النية متجهة في أول الأمر، بعد أن تبين إخفاق هوسيوس فى الإسكندرية، إلى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة أنقرة . وقد ظهرت هذه الفكرة أولاً لدى المجمع الذى عقد مؤخراً فى أنطاكية (٦٩) . على اعتبار أن هذا الجدل قائم في الولايات الشرقية . فلما أنبأ مجمع أنطاكية البابا بحقيقة النزاع، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب. قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونياً يضم أساقفة الإمبراطورية كلها، ليكون قرارهم عاماً حازماً . ولم تكن معرفة البابا بهذا الأمر هى وحدها التى دفعت قسطنطين لجعل المجمع عالمياً، بل كان وراء ذلك عاملان أشد أهمية، أولهما إفادته من المشكلة الدوناتية فى الغرب، والثانى وهو الأهم أن يجمع تحت سلطانه فى بداية عهده كل رجال الكنيسة الذين فتح عليهم أبواب رحمته وواسع كرمه، ليقر الجميع منذ البداية بسلطانه . . وهذا ما كان . ورأى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية Nicaea فى بيثينيا (مكانها الآن قرية أزنيق Isnik التركية)(٧٠) حتى يتمكن أساقفة إيطاليا وباقى كنائس أوروبا من حضور المجمع ولملائمة مناخها، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم (٧١).

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى Ecumenical شهدته الكنيسة، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الإمبراطور قسطنطين إلى مختلف كنائس الإمبراطورية . ويعد يوسيبيوس ذلك العمل من جانب الإمبراطور اعترافاً منه بأيادى المخلص البيضاء عليه (٧٢)، وكان فى حد ذاته محاولة جديدة وجزيئة لحل

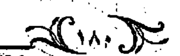
(69) Downey, op. cit. p. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 80.
(70) Backhouse, op. cit. p. 399.
(71) EVSEB. Vita Const. III, 6. 7.
(72) Ibid. 8.

الخلاف الحادث في الكنيسة . حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلاً على عقد المجامع الدينية لإدانة "بدعة" جديدة أو القضاء على "انشقاق"، ولكنها كانت في معظمها مجامع محلية Synods يلتقي فيها الأساقفة والقسوس والشمامسة في مركز أبروشية، وربما اتسعت قليلاً لتشمل كنائس الولاية أو الإقليم (٧٣).

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا، خاصة وأن الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ، ويمثل عالمية عالم قسطنطين آنذاك. إلا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما أسفر عنه لقاء الأساقفة، فلا يبعد إذن أن يكون الإمبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضياً جملة وتفصيلاً على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة . ولابد أن يكون قسطنطين قد وعى تماماً مدى الخطورة التى تهدد وحدة الإمبراطورية من جراء هذا الصراع .. فإذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولاية أفريقيا وحدها، فأخذت بذلك الطابع المكانى، فإن الأريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الإسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وهى مناطق طالما هفا إليها فؤاد الإمبراطور وكم راودته آمال هدوء وسلام أمل أن يجدها هناك . ومن ثم فقد أراد الإمبراطور أن يحسم الأمر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب وليعيد أمام الجميع من جديد توزيع لحن الخيرات على قيثارة المن، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه إلى أعضاء المجمع، يقول :

" أحسست وخزاً في روحى، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية، ومن ثم فقد حدتـــنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر، وعليه فقد دعوتكم للحضور، وإنى إذ أشعر بارتياح عظيم وأنا أشهد مجمعكم، لعلى يقين بأن آمالى ستغدو حقيقة إذا ما قدر لى أن أرى وحدة قراراكم " (٧٤) .

(73) Thompson & Johnson, op. cit. pp. 46-47.
(74) EVSEB. vita Const. III, 12.



ثم هاهو قسطنطين يبتهل إلى الأساقفة آمراً أن يجدوا طريقهم على الفور إلى الوحدة والوئام قائلاً :

" يا رفاقى الأعزاء . . يا رجال الله، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص . . بالله لا تتباطأوا . . لا تتوانوا، لتبدؤن على التو فى نبذ دواعى فرقة شاعت بينكم، ولتمحون ركائز جدالكم، وما ذلك إلا بأن تحتضنوا أغصان السلام، فإن فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقاً رضى عنه الرب العلى، وتقدمون لشخصى فضلاً كبيراً . . أنا وليكم والصفى "(٧٥).

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الأساقفة، بناءً على دعوته، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة، وأن يظهر للرعية المسيحية مدى حرصه على العقيدة وحدبه على تخليصها من أية شائبة، وذلك شيء نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة فى الاشتراك فى المناقشات الجدالية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس (٧٦) رغم عدم إلمامه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته إلى اسكندر وآريوس، بل واحتقاره لمناقشة مثل هذه القضايا التافهة على حد تعبيره .

على أية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الإمبراطور إعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها، فكما كان الإمبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن الأعظم Pontifix Maximus وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين، فقد أراد بالتالى هنا أن يغدو رجل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الإلهية ليقر على الأرض السلام وليمجد الرب فى الأعالى !!

ولم يقف دور قسطنطين عند حد إرسال دعوته إلى الأساقفة وحسب بل تخطاه إلى التكفل بنقل المدعوين إلى نيقية، فسمح للبعض باستخدام وسائل النقل العامة، وأمد البعض الآخر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله

(75) Id.
(76) EVSEB. vits Const. III, 6-7.

بضائقة أو مشقة (٧٧) . ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا إلى هناك يحدوهم جميعاً الأمل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنها هذا الاجتماع (٧٨) . ومثل فى المجمع أساقفة من سوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآسيا وفريجيا وجالتيا وبامفيليا وكبادوكيا ومقدونيا وآخايا وأبيروس وتراقيا وأسبانيا كما حضره مندوبون من فارس وسكيثيا وبونطس . أما سلفستر أسقف روما فلم يحضر وأرسل فيتو Vito وفيكينتيوس Vicentius مندوبين عنه(٧٩)، ويذكر سقراط أن قسطنطين دعا إلى الاجتماع أكسيوس Acesius أسقف النوفاتيين (٨٠)، ويضيف أن أحد قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوسيبيوس نفسه، ويقول أنه تلقاها عن رجل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث(٨١) .

ويختلف المؤرخون فى عدد أساقفة المجمع، فيذكر يوسيبيوس (٨٢) أنهم حوالى ٢٥٠ أسقفاً، على حين يحددهم سقراط بـ ٣٠٠أسقف (٨٣)، أما سوزومنوس فيقول أن عددهم كان ٣٢٠ (٨٤)، ويخبر أثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفاً (٨٥) وإن كان عددهم عند ثيودوريت يصل إلى ٢٧٠ (٨٦)، وربما كان هذا التفاوت راجعاً إلى تعمد هؤلاء، وكلهم للآريوسية عدو، إغفال ذكر أسماء الأساقفة الآريوسيين،

---

(77) Ibid. 6.
(78) Id.
(79) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.
(٨٠) نسبة إلى نوفاتيانوس Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما، الذى ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث، العداء، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة، ويطلقون على أنفسهم المتطهرين، شأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، وكان سقراط المؤرخ يميل إلى هذه الطائفة .
(81) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.
(82) EVSEB. Vita Const. III, 8.
(83) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(84) SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(85) ATHANAS. hist. Arian. 66.
(86) THEOD. hist. eccl. I, 7.

وإن كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفاً [٨٧] . وكان أغلب الحضور يمثل أساقفة الكنائس الشرقية أما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية . وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين في الشرق على غرار اسكندر أسقف الإسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره مع الآريوسيين، ويوسيبيوس أسقف قيسارية، ويوسيبيوس الأسقف النيقوميدى ويوستاثيوس أسقف أنطاكية، وما ركللوس أسقف أنقرة، ومكاريوس أسقف أورشليم[٨٨] . .

ويرسم سوزومنوس صورة حية لما كانت عليه الحال فى نيقية عندئذ، ويحدثنا حديثاً شيقاً عن أولئك الأساقفة شهود المجمع، فبعضهم تحنى له الهام تقديراً لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس، وبعض ثان تعرف في وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع، وثالث جمع هذا كله، ومن الرجال من مهر فى الجدل وبرع فى النقاش . ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الأساقفة إلى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به أو ظلم آلمه، وغيرهم راح يتلمس أخطاء الآخرين ليقدمها في شكاية إلى الإمبراطور طالباً منه العدل والقصاص، بينما راح آخرون دون أن يعوا من أمر ما ذهبوا إليه شيئاً!![٨٩] .

وفى ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع [٩٠]، ويصور يوسيبيوس اللحظات التى سبقت دخول الإمبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التى " شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء "، ويمضى المؤرخ الكنسى بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على إمبراطوره [٩١] . ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به، والذى كان هو أحدهم، ثم يقول إن الأسقف الذى

(87) Duchesne, op. cit. II, 144.
(88) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(89) SOZOM. Hist. eccl. I, 17.
(90) Hefele. Op. cit. I, 1, pp. 416-419; Palanque-Bardy.
(91) Latourette, op. cit. III, 10.

كان يحتل المكان الرئيسى عن يمين الإمبراطور نهض وخاطبه شاكراً حسن صنيعه الذى أسداه للدين القويم، مثنياً على فضائله وعظيم خلاله وسجاياه [٩٢]. وعلى الرغم من أن يوسيبيوس لم يفصح لنا عن شخص ذلك الأسقف، إلا أننا نعلم من سوزومنوس أنه لم يكن سوى يوسيبيوس نفسه [٩٣].

انتهى يوسيبيوس من إلقاء كلمة الافتتاح والترحيب بالإمبراطور، فظللت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالإمبراطور، فقد كانت تلك هى المرة الأولى منذ بشر المسيح بدعوته التى يحظى فيها رجال الدين المسيحى بالمثول جماعة فى حضرة الإمبراطور، وتلك لحظة لابد أن يسجلها الزمن لقسطنطين، وأن يرفعه بها هؤلاء على أقلام مؤرخى الكنيسة إلى مصاف رسل المسيح، وما لبث قسطنطين أن قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة :

" أعزائى . . لكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد . والآن وقد تحقق الأمل . أشعر لزاماً على أن أتقدم بالشكران لإله الكون، فقد أنعم على بخير جديد، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفة واحدة . إلى الله أبتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا، وأن لا يسمح لخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد، وإليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا، بغضاء الطواغيت الآثمين . ألا تقدم نفس أمارة بالسوء تحيك المؤامرات الدنيئة من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ. فالصراع الداخلى في الكنيسة - يعد فى رأيى - أشد خطراً من أى حرب أو نزاع . إن خلافاتنا هذه تبدو لى أكثر فاجعة إذا ما قورنت بأى شكل خارجى، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الأعداء، قدرت أنه لم يعد باقياً إلا أن أقدم فرائض الشكر لله والثناء، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد إليهم الله الحرية بى " [٩٤] .

والمتأمل لما ورد فى هذا الخطاب يدرك للوهلة الأولى أن الإمبراطور لم

(92) Ibid. 11.
(93) SOZOM. Hist. eccl. I, 19.
(94) EVSEB, vita Const. III, 12.

يخرج هنا عما كتبه فى رسالته إلى كل من اسكندر وآريوس من قبل فيما يتعلق بخطورة هذا الانقسام، خاصة وهو يؤمن أن هذه المسائل المتنازع عليها غير جديرة بالأهمية، ومن ثم فهو يعلن هنا صراحة أن هذا الصراع الداخلي " أشد خطراً من أى حرب أو نزاع " بنص كلماته .

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى حفزته إلى توجيه الدعوة إليهم للاجتماع، وأمله الكبير فى أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام . ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية، إلا أن الإمبراطور ألقى كلمته باللاتينية .

ويبدو هذا أمراً طبيعياً يتفق وقلة إلمامه باليونانية . وذلك شئ نعلمه من يوسيبيوس وسوزمنوس (٩٥) . وإن كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله إن قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للإمبراطورية (٩٦) . خاصة وأن اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة (٩٧). وهذا ما أكدنا عليه سابقاً من الهدف الأساسى الذى أراد الإمبراطور تحقيقه من عقد مثل هذا المجمع العام .

أعطي قسطنطين بنهاية حديثه إشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم، ولكنهم بدلاً من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات، واستحالت القاعة إلى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون(٩٨) ، فوقف الإمبراطور بذلك على حقيقة لم يكن يتمنى رؤياها ووضح له أن أمل وحدة الإمبراطورية عقيدياً ليس بالسهولة التي طواها به سياسياً وعسكرياً .

ومرت الأيام والإمبراطور يشهد كل يوم مزيداً من هذه الشكايات فلما هاله

(95) EVSEB. vita Const. III, 13; SOZOM. Hist. eccl. I, 20.
(96) Jones. Constantine. p. 156.
(97) Davis, op. cit. p. 18.
(98) Sozom. Hist. eccl. I, 17.

ما رأى جدد يوماً وأمر بالاتهامات وردودها فجيء بها، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطباً ضمائرهم وعقولهم قائلاً :

" ترى . . ما كل هذا ؟! ذاك شيء يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب، يفصل فيه القاضى الأعظم . . أما أنا فلست إلا بشراً مثلكم . وإنه لشر لى أن تشملنى فى كل الأمور صلاحية، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله !! ما كان لهم أن يقفوا وإياهم طرفى نقيض، فلنقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب، وليحل بينكم الوئام . إذن . . لتطرح على التو شكاياتنا . ولنعط كل اهتمامنا لشيء من أجله جئنا . ذلكم هو الإيمان [٩٩] .

وعليه فقد أصدر الإمبراطور أمراً فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت بها النيران [١٠٠].

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة، ومحاولة التوصل إلى صيغة للإيمان ترضاها الكنيسة كلها . وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعي إليها آريوس ليوضح عقيدته . وراح كل فريق يعرض حججه وأسانيده ولكنها لم تسفر عن شيء سوى شهرة اكتسبها بعض الشخصيات منهم أثناسيوس السكندرى [١٠١] . وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع . ويمتدح يوسيبيوس صبر الإمبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك . مثنياً على أولئك الذين أحسنوا الحديث . مستهجناً من أبدى ميلاً للعناد والمهاترة، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد، بل إنه قاد أحياناً أشد المتخاصمين وأعتاهم إلى التسامح والوئام، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثه إلى الجميع، أن يظهر بصورة جذبت إليه أفئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم [١٠٢] .

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى

(99) Id.
(100) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(101) Id.
(102) EVSEB. vita Const. III, 13.

الكنيسة يوسيبيوس يروى ذلك . كما رواه من قبل لأهل بيعته في قيسارية في رسالته التي بعث بها إليهم إبان انعقاد المجمع يقول : " لعله قد نمى إلى علمكم من مصادر أخرى ما تقرر بشأن إيمان الكنيسة في مجمع الأساقفة العام في نيقية . فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه . ولكن خشيتي من تسرب شائعات لا تتفق والصدق، قدرت لزاماً على أن أوافيكم أولاً بصيغة الإيمان التي عرضناها، وأثني بتلك التي نشرت مع الإضافات التي أدخلت على دستورنا، وفيما يلي سأتلو عليكم ما قرأته في حضرة إمبراطورنا الورع، والذي قيل عنه إنه على الحق المبين . تلكم قانون إيماننا . . .

" وفق ما تعلمنا بادئ ذي بدء، وما لُقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسيون والأساقفة وبه يبشرون . نؤمن نحن، ونفصح على هذا الأساس عن إيماننا .. نؤمن بإله واحد . آب قدير . خالق كل شيء . ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح، كلمة الله . . إله من إله . نور من نور . حياة من حياة . الابن الوحيد المولود . أول من ولد دون سائر الخلائق، مولود من الآب قبل كل الدهور، كل شيء به كان، الذي من أجل خلاصنا تجسد، وعاش بين البشر، تألم وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى الآب وسيأتي ثانية في مجده ليدين الأحياء والأموات، نؤمن بالروح القدس الواحد . نؤمن بوجود ودوام كل ذلك، الآب في الحق هو الآب، والابن هو الابن . والروح القدس هو الروح القدس . كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشروا بالإنجيل قائلاً : " اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨/١٩) .

" نحن مستمسكون بالإيمان هذا، وعليه نحيا حتى نموت لاعنين كل هرطقة دنسة، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح، أننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا منذ وعت نفوسنا ذواتنا، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم إنّا بهذا آمنا وكرزنا " .

" عندما أفصحنا عن هذه العقيدة، لم يكن هناك من يفندها، بل إن إمبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق إيماننا، وتوافقت معها آراؤه، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها، وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف إليها عبارة واحدة هي " من نفس الجوهر " الهوموسية Homoousius (Consubstantial) وأوضح الإمبراطور أن هذه الإضافة لا تعني أية صفات جدية أو تحول، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق، ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول، تلك أمور ينبغي إدراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية، على هذه الشاكلة حاج إمبراطورنا التقي الحكيم . وقد أسفرت إضافة عبارة " من نفس الجوهر " عن إيجاد الصيغة التالية :

" نؤمن بإله واحد . الله الآب . ضابط الكل . خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح . المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق . مساو للآب في الجوهر . الذي كل شيء به كان . هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطي، تألم وقبر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب . وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء ".

ويمضي يوسيبيوس في حديثه لأهل بيعته قائلاً :

" وعندما سجلوا هذه الصيغة لم تتركها دون فحص في جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول، وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة " من نفس الجوهر " تعني أن الابن من الآب . وليس جزءاً منه . ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأي حباً في السلام، وخشية الانحراف عن قويم الإيمان . ولنفس العلة قبلنا عبارة "مولود غير مخلوق" . فقد قالوا إن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق، ولا

يصبح أن يكون الابن شبيهاً بها، وعلى هذا فهو ليس بشيء مخلوق، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق .. والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب إدراكها ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر .. ونفس الشيء يخص عبارة "من نفس الجوهر مع الآب" وعندما فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية، وقد اتضح أيضاً أن هذا لا يعنى انقساماً فى الجوهر أو انبثاقاً أو تحولاً أو تغييراً أو تضاؤلاً لقدرة الآب فذلك كله غريب عن طبيعة غير المولود . ولقد استقر الرأى على أن القول بعبارة " من نفس الجوهر مع الآب " تعنى أن ابن الله لا يشبه، بأى حال من الأحوال المخلوقات التى جبلها الله، ولكنها بالنسبة للآب، الذى ولده، مثيل له تماماً فى كل شيء لأنه من جوهر وفحوى الآب . وبعد أن أعطى هذا التفسير للعقيدة، بدا لنا صواب موافقتنا عليه، خاصة وأننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة، قد استعملوا عبارة " من نفس الجوهر " للتدليل على الوهية الآب والابن .

" تلكم هى الظروف التى رأيت لزاماً على إبلاغكم إياها حول الصيغة التى نشرت عن الإيمان، ولقد وافق عليها جمعنا بعد تمحيص وفحص للآراء دقيق فى حضرة إمبراطورنا الحبيب . ومن أجل الدواعى التى سبق لنا ذكرها قبلنا جميعاً هذه الصيغة، لأنها تحرم استخدام الألفاظ التى لم ترد فى الكتاب المقدس، والتى بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة، وحيث أن الكتاب المقدس لم ترد به هذه العبارات أو ما هو من شكلها، بدا لنا عدم معقولية تداول هذه العبارات، واقتناعاً بهذا الرأى، رأينا صواب الموافقة لأننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات . وزيادة على ذلك فإن إدانة القول بعبارات من قبيل أن " الابن لم يكن قبل أن يولد " وأيضاً " من العدم " و " وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن " لا تبدو متضمنة عدم تناسب أو ملاءمة، فالجميع متفق على حقيقة أنه ابن الله قبل ولادته بالجسد . ولقد راح إمبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الإلهى ووجوده قبل كل الدهور لأنه بحق كان فى الآب دون توالد حتى قبل ولادته فالآب دوماً هو الآب . تماماً كما أنه على الدوام الملك المخلص، وبحق هو كل شيء لم يعتوره تغير أو تبديل " (١٠٣) .

(103) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. eccl, I, 11.

هذه صورة لما دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للإيمان القويم ترتضيه الكنيسة الجامعة، ونعلم من أثناسيوس (١٠٤) أيضاً أن مسألة الاتفاق على صيغة لهذا القانون لم تكن سهلة ميسرة . فقد طُلب بداءة إلى الفريق الآريوسى أن يعرض آراءه، ولما تم ذلك تولى الأساقفة المعارضون الرد عليها وشجبها، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة، وبعدها راح المؤتمرون يناقشون حول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا إليها على النحو الذى أعلمنا إياه يوسيبيوس .

يتضح من رسالة يوسيبيوس أن أهم نقطتين للخلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر " الهوموسية " Homoousius والأزلية، فهذه تمسك بها مناهضو الآريوسية التى أصر أتباعها على القول بأن الابن مشابه للآب فى الجوهر " الهومويوسية " Homoiousius وليس مساوياً له فى الأزلية لأن الآب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن (١٠٥) . والثانية القول بالخلق أو الولادة . فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولود ومخلوق، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى، وتلك حقيقة نلمسها من رسالة يوسيبيوس القيسارى إلى أهل بيعته، ففى قانون إيمانه الذى قدمه إلى المجمع النيقى لم يذكر شيئاً من هذا القبيل، ولكنا وجدنا عبارة " مولود غير مخلوق " قد احتواها قانون الإيمان النيقى، ويذكر يوسيبيوس بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللاً بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشياء التى خلقت بالابن، ولا

(104) ATHANAS. de decr. II, 3.

(١٠٥) من الطريف أن هذا الخلاف العقيدى بين الفريقين، ينحصر لغوياً فى حرف اليوتا (I)اليونانى، فالمساواة فى الجوهر " الهوموسية Homoousius " التى أقرها مجمع نيقية، إذا ما أدخلنا عليها حرف (I) تحولت الكلمة إلى الفريق المضاد لتعنى " التشابه فى الجوهر " الهومويوسية Homoiousius " . وإن كانت هذه الأخيرة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار إلا فى عهد الإمبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) ابن قسطنطين، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لإحدى الفرق التى تشعبت إليها الآريوسية فيما بعد، والتى أصبحت تعرف باسم أنصاف الآريوسيين Semi-Arians . للوقوف على تفصيل ذلك راجع للمؤلف الدولة والكنيسة جـ٣، الفصل المعنون " قطوف الفكر الآريوسى "

يصح أن يكون الابن شبيهاً بها، وعلى هذا فهو ليس بشيء مخلوق شأن ما خلقه بيده، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق [١٠٦] . أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك، وذلك بين من قول آريوس حيث يذكر " أنه قبل أن ولد أى خلق . . لم يكن " [١٠٧] .

على أن الذى يعنينا من رسالة يوسيبيوس وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبه الإمبراطور فى المجمع، فقد أسلفنا أنه أمسك بدفة المناقشة يديرها يستحسن ويستهجن، ويؤيد هذا ويعارض ذاك . وكان من قبل قد دعا الحضور إلى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعها، إلى هذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به، أما أن يتدخل الإمبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالإضافة أو الحذف، فذلك شيء يدعو للتساؤل حقاً، إذا كان الإمبراطور قد سمح لنفسه أن يفعل هذا، فكيف تسمح له الكنيسة إذن أن يقدم على ذلك ؟!

لقد وقفنا على عدم إلمام الإمبراطور بأمور العقيدة من رسالته التى بعثها إلى اسكندر وآريوس منذ عدة أشهر، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة، إذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة . ثم يقترح أيضاً نصاً فى جوهر العقيدة، يصبح أحد عمد قانون الإيمان القويم بعد ذلك حتى يومنا هذا، والكنيسة به معتزة له حافظة !

لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه، ولما عرض يوسيبيوس قانون إيمان بيعته، جاء خلواً من هذه العبارة، ورغم ذلك فقد ارتضاها الجمع وشهدوا بأرثوذكسيتها، وراح الإمبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحاً فى نفس الوقت إضافة عبارة " من نفس الجوهر " وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير، ذلك أن وثيقة هامة يرتكن إليها أعداء الآريوسية، أعنى رسالة اسكندر السكندرى إلى زملائه الأساقفة، لم تتضمن شيئاً من هذا القبيل، كما أن رسالته إلى سميه البيزنطى لم تحوها .

(106) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(107) THEOD. hist. eccl. I, 4. Lietzmann, op. cit. p. 109.

يضاف إلى هذا أيضاً أن مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس الأسقف الأسباني، لم يشر إلى هذا النص في قليل أو كثير . وإن كان الحزب المعادي للآريوسية يمتلك سبباً وجيهاً لتجنب مثل هذا القول، فديونيسيوس Dionysius الكبير أسقف الإسكندرية خلال اضطهاد دكيوس Decius وفاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثناء مجاوراته مع بعض أساقفة ليبيا، ولو أنه احتراماً لسميه أسقف روما اضطر أخيراً لقبولها، وإن كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد (١٠٨) . ويقول جونز إنه إذا كانت الهوموسية مكروهة تماماً في الشرق لدى عدد كبير من المثقفين، فإنها كانت مقبولة في الغرب غير الفلسفي لمدة تزيد على قرن . وقد رأينا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندري للموافقة، ولو مع التحفظ، على هذا المصطلح (١٠٩) .

ولكن الذي يدعو للتساؤل حقاً، هو أنه إذا كان الأساقفة قد أجازوا إيمان كنيسة قيسارية الذي قدمه أسقفها . فما الذي حدا بالإمبراطور إذن إلى إقتراح مثل هذه الإضافة ؟ ولم يكن اقتراح الإمبراطور إلا أمراً واجب التنفيذ .

لعله من معقول القول أن نذكر أن الإمبراطور كان واثقاً تمام الثقة أن أساقفة الشرق وعلى رأسهم اسكندر لن يعارضوا هذه الإرادة التي فرضت قولاً ما كانوا يقبلونه قبلاً ولما كان الإمبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة، وكان هذا المصطلح سائداً في الغرب، فلا يبعد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربي هو الذي أوحى إليه بهذا المصطلح (١١٠) . وربما يكون هوسيوس قد ضمن سكوت الأسقف السكندري وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجراه معه خاصة وأن اسكندر كانت أمامه سابقة في تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وإن كان مرغماً (١١١) . ولعله مما يؤيد ذلك ما ذكره الأسقف يوسيبيوس في

(108) Hefele. op. cit. I, 1. 342-346. Jones. Constantine, p. 161; Lietzmenn, op. cit. pp. 95-99; Duchesene, op. cit. II, p. 154.

(109) Jones, Constantine, p. 162.

(110) Hefele. op. cit. I, 1. Pp. 342-346; Duchesne, op. cit. p. 155.

(111) Jones, Constantine, p. 162.

رسالته إلى أهل بيعته يخبرهم فيها أن طرح هذه العبارة "الهوموسية" قد أثار كثيراً من المناقشات الحامية بين الأساقفة جميعاً، وأنها لم تقبل من كثيرين بسهولة .

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعاً له على تقبل أى اقتراح يوحى به إليه ذلك الأسقف الأسبانى . فقد كان هوسيوس يمثل على الأقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب، وقد رأى الإمبراطور أن إجابة هوسيوس إلى مطلبه كفيل بأن يجعل كنائس غرب الإمبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة، ومن نفس الزاوية ننظر أيضاً إلى موافقة الإمبراطور والأساقفة على قانون الإيمان اليوسيبيوسى القيسارى . فقد كان يوسيبيوس بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة [١١٢]، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤ .

وهكذا أيقن الإمبراطور أن الموافقة على قانون للإيمان تقره كنائس الغرب، ولا ترفضه كنائس الشرق، وإضافة نص ترتضيه تلك ولا سبيل لهذه للاعتراض عليه، طريق إلى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب وجمعها على كلمة سواء . وذلك واضح من قول يوسيبيوس فى رسالته أن الإمبراطور كد لشرح معنى هذه الإضافة وراح يحث جموع الأساقفة على الإيمان بها، ولم يجد الإمبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وأن معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمور اللاهوتية العميقة، وذلك شىء نقف عليه من سوزومنوس نفسه عند حديثه عن صنوف الوافدين [١١٣] . وإن كان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتية . وتفصح رسالة يوسيبيوس أن الأساقفة أجبروا على الموافقة، ونلمح فى قوله طوال رسالته نبرة امتعاض لما أدخل على عقيدته من إضافات لم تعرفها قبلاً . وذلك شىء واضح فى مقدمة رسالته ونهايتها وكأنه يعتذر لرعيته عن الأسباب التى دفعته إلى قبول ذلك " إيثاراً للسلام وخشية

(112) Latourette, Chrietianiry, 154-155.
(113) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

الانحراف عن قويم الإيمان "، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومنوس [١١٤] . من أن يوسيبيوس قد تباطأ قليلاً فى التوقيع على قانون الإيمان النيقى .

ولقد كان طبيعياً أن يعترض الفريق الآريوسى على قانون الإيمان هذا، ويخبرنا سوزومنوس أن عدد من وقفوا إلى جوار آريوس فى أول الأمر قد بلغ سبعة عشر أسقفاً [١١٥]، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك إلى خمسة أساقفة هم يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وثيوجنيس Theognis أسقف نيقية، وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica وسكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais [١١٦] . وإن كان مجمع نيقية فى رسالته إلى الإسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الأخيرين فقط[١١٧].إلا أن هؤلاء الأساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الإيمان النيقى وإن لم يوافقوا على قرار حرمان آريوس [١١٨]، ولم يعترض على قانون الإيمان جملة وتفصيلاً سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس Euzio[١١٩]. ويخبرنا سوزومنوس أن الإمبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كل من يخالف رأى المجمع[١٢٠] على هذا النحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث . حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر، الأول يتزعمه آريوس وثيوناس وسكوندوس ويوسيبيوس النيقوميدى، والآخر على رأسه ماركللوس أسقف أنقرة وأثناسيوس الشماس المصرى، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع[١٢١]، ويمثله بدقه كاملة شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى .

هكذا أقر المجمع أن ".الابن مساو للأب فى الجوهر والأزلية " وحرم كل

(114) SOZOM. hist. eccl. I, 24.
(115) Ibid. 20.
(116) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(117) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(118) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(119) SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(120) Ibid. 25.
(121) F. Jackson op. cit. pp. 306-3/7.

من يقول بغير هذا، أو إنه قبل ولادته لم يكن . أو أنه من العدم وجد [١٢٢] وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه وإياهم من دخول الإسكندرية [١٢٣]، كما قرر المجمع إعدام عمله الذي وضعه في هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia [١٢٤] .

وحملت الأنباء هذه إلى كنيسة الإسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها :

" إلى كنيسة الإسكندرية . التى حازت بفضل من الله ونعمة كل عظمة وقداسة، إلى الأخوة الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس .. . نرسل نحن أساقفة المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب .

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله، ورشد إمبراطورنا التقى، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن، وجدناه حرياً بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقدس، نعلمكم أى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقرر:

" بداءة، وفى حضرة إمبراطورنا الديّن قسطنطين فحصت عقيدة آريوس الدنسة، واجمع المجمع على إدانتها ولعنها، سواء بسواء مع لغة التجديف التى روج لها زاعماً أن ابن الله جاء من عدم، وأنه ما كان قبل أن ولد . وأن هناك وقت لم يكن . وإن بمقدوره، وفق إرادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة .

" لقد لعن المجمع المقدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفاً . ولعلكم تعلمون القرار النهائى المتعلق به، أو لعلكم ستسمعونه قريباً، ولكنا نمسك الآن عن إذاعته حتى لا نبدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلاً نال لأجل خطاياه عادل القصاص " [١٢٥].

وقد بدأ الإمبراطور فعلاً ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيدة المجمع الخارجين عن قانون إيمانه . فأمر بنفى آريوس خارج

(122) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(123) Id.
(124) ATHANAS. orat. C. Arian. I. 4.
(125) THEOD. hist. eccl. I, 8.

الإسكندرية هو وزميله يوزيوس [١٢٦] . وألحق بهما سكوندوس وثيوناس إلى الليريا[١٢٧] وامتد قراره ليشمل أيضاً يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنيس النيقى إلى غالة[١٢٨] وخلفهما على كرسيى الأسقفتين أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى [١٢٩]، وذلك راجع لما يذكره سوزومنوس من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة، اشتعلت مرة أخرى المناقشات الجدلية بين الفريقين في كثير من المناطق وخاصة في بيثنيا وهللسبونت والقسطنطينية، وراح يوسيبيوس وثيوجنيس يعلمان، خلافاً لما وقعا عليه فى نيقية، بأن الابن ليس من جوهر مع الآب واحد ، ولما اتهم يوسيبيوس بذلك صراحة أمام الإمبراطور، أصر فى جرأة على رأيه وقال موجهاً حديثه لقسطنطين " هب أن هذا الرداء قد انفصم أمام ناظرى شطرين، لعجزت أن أحاج بأن أياً منهما ينتهي إلى نفس المادة " . فازداد الإمبراطور حنقاً وتولى حزناً ألا يجد أن المسألة العقائدية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع نيقية، وهاهو يراهم ثانية ينشقون على أنفسهم [١٣٠] . ويضيف أن الإمبراطور أسف أشد الأسف لما أقدم عليه كل من يوسيبيوس وثيوجنيس من قبول بعض السكندريين المعاقبين فى الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيه أنفسهم من "هرطقة"، وعلى الرغم من أن الإمبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج أراضيهم باعتبارهم داعية الانقسام [١٣١] . ولقد ضمن قسطنطين ذلك كله في رسالة بعث بها إلى أهالى نيقوميديا تقول :

" من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟! من الواضح أنه يوسيبيوس شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما أقدم عليه ذلك الطاغوت [١٣٢] . ولقد انجلت الحقيقة فأثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا أخياراً " .

---

(126) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(127) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit. II, p. 155.
(128) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; Duchesne, op. cit. II, p. 156.
(129) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(130) Id.
(131) Ibid. II, 22.
(١٣٢) يشير قسطنطين هنا إلى ليكينيوس وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف وإمبراطور النصف الشرقى من الإمبراطورية قبل ذلك .

" ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من إهانات أتاها متآمر الفريق المضاد، بل لقد جاء أمراً إدّا، إذ بعث بالعيون ترقبنى . ولم يأل جهداً فى جمع كتائب للجبابرة معضد، ولا يعتقدن أحد أنى مدع شيئاً أنا على إثباته قادر . عندى الدليل . فقد جيء بالأساقفة والقسيسين من أتباعه وقد قبض عليهم . ولكن لنتخطَّ هذه الحقائق كلها، وما ذكرتها إلا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل، لا من أجل إثارة شعور بالندم ".

" غير أن هناك أمراً أخشاه، بات يقض مضجعى، رأيتكم قد جمعكم الإتهام وإياه . لقد تأثرتم بعقيدة يوسيبيوس فضللتم بذلك طريق الصواب . ولكن أبلالكم يرجى إذا ما غنمتم أسقفاً قلبه بقويم الإيمان معلق، وإذا ما جعلتم على الإله اتكالكم. ذلك شيء أنتم عليه قادرون، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوسيبيوس . وطغمة تؤيده عاتية . استغلت السلطان فضاع النظام .

" وإنى لأرى لزاماً على أن أحدثكم شيئاً ما عن يوسيبيوس ؛ فلعلكم تذكرون أن مجمعاً عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى، يدفعنى الرجاء فى الوحدة، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى . التى تأجج لهيبها بفعال يوسيبيوس الحمقى، ولكن، أخوتى وأحبابى، لا تدرون كيف أن يوسيبيوس ظل سادراً فى غيه الذى من الجمع أدين . ولقد راح يبعث لى خفية أناساً يرجوننى لأجله، وبذاته توسل إلى يطلب عونى لوقف قرار عزله من أسقفيته، رغم أن جرائمه للغيان بادية . إنى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم وإياى بوافر أنعمه شاهد على صدق قولى، ولقد غرر بى يوسيبيوس وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جلياً، لقد كان يعمل وفق رغائبه، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور . وإنى وإن كنت أحجم عن ذكر بقية آثامه، أراه حسناً إنباءكم بخطية مؤخراً جناها، متواطئاً مع ثيوجنيس شريك تآمره، ولقد بعثت إلى الإسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الإيمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالاً، ولكن هذا النفر من الأساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا إليهم أولئك، وشاركوهم دنس أعمالهم . ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم إلى مكان قصى[١٣٣] .

---

(١٣٣) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا إلى غالة. راجع:
Lietzmann. op. cit. p. 121; Jones. Constantine. p. 174.

" إنه الآن واجبكم أن تتهجوا إلى الله بنفس الإيمان الذى تمسكتم به دوماً، دعونا نسعد بتعيين أساقفة قويمين للخير محبين، وإذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكراً لهؤلاء المخربين فليعلم تماماً أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم . ليحفظكم الرب أخوتى الأحبة " (١٣٤) .

وأرسل الإمبراطور إلى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الإمبراطورية يخبرهم أن آريوس ورفاقه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الله والإمبراطور والأساقفة أجمعين (١٣٥) . أما كتاباتهم " فإذا عثر على أية مقالة لآريوس، فلتقدم طعماً للنار، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه إلى الأبد، ومن ثم فإنى قد قررت لئن ضبط أحد يخفى كتاباً من وضع آريوس، ولم يتقدم به على التو ملقياً إياه فى النار، موتاً، يموت جزاء هذه الخطيئة، وفور انتهاء المحاكمة سوف يلقى المذنب رادع الجزاء " (١٣٦).

هكذا قرت عين الإمبراطور بهذا الذى وصل إليه المجمع المسكونى الأول، وخيل إليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته، فإذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال . وضمن بلا ريب سيادته منفردة فى طول الإمبراطورية وعرضها، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف، وعد الإمبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله (١٣٧) ، ويقول نورمان بينز تعليقاً على ذلك " لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس " (١٣٨) . وتدشيناً لهذا النصر دعا قسطنطين جموع الأساقفة الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى Vicennalia لجلوسه على العرش(١٣٩). ويعطينا يوسيبيوس صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه

---

(134) THEOD. hist. eccl. I, 19.
(135) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(136) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(137) EVSEB. vita Const. III, 14.
(138) C.A.H. XII, p. 697.
(139) EVSEB. vita Const. III, 14.

الأساقفة الإمبراطور طعامه وشرابه (١٤٠) . ولما أذن مؤذن الرحيل دعا الإمبراطور إليه جموع الأساقفة وطلب إليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود إلى النزاع والتخاصم، وأوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام (١٤١)، ثم تفضل الإمبراطور فزود كلاً منهم بهدية تتفق ومرتبة الكهنوتية، وامتدت نعماؤه لتشمل أيضاً أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع (١٤٢)، واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة فى مجمع نيقية (١٤٣) . وسلم الإمبراطور كل أسقف رسالة إلى كنيسته تضمنت تمجيداً لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير وإشادة بجميل صنعه (١٤٤)، وحثاً للجميع على اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلاً يحتذى، والانصياع لقرارات المجمع. ثم راح يحدثهم قائلاً :

" يقينا بالبرهان . . حفاظاً على رخاء ورفاهية الإمبراطورية، فكم كان فضل الله علينا عظيماً . قررت أنه ينبغى أن يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الإيمان وصادق المحبة، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة القدير، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى إلا إذا تلاقى من الأساقفة جمع كبير أو على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد، وإلا إذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة لم يكن هناك بد من جمع أكبر عدد ممكن فى مجمع عام . ولقد حضرت بنفسى هذا المجمع . فرداً عادياً وكأنى أحدكم، وإنى لفرح فخور بأن أجد نفسى زميلكم، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه

(140) Ibid. 15.
(141) Ibid. 21.
(142) Ibid. 16.
(143) EVSEB. vita Const. III, 22.
(144) Ibid. 17.

الذى أحاط بكل شيء علماً، والذى شاء لنا بإقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا إلى الوحدة والوئام . وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الإيمان [١٤٥] . . فلتقبلوا إذن بكل رغبة وحازم الإرادة هذا الإيضاح الإلهى الحق . ولتنظروه بأنه الحق المبين، من عند الله هبة . فما يقره مجمع الأساقفة المقدس لخليق أن يعد تعبيراً لإرادة السماء " [١٤٦] .

واضح من هذه الرسالة مدى الجهد الذى بذله قسطنطين فى سبيل تجميع أكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة، ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعى الدائم إلى اتخاذ هذا العمل ونجاحه، وهى " وحدة الرعية "، على حد تعبيره، وبالتالى وحدة الدولة . فقد كان هذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين .

وإذا كان قد جاء فى رسالة الإمبراطور هذه أنه " واحد من الأساقفة " أو أنه " زميل لهم "، فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين، ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة، والحاكم السياسى والقائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الأساقفة، وهذا شيء أنبأتنا عنه الأحداث، وأفصحت عنه رسالته إلى ملتيادس أسقف روما، وسياسته تجاه الدوناتيين، ورئاسته لمجمع نيقية، " وقهره " الأساقفة فيه على قبول صيغة الإيمان التى ارتضاها بوحى من مستشاره الدينى، وسوف تكشف عنه أيضاً سنوات عمره الآتية.

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها، بل تعرض لعدد آخر من المسائل التى تهم الكنيسة،، مثل مسألتى تحديد عيد الفصح وعماد الهراطقة[١٤٧] إلا أن هذه الأمور لا يعنينا منها الآن ما قر عليه فيها رأى المجمع، ولكن الذى يهمنا حقاً هو المشكلة الأخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة المليتية الكامنة فى مصر [١٤٨] .

(145) Id.
(146) Ibid. 20.
(147) EVSEB. vita Const. III, 18; Hefele. op. cit. I, 1. Pp. 451-477.
(148) Hefele. op. cit. I. 1. p. 488.

تعود جذور هذه المشكلة إلى الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية إبان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين، فيخبر يوسيبيوس أن بطرس أسقف الإسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هذا المنصب (١٤٩)، قد قبض عليه وسيق مع عدد من القسوس هم فوستوس Phostus وديوس Dius وآمون Ammonius إلى ساحة السجن، واقتيد معهم أيضاً فيلياس Phileas أسقف كنيسة تمويس Thmuis (تمى الأمديد)، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله(١٥٠) وهسيكيوس Hesychius وباخوم Pachomius وثيودور Theodore وهم أساقفة فى الكنائس المصرية المختلفة (١٥١) وفى السنة التاسعة للاضطهاد (٣١١) " كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة"(١٥٢).

بإيداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد، آلت العناية الروحية لهذه المحافل الكنسية الشاغرة إلى أيدى جماعة من الأساقفة أو المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقاً، حتى الإسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى مذ أكره بطرس على ترك أسقفيته . فى هذه الظروف العسرة كان هناك رجل واحد أظهر أنه رجل الساعة هو مليتيوس Melitius أسقف أسيوط Lycopolis، فلم يكن ينتقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب، بل راح يعين لها أساقفة جدداً (١٥٣)، غير أن هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الإسكندرية . فنحن نعلم من سوزومنوس أن لكل كنيسة فى الإسكندرية قسيسها وكنائس أخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من أسقفيته أو كنيسة إلى غيرها، ثم يقول وتلك حال الإسكندرية دائماً (١٥٤) باعتبار أن أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى زئاسة كنائس الإقليم كله، وذلك شىء أكده مجمع نيقية فى قوانينه التى أصدرها، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشمامسة من كنيسة

(149) EVSEB hist-eccl. VII, 32.
(150) EVSEB. hist. eccl. VIII, 9.
(151) Ibid. 13.
(152) Ibide. VII. 32.
(153) SOCRAT.hist.eccl.I,24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele. op. cit. I, 1. P. 491.
(154) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

لأخرى، ونص القانون السادس على إعطاء بطريرك الإسكندرية كل الحقوق التي كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس (١٥٥) .

وربما يكون مليتيوس قد أراد بهذا العمل أن يجعل من نفسه أسقفاً أعلى لمصر وأن ينقل إلى أسيوط ما كان للإسكندرية حقاً معلوماً، أو لعله أراد الانتقال من أسقفيته إلى الإسكندرية (١٥٦) وينبئنا ثيودوريتوس أن هذه الفعال قد نمت إلى علم بطرس وهو بعد في سجنه، فاستهجن هذا سلوك أسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه (١٥٧) . غير أن الأسقف الأسيوطي لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبه والمناطق المجاورة لها في مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريتوس(١٥٨) الذي لابد أنه يعني بذلك استمراره في تعيين الأساقفة والقسس في الكنائس الشاغرة، لأنه يضيف قائلاً إنه تجاسر على التدخل في شئون أسقفية الإسكندرية ذاتها فعزل اثنين من قساوستها ورسم آخرين مكانهما (١٥٩) .

تلك رواية نقلناها عن شتات ما تبعثر حول مليتيوس عند مؤرخي الكنيسة، على أن هناك رواية أخرى يذكرها أبيفانيوس Epiphanius، وهي تقترب من سابقتها تقول إن بطرس بعد أن قبض عليه، دخل معه السجن مليتيوس، وعدد من رجال الأكليروس، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الآخر أنفسهم وأموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح أرباب الوثنية . وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة، غير أنهم سرعان ما ندموا بعد ذلك واجتهدوا ليقبلوا في الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة، وكان على رأس هؤلاء مليتيوس الذي أظهر اتجاها متذبذباً على الأقل طوال فترة الاضطهاد، ثم اختط لنفسه طريقاً متشدداً بعيد الاضطهاد، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقاً آخر تبنى الاتجاه المعتدل، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين

(155) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) pp. 15, 32.
(156) Hefele, op. cit. I, 1, p. 501.
(157) THEOD. hist. eccl. 1, 8.
(158) Id.
(159) Id; Duchesne, op. cit. II, pp. 98-99.

هى قبول الخطاة ثانية فى الكنيسة، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء يتزعمها مليتيوس تقف والضد من الكنيسة السكندرية [١٦٠] ولما أن زاح أسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلاً بذلك عما جرى عليه العرف فى الكنيسة السكندرية، لم يكن أمام بطرس إلا أن يصدر ضده قرارى العزل والحرمان، وتلك كلها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية إلى كنيسة الإسكندرية بخصوص هذا الأمر [١٦١] .

ويمكننا التوفيق بين هاتين الروايتين إذا ذكرنا ما أورده لنا أبيفانيوس عن أصل هذا الخلاف، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس ومليتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقاً مخالفاً، وأخذ يعين الأساقفة والقسيسين فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس إلى عزله وحرمانه .

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماماً ما حدث فى روما وأفريقيا، أعنى المسألتين، النوفاتية والدوناتية، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة، وموقف كنيستى روما والإسكندرية تجاه آراء الفريق المضاد متفقة، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عند الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى المليتيين وثيق الصلة، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال إن المليتيين كانوا بمثابة دوناتيى مصر [١٦٢] .

ولا شك أن فترة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة، قد أحدثت فى الكنيسة كثيراً من أمور الجدل حول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسى، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقاً ما بعده شقاق، ورزقتها بعدد لا حصر له من الفرق المخالفة فى الرأى، ساعد الأحداث على الإتيان بها، ما رفلت فيه المسيحية بعد التسامح من حلل العيش ورغده، فطفت إلى السطح أمور كانت كامنة، وتولدت عنها مشاكل ما كانت قائمة.

(160) S.M. Jackson. op. cit. VII, art, Meletianism.
(161) THEOD. hist. eccl. I, 8.
أيضاً ATHANAS. Apol. C. Arian: 59.
(162) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

كان على مجمع نيقية أن يعالج هذه المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها، أما الإمبراطور فلابد أنه قد أفاد مما وقع له فى أفريقيا مع الدوناتيين، فمجمع مكانى عقد فى روما سنة ٣١٣ لم يكن كافياً لشجب النزاع الدوناتى الكاثوليكى، ومجمع يقترب من العالمية فى آرل سنة ٣١٤ لم يكن أسعد حظاً من سابقه، وقضاء إمبراطورى فى القضية في ميلانو سنة ٣١٦ ما ردع الفريق الدوناتى ولا أتى بجديد فى عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية، بل كل ما جاء به عنفاً بلا هوادة وتحدياً صريحاً لسلطة الإمبراطور ذاته، واضطهاداً مسيحياً ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته المرجوة، هكذا أدرك قسطنطين أن لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة، فأفرج عن الدوناتيين وأعاد إليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع .

كانت تلك تجربة أفاد منها قسطنطين، فلم يقدم على شيء من هذا على الإطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك، وعمل الحضور بنصح الإمبراطور، وقد حفظ لنا ثيودوريتوس ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هي رسالة المجمع إلى كنيسة الإسكندرية جاء فيها :

" أحباءنا . . هانحن الآن نخبركم بما قر عليه رأى المجمع فى هذا الصدد . لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس، مع أنه، وحتى نكون مع أنفسنا صادقين، ما كان يستحق من الشفقة أقلها، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجرداً من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم، محروماً حتى الظهور فى أية ولاية أو مدينة لهذه الدواعى . ولكن ليحمل لقبه عارياً من كل نفوذ "(١٦٣) .

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الإسكندرية وأسقفها، تخالف ما شهدناه قبلاً فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قسطنطين إزاء الدوناتيين، ولا شك أن هذه

(163) THEOD. hist. eccl. I, 8.

السياسة الجديدة التى لجأ إليها مجمع نيقية تجاه المليتيين كانت رد فعل صريحاً لفشل السياسة التى سار عليها الإمبراطور فى علاجه للمشكلة الدوناتية، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه، وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها !!

وأضافت رسالة المجمع :

" أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات، على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر، زميلنا الكاهن المبجل، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين آخرين للكهنوت أو الإقدام على أى شىء دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية(١٦٤) الرسولية المنضوين تحت نفوذ اسكندر .

" ولكن هؤلاء، من بنعمة الله، وفضل صلواتكم، لم يدنسهم تيار الانشقاق، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنسية، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها، فإذا ما شاء القدر واختطف الموت واحداً ممن يتسنمون الآن إحدى الوظائف الكنسية، فليرتق الجدد إلى شرف الراحلين إذا كانوا للمنصب مستحقين، وعلى يد الرعية مختارين، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الإسكندرية الكاثوليكى " (١٦٥).

---

(١٦٤) حتى منتصف القرن الخامس كان لفظ كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus (مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات إيمان قويم. وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الإيمان القائل بكمال الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح، ورفضت كنيسة الإسكندرية هذا المعتقد، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من طبيعتين، كما آمن بها أسقفها كيرلس Cyrillus وخليفته ديوسقورس، واختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية وإن كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضاً ولكن بالأرثوذكسية الخلقيدونية . أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود إلى القرن التاسع، عندما أضافت روما على قانون الإيمان عبارة " والابن" Filioque .

(165) THEOD. hist. eccl. I, 8.

و"الكاثوليكى" هنا تعنى الكنيسة الجامعة ولا تفيد تخصيصاً لكنيسة بعينها .

لم يقف قرار المجمع إذن فى هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة المليتية فى حد ذاتها، ولكنه تخطاها، متخذاً من أحداثها مداراً لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلف الكنائس، ولا شك أن دافعه إلى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر فى الإسكندرية أو غيرها من مدن الإمبراطورية تلك الحوادث التى جرت من قبل على يد مليتيوس من قيامه بسيامة أساقفة وقسيسين .

ثم تعود الرسالة فتعرج بعد ذلك ثانية على الرجل فتقول " أما عن مليتيوس على أية حال، فهناك استثناء قد وقع، بسبب عصيانه السالف، ونتيجة مزاجه المتهور وطبعه الطائش، ذلك لأنه إن منح أقل سلطان فإنه سوف يسيء استغلاله بإثارة الاضطراب من جديد " (١٦٦) .

وبعد أن يخبر المجمع السكندريين فى رسالته بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار فى المجمع وما قر عليه رأى رجال الأكليروس حضور نيقية، ويزف إليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الإمبراطورية والغرب (١٦٧). يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة :

" فلتفرحوا إذن لنجاح ما تعهدنا القيام به، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق، واستئصال دنس الهرطقة، ولتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد اسكندر محبوبنا، اسقفكم الذى جلب على مجمعنا البهجة بحضوره، والذى رغم تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية إعادة السلام إليكم . صلوا من أجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتاً وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح، إن كل ما أتممناه بنعمة الله الآب وبوحى القدس صار . . له المجد أبد الآبدين " (١٦٨) .

على هذا النحو أتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين إلى كنائسهم

(166) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(167) Id.
(168) Id.

يسبحون بحمد الإمبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة إلى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمه وتقوية سلطانه في أرجاء الإمبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم . وقد أتت هذه السياسة أكلها، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين " مبعوث الرب " حاميها، وباعث حياتها، ورفعته مكاناً علياً، إلى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها في زمانه، أعني يوسيبيوس القيسارى، ليضع عنه كتاباً يرفعه به إلى مصاف الرسل، جاعلاً منه الحوارى الثالث عشر .

خيل للإمبراطور ساعتئذ أنه قد حقق بذلك أعظم إنتصاراته، فقد تبدى له أنه حفظ على الإمبراطورية وحدتها سياسياً وعقائدياً، وأنه أعاد بذلك السلام إلى الكنيسة وأنجاها من شر مستطير كاد يودى بوحدتها، وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها . ولقد تحمل قسطنطين العبء الأكبر بل العبء كله فى الإعداد لهذا المجمع الكبير، وأثناء انعقاده وبعده، ولعب دوراً هاماً وشارك مشاركة إيجابية فى كل حركة وسكنة من أداء المجمع، فحقق بذلك رغبته التى أبداها فى رسالته التى بعث بها إلى الأساقفة يدعوهم للحضور إلى نيقية .

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه فى الدعوة لعقد المجامع سنّة سار عليها خلفاؤه من بعد، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة إلا ووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكونى لبحث هذا الأمر، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره، بل موجهة من الإمبراطور ذاته، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التى عقدت فى الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامي ٣٢٥، ٧٨٧ على عهد الإمبراطورة أيرين .

وعلى هذا النحو أيضاً وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التى بلغت في عهد من جاء بعده من الأباطرة شأوا عظيماً، وأضحت الكنيسة الشرقية فى هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظفاً

كبيراً لدى الإمبراطور، وتمتع هذا بسطوة واسعة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أضحوا فى غالب فترات تاريخ الكنيسة الشرقية جند الإمبراطور .

وإذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة، فإن الكنائس الأخرى فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، والإسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبداً . فأساقفة الإسكندرية كانوا يعرفون يقيناً ويقدرون مركز كنيستهم فى عالم المسيحية، ومدينتهم فى دنيا الفكر والحضارة . فإذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقام الأباطرة وأنها نشأت على المسيحية، ولم تدنس جبهتها لوثن، وأنطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيسة فيها قبل روما، فإن القديس مرقس الإنجيلى، ابن بطرس بالتبنى، وتلميذه، ورفيقه، هو الذى رفع القواعد من كنيستها، ولكنها إلى جانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة، وفكر آبائها، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الإمبراطورية تستطيع أن تتطاول إلى هذه المكانة، بل إن عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية، كان يسعى إلى الإسكندرية ينتظر فى أمر العقيدة، القول الفصل من كنيستها .

من أجل هذا، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والإسكندرية بخاصة، وقفت كنيسة الإسكندرية تعارض الأباطرة الرأى وترفض تهديداتهم، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صراعاً عنيفاً بين أباطرة بيزنطة وأساقفة الإسكندرية، لم تستسلم فيه الإسكندرية طيلة هذه الفترة.(١٦٩)

فإذا ما تجاوزنا الإسكندرية، وحاولنا أن نبحث عن الأسباب التى دفعت الكنيسة بعامة على عهد قسطنطين إلى تقبل هذا الوضع الجديد فى العلاقة بينها وبين الدولة طائعة قانعة، لأدركنا على الفور الحال التى كانت عليها قبل قسطنطين، ثم ما كان من أمر تعاطفه مع المسيحية، وما أغرق فيه الكنيسة من المنح . ومن ثم فما كان للكنيسة إذن أن ترفع الرأس بعد ذلك معارضة عاصية،

---

(١٦٩) سوف نفرد لهذا الموضوع بمشيئة الله الكتابين الثالث والخامس من الدولة والكنيسة .

ولكنها أسلمت أمرها وقيادها إلى ذلك الإمبراطور الذى أمسك بتلابيب هذه الفرصة الكبيرة وأشاع فى عقول معاصريه وخلفه أنه مبعوث العناية الإلهية لإحلال السلام على الأرض، وأن الرب قد اختاره من بين عباده وعهد إليه بحكم هذه الإمبراطورية، وذلك شىء نلمسه فى رسائل قسطنطين وخطبه العديدة . ويقول نورمان بينز : " لا بد أن نعى أن قسطنطين كان قبل كل شىء إمبراطوراً رومانيا ورجل سياسة، وكانت سياسته الدينية جزءاً من سياسته الإمبراطورية، فهذه كانت قائمة فى فكره على تصور بأنه المبعوث خدمة لرب المسيحيين [١٧٠].

ولا يمكن أيضاً إنكار الدور الذى لعبه شيخ مؤرخى الكنيسة فى هذا السبيل، فكتابة العاشر من تاريخه الكنسى يدل على أن قيام الدولة والكنيسة قد بدأ سوياً فى وقت واحد، ولذلك نراه يتحدث بنغمة التفاؤل والحبور، أما " حياة قسطنطين " فكله دعائية للإمبراطور " محبوب الرب " و " مبعوثه " إلى البشر، وقد أتت كتابات يوسيبيوس القيسارى ثمارها فى حقل الكنيسة وبين رجالاتها، وكان لها أكبر الأثر فى بنيان العلاقة بين الكنيسة والدولة .

(170) C.A.H. XII, p. 698.



الفصل السادس

إحياء الآريوسية وصحوة المليتية

كان قلب قسطنطين يهوى الشرق، ولكن بصره كان معلقاً بالغرب . وبين قلب الإمبراطور وبصره تأرجحت سياسته، وراح فؤاده والحواس ينتقلن بين هذا الجانب أو ذاك، وما كان فى مقدور قسطنطين أن ينظر إلى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة، وإن كان باستطاعته أن يغمض عينيه على الغرب لهدوء منقطع فيه باد . وكم حزن الإمبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين، وكم طاب خاطراً لغرب أثر أن يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد !!

فقسطنطين وإن كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره، إلا أنه جعل الشرق كل فكره، وكان قد قضى من عمره فى الشرق سنين عدداً رهين قصر نيقوميديا، ولمس بنفسه أساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الإدارة وكانت نظم الحكم هنا تنحو إلى الطابع الاستبدادى سواء فى الملكيات الهلنستية القديمة أو الإمبراطورية الفارسية، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة، فلما جاء إلى الشرق كان مصمماً على أن يكمل خطا سلفه . فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع، وراح يضع على أطلال بيزنطة المدينة الإغريقية القديمة أسس عاصمة جديدة، فأظهر للجميع بذلك عزمه على أن يكون الشرق مستقره ومثواه، وأمل أن يجد فى هذه البقاع السكينة التى كان ينشدها والهدوء، وتعلقت آماله برعاياه المسيحيين علّه يجد فيهم خير عون لنظم حكومته، ويقول ول ديورنت، لقد كان قسطنطين يأمل أن يكون حاكماً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام حكومته، وهذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها [(١)].

---

(١) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه أساقفة مجمع نيقية وما أغرقهم فيه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك .

ولكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى، ثم فجع أخرى أشد وأقسى عندما وطئت قدمه الشرق، فسارع إلى دعوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الإيمان رأيهم، قرت كذلك عين الإمبراطور، ونفى مخالفيه وعلى رأسهم زعيمهم آريوس، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى . وهيئ لقسطنطين أنه بذلك قد نجا والإمبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وأمنها، ولكن الأحداث سرعان ما أطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين .

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعود أساقفته كل إلى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد، ولقد علمنا من الفصل السابق أن يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية، قد عادا سيرتهما الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الآب، مما اضطر الإمبراطور إلى أن يصدر قراراً بعزلهما ونفيهما، وتعيين بديلين عنهما، وبذلك ضمن قسطنطين إلى حين هدوء هذه المنطقة .

أما فى مصر فيخبرنا يوسيبيوس القيسارى أن الحال فيها كانت غاية السوء عقب المجمع نتيجة انقسام داخلى [٢]، إلا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط إلى اتهامه بالمكر والمراوغة، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هذه وذلك لميله إلى الفريق الآريوسى [٣] . ولكن سوزومنوس يفسر هذه الأحداث بقوله إن اسكندر بعد عودته إلى الإسكندرية عقب ارفضاض مجمع نيقية، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد أخذها قبلاً [٤]، وعاد ثانية إلى مقره فى أسيوط تنفيذاً لقرارات المجمع المسكونى، إلا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس

(2) EVSEB. vita Const. III, 28.

(3) SOCRAT. HIST. ECCL. I, 23.

(4) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

مليتيوس دنو أجله، فعين شخصاً يدعى يوحنا Iohannes خلفاً له كان يعد أقرب أصدقائه، وذلك خلافاً لما أقره المجمع النيقى [٥] . وهكذا برزت إلى الوجود قضية المليتية ثانية وأضحت مثاراً للخلاف والشقاق . ويمضى سوزومنوس قائلاً، وعندما علم الآريوسيون بما ابتدعه المليتيون بدأوا هم الآخرون يناوئون الكنيسة السلطان، فتبعهم من جديد أناس كثيرون بينما مال إلى المليتيين جمع رأوا من حقهم ترؤس كنائسهم، وعلى الرغم من أن الفريقين لم يكونا على وئام إلا أنه جمعهما شيء واحد هو معارضة الكنيسة الجامعة وعداوتهما للأكليروس السكندرى، وبلغ من تقاربهما أن راح البعض يطلق على المليتيين صفة الآريوسية[٦] . وإن كان انشقاقهم، كما يعلق مؤرخنا، يعود إلى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاسة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسية مسألة عقائدية، وعلى الرغم من أن كليهما ينكر تعاليم الآخر إلا أنهما اصطنعتا المداهنة سبيلاً يعامل به أحدهما الآخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك[٧] . ومنذ ذلك الزمن تقبل المليتيون، بعد مناقشات حادة، العقيدة الآريوسية وحملوا نفس أفكار آريوس عن الإله . وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته، وأدى بالتالى إلى انشقاق طائفة من العلمانيين ورجال الأكليروس عن غيرهم من الكنيسة، وحمى وطيس الجدل ثانية حول آريوس وعقيدته فى كثير من مناطق الإمبراطورية [٨].

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهاء مجمع نيقية حيث يبدو من أقوال سوزومنوس أن قرار المجمع فى هذا السبيل لم يؤد إلى إماتة العقيدة الآريوسية أو رأب الصدع المليتى، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره أن محاولة لحسم الخلاف وإعادة الوحدة الإمبراطورية لن تؤتى ثمارها إذا بقى زعماء الفريق الآريوسى خارج حظيرة الإيمان النيقى . وإذا ظل آريوس يتحدى قرار أساقفة المجمع المسكونى، ومن ثم عزم على استمالته إلى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف .

(5) SOZOM. hist. eccl. II, 21.
(6) Id.
(7) Id.
(8) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

وتلك كانت سياسة قسطنطين دائماً، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها، يقرب إليه فريقاً من المتصارعين، حتى إذا أدرك أن زعماء هذا الفريق قد بدءوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم، قلب لهم ظهر المجن، وعاد إلى استمالة الفريق الآخر الذى كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت، لقد كان كل همه أن يظل حاكماً قوياً فرداً فى إمبراطورية موحدة، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقوى شوكته أو يستشعر السلطان .

وأمامنا الآن روايتان لسقراط وسوزومنوس حول عودة آريوس، تشير أولاهما إلى أن الإمبراطور قد عفا عن أسقفى نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما إلى منصبيهما ثانية، وتكفل يوسيبيوس بعد ذلك بمحاولة إعادة آريوس إلى الكنيسة ثانية، وتبرئة ساحته . ويقول سقراط أن الأسقف النيقوميدى استطاع أن يتحالف مع أحد رجال الدين الضالعين فى الآريوسية كان فى معية قسطنديا أخت قسطنطين وأرملة ليكينيوس، وأوحى إليه يوسيبيوس أن ينتهز فرصة إحدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقى بإدانة آريوس كان بعيداً عن روح العدالة، وأن التقرير الشائع الذى ينسب إلى آريوس غير حقيقى . وقد أعطت الأميرة ثقتها الكاملة لهذا الرجل، غير أنها لم تطلع الإمبراطور على شىء من ذلك فلما أحست دنو أجلها وجاء إليها أخوها يعودها راحت تمتدح للإمبراطور محاسن ذلك الرجل مثنية على ورعه وتقواه، ولكنها لم تفض إليه بشىء عن آريوس وظلامته . فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الإمبراطور وازداد على الأيام قرباً منه، ووداً له، فلما أمكن منه قص على مسامعه ما سبق أن ردده على آذان أخته، مؤكداً له أنه ليس لديه أية آراء أخرى غير تلك التى أقرها المجمع، وإذا ما سمح له بالمثول أمام الحضرة الإمبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما أقره الأساقفة فى نيقية . ولما تبدى ذلك عجباً لدى الإمبراطور انبسطت أساريره وصرح بأنه إذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه إلى الإسكندرية مبجلاً . وقام الإمبراطور من فوره ليرسل إلى آريوس بهذا المعنى [9].

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتها فمجمع نيقية أدان الآريوسية

(9) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

وأشياعها، وتتبع الإمبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمور وهدوءها تمشياً مع قرارات رجال الكنيسة وكان من الطبيعى أن يبدأ قسطنطين بتطهير بلاطه وقصره من هذا الفريق، فكيف نفسر إذن بقاء رجل من الضالعين في العقيدة الآريوسية في القصر الإمبراطورى هادياً لأخت الإمبراطور ؟ وما كان هذا براغب فى إثارة الشكوك حول نفسه، ولا يجلب عليها نفور رجال الكنيسة وهو طالما سعى إلى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه، وكان عليه إذا ما نفذ قرارات المجمع الذى عده فى رسائله يصدر بوحى من الروح القدس [10] أن يبدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين، هذه ناحية . والأخرى أنه لو كان صادقاً ما يرويه سقراط لكانت قسطنديا، بفعل ذلك الرجل، أشد حباً لآريوس وأكثر حماساً لقضيته، ومن ثم يضحى تأثيرها على الإمبراطور أوقع . إلا أنها لم تخبر أخاها بشيء عن آريوس ولم تطلب منه عنه عفواً ولم تسأله صفحاً . وفوق هذا وذاك ما يكتبه الإمبراطور ليوسيبيوس جزاء تحديه للأساقفة وتبجحه فى حضرة الإمبراطور، وفى رسالة قسطنطين إلى أهالى نيقوميديا نقف على مدى الاتهامات التى يقذف بها الإمبراطور أسقف المدينة، ويقول زنوس Zenos أن سقراط ذكر تلك الحادثة فى غير موضعها، والذى نعلمه أن قرار العفو عن يوسيبيوس وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ أى بعد أن أمضيا فى المنفى ثلاث سنين سوياً[11] .

أما رواية سوزومنوس فنقف منها على أن الإمبراطور قد أعاد آريوس من منفاه أولاً، ولكن قرار منعه من دخول الإسكندرية ظل سارياً وسرعان ما عاد كل من يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقي إلى كنيستهما بعد أن قدما إلى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما إنما يتبعان الإيمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية[12].

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوسيبيوس بعد عودته من

(10) EVSEB. vita. Const. III, 17.
وراجع أيضا SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(11) Zenos, introduction to (SOCRAT. hist eccl. Nicene). II, p. 19, n. 1.
(12) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الإسكندرية ثانية، وكان الإمبراطور قد عفا عنه ولم يعد إلى الإسكندرية بعد، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الإمبراطور قد أصدر فعلاً قراراً عفوه عنه .

والذى نراه أن الإمبراطور وقد رأى المجمع لم ينجح فى القضاء على الآريوسية وأن خطرها لازال كامناً فى أفئدة الكثيرين، وهاهم الآن يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها، بعد هذا الإجماع الكبير على صيغة قانون الإيمان النيقى، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الإمبراطور، ولهذا أيقن قسطنطين تمشياً مع سياسته أن السبيل الوحيد لإيجاد التوازن أن يعيد زعيم الآريوسية إلى دائرة الكنيسة، وحتى يضمن أيضاً بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هذا الانقسام فى الرأى . على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعوه للعودة إلى حظيرة الإيمان القويم . وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الإمبراطور إلى آريوس جاء فيها :

" لزمن مضى، بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود إلى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الإقدام . وعليه إذن . . بادروا بالارتحال مسرعين إلى بلاطنا، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا إياكم تضمنون العودة إلى دياركم . دعائى إلى الله أن يحفظكم عزيزى " [١٣] .

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله : تلكم هى رسالة الإمبراطور إلى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئاً سوى أن أبدي إعجابي لتلك الغيرة والحماسة التى أظهرها الإمبراطور من أجل الديانة [١٤] !!

ويتضح من رسالة الإمبراطور عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط[١٥].

(13) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(14) Id.
(15) Id.

فحديث الإمبراطور يوحي أنه بعث إلى آريوس قبلاً يدعوه للحضور إليه، وآريوس يتجاهل، أو بتعبير قسطنطين " يتوانى "، ويبدى الإمبراطور دهشته الكبيرة لذلك الإحجام على توانيه فى المثول أمام الإمبراطور رغم أن ذلك عرض عليه أكثر من مرة، كما يتضح أيضاً مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالإذن له بالعودة إلى الإسكندرية، ولعلنا ندرك من قول الإمبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة الإمبراطورية وإقرار السلام بها، وذلك شيء يفسره سقراط بغيرة الإمبراطور وحماسته الدينية!!.

أمام إلحاح الإمبراطور جاء آريوس إلى القسطنطينية يصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر قد حرمه باعتباره نصير آريوس عند بداية الجدال بين الرجلين (١٦)، والذى أدين أيضاً على يد مجمع نيقية وقد استقبلهما الإمبراطور وسألهما عما إذا كانا قد وافقا على قانون الإيمان النيقى، فأعطياه موافقتهما، فطلب إليهما أن يقدما إليه مكتوباً يؤكد قولهما (١٧)، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الإمبراطور وقدما إليه الصيغة التالية :

" أريوس ويوزيوس . . إلى سيدنا التقى الورع قسطنطين الإمبراطور .. أيها السيد الحاكم، وفقاً لأمر جنابكم البار هانحن نعلن إيماننا، ونعترف أمام الله كتابة وأشياعنا نؤمن هكذا . . نؤمن بإله واحد . . الآب القدير وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور . الله الكلمة الذى نزل وتجسد، وتألم وقام ثانية وصعد إلى السماء، وسوف يأتى ثانية ليدين الأحياء والأموات . (نؤمن) أيضاً بالروح القدس، بقيامة الجسد، بالحياة الآخرة، بملكوت السماوات . بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل الأرضين .

" هذا الإيمان عن الأناجيل المقدسة تلقيناه، حيث يقول السيد لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨/١٩) .

---

(16) THEOD. hist. eccl. I, 3.
(17) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

" وإنا إن لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيها) فالله قاضينا كلينا الآن ويوم الدينونة . أيها الإمبراطور القانت . نضرع إلى تقواكم، نحن يا من كُرسنا للأكليروس، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسة والكتب المقدسة . . هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية إلى أمنا الكنيسة . . ولنلق جانباً سطحى المسائل والجدال . عندما نغدو كلانا والكنيسة وقد احتوانا سلام . . لعهدكم الأمين، ولأجل الأسرة كلها نقدم صلواتنا والابتهال "[١٨] .

وأول ما يلفت النظر أن صيغة الإيمان هذه جاءت خلواً من عبارة " من نفس الجوهر " (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجدل طيلة طرح هذه القضية فى المجمع، وهى العبارة التى أخبر يوسيبيوس القيسارى أن الإمبراطور نفسه هو الذى اقترح إضافتها إلى العقيدة . يضاف إلى هذا خلوها أيضاً من عبارة " مولود غير مخلوق " وهى التى أدخلت أيضاً برأى المجمع على مرسوم الإيمان القيسارى. ويقول جونز أن صيغة الإيمان التى قدمها آريوس ويوزيوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة [١٩] . وعلى الرغم من كل هذا فإن الإمبراطور لم يلق بالاً إلى هذه الموضوعات التى كانت سبباً فى الانقسام، لعدم إدراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية على النحو الذى فصلناه منذ البداية، ولم يكن يعنيه من أمرها إلا ما تسببه فقط من اضطراعات داخلية واضطرابات تؤرق جفنه، ومن ثم بدا متلهفاً على إعادة الوحدة إلى الكنيسة والدولة، فعد هذه الصيغة اعترافاً من الزعيم الآريوسى بمرسوم الإيمان النيقى، وقبل منه وزميله ذلك، وقد رآه حسناً، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسهما، وأصدر أوامره بالعفو عن آريوس وصاحبه. وكان الإمبراطور قد قرر أيضاً استدعاء كل من يوسيبيوس وثيوجنس من المنفى، وأمر بعودتهما ثانية كل إلى كنيسته بعد أن قدما وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما يتبعان الإيمان القويم [٢٠] . وكان هذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البديلين

(18) SOCRAT. hist. eccl. I, 26.
(19) Jones, Constantine, p. 175.
(20) SOZOM. hist. ecct. II, 16.

أمفيون وكرستوس اللذين اختيرا من قبل، ولم يكن قسطنطين من الغفلة والبلاهة إلى الدرجة التى يمكن أن يغيب عن ذكائه أن عودة آريوس ورفاقه من منفاهم ثانية، كفيلة بإثارة البلبلة والاضطرابات من جديد، بل لابد أن الرجل كان يعلم ذلك جيداً، ولكنه أقدم على ذلك لإيمانه بأمرين، أولهما أنه صاحب السلطة المطلقة، والتى لا يمكن لأحد أن يقف معارضاً لها، والثانى أنه بهذا يجعل من نفسه الحكم الفصل فى كل نزاع ينشب داخل الكنيسة .

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الإمبراطور فى تحريكها فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته إلى بلاطه وطلبه إليه تقديم صيغة للإيمان موافقة الكنيسة. وقبوله بنفسه لهذه الصيغة دون أن يرجع فى شىء من هذا كله إلى أى من رجال الكنيسة، ولم يطلب إليها رأياً أو يستمد نصحاً . وذلك شىء لم يكن من غير الطبيعى فى شىء ما دامت الكنيسة قد هللت للإمبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والإضافة، فلا غرو إذن أن يحرم الإمبراطور، ويمنع، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشىء من هذا. واستسلمت الكنيسة طوعاً وكرهاً، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة، للأباطرة حق تعيين كبار موظفيها وعزلهم.

ولقد جاءت الأحداث بالفعل بما كان متوقعاً وإن لم يكن قسطنطين يرغب فيه . ذلك أن كنيسة الإسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الإمبراطور، ووقفت على الأقل، من بين كنائس الإمبراطورية تدافع عن الإيمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الإمبراطور، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة . وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصرية هو أثناسيوس، أسقف الإسكندرية، شماس المجمع النيقى الشهير، الذى تولى الأسقفية خلفاً لسلفه اسكندر عام ٣٢٨، فبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار إلا فى القرن السابع والمسلمون يؤذنون بالتسامح على أبواب مصر .

خيل للإمبراطور وداعبه الأمل فى أن سنوات عمره الباقية ستقضى فى هدوء كان دائماً ينشده، فها هو آريوس نفسه قد عاد إلى الاعتراف، على الأقل من وجهة

نظر الإمبراطور، بالإيمان النيقى . وهاهم صحبه قد سلكوا أيضاً نفس السبيل، ولم يبق إذن إلا أن يقبل الأسقف السكندرى أثناسيوس آريوس فى الكنيسة ثانية . ولكن الإمبراطور كان واهماً فى تصوره فالأساقفة الآريوسيون وإن كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية إلا أن ذلك لم يكن صادراً عن رغبة أكيدة فى اعتناق هذا الإيمان فعلاً .وذلك شيء برهنت عليه أحداث ما يقرب من قرن من الزمان . ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يؤمنون تمام الإيمان أن آريوس على اليقين وأن خصومه عن الحق بعيدون . ومن ثم راحوا يسعون جاهدين لكسب الإمبراطور إلى جانبهم لتأييد قضيتهم، وساعدتهم على ذلك الأحداث .

يخبرنا سقراط [٢١] وسوزومنوس [٢٢] أن يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الإمبراطور وعقب عودتهما من المنفى بمكانة كبيرة وحرية فى القول وتأثير كبير على الإمبراطور، وقد يبدو ذلك عجيباً إذا ما عدنا إلى الرسالة التى بعث بها الإمبراطور إلى أهالى نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوسيبيوس ورفيقه، ولكن سرعان ما يزول العجب إذا أدركنا أن الإمبراطور كان يبغى كسب ولاء هذين الرجلين باعتبارهما أبرز شخصيات الفريق الآريوسى عله بذلك يضمن ولاء أنصارهما، ومن ثم قربهما الإمبراطور إليه متغاضياً عن كل ما جرى على قلمه عنهما آنفاً . هذا من ناحية، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة إيمان عدها قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما .أما الثالثة فقد كان للاتجاه الذى اتخذه أثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى إيغار صدر الإمبراطور عليه وتقريبه التالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم .

سعى الشيخان لدى الإمبراطور لإعادة آريوس ثانية إلى كنيسة الإسكندرية، وكان قسطنطين على وعده الذى وعد به آريوس فى رسالته الأخيرة إليه، فكتب إلى الأسقف السكندرى يطلب إليه قبول آريوس [٢٣] . كما كتب يوسيبيوس

(21) SOCRAT. hist. eccl. I. 27.
(22) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(23) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

النيقوميدى أيضاً إلى أثناسيوس بهذا المعنى، وإن كانت لهجة يوسيبيوس تحمل ضمناً معانى التهديد [٢٤] .غير أن أثناسيوس أرسل إلى الإمبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الآريوسى فى بيعته [٢٥] .

ذلك أمر لم يكن يتوقع الإمبراطور حدوثه . فقد حسب أن أحداً من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقدرة للاعتراض على أى قرار للإمبراطور، ومن ثم استشاط غضباً لهذا الذى يسمع ويرى !! وزاد الطين بله أنه قد بلغه أيضاً أن أثناسيوس رفض قبول المليتيين فى الكنيسة، واحتج على اختيار يوحنا المليتى خلفاً لمليتيوس [٢٦] . وكان المليتيون قد جاروا بالشكوى للإمبراطور من المعاملة التى يلقونها على يد أسقف الإسكندرية . ويصور سوزومنوس حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول " أصبح الإمبراطور من أمره فى حيرة . أى الفريقين يصدق لقد كان أمامه كثير من الاتهامات التى ألصقوها ببعضهم، وهناك أيضاً العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان، فلما عاين الإمبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حداً كبيراً [٢٧] . فكتب فى محاولة لإعادة الوئام، إلى أثناسيوس متوعداً، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتيوس Gaudentius [٢٨] وجاء فيها :

" إنك ولا شك تعى تماماً إرادتنا، لا تحل البتة بين أى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة، ولتدرك جيداً أنه إذا ما نما إلى علمنا أن أحداً ممن يرغبون فى العودة إلى الكنيسة . قد حيل بينه وبين ما يشتهى، لأبعثن على التو من يقوم بعزلك إنفاذاً لمشيئتى ويرسل بكم إلى المنفى [٢٩].

(24) SOZOM. hist. eccl. II, 18.
(25) ATHANAS. Apol. C. ARIAN. 60.
(26) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(27) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(28) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(29) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

ويبدو أن الإمبراطور لم يكن جاداً فى تهديده هذه المرة، فقد قصد بذلك مجرد قهر أثناسيوس على الامتثال لأوامره، وذلك شيء دلت عليه الأحداث بعد ذلك وأوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله أن الإمبراطور ما أقدم علي ذلك إلا مدفوعاً بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة . فطالما جاهد الإمبراطور ليجمع علي الوئام صفوفهم " (٣٠) .

ومهما يكن من أمر فقد اتضح أن الفريق الآريوسى قد بدأ يفيق إلى حد بعد اللكمة التى كالها له مجمع نيقية، وأخذ الإمبراطور بالتالى يدخل هذه الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها إلا أن أحداثاً أخرى وقعت خارج الإسكندرية جذبت اهتمام الإمبراطور إلي حين، وكان سببها كما يقول سقراط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية، أن عبارة "من نفس الجوهر" قد سببت المتاعب للكثيرين منهم، ولذلك فإنهم شغلوا أنفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما أدى بالتالى إلى إشعال نيران الجدال بينهم ثانية، ويضيف سقراط، يبدو أن المسألة كانت نزاعاً فى ظلام لأن أحداً من الحزبين لم يحاول فهم موقف الآخر والأسس التى يعتمد عليها، فهؤلاء الذين يعارضون هذه العبارة يعتقدون أن أنصارها يتحمسون لآراء سابليوس (٣١) ومونتانوس، ومن ثم أطلقوا عليهم مجدفين أو ملاحدة .هذا على حين يتهم أصحاب هذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعدد الآلهة معتبرين إياهم وثنيين يؤمنون بالخزعبلات (٣٢)، وعلى هذه الشاكلة اتهم يوستاثيوس Eusathius أسقف أنطاكية يوسيبيوس أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الإيمان النيقى، فأنكر يوسيبيوس ذلك ورد التهمة إليه بأنه مدافع عن أفكار سابليوس، ونتيجة لذلك أو لسوء الفهم هذا، على حد تعبير سقراط، كتب كل منهما كما لو كان يناضل

---

(30) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٣١) سابليوس Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais (إحدى المدن الخمس الغربية) وقد نادى فى القرن الثالث الميلادى بأن الأقاليم الثلاثة منفصلة، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث. وقد تصدي للرد عليه الأسقف إسكندرى ديونيسيوس.

انظر ATHANAS. Orat. C. Arian. IV, 9.

(32) SOCRAT. hist eccl. I, 23.

عدواً لدوداً (٣٣) . وما يقوله سقراط هنا يؤكد ما ذكرناه فى الفصل السابق من أن هاتين العبارتين " من نفس الجوهر " و " مولود غير مخلوق " قد فتحتا باب الصراع الكنسى حول المسيح وطبيعته على مصراعيه لعدة قرون تالية ..

الحقيقة أن لدينا عديداً من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضد يوستاتيوس، فيوسيبيوس صاحب النزاع معه لا يعطينا أى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع، ولعل ذلك قد يبدو متفقاً مع نهجه فى كتابه " حياة قسطنطين " . ولا يذكر شيئاً عن هذه الحوادث سوى أن " تدابير الشيطان وعيون الحاسدين " هى التى أحدثت هذه الاضطرابات فى أنطاكية بزعامة يوستاتيوس (٣٤) . أما أثناسيوس فإنه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم إيمانه مما لم يرض خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الإمبراطور مدعين بأنه أهان هيلينا (٣٥). على حين أن ثيودوريتوس يوسع دائرة الخلاف لتشمل يوسيبيوس النيقوميدى معتبراً إياه سبب كل هذا البلاء، ويقول أنه أبدى رغبته للإمبراطور فى السفر إلى أورشليم لحضور الاحتفالات المقامة لتدشين الكنيسة التى أقامها الإمبراطور هناك . ولما كان قسطنطين قد إطمأن لأقواله فقد سمح له بذلك وزودوه بكل ما يحتاج إليه فى حله وترحاله، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحب معه فى سفره، فلما وصلا إلى الأماكن المقدسة تلاقت وجهتا نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصة يوسيبيوس قيسارية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وآخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدة الآريوسية، وقر رأيهم على تدبير " مؤامرة " معينة حسب تعبير ثيودوريتوس، ومن ثم رحلوا إلى أنطاكية وكان إدعاؤهم الذى زعموه لهذه الرحلة هو رد اعتبار يوسيبيوس (٣٦) .

(33) Id.
(34) EVSEB. vita Const. III, 59.
(35) ATHANAS. hist. Arian, 4.
(36) THEOD. hist. eccl. I, 20.

ولكن الغموض يكتنف هذه القصة، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم عام ٣٣٥، بينما وقعت هذه الأحداث سنة ٣٣٠ (٣٧) . وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات إلا أن الإجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنهما كان السبب الرئيسي في حدوث هذه الاضطرابات .ولحسم هذا الخلاف دعا الإمبراطور إلى عقد مجمع في أنطاكية (٣٨) ترأسه يوسيبيوس القيسارى (٣٩) . ويسوق ثيودوريتوس صورة من الاتهامات التي وجهت ضد يوستاثيوس (٤٠) . ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقية لأنها لم ترد في كتابات سقراط أو سوزمنوس أو إثناسيوس . ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس Cyrus أسقف بيرويا Beroea (حلب) قد تولى مهمة الإدعاء ضد يوستاثيوس، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية (٤١)، ولما كانت غالبية الحاضرين في المجمع من مؤيدى يوسيبيوس تم عزل يوستاثيوس من منصبه (٤٢)، وأصدر الإمبراطور أوامره بنفيه إلى ترجانابوليس في تراقيا (٤٣) . وحول ما يقوله سقراط عن عزل أسقف أنطاكية تتضح الحالة التي كانت تسود الكنيسة عندئذ، والعداوات المتأصلة بين رجالها، فبعد أن يسوق حادث العزل يقول أن هذا الإجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة، وقد كان هذا أمراً شائع الحدوث، فقد اعتاد الأساقفة أن يفعلوا ذلك في كثير من الأحوال، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريراً لهذا العمل (٤٤) .

---

(37) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jackson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 102.
(38) EVSEB. vita Const. III, 60.
(39) Downey, op. cit. p. 352.
(40) THEOD. hist. eccl. I, 20.
(41) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(42) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24; SOZOM. hist. eccl. II, 19; THEOD. Hist. eccl. I, 20.
(43) HIER. Vir. Ill. 85.
(44) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاثيوس حتى شبت الثورة فى أنطاكية وانقسم الناس إلى فريقين، بين مؤيد للقرار ومعارض،وحمل كلاهما السلاح وأضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية، وارتاع الإمبراطور لهذه الأحداث، وأصبح الأمر في نظره غاية فى السوء، وامتلأ على حد تعبير سوزمنوس غيظاً وحنقاً، وأرسل على الفور من لدنه قائداً كبيراً خوله سلطات ضخمة لإخماد هذه الفتنة [٤٥]، هو موزونيانوس Musonianus [٤٦] ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء إلى العنف كلما أمكن ذلك [٤٧].

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاثيوس على أسقفية أنطاكية فسقراط [٤٨] وسوزمنوس [٤٩] يعطيانا اسم يوسيبيوس القيسارى مباشرة مرشحاً لهذا المنصب، على حين نعلم من رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف الأسقف الأنطاكى المعزول مدة ستة أشهر فقط [٥٠]، ثم تبعه بعد ذلك يولاليوس Eulalius والذى لم يمض عليه إلا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودوريتوس [٥١] . ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوسيبيوس القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر [٥٢] .ويقول سوزومنوس : لقد دخل فى روع أولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى أنطاكية وأصدروا قرارهم بعزل يوستاثيوس، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والإمبراطور خاصة إذا ما رفعوا إلى الكرسى الأسقفى بدلاً منه رجلاً يميل إلى آرائهم معروفاً لدى الإمبراطور قريباً منه، مرموقاً فى علمه وفصاحته . ومن ثم قر رأيهم على يوسيبيوس القيسارى، وكتبوا إلى الإمبراطور بخصوص هذا الموضوع وأكدوا له أن هذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية [٥٣] . غير أن يوسيبيوس رفض قبول هذا المنصب وكتب إلى الإمبراطور رسالة بهذا المعنى [٥٤].

---

(45) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(46) Downey, op. cit. p. 352.
(47) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(48) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(49) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٥٠) مات باولينوس قبل مجمع نيقية. انظر: McGiffert, op. cit. p. 45.
(51) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(52) Id.
(53) SOZOM. hist. eccl. II. 19.
(54) Id.; SOCRAT. hist eccl. I, 24.

وكان قرار يوسيبيوس بعدم قبول هذا الكرسي الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه . فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة إذا ما رأوا أن يوسيبيوس خصم يوستاثيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة، وكان يوسيبيوس غير راغب فى أحداث صراع في الكنيسة (٥٥) . هذا بالإضافة إلى أن هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلاً فى مثل عمر يوسيبيوس كان مزاجه آنئذ محباً للسلام وذوقه مدرسياً، ففى قيسارية قضى يوسيبيوس الجزء الأكبر من حياته، وبها مكتبة أستاذه بامفيلوس تحت تصرفه، كما أن الفرصة له هنا سانحة لمتابعة أعماله الأدبية والعقائدية . أما فى أنطاكية فلسوف يجد نفسه مرغماً على الغوص فى فتن من كافة النواحى .وسوف يجد نفسه ملزماً لتكريس انتباهه فى إنجاز مهامه الرسمية وحدها(٥٦) .

هذا من ناحية، ومن الأخرى لا يخفى علينا علاقة يوسيبيوس بالإمبراطور، وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحدة الكنيسة وبالتالى وحدة الدولة، ويدرك تماماً ما انتاب الإمبراطور من ضجر وغيظ لدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة فى مصر وما جره هذا الانقسام على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم . ولذلك ما كان يوسيبيوس يرغب مطلقاً في أن يزيد إلى آلام الإمبراطور جرحاً آخر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق فى أنطاكية . وما كان ليجر على نفسه غضب الإمبراطور ونقمته، بل لا شك أن صاحبنا يوسيبيوس كان يعلم أن الإمبراطور سوف يرفض مثل هذا الاقتراح لهذا أثر الانسحاب بنفسه قبل أن يرغمه الإمبراطور .

تبدى اهتمام قسطنطين البالغ بهذه المشكلة فى الموقف الذى اتخذه حيالها، فقد بعث بثلاث رسائل إلى شعب أنطاكية ويوسيبيوس ومجمع الأساقفة بها، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الإطلاق لأنها تفصح بجلاء عن قلق الإمبراطور واضطرابه ورغبته فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة . وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السلام والتمسك بالقانون الإلهى وضرورة إحلال الوئام بين الجميع . ثم يقول :

(55) McGiffert op. cit. p. 22.
(56) Id.

" لعلكم الآن تقفون مشدوهين ولعلكم أيضاً في حيرة من أمركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد، أصدقكم القول . . ما إن طالعت كتاباتكم إلى والتى تعلى فى الخافقين ذكر يوسيبيوس أسقف قيسارية، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعرفة وأكن لعلمه واعتداله كل تقدير، حتى أدركت أنكم به متعلقون، وفى الاستئثار به راغبون .. أية أفكار إذن تظنون أنى أحملها حول هذا الأمر، وأنتم تعلمون رغبتى في البحث من أجل الحق وإنقاذ مبادئه ؟! ألا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟ ... إن الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيداً على النصر ذاته . وحيث يبدو الطريق عند أى اختيار قويماً بيناً . فلن يتردد امرؤ أن يسلك جادته . والآن . . . أخوتى، إنى لأتساءل . . لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالآخرين بالغ الضرار، لماذا نشتهى أموراً لابد ملحقة بسمعتنا الدنس ؟! إنى لأكن ذاتى لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب، التقدير، إلا أنه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبادئ التى يجب على جميعنا مراعاتها، فينال كلنا حقه المشروع، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشحين آخرين، افتراض أن واحداً بعينه استحوذ الصلاح كله. فقد يكون هناك كثيرون بالمنصب جديرين . وحيث أن الكنيسة لا تتعرض كرامتها للعنف والغلظة، فإن هؤلاء جميعاً يصبحون على قدم المساواة ويستحقون إذن منا نفس التقدير " (٥٧) .

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى أنطاكية بجميل القول عن اختيار يوسيبيوس القيسارى أسقفاً خلفاً ليوستاثيوس، وأوضح لهم بمعسول الحديث أن هناك غير يوسيبيوس كثيراً من الكفاءات والقدرات التى يمكن أن تقوم بنفس عمله هذا. على أن الشيء الواضح فى هذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التى تراود أهل البيعة الأنطاكية . وهذا شيء يفيض به الجزء الباقى من الرسالة وفيه نهج الإمبراطور نهج الحزم والصرامة مبدياً سخطه وامتعاضه لما ينتوى الأنطاكيون القيام به . يقول :

" إذا كان الأمر كذلك فدعونى أقول لكم أنكم بهذا تضعون أنفسكم موضع

(57) EVSEB. vita. Const. III, 60.

الاتهام، لا بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب، بل بنقله بغير طريق الصواب، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل، وعلى أى نحو فكر الآخرون فإنى أؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الإجراء سوف يفجر أسوأ اضطراب حزبى، ذلك أن الرعية حتى ولو كانت مسالمة إلا أنه فى مقدورها إبداء سلطان الحق فى قوة عندما تبدأ عناية راعيهم فى التقلص، ويجدوا أنفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته . . وإذا كانت المسألة إذن بهذا الشكل، وإذا لم يخدعنى التقدير، فليكن هذا أيها الأخوة أول الاعتبارات أمامكم، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليكم، إذ أنتم ماضون على عزمكم . . ولكن أليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم فيكم للانحسار، ولتذكروا ثانية أن هذا الذى حل بينكم يخلص النصح ينعم الآن بما يستحق من ثواب علوى لأنه تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم .

" وأخيراً . . وتمشياً مع تقديركم الصائب، هل باختياركم هذا الرجل الذى تشعرون بالحاجة إليه، قد أبديتم الحصافة اللازمة فى هذا الاختيار وأنتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة، وهل تعلمون أن هذا الخطأ بعينه ؟ وأن الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شراراً ولهيباً " (٥٨).

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجدل أو المناقشة والذى أضحى تنفيذه على الجميع واجباً، وهو الأمر الذى كان الإمبراطور يؤمن به جيداً من أنه صاحب السلطة المطلقة فى الدنيا والدين، قال :

" إنى لأحتج بشدة على مسلككم، فذلك شىء لا يرضى الله . وليس من صالحكم فى شىء، كما أنى أرى فى موقفكم هذا تهديداً لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى وإياكم وأمنياتكم . . إنى لأحببكم، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضلالة وأقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق، فثبتم بذلك عالم السلام المقدس، حتى ليحق للمرء أن يقول أنكم محصنون بخوذة حديدية وأنتم

(58) EVSEB, vita. Const. III, 60.

تصعدون درج السماوات الغلا، ولتحملوا في سفينتكم تجارة لا تفسد، لأنكم قد أفلحتم في نتح ماء كان يتهددها بالغرق . ولتعنوا من الآن فصاعداً، لضمان الحفاظ على النعم التي تتقلبون فيها، حتى لا يقول عنكم الناس فيما بعد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة أو حماس معيب . أو أنكم اندفعتم في حمق تتخبطون في دروب المجهول . لعل الله يحفظكم أيها الأخوة الأحباب " [٥٩] .

هكذا أفصح قسطنطين صراحة عن رأيه في ترشيح يوسيبيوس، فقد كان الرجل صديقه الحميم، وكان الإمبراطور يحمل له كل تقدير وإعجاب، ولكن صالح الدولة العام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الإقدام على مثل هذا الإجراء لما سينتهي إليه ذلك من ازدياد حدة الإنقسام وعموم الفوضى والاضطراب .

وكم كانت سعادة الإمبراطور عندما أتاه خطاب يوسيبيوس يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذي اقترح أهالي أنطاكية والأساقفة خلعه عليه، معلناً تمسكه بالتقاليد الكنسية التي تحرم انتقال الأساقفة من بيعهم إلى آخر . فرد عليه الإمبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه . . جاء فيها :

" لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التي ارتضتها الكنيسة . وأن التزامك بما يبهج الإله ويتفق والعرف الرسولي لبرهان على تقواك .

" وبهذا يحق لك أن تشعر بغبطة أنت بها جدير، لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسره، فأنت تملك البصيرة التي تتمناها آية كنسية . وما من شك في أن الرغبة التي أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعياً) قد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الكل عليه . . وعلى الرغم من ذلك، فإن نيافتكم، في إصراركم على مراعاة الشرائع الإلهية والقوانين الرسولية، قد فعلت حسناً برفضك أسقفية أنطاكية. ورغبتك البقاء في بيعتك التي رسمت عليها من قبل بإرادة الله .

(59) Id.

" ولقد كتبت فى هذا الصدد إلى شعب أنطاكية، وإلى زملائك الأساقفة الذين تقدموا إلىّ فى هذا الأمر يطلبون نصحى، وإذا ما اطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قداستكم أن العدالة لا تتفق مطلقاً وما يرتجيه هؤلاء . لقد كتبت إليهم بوحى من الله، على أنه يحسن التواجد فى مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة أنطاكية . . حفظك الله أخى الحبيب " (٦٠) .

اطمأن قسطنطين بذلك إلى أن شعب أنطاكية لن يقدم على ما انتواه بعد أن أنذره بالويل والثبور بغوامض الكلم أو صريحه، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى، وبقى على قسطنطين أن يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح أنطاكية . ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الدور، بعد أن أضحى فى شئون الكنيسة على كل شيء قدير !! منح لنفسه الحق منذ ادعى أن السماء دون البشر هدته، وتقدمت به إلى الكنيسة منذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء، فإذا كان هذا شأنه والعقيدة فما باله والرجال !!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثاً عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه إليهم، أشار فيها قسطنطين إلى رسالته التى بعث بها إلى أهالى أنطاكية، وأرفق بها صورة هذه الرسالة حتى "يقفوا على رأيه فى هذا الخصوص، ثم أومأ إلى رسالة يوسيبيوس إليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح .

" يحسن بنا أن نطلع نيافتكم فى هذا الأمر على رأينا، ذلك أنه قد نمى إلى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن، أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن أرثوذا (الرستن) .. George of Arethusa الذى رسم قبلاً على يد اسكندر فى الإسكندرية، إنما هم رجلان ذوا إيمان عميق، وعلى هذا فإنه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما،

---

(60) EVSEB. vita. Const. III, 61.

أن تصدروا فى قراركم يوحى من تقاليد الرسل، وبهذا يغدو فى مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولى حتى يتحقق النظام الكنسى . . رعاكم الله اخوتى الأحبة " (٦١) .

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلاً غير الذى رسمه لهم قسطنطين . فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق أمرهم بالمفاضلة بين رجلين، وعلى أثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم يوفرونيوس الكبادوكي أسقفاً على أنطاكية (٦٢) . ولكن هذا لم يمكث فيها إلا عاماً واحداً وبضعة أشهر فخلفه فلاكيللوس Flaccillus(٦٣)، ويعلق ثيودوريتوس على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الآريوسية(٦٤).

وكان هذا الإجراء الذى أقدم عليه قسطنطين، بتعيين الأساقفة، كما حدث بوضوح عقب عزل النيقوميدي وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥، أو بترشيح اثنين للمفاضلة بين أحدهما، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر، كان هذا كله سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة، لم يتخل عنها خلفاء قسطنطين، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى، وما صحبها من نزاع بين الإمبراطورية والبابوية حول نظرية (السمو البابوى) .

لقد كانت أنطاكية تمثل مركزاً غاية فى الأهمية بالنسبة للأباطرة الرومان، فقد كانت دائماً مبتغى ملوك فارس فى صراعهم المستمر مع الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت أثناء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس، كما لم يكن يخفى عليه أيضاً مركز أنطاكية الإستراتيجى فى أى حرب مقبلة مع فارس . وقد قدمنا أن الملك الفارسى كان ينتهج سياسة عدائية إزاء الرعايا المسيحيين هناك . وعلى ذلك فمن

(61) EVSEB. vita. Const. III, 62.
(62) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(63) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(64) Id.

المحتمل أيضاً أن يكون قسطنطين قد سارع جاهداً لحل المشكلة الأنطاكية حتى يجنب المدينة اندلاع حرب أهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها .

هذا بالطبع إلى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين، وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له الإمبراطورية، وتأكيد سلطانه فوق الجميع .

هدأت بهدوء الأحوال فى أنطاكية سريرة الإمبراطور، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة، ذلك أن الفريق الآريوسى، ما كان ليرضخ بصورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين، وهاهو الآن يتقدم وئيد الخطو محاولاً تثبت أقدامه، فالإمبراطور قد عفا عن زعمائه، واستطاع هؤلاء إزاحة خصم لهم لدود من كرسى أسقفية أنطاكية، ولم يبق أمامهم إذن إلا ألد هؤلاء الخصوم على الإطلاق، أثناسيوس الأسقف السكندرى !

وكان قسطنطين قد بعث برسالة إلى الإسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى إذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة إلى الكنيسة، يعنى بذلك الآريوسيين والمليتيين، غير أن أثناسيوس أصر على موقفه متحدياً رغبة الإمبراطور، وكتب إليه محاولاً إقناعه بأن أولئك " المهرطقين " لا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية [٦٥] . وكانت تلك إذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صدر قسطنطين على أسقف الإسكندرية [٦٦] . وكان يوسيبيوس أسقف نيقوميديا هو الذي يترأس الآن جماعة الآريوسيين، كما كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية، ماريس Maris أسقف خلقيدونية، أورساكيوس Ursacius- أسقف سينجيدونوم Singidunum (بلجراد)، فالنز Valens أسقف Mursa (أوسيك فى يوغسلافيا) [٦٧] . وراح هذا الفريق يوثق صلاته بجماعة المليتيين فى مصر فى محاولة لتوحيد جهودهم ضد الأسقف السكندرى [٦٨]-

(65) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(66) Id.
(67) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(68) ID.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

ولخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين، استخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحة الدعاية والاتهام، والإمبراطور ينفذ سياسته بدقة، فتارة ينتصر لهذا الفريق، وأخرى يعدل عن رأيه، وهو فى هذا وذاك تلهث أنفاسه ف محاولة للخلاص من هذا الشقاق فى الكنيسة الذى يهدد الدولة كلها .

رسم الحزب اليوسيبيوسى خطته على مرحلتين، الأولى إثارة غضب الإمبراطور على أسقف الإسكندرية، والثانية إشاعة روح السخط والتذمر عند الأساقفة جميعاً على زعيم الإيمان النيقى .

كان يوسيبيوس ورفاقه يعلمون تماماً مزاج الإمبراطور وطبعه الأوتوقراطي ورغبته الجامحة فى الاستبداد بالسلطة، ولم يكن من العسير على أحد عايش قسطنطين فترة من الزمـــن وعاين الأحداث التى مر بها، أن يدرك على الفور نفسية قسطنطين . لقد كانت سياسته تتبلور حول شيء واحد دلت عليه أحداث عصره منذ كان بعد فى بريطانيا، ذلك هو دولة واحدة وحاكم واحد . ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقاً بانقسام فى إمبراطوريته كما لم يكن يسمح لإنسان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان، أو على الأقل ينتقص منه شيئاً، وكان هذا متناغماً تماماً مع الفكر السياسى الرومانى الذى يرفض تماماً وجود دولة داخل الدولة . من أجل هذا أشاع فى الناس، وروج له " مادحه " يوسيبيوس القيسارى أنه "مبعوث السماء إلى الأرض"، "حوارى المسيح" !!

وعلى أوتار الوحدة الإمبراطورية وأنغام السلطان راح الفريق اليوسيبيوسى يعزف للإمبراطور لحناً واحداً طوال خمس سنوات، حتى استطاع أن يجبره في النهاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الإسكندرية !! .

لما كان من غير المعقول اتهام أثناسيوس بالهرطقة أو الزيغ، فقد كان لابد من البحث عن طريق آخر غير طريق العقيدة، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قد

SOZOM. hist. eccl. II, 22.

فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لاستخدامه في الرداء الكهنوتى[٦٩]. كما وأن هذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهذا الاتهام [٧٠]. وكان أزيون Ision ويوديمون Eudaemon وكاللينيكوس Callinicus وهم من الفريق المليتى أصحاب ذلك الاتهام [٧١] . ويجمع المؤرخون الكنسيون على أن ذلك كان نتيجة إغراء يوسيبيوس ورفاقه وسواء صح هذا الاتهام أم أنه كان باطلاً فإننا، نلمس مدى الأهمية التى علقها الإمبراطور على مجرد وجوده فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه . إذ أرسل يستدعى إليه فوراً أثناسيوس ليدفع عن نفسه ذلك القول، وما كان أيسر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوباً عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها، ولكن استدعاء أثناسيوس إليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى إخضاعهم لسلطانه . ويعد فى الوقت ذاته تحذيراً للأسقف السكندرى على مسلكه السابق تجاه الإمبراطور، برفضه تحقيق رغبة قسطنطين فى إعادة آريوس إلى شركة كنيسة الإسكندرية .

ولقد تصادف وجود قسيسين مصريين فى العاصمة الإمبراطورية عندئذ هما أبيس Apis ومقار Macarius فتقدما إلى الإمبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء [٧٢] . ولكن ذلك لم يكن ليثنى الإمبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الإسكندرية، وما إن جاء هذا إلى البلاط الإمبراطورى حتى كان الفريق اليوسيبيوسى قد أعد ضده اتهاماً جديداً يمس حياة الإمبراطور ذاته، فقد أذاع أن أثناسيوس يتآمر ضد الإمبراطور، وأنه أرسل صندوقاً مملوءاً بالذهب إلى شخص يدعى فيلومنوس Philumenus كان رئيساً للحرس لتنفيذ مخططه [٧٣] . وقد قام الإمبراطور بفحص هذه القضية، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له

(69) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(70) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(71) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(72) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(73) Id.

بالعودة إلى بيعته [٧٤]، وشيعه برسالة إلى رعيته يمتدح أسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفاً به رجلاً من رجال الله، مبيناً أنه لما كان الحسد وحده هو سبب اتهامه الآن، فإنه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات [٧٥] ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلاً من الفرق المتنازعة على الانصراف إلى تبجيل الإله ورعاية حق أثناسيوس، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض . ويعلق سوزمنوس على ذلك قائلاً : هكذا كتب الإمبراطور إلى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعياً إلى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة[٧٦].

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الإمبراطور قد أعاد أثناسيوس إلى كنيسته معززاً مكرماً، إلا أنه قد تأكد لديه أيضاً أن وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى، وكان هذا هو ما يسعى إليه الحزب اليوسيبيوسى، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها . وإن كان الإمبراطور قد أدرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس ولو مؤقتاً كما فعل مع آريوس ورفاقه من قبل .

بقى إذن أن يثير يوسيبيوس ورفاقه الأساقفة ضد اثناسيوس، ولا يتأتى ذلك إلا بإظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الأكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم .

ولعل هذا الذى نخوض فيه الآن، وما علمناه آنفاً من انشغال أساقفة مجمع نيقية خلال جلساته الأولى فى تقويم الشكايات ضد بعضهم بعضاً، يفصح صراحة أن الموقف الجديد الذى اتخذته الدولة ممثلة فى قسطنطين تجاه المسيحية والاهتمام بأمورها الداخلية، قد صرف كثيراً من الأساقفة، ومن بينهم رعاة لأسقفيات كبيرة، عن ممارسة واجبهم الروحى إلى أمور أخرى لا علاقة لها بأمر العقيدة أو التنظيم الكنسى، وتلك سمة أضحت واحدة من أهم سمات أساقفة الكنيسة فى هذه القرون

(74) Id.
(75) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(76) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

المبكرة من عمر الإمبراطورية البيزنطية . والآن فلنذهب إلى مصر ولنر ما كان من أمر الأساقفة مع أثناسيوس . هذا علماً بأننا نستقى كل معلوماتنا هنا إما من الأسقف السكندرى نفسه أو مؤرخى الكنيسة خصوم الآريوسية .

كانت مريوط Mareotes إقليماً تابعاً للإسكندرية، وكانت تضم قرى عديدة تمتلئ بالسكان وبعدد من الكنائس، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الإسكندرية (٧٧) . إلا أن شخصاً يدعى اسخيراس Ischyras لم يكن من رجال الأكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس (٧٨) . وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزياراته المعتادة للإقليم، فأوفد الأسقف السكندرى قسيساً يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لإحضار اسخيراس، غير أنهم ألفياه يعاني آلام المرض، فطلبا إلى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه، ولكنه ما إن أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار فيما كان يدعيه حتى فر هارباً إلى المليتيين (٧٩)، ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك إلى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى، ويخبرنا أيضاً أن يوسيبيوس استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه بشرف الأسقفية كذلك إذا ما استطاع أن يجد اتهاماً ضد أثناسيوس (٨٠) . فأذاع اسخيراس تقريراً يعلن فيه أن مقار وصحبه أثناء حضورهم إليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة، وكسروا الأوانى المقدسة وأحرقوا الكتب، وأن أسقفاً يدعى أرسنيوس Arsenius قد قتل على يد أثناسيوس أيضاً وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل (٨١) . ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد أعد بعد ذلك فى وقت تال، بينما كان الاتهام الأخير هو الذى شغل الأذهان بادئ الأمــر (٨٢).

(77) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(78) Id.
(79) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.
(80) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(81) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.
(82) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

ويذكر سوزومنوس [٨٣] أن أرسنيوس هذا أسقف لمدينة Hypselitae (شطب جنوب أسيوط)، ولابد أن يكون قد أتى أمور تخالف العقيدة أو النظام الكنسى، وإن كان سوزومنوس لم يدلْ إلينا بأية تفصيلات فى هذا الخصوص . ثم يضيف أنه خوفاً من عقاب أسقفه هرب إلى مكان ما، فاستغل الآريوسيون، والمليتيون هذه الفرصة وبحثوا عنه حتى وجدوه وأظهروا له كثيراً من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان إذا أطاع أمرهم هكذا يقول سوزومنوس [٨٤] . ويبدو أن أرسنيوس كان واحداً من المليتيين يدل على ذلك موقع المدينة التى كان راعياً لكنيستها، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الإسكندرية، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجد العطف من الفريق المضاد لأثناسيوس، وراح ينتقل من مكان لآخر هرباً من أسقف الإسكندرية الذى جد فى طلبه .

هذه روايات يبدو فيها التوليف، لا تثبت للنقد، جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، وكلهم يحمل العداء الدفين للآريوسية والمليتية، ولكننا سقناها استكمالاً لجو الصراع العقائدى الدائر آنذاك . إذ كيف يمكن أن يكون أرسينوس قد قُتل على يد أثناسيوس، وجيء بيد مقطوعة قيل إنها له، ثم كيف يعثر عليه الآريوسيون حياً بعد ذلك ويعدونه وعداً حسناً إن هو عمل معهم، وأطاع أوامرهم .

عندما شاعت هذه الاتهامات، وملأت آذان الناس، أدرك أثناسيوس أنه من العسير عليه تماماً أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليه بارتكاب هذا الجرم مسبقاً دون انتظار لفحص أو تمحيص، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحق وسط زحام الأباطيل [٨٥] . وفى نفس الوقت علم الإمبراطور بكل ذلك، فسارع بالكتابة إلى دلماتيوس Dalmatius رقيب أنطاكية يأمره ببحث هذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق، وطلب إليه معاقبة من تسببوا فى إشاعة هذه الفوضى بالقول، وأرسل إلى هناك أيضاً كلاً من يوسيبيوس وثيوجنس بعد أن

(83) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(84) Id.
(85) Id.

رأى ضرورة مناقشة القضية أمامهما (٨٦)، وقد أرسل دلماتيوس رسالة إلى أثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب إلى أنطاكية للدفاع عن نفسه (٨٧) . ويقول أثناسيوس أنه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى إتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء، إلا أن تحرك الإمبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للأمر اهتمامه البالغ (٨٨) . فقد كان الأسقف يعلم جيداً مدى حرص الإمبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الإمبراطور لدى سماعه بضريبة الكتان والتآمـــر على حياته .

وعلى هذا الأساس ما إن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة إلى كل زملائه من رجال الأكليروس فى مصر يستحثهم على الإدلاء إليه بأية معلومات عن شخصية أرسنيوس هذا ومكان اختفائه، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه لخمس سنوات تقريباً (٨٩) . كما قام من ناحيته أيضاً بإرسال إحدى شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان، وقد جاء هذا الشماس إلى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبئ أرسنيوس (٩٠) . فلما وصل إلى أحد الأديرة هناك، أنكر باترينس Patrines الراهب ويسميه أثناسيوس بينس Pinnes (٩١)، وجوده لديه، وكان المعتقد أنه مختف هناك (٩٢)، ذلك أنه كما يقول سوزومنوس ما إن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية إلى مصر السفلى، فقام الشماس بالقبض على بينس وساقه إلى الإسكندرية مع زميل له يدعى إلياس Elias قيل أنه سهل لأرسينوس مهمة الفرار إلى مكان آخر، وسلم الاثنين إلى السلطات الإمبراطورية فى مصر، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة، وأنه يعيش فى مصر (٩٣).

(86) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(87) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(88) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(89) Id.
(90) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(91) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(92) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(93) Id.

وهذه الأقوال عينها نعلمها أيضاً من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا إلى يوحنا الأسقف المليتى ينبئه فيها تفصيلاً بكل هذه الأحداث ويعتذر إليه عن اعترافه ببقاء أرسينوس حياً، لأن بعض كهنة الدير مثل بكيسيوس Pecysius وسلفانوس Silvanus أخ الياس، وبولس Paul راهب Hypselae قد اعترفوا صراحة بأن أرسينوس كان يقيم بينهم، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام أثناسيوس بهذا الإدعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر (٩٤) . فلما تم ذلك كتب أثناسيوس إلى الإمبراطور يطلعه على كل هذه الأمور (٩٥) . فأصدر قسطنطين أوامره إلى دلماتيوس بوقف إجراءات التحقيق فى هذا الحادث(٩٦). وأمر يوسيبيوس وأعوانه الذين كانوا فى طريقهم إلى الشرق للاشتراك فى نظر القضية بالعودة ثانية إلى كنائسهم (٩٧) . وكتب رسالة إلى أثناسيوس دعاه فيها إلى الالتفات إلى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالاً إلى ترهات وأباطيل أولئك الحُسود (٩٨).

ويتضح من رسالة الإمبراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيون فى هذا السبيل، فهو يعزو إليهم كل هذه الأحداث ويتهمهم بالزيغ والضلال خاصة " بعد أن ظهر للجميع أن من ادعوا ذبحه لا يزال حياً باستطاعته أن يحدثهم " . ثم أنحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلناً أن العناية الإلهية لا يمكن أن تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أو الرشاد، واختتم رسالته برغبته الأكيدة أن تقرأ على القوم جميعاً حتى تصل إلى أذان أولئك الذين تسببوا فى إثارة مثل هذه الاضطرابات، ثم صرح بأنه قد قرر محاكمة هؤلاء الناس إذا ما أقدموا ثانية على ارتكاب مثل هذه الفعال لا تبعاً للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الإنسانية بل ضد العقيدة الإلهية ذاتها (٩٩).

(94) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.
(95) Ibid. 65.
(96) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(97) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.
(98) Ibid. 65.
(99) Id.

ويذكر أثناسيوس أن اسخيراس قد بعث إليه برسالة بعد أن اتضحت كل هذه الأمور [١٠٠] يعلن له فيها أن كل الادعاءات التي ساقها ضده إنما صدرت منه قسراً بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسى المليتى، ويعين له أسماء رجال منهم مثل إسحاق Isac وهيراكليدس Heraclides وإسحاق أسقف ليتوبوليس (إسنا) Letopolis، وأن شيئاً من هذه الاتهامات لم يكن صحيحاً بالمرة، ثم يرجوه أن يعفو عنه وأنه يقبله ثانية فى جماعته [١٠١]. ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية، فكتب إلى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة إلى حصن الكنيسة الجامعة، ووعده أن لا يصغى ثانية إلى أقوال أولئك الذين جرفوه بادئ الأمر فى تيارهم، وألا يشترك معهم فى محفل أو يوافقهم الرأى، ورجا أثناسيوس أن يرسل إليه رداً يطمئنه بتحقيق أمانيه، وأن يكتب بالتالى إلى الكنائس المختلفة يعلمها أنه قد عفا عنه وأنه عنه راض [١٠٢].

وقد أدرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الإمبراطور بمحاكمة المليتيين أمام المحاكم المدنية إذا ما استمروا فى عنادهم للأسقف السكندرى يعد تهديداً خطيراً لكيانهم وأيقن أن الإمبراطور لن يتورع فعلاً عن تنفيذ ما اعتزمه، ومن ثم بادر بالكتابة إلى قسطنطين يخبره أنه قد عاد إلى الوئام مع أثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية [١٠٣] .

وما إن تلقى الإمبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف فى هذه الفوضى المستشرية فى مصر، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة إلى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين المليتيين وكنيسة الإسكندرية . فربما أدى به الأمر فى النهاية إلى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم فى ولاية أفريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية . بل إن هذا الخطر القائم فى

(١٠٠) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لأنا نعلم أن اسخيراس كان أحد متهمى أثناسيوس فى المجمع . راجع: SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(101) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(102) Ibid. 69.

(103) Ibid. 70.

مصر يفوق قرينه الغربى، فإذا كان الأخير قد اقتصر على أفريقيا وحدها، إلا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشرق، وعلى ذلك فقد سارع الإمبراطور بالرد على رئيس الأساقفة المليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السلام بينه وأثناسيوس مرة أخرى، تلك الأنباء التى كان يتوق إلى سماعها لفترة طويلة مضت، ويثنى على سلوكه . هذا الرأى أدخل السرور على قلب الإله، وأعاد إلى الكنيسة وحدتها وأمنها، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعا يوحنا للشخوص على الفور إلى البلاط الإمبراطورى حتى تشمله عن كثب، بركات الإمبراطور ورعايته (١٠٤) .

ووسط هذه الفوضى فى الروايات التي يوردها مؤرخو الكنيسة، إلا أننا لابد أن نعلم شيئاً على قدر كبير من الأهمية، ذلك أن أثناسيوس كان لا يزال آنذاك في السنوات الأولى من رعايته الأسقفية ولم يكن سلطانه قد تدعم تماماً على كل كنائس مصر، وهذا نقف عليه مما يخبرنا به مؤرخو الكنيسة من أن أثناسيوس قد أمضى هذه السنوات يذرع مصر كلها من الشمال إلى الجنوب لتدعيم سلطان أسقفية الإسكندرية على كنائس مصر كلها، وأنه لم ينتهى من ذلك إلا حوالى عام ٣٣٤، ومن ثم فلا عجب أن وقعت هذه الأحداث خلال تلك السنوات . هذا من ناحية ومن الأخرى أن المليتيين فى مصر لم يكن نفوذهم قد انتهى تماماً بقرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥، بل عادوا إلى محاولة إثبات وجودهم عند اختيار يوحنا خلف لمليتيوس ومع انتقال الأسقفية من اسكندر إلى أثناسيوس وما تبعها، أمل المليتيون أن يجدوا الفرصة سانحة لإعلاء شأن كنيسة أسيوط فى مواجهة كنيسة الإسكندرية، ويؤكد هذا أن ما حدث من شغب كان واقعاً فى المناطق التى كان المليتيون ما زالت بقاياهم قائمة فيها، ولا شك أن هذه الأحداث جميعها كانت أمراً طبيعياً صاحب التحول فى سياسة الدولة تجاه هذه الديانة المسيحية وأتباعها بعد ما عانوه خلال فترات الاضطهاد وراحت كل كنيسة تحاول أن تثبت لنفسها دوراً ومكاناً على الخريطة الدينية ليس فى مصر وحدها بل في كل أنحاء الإمبراطورية.

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة أن الحال آخذه فى الهدوء، فالاتهامات

(104) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتها، ورئيس الأساقفة المليتيين أعلن للإمبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى، وهاهو الآن يتأهب للرحيل إلى العاصمة الإمبراطورية لينال حظوة الإمبراطور، ولكن على الرغم من هذا الهدوء الظاهرى إلا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته، فآريوس حقاً قد شمله عفو الإمبراطور وعاد من منفاه، ولكن كنيسة الإسكندرية لازالت تلفظه خارجها، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام إلى الكنيسة ما بقى آريوس خارجها . ولن يعود هذا إلى الكنيسة إذا ظل فى الأسقفية أثناسيوس . والإمبراطور بين هؤلاء وأولئك أشبه شيء بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته، فراح يضرب بيده يمنة تارة ويسرة أخرى، ليصل بالسفينة إلى بر النجاة، وليظل هو الربان حتى النهاية .

عاود الفريق اليوسيبيوسى نشاطه ثانية فى دوائر البلاط، وراح يوحى إلى الإمبراطور أن أثناسيوس لابد وأن يبرئ ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض، ووافقت الفكرة هوى الإمبراطور، وحسب أن فى عقد المجمع قضاءً أخيراً على هذا الاضطراب، وربما عد ذلك استكمالاً لجهود المجمع النيقى، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعوة سنة ٣٣٣ إلى الأساقفة للاجتماع فى قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة ضد أسقف الإسكندرية، وطلب إلى هذا القدوم إلى المجمع " ليدافع عن نفسه فى حضرة رجال الله " (١٠٥) .

قلنا آنفاً أن سياسة الفريق اليوسيبيوسى قد قامت على مرحلتين، إثارة غضب الإمبراطور على أثناسيوس، وإثارة سخط الأساقفة ضده، وحتى الآن لا يمكننا القول أنهم أفلحوا فى المرحلة الأولى تماماً، وإن كانوا قد أدخلوا على الأقل فى روع قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة فى الأسقف السكندرى. وكانت الدعوة لعقد مجمع الأساقفة فى قيسارية نجاحاً تاماً للمرحلة الثانية من نضالهم ضد أنصار نيقية، بل أن نجاح هذه الخطوة امتد أثره ليشمل الإمبراطور أيضاً .

(105) THEOD. hist. eccl. I, 28.

وهكذا وفى جولة واحدة كسب اليوسيبيوسيون إلى صفهم الأساقفة والإمبراطور، وقد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة .

كان اختيار مكان المجمع دليلاً على سياسة قسطنطين فى ارتضائه الحلول الوسطى في هذه المشاكل المعقدة، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوسيبيوس صديق الإمبراطور والمعروف بميوله المعتدلة، فلا هو بقلبه يؤيد النيقيين، ولاهو صراحة مالأ الآريوسيين . ولما كان من البدهى أن يصبح يوسيبيوس القيسارى رئيساً لهذا المجمع المقترح، فقد أمل قسطنطين أن يجد فى جهده رمزاً ما للسلام . ولكن أثناسيوس كان يرى فى يوسيبيوس هذا خطراً مباشراً عليه، خاصة وهو يعلم أن الرجل لن يكون صاحب الكلمة العليا الأولى فى المجمع ما دام إلى جواره أساقفة آخرون يمثلون العداء الصارخ له على رأسهم سميه النيقوميدى وكثيرون غيره من رجال الآريوسية، فتوجس فى نفسه خيفة أثناسيوس، ورفض دعوة الإمبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهراً رغم الإلحاح المستمر فى طلبه [١٠٦]، وكان هذا فى حد ذاته خطأ كبيراً ارتكبه أثناسيوس .

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الإمبراطور إلى صفة ثانية، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته، أو يحول دون رغائبه، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الإسكندرية تحدياً لسلطانه، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماماً، وبذلك وفى وقت واحد، ثارت حفيظة الإمبراطور والأساقفة ضد أسقف الإسكندرية العنيد .

صمم الإمبراطور إذن على أن يسير فى الشوط حتى منتهاه، فوجه الدعوة من جديد لعقد مجمع للأساقفة فى صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفاً[١٠٧] . وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس Dionysius إلى هناك، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الإمبراطور إلى الأساقفة " رئاسة وضبط أعمال

(106) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(107) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

المجمع والحفاظ على النظام " (١٠٨)، كما كتب إلى أثناسيوس يأمره بالذهاب إلى صور، ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغباً في ذلك، إلا أنه امتثل للأمر على كره منه (١٠٩). ولكن هذه الخطوة جاءت بعد فوات الأوان، وبعد أن أوغر صدر الإمبراطور والأساقفة ضده من قبل . ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلاً أن امتعاض أثناسيوس من الذهاب إلى هناك كان صادراً عن إيمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة إليه . هذا بالإضافة إلى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الإيمان النيقى (١١٠)، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول " أن أسقف الإسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها إليه الإمبراطور متوعداً إياه بحمله على الحضور عنوة إذ لم يحضر طواعية (١١١).

وقد كتب قسطنطين إلى الأساقفة المجتمعين فى صور رسالة أبدى لهم فى بدايتها أمله الكبير فى أن تعود إلى الكنيسة ثانية وحدتها، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى، وحث الأساقفة جميعاً على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق وإظهار الحقيقة، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه :

" ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى ورفض الحضور إلى المجمع، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم إمبراطورى ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الإمبراطور حين يكون عن الحق دفاعه " (١١٢).

ولا شك أن هذا التهديد موجه صراحة إلى أثناسيوس، وهكذا أقفل باب سلام يرتجى بين الإمبراطور والزعيم السكندرى، ولم يكن الإمبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقداً على أثناسيوس أو كرهاً له فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسيبيوسى المليتى .

---

(108) EVSEB. vita. Const. IV. 42.
(109) ATHANAS. Apol. C. ARIAN. 71.
(110) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(111) Id.
(112) EVSEB. vita. Const. IV. 42.

وفي منتصف عام ٣٣٥ التأم عقد مجمع صور، واصطحب أسقف الإسكندرية معه عدداً كبيراً من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين [113]، وسيق مقار من الإسكندرية إلى صور مكبلاً في أغلاله [114] . ويصف أثناسيوس الحالة في المجمع عندئذ بقوله : تقاسم المليتيون الذى طردهم بطرس من الكنيسة، والآريوسيون المؤامرة فيما بينهم، وعلى حين وقف فريق منهم إزائي موقف المدعي، جلس الحزب الآخر في منصة القضاء .وقد اعترضت لدى يوسيبيوس موضحاً أنه ليس من العدل أن يكون خصومي قضاتي، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذي اتهمني قبلاً لم يكن في يوم من الأيام قسيساً واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التي كان ملتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر عن أتباعه في أنحاء مصر كلها [115]، ومن خلالها لا يظهر اسم اسخيراس على الإطلاق، ولم يبد البتة أنه كان أحد رجال الأكليروس في مريوط، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم وكان الكونت على استعداد لاستخدام العنف ضدنا وتسيير جنوده في ذلك[116].

تولى المليتيون إقامة الدعوى ضد أثناسيوس، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه عزله من منصبه، وعين بدلاً منه شخصاً آخر، ووضعه تحت حراسة عسكرية، وراح يذيقه العذاب ألواناً حتى يحصل منه على اعترافات تدحض اتهام أثناسيوس بتحطيم الأواني المقدسة، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه في الأغلال رغم مرتبته الكهنوتية، وأذاعوا أيضاً أنهم أنبأوا قبلاً هيجينوس Hyginus أحد موظفي الإمبراطور في مصر أنه قذف بالأحجار تماثيل الإمبراطور [117]، وأشيلاس Achillas وباخوم Pachomius واسحق Isaac أما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم أساقفة مليتيون، فقد راحوا يشككون في الطريقة التي تم بها اختيار أثناسيوس للأسقفية،

(113) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
(114) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(115) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(116) Ibid. 72.
(117) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

وإن ذلك تم بطريق غير شرعي بناء على تآمر بعض الأفراد، مما دفع بهؤلاء الأساقفة إلى قطع أنفسهم من الكنيسة احتجاجاً على ذلك، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيابة السجون (١١٨) . كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسينيوس (١١٩) .

وفيما يخص هذا الاتهام الأخير، يذكر سقراط أن أرسينيوس متجاهلاً التحذيرات التى وجهت إليه من الفريق اليوسيبيوسى المليتى، جاء إلى صور متنكراً ليشهد أحداث المجمع، وقد نمى إلى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الإقليم أن أرسينيوس، الذى من المفروض كونه فى عداد الأموات الآن يوجد متخفياً عند أحد المواطنين، فما لبثوا أن نقلوا ذلك إلى سيدهم الذى أصدر أوامره بالبحث عن الرجل، فلما عثر عليه وجيء به أنكر شخصه، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه، وعندما أحضر إلى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه أثناسيوس قائلاً : " أرسنيوس . . هاأنت كما ترى تمتلك كفين، فدع متهمى يشيرون إلى مكان اليد الثالثة التى قطعت " (١٢٠).

وقد استطاع أثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيراً من هذه الاتهامات التى وجهت إليه . غير أن الحيرة انتابته أمام هذا الجمع الغفير من الشهود الذين أحضرهم خصومه، ومن ثم أدرك الأسقف السكندرى أن أعداءه عازمون على تحطيمه تماماً . وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيها فى بحر من الفوضى والاضطراب، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعزل أثناسيوس، ولم يحسم الأمر إلا تدخل ديونسيوس المندوب الإمبراطورى (١٢١).

وكانت مسألة اتهام مقار بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة، واحتاج الأمر إلى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر إرسالها إلى مريوط لبحث القضية فى موضعها (١٢٢) . وتألفت اللجنة من ثيوجنس،

(118) Id.
(119) Id.
(120) SOCRAT. hist. eccl. I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl.I.28.
(121) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(122) SOCRAT. Hist. eccl. I, 31.

وماريس، وثيودور، وماكيدون، وأورساكيوس وفالنز (١٢٣) . احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه، كما احتج أيضاً على اصطحاب أسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده (١٢٤) . وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على إيفاد لجنة إلى مريوط على الإطلاق مبيناً لديونيسيون عدم جدواها (١٢٥) . ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على إرسال اللجنة يشير إلى احتمال صحة هذه الأحداث فعلاً، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة (١٢٦).

وكتبت رسالة إلى حاكم مصر، وزودت اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها (١٢٧) أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط إلى الأساقفة المجتمعين فى صور، وقد ذكروا فيها ما سبق أن أوضحه أثناسيوس من أن اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلاً من رجال الأكليروس، وأنه إنما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر ورسم عدداً من القساوسة . وتمت إدانته وإعادته إلى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الإسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى .

أما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا أنها اصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعدداً من جنده، ولما تقدم إليهم رجال الأكليروس يطلبون إشراكهم فى إجراءات التحقيق، رفضت اللجنة سماع مقترحاتهم وتمكنوا عن طريق القوة والتهديد من جانب الوالى، كما تقول الرسالة من الحصول على البيانات التى يريدونها، وعادوا أدراجهم ثانية (١٢٨). وعلى غرارها كتب هؤلاء

(123) Id.
(124) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(125) Id.
(126) Jones, Constantine, p. 195.
(127) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(128) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

القسيسون رسالة إلى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر [129] . أما الأساقفة المصريون الذين صحبوا أثناسيوس إلى المجمع فقد كتبوا رسالة إلى ديونيسيوس المندوب الإمبراطورى وأوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسيبيوسى بغية تقويض الإيمان القويم والتخلص من زعيمه المدافع عنه أثناسيوس، وأضافوا أن مريوط لم يكن بها أحد من المليتيين قبلاً، أما الآن فهى تفيض بهم بعد أن أرسل المليتيون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنـــة لتجمع المليتيين وتحشدهم فى مريوط، هذا بالإضافة إلى الآريوسيين والكاللوثيين، وحذروه من التمادى فى إطاعة هذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله [130] .

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالاً إلى هذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصريين هؤلاء إلا أن بعثوا إليه خطاباً شديد اللهجة جاء فيه :

" إنا نرى أنفسنا مرغمين على الشكوى ثانية، لقد لاحظنا أن تأييداً كبيراً قد أصبح الآن فى جانب المليتيين، وأن مؤامرة ضد الكنيسة الجامعة فى مصر، فى أشخاصنا، قد دبرت . وعلى ذلك، نقدم هذه الرسالة إليك راجين أن تضع فى عقلك قوة الإله القدير الذى يحمى مملكة إمبراطورنا التقى الورع قسطنطين، وأن تنقل إلى مسامع الإمبراطور ذاته كل هذه الأمور التى تهمنا . لقد بعثت من قبل عظمته لتعى تماماً هذه الأحداث، ولتعلم أنّا لم نعد نحتمل أن نغدو على الدوام هدفاً لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم، يوسيبيوس وبطانته، وعليه نرجوك أن تعرض قضيتنا على الإمبراطور الورع محبوب الرب، أمام ذلك الذى يمكننا نعرض عليه شكاياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا، لن يديننا، ولذلك نناشدك ثانية بالإله القدير، وبإمبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار فى تقواهم، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين، لا ترهقوا أنفسكم فى محاولة عرض أمرنا على المجمع ثانية، بل أبلغ الإمبراطور أمرنا " [131] .

(139) Id.
(130) Ibid. 78.
(131) ATHANAS. Apol, C, Arian. 79.

ولعل هذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشكلة الدوناتية قبلاً، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعى روما وآرل واحتكموا للإمبراطور شخصياً . وهاهم الأساقفة المصريون يسلكون نفس السبيل، بعد أن أصبح واضحاً لهم أن الاتجاه السائد فى مجمع صور قد نحا نحواً مضاداً لهم . ومن ثم أدركوا أن شيئاً من الإنصاف لن يتيسر لهم الحصول عليه، فلما لم يصغ ديونيسيوس لرجائهم، لم يجد زعيمهم بداً من عرض الأمر بنفسه على الإمبراطور، وعلى هذا النحو شخص أثناسيوس إلى القسطنطينية لمقابلة قسطنطين والاحتكام إليه [١٣٢].

أدرك ديونيسيوس أن الأمر قد أفلت من يديه، وخاصة بعد أن أرسل إليه إسكندر أسقف سالونيكا رسالة يستنكر فيها سماحه لهؤلاء الأفراد بالذات الذهاب إلى مصر، ويحيطه علماً أن تلك مؤامرة مدبرة ضد أثناسيوس، ويلومه على هذا التخاذل إزاء الفريق اليوسيبيوسى المليتى [١٣٣] .

وعلى ذلك فقد كتب ديونيسيوس إلى يوسيبيوس وأتباعه رسالة ينبئهم فيها بقول اسكندر مؤيداً ما جاء فيها، ويبدو من عبارات رسالته أنه يستعطف هذا الفريق لالتزامه جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد [١٣٤] .

أخذ يوسيبيوس ورفاقه الآن بيدهم زمام المبادرة، وانتهزوا فرصة غياب أثناسيوس عن المجمع قبل أن ينهى هذا أعماله، وكانت التقارير التى أعدتها لجنة تقصى الحقائق العائدة من مريوط قد أعدت وأطلع عليها الجميع [١٣٥]. فأصدر المجمع قراراته بإدانة أثناسيوس وعزله من منصبه، وحرم عليه الإقامة فى الإسكندرية خشية أن يؤدى وجوده فيها إلى إشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة وتابعيه ثانية إلى الكنيسة ورد إلى كل منهم

(132) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(133) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.
(134) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.
(135) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.

مركزه الأكليروسى [١٣٦] . وكان من بين المقبولين ثانية أرسنيوس، وقد وقع على قرار عزل أثناسيوس بوصفه أسقفاً لمدينة Hypsalopolis [١٣٧] . وبعث المجمع بتقرير عن عمله إلى الإمبراطور، وبمثله إلى أساقفة مختلف البلدان ناصحين إياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا إليه أو يتلقوا منه أية رسائل وذكروا فى رسالتهم هذه أنهم اضطروا للموافقة على إدانة أسقف الإسكندرية لأنه رفض الامتثال للأمر الإمبراطورى الصادر إليه قبلاً بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية، مستخفاً بالأساقفة، متحدياً أوامر الحاكم، هذا بالإضافة إلى أنه حضر إلى صور وبصحبته عدد كبير من الأتباع بغية إثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، كما أن أثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الإجابة عن الاتهامات الموجهة ضده، وأهان بعض الأساقفة وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه أذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك أعضاء اللجنة [١٣٨].

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى أثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته إلى الإمبراطور والأساقفة، على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وإن كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف . إلا أنها لا شك أيضاً تحمل جانباً ولو يسيراً من الحقيقة، ولعل دليلنا على ذلك أن هذه المعلومات كلها استقيناها من أقلام أثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الآخرين . وهذا ولا شك شىء يدعو للحذر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الإسكندرية كان بلا ريب يتمتع بشخصية قوية ونفوذ كبير، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه إرادته . هذا واضح من تحديه المستمر للفريق الآريوسى، بل ورفضه الفريق المليتى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناءً على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقية، فلا شك إذن أن يؤدى ذلك إلى إثارة

(136) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(137) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(138) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

جفيظة وغيرة كثير من زملاءه رجال الآكليروس لا فى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى . وكانت نيقوميديا على رأس هذه الكنائس، وإذا أدخلنا فى اعتبارنا أن نيقوميديا قد ظلت لفترة تقترب من نصف قرن عاصمة الإمبراطورية، فلا عجب أن يتطلع أسقفها إلى شىء من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى، بل وأن يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبر من نيقوميديا، وسينجح يوسيبيوس فعلاً فى ذلك عندما يصبح أسقفاً للقسطنطينية، وإن كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين ومن ثم رأينا يوسيبيوس يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الإسكندرية، وإذا كانت هذه تعتز بتراثها التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية وأثرها الواضح على المسيحية، وما كان لها بكل هذه العظمة أن تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شىء من هذا فإن نيقوميديا وليس لها من هذا شىء، لابد وأن تعتز بأنها مقر الأباطرة وعاصمة ملكهم، وأنه ليس من حق أسقفية ولاية أن تنازع أسقفية العاصمة وحتى عندما انتقلت العاصمة إلى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية فى حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث .

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية إلى صراع على الزعامة تحت ستار العقيدة، ويقول جلانفيل دوانى Glanville Downey ليس غريباً أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم إلى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الإمبراطورى، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الإمبراطور لحلها، فأصبح واجباً على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة أن تسعى إلى كسب الإمبراطور ومستشاريه إلى صفها (١٣٩) . فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية أخلد بعد نفيه إلى الهدوء، ولم يأت به إلى مسرح الأحداث ثانية إلا الإمبراطور ذاته وربما على كره من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الإمبراطور إليه، وحتى بعد عودته ظل بعيداً لا يشارك فى شىء من هذه الحوادث كلها . لقد كان الرجل شيخاً طاعناً ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح إلى سلطان، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة

(١٣٩) داونى، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة د. ألبرت بطرس، ص٨٣ .

أمن بها وأيقن أنها الحق المبين . وما عداها إفك وضلال . فقد تلقى الرجل تعليمه فى مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الأفلاطونية الفكر، وأكمل دراسته فى مدرسة أنطاكية اللاهوتية الأرسطية المنهج، فجمع بذلك بين الفكر الأفلاطونى والنهج الأرسطى وطبقهما، – شأن زعيم المدرسة السكندرية أوريجن Origines – على العقيدة المسيحية، فجاءت آراؤه على هذا النحو الذى عرضنا له من قبل فى الفصل السابق، وكان آريوس بحق رجل دين تضلع من الفلسفة كما فعل آباء الكنيسة الأول، وأراد أن يقدم المسيحية إلى الناس على طبق عقلانى . على حين كان يوسيبيوس هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية. وطوال عشر سنوات كاملة ٣٢٨-٣٣٧، ولم يأت على لسان الأطراف المتنازعة، ولم تسجل أقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئاً من أمور العقيدة، ولم تمس الاتهامات التى وجهت إلى أثناسيوس طرفاً من رداء الدين، ولم يتعرض مجمع الأساقفة فى صور إلى العقيدة فى قليل أو كثير، بل حتى لم يطلب إليه بحث مسألة إعادة آريوس إلى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة وحتى مبررات الحكم ضد أثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماماً عن الديانة وأسرارها . ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسيبيوسى منذ البداية، أعنى إثارة غضب الإمبراطور وجلب حنق الأساقفة . وكان الفريق اليوسيبيوسى يعلم مزاج الإمبراطور، فعرف كيف يصور له أثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته المتحدى لسلطانه وساعد أثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الإمبراطور .

وإن كان اليوسيبيوسيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضاً، ولهذا فإنهم رغم سعيهم الدائب لإثارة الإمبراطور ضد أثناسيوس، لم يضعوا ذلك فى إطار النزاع الشخصى بين قسطنطين وأثناسيوس، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلاً فى نظر رعيته يناضل ضد الإمبراطور .

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من

الإمبراطور يدعوهم فيها للتوجه إلى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التي أقامها الإمبراطور هناك، والذى يوافق الاحتفال أيضاً بالعيد الثلاثينى لحكم الإمبراطور (١٤٠) . ويصور يوسيبيوس ذلك بقوله أن المدينة قد غدت مسرحاً ضم عديداً من مختلف الشخصيات الكنسية، فقد جاء إلى هناك اسكندر أسقف سالونيكا، ومن بانونيا حضر أورساكيوس وفالنز، وأحد أساقفة فارس، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالإضافة إلى أساقفة كليكيا وكباودكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة إلى جانب عدد هائل من موظفى القصر الذين أرسلوا للإشراف على هذا الحفل والارتفاع به إلى ما يناسب مقام الإمبراطور السامى (١٤١)، ثم يخبرنا يوسيبيوس بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناءً على الأوامر الإمبراطورية بتوزيع الهدايا والمنح والعطايا التى أنعم بها الإمبراطور على رجال الله (١٤٢) . وقد قابل الأساقفة ذلك بإلقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الإمبراطور والإشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذي أقدم عليه، والدعاء إلى الرب بأن يحفظه ويرعاه، ويذكر يوسيبيوس أنه شارك هو الآخر فى هذه المباراة وأوضح فى خطبته أن تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء فى نبوءات الأنبياء قبل ذلك (١٤٣)!!

ولا شك أن الإمبراطور عندما واتته أنباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة، فها هو يشهد أساقفة الشرق جميعاً، وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد، ثم نظر فإذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس إلى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عدداً، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيوس إلى مجمع الأساقفة فى أورشليم سنة ٣٣٥، وأخبرهم أنه قد اطلع على وثيقة إيمانها

(140) EVSEB. vita Const. IV, 43.
(141) Id.
(142) Ibid. 44.
(143) Ibid. 45.

التى قدماها إليه، وأنه مقتنع بكل ما جاء فيها، وحثهم على قبول هذه الوثيقة وإعادة آريوس وصحبه إلى الكنيسة [١٤٤] . ولم يكن الأساقفة فى حاجة إلى توصية الإمبراطور، فقد كانوا جميعاً من مؤيدى آريوس، فأصدروا على الفور قراراهم بقبول صيغة الإيمان التى قدماها الرجلان، وهى التى أشرنا إليها آنفاً، وإعادة قبولها فى الكنيسة وعودتهما إلى كنيسة الإسكندرية، وكتبوا إلى الإمبراطور يخبرونه بكل ما حدث [١٤٥] . كما أرسلوا أيضاً رسائل بهذا المعنى إلى عموم الكنائس فى الإسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الأكليروس فى مصر حاثين إياهم على قبول آريوس وشيعته، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق إيمان آريوس وصاحبه، وأن الإمبراطور محبوب الرب التقى الورع قد شهد فى خطابه لهم بصحة إيمان الرجلين بقبولهما فى الكنيسة [١٤٦] .

ويبدو أن رسالة الإمبراطور إلى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة، قد بعثت قبل أن يلتقى الإمبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقاد مجمع صور، وشخص إلى القسطنطينية ليعرض على الإمبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به، ذلك أن الإمبراطور ما إن التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة إلى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم، ويبدو أن الإمبراطور قد تأثر إلى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول:

" إنى فى واقع الأمر لا أعلم شيئاً عما اتخذه مجمعكم من قرارات فى جو عاصف صاخب، غير أنه يبدو لى أن الحق قد تعرض للتحريف نتيجة إجراءات فوضوية مضطربة . ذلك لأنكم، كما يقال، حباً فى الجدال، أغفلتم أموراً يرتضيها الإله، وأنى لأرجو الله، وكلى ثقة، أن تعمل العناية السماوية على إذابة مآس خلفها

(144) SOAOM. hist. eccl. II, 27.
(145) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(146) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

التنافس الحاد، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقة، وإنى لآمل أن توضحوا إذا ما كنتم قد راعيتم فى مجلسكم مضمون الحق وإذا ما كنتم أيضاً قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز أو تعصب "(١٤٧).

وبعد أن يخبرهم قسطنطين أن سلوكه قد أدخل البرابرة فى حظيرة المسيحية، يوجه إليهم اللوم قائلاً :

" أما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة، وأسرارها المقدسة، (ولا أقول حراسنها)، لا نفعل إلا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة، ولأكون معكم صريحاً، تعمل على دمار البشرية " (١٤٨).

ولندع قسطنطين الآن يحدثنا بنفسه عن المقابلة التى حدثت بينه وبين أثناسيوس، حيث يتضح من حديثه أنه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندرى، يقول الإمبراطور :

" بينما أنا داخل المدينة التى تحمل أسمنا، فى هذه الديار الزاهرة، القسطنطينية . وكنت ساعتها ممتطياً صهوة جوادى . اعترضنا فجأة الأسقف أثناسيوس، يحيط به بعض من رجال الدين، يبتغون السماح لهم بمقابلتنا، ويعلم الله، الذى أحاط بكل شئ علماً، أنى لم أتبين للوهلة الأولى شخصه حتى أنبانى عنه بعض خاصتى، بعد أن سألتهم ذلك . وأنبأونى أيضاً كم من الآلام قاسى، وحتى ذلك الحين لم أحادثه، أو أجرى إتصالاً معه، ولكنه راح يلح طالباً الإذن له بلقائنا، ورغم أنى رفضت ذلك مراراً، وأمرت بإبعاده عن حضرتنا إلا أنه أعلن فى جرأة فائقة أنه لا يطلب سوى شيئاً واحداً، هو أن تمثلوا جميعاً إلى هنا، حتى يجد فى حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته " (١٤٩) .

وقد وجه قسطنطين أوامره إلى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة

(147) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(148) Id.
(149) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

إلى بلاطه، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة، من أن دعوته إياهم للحضور قد جاءت فى رسالته هذه فى ثلاثة مواضع متقاربة، كلها تتعجل رحيلهم إلى القسطنطينية لحسم هذا الأمر فى حضرة الإمبراطور .

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين إلى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الإمبراطورية، وإن كان أثناسيوس(١٥٠) وسقراط (١٥١) وسوزومنوس (١٥٢) يخلعون على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض إلى الإسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة إلى ديارهم . غير أن يوسيبيوس النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر لملاقاة الإمبراطور في القسطنطينية، وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس، وماريس، وباتروفيلوس، وأورساكيوس، وفالنز (١٥٣) .

ويقول سوزومنوس أن هذا الجمع قد بين للإمبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شيء ضد أثناسيوس، وإنما توخى العدالة تماماً، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأوانى المقدسة (١٥٤) . وإن كان أثناسيوس ينفى ذلك ويقول أن هذا الأمر شيء ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره، ولكنهم جاءوا إلى الإمبراطور باتهام جديد فحواه أنّ أسقف الإسكندرية هدد بمنع إرسال القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية (١٥٥) . وأكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتى أثناسيوس وسمعته آذان عدد من الأساقفة من بينهم أدامانتيوس Adamantius وأنوبيون Anubion وأرباثيون Arbathion، وبطرس Peter (١٥٦) . ويصف أثناسيوس حالة الإمبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله : " اشتعل على الفور غيظ الإمبراطور

(150) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(151) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(152) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(153) ATHANAS. Apol. C. Acian. 87.
(154) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(155) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(156) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

واشتد حنقه، وبدلاً من أن يرسل إلى لسماع قولى، أمر بنفي إلى غالة "[157]. ويقول سقراط معلقاً على ذلك بأن الإمبراطور أصدر هذا القرار بدافع الرغبة فى توحيد الكنيسة حيث أن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس[158] .

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة، فبالإضافة إلي أن الإمبراطور كان يتميز غيظاً لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد، سواء كان هذا الادعاء باطلاً أم حدث فعلاً، فقسطنطين كان يدرك يقيناً الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من أهمية العاصمة الجديدة، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقاً أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته فى إحداث مجاعة فى روما الجديدة ! هذا من ناحية . والأخرى أنه ضاق ذرعاً بعناد أثناسيوس، فقد حاول كثيراً أن يلتقى وإياه على طريق وسط، ولكن الأسقف السكندرى لم يكن ممن يقبلون هذه السياسة . فقد كان متشدداً فى موقفه لا يقبل المساومة، ووصل به الأمـر ذات مرة إلى حد رفض الإذعان لأوامر الإمبراطور عندما قرر الامتناع عن الظهور أمام مجمع الأساقفة فى قيسارية سنة ٣٣٣، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسين أو المليتيين، ولم يحاول بذلك إعادة السلام إلى الكنيسة والوحدة، وذلك شىء كانت تتوق إليه نفس الإمبراطور، وأدرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن أثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل إعادة الوحدة إلى الكنيسة، ومن ثم قرر التخلص منه بنفيه، فكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة .

على هذا النحو حقق الفريق اليوسيبيوسى نصره على زعيم الإيمان النيقى، وفى نفس الوقت حقق نصراً آخراً، ذلك أن ماركللوس Marcellus أسقف أنقرة قد كتب عدة كتابات ضد الآريوسية [159] رداً على رسالة كان أستريوس Asterius أحد مواطنى كبادوكيا قد كتبها يدافع عن العقيدة الآريوسية، وراح يذيعها فى عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة، ومن ثم أخذ ماركللوس على عاتقه مهمة

(157) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(158) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(159) HIER. Vir. Ill. 86.

دحض هذه الأقوال، فأدى ذلك به سواء بوعى أو بلا وعى إلى ترديد آراء بولس السميسطائى (١٦٠).

وقد عده اليوسيبيوسيون خصماً لهم، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التى أقرها مجمع أورشليم عام ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس وصحبه ثانية فى الكنيسة، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ويذكر سوزومنوس أن الفريق اليوسيبيوسى ركز على هذه النقطة بالذات وأثارها لدى الإمبراطور مبيناً له أن ذلك يعد إهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم (١٦١) . ولعل هذا يؤكد ما نذهب إليه من أن المسألة كانت فى حقيقة أمرها تستتر برداء العقيدة، ولم تكن سوى نزاعاً شخصياً، ولذلك كان الفريق اليوسيبيوسى يصور المسألة للإمبراطور باعتبارها تمس شخصية مباشرة، وتمثل انتقاصاً لسيادته، مما يثير بالتالى غضبه. وعلى هذا النحو اجتمع الأساقفة هؤلاء فى القسطنطينية وأصدروا قرارهم بعزل ماركللوس من أسقفيته (١٦٢).

أما ما كان من أمر آريوس فإنه عاد ثانية إلى الإسكندرية بعد أن أصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه فى الكنيسة، إلا أن الأساقفة المصريين أنصار أثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع فأدى هذا بالتالى إلى حدوث الاضطرابات من جديد فى الإسكندرية (١٦٣)، ولما كان الإمبراطور غير راغب فى السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه فقد أرسل إلى آريوس يستدعيه فوراً إلى القسطنطينية . وكان أسقف المدينة فى هذا الوقت إسكندر الذى دخل فى صراع مع آريوس منذ وصوله إلى العاصمة كما ينبئنا بذلك سقراط (١٦٤) . ولعل

(160) SOZOM. hist. eccl. II, 33. وراجع أيضاً SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(161) SOZOM. hist. eccl. II, 33.

(162) SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(163) Ibid. 37.

(164) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

ذلك يرجع إلى ما يكون قد نمى إلى علم اسكندر من رغبة الفريق اليوسيبيوسى فى أن يقوم أسقف القسطنطينية بقبول آريوس فى الكنيسة حتى يكون ذلك نموذجاً تحتذى به بقية كنائس الإمبراطورية . وقد تأكد هذا فعلاً عندما طلب الإمبراطور إليه الإقدام على هذه الخطوة، وهدده يوسيبيوس بالسعى لدى الإمبراطور لعزله إذا ما رفض قبول آريوس (١٦٥).

على هذه الشاكلة انتقلت الفوضى من الإسكندرية إلى القسطنطينية، فانقسمت المدينة إلي فريقين، أحدهما يتمسك بقانون الإيمان النيقى، والآخر يناضل من أجل الآريوسية، وأدرك الإمبراطور خطورة الحال فدعا إليه إسكندر وآريوس وطلب إلى الأخير الاعتراف بقرارات مجمع نيقية والقسم على صحة إيمانه (١٦٦) ففعل، وقبل الإمبراطور منه صيغة إيمانه ودعا اسكندر إلى قبوله فى الكنيسة . ولكن هذا كان غير راغب فى ذلك تماماً، وتحرج موقفه أمام الإمبراطور الذى حدد يوماً يتم فيه ذلك على مرأى من الجميع، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث أن حلت فجأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦ .وعد خصومه وفاته دليلاً على الغضب الإلهى، كما جرت بذلك أقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم !! وإن كانت مسألة موته فجأة تنتظر رأى محكمة التاريخ (١٦٧) .

ولعلنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الإمبراطورى طيلة هذه السنين، الحقيقة أنه أخلد إلى الهدوء بعد مجمع نيقية إذا استثنينا أحداث ولاية أفريقيا .وقنع بقانون الإيمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصة بعد أن تضمن هذا القانون نصوصاً كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة . وبدا أن المشكلة برمتها لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير . فوقف من الأحداث موقف المتفرج . وكان الإمبراطور قرير العين بهذا السلوك . فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام . ولكن الغرب والإمبراطور لم يقدرا أنه لم تمض على وفاة قسطنطين

(165) Id.

(166) Id.

(١٦٧) لـلوقوف عـلى تفصيلات هذه القضية . راجع للمؤلف : مناقشات بيزنطية، الفصل المعنون "اغتيال آريوس" .

سنوات قلائل حتى يشمله ذلك الصراع، وكان لوجود أثناسيوس هناك منفياً أو من بعد هارباً أكبر الأثر فى ذلك . ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفاء قسطنطين المشكلة الآريوسية، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية، فترحل الآريوسية من الشرق مكرهة لتمكث فى الغرب قروناً للجرمان ديناً !!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عام واحد قدر له فيه أن يشهد هدوءاً مشوباً بالقلق فى أمر العقيدة، وراح يجتر أحلاماً داعبته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام . لقد حقق الإمبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة، ولكن " مبعوث الرب " عجز عن أن يضمن للكنسية وحدتها فتركها أكثر انقساماً من البدء وأشد فرقة، وراح ليموت والألم يعتصر فؤاده على عمر أفناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد!!

كان قسطنطين على قدر كبير من الذكاء، أدرك من خلاله إلى أين يتجه تيار المسيحية وقدرها، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة، وعرف كيف يفيد منها إلى أقصى درجة .

لقد شهد بعينى رأسه وهو بعد فى بلاط نيقوميديا رهينة، إصرار المسيحيين وعنادهم رغم الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهد دقلديانوس وجاليريوس قيصره، وتأكد ذلك بصورة أكثر وضوحاً خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس إلى مصر، وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، ولهذا أيقن بفطنته أن يداً رحيمة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها، وتخفف عنها ويلات آلامها يمكن أن تجعل منها أنصاراً مخلصين وجنداً أوفياء .

ولم يتردد فى الإقدام على هذه الخطوة بل سارع إليها على مهل واهتبل فرصتها فى روية، واستغل أخطاء، بل ربما حماقات خصومه ومنافسيه على العرش الإمبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمينيوس دازا وليكينيوس ليسحب الأرض من تحت أقدامهم، لقد عادى هؤلاء جميعاً المسيحيين ونكلوا بهم إن عنفاً أو فى هوادة، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للوثنية جديداً يمكن أن تنهض به، أو يبعثها من الرقاد .

كان قسطنطين حصيف الرأى، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنة وذكاء فاختار مستشاره للشئون الدينية من الغرب الإمبراطورى، هوسيوس أسقف قرطبة، وهو رجل ترضى عنه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك، وانتقى أيضاً مادحه ورئيس جهاز دعايته من النصف الشرقى، يوسيبيوس أسقف قيسارية فلسطين، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة، والذى حاز ثقة كل الأطراف والفرق الدينية المتصارعة . ولم تكن الصلة بين الإمبراطور والأسقف القيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الإمبراطورية، ولكن يوسيبيوس القيسارى كما تشير المصادر المعاصرة تعرف إلى قسطنطين وهو في طريقه إلى مصر فى حملة دقلديانوس . ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين في هذا الوقت المبكر، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما إزاء الآخر، وإن كان قد أفاد إمبراطور الغد كثيراً، فرسم للرجل فى مخيلته صورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح.

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن، أن لا يثير شكوك رعيته الوثنية، والتى تمثل جل إمبراطوريته، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذي وحد الإمبراطورية وأنقذها من ويلات الحروب الأهلية الطاحنة. حقيقة سمح للمسيحيين بممارسة طقوس عبادتهم، وأعاد إليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة، وأباح لهم حرية إقامة كنائس جديدة وإصلاح ما تهدم من دور العبادة تحت وطأة الاضطهاد وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين، وحقيقة أيضاً أصدر أوامره بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس في سياسته تجاه المسيحية، فلم يصدر ضد الوثنية مرسوماً عاماً بالاضطهاد أو بهدم المعابد الوثنية فى كل أنحاء الإمبراطورية، أو بإحراق كتبهم المقدسة، أو بسوق كهنتهم إلى العذاب زمراً، أو بتعقب الجموع الوثنية وحرمانها من ممارسة الطقوس نحو أربابها . بل إن هذه المعابد التي تم هدمها، لم يكن ذلك بصفتها الوثنية ولكنها كانت قد أمست مباءة فجور بعد أن هجرتها الأرباب إذ تخلى عنها عبادها !!

وفي الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحد المقدس عند المسيحيين وجعل

منه عيداً أسبوعياً، دعاه يوم الشمس ولم يدعه أبداً بيوم السيد وبينما جعل من لابرومة المسيح شعاراً له، استمرت العملة تصدر حتى سنة ٣٢٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر، وقبل كل هذا وذاك فإن وثيقة التسامح التى قدمناها باسم رسالة نيقوميديا، لم تقدم امتيازاً خاصاً للمسيحيين، ولكنها حملت لرعايا الإمبراطورية كلها حرية العقيدة الدينية .

لقد أدرك الإمبراطور بثاقب نظره أن نجم الوثنية إلى أفول، وأنها تسير بخطوات، وإن كانت وئيدة، إلى النهاية المحتومة . فلم يحاول أن يبعث فيها الحياة، ولم يتعجل يوم آخرتها، ولكن سياسته إزاءها ونجاة المسيحية كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإنسانية، ليس من الغريب أن يطلق عليها Moss فى كتابه The birth of the middle Ages الحد الفاصل بين عالمى العصور القديمة والوسطى.

وكان قسطنطين بارع الدعائية، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته، وأغدق عليها من فيض أنعمه، يبدى اهتمامه البالغ، بل وقلقه، من أجل الانشقاقات التى تحدث فى الكنيسة، ويدعو لعقد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى، ويحمل الأساقفة على المركبات العامة ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم، ويشترك فى مناقشتهم، ويرسل إلى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين . فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها، والملجأ لها والملاذ . ولكن قسطنطين طوال رحلة الحكم التى سارها وفى علاقته بالكنيسة، لم ينس مطلقاً أنه إمبراطور رومانى وأنه صاحب السلطان المطلق فى الإمبراطورية، وأن النظرية السياسية الرومانية لا يمكن أن تقبل مطلقاً بقيام هيئة مستقلة داخل الدولة، أو بمعنى أكثر دقة، دولة داخل الدولة، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنسية، وصدق على قراراتها،وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم، لقد أصبح الإمبراطور الآن رغم عدم اعتناقه المسيحية الأسقف الأعلى، بعد أن كان فى الوثنية الكاهن الأعظم . وإن ظل يحمل هذا اللقب الوثنى طيلة حياته، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الإمبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥-٣٨٣) .

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيداً مطلقاً لإمبراطورية موحدة،

قضى ثمانية عشر عاماً (٣٠٦-٣٢٤) فى سبيل جمع شتاتها . ولهذا فإن حدوث أى انقسام، فى هذه الجماعة الجديدة التى ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤدى بصورة ما إلى التأثير فى وحدة الإمبراطورية ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة، وانطلاقاً من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة طغت على السطح فى عهده، أعنى الدوناتية، ولهذا اتخذ جانب الكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالاً لجماعة الدوناتيين ولا حتى لسماع دعواهم، فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخر عن طريق إيجاد التوازن بين مختلف الأطراف، بحيث يصبح الإمبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينها، ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه، ويقبل منهم وثيقة إيمانهم دون الرجوع إلى الكنيسة . ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى إزاء المشكلة المليتية فى مصر، والذى جاء بوحى من الإمبراطور، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ إليها قسطنطين .

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حياً لهذه السياسة، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر، فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين، وإلى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة، هوسيوس أسقف قرطبة، النيقى المتحمس . وفى الناحية الأخرى يقف يوسيبيوس النيقوميدى الآريوسى العنيد، صاحب الحظوة لدى الإمبراطور بعد عودته من المنفى، وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوسيبيوس القيسارى، رجل الفكر المعتدل . وقد استطاع قسطنطين أن يوحى إلى هؤلاء جميعاً أنه " مبعوث الرب " الذى عهد إليه بإدارة الإمبراطورية، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء إلى شطآن النجاة . ولقد حاول قسطنطين الكثير ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة .ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيداً مما توقع قسطنطين .

كان بلاط قسطنطين على هذه الصورة يجمع بين النار والجليد، وظلت النار

ناراً تحرق، والجليد جليداً، فلا النار أذابت الجليد، ولا هذا أطفأ تلك، فقد كان قسطنطين يعرف كيف يحافظ كل على خاصيته، حتى إذا ودع دنياه ولم يكن لخلفائه ذكاؤه وكياسته، بل ودهاؤه، أذابت النار الجليد فلم تخلف إلا الوحل الذي غرقت فيه الإمبراطورية حتى آذانها قرون عددا.

أولاً: المصادر الأصلية

ATHANASIVS :

Apologia Contra Arianos: Nicene IV 2, 100 - 147 (= P.G. XXV 248 - 409).

Ad episcopos Aegypti et Libyae: Nicene IV 2, 223 - 235 (=P.G. XXV 537 - 593).

Ad Serapionem de morte Arii: Nicene IV 2, 564 - 566 (=P.G. XXVI 855 - 889).

Chronicon Athanasianum (The festal letters and their index): Nicene IV 2, 500 - 553.

Depositio Arii: Nicene IV 2, 69 -71 (= P.G. XXV 1, 601 - 695).

Epistola de decretis Nicaenae Synodi Contra Arianos : Nicene IV2, 150-172(= P.G. XXV 1.415- 476).

Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciae in Isauria celebratis: Nicene IV 2, 451 - 480 (= P.G. XXVI 681 - 793).

Historia Arianorum ad monachos, Nicene IV 2, 270 - 302 (= P.G. XXV 696 - 796).

Orationes Contra Arianos: Nicene IV 2, 306 - 447 (= P.G.XXVI 12 - 525).

AVGVSTINVS:

De baptismo Contra Donatistas: Nicene IV 1, 407 - 514 (P.L. XLIII 107 - 422).

Contra Cresconium grammaticum Donatistam: P.L. XLIII 445 - 594.

EVSEBIVS:

Historia ecclesiastica: Nicene I 2, 73 - 387 (= P.G. XX 45 - 906).

Vita Constantini: Nicene I 2, 473 - 580 (= P.G. XX 905 - 1232).

GREGORIVS NAZIANZENVS:

In laudem magni Athanasii epicopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269 - 280 (= P.G. XXXV 1081 - 1128).

Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328 - 334 (= P.G. XXXVI 213 - 238).

HIERONIMVS:

De viris illustribus: Nicene III 2, 359 - 384 (= P.L. XXIII 2, 601 - 720).

LACTANTIVS:

De mortibus persecutuorum: Ante-Nicene VII 301 - 322 (= P.L. VII 2, 189 - 276).

Patrologiae cursus completus, series, graeca. ed. Migne. Paris 1845 et sqq.

Patrologiae cursus completus, Series Latina. Ed. Migne. Paris 1844 et sqq.

RVFINVS:

Historia ecclesiastica: P.L.XX1 467-538.

SOCRATES:

Historia ecclesiastica: Nicene II 2, 1 - 17 (= P.G. LXVII 29 - 842).

SOZOMENOS:

Historia ecclesiatica: Nicene II 2, 239 - 427 (= P.G. LXXVII 843 - 1630).



SVLPECIV S SEVERVS:

Historia Sacra: Nicene XI 2, 71 - 122 (= P.L. XX 95 - 160).

THEODORETVS:

Historia ecclesiastica: Nicene III 2, 33 - 159 (= P.G. LXXXII 3, 881 - 1280).

ثانياً : المراجع الأوروبية الحديثة

Ante-Nicene Fathers. Ed. A. Roberts - J. Donaldson. Michigan 1892 et Sqq.

AULT (G.W.) :

Europe in the Middle Ages. Boston 1946.

ATIYA (A.S.):

A history of Eastern Christianity. London 1968.

BACKHOUSE (E.):

Early church history to the death of Constantine. London 1884.

BARDENHEWER (O.):

Les P

1899.

BAYNES (N.H.):

Constantine (C.A.H. vol. XII).

BOAK (A.E.R.):

A history of Rome to 565 A.D. New York 1956.

BULLOUGH (S.):

Roman Catholicism, London 1963.

BURCKHARDT (J.):

The age of Constantine the great, transl. By Moses Hadas. U.S.A. 1949.



BURKITT (F.C.):

The Christian church in the East, (C.A.H. vol. XII).

BUTCHER (E.L.):

The story of the church of Egypt. 2 vols. London 1897.

Cambridge Ancient History, ed. By J.B. Bury, S.A Cook; F.E. Adcock. 12 vols. Cambridge 1936.

Cambridge Medieval History, planned by J.B. Bury, 8 vols. Cambridge 1936.

CANTOR (N.):

Medieval history, the life and death of civilisation. New York 1956.

CARY (M.):

A history of Rome down to the reign of Constantine. London 1954.

The Catholic Encyclopedia, 15 vols. New York 1913.

COCHRANE (C.N.):

Christianity and classical culture, a study of thought and action from Augstus to Augustine. Oxford 1940.

CREED (J.M.):

Egypt and the christian church (Legacy of Egypt). Oxford 1947.

DAVIS (R.H.C.):

A history of Medieval Europe from Constantine to St. Louis. London 1919.

Dictionnaire de théologie Catholique. 15 tomes. Paris 1932 et Sqq.

A Dictionary of Christian Biography. 4 vols. Ed. By William Smith and Henry wace. London 1877.

DILL (S.):

Rome and Society in the last century of the Western empire. London 1919.

DOWNEY (G.):

A hisrory of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest. New Jersey 1961.

DUCHESNE (M.L.):

Histoire ancienne de l'glise. 3 tomes. Paris 1911.

DUDLEY (D.R.):

The civilization of Rome. New York 1962.

Encyclopaedia of religion and ethics. 12 vols. London 1925 et Sqq.

FLETCHER (W.):

Prolegomena (LACT. Mort. Pers.): Ante-Nincene Vll 3 - 7.

GIBBON (E.):

The decline and fall of the Roman empire, ed. By J.B. Bury in 7 vols. London 1929.

HARDY (E.R.):

Christian Egypt: Church and people, Christianity and nationalism in the Patriarchate of Alexandria. New York 1952.

HARTRANFT (C.D.):

Prolegomena (SOZOM. Hist. Eccl.): Nicene II 2, 181 - 234.

HEFELE (C.J.):

Histoire des conciles. 8 tomes. Paris 1907 et Sqq.

HUGHUS (PH.):

A history of the church, vol. 2, London 1948.

HULME (E.M.) :

The Middle Agaes. New York 1938.

JACKSON (B.):

Prolegmena (THEOD. Hist. Eccl.): Nicene III 2, 1-31.

JACKSON (F.):

The history of the christian church from the earliest times to the death of St. Leo the great A.D. 461.London 1909 .

JACKSON (S.M.):

The New Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge. 13 vols. Michigan 1967 et Sqq.

JONES (A.H.M.):

Constantine and the conversion of Europe. London 1948.

The Later Homan Empire 284 - 602. 3 vols. Oxford 1964.

LATOURETTE (K.S.):

A history of the expansion of christianity. 7 vols. New York 1937 et Sqq.

A history of christianity. London 1955.

LEBRETON (J.) __ ZEILER (J.):

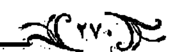
The history of the primitive church transl. In 2 vols. By Ernest C. Messenger. New York 1947.

LIETZMANN (H.):

From Constantine to Julian, a history of the early church. Transl. By Bertram Lee woolf. London 1960.

LOT (F.):

The end of the Ancient world and the beginnings of the Middle Ages. London 1953.



MCGIFFERT (A.C.):

Prolegomena (EVSEB. Hist eccl.): Nicene I2, 3-72.

MILNE (J.G.):

A history of Egypt under Roman rule. London 1924.

Nicene and Post-Nicene Fathers of the christian church, ed. By Philip Schaff and Henry Wace. Michigan 1891 et Sqq.

NOCK (A.D.):

The development of paganism in the Roman empire (C.A.H. Vol. XII).

OSTROGORSKY (G.):

History of the Byzantine state, transl. By Joan Hussy. New Jersey 1937.

PAINTER (S.):

A history of the Middle Ages 234-1500. New York 1954.

PALANQUE (J.) - BARDY (G.) - DE LABROILLE (P.):

Histoire de l'glise depuis les origines jusque nos jours. Tome III. Paris 1947.

PERCIVAL (H.R.):

The seven ecumenical councils: Nicene, vol. XIV. Michigan 1899.

RICHARDSON (E.C.):

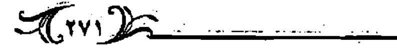
Introduction (EVSEB. Vita Const.): Nincene I 2, 411-369.

ROBERTSON (A.):

Prolegomena (ATHANAS. Opera omnia): Nicene IV 2, 11-87.

ROSTOVTZEFF (M.):

A history of the Ancient world. Transl. By J.D. Duff. Oxford 1933.



SCHAFF (PH.):

History of the christian church. 8 vols. Michigan 1956 et Sqq.

STEPHENSON (C.):

Mediaeval history, Europe from the second to the siteenth century. New York 1962.

THOMPSON (J.) - JOHNSON (E.):

An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965.

VASILIEV (A.A.):

History of the Byzantine empire 324-1453. 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

WARE (T.):

The Orthodox church. England 1964.

ZENOS (A.C.):

Introduction (SOCRAT. Hist. Eccl.) : Nicene II 2, 7-17.

ثالثاً : الكتب العربية :

✱ أسد رستم (دكتور) :

- كنيسة أنطاكية، مدينة الله العظمى، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٥٨ .
- الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، جزءان، بيروت ١٩٥٥.

✱ ج. ج. كولتون :

- عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف، القاهرة، ١٩٦٧.

✱ جلانفيل داونى :

- أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة الدكتور ألبرت بطرس، بيروت ١٩٦٨م .

✻ جورج سباين :

❑ تطور الفكر السياسي، خمسة مجلدات، المجلد الثانى، ترجمة حسن جلال العروسى، القاهرة، ١٩٦٤ .

✻ عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :

❑ مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية، القاهرة، ١٩٦١.

✻ عثمان أمين (دكتور) :

❑ الفلسفة الرواقية، القاهرة ١٩٧١ .

✻ كريستوفر دوسن :

❑ تكوين أوروبا، ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٧ .

✻ مصطفى كمال عبد العليم (دكتور) :

❑ اليهود في مصر فى عصرى البطالمة والرومان، القاهرة، ١٩٦٨م .

✻ نورمان بينز :

❑ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٧ .

✻ و.ج.دى بورج :

❑ تراث العالم القديم، ترجمة زكى سوس، القاهرة ١٩٦٥ .

✻ ول ديورنت :

❑ قصة الحضارة، المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٤ .

✻ يوحنا موسهيم :

❑ تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة، ترجمة القس هنرى هس، بيروت ١٨٧٥.



فهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس





الجزء الثالث

الدولة .. والكنيسة

قيصر والمسيح

د. رأفت عبد الحميد

الناشــر

دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب




الكتـــــاب : الدولة والكنيسة - القيصر والمسيح - (الجزء الثالث)

المـــؤلـــف : أ . د رأفت عبدالحميد

رقـم الإيـداع : ١٩٩٩/١١٩٩٢

الترقيم الدولى : I S B N

977-303-190-X

تاريخ النشـــر: ٢٠٠١ م

النـاشـــــر : **دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع (عبده غريب)**

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج امون - الدور الأول - شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس / ٦٣٧٤٠٣٨

التـــــوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ : ١٢٢ (الفجالة)

المـطـــابـــع : مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧







مقدمة الطبعة الثالثة

ليس أسعد إلى قلب مؤلف من أن يقدم إلى قرائه كتاباً تلقفته عيونهم وعقولهم بالثناء والتقريظ ، وليس أحب إلى نفسه من أن يضيف إلى ما علموه ما تعلمه هو نفسه فى مجال بحثه ودراسته من هنا تأتى سعادتى غامرة وأنا أقدم إلى قراء العربية ومكتبتها الطبعة الثالثة من الجزء الثالث من موسوعة الدولة والكنيسة .

والفترة التى يتناولها هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن ، فترة هامة وحرجة تمثل منعطفاً خطيراً فى تاريخ العلاقة الطويلة بين الدولة والكنيسة ، نعنى بذلك محاولة كل طرف تحديد الإطار ورسم الخطوط العريضة لهذه العلاقة ، ولما كان الفكر السياسى الرومانى ، كما علمنا من خلال الجزء الثانى من الموسوعة – يرفض قيام دولة داخل دولة ، ولما كانت الكنيسة لا تزال حديثة عهد بالتسامح الذى منحتها الدولة إياه ، وأنعمت بها عليه ، لم يكن من السهل ، أو بتعبير أكثر دقة ، من المستساغ أن ترفع الكنيسة رأسها معارضة ، ولا أن تقيم لنفسها كياناً مستقلاً داخل الدولة كما كانت تطمح وتطمع .

وهذا الكتاب يعالج بالتفصيل الدقيق ذلك الخلاف الجوهرى الذى كان قائماً بين طرفى العلاقة ، ومن ثم آثرت أن أستعير من المؤرخ الفيلسوف "ول ديورنت" ومؤلفه الضخم " قصة الحضارة " هذا العنوان الفرعى " قيصر والمسيح " لأضعه عنواناً إضافياً لهذا الجزء الثالث من الموسوعة لأنه يعبر بدقة كاملة عن واقع حال العلاقة بين الدولة والكنيسة ، ويبرز الأمور والسلطات البعيدة التى كان يحرص عليها " القيصر " ، أعنى الإمبراطور الرومانى فى إطار الشرعية والقوانين

الـــرومانية ، والمحاولات التى كانت تبذلها الكنيسة ، ممثلة آنذاك فى شخصية من أهـــم شخصياتها فى القرن الرابع الميلادى ، نعنى أثناسيوس الأسقف السكندرى ، الـــذى عاصـــر عـــدداً ليس بالقليل من الأباطرة ، وكان له مع كل منهم شأن غير الشأن.

ذلك مبلغى من العلم .. فإذا أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسى .

رأفت عبد الحميد محمد

الفاتحة

فى بداية القرن الرابع الميلادى كانت الكنيسة تكابد أشد ويلات الاضطهاد فى آخر رحلات العذاب على امتداد القرون الثلاثة الأولى من عمرها، تتلفت عن يمين وشمال علها تجد فى النجاة بارقة أمل، حتى إذا اعتلى قسطنطين العرش امبراطورا شريكا ثم فرداً، بسط للمسيحية راحتيه لتعلو بهما لا عليهما. وأقبلت إليه الكنيسة تفتح بالحب ذراعيها وترفعه بأقلام مؤرخيها إلى عليين. ولكنها فى الوقت ذاته وبنفس الذراعين أطبقت على فكر الإمبراطور وجهده ووقته طيلة حكمه لتغرقه فى جدلها اللاهوتى. وإذا كانت الدولة قد أفلحت فى أن تحتوى الكنيسة زمن قسطنطين سيادة، فإن الكنيسة نجحت فى أن تجر الدولة إلى تيه فكرها العقيدى.

فلما ارتحل عن الدنيا قسطنطين، وأفاقت الكنيسة، أرادت أن توجد لنفسها كيانا، مستغلة فى ذلك فرصة انتصار الدولة لها. ولكن الفكر الرومانى الذى كان يرفض قيام كيان مستقل داخل الدولة زمن الأباطرة الوثنيين، ظل دون تغير بعد أن مالت الدولة إلى المسيحية. بل إن الكنيسة فقدت فى ظل السيادة المسيحية للدولة شيئا كان يعد أهم خصائصها، وهو بحث أمورها العقيدية والتنظيمية دون تدخل من جانب الدولة، فلا نكاد نجد إمبراطورا واحدا منذ القرن الرابع حتى الخامس عشر، عمر الإمبراطورية البيزنطية، إلا وأدخل أنفه وأصابعه فى ذلك الجدال الكريستولوجى.

وإذا كان قسطنطين قد استطاع بمقدرته وكفاءته أن يبسط سلطان الدولة على الكنيسة، فإن أبناءه وخلفاءه المباشرين لم يكن لهم شئ من ذكاء سلفهم ومهارته السياسية، فأعطوا بذلك الفرصة للكنيسة على امتداد نصف قرن من الزمان أن ترفع الرأس معارضة بل متحدية. وتولت كنيسة الإسكندرية فى شخص أسقفها أثناسيوس مهمة قيادة عالم المسيحية خلال هذه الفترة.

ولما كنت قد خصصت الكتاب الثانى من الدولة والكنيسة للحديث عن

الإمبراطور قسطنطين من خلال العلاقة بين الوثنية والمسيحية ، فقد رأيت أن أفرد الكتاب الثالث هذا للأسقف السكندرى أثناسيوس. وتناولت من خلال شخصيته، وأسقفيته الطويلة، وعقيدته، وفكره، وسياسته، علاقة الدولة بالكنيسة أبان هذه الفترة التى تعد من أهم الفترات فى تاريخ العلاقة بينهما.

فلقد رفض أثناسيوس بعناد قبول الآراء الآريوسية، وأعلن تمسكه منذ البداية بالعقيدة التى وضعها أساقفة مجمع نيقية سنة ٣٢٥ والتى ذاعت باسم العقيدة النيقية، تلك التى أضحت تشكل مع أثناسيوس جوهرا واحدا. وكانت الآراء الآريوسية محور جدال القرن الرابع كله، ومن خلال التصدى لها أخذ الأسقف السكندرى مكانه إلى الصفوف الأولى فى زعامة الكنيسة، ومن ثم ليس عجبا أن نقول إن الآريوسية كانت طريق أثناسيوس إلى عالم الشهرة والزعامة.

ذلك أن أسقف الإسكندرية كان لابد له أن يصطدم بأساقفة الآريوسية وأباطرتها، وإذا كان نفر من رجال هذه العقيدة قد حاربوا أثناسيوس دفاعا عن فكر آمنوا به حقا، فإن طائفة أخرى نشأت كنمو طبيعى للعلاقة الجديدة بين الدولة والكنيسة أطلقنا عليهم "أساقفة البلاط" راحوا يصارعون الرجل من أجل الزعامة الكنسية والسلطان وكان هناك بالمثل عند النيقية أساقفة لعبوا الدور نفسه . ولا شك أن أساقفة القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى، يوسيبيوس النيقوميدى، ويودوكسيوس، وديموفيلوس، الذين عايشوا عهد أثناسيوس، كانوا ينظرون بعين الحقد والكراهية والغيرة إلى كنيسة الإسكندرية، وكان أولهم أشد لها مقتا ولأسقفها حسدا.

فقد كان هؤلاء الأساقفة يدركون أن "روما الجديدة" لا يمكن أن تقترب مكانة من الاسكندرية، وأن كنيستها المحدثة ما زالت فى طور الطفولة أمام حاضرة الفكر. ولم يكن للقسطنطينية من سند يدعمها فى هذا الصراع الكنسى من أجل الزعامة، إلا أنها عاصمة الإمبراطورية ومستقر الأباطرة، ولذا رأى أساقفة العاصمة أن يستعدوا على كنيسة الإسكندرية، فى شخص أسقفها، الأباطرة من قسطنطين الكبير إلى فالنز، خاصة وأن أثناسيوس كان يشكل حجر عثرة فى سبيل انتصار الآريوسية، لا فى مصر وحدها بل فى الغرب الإمبراطوري أيضا.

ولقد صادفت هذه النغمة من جانب الأساقفة السياسيين هوى فى نفوس الأباطرة، قسطنطين الكبير، وولده قسطنطيوس، وفالنز. وقد أقاموا جميعا حكمهم على أسس استبدادية. وتمكن هؤلاء الأساقفة مستغلين سلوك أثناسيوس فى أسقفيته وتجاههم وتجاه الأباطرة، أن يصوروا لهؤلاء أن أثناسيوس يقف عقبة كأداء فى سبيل إتمام سيادة الدولة على الكنيسة. من أجل هذا، وللخلاف العقيدى بين قسطنطيوس وجوليان وفالنز من ناحية والأسقف السكندرى من ناحية أخرى، والذى تحول إلى عداء شخصى، تعرض أثناسيوس للطرد من أسقفيته خمس مرات تباعا.

ولكن أثناسيوس لم يقف مكتوف الأيدى أمام سياسة الأساقفة والأباطرة؛ إذ اتبع سياسة معينة تحقق له نجاح فكره، وترسم حدود علاقته بالدولة، وأقام دعائم سياسته هذه على ركيزتين أساسيتين، الغرب الإمبراطوري بإمبراطوريه على التوالي؛ قسطنطين الثانى وقنسطانز، وأساقفته واكليروسه وعاطفة الجموع من ناحية، وجموع الرهبان فى مصر وشعب الكنيسة فيها، وكتاباته من ناحية أخرى.

ولم يكن أثناسيوس هو الذى اختار فى المرحلة الأولى معالم الطريق، ولكنه القدر. إذ أبعده الإمبراطور قسطنطين إلى الغرب طريدا سنة ٣٣٥، وهنا أشار أثناسيوس للقدر أن دوره قد انتهى، وأمسك هو بخيوط الطريق، حتى أفلح فى النهاية أن يخرج لنفسه نسيجا متينا، ذلك أن أثناسيوس شعر بأن أساقفة الآريوسية قد جعلوه وحيدا فى معزل، بعد أن وقف الشرق كله يناصر عقيدة آريوس، وبصفة خاصة بعد موت قسطنطين، فى الوقت الذى ظل فيه الغرب بأسره محافظا على الإيمان النيقى، ولهذا اختار أسقف الإسكندرية بنفسه الغرب مكانا لمهربه فى نفيه الثانى، وساعده على ذلك، وكان فى الوقت ذاته من عوامل نجاحه، أن الغرب نأى بنفسه منذ الوهلة الأولى عن هذا المعترك اللاهوتى الدائر جدالا من حوال المسيح، ورأى فى أثناسيوس الذى بقى طيلة حياته حريصا على الإيمان النيقى، أسقفا ليس بالغريب عنه فأعطاه ثقته ووقف من ورائه مؤيدا.

على أن الأهمية الحقيقية لهذا التأييد تمثلت فى أن ولدى قسطنطين فى الغرب، قسطنطين الثانى وقنسطانز آمنا بما دانت به رعيتهم، وتابعا الاقليم فى

عقيدته، دون أن يدركا من أمر الجدال اللاهوتي شيئًا، فلما قتل قسطنطين الصغير، انفرد قنسطانز بالحكم في هذه المنطقة الشاسعة من الإمبراطورية بعد أن ضم إليه أملاك أخيه القتيل، ونصّب من نفسه حاميا للنيقية. وتمكن أثناسيوس من أن يحوز ثقة الإمبراطور إلى الحد الذي دفع هذا إلى أن يستل سيفه مهددا باستخدامه ضد أخيه في الشرق من أجل أثناسيوس!

لقد كان الهدف الحقيقي للأسقف السكندري في هذه المرحلة أن يكسب إلى جانب قضيته عالم الغرب كله، الجموع والاكليروس والإمبراطور، ضد الإمبراطور الآريوسي وأساقفة بلاطه. وقد نجح في ذلك حقا بانعقاد مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ وعودته إلى الإسكندرية ظافرا. وكانت دلالة هذا النجاح البالغة أن أثناسيوس كسب إلى صفه أساقفة روما على التوالي يوليوس وليبريوس وداماسوس، والأسقف القرطبي هوسيوس، والذي يلفت النظر حقا هو أنه ضم إلى صفه رجل الغرب الشهير هيلاري أسقف بواتييه، الذي سخر قلمه دفاعا عن أثناسيوس وقضيته، ونفي من أجله، رغم أن أسقف غالة هذا لم يلق الأسقف السكندري مرة واحدة، ورغم أن أثناسيوس لم يعرف عن هيلاري شيئًا، بل ربما لم يسمع عنه مطلقا!!

أما المرحلة الثانية، أو الدعامة الأخرى فهي لا تقل عن الأولى أهمية بل تفوقها، ولكنها تختلف عنها في أن أثناسيوس أقدم عليها وهو مدرك تماما لما يفعل، بل قصد إلى ذلك بالوعي كله، عندما راح يذرع مصر كلها من فم النيل إلى طيبة، منذ اليوم الأول لاعتلائه كرسي الأسقفية، تدعيما لسيادته.

لقد كانت مصر تشهد آنذاك حركة فريدة في عالم المسيحية، فقد امتلأت فيافيها والقفار بجماعات عديدة من الرهبان، انتشروا ما بين صحراء وادي النطرون إلى ما بعد طيبة، كان هؤلاء قد خرجوا إلى الصحراء هربا من الاضطهادات التي أنزلها الأباطرة الوثنيون بساحة المسيحيين. فلما انقشعت غمة الاضطهاد، عاد بعض إلى سابق عهدهم بالحياة، بينما آثر عدد كبير منهم البقاء، وقد استهوت هذه الحياة الكثيرين بما أحاط الرهبان به أنفسهم من مسوح الزهد

والتقشف، فتبعهم عدد جم من الجموع المسيحية إلى الصحراء، عاش بعضهم متوحدين فى صوامع متفرقة، وأنشأ الآخرون لأنفسهم أديارا، كان على رأسها زمن أسقفية أثناسيوس الأديرة الباخومية.

وبالايمان البسيط البعيد عن اعمال الفكر، حيا هؤلاء الرهبان، فقد كان معظمهم، إن لم يكن كلهم، قليل الثقافة، فتعصبوا بشدة لعقيدتهم، وبنفس القدر من الكراهية التى حملها هؤلاء لأباطرة الرومان الوثنيين. امتلأت نفوسهم مقتا للآريوسية وأباطرتها، فلم يكونوا بالدرجة التى تمكنهم من فهم آراء آريوس وعقيدته، وكان ذلك هو الباب الذى فتح على مصراعيه ليصل به أثناسيوس إليهم وليكون إليهم قريبا محببا، رأوا فيه صورة إيمانهم، وفى نزاعه مع الأباطرة تجسيدا لآلامهم والآمال. وساعد أثناسيوس على ذلك أنه، على الرغم من عدم إلمامه بالثقافة المصرية، كان على قدر من المعرفة كبير باللغة المصرية القديمة، لسان الرهبان، ومن ثم وضع أسقف الإسكندرية نفسه على رأس هذه الحركة الرهبانية، واتخذ منهم سندا ومعينا، وآوى إليهم من فترات نفيه الخمس ثلاث مرات، ووجد فيهم قوة هائلة يتحدى بها سلطان الأباطرة، وخاصة بذلك التنظيم الدقيق لديهم والسرية التامة التى كان يقتضيها الحفاظ على حياة الأسقف السكندرى. ولهذا كان نجاح أثناسيوس فى هذه الناحية يفوق بكثير نجاحه فى سابقتها.

وكان أنطونيوس أبو الرهبان صديقا للأسقف مخلصا، جاء إلى الإسكندرية ذات مرة ليعلن أمام الجميع وقوف الرهبان إلى جوار الأسقف، بل إن أشد الناس قربا لأثناسيوس كان الراهب سرابيون، وقد جعل منه أثناسيوس سفيرا له فى أخطر المراحل التى تعرض لها الأسقف السكندرى، وملأ جل الأسقفيات بهؤلاء الأنصار. وإذا أدركنا ذلك النفوذ الكبير والتأثير العميق الذى يتركه الرهبان فى جموع المسيحيين عندئذ، علمنا إلى أى حد كان هؤلاء الرهبان يشكلون قوة لا يستهان بها، أو على حد تعبير أحد المؤرخين "جيشا كبيرا".

وسط هؤلاء الرهبان وفى حماهم كتب أثناسيوس جل أعماله التى خلفها

لـــنا، ووجـــه معظمها وأهمها إلى ساكنى الأديار والمتوحدين، رمز اعزاز وتقدير، وحـــثا عـــلى الـــتراص وراءه ضد أباطرة بيزنطة والعقيدة الآريوسية. وكان قلم أثناسيوس سلاحا هاما فى معركته هذه ضد الإمبراطورية.

بهذيـــن الجـــناحين، الغـــرب ورهبان مصر، وبقلمه كذلك، نجح أثناسيوس فى سياســـته. لقـــد كان الأسقف يعرف تماما قدر مدينته ومكانة كنيسته، لقد كانت من قبل عاصمة إمبراطورية شاسعة، ومركزا لثقافة وفكر عالم الهلنستية، فلما جاءتها المسيحية أخـــرجت كنيســـتها لهذا العالم الجديد كلمنت وأوريجن وديونيسيوس. ومن هنا أيقن أن رومـــا الجديدة ما تزال حديثة عهد سياسيا وعقيديا، فلم تر الوجود إلا فى القرن الرابع على يد قسطنطين، أما الاسكندرية فقد سبقتها إلى الحياة منذ ستة قرون وينيف، ومن ثم لـــم يكن ليسمح لهذه المدينة الجديدة، حتى لو كانت عاصمة الإمبراطورية، التى يعتبر هـــو أحـــد رعاياهـــا، أن تتعالى على مدينته وأسقفيته، وبهذا الواقع وبستار العقيدة من الخصـــوم، تحدى أثناسيوس يوسيبيوس النيقوميدى ويودوكسيوس وديموفيلوس، وتحدى فيهم ومعهم قسطنطين وقسطنطيوس وجوليان وفالنز.

لقد رأى فيه الأباطرة منافسا خطيرا، أشد مقتا من مدعيى العرش، كما حدث بذلـــك قســـطنطيوس وجوليـــان. وعلى الرغم من رحلة النفى المتتابع التى سارها أثناسيوس، إلا أن الأسقف كان مزهوا تماما وهو يرى الاسكندرية، التى ظهر فيها آريوس يبشر بدعوته، ليس للآريوسيين عليها سبيل.

ولقـــد اعـــتمدت فى هذا الكتاب على كل المصادر التاريخية المعاصرة التى توفـــرت لى، وفى مقدمـــتها كـــتابات أثناسيوس كلها. والتواريخ الكنسية لكل من يوسيبيوس القيسارى وسقراط وسوزومنوس وثيودوريتوس وروفينوس. والمؤلفات العقيديـــة والـــتاريخية للاهوتى كبادوكيا الثلاثة الشهيرين، جريجورى النازيانزى. وجـــريجورى أســـقف نيسا وباسيليوس أسقف قيسارية الكبادوك إلى جانب أعمال كيـــرلس الأورشـــليمى وجيروم وجناديوس، ورجل الغرب الشهير هيلارى أسقف بواتييـــة ومؤرخ غالة سولبكيوس سفروس، والمؤرخ الوثنى أميانوس ماركللينوس.

بالإضافة إلى عدد من مخطوطات دير سانت كاترين العربية، ومجموعة ضخمة من المراجع الأوروبية الحديثة التى تعد على جانب كبير من الأهمية.

ورغم وفرة المادة التاريخية فى هذه المصادر الأصلية، إلا أنها تشكل للباحث المنصف صعوبة بالغة. تتمثل فى كونها تقف كلها إلى جانب أثناسيوس والعقيدة النيقية. تتحدث عن الآريوسية باعتبارها هرطقة يجب القضاء عليها، ومن ثم حاولت جهدى أن أكون موضوعيا بما تفرضه على الأمانة العلمية وحدها، وأن أخرج من وسط هذه الحيثيات المنحازة بأحكام محايدة. وأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا السبيل.

والآن.. يسعدنى أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى. عرفانا وإعزازا. إلى أساتذتى الأجلاء الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد رئيس قسم التاريخ بآداب عين شمس والأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق رئيس قسم التاريخ بآداب الإسكندرية. والأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ العصور الوسطى بآداب الإسكندرية. لما أولونى من رعاية كاملة وتوجيه. والأب الدكتور جورج قنواتى رئيس دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة. ونيافة الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمى والدراسات العليا بالكرازة المرقسية. والدكتور حسن عبد الله رئيس مكتبة المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية. والأستاذ أحمد عيسى مدير المكتبة العامة بجامعة القاهرة. والأستاذ يوسف شكرى المراقب العام للمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية. لهؤلاء جميعا ولكل العاملين وأمناء مكتبات المعهد العالى للدراسات القبطية. والكلية الاكليركية. والدير. والمتحف القبطى بالقاهرة. وجامعات عين شمس والقاهرة والإسكندرية. كل الثناء.

ومع إن كلمة تقدير غير كافية . . .

إلا أني أحمل لهم جميعا فى نفسى كل التقدير.

القاهرة فى أول أغسطس ١٩٧٧

رأفت عبد الحميد





الفصل الأول

الإسكندرية الفكر والحياة



الفصل الأول

الإسكندرية: الفكر والحياة

كانت الإسكندرية تعد أهم مراكز الحضارة الهلنستية فى عالم المتوسط. فلقد سادت لغة اليونان والحضارة بلاد الشرق عامة، وكانت مدائن الإسكندر الأكبر التى أقامها فى رحلته الحربية إلى أقصى الشرق، مراكز إشعاع تنقل فكر الإغريق إلى حضارات الأقدمين فى سوريا ومصر وبابل. ولكن منارة العلم والمعرفة فى إسكندرية مصر كسفت ضياء أولاء اللدات، وأضحت قصبة الشرق اليونانى والعالم الهلنستى. يقول تارن Tarn "كانت الإسكندرية أعظم مدينة فى العالم المعروف آنذاك، فقد ظهر فى الممالك الهلنستية العديد من دور الكتب فى أنطاكية Antiochia وبرجامة Pergamum ورودس Rhodos وغيرها، ولكن مكتبة الإسكندرية ذاع صيتها وفاق كل أولاء. وإذا كانت أثينا قد أبت إلا أن تحتفظ لنفسها بالفلسفة منذ زمان، فقد سمت الإسكندرية وحجب سناؤها بريق أثينا، وأضحت قبلة العلوم والآداب يشد إليها الدارسون الرحال[١]. ويضيف طومسون Thompson، "هناك فى العالم الهلنستى، مصر وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، تقف الإسكندرية بمكتبتها العامرة كعبة هذا العالم، يقصدها حجيج العلم والأدب وهى تختلط بهم وتموج زاهرة[٢]. لقد كانت الإسكندرية، كما يقول بوركهارت Burckhardt تمتاز بعلو كعب القيم والمثل الإغريقية. وفى تلك الآونة لم يكن هناك مدينة فى العالم الهلنستى يمكن أن تقارن بالإسكندرية روحا ومادة[٣]. وكتب فازيلييف Vasiliev " لقد علت فوق الجميع إسكندرية مصر مركزا يفيض بواسع الأثر وأعمقه بهاء وعظمة"[٤]. يتقاطر عليها الفلاسفة والمفكرون وعلماء الرياضيات والشعراء والفنانون من كل البقاع[٥].

---

(١) انظر Hellenistic Civilisation, p269. ، وكذلك Bardenhewer, Les Pères de L'église,I, p236.

(2) An introduction to Medieval Europe, p. 3.

(3) The age of Constantine the great, p. 110.

(4) A history of the Byzantine Empire. I, p. 117.

(5) Duchesne, Early history of the Christian Church, I, p. 238.

وأيضا المقال الذى كتبه J. Faiver تحت مادة Alexandrie فى

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, II, col. 290.

وفى عام ٣١ ق. م فقدت مصر استقلالها السياسى كقاعدة لإمبراطورية البطالمة، وذلك على أثر انتصار القنصل الرومانى أوكتافيوس Octavius على خصمه ماركوس انطونيوس Marcus Antonius وملكة مصر كليوباترة Cleopatra فى موقعة أكتيوم Actium على الساحل الغربى لبلاد اليونان، وتخلت الإسكندرية بالتالى كارهة عن مكانتها السياسية كعاصمة لهذه الإمبراطورية، وأضحت مجرد عاصمة ولاية، أعلن أوكتافيوس ضمها إلى سلطان الشعب الرومانى، وإن كانت لها بعض الخصائص التى تفوقت بها عن سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية(٦).

وكانت الإسكندرية بالنسبة للرومان بابهم إلى مصر، كما كانت هذه موردهم الأساسى من الغلال، وحتى عندما انتقلت عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية على شاطئ البسفور عام ٣٣٠، بقيت لمصر هذه الأهمية التى تجلت بشكل واضح فى قول المؤرخ جونز Jones "لو أننا سألنا أيا من أباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالإمبراطورية. لأجاب على الفور ، القمح والنقود"(٧). كما أن الإسكندرية على حد قول المؤرخين جونسون Johnson ووست West "لم تنس فى يوم من الأيام أنها كانت عاصمة إمبراطورية البطالمة"(٨).

وطوال عهدها الرومانى، ظلت الإسكندرية على حالها تباهى أثينا الفلسفة، خاصة وأن الرومان منذ استيلائهم على الإسكندرية شجعوا الدراسة بالمتحف، وأضافوا إلى كراسى الأساتذة فيه كراسى خاصة بالفلسفة اليونانية فى مدارسها الأربع: الأفلاطونية والمشائية والرواقية والأبيقورية. هذا علاوة على المدارس الخاصة بتعليم الفلسفة والتى قامت بالإسكندرية قبل العصر الميلادى(٩). وهكذا

(٦) عن هذه الاحداث كلها راجع: دكتور عبد اللطيف أحمد على، التاريخ الرومانى، ص٣٤٢ إلى ص٣٦٢. وراجع كذلك لنفس المؤلف. مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص ٢٠ ـــ ٥٧. انظر أيضا: دكتور ابراهيم نصحى، مصر فى عصر البطالمة جـــ١: ص ٣٠٧ ـــ ٣٣١.

(7) Egypt and Rome (Legacy of Egypt) p. 283.

(8) Byzantine Egypt, p. 4.

(٩) انظر دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، ص ٨٦.

قدمت فيلسوفها الشهير فيلون Philon (٣٠ ق.م ــ ٤٠م) الذي عمل على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعهد القديم(١٠). حيث كان يطالع كتب الفلاسفة بعقل المؤمن، ويغطى ــ إذا صح القول ــ أحداث الوحي والإيمان بمعانى الفلاسفة، رابطا بين النوعين من المعانى ربطا عجيبا، مؤلفا بينهما هذا التأليف الذى عرف فيما بعد باسم التأليف أو التأويل الرمزى(١١). ويقول عنه المؤرخ الكنسى يوسيبيوس Eusebius انه بز كل معاصريه تضلعا من الفلسفة الأفلاطونية(١٢). وأهدت الإسكندرية إلى روما وأروقة الحكمة فى منتصف القرن الثالث للميلاد، أفلوطين Plotinus (٢٠٥- ٢٧٠) والأفلاطونية المحدثة(١٣) Neo-Platonism. وقد عمل أفلوطين صراحة على إنشاء فلسفة كاملة بعوامل من التفكير الفلسفى اليونانى وحده وبعوامل أفلاطونية أصيلة(١٤). وذاع باسمه صيت معلمه أمونيوس ساكاس Ammonius Saccas (١٧٤- ٢٤٣) رجل الإسكندرية والفيلسوف المقتدر(١٥).

غير أن الأقدار أخذت تخط للإسكندرية طريقا آخر فى عالم جديد، مذ

(10) Copleston, A history of philosophy, I, p. 29.

(١١) انظر دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، ص ٩٢.

(١٢) انظر EVSEB Hist. Eccl. II, 4. وراجع أيضا HIER. Vir. ill II.

(13) Nock, The development of Paganism in the Rom. Emp. (C. A. H.), XIL, Pp. 438 – 442.

وعن الفلسفة الأفلاطونية راجع ما كتبه W. R. Enge: فى Encyc. Of Religion and Ethics. IX, p.307، والحقيقة أن الامبراطورية الرومانية كانت فى نهاية القرن الثالث الميلادى قد وصلت إلى حالة من الانهيار تمثلت فى كل جانب من جوانب الحياة، وفقد الرومان الثقة بالأرباب وراحوا يبحثون عن العزاء فى الأسرار التى تتميز بها الديانات الشرقية. ولذا جاءت الأفلاطونية المحدثة محاولة فى هذا السبيل لتخرج الناس من هذا العالم الكئيب الذى تحيط بهم فيه الأخطار من كل مكان، غير أن هذه المحاولة سرعان ما أفسحت مكانها للعقيدة المسيحية. وكانت الإسكندرية هى مهد هذه المدرسة التى تعد الأخيرة للفلسفة الوثنية. وساعد على نشأتها فى الإسكندرية أن هذه المدينة كانت تموج بشتى العقائد من الوثنية واليهودية والمسيحية، ويعتبر أمونيوس ساكاس هو مؤسس هذه المدرسة فى الإسكندرية، وان كانت شهرتها الحقيقة قد ذاعت على يد تلميذه أفلوطين الذى كانت فلسفته تتلخص فى الزهد والتصوف كى تتحرر الروح من سجنها الجسدى.

(١٤) انظر: دكتور نجيب البلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، ص ٩٦.

(15) HIER.Op.cit.55.

راحت تستقبل أول مبشر فيها بالمسيحية، القديس مرقس الإنجيلى مع بداية النصف الثانى من القرن الأول، وأقام بها أسس العقيدة المسيحية والكنيسة[١٦]. ولم يكن للإسكندرية أن تتخلى فى ظل الدين الجديد عن مركزها المرموق ومكانتها فى آفاق الفكر والفلسفة. ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة، ساعدها على ذلك أن سلطان أثينا من الناحية الفلسفية، أخذ يضعف منذ أواخر العصور القديمة، وذلك بعد انتشار الفلسفة وشيوعها فى حوض البحر المتوسط بين آسيا الصغرى وروما. ثم كانت الإسكندرية مركزا لهذا الانتشار والانتقال، وأضافت إلى ذلك ميزة أخرى هى الجمع بين تلك المعانى التى ابتكرها فلاسفة أثينا، والمعانى والقيم الدينية من ناحية أخرى، ميزة الجمع بينهما والتوفيق والتلفيق[١٧]. وقدر لها بذلك أن تؤدى فى المسيحية دورا بارزا. انتشارا وفكرا . إلى الحد الذى دفع المؤرخ كريد[١٨]. Creed إلى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر ، وليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا، من الإسكندرية.

وليس من المبالغة فى شئ القول إن الإسكندرية كانت تمثل عقل العالم المسيحى[١٩]. الذى قدم له تراثا صبغ كل فترات تاريخه الفكرى، معتمدا اللاهوت العلمى الأفلاطونى [٢٠]. فقد كانت فلسفة الإسكندرية قبل كل شىء فلسفة دينية ترجع إلى أفلاطون الإلهي وبنوع خاص إلى فلسفته الإلهية الدينية. تلك التى عمل

---

(16) Hier.Vir.ill.

وراجع كذلك Evseb. Hist. Eccl. II, 16

(١٧) انظر: دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها، ص ٦١ ــ ٦٢.

(18) Creed, Egypt and Chirstian Church, (Legacy of Egypt) p. 300.

(١٩) راجع ما كتبه Coxe فى تقديمه لأعمال كلمنت السكندرى ضمن مجموعة :

The Ante-Nicene Fathers, II, Pp 165 – 169.

(٢٠) انظر Bardenhewer, op. cit. I, p. 236; Creed, op. cit. p300.

وراجع كذلك Copleston, A history of Philosophy, I, p. 29.

على بيانها فى بعض محاوراته خاصة "فيدون" و "طيماوس"[٢١]. وقد تولت الفرق الغنوصية[٢٢]. Gnostics أو ما تعرف بالأدرية، إخضاع العقائد اليهودية والمسيحية للتفكير الحر، تناقش حول طبيعة المسيح، وتنتهى إلى الثنوية فى الألوهية.

وكان لابد من قيام عدد من الآباء المسيحيين للرد على هذه الأفكار، وكان عليهم أن يستخدموا نفس الأسلحة التى يشهرها الفلاسفة الوثنيون. وحمل لواء هذا الاتجاه الجديد مدرسة الإسكندرية المسيحية، أو مدرسة الموعوظين Catechesis التى ذاع صيتها باسم مدرسة المدافعين Schola apologetica وهى تعد دون شك أول معهد علمى ذا أهمية كبرى للدراسات اللاهوتية فى عالم المسيحية الأول، وأضحى آباء هذه المدرسة مسئولين عن صياغة اللاهوت المسيحى[٢٣]. ووضع التفسيرات والشروح والتعريفات المحددة للأرثوذكسية[٢٤]. ومن الخطأ حصر اهتمامات هذه المدرسة فى الجدل اللاهوتى وحده، فقد كانت تقدم عديدا من الدراسات الإنسانية والعلوم والرياضيات، وإن كان اهتمامها الأول فى عصر الإيمان، الإيمان[٢٥]. حتى يمكن أن نشبهها بالجامعة فى احتوائها على فروع المعرفة الإنسانية المختلفة، بل إن أوريجن Origenes (١٨٥ ــ ٢٥٤) نفسه، أشهر أساتذتها على الإطلاق[٢٦]. كان يضمن دروسه محاضرات فى المنطق والجدل والعلم الطبيعى والهندسة والفلك،

---

(٢١) انظر: دكتور نجيب بلدى: تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها. ص٦٢ وما بعدها.
وقارن Neander, History of Christian dogmas, I, p. 37

(٢٢) وهى إحدى الفرق التى ظهرت فى المسيحية فى قرونها الأولى. وهى تعتمد المعرفة (Gnosis) أساسا، لا الإيمان، طريق الخلاص. وإن كان الإنسان بنفسه عاجزا عن إدراك أسمى مراتب المعرفة، ولكنها مع ذلك تصل إليه بواسطة كائن يأتيه من العالم العلوى. وقد أنكرت الغنوصية ما أحاط بشخص المسيح وأعماله من معجزات، وتمثلت حياته الذاتية كنتيجة لفيض أو انبثاق من الكائن الأعلى.
انظر Encyc. of Relig. And Eth. P231.
وأيضا Chadwick, The Early Church, pp. 33 – 41. وكذلك Copleston, op. cit. 34 – 36

(23) Roncaglia, histoire de l'eglise Copte, I, pp. 139 – 149
وراجع أيضا Bardenhewer, op. cit. 236 وكذلك Atiya
A history of Eastern Christianity, p. 33.

(24) Coxe, op. cit. p.166

(25) Atiya, op. cit p. 33

(٢٦) انظر بعده ، وراجع للمؤلف ، الفكر المصرى فى العصر **المسيحى** ، **الفصل** الثانى.

دعامة لطلاب الأخلاق واللاهوت[٢٧]. وهكذا نشأ إلى جوار مدرسة الإسكندرية الشهيرة بفلسفتها وآدابها التى كانت تضارع بها مدارس الفلسفة فى أثينا، مدرسة جديدة للفكر المسيحي، وحرصت على أن تدخل فى برامج دراستها مختلف فروع المعرفة الإنسانية فى العلوم والآداب إلى جوار مهمتها الأصلية فى المسائل اللاهوتية، حتى تجذب إليها فكر الناشئة والدارسين.

ويحدثنا جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus عن أخيه قيصر Caesarius قائلا إنه جاء إلى الإسكندرية ليتلقى تعليمه فى مدرستها التى تعد مركزا لكل فرع من فروع المعرفة[٢٨]. كما أن جريجورى نفسه قدم إلى الإسكندرية ليستكمل دراسته[٢٩]. وكان أهم ما يشغل بال القائمين بأمرها، خاصة فى المسائل اللاهوتية، مجابهة العديد من الديانات السائدة، مثل عبادات الربة كيبيلى Cybele الأم الفريجية العظيمة Magna Mater، وايزيس المصرية، ومثرا الفارسى، وآراء الغنوصيين، وديانات فارس والهند والحبشة، وأفكار أولئك الخارجين على الكنيسة[٣٠].

على أنه مما يسترعى الانتباه أنه رغم أن هذه المدرسة كان يرأسها عادة شيوخ الكنيسة الذين ارتفع بعضهم إلى كرسى الأسقفية، إلا أن الجموع المسيحية لم تتأثر بها مطلقا[٣١]. وربما يعود ذلك إلى أن الشكل الرمزى، وحركة التفسير المجازى لنصوص الكتاب المقدس والتى كانت تتبعها المدرسة فى مسائل الجدل اللاهوتى، لم تكن تستهوى الكثيرين آنذاك[٣٢]. وليس أدل على ذلك من أنه مع نهاية القرن الرابع للميلاد، دخلت المدرسة فى طور من الغموض، ولم نعد نسمع

---

(٢٧) انظر المقال الذى كتبه Burkitt تحت عنوان :
The christian church in the East, (C.A.H.XII,p.479).
(28) GREG. NAZ. ORAT, VII, 6, 7
(29) Ibid. XVIII, 31
(30) Zananiri, Histoire de l'église Byzantine, p. 23.
(31) Duchesne, op. cit. I, 358.
(32) Vasiliev, op. cit. I, p. 118.

عنها شيئا بعد ذلك[٣٣]. فى الوقت الذى ظلت فيه مدرسة أنطاكية اللاهوتية زاهرة حتى القرن الخامس، تلك التى كانت تعتمد العقل فى تفسير الكتاب المقدس، حيث ازدهرت على يد رجلها الأشهر يوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomos (٣٤٥-٤٠٧) ، تلميذ الفيلسوف الأنطاكى ليبانيوس[٣٤]. Libanius (٣١٤ - ٣٩٣) ومن ثم كان من الطبيعي أن تنتشر الآريوسية في سوريا عنها فى مصر[٣٥].

ويذكر جيروم[٣٦]. اعتمادا على يوسيبيوس[٣٧]أن تأسيس هذه المدرسة السكندرية يعود إلى زمن القديس مرقس نفسه، رغم أن يوسيبيوس لا يذكر ذلك صراحة وإنما يقول فقط "منذ الأزمنة القديمة". غير أن هذا الرأي لا يمكن التسليم به بداهة؛ فجيروم نفسه لم يذكر شيئا عن هذه المدرسة من قبل، ولم يحدثنا عن أحد من أساتذتها الأوائل، ويوسيبيوس أيضا، فى الوقت الذى أورد فيه ثبتا متفرقا فى تاريخه الكنسي عن الأساقفة الذين توالوا على كرسى الإسكندرية، لم يشر بشيء عن معلمى هذه المدرسة قبل بانطاينوس[٣٨]. Pantaenus فى أخريات القرن الثانى للميلاد، يضاف إلى ذلك أن القديس مرقس جاء إلى مصر قادما من ليبيا يحمل معه إنجيله الذى كتبه "بناء على رغبة الأخوة الرومان" حسب تعبير يوسيبيوس القيسارى وجيروم، وبه بشر[٣٩]. ولم تكن آراء القديس بولس أو لاهوته قد بدأ

---

(٣٣) راجع ماكتيه McGiffert فى تقديمه لأعمال شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس القيسارى ضمن مجموعة : Nicene and post Nicene Fathers Vol. I; Soc. Ser, p. 224. N 2. B.

(٣٤) راجع مقدمة B. Jackson لحياة وأعمال باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا ضمن مجموعة آباء نيقية Vol. VIII, Soc. Ser. p. 54

(35) Romestine, Prolegomena to Ambrosius, (Nicene and p. N. F.) Soc. ser. X, p. 202 n. 2.

وراجع للمؤلف " الدولة والكنيسة ، جزء ٢ ص ١٦٩ وما بعدها.

(36) HIER. Vir. Ill. 36.

(37) EVSEB. Hist. Eccl. V. 10.

(38) EVSEB. Hist.eccl.V. 10.

(39) EVSEB. Hist. eccl. II, 16, III. 39.

وراجع أيضا HIER. Vir. Ill. 8.

يغزوان عقول الطبقة المثقفة آنذاك، بل إن حنانيا Annianus الذى كان أول من التقى به مرقس عند قدومه الإسكندرية، وخلفه فى الأسقفية، لم يكن له أدنى حظ من العلم أو الثقافة[٤٠]. وعليه يمكن القول تأكيدا أن بانطاينوس (١٧٩ ــ ٢١٦) كان أول من ارتبط اسمه بمدرسة الموعوظين فى الإسكندرية رغم ما يذكره بعض المؤرخين[٤١]. اعتمادا على المؤرخ ابيفانيوس (٣٦٧ ــ ٤٠٢) Epiphaneus من أن أثيناجوراس Athenagoras الفيلسوف الأثينى المسيحى فى نهاية القرن الثانى، هو الذى وضع أسس هذه المدرسة.

والحقيقة أن قيام هذه المدرسة قد لا يعود إلى شخصية بذاتها، إذ ربما نهضت بصورة طبيعية كنمو تدريجى لتلك العظات التى ذاعت فى الكنيسة الأولى، والتى تقدم للراغبين فى اعتناق المسيحية شيئاً ما عن مبادئ هذه العقيدة، وفى مدينة تعد عاصمة الفكر والفلسفة كالإسكندرية، فإن مدرسة بدأت أصلا للموعوظين، كان لابد أن تصبح من بعد معهدا للدراسات اللاهوتية ومختلف العلوم الإنسانية[٤٢].

كان بانطاينوس على حد تعبير جيروم[٤٣]. فيلسوف المدرسة الرواقية التى تحمل نزعة صوفية نسكية، امتلك ناصية الثقافة بفرعيها: الدينى ممثلا فى الكتاب المقدس، والأدبى بارزا فى التراث والفكر اليونانى، ولعل مما هيأ الفرصة لبانطاينوس أن يرسى دعائم المدرسة السكندرية اللاهوتية، ويدعم ما أسلفناه من أن هذه المدرسة لم تكن لتوجد على عهد القديس مرقس، أن كرسى الإسكندرية الأسقفى، كان يشهد آنذاك بداية عهده الزاهر تحت رعاية الأسقف ديمتريوس[٤٤].

---

(40) HIER. Loc. cit.
وراجع أيضا EVSEB.op. cit. II, 24, III,21
(41) Neale, The partiarchate of Alexandria, I, p. 18
وكذلك Copleston, op. cit. pp. 33-34
(42) McGiffert, op. cit. p. 224 n. 2
(43) HIER. Vir. Ill. 36
(44) Hardy, christian Egypt: Church and people, p. 11.

Demetrius (١٨٩ ــ ٢٣٣)، الذى امتلك مقدرة فائقة فى إدارة شئون الكنيسة، وإن لم يكن على نفس القدر من البراعة الأدبية، وقد أبدى اهتماما بالغا بمدرسة الإسكندرية، ولكنه فيما يبدو لم يقم بالتعليم فيها[٤٥].وقدخلع الخلق الرواقى والاهتمام باللوغوس Logos على بانطاينوس شهرة ذائعة[٤٦].

وكان كلمنت Clemens (حوالى ١٥٠ ــ ٢١٥) أشهر تلامذة بانطاينوس وخلفه فى رئاسة المدرسة[٤٧]. وهو يعترف بذلك صراحة فى عمله المسمى "المناظر" Hypotyposes ويشير إليه ثانية فى مؤلفه الآخر "ستروماتا" Stromata باعتباره واحدا من ذوى المواهب الحقة[٤٨]. أما كلمنت نفسه فيخبر عنه اسكندر أسقف أورشليم فى رسالة بعث بها إلى أهالى أنطاكية بأنه رجل الله الذى دعم كنيسة الرب ومد فى سلطانها[٤٩].

وخلال السنوات الأخيرة من القرن الثانى، كان كلمنت يتولى الأشراف على المدرسة السكندرية، معتمدا الجدل فى مواجهة ميثولوجيا الإغريق[٥٠]. فلما نزل بالإسكندرية الاضطهاد الوثنى على عهد الإمبراطور سبتيميوس سفروس Septimius Severus (١٩٣ ــ ٢١١) أشد وطأة من غيرها [٥١]. تركها كلمنت إلى فلسطين، وصحب أسقف أورشليم[٥٢]. وظل هناك حتى مات[٥٣].

---

(45) McGiffert, op. cit. p. 240. N. 4b.
(46) HIER. Loc.cit.
(47) HIER. op. cit. 38
وأيضا ... EVSEB. Hist. eccl. VI,6
(48) EVSEB. op. cit. V,
(49) Ibid. VI,11
وانظر HIER. Loc. cit
(50) Burkitt. op. cit. p. 480
(51) EVSEB. Hist eccl. VI, 1
(52) HIER. Vir. Ill. 38 وأيضاً EVSEB. Hist eccl. VI, 1
(53) Burkitt. op. cit. p. 481

وكلمنت، شأن الفيلسوف سقراط، يعتبر الجهل أكثر إثما من الخطيئة، ومن ثم تحمس لدراسة الفلسفة جنبا إلى جنب مع اللاهوت(٥٤). وراح يهاجم صراحة أولئك المخاصمين الذين يخافون الفلسفة(٥٥). وسعى جهده ليبين ضرورة دراسة الفلسفة، فهى سلاح معلمى الكنيسة للرد على أولئك الخصوم، وهى سبيل المسيحية كى تخطو إلى الأمام خطوها فى ثوب علمى(٥٦). إلى الحد الذى أعتبر فيه الفلسفة هدية الإله، وسبيلا لتثقيف العالم الوثنى من أجل المعرفة الحقة للمسيح(٥٧). وليس هذا غريبا على كلمنت فقد كان أصلا مواطنا أثينيا، عايش فلسفات اليونان وجاء إلى الإسكندرية يحمل معه الكثير من الأفكار والآداب اليونانية والفلسفة(٥٨).

على أنه إذا كان كلمنت هو الذى أعطى الدفعة القوية لمدرسة الإسكندرية فى بداية ظهورها فإن تلميذه أوريجن Origenes (حوالى ١٨٥ ــ ٢٥٤) يعد بلا ريب المؤسس الحقيقى لها(٥٩). إذ تولى الإشراف عليها وهو بعد يخطو العام الثامن عشر فى الحياة(٦٠). وقد عشق حياة الزهد(٦١). وفسر الكتاب المقدس لنفسه تفسيرا حرفيا، واستلهم آية الإنجيل " . . . ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت

---

(54) Atiya, op. cit. p. 34

(55) Neander, op. cit. I, p. 63

ويشبه خوف آباء الكنيسة من دراسة الفلسفة بخوف الطفل من القناع.

(56) Id.

(57) Copleston, op. cit. p. 29

(58) Greed, op. cit, p. 302 .

وأيضا Chadwick, op. cit. Pp. 94 – 100.

(59) Neander, op. cit. I, p. 69,

وأيضا Bardenhewer, op. cit. I, p. 250. وكذلك Diehl, op. cit. III, p. 404 وراجع المقال الذى كتبه La Barre عن Alexandrie (écol Chrétienne d') ضمن Dictionnaire de théologie Catheolique I, 1, col. 807-815 وراجع أيضا ما كتبه Faivre عن الإسكندرية فى Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, II, col. 295-296.

(60) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 3.

وأيضا HIER. Vir. Ill. 54

(61) Atiya, op. cit. p. 3

السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل . . . "[٦٢]. وقد قبل أوريجن واستطاع. وشمله ديمتريوس بعطفه والرعاية[٦٣]. غير أن هذا التقارب بين الأسقف وأوريجن لم يعمر طويلاً، إذ داخلته نوازع النفس الإنسانية الأمارة، كما يروى يوسيبيوس، بتعبيره هو "غلب على ديمتريوس الضعف البشرى وقد رأى نجم أوريجن إلى صعود، تزداد بين شعب الإسكندرية كل يوم شهرته، فكتب إلى جميع الأساقفة، وحتى خارج مصر، يصف لهم ما امتدحه منه آنفا، بالطيش والسفه"[٦٤].

تنقل أوريجن خارج مصر كثيرا، فزار في بلاد اليونان آخايا Achaia وأثينا[٦٥]. وارتحل إلى روما على عهد أسقفها زفيرينوس Zephyrinus (٢٠١ ــ ٢١٨)، وبلغ من شهرته أن فيرميليان Firmilianus أسقف قيسارية الكبادوك وأساقفة الولاية جميعا كانوا يناشدونه الارتحال إليهم، وظل هذا الأمل يراودهم فترة طويلة[٦٦].

وعلى الرغم مما حققه أوريجن من صيت خارج مصر[٦٧]. إلا أنه كان يقاسي من عداء الأسقف السكندري له، وبلغ هذا الجفاء ذورته عندما قام أوريجن أثناء زيارته لفلسطين(٢١٦) بتفسير الكتاب المقدس بناء على دعوة ثيوكتستوس ــ Theoctistus أسقف قيسارية واسكندر أسقف أورشليم، رغم أنه لم يكن قد رسم بعد ليدخل ضمن طائفة الاكليروس[٦٨]. وكان من غير المنطقي في نظم الكنيسة السكندرية أن يتولى علماني التبشير في حضرة الأساقفة، ولما كان ديمتريوس الذي

(٦٢) انظر متى ١٩/١٢

(63) EVSEB. op, cit. VI, 8

(64) Id.

وراجع كذلك 109.Chadwick, op. cit. p الذي يذكر أن أصدقاء أوريجن رأوا في موقف ديمتريوس نوعا من الحقد والحسد لأوريجن .

(65) Ibid.23.

وأيضا HIER. Vir. Ill. 54 وكذلك Chadwick, op. cit.p.110,

(66) HIER. Vir. Ill, 54

(67) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 26

(68) EVSEB. Hist. Eccl.VI, 19

وضع أسس سيادة كرسى الإسكندرية(٦٩). اكليروسيا متشددا، متعطشا للسلطان، دفع دون وعى السلطة البطريركية إلى حافة السيادة المطلقة، فإنه لم يقبل أبدا أن يقوم أوريجن بما قام به(٧٠). ومن ثم كتب إليه يستدعيه، ففعل(٧١). وذلك فى عام ٢١٨، وطوال اثنتى عشرة سنة آتية، عكف أوريجن على الدراسة والكتابة والإشراف الجاد على المدرسة السكندرية، وجعل هرقل Heraclas القس، مساعدا له فى المدرسة، ووكل إليه أمر الناشئة(٧٢).

وفى عام ٢٣٠ استطاع الإفلات من قبضة ديمتريوس(٧٣). واتجه إلى فلسطين حيث رسم قسا على يد أسقفى قيسارية وأورشليم(٧٤). ولكن ديمتريوس لم يترك هذه المسألة تمر دون عقاب، فدعا إلى عقد مجمع فى الإسكندرية ضم الأساقفة والقسيسين فور تلقيه نبأ رسامته، وأصدر المجمع قراره بطرد أوريجن من الإسكندرية، وحرمانه من العودة إليها أو الإقامة بها(٧٥). وثنى ذلك بقرار صدر عن مجمع ثان عقد فى الإسكندرية أيضا جرده من وظائفه(٧٦). وقطعه من كنيسة الإسكندرية(٧٧). وهناك فى قيسارية نشأت حول أوريجن مدرسة جديدة، وهكذا انتقل مركز المدرسة السكندرية مؤقتاً إلى فلسطين(٧٨). وعلى يديه تخرج كثير من تلاميذها النجباء مثل جريجورى الذى حمل فيما بعد اسم العجائى Thamaturgus(٧٩). بسبب ما أشيع حوله من معجزات.

---

(69) Neale, op. cit. I, p. 29
(70) Atiya, op. cit. p. 36
وكذلك Chadwick. op. cit. p. 109
(71) EVSEB. Loc. cit.
(72) HIER. Vir. Ill 54 .
وأيضا EVSEB. op. cit. VI. 15
(73) Atiya. op. cit. p.
(74) EVSEB. Hist. Eccl.VI, 23 وأيضا HIER. Vir. Ill. 54
(75) McGiffert, op. cit. p. 392
(76) Id.
(77) Ibid. p. 395
وأيضا Atiya.Loc. cit.
(78) Duchesne. op. cit.I, p. 252
(79) SOCRAT. Hist. Eccl. IV. 26
وأيضا Copleston. op. cit. p. 41

على أنه إذا كانت حياة أوريجن وعلاقته بالأسقف السكندرى ديمتريوس مما يلفت النظر، ويثير الاهتمام، فإن فكر أوريجن ولاهوته وكتاباته هى التى أثارت من حولها التساؤلات، بل والصراعات، حتى أن الأوريجنية Origenism أصبحت سمة القرن الرابع، وأضحت آراؤه حجة يستند إليها حتى أشد للفرق المسيحية تباعدا وخصومة، كالآريوسية والنيقية[٨٠]. على نحو ما سنبين بعد ذلك، وإلى منتصف القرن السادس كانت المجامع تعقد لمناقشة آراء ذلك اللاهوتى السكندرى، ولعل أبرزها المجمع المسكونى الخامس، الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٥٥٣ على عهد الإمبراطور جستنيان Justinianus (٥٢٧ ــ ٥٦٥) وأدان فكر أوريجن[٨١].

أرتقى أوريجن منذ عمره الباكر درج المعرفة بالكتاب المقدس، وأعطى عقله للثقافة اليونانية السائدة[٨٢]. والفلسفة الأفلوطونية بصفة خاصة، عارفا بالهندسة والحساب والموسيقى والنحو، وعلى حد قول جيروم، مثابرا على خلاف أهل العصر، كدودا[٨٣]. درس الفلسفة على يد فيلسوف الإسكندرية الأشهر آمونيوس ساكاس[٨٤]. أبى الأفلاطونية المحدثة[٨٥]. وشغل نفسه بكتابات الفلاسفة الفيثاغوريين والرواقيين[٨٦]. ووقف من خلالها جميعا على التفسيرات والشروح المجازية للأسرار الإغريقية[٨٧]. ويعترف أوريجن نفسه فى عمله "ضد كلسوس" "Contra Celsum" وهو الذى وضعه للرد على الفيلسوف الوثنى Celsus، بأنه قرأ كل

---

(80) B. Jackson, op. cit. p. 18

(81) Atiya, op. cit. p. 37

وكذلك Chadwick, op. cit. p. 112

وراجع كل هذه التفصيلات فى كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الفصل الثانى

(82) EVSEB. Hist. Eccl.VI.2 ; وأيضا Copleston, op. cit, p. 41

(83) HIER. Vir. Ill. 54

(84) EVSEB. op. cit. VI, 19 ; وكذلك Copleston, op. cit. p. 41

(85) أنظر McGiffert وراجع أيضا المقدمة التى كتبها Crombie لأعمال أوريجن السكندرى ضمن مجموعة The Ante- Nicene Fthers, VI, p. 226

(86) EVSEB. Loc. cit.

(87) Id.

كتب الأقدمين، وبوحى من الأفلاطونية المحدثة وتحت تأثيرهما خرجت فكر أوريجن اللاهوتية(٨٨).

انطلق أوريجن من الفكرة القائلة أن الامتزاج الروحي بالمسيح، هو ينبوع الحياة القدسية والمعرفة، فعنده أن ظهور المسيح على الأرض كان صورة لنشاطه اللاهوتى الأزلى(٨٩). والله عند أوريجن خالق منذ الأزل، وليس فى زمان بعينه وإلا عد ذلك تغيرا فى ذات الله، والتغير ليس من صفات الله، والله الأزلى ولد أو خلق كلمته logos، الابن، الذى على الرغم من كونه ليس إلها بالمعنى الحقيقى، إلا أنه يشارك فى جوهر الآب، والابن فى رأيه العقل الذى ينظم العالم، خلقه الآب وجعله له تابعا ليخلق به كل شىء، ومن ثم فالابن واسطة بين الله وسائر الخلائق. وكذلك الروح القدس يأتى فى مرتبة تالية، شأن الابن(٩٠).

وكان أوريجن يعتقد أن فهم الكتاب المقدس يتوقف على الإنسان، إذ أن وراء هذه العبارات معنيين، أحدهما التفسير أو المعنى الظاهرى الحرفى. ثم المعنى العميق الروحى الذى لا يصل إليه إلا الفئة القليلة، ومن ثم كان أوريجن علما على مدرسة الإسكندرية المجازية، وأضحى بذلك الاعتقاد فعلا صاحب عقيدة الإيمان المزدوج(٩١). ولعل هذا حقا هو الذى جعل من الأوريجنية من بعد، وخاصة فى القرن الرابع، معترك الجدل اللاهوتى العنيف بين الفرق الآريوسية المتعددة وأتباع العقيدة النيقية(٩٢). كل يحاول أن يجعل من أوريجن والأوريجنية، سندا له وبرهانا.

ومما لاشك فيه أنه ليس هناك أحد ترك أثرا واضحا فى اللاهوت المسيحى، بعد بولس، مثلما فعل أوريجن، إلى الحد الذى يصفه شندويك بأنه يقف عملاقا بين

(88) Copleston, op. cit. p. 41
وقارن Chadwick, op. cit. p.101
(89) Neander, Op. cit. I, p. 66
(90) Copleston, op. cit. p. 42
وكذلك Creed, op. cit. p. 307
(91) Cantor, Medieval history, p. 72

(٩٢) راجع الفصل الخامس .

مفكرى المسيحية الأوائل[٩٣]. وحتى فى الوقت الذى رفضت فيه آراؤه، فإن صياغته للمشكلات اللاهوتية بقيت ذات أهمية بالغة، ولقد دل على ذلك موقف كثير من آباء الكنيسة، فأثناسيوس مثلا على الرغم من أنه لم يستخدم كثيرا من أفكار أوريجن، وعلى الرغم من أنه لم يكن راضيا نوعا ما عن آرائه حول طبيعة المسيح، إلا أنه كان يتحدث عنه باحترام[٩٤]. أما بالنسبة للآباء الكبادوكيين[٩٥]. فقد كان أوريجن هو السيد، يتمثل ذلك فيما قام به باسيليوس الكبادوكى ورفيقه جريجورى النازيانزى من جمع أروع ما كتبه أوريجن فيما يعرف بـــ "عشق الجمال" Philocalia فى محاولة لتبيان عقيدته الأرثوذكسية، جاعلين من آرائه صرحا للكاثوليكية[٩٦].

على أن أوريجن لم يعدم معارضين بارزين فى مقدمتهم ابيفانيوس Epiphaneus، (٣٦٧ ــ ٤٠٢) أسقف سلاميس فى قبرص الذى نظر إلى أوريجن باعتباره رجلا أفسد المسيحية. والقديس جيروم، وثيوفيلوس Theophilus الأسقف السكندرى فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس[٩٧]. ولكن الذى لا شك فيه أن أوريجن قد فرض فكره اللاهوتى على مدرسة الإسكندرية، بل وعلى الكنيسة من بعده لفترة طويلة[٩٨]. وظلت مدرسة الإسكندرية على ولائها لسيدها أوريجن بعد ارتحاله إلى فلسطين، وبعد موته عام ٢٥٤[٩٩].

---

(93) The Early Church, p. 100

(94) Creed. op. cit. p. 301

(٩٥) الآباء الكبادوكيون نسبة إلى كبادوكيا فى آسيا الصغرى، وهم جريجورى أسقف نازيانزا، وجريجورى أسقف نيسا وباسيليوس أسقف قيسارية ، وقد إشتهروا باللاهوتيين الكبادوكيين . انظر بعده.

(96) B. Jackson, op. cit. p. 18

(97) Atiya, op. cit. p. 37

أيضا Chadwick, op. cit. p. 112

تناولنا كل هذه الآراء والجدال بين هؤلاء جميعاً فى كتابنا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، الفصل الثانى.

(98) Hard, op. cit. p. 16

راجع أيضا Neale, op. cit. I, p. 37

(99) Macaire, Histoire de l'église d'Alaxandrie pp. 53, 54

على أنه إذا كانت المدرسة قد احتفظت لفترة طويلة باستقلالها الأكاديمي، على الأقل من الوجهة النظرية، إلا أنها أمست منذ تركها أوريجن خاضعة عمليا لسلطان أسقفية الإسكندرية ومرتبطة بالكنيسة ارتباطا تاما، لا تعدو كونها معهدا علميا تابعا للكنيسة السكندرية(١٠٠).

عهد أوريجن عند التجائه إلى فلسطين(١٠١) إلى هرقل(١٠٢) مساعده، برئاسة المدرسة، وكان رجلا نابها يحدث عنه أوريجن نفسه بأنه درس الفلسفة قبل أن يسمع هو عن الموضوعات التي تتناولها بسنوات خمس(١٠٣). شديد الحماس في البحث وراء مخلدات اليونان(١٠٤). غير أن مدة رئاسته للمدرسة لم تدم فترة طويلة، ذلك أنه ما إن وافى عام ٢٣٢ حتى مات ديمتريوس الأسقف السكندرى، فخلفه هرقل على كرسى الأسقفية(١٠٥). وعهد بالإشراف على المدرسة إلى ديونيسيوس Dionysius أحد تلامذة أوريجن الشهيرين (١٠٦). ورغم الصداقة التي كانت تجمع بين هرقل وأوريجن، إلا أن الأسقف لم يصدر قرارا يمحو الإدانة التي لحقت بالصديق على يد سلفه والاكليروس السكندرى في مجمعي الإسكندرية(١٠٧).

ولكن هذا لا يعنى شعورا من العداء كان قائما بين الرجلين، ذلك أن ديونيسيوس أسقف الإسكندرية بعد هرقل، والذى كان تلميذا لأوريجن. ومن أشد المتحمسين لآرائه، لم يقم هو الآخر بمثل هذه المحاولة بعد أن غدا أسقفا، كما أنه ليس هناك ما يؤكد أن هرقل كان من بين رجال الاكليروس الذين أدانوا أوريجن،

---

(100) Duchesne, op. cit. I. p. 242 وأيضا Atiya, op. cit. Pp. 37, 38.

(101) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 26

(١٠٢) ليس لدينا أيه معلومات عن هرقل هذا سوى ما يمدنا به يوسيبيوس ، وليس هناك أى تاريخ حول مولده أو وفاته.

(103) EVESB. Hist. Eccl. VI, 19

(104) Ibid. 31

(105) Ibid. 26

(106) Ibid. 29

(107) McGiffert. op. cit. 251 n. 2

كل ما هنالك على ما يبدو أن هرقل لم يكن راضيا عن كل ما كتبه صديقه. وربما اعتقد أن بعضا من كتاباته داخل فى عداد الهرطقة(١٠٨). وقد يعود ذلك أيضا إلى أن رغبة أوريجن فى البقاء فى فلسطين حيث ذاع صيته، وأصبح له أتباع ومريدون، ولقى التقدير الذى أسبغه عليه أساقفة الشرق، وقيسارية وأورشليم بخاصة، وهو ما لم يجده بين الاكليروس السكندرى.

وفى رسالة بعث بها ديونيسيوس إلى فيلمونوس Philemonus أحد رجال كنيسة روما، يخلع على هرقل لقب "البابا" (١٠٩) واستناداً إلى ذلك يتفق بعض المؤرخين المحدثين(١١٠) على أن هرقل كان فعلا أول من حمل لقب بابا الإسكندرية، معللين ذلك بأنه وسع دائرة سيادة الكنيسة السكندرية، عندما رفع عدد الأسقفيات المحلية التابعة لها إلى عشرين أسقفية(١١١). ولاشك أن هذا يدل على مدى ما وصلت إليه كنيسة الإسكندرية فى منتصف القرن الثالث الميلادى من نفوذ، غير أن هذا النفوذ تأكد بصورة حقيقية على عهد خلفه ديونيسيوس، الذى أدخل المدن الخمس(١١٢) Pentapolis تحت سلطان الكرسى السكندرى(١١٣)،وتجلى ذلك فى رسائله التى بعث بها إلى أساقفة هذه المنطقة(١١٤).

---

(108) Id.

(١٠٩) انظر EVSEB. Hist. Eccl. VII, 7 ويذكر القلقشندى أن بطريرك الإسكندرية كان أول من حمل لقب " بابا " بين سائر أساقفة الكراسي الرسولية قبل أن يختص أسقف روما وحده بهذا اللقب . راجع صبح الأعشى ج٥ ص ٤٧٢ وج ٨ ص ٤٢.

(110) Neale, op. cit. I, p. 32
وأيضا Atiya, op. cit. p. 38

(111) Atiya, Loc. cit

(١١٢) وهذه المدن الخمس هى شحات Cyrene وطلميثة Ptolmais وبرنيق Berenice وسوسة Abollonia وتوكر (توخيرا Arsinee راجع Duchesne, op. cit. I, p. 350 – 351 (وهى برقة حاليا)

(113) ATHANAS, De S. Dion. 5; Hardy, op. cit. p. 29

(114) ATHANAS. op. cit. 9, 10, 13, 26 وأيضا EVSEB. Hist. Eccl. VII, 26

كان ديونيسيوس أشهر من تولى عرش أسقفية الإسكندرية حتى زمانه (٢٤٦ - ٢٦٥)(١١٥)، لاهوتيا قديرا، شارك فى الجدل العقيدى الذى ظهر فى عهده وخاصة حول إعادة التعميد والنوفاتية(١١٦) Novatianism والسابللية(١١٧) Sabellianism وآراء بولس السميسطائى(١١٨) Poulus of Samosata ، وكتب عددا من الرسائل الفصحية(١١٩) على غرارها نهج أثناسيوس . وقد جمع فى يده أسقفية الإسكندرية ورئاسة المدرسة اللاهوتية، ومن ثم أضحت المدرسة واقعا تحت سيادة الكنيسة كما أسلفنا، وإن كانت قد احتفظت بتعاليم أوريجن وعقائده(١٢٠).

على أن شهرة ديونيسيوس قد ذاعت فى أرجاء العالم المسيحى، وخاصة عندما اشتد الجدل الكريستولوجى فى القرن الرابع، وأقر مجمع نيقية سنة ٣٢٥م اصطلاح الهوموسية " مساواة الابن فى الجوهر مع الأب "(١٢١)، حيث كان ديونيسيوس قد وافق عرضا على استخدام هذا التعبير الذى ورد في رسالة سميه أسقف روما، عندما كتب الأخير يخبره بالاتهامات التى سيقت ضده، حول تطرفه فى الرد على آراء سابليوس(١٢٢) Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemaïs ، والذى نادى بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث(١٢٣)، مما دفع ديونيسيوس السكندرى إلى أن يكتب عدة رسائل إلى

---

(115) Neale, op. cit. I, p. 42 ; Roncaglia, op. cit.; Faivre op. cit. II, p. 217 – 228; Diehl, op. cit. III, p. 405 ; Ourkitt, op. cit. p. 487

وانظر كذلك ما كتبه Musset فى كتابه Histoire du Christianisme specialement en Orient I, p. 30

(116) EVSEB. Hist. Ecc. VI, 46, VII, 4, 5

(117) Ibid. VII, 6

(118) Ibid, 27 وراجع للمؤلف الدولة والكنيسة ج ٢ ص ١٧٤.

(119) Ibid, 20, 22, 23

وراجع أيضا HIER, Vir. Ill. 69

(120) Duchesne, op. cit. I, p. 356

(١٢١) انظر بعده .

(122) ATHANAS, DE S. Dion. 14, 18

(123) ATHANAS, Orat. C. Arian. IV 19

رجال الكنيسة فى المدن الخمس الغربية[١٢٤]. يؤكد فيها التمييز بين الآب والابن[١٢٥]، ويستخدم فى ذلك تعبيرات تشبه لغة أوريجن عن تبعية الابن.

وقد لقيت هذه التعبيرات معارضة من بعض رجال الكنيسة[١٢٦] ولاشك أن هذا هو الذى حدا بأثناسيوس أن يكتب دفاعا عن سلفه ديونيسيوس De Sententia Dionysii يحاول فيه تبرير موقفه، ويصفه بالتقوى والورع، وإن كان وجد فى ذلك على حد تعبير المؤرخ هاردى Hardy صعوبة وألما بالغين[١٢٧].

ولعل مما يفسر قول هذا المؤرخ، أنه على الرغم من أن الهوموسية، أصبحت من بعد عقيدة الأرثوذكسية، بعد أن أقرها المجمع المسكونى الأول، فى محاولة لوضع قانون للإيمان بعد ما لقيت فكرة آريوس عن خلق المسيح رواجا كبيرا، على الرغم من ذلك فإن بعض آباء الكنيسة، راح ينظر إلى ديونيسيوس، باعتباره السبب الرئيسى فى غرس بذور العقيدة الأنوموية[١٢٨] ـــ وهى إنكار الشبه بين الابن والأب ـــ وهى التى سوف نتناولها بالدراسة فيما بعد، إذ باستخدامه تعبيرات غير مألوفة، دفع بطائفة من الآريوسيين إلى الاتجاه المضاد المتطرف تماما، وهذا هو ما يراه باسيليوس الكبير أسقف قيسارية كبادوكيا الذى يذكر فى إحدى رسائله[١٢٩] أنه قرأ كتابات ديونيسيوس كلها ولم يستحسن منها شيئا، إذ أمسى الأسقف السكندرى ـــ فى نظره ـــ وراء ما تعانى منه الكنيسة فى القرن الرابع، ويفسر ذلك بقوله، إن هذا جاء لرغبة ديونيسيوس الجامحة فى مقاومة السابللية، ويقارنه بمن أراد أن يقوم اعوجاج شجيرة ضعيفة النمو، فجذبها فى

---

(124) EVSEB, Hist, eccl. VII, 26
(125) ATHANAS, de S. Dion, 9 - 13
(126) Ibid, 13
وراجع لأثناسيوس أيضا De Syn. 44
(127) Hardy, op. cit. p. 29
(128) BASIL. Ep. CLXXXVIII, 1
(129) BASIL. Ep. IX, 2

عنف إلى الاتجاه المضاد تماما، وإن كان هذا كله لم يمنع باسيليوس من أن يخلع عليه لقب الكبير [١٣٠]، وهو نفس اللقب الذى أضفاه عليه يوسيبيوس القيسارى [١٣١].

وإذا كان ديونيسيوس قد بسط سلطان أسقفيته على مصر كلها وأضاف إليها المدن الخمس، فقد ارتقى كرس الإسكندرية فى عهده مرتبة سامية فى العالم المسيحى، يعبر عنها ذلك الرجاء الذى أرسله أساقفة الشرق يلتمسون منه المجىء إلى أنطاكية لحضور المجمع الذى عقده سنة ٢٦٢، لبحث آراء بولس أسقف ساموساط [١٣٢] غير أن ديونيسيوس كان قد بلغ من الكبر عتيا، فلم يتمكن من تلبية رغبتهم، وإن كان قد أرسل إلى المجمع رأيه كتابة فى رسالته الشهيرة حول نقاط الجدال [١٣٣] والتى حملها يوسيبيوس أحد شمامسة الإسكندرية [١٣٤].

ولما قام الخلاف فى الكنيسة حول إعادة معمودية الخارجين عن الكنيسة زمن الاضطهاد، وبلغ أشده فى روما بين كورنليوس Cornelius المعتدل، الذى غدا أسقفا سنة ٢٥١، ونوفاتيان Novatianus المتطرف الذى يرفض إعادة قبول هؤلاء فى الكنيسة ثانية، وأصر الفريق المؤيد له على رسمه أسقفا لروما مضادا فى نفس العام، وراح الأخير يبعث بخطاباته إلى الكرسى الأسقفى السكندرى مبينا آراءه، كتب إليه ديونيسيوس رادا " إذا كنت رغم إرادتك رسمت، فسوف تبرهن على ذلك عندما تنسحب بإرادتك" [١٣٥] كما بعث برسائل التأييد إلى أسقف روما كورنليوس، وأظهر اتفاقه معه فى الرأي فى الرسائل التى بعث بها إلى كل من

(130) BASIL. Ep. CLXXXVIII, 1

(131) EVSEB. Hist. Eccl. VII, praef. وراجع أيضا

Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, II, pp. 80 - 93

(132) EVSEB, op. cit. VII, 27

(133) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 27 ; HEIR. Vir. Ill. 69

(134) Duchesne, op. cit. I, p. 354

(135) HIER. Loc. cit

EVSEB. Hist. Eccl. VI, 45

كونون[١٣٦] Conon أسقف الأشمونين Hermopolis magna ، وشعب الكنيسة السكندرية، وتليميدرس Thelymidres أسقف اللاذقية Laodicea، و" الإخوة الأرمن " وعلى رأسهم الأسقف مروزانس Merozanes و " إخوة " روما[١٣٧].

ولقد توطدت العلاقات بين كنيستى الإسكندرية وروما على عهد ديونيسيوس، وزاد من أواصرها ذلك الصدع الذى وقع فى كنيسة روما، ومن الرسالة التى بعث بها الأسقف السكندرى إلى كورنليوس، نعلم مدى المودة التى كانت قائمة بالفعل بين الكنيستين، إذ يخبره أنه تلقى الدعوة من هلنوس Helenus أسقف طرسوس Tarsus وزملائه، للالتقاء فى أنطاكية، حيث كان البعض يميل إلى جانب نوفاتيان وآرائه التى ذاعت باسمه[١٣٨]، تأثرا بالأسقف الأنطاكى فابيوس Fabius الذى يؤيد المبادئ النوفاتية[١٣٩].

ولما ارتقى ديونيسيوس الرومانى أسقفية روما (٢٥٩ - ٢٦٨)، أضحت العلاقات وثيقة بينه وسميه السكندرى، وخاصة وأن هذا الأخير كان قد بعث بعدد من الرسائل إلى ديونيسيوس وهو بعد قسا فى الكنيسة الرومانية[١٤٠]، فلما ذاعت دعوة سابليوس، وشحذ أسقف الإسكندرية فكره معارضا ومحاجا، ولجأ إلى تعبيرات جريئة لم ترد فى الكتاب المقدس، ولم يرض عنها عدد من الأساقفة، كما أسلفنا، واتخذوا سبيلهم إلى أسقف روما، كتب هذا إلى سميه السكندرى منبها، مما حدا بالأخير إلى وضع دفاعه الشهير (Refutation and Defence) فى كتب أربعة بعث بها إلى ديونيسيوس روما[١٤١].

(136) HIER . loc . cit.
EVSEB. Hist. Eccl. VI, 46
(137) EVSEB. Loc. cit.
(138) Id.
(139) McGiffert, op. cit. p. 286 n. I
(140) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 7, 9
(141) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 26

وكان من الطبيعى أن تسير العلاقات قدما بين مركزى العالم الرومانى السياسى والفكري، روما بماضيها والسيادة، والإسكندرية بحضارتها والفكر، بل لقد كان من الضرورى أن يتواد كرسيا العالم المسيحى، امتدادا لتلك الصلة الوثيقة التى كانت قائمة بين القديسين بطرس ومرقس، والتى بلغت درجة التبنى، كما أخبر عن ذلك بطرس نفسه فى رسالته الأولى(١٤٢)، وكما حدث يوسيبيوس(١٤٣) وجيروم(١٤٤) من أن مرقس كان تلميذا لبطرس فى روما، ولاشك أن راعيى البيعتين تمثلا هذه الصلة، وعملا على تدعيمها فى مواجهة تحديات الإمبراطورية الوثنية، ومجابهة ذوى الآراء الخارجة على الكنيسة نظما أو عقيدة.

وقد تعرض ديونيسيوس خلال فترة أسقفيته الطويلة للاضطهاد الذى عاناه المسيحيون على عهد الإمبراطور دكيوس(١٤٥) Decius (٢٤٩ – ٢٥١) ثم فاليريان Valerianus (٢٥٧ – ٢٦٠) دون أن ينزل على إرادة الإمبراطور(١٤٦) ولأن هذه كانت حياة ديونيسيوس، ولأن ذلك كان فكره، افتتح يوسيبيوس الكتاب السابع من تاريخه الكنسى، وقدم للأسقف السكندرى لقب " الكبير" . ومن أجل هذا وتلك أيضا كتب أثناسيوس دفاعه عن سلفه وأستاذه، ذلك أن أثناسيوس ترسم خطى ديونيسيوس جهادا وحياة، وظل طيلة أسقفيته مخلصا أمينا وحاميا للهوموسية التى ارتضاها ديونيسيوس، حتى جاز لأحد المؤرخين(١٤٧) أن يقول " إن من حق أثناسيوس دون غيره الادعاء بأن ديونيسيوس وآراءه له وحده وهو رائده والولى" .

وطوال فترة الاضطهاد العام الذى بدأ منذ عهد دكيوس، حتى ضراوته زمان دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ – ٣٠٥) لقى المسيحيون فى الإمبراطورية

---

(١٤٢) رسالة بطرس الأولى : اصحاح ١٣/٥

(143) EVSEB. hist. eccl. III, 19, V, 8

(144) HIER. Vir, ill. 1, 8, 11

(145) EVSEB. op. cit. VI, 39 - 40

(146) Ibid. VII, 11

(١٤٧) راجع المقدمة التى كتبها Robertson لدفاع أثناسيوس عن ديونيسيوس ضمن مجموعة آباء نيقية.. المجلد الرابع ص ١٧٤ .

كلها ألوانا من العذاب، إذا استثنينا ذلك العهد القصير للامبراطور جاللينوس[١٤٨] Gallienus (٢٦٠ – ٢٦٨) . وكان الأساقفة ومن دونهم من رجال الاكليروس، أكثر الجماعات إيلاما وتعذيبا، مما تمتلئ به صفحات تلك الرسالة الطويلة، التى خلفها لنا الكتاب الأفريقى اللاتينى المعاصر لاكتانتيوس Lactantius (٢٦٠ – ٣٤٠) " عن موت المضطهدين " De mortibus Persecutorum والكتابان السابع والتاسع من التاريخ الكنسى ليوسيبيوس القيسارى، وكتابه الثامن الذى عقده للحديث عن شهداء فلسطين خاصة.

ووقعت الكنيسة بين شقى الرحى، فقد كان عليها أن تتصدى لهذا التيار العنيف الذى يتهدد كيانها، وفى الوقت ذاته، وجدت لزاماً عليها أيضا أن تجابه هذه الفرق التى ظهرت تنادى بكنيسة للأطهار والقديسين الذين لم يصب إيمانهم من جراء الاضطهاد دنس، النوفاتيون فى روما والدوناتيون[١٤٩] فى شمال أفريقيا، والمليتية[١٥٠] Meletianism فى مصر، وكان من الضرورى أيضا أن يشمل الاضطراب مدرسة الإسكندرية، ومن ثم ظللت سحابة من الغموض تاريخ المدرسة فى هذه الفترة، ولم يحدثنا يوسيبيوس أو جيروم بشيء عنها طيلة نصف القرن الثالث الأخير، وإن كنا نستطيع أن نستخلص من حديث يوسيبيوس عن أساقفة

(١٤٨) راجع للمؤلف الدولة والكنيسة ، ج٢ . . الفصلين الأول والثانى.

(١٤٩) الدوناتية Donatism تنسب إلى دوناتوس Donatus الكبير الذى خلع على الطائفة اسمها. وقد تولى أسقفية قرطاجة حوالى عام ٣١٣ منافسا للأسقف الكاثوليكى كايكليانوس Caecilianus وتقوم فكرة الدوناتيين على أساس أن الأساقفة ورجال الاكليروس الذين ارتضوا زمن الاضطهاد الأعظم (٣٠٣ – ٣١١) أن يقربوا للأرباب أو يقدموا الكتب المقدسة قربانا للنيران، مارقون عن الدين . وعلى حين أرتضت الكنيسة الكاثوليكية سياسة الاعتدال وسمحت بإعادة تعميد هؤلاء الخطاة وقبولهم ثانية فى شركة الكنيسة، رفض جماعة من أساقفة نوميديا ذلك، ونادوا بكنيسة للأطهار ورفضوا قبول المارقين ثانية . وأصروا على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق شخصية رجل الاكليروس القائم . وهم فى ذلك يشبهون النوفاتيين فى روما، ويشبههم المليتيون فى مصر.

راجع .Encyc. Of Relig. And Eth. Col. IV, pp. 884 – 885

وراجع كذلك .Latourette; Expansion of Chirstianity, I, p. 348

وانظر للمؤلف : الدولة والكنيسة، ج ٢ الفصل الرابع.

(١٥٠) انظر للمؤلف : الدولة والكنيسة ، ج ٢ الفصلين الخامس والسادس.

العالم المسيحى آنئذ، أن المدرسة كانت رغم الاضطرابات تمارس بعضا من رسالتها، فيوسيبيوس السكندرى، أحد قساوسة الإسكندرية، والذى سبق لنا ذكره، وتحدث عنه ديونيسيوس ممتدحا(١٥١)، وكان ممثلا فى المجمع الأنطاكى سنة ٢٦٢ لأسقف الإسكندرية، رسم أسقفا لكنيسة اللاذقية، ونال شهرة واسعة فى مجال العقيدة ودراسة الكتاب المقدس كواحد من أبناء مدرسة الإسكندرية(١٥٢)فلما قضى، خلفه سكندرى آخر يدعى أناطوليوس Anatolius، يصفه شيخ مؤرخى الكنيسة بأنه جمع إلى البراعة فى الآداب والفلسفة والبيان، حذق العلوم الرياضية والهندسة والفلك والطبيعة والجدل(١٥٣)، ثم يقول عنه ": إنه بين أقرانه أول زماننا"(١٥٤) ويضيف " لأجل ذلك كله دعاه مواطنو الإسكندرية للعودة لتأسيس مدرسة للفلسفة الأرسطية(١٥٥) وفروع المعرفة الإنسانية التى جمعها أناطوليوس، تشير دون ريب إلى أنه تلقى تعليمه فى مدرسة الإسكندرية، وهذا بدوره يؤكد أنها بقيت إلى حد تؤدى دورها .

على أنه مع أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الميلاديين، تتقشع هذه الغيوم قليلا، ويصل جيروم ما انقطع من حديث، فيخبرنا أن مفكرا يدعى بيريوس Pierius هو الذى يقوم فى نهاية القرن الثالث بالتدريس فى الإسكندرية(١٥٦) وإن كان يوسيبيوس لا يذكر عنه شيئا أكثر من كونه أحد قساوسة الكنيسة السكندرية(١٥٧) ويناقش ماكجفرت(١٥٨) MeGiffert أحد المؤرخين المحدثين هذه المسألة تفصيلا، ويميل إلى الأخذ برأى يوسيبيوس، غير أن ما يذكره جيروم من

(151) EVSEB. Hist. Eccl. VII. II
(152) EVSEB. hist. eccl. VII. 11. 32
(153) HIER. Vir. Ill. 73. EVSEB. Hist. Eccl. 32
(154) EVSEB. Loc. cit.
(155) Id.
(156) HIER. Vir.ill 76
(157) EVSEB. Loc. cit.
(158) McGiffert, op. cit. p. 321 n. 42

أن بيريوس نشر عددا كبيرا من الرسائل فى مختلف الموضوعات، مما أضفى عليه لقب " أوريجين الصغير" بالإضافة إلى الحياة النسكية التى كان يعيشها، ومعرفته الواسعة بفن الجدال[١٥٩]، كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه ليس من المستبعد أن يكون بيريوس قد باشر بصورة ما التدريس فى مدرسة الإسكندرية[١٦٠] .

وطوال مدة الاضطهاد الأخير (٣٠٥ - ٣١٣) على عهد جاليريوس Galerius (٣٠٥ - ٣١١) وماكسمين دازا Maximinus Dasa (٣٠٧ - ٣١٤)، تولى آشيلاس Achillas (+ ٣١١) الإشراف على المدرسة[١٦١]، وكان مسلكه الذى يتصف بالتقوى سندا لتوليه الأسقفية بعد موت بطرس سنة ٣١١ الذى يعد آخر الشهداء فى الكنيسة المصرية[١٦٢]، وإن لم يمكث بها إلا فترة قصيرة جدا، حيث خلفه اسكندر[١٦٣] Alexandrius (٣١١ - ٣٢٨).

وخلال أسقفية اسكندر وأثناسيوس من بعده (٣٢٨ - ٣٧٣)، عهد بإدارة المدرسة إلى ديديموس[١٦٤] Didymus (+ ٣٩٦) ورغم أنه افتقد بصره صبيا[١٦٥]، إلا أنه تمكن من النبوغ فى نواحى المعرفة العديدة، محدثا بالشعر، متضلعا من البيان، عالما بالفلك والهندسة والحساب، للنظريات الفلسفية المختلفة دارسا[١٦٦]، وقد ترك لنا مؤلفات عديدة معظمها تعليقات على المزامير وشروح

---

(159) HIER. Loc. cit.

(١٦٠) ويذكر Duchesne, op. cit. I. P356 أن ثيوجنستوس قام بإدارة المدرسة بعد وفاة ديونيسيوس وأنه السلف المباشر لبيريوس .

(161) EVSEB. Hist. Eccl. VII, 32

(162) EVSEB. Loc. cit
وراجع THEOD Hist. Eccl. 1, 2

(163) THEOD. Loc. cit.

(164) Ibid. IV, 26
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Ecc. III, 15

(165) HIER. Vir. Ill. 109

(166) THEOD. Loc. cit
وراجع SOZOM. Loc. cit.

لإنجيلى متى ويوحنا، وخلف كتابا عن الروح القدس قام جيروم ينقله إلى اللاتينية[١٦٧] وذاعت فى الكنيسة الكاثوليكية شهرته، وأثنى عليه رهبان مصر وعلى رأسهم أنطونيوس الذى قام بزيارة ديديموس عندما قدم الإسكندرية لتأييد أثناسيوس سنة ٣٣٨ فى صراعه من الآريوسيين[١٦٨]، وكان من أشهر تلاميذ المدرسة آنذاك جريجورى النازيانزى وأخوه قيصر، كما أسلفنا، بالإضافة إلى جيروم (٣٤٠ - ٣٣٠) وروفينوس (٣٤٥ - ٣٨٠)[١٦٩].

وفى عام ٣٩٦ مات ديديموس بعد أن ظل فى منصبه فترة طويلة، تبلغ ثلاثة أرباع القرن تقريبا، وهى الحقبة التى شهدت أخطر صراع عقيدى عرفته الكنيسة، وانتهى بانتصار الإمبراطورية النيقية على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius (٣٧٨ - ٣٩٥) . وبموت ديديموس دخل تاريخ المدرسة السكندرية فى طور من الغموض يشبه ذلك الذى صحب وجودها، ولم نعد نسمع عنها من بعد شيئا . ولكن الذى لا شك فيه أن المدرسة قامت بدور كبير خلال قرنين من الزمان وينيف، قدمت خلالهما للكنيسة المسيحية والعقيدة، أعلاما يعتز بهم الفكر المسيحى واللاهوت، كلمنت وأوريجين وديونيسيوس وجريجورى النازيانزى وجيروم ثم أثناسيوس.

وفى الإسكندرية المدنية، والفكر، كانت حياة أثناسيوس، ووسط هذا الجو الفلسفى اللاهوتى، عرفناه صبيا يلقى الرعاية الكاملة فكرا وحياة من اسكندر الأسقف السكندرى، وأيا كانت صحة الرواية التى يحكيها روفينوس[١٧٠]، ويتابعه

(167) HIER. Loc. cit.

(168) SOZOM. Hist. Eccl. III, 15 . وانظر بحده الفصل الثانى

(169) Atiya, op. cit. p. 39

(١٧٠) يخبرنا روفينوس أنه أثناء الاحتفال بذكرى بطرس آخر الشهداء، كان اسكندر ينتظر قدوم رجال الاكليروس فى مكان قريب من البحر، وقد وقع بصره على بعض الصبية يلهون عند الشاطئ، فلما تأملهم إذا بهم يؤدون طقس العماد، فاستدعاهم وطمأن خاطرهم، ثم علم منهم أن أحدهم وهو أثناسيوس كان يقوم بدور الأسقف، ويناول الآخرين المعمودية. ولقد صدق هو واكليروسه على ما أقدم عليه الصبية، وقرب إليه أثناسيوس، وتعهده بالرعاية والتعليم . وكانت هذه الحادثة بداية الصلة الوثيقة بين اسكندر وأثناسيوس .

وراجع RUFIN. Hist. Eccl. 1, 14 (p. L. XXI 486).

عليها سقراط[١٧١] وسوزومنوس[١٧٢]، فأن أثناسيوس تلقى منذ البداية تعليما لاهوتيا تحت أشراف أسقف الإسكندرية، وكان مقربا إليه موقرا منه[١٧٣].

ولابد أن تكون أسرته التى لا نعلم من أمرها شيئا[١٧٤] قد دفعته إلى دراسة الآداب اليونانية والفلسفة، لغة العصر والطبقة المثقفة والراقية آنذاك، ولابد أيضا أن يكون أثناسيوس قد تعلم هذا وذاك فى مدرسة الإسكندرية منارة اللاهوت والفلسفة فى ذلك الزمان، وهذا كله تعكسه كتاباته الباكرة[١٧٥].

فقبل أن يبلغ أثناسيوس الحادية والعشرين من عمره، كان قد وضع عمله الشهير عن تجسد الكلمة[١٧٦] De Incarnatione Verbi Dei ومؤلفه ضد الوثنيين Contra Gentes، وفيهما نرى أن الفلسفة الأفلاطونية وفكر أفلاطون، خاصة محاوراته، فى كثير من المواضع عند حديثه عن النفس، القوة المتحركة بنفسها، الموجودة فى الإنسان ، باعتبارها جزءا من النفس المتحركة بنفسها، الموجودة خارج الجسد متمثلة فى كل شيء[١٧٧]. وفى تاريخه عن الآريوسيين Historia Arianorum يصف الإمبراطور قسطنطيوس (٣٣٧ - ٣٦١) بأنه أشد فسقا من

---

(171) SOCRAT. Hist. Ecc. I, 17

(172) SOZOM, Hist. Eccl. II, 17

(173) ATHANAS. Apol. C.Arian.6

وراجع أيضا 18.SOCART. op. cit

(174)Gwatkin, Arian Controversy, p. 48

وانظر Stanley, Lectures on the history og the Eastern Church, p. 224

(١٧٥) ليس هناك تاريخ محدد لمولد أثناسيوس، وإن كان المؤرخون جميعا يتفقون على أنه ولد بين عامى ٢٩٦ - ٢٩٨ ، راجع Gwatkin op. cit. 49 وراجع أيضا Robertson, op. cit. 14 وانظر المقال الذى كتبه Gifford فى تقديمه لأعمال كيرلس Cyrillus أسقف أورشليم ضمن مجموعة آباء نيقية Vol. VII, p. 35 ، وما كتبه Clifford عن أثناسيوس فى The Catholic Encyclopedia vol. II, p. 707 . راجع أيضا المقال الذى كتبه عنه X. Le Bachelet فى قاموس اللاهوت الكاثوليكى Dictionnaire de théologio Catholique, 1, 2, Col. 2143 - 21287

(176) Wand, A history of the early Churcrh, p. 155

(177) ATHANAS. Con. Gen. 5, 33, I, De incarn. 43 (PLATO, phaed. 246, 245, Tima. 29)

وراجع كذلك 49.Gwatikin, op. cit. p

وقارن : دكتور نجيب بلدى : تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها ، ص ٧١.

شاول Saul وآحاب Ahab وبيلاطس Pilates ، ويقول إنه " الشر الأبدى"[١٧٨]، وهو يقتبس هذا التعبير الأخير من شاعر الإغريق الخالد هوميروس[١٧٩]، ولعل هذا يعد شيئا طبيعيا فى وقت ساد فيه فكر اليونان ولغتهم[١٨٠] كما أن الارتباط بين دراسة الكتاب المقدس والتعليم اليونانى، كان شيئا متوقعا لأى تلميذ فى مدرسة الإسكندرية، بل إن معرفة أثناسيوس بالكتاب المقدس كانت قاصرة على الترجمة السبعينية[١٨١] Septuaginta .

على أنه إذا كانت الآداب اليونانية والفلسفة، قد أخذت جانبا من فكر أثناسيوس، فإن الحضارة المصرية وتاريخها، أو الديانة وأسرارها، والماضى العريق والآثار الزاهرة لمصر وأصالتها لم تحظ بنفس القدر من الاهتمام، كما يجمع عدد كبير من المؤرخين. وربما يميلون بذلك أيضا إلى العودة بنسبه إلى أسرة يونانية[١٨٢]. ولكن أثناسيوس كان قادرا على الحديث باللغة المصرية القديمة، ولعل هذا يعود إلى صلته الوثيقة منذ صباه بالقديس أنطونيوس أبى الرهبان[١٨٣]. ويدل على ذلك أيضا علاقات المودة والصداقة التى كانت قائمة بينه وبين رهبان مصر مما قدم له أعظم النفع كما سنبينه فيما بعد . وإن كان أثناسيوس رغم ذلك لم

---

(178) ATHANAS. Hist. Arian. 68

(١٧٩) من تحذير الربة كيركى Cyrce لأوديسيوس Odysseus ليتجنب المقدسة "Charybdis الأذى الخالد " HOMER. Odyss. XII 118

(١٨٠) راجع المقال الذى كتبه Bardy عن أثناسيوس فى Dict. D'hist. et geog. IV, col. 1316

(١٨١) انظر Robertson, op. cit. p. 14 ويذكر المؤرخ اليهودى يوسف Josephus أن بطليموس الثانى فيلادلفوس أراد أن يترجم إلى الإغريقية كتب اليهود المقدسة فأرسل إلى كبير الكهنة بأورشليم يطلب إليه أن يرسل إلى مصر بعض علماء اليهود وفقهاءهم لهذا الغرض . وقد أرسل كبير الكهنة إلى مصر سبعين شيخا من خيرة اليهود ، وقد قام كل منهم منفردا بالترجمة ، واستغرق كل منهم سبعين يوما فى ذلك العمل . وبمقارنة التراجم السبعين وجد أنها تطابق بعضها تماما . هذا هو ما يقوله المؤرخ اليهودى يوسف ، ولاشك أنها قصة مخترعة"
راجع : دكتور إبراهيم نصحى ، المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥.

(182) Stanley, op. cit. p. 233
وأيضا Robertson, Loc. cit.

(183) ATHANAS. Vita Ant. Pref.



يخلف لنا من أسفاره الضخمة عملا واحدا بهذه اللغة، ولكن هذا فى حد ذاته لا ينهض دليلا على كون أثناسيوس كان يونانى المولد.

والذى يمكن أن نقوله فى هذا المجال على سبيل الاحتمال، خاصة فى حالة الافتقار الكامل إلى المعلومات التاريخية عن أصل أثناسيوس، وخلو الكتب التاريخية المعاصرة له من أى حديث عنه سوى رواية روفينوس التى سبق لنا ذكرها. هو أن أثناسيوس ربما كان ابنا لأحد الأسر المصرية التى نزحت إلى ضواحى الإسكندرية(١٨٤) ويقوى من هذا الاحتمال صلته المبكرة، كما ذكرنا، بالراهب المصرى أنطونيوس، وأجادته الحديث باللغة المصرية القديمة، وعلى عادة أهل ذلك العصر، فقد دفعت به أسرته إلى تعلم اللغة اليونانية، لسان ذلك العصر، ودراسة الآداب والفلسفة الإغريقية السائدة آنذاك، والتى تعد علما على الطبقة المثقفة فى تلك الفترة، ومن ثم ترك باللغة اليونانية كل ما كتبه حتى يمكن لمعاصريه فى العالم الرومانى كله سهولة الاطلاع عليها، خاصة وأنها تتصل فى معظمها بأمر الدفاع عن نفسه والعقيدة التى يؤمن بها(١٨٥).

---

(١٨٤) يذكر بوليبوس أن الإسكندرية كانت تضم المصرين إلى عناصر سكانها الآخرين من الأغريق واليهود . يضاف إلى ذلك أن قرية راكوتيس أو رقوده المصرية القديمة كانت الأساس الذى بنى عليه الإسكندر مدينته ثم ازداد عدد المصرين فى الإسكندرية نتيجة لنقل سكان مدينة كانوب إلى الإسكندرية عندما كان كليومينيوس حاكما بأمره فى وادى النيل على عهد الإسكندر .
راجع نصحى ، المصدر السابق ، ج ١ ص٢٠ج ٢ ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٧. كما أن العصر الرومانى شهد أيضا زيادة أعداد المصرين فى الإسكندرية وضواحيها.
انظر Johnson & West, Byzantine Egypt, pp. 100 - 107

(١٨٥) يذكر الأب متى المسكين مقدم دير أنبا مقار، فى العدد رقم ١٥٠ مايو ١٩٧٣ من مجلة " مرقس " من ص ٣ إلى ص ٩ أنه " عثر شخصيا فى أرضية المكتبة القديمة بحصن دير القديس أنبا مقار تحت التراب، على ورقة مخطوطة برقم ١٩٩ (أ ، ب) " تلقى الضوء على عدة أمور فيما يتعلق بنشأة أثناسيوس ، تتركز فى نقطتين : أولاهما أن أثناسيوس كان يعيش طفولته فى كورة بجوار أخميم وأنه كان يتردد على هذه المدينة مع رفاقه من الأطفال . والثانية أنه ينتمى لأسرة مسيحية كان عائلها يعمل كاهنا لإحدى الكنائس . وعلى الرغم من أن هذه الورقة المخطوطة هى " من أصل مخطوط يحوى أخبارا تاريخية باللغة العربية، وبخط يشير إلى أن المخطوطة ترقى إلى القرن الحادى عشر – الثانى عشر ربما كانت أول ترجمة عربية لأصل قبطى " كما يفترض الأب متى المسكين . فليس من العسير التوفيق بين ما جاء فيها ورواية روفينوس ، حيث يمكن القول إن أثناسيوس قضى طفولته فى إحدى كور أخميم ثم نزح فى صباه مع أسرته إلى ضواحى الإسكندرية ، حيث التقى بالأسقف اسكندر على النحو الذى يرويه روفينوس ، خاصة وأن المخطوطة تشير أيضا إلى أن أثناسيوس كان يمارس نوعا من التناول قبل تكريسه.

غير أن فكر أثناسيوس ارتبط تماما بالكتاب المقدس(١٨٦) وكان هذا نتيجة طبيعية لمعرفته المبكرة بالأسقف السكندرى اسكندر، وفتح أثناسيوس عينيه وعقله على تراث أعلام اللاهوت في مدينته : كلمنت وأوريجن وديونيسيوس، وراح يدرس فكرهم بعمق الإنسان النابه والباحث المدقق . فى وقت كانت الأوريجنية تصبغ المدرسة السكندرية، وكان اسكندر أستاذه وراعيه أوريجنيا بالقلب والقالب(١٨٧) وقد ترك ذلك أثره الواضح فى كتابات أثناسيوس الأولى خاصة رسالته عن تجسد الكلمة، ولعلنا نلمس فى هذه الأعمال بالذات أن أثناسيوس لم يكن قد استطاع بعد أن يتخلص من تلك المؤثرات سواء الآداب الإغريقية منها أو الفكر الأوريجنى، بل لقد ظل تحت هذه التأثيرات إلى حد بعيد عندما كتب حياة الراهب أنطونيوس Vita S. Antonii فى خمسينيات القرن الرابع.

غير أن أثناسيوس لم يبق واقفا عندما خلفه الأقدمون، بل سرعان ما أخذ يخط لنفسه طريقا وسط هذه الفكر المتباينة، ومن ثم فإنه أخذ يميل مؤخرا عن الأوريجنية، نتيجة للتيارات اللاهوتية السائدة عندئذ(١٨٨)،التى تمثلت خير تمثيل فى انفجار الجدل الآريوسى العنيف، وتصاعده طيلة حياة أثناسيوس، وهو ما سوف نبحثه تفصيلا طيلة مسارنا فى هذا الكتاب. ولاشك أن العقائد الآريوسية لعبت دورا ليس بالقليل في تحديد مساره اللاهوتى ، وأدى إنكار الآريوسية للمبادئ الأولى للخلاص فى المسيحية، إلى تبلور فكر أثناسيوس اللاهوتى الكامن فى نظريته الثابتة عن عقيدة الخلاص Soteriology تلك التى عاد فيها القهقرى من لوغوس Logos الفلاسفة، إلى " الكلمة" عند القديس يوحنا . ومن اله الفلسفة إلى الله فى المسيحية(١٨٩). وارتبط أثناسيوس بالكتاب المقدس ارتباطا كاملا، واستخدمه ببراعة فى كل كتاباته التى لا يخلو أى منها من فقرات عديدة منه مقتبسة . وإن كان قد

(186) Gwatkin, op. cit. p. 49

وراجع Robertson, Loc. cit.

(١٨٧) انظر للمؤلف ، الفكر المصرى في العصر المسيحى ، الفصل الثانى

(188) Robertson, op. cit. p. 68

(189) Robertson, op. cit. p.. 68 – 69

ظل حتى آخر عمره مدافعا عن مصطلح لم يرد فى الكتاب المقدس، استخدمه عرضا، سلفه ومثله ديونيسيوس. وأضحى من بعد قانون الإيمان النيقى الأرثوذكسي . وسببا فى الجدل اللاهوتى العنيف فى القرن الرابع، أعنى " الهوموسية" .

ورغم أن أثناسيوس يلقب بأبي الأرثوذكسية، ورغم أنه، على حد تعبير جيبون Gibbon ، إذا ما طلب إليه أن يزكى عقائده، فإن عباراته وأسلوبه المرتجل، خطابة كان أم كتابة، يأتي واضحا باعثا على الإقناع(١٩٠). إلا أنه لم يختلف لنا عملا عقائديا خالصا، بل جاءت أعماله العقيدية إما بدافع الجدل اللاهوتى أو بحكم عمله كراع مسيحى(١٩١).ومن ثم فاقه فى هذا المجال نفر من معاصريه مثل يوسيبيوس القيسارى(١٩٢). وجزيجورى النازيانزى وباسيليوس الكبير(١٩٣) ولكن أثناسيوس مع ذلك كان أبرز أولئك الذين ساهموا فى إرساء دعائم عالم جديد(١٩٤).

(190) Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire, II, p. 384 .

(191) Rebertson, op. cit. p66.

(192) Gwatkin, op. cit. p. 49

(193) Gibbon, Loc. cit.

(194) Rostovtzeff, A history of the Ancient world II, p. 357.




الفصل الثاني
التجربة الأولى
أثناسيوس وقسطنطين



الفصل الثاني

التجربة الأولى
أثناسيوس وقسطنطين

فى عام ٣٢٥ وجد أثناسيوس نفسه وقد سلطت عليه أضواء الشهرة والإعجاب. ففى العام ذاك وجه الإمبراطور قسطنطين Constantinus (٣٠٦ – ٣٣٧) الدعوة إلى الأساقفة لعقد مجمع عام فى نيقية Nicaea سنة ٣٢٥ فى بيثينيا Bithynia بآسيا الصغرى) لتقرير الإيمان، وكان أول مجمع مسكونى شهدته الكنيسة، بعد أن ذاعت فى مصر وأسقفيات الشرق الرومانى بعامة، دعوى العقيدة الآريوسية، وانقسم الاكليروس المسيحى إزاءها، وأضحى هذا الانقسام يهدد السلام فى الإمبراطورية. وكانت الآريوسية فى جوهرها تبغى إرساء المسيحية على أسس عقلانية، متأثرة فى ذلك بالمدرسة الأنطاكية وأستاذها لوقيان *.

وكان آريوس Arius القس السكندرى أحد تلامذة أنطاكية[1]، قد جهر سنة ٣١٨، على أثر حوار بين اسكندر أسقف الإسكندرية واكليروسه عن " الكلمة " بأن الآب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلها حقا. فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق، ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لا متناهيان، وعلى ذلك فالله لم يكن دوما أبا، وكلمة الله لم تكن دواما، ولكنها من العدم نشأت . فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له . وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا .. ذلك أن الابن مخلوق .. لا يساوى الآب فى الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للآب، ليس حكمته الحقة، إنما هو أحد الخلائق، دعى " الكلمة" خطأ و " الحكمة " . فهو نشأ بذات كلمة الله، وبالحكمة الكامنة فيه، التى بها سوّاه الله وسوّاه، ومن ثم فهو بطبيعته عرضة

* للمزيد من التفاصيل عن الوقائع التى تضمنها هذا الفصل، راجع للمؤلف الدولة والكنيسة، جـ٢، الفصول من الثالث إلى السادس.

(1) EVSEB, Hist. Eccl VIII, 13
وراجع أيضا HIER. Vir. Ill. 7
وكذلك THEOD, Hist. Ecc. I, 4

للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق. " والكلمة" غريبة عن جوهر الآب، بعيدة ومنفصلة. والآب كيف يصفه الابن ؟ إن "الكلمة " لا تعرف الآب كنهه، والابن لا يعاين الآب يقينا. والابن لا يعرف ذات الجوهر هو ! وهو فى علاقته بالمخلوقات خالق، وبالله مخلوق، وآلة للخلق وأداة. الآريوسية بذلك تتصور مسافة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخالق المباشر محال. والابن فى رأى آريوس قمة الخلائق، غير متغير وثابت، وإن كان هذا لا يعنى الثبات فى ماهية الابن ذاتها، لكنه ثابت بحكم الواقع حسب إرادة الله، فقد جبل وخلق، فطبيعته للتحول قابلة[٢].

ومن رسالة[٣] بعث بها يوسيبيوس القيسارى إلى شعب بيعته فى فلسطين، يروى شيخ المؤرخين الكنسيين، قصة أول مجمع مسكونى شهدته الكنيسة، والمناقشات الجدلية حول العقيدة وغيرها فى جلسات المجمع وخارجه، والدور الكبير الذى اضطلع به قسطنطين فى محاولة لكى ينجح المجمع فى رسالته على أية صورة، وكان أهم ما جاء فى الرسالة على الإطلاق أنه كان زمان لم يكن الابن. فالابن مخلوق، لا يساوى الآب فى الجوهر . ولكن الجدير بالذكر أن الإمبراطور أدخل فى أمر العقيدة ما بدا أول الأمر غريبا مستغربا مثل عبارتي " المساواة فى الجوهر " أو الهوموسية Homoousios، وهى التى ذكرنا أنها وردت فى المراسلات التى دارت من قبل بين ديونيسيوس أسقف روما وسميه الأسقف السكندرى فى القرن الثالث، وكان هدف الإمبراطور واضحا من ذلك وهو إيجاد صيغة للإيمان ملائمة يلتقي عندها شطرا الإمبراطورية، وقد وجد هذه الصيغة فيما

---

(٢) انظر ATHANAS. Depos; Arii. وراجع لأثناسيوس أيضا De decr. III, 6 أنظر كذلك THEOD. Hist.ecc. 1, 3-5 والمقال الذى كتبه X. Le Bachclet عن Arianisme ضمن Dict. De théol. Cath. I, 1 راجع أيضا ما كتبه Gwatkin تحت عنوان Arianism ضمن مجموعة Cam. Med. Hist. Vol. I وكتاب Arian Controversy للمؤلف نفسه بالاضافة إلى ما جاء فى Encyclopeadia of religion and ethics, I, pp. 775-786 تحت مادة Arianism بقلم F. Jackson عن الآريوسية راجع أيضا ما كتبه W. Barry فى The Catholic Encyclopedia I ومقال F. Cavallera فى D. H. G. E. Vol. IV

(٣) انظر عن رسالة يوسيبيوس ATHANAS. Ep. Eusebii وراجع أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. I,8 وكذلك THEOD. Hist. I, II

ارتضاه قبلاً زعيما العالم المسيحي في روما والإسكندرية. أما العبارة الأخرى فهي " مولود غير مخلوق " ويخبرنا يوسيبيوس أن الإمبراطور استخدم وسائل الإغراء والقهر لحمل الأساقفة على التوقيع على قرارات المجمع وقانون إيمانه الذى غدا من بعد قاعدة الإيمان المسيحي(٤).

وتفيد التقارير الواردة من المجمع أن أثناسيوس قد حاز إعجاب الحضور بثقافته وبراعته الخطابية وفهمه العميق للكتاب المقدس، فالمؤرخ الكنسى سقراط(٥) مثلاً، بعد أن يحدثنا عن زعماء الفريق الآريوسى، يوسيبيوس أسقف نيقوميديا وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوجنس Theognis أسقف نيقية، يقول إن هذا الفريق جابه معارضة قوية من قبل أثناسيوس شماس الإسكندرية، ذى الحظوة لدى أسكندر أسقفه. أما سوزومنوس(٦) فيقول إن عديدا من الأساقفة الذين وفدوا إلى نيقية، ونفرا من الاكليروس الذين صحبوهم، استمالوا القلوب بمهارة فائقة فى الجدال، وغدوا على السبق قادرين، فشملتهم بالحدب والانتباه عيون الإمبراطور والبلاط ومن بين هؤلاء جميعا لفت أثناسيوس، الذى لم يزل شماسا جاء فى صحبة أسقفه، أنظار الجمع بذلك الجهد الضخم الذى بذله فى نقاط الجدل مشاركا . ويبدو مما كتبه أثناسيوس(٧) نفسه بعد ذلك، وأيده فيه سقراط(٨)، أن الفريق الآريوسى وأثناسيوس حملا لبعضهما منذ تلك اللحظة عداء مريرا دام قرابة نصف قرن آت.

إذ لم يكد يمضى على هذه الأحداث ثلاث سنوات سويا، حتى مات إسكندر (٣٢٨) بعد أن أوصى باختيار أثناسيوس خلفا له(٩)، وأدرك الآريوسيون أن اعتلاء أثناسيوس عرش الأسقفية، كفيل بأن يقف عقبة كأداء فى سبيل تحقيق الانتصار

---

(4) SOCRAT. Hist. Eccl. I. 8
(5) Id.
(6) SOZOM. Hist. Eccl. I. 17.
(7) ATHANAS. Apol. C. Arian 6.
(8) SOCRAT. Loc. cit.
(9) ATHANAS. Apol. C. Arian. 6
أيضا SOCRAT. Hist. Eccl.I, 17.
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. II. 17

للعقيدة الآريوسية وسيادتها على الكنيسة، ولم يكن قد ذهب من ذاكرتهم بعد، تلك الحملة التى شنها عليهم فى المجمع النيقى. وتلاقت ظنونهم مع المليتيين[١٠] فى مصر، وكان مجمع نيقية قد جرد زعيمهم ملتيوس من سلطاته وأمر برد كل الكنائس التابعة للمليتيين إلى سيادة أسقف الإسكندرية، وبدأ الفريقان مرحلة من التشكيك المستمر فى شرعية رسامته بغية التخلص منه قبل أن يستفحل أمره[١١].

لقد تسلم أثناسيوس أزمة كرسى يعلم تماما ثقله فى عالم المسيحية، وأمور أسقفية يدرك مكانتها، والهيبة التى أحرزتها بين كنائس الشرق والغرب، فى مدينة تحتل سمتا ممتازا تفوق به القرينات. فهو خليفة مرقس وديمتريوس وديونيسيوس وبطرس، وهو تلميذ بانطاينوس وكلمنت وأوريجن، ولاشك أن أثناسيوس وهو يقرأ لهؤلاء، قرأ عنهم، ووعت ذاكرته جهاد أوريجن وديونيسيوس وبطرس ضد أباطرة الوثن، وتفتح عقله على دائرة المعارف الإنسانية التى تضمها مدرسة الإسكندرية الشهيرة، وانبسطت أساريره وهو يتابع رحلة ديونيسيوس فى تأييد أسقف روما ضد النوفاتية، وصراعه ضد بولس السميسطائى وأتباع السابللية. ونجاحه فى بسط سلطان أسقفية الإسكندرية على كل أنحاء مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا . وإذا كانت الأسقفيات الثلاث الكبيرة آنذاك، روما وأنطاكية والإسكندرية، تباهى بأن القديس بطرس هو الذى أسسها، سواء بطريقة شخصية كما فى روما وأنطاكية، أو

---

(١٠) الميليتيون هم أتباع ملتيوس Meletius أسقف أسيوط Lycopolis، وكان قد انشق على كنيسة الإسكندرية سنة ٣١١ أثناء وجود بطرس الأسقف السكندرى فى السجن . وادعى لنفسه حق رسم الأساقفة على الأسقفيات الشاغرة. فلما انقشعت غمة الاضطهاد اتخذ لنفسه نهجا مستقلا ورفض قبول المارقين فى معمودية الكنيسة ثانية، وأسس بذلك كنيسة القديسين أو الشهداء . . وهم من هذه الناحية يشبهون دوناتيى شمال أفريقيا . . حتى أن المؤرخين يطلقون عليهم دوناتيى مصر . راجع للمؤلف " الدولة والكنيسة " . الجزء الثانى . الفصل الخامس والفصل السادس.

أنظر أيضا ما كتبه F. Jackson تحت عنوان Meletianism فى Encycl. of rel. and eth. Vol. VIII وكذلك ما كتبه عنها E. Amann ضمن Dict. De théol. Cath. Vol. X, I, col. 531-536

(١١) نظر ATHANAS. Apol. C. Arian. 6 وراجع أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. I, 17 وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 17

بالنيابة عن مرقس فى الإسكندرية، وإذا كانت أنطاكية تفاخر بأنها حاضرة الشرق، وروما لأنها عاصمة الإمبراطورية تتعالى، فأن الإسكندرية تسمو باعتبارها مركز الثقافة والفكر فى العالم الهلنستى[12]، وحق للإسكندرية أن تعلو فوق الجميع لا بالمركز والموقع، دنيا المادة فحسب ولكن بالثقافة والآداب وتراث الإنسانية، عالم الفكر ، وهناك من وراء، الإسكندرية، وعلى الامتداد الطويل للنهر الخالد حتى طيبة، تزخر صحراء مصر بحياة جديدة، أهلوها الرهبان حصن المسيحية وعضد أثناسيوس .

لقد كان أثناسيوس حريصا الحرص كله على أن يبقى للإسكندرية مسيحية الأسلاف، وأن تظل لأسقفيته السيادة الكاملة، التى مارسها من قبل ديمتريوس وديونيسيوس، وأضحت أمرا واقعا أقره المجمع النيقى فى قانونه السادس : " طبقا للتقليد الثابت، يمارس أسقف الإسكندرية سيادته على مصر وليبيا والمدن الخمس شأن أسقف روما فى الأقاليم التابعة له وأسقف أنطاكية فى المناطق الخاضعة لسيادته[13].

وقد دل سلوك أثناسيوس منذ البداية على ما نذهب إليه من عزمه على أن يجعل من اللقب الذى يحمله واقعا عمليا، فنعلم من دليل رسائله الفصحية، أنه لم يكد يمضى عام على خلافته لإسكندر، حتى راح يباشر صلاحيات الأسقفية، فقام فى سنة ٣٢٩ بزيارة لمصر العليا وطيبة[14] ثم نجده يتفقد أمور الكنيسة والجموع في المدن الخمس وأمونياكا Ammoniaca عام ٣٣٢/٣٣١[15]، ولم يأت عام ٣٣٤ حتى كان قد استكمل رحلته بالذهاب إلى كنائس الدلتا[16].ولاشك أن أثناسيوس كان يدرك تماما مرارة الصراع الدائر حتما بينه وبين خصومه من الآريوسيين

---

(12) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 7, 73.

(13) Percival, The Seven ecumenical Councils, p. 15.

(14) FEST. IND. I

(15) Ibid. IV.

(16) FEST. IND. IV.

وراجع Cavallera, Saint Athanase, p. 9

والمليتيين، ومن ثم أراد أن يوطد دعائم أسقفيته فى كل الكنائس الخاضعة له، ويقول جيبون " لقد كان أثناسيوس يقوم بزياراته الأسقفية لكنائس مصر كلها من فم النيل إلى تخوم أثيوبيا، يحادث جموع المسيحيين بألفة ويحترم قديسى الصحراء وناسكيها[١٧].

وقد آتت هذه السياسة على الفور أكلها، كما ستخبرنا الأحداث من بعد طوال عهد أثناسيوس، ولو شئنا أن نقدم لذلك مثلا، لأسعفتنا الأيام بذلك الجمع الحاشد من الاكليروس الذى صحب أثناسيوس فى رحلته إلى صور لحضور المجمع الذى عقده الآريوسيون هناك سنة ٣٣٥ لمحاكمة الأسقف السكندرى، حتى لقد اتخذ المؤتمرون من هذه " المظاهرة " اتهاما جديدا أضيف إلى قائمة الاتهامات العديدة الموجهة ضد أثناسيوس، والمدرجة ضمن جدول أعمال المجمع[١٨]، ولم يحدث أن تقلصت على الامتداد الطويل لأسقفية أثناسيوس سيادة كرسى الإسكندرية، وحتى السنوات الأخيرة من حياته، كان الأكليروس المصري جميعه وليبيا والمدن الخمس، على قلب رجل واحد هو أثناسيوس، أو بتعبير أثناسيوس نفسه، على عقل وفكر رجل واحد " ويحصيهم عدا تسعين أسقفا[١٩].

وكان من الطبيعى إذن خلال فترة أسقفيته الطويلة أن تشغل كل الأسقفيات في مصر بأتباعه المخلصين[٢٠]، وليس أدل على ذلك من أنه قام بعزل عدد كبير من الأساقفة ورجال الاكليروس الذين لا يتفقون وإياه، وقد جاء هذا صراحة فى الاتهامات التى وجهت إليه أثناء المجمع الذى عقد فى صور سنة ٣٣٥ لمحاكمته، فقد أذاع كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه حرمه من منصبه الكهنوتى وولى بدلا منه آخر يدعي مرقس[٢١]، كما أن الرسائل الفصحية

---

(17) Gibbon, op. cit. 11, p. 385.
(18) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25.
(19) ATHANAS. Ad. Afros, 10
(20) Robertson, op. cit. p. 76.
(21) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25

التي كان يبعث بها أثناسيوس، حتى فى فترات نفيه المتتالية(٢٢)، كانت تتضمن أوامر بسيامة عدد من الأساقفة، ويذكرهم أثناسيوس بأسمائهم(٢٣)، ولاشك أن هذه السياسة التي جرى عليها أثناسيوس كان لها أكبر الأثر فى القضاء على خصومه خاصة من الآريوسيين والمليتيين في مصر . يقول روبرتسون Robertson أن السيادة السريعة التي حققها أثناسيوس على كل مصر والمدن الخمس وليبيا، والضم العملي للكنائس المنشقة وإخضاعها لسلطانه، والولاء الشخصي الكامل من جانب اكليروسه والرهبان، يبرز فى جلاء شخصية أسقف الإسكندرية(٢٤).

وفى هذه الأثناء كان قسطنطين العظيم قد استطاع عبر ثمان عشرة سنة (٣٠٦ – ٣٢٣) أن يتخلص من كل منافسيه على عرش الإمبراطورية، وتمكن فى سنة ٣٢٣ وفى معركة خريسوبوليس Chrysopolis من الانتصار على آخر الخصوم ليكينيوس Licinius، وأصبح بذلك الحاكم الفرد للإمبراطورية بعد فترة الحرب الأهلية الطاحنة(٢٥). وكان في الوقت ذاته قد قطع شوطا بعيدا في جذب المسيحيين واستمالتهم إلى جانبه(٢٦).

ولكن يبدو أن قسطنطين كان متفائلا أكثر مما يجب، لأن السياسة الجديدة التي اتبعتها الدولة إزاء المسيحية، والتي بدأت أولا فى صيغة اعتراف حكومي بشرعية وجودها سنة ٣١٣ فيما يسمى خطأ مرسوم ميلانو، وحتى استولى العثمانيون على القسطنطينية، قد ورطت الأباطرة جميعهم فى مشاكل لاهوتية لا قبل لهم بها، وكان قسطنطين ذاته أول من اصطلى بنارها.

ذلك أن الكنيسة ما إن بدأت تتذوق طعم سلام حرمت منه ثلاثة قرون، حتى

---

(٢٢) انظر بعده . . .

(23) ATHANAS. Ep. Ad Serap. A. D. 340. Ep. Fest, XIX 347

(24) Robertson, op. cit. P. 66

(٢٥) راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، ج٢، الفصل الثاني .

(٢٦) أفاض يوسيبيوس القيساري في ذكر الوسائل التي استخدمها قسطنطين في سبيل تقريب المسيحيين إليه.. والهبات والخيرات التي أغدقها على الكنيسة .
أنظر EVSEB. Vita Const. 11, 30-47.

راحت تنبش خبئ العقيدة وغوامض الكلم. ولا يعنى هذا أن الخلافات اللاهوتية حول طبيعة المسيح كانت وليدة القرن الرابع، بل إنها تمتد إلى القرن الأول الميلادى منذ أخذت المسيحية تخرج من النطاق اليهودى وتمضى إلى طريق أمم، وتخالط الفلسفات والعقائد السائدة ، وتهجر كارهة أسلوب التبشير بمعجزات المسيح، إلى الإقناع عن طريق العقل . ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف . ويكفى أن نقرأ تاريخ الكنيسة ليوسيبيوس لنعلم منه، رغم تحفظه الشديد، هذه الحقيقة والفرق العديدة التى نشأت تجادل حول طبيعة المسيح. ولم تكن الدولة الوثنية تعير هذه الخلافات أى اهتمام، إذ كانت تنظر إلى المسيحية نظرة شاملة، فلم يكن يعنيها فى شيء أمر الصراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم، ومن ثم لم تفرق فى اضطهادها بين فرقة وأخرى ، أما الآن وقد انقشعت غمة الاضطهاد الوثنى وساد السلام، ظهرت على السطح كل هذه الصراعات الكامنة، واستحدث إعمال الفكر فرقا أشد أثرا . ويقول المؤرخ إينز Innes " لم يكن يدور بذهن أحد عندما غدا العالم مسيحيا أن تختلط أمور الكنيسة بالدولة وأمورها، ذلك أن هذا الاختلاط قد تم عن طريق الصدفة البحتة، فقد كانت العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الإمبراطورية الوثنية علاقة انفصال، لكل من النظامين المدنى والكنسى شكله المتميز[٢٧].

وقد واجه قسطنطين وهو بعد سيد القسم الغربى من الإمبراطورية، المسألة الدوناتية[٢٨]، فى أفريقيا واغتبط إذ رأى الكنيسة تسعى إليه، وعليه تعرض خلافاتها، وأعطى للأمر كل اهتمامه وهو يرى أعاصير الخراب توشك أن تهدد أغنى ولايات الغرب الإمبراطوري ومصدر تموين روما بالغلال، وذلك بعد أن لجأ الدوناتيون إلى العنف ، فراح يعقد المجامع الكنيسة فى روما ٣١٣ وآرل Arles

(27) Innes, Church and State, p. 38

(٢٨) للمزيد من التفصيلات عن مسألة العماد عند الدوناتيين والخلاف بينهم وبين الكاثوليك راجع AVG. de bap. Donat, 1, 3-4 وأنظر Latourette, expansion of Christianity, I, p. 348. وما كتبه Hefele فى موسوعته عن المجامع Histoire des Conciles I, 1, pp. 273-297 وعن رسائل قسطنطين فى هذه الناحية ، راجع EVSEB. Hist. Eccl. X, 6

٣١٤، وجهد حتى يمثل الأخير عالمية عالمه عندئذ، على حد تعبير القديس أوغسطين (+ ٤٢٩) Augustinus، ثم يفصل في الأمر بنفسه في ميلانو سنة ٣١٦، ويدين كما أدانت المجامع من قبل الدوناتيين، ويعفو عن الجميع سنة ٣٢١، ثم يترك المشكلة دون حل عندما أخذ يسعى نحو الشرق أمله ومبتغاه !! .

غير أن ما لقيه قسطنطين في الشرق كان أشد ضراوة، ذلك أن خطر الدوناتية كان رأسيا، فلم يتعد أفريقيا ونوميديا، أما المشكلة الآريوسية فقد اتسعت عرضا لتشمل كنائس مصر وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى . وقد قطع الإمبراطور آلاف الأميال في رحلة السلطة، من هناك في أقصى الغرب عند بريطانيا، إلى الشرق، وقد عبر قسطنطين عن ذلك بقوله في رسالته إلى أهالي فلسطين :

" لقد كنت عدة الرب التي اختارها وقدر صلاحها لإنفاذ مشيئته "
" وعليه فإنه ابتداء من المحيط البريطاني البعيد، والأقاليم "
" التي وفقا لقانون الطبيعة تستتر الشمس فيها بالأفق، وبمدد"
" إلهي، أقصيت تماما وأزلت كل صنوف للشر سادت، أملا "
" وأداتيتي للرب تنير خطوي، أن يرعى البشر ناموس الإله"
" المقدس، ويزدهر بهدى يديه المقتدرة معتقدنا الطوباوي..."
" ها أندا إلى أقاليم الشرق أسعى حيث أمست تحت نير الكوارث"
" الجسام تتحرق لطباب شاف على يدي "(٢٩).

وهكذا اعتبر الإمبراطور نفسه " مبعوث العناية الإلهية" و " محبوب الرب " وهللت الكنيسة لذلك كما جرى به قلم شيخ مؤرخيها يوسيبيوس القيساري . غير أن الشرق الإمبراطوري فجأ قسطنطين بذلك الصدع الكبير الذي هدد وحدة الكنيسة والإمبراطورية، أعني المشكلة الآريوسية . وحسب الإمبراطور نفسه، بما له من دالة على الكنيسة، وبزهو عسكري لا تزال تتردد أصداؤه، بقادر على أن يحسم هذا الخلاف في مهده، فأوفد مستشاره الديني هوسيوس Hosius أسقف قرطبة،

(29) EVSEB. Vita Const. II, 28, 29.

إلى اسكندر وآريوس سنة ٣٢٤ وحمله رسالة تفصح عن ثقافة فاجلة، وباللاهوت جهالة، وتحمل الرجلين بالوعيد تبعة الأحداث ونتيجة الشقاق(٣٠). غير أن قطبى النزاع أصر كل منهما على رأيه فى المسيح.

ولما حملت الأنباء خبر فشل هوسيوس فى مهمته طار صواب الإمبراطور وأعمل الفكر ، ولم يجد أمامه إلا أن يدعو أساقفة المسكونة إلى اجتماع عام لبحث هذه القضية التى تهدد كنائس الشرق بعامة . وفى نيقية سنة ٣٢٥، التقى ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الإمبراطورية، وطرحت على الحضور آراء آريوس، غير أن المؤتمرين أدانوا ما نادى به آريوس، وآريوس وصحبه، وصدر قرار الإمبراطور بنفى زعماء الآريوسية الثلاثة، آريوس قس الإسكندرية، ويوسيبيوس أسقف نيقوميديا، وثيوجنس أسقف مدينة المجمع(٣١). وانتهى المجمع إلى إصدار صيغة للعقيدة، عرفت بقانون الإيمان النيقى، وأضحت قاعدة الإيمان الأرثوذكسي للكنيسة الكاثوليكية، وتضمنت كما أسلفنا عبارتى أن " الابن مساو للآب فى الجوهر " أو " الهوموسية " وأيضا " مولود غير مخلوق " . وهكذا توهم الإمبراطور أنه قد كسب الجولة الثانية " على أعداء الرب " حسب تعبيره ودعائيته، وحسبما يروى يوسيبيوس(٣٢)، ويقول نورمان بينز Norman Baynes معلقا " لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس(٣٣)، ولعب بخيال الإمبراطور عندها أنه قد أطبق على النصر فى الميدان والعقيدة.

---

(٣٠) يصف الإمبراطور مسائل الجدل حول طبيعة المسيح ولاهوته فى رسالته هذه بأنها " مسائل تافهة " و"عقيمة" و " خلة حمق صبيانى " . وإنه لا يجب على إسكندر أو آريوس أن يشغلا نفسيهما بمثل هذا الجدل العقيم . ويحملها مسؤلية انتقال الشقاق من الكنيسة إلى الجموع . عن الرسالة راجع EVSEB. Vita Const, II, 69

(31) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 8-13

وانظر SOZOM. Hist. Eccl. 1, 17-22

وكذلك THEOD. Hist. Eccl. 1, 7, 8

وراجع ما كتبه أثناسيوس حول الخلاف العقائدى والمجمع فى De decr وكذلك Orat. C. Arian. 1, 4.

(32) EVSEB. Vita. Const. 111, 14.

(33) Baynes, Constantine (Cam. Anc. Hist.) XII,p. 697.

غير أنه طوال ثلاث سنوات آتية (٣٢٥ – ٣٢٨) لم يشهد الإمبراطور فى الكنيسة ذلك السلام الذى حسب أنه حققه بمقتضى قرارات هذا المجمع المسكونى. فقد حملت إليه التقارير أنباء الاضطرابات التى يثيرها المليتيون فى مصر ضد الأسقف السكندرى خلافا لما قرره مجمع نيقية[٣٤]، كما أن الآريوسيين فى مصر وخارجها راجوا يذيعون فى الجموع أن مجمع نيقية لم يتوخ العدالة فى بحث الآراء الآريوسية، وأن آريوس وصحبه قد تم نفيهم دون وجه حق، حتى استمالوا إليهم عددا كبيرا ، ووجدها الآريوسيون فرصة سانحة لجذب الأنظار إلى قضيتهم ثانية، وفى الوقت الذى كانت المليتية تقدم للمسيحية تنظيما كنسيا، كانت الآريوسية تحمل لها فكر عقيدة ، وكلتاهما تستنكر تعاليم الأخرى، ألا أن التذمر المشترك ضد مجمع نيقية وصيغة الإيمان التى صنفها، والقوانين التى أصدرها، والقرارات التى صادق عليها، جمع على درب الثورة جهدهما، وانصب ذلك فى قالب عداء تجاه أسقف الإسكندرية لا لشخصه كأثناسيوس فحسب، بل بقدر كونه تجسيدا لمجمع يمقتون كل ما يذكرهم به . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله يقول يوسيبيوس، فى أسلوب ماكر مراوغ سخر منه سقراط[٣٥] ساد السلام فى كل مكان إلا مصر وحدها، لا زال يتأجج فيها أوار جدل مستعر، أفسد على الإمبراطور سكينة مسرته"[٣٦].

ودار بخلد الإمبراطور أن إعادة زعماء الآريوسية الذين سبق له أن نفاهم، ربما خفف من حدة هذه الاضطرابات . لقد أرضى الكنيسة كلها بقرار مجمع عام، فلا ضير أن يسترضى طائفة، كان من قبل أدانها، فيعيد إليها زعماءها ليأتلف الجمع، يدفعه إلى ذلك عدم فهم تام للخلافات العقيدية، ورغبة صادقة فى السلام، ومن ثم استدعى إليه يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس النيقى وأعادهما ثانية إلى

---

(٣٤) كان من بين ما قرره مجمع نيقية فيما يختص بالمسألة المليتية. حرمان مليتيوس من رسم أى من رجال الأكليروس . ولكن مليتيوس لما أحس بدنو أجله خالف ذلك واختار خلفا يدعى حنا Iohannmes أسقفا على أسيوط . وكان هذا تحديا صريحا لسيادة أسقف الإسكندرية وخروجا على سلطانه .

أنظر SOZOM. Hist. Eccl. 11, 21 وراجع أيضا ATHANAS. Apol. G. Arian 71

(35) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 23.

(36) EVSEB. Vita. Const. 111, 23.

أسقفيتيهما، بل وحظى الشيخان لدى الإمبراطور بمكانة مرموقة، لاشك أراد بها قسطنطين أن يخفف من غلواء أتباع نيقية وأن يحفظ التوازن فى دولته . ثم عفا عن آريوس وأعاده من منفاه(٣٧)، وقبل على مسئوليته الخاصة وثيقة إيمان غامضة قدمها الرجل، تعترف بإيمان الآباء ولكنها جاءت خلوا من عبارتى " مساو للآب فى الجوهر " و " مولد غير مخلوق "(٣٨) . ولم يحاول أن يقف على رأى الكنيسة فى ذلك، فقد أخذ لنفسه ذلك الحق مذ جعلت منه الكنيسة قاضيها، وسمحت له بترأس مجامعها الدينية، بل والتدخل فى أمر العقيدة، ولم يكن الإمبراطور ينظر إلى نفسه باعتباره الحاكم الأعلى والقائد العسكرى فحسب، ولا القاضى الأول والمشرع الوحيد فقط، بل حامى الكنيسة " مبعوث الرب "، كما عبر عن ذلك بنفسه(٣٩)، ويقول أوستروجورسكى Ostrogorsky إن الإمبراطور كان الممثل والرمز الحى المتجسد للإمبراطورية، التى عهد بها الرب إلى ثقته، وما على رعاياه إلا أن يكونوا طوع أمره(٤٠) وانطلاقا من هذا التصور كتب إلى الأسقف السكندرى أثناسيوس، ولما يمضى على توليه منصبه إلا أشهر قليلة، يأمره بقبول آريوس فى شركة الكنيسة ثانية، والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية(٤١) وبلهجة أشد صرامة تحمل فى طياتها نغمة التهديد، كتب يوسيبيوس النيقوميدى أيضا إلى أثناسيوس حول هذا المعنى(٤٢) ولشد ما كان فزع قسطنطين عندما أرسل إليه الأسقف السكندرى ما يفيد عدم تنفيذ رغبته(٤٣).

كان لابد إذن أن يلتقى الرجلان، الإمبراطور والأسقف، ولكن على طريق الخلاف، بالتراث الماثل وراء كل منهما، وبالحاضر الذى يخب فيه كلاهما اتسعت

---

(37) SOCRAT. op. cit. 1, 25

(38) Id.

(٣٩) أنظر قبله . ص ٥٧-٥٨ .

(40) Ostrogorsky, History of the Byzantine State p. 29

(41) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 27.

(42) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 18

(43) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60

هوة الخلاف. ويقول ستانلى معلقا " إذا كانت حياة قسطنطين يمكن أن تعد المفهوم الزمنى والإمبراطورى لكنيسة القرن الرابع فإن المفهوم الكنسي اللاهوتى لذات القرن يتمثل فى حياة أثناسيوس"(٤٤).

يخبرنا سوزمنوس أن الغضب قد استبد بالإمبراطور، إزاء رفض أثناسيوس قبول عودة آريوس، ونتيجة للأنباء التى حملت إليه نذر الاضطرابات بين المليتيين والأسقف السكندرى(٤٥)، كما ذكرنا ، فكتب إلى أثناسيوس هذه الرسالة:

" ليكن بينا لديك، أنه إذا ما ورد إلى علمنا أن أحدا ممن "
" يرغبون فى العودة إلى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى"
" لأبعثن على التو من يتولى عزلك إنفاذا لمشيئتي، ويقذف بكم "
" إلى المنفى"(٤٦).

ولكن الأقدار شاءت أن يتغافل قسطنطين عن هذا التهديد إلى حين، فقد وقع صراع فى سوريا، جذب إليه انتباه الإمبراطور، وتمثل فى الجدل اللاهوتى بين يوسيبيوس القيسارى، ويوستاثيوس Eustathius أسقف أنطاكية وأحد رجال النيقية الشهيرين، وذلك حول " الهوموسية " التى أقحمت على العقيدة - وكان هذا النزاع بداية طريق طويل، يسجل على كل ذراع منه معركة حامية بسبب هذا التعبير. فقد اتهم يوستاثيوس الأسقف الأنطاكى يوسيبيوس أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الإيمان النيقى، ورد الأسقف القيسارى جاعلاً من يوستاثيوس سابلليا، ونتيجة لذلك أو "لسوء الفهم المتبادل" حسبما يروى سقراط،كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا(٤٧).

ولحسم هذا الجدال، وجهت الدعوة لعقد مجمع تم إلتآمه فى أنطاكية سنة ٣٣٠ انتهى بإدانة أسقف أنطاكية وعزله(٤٨) وبعدها أسرع الأساقفة للقاء

(44) Stanley, op. cit. p. 222.
(45) SOZOM. op. cit. 11, 22.
(46) Id.
(47) SOCRAT. Hist. Eccl.1, 23.
(48) EVSEB. Vita Const. 111, 59.
وراجع كذلك SOCRAT. Hist.eccl. 1, 24.

الإمبراطور الذى صادق على قرارهم وأصدر أوامره على الفور بنفى يوستاثيوس[٤٩]، وهكذا أحرز الأريوسيون أول انتصار لهم بعد لطمة نيقية، وأذل الإمبراطور شيئا ما كبرياء الجماعة النيقية، ولعل مما يدعم ذلك ما يقوله سقراط معلقا : " لقد كان هذا أمرا شائع الحدوث، يأتيه الأساقفة متى عنّ لهم ذلك، يسوقون الدعوى ضد الخصوم متهمين، يعلنون أنهم قد ضلوا سواء السبيل، أما وقائع الدعوى، أما الأدلة فلا موجب لها، وليس إليها من سبيل[٥٠].

ويؤرخ مجمع أنطاكية تحول الجدل عن مساره اللاهوتى، إلى الصراع الشخصى السياسى متخذا من اللاهوت ستارا حينا وسافرا أحايين . وتزعم يوسيبيوس النيقوميدى الجماعة الاريوسية حتى خلع عليها اسمه لفترة من الزمن قبل أن تنقسم الآريوسية على نفسها.

والآن، خلا مسرح الشرق الدينى من شخصية قوية يمكن أن تؤدى دورا فى صالح النيقية. ومن ثم اطمأن اليوسابيون إلى قوة جانبهم هناك، ولكن بقى فى الميدان أثناسيوس، رجل الإسكندرية العنيد، وكلما زاد نشاطه جيئة وذهابا مشرفا على الكنائس التابعة له، يجمع من حوله القلوب استعدادا للقاء الخصوم، استحث اليوسيبيوسيون الخطو جادين، لدى قسطنطين يبينون له أن وحدة الكنيسة وبالتالى السلام، رهن بأن يجرى على أثناسيوس ما جرى ليوستاثيوس، ولقد وجد ذلك هوى فى نفس قسطنطين خاصة بعد رفض أثناسيوس قبول عودة آريوس، وكان كل ما يشغل بال الإمبراطور أن يكون السيد الأول فى إمبراطورية موحدة . وكان يوسيبيوس النيقوميدى وصحبه أذكى من أن يصوروا القضية نزاعا بين الإمبراطور والأسقف، وإلا غدا أثناسيوس فى نظر شعب الكنيسة بطلا، ومن ثم عولوا على أن يغلف النزاع دائما فى صورة كنسية، يأتى دور الإمبراطور فيها فى اللحظة الأخيرة . من أجل هذا راحوا يؤلبون الأساقفة جميعا ضد أثناسيوس، ويقدمون للإمبراطور كل يوم دليلا جديدا على ولائهم وتعالى الأسقف السكندرى.

---

(49) HIER. Vir. Ill. 85.
(50) SOCRAT. Loc. cit.

وقد يسر أثناسيوس السبيل لنجاحهم بسلوكه العام تجاه الأساقفة، ومسلكه إزاء الإمبراطور. ولعل أثناسيوس قد اقتنع أن الشهرة التى حازها فى المجمع النيقى وقرار المجمع، ومكانة الكرسى الذى يعتليه فى عالم المسيحية، سند كاف لإحباط مسعى الخصوم لدي الإمبراطور، ولكن الحقيقة التى بينتها الأحداث تدل على أن أسقف الإسكندرية ظل حتى وفاة قسطنطين لا يعرف قسطنطين.

وصل الفريق اليوسيبيوسى بالمليتيين فى مصر خطوطه، وراحوا يبحثون عن كل ما يعكر صفو السلام بين الإمبراطور والأسقف السكندرى، فأذاعوا ضده عدة اتهامات، استدعاه الإمبراطور على أثرها إلى القسطنطينية . ولكن أثناسيوس تمكن من أن يبرئ ساحته، بالإضافة إلى أن قسطنطين أراد أن يفوت الفرصة على اليوسابيين ، حتى لا يحقق لهم نصرا ثانيا ساحقا بعد الذى أحرزوه فى أنطاكية، خاصة وأن الإمبراطور كان قد رسم سياسته على عدم الانتصار كلية لفريق دون الآخر ، ومن ثم أدرك أن وجود أثناسيوس الآن فى أسقفيته ضرورى لتحقيق التوازن مع الفريق اليوسابيين الذى تزداد قوته يوما بعد يوم، ويكفيه أنه حد ولو قليلا من صلابة أثناسيوس باستدعائه إلى البلاط . ولكن لم يغب عن ذهن الإمبراطور فى الوقت ذاته، أن وجود الأسقف السكندرى فى كنيسته، والعداء الكامن مع اليوسابيين خطر حقيقى . أما الآن فقد رفض الإمبراطور كل هذه الاتهامات، بعد أن حقق ما يسعى إليه من إثبات سيادته على الكنيسة مرة أخرى، وكأن المرات العديدة السابقة لم تشبع رغائبه ، فسمح أثناسيوس بالعودة إلى أسقفيته، وحمله إلى رعيته رسالة يستحثهم فيها على نبذ دواعى الشقاق العقيدى والتمسك بأهداب المحبة، ويحمل حملة شعواء على مثيرى الفوضى" ثم يمتدح أسقفهم معلنا أنه قد " لقيه بما يجب أن يلقى به رجل الله "(٥١).

أدرك اليوسابيون أنهم قد أحيط بهم بعد أن خذل الإمبراطور مسعاهم هذه المرة، ولو تأملوا سياسة قسطنطين تجاه الفريقين منذ البداية، لما رأوه قد حاد

(51) ATHANAS. Apol. C. Arian.60

عنها. فهو يراسل في البدء إسكندر وآريوس يدعوهما إلى المصالحة، وفض الخلاف " التافه "، " العقيم " وترك هذا " الحمق الصبياني "(٥٢)، ثم هو ينتصر لمجمع نيقية وينفي زعماء الآريوسية ثم لا يلبث أن يعيدهم و يقربهم، ثم ينتصر لليوسابيين ويعزل يوستاثيوس، ثم ها هو الآن يتصدى لهم ويطلق أثناسيوس. لهذا راح اليوسابيون يعيدون رسم خططهم من جديد عن طريق عزل أثناسيوس، لا عن أسقفيته هذه المرة ولكن تمهيداً لها، عن بقية أساقفة الكنيسة في الشرق، بأن يصموه متعجرفا بتعالي، وساعدهم أثناسيوس بسلوكه على ذلك.

وقد ساعدت بعض الأحداث التي وقعت في مريوط على تحقيق أهداف الفريق اليوسيبيوسي، والذي يعنينا من هذه الأحداث أن اليوسيبيوسيين والمليتيين قد استغلا ذلك في الدعاية ضد الأسقف السكندري، ولما وصلت هذه الأنباء إلى قسطنطين، سارع يكتب إلى الرقيب دلماتيوس Dalmatius في أنطاكية يأمره بالتحقيق في تلك الوقائع، ومنحه سلطة استدعاء الأطراف المختلفة لتمثل أمامه، وطلب إليه توقيع أقصى العقوبة على من تسبب في إشاعة هذه الفوضى بالقول أو العمل، وأمر كلا من يوسيبيوس النيقوميدي وثيوجنس بالذهاب أيضا إلى أنطاكية لمتابعة التحقيق(٥٣). غير أن أثناسيوس تمكن بجهود رجاله من كشف هذه الادعاءات(٥٤)، وكتب إلى الإمبراطور يخبره بذلك، ويقدم الأدلة على صدق دعواه(٥٥)، فأمر قسطنطين بإيقاف إجراءات التحقيق مباشرة(٥٦)، وكتب إلى أثناسيوس رسالة دعاه فيها إلى عدم الالتفات إلى مثل هذه الشائعات، وألحى باللائمة على المليتيين باعتبارهم سبب هذه الفوضى(٥٧).

---

(52) EVSEB. Vita Const. II, 69
(53) SOCRAT. Hist.ecc. I, 27
(54) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65
وراجع كذلك SOCRAT. Hsit. Eccl. II, 23
(55) ATHANAS. Loc. cit.
(56) SOCRAT. Loc. Cit.
عن أحداث مريوط راجع المؤلف : الدولة والكنيسة – الجزء الثاني – الفصلين الخامس والسادس.
(57) ATHANAS. op. cit. 68

هكذا وللمرة الثانية على التوالى، فوت قسطنطين على اليوسابيين فرصة النيل من أثناسيوس، ليس لميله إلى جانب الأسقف السكندرى، ولكن لعله أخر ذلك إلى حين، عملا بسياسة التوازن بين الفرق العقيدية المتصارعة، ولعلنا نتساءل، كيف يقف الإمبراطور من أسقف الإسكندرية هذا الموقف، فى الوقت الذى رفض فيه أثناسيوس قبلا أوامره بقبول آريوس فى شركة الكنيسة؟! الحقيقة أن آريوس منذ عاد من منفاه لم يجر ذكره بعد ذلك على أقلام مؤرخى الكنيسة إلا فى مناسبتين فقط، مجمع أورشليم سنة ٣٣٥، حيث وافق الأساقفة على عودته إلى الكنيسة، ثم وفاته عام ٣٣٦ فى القسطنطينية ، ولا شىء غير ذلك . ويبدو أن آريوس كان قد تقدم به العمر، ولم يكن له منذ البداية أى مطمح إلى جاه أو رغبة فى سلطان : فقد قام يناقش عقيدته بالعقل والمنطق دون إكراه أو تهديد، ولذا آثر حياة الهدوء فى العاصمة إلى جوار الإمبراطور، ولم يحاول مطلقا أن يتدخل فى أمر من أمور الصراع الدائر فى الكنيسة آنذاك . وقد يكون قسطنطين نفسه هو الذى أراد له هذا الهدوء، فقد كان يعلم تماما مدى ما تحدثه عودة آريوس إلى الإسكندرية من فوضى عنيفة بين أنصاره والنيقيين وعلى رأسهم أثناسيوس، ومن ثم لم يحاول الإمبراطور ثانية أن يستثير شعور الأسقف السكندرى وأهل بيعته بهذا الأمر، ولكن أتباعه الذين انضووا تحت لواء رفيق فكره يوسيبيوس النيقوميدى ظلوا مخلصين له يحاولون جهدهم لإعادته إلى الإسكندرية.

ويبدو أن قسطنطين قد آثر أن يبرئ أثناسيوس نفسه أمام مجمع كنسى، حتى يمتنع خصومه عن إثارة العقبات فى وجهه ثانية، وتأكد لديه هذا الرأى عندما تلقى رسالة من جنا، الذى خلف ملتيوس فى أسيوط فى رئاسة جماعة المليتيين يخبره أنه قد آثر السلام مع أثناسيوس، مما دفع قسطنطين إلى دعوته لزيارة العاصمة[58]. وحسب الإمبراطور أنه بهذا المجمع يضع نهاية لكل هذا الصراع، وكان اختياره لمكان لقاء الأساقفة دليلا على سياسة التوازن التى ارتضاها، فأمر سنة (٣٣٣) بأن تكون قيسارية هى الملتقى، خاصة وأن على رأسها يوسيبيوس

(58) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69

صاحب الميول المعتدلة. غير أن أثناسيوس كان يرى غير ذلك تماما، إذ أدرك أن يوسيبيوس لن يكون صاحب الكلمة الأولى فى مجمع يحضره سميه النيقوميدى وثيوجنس النيقى، وهم في الحقيقة خصومه وقضاته، يضاف إلى هذا أنه بذهابه إلى المجمع ووقوفه أمام الأساقفة موقف المدافع عن نفسه، يضع نفسه موضع الاتهام الصحيح . وفوق هذا وذاك فقد كان أثناسيوس يرى أنه أعلى من كل خصومه قدرا بتربعه على كرسى كنيسة الإسكندرية، ومن ثم فليس من حق أحد من هؤلاء أن يقاضى أسقف الإسكندرية. ولم يكن يخفى على أثناسيوس أن ذهابه إلى قيسارية ربما كانت محاولة جديدة من جانب الخصوم لإبعاده عن بيعته وأنصاره كما حدث قبل ذلك عند استدعائه إلى القسطنطينية ، وهو فى قيسارية سوف يجد نفسه وحيدا ضد كل الخصوم ، لهذا كله رفض أثناسيوس حضور المجمع وظل على عناده هذا كما يقول سوزومنوس(٥٩)، طيلة ثلاثين شهرا، رغم الإلحاح المستمر فى طلبه، وأقدم أثناسيوس فى شىء من الثقة الكاملة والتحدى للجمع، على القيام بزيارة كنائس الدلتا(٦٠) فى جولة من جولات الإشراف الكامل على شئون بيعته.

أدى أثناسيوس بمسلكه هذا إلى أن يحقق اليوسيبيوسيون فى جولة واحدة، ما خسروه من قبل فى جولات، فقد عد الأساقفة هذا السلوك من جانب زميلهم السكندرى تعاليا عليهم وسخرية، فى الوقت الذى تأكد لدى الإمبراطور صدق حدسه، وصدق دعوى اليوسابيين أن سلام الكنيسة رهن بإبعاد ذلك الأسقف العنيد. ففى الوقت الذى قبل فيه آريوس وصحبه قبل ذلك بخمس سنوات (٣٢٨) أن يقدموا وثيقة إيمان عدها الإمبراطور قويمة تتفق والإيمان النيقى، لا يزال أثناسيوس حتى الآن يرفض أى تقارب مع الفريق المضاد، وبدا هذا لعينى إمبراطور لا يدرك من أمر اللاهوت شيئا، مكابرة من أثناسيوس وعجرفة. لقد كان الخلاف بين الرجلين كبيرا؛ قسطنطين اتخذ من سياسة التوازن منهاجا، والأسقف السكندرى يقف موقفا متشددا لا يبغى عنه حولا، معتمدا على تلك الأغلبية الساحقة التى صدر بها قانون الإيمان النيقى.

---

(59) SOZOM. Hist. Eccl. II, 25
(60) FEST. IND. VI.

ولكن غاب عن ذهنه أن الأمور قد أضحت على غير ما كانت عليه منذ عقد أول مجمع مسكونى منذ عشر سنوات (٣٢٥)، وأنه فى خلال هذا العقد أخذ ميزان القوى يتأرجح بين اليوسيبيوسيين والنيقيين، بل أخذ يميل إلى جانب عقيدة آريوس، فالغرب الإمبراطوري كله لم يكن له من ممثلين فى نيقية سوى ثمانية أساقفة فقط[٦١]، أما النصف الشرقى فقد كان الجميع يؤيدون الفريق اليوسيبيوسى وعلى رأسهم جميعا زعيمهم يوسيبيوس النيقوميدى، أما قيسارية فلا يخشى أمر أسقفها، هذا إلى أنهم قد نجحوا قبلا فى عزل يوستاتيوس أسقف أنطاكية، كما أن أثناسيوس أضاف بمسلكه الأخير إلى هؤلاء جميعا قوة يحسب لها الجميع كل تقدير، هى جانب الإمبراطور.

استبد الغضب بالإمبراطور، فدعا من جديد إلى عقد مجمع كنسي فى مدينة صور سنة ٣٣٥، وأرسل الكونت ديونيسيوس Dionysius إلى هناك بغية " ضبط أعمال المجمع والحفاظ على نظامه "[٦٢]، وكتب إلى أثناسيوس يأمره بالذهاب إلى صور. ويخبرنا الأسقف السكندرى أنه لم يكن راغبا فى ذلك ولكنه امتثل لأوامر الإمبراطور على كره منه[٦٣]، ولعل هذا هو ما يعنيه سقراط بقوله إن أسقف الإسكندرية أرغم على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى بعث بها الإمبراطور متوعّدا إياه بحمله إلى صور عنوة إذا لم يأتها طائعا[٦٤]. ولما التأم عقد المجمع تلقى الأساقفة رسالة من قسطنطين يحثهم فيها على التزام جادة الحق والصواب، واختتمها بتهديد صريح جاء فيه :

" ... ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادي بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى ورفض الحضور إلى المجمع، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم إمبراطورى،

---

(61) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 13
وراجع أيضا : SOZOM. hist. eccl. I, 17
(62) EVSEB. Vita Const. IV, 42
(63) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71
(64) SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 28

ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الإمبراطورى، حين يكون عن الحق دفاعه"[٦٥].

ولاشك أن أثناسيوس كان المقصود واقعا بهذا التهديد بعد أن نفد صبر الإمبراطور من جراء هذه المكابرة من جانب أحد رعاياه مهما كان شأنه.

وفى المجمع كان خصوم أثناسيوس هم قضاته، ومن ثم فقد أحاطت به كل الاتهامات التى سيقت من قبل ضده، وأضيف إليها قيامه بعزل بعض الأساقفة فى مصر ممن يعارضونه الرأي، وقذفه بالأحجار تماثيل الإمبراطور[٦٦]، وإثارة الشكوك حول شرعية رسامته[٦٧]. وقد استطاع أثناسيوس أن يرد عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات[٦٨]. غير أن الحضور كانوا قد حزبوا أمرهم على أن لا يفلت من أيديهم أثناسيوس هذه المرة، ولم يكن قد ذهب من ذاكرتهم بعد تعالى أثناسيوس عليهم طيلة ثلاثين شهرا، ومن ثم تعالت صيحات المعارضين تطالب بعزل أسقف الإسكندرية، وأمام هذه الفوضى باشر ديونيسيوس المهمة التى من أجلها جاء[٦٩]، وقر رأى المجمع على تشكيل لجنة تحقيق وإرسالها إلى مريوط، وضمت هذه اللجنة ثيوجنس النيقى وماريس أسقف خلقدونية وفالنز أسقف مورسا وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم (بلغراد)[٧٠] ولم تجد نفعا احتجاجات أثناسيوس على هذا التشكيل باعتبارهم جميعاً من الخصوم[٧١]، وتم تزويد اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها[٧٢]. ولما جاءت إلى الإسكندرية اصطحبها حاكم مصر فيلاجريوس[٧٣]

(65) EVSEB. Loc. cit.
(66) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25
(67) Id.
(68) Id.
وأيضا SOCRAT. Hist. Eccl. 1, 29 وراجع THEOD. Hist. Eccl. 1, 28
(69) SOZOM. Loc. cit.
(70) SOCRAT. hist. eccl. 1, 31
(71) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72
(72) Id.
(73) FEST. IND. VIII.

Philagrius ويسر لها سبل الحصول على المعلومات اللازمة والبيانات التى يصفها الأساقفة المصريون بأنها تمت بطريقة غير قانونية[٧٤].

أما أساقفة مصر الذين صحبوا أثناسيوس إلى المجمع فقد كتبوا رسالة إلى ديونيسيوس أوضحوا له فيها أن المسألة ليست سوى مؤامرة من جانب اليوسابيين للتخلص من أثناسيوس[٧٥]، غير أن ديونيسيوس لم يلق بالا إلى هذه الرسالة، فما كان منهم إلا أن وجهوا إليه احتجاجا شديد اللهجة، حملوه فيه تبعة هذه الأحداث وطلبوا إليه أن يرفع شكايتهم إلى الإمبراطور[٧٦]، ولكن ديونيسيوس لم يعرهم التفاتا. وعندما أدرك أثناسيوس أن الجميع عازمون على تحطيمه، تركهم وسط الفوضى التى سيطرت على المجمع، وشخص إلى القسطنطينية ليعرض الأمر بنفسه على الإمبراطور[٧٧] ولعل الأسقف السكندرى فى اقدامه على ذلك كان يعتقد أن الإمبراطور، كما استخلص أثناسيوس لنفسه من رسائل قسطنطين إليه سلفا، يقف إلى جانبه، يعلم حقيقة هذه الاتهامات كلها من تجربتيه السابقتين مع اليوسابيين. ولكنه الآن سلك سبيل اليوسيبيوسنيين أنفسهم فى الالتجاء إلى الإمبراطور.

والآن وجد الفريق اليوسيبيوسى النهزة التى يبحث عنها، فها هو أثناسيوس قد أثبت للمرة الثانية عدم ثقته بالأساقفة، وبدلا من أن ينتظر ما يسفر عنه تقرير لجنة مريوط ويبرئ نفسه أمام المجمع تركهم فى صخبهم وارتحل إلى الإمبراطور. وعليه وبعد الاطلاع على ما قدمته لجنه التحقيق، وقد عادت، أصدر الأساقفة المجتمعون فى صور قرارهم بإدانة أثناسيوس وعزله من أسقفيته وحرمانه من الإقامة فى الإسكندرية إيثاراً للسلام، وأعيد حنا، الأسقف المليتى وتابعيه إلى الكنيسة، ورد على كل منهم منصبه الاكليروسى[٧٨] وجاء فى حيثيات الحكم أن

---

(74) ATHANAS. Loc. cit

(75) Ibid. 78

(76) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79

(77) SOZOM. Hist. Eccl. 11, 25

(78) Id.

وراجع أيضا SOCRAT.Hist. eccl., 32

أثناسيوس رفض الامتثال لأوامر الإمبراطور بحضور مجمع قيسارية، مستخفا بالأساقفة، متحديا لقسطنطين، كما أنه اصطحب معه إلى صور نفرا كبيرا من اكليروسه بغية إثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، ورفض فى كثير من الأحيان الإجابة عن الاتهامات الموجهة إليه، وأهان عددا من الأساقفة، وسمح بتحطيم الأواني المقدسة في مريوط كما أفاد تقرير اللجنة(٧٩) وضمنوا هذا كله في تقرير بعثوا به إلي الإمبراطور، ورسالة مجمعية أرسلوها إلى سائر الأساقفة(٨٠).

ولو تأملنا فى هذه الأسباب التى قدمها مجمع صور حجة لعزل أثناسيوس، لما وجدنا فيها شيئا يتصل بالناحية العقيدية، رغم أن الجدل حول " الكلمة " وعلاقته " بالآب " كان الباعث لكل هذه الأحداث . على أنه يمكن أن نميز مرحلتين فى مسار الصراع حول العقيدة، يفصل بينهما مجمع نيقية سنة ٣٢٥، فمنذ بدأ الخلاف فى الرأى وظهور العقيدة الأريوسية سنة ٣١٨، والمجامع المكانية التى عقدت فى الإسكندرية عامى ٣١٩(٨١) و ٣٢١(٨٢)، وبيثينيا Bythinia سنة ٣٢٢(٨٣) ولقاء أساقفة فلسطين سنة ٣٢٣(٨٤) ثم الإسكندرية ثانية سنة ٣٢٤ برئاسة هوسيوس مبعوث الإمبراطور(٨٥)، وأنطاكية فى نفس العام وتحت رعاية الأسقف القرطبى(٨٦) وهذه كلها أما فى جانب آريوس أو فى صف إسكندر أسقف الإسكندرية، ثم المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥، كانت هذه المرحلة فعلا تتسم بالجدال من أجل العقيدة، فلما أنست الكنيسة الكاثوليكية إلى الإيمان الأرثوذكسي في نيقية واستندت إلى هذه الدعامة واتخذت منها سلاحا شهرته في

(79) SOCRAT. Hist. Eccl, 32
(80) Id.
(81) SOZOM. Hist. Eccl. I, 51
(82) ATHANAS. Depos. Arii
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. I,3
(83) SOZOM. Loc. cit.
(84) Id.
(85) EVSEB. Vita. Const, II,73
(86) Downey, op. cit.321

وجه خصومها مؤيدة من الإمبراطور، بدأت المرحلة الثانية من الصراع العقيدى وهى تختلف تماما عن سابقتها، إذ اصطبغت بصبغة سياسية منذ وضع الإمبراطور نفسه على رأس الكنيسة، وجعل من نفسه مدافعا عن العقيدة، ومن ثم راحت هذه تلهث وراء الإمبراطور وتتبعه أنى رغب منه الهوى. فالأباطرة طوال نصف قرن آت، وشأن قسطنطين، لا معرفة لهم باللاهوت ولا ثقافة، فلما شذ عن هذه القاعدة أحدهم، وشغل نفسه بالفلسفة، كان وثنيا، وهو جوليان Iulianus (٣٦١ -٣٦٣)، وكان أورع ما قيل تعليقا، تلك السخرية اللاذعة التى سجلها قلم المؤرخ الناقد سقراط حيث يقول :

" الأباطرة يروحون ويجيئون، والأساقفة من حولهم يتحلقون يطوفون"[٨٧]
وقد أسلفنا أن مجمع أنطاكية الذى عقد سنة ٣٣٠ لبحث النزاع بين يوسيبيوس ويوستاتيوس الأسقف الأنطاكى، يحدد بداية هذه المرحلة الثانية.

لم يكن أثناسيوس قد التقى بعد بالإمبراطور، عندما وصلت رسائل قسطنطين إلى المجتمعين فى صور تدعوهم للذهاب إلى أورشليم لتدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الإمبراطور هناك، وللمشاركة فى الاحتفال بالعيد الثلاثيني لارتقائه العرش[٨٨] وخف الجمع إلى حيث أراد الإمبراطور، الذى أيقن أنها خاتمة المطاف فى رحلة الجدال، دون أن يدرى أن فى الطريق أثناسيوس، ولذا أرسل بآريوس إلى الأساقفة فى أورشليم، مشيرا إلى أنه قبل منه وثيقة إيمانه التى قدمها، وحثهم على أن يحذوا حذوه[٨٩] ولم يكن هؤلاء فى حاجة إلى تزكية من الإمبراطور فى صالح آريوس، فقد كان الجميع من مؤيديه، فأصدروا على الفور قرارهم بقبوله فى شركة الكنيسة وعودته إلى الإسكندرية، وكتبوا إلى الإمبراطور يخبرونه بكل ما حدث، وإلى عموم الكنائس فى الإسكندرية، وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر، حاثين إياهم على قبول آريوس وأنصاره بعد أن وقفوا

(87) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 24
(88) EVSEB. Vita Const, IV, 43
(89) Ibid. 43-45

على صدق إيمانهم، وشفعوا ذلك بالقول " . . . وتلك رغبة الإمبراطور "[٩٠]، حتى يصبح قرارهم ملزما.

وفى هذه الأثناء وصل أثناسيوس إلى القسطنطينية، ويبدو من رسالة قسطنطين إلى الأساقفة فى أورشليم، أن الأسقف السكندرى لم يتمكن من لقاء الإمبراطور إلا بعد محاولات يائسة، فقد جاء فيها أن أثناسيوس " . . . راح يلح طالبا الأذن له بلقائنا، وقد رفضنا ذلك مرارا، وأمرنا بإبعاده عن حضرتنا[٩١]"، وهذه العبارة تحمل فى طياتها عددا من الدلائل الهامة، فأثناسيوس يعلق أهمية كبرى على هذا اللقاء مع الإمبراطور، حتى بلغ حد " الإلحاح "، وكأنه يستجير بقسطنطين أن يرد عليه حقا سلبه إياه زملاؤه الأساقفة، ويشعر فى قرارة نفسه أنه قادر على أن يوضح للإمبراطور عدالة قضيته، أما قسطنطين فيبدو أنه كان قد سئم الإصغاء إلى هذه القصة المملة، وأيقن أنه قد حان الوقت ليستغني عن أثناسيوس ولو إلى حين، وهذه نعلمها من الرسالة التى بعث بها ابنه قسطنطين الثانى بعد وفاة أبيه، إلى السكندريين سنة ٣٣٧[٩٢]، تمشيا مع سياسته العامة تجاه الفرق المتنازعة.

وقد تضمنت رسالة قسطنطين إلى الأساقفة فى أورشليم، الأمر بالتوجه إلى القسطنطينية لبحث قضية أثناسيوس تفصيلا فى حضرة الإمبراطور، حيث نجح أثناسيوس فى الحصول مؤخرا على الإذن له بلقاء الإمبراطور[٩٣]، ويخلع أثناسيوس[٩٤] وسقراط[٩٥] وسوزمنوس[٩٦] حالة من الهلع على الأساقفة عندما تلقوا رسالة الإمبراطور هذه حتى أن من أجابوا أمره بالذهاب إلى القسطنطينية، لا يمثل

(90) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 34
(91) Id.
(٩٢) انظر الفصل الثالث.
(93) SOCRAT. Loc. cit.
(94) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87
(95) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35
(96) SOZOM. Hist. Eccl. II, 82

إلا عددا يسيرا بالنسبة لمن كانوا للمجمع حضورا . وقد تكون رسالة الإمبراطور جاءت بعد أن انفض الاحتفال وأخذ الأساقفة يعودون إلى ديارهم، وكان يوسيبيوس النيقوميدي على رأس الفريق الذى ارتحل إلى العاصمة، ومن بينهم ثيوجنس وماريس وباتروفيلوس أسقف بيسان Scythopolis وفالنز وأورساكيوس .

كان هؤلاء يعتقدون أنهم الآن أمام معركة فاصلة مع أثناسيوس، ومن ثم عزموا على أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم كاملة، مستخدمين إياها بمنتهى الحذق والمهارة، ولذلك لم يدخلوا مع أثناسيوس فى مناقشة، بل راحوا يلقون أمام الإمبراطور بيانا مفصلا عما تم اتخاذه في مجمع صور، وأعادوا على مسمعه مرة أخرى كل تلك الاتهامات التى أدين بمقتضاها أثناسيوس(٩٧)، وحرصوا على أن يبرزوا من بينها تلك التى تمس شخص الإمبراطور وتنتقص من سيادته، وخاصة رفض الأسقف السكندرى حضور مجمع قيسارية، وحينما اثاقل فى المجيء إلى صور، ثم ألقوا فى النهاية بالورقة الرابحة فأعلنوا أن أثناسيوس هدد بعرقلة إرسال القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية(٩٨). وشهد على ذلك أدامنتيوس Adamantius وأنوبيون Anubien وأرباثيون Arbathion وبطرس، من أساقفة المليثية(٩٩) ولسنا أقدر من أثناسيوس نفسه على وصف حال الإمبراطور آنذاك، يقول " اشتعل على الفور غيظ الإمبراطور واشتد حنقه، وبدلاً من أن يسمع إلى أمر بى فنفيت إلى غالة"(١٠٠) ويعلق سقراط " لقد أراد الإميراطور بقراره هذا توحيد الكنيسة، حيث إن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس "(١٠١) والحق أن المؤرخ جونز لم يعد الحقيقة حين قال " لو سألنا أى إمبراطور رومانى عما يربط مصر بالإمبراطورية لأجاب . . القمح والنقود " .

(97) Ibid. II, 82
(98) ATHANAS. op. cit. 87
(99) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35
(100) ATHANAS. Loc. cit.
(101) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 35

ولنا أن نستخلص من عبارة سقراط هذه ما نشاء من الأدلة على ما أبديناه سلفاً، من أن أثناسيوس والإمبراطور كانا يقفان على طرفى نقيض، وكان أثناسيوس صلبا عنيدا، يدفعه إلى ذلك إيمان بالولاء الكامل لشخصه من جانب أساقفة مصر واكليروسها والرهبان، أما هؤلاء الأخيرون بالذات فسوف يكونون عدة أثناسيوس من بعد فى صراع طويل طول أسقفيته التى بلغت قرابة نصف قرن، ولقد علمنا أنه خلال فترة وجيزة فى أول عهده بالأسقفية تمكن من توطيد نفوذه وسيادة بيعته على مصر والمدن الخمس وليبيا، ولفظ خارج الكنيسة خصومه جميعا، ولئن ظلت هناك بعض الجيوب مناوئة، إلا أنها كانت صرخات فى واد، يبرهن على ذلك الأحداث التى وقعت بعدئذ مباشرة.

فالى تريز Augusta Treverorum (Triev – Trier) فى غالة أبعد أثناسيوس، وجاء آريوس إلى الإسكندرية يحمل قرار مجمع أورشليم بعودته إلى الكنيسة، إلا أن الاكليروس السكندرى رفض هذا الأمر، ووقعت الاضطرابات من جديد فى الإسكندرية[١٠٢]، ولما كان الإمبراطور لا يسمح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلام ظل يبحث عنه حتى مات، فقد أرسل على الفور يستدعى آريوس إلى القسطنطينية، فارتحل الرجل[١٠٣].

وفى القسطنطينية، مات آريوس فجأة بعد وصوله إليها بقليل سنة ٣٣٦، فى نفس اليوم الذى حدده الإمبراطور ليقبله اسكندر أسقف القسطنطينية فى شركة الكنيسة هناك، ولاشك أن خصومه، بل والإمبراطور أيضا قد تلقوا جميعاً نبأ وفاته بارتياح كبير . وما تزال مسألة وفاته المفاجئة لغزا محيرا !! خاصة وأنها لم تكن ميتة طبيعية كما وصفها مؤرخو الكنيسة.

ولم يحاول قسطنطين بعد نفى أثناسيوس أن يعين أسقفا جديدا للإسكندرية

(102) Ibid. I, 37
(103) Id.



على الرغم من أنه أقدم على ذلك مرارا من قبل فى بيع أخرى[١٠٤]. ولكنه الآن آثر أن يترك كرسى الإسكندرية شاغرا، والذى لاشك فيه أن قسطنطين كان يدرك تماما أن الاكليروس السكندرى والرهبان والجموع لن ترضى عن أثناسيوس بديلا . وإذا كانت الفتنة قد حدثت فى أنطاكية بعد الإطاحة بيوستاتيوس، فلابد أن الإسكندرية كانت ستشهد أحداثا مروعة إذا ما تصارع على كرسيها النيقيون أنصار أثناسيوس والآريوسيين والمليتيون. ولم يكلف الإمبراطور نفسه تبعة هذه المهالك الجسام، وسوف نرى مصداق ذلك فعلا عندما يعتلى كرسى الإسكندرية الكبادوكيان جريجورى وجورج على عهد قسطنطيوس .

وهكذا أدرك الإمبراطور أن الإسكندرية لم تكن فى حاجة الآن إلى أسقف جديد لتزداد النار فيها ضراما، فحتى بعد أن تركها آريوس ومات رفع شعب الكنيسة عقيرته بالشكوى يطلب إلى الإمبراطور إعادة أثناسيوس[١٠٥]. وشارك رهبان مصر فى ذلك أيضا، وينفرد سوزومنوس دون باقى المصادر بالقول أن أنطونيوس أبا الرهبان، كتب صراحة إلى الإمبراطور يرجوه عودة أسقف الإسكندرية، حتى لا يفتح بذلك بابا لأى لمز من جانب المليتيين[١٠٦]، ونعلم من سيرة أنطونيوس التى كتبها أثناسيوس، أن الأسقف السكندرى كان على صلة قوية وصداقة مع الراهب المصرى[١٠٧] وسوف نرى الدور الكبير الذى سيقوم به أنطونيوس وساكنو الأديار فيما بعد جهادا من أجل نصرة قضية أثناسيوس.

---

(١٠٤) بعـد مجمـع نيقية سنة ٣٢٥ وعزل يوسيبيوس من أسقفية نيقوميديا وثيوجنس من أسقفية نيقية، عين بدلا منهما أمفيـون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى . ثم عاد فعزل هذين وأعاد يوسيبيوس ورفيقـه . ولمـا خلع مجمع أنطاكية سنة ٣٣٠ أسقف المدينة يوستاثيوس، اقترح قسطنطين على المجمع أمـر سـيامة أحـد رجلين، يوفرونيوس Euphronius الكاهن أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن الرستن Arethusa واختار المجمع مطيعا يوفرونيوس
راجع SOZOM. Hist.eccl. I, II, 19
وأيضا EVSEB. Vita Const. III, 62

(105) SOZOM. Hist.eccl. II, 31

(106) Id.

(107) ATHANAS. Vita Antonii, praef.

غير أن الإمبراطور لم يلق بالا لأى من هذه الالتماسات، وكتب فى أسلوب مغيظ إلى السكندريين يتهمهم بالحماقة والعبث، ويصف مسلكهم فى الإصرار على عودة أثناسيوس بالفوضى والخروج عن جادة الصواب، ثم يوجه أوامره إلى الاكليروس والرهبان أن يخلدوا جميعا إلى الكنيسة والسلام(١٠٨)، وحتى لا يعطى قسطنطين الفرصة لمزيد من الإلحاح فى طلب العفو عن الأسقف المنفى، أعلن فى لهجة صارمة أن قراره الذى اتخذه بشأن أثناسيوس لا رجعة فيه وأنه لن يستدعى ثانية ذلك " المكابر "(١٠٩). ويتساءل " ألم يك داعية كل هذا الشقاق "(١١٠).

وقد قرن قسطنطين هذه الرسالة بأخرى إلى أنطونيوس، لا تقل عنها حنقا، صرح فيها أنه لا ينبغي مطلقا شجب قرار جاء عن مجمع كنسى، " لأنه لو فرضنا جدلا أن نفرا يسيرا من الأساقفة قد صدروا فى دعواهم عن إرادة سقيمة، أو إرضاء لآخرين، فإنه نادرا ما يقع العقل على جمع من الأساقفة حصيفى الرأي حذرين، يتصرفون بمثل هذا(١١١)، وعلى هذا النحو أبان الإمبراطور للراهب أنه لا موجب لإثارة الشكوك حول ما قر عليه رأى عدد كبير من رجال الكنيسة، واختتم قسطنطين رسالته إلى أنطونيوس قائلا : " لقد كان أثناسيوس صلفا مكابرا، مشت به عجرفته إلى ما نحن فيه من فتنة وشقاق "(١١٢).

ومهما بلغت سورة الغضب التى تملكت نفس قسطنطين، وتبدت فى رسالتيه، إلا أنا لا ندعها تصرفنا عن الخط الواضح الذى رسمه الإمبراطور لسياسته إزاء الفرق المسيحية المتصارعة. وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة التى بعث بها قبلا إلى أهالى نيقوميديا عقب عزل أسقفهم يوسيبيوس . فهو يقول فيها :

" من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟ من الواضح أنه "

---

(108) SOZOM. Loc. cit.
(109) Id.
(110) Id.
(111) SOZOM. Hist. Eccl. II.31
(112) Id.

" يوسيبيوس شريك الطغاة جبروتهم . ولقد تأثرتم بعقيدة هذا الأسقف "
" فضللتم بذلك طريق الصواب . كنتم بلا ريب تمنون انتهاج "
" الحق لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوسيبيوس، وعصبة عاتية "
" تؤيده، استغلت السلطان فضاع، إن فتنة آريوس "
" السكندرى ما تأجج لهيبها إلا بفعال يوسيبيوس الحمقى "
" ذلكم الذى امتلأ عقله بسئ الشرور والآثام(١١٣) "

ولم تكد تمضى على هذه الرسالة ثلاث سنوات إلا وكان يوسيبيوس يعتلى من جديد عرش أسقفيته، ويزداد قربا من الإمبراطور كما أسلفنا .

ولعله مما يدعم ما نذهب إليه ما جاء فى مقدمة رسالة قسطنطين الصغير إلى السكندريين(١١٤)، يضاف إلى هذا أنه فى الوقت الذى أبعد فيه إلى ترير أثناسيوس، أصدر الإمبراطور، ونفسه تكاد تميز من الغيظ، كما يروى سوزومنوس(١١٥) أوامره بنفى حنا رئيس كنيسة الشهداء المليتى هو الآخر، ولم يشفع له عند الإمبراطور قربه من اليوسابيين وصداقته لهم، ويضيف سوزمنوس ساخرا"... ولا قرارات مجمع صور نفعته "(١١٦) والحقيقة أن الإمبراطور لم يقم وزنا لأى من قرارات المجامع الكنيسة التى تتعارض وسياسته، فأساقفة المسكونة فى نيقية أدانوا آريوس وصحبه وأعادهم الإمبراطور، ومجمع صور رد إلى البيعة حنا، ونفاه الإمبراطور، وقد عبر سوزمنوس عن كل ذلك فى أسلوبه الخاص حيث قال"... لقد علا الإمبراطور فوق أكف الضراعة والابتهال، ولم تأخذه رحمة بأىٍّ أذاق الجموع مرارة الخوف والشقاق "(١١٧) .

(113) THEOD. Hist. Eccl. I, 19

(١١٤) راجع هذه الرسالة فى أول الفصل الثالث .

(115) SOZOM. Hist. Eccl. II,

(116) Id.

(117) Id.



الفصل الثالث

الزحف إلى الغرب



الفصل الثالث

الزحف إلى الغرب

كان قسطنطين الأول قبل أن يموت في سنة ٣٣٧ قد أنعم على أبنائه الثلاثة بألقاب القياصرة[1]، وخص كلا منهم بواحد من أقاليم الإمبراطورية فأعطى لأكبرهم قسطنطين الثانى Constantinus II (٣٣٧-٣٤٠) بريطانيا وغالة وأسبانيا، ومنح قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) تراقيا وبونطس وآسيا والشرق، على حين احتفظ لأصغر البنين قنسطانز Constans (٣٣٧-٣٥١) بداشيا ومقدونيا وبانونيا وأفريقيا[2] . ولما أحس الإمبراطور دنور أجله أودع وصيته أحد خاصته، مؤكدا فيها ثانية هذا التقسيم الإدارى للإمبراطورية، وأمر بأن تسلم الوصية إلى ولده أمير القسم الشرقى قسطنطيوس[3]. ويبدو من حديث يوسيبيوس القيسارى أنه ربما كانت هناك بعض العناصر التى أخذت تتطلع إلى العرش، وإن لم يشر إلى ذلك بصراحة، ولكنه يخبرنا أن الجيش أصر على أن لا يلى هذا الأمر أحد دون القياصرة الثلاثة[4]، ومن ثم رحل نفر من القادة إلى أولاء الأبناء يحملون إليهم نبأ وفاة أبيهم ويعلنونهم أباطرة[5]، وتولى الجيش فى الوقت ذاته القضاء على الباقين من بيت الإمبراطور الراحل؛ دلماتيوس Dalmatius القيصر، وهانيباليان Hannibalinus الذى كان قسطنطين الأول قد توجه ملكا على أرمينيا بعد أن قبض الملك الفارسى سابور الثانى Sapor II على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى، ودلماتيوس المسن، ويوليوس قسطنطيوس Iulius Constantius الأخوين غير الشقيقين لقسطنطين، وعدد

---

(1) EVSEB. Vita Cosnt, IV, 40

(2) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 38

وراجع SOZOM.. Hist. Eccl. II, 34

وكذلك Gibbon, op. cit. II p. 226

وأيضا Jones, Later Roman Empire, I p. 112

(3) SOCRAT. op. cit. I, 39 ; SOZOM. Loc. cit.

وراجع أيضا THEOD. Hist.eccl. I, 30

(4) EVSEB. Vita Const. IV, 68

(5) Id.

من الساسة الضالعين منهم: أوبتاتيوس Optatius النبيل، وابلابيوس Ababius المحافظ البريتوري[٦].

كان قسطنطيوس أسرع الأبناء وصولا إلى العاصمة[٧] مما حمل على الاعتقاد بأنه كان وراء هذه المذبحة المروعة[٨]، التي راح ضحيتها أفراد أسرة قسطنطين عدا صبيين صغيرين، جاللوس Gallus وجوليان Iulianus [٩]. ويشير مؤرخو الكنيسة[١٠] من طرف خفي إلى ذلك القس المجهول، الاريوسي العقيدة، صاحب الحظوة لدى الإمبراطور قسطنطين الكبير والذي زين له أمر عودة آريوس من منفاه في رأيهم[١١]، ويذكرون أن يوسيبيوس النيقوميدي وثيوجنس أسقف نيقية سعيا لدى ذلك القس لينالا العطف من الإمبراطور الجديد قسطنطيوس عن طريق تسليمه وصية أبيه، وكأنه بذلك آثره على أخويه، والغريب أنهم يقدمون ذلك، في الوقت الذي يذكرون فيه جميعا أن تلك كانت رغبة قسطنطين نفسه، كما بينا، والتي لم يكن لها من سبب سوى ما يذكره أحدهم وهو المؤرخ الكنسي ثيودوريت[١٢]، من أن الأب أقدم على هذا لأن قسطنطيوس سوف يكون أسرع من أخويه وصولا إلى القسطنطينية لقربه منها، ولاشك أن قسطنطين قصد إلى ذلك فعلا حتى لا يدع لأحد الفرصة في الاستيلاء على العرش قبل أن يتمكن بنوه من الوقوف على حقيقة الأمر، ولعل هذا يتضح مما أقدم عليه الجيش بعد موته، هذا إلى أن الوصية لم تحتو على شيء أكثر مما كان أمرا واقعا، ومن ثم لم تقدم جديدا إلى قسطنطيوس يحسده عليه

---

(6) Jones, op. cit. I, pp. 85, 112
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 236
(7) EVSEB. Vita const. VI, 70
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. I, 40
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 34
(8) Gibbon, op. cit. II pp. 235-236
(٩) راجع الفصل السادس.
(10) THEOD. Hist. Eccl. II, 2; SOZOM. hist. eccl. III, 1; SOCRAT. op. cit. II, 2
(١١) راجع الفصل السادس من الدولة والكنيسة . ج ٢ للمؤلف، حيث أثبتنا بالوثائق خطأ هذا الزعم.
(12) THEOD. Hist. Eccl. II, 2

اخوته، ويحسبه هو خيرا جاء به إليه نصير الآريوسيين فى البلاط . وفوق هذا وذاك فلم يكن يوسيبيوس، الأسقف النيقوميدي، فى حاجة لقس القصر الإمبراطورى، كى يرضى عنه قسطنطيوس، فمكانة أسقف نيقوميديا عند قسطنطين الأب لم تكن تخفى على أحد فى ذلك الوقت، وإلى نيقوميديا جاء هذا يقضى أيامه الأخير ة، وفيها تلقى سر المعمودية(١٣)، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم على يد يوسيبيوس النيقوميدى نفسه(١٤). فهو أسقف المدينة وربما يدعم ذلك ما يورده ثيودوريت من أن قسطنطين ذكر كل ما أوصى به فى حضرة يوسيبيوس(١٥).

بل إن حديث ثيودوريت هذا يعطينا الثقة فى القول بأنه ليس سوى يوسيبيوس نفسه هو الذى حمل الوصية إلى الإمبراطور الجديد فى القسم الشرقى. ومن ثم لا يمكن أن نتفق مع المؤرخين سقراط(١٦) وسوزومنوس(١٧) فيما يرددانه من أن قس البلاط المجهول ذاك نجح في التأثير على الإمبراطورة ورجال البلاط واستمالهم جميعا وقسطنطيوس إلى العقيدة الآريوسية، بل إن أثره تخطى القصر إلى العاصمة ومنها إلى الاقاليم، مما أدى إلى إثارة الفتنة والاضطراب فى هذا القسم من الإمبراطورية حسب قولهما.

والحقيقة، كما أسلفنا، أن الآريوسية كانت قد أفاقت من اللطمة التى وجهت إليها فى نيقية سنة ٣٢٥ ، واستطاعت فى السنوات الأخيرة لعهد قسطنطين أن تحرز نجاحا ملحوظا تمثل فى عطف الإمبراطور، على رجالها، وبلغ ذروته باقتلاع رجلى النيقية فى أنطاكية والإسكندرية، يوستاثيوس وأثناسيوس . ومع صحوة الآريوسية كان قسطنطيوس قد أتى الشرق قيصرا، وذلك فى العيد

---

(13) EVSEB. Vita Const. IV, 61
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. I, 39
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. II, 34
(14) Robortson, op. cit. P. 41
(15) THEOD. Hist. Eccl. I, 30
(16) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 2
(17) SOZOM. Hist. Eccl. III, 1

العشرينى Vicennalia لاعتلاء أبيه العرش[١٨]، وطوال ما يزيد على عشر سنوات وقسطنطيوس يراقب عن كثب مسار الفريق يوسيبيوس والعقيدة الآريوسية، ويختلط بزعمائها، ويقف على آرائهم، ولذا كان من الطبيعى أن يأخذ عنهم لاهوته، وأن يشاركهم عداءهم المفرط لأثناسيوس[١٩] بعدما رآه من عناد هذا الأسقف وتحديه، لا للأساقفة وحدهم، بل للسلطة الإمبراطورية ذاتها، بعدم إجابة الإمبراطور إلى طلبه بقبول آريوس فى الكنيسة ثانية ورفضه الانصياع لأوامر قسطنطين بالذهاب إلى مجمع قيسارية. وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه غارقا فى الجدل اللاهوتى حول العقيدة على حين نجا أخواه من أهواله، إذ آوى الغرب الإمبراطوري إلى الهدوء بعد مجمع نيقية، وابتعد بنفسه عن مزالق هذا الصراع قائما بالايمان النيقى، ولاشك سره أن يرى بين ظهرانيه أثناسيوس، فرعاه وقدم له فى شخص ماكسيمين Maximinus أسقف ترير كل تقدير[٢٠] . وكان لهذه الرحلة الاجبارية التى قام بها الأسقف السكندرى إلى الغرب الإمبراطوري أكبر الأثر فى انفتاح هذا الميدان الجديد أمام صراعات الجدل اللاهوتى وأن كان قد قبله قهرا عندما فرضها عليه الإمبراطور قسطنطيوس، بعد عام ٣٥٣ ، ولم يرض عنها فكرا، كما كانت بداية لمرحلة جديدة من المواجهة بين الدولة والكنيسة.

ويمثل عهد قسطنطين فترة فريدة فى تاريخ العلاقات بين الدولة والكنيسة تميزت بسياسة التوازن والإمبراطور يسير دفة الأمور بكل الحذق والمهارة مسيحيا فى سياسته، وثنيا فى نظرته، نيقيا مع الجموع، فإذا حزب الأمر، آريوسيا. يضم بلاطه مستشارين من كل هؤلاء الأضداد، ويموج عقله بشتى الفكر. فلما مات انفرط هذا العقد وراحت هذه الطوائف جميعها تتلاقى متلاطمة، ومن هنا ندرك قول المؤرخ سوزومنوس وهو يستهل الكتاب الثالث من تاريخه الكنسى " ها نحن قد عاينا كم من حادثات الزمان جرى بها الزمان على الكنيسة وقسطنطين باق، وغداة موته راح الإيمان الذى أقره الآباء فى نيقية يدخل فى تجربة" ، ذلك أن هذه

---

(18) EVSEB. Vita Const. IV, 40
راجع SOCRAT. hist. eccl. I, 39
(19) Jones. op. cit. I, p. 114
(20) ATHASNAS. Apol. Ad Const. 3

العقيدة رغم أنها لم تلق الرضى من دنيا المسيحية جمعاء، إلا أن أحدا لم يجرؤ على نبذها وقسطنطين فيه الحياة[٢١]. والعبارة الأخيرة وحدها تعطينا، لا ريب، الأبعاد الحقيقية لسياسة الإمبراطور الراحل تجاه فرق المسيحية المتنافرة، وتكشف عما يحمله القدر فى طياته للعقيدة والكنيسة ينبئ به سقراط حين يقول "... ومع الايام، وعبر مدائن الشرق كلها، راجت الفتن والمهاترة، وأمسى النظام إلى فوضى، وكل شأن إلى السئ سار[٢٢]. ولئن كان هذا القول يعبر عن وجهة نظر معينة للمؤرخ الكنسى إلا أنها تحمل فى نفس الوقت صورة لأحداث الفترة التالية.

استقر أبناء قسطنطين كل فى إقليمه، وراح يباشر بسلطة الحاكم المستقل ضمن دائرة الإمبراطورية الواحدة، شئون سياسته، وكان أول شىء أقدم عليه قسطنطين الثانى أن سمح للأسقف السكندرى بالعودة إلى بيعته، وشيعه برسالة قال فيها :

" قسطنطين القيصر إلى شعب الكنيسة الكاثوليكية السكندرى إنى أدرك تماما أن أفئدتكم النقية الورعة، لم تنس أن أثناسيوس شارح القانون الاعظم، قد أرسل لزمن إلى غالة، خشية أن يكابد ضرارا لا ترم، يرومه بها خصوم طبعت على الزيغ نفوسهم، واغتسلت بالدماء الايادى ".

" يحاولون بشراسة الفحش أن يدنسوا قدس الرجل والحياة ."
" وحتى يطهر من اللئام أثناسيوس، انتزع من بين أنيابهم "
" وجىء به إلى مدينة ضمن بلادي، ما كان يشعر طيلة "
" مقامه أن شيئا هو إليه فى حاجة . والفضيلة المزجاة "
" فى الرجل أضاءت بقبس نور السماوات ظلماء قدر عنيد . وكان "
" مليكنا قسطنطين العظيم ، أبى ، عبق الذكر ، قد قارب الأمر "
" يبوئ الأسقف كرسيه ، ولكن الموت أقعده ."

---

(21) SOZOM. Hist. Eccl. III, 1
(22) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 22
وانظر ما كتبه Sansterre تحت عنوان Eusebe de Cesaree et la naissance de la theorie Cesaropapiste, Byzantion XLII – 1 (1972) fi XLII, 2 (1973)

" أيها الأطهار ، أليس من الأفضل أن أحقق هدفه ؟ ! ذلك "
" ما ارتأيت ، وكم من التوقير والإعزاز لقيه منا ، وسترون فى "
" مقدمه ، دون أن تعقد الدهشة لسان أحدكم، أى آى المجد ."
" عليه خلعنا . والآن فلترعاكم عناية الرب إخوتى الأحبة[٢٣] "

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرسالة لقب " القيصر " الذى قرن به قسطنطين نفسه، فقد أدى ذلك إلى خلاف فى الرأى بين عدد من الدارسين[٢٤]، حول العام الذى أعيد فيه أثناسيوس إلى الإسكندرية، وهل كان نفس السنة التى مات فيها قسطنطين الأب (٣٣٧) أم (٣٣٨) .

والحقيقة أن قسطنطين الأول مات فى ٢٢ مايو ٣٣٧[٢٥] ووصلت أنباء وفاته إلى ترير فى يونيه من نفس العام[٢٦]، وحمل الاخوة الثلاثة لقب الأوغسطس Augustus فى سبتمبر من السنة[٢٧]. ولاشك أن هذه الرسالة قد كتبت قبل أن يعلن أبناء قسطنطين أنفسهم أباطرة، أو على وجه التحديد فى ١٧ يونية عقب وصول نبأ موت قسطنطين إلى ولده وسميه فى غالة[٢٨]. وهذا الإجراء من جانب قسطنطين الثانى يفسر ما تضمنته رسالته من العطف الواضح على قضية أثناسيوس، مما مهد السبيل لوقوف عالم الغرب معه بعد ذلك .

وتشير الرسالة صراحة إلى أن قسطنطين الأول، كان قد قرر بالفعل إعادة

---

(33) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87 ; SOCRAT. Hist. Eccl. II, 3
لأثناسيوس أيضا راجع hist. Arian. 8
وراجع كذلك THEOD. Hist. Eccl. III, 2

(٢٤) انظر ماكتبه زينوس Zenos حول هذا الموضوع فى مقدمته لأعمال المؤرخ سقراط ضمن مجموعة Nicene and P. N. F. II, p. 37 v. 1

(25) FEST. IND. X
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 233

(26) Robertson, op. cit. p. 41

(27) Jones, op. cit. I, p. 122
وراجع Gibbon, op. cit. II, p. 237

(28) Robertson, Loc. cit
وراجع أيضا Klidd, A history of the church, II, p. 71

أثناسيوس إلى أسقفيته، ولكن المنية عاجلته، ولقد أوضحنا ذلك آنفا، وذكرنا أن هذا ليس مما يتعارض مع سياسة قسطنطين الأول فى تحقيق التوازن بين الفرق المسيحية، ونضيف ما يقوله سوزمنوس من أن قسطنطين كان قد اعتزم إعادة أثناسيوس من منفاه ولكن موته حال دون ذلك، غير أنه يقدم لعبارته هذه بكلمة " يقال " ، مما ينقل الرأى عنده إلى مرتبة الاحتمال(٢٩)، أما ثيودوريت(٣٠) فيؤكد أنه جاء ضمن قرارات قسطنطين الأخيرة، وهو يعالج سكرات الموت فى نيقوميديا، الأمر بإعادة أثناسيوس إلى الإسكندرية، ويردف ذلك قائلا " لقد صدر هذا القرار بالذات فى حضرة يوسيبيوس "، ولما كان ثيودوريت ينفرد وحده دون مؤرخى الكنيسة الآخرين، بهذا القول فمن البديهى أن يكون قد اعتمد على ما جاء بهذه الرسالة.

أما ما تشير إليه الرسالة من أن أبعاد أثناسيوس إلى غالة، لم يكن نفيا للأسقف، بقدر ما كان تخليصا له من أعدائه، وبعدا به عن أذاهم ، فلا يمكن التسليم به مطلقا وذلك لأن قسطنطين الأول كان قد ضاق ذرعا بعناد أثناسيوس وأراد أن يعيد السلام إلى منطقة يحسب لأهلها وثرواتها كل حساب، وأدرك أن أساقفة الشرق يكنون العداء الكامل لأثناسيوس، للخلاف العقيدى بينهم وبينه، ولما حسبوه تعاليا منه عليهم عندما رفض حضور مجمع قيسارية، بالإضافة إلى نظرة الحقد الكاملة تجاه مكانة كنيسة الإسكندرية ، وإلا فلو سلمنا بما جاء فى الرسالة لصدق ذلك أيضا على يوستاتيوس الانطاكى، وحنا المليتى، ومن قبل يوسيبيوس نيقوميديا وثيوجنس نيقية وآريوس.

غير أن قرار استدعاء أثناسيوس والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية لم يكن استثناء دون غيره، إذ إن الأخوة الثلاثة أبناء قسطنطين الأول حسبما جرى به قلم أثناسيوس نفسه، فى مؤلفه عن تاريخ الآريوسيين(٣١) اجتمعوا بعد وفاة أبيهم واتفقوا

---

(29) SOZOM. Hist. Eccl. III,2
(30) THEOD. Hist. Eccl. I, 30
(31) ATHANAS. Hist. Arian. 8

فيما بينهم على إعادة جميع الأساقفة المنفيين إلى كنائسهم والديار تمشيا مع السياسة الجديدة للدولة فى الميل تجاه المسيحيين، بل إن هذه الرسالة التى بعث بها قسطنطين الثانى إلى شعب الكنيسة السكندرى، كانت ضمن رسائل عديدة أخرى حملت هذه الروح إلى كنائس الأساقفة العائدين(٣٢).

ارتحل أثناسيوس قاصدا الشرق فى معية قسطنطين الثانى(٣٣)، حيث التقى بقسطنطيوس فى مدينة فيميناكوم(٣٤) Viminacium فى موئيزيا Moesia ، وكان هذا هو اللقاء الأول بخصم الغد، حسب تعبير المؤرخ روبرتسون(٣٥)، ثم اتخذ سبيله حتى إذا أتى القسطنطينية وجد أسقفها بولس، الذى خلف إسكندر، قد عاد ثانية إلى كرسيه(٣٦) بناء على اتفاق أبناء قسطنطين، وفى قيسارية كبادوكيا لقى أسقف الإسكندرية قسطنطيوس مرة أخرى(٣٧) و الإمبراطور يستحدث الخطى فى الطريق إلى الجبهة الشرقية(٣٨) ليتصدى للحشود الفارسية التى كانت تتحرش بالإمبراطورية. ويعلق Duchesne (٣٩) على هذه اللقاءات بقوله ، إن قسطنطيوس لم يكن يسعده أبدا أن يلتقى بشخص كانت له طوال عشر سنوات مضت سمعة عريضة فى الشرق، جلبت الكثير من المتاعب، ونضيف إلى قول هذا المؤرخ تلك المكانة الفكرية وقوة الشخصية التى أحرزها أثناسيوس في مجمع نيقية وفى صراعه مع قسطنطين الأول وتصديه للعقيدة الآريوسية، ويبدو من حديث أثناسيوس(٤٠) أنه لم يجر بينه وبين الإمبراطور أية مناقشات حول قضيته ومخاصميه.

---

(32) ATHANAS. hist. Arian. 8
(33) Kidd, op. cit. II, p. 71
وراجع أيضا Robertson, op. cit. P. 41
(٣٤) وهى حالياً Widin فى بلغاريا انظر THANAS. Apol, ad Const.
(35) Robertson, Loc. cit.
(36) ATHANAS. Hist. Arian. 7
(37) ATHANAS. Apol. Ad Const. 5
(38) Robertson. Loc. cit. ; Kidd, Loc. cit.
(39) Duchesne, op. cit. p. 150
(40) ATHANAS. Apol. Ad Const.5

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر ٣٣٧ ، دخل أثناسيوس الإسكندرية[٤١] بعد أن غاب عنها قرابة عامين، وسط مظاهر الترحاب والبهجة من جانب الاكليروس وشعب الكنيسة، حتى لقد عد أساقفة مصر هذا فى رسالتهم المجمعية Epistola Encyclica سنة (٣٣٨) أسعد أيامهم[٤٢]. غير أنه بعودة الأسقف إلى بيعته عاد معه الصراع من جديد،إذ أيقن اليوسيبيوسيون أنه إذا بقى أثناسيوس على كرسيه، فلن يصلوا إلى تحقيق مسعاهم[٤٣]، وكانت الحالة السياسية مؤاتية لكى يحاول كل الفرق المتنافرة بلوغ مآربه . فقد أدى تقسيم الحكم فى الإمبراطورية بين الاخوة الثلاثة، إلى تعميق هوة الشقاق بين فرق المسيحية المتباغضة، بل أيضا بين شطرى الإمبراطورية، إذ جهد اليوسيبيوسيون لاستمالة قسطنطيوس إلى فكرهم، على حين أفلح النيقيون فى الغرب وأثناسيوس فى اجتذاب قسطنطين الثانى وقنسطانز إلى معتقدهم. وكان للفترة التى أمضاها الأسقف السكندرى فى غالة أوضح الأثر فى هذا السبيل .

ولم يكن الآريوسيون فى الإسكندرية على استعداد لقبول عودة أثناسيوس ثانية[٤٤]، ومن ثم حدثت بعض الاضطرابات فى المدينة[٤٥] لم تفصح المصادر عن طبيعتها، وإن كان يبدو أنها لا تخرج عن الصدام بين أنصار أثناسيوس والأريوسيين، وراح هؤلاء يحاجون بأن أثناسيوس قد تم عزله بقرار مجمع الأساقفة المنعقد فى صور، ولا يحق له اعتلاء كرسى الأسقفية من جديد إلا بمجمع كنسى ثان[٤٦]، وعليه يصبح قرار السلطة المدنية بإعادته باطلا.

(41) FEST, IND. X
(42) ATHANAS. Apol. C. Arian 7

(٤٣) انظر المخطوط رقم ٣٩٠ ورقة ٥٢ب.

(44) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 3
وراجع SOZOM. Hist. Eccl. III, 2
(45) FEST, IND. XI
(46) ATHANAS. Apol. C. Arian 7 ; SOCRAT. Loc. cit.

ولكن أثناسيوس لم يعدم وسيلة فى التصدى دفاعا، وساق مثلا يوسيبيوس نيقوميديا وثيوجنس نيقية اللذين عاد بهما قسطنطين الكبير(٤٧).

غير أن خصومه عادوا سيرتهم الأولى فى اتهامه بما يثير السلطة الإمبراطورية فأذاعوا أنه قام ببيع كمية القمح التى كان الإمبراطور الراحل قد أمر بأن تجري سنويا على الأرامل فى مصر وليبيا، واستغل أرباحها لنفعه(٤٨)، وكتبوا إلى قسطنطيوس يخبرونه بحقيقية الأمر، ولم يتوان هذا عن لوم أثناسيوس وإدانته(٤٩). بل إن المؤرخ الكنسى سقراط يرفع هذا الزجر إلى حد التهديد بالموت عقابا(٥٠).

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الآريوسيين كانوا قد انتهزوا فرصة نفى أثناسيوس واختاروا للأسقفية بدلا منه بستوس(٥١) Pistus أحد القسيسين الذين قطعهم إسكندر سلف أثناسيوس من قبل عند بدء المسألة الآريوسية(٥٢) وتم رسمه على يد سكوندوس Secundus أسقف طلميثة إحدى المدن الخمس الغربية، الآريوسى المتحمس الذى شمله قرار الإدانة الصادر فى نيقية(٥٣).غير أن قسطنطين الكبير لم يسمح لهم برفعه إلى كرسى الإسكندرية، وقد جرى الإمبراطور هنا على خلاف ما سار عليه عند عزل يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس أسقف نيقية ويوستاتيوس الأنطاكى، إذ وافق على سيامة غيرهم بدلا منهم، ومن ثم ظل كرسى الإسكندرية الأسقفى شاغرا حتى اعتلاء أثناسيوس ثانية في نوفمبر سنة ٣٣٧ . ولاشك أن قسطنطين كان يحرص على إقرار السلام فى منطقة يعتبرها الضمان الأساسى لإطعام مدينته الجديدة، ولذا لم يكن فى حاجة إلى إثارة الاكليروس وشعب الكنيسة فيها، متخذا من شعب أنطاكية عبرة، وليس أدل

---

(47) ATHANAS. Apol. C. Arian. 7-32
(48) Ibid. 18
(49) Id.
(50) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 17
(51) ATHANAS. Ep. Encycl. 6 وراجع أيضا أثناسيوس Apol. C. Arian 19
(52) ATHANAS. Dep. Arii, praef.
(53) ATHANAS. Apol. C. Arian, 24

على ذلك من أنه قام باستدعاء فيلاجريوس الكبادوكى نائبه فى مصر والذى يتعاطف مع الآريوسيين، ويرتبط اسمه فى ذهن أنصار أثناسيوس بلجنة مريوط، وولى خلفا له ثيودور[٥٤] Theodorus خير من يمثل سياسة سيده.

غير أن هذا الاتجاه سرعان ما تبدل، فما إن قضى قسطنطين، حتى أدرك ولده قسطنطيوس، أن نائبا عنه مثل ثيودور لا يستطيع أن يحد من نفوذ الأسقف السكندرى، وقد عاد بزهو الانتصار، وبماضى السنين والعناد يعلمه قسطنطيوس عن أثناسيوس، وبرغبة جامحة إلى السلطة وسيادة غير منتقصة، استدعى الإمبراطور إليه ثيودور وأعاد إلى الإسكندرية نائبا عنه فيلاجريوس مواطن كبادوكيا[٥٥]، يدفعه إلى ذلك صدق حدسه بتلك الاضطرابات العنيفة التى شهدتها المدينة عقب مجيء الأسقف إليها بعد غياب، أخذ منها ثيودور موقفا حازما وإن كان إلى جانب رجل نيقية[٥٦]، ومن ثم أدرك قسطنطيوس أن موقف ممثله فى مصر على هذا النحو ربما عده فريق نيقية تساهلاً أو حتى ضعفا من جانب السلطة المدنية، وهو ما لم يكن يسمح به أبدا قسطنطيوس.

وزاد من ريبته تلك الزيارة التى قام بها أبو الرهبان أنطونيوس إلى الإسكندرية تدعيما واحتفاء بالأسقف السكندرى[٥٧]، بعد ما شاع فى المدينة أن رهبان مصر يؤيدون العقيدة الآريوسية[٥٨]، ورغم أن أنطونيوس لم يمكث فى الإسكندرية سوى يومين[٥٩] فقط (٢٥-٢٧ يولية ٣٣٨)، إلا أن هذه الزيارة كانت لها أهميتها الكبيرة بما للرجل من شخصية قوية، وتأثير شعبى عميق، وبما أعطته للنيقيين وزعيمهم من شعور الأمان والتأييد[٦٠].

كان كلا الفريقين يحرص على أن يحظى بتأييد هذه الجموع المنتشرة فى

(54) FEST. IND. X
(55) FEST. IND. XI
(56) ATHANAS. Apol. C. Arian. 5
(57) FEST. IND. X
وراجع أيضا ATHANAS. Vita Ant. 69
(58) ATHANAS. Vita Ant. 69
(59) FEST. IND. X
(60) Le Bachelet, S. Athan. Col. 2146

صحراء مصر وفيافيها، تلك التى فرت بدينها تحت وطأة قساوات الاضطهاد الوثنى وآثرت جياة الحرمان، وفى عصر ساد فيه الإيمان القائم على العاطفة دون العقل وتصديق المعجزات لدى الجموع، تعلقت أفئدة المسيحيين إعجابا وتقديرا بأولاء النفر، ومن هنا تأتى أهمية الرهبان بما لهم فى نفوس الجموع المسيحية من عظيم الأثر والولاء، ومن هنا أيضا نقدر استباق الفريقين المتصارعين ابتغاء مرضاة المتوحدين ورهبان الاديار، وندرك القيمة الحقيقية لقدوم أبى الرهبان أنطونيوس ليعلن فى الملأ أنه يدحض عقيدة آريوس، ويقف بالحزم كله يشد من أزر أثناسيوس ويطلب إلى الجموع أن لا تبغى عن أسقفها حولا . هذه الصورة من التأييد الجارف جرى بها قلم أثناسيوس وهو يكتب حياة أنطونيوس[٦١] وكان للسياسة التى رسمها أثناسيوس لنفسه وكرسيه، مذ تولى كرسى الأسقفية السكندرية، ورحلاته التى يذرع فيها البلاد من طيبة إلى فم النيل، أثرها الواضح فيما لقيه طوال عهده بالأسقفية من تأييد وولاء.

وتلاقت وجهات نظر الآريوسيين فى مصر واليوسيبيوسيين بعامة مع سياسة الإمبراطور قسطنطيوس، خاصة بعد تغيير النائب الإمبراطوري فى مصر، حتى لقد اعتبرت عودة فيلاجريوس الكبادوكى، من جانب ثيودوريت[٦٢] نصرا للآريوسيين فى الإسكندرية . ولما كان خصومه يدركون مدى الصداقة التى تربط بين أثناسيوس وأساقفة النصف الغربى من الإمبراطورية، فقد رأوا أن أى إجراء عنيف وفجائى يتخذ ضد الأسقف السكندرى، سوف يثير غضب الغرب كله[٦٣] ومن ثم سعوا لاجتذاب الأساقفة جميعا إلى صفوفهم، فكتبوا رسائل بعثوا بها إلى مختلف الكنائس والأباطرة الثلاثة، ضمنوها الاتهامات السابقة ضد أثناسيوس، مضيفين إليها اتجاره بقمح الأرامل وعودته إلى كرسيه بطريقة غير شرعية[٦٤].

---

(٦١) يقــول أثناسيوس " شعب الكنيسة كله من أجل رؤية القديس يركض، والرعية من حوله تتحلق ، وهو يهدى إلى المسيحية كثيرين ربما قدر من يدخلوها فى عام راجع ATHANAS. Vita Ant. 70

(62) THEOD. Hist. Eccl. II, 3

(63) Neander. Christian religion and Church, IV, p. 43

(64) ATHANAS. Apol. C. Arian. 19, 24; hist. Arian. 9

محاولين فى الوقت ذاته التقرب إلى الغرب[٦٥]، بعد أن أفلح أثناسيوس من قبل فى ضمان تأييده. فاستقبل يوليوس أسقف روما (٣٣٧ - ٣٥٢) الذى لعب دورا كبيرا فى القرن الرابع الميلادى من أجل سمو كرسى روما وعلو قدره[٦٦] سفارة على رأسها مقار Macarius القس، وتضم الشماسين مارتيروس Martyrius وهزيكيوس[٦٧] Hesychius ويتضح من رسالة يوليوس بعد ذلك إلى اليوسابيين أن يوسيبيوس النيقوميدى كان المحرك الرئيسى وراء هذه السفارة[٦٨]. وقد حمل الوفد معه رسالة إلى أسقف روما تضع أمامه " مثالب " أثناسيوس وماركللوس Marcellus أسقف أنقرة، وبولس أسقف القسطنطينية واسكليبوس Asclepius أسقف غزة وغيرهم، وأرفق بها تقرير لجنة مريوط سنة ٣٣٥، وقائمة بالاتهامات السابقة والحالية ضد أسقف الإسكندرية، واعتبار الكرسى السكندرى شاغرا منذ صدور قرار مجمع أنطاكية، وذلك فى محاولة للحصول على تأييد أسقف روما للمرشح الاريوسى بستوس لكرسى الإسكندرية، والذى لم ينجح حتى الآن فى اعتلاء عرش الأسقفية[٦٩]. وكان من بين ما أوصى به اليوسابيون رسلهم، أن يطلبوا إلى يوليوس أن يدعو إلى عقد مجمع كنسى يضم أطراف النزاع ليفصل بينهم، وأنه يسرهم لو تفضل هو برئاسة هذا المجمع[٧٠]، ولم يكن ذلك إقرارا من أساقفة الشرق بعلو كعب أسقف روما على بقية الكراسى الأسقفية خاصة وأن زعامتهم تنحصر الآن فى رعاية يوسيبيوس الطموح، ولكنه فى حقيقية الأمر مجرد محاولة للتقرب إلى يوليوس وصرفه عن تأييد أثناسيوس .

تسربت هذه الأنباء إلى الإسكندرية، فأدرك أثناسيوس أنه حيال جهد جاد يقوم به اليوسيبيوسيون لتطويقه فى بيعته وعزله عن العالم المسيحى وهو نفس الأسلوب

(65) Kidd, op. cit. II, p. 72
(66) Kuhner, encycl. of the Papacy, p. 15
(67) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22
(68) Id.
(69) Ibid. 24.
وكذلك Neal, Patriar. of Alex. I, p. 193
(70) ATHANAS. Apol. C. Arian. 20

الذى لجأ إليه خصومه منذ عام ٣٣٣ فى مجمعى قيسارية وصور، ولذا عزم أثناسيوس أن يحارب هؤلاء بنفس سلاحهم مضيفا إليه تلك القاعدة العريضة الممتدة عبر مصر كلها. فدعا أساقفة بيعته إلى مجمع عام فى شتاء ٣٣٨/٣٣٩، ويخبرنا أن عدد الحضور كان مائة[٧١] يمثلون أساقفة مصر وطيبة والمدن الخمس وليبيا[٧٢]، وإلى جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، وبوجه خاص يوليوس، كتب هذا الجمع رسالة مجمعية[٧٣]، تعد فى مضمونها والمجمع مظاهرة كنسية لتأييد أثناسيوس وردا على رسائل اليوسابيين ، وعمد الأساقفة إلى نفس الاسلوب الذى سار عليه الخصوم فى إثارة السلطة المدنية، فقد جاء فى رسالتهم " . . . لقد تجاسر يوسيبيوس ورفاقه على أن يكتبوا للأباطرة فى قحة وصفاقة، ساقوا حديثا لا يجرؤ على إتيانه إنسان أمام من هم أقل من أولاء مرتبة[٧٤]. وتمضى الرسالة من بعد تفند اتهامات الآريوسيين والمليتيين السابقة، مذ ولى أثناسيوس كرسى الإسكندرية إلى أن بعث به منفيا إلى غالة[٧٥]، وتؤكد أنه لا صحة مطلقا لما أذيع من استيلاء أثناسيوس على قمح الأرامل، واختتم مجمع الإسكندرية رسالته بدعوة صريحة إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية بهجران جانب يوسيبيوس ورفاقه والالتفاف حول أثناسيوس[٧٦].

---

(71) ATTHANAS. Apol. C. Arian.1
(72) Ibid. 3
(73) Ibid. 3-19
(74) Ibid. 6-17
(75) Ibid. 18

(٧٦) جاء فى ختام هذه الرسالة : " ها نحن قد التقينا وتلاقت منا الفكر، على أن نكتب إلى نيافتكم بكل الامل، وحكمة المسيح فيكم تتمثل، أن تقبلوا منا هذا الايضاح معطين أثناسيوس أخانا العطف كله والحنو، مبدين الغضب كله على ذلك اليوساب ورفاقه، أولاء الذين دنسوا قدس ديار الرب بزيف القول والخطايا... نهيب بعدالتكم أن تقتصوا للحق، أنى الحق كان، وبوصايا الرسول مهتدين حين قال " أما الذين من خارج فالله يدينهم" فاعزلوا الخبيث من بينكم، (كورنث ١- ١٣/٥) آثام مسعاهم بشركة التناول معكم غير جديرين. لأجل هذا صموا عن دعواهم الآذان فلسوف يكتبون إليكم ضد أثناسيوس، سوف يرسلون، لا تصدقوهم حتى لو ذيلوها بتوقيعات أساقفة مصريين، فلسنا نحن أولاء، بل المليتيون الذين لا زالوا إلى اليوم يعكرون فى الكنيسة صفو السلام ويوسعون الصدع فيها ودعوى الشقاق " .
راجع ATTHANAS. Apol. C. Arian.19

على هذا النحو كتب أساقفة مجمع الإسكندرية دفاعا عن أثناسيوس، وراحوا بوحي منه ينهجون نفس السبيل الذى رسم الخطى منه يوسيبيوس النيقوميدى وصحبه. والى روما جاء وفد من أساقفة مصر يحملون هذه الرسالة ووجهة نظر الاكليروس(٧٧) حتى لا يدع أثناسيوس الفريق اليوسابى يقتحم عليه ميدانا كان قد أرسى فيه الدعائم . ويبين من الرسالة التى بعث بها يوليوس فيما بعد إلى اليوسابيين فى أنطاكية(٧٨)، أن جدالا عنيفا نشب بين رسل الفريقين حول اعتبار كرسى الإسكندرية الأسقفى شاغرا، ومحاولة اليوسابيين الحصول على تأييد يوليوس لتنصيب بستوس المرشح الاريوسى(٧٩) .

ولكن الأدلة التى قدمها قسيسو أثناسيوس لم تسمح لأسقف روما إلا بتأييد وجهة نظر الإسكندرية . فبستوس هذا أدانه إسكندر الأسقف السكندرى السابق ثم المجمع النيقى، كما أن سكوندوس الذى قام برسمه، شمله قرار الحرم كذلك على يد المجمع المسكونى الأول(٨٠)، ويعترف يوليوس بذلك بصراحة، ثم يخبرنا أن رسل الفريق اليوسيبيوسى عندما أدركوا أنهم لن يستطيعوا اجتذابه إليهم، عرضوا عليه مقترحهم بالدعوة لعقد مجمع لمناقشة القضية مثار النزاع(٨١)، وفى الوقت ذاته ارتحل رئيس الوفد مقار عائدا، رغم أن المرض كان يلح عليه، ويعلل يوليوس ذلك بالعار الذى جلل رسل اليوسيبيوسيين بعد أن دمغتهم بالزيف حجج رجال أثناسيوس(٨٢).

غير أنه لو كان " الخزى " دافع مقار لهذا العود غير المتوقع، كما يقول يوليوس، لكان من الحرى أن يعود الوفد كله إلى الشرق خاسئا وهو حسير، لفشله فى مهمته، أو لعاد على الاقل مغيظا محنقا، ولكننا نرى أن مقار استحث خطاه إلى زعمائه فى أنطاكية يطلعهم على حقيقة الأمر وضرورة الاستغناء عن بستوس،

(77) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22
(78) Ibid. 20-36
(79) Ibid. 24
(80) Id.
(81) Ibid. 22
(82) Id.

ذلك الذى لا يلقى فى الغرب قبولا لماضيه الآريوسى، ويشكل بهذا عقبة فى طريق تعاطف أساقفة هذا الجزء من الإمبراطورية مع اليوسيبيوسيين، وحتى لا يثير الشكوك حول الرحيل المفاجئ، أو يمهد السبيل، باصطحاب رفيقيه، أمام رسل الخصم السكندرى لإظهار الشماتة أو إحراز نصر كامل ، فقد ودع المدينة فى هدوء وترك صحبه هناك لمناقشة أسقف روما أمر الإعداد لعقد المجمع الكنسى المقترح، وهاهى مجريات الأحداث تدعم الرأى.

ففى ديسمبر ٣٣٨ كان الإمبراطور قسطنطيوس فى أنطاكية(٨٣) يعد جيشه لملاقاة الفرس(٨٤)، ووجدها اليوسابيون فرصة سانحة، بعد أن جاءتهم الانباء بتعثر جهود وفدهم فى روما، للتقدم خطوة أخرى، فعقدوا مجمعا هناك تحت رعاية الإمبراطور جددوا فيه قرارهم بعزل أثناسيوس واعتبار كرسى الإسكندرية شاغرا، واستطاعوا كما يقول ثيودوريت، الاستيلاء على أذن الإمبراطور مؤكدين أن عودة أثناسيوس من منفاه قد أدت إلى وقوع الاضطرابات والفتنة فى مصر وفلسطين(٨٥)، وقد قرر الفريق اليوسيبيوسى الاستغناء الآن عن بستوس المرشح الذى لم يفلح فى اعتلاء الكرسى السكندرى، ووقع اختيارهم على يوسيبيوس أسقف حمص Emesa وظنوه قريبا من أهل الإسكندرية، حيث قضى فى المدينة فترة يدرس الفلسفة(٨٦). ويصفه جيروم بموهبة خطابية رائعة وبيان(٨٧) لكن يوسيبيوس كان حصيفا عندما رفض قبول هذه المغامرة المثيرة(٨٨) . لما يعلمه عن ولاء كنيسة الإسكندرية لأسقفها أثناسيوس ، عندها وقع الاختيار على كبادوكى يدعى جريجورى(٨٩) Gregorius فى يناير سنة ٣٣٩ (٩٠)، كان أيضا أحد تلامذة مدرسة الإسكندرية المسيحية(٩١)، وأعطى الإمبراطور تصديقه على ذلك. وهذا واضح من رسالة

(83) Kidd, op. cit. II, p. 72
(84) Downey, op. cit. p. 356
(85) THEOD. Hist. Eccl. II, 2
(86) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 9 ; SOZOM. Hist .Eccl. III, 6
(87) HIER. Vir. Ill. 91
(88) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 9
(89) Id.; ATHANAS. Hist. Arian.9
(90) Kidd, op. cit. P. 73
(91) Robertson. op. cit. P. 43

أثناسيوس إلى عموم الأساقفة – Epistola Encyclica حيث يذكر أن حاكم مصر أذاع خطابا عاما يحمل طابع المرسوم، يعلن أن في الطريق جريجوري آت ليعتلى عرش الإسكندرية الأسقفى بأوامر البلاط[٩٢].

ولاشك أن الإمبراطور قد اقتنع، أو أقنعه اليوسيبيوسيون، أن أثناسيوس مغتصب للبيعة بعد عزله في مجمع صور ونفيه، وأنه يثير عالم الإمبراطورية من أجل نصرة قضيته، وأنه رغم وقوعه ضمن دائرة السيادة الإمبراطورية في الشرق، يبعث برسائله ومندوبيه إلى أساقفة الغرب وأخويه الإمبراطورين.ومنذ هذه اللحظة دخل قسطنطيوس في صراع فكري، مسوقا إليه، وشخصى عنيف مع الأسقف السكندرى لم ينته إلا بموت الإمبراطور سنة ٣٦١. وقد لقي هذا المرسوم الذى نشر في الناس يوم ١٨ مارس ٣٣٩ ردود فعل عنيفة من الاكليروس والجموع[٩٣].

وحوالى ذلك الوقت حقق الفريق اليوسيبيوسى كسبا هائلا، فقد نجح في إيغار صدر الإمبراطور على بولس أسقف القسطنطينية[٩٤]، فأصدر قرارا بعزله، ورفع خلفا له زعيم الفريق يوسيبيوس النيقوميدى[٩٥]، وهكذا أدرك يوسيبيوس في النهاية غاية طموحه[٩٦]، لقد كان الرجل في بدء عمله أسقفا لبيروت[٩٧]، فسعى جهده حتى أصبح راعياً لكنيسة مقام الأباطرة في الشرق، نيقوميديا، وصادق ليكينوس Licinius [٩٨] ثم نال الحظوة لدى قسطنطين، فلما كان عهد قسطنطيوس وأصبح لديه مقربا، علا عرش الدين في العاصمة الإمبراطورية.

وكان يوسيبيوس حريصا على سمو مركزه الحرص كله، فإذا كان قد نظر

(92) ATHANAS. Ep. Encycl. 2
(93) Id
(٩٤) انظر مخطوط رقم ٣٩٠ ورقة ٥٢.
(95) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 7 ; SOZOM. Hist. Eccl. III, 4
(96) Hefele, Histoire des Concils. 1, 2, p. 688
وراجع أيضا Mourret, Histoire generale de L'église II, p. 97
Chadwick, op .cit. P. 137
(97) SOCRAT. op. cit. I, 3
(98) THEOD. Hist. Eccl. I, 19

وهو بعد فى نيقوميديا بعين الحقد إلى الإسكندرية، يعلو نجم أسقفها، شماس نيقية الشهير، وراح يحاول بكافة الوسائل تحطيمه، فها هو الآن أسقف روما الجديدة عاصمة الرومان . وإذا كانت روما تحاج بأن القديس بطرس هو الذى رفع القواعد من كنيستها، والإسكندرية بمرقس والفكر تتعالى، فالقسطنطينية مستقر الأباطرة، تفضل لذاتها بنشأة على المسيحية، وهى لن تقبل فى شخص أسقفها الجديد يوسيبيوس أن ترتفع عليها أسقفية الإسكندرية،التى لا تعدو مجرد ولاية ضمن دائرة إمبراطورية عاصمتها القسطنطينية. وانطلاقا من هذا الواقع، وبالفكر ذاك، عاش يوسيبيوس عمره الباقى فى حساب الزمن يرنو الإسكندرية وأسقفها بنظرة من علٍ، مليئة بالحقد والكراهية.

ويبدو أن الأقدار قد ابتسمت ثانية للآريوسية، فلم يكد يمضى على اعتلاء يوسيبيوس كرسى العاصمة الأسقفى بضعة أشهر حتى مات سميه القيسارى (حوالى سنة (٣٣٩ أو ٣٤٠)[99] بعد حياة بالهدوء حافلة، وعلى الرغم من أن يوسيبيوس أسقف قيسارية لم يكن خصما عنيدا للآريوسية، إلا أن وفاته ساعدت على أن يضع الآريوسيون أيديهم على البيعة، ولذا فقد خلفه تلميذه أكاكيوس[100] Acacius الذى كان متحمسا للآريوسية قدر إفادته منها، وشارك بإيجابية سوف نعلمها فى أحداث هذه الفترة.

أحدث قرار الإمبراطور بتولى جريجورى الكبادوكي أسقفية الإسكندرية دويا هائلا، إذ لم يكن قد مضى على عودة أثناسيوس من المنفى أكثر من خمسة عشر شهرا فقط، وحتى طيلة هذه الفترة فإن كنائس الشرق الإمبراطوري بعامة لم تعترف بعودته، وفوق هذا فإن السلطة الإمبراطورية اعتبرته مغتصبا ، رغم أنه جاء الإسكندرية بقرار من الأخ الكبير قسطنطين الصغير ، وتعرضت المدينة لحالة من الهياج والفوضى حيث راح شعب الكنيسة المؤيد لأثناسيوس يعبر عن سخطه فى هذه الاجتماعات الغاضبة في الكنائس[101]، والآريوسيون والمليتيون يظهرون فرحتهم

(99) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 4
(100) Id. ; SOZOM. Hist. Eccl. III, 2
(101) ATHANAS. Ep. Encycl. 2

بالأسقف الجديد وبالاجراءات التي اتخذها فيلاجريوس لنقل رعاية الكنائس إليهم[١٠٢]. ويبدو أن التعليمات التى بعث بها الإمبراطور إلى نائبه فى مصر كانت تقضى بإنزال أقصى العقوبة بالمعارضين جميعا ومن بينهم أثناسيوس نفسه[١٠٣]، ولذلك جدت السلطات المدنية فى البحث عنه[١٠٤] وفى نفس اليوم الذى أذاع فيه فيلاجريوس مرسوم الإمبراطور، تمت مهاجمة كنيسة كويرينوس[١٠٥] Quirinus وقد يكون ذلك من أجل مباغتة الأسقف السكندرى ظنا منهم أن أثناسيوس يقيم فيها، أو لتفريق تلك المظاهرات التى قامت لتأييده[١٠٦] وفى اليوم التالى ١٩ مارس ٣٣٩ كان أثناسيوس قد علم أن حاكم مصر والآريوسيين سوف يقومون بالهجوم على الكنيسة التي اعتاد أن يقضى فيها الصوم الكبير، وهى كنيسة ثيوناس[١٠٧] Theonas ومن ثم آثر الانسحاب منها[١٠٨] وهو يتمثل، كما يحدثنا[١٠٩]، قول المسيح " ومتى طردوكم إلي هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى " (متى ٢٣/١٠) .

وطوال ثلاث ليال، والبحث عن أثناسيوس جار، ومحاولات أنصاره تذهب عبثا عندما يقتحم جريجورى الإسكندرية أسقفا إمبراطوريا، تصحبه قوة عسكرية[١١٠] قوامها خمسة الاف جندى[١١١] وهكذا شهدت الإسكندرية للمرة الأولى فى تاريخها أسقفين على كرسيها فى وقت واحد، أثناسيوس الأسقف الشرعى يؤيده الاكليروس وشعب الكنيسة وأسقف روما وإمبراطورا الغرب، وجريجورى أسقف البلاط يناصره الاريوسيون والمليتيون عقيدة، واليهود حقدا والوثنيون انتقاما، والفريق اليوسيبيوسى وإمبراطور الشرق . وأصبحت المشكلة أعمق من محاولة

---

(102) ATHANAS. Hist. Arian. 10
(103) Id.
(104) FEST. IND. XI
(105) ATHANAS. Hist. Arian. 10
(106) ATHANAS. Ep. Encycl. 5
(107) Id.
(108) FEST. IND. XI
(109) ATHANAS. Ep. Encycl. 5
(110) ATHANAS. Hist. Arian . 10, 14 وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. III, 6
(111) SOCRAT . Hist .eccl. II, 11

لعزل أسقف واستبداله بآخر فأضحت صراعا من أجل الزعامة كنسيا، وصراعا أشد هولا بين الاخوة الأباطرة سياسيا.

وإلى الإسكندرية كانت رسل يوليوس قد جاءت في نهاية عام ٣٣٨[١١٢] تدعو أثناسيوس للذهاب إلى روما لحضور المجمع الذى اقترحه مندوبو الفريقين[١١٣]، غير أن أثناسيوس لم يشأ أن يترك المدينة في هذا الجو العاصف، وآثر أن يتريث حتى تتضح الأمور، وهو يدرك أن أعين فيلاجريوس وجريجورى ترقبه في كل خطو، ولذا فقد ظل مختفيا حتى تسنح الفرصة، وشغل نفسه خلال ذلك بكتابة رسالة عامة Epistola Encyclica إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في مختلف الأسقفيات جاء في مقدمتها " إن ما وقع من الضرار لم يكن ليصيبني وحدى، بل هو إلى الكنيسة كلها موجه "[١١٤] ، " ... . وبينما السلام على الارض سائدا، إذا بمرسوم حاكم مصر يعكر الصفو وينبئ بمقدم الغازى لرعية ليس لديها الرغبة في لقياه أو الدخول في شركته "[١١٥]، ثم يصور أثناسيوس بعد ذلك السخط الذى عم الجموع واحتواها، والأحداث التى صحبت دخول جريجورى الإسكندرية وما كان من قيام فيلاجريوس بمساعدته وحمل الشعب على الانضواء تحت رعايته، وتسليم الكنائس إلى الآريوسيين[١١٦]، ويعيد إلى الأذهان ثانية ما كان من أمر بستوس الذى فشل اليوسيبيوسيون في نصرته، فقد " أخذ لنفسه ديتونة "[١١٧] ولم ينس أثناسيوس أن يخلع على قسطنطيوس وهو يحدث عنه صفات التقى والورع[١١٨] في الوقت الذى يصب فيه جام الغضب ويستمطر على فيلاجريوس " صنيعة اليوسابيين "[١١٩] اللعنات، فلم يكن الأسقف السكندرى يرغب في أن يدخل

(112) ATHANAS. Ep. Encycl. 7
(113) ATHANAS. Hist. Arian, 9 ; Apol. C. Arian. 20
(114) ATHANAS. Ep. Encycl. 1
(115) Ibid. 2
(116) Ibid. 3-5
(117) Ibid. 6
(118) Ibid. 5
(119) Ibid. 6

فى خصومة مع إمبراطور الشرق، وربما لم يكن قد عرف خبيئة نفس الإمبراطور، وهو ما لم يفطن إليه أبدا ، أو لعله أفاد من مواقفه مع قسطنطين الكبير، فعزم على أن لا يترك الميدان للفريق اليوسابى يستأثر بالإمبراطور وحده وبسهولة، فأورد قسطنطيوس بالصلاح يتسم . على أن نهاية هذه الرسالة جاءت دعوة صريحة للأساقفة لتأييده ونبذ مخاصميه(١٢٠).

هذه هى الرسالة الثانية التى خرجت خلال أشهر قلائل من الإسكندرية إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، الأولى خطها الاكليروس برأى المجمع فى أثناسيوس وعنه دفاعا، والأخيرة صنفها بيمينه، فإذا كان اليوسيبيوسيون قد أفلحوا من قبل زمن قسطنطين فى إثارة غيظ الأساقفة ضد الإسكندرية وأسقفها، حتى عادوه جميعا فى صور، فقد صمم أثناسيوس واكليروسه على أن لا تكون الجولة الثانية شأن سابقتها، ولاشك أن هذه الرسالة تصور كما يقول المؤرخ دوشين(١٢١) Duchesne مدى القلق والغضب والحالة النفسية التى كان يعاني منها الأسقف السكندرى آنذاك.

---

(١٢٠) يقول أثناسيوس فى ختام رسالته :

" هبوا أحدكم فى المذبح يعظ، والجموع من حوله خاشعة، وإذا "
" بمرسوم يقتحم عليه الهدوء ويعلنه بخليفة له، وإذا بهذا يقدم "
" ويأتي من الامور شائنها، ألن يتملكه الحنق مغيظا ؟ ألن يهرع "
" يرجو للحق إنصافا ؟
" لا ريب عندى وقد اضطربت نفوسكم بالمقت وكرها لشرور قصصتها"
" عليكم، أتاها أولئك البلهاء، أنكم سوف تدينون قرناء الإثم "
" والخطايا . أنى لأضرع إليكم أن لا تدعوا الدنس يصيب البيعة "
" السكندرية تلك التى ذاع صيتها . وإذا ما سولت لجريجورى "
" نفسه أن يكتب لنياقتكم، أو من أجله كتب أحد ، إخوتي ، لا تلقوا "
" لتلك الرسائل بالاً، مزقوها، وبالعار جللوا حامليها دعاة الرذيلة "
" والكفران. من أجل ما قدمت تعطفوا وأجيبونى . أما هم فالعنوا "
" وأدينوا، فلسوف يطرب هنا فى الديار شعب الكنيسة والرعيان "
" بفعالكم هذى وقوامة الإيمان "
راجع ATHANAS. Ep. Encycl. 7

(121) Duchesne op. cit. II, p. 160

وعلى امتداد أربعة وعشرين يوما، عاشت أسقفية الإسكندرية يحمل كرسيها أسقفين، حتى إذا جاء يوم ١٦ إبريل سنة ٣٣٩[١٢٢]، كان أثناسيوس قد اتخذ سبيله في البحر هربا، قاصدا روما، بادئا بذلك رحلة نفيه الثانى التي قدر لها أن تطول هذه المرة ستة أشهر وسبع حجج.

أما اليوسابيون فقد أرسل إليهم يوليوس من لدنه قسيسين، البيديوس Elpidius وفيلوكسنوس Philoxenus يحملان دعوته لهم للذهاب إلى روما[١٢٣] لحضور المجمع المقترح، ويبدو من حديث أثناسيوس[١٢٤] أن هذه السفارة ربما وصلت أنطاكية بعد قدومه إلى الغرب، إذ يخبرنا أن اليوسيبيوسيين حالما علموا ارتحاله، تملكتهم الحيرة وشملهم الارتباك كما لو كانوا لا يتوقعون، حسب تعبيره، حدوث ذلك، ولذا عدلوا عن رأيهم ونبذوا فكرة المجمع بعد أن خشوا افتضاح أمرهم ضده. هذا ما يقول أثناسيوس .

غير أن الحقيقة لا تدعم هذا الرأى، فقد كان معلوما لدى أساقفة الشرق مقدما أن يوليوس سوف يدعو إليه الفريقين الخصمين، بل إن أثناسيوس نفسه يذكر أن الشماسين مارتيروس وهسيكيوس اقترحا على أسقف روما عقد مجمع كنسى يدعى إليه الطرفان[١٢٥]، يضاف إلى هذا أن يوليوس يذكر فى رسالته[١٢٦] التى بعث بها إلى اليوسيبيوسيين بعد مجمع روما ما نصه " . . . طلبا (يعنى مارتيريوس وهسيكيوس) إلى أن أوجه الدعوة لعقد مجمع يضم طرفى النزاع، وأن أكتب للإسكندرية إلى الأسقف أثناسيوس، وكذلك إلى اليوسيبيوس ورفاقه، حتى يبين الحق وتتضح أمام الجميع العدالة ". ويورد أثناسيوس هذه الرسالة كاملة فى دفاعه ضد الآريوسيين، دليلا على سلامة موقفه وتبرئته مما نسب إليه على يد الخصوم، فكيف إذن يمكننا أن نتفق معه فى القول، بالحيرة تتملك اليوسابيون عند معرفتهم بهروبه إلى روما " ؟! .

---

(122) FEST. IND, XII
(123) ATHANAS. Apol. C. Arian. 20 : وراجع له أيضا Hist. Arian. 11
(124) ATHANAS. Apol. C. Arian. 29
(125) ATHANAS. Hist. Arian.9
(126) ATHANAS. Apol. C. Arian. 22

أما العدول عن تلبية نداء يوليوس وشجب فكرة المجمع، فذلك شيء لابد أن يكون قد استقر عليه رأيهم منذ عودة مقار من روما، كما أسلفنا، ولم يكن بقاء الشماسين من بعده هناك وما قدموه من اقتراحات إلا مناورة قصد بها كسب الوقت تمهيدا لاتباع أسلوب آخر في معاملة أساقفة الغرب هؤلاء، وكانت أول خطوة أقدموا عليها هي تجديد عزل أثناسيوس وسيامة جريجوري الكبادوكي على البيعة السكندرية راعيا، فليس هناك داع إذن لحضور مثل هذا المجمع خاصة وأن أسقف الإسكندرية الجديد قد حصل على تأييد الإمبراطور قسطنطيوس.

ولاشك أن أساقفة الشرق أدركوا يقينا أنهم في الغرب سوف يجدون أنفسهم يواجهون أغلبية تناصر أثناسيوس، فإذا ما أدخلنا في اعتبارنا أنه أخذ يتقاطر على روما عدد من الأساقفة الذين طردوا من كراسيهم على يد اليوسيبيوسيين، بولس أسقف القسطنطينية، ماركللوس أسقف أنقرة، أسكليبيوس أسقف غزة(١٢٧) يحملون شكاياتهم إلى الاكليروس في الغرب وعلى رأسه الأسقف الروماني، أيقنا أن مدار بحث القضية لن يكون في صالح اليوسابيين ، خاصة أن إمبراطوري الغرب يعطفان على العقيدة النيقية واتباعها ، ولهذا راح الفريق اليوسابي يسوف في إعطاء رده لرجلي يوليوس فترة طويلة، ولم يسمح لهما بمغادرة أنطاكية إلا في أوائل يناير سنة ٣٤٠(١٢٨) وقدم اليوسيبيوسيون اعتذارهم عن عدم قدرتهم على إجابة دعوة أسقف روما، محاجين بأنه لم يرسل لهم قبل الموعد المقترح للمجمع بوقت كاف(١٢٩) كما أن الأحوال السياسية والعسكرية لا تسمح لهم بمغادرة بيعهم الآن، حيث " أن جيش الشرق يحارب الفرس، والإمبراطور بهذه الحرب مشغول، والواجب يدفعهم إلى أن يكونوا إلى جواره في هذه الظروف العصيبة "(١٣٠) .

ولعل هذه الفترة الطويلة التي مضت قبل أن يسمح أساقفة الشرق لقسيسي

---

(127) SOCRAT, Hist. Eccl. II, 15; ATHANAS. Apol. C. Arian 23, 33
وأيضا : SOZOM. Hist. eccl. III, 5

(128) ATHANAS. Apol. C. Arian. 52

(129) Id.

(130) ATHANAS. Hist. Arian.11

يوليوس بالعودة، قضاها اليوسيبيوسيون يستجمعون القوى لتدعيم مركزهم، ويبحثون عن سبيل آخر يسلكونه تجاه الغرب بعد أن فشلت سياسة الاستمالة والترضية. وتمثل هذا الاتجاه الجديد في رسالة عنيفة بعثوا بها إلى أسقف روما صحبة سفارته(١٣١)، ولم يحفظ لنا الزمان نص ما قالوا، ولكن القدر شاء أن يدخر بعضا منها في شذرات متفرقة تضمنها رد يوليوس عليهم، وما أورده المؤرخ الكنسى سوزومنوس عما احتوته.

فقد جاء فيها أنهم " مع تقديرهم لروما مكانتها المرموقة باعتبارها مدرسة الرسل وقصبة الأرثوذكسية منذ البداية، إلا أنه لا يخفى على أسقفها أن العقيدة التى تدين بها روما، من الشرق جاءت "(١٣٢)، وهم لا يرضون لأنفسهم البتة بالمرتبة الثانية، فهم أهل الفضيلة يفوقون بها الرومان(١٣٣)، ومن ثم للأساقفة سلطان وليس لأحد أن يتعالى دون الآخرين ويتباهى بقدر مدينة هو قاطنها(١٣٤) فكيف إذن يستبيح يوليوس لنفسه حتى دعوة الأخوة إلى مدينته لمجمع يترأسه ويقيم من نفسه بين الخصوم قاضيا(١٣٥). ثم يسألونه " باسم من يتحدث ؟ أباسمه وحده، أم نيابة عن الآخرين ؟ ومن الذى خوله حق الحديث عن هؤلاء"(١٣٦).

وراح اليوسيبيوسيون يدفعون أيضا بأن للمجامع الكنيسة سلطة لا يمكن لأحد أن ينقضها أو يخرج عنها، ولهذا فليس ليوليوس ومجمع روما أن يشجب قرارت أصدرها الأساقفة فى صور سنة ٣٣٥ بشأن أثناسيوس(١٣٧) وسوف نرى أن يوليوس فى رده عليهم يضغط هو الآخر على هذه الناحية باعتبارهم لم يقيموا وزنا لقرارات مجمع نيقية، ويعدونه فى النهاية وعدا حسنا " إن هو أصاخ لهم السمع

(131) ATHANAS. Apol. C. Arian21

(132) SOZOM. Hist. eccl. III, 8

(133) Id. يقصدون بذلك أن المسيحية نشأت فى الشرق بين ظهرانيهم و أنهم أولى الناس بزعامة الكنيسة المسيحية.

(134) ATHANAS. Apol. C. Arian. 25

(135) Ibid. 22

(136) Ibid. 26

(137) Ibid. 22, 25

ووافق على عزل الأساقفة الذين تم نفيهم على أيديهم من قبل، وارتضى سيامة أولاء الذين رسموا بدلا منهم واعتلوا كراسيهم " فلئن فعل ذلك ساد السلام الكنيسة ونبعث بينهما الصداقة، وإن أبى فليسوف يملأون الدنيا بالاعتراض ضجيجا[١٣٨]. ويعلق سوزومنوس على الرسالة فى جملتها بقوله " ظاهرها براق، وباطنها سخرية لاذعة وصرامة "[١٣٩].

استشاط يوليوس غضبا لهذا الذى يقرأ، وزاد الأمر ضراما ما قصه عليه رجلاه من المعاملة غير الودية التى قوبلا بها فى الشرق[١٤٠]، بالإضافة إلى كل هذا التأخير الذى أرغما عليه، ولكن الأسقف الرومانى كظم غيظا كاد يخرجه عن وقاره لبعض الوقت، وكتم أمر الرسالة عن الرفاق أملا أن يستجيب اليوسيبيوسيون لندائه ويخف منهم نفر إلى روما[١٤١] فلما أعياه الانتظار أظهر الرسالة وقرأها على الجمع المحتشد فى بيعته، فتملك الحنق أفئدة الحضور[١٤٢]، واتضح على الفور بصورة جلية فى البرود الذى قوبل به كاربونس Carpones وصحبه من جانب الأساقفة جميعا فى روما، وكان جريجورى الكبادوكى قد بعث به إليهم رسولا[١٤٣] كما أن جريجورى لم يوفق فى اختياره هذا، إذ أن مبعوثه كان من بين من جرمتهم الكنيسة السكندرية على عهد أسقفها إسكندر لانتمائه للعقيدة الآريوسية[١٤٤]، على حين استقبل أثناسيوس لدى وصوله بالترحاب والتقدير[١٤٥].

وقد كتب أثناسيوس[١٤٦] بعد ذلك أن الإسكندرية قد شهدت حالة من الفوضى

(138) SOZOM. Hist. eccl. III, 8
(139) Id.
(140) ATHANAS. Apol. C. Arian.21
(141) Id.
(142) Id.
(143) Ibid. 24
(144) ATHANAS. Dep. Arii.2
(145) SOCRAT. Hist. eccl. 11,15
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. 111, 8
(146) ATHANAS. Hist. Arian. 12-14

التى تعود إلى المقاومة العنيدة التى أبداها شعب الكنيسة ضد رغبة الإمبراطور بالدخول فى طاعة جريجورى، ومحاولة فرض سيطرة الآريوسيين على الكنائس، ويذكر أن بعض نفر من الأساقفة ورجال الاكليروس فى مصر قتلوا من جراء هذا العنف، وظل رهبان مصر على ولائهم لأثناسيوس، فأعطوا بذلك المثل للجموع يحتذى، وكتب أبو الرهبان أنطونيوس إلى جريجورى حانقا غاضبا، ولكن الأسقف الجديد لم يعر ذلك اهتماما(١٤٧) .

ومن روما كتب أثناسيوس إلى " الأخ المحبوب " و" الصديق " سرابيون Serapion أسقف تمى (الامديد) Thmius (فى الدلتا) فى فصح عام ٣٤٠، رسالة يقول فيها إنه " رأى أن يبعث برسالة الفصح هذه إليه دون غيره، فعن طريقه يستطيع الاخوة جميعا معرفة ما ذكره أسقفهم ويوم عيدهم(١٤٨) ولاشك أن ما دفعه إلى اختيار سرابيون بالذات قرب هذا إليه واعتزازه به، كما واضح من عبارات المحبة والتقدير التى يحوطه بها فى الرسالة، هذا بالإضافة إلى أن كنيسة الإسكندرية الآن كانت تحت سيادة جريجورى الآريوسى، وأثناسيوس يذكر ذلك صراحة عندما يقول إن نفرا من المليتيين قدموا إلى روما وراحوا يتباهون بادعاء ما ليس من حقهم، وهو أنهم أضحوا فى عداد الكنيسة الكاثوليكية(١٤٩) ويطلب أثناسيوس من سرابيون أن يوافيه بالأحداث حيث إنه " مشوق إلى معرفة ذلك(١٥٠) ويختتم رسالته بتعيين ثلاثة عشر أسقفا بدلا ممن عزل أو قضى(١٥١).

ولا ريب أن أثناسيوس بهذه الرسالة وخاصة بقراره الأخير ، أراد أن يثبت للجميع أنه الأسقف الشرعى للإسكندرية حتى ولو كان بعيدا عن الأسقفية، وأن كل هذه الأحداث التى وقعت، ودخول جريجورى الإسكندرية وتسليم الكنائس إلى

---

(147) ATHANAS. Hist. Arian. 12-14.
(148) ATHANAS. Ad Serap.
(149) Id.
(150) Id.
(151) Ibid. 2

الآريوسيين، لا يغير ، في رأيه، من الحقيقة شيئا. والرسالة في حد ذاتها، حتى ولو لم تفصح جهارا، دعوة إلى أنصاره بالتصدى لكل ما يتهدد الكنيسة السكندرية.

وفي خريف عام ٣٤٠ التأم عقد الأساقفة في روما تحت رئاسة يوليوس(١٥٢)، وبلغ عددهم قرابة الخمسين(١٥٣)، لمناقشات الاتهامات الموجهة ضد أثناسيوس، الذى كان قد مضى على وجوده في الغرب الآن حوالى ثمانية عشر شهرا(١٥٤) . وقد ضم المجمع الأساقفة الذين وفدوا على روما من تراقيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين(١٥٥) ، بالإضافة إلى أساقفة إيطاليا والغرب، وأثناسيوس وماركللوس وبولس وأسكلبيوس.

وتفيد الرسالة التى بعث بها يوليوس إلى اليوسيبيوسيين، أن السلطات الرومانية فى مصر قد حالت دون سفر عدد من رجال الاكليروس السكندرى لحضور المجمع(١٥٦) .

وقد بحث الأساقفة التقارير الواردة من الشرق ضد أثناسيوس متضمنة تقرير لجنة مريوط، ونظروا فيما قدمه الأسقف السكندرى دفاعا عن نفسه والاحتجاجات التى بعث بها أساقفة مصر وليبيا، وما جاء فى رسالتهم المجمعية إلى عموم الأساقفة(١٥٧) .

وفى النهاية أصدر المجمع قراره بتبرئة ساحة أثناسيوس من كل التهم الموجهة إليه(١٥٨) .

وفيما يختص بماركللوس أسقف أنقرة، ارتضى الجميع منه وثيقة إيمان قدمها لا تخرج عما تدين به الكنيسة الكاثوليكية، وأعلن نتيجة لذلك قوامة

(152) Hefele, op. cit. 1, 2 pp. 699-702
(153) ATHANAS. Apol. C. Arian .20
(154) ATHANAS. op. cit. 29
(155) Ibid. 33
(156) Id.
(157) Ibid. 27-31
(158) Ibid. 29

إيمانه[١٥٩] وعلى النهج ذاته سلك المجتمعون إزاء باقى الأساقفة وأصدر المجمع قراراته بعدم شرعية إدانتهم وأقر بعودتهم إلى كنائسهم[١٦٠].

بقى إذن أن يقف أساقفة الشرق، أصحاب الدعوى، على هذه القرارات ومن أجل ذلك عهد المجمع إلى يوليوس بهذه المهمة[١٦١]. فكتب الأسقف الرومانى رسالة مستفيضة[١٦٢] تعد على جانب كبير من الاهمية، افتتح بها أثناسيوس الجزء الثانى من ".دفاعه ضد الآريوسيين " ويعتبرها المؤرخ كيد Kidd عتابا رزينا ثقيل الوطء[١٦٣] ويصفها المؤرخ جواتكين Gwatkin بالقسوة التى تخلو من دهاء اليوسيبيوسيين ومكرهم[١٦٤] وقد استهلها الأسقف الرومانى بتوجيه اللوم العنيف والتوبيخ إلى اليوسيبيوسيين لروح " الكبر " التى تسيطر عليهم، والتى يتضح بها، حسب تعبيره كل كلمة من رسالتهم إليه، ففى خيزية يدعوهم، فإذا هم بالشر يجيبون[١٦٥] ثم تمضى الرسالة بعد ذلك تحدث عن نقاط معينة، الرد على ما جاء فى رسالة اليوسابيين حول حق يوليوس فى الدعوة لعقد مجمع الأساقفة فى روما، أو بتعبير أكثر دقة، مدى سلطته فى الفصل بين الأساقفة، وسلطة المجامع الكنيسة والالتزام بقراراتها والا أصبح من اليسير شجب بعضها بعضا. ثم يفند الاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس منذ ولى أمر بيعة الإسكندرية، وبصفة خاصة ما جاء فى تقرير لجنة مريوط، ويعلن بطلان الدعوى وبراءة أثناسيوس، وكذا ماركللورس والأخوة الآخرين .

---

(159) ATHANAS. Apol. C. Arian 32.
(160) Ibid. 35

وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 15

وكذلك SOZOM. Hist. eccl. III, 8

(161) ATHANAS. Apol. C. Arian
(162) Ibid. 20-35
(163) Kidd, op. cit. P. 77
(164) Arian controversy, p. 67
(165) ATHANAS. op. cit. 21

وفى النهاية يدين الأسقف الرومانى الإجراءات غير القانونية التى أقدم عليها اليوسيبيوسيون بترشيح بستوس أولا، ثم سيامة جريجورى من أنطاكية وإرساله إلى الإسكندرية أسقفا .

ورغم أن يوليوس قد قبل من اليوسيبيوسيين ما ذكروه عن المساواة الكاملة بين أساقفة الكنيسة جميعًا، إلا أنه لم ينس أن يختتم رسالته بإشارة عابرة عن علو كرسيه الأسقفى، يقول : " أتراكم قد جهلتم ما سرى به العرف من أنه إلينا يجب أن يكتب أولا، ومن عندنا تكتسب القرارات شرعيتها والأحكام" ويومئ بعد ذلك إلى إلى أنه يحتل المركز التقليدى للقديسين بطرس وبولس(١٦٦).

ومع أن بعض المؤرخين يرى أن هذه العبارات الغامضة لا تفصح عن سمو أسقفية روما(١٦٧)، ولا تعنى أكثر من أنه دون موافقته الشخصية، فإن الأحكام التى تصدر فى شأن الأساقفة والكنيسة تفتقر إلى وزنها العالمى(١٦٨) إلا أن مؤرخئ الكنيسة سقراط(١٦٩) وسوزومنوس(١٧٠) يريان غير ذلك، إذ يتهمان أساقفة الشرق بالتغاضى عن القوانين الكنيسة، التى تجعل شرعية أى قرار مرتبطة بإرادة الأسقف الرومانى، وصحة أى مجمع معلقة بحضوره أو ممثليه، ويذكر كلاهما كذلك أن يوليوس كتب هذا فى رسالته . غير أنه لما كان خطاب يوليوس يخلو من عبارة " القوانين الكنيسة " وكل ما ورد فيه قوله " ما جرى به العرف، أو التقليد " فلاشك أن كليهما قد فسر هذا بما يحمله فى نفسه من تقدير عميق لمكانة روما المدينة والكنيسة، وهذا يتبدى على صفحات تاريخهما الكنسى، ولم يعدم مؤرخا الكنيسة مؤيدين لهما من كبار الدارسين المحدثين وفى مقدمتهم جواتكين(١٧١).

(166) ATHANAS. Apol. C. Arian
(136) Kidd. op. cit. 11, p. 77
(168) Robertson, op. cit. P. 44
(169) SOCRAT. Hist. eccl. II,17
(170) SOZOM. Hist. eccl. III,10
(171) Gwatkin, op. cit. P. 67

Gwatkin ونياندر[١٧٢] Neander يؤكدان محاولة الأسقف الرومانى إقرار رفعة شأن أسقفيته وعلو مكانتها.

الحقيقة التى نلمسها من خلال هذه الأحداث، أن أسقف روما لاشك كان يشعر بالزهو إذ يرى أساقفة الشرق، والإسكندرية بالذات، يسعى مندوبوهم بين يديه، يطلبون إليه أن يستدعى زعماء الفريقين ليفصل بينهم، ويسارع يوليوس دون توان يكتب إليهم، وتزداد خيلاؤه وهو يرى أثناسيوس أسقف الإسكندرية قبلة الفكر، وبولس أسقف القسطنطينية، روما الجديدة، مقام الأباطرة التى اختطفت أضواء البلاط من ضفاف التيبر إلى شطآن البسفور، ورجال كنائس أخرى عديدين، يحجون إلى روما يعرضون عليه شكاياتهم والقضايا، ينتظرون قراره ومراسيم العدالة، وعلى رأس خمسين من الأساقفة لنعقد جمعهم، يدير يوليوس دفة الحوار، يبرئ أولاء، ويدين أولئك، ويعلق المؤرخ جاكسون Jackson على ذلك بقوله " ان روما هبطت بعد انتقال العاصمة إلى القسطنطينية إلى المرتبة الثانية من الواجهة السياسية كمدينة عادية داخل ولاية، ومن ثم راحت تتمهل قليلا قبل أن تعى هذا الهوان، وأخذت تنتظر المذلة الأخيرة على يد الجرمان، ومن هذا الواقع بدأت تبذل جهودا متصلة لتعوض كنسيا بعض ما فقدت من مكانة إمبراطورية "[١٧٣].

هذا المظهر العام للنشاط الذى أبداه يوليوس، قد يوحى للوهلة الأولى بالمكانة السامية التى نالها خليفة القديس بطرس غير أن هذه الصورة لم ترد مطلقا فى مخيلة أساقفة الشرق عندما لجأوا إليه، وقد سجلوا ذلك صراحة فى رسالتهم التى أوزدنا من قبل فحواها. وإذا كانت هذه هى نظرة اليوسيبيوسيين وفكرهم عن السيادة الكنيسة، فإن أثناسيوس وبولس وغيرهما لم يكن أمامهم من سبيل غير ما سلكوه فعلا، فالشرق كله يخضع الآن للآريوسيين يقود خطاهم يوسيبيوس ورفاقه، ويتمتعون بعطف الإمبراطور قسطنطيوس وحدبه، أما روما، أو الغرب فكان بمنجاة من هذه

(172) Neander, Christian religion and Church, IV. p. 43

وراجع أيضا ما كتبه Carry تحت مادة Arianism فى The Catholic Encyclopedia, I, p. 14

(173) B. Jackson. op. cit. P. 14

السيادة، وعاهلاه يشايعان النيقية ويقدران أسقف الإسكندرية، ولذا كان ارتحاله إلى الغرب مشفوعا بدعوة يوليوس احتماء بالسلطة الإمبراطورية فيه، وأملا فى تدعيم عطف كان من قبل قد حباه به الاكليروس هناك وشعب الكنيسة .

أما فكرة أثناسيوس عن سمو الكرسى الأسقفى فى روما، فلم تكن تختلف كثيرا عن رأى أساقفة الشرق اليوسابيين، ونجد ذلك واضحا في كتاباته، فهو ينظر إلى روما بالتقدير إذ كانت " عاصمة الإمبراطورية "[(١٧٤)] وإلى أسقفيتها باعتبارها " كرسيا رسوليا "[(١٧٥)]، ويقدم لأساقفتها التبجيل والاعتزاز، فهم "الاخوة الأحبة"[(١٧٦)]، وهذا هو كل ما جاء فى أعمال أثناسيوس العديدة عن أسقفية روما . وهو حتى فى هذا القليل لا يحمل أفكارا تخلع الزعامة على الكنيسة الممثلة فى الأسقف الرومانى، أو تشير إلى هذه السيادة . لقد كان ، كما يقول روبرتسون[(١٧٧)] Robertson ، يجل الأسقف لذات الأسقف دون العرش، غير أن هذا كله لم يمنع أسقف روما من أن يسر فى جمع بأن عدالة القرار وشرعيته يجب أن تبدأ بروما، وبها تنتهى.

(174) ATHANAS. Hist. Arian. 35

(175) Id.

(176) ATHANAS. Ad Afros. 1

(177) Robertson, op. cit. P. 76.





الفصل الرابع

انتصار النيقية الغارب



الفصل الرابع

انتصار النيقية الغارب

في عام ٣٤٠، ولم يكد يمضي على وفاة قسطنطين الأول ثلاث سنوات، نبذ ولده وسميه قسطنطين الثاني دعائم الوفاق مع أخيه الأصغر قنسطانز[١]، وأخذ يطالبه في لجاجة بالولاية الأفريقية عوضا عن فقر إقليمه، ومقابل رخاء مقدونيا وبلاد اليونان[٢]، فلما فشلت المفاوضات أصغى قسطنطين الثاني لنصائح مستشاريه[٣]، وغزا على الفور أقاليم قنسطانز حيث دخل في القتال مع جند أخيه[٤]، غير أن الدائرة دارت عليه في أكويليا Aquileia عام ٣٤٠ حيث لقى مصرعه[٥] وهكذا ألقت الأقدار بثقلها في كفة قنسطانز، وغدا أصغر الإخوة بذلك يسيطر على كل أقاليم النصف الغربي للإمبراطورية . وإذا كانت قضية النيقية قد خسرت بمقتل قسطنطين الثاني أحد المدافعين عنها ، فقد وجدت في قنسطانز خير حام، وفي أرضه الوسيعة وتحت سيادته كل مدد .

وكانت رسالة يوليوس أسقف روما قد أتت الآن اليوسابيين في الشرق، وتلقفها هؤلاء على مضض ، وهم يطالعون في فقراتها اتهامات عنيفة صبها عليهم أسقف روما[٦] ، فأجمعوا أمرهم، وانتهزوا فرصة الانتهاء من بناء الكنيسة الذهبية أو تلك التي تعرف بالكنيسة المثمنة Octangula Ecdesiastica في أنطاكية، تلك التي رفع القواعد منها قسطنطين الكبير[٧]، وحان الآن موعد افتتاحها . وفي حفل

---

(1) Jones, Later Roman empire, I. p. 112
(2) Gibbon. op. cit. II, p. 245
(3) Id.
(4) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 5
(5) SOZOM. Hist. Eccl. III.2
(6) Kelly, Early Christian Creeds, p. 264
(7) EVSEB. Vita Const. II,50

التدشين، صيف سنة ٣٤١، تقاطر على المدينة تسعون أسقفا حسب رواية سقراط[٨] وأثناسيوس[٩]، وسبعة وتسعون كما يرى سوزمنوس[١٠] وهيلارى[١١] يمثلون كنائس الشرق عامة، لم يكن من بين الحضور أسقف للغرب واحد[١٢]، ولم يشارك فيه يوليوس بأى من رجاله[١٣]، ورفض ماكسيموس Maximus أسقف أورشليم الجديد، خلف مقار، الذهاب إلى أنطاكية معلنا أنه خدع مرة قبل ذلك بالتوقيع على عزل أثناسيوس ، ولن يسمح الآن بخديعة أخرى[١٤].

وفى حضرة إمبراطور الشرق قسطنطيوس التأم عقد هؤلاء الأساقفة فى مجمع حمل اسم المناسبة التى وافقها فعرف باسم " مجمع التدشين "[١٥] Concilium-dedicationis ويخبرنا سقراط[١٦]وسوزمنوس[١٧] أن يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية الآن، هو الباعث الرئيسى وراء هذا اللقاء، رغم ما أذاعه من أن هذا الاجتماع قصد به الاحتفال بافتتاح كنيسة أنطاكية ، إلا أن هدفه الرئيسى كان " الإطاحة بالعقيدة الهوموسية " وعلى أية حال فان هذا المجمع الأنطاكى كان ردا طبيعيا على مجمع روما ٣٤٠ ورسالة أسقفها يوليوس.

ويخلط كل من سقراط[١٨] وسوزمنوس[١٩] بين مجمع التدشين هذا (٣٤١)

(8) SOCRAT. Hist. Eccl. II,8
(9) ATHANAS. De Syn. 25
(10) SOZOM. Hist. Eccl. III,5
(11) HILAR. De Syn. 28
(12) Percival, The Seven Ecumenical Councils, p. 105
(13) SOZOM. Loc. cit
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit
(14) SOCRAT. Loc. cit
(15) ATHANAS. De Syn. 22
وراجع أيضا Hefele, op. cit. I, 2. Pp. 702-33
(16) SOZOM. Hist. Eccl. II,8
(17) SOZOM. Hist. Eccl. III, 5
(18) SOCRAT. Loc. cit.
(19) SOZOM. Loc. cit.

وذلك الذى عقده أساقفة الشرق أيضا فى أنطاكية فى نهاية ٣٣٨ وتم فيه تجديد وعزل أثناسيوس ورسامة جريجورى الكبادوكى أسقفا للإسكندرية على النحو الذى أسلفنا، ويجعلان منهما مجمعا واحدا، غير أن الحقيقة أن هناك ما يزيد عن العامين يفصل بينهما، يضاف إلى ذلك أن مجمع سنة ٣٣٨، اكتفى باختيار أسقف جديد للإسكندرية دون أن يتعرض لمسألة العقيدة، على حين ذاع فى عالم المسيحية صيت مجمع التدشين بتلك الصور المتتالية للعقيدة، والتى سوف نعرض لها الآن .

ولعلنا ندرك بوضوح حقيقية ما ذكرناه على لسان سوزمنوس آنفا، من القول بأن أحدا لم يجرؤ طيلة حياة قسطنطين الأول على تحدى عقيدة نيقية، وكان موته إشارة البدء لأنصار الآريوسية لمحاولة إقرار معتقدهم، ومن هنا يعد مجمع التدشين بما تمخض عنه، نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الآريوسية(٢٠)، ذلك أنه يمثل بداية المراسيم المضادة أو رد الفعل تجاه صيغة الإيمان النيقى، وكلها محاولات جرت لرفع بعض الصيغ الأخرى إلى مرتبة واحدة مع صيغة نيقية، حتى يمكن فى النهاية التخلص من الهوموسية باعتبارها عقيدة مسكونية(٢١)، لصدورها عن مجمع نيقية، ولقد مضت فترة طويلة قاربت العشرين سنة قبل أن يفلح الآريوسيون فى الاهتداء إلى صيغة للإيمان ملائمة.

كان من أبرز أساقفة مجمع التدشين، يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية وفلاكيللوس Flacillus أسقف أنطاكية، وأكاكيوس أسقف قيسارية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وتيودور أسقف هرقلة Heraclea ويودوكسيوس Eudoxius أسقف مرعش Germanicia وديانيوس Dianius أسقف قيسارية كبادوكيا، وجورج أسقف اللاذقية(٢٢). وقد سيطر على الجمع اتجاه عام دلت عليه فاتحة أول مرسوم للإيمان يصدره المجمع جاء فيها :

(20) Gwatkin, op. cit. p. 68
(21) Robertson, op. cit. p. 44
وراجع أيضا Kidd, op. cit. II, pp. 78-79
(22) SOZOM. Hist. eccl. III, 5

" لم نكن فى يوم ما أتباع آريوس، إذ كيف يعقل ونحن الأساقفة "
" نهتدى برشد قسيس ؟ ! لم نبدل الإيمان منذ الإيمان فى البدء "
" كان ، ولقد وضعتنا المقادير قضاة فكره، فراقبنا الصدق فيها "
" ولكن أيعنى ذلك أنا عنه أخذنا ؟ ! "[٢٣] .

لاشك أن هذا التصدير الذى بدأ به المرسوم يدعو إلى الدهشة حقاً، فلقد ناصر هؤلاء الأساقفة وأتباعهم آريوس منذ البداية، وحرص زعيماهم يوسيبيوس النيقوميدى وثيوجنس أسقف نيقية على إعادته إلى الكنيسة ثانية، وخاضا فى سبيل ذلك صراعا مريرا ضد الأسقف السكندرى أثناسيوس، بل أنه لولا يوسيبيوس النيقوميدى على حد قول دوشين[٢٤] Duchesne لظللت الآريوسية جدلا سكندريا خالصا، ولأمكن القضاء عليها بسهولة، ولكن يوسيبيوس هو الذى نقل هذا الصراع إلى الإمبراطورية كلها . كيف إذن يتبرأ هؤلاء الآن من التبعية له ؟ ! .

غير أن المسألة فى تصورنا ليست بهذا الشكل من التعقيد، فهى لا تعنى نبذ العقيدة الآريوسية لأن أساقفة الشرق الذين سبق ذكرهم، وآريوس من بينهم، كانوا أبناء مدرسة واحدة هى المدرسة الأنطاكية الشهيرة لتفسير الكتاب المقدس، واختلفوا إلى أستاذ واحد هو لوقيانوس الأنطاكى توفى سنة (٣١٢)، وتشربوا جميعا فكره ومبادئه، ومن ثم فليس القول ذلك طرحا لما آمن به آريوس وإليه دعا ، لكن الفريق اليوسابى أدرك أن لفظة الآريوسية التى أطلقها عليهم الخصوم، أضحت لا تعنى لدى الكنيسة غير " بدعة " أو " هرطقة " لفظها آباء الكنيسة فى نيقية سنة ٣٢٥، وسعى أتباعها للتخلص من زعماء الإيمان النيقى فى أنطاكية والإسكندرية، وأيقنوا أنهم بهذه الصفة لن يستطيعوا أن يحققوا أى انتصار لمعتقدهم . وهاقد مات آريوس، واعتلى يوسيبيوس النيقوميدى كرسى القسطنطينية الأسقفى، ولا ضير إذن فى التخلى عن

---

(23) Id. و ATHANAS. De Syn 22
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 10
(24) Duchesne, op. cit. II, p. 169

هذه اللفظة التي تمقتها الكنيسة بعامة . واليوسابيون بذلك لن يخسروا شيئا، بل ربما ضموا إليهم نفرا من أساقفة الغرب ممن ليسوا ذوى قدرة على فهم طبيعة هذا الجدل اللاهوتى، وهذا هو ما كانوا يسعون إليه . ولعل هذه المراوغة كامنة فى مقدمة المرسوم ذاتها، إذ انهم لم ينكروا فكر آريوس لإيمانهم الكامل به، وعلى حد تعبيرهم بعد ان، راقهم الصدق فيه . بل إن بقية المرسوم ذاته تكاد تنطق تماما بما جاء فى الوثيقة التى قدمها آريوس وصحبه يوزيوس Euzios إلى قسطنطين سنة ٣٢٨ بعد عودتهما من المنفى(٢٥)، ويقول سقراط مدعما ما نذهب إليه :

" لم يكن هدفهم أبدا إدانة إيمان نيقية، بل سعيا لإقرار العقيدة الآريوسية(٢٦) .

ويتفق المؤرخون على أن المرسوم الأنطاكى الأول كان صيغة مبهمة مراوغة(٢٧) قصد به أن يكون ممرا للتفاهم مع النيقيين، فقد اختيرت عباراته بعناية من الكتاب المقدس(٢٨)، ولم يشتمل كما أشار سقراط على أى هجوم تجاه العقيدة النيقية، وإن كان المرسوم كما نلاحظ جاء خلوا من عبارة " من نفس جوهر الآب " التى تعد دعامة الإيمان النيقى .

---

(٢٥) يقول المرسوم الأنطاكى الأول : " نؤمن بإله واحد . . . وبمولود وحيد، الابن، وجد قبل كل الدهور مع الآب الذى ولد . كل شيء به كان، هبط بمحبة الآب من السماوات، وتجسد من العذراء، ونفذ مشيئة الآب، وقام ثانية وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات " . انظر ATHANAS. De Syn. 22

وجاء فى الوثيقة : " . . . نؤمن بإله واحد . . . والرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل كل الدهور، الله . كل شيء فى السماء وعلى الأرض، الذي نزل وتجسد . تألم وقام ثانية وصعد إلى السماء وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات " .

انظر SOCRAT. Hist. eccl. I, 26

(26) SOCRAT. Hist eccl. II, 10

(27) Duchesne, op. cit. II, p. 166

وراجع Gwatkin, op. cit. 68; Kidd, op. cit. II, p. 80

وراجع Robertson, op. cit. p. 44

وكذلك Neander, History of Christian dogmas, II, p. 292

وأيضا Chadwik, op. cit. p. 138

(28) Neale, Holy Eastern Church, p. 102

ويبدو أن المرسوم الأنطاكى الأول فشل فى أن يفرض نفسه على أغلب الأساقفة الحضور[٢٩] فعوّل بعضهم على تقديم مرسوم للإيمان جديد، عزوه إلى لوقيانوس الأنطاكى ، حتى لقد حمل اسمه فدعي المرسوم اللوقياني[٣٠] وقد جاء هذا المرسوم اقترابا من النيقية، وكانت خاتمته خطوة واسعة فى هذه الناحية فقد جاء فيها :

" . . . الآب حقا آب، وكذا الابن . والروح القدس حقا هو . . . "

" ثلاثة فى واحد . نؤمن بهذا ونلعن كل مراسيم الهرطقة والزيغ . "

" فإذا ما سول لأحد شيطانه، وراح يعلم ضد الإيمان الحق الوارد "

" فى الكتاب المقدس، ويؤكد أن هناك زماناً لم يكن الآب أبا حيث"

" الابن لم يكن، فليكن أناثيما، وكذلك من يقول الابن مخلوق شأن سائر "

" الخلائق المائتة [٣١] " .

لاشك أن هذا المرسوم، وبعباراته الأخيرة بالذات، التى قصد بها تعاليم آريوس، حاول أن يقدم صيغة جديدة لا يتسنى للخصوم رفضها[٣٢]فعلى الرغم من

---

(29) Robertson, op. cit. p. 44

(٣٠) يقول المرسوم : تناغما مع آى الانجيل وعظات الرسل، نؤمن بإله واحد الآب القدير، خالق العالم، وبرب واحد . يسوع المسيح، الابن، الإله المولود الوحيد، كل شئ به كان، ولد من الآب قبل كل الدهور . إله من إله . كل من كل . وحيد من واحد. . . الكلمة المتجسدة . الحكمة . الحياة . الصورة غير المتغيرة للآب . فى البدء كان عند الله . وكان الكلمة الله، كما علم الانجيل (يوحنا ١/ ١) . . . نزل فى آخر الزمان، وولد من العذراء حسب الكتاب المقدس وصار جسدا، وسيطا بين الله والناس، رسول إيماننا، فقد قال : لأنى قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى، (يوحنا ٣٨/٦). الذى من أجلنا قاسي، ولأجلنا قام ثانية في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب . وسوف يأتى بالمجد والسلطان ليدين الأحياء والأموات . (ونؤمن) بالروح القدس ".
انظر ATHANAS. De Syn. 23
وراجع HILAR. De Syn. II -10 وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 10

(31) ATHANAS. op. cit. 23

(32) Neale, Holy Eastern church, p. 102

أن واضعيه تعمدوا إغفال مصطلح " الهوموسية " أو " مساواة الابن بالآب فى الجوهر "(٣٣). كما أن عبارة " الصورة غير المتغيرة للآب " تعنى بلا شك أنه ليس هناك تغير في الجوهر بين الآب والابن وانهما متساويان منطقيا فى الجوهر إلا أنهم كانوا لا يعنون بها أكثر من " الشبه " فقط وليس " المساواة "(٣٤).

والحقيقة كما يقول واطسون Watson أن هذا المرسوم لم يكن كافيا لشجب الآريوسية، ولكنه فى الوقت ذاته كان قادرا على أن يصبح وسيلة ناجحة فى منافحتها(٣٥) غير أن رجل الكنيسة فى الغرب، هيلارى أسقف بواتييه، يدافع عن هذا المرسوم بقوله : "إذا كان لم يتضمن مصطلح "الهوموسية " فلأنه لم يأت ردا على ما أذاعه الآريوسيون المتطرفون فيما بعد(٣٦) من إنكار الشبه كلية بين الابن والآب(٣٧) . بل لقد دعا هيلارى إلى عدم تأويله بمفهوم آريوس، وذهب إلى حد اتخاذه مقدمة للاهوت النيقى(٣٨) .

ويعد المرسوم وسيطا بين المراسيم الأنطاكية الأربعة، ولذا حمل من بينها اسم المجمع، وصار يعرف إلى جوار نعته بالمرسوم اللوقيانى، مرسوم التدشين(٣٩). Edictum dedicationis، وهو يمثل من ناحية، الاندفاع الكامل الذى يمكن أن يصل إليه الآريوسيون تجاه النيقية، ومن ناحية أخرى نقطة التجمع اللاهوتى للصيغ اللاحقة

---

(33) Robertson, op. cit. p. 44

(34) Gwatkin, op. cit. p. 69
وراجع أيضا Neander, Hist. of christ. Dogmas, II,p. 292

(٣٥) راجع ما كتبه Watson فى تقديمه لأعمال هيلارى أسقف بواتييه ضمن مجموعة Nicene and p. N. F. IX, p. 12n.9

(٣٦) انظر الفصل السادس .

(37) HILAR. De Syn. 32

(38) Ibid. 33
وراجع Watson, op. cit. 12 n. 9

(39) ATHANAS. De Syn. Gwatkin. op. cit. p. 69
وراجع ما كتبه F. Jackson فى مادة Arianism
ضمن Encycl. Of Religion and Ethics, I. p778

لوجهة النظر المحافظة التى غدت تحت اسم " أنصاف الآريوسيين "(٤٠) Semi-Arians تسير سعيا نحو الاعتراف بصيغة الإيمان النيقى(٤١).

غير أن هذا الاندفاع نحو النيقية جاء سابقا لحينه، ولهذا رأى نفر من أساقفة المجمع الأنطاكى على رأسهم ثيوفرونيوس Theophroniuh أسقف طوانة Tyana ضرورة التريث لمراجعة حساباتهم، والتثبت من مواقع الخطى، ولقيت هذه الدعوة الرضى من عدد كبير من أساقفة المجمع(٤٢) . وتمثل هذا فى وثيقة إيمان قدمها يوفرونيوس للمجمع، وذاعت باسم المرسوم الأنطاكى الثالث(٤٣) . وهو لا يضم بين ثناياه جديدا، وبينما يحرم الابن من كثير مما خلعه المرسوم اللوقيانى إلا أنه يضيف إليه أزلية مملكته، ولكن نهاية المرسوم تفصح إلى حد كبير عن اتجاه صاحبه ورفاقه :

" ... فإذا ما علم أحد إلى جانب ذلك شيئا أو اعتنق، فليكن أناثيما، سواء بسواء مع ماركللوس أسقف انقرة، وسابيليوس وبولس السميسطائى، ليكن اناثيما" .

وهذه الفقرة الأخيرة دليل واضح على التحدى الصريح لا لماركللوس أسقف أنقرة، ولكن لأولئك المؤيدين له وفى مقدمتهم يوليوس أسقف روما وأثناسيوس . ونحن نعلم أن مجمع روما سنة ٣٤٠ قد برأ ساحة ماركللوس وشهد بقوامة إيمانه

---

(٤٠) انظر الفصل السادس

(41) Robertson, op. cit. p. 44
(42) Neale, Holy Eastern church, p. 104
(43) ATHANAS. De Syn. 24

جاء فى هذا المرسوم :
" أومن بالإله الآب القدير . خالق العالم والصانع . كل شئ منه كان . وبابنه المولود الوحيد . الكلمة . القوة . الحكمة . ربنا يسوع المسيح، كل شئ به كان . الذى ولد من الآب قبل كل الدهور . إله كامل من إله كامل . فى الوجود مع الآب كان، وهبط فى آخر الزمان، وولد من العذراء حسب الناموس وتجسد وتألم، وقام ثانية من بين الأموات وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وسوف يأتى ثانية فى مجده والسلطان ليدين الأحياء والأموات . ليس لملكه انقضاء".

بناء على الوثيقة التى قدمها تلبية لرغبة الأساقفة آنذاك، ويقول جواتكين : يبدو من هذه الخاتمة للمرسوم أن ثيوفرونيوس وجماعته لا يريدون التفاهم مع الغرب[٤٤] .

لقد كان ماركللوس أسقف انقرة يمثل للكنيسة الكاثوليكية مشكلة مزمنة ظلت تعانى منها حتى مات، ذلك أنه كتب عدة كتابات ضد الآريوسية[٤٥]، ردا على رسالة كان أستريوس Asterius رجل البيان الشهير فى كبادوكيا قد وضعها تظهر انحيازه لتعاليم آريوس[٤٦]، واندفع ماركللوس فى تفنيده لما نادى به أستريوس إلى الجانب المضاد، وقاده ذلك بالوعى أو دون أن يدرى إلى ترديد الآراء السابللية[٤٧]. وقد عده اليوسابيون خصما لهم، فاتهموه بأنه رفض قرارات مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس ثانية فى شركة الكنيسة، وأنه أبى حضور حفل تدشين أورشليم حتى لا يشترك مع الأساقفة فى اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ومن ثم فقد تم عزله فى القسطنطينية على يد جماعة اليوسابيين الذين ارتحلوا إلى هناك، كما علمنا، تلبية لدعوة قسطنطين الكبير[٤٨] . غير أن ماركللوس ظل يردد حتى أيام عمره الأخيرة أنه فى شركة الكنيسة الكاثوليكية، وأن يوليوس وأثناسيوس يقبلانه ويعترفان بقوامة إيمانه[٤٩]، ويعلق " جيبون " بأسلوبه الساخر على ذلك بقوله " لقد ظل أثناسيوس طيلة عشرين سنة يدافع عن

(44) Gwatkin, op. cit. p. 70
(45) HIER. Vir. Ill, 86
(46) SOCRAT. Hist. eccl . I, 36
(47) Id.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. II, 23
وقارن : SEVER. Hist. Sac. II, 37 .SVLp
وكذلك HIER. Loc. cit.
(48) SOCRAT. Hist. eccl. I, 36
وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 39
(49) BASIL. Ep. CXIV 1.
وراجع HIER. Vir. Ill, 86

سابللية ماركللوس، وعندما اضطر فى النهاية أن ينسحب من شركته، فإنه كان يذكر دائما بابتسامة غامضة تلك الهنات التى يمكن التجاوز عنها " لصديقه المحبوب "(٥٠) .

وليس هناك فى تاريخ المجامع الكنيسة ما اختلفت حوله الآراء شأن هذا المجمع الأنطاكى(٥١)، ولاشك أن ذلك التضارب يعود إلى هذه المراسيم العقيدية المتتالية والتى تبدو فى بعض نواحيها متنافرة، خاصة المرسوم اليوفرونى، أما الأول واللوقيانى بصفة خاصة فإنهما يدنوان من النيقية باستخدام عبارات تؤكد التشابه فى الجوهر بين الابن والأب، حتى لقد دفع ذلك هيلارى أسقف بواتييه إلى أن يطلق على هذا اللقاء الأنطاكى " مجمع القديسين"(٥٢) Synodus Sanctorum ويدافع عن مرسوم التدشين، ويطلب إلى قارئيه " أن لا يسيئوا الظن به، وأن لا يتعجلوا فى إصدار حكمهم قبل أن يطالعوا بإمعان كل ما كتبه حول هذه الجماعة وما هم به يؤمنون"(٥٣)، وفى الوقت الذى ساورت فيه الشكوك الغرب، ولم يز أسقافته فى كل هذه المحاورات العقيدية إلا هجوما مستترا أحايين على الإيمان النيقى، وحينا علانية(٥٤) . إذ أن اليوسابيين ظلوا طوال عهد قسطنطين الأول يحاولون تقويض الإيمان النيقى عن طريق الهجوم على زعماء هذا المعتقد، أما الآن فقد اتجهوا للعقيدة ذاتها(٥٥)، ومن ثم فان أثناسيوس لا يرى فى المجمع ومراسيمه إلا شراكا نصب بمهارة ليتصيد بشباكه الكنيسة الكاثوليكية(٥٦) .

(50) Gibbon, op. cit. II, p. 370
(51) Percival. op. cit. p. 105

وراجع أيضا

Tixeront, Histoire des dogmas dans l'antiquité Chrétienne, II, pp. 44-45

(52) HILAR. De Syn. 32
(53) HILAR. De Syn. 32
(54) Gwatkin, op. cit. p. 70

وراجع أيضا Neander, Hist. of Christ. Dogmas II, p. 239

(55) Kidd, op. cit. II, p. 78
(56) Hefele, op. cit. I, 2 p. 731

ولا ريب أن هذه المراسيم الأنطاكية تعتبر انعكاسا طبيعيا للفترة التى كانت تمر بها الآريوسية انذاك، إذ بدأت هذه العقيدة بعد وفاة آريوس تتحسس طريقها وسط اتجاهات مختلفة يمثلها الآريوسيون الأصليون، وجيل الآريوسية الجديد الذى خلف آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، واختلف معهما بعض الشيء فى أصول المعتقد الآريوسى، كما سنوضح فيما بعد، بحثا عن الصيغة التى تستطيع أن تقف على قدم المساواة مع " الهوموسية " تمهيدا للخلاص منها ، وكان لابد من حدوث مثل هذه التيارات . ولقد طالبت بالعقيدة الآريوسية هذه المحاولات قرابة ربع قرن، وتولدت فى النهاية عن صورة للإيمان تقف وسطا بين كل هذه الصراعات الجدلية، ما ظهر منها وما هو فى طى الغيب آت.

ولم تكن العقيدة هى كل ما شغل أذهان أساقفة أنطاكية فى مجمع التدشين، بل حظى التنظيم الكنسى بنصيب كبير أيضا، فأصدروا عددا من القوانين بلغت خمسة وعشرين(٥٧)، ويخاطب بعضها أحداث الساعة وقصد به عمدا شخص الأسقف السكندرى أثناسيوس، فقد جاء فى القانون الرابع(٥٨).

" إذا ما تجاسر أسقف . . . تم من قبل عزله على يد مجمع كنسى، على ممارسة طقوس كهانته فليس من حقه غشيان ذلك . . . وكل من يدخل فى شركته سوف يطرد خارج البيعة ".

وهذا يعنى رفض الإجراءات التى قام بها أثناسيوس منذ تم نفيه عام ٣٣٥، وخاصة فيما يتعلق برسم الأساقفة والقسوس فى الكنائس الشاغرة التابعة لأسقفية الإسكندرية، كما أنه يمنح التأييد لجريجورى الكبادوكى فيما أقدم عليه بعد ذلك من

---

(57) Hefele, op. cit. pp. 714-722

(58) Percival. op. cit. p. 110 و Hefele, op. cit. 2, 2, 715
وراجع Mourret op. cit. II, p. 100
وكذلك
Lamber, The cânons of the frist four Council and those of the early local Greeek Synods p. 127

تعقب مخالفيه انصار أثناسيوس؛ أما القوانين السادس[٥٩] والرابع عشر[٦٠] والخامس عشر[٦١] فهى تعلن صراحة عدم موافقتها على قرارات مجمع روما (٣٤٠) لأنه لا يحق لأساقفة إقليم أن يناقشوا شيئا من صميم إقليم آخر "، على حين جاء القانون الثانى عشر نقدا صريحا لما أقدم أثناسيوس وأساقفة النيقية، بولس وماركللوس وأسكلبيوس وغيرهم، بالالتجاء إلى السلطة المدنية ممثلة فى الإمبراطور ، يقول القانون[٦٢].

" إذا اجترأ أسقف عزل بواسطة مجمع، على أن يصك مسامع الإمبراطور بشكايته، فلن يخول للصفح حقا ولن يسمح له بتقديم دفاعه وسوف يفقد فى العودة أى أمل " .

بهذه الصورة سعى اليوسابيون للتضييق على أثناسيوس بكافة السبل، بصرف شعب الكنيسة عن نصرته، وشجب قرارات مجمع روما، وتبيان عدم جدوى اللجوء إلى إمبراطور الغرب، بل وما فيه من ضرار، وتمشيا مع السياسية التى درج عليها الفريق اليوسابى منذ البداية، فقد ضمن هذه القوانين رسالة بعث بها إلى عموم الأساقفة، وجاءت مقدمتها دعوة صريحة للوقوف إلى جانبهم ومساندتهم والإيمان بمعتقدهم[٦٣].

غير أن اليوسابيين تعرضوا آنئذ لخسارة فادحة، فقد مات يوسيبيوس أسقف القسطنطينية[٦٤] والزعيم السياسى والعقل المفكر لهذه الجماعة، ولكنه كان قد دفع

---

(59) Percival, op. cit. p. 111
(60) Ibid. p. 115
وكذلك Lambert, op. cit. p135
(62) Percival, op. cit. p. 111
وأيضا Lambert, op. cit. p135
(62) Percival, op. cit. p. 114 و Lambert, op. cit. p. 133
وراجع Hefele, op. cit. p716
وأيضا Mourret, op. cit. II,p. 101
(63) Percival, op. cit. p. 107.
(64) Tixeront, op. cit. II, p. 46

بالآريوسية إلى الأمام خطوات على الطريق، ويكفى أنه أفلح فى إبعاد أثناسيوس عن أسقفية الإسكندرية مرتين فى مدى أربعة أعوام فقط . وقد أدى موته إلى وقوع الاضطرابات فى العاصمة، فقد كان المسيحيون هناك يتنازعهم اتجاهان، أحدهما يؤيد بولس الذى عزله اليوسابيون من قبل، وخلفه يوسيبيوس سنة ٣٣٩، والآخر يشايع ماكيدونيوس[٦٥] Macedonius الذى كان منافسا لبولس وممالئا للآريوسية[٦٦] وعلى الفور عاد بولس إلى القسطنطينية وكان مقيما فى تريز، فى ضيافة أسقفها ماكسيمين[٦٧]، حيث نادى به انصاره ثانية أسقفا[٦٨]، فى الوقت الذى رسم فيه الفريق اليوسابى ماكيدونيوس ليعتلى نفس الكرسى[٦٩] .

ولابد أن صراعا نشب بين الفريقين، لان الإمبراطور قسطنطيوس الذى كان مقيما انئذ فى أنطاكية، أمر قائده هرموجنوس Hermogenus وهو فى طريقه إلى تراقيا، أن يعرج على القسطنطينية لإخماد الفتنة الحادثة[٧٠]، وأحس رعية بولس أن القائد يحمل وراءه نذر الشر لأسقفهم فاندفعوا لا يلوون على شىء فى هجوم يائس، وأضرموا النار فى بيت هرموجنوس، ثم انقذوه من الحريق ليجروه فى شوارع العاصمة ولينتهى به المطاف إلى الموت[٧١] وحمل البريد إلى قسطنطيوس فى أنطاكية نبأ مقتل قائده على يد الجموع، فاستبد به الغضب . ولكن يبدو أن بولس آثر السلامة، فنجا بنفسه وارتحل إلى الغرب تاركا الأسقفية ليتولاها ماكيدونيوس[٧٢] .

علمنا أن قنسطانز منذ أصبح سيد القسم الغربى من الإمبراطورية بلا منازع يعتبر نفسه مسئولا عن حماية النيقية فى أقاليمه، بل وفى إقليم أخيه قسطنطيوس

---

(65) Duchesne, op. cit. II. p. 170
(66) SOCRAT. Hist. eccl. II, 6
(67) Duchesne, Loc. cit.
(68) SOCRAT. hist. eccl. II, 12
(69) SOCRAT. Hist. eccl. II, 13
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 7
(70) SOCRAT. Hist. eccl. III.7
(71) Id.
وأيضا SOZOM. Loc. cit.
(72) SOCRAT. hist. eccl. II,16
وأيضاً SOZOM. hist. eccl. III, 9

أيضا، يشد أزره فى ذلك مركز مدعم وإرث عريض، واشتباكات لا تنقطع عند جبهة الفرات تشغل ذهن أخيه وتستنفد قواه . وما دام أساقفة الشرق قد تملكوا سمع قسطنطيوس، فلابد إذن من احتماء اكليروس الغرب وأولاء الفارين، بسلطان قنسطانز، ومن هنا ندرك المغزى الحقيقى لما يذكره سوزومنوس [٧٣] من أن أسقف روما يوليوس وقد اقتنع أن مراسلاته مع أساقفة الشرق لن تجدى نفعا، عرض الأمر على إمبراطور الغرب، ولم يتوان هذا عند إطلاعه على مجريات الأحداث، فكتب على الفور إلى قسطنطيوس يطلب إليه أن يرسل من لدنه أساقفة ثلاثة ليوضحوا له الدوافع الكاملة وراء الإصرار على عزل أثناسيوس وصحبه[٧٤].

ولم يكن فى وسع قسطنطيوس أن يتردد فى تلبية رغبة أخيه . فالجبهة الفارسية لا تدع له الآن مجالا للتحدى ، وعليه فقد التقى عقد الأساقفة فى أنطاكية ثانية، بعد أشهر قليلة من مجمع التدشين[٧٥]، حوالى خريف ٣٤١، للاتفاق على صيغة للإيمان جديدة يتقدمون بها إلى إمبراطور الغرب ورجال الكنيسة هناك[٧٦]، وقد تم إصدار مرسوم للإيمان عرف بالمرسوم الأنطاكى الرابع[٧٧].

(73) SOZOM. hist. eccl. III, 10
(74) SOCRAT. Hist. eccl. II, 18
(75) ATHANAS. De Syn. 25
(76) Id

(٧٧) يقول المرسوم :
" نؤمن باله واحد ، الآب القدير ، خالق كل شيء والصانع . الذى منه تسمى كل عشيرة فى السماوات وعلى الأرض . وبابنه المولود الوحيد، ربنا يسوع المسيح الذى ولد من الآب قبل كل الدهور . إله من إله . نور من نور . كل شيء به كان، فى السماء وعلى الأرض، ما يرى وما لا يرى . الكلمة . الحكمة . القوة . الحياة . نور الحق، الذى من أجلنا فى آخر الزمان صار جسدا، وولد من مريم العذراء، وصلب ومات وقبر وقام ثانية فى اليوم الثالث من بين الأموات، ثم صعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب . وسوف يأتى فى نهاية العالم ليدين الأحياء والأموات وليجزى كلا بما عمل . . . أما أولئك الذين يقولون أن الابن من العدم، أو من مادة أخرى وليس من الآب جاء، وأن هناك زمان الابن لم يكن . فهم فى عرف الكنيسة الجامعة مارقون " .
راجع ATHANAS. De Syn. 25 وأيضا SOCRAT. Hist . eccl . II, 18

وهذا المرسوم كما يبدو للوهلة الأولى، يعد تخفيفا لحدة المرسوم الثالث اليوفرونى، ولذا نجده قد خلا من الاناثيما التى وجهت إلى ماركللوس فى قرينه السالف، لان أسقف انقرة كان من بين اللاجئين إلى الغرب، الداخلين فى شركة كنيسته، المحتمين بسلطان إمبراطوره . وكان من اللياقة والفطنة أن يتحاشى اليوسابيون إثارة غضب قنسطانز بعد ما جلبوه على انفسهم من الاستياء العام من جانب أساقفة الغرب، يضاف إلى ذلك أن صيغة الإيمان هذه قد خطت، أو على الأقل أظهر فيها أصحابها اتجاها مظهريا إلى النيقية، إلا أنها على الرغم من ذلك لم تتضمن أساس الإيمان النيقى وهو " الهوموسية "، وبذا عدها بعض المؤرخين[٧٨] صورة من العقيدة غامضة .

ويأتى هذا المرسوم الأنطاكى الرابع فى ختام صيغ الإيمان التى تنسب إلى مجمع التدشين، وقد أصبح القاعدة الأساسية التى ارتكزت عليها مراسيم فيلبوبوليس Philippopolis (فى تراقيا) سنة ٣٤٣، وأنطاكية عام ٣٤٤ وسيرميوم Sirmium سنة ٣٥١[٧٩] . ويجمع المؤرخون على أن هذه السلسة المتلاحقة من المراسيم العقيدية تحدد المرحلة المستقرة للعقيدة الآريوسية، بين نهاية الجيل الأول آريوس وآستريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، وبداية التفكك بين الفرق المتصارعة[٨٠] التى شغلت عهد قسطنطيوس وفكره .

حمل هذا المرسوم أربعة من أساقفة الشرق منهم نارقيسوس Narcisus أسقف يانياس Neronias وتيودور أسقف الرستن (ارسوز)[٨١] Arethusa إلى

(78) Duchesne, op. cit. 171
(79) Robertson, op. cit. p. 44
وراجع Gwatkin, op. cit. p.69 وانظر بعده .
(80) Kidd, op. cit. II, p. 82
وراجع Neander, history of Christin dogmas II, p. 293
وأيضا Gwatkin, Loc. cit.
وانظر كذلك Robertson, Loc. cit
(81) ATHANAS. DE Syn. 25
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 18
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 40

الإمبراطور قنسطانز حسب رغبته ، فلما كانوا فى إيطاليا، دخلوا فى جدال مع الأساقفة هناك حول شرعية إجراءات المجمع الأنطاكى وقوامة إيمانهم(٨٢)، ورفضوا المصالحة مع أثناسيوس والأساقفة اللائذين بروما، أو الدخول فى شركتهم(٨٣)، ثم ارتحلوا إلى غالة حيث التقوا بالإمبراطور قنسطانز فى ترير أوائل سنة ٣٤٢، وقدموا إليه وثيقة الإيمان التى جاءوا بها(٨٤) ويخطئ سوزومنوس فى القول بان هذه السفارة قد وجدت الإمبراطور فى إيطاليا(٨٥)، وذلك أن أثناسيوس، وكان هناك عندئذ، يخبرنا أن هذا اللقاء تم فى غالة(٨٦).

ولما لم يكن قنسطانز يدرك من أمر اللاهوت شيئا، ولا الجدال الدائر، كان من البديهى أن يسترشد بهدى أسقف المدينة ماكسيمينوس، وهو كما علمنا، صديق حميم لأثناسيوس، ولذا لم تكن النتيجة وهى تأييد أثناسيوس على أحد بخافية، فقد رفضت وثيقة الإيمان التى حملها أساقفة الشرق، ولم يقبل منهم إيمان(٨٧). ويذكر سوزومنوس أن الإمبراطور أدرك ما ينطوى عليه قرار عزل أثناسيوس وبولس وغيرهما من مجافاة للعدالة، وتبين لديه أن الخلاف العقيدى وليس مسلك الأسقف السكندرى فقط، سبب العداء(٨٨) . وهذا القول يؤكد ثانية مدى الدور الذى قام به ماكسيمينوس وصحبه حتى أفلحوا فى إيغار صدر إمبراطور الغرب، فأمر بطرد الأساقفة الأربعة بعد أن سحب الثقة مما جاءوا من أجله(٨٩) .

مضى الآن على وجود أثناسيوس فى روما منذ هروبه من الإسكندرية ثلاث

---

(82) SOZOM. Hist. eccl. III, 19
(83) SOCRAT. Hist. eccl. II, 8
(84) ATHANAS. De Syn. 25
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit.
وكذلك SOZOM. Loc. cit.
(85) SOZOM. Loc. cit.
(86) ATHANAS. De Syn. 27
(87) SOCRAT. Loc. cit.
(88) SOCRAT. Loc. cit.
(89) Id.

سنوات[٩٠] قضاها على حد قوله فى العبادة والضراعة[٩١] وانقضت هى فى مراسلات بين روما وأنطاكية، وصراع عقيدى وتنظيمى بين أساقفة الغرب والشرق، واستطاع أثناسيوس خلالها أن يحوز إعجاب قنسطانز وثقته، وقد أهدى أثناسيوس إلى الإمبراطور مجموعة مجلدات ضخمة تضم الكتاب المقدس[٩٢]، ودعا قنسطانز الأسقف للقائه فى ميلانو[٩٣]، ولابد أن تكون هذه المقابلة قد تمت فعلا قبل وصول الأساقفة الأربعة رسل الشرق إلى إيطاليا[٩٤].

ولابد أيضا أن يكون أثناسيوس قد اعترف بآلامه لسيد الغرب، فثيودوريت يذكر أن أسقف الإسكندرية عندما التقى بقنسطانز راح يشكو إليه ظلامته[٩٥] وربما أيضا، على حد تعبير جيبون، رثا وناح على خطايا قسطنطيوس ولكن لاشك أنه لام بجسارة آثام رجال بلاطه وأساقفة الآريوسية، وذرف الدمع بين يديه لما تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية[٩٦] مستحثا إياه الاقتداء بمجد أبيه[٩٧] وهذا بالتالى يفسر الفتور الذى قوبلت به سفارة الشرق عندما جاءت إلى غالة فى أعقاب قنسطانز، بعد أن ترك ميلانو فى طريقه لمجابهة الفرنجة على الراين[٩٨] ولم يطل مقام أثناسيوس فى ميلانو، فهناك تلقى رسالة من الإمبراطور يطلب موافاته فى ترير[٩٩] وعلى الفور ارتحل أثناسيوس حيث التقى هناك بالأسقف القرطبى هوسيوس وغيره من رجال الكنيسة الغربية[١٠٠] .

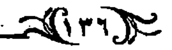
(90) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
(91) Id.
(92) Id.
(93) Id.
(94) Kidd, op. cit. II, p. 82
وراجع Robertson, op. cit. p 45
(95) THEOD. Hist. eccl. II, 3
(96) Gibbon, op. cit. II, p. 391
(97) THEOD. Loc. cit.
(98) Martin, Histoire de France, I, p. 302
(99) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
(100) Id.

دخلت المشكلة مرحلة التعقيد، فأثناسيوس وبولس وماركللوس ورفاقهم، صدر فى صالحهم قرار بالعودة إلى بيعهم، ومضى عامان دون أن يوضع موضع التنفيذ وذلك لمعارضة أساقفة الشرق، وإمبراطوره، بالإضافة إلى أن قرار أساقفة الغرب ليس ملزما لأساقفة الشرق، وأساقفة الغرب يؤمنون بما تم إقراره فى نيقية سنة ٣٢٥، ويتشبثون بما أقدموا عليه فى روما سنة ٣٤٠، وأكليروس الشرق يرى صحة معتقدة، ويتمسك بكل ما اتخذه فى صور سنة ٣٣٥، وما استقر عليه فى أنطاكية سنة ٣٣٨، وما أعلنه فيها عام ٣٤١ . وهكذا أصبحت المسألة فى شكلها العام خلافا فى الرأى واقعا بين رجال الدين المسيحى فى الشرق والغرب، سعى كلا الفريقين ليجر الدولة إليه، ووقف الإمبراطوران الأخوان يناصر كل منهما فريقا دون الآخر، وفكرة بعينها، دون أن يعى أحدهما حقيقة ما يدافع عنه، ولا جوهر ما نصب من نفسه له حاميا!

أدرك أساقفة الغرب وفى مقدمتهم يوليوس أسقف روما أن الأمور تجرى بسرعة فى طريق الشقاق، وأن مجمعا عاما يضمهم وأساقفة الشرق كفيل برأب هذا الصدع من ناحية، وإضفاء صفة الشرعية على القرارات التى اتخذها مجمع روما، والزام كنائس الشرق وإمبراطوره بتنفيذها، والسماح لأثناسيوس ورفاقه بالعودة إلى كراسيهم الأسقفية، وعليه ألح الأساقفة على قنسطانز يطلبون إليه دعوة أساقفة الكنيسة فى الإمبراطورية لمجمع عام، بغية إقرار أمر العقيدة ونظر قضية أثناسيوس وصحبه[١٠١]، ويقول سقراط أن أثناسيوس وبولس هما اللذان تقدما إلى قنسطانز بهذا العرض[١٠٢]، على حين يقصر ثيودوريت هذا الأمر على الأسقف السكندرى[١٠٣]، ولا يبعد أن يكون أثناسيوس قد أسر بذلك إلى يوليوس وغيره من رفاقه أساقفة الغرب الذين ضمن الآن بسياسته وقوفهم إلى جانبه.

---

(101) ATHANS. Apol. Ad Const. 4
وله أيضا Hist. Arian 15
وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 11
(102) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(103) THEOD. Hist. eccl. II, 3



وعلى الفور كتب قنسطانز إلى أخيه الإمبراطور في الشرق يخبره بعزمه[١٠٤]، وأذعن هذا دون تردد أو مساومة[١٠٥]، إذ لم يكن في وسعه أن يرفض دعوة أخيه الأصغر قنسطانز إمبراطور الغرب[١٠٦]، فقد كان يعاني أوجاع الحرب الفارسية المستعرة[١٠٧] وقد تم الاتفاق على أن تكون سرديكا Sardica ملتقى الأساقفة[١٠٨] وهي مدينة على الحدود بين شطري الإمبراطورية[١٠٩]، وإن كانت واقعة ضمن سيادة إمبراطور الغرب[١١٠]، وكان لهذا في حد ذاته أهمية خاصة[١١١]، يفسرها جيبون بقوله انها كانت داخلة في ممتلكات نصير أثناسيوس[١١٢]. ولا مجال للشك في أن اختيار مكان المجمع على هذا النحو قصد إليه عمدا لضمان تأييد قنسطانز، وبث الهلع في نفس أساقفة الشرق[١١٣].

وفي أواخر صيف عام ٣٤٣، توافد على سرديكا جمهور كبير من الأساقفة، أتوا من مختلف أنحاء الإمبراطورية، يمثلون الشرق والغرب على السواء[١١٤]، اختلف المؤرخون في عددهم . فيخبرنا سقراط[١١٥] أنهم كانوا ثلاثمائة أسقف، ويقول

(104) Id.
وراجع ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
وانظر لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 15
(105) SOCRAT. hist. Eccl II, 20.
(106) Gwatkin, op. cit. p. 70
(107) Kidd, op. cit. II, p. 93
(108) SOCRAT. hist. Eccl II,20.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 1
(109) SOCRAT. Loc. cit.
(110) Kidd, op. cit. II, p. 275
(111) Kelly, op. cit. 275
(112) Gibbon, op. cit. p. 390
(113) Gibbon, op. cit. p. 70
(114) ATHANAS. Apol. C. Arian 63
وراجع أيضا FEST. IND. XV
(115) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

أن مصدره في ذلك أثناسيوس، ويتابعه على ذلك سوزومنوس (١١٦)، أما أثناسيوس فيذكر أن هذا العدد يمثل جميع الأساقفة الذين صدقوا على قرارات مجمع سرديكا وارتضوها(١١٧) . ويكاد ثيودوريت يقترب من رأى سقراط عندما يصل بهم إلى مائتين وخمسين، اعتمادا على مصادر قديمة حسب تعبيره(١١٨) وان كان أثناسيوس يذكر في موضع آخر أن حضور مجمع سرديكا كانوا قرابة مائة وسبعين أسقفا من الشرق والغرب(١١٩) كان من بينهم كما يروى سقراط ما يزيد على السبعين من الكنائس الشرقية(١٢٠)، على حين يمثل الباقون وهم نيف وتسعون أساقفة الغرب(١٢١)، ولم يشارك أسقف روما يوليوس في جلسات المجمع، وأرسل من لدنه اثنين من القساوسة هما أرخيداموس Archidamus وفيلوكسنوس(١٢٢) Philoxonus .

توجس أساقفة الشرق في أنفسهم خيفة منذ البداية، لأنه لم يغب عنهم أن التقاءهم بأساقفة الغرب في مدينة هي من أملاك الإمبراطور قنسطانز، الذي ينتصر للهوموسية، لن يكون في صالح عقيدتهم، ويرى أثناسيوس أنهم من أجل ذلك قدموا إلى سرديكا في حماية القائد موزونيانوس Musonianus وهسيكيوس Hesychius رئيس الديوان(١٢٣)، وتضيف إليهما الحوليات (دليل رسائل أثناسيوس الفصحية) فيلاجريوس حاكم مصر(١٢٤) . بقصد تحقيق أهدافهم عن

(116) SOZOM. Hist. eccl. III, 12
(117) ATHANAS. Apol. C. Arian. 1
(118) THEOD. Hist. eccl. II, 6
(119) ATHANAS. Hist. Arian. 15
(120) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(121) Kidd, op. cit. II, p. 83
وراجع Duchesne, op. cit. II, p. 172
وأيضا Gibbon, op. cit. II, p. 390
(122) ATHANAS. Apol. C. Arian. 5 .
(123) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
وراجع له أيضا Hist. Arian. 15
(124) FEST. IND. XV

طريق السلطة المخولة لهؤلاء(١٢٥) . ولما كان من غير المنطقى أن يثير هؤلاء شغبا مقصودا فى أرض ليست تحت سيادة مليكهم كما دلت على ذلك الأحداث من بعد، فلا يستبعد أن يكون قسطنطيوس قد أرسل ثلاثتهم ممثلين له شهودا على هذا اللقاء . ويعلق دوشين على ذلك بقوله " أنه لا الأساقفة ولا قسطنطيوس كانت لديهم الرغبة فى عقد هذا المجمع . وانما جاء أساقفة الشرق إلى سرديكا إطاعة لأوامر الإمبراطور الذى كان هو الآخر يسعى لإرضاء أخيه"(١٢٦).

ويشير الروايات التى يقصها أثناسيوس إلى أن أساقفة الشرق كانوا قد بيتوا النية، وهو فى الطريق إلى مدينة المجمع، على عدم المشاركة فى جلساته(١٢٧) . اعتمادا على ما أفصح عنه اثنان من إكليروس الشرق هجرا جانب الآريوسية وانضما إلى الإيمان النيقى وهما آريوس أسقف البتراء Petra وأستريوس أسقف العربية Arabia (128) . ولاشك أن أساقفة الشرق كانوا يوقنون حق اليقين أن جهودهم لابد ضائعة وسط تيار الأغلبية الهوموسية المدعمة بسلطان قنسطانز .

وقد بدا فعلا للوهلة الأولى أن شيئا من التقارب بين الفريقين لن يحدث ، فقد أعتصم الأساقفة الشرقيون فى القصر الإمبراطورى(١٢٩) تحت زعامة تيودور أسقف هرقلة ونارقيسوس البانياسى واسطفانوس Stephanus الأنطاكى ، وجورج أسقف اللاذقية، وأكاكيوس القيسارى، ومنوفانتوس Menophantus أسقف افسوس Ephesus وأورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum وفالنز Valens أسقف مورسا Mursa فى بانونيا(١٣٠)، ورفضوا الانضمام إلى أساقفة الغرب الذين عقدوا اجتماعاتهم فى الكاتدرائية(١٣١)

---

(125) ATHANAS. Apol. C. Arian
(126) Duchesne, op. cit. II, p. 172
(127) ATHANAS. Apol. C. Arian. 48
(128) ATHANAS. Hist. Arian. 18
(129) Ibid. 15
(130) ATHANAS. Apol, C. Arian. 48
(131) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

يقود خطاهم الأسقف القرطبى هوسيوس[١٣٢]، محاجين بأنه لا يحق لأثناسيوس وزفاقه الذين تم عزلهم من قبل، المشاركة فى أعمال المجمع حيث أنه لم يصدر قرار بالعفو عنهم[١٣٣] .

غير أن أساقفة الغرب وعلى رأسهم هوسيوس وبروتوجنس Protogenes أسقف سرديكا، أصروا على ضرورة بقاء أثناسيوس وصحبه[١٣٤]، فقد برأ مجمع روما سنة ٣٤٠ ساحتهم[١٣٥]، وهم الآن على استعداد للدفاع عن أنفسهم أمام أساقفة الكنيسة جميعا ، وما على أساقفة الشرق إلا أن يتقدموا باتهاماتهم التى تدين هؤلاء المبعدين، ليتسنى بهذا النحو نظر القضية على مرأى من الجميع ومسمع[١٣٦] . ويبدو أن هوسيوس قد بذل محاولات جادة لإصلاح ذات البين والتوفيق بين كلا الفريقين دون جدوى[١٣٧]، وبلغت به الرغبة فى نجاح المجمع إلى الحد الذى أعطى لأساقفة الشرق موثقا، برضاء أثناسيوس، لئن جاء قرار المجمع يحمل أى إدانة لأثناسيوس، لفظته على الفور الكنيسة الجامعة، أما إذا أقر المجمع براءته، ورفض أساقفة الشرق مع ذلك الدخول فى شركته، فلسوف يسعى جاهدا كي يصطحبه معه إلى أسبانيا[١٣٨]ولكن هذه الجهود ذهبت سدى أمام إصرار الأساقفة الشرقيين على موقفهم، وأصبحت المسألة فى جوهرها صراعا حقيقيا حول سلطة المجامع الكنيسة وشرعية قراراتها ، فالاكليروس الشرقى يرى أن من حقه وحده نظر قضية أثناسيوس وماركللوس وأسكلبيوس وبولس وغيرهم، باعتبارهم

(132) ATHANAS. Hist. Arian. 15
(133) ATHANAS. Apol. C. Arian. 37
وراجع SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 11
(134) SOCRAT. Loc. cit.
وانظر أيضا SOZOM. Loc. cit.
(135) SOZOM. Loc. cit.
(137) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
(138) Id.
(138) ATHANAS. Hist. Arian. 44

جميعا ضمن دائرة الجزء الشرقي من الإمبراطورية، وان قرارات مجامع صور وأنطاكية يجب احترامها، وليس من حق أساقفة الغرب وروما الخوض في جدال هو من صميم الشرق ذاته . وعليه أضحى مجمع روما في نظرهم متعديا جائرا وليس لأحكامه شرعية، في الوقت الذي آوى فيه رجال الكنيسة في الغرب إلى اليقين بصحة وقانونية ما صدر عن مجمع روما من قرارات في جانب أثناسيوس وصحبه .

أقدم الشرقيون دون توان على العمل، فحزبوا أمرهم وولوا وجوههم شطر الديار عائدين بعد أن رفض أساقفة الغرب الاستجابة لمقترحاتهم بأبعاد أثناسيوس ورفاقه المعزولين عن حضور المجمع، حتى إذا دخلوا القسم الشرقي من الإمبراطورية حطوا رحالهم عند مدينة فيليب Phlilippopolis في تراقيا[١٣٩] . بعد أن أودعوا يوستاتيوس Eustatius قسيس كنيسة سرديكا اعتذارهم لانصرافهم قبل أن ينفض عقد المجمع، يعلنون فيه أنهم قد تلقوا رسالة من الإمبراطور قسطنطيوس تنبئهم بانتصاره على الجبهة الفارسية[١٤٠] في هذه الحرب التقليدية بين فارس والإمبراطورية الرومانية، وأن اللباقة والواجب يدفعانهم إلى أن يكونوا بجوار الإمبراطور يشاركونه بالنصر فرحته[١٤١]، غير أن صاحب الحوليات يخبرنا انهم انسحبوا من سرديكا بناء على نصيحة فيلاجريوس[١٤٢]، وأيا كان السبب، فالحقيقة كما أسلفنا، أن أساقفة الشرق آمنوا يقينا انهم يجدفون في سرديكا ضد التيار، وإذا كان الغربيون قد حرصوا على أن تكون مدينة المجمع ضمن دائرة نفوذ قنسطانز، فلا غرو إذا كان أكليروس الشرق أشد منهم حرصا وذكاء .

وفي فيليبوبوليس سنة ٣٤٣ عقد أساقفة الشرق مجمعا منفصلا ، وراحوا يتصرفون بملء إرادتهم، فأكدوا من جديد سابق أحكامهم بإدانة أثناسيوس وبولس

---

(139) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(140) ATHANAS. Hist. Arian. 16
(141) Id.
(142) FEST. IND. XV

وماركللوس واسكليبوس، وأصدروا قرارهم بإدانة وعزل يوليوس أسقف روما، فقد كان أول من فتح للفارين بابه، وأعادهم إلى أحضان الكنيسة(١٤٣) .وهوسيوس إذ شارك يوليوس أثمه، ولأنه من قبل كان صديقا ليوستاتيوس أسقف أنطاكية النيقى(١٤٤)، وماكسيمينوس أسقف ترير، الذى آوى إليه بولس وجهد لعودته إلى بيعته، وقطع من شركة الكنيسة رسل الشرق الأربعة إلى غاليا(١٤٥) . وبروتوجنس أسقف سرديكا، وجاودنتيوس Gaudentius أسقف نيش Naisus لأنه نكص وعطف على ماركللوس بعد أن كان قد أدانه، ولانجرافه عن جادة الطريق التى سلكها سلفه قرياقوس(١٤٦) Cyriacus بأتباع المعتقد الآريوسى. وقد جاء ذلك كله فى رسالة بعثوا بها إلى عموم الأساقفة وحفظها للتاريخ هيلارى أسقف بواتييه(١٤٧)، طلبوا إليهم فيها عدم الدخول فى شركة أولاء الأساقفة، وان لا يكاتبوهم أو يتلقوا منهم، وان يؤمنوا بعقيدتهم التى أرفقت بالرسالة، وهى المرسوم الأنطاكى الرابع الذى أرسل قبلا إلى قنسطانز وأساقفة الغرب، مضافا إليه عددا من الأناثيما لحقت بماركللوس. ومن ديباجة هذه الوثيقة نعرف أن كنائس نصف الإمبراطورية كلها، شاركت فى هذا المجمع(١٤٨) .

وقد جاء فى نهاية المرسوم :

" كل من يقول بآلهة ثلاثة، أو إن المسيح ليس إلها، وإنه قبل كل الدهور لم يكن مسيحا، ولا أبن الله كان . أو أنه هو نفسه الآب والابن والروح القدس، أو أن الابن بالميلاد عاجز، والآب ولد الابن دون قصد أو إرادة، فليكن من الكنيسة الكاثوليكية أناثيما "(١٤٩) .

---

(143) SOZOM. Hist. eccl. III, 11
(144) Id.
(145) Id.
(146) Id.
(147) HILAR. Fragm. III, 23-29 (p. L. X. 671-675)
(148) HILAR. De Syn. 34
(149) Id. SOZOM. Hist. Eccl. III, 11

ولم يضف أساقفة الشرق بهذا المرسوم جديدا إلى الإيمان المسيحى وأنما جاءت هذه الخاتمة ردا علي عدد من الآراء كالسابللية وآراء بولس السميسطائى وماركللوس . وخلت الصيغة من أى ذكر للهوموسية(١٥٠) . بل إن سقراط يضيف أن " المساواة فى الجوهر" هذه لقيت فى فيلبوبوليس اللعنة(١٥١)، وهكذا فتح باب الصراع كاملا بين الشرق والغرب.

أما أساقفة سرديكا فعقدوا هم الآخرون مجمعا مستقلا ترأسه هوسيوس القرطبي(١٥٢)، باعتباره أكبر الحضور عمرا(١٥٣)، وكان أول عمل أقدموا عليه إدانة انسحاب أساقفة الشرق دون أن يشاركوا فى أعمال المجمع الذى من أجله أتوا(١٥٤) ثم استمع الحضور إلى قضية أثناسيوس وماركللوس وبولس وأسكلبيوس وغيرهم من المبعدين، وسمح لهم بتقديم دفاعاتهم، وأبدى الجميع امتعاضهم لما حل بهؤلاء الأخوة(١٥٥)،وأصدروا قرارهم بتبرئة أساقفة الإسكندرية وانقرة والقسطنطينية وغزة وإعادتهم إلى الكنيسة(١٥٦) . وكما فعل بهم أساقفة الشرق، قرروا أيضا إدانة وعزل ثيودور أسقف هرقلة ونارقيسوس أسقف بانياس وأكاكيوس القيسارى وأسطفانوس الأنطاكى ، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم، وفالنز أسقف مورسا ومنوفانتوس الأفسوسى، وجورج أسقف اللاذقية(١٥٧) على الرغم من أن هذا الأخير لم يكن بين أولاء الأساقفة شهود مجمع فيليبوبولس(١٥٨) . أما جريجورى الكبادوكى أسقف الإسكندرية، وباسيل أسقف انقرة، خلف ماركللوس وكوينتيانوس Quintianus

---

(150) SOZOM. Loc. cit.
(151) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20
(152) ATHANAS. Hist. Arian. 16
وراجع أيضا Hefele, op. cit. I, 2 pp. 837-838.
(153) ATHANAS. Apol. C. Arian. 44
(154) Ibid. 36
(155) Id. SOZOM. Hist. eccl. III, 12
(156) Id.
(157) ATHANAS. Apol. C. Arian. 36
(158) Ibid. 49
وراجع كذلك SOZOM. Loc. cit.
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 6

الذى اعتلى كرسى غزة بدلا من اسكليبوس، فقد تم تجريدهم من ألقابهم الكهنوتية وعزلهم وقطعهم من شركة الكنيسة بعد أن اعتبرهم المجمع مغتصبين لكراسى البيع الثلاث(١٥٩) .

ولما طرحت للبحث مسألة العقيدة، وأثيرت المقترحات حول إضافات جديدة يمكن إدخالها على مرسوم الإيمان النيقى، أو البحث عن صيغة أخرى أكثر إيضاحا للإيمان وشمولا، نتيجة لان قانون الإيمان النيقى لم يكن كما يبين الواقع التاريخى قانونا للإيمان جامعا مانعا، ولكنه وضع للرد على آراء آريوس، ومن ثم ترك الباب مفتوحا للقول بقوانين الإيمان المحلية(١٦٠) . وانطلاقا من هذا النقصان الذى يعتوره راح الآريوسيون علىالنحو الذى رأيناه فى أنطاكية سنة ٣٤١ يحاولون وضع صيغة منافسة وملائمة للإيمان، ومن هنا أيضا كانت دعوة بعض أساقفة الغرب لتلافى هذه المثالب .

إلا أن هذا الاتجاه لقى معارضة من جانب أثناسيوس وعدد ليس بالقليل من الأساقفة(١٦١) يمثلون الجماعة التقليدية المحافظة، ولذا فقد عدل الآخرون أمام ذلك عن رأيهم، وقد حفظ ثيودوريت مسودة تمخض عنها هذا الجدل فى سرديكا تعطى تصورا عاما للآراء العقيدية التى جرت من حول إيمان نيقية آنذاك(١٦٢)، ولعل هوسيوس وبروتجنس قد شعرا بشيء من الحرج إزاء هذه المحاولات، فكتبا إلى أسقف روما رسالة يوضحان فيها التمسك بالعقيدة النيقية، وإن ما دار حولها من جدال دفعت إليه الرغبة فى وضع تفسيرات وشروح للعقيدة ذاتها ، حتى لا يجد الاريوسيون فى غموض بعض فقراتها ثغرة ينفذون منها إلى أولئك الذين ليس لهم على المحاورة طاقة، وليس لهم باللاهوت معرفة(١٦٣) .

---

(159) ATHANAS. Apol. C. Arian. 43, 47, 49
وراجع SOZOM. Loc. cit.

(١٦٠) انظر أسد رستم : كنيسة انطاكية ج٢ ص٢١٩

(161) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 5

(162) THEOD. Hist. eccl. II,6

(163) SOZOM. Hist. eccl. III, 12

ولقد ضمن المجمع أعماله هذه كلها فى رسالة عامة بعث بها إلى مختلف الأساقفة(١٦٤)، وكتب إلى كنيسة الإسكندرية رسالة أخرى تتحدث عن أثناسيوس وبراءته وتحث الجموع على الوفاء لأسقفهم، واستقباله بما يليق من التكريم حالة عودته(١٦٥)، على أن الرسالة تضمنت معنى هاما إذ جاء فيها :

" . . . ولقد كتبنا إلى إمبراطورينا التقيين الورعين، نتوسل إلى رحمتهما أن يتعطفا بالعفو عن أولئك الذين لا يزالون يكتوون بلظى الكرب، وان يتفضلا بالتنبيه على الموظفين المدنيين بعدم النظر فى مسائل الأكليروس أو إيقاع الأذى بأى من الأخوة فى الغد الآت، تحت زعم أنهم يعينون الكنيسة، بل من حق كل إنسان أن يحيى كما يرجو، كما يجب حرا من الاضطهاد طليقا، متحررا من العسف من الخداع مبرءا. وبالهدوء والأمن، بالسلام يدين بالإيمان الكاثوليكي(١٦٦).

وهذا القول يشير من طرف خفى إلى تلك الإجراءات التى أقدم عليها فيلاجربوس فى الإسكندرية وهرموجنوس فى القسطنطينية وغيرهما من نواب الإمبراطور قسطنطيوس فى الشرق، من مناصرته فريقاً دون آخر، وتسليم الكنائس إلى يد الآريوسيين وتشتيت انصار أثناسيوس، وبولس واستبدال هذين بغيرهما.

لقد كان هذا أقصى ما تستطيع الكنيسة أن تقوله آنذاك، فلم يكن فى مقدورها أن تطلب إلى الأباطرة أنفسهم عدم التدخل فى مسائل الكنيسة، وحتى ولو استطاعت فإنها لم تكن تريد، إذ أنه لم يكن قد مضى على رفع الاضطهاد الوثنى عنها أكثر من ثلاثين عاما فقط، منذ صدرت رسالة نيقوميديا سنة ٣١٣ . وهذا الخلاص نفسه تم على يد الدولة ممثلة فى قسطنطين وليكينيوس ثم أولهما منفردا،

(164) ATHANAS. Apol. C. Arian. 44-49
وراجع أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 6
(165) ATHANAS. op. cit. 37-40 .
(166) Ibid. 39 .

حتى لقد سمحت الكنيسة لقسطنطين أن يترأس مجمع آبائها فى نيقية، وأن يدير دفة الجدال دون أن يتناول بعد سر العماد، بل وفوق هذا وذاك أعطته حق التدخل فى المسألة اللاهوتية، وان يضيف إلى العقيدة ما ليس منها، مما غدا بابا لآتون الصراع المتقد الدائر من حول المسيح، بل وحافظت الكنيسة على هذه العقيدة وعدتها قانون إيمانها القويم، هذا كله على الرغم من أن قسطنطين لم يكن لديه أقل قدر من المعرفة الكريستولوجية، كما وضح ذلك بينا فى رسالته إلى إسكندر وآريوس، رجلى الإسكندرية، فى بدء ظهور العقيدة الآريوسية . وفعلت الكنيسة ذلك عن طيب خاطر راضية، وما كان لها أن ترفع الرأس معارضة وهو ولى نعمتها، فلما مات بدأت تتحسس خطاها فى حذر، وساعدتها الأقدار بوجود أكثر من إمبراطور. يحكمون فى نفس الآن . فسعى كل فريق يلوذ بالجالس على العرش فى الشرق والغرب، يطلب نصرته ويتدثر بحماه.

لقد كانت الكنيسة تمر آنذاك بطور من الطفولة متأخرة . حقيقة تضمنت كتابات زعماء هذه الفترة، هوسيوس(١٦٧) وأثناسيوس(١٦٨) وليبريوس(١٦٩) الذى خلف يوليوس أسقفا لروما، شيئا عن سلطة الأباطرة إزاء الكنيسة، ولكنها فى جوهرها لم تكن تعبر عن خط واضح فى علاقة الدولة بالكنيسة، بل تعد فقط نوعا من الاستياء والسخط إزاء تصرف إمبراطور بعينه، وليس أدل على ذلك من أن هؤلاء انفسهم لاذوا بحمى الأباطرة لنصرتهم وعقيدتهم ، إلا إذا استثنينا من ذلك، وبشيء من التحفظ، كتابات هوسيوس القرطبى وحده .

وعلى نفس المنوال نسج أساقفة سرديكا خيوط رسالة أخرى(١٧٠) بعثوا بها إلى أساقفة مصر وليبيا هى فى الواقع صورة مطابقة لسالفتها، أما أثناسيوس فلم يترك هذه المناسبة تمر دون أن يذكر بنفسه جموع كنيسته أنه لا يزال صاحب

(167) HOS. Ep. Ad Const. In ATHANAS. Hist. Arian. 44
(168) ATHANAS. Hist. Arian. 51-53
(169) THEOD. Hist. eccl. II, 13
(170) ATHANAS, Apol. C. Arian. 41-43

الحق الوحيد فى كرسى الإسكندرية الأسقفى، مدعما بقرار الأساقفة فى سرديكا، فكتب رسالة إلى أكليروس وشعب مريوط[171]، وأخرى إلى القسيسين والشمامسة والكنيسة فى الإسكندرية يستحث الجميع فيها على عدم الاستسلام مطلقا لفعال جريجورى الكبادوكى، أو الخضوع، خاصة بعد أن جرده المجمع من صفته الكهنوتية . ويورد فى نهاية رسالته إلى كنيسة مريوط توقيعات قرابة ستين أسقفا ممن وقفوا إلى جواره يؤيدونه ويناصرون .

هكذا أتم الذين التقوا في سرديكا ما حسبوه لازما وضرورة، وكذا فعل أولاء الذين اجتمعوا فى فيليبوبوليس، كل على حدة[172]، وبعدها عاد أساقفة الفريقين إلى بيعهم، ولكن ما خلفوه وراءهم كان أشد هولا، فقد تركوا الكنيسة أكثر انقساما من البدء وأشد فرقة، حتى لقد سجل المؤرخ الناقد سقراط هذه الحقيقة بقوله : " منذ ذلك الزمان فصاعدا بدأت كنائس الغرب تسير في اتجاه منفصل تماما عن تلك التى فى الشرق"[173] ويعلل ذلك قائلا " أن كلا الفريقين كان يعتقد أنه على الحق المبين، أساقفة الشرق يوقنون بسلامة موقفهم ويخطئون أخوة الغرب الذين ألقوا فى دروب التغاضى والإهمال أحكام صور أنطاكية، واستقبلوا بالمحبة أولئك المبعدين. على حين يؤمن رجال الكنيسة الغربية انهم وحدهم المدافعون عن الإيمان النيقى، وان زملاء الشرق آثمون إذ قدموا يحملون نوايا الازدراء، فانسحبوا قبل أن يبدأوا[174] .

كان واضحا منذ البداية أن المجمع لن يحقق الهدف الذى من أجله وجهت الدعوة إلى عقده، فلم يكن لدى أساقفة الشرق النية فى حضوره أو الرغبة فى نجاحه، إذ كان هذا النجاح يعنى القضاء على جهود بذلوها طوال عشر سنوات

---

(171) ATHANAS. Ep. Ad Mareot.
(172) SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(173) Id.
(174) SOCRAT. Hist. eccl. II, 20

مضت للتخلص من النيقية وإقرار معتقدهم الآريوسى، وأساقفة الغرب يحدوهم الأمل فى نجاح المجمع بهدف إقرار الهوموسية والقضاء على شكوى أثناسيوس ورفاقه، ولكن مجمع سرديكا فشل فى أن يحقق ما تعلقت به الأفئدة من دعوى السلام، وأخفق فى أن يؤلف خصمين اختصموا فى ربهم .

ويلقى المؤرخ Kidd تبعة هذه النتيجة على كاهل هوسيوس أسقف قرطبة فيقول : " حقيقة كان هوسيوس أبا للمجمع، ولكنه كان أسبانيا عنيدا فى إيمانه لا يلين، ينقصه العطف ويحتاج إليه كى يفلح العقل فى رشد الجميع(١٧٥) " أما Duchesne فإنه يقدم أساقفة الشرق فداء لهذا الفشل نتيجة انقلابهم على أعقابهم والمكابرة(١٧٦) . لقد هوت المثالية، على حد تعبير المؤرخ فليش Fliche لتتحطم على صخرة الواقع، وضاعت وسط زحام الأباطيل وسوء النية فرصة اللقاء، وعصفت قرارات الحرمان التى رمى بها الفريقان نفسيهما بكل بارقة أمل فى كنيسة يسودها السلام،لقد هتك المجمع حجب شقاق ظل يستتر طيلة سنوات عديدة بين شقى عالم المسيحية(١٧٧) .

وليس من المنطقى أن نوجه اللوم إلى فريق دون الآخر، أو أن نحمل أحدهما ما لا طاقة له به، فكلاهما شارك بنصيب فى هذه النتيجة التى انتهى إليها المجمع، وكان أثناسيوس وصحبه سبب الخلاف الظاهرى، وكان الإصرار على إبعادهم من جانب الآريوسيين، والتمسك ببقائهم من ناحية النيقيين، نقطة البدء والمنتهى فى طريق الإخفاق، إلا أنها فى حد ذاتها من وجهة النظر الضيقة، النجاح الوحيد الذى حققه مجمع سرديكا، إذا حصرنا مهمته فى هذا النطاق المحدود الذى جاء فى رسالة(١٧٨) قنسطانز إلى أخيه إمبراطور الشرق، بضرورة بحث مسألة أثناسيوس وبولس وغيرهما للمرة الأخيرة . فقد أصدر أساقفة سرديكا قرارهم

(175) Kidd. op. cit. II,
(176) Duchesne, op. cit. II, p. 17 9
(177) Fliche, Histoire de L'église. III, p. 103
(178) ATHANAS. Hist. Arian. 15

بتبرئة أولاء وأعادتهم إلى كراسيهم الأسقفية، وهذا هو الجزء الذى تم تنفيذه واقعا، كما سنري بفعل الأحداث لا بقوة القرار وسلطان المجمع .

وفى تفصيل دقيق يتناول المؤرخ Hefele الآراء العديدة التى أثيرت حول اعتبار مجمع سرديكا مسكونيا، ويخلص في النهاية إلى عدم الموافقة على هذا الاقتراح بناء على الانقسام الذى تعرض له المجمع منذ البداية، وأن من بين الأساقفة الذين التأموا فى سرديكا وقاربوا المائة، لم يكن هناك من الشرق سوى أستريوس وآريوس، اللذين هجرا جانب الآريوسيين فى سرديكا . وعليه لا يمكن أن يوضع مجمع سرديكا فى عداد المجامع المسكونية(١٧٩)، كما أن الكنيسة الشرقية لم تدخله ضمن المجامع المسكونية السبعة التى تعترف بها.

كانت نهاية المجمع على هذا النحو إشارة البدء للفريقين، فقد تم تبادل قرارات الإدانة والعزل بين كل منهما، وتنفيذ هذه الأحكام يحتاج إلى تدخل السلطات المدنية ممثلة فى الأخوين قسطنطيوس وقنسطانز، واستبقا الطريق، فشارك إمبراطور الشرق أساقفته سخطهم الذى عادوا يحملونه من سرديكا، وعزمهم الذى رجعوا به من فيليبوبوليس ، فصبوا غضبهم على أدرنه Adrianopolis وأسقفها لوقا(١٨٠) Lucius وأسقفى العربية والبتراء(١٨١)، وكذلك ثيودولوس Theodulus . أسقف تراجانوبوليس(١٨٢) Trajanopolis وفى الغرب كان أثناسيوس ينظر بعين القلق إلى المصير الذى ينتظر قرارات المجمع وجدية تنفيذها . ولم تهدأ به الأحوال هناك، فقد غادر سرديكا إلى نيش حيث أمضى فيها شتاء عام ٣٤٤(١٨٣) فى ضيافة أسقفها جاودنتيوس، يترقب السماح له من جانب إمبراطور الشرق بالعودة إلى أسقفيته .

---

(179) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 819-821
(180) ATHANAS. Hist. Arian. 18, 19
(181) Ibid. 18
(182) Ibid. 19
(183) FEST. IND. XVI
وراجع أيضا ATHANAS. Apol. Ad Const. 4

وفى الوقت نفسه لم يدع قنسطانز، إمبراطور الغرب، وقتا يمضى دون أن يؤيد بكل جهده ما انتهى إليه المجمع(١٨٤)، ونصب من نفسه مدافعا عن قضية الأغلبية السرديكية(١٨٥)، فأضيف إلى الصراع الكنسى بين الشرق والغرب النزاع السياسى بين عاهلى الإمبراطورية، ذلك أن أساقفة سرديكا أوفدوا من لدنهم سفارة فى مطلع سنة ٣٤٤ إلى قسطنطيوس تضم فينكنتيوس Vincentius أسقف كابوا Capua ويوفراتس Euphrates أسقف كولونى Agrippina (Cologne) (١٨٦) لاطلاعه على قرارات مجمع سرديكا بقصد انتزاع موافقته على القرارات الخاصة بعودة الأساقفة المبعدين إلى كنائسهم(١٨٧) . وانتهز قنسطانز الفرصة ليكتب هو الآخر إلى أخيه فى هذا الشأن(١٨٨)، وصحب السفارة فى رحلتها ساليانوس Salianus أحد قادة قنسطانز العسكريين(١٨٩) ومما يرويه أثناسيوس(١٩٠) وفى تفصيل ثيودوريت، ندرك أن الآريوسيين كانوا يسعون إلى عدم وصول سفارة الغرب إلى قسطنطيوس، خشية أن يؤدى ذلك، مع الصعاب التى يعانى منها فى حربه مع الفرس إلى تغيير موقفه وسواء جرت المحاولة على هذا النحو الذى يصوره أثناسيوس وثيودوريت، أو سلك الآريوسيون سبيلا آخر، فقد أخفقوا فى

---

(184) Kidd, op. cit. II, p. 39
(185) Robertson, op. cit. p. 47
(186) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(187) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(188) Id.
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(189) THEOD. Hist. eccl. II, 7
(١٩٠) يصـــور أثناسيوس وثيودوريت محاولات الآريوسيين فى شكل مؤامرة أقدم عليها الأسقف الأنطـــاكى اسطفانوس، حيث يذكر إنه استأجر إحدى العاهرات وأغراها أن تتسلل إلى فراش يوفراتس أسقف كولونى أثناء نومه غير أن يوفراتس تنبه إلى وجودها، واعترفت هى بـــان اســـطفانوس هو الذى دفعها إلى ذلك، تكشفت بهذا خيوط المؤامرة وسرت مع الهمـــس ثم الضجيج عبر المدينة كلها حتى صكت مسامع القصر حيث يقيم الإمبراطور قسطنطيوس ، والرواية فى جملتها لا يقبلها العقل.
انظر ATHANAS. Hist. Arian. 20
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. II, 7

تحقيق هدفهم، وتمكن رسل الغرب من لقاء قسطنطيوس، وسلمه سباليانوس رسالة قنسطانز، وقد جاء فيها :

" أثناسيوس وبولس في معيتي، وإني لعلى يقين، بعد الفحص "
" والتمحيص، أن ما نزل بساحتهما من اضطهاد، إنما سببه "
" تقواهما والورع، والآن عاهد نفسك على أن تعيدهما ثانية "
" إلى كنيستيهما و أن تعاقب أولاء الذين أساءوا إليهما دون "
" عدالـــــة ، ولسوف أبعث بهما إليك ، ولئن رفضت تنفيذ "
" مشيئتي، فكن على يقين انك ستجدني هنا، عندك "
" لأعيدهما بنفسي رغم أنفك[191] ".

كانت هذه الرسالة، تهديدا صريحا من جانب إمبراطور الغرب لأخيه قسطنطيوس[192] وقد جاءت في الوقت الملائم للنيقية تماما، ذلك أن إمبراطور الشرق تلقى في بداية عام ٣٤٤ هزيمة ساحقة على يد جيوش فارس عند سنجار Singara قضت على عدد كبير من قواته[193]، في الوقت الذي كان قنسطانز يسود أقاليم الغرب ويستمد منها قوته[194]، وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه في مأزق حرج، فها هي زحوف سابور الثاني تمضي داخل الأراضي الرومانية في طريقها إلى نصيبين، بعد أن تمزق عند سنجار جيش الإمبراطور، وقنسطانز في الغرب يشهر في وجهه سلاح التهديد من أجل نفر من الأساقفة لاذ به واحتمى، واكليروس الشرق يضيق عليه الخناق ويحثه على العناد، وراعي أنطاكية يجلب عليه الآن مشكلة جديدة . ولم يجد قسطنطيوس أمامه غير الإذعان سبيلا، فأصغى لأخيه كارها مغيظا، ولم يشأ أن يثير بدافع " الحماقة "، حسب قول سوزومنوس ، حربا أهلية من أجل نقاط الخلاف هذه[195]، فأطاع تحت وطأة الضرورة وحدها[196].

(191) SOCRAT. Hist. eccl. II, 22
(192) THEOD. Hist. eccl. II, 6
(193) Gibbon, op. cit. II, pp. 240-242
(194) Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 45
(195) SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(196) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

ولعل ساليانوس هو الآخر أدرك ما يختلج في نفس الإمبراطور قسطنطيوس فسعى إليه يطلب تقديم أسطفانوس ورفاقه إلى محاكمة مدنية، وليس أمام مجمع من الأساقفة[197] وذهبت سدى احتجاجات الأسقف الأنطاكي بعدم شرعية هذا الإجراء[198] إذ إن ذلك يشكل في حد ذاته سابقة خطيرة في محاكمات رجال الأكليروس الآثمين[199]، مما يعطي للسلطات المدنية حقا تعتبره الكنيسة من اختصاصها وحدها، ولم يسع الإمبراطور ثانية إلا الموافقة، فقرر ومستشاروه إجراء المحاكمة داخل القصر الإمبراطوري[200]، وانتهى الأمر بعزل إسطفانوس وطرده من أنطاكية[201] . وأعقب ذلك توجيه الدعوة لعدد من أساقفة الشرق للاجتماع في أنطاكية للتصديق على ما تم بشأن اسطفانوس، واختيار خلف له . وفي صيف عام ٣٤٤ بدأ المجمع جلساته[202]، وأصدر قراراته بالموافقة على لفظ اسطفانوس خارج البيعة، ورسم ليونتيوس Leontius بدلا منه[203] . ويعلق ثيودوريت على ذلك قائلا : " لا يعني هذا أن أنطاكية قد تخلصت من الآريوسية[204]، لقد كان أسقفها الجديد فريجي المولد يشابه كثيرا الآريوسيين القدامى[205]، حيث تتلمذ في المدرسة اللوقيانية[206] التي ينتمي إليها آريوس ويوسيبيوس النيقوميدي .. ويتحدث عنه أثناسيوس في لهجة قاسية في كل ما كتب

(197) THEOD. Hist. eccl. II, 7
(198) Id.
(199) Kidd, op. cit. II, p. 94
(200) THEOD. Loc. cit.
(201) Ibid. 8
وراجع أيضا ATHANAS. Hist. Arian. 20
(202) SOCRAT. Hist. eccl. II, 19
(203) ATHANAS. Hist. Arian. 20
(204) THEOD. Hist. eccl. II, 8
(205) THEOD. Hist. eccl. II, 8
وراجع أيضا II, p. 94.Kidd. op. cit
(206) B. Jackson, op. cit. p. 78 n. 2

عنه[٢٠٧] . وقد تفرد بذكاء وفطنة تفوق الكثيرين[٢٠٨]، وجمع إليه فى حرص وحذر الأضداد المتنافرة مثل ديودور Diodorus وفلافيان Flavianus، وهما من الكاثوليك العلمانيين، إلى جوار شماسه وفتاه آيتيوس Aetius الآريوسى المتطرف[٢٠٩]، وتمكن بدهاء أن يسترضى جميع الأطراف، حيث كان يردد دائما عبارته الشهيرة : " إذا ذاب الجليد فلن يخلف إلا الوحل "[٢١٠] .

وقد انتهز الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية فرصة هذا اللقاء، وأصدروا مرسوم إيمان جديد[٢١١]، أعادوا فيه مرة أخرى صيغة المرسوم الأنطاكى الرابع، مع الإضافات التى لحقت به فى فيليبوبوليس، ثم زادوا عليه شروحا وتفسيرات حتى سمى بالمرسوم المطول Macroatichos وقد خلا المرسوم كذلك شأن وثائق الإيمان الآريوسية التى سبقته من مصطلح " الجوهر" مثار الخلاف[٢١٢]، وهو يعبر عن روح الاعتدال التى فرضتها الأحداث انذاك[٢١٣] وحرص واضعوه على أن يستقوا معظم عباراته من الكتاب المقدس[٢١٤]. غير أن المرسوم تضمن إدانة صريحة مرة أخرى لأحد تلامذة ماركللوس ويدعى فوطين Photinus[٢١٥]

---

(207) ATHANAS. Apol. De fuga 26
ولأثناسيوس كذلك انظر Hist. Arian. 28
(208) Kidd, op. cit. II, p. 94
(209) THEOD. Hist. eccl. II, 9
(210) SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(211) SOCRAT, Hist. eccl. 19
راجع ATHANAS. De. Syn. 26
وأيضا SEV. Hist. Sac. III.1.SVLp
(212) SOZOM. op. cit. III.11
(213) Neale, holy Eastern Church, p. 134
(214) SOCRAT. Loc. cit.
راجع أيضا ATHANAS. De. Syn. 26
(215) SOCRAT. op. cit. 11, 18
وكان فوطين هذا شماسا لأسقف انقرة، واعتنق آراء أستاذه وتطرف بها، وجهر بالقول بان الابن استمد وجوده من مريم العذراء، وانه محض انسان، وانكر وجوده قبل كل الدهور حسب ما تؤمن به الكنسية الكاثوليكية .

الذى يشغل أسقفية Sirmium (٣٤٠-٣٥١)، وكانت هذه الإدانة فى حقيقة أمرها تشمل بصورة غير مباشرة ماركللوس وأثناسيوس، حيث إنهما لم يعلنا رفضهما لما نادى به فوطين[٢١٦].

حمل هذا المرسوم إلى الغرب يودوكسيوس أسقف مرعش، وماكيدونيوس أسقف المصيصة Mopsuesta وآخر يدعى مارتيريوس[٢١٧]، حيث كان أساقفة إيطاليا يعقدون مجمعا فى ميلانو سنة ٣٤٥[٢١٨]، غير أن هؤلاء رفضوا قبول هذه الوثيقة محاجين بانهم يعتقدون أن الإيمان النيقى هو الصيغة الواحدة الملائمة ولن يرضوا عنها بديلا[٢١٩] . وهكذا أخفقت محاولة أساقفة الشرق هذه للخروج من الحصار الذى ضرب حولهم عقب سرديكا ..

والآن، وقد جرت هذه الأحداث سراعا، يضفى أثناسيوس بسببها على قسطنطيوس دون ادراك للظروف السياسية التى تحيط بالإمبراطور من الشرق والغرب، نوعا من تأنيب الضمير، عاد به إلى نفسه يلومها[٢٢٠]، ويدفعه إلى أن يصدر أوامره باستدعاء الشمامسة والقسيسين السكندريين، الذين كانوا يقضون فترة النفى فى أرمينيا، ويسمح لهم بالعودة إلى ديارهم[٢٢١] . وفى أغسطس ٣٤٤ كتب الإمبراطور إلى الإسكندرية يأمر برفع الاضطهاد عن أنصار أثناسيوس سواء كانوا من العلمانيين أو الأكليروس[٢٢٢] . وواتت بولس أسقف القسطنطينية الشجاعة، فارتحل عن بلاط قنسطانز عائدا إلى كنيسته، مزودا بقرارات مجمع

---

(216) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 37
وراجع أيضا .. Gwqatkin, op. cit. p73
(217) SOCRAT. op. cit. II 19
وراجع ATHANAS. De. Syn. 26
وأيضا SOZOM. op. cit. III, 11
(218) Hefele, op. cit. I, 2 p. 348
(219) SOZOM. Loc. cit.
(220) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(221) Id.
(222) Id.

سرديكا، وتوصيات إمبراطور الغرب واثنين من الأساقفة، وآخر من ذوى المكانة فى البلاط لحمايته[٢٢٣] .

أما أثناسيوس، الذى كان يقيم آنئذ فى ضيافة قنسطانز فى أكويليا Aquileia بعد أن استدعاه الإمبراطور إليه[٢٢٤]، فأنه ظل مترددا فى العودة خشية أن يتعرض لغضبة قسطنطيوس وأساقفة الآريوسية[٢٢٥] ولكن إمبراطور الشرق كان قد قرر أن يسير الشوط كارها حتى تواتيه الأقدار، إذ يدرك أن أخاه جاد فى تنفيذ تهديده، وان الظروف السياسية والعسكرية التى تحيط به لا تسمح له مطلقا بالعناد والتحدى، ومن ثم أرسل على الفور يستدعى أثناسيوس، وكتب إليه هذه الرسالة .

" قسطنطيوس أوغسطس المنتصر إلى أثناسيوس الأسقف :

ان صفحنا الرحيم لا يمكن أن يسمح بأن تظل هكذا فى مهب الريح، تتقاذفك أمواج اليم الصخابة، ورحمتنا الواسعة لم تكن غافلة عن إخراجك من الديار، ونهب مالك وأنت على وجهك هائم في توجد وعسر. ولتعلم أنه لم يمنعنى عن إطلاعك على ما يدور فى ذهنى إلا توقعى انك لابد من نفسك آت، سعيا لوضع الاصر عنك . ولكن يبدو أن الخوف وقف حجر عثرة فى سبيل الأقدام على تنفيذ آمالك، من أجل هذا كتبنا لنيافتك رسائل تفوح صفحا وغفرانا حتى تسرع دون خشية بالظهور فى حضرتنا حتى تعاين أريحيتنا وتحقق رغائبك. ولسوف ترجع إلى مركزك المرموق؛ لذا طلبت إلى أخى قنسطانز أوغسطس المنتصر، أن يأذن لك فى الرحيل؛ ولتكن على يقين أن رضانا وكرمنا سوف يعيدانك إلى الديار[٢٢٦] .

هذه الرسالة تفصح عن وقوف قسطنطيوس على خبيئة نفس أثناسيوس المضطربة، وتردده فى العودة إلى الإسكندرية حتى لا يتعرض لهجمات خصومه

---

(223) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(224) ATHANAS. Apol. Ad Const. 4
وراجع أيضا FEST. IND. XVII
(225) SOCRAT. Loc. cit.
(226) ATHANS. Apol. C. Arian, 51
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

وعداء الإمبراطور، كما يبين منها أن قسطنطيوس قد كتب إلى أخيه قنسطانز رسالة، ربما جاءت ردا على خطاب التهديد الذى بعث به مع قائده سالبانوس، يخبره بعفوه عن الأسقف السكندرى . ولكن يبدو أن أثناسيوس لم يقتنع بما جاء فى رسالة إمبراطور الشرق هذى وخشى سوء العاقبة، ورغم ما كان يعتمل فى داخله من اللهف على العودة إلى أسقفيته، إلا أنه آثر الأمان فى بلاط إمبراطور الغرب ووسط ترحاب الأساقفة هناك وتقديرهم آياه، ولكنه ما لبث أن تلقى ثانية رسالة من قسطنطيوس يقول فيها :

" . . رغم المودة المفرطة التى تبدت فى رسالتنا السابقة، "

" ندعوك بكل الثقة إلى بلاطنا، لأنا فى غاية الشوق لإعادتك "

" إلى كرسيك الرفيع، فانا نبعث لنيافتك ثانية هذه الرسالة "

" نستحثك دون أدنى ريب، أن تسرع إلينا حتى تنال الرضى "

" وتحقق المنى "(٢٢٧) .

وكانت الأمور فى الإسكندرية تشجع الإمبراطور على الإلحاح فى عودة أثناسيوس، فقد كان جريجوري الكبادوكى، الأسقف الآريوسى، مريضا يعانى الانتظار الممل للموت(٢٢٨) . ويبدو أن الإمبراطور كان يتوقع هذه النهاية ويرقبها، ومن ثم أراد أن لا يدع الفرصة لفوضى جديدة قد تحدث فى الإسكندرية، بل ومصر كلها قد تؤثر على خطوط تموينه في صراعه مع فارس، وأراد أن يستعيد أثناسيوس كرسيه حتى يمنع حدوث هذه الاضطرابات، يضاف إلى ذلك فزعه الدائم من تهديدات أخيه قنسطانز إذا ما تبقى أثناسيوس هناك فى بلاطه . غير أن أسقف

(227) ATHANAS. Apol. C. arian. 51 .
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II,23
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 9
(228) FETS. IND. XIV

الإسكندرية أثناسيوس، على حد تعبيره، لم يكن " يهتم مطلقا بالعودة "[٢٢٩] لا ترفعا عنها ولكن خوفا منها، وابتغاء الأمان لدى قنسطانز .

وفى ٢٦ يونية ٣٤٥ مات. جريجورى الكبادوكى[٢٣٠]، فصدق حدس الإمبراطور وكان يقيم عندئذ فى الرها[٢٣١]، فلما جاءته هذه الأنباء كتب للمرة الثالثة إلى أثناسيوس على هذا النحو :

" . . . بينا نحن فى الرها إذ نفر من قساوستك حضور "

" فسرنى أن أبعث بأحدهم إليك أبتغى سرعة مجيئك إلى "

" بلاطنا، وما أن تأتى هنا حتى تتوجه على التو إلى "

" الإسكندرية . لقد مضى وقت طويل مذ تسلمت رسالتنا "

" ولكنك لم تأت، وها نحن الآن نعود فنذكر انا نتعجل مقدمك "

" إلينا، حتى تكون قادرا على العودة إلى وطنك، وحتى "

" تتحقق أمانيك، وحتى تكون على يقين تام من ذلك، فقد "

" أرسلنا إليك الشماس آخيتاس Achetas لتعلم منه علم "

" اليقين شعورنا نحوك، وانك سوف تحقق كل ما تبغى إليه "

" سبيلا "[٢٣٢] .

ولابد أن يكون القساوسة السكندريون الذين جاء ذكرهم فى أول الرسالة قد ذهبوا إلى قسطنطيوس ليقدموا له الشكر على إطلاق سراح رجال الأكليروس

(229) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(230) FEST. IND. XVIII.
(231) ATHAMAS. Apol. C. Arian .51
(232) ATHANAS. Apol. C. Arian. 51
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 23

وإعادتهم إلى الإسكندرية، ورفع الاضطهاد عن أنصار أثناسيوس، وليحملوا إليه فى الوقت ذاته نبأ وفاة جريجورى الكبادوكى، وليطلبوا منه عدم تعيين أسقف جديد خلفا له، إذ انهم مستمسكون بأثناسيوس، ويتضح هذا مما يقوله الأسقف السكندرى نفسه حين يذكر أن قسطنطيوس قد بعث إليه والى قنسطانز يؤكد أنه لن يسمح بأى تغيير فى الأمور، ولن يوافق على رسامة أى أسقف آخر، وأنه سوف يحتفظ بالكنائس لأسقفها أثناسيوس[٢٣٣]، ومن هذه الرسالة نعلم أيضا أن إمبراطور الشرق لم يكتف بمراسلاته مع أثناسيوس فقط، بل أوفد إليه أحد الشمامسة ليوضح للأسقف ما عجزت الرسائل عن احتوائه، ويؤكد أثناسيوس وصول هذا المبعوث فى كتاباته[٢٣٤] .

هكذا لم يترك قسطنطيوس وسيلة دون أن يسعى إليها فى محاولة لعودة أثناسيوس من الغرب، بل لقد ذهب أبعد من ذلك إلى الحد الذى أوحى فيه إلى خلصائه من القادة، بوليميوس Polemius وداتيانوس Datianus وطالاسوس Thalassus، وتاوروس Taurus وفلورنتيوس Florentius ممن يثق فيهم الأسقف السكندرى، بالكتابة إليه أيضا[٢٣٥] . والغريب أن أثناسيوس، رغم أن القطيعة لم تكن حتى ذلك الوقت قد ظهرت سافرة بينه وبين قسطنطيوس، ورغم أنه كان لا يزال يخلع عليه ألقاب التقوى والورع، إلا أنه لم يفكر حتى فى مجرد الرد على هذه الرسائل التى بعث بها إليه الإمبراطور، مما ترك فى نفس قسطنطيوس أسوأ الأثر، سوف تظهر نتائجه فيما بعد .

وأمام كل هذه التعهدات والضمانات الكافية، لم يكن أمام أثناسيوس إلا الارتحال عائدا إلى بيعته، فغادر على الفور أكويليا إلى ترير[٢٣٦]، ليطلب من قنسطانز الإذن له بالسفر، وليودعه شاكرا حسن الصنيع وليقدم على مذبح العرفان قربان الثناء، وبعدها

(233) ATHANAS. Hist. Arian. 21
(234) Id.
(235) Ibid. 22
(236) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 4

اتجه إلى روما ليحمل إلى الكنيسة وأسقفها يوليوس كل التقدير[٢٣٧]، ولم يشأ يوليوس أن يرحل أثناسيوس دون أن يحمله رسالة الاكليروس السكندرى وجموع المسيحيين فى بيعته[٢٣٨]، تفيض كلها مدحا وإعجابا بشخص أثناسيوس واصطباره، وتمتدح فى الوقت ذاته ذلك الولاء الصادق والوفاء الذى أظهروه تجاه أسقفهم وهو عنهم بعيد، وتطلب إليهم فى النهاية حسن استقباله وكريم اللقاء .

ومن روما اتخذ أثناسيوس سبيله قادما إلى أدرنه[٢٣٩]، ثم وصل أنطاكية فى سبتمبر ٣٤٦[٢٤٠]، حيث التقى بقسطنطيوس، وهى المرة الثالثة التى لقى فيها إمبراطور الشرق، ويخبرنا أثناسيوس أن الإمبراطور لقيه بالحفاوة[٢٤١]، وإن كان سقراط بأسلوبه الساخر يقول : " لم يستطع الإمبراطور قسطنطيوس أن يستقبل أثناسيوس فى هذه الآونة بشعور العداء[٢٤٢]، وتلك حقيقة لا جدال فيها، فلم يكن قسطنطيوس مدفوعا إلى أثناسيوس، إلا إرضاء لأخيه فقط وخشية وعيده، وحفاظاً على الاستقرار فى مصر، ورضوخا لظروفه العسكرية العصيبة التى تحيط به من جراء الخطر الفارسى، إلى أن تتجلى الأمور، ولعل هذا قد اتضح للوهلة الأولى من عبارة الترحيب التى استقبل بها الإمبراطور الأسقف : " لقد عدت إلى بيعتك بقرار المجمع ولكن بموافقتى[٢٤٣] . وبعدها راح قسطنطيوس يحاول إدخال الطمأنينة على نفس أثناسيوس، فاستمع منه شكايته وما كاله له الخصوم، وغضبه السابق عليه، فأخبره الإمبراطور أن هذه الأمور لم تعد بذات موضوع وأنه يشهد الرب على أن لا يسمع فى أثناسيوس من بعد وشاية[٢٤٤] .

(237) ATHANAS. Apol. C. Arian. 51
(238) Ibid. 52,53
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(239) ATHANAS. Hist. Arian. 31
(240) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 5
(241) ATHANAS. Hist. Arian. 22
(242) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(243) SOCRAT. Hist. eccl. II, 23
(244) ATHANAS. Hist. Arian. 22

وقد طلب الإمبراطور من أثناسيوس أن يخصص كنيسة للآريوسيين فى الإسكندرية(٢٤٥) ويقول ثيودوريت أن أساقفة الآريوسية الذين يحيطون بقسطنطيوس هم الذين أوحوا إليه بذلك(٢٤٦)، وقد أجاب أثناسيوس بأنه على استعداد لان يطيع ما أمر به الإمبراطور شريطة أن يمنح للنيقيين فى أنطاكية نفس الامتياز(٢٤٧) . وهؤلاء النيقيون هم انصار بوستاتيوس الأسقف الأنطاكى الذى عزله اليوسابيون من قبل سنة ٣٣٠(٢٤٨)، وقد رفضوا الدخول فى شركة خليفته أسطفانوس وليونتيوس، وحل بهم الاضطهاد وأصبحوا يعرفون باليوستاتيين(٢٤٩)، ولم يكن الإمبراطور يتوقع مثل هذا الرد من الأسقف السكندرى، ويعبر ثيودوريت عن الحالة التى انتابته بقوله : " أن الإمبراطور رغم أنه أبدى إعجابه بشجاعة أثناسيوس إلا أنه فى الوقت ذاته صدم بهذه الإجابة(٢٥٠) .

وقد عد قسطنطيوس ذلك تحديا له، وأسرها فى نفسه ولم يبدها له، وآثر الآن السلامة فى وقت لم يكن يمتلك عندئذ طريقا سواها، إلا أن موقف أثناسيوس، عمق من هوة الكراهة له عند الإمبراطور .

وقد ذكرنا من قبل أن قسطنطيوس سيق إلى ذلك قسرا، لذلك ودع أثناسيوس، الذى أخذ طريقه جنوبا إلى الإسكندرية، وشيعه برسائل ثلاث تعيد إلى نفسه ما خبأ من الأمان . وقد وجه الرسالة الأولى إلى أساقفة الكنيسة السكندرية والقسيسين جاء فيها :

" الوقور المهيب، الأسقف أثناسيوس، عناية الله لم تغفل عنه لحظة . لقد

---

(245) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 20
(246) THEOD. Hist. eccl. II, 9
(247) SOZOM. Loc. cit.
وأيضا SOCRAT. Loc. cit.
(٢٤٨) راجع الفصل الأول :
(249) SOZOM. Loc. cit
(250) THEOD. Hist. eccl. II, 9

دخل في تجربة بفعال بعض الرجال، ولكنه نال من عناية الله الذي يعلم السر وأخفى، تزكية هو بها جدير. لقد عاد بإرادة الله وقرارنا إلى الديار والكنيسة التي يرضى السماء يرعاها . وقد رأيناه حسنا أن تجئ رحمتنا موافقة لحدث أجل . كل أمر سبق مس بسوء أولئك الذين من قبل والوه، قد نقض كل شكوك من حوله ثارت وريب، الان، وبعد الآن فلتقف . كل امتياز حازه الأكليروس الرفاق، فليبق . وقد رأيناه عدلا، أن تسع رحمتنا التي وسعته، كل رجالات الأكليروس، والشركة معه نعم الدليل على انسان يقظ المرام، وليكن الجميع على يقين أن من أراد أن يدخل في عهده ويتناول شركته، فسوف تشمله رعايتنا، كما سبق له في ذلك رفاق. ألا فليحفظكم الله "[٢٥١] .

ويتضح من الرسالة أنها تحتوى على عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، إذ عاد فيها قسطنطيوس يؤكد أن عودة أثناسيوس انما كانت برضاه وقراره، وكأنه يريد بذلك أن يبعد عن نفسه وعن أذهان الناس شبح تهديد قنسطانز، وعودة أثناسيوس بقهر منه، يضاف إلى هذا أنه رفع الاضطهاد عن الأكليروس انصار أثناسيوس وأعاد إليهم كل الامتيازات التي كانت لهم من قبل، وألغى كل القرارات التي صدرت بالنفي أو المصادرة .

وإلى شعب الكنيسة الكاثوليكية في الإسكندرية، جاءت الرسالة الثانية يمتدح في بدايتها سلوك أثناسيوس، أو هي بمعنى آخر استرضاء لهم ، ثم توجه الرسالة بعد ذلك تحذيرا إلى الجموع حيث تقول :

"... كرسوا أنفسكم دواما وفق قانون الكنيسة للتوائم والسلام، لأنه ليس من الصواب إحداث أي انشقاق أو فتنة . . . ولكي نحول دون أي اتجاه إلى الشغب أو الفتنة في نفوس أناس طبعت على الشقاق أرواحهم، فقد صدرت أوامرنا إلى

(251) ATHANAS. Apol. C.Arian. 54.
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 23
وانظر كذلك SOCRAT. Hist. eccl. 11. 23

موظفينا فى إقليمكم أن يضعوا تحت طائلة العقاب كل من تحدثه نفسه بغشيان ذلك. لتعلموا هذا جيدا، ورغبتى تتفق مع إرادة العلى، تود أن يعمكم الخير والرفاهة، وعذابى أصيب به من ضل وغوى "(٢٥٢) .

ولاشك أن الإمبراطور كان يدرك أن الفريق النيقى فى الإسكندرية، ربما انتهز فرصة عودة الأسقف، بعد طول غياب، إلى بيعته منتصرا، ليثيرها حربا لا هوادة فيها ضد الفريق الآريوسى فى المدينة، انتقاما لما أحدثه الأسقف الكبادوكى جريجوري، وما أنزله بهم فيلاجريوس النائب الإمبراطوري من اضطهاد ، ولذا أراد أن يضع من البداية جدا لأية محاولة من هذا القبيل، بل لكبت نوازع الفتنة فى صدر " كل من تحدثه نفسه بغشيان ذلك " .

أما رسالته الأخيرة فقد بعث بها إلى موظفيه فى مصر وليبيا، جاء فيها :

" لئن كانت هناك قوانين صدرت قبلا، تثلب وتحط من كرامة أولاء الذين يوالون الأسقف أثناسيوس، فإنه لمن دواعى سعادتى الآن أن تلغى كلية، وأن يعاد على أكليروسه كل امتياز لهم كان . ويهمنى تماما أن توضع هذه الأوامر على الفور موضع التنفيذ ، فما أن يعود أثناسيوس إلى كنيسته ، حتى تعاد إلى كل من والاه حقوقهم التى نالوها من قبل ذلك ، إن أمورهم وحوائجهم يجب أن تقضى بارتياح، فيتناول الجميع شركة الخير العام "(٢٥٣) .

بهذا مهد قسطنطيوس السبيل أمام عود هادئ لأثناسيوس . وقد يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأولى أن إمبراطور الشرق، بما ظهر من حديثه المتسم بالود مع الأسقف السكندرى فى أنطاكية، ورسائله التى بعث بها هذه، قد مال فعلاً إلى جانب

---

(252) ATHANAS. Apol, C. Arian. 55
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. 11,23
(253) ATHANAS. Apol. C. Arian. 56
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 23
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. eccl. 11,23

أثناسيوس، ولكن هذا الاعتقاد لا يلبث أن يزول عندما نعلم أن قسطنطيوس كان يبتغي في الدرجة الأولى هدوءا داخل إقليمه في هذا الوقت العصيب، فالقوات الفارسية تفرض حصارها الثاني الان(سنة ٣٤٦) على مدينة نصيبين التي تعد من أهم قلاعه في حربه ضد سابور(٢٥٤) وكان كل ما يشغل بال الإمبراطور انقاذ هذه المدينة من السقوط في أيدي جيش فارس، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له حاليا بالتصدي للخلافات العقيدية، أو النظر في قضايا الأساقفة، كما أنه لم يكن من صالحه البتة أن يرى شغبا يثار أو فتنة تستيقظ وفي مصر بالذات . ولم ينس الإمبراطور إلى جوار هذا كله أن تهديد أخيه لا يزال قائما، وهو ما يوليه كل حساب . من أجل هذا لم يكن اهتمام قسطنطيوس قاصرا على الإسكندرية وأثناسيوس، بل قبل عودة بولس إلى القسطنطينية وتنحية ماكيدونوس عن أسقفيتها، وأعاد ماركللوس إلى انقرة وعزل عنها باسيليوس، ورد غزة على اسكلبيوس ولوقا إلى أدرنه(٢٥٥) وأرسل إلى رعية الكنائس في هذه المدن يحضها على استقبال أساقفتهم العائدين بما يليق، ويدعو الجميع للإخلاد إلى الهدوء ونبذ الشقاق(٢٥٦) .

هكذا سار قسطنطيوس الشوط إلى ما حسبه أثناسيوس منتهاه، يتبرم صمتا ويتقد غيظا، ويرقب ما يجيء به الغد .

أما أثناسيوس فقد تسلح برسائل الإمبراطور، وسلك سبيل الأمان عبر سوريا حتى أتى فلسطين، وفيها التقى بأسقف أورشليم، ماكسيموس(٢٥٧) Maximus وأطلعه على ما تم اتخاذه في مجمع سرديكا، وما قر عليه رأي الإمبراطور من الموافقة على قرارات المجمع، واقترح عليه في نفس الوقت عقد مجمع محلي يضم أساقفة

---

(254) Gibbon. op. cit. 11. p. 242
(255) SOCRAT. Hist. eccl. 11. 24
وراجع كذلك SOZOM. Hist. eccl. 23
(256) SOCRAT. Loc. cit.
(257) Ibid. 24
وراجع لأثناسيوس أيضا ATHANAS. Apol. C. Arian. 5
Hist. Arian. 25

المنطقة[٢٥٨] . ولبى ماكسيموس على الفور نداء أثناسيوس، ودعا إليه عددا من أساقفة سوريا وفلسطين[٢٥٩] الموالين للأسقف السكندرى أو الذين راجعوا الآن حساباتهم !!

التأم عقد المجمع فى أورشليم فى أكتوبر سنة ٣٤٦، وأعلن الجميع ترحيبهم بعودة أثناسيوس، وأعادوه إلى شركة الكنيسة[٢٦٠]، وشيعوه إلى بيعته برسالة[٢٦١] موجهة إلى الاكليروس فى مصر وليبيا ، ومن التوقيعات التى ذيلت بها الرسالة يتضح انها ضمت أسماء أساقفة كانوا قد وقعوا قبلا على قرارات مجمع سرديكا، وأوردهم أثناسيوس أيضا من قبل[٢٦٢] .

ارتحل أثناسيوس من أورشليم قاصدا الإسكندرية، وكانت المدينة قد علمت بمقدمه، فخرجت لاستقباله على مسافة بعيدة منها[٢٦٣]، ويصف جريجورى النازيانزى وصفا شائقا مظاهر هذا الاستقبال والاحتفال بعودة أثناسيوس[٢٦٤] .

---

(258) SOCRAT. Hist. eccl. II, 24.
(259) Id.
(260) ATHANAS. Apol. C. Arian. 57
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. 11,24
(٢٦١) جاء فى هذه الرسالة : " أحيانا .. إنا لنعجز والحق عن أن نقدم لإله العالمين الشكران لمعجزات أعطاها فى كل ان، وعلى الأخص الان . إذ أعاد إليكم أباكم، راعيكم أخانا المحبوب أثناسيوس . وللحق، لقد سمع منكم إله العالمين الضراعات وأشفق على الدموع من مآقيكم تنساب والانات، وتحنن للرجا والابتهالات، . .إذ كنتم منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعى لها (متى ٣٦/٩) . . . صلوا لأجل إمبراطورينا الدينين، محبوبى الرب، اللذين ما أن علما بقلق اشتياقكم من بعده، ونقاء سريرته، حتى قررا إعادته إليكم بكل الكرامة " انظر ATHANAS. Apol. C. Arian. 57
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 22
(262) ATHANAS. Apol. C. Arian.50
(263) FEST. IND. XVIII
(٢٦٤) يقدم جريجورى النازيانزى صورة رائعة للاستقبال الذى لقى به شعب الكنيسة السكندرية أثناسيوس عند عودته، ويذكر أن الجموع سواء منها الشيوخ والأطفال والنساء خرجوا جميعا كنهر دافق ينساب مئات الأميال لاستقبال أثناسيوس ويبلغ به الإعجاب فى هذا الوصف أن شبه أثناسيوس بالمسيح وقد اعتلى متن أتان دخل به المدينة، كما دخل المسيح من قبل أورشليم ويذكر على لسان أحد الشيوخ أن هذا الاستقبال يفوق أى احتفال أقيم لاستقبال أى من حكام مصر عند قدومه إلى الإسكندرية.
انظر GREG. NAZ. Orat. XXI29

وفى ٢١ أكتوبر ٣٤٦، بعد غيبة قرابة سبع سنوات ونصف، دخل أثناسيوس الإسكندرية دخول الظافرين[٢٦٥] وسجل هو بقلمه هذه اللحظات[٢٦٦] . وهكذا انتصرت النيقية إذ انتصر أثناسيوس . ولقد استطاع الأسقف السكندرى خلال فترة نفيه هذه أن يثير أساقفة الغرب جميعا ضد العقيدة الآريوسية وأساقفتها، وأن ينقل صراعا هو من صميم الشرق وحده إلى عالم الغرب وفكره . نفس الدور الذى قام به يوسيبيوس النيقوميدى، مع خلاف فى الاتجاه والميدان، حتى لقد أصبحت الكنيسة الغربية تدافع عن الإيمان النيقى وأثناسيوس باعتبارهما متلازمين، وأضحت قضية أثناسيوس، على حد تعبير أحد المؤرخين[٢٦٧]، قضية الغرب بعامة" . ونجح الأسقف السكندرى أيضا فى أن يستثير عطف قنسطانز، وان يحوز ثقته وإعجابه، بل وكان أدنى إلى أن يشهر سلاحه في وجه قسطنطيوس . ربما لم يسع أثناسيوس إلى أن يشعل بين الشقيقين حربا، أو أن يوقع بينهما عداوة . ولكنه أفلح في أن يجعل من أساقفة الغرب جميعا، وعلى رأسهم الإمبراطور، انصارا له يمدون إليه يد العون فى كل حين وآن، يتحدى بقوتهم إمبراطور الشرق وأساقفته .

وكانت الجولة الثانية هذه، بين جولات أثناسيوس الخمس، من أعظمها أثرا، إذ إنها تمثل النجاح الكامل لأسقف الإسكندرية فى تنفيذ الشق الأول من دعامتيه اللتين ارتكزت عليهما جهوده في صراع كنيسته والإمبراطورية . ولعل أثناسيوس لم يضع منذ البداية خطة يسير بمقتضاها إذ دهمته الأحداث مرة واحدة ، ولكن الأحداث وحدها هي التى ساقت إليه مقدمة هذا السبيل عندما بعث به قسطنطين الكبير إلى الغرب مبعدا، والى هنا يقف دور الأحداث، ويبدأ الأسقف السكندرى يتلمس خطاه فى

---

(265) Gwatkjin, op. cit. p. 73

(٢٦٦) كتب أثناسيوس يصف هذه اللحظات بقوله : " من تراه الآن لم يصل به العجب عنان السماء وهو يرى السلام يهفو فوق الكنائس بأجنحة السلام ؟ ! من تراه لم تسر العين منه للوفاق يجمع أخوة الإيمان ؟! كم تاب من الخطاة ؟! كم من الآثمين ندم ؟! لقد أتى جمعهم يسعى يطلب الصفح ويلتمس الغفران ".
انظر ATHANAS. Hist. Arian. 27

(267) Le Bachelst, op. cit. Col. 2147

وعى دقيق وذكاء، حتى أتى جهده فى النهاية ثمرته المرجوة . فإذا كان أثناسيوس قد جئ به إلى الغرب فى المرة الأولى رغم أنفه فقد أتى بنفسه إليه فى المرة الثانية وبملء إرادته، ليواصل جهوده من أجل نصرة قضيته وقضية الإيمان النيقى .

لم يكن الغرب حتى سنة ٣٣٥، عام نفيه الأول، يعلم عن مدى عمق هذا الجدل العقائدى شيئا أو يريد، أو حتى يقدر ، ولم يكن يعرف عن أثناسيوس نفسه سوى أنه الشماس السكندرى الذى ظهرت فى نيقية سنة ٣٢٥ براعته . وحتى فى نيقية لم يكن للغرب بين الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا، حضور المجمع، إلا ثمانية أساقفة فقط ، ولكن أثناسيوس استطاع أن يرتفع بهذا العدد، خلال أقل من عشر سنوات قضاها هناك على مرحلتين ، إلى قرابة المائة فى سرديكا كلهم يؤيدونه وينصرون ، ولم يكن هذا الحماس الجارف من أساقفة الغرب تجاه أثناسيوس، نابعا عن فهم عميق من هؤلاء لمتاهات الجدل اللاهوتى، فقد أسلفنا أن الغرب لم يكن على نفس القدر مع الشرق فى الفكر والنزعة العقلانية فى اللاهوت، بل كانوا حسب تعبير المؤرخ المعاصر سولبكيوس سفروس " عديمى الخبرة قليلى الثقافة "(٢٦٨) .

لقد ورث الغرب إيمان الأسلاف دون أن يكلف نفسه عناء البحث وراء أسرار هذه العقيدة وغوامضها . فلما جاء آريوس يخاطب العقل ويجادل محاولا بناء المعتقد المسيحى على أساس عقلى، تابعه الشرق جله، على حين وقف الغرب يناصر أثناسيوس، إذ رأى فيه مصدقا لما بين يديه من عقيدة أسلافه السكندريين، ممثلا للإيمان النيقى ، وهذا المعنى أشار إليه سوزمنوس عند حديثه عن المجمع النيقى(٢٦٩)، وأفصح أساقفة الغرب عن ذلك فى رسالتهم التى بعثوا بها إلى الإمبراطور قسطنطيوس سنة ٣٥٩ بشان ما تم فى مجمع ريمينى(٢٧٠)، من أجل

---

(268) SVLP. SEV. Hist. sac. II, 41

(269) SOZOM. Hist. eccl. 1. 17

(٢٧٠) راجع الفصل السادس وانظر أيضا *

SOCRAT. Hist. eccl. II, 27; ATHANAS. De. Syn. 10

وكذلك THEOD. Hist. eccl. II, 15; SOZOM. Hist. eccl. IV, 8

هذا تراص أساقفة الغرب يعضدون الأسقف السكندرى ومن ورائهم وأمامهم سلطان الإمبراطور .

لقد اتشحت النيقية برداء النصر والفخار يوم دخل أثناسيوس الإسكندرية ظافرا ، ولكنه كان نصرا بزغ غاربا !





الفصل الخامس

ركيزة النضال الأثناسي



الفصل الخامس

ركيزة النضال الأثناسى

عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية بعد أن ارتحل عن الإسكندرية والدنيا جريجورى، وكانت الأحداث، على النحو الذى جرت به آنفا ، تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن الفترة القادمة (٣٤٦-٣٥٦) سوف تكون من أهم الفترات التى اعتلى فيها أثناسيوس كرسى أسقفية الإسكندرية ، فقد رجع من منفاه بعد أن استطاع أن يجمع أساقفة الغرب الإمبراطورى إلى جانبه، وتمثل ذلك بوضوح فى المجمع الذى عقده هؤلاء فى مدينة سرديكا سنة ٣٤٣، وأصدر قراره فى صالح أثناسيوس ووجوب عودته إلى كنيسة الإسكندرية، بل إن أثناسيوس تمكن أن يحصل على تأييد إمبراطور الغرب قنسطانز إلى الحد الذى دفع هذا الأخير إلى أن يبعث برسالة تهديد إلى أخيه قسطنطيوس إمبراطور الشرق يحثه فيها على ضرورة السماح لأثناسيوس بالعودة إلى كرسيه الأسقفى. هذا إلى أن السبيل أصبح ميسرا أمام الأسقف السكندرى بعد وفاة جريجورى الكبادوكى الذى كان يحتل مكان أثناسيوس طوال سبع سنوات (٣٣٨-٣٤٥)، وبعد أن أعلن قسطنطيوس عزمه على انتهاج سياسة جديدة تجاه كنيسة الإسكندرية وأسقفها، كما أفصحت عن ذلك رسائله التى عرضنا لها من قبل .

وقد حرص أثناسيوس منذ الوهلة الأولى لعودته، على أن يدعم سيادته وسلطان أسقفيته على كل كنائس مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا، ليواصل بذلك جهوده التى كان قد بذلها فى هذا السبيل خلال أسقفيتيه الأولى والثانية(١). فلم يترك مدينة واحدة مر بها على طول الطريق من بلوزيوم إلى الإسكندرية، إلا وقد أخذ يعظ الجموع فيها محذرا من التعاطف مع الآريوسيين، داعيا إياهم إلى الدخول فى شركة أولئك الذين يعترفون بالعقيدة النيقية وحدها، وقام بسيامة عدد من

---

(١) راجع الفصل الأول .

الأساقفة على بعض الكنائس الشاغرة[٢] وعلى كل من يعلم انتماءهم للآريوسية، ووضع سلطة بيعته وأمانة المعتقد النيقى في يد أنصاره[٣]، حتى إذا دخل الإسكندرية دعا على الفور أساقفة كنيسته إلى التوقيع على قرارات مجمعى سرديكا وأورشليم التى صدرت فى صالحه[٤]، حتى يعلن لخصومه تمسك الأكليروس السكندرى بأسقفهم الشرعى.

وكان طبيعيا، كما يقول جلانفيل دوانى Glanville Downey أن يظهر وسط هذه التيارات المتصارعة وتغيرات الأحداث، ووجود إمبراطورين على عرش الإمبراطورية، وتباعد الآراء العقيدية وتنافرها، نوع من رجال الدين الدنيويين، الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية شعب الكنيسة فى أسقفياتهم، بقدر ما جعلوا همهم محصورا فى المناورات الدبلوماسية داخل البلاط الإمبراطورى[٥] وهم من هذه الناحية يمثلون الأساقفة السياسيين الذى لا يتعلقون بفكر عقيدى معين، وإنما يهبون أنفسهم للفريق الذى يحقق لهم السيادة على الكنيسة بعامة. وإلى هؤلاء ينتمى فالنز أسقف مورسا، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم (فى بانونيا)، وقد علمنا من قبل[٦] انهما كانا ضمن أساقفة مجمع صور الذى أدان أثناسيوس وعزله سنة ٣٣٥، وانهما اشتركا فى لجنة التحقيق التى جاءت إلى مريوط، وشاركا بدور إيجابى فى أعمال مجمع فيليبوبوليس حيث كانا على رأس الذين رفضوا الانضمام إلى أساقفة مجمع سرديكا، وقادا جموع أساقفة الجزء الشرقى من الإمبراطورية عائدين إلى فيليبوبوليس. ورغم هذا الماضى الطويل فى الآريوسية، وحتى الان (سنة ٣٤٧)، إلا انهما هجرا فجأة ذلك الجانب، بعد أن رأيا الزمن يجرى الآن فى غير صالحه، وأسرعا يعلنان مناصرتهما للفريق النيقى. وسوف تبرهن الأحداث بعد ذلك أن الآريوسية لم تشهد مثل رجلى بانونيا هذين، سعيا من أجل رفعتها على

(2) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 24.
(3) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 21
(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 25, 26
وراجع أيضا SOCRAT. op. cit. II,26
(٥) انظر أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة الدكتور البرت بطرس، ص ٣٨ .
(٦) راجع قبله .

العقائد المسيحية الأخرى، ليس إيمانا بها يقينا، ولكن لأن الدولة أرادت للأريوسية أن تعلو على ماعداها، ولم تغب هذه الحقيقة عن ذهن المؤرخ الناقد سقراط عندما حدث عنهما قائلا : " إنهما دائما يلقيان بنفسيهما فى الجانب الذى يملك بيده النفوذ والسلطان "(٧).

وتمشيا مع هذه السياسة ظل فالنز وأورساكيوس يرقبان بحذر ما تسفر عنه اجتماعات سرديكا وما صدر فى النهاية عنها، والموقف الذى اتخذه قسطنطيوس بعد تهديدات قنسطانز له، فلما أيقنا أن كل السبل قد أصبحت مهيأة لنجاح النيقية وأثناسيوس، هرعا دون تردد يستبقان إلى روما ليعلنا على الملأ توبتهما والندامة، ويطلبان الصفح والغفران(٨)، وشفعا هذه الضراعة بالرسالة التالية:

" من أورساكيوس وفالنز إلى السيد المبارك البابا يوليوس . . . . لما كان معلوما تماما أنا من قبل سقنا الكثير من الاتهامات المجحفة ضد الأسقف أثناسيوس، وحيث إنا، عند تلقينا رسائل جودكم، لم نستطع ان نقدم تبريرا عما آتيناه مقنعا، فإننا نعترف الآن أمام بركم وفى حضرة كل رجال الكنيسة، أن كل ما طرق مسامعكم قبلا عن قضية أثناسيوس، محض زيف وافتراء، ومناف بالكلية لخلقه. ومن ثم فإننا نتحرق شوقا للدخول في شركة أثناسيوس اذا ما تعطف رحماكم، ومروءة شخصكم، فغفرتم لنا ما كان منا. بل إننا نعلن أنه إذا جاء حين رغب فيه أساقفة الشرق أو حتى أثناسيوس نفسه تقديمنا للمحاكمة، فلن نخرج على قضائك"(٩).

والرسالة إلى هذا الحد تفصح عن طبيعة أسقفى مورسا وسنجيدونوم فقد

---

(7) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 37
(8) ATHANAS. Apol. C. Arian, 58
(9) Id.
وله أيضا Hist. Arian, 26
انظر كذلك SOZOM. Hist. Eccl. III, 23

ساقا ضد الأسقف السكندرى عددا من الاتهامات، اعترفا هنا أنها ليست من الحقيقة فى شىء، وما ذلك إلا ليظهرا أمام يوليوس وأساقفة الغرب، صدق التوبة التى جاءا من أجلها. ولا شك انهما كانا يقدران أن بيعتهما تقعان فى الإقليم المتاخم لحدود قنسطانز الذى نصب من نفسه حاميا للنيقية، وانهما سيكونان أول من يقع فى يدى إمبراطور الجزء الغربى إذا ما ساق قواته لقتال أخيه دفاعا عن أثناسيوس والهوموسية تنفيذا لوعده إذا سولت لقسطنطيوس نفسه أن يتغاضى عن تنفيذ قرارات مجمع سرديكا، ولهذا أراد الأسقفان أن تكون توبتهما صريحة قاطعة فاختتما الرسالة قائلين :

" ... أما آريوس، ذلك المهرطق وبطانته، الذين يقولون أن هناك زماناً الابن فيه لم يكن، والابن من العدم جاء ولا يعرفون بأن المسيح ابن الله قبل كل الدهور، فليكونوا أناثيما... لقد كتبنا هذا بأيدينا، ونعترف إلى الأبد اننا ننكر الهرطقة الآريوسية ونمقت أصحابها.

أنا أورساكيوس الموقع على اعترافى هذا بنفسى، ومثله أنا فالنز ".

هكذا أعلن الرجلان فى دهاء ميلهما إلى جانب أثناسيوس، لقد أنكرا الآريوسية، وأنزلا اللعنة على آبائها، كما كتبا، ولكنهما لم يعترفا صراحة بالهوموسية عقيدة نيقية، ولم يقدما وثيقة إيمان يقران فيها " المساواة فى الجوهر بين الابن والآب، مثار النزاع . ومن قبل فعل هذا أساقفة القسم الشرقى فى أنطاكية فى المرسوم الأول الذى صدر عن مجمع التدشين[١٠]، اذ تبرأوا من التبعية لآريوس، ولكنهم ظلوا يؤمنون بعقيدته. وهاهما فالنز وأورساكيوس يسلكان نفس السبيل، بلعن آريوس وأصحابه، وانكار عقيدته دون الإقرار بالإيمان النيقى، فتركا لنفسيهما بذلك بابا غادا منه أدراجهما عندما انتصرت الآريوسية بعد سنة ٣٥٣. وقد تمادى الأسقفان فى مسلكهما، فبعثا إلى أثناسيوس بخطاب جاء فيه :

" من اورساكيوس وفالنز، الأسقفين، إلى الأسقف أثناسيوس السيد والأخ،

(١٠) راجع قبله .

إنا لننتهز هذه الفرصة لنرسل من أكويليا مع زميلنا موسى Musaeus القس، تحية بالود مليئة، أيها الأخ الحبيب، ضارعين أن تكون – كما نحب، في موفور الصحة حتى تقرأ خطابنا هذا، ولسوف تمنحنا الثقة إن كتبت لنا رداً لتطمئن قلوبنا بأنا وإياكم في سلام وفي شركة الكنيسة، ولترعاكم عناية الرب أيها الأخ الحبيب"(١١).

وهذا الخطاب كما يبدو منه يزيد موقفهما غموضا، وطبيعتها إيضاحا، فهو لا يتضمن أكثر من التمنيات الطيبة للأسقف السكندرى. وهو يختلف تماما عن رسالتهما إلى يوليوس، فلم يرد فيه شيء عن مسألة العقيدة، ولا لعنهما لآريوس وآرائه وأتباعه. بل الأهم من هذا كله انهما لم يذكرا لأثناسيوس، وهو أحق بهذا من يوليوس، باعتباره صاحب القضية، تبرئته من الاتهامات التى سيقت ضده وقادته إلى المنفى بعيدا، ولا شك أن هذا يفسر ما ذهبنا إليه من أن كل ما كان يعنيها استرضاء أساقفة القسم الغربى وإمبراطوره، حتى لا يفقدا فى لحظة من نزوات غضبه منصبيهما، وحتى يبدوان أمام الجميع هناك انهما ليسا داعية شقاق.

لعله مما يزيد المسألة جلاء أنهما انتهزا فرصة وجود اثنين من قساوسة أثناسيوس فى أكويليا، بطرس Peterus وايرينايوس Irenaeus ، يحملان رسائل السلام التى بعث بها الأسقف السكندرى إلى عموم الأساقفة بعد عودته إلى الإسكندرية، فوقعا عليها دون توان(١٢)، على الرغم من أن أثناسيوس نفسه، على حد تعبيره لم يبعث أليهما شخصيا شيئا من هذه الرسائل، ولا أعطاهما شركة الكنيسة(١٣). ويبدو أن أثناسيوس قد قبل من الأسقفين شعورهما هذا(١٤)، وراح يشيد بالسلام الذى أظل الكنيسة بعد أن حرمت منه فترة ليست بالقصيرة(١٥)، ولكن

(11) ATHANAS. Apol. C. Arian. 58
وله كذلك Hist. Arian . 26
وأيضا HILAR. Fragm, 1I 20 (P. L, X646)
وانظر أيضا SOZOM. Hist. Eccl. III,24
(12) ATHANAS. Hist. Arian.26
(13) Id.
(14) ATHANAS. Apol. C. Arian.58
(15) ATHANAS. Hist. A rian.27

سقراط يعلق على هذه الواقعة بسخريته اللاذعة قائلا[١٦]. " هكذا أذعن أورساكيوس وفالنز فى هذه الفترة بالذات لقدر أثناسيوس المنتصر " .

انصرف أثناسيوس لمباشرة شئون كنيسته ورعايتها[١٧]، يشد من أزره داخل مصر جماعات الاكليروس المؤيد التى لم تتخل عن أسقفها أثناء نفيه، وتحملت فى سبيل ذلك النفى أو المصادرة من جانب حاكم مصر فيلاجروس والأسقف الكبادوكى جريجورى[١٨].

غير أن القوة الحقيقية التى ارتكز عليها أثناسيوس الآن، كانت تتمثل فى هؤلاء الآلاف من الرهبان الذين تمتلئ بهم صحراء مصر، وذلك النفوذ الكبير والتأثير العميق الذى يتركه أولاء فى نفوس جموع المسيحيين فى عصر وجدت فيها روايات المعجزات سبيلها إلى أفئدة البسطاء، والاعتقاد الكامل لدى العامة بالذات أن الرهبان هم أكثر الناس حظا فى هذا الميدان[١٩]، وسوف نعرض هنا للقيمة الحقيقية التى يمثلها هؤلاء[٢٠] وما كان يحمله الأسقف السكندرى للرهبان من تقدير، والولاء الكامل الذى يكنه هؤلاء لأثناسيوس، وكيف أفادت أسقفية الإسكندرية من هذا الترابط الوثيق بين الأسقف والرهبان[٢١] حتى لقد

---

(16) SOCRAT. Hist. Eccl. II,24
(17) FEST. IND. XVIII-XXII
(١٨) راجع الفصل الثانى.
(19) ATHANAS. Vita. Ant. 51-54
(20) French. The Eastern Orthodox Church, p. 136
وراجع Hulme, The Middle Ages, p.33
وأيضا Cantor, op. cit. P. 184
وراجع أيضا Lot, histoire du Moyen Age, 1, p. 336
وانظر كذلك Painter, history of the Middle Ages, p. 18
وكذلك Kidd, op. cit. II, p.104
(٢١) ليس هنا مجال الخوض فى حديث عن نظام الرهبانية فى مصر. ونشأته بالتفصيل. سواء فى شكله التوحدى فى الصوامع، أو الجماعى فى الأديرة. ذلك النسق من الحياة الذى كانت مصر أول مناطق العالم المسيحى فى القرون الميلادية الأولى التى اتجهت إليه، كما ان الأسباب التى أدت إلى وجود هذا النظام على تعددها وكثرتها ليست مما يندرج ضمن موضوع بحثنا هذا فذلك كله يحتاج إلى دراسة خاصة ومستفيضة. راجع للمؤلف – ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى، الفصل الأول ، وله أيضا ، الفكر المصرى فى العصر المسيحى الفصل الرابع .

أضحى هؤلاء العماد الثانى والأهم الذى أقام عليه أثناسيوس خطته فى نزاعه مع الأباطرة، بعد أن يفقد الغرب عندما ينجح الإمبراطور قسطنطيوس فى فرض سيادته على الإمبراطورية كلها عام ٣٥٣.

يخبرنا جيروم فى دراسة ممتعة عن أول الرهبان المسيحيين فى مصر، أن بولس كان ذلك الرجل، رغم اعتقاد الكثيرين، حسب قوله، أن انطونيوس هو الذى سبق الجميع فى هذا الميدان، ويدلل على صدق رأيه بما رواه له اثنان من تلامذة انطونيوس نفسه وهما أماتاس Amathas ومقار Macarius(٢٢). من أن بولس، الذى كان أحد أبناء طيبة، هرب بنفسه إلى الصحراء زمن اضطهاد دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) وفاليريان Valerianus (٢٥٣-٢٦٠)(٢٣) ويذكر جيروم أن انطونيوس كان يحمل الاعتقاد انه أول من سلك هذا السبيل إلى أن علم بعد ذلك بوجود بولس فارتحل للقائه(٢٤). ويضيف جيروم أن انطونيوس تملكته الدهشة عندما أخبره بولس بمعرفته بالأسقف السكندرى أثناسيوس وإعجابه بشخصه(٢٥)، ويقول ميتدنا، اذا كان بولس هو أول من وضع نسق هذه الحياة فإن انطونيوس يعد المؤسس الحقيقى والرائد لنظام الرهبانية "(٢٦).

وقد ترك أثناسيوس صورة مثالية للحياة النسكية المسيحية تعد فى رأى معظم المؤرخين(٢٧) نموذجا رائعا لحياة الرهبان ضمنها كتابه عن حياة القديس انطونيوس Vita S. Antonii الذى وضعه فى الفترة ما بين عامى ٣٥٦-٣٦٢، ويقدم فيه وصفا شيقا عن نشأة انطونيوس وفضائله واختياره طريق الزهد

---

(22) HIER. Vita Pauli, 1
(23) Ibid. 4-6
(24) Ibid. 7-10.
(25) HIER. Vita Pauli, 12
(26) Ibid. 1
(27) Artz, op. cit. P. 116
وراجع كذلك Cantor, op. cit. P. 184
وأيضا Vasiliev, op. cit. 1, p. 121

والعزلة[٢٨] ويحدث في فصول كثيرة[٢٩] بعد ذلك عن المعجزات التي أتى بها، مما دفع بعض المؤرخين[٣٠] إلى اعتبار ذلك نقصا يعتور قيمة الكتاب، وصفحات الكتاب كلها تدل بوضوح على ذلك القدر الكبير من الإعجاب الذى يعتمل في نفس الأسقف تجاه الرهبانية والنسكية، والاحترام الخالص لأبى الرهبان انطونيوس.

ويتفق الدارسون على أن "حياة أنطونيوس" كان له أكبر الأثر في وقوف العالم المسيحي على هذا النسق من الحياة، وانتشاره من مصر إلى الخارج[٣١]، إلى الحد الذى لم يحظ كتاب آنذاك بمثل ما حظيت به هذه الترجمة من التقدير والانتشار وخاصة في مصر وغرب آسيا وأوربا[٣٢] وقد نال أنطونيوس شهرة فائقة وسرت سمعته عبر صحارى مصر كلها على حد تعبير سوزومنوس[٣٣]، حتى لقد كان، كما يصفه جيروم على لسان كل انسان في مصر[٣٤]، ولما كان أنطونيوس من أسرة مصرية صميمة[٣٥]، ولا يعرف اليونانية[٣٦] لغة الحديث والثقافة في تلك الفترة فقد جعله ذلك قريبا إلى الأفئدة على امتداد النهر من طيبة إلى فم النيل، وجذبت طرائق الحياة التى ارتضاها، إليه هؤلاء، وأيضا أولئك الذين يحدثون باليونانية[٣٧] وهنا تكمن أهمية الرجل واعتزاز أثناسيوس به إلى الحد الذى

---

(28) ATHANAS. Vita Ant. 1-4, 67, 68, 93
(29) Ibid. 5-12, 51-54, 57-66
(30) Artz, op. cit. p. 30
(31) Neander, Christian religion and Church, 111 p. 367

وراجع :
Kidd. op. cit. 11, p. 104; Lot, op. cit. 1, p. 336; Painter, op. cit. p. 18;
وراجع كذلك
Vasiliev, op. cit. 1, p. 121
وأيضا :
Stanley, op. cit. P. 229; Hardy. op. cit. P. 59

(32) Waddell, The desert Fathers, p.2
(33) SOZOM. Hist. Eccl. I, 13
(34) HIER. Vita Hilar. 3
(35) ATHANAS. Vita Ant. 1
(36) Ibid. 72
(37) Ibid. 70

سار فى ركبه مودعا حتى أبواب المدينة[٣٨] عندما جاء انطونيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٣٨ ليشد من أزر أسقفها فى صراعه مع الآريوسيين، بل لقد كتب انطونيوس إلى قسطنطين من أجل أثناسيوس[٣٩].

وإذا كان أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها الحقيقى فإن باخوم Pachomius (٢٩٢-٣٤٦) يعتبر واضع أسس النظام الديرانى[٤٠]، حقيقة كان أنطونيوس فى بدء اختياره لهذا الطريق متوحدا[٤١]، ولكن جماعات المريدين والرهبان تكاثروا من حوله، وانتشرت الصوامع حيث كان يقيم[٤٢]، غير أن باخوم هو الذى وضع لهذه الحياة الرهبانية نظمها وطرائقها، واستطاع أن يحول المظهر المتفرق للدافع النسكى إلى شكل منظم للحياة الجماعية[٤٣]. وقد أورد سوزومنوس تفصيلا كاملا للأسس التى كانت تقوم عليها العلاقات بين أفراد الدير الباخومى فى طابنا Tabennesi (قرب أخميم Panopolis)، والواجبات التى يلتزم بها كل منهم تجاه الآخرين[٤٤]، ويقول أن باخوم قد قسم جماعته التى تحيط به والتى يبلغ عددها نحو ألف وثلاثمائة إلى أربع وعشرين مجموعة، ميز كلا منها بحرف من الأبجدية اليونانية[٤٥]، ويضيف ومعه بالاديوس Palladius أن هؤلاء الرهبان الطابنيين قد قاربوا بعد ذلك الآلاف السبعة[٤٦]. ومن حديث سوزومنوس نتبين أن

---

(38) Ibid. 71

(٣٩) راجع قبله.

(40) Bullough. Roman Catholicism, p. 245
وأيضا Ware, The Orthodox church, p. 45, 6
وراجع كذلك O'Leary, op. cit. 319

(41) ATHANAS. Vita Ant. 14

(42) Ibid. 15

(43) Robertson, op. cit. p. 84.

(44) SOZOM. Hist. Eccl. III, 41

(45) PALLAD. Hist. Laus. 31-34 ,Id.

(46) SOZOM. Loc. cit.
وأيضا PALLAD. Loc. cit

النظام الباخومى كان يشبه إلى حد كبير التشكيلات العسكرية فى بقتها وانضباطها[٤٧]، ويعلق على ذلك بقوله :

" لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون إلى مجتمع طابنا باعتباره الأم، ويرون فى قواعده آباءهم والأمراء[٤٨]".

وكان باخوم معاصرا لأثناسيوس، وإن كان قد مات سنة ٣٤٦، وهو العام الذى عاد فيه الأسقف إلى الإسكندرية بعد نفيه الثانى، ولكن أثناسيوس أفاد من هذا النظام الدقيق الذى وضعه باخوم للرهبان[٤٩]. وتمثل ذلك واضحا خلال مراحل النفى الثلاث الأخيرة التى تعرض لها الأسقف السكندرى وفى منطقة وادى النطرون Nitria أسس الراهب آمون Ammon ديرا آخر،سرعان ما تقاطر إليه الكثيرون ممن ارتضوا هذه الحياة، حتى امتلأ بهم الوادى[٥٠] يحدهم جيروم بخمسه آلاف راهب[٥١].

ولما كانت هذه الجماعة أقربها إلى الإسكندرية، فقد وجد فيها أثناسيوس ملجأ آمنا يحتمى به إبان الاضطرابات التي عانى منها، نتيجة عداء الآريوسيين والإمبراطور، بل كان قادرا من هناك على أن يراقب سير الأمور فى أسقفية الإسكندرية[٥٢]، ومما يرويه بالاديوس فى تاريخه[٥٣]، ندرك تلك القوة الهائلة التى كان يشكلها أولئك الرهبان، بحماستهم الشديدة وغيرتهم الدينية وصلابة أرواحهم، وإلى جوار هذا كله أعدادهم الهائلة على امتداد صحراء مصر.

---

(47) SOZOM. Hist. eccl. III, 41
وراجع أيضا O'leary, op. cit. p. 319
وكذلك Kidd, op. cit. II, p. 104
(48) SOZOM. Hist. Eccl. III, 14
(49) Budge, Stories of the holy Fatheres, p. 51
(50) SOZOM. op. cit. IV. 23
(51) HIER. Ep. XXII. 33-36
(52) O'leary. op. cit. P. 323
(53) PALLAD. Hist. Laus.

ففى المناطق المجاورة للإسكندرية كان عدد الذين التقى بهم ألفى راهب. وفى وادى النطرون خمسة آلاف ومثلهم فى البهنسا Oxyrhynchus داخل المدينة، ومثلهم خارجها، وفى ليكوس Lycus (قرب أسيوط Lycopolis) مجتمع ضخم لا يذكر لنا عدده، وتضم الأديرة الباخومية فى طابنا سبعة آلاف، أما مدينة "انطينوى" Antinoe (الشيخ عبادة حاليا) فيسكنها ما يزيد على اثنى عشر ألف راهب، ويخص منطقة النطرون بالأهمية.

ويعلق بودج Budge على ما يرويه باللاديوس بانه لو صدقت أحاديثه عن أعداد أولئك الرجال فى كل هذه المناطق، لبدا على الفور واضحا أن هذا الجمع الضخم من الرهبان المصريين يشكل جيشا حقيقيا، وقوة كافية لمقاومة أى إجراء غير شعبى قد تصدره الحكومة الإمبراطورية[٥٤]، يحتمون فى ذلك بهذه الأديرة التى تحميها الأسوار العالية والبوابات الضخمة، فقد كانت نزلهم هذه تجمع فى شكلها العام صفتى الدين والقلعة، يمثل أطلالها الآن دير القديس سمعان بالقرب من أسوان[٥٥]، ويضيف أوليرى O'Leary أن الرهبان زمن أثناسيوس كانوا الحلفاء المخلصين للأسقف السكندرى فى صراعه مع الآريوسية، وكان رهبان النطرون أكثر من غيرهم ارتباطا بهذه الأحداث، وكثيرا ما وجدت فيهم سلطات الإسكندرية مصدرا للمتاعب[٥٦].

وتأتى هذه الأهمية، كما أسلفنا لقرب المنطقة من الإسكندرية، وقد كان أثناسيوس حريصا تماما على أن يضمن ولاء الجهات المحيطة بالمدينة، ولعل أبلغ الأدلة على ذلك تلك الرسالة التى تعد من أشهر ما خلفه أثناسيوس، وبعث بها إلى أحد الرهبان ويدعى دراكونتيوس Epistola ad Dracontium عندما رفض قبول رسامته على دمنهور Hermopolis Parva وجاء ذلك فى عام٣٥٤ أو ٣٥٥على أبواب نذر السوء المتوقعة للأسقف السكندرى[٥٧]، وقد لامه فيها بصورة

(54) Budge. op. cit. 51
(55) Id.
(56) O'Leary, op. cit. p. 327

(٥٧) انظر بعده

عنيفة لهذا الموقف الذى اتخذه، وحثه على الطاعة حتى لا يدع الفرصة للخصوم لتولى مقاليد هذه المنطقة الهامة(٥٨).

ولما كانت حركة الاضطهادات العامة والعنيفة التى تعرض لها المسيحيون على عهد الإمبراطورين دكيوس وفاليريان، دافعا أساسيا، إلى جانب الرغبة فى محاكاة المسيح وتفسير الكتاب المقدس بصورة حرفية، إلى فرار عدد كبير من المسيحيين إلى الفيافى والقفار هروبا بالعقيدة، وخلاصا للروح كما يحدث بذلك الأسقف السكندرى ديونيسيوس(٥٩)وجيروم(٦٠)، فقد حمل هؤلاء معهم فى رحلة الزهد، العداء الكامن لسلطان الإمبراطورية التى كانت تنظر إليهم فى الوقت ذاته بعين الريبة، باعتبار مسلكهم هذا خروجا على سلطة الدولة وعزوفا عن المشاركة فى الحياة العامة وواجبات الأفراد تجاه الدولة(٦١).

ولما كان هؤلاء الرهبان مصريين خلصاء، ولم يتأثروا باليونانية لغة ولا الهلنستية ثقافة، فقد ظلوا على الولاء للغتهم الأصلية وثقافتهم المصرية(٦٢)، ونظروا أيضا من هذه الزاوية نظرة الكراهية لهؤلاء المضطهدين باعتبارهم أجانب عن هذه البلاد دخلاء، يمثلون سيادة غريبة مقيتة، أثقلت كواهلهم بالضرائب(٦٣) وهى الآن تحاول صرفهم كرها عن عقيدة وجدوا فيها العزاء عن واقع القسوة الذى يعيشون، من جراء الحروب الأهلية و الأزمات الاقتصادية التى كانت تكابدها الإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن الثالث للميلاد.

ولما كانت الإسكندرية هى قصد الاضطهاد الوثنى وهدفه، فقد أصبحت محورا التف حوله هؤلاء الضاربون فى الفلوات، ووجدت الكنيسة فيهم هى

---

(58) ATHANAS. Ep. Ad. Dracont. 1-2,6
(59) EVSEB. Hist. Eccl. VI, 42
(60) HIER. Vita Pauli, 2-6
(61) Hardy, op. cit. P. 37
(62) Aymard. Histoire génerale des civilisations. II. P. 556
وراجع O'Leary, op. cit. 318
وأيضا Stanley op. cit. 130
(63) Cantor. op. cit. P. 48

الأخرى نعم النصير، وحتى بعد أن انقشعت غيوم الاضطهاد، فجأت الكنيسة آراء آريوس فازداد الرهبان ارتباطا بالكنيسة وازدادت هى قربا. وكانت معرفة أثناسيوس باللغة المصرية، لسان الرهبان، أسرع وسيلة، كما يقول أحد المؤرخين(٦٤) لإيجاد الألفة العميقة والمودة الصادقة بين الكنيسة والرهبان. ولقد تبدى ذلك جليا فى تلك الأمثلة التى قدمناها عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربط بين أثناسيوس وانطونيوس ومن ورائه كل هذه الجموع، نضيف إليها أن أثناسيوس عند ارتحاله إلى روما مكرها سنة ٣٣٩ لم يصطحب معه إلا اثنين كانوا من الرهبان أحدهما يدعى آمون، يحدثنا عنه سقراط(٦٥) فى خشوع ووقار.

هذا بالإضافة إلى أن رهبان مصر كانوا يشاركون أساقفة الغرب ذلك الإيمان السلفى والحرص على عقيدة الآباء، كما رأى الاكليروس الغربى فى أثناسيوس تابعا أمينا للكنيسة الأولى، يقدم لهم المعتقد دون إعمال للفكر ، ولذا حاز أثناسيوس ثقتهم فى الوقت الذى بدت الآريوسية فى أعينهم غريبة، ولدى النفوس مقيتة، فقد كانت فوق طاقة فكرهم وثقافتهم، اذ تعتمد العقل والمنطق منهاجا. وقد أفصح أثناسيوس(٦٦) عن هذا المعنى صراحة فى حديثه عن أبى الرهبان أنطونيوس، وسوف ترينا الأحداث من بعد تلك الجهود التى بذلها الآريوسيين للفوز بنصرة أولئك الجموع وتأييدهم ولكن دون جدوى.

ولاشك أن الرهبان قد وجدوا فى شخص أثناسيوس تجسيدا عما يعتمل فى نفوسهم من عداء نحو السلطة الإمبراطورية بعد أن وقف يجابه تحدياتها، وفى صوامع الرهبان والأديرة الممتدة على شطآن النيل وعبر الصحراء، كان أثناسيوس يستقبل بالحفاوة عندما تضيق به العاصمة. وهكذا وضع أثناسيوس نفسه، على حد تعبير نفر من الدارسين(٦٧)، على رأس الحركة الرهبانية، بل إن جريجورى

---

(64) Hardy, op. cit. P. 74
(65) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 23
(66) ATHANAS. Vita Ant. 72-73
(67) Robertson. op. cit. P. 48
وراجع Kidd. op. cit. II, P. 195

النازبانزى يذهب إلى أن أثناسيوس وضع من خلال رواية حياة انطونيوس قوانين الحياة الديرية[٦٨]، ولا جدال أن التطور السريع فى نظام الرهبانية المصرية، والحماس الدافق الذى كسبه أثناسيوس من هؤلاء الغيورين، يأتى فى المرتبة الأولى بين الأسباب التى أدت إلى تقوية مركز أثناسيوس فى الأسقفية وتدعيمه[٦٩]. وكان الرهبان السر الحقيقى وراء الحيوية والنشاط الذى بدا على الأسقف السكندرى أثناء فترة نفيه الثالث[٧٠]، وكان هذا راجعا دون شك إلى جهده الرائع فى تنظيم هذه القوة(٧١). وقد تمثل ذلك تماما عندما أخذ أثناسيوس يملأ الأسقفيات الشاغرة بأصدقائه الرهبان، سرابيون فى تمى (الأمديد) Thmuis وبولس فى اسنا Latopolis ومويس - Muitus (Muis) فى طيبة العليا وغيرهم فى أماكن أخرى[٧٢] وما لبث الرهبان حين عاد أثناسيوس سنة ٣٤٦ أن أرسلوا إلى الإسكندرية وفدا من جماعة طابنا ليشارك فى إحدى احتفالات المدينة باستقبال الأسقف السكندرى وحمل الوفد رسالة تهنئة بسلامة العودة من أبى الرهبان انطونيوس[٧٣].

وشاءت الأقدار أن تسعى لأثناسيوس بالحظ دفعة واحدة، فيحدثنا روفينوس[٧٤]ويتابعه سقراط[٧٥]، وسوزمنوس[٧٦] وثيودوريت[٧٧]عن قصة ذلك الشاب

(68) GREG. NAZ. Orat. XXI, 5
(69) Robertson. op. cit. P. 48
وراجع Kidd. op. cit. 105
وأيضا Stanley. op. cit. P. 229
(٧٠) انظر بعده .
(71) Robertson. op. cit. P. 48
وراجع Kidd, op. cit. P. 106
(72) ATHANAS. Ep. Ad. Dracont. 7
(73) KIDD, op. cit.. P. 105
وراجع Robertson. op. cit. 48
(74) RVFIN. Hist. Eccl. I,9 (P. L. XXI478-480)
(75) SOCRAT. Hist. Eccl. I, 19
(76) SOZOM. Hist. Eccl. II, 24
(77) THEOD. Hist. Eccl. I, 22

الصورى فرومنتيوس Frumentius (٧٨) الذى كان يعمل فى بلاط ملك أكسوم Auxuma وجاء إلى الإسكندرية وعرض على أثناسيوس حالة هذه المنطقة وحاجتها إلى كنيسة وراع، وأدرك أثناسيوس على الفور، حسب تعبير سقراط، كم يبدو ذلك عظيم الأثر والنفع، وأيقن انه ليس هناك من يصلح لمثل هذه المهمة سوى فرومنتيوس نفسه الذى وقف على طبيعة أهلها وتعرف إليهم ، ومن ثم رسمه أسقفا، وبهذه الأهلية عاد فرومنتيوس ليصبح أول أسقف على كنيسة الحبشة، وقد تم رسمه على يد أسقف الإسكندرية. وسواء صدقت الرواية أم تدخلت الأسطورة فى بعض أحداثها، فالذي لاشك فيه أن الكنيسة المسيحية فى الحبشة قد تلقت أول سياسة لها بالأسقفية من كنيسة الإسكندرية، وأن فرومنتيوس كان أول أساقفتها، وان اثناسيوس هو الذى قام بترسيمه.

ويختلف الدارسون حول الفترة التى وقعت فيها هذه الأحداث، فيرى بعض(٧٩) انها حدثت فى أول عهد أثناسيوس بالأسقفية، ويرجح آخرون(٨٠) أن ذلك ربما كان فى عام ٣٤٠. ونحن نعلم أن أثناسيوس قضى السنوات السبع الأولى من أسقفيته (٣٢٨-٣٣٥) متنقلا بين القسطنطينية والإسكندرية وصور ثم القسطنطينية ثانية حيث صدر قرار نفيه الأول، كما أن الجهود التى بذلها وهو يذرع مصر جيئة وذهابا من أجل تدعيم سلطان أسقفيته، وجهوده المضنية ضد التحالف المليتى

---

(٧٨) يذكر مؤرخو الكنيسة هؤلاء أن رجلا من صور يدعى ميروبيوس Meropius وفى صحبته صبيان هما اديسيوس Edesius وفرومنتيوس ذهبوا فى تجارة فى المحيط الهندى وأثناء عودتهم ألقت السفينة مراسيها اضطرارا على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر، حيث وقع الجميع أسري في أيدى أهالي هذه المنطقة، ولقيت القافلة مصرعها، وتشفع غض العمر للصبيين فشفع لهما وقدما هدية لملك الحبشة وعملا فى خدمته، أما أحدهما فيسقى ربه خمرا، وأما الآخر، فرومنتيوس فكان لدى الملك أثيرا لما بدا عليه من سمات الورع والتقوى. وراح فرومنتيوس يختلط إلى التجار المسيحيين القادمين إلى أكسوم ويسعى وإياهم لنشر المسيحية فى هذه المنطقة. فلما تاقت إلى الديار نفساهما وسمح لهما بذلك، أقلع اديسيوس إلى صور، على حين قدم فرومنتيوس إلى الإسكندرية.

(79) Robertson. op. cit. 48.

(80) Atiya, op. cit. P. 51.

وراجع: Hyatt, The Chyrch of Abyssinia,p. 31

الآريوسى، كل ذلك لم يكن يسمح له بأن يبسط رعايته على إقليم جديد، ولو فعل ذلك لاستغلها اليوسابيون ووجهوا إليه بها اتهاما، كما سيفعلون بعد قليل حين عودته من نفيه الثانى عندما اتهموه برسم أساقفة فى مناطق ذكروا أنها لا تخضع لسلطانه فى طريقه من بلوزيوم إلى الإسكندرية(٨١) أما القول بعام ٣٤٠ فلا يمكن التسليم به. فقد أسلفنا أن أثناسيوس كان قد غادر الإسكندرية إلى روما سنة ٣٣٩ ولم تقع عملية ترسيم فرومنتيوس فى روما بل فى الإسكندرية، هذا من ناحية، والأخرى أن قسطنطيوس بعد نفيه أثناسيوس للمرة الثالثة (سنة ٣٥٦) كتب إلى عيزان Aezannes ملك أكسوم يطلب إليه أن يرسل فرومنتيوس ليتلقى رسامته على يد الأسقف الجديد جورج(٨٢) Georgius الذى خلف أثناسيوس، ولو أن أثناسيوس كان قد رسم فرومنتيوس سنة ٣٤٠، لكان قسطنطيوس قد طلب إلى فرومنتيوس أن يرسم ثانية على يد جريجورى الكبادوكى وليس جورج، ومن ثم نرى حدوث هذه الواقعة أمرا مقبولا فى السنوات الأولى (٣٤٧-٣٤٩) بعد عودة أثناسيوس من نفيه الثانى.

على أن ما يعنينا من وراء هذا أن أثناسيوس قد كسب بذلك الحادث أرضا جديدة أبعد عمقا، يستطيع أن يعتمد عليها إذا ما تجدد الصراع مع خصومه فى العقيدة وإمبراطور الشرق قسطنطيوس، وكانت ضفاف النيل والصحراء على امتدادها من عند أثناسيوس إلى فرومنتيوس تمتلئ بأشد أنصار أثناسيوس حماسة وغيره، وغدا الأسقف السكندرى الآن فى أمر العقيدة سيد مصر والمدن الخمس الغربية، وصاحب النفوذ فى ليبيا والحبشة بلا منازع، هذا بالإضافة إلى أن اكليروس هذه المناطق قد أعطى توقيعاته على قرارات مجمع سرديكا، وأظهر فالنز وأورساكيوس ندمهما وتابا، وتوارى خصوم الأسقف، وأذعن لإرادة القهر قسطنطيوس وساد الكنيسة سلام.

---

(81) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 24
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. III, 21
(82) ATHANAS. Apol. ad. Const. 31

خلال هذه السنوات (٣٤٦-٣٥٦) أمسك أثناسيوس قلمه، وكتب عددا من أشهر أعماله، فأخرج فى سنة ٣٥٠-٣٥١[٨٣] دفاعه ضد الآريوسيين Apologia Contra Arianos، الذي يعد المصدر الرئيسي لتاريخ الكنيسة فى النصف الأول من القرن الرابع[٨٤]، ويعتبر ملفا كاملا للوثائق التاريخية الهامة التى حرص أثناسيوس على إبرازها للتدليل على براءته من الاتهامات التى رماه بها التحالف المليتى اليوسابى. وكان أثناسيوس غاية فى الذكاء عند ترتيبه لهذه الوثائق فى مجال الدفاع، وهذا الترتيب في حد ذاته يجيء دليلا عمليا على النهج الذى سار عليه الأسقف فى مواجهته لهؤلاء الخصوم ومن ورائهم السلطة الإمبراطورية. بدأ أثناسيوس عمله برسالة مجمع الإسكندرية سنة ٣٣٨/٣٣٩ إلى عموم الأساقفة[٨٥]، فوضع بهذا بادئ ذى بدء أمام الجميع شهادة الإكليروس المصرى، وثنى ذلك بالخروج من النطاق المحلى، إلى أساقفة إيطاليا ممثلين فى مجمع روما ٣٤٠، وقد أدلوا بشهادتهم على لسان يوليوس أسقف روما فى رسالته إلى أساقفة الشرق[٨٦]، فضم بذلك إلى أصوات الإكليروس السكندرى إكليروس كنيسة روما. ثم أردف بعدئذ المرحلة الثالثة وهى أهمها على الإطلاق، حيث وقف إلى جواره عالم الغرب جميعا وقد التقى أساقفته فى سرديكا سنة ٣٤٣، وقدم الوثائق الثلاث التى صدرت عن المجمع، وهى رسائله إلى كنيسة الإسكندرية[٨٧]، وأساقفة مصر وليبيا[٨٨]، ثم الرسالة إلى عموم الأساقفة[٨٩].

---

(83) Cavallera. op. cit. 12
وراجع Bardennwer. op. cit. II, p.
وأيضا Kidd. op. cit. 11. P. 107
(84) Robertson. op. cit. P. 97
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 108
(85) ATHANAS. Apol. C. Arian. 3-19
(86) Ibid. 20-35 .
(87) Apol. C. Arian. 36-40 .
(88) Ibid. 41-43
(89) Ibid. 44-50

وبهذا التسلسل المنطقى المتسم بالحصافة قدم أثناسيوس أدلة تبرئته فى شكل وثائقى، ولما كان يدرك أن قرارات الأساقفة مهما بلغت قوتها، تصبح عديمة الجدوى دون تأييد سلطة الدولة، وأن أساقفة الشرق ومتهميه لا يعيرون ذلك كله التفاتا دون عون الإمبراطور، فقد أعقب وثائق سرديكا مباشرة برسائل قسطنطيوس إليه فى أكويليا[٩٠]، حتى لا يدع الفرصة أمام اليوسابيين لاتهامه من جديد انه عاد إلى أسقفيته بصورة غير شرعية كما حدث عند عودته سنة ٣٣٧، فهو قد جاء الان بناء على قرار مجمعى روما وسرديكا وبإذن من إمبراطور الغرب وبدعوة من قسطنطيوس، ثم يضم أثناسيوس إلى كل هذه الأدلة خطابات التوصية التى حملها من يوليوس عندما غادر روما[٩١] وتلك التى حمله إياها قسطنطيوس عند لقائه معه فى أنطاكية[٩٢]، ومن أساقفة مجمع أورشليم[٩٣]، وببراعة المدافع الماهر الفطن أيقن أثناسيوس انه ليس أروع من أن يختم الجزء الأول من دفاعه، الذى انصب فقط على السنوات الثمانى الأخيرة (٣٣٩-٣٤٧)، بإيراد شهادة اثنين من زعماء الخصوم أنفسهم، حتى لو جاءت ماكرة غامضة، فقدم رسالتى[٩٤]، فالنز وأورساكيوس إلى يوليوس واليه واللتين أوردناهما آنفا.

وقد يكون الواقع التاريخى ومجرى الأحداث هو الذى أوحى إلى أثناسيوس بترتيب دفاعه على هذا النحو، ولكن لانها كانت مشكلته التى يعانى منها وقضية الساعة، فقد أراد لها أثناسيوس أن تكون كذلك، ففى النصف الثانى من دفاعه هذا يعرض بالوثائق أيضا علاقته مع الإمبراطور قسطنطين الكبير، وصراعه مع اليوسابيين، وهذا الجزء من دفاع أثناسيوس على جانب من الأهمية التاريخية كبير، إذ يعرض فى مؤلفه هذا للأحداث التى وقعت من قبل عقد مجمع صور سنة ٣٣٥،

(90) Ibid. 51
(91) Ibid. 52
(93) Ibid. 44-56
(93) Ibid. 57
(94) Ibid. 58

ورسائل[٩٥] الإمبراطور قسطنطين إليه، واعترافات الخصوم وخاصة ايسخيراس[٩٦] Ischyras وأرسينيوس[٩٧]، ثم يقدم دراسة وثائقية للأحداث التى واكبت المجمع الصورى، وشهادات البراءة التى كتبت فى صالحه من جميع أساقفة مصر[٩٨] واكليروس مريوط[٩٩]، واسكندر أسقف سالونيك[١٠٠] ويورد بعد ذلك رسالة قسطنطين إلى المجمع والتى يخبرنا فيها الإمبراطور بسماعه لظلامة أثناسيوس ودعوته الأساقفة لتقديم تقرير عن الإجراءات التى اتخذوها ضد الأسقف السكندرى[١٠١]، ثم الخطاب الذى بعث به مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ إلى الإسكندرية بشأن قبول آريوس فى شركة الكنيسة[١٠٢].

ويبدو أن أثناسيوس أراد بوضع هذه الوثائق فى النصف الثانى من دفاعه، أن يمحو من أذهان الأساقفة جميعا، ما قد يكون لإزال عالقا حول الاتهامات السابقة التى وجهت إليه زمن قسطنطين الكبير، وهكذا تجلت حصافته، كما أشرنا، فى أنه عرض أولا بالوثائق لمجريات الأحداث التى تزيل من النفوس سحابات الشك حول الأسقف، بإقرار أساقفة مصر والغرب بعامة وبعض من فلسطين، ولا بأس بعد ذلك من أن يقف الجميع على براءته كذلك أيام قسطنطين، ولعله بذلك يريد أن يقول، إنه على الرغم من اعترافات الخصوم انفسهم بزيف ما قدموه، فقد تعرض لنقمة الإمبراطور وتم نفيه، ولعله أيضا كان مقتنعا بما جاء فى رسالة قسطنطين الثانى من أن هذا النفى ما جاء إلا تخليصا له من أيدى اليوسابيين. وقد ناقشنا هذه

---

(95) ATHANAS. Apol. C. Arian. 61-68
(96) Ibid. 64
(97) Ibid. 69

وراجع للمؤلف : الدولة والكنيسة جـ٢ ص٢٤٥-٢٤٧

(98) Ibid. 64
(99) Ibid. 74, 75, 76,
(100) Ibid. 80

عن هذه الأحداث جميعها راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ، جـ٢ . الفصل السادس .

(101) Ibid. 86
(102) Ibid. 84

المسألة من قبل. ولذلك رأى أثناسيوس أن خير ما يختم به دفاعه كلية هي رسالة قسطنطين هذه إلي الإسكندرية والتى حمله إياها إلى بيعته.

هكذا حرص أثناسيوس منذ الوهلة الأولى التى خطا فيها أول خطوة على أرض مصر عائدا من الغرب، على أن يدعم نفوذه ويثبت سلطانه. وكان رهبان مصر، بمصريتهم الخالصة وإيمانهم السلفى البسيط وحرصهم على تحدى سلطان روما، يمثلون حجر الزاوية فى قوة أثناسيوس، وسلاحه الماضى الذى أرهق به خصومه الألداء .. قسطنطيوس وجوليان وفالنز أباطرة الرومان، حتى انه يمكن القول صراحة، أنه لولا رهبان مصر، لما تمكن الأسقف السكندرى من التصدى طيلة هذه السنوات للسلطة الإمبراطورية دفاعا عن كرسيه والعقيدة.

ولم يفت أثناسيوس أن يدعم هذه القوة بسلاح الكلمة، فوضع قرابة الأربعين عملا، ما بين كتاب ورسالة وخطبة ومقال. شحذ فيها قلمه وفكره للرد على خصومة الآريوسيين، وتجنيد الأنصار الخلصاء من رجال الأكليروس. وضمن هذه الكتابات عددا كبيرا من الوثائق الهامة، وإن كان أثناسيوس لم يترك عملا عقائديا خالصا.



الفصل السادس

السلام القلق



الفصل السادس

السلام القلق

خيل لأثناسيوس أن الأمور بذلك أصبحت ملك يمينه، فالغرب بإمبراطوره واكليروسه من أجله يهدد سيد الشرق ويتوعد، ومصر برهبانها ورجال الدين في كنيستها تحمل له الإخلاص والولاء، وقسطنطيوس يظهر المودة والرضى . وحسب أثناسيوس أن السلام لن يلبث أن يبسط على الكنيسة جناحيه، ولكن الأقدار كانت تخبئ له ما لم يدر بخلده أبداً.

إذ ما كاد ينتهي من كتابة دفاعه هذا ضد الآريوسيين، أو حتى قبل أن يتمه، حتى حملت إليه الأنباء خبر موت قنسطانز. وكان قنسطانز قد تصدى بشجاعة للدفاع عن جبهة الراين ضد القبائل الجرمانية [١]، غير أن صرامته أدت إلى أن يفقد شعبيته لدى الجنود، كما أن الجهود التي بذلها من أجل تحسين العملة وما تبعها من إجراءات اقتصادية، ساقت عليه غضب مواطنيه[٢]، فاشتركت العناصر المدنية والعسكرية على السواء في مؤامرة تزعمها ضابط من أصل جرماني[٣] يدعى ماجننتيوس Magnentius. تمكن من اغتيال إمبراطور الغرب قنسطانز في "النا" Elna أقصى جنوب غالة [٤] فسيطر ماجننتيوس بذلك على الغرب الإمبراطوري.

ولكن النجاح الذي أحرزه هذا الفتى أغرى كثيرين غيره من الطموحين بأن يحـذوا حـذوه، ففي الليريا Illyricum أعلن القائد العجوز فترانيو Vetranio نفسـه إمبراطورا بإيعاز قسطنديا Constantia أخت القتيل، وتشجيع من الجنود

(1) Martin,op. cit.1,p.302
(2) Boak,op.cit.p.436
(3) Jones, The Roman Empire,p.401
(4) SOZOM.Hist. eccl. IV.1 ,SOCRAT. Hist. Eccl. II,25 وأيضا Duchesné,op cit. II,197.

وذلــك فــي أوائــل مــارس عــام ٣٥٠[٥] . أمــا في إيطاليا فقد قام نبوتيانوس Nepotianus في يونية من العام، واحتل المدينة، وحمل اللقب الإمبراطورى[٦].

هكــذا أمســت الإمبراطورية تحمل فوق عرشها أربعة أباطرة، وشهد القسم الغــربى فوضى الحرب الأهلية وصراعاتها، بينما القسم الشرقى يتعرض للهجمات المتتالية من جانب الفرس، وأصبح قسطنطيوس موزع الفكر بين مجابهة فارس، أو الاشــتراك فــي هــذه الحــرب الأهلية بدعوى الدفاع عن حقوق أخيه قنسطانز، وبأســلوب الدهاء، يأخذنا سقراط من وسط هذه الأحداث الصاخبة، إلى ما وقع منذ ســنوات طويــلة .فيذكــر أن دالماتيوس Dalmatius أحد أفراد بيت قسطنطيوس شارك أبناء قسطنطيوس الثلاثة الحكم فترة قصيرة بعد وفاة أبيهم مباشرة ثم ما لبث أن قــتل غيــلة عــلى يد جنده، ويعلق سقراط أن قسطنطيوس "لم يأمر بقتله و لم يحاول منعه" ويضيف "وكذلك حدث عندما قتل قسطنطيوس الثانى"[٧]. وهذا التعبير مــن جــانب الــناقد سقراط يصور قسطنطيوس شخصية طامعة في أن تفيد إلى أقصــى حــد من أحداث زمانها، وقد لا تحركها ولكنها لا تتوانى عن اهتبالها إذا جادت بها الفرصة.

ولذلك ليس من المبالغة في شئ القول إن قسطنطيوس بعد أن ملك أخوه قنسطانز ثلثى الإمبراطورية، حكم في القسم الشرقي من الإمبراطورية، ولم يطلب إلى أخيه شيئا من الأقاليم التي استولى عليها بعد مقتل لأخيه قسطنطيوس الثانى. فلما قتل الآن قنسطانز لعبت بنفسه نوازع السيادة، وهب للأخذ بثأر أخيه، يقصد السيطرة الكاملة على الإمبراطورية كلها. وهكذا عمل قسطنطيوس بهدوء، فترك خصومه يقتتلون، حتى إذا أفنوا بعضهم، تمكن هو في النهاية من بسط سيادته على الإمبراطورية .

---

(5) SOCRAT . Hist. Eccl. II,25
أيضا Duchesné, op. cit. II, p. 197
وراجع كذلك Jones, Loc.cit.
(6) SOCRAT.Loc.cit
وأيضا Jones, Loc.cit
(7) SOCRAT.Loc.cit

لم ينعم نبوتيانوس بالعباءة الأرجوانية طويلا، إذ سرعان ما دخلت قوات ماجننتيوس روما، وقتلته[٨]. وهكذا غدا ماجننتيوس حاكم الجزء الغربى للإمبراطورية بلا منازع . وفى الوقت ذاته تخلص قسطنطيوس من أحد الطامعين في العرش، بقتل نبوتيانوس، دون أن يخسر جنديا من قواته، وأتاح له الهدوء النسبى على جبهة الفرات، أن يزحف بقواته غربا الى الليريا لمعالجة فتنة فترانيو، فلما أتى سيرميوم حلت المشكلة نفسها، ذلك أن الجنود الذين صنعوا فترانيو إمبراطورا، أدركوا أنهم يواجهون قوة لا قبل لهم بها، فهجروا صنيعهم وانضموا الى قسطنطيوس ، وحذا فترانيو حذو جنده، فتقدم الى قسطنطيوس يطلب المغفرة، فغفر له، وأجرى له رزقا كريما، وظل بعد ذلك يكاتب الإمبراطور من مقامه في بورصه Pursa في بيثينيا Bithynia بآسيا الصغرى، يشكر له فضل تحريره من قيود السلطان[٩]، وبهذا سيطر قسطنطيوس على شبه جزيرة البلقان وولايات بانونيا، واتخذ من سيرميوم مستقرا ومقاما[١٠].

أضحى الرجلان، قسطنطيوس وماجننتيوس وقد جمعت بينهما مواجهة عسكرية لا ريب فيها، فراح كل منهما يعد العدة للقاء خصمه، فخلف ماجننتيوس غالة وخف متجها إلي الشرق بعد أن جعل من أخيه دكنتيوس Decentius قيصرا[١١] لحماية جبهة الراين من خطر الجرمان الذين قيل إن قسطنطيوس قد بعث يستميلهم إليه[١٢]، على حين استدعى قسطنطيوس إليه سنة ٣٥١ ابن عمه جاللوس Gallus وعينه قيصرا وبعث به إلى أنطاكية للحفاظ على الجبهة الشرقية[١٣]- ووجه بقية قواده الى ماجننتيوس وزودهم بالقوات اللازمة لقهره[١٤].

---

(8) SOCRAT.Hist. eccl. II,25
(9) SOCRA. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV.4
(10) SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Loc. cit
(11) SOCRRAT. Hist. Eccl. II, 32
(12) SOZOM. Hist. Eccl. V,1
(13) SOCRAT. Hist. Eccl. II,28
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV,4
(14) SOCRAT. Loc. cit.

ولا شك أن العاهلين كانا يقدران تماما القيمة الحقيقية لمصر، بما تتربع عليه من بقعة ممتازة، وما تمثله من أهمية اقتصادية للإمبراطورية، ولهذا كان من البديهي أن يسعى كلاهما لاسترضاء الأسقف السكندري، ومحاولة ضمه إلى صفه في هذا الصراع السياسي العسكري، ولا شك أن هذا يعد اعترافا صريحا منهما بما كان لأثناسيوس من مكانة مرموقة في مصر ونفوذ لدى الجموع. ولم يكن ماجننتيوس بغافل عن السمعة العريضة والشهرة التى حازها أثناسيوس في عالم الغرب، ولا كان في مقدور قسطنطيوس أن ينكرها، فضلا عما يعلمه هذا بالذات عن سلطان أسقف الإسكندرية في مصر وهيمنته الكاملة على نفوس شعب الكنيسة، وقدرته على توجيهها والرهبان الى أى وجهة هو موليها. من أجل هذا جاء إلى الإسكندرية وفد يمثل ماجننتيوس ويتكون من كلمنتوس Clementus وفالنز Valens، وكانا ضمن السفارة التى بعث بها ماجننتيوس الى قسطنطيوس في محاولة لإقرار السلام بينهما، فانفصلا عنها وسلكا طريق ليبيا حتى الإسكندرية[15]، ويبدو أنهما كانا يحملان الى أثناسيوس رسالة شفهية من ماجننتيوس للوقوف على مدى استعداده للمساهمة في تأييده، لأن أثناسيوس اضطر أن يدافع عن نفسه بعد ذلك أمام قسطنطيوس بأنه لم يتلق رسالة من ماجننتيوس، ولا رد عليه بكتاب[16].

وليس هناك مصدر آخر غير أثناسيوس كتب عن هذه الواقعة، ويبدو من حديثه أنه استقبل الوفد "بدموع الحزن على الإمبراطور الراحل"[17]، ولا مجال للشك في صدق هذه الدموع، فنحن نعلم مدى الصلة الوثيقة التى كانت تربط الأسقف بقنسطانز، وندرك يد الفضل التى قدمها القتيل لرجل الإسكندرية، ولهذا فليس من المعقول، كما حدث أثناسيوس نفسه، "أن يصافح يدا امتدت لقتل الرحمة والتقى "[18].

وهكذا كان لا بد أن يخفق الوفد في مهمته إلى الإسكندرية خاصة وأن

(15) ATHANAS. Apol. Ad. Const.9
(16) Id.
(17) Ibid. 10
(18) Ibid. 10

قسطنطيوس لم يكن الآن قد دخل في دور الخصومة العلنية والعداء السافر مع الأسقف السكندرى، وليس أدل على ذلك من أن قسطنطيوس حرص آنذاك على أن يدخل الطمأنينة إلي نفس أثناسيوس، التى لا بد انتابتها الهواجس بعد مقتل نصيرة في الغرب، حتى لا يدع الفرصة لمنافسه ماجننتيوس في السعي للفوز بتأييد الإسكندرية، وقد حملها باللاديوس Palladius أمين البلاط، وأستريوس Asterius الذى كان من قبل حاكما لأرمينيا [١٩].

"قسطنطيوس أغسطس المظفر الى أثناسيوس "
" لا يخفى على فطنتك، كيف أنى على الصلاة عاكف"
" والضراعة حتي أحقق بالنجاح كل ما كان ينتويه أخى"
" الراحل قنسطانز ، وسوف تدرك حكمتك بجلاء، كيف أنى"
" مغتم، فقد كلمت بعد اذ أتانى نبأ اغتياله بيد الأوغاد"
" الآثمين، والآن نظرا لأنا على يقين من أن البعض يسعى "
" دوما لإيقاع الأذى بك و الضرار، منتهزين فرصة المأساة "
" الأليمة فإنا قد رأيناه حسناً أن نبعث لنيافتكم هذه "
" الرسالة، نحضك فيها، وأنت بالأسقفية قائم، أن تعلم "
" الناس كيف الخلود إلى السكنية، وبالدين يقومون "
" ولنشاركهم كما اعتدت الصلوات، فهذا ما يتفق ورغائبنا "
" كما أن إرادتنا تود أن تراك دائما أسقف المكان .ألا "
"فليحفظك الرب سنين عددا "[٢٠].

والرسالة أمر صريح إلى الأسقف السكندرى بالتزام الهدوء، والانصراف إلى أداء الطقوس الكنسية، وحث الجموع على التمسك بأهداب السلام، فذلك مما يتفق ورغبات الإمبراطور، وهى في الوقت ذاته اعتراف واضح بما للأسقف من

(19) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 7 .
(20) ATHANAS. Apol. Ad. Const.22

مكانة بين الجموع، والدور الذى يمكن أن يؤديه إبان هذه الأزمة العصيبة التى تتعرض لها الإمبراطورية . ثم هى بالإضافة إلى كل ذلك إقرار بالصلة الوثيقة التى كانت تربط أثناسيوس وقنسطانز، وكيف أن إمبراطور الغرب كان بالفعل حاميا لأسقف الإسكندرية ونصيرا .

على هذا النحو اطمأن قسطنطيوس وهدأ من روع أثناسيوس، وانطلق لملاقاة خصمه، وعند مورسا Mursa وفي الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ٣٥١، دارت رحى معركة فاصلة، ضاقت فيها الدائرة على ماجننتيوس[٢١] ولم تقم له من بعد قائمة، حقيقة استطاع النجاة بنفسه، وبقى يتعلق بأمل باهت طيلة عامين بعد ذلك حتى سنة ٣٥٣، فلما أيقن أنه يسعى إلى السراب اتخذ سيفه متكئا واسلم للموت روحه[٢٢]، فألقى الحظ بثقله دفعة واحدة في كف قسطنطيوس، فاعتلى منفردا عرش الإمبراطورية .

وكانت السنتان الفاصلتان ما بين هزيمة ماجننتيوس في مورسا ثم موته في ليون، فاصلتين فيما يتعلق بقضية النيقية وأثناسيوس، والعقيدة الآريوسية . حرص فيهما الإمبراطور على ترتيب خطوه القادم قبل الأسقف السكندرى، وقد ضمن الآن أن مصر لن تنضم إلى خصمه ماجننتيوس، وأن أسقفها يرفع أكف الضراعة له بالنصر، تشاركه الجموع[٢٣]، وأساقفة الشرق جميعا يقفون من ورائه يؤيدونه ويعضدون، وكنائس الغرب تترقب نتيجة الصراع بنفس قلقة وفؤاد يرتاب.

وقد أورد المؤرخ سولبيكيوس سفروس، دون غيره، قصة قسطنطيوس مع

---

(21) SOZOM. Hist. Eccl.IV,7.
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. II, 32
(22) SOCRAT. Hist. Eccl. II,32
وايضا SOZOM. Hist. Eccl.IV.7
(23) ATHANAS. Apol. Ad. Const.25

أسقف مورسا عند اللحظات الحاسمة التى سبقت المعركة الفاصلة(٢٤). والغرض من هذه القصة واضح تماما، فكاتبها يقدم بها لتلك المكانة المرموقة التى أحرزها فالنز لدى الإمبراطور بعد ذلك، وانفراد سفروس وحده بروايتها، وعدم ورودها عند مؤرخ مثل سوزومنوس، وهو مولع بمثل هذه الروايات، وعدم ذكر أثناسيوس لها مع كرهه العميق لفالنز، يدعونا للاعتقاد أن الخيال لا بد داعب بعض وقائعها، خاصة آخرتها. فقسطنطيوس شأن أى حاكم يخشى على سيادته من نتيجة المعركة، بل لقد اعترف بنفسه بهذا بعد ذلك في حديث جرى بينه وبين أسقف روما ليبريوس، وذكر أنه لم يكن يتوقع الانتصار على خصمه(٢٥). وأسقف المدينة وهو الأب الروحى لها، لابد أن يسرى عن الإمبراطور كآبته . أما مسألة "ملاك الرب" التى يذكرها سولبيكيوس سفروس، فتلك قصة جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة تهبط به على من تشاء(٢٦).ولم يكن قسطنطيوس في حاجة إلى ملاك للرب كى

(٢٤) يقدم سولبيكيوس سفروس في مشهد تراجيدى ذلك اللقاء الذى تم بين قسطنطيوس وفالنز أسقف مورسا. فهو يصور الساعات التى سبقت المعركة، وتلك التى خلالها دارت، وكيف أن الإمبراطور كانت تنتابه الهواجس وتلعب به الظنون، خشية أن ينكشف الغبار عما لا تحمد عقباه، وأنه من أجل هذا الاضطراب النفسى غادر قصره وأمضى سحابة نهاره في الكنيسة . ويمضى سفروس قائلا إن تلك هى الفرصة التى كان ينتظرها أسقف المدينة فالنز، فقد استغل هذه الحالة النفسية السيئة لدى قسطنطيوس ليحقق له ولفريقة الآريوسى كل ما يبتغي . ومن ثم راح يهون عليه أمر ماجننتيوس وجنده، ويخفف عنه ويلات يعانيها ويبشره بالنصر كما أخبر ملاك الرب . ويقول سفروس إن فالنز اتفق مع بعض خاصته على أن ينقلوا إليه سير المعركة أولا بأول حتى يستطيع النجاة بنفسه إن لقى جيش قسطنطيوس الهزيمة، أو يكون أول من يحمل إلى الإمبراطور بشرى الانتصار. فلما لاح في الأفق بريق الظفر لإمبراطور الشرق، خف فالنز يتهادى ليزف إلى قسطنطيوس ما يتوق إليه الفؤاد . وأضاف أن ملاك الرب خصه على عجل بهذا النبأ السعيد . ويعلق سفروس، ولما كان من السهل على الإمبراطور أن يصدق مثل هذه الأقاويل، فقد راح يعلن في الملأ من بعد، أنه أحرز النصر بكرامات فالنز وليس فقط بشجاعة الجنود .
راجع SEV. Hist. Sac.II,88-SVLp

(25) THEOD. Hist. Eccl. II, 13.

(٢٦) اعتاد مؤرخو الكنيسة أن يقحموا ملاكا للرب في كل عمل يأتيه أى حاكم قدم للكنيسة ذات يوم جميلا . فالكاتب الأفريقى لاكتانتيوس يذكر ملاكا للرب زار الإمبراطور ليكينيوس قبل حربه مع خصمه ماكسيمينوس عام ٣١٣ ولقنه أدعية الانتصار،لأن ليكينيوس كان قد اتفق مع قسطنطين في ميلانو على رفع الاضطهاد عن المسيحية . ومرة أخرى يهبط يوسيبيوس القيسارى بملاك الرب على قسطنطين قبل معركته مع عدوه ماكسنتيوس سنة ٣١٢ . أما تجلى ملاك الرب للأساقفة والقسيسين فذلك ما تمتلئ به كتب أولاء المؤرخين .وليس هنا مجال الحديث عنها . راجع LACT. De mort. p ers.44 .
وأيضا EVSEB. Vita Const. I, 29

يعلنها من بعد حربا ضارية على النيقية وأتباعها، فقد كان لديه من الدوافع الكثير، ولم يكن من السهل على الإمبراطور أن يغفرها .

كانت مورسا المعركة الفاصلة، ولكنها لم تكن نهاية ماجننتيوس، ولا زالت هناك أجزاء كثيرة في الجزء الغربى من الإمبراطورية واقعة تحت سيادته، ولذا مشى قسطنطيوس الهوينى في سياسته تجاه الكنيسة، وحاول أن يكسب إلى جواره أيضا أساقفة الغرب، وبحث قسطنطيوس عن الوسائل الكفيلة باستمالة أساقفة الشرق والغرب جميعا، ووجد ضالته في فوطين أسقف سيرميوم، الذى كان قد جلب على نفسه بآرائه غضب الكنيسة الجامعة، على النحو الذى بينا، فدعا الإمبراطور إلى عقد مجمع في المدينة ذاتها(٢٧)، وهو مجمع سيرموم الثانى سنة ٣٥١(٢٨) حضره نفر يسير وتقرر فيه إدانة فوطين للمرة الثانية وعزله من أسقفيته(٢٩) وأصدر الأساقفة الحضور مرسوم إيمان جديد(٣٠) يعتبر صورة أخرى للمرسوم الأنطاكى الرابع، أو مرسوم فيليبوبوليس، وأضيف إليه سبع وعشرون أناثيما قصد بها أصلا فوطين وأستاذه ماركللوس(٣١). وكان باسيليوس أسقف أنقرة

---

(27) SOCRAT. Hist. Eccl. II,32.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 6

(٢٨) كان مجمع سيرميوم الأول قد عقد سنة ٣٤٧ وتمت فيه إدانة فوطين
راجع Hefele, op. cit.I, 2 pp. 348
وأيضا Fliche, op. cit. III, p. 137

(29) SOCRAT. Loc. cit.
وانظر كذلك SOZOM. Hist. eccl. II,32

(30) ATHANAS. De Syn. 27
وراجع HILAR. De Syn. 38
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 29

(31) Hefele, op, cit. I, 2pp. 852-362
وراجع أيضا Gwatkin, op. cit.p. 81
للمؤرخ نفسه انظر المقال الذي كتبه تحت عنوان Arianism
ضمن مجموعة C. M. H. Vol. I. P130
راجع أيضا Robertson, op. cit.p.281

المنافس هو الذى يتزعم هذه الجماعة آنذاك[٣٢]، وان كان سقراط يذكر أن مرقس أسقف الرستن Arethusa هو الذى أضاف هذه اللعنات السبع والعشرين[٣٣].

ويبدو أن فوطين لم يستسلم لهذه القرارات ، فلجأ إلى الإمبراطور يعرض عليه شكايته ، ويعرض في الوقت ذاته مناظرة الخصوم[٣٤]، وقد أجابه قسطنطيوس إلى ذلك ، واختار باسيليوس رجل أنقرة ليكون على رأس المتناظرين ، ويذكر سقراط أن فوطين لم يستطيع مجابهة باسيليوس ورفاقه ، فأعلنت هزيمته وإدانته وصدر قرار الإمبراطور بنفيه[٣٥]،وعين جرمينيوس Cerminius الذى كان أسقفا على كيزيكيوس Cyzicius بدلا منه[٣٦].

حوالى ذلك الوقت (٣٥٢) كان أثناسيوس قد انتهى من وضع عمل آخر من أعماله دفاعا عن مجمع نيقية De decretis Nicaenae Synodi ولئن كان هذا العمل قد جاء أصلا على شكل رسالة كتبها أثناسيوس إلى أحد أصدقائه الذين اضطرتهم ظروف الجدال إلى الدخول في مناقشات عميقة مع جماعات من الآريوسيين فطلب إلى أثناسيوس أن يخبره بما تم في المجمع النيقى[٣٧] ، فمما لاشك فيه أن الأسقف السكندرى قد رحب بوضع هذا المؤلف للرد على المحاولات التى بذلها أساقفة الآريوسية في أنطاكية سنة ٣٤١ وما تبعها، والتى تمثلت في إصدار عدد كبير من مراسيم الإيمان بهدف القضاء على الأيمان النيقى. وهذه الرسالة تعد على جانب كبير من الأهمية اذ توقفنا على ذلك الجدل العقيدى الذى دار بين أساقفة نيقية، بالإضافة إلى أنها تقدم معرفة أكثر اتساعا عن حادثة بعينها كان لها أكبر الأثر على تاريخ الفكر الكنسى والعقيدة المسيحية .

وغداة انتحار ماجننتيوس (١٠أغسطس ٣٥٣) أسلمت الإمبراطورية كلها قيادها

(32) Robertson, op. cit.p.464n.5A
(33) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 29
(34) Id ; SOZOM. Hist. Eccl.IV. 6
(35) SOCRAT. Hist. Eccl. II,30
(36) ATHANAS. Hist. Eccl. Arian. 74
(37) ATHANAS. De decr. Praef.

لقسطنطيوس، وراح يذرع أقاليم الغرب حتى غالة، وبدأ يتفرغ الآن لشئون العقيدة، فقد كان السلام الذى غلف الكنيسة بعد سرديكا قشرة رقيقة لم تصل إلى حد الحقيقة، وذلك أن الاستغراق الملح للحرب الفارسية، وتهديدات قنسطانز باعادة أساقفة النيقية في الشرق إلى كراسيهم بالقوة. كانت أسبابا فرضت السلام دون أن تجتث جذور الصراع. ولا شك أن ذاكرة قسطنطيوس قد استعادت الآن صورة ذلك الأسقف السكندرى وقد تمكن من إثارة أساقفة الغرب جميعا ضده، وظنه وراء رسالة التهديد التى بعث بها قنسطانز، ولم يغب عن مخيلته تلك الرسائل الثلاث التى بعث بها إلى أثناسيوس يرجو عودته دون أن يكلف الأسقف نفسه عناء الرد على أى منها، ولا نسى الإمبراطور ذلك التحدى الذى أظهره أثناسيوس ساعة الحوار في أنطاكية. وتذكر أنه في لحظة ما لم يكن يملك حق الاعتراض على عودة راعى كنيسة عاصمته، وفوق هذا وذاك .. فقد كان قسطنطيوس إمبراطوراً رومانيا - يجسد تماما- شأن أبيه – النظرية السياسية الرومانية، القائمة منذ قامت الإمبراطورية في القرن الأول قبل الميلاد، القائلة بعدم وجود كيان داخل الكيان، ورفض قيام دولة داخل دولة.

ولذا كان لابد من فرض سلطان الدولة على الكنيسة .. حتى لا يشعر آباء هذه مهما علت منزلتهم – أنهم يحققون لأنفسهم كيانا مستقلا. تلك سنة استنها قسطنطيوس تقليدا لما أرساه أسلافه في العصر الوثنى للإمبراطورية –ولم يبغ عنها خلفاؤه من بعد حولا. حتى غدت الكنيسة في الإمبراطورية مجرد دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظف كبير عند الإمبراطور .

وكان بولس أسقف القسطنطينية أول من امتدت إليه يد قسطنطيوس ، إذ أرسل اليه نائبه فيليب[٣٨]، الذى استخدم الحيلة والدهاء حتى تكمن من القبض عليه[٣٩] ونقله سرا إلى القوقاز حيث مات[٤٠]، وخلفه على الأسقفية ثانية ماكيدونيوس[٤١]. وبهذا أعاد قسطنطيوس لنفسه شيئا من كبرياء كان قد ضاع. أما أثناسيوس فقد كانت مجرد عودته إلى الإسكندرية

---

(38) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 16
(39) Id.
وأيضاً SOZOM. Hist. Eccl. III, 9
(40) ATHANAS. Hist. Arian, 7
(41) SOZOM. Op. Cit. IV, 2

سنة ٣٤٦ تحمل بين طياتها الإهانة الشخصية للإمبراطور[٤٢] حتى لقد غدا أثناسيوس عدوا شخصيا لقسطنطيوس[٤٣] بل أشد مقتا له وبغضا من طاغية غالة[٤٤] ويبرر أثناسيوس ذلك بقوله " كلما استحث الإمبراطور خطاه في أثر ماجننتيوس ورأى الإعجاب الذى يحمله أساقفة تلك المناطق لشخصي، استبد به الحنق وولى للأيمان التى قطعها على نفسه دبره، وأضحى كمن أشعل النار فجأة "[٤٥] غير أن أثناسيوس يغفل بذلك بواعث العداء الكامنة. وهكذا فتح على اتساعه آتون الخصام بين الإمبراطور والأسقف، وبذل كل منهما جهده وفكره للقضاء على خصمه، ولكن نهاية الحرب بينهما الأقدار عندما مات الإمبراطور.

أدرك قسطنطيوس أن الهجوم على أثناسيوس مباشرة، لن يصل به إلى النجاح الذى يريده، بل ربما على العكس من ذلك، خلق من أثناسيوس بطلا في أعين معاصريه والأجيال، وهذا ما لم يكن يبتغيه ، ولهذا كان عليه أن يمحو من أذهان رجال الكنيسة أسطورة ذلك الرجل، وليتم ذلك عن طريق الأساقفة أنفسهم . فبنى قسطنطيوس خطته على أساس عزل أثناسيوس عن العالم ووصمه منبوذا، فإذا ما تحقق له ذلك أصبح من السهل بعدئذ لفظه خارج البيعة بلا ولى ولا نصير. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه اليوسابيون منذ عام ٣٣٠ حتى تحقق لهم ما أرادوا في مجمع صور عام ٣٣٥ .

وكان قسطنطيوس يحمل في نفسه منذ البداية عدم الولاء للنيقية، وزادت الأحداث من هذا الشعور لديه، بعد أن تطاول عليه زعماؤها. ولكن الإمبراطور في الوقت ذاته كان يدرك يقينا أن الغرب، نصير النيقية، ليس على استعداد للتخلى عنها طواعية، ولذا لم يشأ أن يصوب سهام غضبه إلى العقيدة مباشرة، ولما كانت قضية أثناسيوس والنيقية لدى الغرب واحدة، فإن إذلال الأسقف السكندرى سوف يتضمن كذلك للنيقية إذلالا.

(42) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 74
(43) Maritn, op. Cit. I, pp. 304-305
(44) Gibbon, op. Cit. II, p. 393
(45) ATHANAS. Hist. Arian. 30

وفي الإسكندرية بدأت سحابات الشك تتجمع في سماء البيعة، وأدرك أثناسيوس بنفس مضطربة أن ما جرى في سيرميوم سنة ٣٥١، وما حدث في القسطنطيوسية لأسقفها بولس، لابد أنه بدايات لشيء يحاك من حوله، وترامت إليه في النهاية أنباء ارتداد كل من فالنز وأورساكيوس. فقد صرح الأسقفان أنهما لم يقدما على إعلان توبتهما السابقة إلا بدافع الخوف من الإمبراطور الراحل قنسطانز وتحت قهره، وأنهما الآن لا يملكان إلا العودة إلى عقيدتهم والرفاق[٤٦].

والحقيقة أن هذا السلوك من جانبهما ليس أمرا مستغربا، لكن تعجب له أثناسيوس، فقد كان شيئا متوقعا يتمشى مع طبيعة شخصيتهما السياسية. وقد تملك القلق على أثناسيوس كل سبيل، وعزم على أن يتحرك بسرعة قبل أن يفلت الأمر، خاصة بعد أن فقد بقتل قنسطانز معقل حماه، وقلعة الأمان له وللنيقية، فاستدعى على الفور صديقه سرابيون، وجعله على رأس سفارة تضم تريادلفوس Triadelphus أسقف نقوتاس Nicotas (زاوية رازين بالشرقية) وأبوللو Apollo أسقف كينوبوليس العليا Upper Cynopolis (الشيخ فضل) والراهب أمونيوس Ammonius أسقف باكمون Pachemmon (كوم الخنزير) وثلاثة من قساوسة الإسكندرية، بطرس النطاسى، واستريكوس Astericus وفيلياس Phileas. ووجههم إلى إيطاليا حيث كان يقيم الإمبراطور آنذاك في ميلانو[٤٧]، يدفعه إلى ذلك كما جاء على قلم صاحب الحوليات[٤٨]، الخوف من أن يمتلك الآريوسيون آذان الإمبراطور.

وفي ١٩ مايو ٣٥٣، ارتحل الوفد السكندرى قاصدا إيطاليا[٤٩]، ولم يكد يمضى على إقلاعه أربعة أيام، حتى قدم الإسكندرية مونتانوس Montanus أمين

---

(46) ATHANAS. Hist. Arian. 29
(47) HIST. ACEPH. III,3
وراجع أيضا FEST. IND. XXV
(48) FEST. IND. XXV
(49) HIST. ACEPH.III,3

البلاط[٥٠]، يحمل رسالة من قسطنطيوس إلى أثناسيوس، تعلن استجابة الإمبراطور لرجاء أثناسيوس بالسماح له بلقائه، حتى يتيسر الحصول على المعونة اللازمة لاستكمال المنشآت الكنسية، وتطلب منه الامتناع عن إرسال أى سفارة إلى القصر[٥١]. وتملكت أثناسيوس الدهشة وهو يقرأ هذه الرسالة، وأدرك بإحساس الرهبة أن هذا الخطاب ليس "إلا كمينا أعد بمهارة، ومحض زيف على الإمبراطور وافتراء"[٥٢]، لأنه لم يكتب إلى قسطنطيوس أية رسالة تحمل الرغبة في لقياه، أو بشأن إعانة تمنح لكنيسته[٥٣]. ومن ثم تريث الأسقف ولم يعط إجابة واضحة لأمين البلاط، وارتحل مونتانوس دون أن يحصل من أثناسيوس على شيء[٥٤].

ولم يحفظ التاريخ الأدلة الكافية التى تجعلنا نتفق وأثناسيوس في القول بأن الإمبراطور لم يكتب هذه الرسالة، ولكن الأحداث التى تلت ذلك مباشرة تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه الرسالة كتبت تحت سمع الإمبراطور وبصره، ويدفعنا إلي ذلك الاعتقاد أن قسطنطيوس ومن ورائه أساقفة البلاط، أرادوا بها انتزاع أثناسيوس من القلعة الحصينة التى يحتمى بها، أعنى مصر . يزود عنه الأكليروس، ويحميه جيش من الرهبان قوى، ويحوطه بالرعاية والولاء شعب الكنيسة. وبعيدا عن هذه المنطقة سوف يجد الأسقف نفسه مجردا من أقوى الأسلحة التى يعتمد عليها. وهناك في الغرب، لن يستطيع أسقف فى حضرة الإمبراطور أن يفغر فاه فيقول كلمة تأييد فى جانب الأسقف السكندرى. وإذا كانت هناك أصوات معارضة –كما سنرى– فلن يكلف ذلك قسطنطيوس شيئا سوي توقيع قرار بالنفى.

ترك الإمبراطور إيطاليا وقصد غالة، وفي آرل Arles حيث كان أسقفها على الآريوسية ، دعا أساقفة الولاية لعقد مجمع كنسى[٥٥] كان الهدف الأساسى منه

(50) HIST. ACEPH. III,3
(51) ATHANAS. Apol. Ad. Const.19
(52) Ibid, 20 .
(53) Ibid, 19 .
(54) HIST. ACEPH. III, 3
وراجع أيضا FEST. IND. XXV
(55) ATHANAS. Hist. Arian. 31

إدانة أثناسيوس. وقد حاول أسقف روما ليبريوس إثناء قسطنطيوس عن عزمه والانتقال بالمجمع إلى أكويليا Aquileia وأرسل فينكنتيوس Vincentius أسقف كابوا Capua لتقديم هذا الاقتراح إلى الإمبراطور(٥٦)، غير أن هذا الأخير رفض ذلك، لقد كان حريصا على أن يشرف بنفسه على جلسات المجمع(٥٧) كي يتعرف على اتجاهات الأساقفة، ويتدخل في الوقت المناسب لفرض إرادته وإقرار سلطان الدولة الرومانية على رجال الأكليروس. وكان الإمبراطور حصيفا عندما رأى أن يبدأ بأساقفة ولاية واحدة من ولايات الغرب لها أهميتها، خشية أن يؤدى اجتماع الأساقفة في الغرب جميعا إلى تكرار ما حدث في سرديكا. وكان من السهل التأثير على أساقفة غالة بالذات باعتبارها أقل ولايات الغرب الإمبراطورى اهتماما بالاضطرابات العقائدية(٥٨) بل إن شئنا الدقة حسب قول المؤرخ مارتن Martin "إن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة"(٥٩)، على الرغم من أن ساتورنينوس Saturninus أسقف آرل كان صديقا للبلاط آريوسيا. وكان هذا مما يخدم غرض قسطنطيوس تماما(٦٠).

وفي أكتوبر ٣٥٣، التأم عقد الأساقفة في آرل تحت رئاسة ساتورنينوس أسقف مدينة المجمع، وحضره مندوبون عن أسقف روما في طليعتهم فينكنتيوس أسقف كابوا، الذى أراد أن يطرح قضية الإيمان أولا للمناقشة، بدلا من أن ينصرف جهد المجمع إلى المسائل الشخصية(٦١). ولكن فالنز وأورساكيوس، رفضا هذا الاقتراح، وأصرا على أن تكون قضية أثناسيوس محور عمل المجمع(٦٢)، ولما احتدم الجدل بين الفريقين ارتضى مندوبو أسقف روما طريقا وسطا إلى السلام،

---

(56) HILAR. Fragm. VI, 3 (p. L. X 688) .

(57) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p. L. X 562)

(٥٨) راجع ما كتبه Le Bachelet عن القديس هيلارى S. Hilaire ضمن Dict. De théol. Cath. VI, 2. col.2390

(59) Martin, op. cit. I, p.305 .

(60) Watson, op. cit. p.10 .

(61) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 39

(62) Id.

فتعهدوا بالتوقيع ضد أثناسيوس في مقابل أن يتعهد الجانب الآخر بلعن الآريوسية ولكن فالنز وصحبه أعلنوا معارضتهم لمثل هذه المحاورات[٦٣]. يشد من عضدهم قرار الإمبراطور الذى أصدره بنفى كل من يأبى التوقيع على قرار الإدانة لأثناسيوس[٦٤]. ولم يجد الحضور جميعهم وفيهم رسل أسقف روما بدا من الإذعان لإرادة الإمبراطور والتوقيع على مرسوم يدين الأسقف السكندرى، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا باولينوس Paulinus أسقف ترير[٦٥]، فاصدر الإمبراطور أوامره بنفيه إلى فريجيا[٦٦] وأيقن الإمبراطور أن مثالا واحدا يعد كافيا لقهر ولاية غالة جميعا[٦٧]. وهكذا خسر أثناسيوس النقطة الأولى في الجولة الثانية من صراعه مع قسطنطيوس.

وقرابة عامين قادمين انصرف الإمبراطور مرغما عن محاولاته مع أساقفة الغرب للتخلى عن تأييد أثناسيوس، فقد جذبته الأحداث على الراين إلى متابعتها بعد أن بدأت القبائل الجرمانية القاطنة عبر النهر تثير من جديد الاضطرابات في ذلك الإقليم[٦٨]. ولكنه ضمن الآن على الأقل تخلى أساقفة ولاية من الغرب هامة عن نصرة الأسقف السكندرى.

وفي الوقت ذاته شغل أثناسيوس نفسه بكتابة عدد من الرسائل إلى أصدقائه الرهبان؛ فبعث في سنة ٣٥٤ رسالته إلى آمون راهب النطرون الشهير Ad-Amunem Monachum يعرض فيها لبعض فعال الآريوسيين وخاصة آراءهم اللاهوتية بصورة ميسرة. على أن الرسالة تدور في معظمها حول مسائل التطهر والحياة. ويعقد أثناسيوس مقارنة بين حياتى أولئك الذين يعيشون الدنيا ، وأولاء الذين يقدسون الرهبنة، ويفضل الأخيرة. وتشير الرسالة أيضا إلى الأعداد الكبيرة

---

(63) HILAR. Fragm. V, 5 (p. LX. 685)
(64) SVLp. SEV.Loc. cit.
(65) Id.
(66) HILAR. Ad. Const. Im. II (p. L. X. 587-58)
(67) Watson, op. cit p. 10
(68) AMM. MARC. Res. Gest. XIV, 10, XV, 8 . وانظر بعده

من الرهبان الذين تمتلئ بهم المنطقة، أو رعية الراهب آمون كما يطلق عليهم أثناسيوس، وهو لا يخاطب الراهب إلا بألقاب الوقار والاحترام، ويناديه بـ"الأب" "والشيخ المهيب محبوب الرب"(٦٩) وهو نفس الأسلوب الذى نلمسه عندما كتب أثناسيوس من بعد حياة أنطونيوس، بل نراه أيضا في كل رسائله إلى الرهبان وسلوكه معهم.

أما رسالته الثانية فقد بعث بها حوالى ذلك العام تقريبا أو الذى تلاه إلى دراكونتيوس Dracontius أحد الرهبان، وذلك عندما رفض قبول سيامته أسقفا لدمنهور Hermopolis parva وهى تعد من أهم الوثائق عن تاريخ الرهبنة المصرية(٧٠)، وفيها يوجه أثناسيوس اللوم إلى دراكونتيوس بسبب موقفه، ويقول إن ذلك سوف يفتح الباب لاتهامه بالهروب من مسئولية رعاية الكنيسة في وقت تتعرض فيه للضغط والإرهاب(٧١)،وأن هذا الرفض قد حمل إلى نفس الأسقف الكآبة في وقت تحتاج فيه إلى العزاء(٧٢) ويرجوه أن لا يصغى إلى نصائح المحيطين به والذين يزينون له الابتعاد عن خدمة شعب الكنيسة(٧٣)، ويضرب له الأمثال بكثير من الرهبان الذين يعرفهم، ولم يترددوا عندما اختيروا للاكليروس، بل كان منهم من أرسل في مهام سياسية خارج مصر مثل سرابيون(٧٤). والرسالة في مجموعها رجاء حار إلى دراكونتيوس من أثناسيوس كى يقبل رسامة نفسه أسقفا، وكانت هذه المنطقة، كلما أسلفنا، تشكل أهمية خاصة لقربها من الإسكندرية.

انتهى قسطنطيوس من حربه على جبهة الراين، واستدار الآن ليكمل الجولة الثانية ضد أثناسيوس، وكان ليبريوس أسقف روما قد اغتم لمسلك مندوبيه في آرل،

(69) ATHANAS. Ad. Amun. Mon.
(70) ATHANAS. Ad. Dracont.
وراجع أيضا Robertson, op. cit. p. 557 n.1
(71) ATHANAS. Ad. Dracont.
(72) Ibid. 2, 3,
(73) ATHANAS. Ad. Dracont. 3-5
(74) Ibid. 7

فطلب إلى الإمبراطور أن يدعو إلى عقد مجمع جديد لبحث قضية أثناسيوس وما تم بشأنه في آرل[٧٥]. ولم يكن قسطنطيوس أقل حماسة من أسقف روما سعيا لعقد هذا المجمع . فقد حصل على التأييد المحلى في غالة ويريد أن يتبعه الآن بقرار يمثل أساقفة الغرب عامة[٧٦]، بعد أن تخلص من متاعبه العسكرية والسياسية، ولم يبق إلا المتاعب الشخصية التى تمس في الوقت نفسه سلطان الدولة وهيبتها ، أما مشاكل العقيدة فلها دورها.

وفي خريف عام ٣٥٥ تم توجيه الدعوة إلى الأساقفة لحضور المجمع الذى اختيرت ميلانو له مكانا[٧٧]. ويذكر سقراط[٧٨]ويتابعه في ذلك سوزومنوس[٧٩] أن عددا كبيرا من أساقفة الشرق اثاقل عن حضور هذا المجمع وتعلل بأسباب مختلفة، على حين كان عدد أساقفة الغرب فيه حوالى ثلاثمائة. ولا شك أن هذا التقدير يحوى كثيرا من المبالغة، ولابد أن سقراط قد ضم إلى من حضروا المجمع أولئك الذين وقعوا من بعد على القرارات التى أصدرها[٨٠]. وقد شهد المجمع في أول جلساته صراعا عنيفا بين أنصار أثناسيوس في الغرب يقودهم يوسيبيوس أسقف فرسالى Versellae (في إيطاليا) ولوكيفريوس Luciferius أسقف كاليارى Caliaris (Cagliare) (في سردينيا) وديونيسيوس Dionysius أسقف

---

(75) Kidd, op. cit. II. p. 122
وراجع Robertson, op. cit. p. 49
وأيضا Gwatkin. The Arian Conroversy p. 38
(76) Robertson, Loc. cit.
(77) Hefele, op. cit. I, 2, pp. 862-876
وراجع Fliche, op. cit. III, Pp. 142-143
وكذلك 135 . cit. II, p.Mourret, op
وانظر أيضا Lietzmann, Histoire de L'église ancienne. III, pp. 219-220
(78) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 36
(79) SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9
(80) Zenos, op. cit. p. 60 n. 1

ميلانو[٨١]، والآريوسيين بزعامة فالنز وأورساكيوس. وثار من جديد ذلك الجدل الذى نشب في آرل حول بحث مسألة الإيمان قبل كل شىء .

وتقدم يوسيبيوس الذى كان ممثلا لأسقف روما، بمرسوم الإيمان النيقى يطلب إلى الجميع التوقع عليه قبل بحث أى مشاكل أخرى، وربما أدرك الآريوسيوس أن النجاح الذى أحرزوه في آرل سوف يضيع الآن أمام عناد أنصار أثناسيوس، ولذا اقترحوا نقل جلسات المجمع من الكنيسة إلى القصر الإمبراطورى[٨٢]. وعلى هذا النحو استطاع قسطنطيوس أن يشارك بنفسه في مناقشات المجمع، وقد طلب إلى الأساقفة إدانة أثناسيوس دون تسويف، فأجابه النيقيون أنهم لا يستطيعون إدانة أثناسيوس بناء على ادعاء رجال مثل فالنز وأورساكيوس لا يقيمون وزنا للعقيدة وينتقلون من جانب لآخر حسب مصالحهم[٨٣]. ويقول سقراط أن زعماء النيقية تنبهوا إلى أن الإلحاح على إدانة الأسقف السكندرى يخفى وراءه هدفا آخر هو ادانة قانون الإيمان ذاته[٨٤]، وقد أعلن الإمبراطور أنه المدعى وأنه يتهم بنفسه الأسقف[٨٥].

ويذكر أثناسيوس بشىء من التفصيل تلك المساجلات القانونية التى دارت بين أنصاره وقسطنطيوس، باعتبار أنه لا يحق للإمبراطور أن يتهم أحداً في غيبته[٨٦].

ولا شك أن الإمبراطور قد أحس هنا أنه قد وضع نفسه على درجة واحدة مع أثناسيوس ، ولم يرض عن هذه الجرأة من جانب الأساقفة النيقيين الذين راحوا يحاجون ويجادلون حول شرعية المحاكمة ، ومن ثم فقد قطع كل حديث وأعلن فى

(81) ATHANAS. Hist. Arian. 33 .
(82) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p.L.X.564).
(83) ATHANAS. HIST. Arian.76.
(84) SOCRAT. Hist. Eccl. II,36.
(85) ATHANAS. Hist.Arian. 76.
(86) Id.

حنق "إرادتي هي القانون" oper ego boulomai outo kanon [٨٧] وطلب من الجميع التوقيع على إدانة الأسقف السكندري [٨٨] ، ويقول سفروس إن كثيرين ممن وقعوا على مرسوم الإدانة كان يدفعهم إلى ذلك الخوف أو تجذبهم الخديعة[٨٩]، ويعلق أحد المحدثين على ذلك قائلاً : " إن هؤلاء الأساقفة أقنعوا أنفسهم بالإذعان لما طلب منهم، موقنين أن ذلك لا يمس عقيدتهم ، معللين مسلكهم بأنه لا يمكن التضحية بسلام كنائسهم من أجل رجل فرد والذي لابد أن يكون مذنباً في أي ناحية مما أثير حوله، وليس في استطاعتهم حمايته بأصواتهم المفردة الواهنة [٩٠] ولعل الذي دفع هؤلاء الأساقفة إلى الإيمان بسلامة اقتناعهم، إن الإمبراطور لم يحاول في أي من المجمعين أن يفرض مرسوم إيمان جديد، ولذا انحصرت المسألة في أذهانهم باعتبارها مجرد نزاع شخصي بين قسطنطيوس وأثناسيوس.

ولكن على الرغم من هذه التهديدات فإن عدداً من أشهر رجال الغرب آنذاك تحدوا قرارات الإمبراطور فتم نفيهم ، ديونيسيوس أسقف ميلانو الذي فضل – كما يحدث عنه القديس أمبروز – " عذاب النفوى على صداقة المليك " [٩١] ، وخلفه على عرش الأسقفية الأسقف أوكسنتيوس Auxentius الآريوسي المتطرف[٩٢] ، وشارك ديونيسيوس قدره يوسيبيوس أسقف فرسالي[٩٣] ولكيفريوس أسقف كالياري [٩٤].

وقبل أن نمضي مع الأحداث ، فإنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه ابتداء

---

(87) ATHANAS. Hist. Arian. 33

(٨٨) يقدم أثناسيوس تصرف قسطنطيوس في صورة مسرحية حيث يقول إن الإمبراطور نهض وشهر سيفه ووضعه على أعناق الجميع مهدداً ثم أمرهم بالتوقيع على المرسوم .
راجع Ibid. 33

(89) SVLP. SEV. Hist . Sac. II, 39.

(90) Neander, Christ. Relig. And Church. IV, 52

(91) AMB. Ep. LXIII,68 .

(92) ATHANAS. Hist. Arian. 75
وعن أوكسنتيوس هذا راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع

(93) AMB. Ep. LXIII,68 .

(94) ATHANAS. Hist. Arian. 33

من كاليجولا أو فسياسيانوس أصبح تنصيب الإمبراطور الجديد يتم بموجب مرسوم دستورى شامل يسمى قانون تولية الإمبراطور Lex regia de imperio يصوت عليه مجلس الشيوخ وتصادق عليه جمعيات الناخبين الشعبية ، وينص هذا المرسوم على أن كل ما يصدر عن الإمبراطور يجب أن يعتبر صحيحاً ويصادق عليه ، كما أنه صدر بأمر الشعب ؛ وهذا هو المعروف باسم قانون أولبيان Ulpien فقيه القرن الثالث والذى يقول " إن إرادة الأمير لها قوة القانون Quod principi lacuit legis habet vigorem لأن الشعب بموجب قانون التولية Lex regia نقل له كل سلطاته[٩٥] Populius in eum omne suum imperium et potestatem conferat.

على هذا النحو انتهى مجمع ميلانو الذى دعاه هيلارى "مجمع الخبائث"[٩٦] Malignantium Synagoga، ولكن قسطنطيوس كسب به نقطة أخرى ثمينة وكانت هذه النتيجة التى انتهى إليها المجمع خسارة فادحة لأثناسيوس. فقد تحطم الآن، وبعد مقتل قنسطانز، ذلك الصرح الهائل الذى جهد أثناسيوس من قبل سنين عددا حتى أمكنه أن يعتمد عليه بدرجة كبيرة، وأيقن الأسقف أن الدائرة من حوله قد أخذت في الضيق توشك أن تطبق عليه. على حين كان الإمبراطور سعيدا بهذه النتيجة حتى لكأن نصره في مورسا لم يكتمل الا في ميلانو. فقد أفلح في عزل الأسقف هناك في بيعته، وكف أيدى الغرب الممتدة له بالعون، وتركه الآن لشهور آتية فريسة القلق والاضطراب.

وكان الإمبراطور يدرك يقينا، أن قرارات ميلانو وقد تدعمت بقوة السلطان ينقصها الدعم المعنوى حتى لا يمتعض الجمع من قبولها، ويسعون من بعد إلى هدمها. وكان يعلم حقا أن هذه القوة المعنوية كامنة في رجلى الغرب الشهيرين أسقف روما ليبريوس، وهوسيوس أسقف قرطبة. وكان أثناسيوس يدرك تماما مدى

(95) P.Petit, Histoire generale de L'empire Romain, paris 1974, p. 165.
وراجع أيضاً : جان جاك شوفاليه ، تاريخ الفكر السياسى ، ترجمة د. محمد عزت صاصيلا ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٣٥ .

(96) HILAR. Ad. Const. Aug. 1.8 (p. L. X562) .

الأهمية التى يعلقها الأريوسيون على ذلك[97].فكنيسة روما سواء على عهد ليبريوس أو سلفة يوليوس، أعطت طاقة التأييد التى تمتلكها كاملة في صالح قضية أثناسيوس ، وكان يوليوس هو الذى قاد أساقفة إيطاليا في روما سنة ٣٤٠، وجمع أساقفة الغرب في سرديكا سنة ٣٤٣ من أجل نصرة أثناسيوس، ولم يرض ليبريوس عما تم في آرل، ولا وقع على ما انتهى إليه مجمع ميلانو، ووقف قدر جهده يؤيد زميله أسقف الإسكندرية، ولذا كانت استمالة كنيسة روما إلى الفريق المضاد عملاً بارع الدعائية والأثر.

اختار الإمبراطور خصيا له يدعى يوسيبيوس، وبعث به إلى ليبريوس في روما[98]، فلما التقى بالأسقف طلب منه التوقيع على إدانة أثناسيوس وقبول الآريوسيين في شركة الكنيسة مضيفا "تلك ارادة الإمبراطور، وعليك أن تطيع"[99] وقدم إليه رسائل التهديد التى بعث بها قسطنطيوس[100]. ولكن أسقف روما رفض مطلبى الخصى وراح يمتدح أثناسيوس[101]، ويبدو أن الإمبراطور استخدم وسائل الأغراء بعد أن أخفق التهديد ولكن دون جدوى[102]، ومن ثم أمر الإمبراطور بالقبض على ليبريوس[103]، واقتيد إلى البلاط في ميلانو[104]، ودار بين الرجلين حديث على جانب كبير من الأهمية تبين وجهة نظر كل منهما في العلاقة بين الدولة والكنيسة، ورأى كل منهما في الأسقف السكندرى، وقد حفظ لنا المؤرخ ثيودوريت

---

(٩٧) يتخيل أثناسيوس في حديث طويل أساقفة الآريوسية وقد اجتمعوا يأتمرون ومعهم الإمبراطور حول الوسائل الكفيلة التى تحقق لهم السيطرة على الكنيسة، وكان من أهم الأسس التى أقروها حسبما يروى أثناسيوس "محاولة استمالة هوسيوس وليبريوس .. من ذلك مثلا قولهم في تصور أثناسيوس. "لو استطعنا إغراء ليبريوس لعلا نجمنا فوق الجميع وساد". راجع ATHANAS. Hist. Arian. 35

(98) Id.
(99) Id.
(100) Id.
(101) Ibid. 36
(102) Ibid. 37
(103) Id.
(104) Ibid. 39

هذا الحوار(١٠٥).وقد اقترح ليبريوس دعوة الأساقفة لعقد مجمع عام في الإسكندرية حتى يقف الجميع على القضية في موطنها، غير أن قسطنطيوس رفض ذلك، واتهم أثناسيوس صراحة بأنه كان وراء مقتل أخيه الأكبر، اذ حرض قسطنطيوس الثانى حتى غزا أقاليم أخيه، فلقى حتفه، ثم كان السبب أيضا في إيقاع العداء بينه وبين قنسطانز حتى هدده بالحرب من أجله. وقد انتهت هذه المحاورة دون أن يجنى الإمبراطور شيئا، ولم تمض ثلاثة أيام حتى كان الإمبراطور قد أمر بنفيه إلى بيرويا Beroea في تراقيا، واختير للأسقفية بدلا منه فيلكس Felix أحد رجال العقيدة الآريوسية(١٠٦). وكان ذلك خسارة كبرى لكنيسة الإسكندرية، اذ فقد أسقفها المركز الرئيسى الذى يستطيع أن يجتمع أساقفة الغرب من حوله تأييدا له.

لم يبق أمام الإمبراطور إذن إلا "أبو المجامع"، هوسيوس القرطبى، ولم تكن أهميته تقل عن ليبريوس، فإذا كانت هذه ترجع عند أسقف روما إلى كرسيه الرسولى، فإنها عند هوسيوس تتمثل في الهيمنة الروحية والتقدير له من الكنيسة الكاثوليكية. ولا يخفى علينا أن هوسيوس هو الذى قاد أساقفة الغرب في سرديكا ضد اكليروس الشرق، وانتصر لأثناسيوس، وأعاده بقرار المجمع ونفوذ قنسطانز إلى الإسكندرية، ولم يكن قسطنطيوس بغافل عن كل هذا، ولا أساقفة البلاط(١٠٧) وعليه فقد استدعى الإمبراطور إليه الأسقف القرطبى ليمثل أمامه في ميلانو سنة ٣٥٥، وأمره بالإقرار بإدانة أثناسيوس وقبول الآريوسيين في شركة الكنيسة(١٠٨) ولكن هوسيوس لم يكن أقل صلابة من ليبريوس وعنادا، ومع ذلك فقد سمح له الإمبراطور بالعودة إلى دياره(١٠٩).

---

(105) THEOD. Hist. Eccl. II, 13 وراجع ملحق رقم ١

(106) ATHANAS. Hist. Arian. 42

(١٠٧) ومرة أخرى يترك أثناسيوس لقلمه عنان التصور ، فيخال أساقفة الآريوسية وقد التفوا من حول قسطنطيوس يؤكدون له أن كل ما تم اتخاذه من تدابير وإجراءات ، لا يعدل مطلقاً حرمان الكنيسة من هوسيوس ، الذى إذا ظل فى بيعته راعياً فلسوف يدين له الكثيرون بالولاء ، فيولى قيادهم شطر القضاء على الآريوسية عقيدة واتباعاً

راجع ATHANAS. Hist. Arian . 42.

(108) Ibid.43

(109) Ibid. 43

ويبدو أن المائة عام[١١٠] التى يحملها الأسقف على كاهله، جعلت قسطنطيوس يشفق على الرجل من قرار بالنفى يورده حتفه، ولعله أشفق على نفسه كذلك من مثل هذا القرار الذى ربما أثار كنائس الغرب بعامة من أجل ستين عاما[١١١] قضاها الأسقف يرعى شعب الكنيسة، وترك بصماته على العقيدة والقضية منذ نيقية إلى سرديكا.

وللرجل بين الأساقفة كلهم قدره واحترامه، ولا يبعد أن يكون قسطنطيوس قد أمل بقرار عفوه عن هوسيوس أن يخفف من حدة البغضاء التى يحملها له أساقفة الغرب بسبب سياسته في مجمع ميلانو وموقفه من ليبريوس، ويؤيد ذلك أن قرارا بنفى هوسيوس لم يصدر من الإمبراطور رغم أن الأسقف ظل على عناده طيلة عامين، إلى أن تلاقى مع الآريوسيين عام ٣٥٧.

وعاد هوسيوس إلى قرطبة، وهناك تلقى رسالة من الإمبراطور تحمل في طياتها عبارات التهديد[١١٢]، ويقول أثناسيوس إن الاريوسيين تكاثروا على قسطنطيوس مصورين له مدى الخطورة التى يمكن أن تترتب على إطلاق سراح هوسيوس، فأصغى لهم وكتب إليه هذه الرسالة[١١٣] على أنه يمكننا اعتبارها جزءا من السياسة التى انتهجها قسطنطيوس في معاملته للأسقف القرطبى، ففي الوقت الذى من عليه بالعفو، بعث يخبره أنه على إيقاع الأذى به قادر، وهذا يبين مما يذكره أثناسيوس نفسه من أن الإمبراطور لم ينس أن يخاطب هوسيوس في رسالته بلقب الأب، ويخلع عليه آيات التقدير، ثم سرعان ما يتبع ذلك بنغمة الوعيد، ويعيد على ناظرى الأسقف أسماء أولئك الذين في المنفى غيبهم[١١٤].

غير أن هوسيوس لم تكن قد وهنت عزيمته، فرفض لهجة الإمبراطور

(110) Ibid. 45
(111) Ibid. 42
(112) Ibid. 43
(113) Id.
(114) Id.

وكتب إليه رسالة تعد وثيقة تاريخية هامة، يعرض فيها لفكرة الدولة والكنيسة والعلاقة بينهما في هذه الفترة الباكرة من عمر المسيحية، ولست أعني "بالباكرة" هنا أنها في القرن الرابع الميلادى، ولكن لأنه لم يمض على خلاصها من الاضطهاد إلا أقل من نصف قرن فقط. فطوال ثلاثة قرون والدولة الرمانية الوثنية تعتبر الكنيسة هيئة خارجة على القانون، فلما كان قسطنطيوس الكبير احتوت الدولة الكنيسة، وأسلمت الكنيسة لقسطنطيوس قيادها، ثم غمرتها أحداث الجدل العقيدى فسمحت للأباطرة أن يسيروا دفة أمورها، بل لقد دعتهم بنفسها إلي أن يبحثوا أمر العقيدة رغم أن الأباطرة آنذاك لم يكن لهم باللاهوت المسيحى دراية، ولا كان عندهم بطبيعة ذلك الجدال وأسراره معرفة، حتى أن كاتبا وثنيا مثل أميانوس ماركللينوس فطن إلى ذلك عندما كتب عن قسطنطيوس يقول :"رغم إن العقيدة المسيحية كانت في أصولها واضحة وبسيطة، فإن قسطنطيوس أشاع فيها الارتباك والبلبلة بخرف الخزعبلات، وبدلا من أن يحل السلام بين الأحزاب المتصارعة بثقل سلطانه ونفوذه، فإنه سعى يوسع ويعمق بجدل عقيم تلك الخلافات التى أثارها وأهاجها بفضوله العابث، ولقد تغطى مرارا وجه الطرق العامة بكتائب الأساقفة الذين جيء بهم من كل مكان للاجتماعات التى يدعونها مجامع كنسية، وبينما يسعون جاهدين للحد من هذا الشاق، فإن الجهد لا يلبث حتى يتحطم على صخور وجهات النظر المتعارضة وسرعة اتخاذ القرارات(١١٥).

بل إن قسطنطيوس الكبير نفسه أفصح من قبل عن فكرته حول طبيعة الجدل اللاهوتى عندما راح يصفه في رسالته إلى اسكندر وآريوس بـــ"التفاهة" وبأنه لا يعدو أن يكون "خلة حمق صبياني". ولا يمكننا أن نصف نفرا من الاكليروس بأنه التجأ بالكنيسة إلى الدولة دون غيره، فالنيقيون والآريوسيون على السواء فعلوا ذلك، غاية الأمر أن هذا الاضطراب العقيدى سمح لجماعة من رجال الكنيسة أن يعلقوا بالإمبراطور آمالهم، وكان يوسيبيوس النيقوميدى، وفالنز وأورساكيوس رجلا بانونيا، أوضح الأمثلة على ذلك، حتى جاز أن نطلق عليهم أساقفة البلاط أو

(115) AMM. MARC. Res. Gest. XXI, 16 .

الأساقفة السياسيين. وقد وجد فيهم قسطنطيوس ضالته التي يبحث عنها من أجل تدعيم نفوذه على الكنيسة وسلطانه، خاصة بعد أن ناصبه العداء أساقفة النيقية ! ونالوا من كبريائه حينا من الزمان.

من هنا تجيء غرابة رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس وجرأتها في الوقت ذاته. فلم يكن الفكر الروماني آنذاك يستطيع أن يتقبل فكرة إقامة هيئة مستقلة، هي الكنيسة، داخل الإمبراطورية، أو بمعنى آخر دولة داخل الدولة. ذلك أن الإمبراطور الروماني كان يعتبر الكاهن الأعلى Pontifex Maximus في الدولة الوثنية، وظل أباطرة المسيحية يحملون هذا اللقب حتى نهاية القرن الرابع، وإن كان قد أصبح الآن الأسقف الأعلى(١١٦)، ولذلك لا يمكن أن نعتبر ما جاء في رسالة هوسيوس، أو ما ورد بعد ذلك عند أثناسيوس(١١٧)، نظرية في العلاقة بين الدولة والكنيسة بالمعنى المفهوم للنظرية ، فلم تكن قد تبلورت بعد مثل هذه المفاهيم، ومن ثم تعد مجرد تعبير عن فكر أصحابها فقط لحظة إحساسهم بحيف نزل بساحتهم ، وإن كان يمكن في الوقت ذاته اعتبارها عند هوسيوس بالذات بادرة مبكرة لطبيعة هذه العلاقات التي سيطرت على العصور الوسطى فيما بعد.

ذلك أن الغرب الروماني كان يختلف بطبيعة فكره كلية عن الشرق الروماني، فبينما غرق هذا حتى آذانه في حمى الجدال العقيدي، انصرف الشطر الغربي بجهوده إلى إرساء قواعد النظرية الكنسية، والعلاقة بين البابوية والإمبراطورية، كما تتجلى بأوضح صورها في القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر(١١٨).

يبدأ هوسيوس رسالته بالحديث عن نفسه وصلابته أمام الاضطهادات التي توالت على الكنيسة منذ عهد دقلديانوس، ويعلن رفضه سماع نغمة التهديد التي

---

(116) Watson, op. cit. p. 14.
(117) ATHANAS. Hist. Arian. 49, 52, 57
(١١٨) راجع للمؤلف مقدمة الجزء الثاني من الدولة والكنيسة

يستخدمها الإمبراطور[١١٩]، ثم يعرج على ما حدث في سرديكا، وما كان من أمر فالنز وأورساكيوس ورسالتيهما إلى يوليوس وأثناسيوس[١٢٠]. وبعدها تشتد لهجة الأسقف حيث يقول موجها حديثه للإمبراطور:

"... ألا فلتقلع عن القهر والطغيان، لا تكتب رسالة، لا ترسل قائدا . أطلق أولئك الذين في المنفى هم الآن، خشية إن داومت على العنف أنت أتواهم من القوة والعنف أعظمه"[١٢١] .

ولعل هذا هو ما كان يخشاه الإمبراطور وأساقفة البلاط إن ظل هوسيوس طليق اليد حرا. ويمضي الأسقف في رسالته يقارن بين قسطنطيوس وأخيه قنسطانز " الذى لم يقدم على شئ مما يأتيه هو الآن"[١٢٢]، ثم يدلى هوسيوس برأيه الذى قدمنا له الآن يقول :

"تذكر أنك رجل فان، خف يوم الدينونه، واحفظ نفسك لليوم ذاك نقية طاهرة . لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية، لا تصدر إلينا أوامر هى من صميم شئوننا، بل لتعلمها أنت منا نحن . الله وضع في يدك هذه المملكة، والينا سلم أمور الكنيسة وكما أن الذى يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر في عينى الرب، فلتخش أنت أيضا التدخل في شئون الكنيسة حتى لا تأتي بذلك شيئا إدا. مكتوب (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم فليس من حقنا أن نمارس حكم الدنيا وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور "[١٢٣].

(119) HOS, Ep. Ad. Const.(ATHANAS. Hist. Arian. 44)
(120) Id.
(121) Id.
(122) Id.
(123) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian. 44).

وإذا جاء حديث هوسيوس بهذه الصراحة، فلا ينبغي أن يغرب عن ذهننا أنه رحب شأن يوسيبيوس القيسارى بالتزاوج بين الكنيسة والدولة، مذ عمل مستشار قسطنطيوس الكبير للشئون الدينية، ومذ قبل سيادته في نيقية، ومذ طلب الدعم من قنسطانز قبل سرديكا وبعده، وإن كنا نعتبرها في الوقت ذاته إرهاصا بما سوف تصبح عليه العلاقة بين الدولة والكنيسة في الغرب من بعد.

ويختتم الأسقف القرطبى رسالته بالحديث عن أثناسيوس وبراءته، وعدم التزام الإمبراطور بالمواثيق التى قطعها على نفسه، ويستمطر اللعنات على فالنز، ويدعو الإمبراطور إلى عدم الإصغاء له :

" قسطنطيوس، فلتوقف على الفور كل ذلك، ولتصغ إلى ، تلك فكر راودتنى، فكتبتها إليك . أما أنت فمن الأفضل أن لا تزدريها[١٢٤].

غير أن الإمبراطور لم يصغ لشيء مما جرى به قلم الأسقف القرطبى[١٢٥]فقد عقد العزم على تحطيم أثناسيوس، وصرح بذلك لأسقف روما ليبريوس أثناء لقائهما في ميلانو قائلا : " ليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى، ولا حتى ذلك الذى لم يكن متوقعا على ماجننتيوس ، يعدل طرد هذا الوغد من الكنيسة[١٢٦]".

ولذا ترك هوسيوس في بيعته، ولكنه لم يترك له وقتا للراحة أو الهدوء، بل ظل يسبب له الكثير من المضايقات، إذ استدعاه إلى سيرميوم في العام التالى (٣٥٦)[١٢٧] وأبقاه بها دون هدف سوى ترويض هذه النفس الجامحة .

هكذا أغلقت الدائرة في وجه أثناسيوس تماما في الغرب، وفقد الأسقف السكندرى قلاعه الحصينة هناك واحدة وراء الأخرى ، والإمبراطور يسير في

(124) Id.
(125) Ibid. 45
(126) THEOD. Hist. Eccl. II, 13
(127) ATHANAS. Hist. Arian. 45

خطته بسرعة متأنية. وكان هيلارى أسقف بواتييه (٣٥٠-٣٦٧) قد بدأ يشارك في هذه الأحداث التى تقع في الغرب، ويخبرنا واطسون Watson إن هيلارى ربما كان أيضا بين الذين أدانوا أثناسيوس في هذه الفترة(١٢٨). وقد لا يغدو هذا الرأى الحقيقة إذا علمنا أن هيلارى ظل حتى عام ٣٥٦، لا يعرف شيئا عن عقيدة نيقية، أو بالأحرى "الهوموسية" كما يخبرنا هو نفسه بذلك(١٢٩). كما أن عدم الإدراك العام لدى أساقفة الغرب بطبيعة الجدل في الشرق(١٣٠) جعل كثيرين من هؤلاء في مجمع آرل يدينون أثناسيوس دون العلم الكامل بجذور القضية(١٣١)، وذلك على النحو الذى أسلفنا، ولكن هيلارى لم يكن من بين الذين حضروا مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ بعد أن تكشفت له دوافع قسطنطيوس، بالإضافة إلى أنه قد أصبح مدركا لدوافع أساقفة البلاط(١٣٢).

ولا بد أن يكون الأسلوب الذى لجأ إليه قسطنطيوس في حمل الأساقفة على إدانة أثناسيوس، قد أثار لدى هيلارى شعورا بعدم الارتياح، فتملكه الندم على ما قدمت يده في آرل "(١٣٣)، وراح يكفر عن ذلك بمحاولة إقناع عدد من أساقفة غاليا بالتخلى عن إدانة الأسقف السكندرى(١٣٤) والوقوف في وجه ساتورنينوس أسقف آرل صديق البلاط(١٣٥). وقد جلب هيلارى على نفسه بذلك عداء الإمبراطور.

ويبدو أن أسقف بواتييه لم يكن على استعداد آنذاك ليدخل في صراع مع قسطنطيوس، ولهذا أسرع يكتب إليه رسالة Ad Costantium Augustum

---

(128) Watson, op. cit. p. 19

(129) HILAR. De Syn. 91 .

(130) Gibbon, op. cit. II, p. 374 .
وانظر أيضا Watson, op. cit. p. 11

(131) Neander Christ. Relig. And Church, IV, p. 52

(132) Watson, Loc. cit.

(133) HILAR, Ad. Const. Aug. I, 8 (p. L. X. 562-564)

(134) Watson, op. cit. p. 12

(135) Id.

تجمع بين الاحتجاج الخافت والضراعة، تبدأ بتوجيه نظر الإمبراطور إلى ضرورة كف أيدى السلطات المدنية عن التدخل في الشئون الدينية[١٣٦]، وكفالة الحرية التامة لشعب الكنيسة الكاثوليكية، ليدين بما يريد دون اكراه على تغيير معتقده"[١٣٧]. وترفع الرسالة بعد ذلك أكف الابتهال إلى الإمبراطور من أجل إعادة الأساقفة الذين تعرضوا للنفى إلى ديارهم[١٣٨]. ويلقى هيلارى تبعة هذه الأحداث على فالنز وأورساكيوس " الصبيين الجاهلين الخبيثين "، ويعد أى اتصال بهما خطيئة[١٣٩]، ويقول إن الآريوسيين قد تبين لدى الجميع منذ زمن مروقهم عن حظيرة الإيمان، في الوقت الذى ظهر فيه أن أثناسيوس بعيد كل البعد عما نسب إليه من اتهامات[١٤٠] ويختم هيلارى خطابه بما تم اتخاذه في ميلانو، والطريقة التى جرى بها، ويشير إلى ما تعرض له يوسيبيوس أسقف فرسالى والآخرون خاصة باولينوس أسقف ترير[١٤١].

غير أن هذه الرسالة لم تحدث أى تغيير في سياسة قسطنطيوس، ولكنها تركت أسوأ الأثر في نفسه، فقد كان يعقد أنه أمن جانب الغرب، واطمأن إلى غالة بالذات، وعلى رأس أساقفتها ساتورنينوس، فإذا به يواجه اضطرابا جديدا مصدره هذا الأسقف الذى ظهر فجأة على مسرح الأحداث في غالة، وراح يدعو أساقفة الغال إلى طرح ما اقترفوه، ولكن الإمبراطور كان يدرك في الوقت نفسه أن هؤلاء الأساقفة لن يضحوا ببيعتهم من أجل أسقف الإسكندرية وخاصة بعد ما رأوه في ميلانو، ويبدو أن قسطنطيوس قد أوحى إلى ساتورنينوس أن يكفيه عناء تلك الضجة الجديدة.

من أجل هذا فإنه في ربيع سنة ٣٥٦ دعا ساتورنينوس أساقفة غالة

(136) HILAR. Ad. Const. Aug. I, 1 (p. L. X. 557)
(137) Ibid. 1, 2 (p. L. X. 557-559)
(138) Ibid. I, 4 (p. L. X. 559)
(139) Ibid. I, 5 (p. L. X. 560)
(140) Ibid. I, 6, 7 (p. L. X. 560-562)
(141) Ibid. 1, 8 (p. L. X. 562-564).

للاجتماع ، وتم عقد مجمع في مدينة بيترای Biterrae [١٤٢] تحت رئاسته، ودعا إليه هيلارى قسرا، وكما جرت سنة المجامع آنذاك، لم يتعرض المجمع لمسألة العقيدة، ولم يجد شيئا يمكن اعتباره نقيصة تعتور إيمان هيلارى، ومن ثم دارت الاتهامات حول سلوكه، إذ خرج عن واجب وظيفته الاكليروسية، وبدلا من أن يعظ الجموع راح يحرضها ويدعوها إلى الشغب[١٤٣] وقر رأى الحضور على إدانته، وبعثوا بقرارهم هذا إلى جوليان Julianus، ابن عم الإمبراطور، وكان قد أضحى قيصرا في غالة منذ ٦نوفمبر سنة ٣٥٥ [١٤٤]، فرفعه هذا إلى الإمبراطور الذى صدق على قرار الإدانة وأصدر أوامره بنفيه في صيف سنة ٣٥٦ إلى آسيا[١٤٥]، وأشرك معه في الإدانة رودانيوس Rhodanius أسقف تولوز Toulouse الذى أعلن تأييده لهيلارى[١٤٦].

هكذا أطبق الإمبراطور بسلطانه على الغرب جميعا، ودفعه إلى قطع كل صلة له بأثناسيوس، وأساقفة الشرق كلهم يقفون أيضا ضده، إلا من نفر يسير يؤيده في همس، فحقق قسطنطيوس بذلك نجاحا كاملا في الجزء الأول من خطته التى وضعها للخلاص من خصمه العنيد ، وفي الوقت نفسه لفرض سلطان الدولة على الكنيسة دون عوج، وهو ما تقضى به النظرية السياسية الرومانية، وأضحى الأسقف السكندرى وكأنه يقف وحده وسط جزيرة نائية، ويصف أثناسيوس نفسه في هذه الحالة بقوله: " بعد أن أتم قسطنطيوس كل شيء وفق ما أراد،في إيطاليا

(١٤٢) حالياً Beziers قرب خليج ليون، وعن المجمع انظر

Hefele, op. cit. 1, 2 pp. 885-886
Fliche, op. cit. 111, p. 144
Mourret, op. cit. 11, p. 142
Kidd, op. cit. 11, p. 129

(143) Watson, op. cit. p. 14
(144) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 34
(145) HILAR, De Syn. 63
(146) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 39
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9

وفي كل مكان، وبعد أن نفى بعضا وقهر آخرين، وملأ بالخوف كل البقاع، استدار ومرجل الغضب يغلي في نفسه، والشر متقد، ناحية الإسكندرية(١٤٧).

وإذا كان قسطنطيوس قد انصرف بعد ميلانو إلى محاولة إخضاع ليبريوس وهوسيوس، فإنه عمل خلال هذه الفترة أيضا على أن يثير العراقيل في وجه أثناسيوس، فقرب نهاية أغسطس عام ٣٥٥ قدم الإسكندرية – ديوجنس Diogenes سكرتير الإمبراطور(١٤٨) ولم يكن يحمل معه أية أوامر محددة فيما يختص بالأسقف السكندرى(١٤٩) رغم ما يقوله صاحب الحوليات(١٥٠) من أن الهدف الأساسى لمجيئه هو القبض على أثناسيوس، ولو كان هذا القول صادقا، لما تردد أثناسيوس في ذكره، بل إنه يكرر أكثر من مرة في كتاباته أن ديوجنس لم يأت إليه بأية رسالة من الإمبراطور، وليست لديه أية تعليمات من قسطنطيوس بشأنه وقد استفسر الأسقف منه عن ذلك شخصيا(١٥١) واستخدم أثناسيوس ذلك في الدفاع عن نفسه فيما بعد . ويصور قلم الأسقف مدى القلق النفسى الذى كان يعانى منه آنذاك، ولهفته على الوقوف على أية أنباء جديدة لما يحدث في الغرب، وما يدور في صدر الإمبراطور تجاهه، ويبدو ذلك جليا في الطريقة التى يتحدث بها عن هذا القدوم المفاجئ الغامض لديوجنس إلى الإسكندرية(١٥٢).

كانت مهمة ديوجنس الأساسية في المدينة، كما تكشف عنها الأحداث، هى مضايقة الأسقف السكندرى، ومحاولة زيادة الايلام لنفسه المضطربة، فقد قضى سكرتير الإمبراطور في الإسكندرية أربعة أشهر يقلب المدينة ضد أسقفها، ويستثير

---

(147) ATHANAS. Hist. Arian. 47
(148) HIST ACEPH. III, 4 وراجع أيضا FEST. IND. XXVII
(149) ATHANAS. Apol. Ad. Const. 22
(150) FEST. IND. XXVII
(151) ATHANAS. Apol. ad. Const. 22
(152) ATHANAS. Apol. ad. Const. 22

الجموع من أجل التخلى عنه[١٥٣]. وفي الرابع من سبتمبر هاجم إحدى الكنائس في الإسكندرية[١٥٤]، بغية قهر الجموع فيها على التخلى عن أثناسيوس، أو على الأقل إحداث الاضطرابات في نفوس شعب الكنيسة[١٥٥]، حتى إذا اقترب العام من نهايته، ارتحل ديوجنس في ١٣ ديسمبر عائدا إلى سيده[١٥٦].

وتجمعت لدى الإمبراطور عدد من الاتهامات موجهة بطريقة مباشرة إلى الأسقف السكندرى، تقول إنه قام بتحريض الإمبراطور الراحل قنسطانز ضد أخيه قسطنطيوس، ودفعه أن يبعث إليه مهددا[١٥٧]، كما أنه لم يخجل من مراسلة ماجننتيوس قاتل قنسطانز، بهدف إثارته أيضا على قسطنطيوس وتشجيعه على حربه[١٥٨]، هذا إلى أنه استخدم الكنيسة الكبرى في الإسكندرية، وهى التى كان العمل في بنائها لا يزال جاريا ولم يتم بعد تدشينها بموافقة الإمبراطور، مما يعتبر تعديا من الأسقف على حق من حقوق الإمبراطور[١٥٩]، أما الاتهام الرابع فيقوم على أساس عدم امتثال الأسقف للأوامر الإمبراطورية برفضه الذهاب إلى إيطاليا كما جاء في الرسالة التى حملها مونتانوس إليه من قبل[١٦٠].

وهذه الاتهامات في جملتها تتناول أساسا ما يمس كرامة الإمبراطور والدولة، وتظهر الأسقف وقد راح ينتقص من سلطان الجالس على العرش، ولا شك أن مشهد صور ومريوط سنة ٣٣٥ يعود الآن.

وفي ٦ يناير سنة ٣٥٦، دخل الإسكندرية القائد سيريانوس Syrianus واستقدم إليها شراذم من الفرق العسكرية العاملة في مصر وليبيا[١٦١]، وبكل القلق

(153) HIST. ACEPH. III, 4
(154) Id.
(155) ATHANAS. Hist. Arian. 48
(156) HIST. ACEFH. III, 4
(157) ATHANAS. Apol. ad Const. 2
(158) Ibid. 6
(159) Ibid. 14
(160) Ibid. 19
(161) HIST. ACEPH. IV, 5

والاضطراب أقبل أثناسيوس على القائد يسأله إن كان يحمل شيئا يغنيه من قبل الإمبراطور، ولكن سريانوس أجاب بالنفى[١٦٢]،غير أن نفس الأسقف لم تهدأ ، فطلب من القائد أن يؤكد له ذلك كتابه، أو أن يتولى حاكم مصر ماكسيموس Maximus ذلك بنفسه[١٦٣]. وكانت الأنباء قد وردت إلى الإسكندرية عما حدث في الغرب[١٦٤]، وإن كانت تفاصيلها لم تتضح بعد، ذلك إن أثناسيوس يخبرنا أنه لم يعلم بنفى ليبريوس وما وقع لهوسيوس إلا بعد هروبه من الإسكندرية ودخوله الصحراء الليبية في طريقه إلى الإمبراطور[١٦٥].

وقد شاركت الجموع أسقفها حالة القلق والحيرة، فأجمعوا أمرهم وتقدموا في ١٦ يناير إلى سيريانوس وماكسيموس بعدة التماسات تتضمن الكف عن إيقاع الأذى بالكنائس حتى يرسلوا وفد من قبلهم إلى الإمبراطور، أو يقدم أحدهما أو كلاهما وثيقة إلى أثناسيوس تفصح عن نيات الإمبراطور حيال الأسقف[١٦٦]، ودعم أثناسيوس ذلك بالرسالة التى كان قسطنطيوس قد بعث بها إليه عقب مقتل قنسطانز مباشرة تطمئنه على نفسه وأسقفيته وقد أعلن سيريانوس تعهده بعدم الأقدام على شئ ما لم يتلق أمرا من الإمبراطور، كما وعدهم برفع التماساتهم إليه[١٦٧] وساد الإسكندرية هدوء ينذر بعاصفة.

ولم تمتد طويلا فترة الترقب هذه، فبعد مضى ثلاثة وعشرين يوما على هذه الأحداث، وفي منتصف ليلة الخميس الثامن من فبراير ٣٥٦، وبينا أثناسيوس يؤم جموع المصلين في كنيسة ثيوناس Theonas دهم القائد سيريانوس الكنيسة على

(162) ATHANAS. Hist. Arian. 22
(163) Id.
(164) Id.
(165) ATHANAS. Apol. ad Const. 27
(166) Ibid. 24
وراجع لأثناسيوس أيضا Hist. Arian. 81
(167) ATHANAS. Apol. ad Cont. 24

رأس خمسة آلاف جندى بغية القبض على الأسقف[١٦٨] غير أثناسيوس استطاع أن يفلت من هذا الحصار.

وكان الرهبان هم السبب الرئيسى في هذه النجاة، واختفى أثناسيوس عن أعين السلطة الإمبراطورية طيلة ست سنوات آتية (٣٥٦-٣٦٢) تمثل فترة نفيه الثالث، وانتقم الإمبراطور قسطنطيوس لنفسه من هذا الخصم العنيد، وان كان قد انتقص من سعادته بهذا النصر، إنه لم يشهد الأسقف السكندرى ماثلا بين يديه ينتظره قراره .

والطريقة التى أريد بها للقبض على الأسقف السكندرى تستحق النظر، فالإمبراطور أفاد من التجربة التى جرت عندما حاول هرموجنوس القبض على بولس أسقف القسطنطيوسية علانية، فلقى مصرعه، ولم يكن من السهل استخدام أسلوب الخديعة مع أثناسيوس كما حدث لبولس في المرة الثانية، عندما أفلح فيليب في استدراجه بعيداً عن أعين الجموع وقذف به إلى المنفى، فلم تكن النذر في القسطنطيوسية توحى آنذاك بوقوع هذا الحادث، أما الإسكندرية فكان شعب الكنيسة

---

(١٦٨) يذكر أثناسيوس إنه بينما كان يعظ الجموع ويؤمهم احتفالا باليوم السابع عشر لعيد الفصح Septuagesima اقتحم القائد سيريانوس الكنيسة بقواته .. وألقى عليها من الخارج حصاره، غير أن أثناسيوس حسب روايته، أظهر رباطة جأش وجلس على عرش الكنيسة وأمر الشماس أن يستمر في قراءة المزمور الذى كان يتلوه، والجموع تجيب"... لأن إلى الأبد رحمته " (مزامير ١/١٣٦) ويقول أثناسيوس إنه رفض الخروج من الكنيسة قبل أن يخرج الجميع، وإن الرعية طالبته بالنجاة ولكنه أبى ذلك، ولما أخذ الاكليروس وشعب الكنيسة ينسلون واحداً تلو الآخر، وجد الأسقف نفسه محاطا بجموع الرهبان الذين كانوا يشاركون في الاحتفال، ونفر من الاكليروس، وأخذوه وسطهم، ودلفوا به خارج الكنيسة دون أن يفطن إليهم أحد من الجنود، ولما لم يقف الجنود على أثر للأسقف، راحوا يقتحمون حجرات الكنيسة ويحطمون الأبواب ولكن دون جدوى ".

راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 25

وانظر لأثناسيوس كذلك Apol. de Fuga. 24

وله أيضا Hist. Arian. 48

بالإضافة إلى ذلك راجع FEST. IND. XXVIII

وأيضا HIST. ACEPH. IV, 5

فيها والأسقف على رأسه يعيش حالة من القلق والاضطراب النفسى قرابة ثلاث سنوات أو ينيف، تمثل في لقاء الأسقف لسيريانوس، والالتماسات التى تقدمت بها الجموع إليه والى حاكم مصر، ولم تكن الإسكندرية وحدها هى التى تدرك أن الإمبراطور يدبر للأسقف أمرا، ولا شك أن هذا هو الذى دفع ذلك الجمع من الرهبان للقدوم إلى الإسكندرية ليكونوا على مقربة من أثناسيوس، وليقوموا بدورهم في اللحظة المناسبة ، هذا هو ما حدث فعلاً . ولما كان من المستحيل إلقاء القبض على الأسقف جهاراً، كما أنه لن تجدى معه محاولة الخداع، فقد وضعت الخطة على هذا النحو الذى جرت به، والتى أصبح واضحا أن مهمة سيريانوس كانت تنحصر في تنفيذها، وأعد لها من الضمانات ما يكفل نجاحها ، غير أن هذه الضمانات أخفقت جميعها في الإيقاع بالأسقف.

ويضفى أثناسيوس ومؤرخو الكنيسة(١٦٩) على نجاة الأسقف نوعا من عناية الرب وتدبيره. والحقيقة، كما يبدو، إن أحداً من الجنود لم يكد يتبين ملامح الرجل وسط كهنوت يرتدى أردية واحدة، ولم يزوه من قبل، فهم قد جمعوا من مختلف أنحاء مصر وليبيا، ولم يكن اللقاء الذى تم بين الأسقف وسيريانوس كافيا لكى يجعل القائد يعرف أثناسيوس تماما، ومع الاضطراب الذى صحب اقتحام الجنود للكنيسة، وتكاثر الرهبان والاكليروس والجموع حول أثناسيوس، جعل من السهل على الأسقف أن يختفى وسط هذه الجمهرة، ويفلت من قبضة جند الإمبراطورية ولابد أن يكون قد صحب ذلك نوع من التهاون في تنفيذ الخطة من جانب بعض الجنود في داخل الكنيسة وخارجها ، ودقة تامة من جانب الرهبان للحفاظ على حياة الأسقف .

أدرك قسطنطيوس بعد تدبر أن هروب أثناسيوس يشكل أمرا خطيرا،ربما تفوق خطورة بقائه على كرسى الكنيسة، ومن ثم سعى كى يستميل إليه شعب الكنيسة السكندرية، ويمحو من أذهانهم تلك الصورة التى رسموها لأسقفهم طوال

(169) ATHANAS. Apol, de fuga. 24 .
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 9

هذه السنين ، فكتب رسالة إلى السكندريين تعتبر أصدق تعبير عما يجيش في نفس الإمبراطور تجاه أثناسيوس، والذى وصفه الكاتب الوثنى أميانوس ماركللينوس بأنه العداء الشخصى والبغضاء المزمنة(١٧٠) ".

وقد جاءت مقدمة الرسالة(١٧١)مدحا في السكندريين باعتبارهم " أساتذة الحكمة ورواد المعرفة "، ليجذب إليه الأفئدة ضد الأسقف، وبعد هذه المقدمة يطلق الإمبراطور العنان لقلمه ليكتب ما شاءت له قواميس القدح اللاذع في أثناسيوس فيقول :

" وبعد . . . فهل هناك من يجهل أولاء الذين انتبذوا بأنفسهم مكانا قصيا، أى روح عنيفة تكشفت في تلكم الأحداث العنيفة التى وقعت أخيرا، تلك التى لا يمكن أن نجد ما نقاعنه بها . فجموع من المدينة وقد عميت بصائرهم، ورجل ينحدر من أصل دنى يجلل بالعار، تملك عليهم السلطان، أوقعوا في حبائل مكرهم أولئك الذين يتوقون للحق شوقا. رجل لم يدخر لجموعه أى حديث مثمر أو عظة، بل افسد العقول بخبث ودهاء، وصاح منافقوه والمداهنون يطرونه مادحين، وقد تملكتهم الدهشة من هول اكتداره، وإن كانوا يدمدمون خفية، بينما جموع البسطاء قد أصبحت لهم ذيلا وذنبا، واندفع الكل في هياج هو الطوفان يقودهم رجل، ماذا يمكن أن أقول عنه، إلا إنه لا يتحلى من الإنسانية بخلال، وكأن رحمته الوحيدة إنه لم يلق المواطنين في غيابة الجب. هذا العقل المتزن والشخصية اللامعة لم ينتظر

---

(170) AMM. MARC. Res gest. XV, 7-10

(١٧١) جاء في مقدمة الرسالة : " إن مدينتكم وهى تحتفظ بخلاقها الأصيل، وتعى فضائل مؤسسيها، قد أبدت دواما أنها لنا نعم المطيع، واليوم هذا حالها، نحن في نظر أنفسنا مقصرين في رعايتنا لها إن لم يحجب خيرنا خيرية الإسكندر بانيها، ولتسمحوا لى أن أذكركم أنكم كنتم أساتذة الحكمة ورواد المعرفة.
والإله قد اختار لكم دوما رجالا بلغوا من الكمال مراتبه، يرضى تماما عن فكرنا فى بغض ذلك المخادع الدجال. ألا فلتجمعوا صفوفكم وراء أولئك الرجال، الذين يفوقون كل إعجاب، شيوخ الوقار " .
راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 30

حتى يحكم القضاء في أمره، لكنه حكم بالنفى على نفسه. ذلكم ما يستحق.

والآن فقد أصبح من حق المتبربرين ونفعهم أن يقذفوا به في عرض الطريق، مخافة أن يقود بعضا منهم إلى طريق الإلحاد والضياع، ذلك إنه سوف يشكو، شأن المكروب في مسرحية، لمن هم مثله قد سقطوا " (١٧٢).

على هذه الشاكلة راح الإمبراطور يرسم للسكندريين صورة عن أثناسيوس، يحاول بها أن يصرفهم عن نصرته، ثم يعود بعد ذلك في رسالته إلى امتداح خلالهم، ويزين لهم الدخول في شركة الأسقف الجديد الذى تم اختياره من جانب الآريوسيين خارج مصر خلفا لأثناسيوس، وهو أحد رجال كبادوكيا ويدعى جورج(١٧٣) Georgius . وبعد أن يعلى من قدر السكندريين، ويرفع إلى علنيين جورج هذا، يختم رسالته بحنق باد في قوله :

" ... لن نحتاج إلى سكين أو مكواة لهؤلاء الذين أرواحهم مريضة، أولئك النفر الذين لا يزالون يتعلقون بأثناسيوس، إلا فليطلقوا هذا التعلق، بل حتى لا يذكروا قبح كلامه الذى من قبل قال، وإلا فإنهم سوف يعرضون أنفسهم لأقسى أنواع العذاب، فذاك الوبيل أثناسيوس، بينما يساق الآن من مكان إلى أخر، بثقل جرائمه التى ارتكب، فأنه يعانى العقاب الذى يستحق... أثناسيوس ذاك الحقير، كم أضل الكثيرين، وأفسد الدولة، ومد أصابعه الرجسة، فدنس كل قدسية "(١٧٤).

---

(172) ATHANAS. Apol. ad Const. 30

(١٧٣) يقول قسطنطيوس في رسالة مخاطبا السكندريين : أما أنتم فإنكم تتحلون بالفضيلة، وسوف أكون سعيدا وأنا أسترجع لنفسي ذكرى سلوككم، وأنتم يا من فقتم سابقيكم في المجد والعظمة ، وسوف تكونون مثالا يحتذي لمن هم الآن يحيون، ولمن هم في الغيب آتون . فاختاروا لأنفسكم من للكائنات مرشدا بالقول والعمل . لا تترددوا للحظة، بل لينتقل على الفور ودادكم إلى الجانب الآخر، اتركوا هؤلاء المعلمين الأرضيين ذوى الخسة والحقارة، وتعلقوا بكائنات السماء تحت رشد ذلك المعظم جورج، فبرعايته سوف تفتح لكم أبواب الأمل في المستقبل وسوف تمضون حياتكم هذه في مسرة السكينة، وليكن الجميع عند كلمته، فهو مرساة القداسة " .

راجع ATHANAS. Apol. ad Const. 30

(174) Id.

بهذا أفرغ قسطنطيوس كل ما يخالج فكره قبل أثناسيوس، وأزاح الإمبراطور عن كاهله بعض الشيء، جزءا من الرغبة في الانتقام لكبريائه الذى أهانه يوما الأسقف السكندرى، وراح يداهن الناس ويتهددهم في نفس الحين، عله ينقل إلى أفئدتهم شيئا يعانيه، وإلى هذا الحين لم تكن مسألة العقيدة وجوهر الإيمان محور القضية، لكنه صراع بين الأسقف والإمبراطور أو لنقل بين الكنيسة والدولة.

أحكم قسطنطيوس الحصار من حول أثناسيوس، أو هكذا خيل إلى الإمبراطور ، فباب الغرب في وجه أسقف الإسكندرية تم إغلاقه تماما، وأساقفة الشرق يمقتون الهوموسية ويكرهون أثناسيوس، وقسطنطيوس يأمل بخطابه إلى السكندريين أن تنفض الرعية من حول أسقفها، ولكن ميدانا واحدا بقى، وكان على الإمبراطور أن يسد الثغرة منه حتى لا ينفذ إليه أثناسيوس، تلك المنطقة التى كان أثناسيوس قد مد إليها سلطان الإسكندرية الأسقفى منذ عضر سنوات وهى مملكة أكسوم، فكتب إلى مليكها هذا الخطاب :

" قسطنطيوس المظفر، الأوغسطس العظيم إلى عيزان Aezanes وسازان Sazanes .

" ... لما كان في الاعتبار أن تحظوا بنفس العناية والاهتمام، سواء مع الرومان بسواء، فقد رأينا أن تكون العقيدة التى تدين بها الكنيسة هنا وعندكم واحدة، وعليه، أرسلوا على التو إلى مصر الأسقف فرومنتيوس ليلقى الأسقف جورج العظيم والآخرين، الذين يملكون سلطة الرسامة لمثل هذه الوظائف، لأنكم بالطبع تعرفون جيدا وتذكرون أن فرومنتيوس قد وصل إلى هذه المرتبة الكهنوتية على يد أثناسيوس، إلا إذا كنتم تدعون الجهل بحقيقة يعلمها الجميع "(١٧٥).

بهذا أراد قسطنطيوس أن ينقل ولاء فرومنتيوس، الأسقف الذى رسمه أثناسيوس، إلى الأسقف الآريوسى جورج الكبادوكى، ولم يكن الإمبراطور يعنى الآريوسية في جورج عندئذ بقدر ما كان يبتغى أن يسد أمام الأسقف الهارب منافذ

(175) ATHANAS. Apol. ad Const. 31

اللجوء، وحاول أن يضع أمام هؤلاء سيرة سيئة لذلك الرجل الذى تناولوا على يديه شركة الكنيسة، فمضى في خطابه قائلا :

... ذلك الرجل يحمل وزر عشرة آلاف خطيئة، ولم يستطع أن يجلو أى إتهام من هاتيك التى وجهت ضده، بل إنه حرم قبل ذلك من كرسيه الأسقفى، وهاهو الآن تائه شريد لا يعرف أين المأوى والمستقر، يهيم من بلدة إلى بلد، يحسب إنه بهذا التجوال يستطيع أن يهرب من الآثام، وبعد، فإذا ما أطاع فرومنتيوس أوامرنا، وأذعن لبحث كل الظروف حول رسامته، فإنه سوف يظهر جليا أمام الجموع إنه لا يناوئ قوانين الكنيسة والإيمان، وإذا ما قدم الدليل على حسن سيرته، ورسم صورة لحياته أمام أولئك الذين بأيديهم مقاليد الأمور في هذه الأمور. فإنه سوف يتلقى رسامته منهم، إذا ما تبين أن له أى حق في أن يكون أسقفا ، فإذا ما تقاعس وتجنب أن يدخل في تجربة، فإنه بذلك يؤكد بصورة واضحة إنه قد مال لاغراءات ذلك الوغد أثناسيوس، ذلك الذى صنع الشر في عينى الرب "(١٧٦).

ثم يفصح الإمبراطور عن الهدف الأساسى من وراء هذه الرسالة :

" ... وكل ما نخافه أن تحط به عصا التسيار في أكسوم، فيفأد فيها الرعية، بأن يقدم لهم عقائد ضالة مضلة، ويثير الفوضى في الكنيسة والاضطراب، مجدفا على الإله العلى، ولكن البلية الكبرى أنه سوف ينزل الخراب والضياع في كل مكان به حل . وإنى لعلى يقين أن فرومنتيوس سوف يعود إلى بيعته وهو على علم تام بكل هذه الأحداث التى تهم الكنيسة، وسوف يزود ببعض الأوامر التى تحتوى على عظيم النفع له والكنيسة ، وذلك من خلال لقائه مع العظيم جورج والأساقفة الآخرين، حفظكم الرب ورعى اخوتي المبجلين "(١٧٧) .

قرت عينا قسطنطيوس شيئا ما بهذا الجهد الكبير الذى بذله، ونجحت سياسته

(176) ATHANAS. Apol. ad Const. 31
(177) ATHANAS. Apol, ad Const. 31

إلى حد كبير في عزل أثناسيوس عن جميع الأساقفة في الشرق والغرب، واطمأن إلى أن الأسقف الهارب لا يلبث أن يفقد احتمال ما يكابده من عناء الترحال، فقد كان الإمبراطور يعتقد كما أفصحت رسائله أن أثناسيوس ليس له الآن مستقر يحمله، وإن نغمة التهديد التى ترددت في رسائله إلى السكندريين وملكى أكسوم، سوف تجعل من الصعب على أى من هؤلاء أن يقدم للأسقف ملجأ أو ييسر له ملاذا، وبث قسطنطيوس عيونه فى كل مكان تبحث عن هذا الأسقف العنيد .

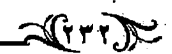
أمن الأسقف على نفسه، ولكن نفسه لم تكن آمنة . فقد اختفى به الرهبان وسط الصحراء في أديار وادى النطرون، يحوطونه بكل الرعاية ويدفعون عنه، ولكن الأسقف كان القلق يتملكه، فخلف من ورائه صحراء النطرون، واتخذ سبيله في صحراء ليبيا، يحمل معه دفاعا كتبه في مسيرته، يقصد به وجه الإمبراطور. والحقيقية إن أثناسيوس لم يقتنع بمسألة هروبه هذه، ولا اطمأنت نفسه إليها، وكان يعتقد أن الإمبراطور لابد وقع فريسة نفر من خصومه، فأقدم على هذه الإجراءات، بل إن الشيء الغريب حقا أن أثناسيوس كان يتصور أن هذه الأحداث ربما تكون قد وقعت بفعل أساقفة البلاط وتدبيرهم، وإن الإمبراطور لا يدرى عنها شيئا[١٧٨] " ومن هذه الفكرة الأخيرة، صمم على أن يلقى الإمبراطور بنفسه، ليعرض عليه حقيقية الأمر، وليبين له تطور هذه الأحداث، وهو يعيد بذلك ما أقدم عليه زمن قسطنطيوس العظيم. إذ التجأ إليه ومثل بين يديه في القسطنطيوسية عام ٣٣٥ بعد أن لقى العنت في مجمع صور. من أجل هذا، بل انطلاقا من هذا، سار أثناسيوس رحلة الصحراء عبر ليبيا ليبحر من سواحلها إلى إيطاليا حيث كان قسطنطيوس آنذاك، ووضع الأسقف في هذه الرحلة وثيقة تاريخية هامة عن كل هذه الوقائع ليقدمها دفاعا إلى الإمبراطور قسطنطيوس Apologia ad Imperatorem Constantium بدأها أثناسيوس بقوله :

" لعلمى أنك مسيحى منذ زمان، أوغسطس ورع تقى، ومن منبت أصيل تنحدر، آثرت بمسرة أن أحدث الآن عن نفسى[١٧٩] ".

---

(178) ATHANAS. Apol. ad Const. 26, 29

(179) Ibid. 1



ويعلق روبرتسون على ذلك بقوله إن أثناسيوس خلع على قسطنطيوس صفات التقى والورع، رغم أن الإمبراطور لم يكن قد تلقى المعمودية بعد[١٨٠] إذ أن تعميده تم أثناء مرضه سنة ٣٦١ على يد يوزيوس Euzoius أسقف أنطاكية الآريوسى[١٨١]. وبعد ذلك يمضى أثناسيوس في عرض قضيته مقدما الأدلة التى يملكها في محاولة لإثبات براءته، مستندا إلى رسائل فالنز وأورساكيوس[١٨٢] ويعرض أثناسيوس للاتهامات الأربعة التى سيقت ضده، والتى قدمنا لها آنفا[١٨٣] وذلك في تفصيل دقيق يشغل ثلاثة أرباع دفاعه، ويرد على كل منها بما توافر لديه من البراهين، وبما كان من أمره هو شخصيا مع قنسطانز وماجننتيوس ثم مع قسطنطيوس نفسه في المرات الثلاث التي لقيه فيها، ويوضح الأسباب التى دعته إلى استخدم إحدى الكنائس قبل أن يتم تدشينها، ويعلن ارتيابه في أمر الرسالة التى دعته للذهاب إلى إيطاليا، ومن أجل ذلك رفض الاستجابة لها، ويعترف أنه ليس من الجنون حتى يعصى أوامر الإمبراطور[١٨٤]، مما كان سببا في تصاعد الأحداث بالصورة التى رأيناها وعرضنا لها.

ويقول أثناسيوس إنه بناء على كل هذا أسرع إلى الإمبراطور يحمل دفاعه هذا، يدفعه إلى ذلك معرفته بخيرية الإمبراطور، وتذكره الواعى لوعوده[١٨٥]. ولكنه ما أن امتد به الخطو في طريقه إلى قسطنطيوس حتى تلقى تقريرا ظنه، حسب تعبيره، غير حقيقى، ولكنه ما لبث أن اقتنع بكل ما جاء فيه. وعلم منه أن ليبريوس أسقف روما، وهوسيوس القرطبى، وباولينوس، وديونيسيوس ويوسيبيوس الإيطاليين، ولوكيفريوس السردينى، وفينكنتيوس أسقف كابوا، وغيرهم قد عوملوا

(180) Robertson, op. cit. p. 237 n. 1
(181) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 47
(182) ATHANAS. Loc. cit.
(١٨٣) راجع قبله.
(184) ATHANAS. Apol. ad Const. 2-26.
(185) Ibid. 27

معاملة غير كريمة حتى يتخلوا عن أثناسيوس[١٨٦]، وبينما أثناسيوس في حيرته هذه أتاه تقرير آخر يفيد أن أكثر من تسعين أسقفا في مصر وليبيا قد طردوا من كراسيهم وحل محلهم الآريوسيون، بينما أذعن آخرون، وأن الإسكندرية بالذات أكثر المدن تأثرا بهذه الأحداث[١٨٧].

وقد تألم أثناسيوس كثيرا نتيجة هذا التقرير الأخير، ولذلك كتب رسالة إلى أساقفة مصر وليبيا Ad episcopos Aegypti et Libyae يشير في أولها إلى تأثره بهذه الأنباء التى سمعها عن المحاولات التى جرت لتحويل الأساقفة إلى العقيدة الآريوسية[١٨٨]، ثم يورد ثبتا بزعماء الآريوسية فى الشرق محذرا أنصاره من الامتثال لهم أو الدخول فى شركتهم، ويشرك مع هؤلاء جورج الكبادوكى الذى أصبح أمر معلوما أنه سوف يخلف أثناسيوس فى الأسقفية، وحرضهم على عدم طاعته أو تقديم الولاء له[١٨٩]. ويعرض أثناسيوس بعد ذلك فى رسالته للعقيدة الآريوسية ويرد عليها[١٩٠]، وفى عبارات صريحة يستحث أنصاره على المقاومة العنيدة حتى الشهادة[١٩١]، ولم يكن يدور بخلد أثناسيوس أن هذا التحريض سوف يزيد من سخط الإمبراطور عليه، فقد كان يؤمن أن قسطنطيوس لا صله له البتة بهذه الأحداث، وهذا واضح مما جرى به قلمه (. . . نحن على يقين من أن إمبراطورنا الرحيم عندما يسمع بهذه الفعال، سوف يضع على الفور حدا لخبثهم وهذه الدناءة)[١٩٢]. ومن أجل ذلك اختم رسالته بكل عبارات الحماسة يحضهم على التصدى للفريق الآريوسى[١٩٣].

---

(186) ATHANAS. Apol. ad Const. 27.
(187) Id.
(188) ATHANAS. Ad episc. Aeg. Et Lib. 5
(189) Ibid. 7
(190) Ibid. 10 – 20
(191) Ibid. 21
(192) Ibid. 23
(193) Id.

واصل أثناسيوس رحلته قاصدا الإمبراطور، إذ لم يتملكه الشك حتى الآن في طهارة قلب قسطنطيوس، ويعبر عن ذلك بقوله : (إنى على ثقة بأن كل هذه الإجراءات التى حدثت كانت على غير رغبة الإمبراطور بل على غير علم منه "، ويضيف . " لو أن الإمبراطور علم بذلك لمنع على الفور وقوعها "[١٩٤]. لهذا ظل سائرا حتى حملت إليه الأنباء أن الإمبراطور قد بعث برسالتين إلى شعب الإسكندرية وملكى أكسوم، وتلقى أثناسيوس صورة من كل رسالة[١٩٥]، وعلم أن الأوامر الإمبراطورية قد صدرت بالبحث عنه، حتى ولو كان قد اختفي لدى المتبربرين خارج حدود الإمبراطورية[١٩٦].

هناك فقط أفاق أثناسيوس من وهم جهالة قسطنطيوس بكل ما حدث له، وتأكد لديه بصورة قاطعة أن الإمبراطور لم يكن غافلا عما تعرض له الأسقف السكندرى[١٩٧] ومن ثم تدبر الأمر، وعاد ثانية إلى الأمان[١٩٨] فى الأديار وسط الرهبان، وإن كان لم يفقد الأمل كلية فى عدالة الإمبراطور إذا ما علم القضية من فم صاحبها[١٩٩].

على هذا النحو سجل الأسقف دفاعه إلى الإمبراطور، وملأ صفحاته بألقاب التمجيد والإطراء التى خلعها على قسطنطيوس (التقى الورع)،أوغسطس المبارك)، (الخير الرحيم)، (محبوب الله)[٢٠٠]، ويعلن ولاءه الكامل للإمبراطور والإقرار بسيادته[٢٠١]. وكان دافع أثناسيوس إلى ذلك كما ذكرنا، يقينه ببعد الإمبراطور عن تدبير مثل هذه الأحداث، ومما يلفت النظر فى دفاع أثناسيوس، تلك التقارير التى كانت تصله تباعا وهو يقطع الصحراء هربا إلى قسطنطيوس.

---

(194) ATHANAS. Apol. ad Const. 29
(195) Id.
(196) ATHANAS. Apol. ad Const. 29
(197) Ibid. 32
(198) Id.
(199) Ibid. 34
(200) Ibid. 9, 18, 32, 34
(201) Ibid. 10, 21, 22, 24

ولاشك أن نقل هذه الأنباء والتقارير، بل وصور الرسائل الإمبراطورية ذاتها، يقتضى تنظيما سريا دقيقا وصارما ممن يتولون هذه المهمة، فهم يعلمون أن أى خطأ ولو يسير، يمكن أن يودى بسلامة الأسقف الذى ترقبه عيون الإمبراطور، والذى لاشك فيه أن الرهبان هم الذين تولوا حمل هذه المسئولية الجسيمة، ولقد قدمنا عند الحديث عن الرهبان أن أثناسيوس وضع نفسه على رأس الحركة الرهبانية فى مصر، فاستطاع بذلك أن يضمن لنفسه المأوى والأمان وأن يكون رغم بعده عن ميدان الأحداث فى فترات نفيه، قريبا منها بالدرجة التى تخول له المشاركة فيها وتحريكها، أو حتى على الأقل متابعتها، ولذا كان الرهبان يمثلون الشق الثانى والأهم فى دعامتى أثناسيوس اللتين ارتكزت عليهما أيديولوجيته تجاه الدولة البيزنطية.

ويتساءل أثناسيوس فى ختام دفاعه :

" ترانى ماذا أفعل ؟ ! أآتى إلى الإمبراطور فى الوقت الذى تتأجج فيه صدور خصومى بالغضب ضدى والكراهية، بل وتسعى جاهدة من أجل قتلى ؟ ! ألختفى قليلا علهم فى هذه الفترة بآثامهم يدانون، ومن ثم تتنزل علىّ رحمة الإمبراطور ؟! أم ترانى أظهر أمام موظفيه، الذين على الرغم من أنه كتب إليهم من أجلى، إلا أنهم لم يفهموا من كتابه المبتغى، ولربما الآن أثيروا ضدى وربما قتلونى[٢٠٢] .. من أجل هذا آثرت أن أختفى إلى حين، حتى يجئ الوقت لأعرض على الإمبراطور دفاعى هذا "[٢٠٣] .

ويرفع الأسقف فى النهاية إلى الإمبراطور أكف الابتهال قائلا :

" إنى لأضرع إليك أن تتقبل دفاعى هذا، وأن تعيد كل الأساقفة والاكليروس إلى ديارهم والكنائس، حتى تبرئ نفسك الآن ويوم الدينونة "[٢٠٤].

---

(202) ATHANAS. Apol. ad Const. 34
(203) Ibid, 35
(204) ATHANAS. Apol. ad Const. 35

ولكن الإمبراطور لم يقرأ مما كتبه أثناسيوس هنا شيئا، فقد ظل الأسقف مختفيا طيلة ست سنوات يبحث عنه فيها الإمبراطور، ومات قسطنطيوس دون أن يلقى أثناسيوس، وطوى الأسقف دفاعه على نفسه وتركه للتاريخ.





الفصل السابع

قطوف الفكر الآريوسى



الفصل السابع
قطوف الفكر الآريوسى

كان قسطنطيوس يعلم جيدا أن الاكليروس فى مصر لن يقبل طواعية أن يحتل كرسى الإسكندرية الكنسى أسقف جديد، وأن شعب الكنيسة فيها لا يمكن أن يرضى عن راعي بيعته بديلا، وأن رسالته التى بعث بها إلى الإسكندرية تخاطب أهلها بماضيهم المجيد، وتحمل الوعيد، لن تحول ولاء الجميع عن عقيدة آمنوا بها، ورجل أخلصوا له، ومن ثم كان عليه أن يمهد السبيل أمام جورج الكبادوكى، الأسقف الآريوسى، الذى وقع عليه الاختيار ليكون خلفا لأثناسيوس، فاستدعى إليه ماكسيموس، نائبه فى مصر، وعين بدلا منه كاتافرونيوس[١] Cataphronius الذى قدم إلى الإسكندرية فى العاشر من يونية سنة ٣٥٦، وبصحبته أحد كبار الشخصيات فى البلاط ويدعى هرقل[٢] Heraclius ذلك إنه بعد مرور أربعة أشهر على فرار أثناسيوس من الإسكندرية كانت الكنائس لا تزال فى يد أنصاره[٣]، ولعل الإمبراطور أدرك بعد مضى هذه الفترة أن ماكسيموس لا يصلح لتنفيذ سياسته الجديدة، والتى تقضى باستخدام العنف مع أتباع نيقية، وهذا شيء يبدو واضحا بعد وصول الحاكم الجديد كاتافرونيوس إلى مصر بثلاثة أيام فقط. ففى اليوم الرابع عشر من يونية بدأ تنفيذ هذه السياسة بإقصاء أنصار أثناسيوس من رجال الاكليروس عن كنائسهم، وتسليمها للآريوسيين[٤]. ويذكر أثناسيوس[٥] أن هرقل قد حمل معه رسالة إلى الإسكندرية، لابد أن يكون قسطنطيوس هو كاتبها – حسب تعبيره– تحرض الوثنيين فى الإسكندرية على العداء لأثناسيوس، وتحثهم على

(1) HIST. ACEPH. IV, 5
وراجع FEST. IND. XXVIII
(2) HIST. ACEPH. IV, 5
(3) Id.
(4) HIST. ACEPH. IV, 5
(5) ATHANAS. Hist. Arian. 48

مساعدة القوات الحكومية فى الاعتداء على أتباعه والكنائس التى تحت أيديهم، وإلا عدوا أنفسهم أعداء للإمبراطور، وحتى يضطرهم إلى تنفيذ هذه الأوامر هددهم بحرمانهم أقواتهم، وتعريض معابدهم للنهب والتخريب، والنزول بهم إلى قدر العبودية[٦] وحتى يضمن ترويضهم طلب إليهم التوقيع على كل ما طلبه منهم[٧].

وعلى الرغم من أن الوثنيين لم يكونوا فى حاجة إلى من يثير ثائرتهم ضد الأسقف السكندرى، لا بصفته الشخصية، ولكن باعتباره تجسيدا لعقيدة اجتذبت من أربابهم العباد، وقوضت دعائم هياكلهم، فأقفرت من ساكنيها، وهاهى الإسكندرية، مدينتهم القديمة، وعاصمة إمبراطوريتهم، وذكرى مجدهم، أضحت الآن ميدانا للصراع بين طوائف تلك العقيدة، وهم ينظرون، ولو جاز لنا أن نقبل هنا حديث أثناسيوس دون نقاش وهو أمر بعيد الاحتمال، لأضفنا أن الوثنيين قد وجدوا فى رسالة الإمبراطور دعوة صريحة للانتقام من المسيحية، والغريب أن أثناسيوس وهو يعرض لهذه الأحداث يضع الوثنيين فى موقف الذين يتصرفون تحت القهر، "يبتاعون بالإذعان سلامة الأرباب"[٨].

على أنه ليس من المنطقى أن نتابع أثناسيوس فيما يقول، ذلك أن أحدا من مؤرخى الكنيسة لم يذكر شيئا عن تحريض الإمبراطور للوثنيين، وأثناسيوس نفسه لم يترك صورة من رسالة الإمبراطور هذه، رغم حرصه على تدعيم موقفه بمثل هذه الوثائق بل إن ما يذكره سوزومنوس وهو أحد المؤرخين الكنسيين، عن القرارات التى أقدم عليها قسطنطيوس ضد الوثنيين، وفى مصر بالذات، من تحريم الاجتماعات فى المعابد، أو مباشرة طقوس العبادة،أو الاحتفال بأعيادهم[٩] وما نعلمه عن الإجراءات التى اتخذها قسطنطيوس ضد الوثنيين فى الإمبراطورية بعامة، والأمر بإزالة مذبح النصر من قاعة مجلس الشيوخ فى روما، الذى يعد

(6) Ibid. 54
(7) Id.
(8) Ibid. 55
(9) SOZOM. Hist. eccl. IV, 9

رمزا للعقيدة الوثنية ومعقلا لها، وذكرى مجد روما(١٠) . كل هذا يدفعنا إلى التردد فى تصديق رواية أثناسيوس عن رسالة الإمبراطور إلى الوثنيين، هذا بالإضافة إلى أن القوات الحكومية لم تكن بحاجة إلى عون تلك الجموع الوثنية.

والذى يبدو لنا إن الوثنيين ربما انتهزوا فرصة الأحداث التى وقعت فى الإسكندرية إبان نقل السيادة فى الكنائس إلى أيدى الآريوسيين، والنزاع الذى حدث بين هؤلاء وأنصار أثناسيوس، والفوضى التى ترتبت على ذلك، وتدخل الفرق العسكرية لقهر أتباع أثناسيوس على التخلى عن كنائسهم وتسليمها إلى الآريوسيين، وشاركوا فى هذه الاضطرابات تعبيرا عما يجيش فى نفوسهم من حقد على المسيحيين، لا يفرقون فى ذلك بين أتباع نيقية وأصحاب آريوس، ووجدها أثناسيوس فرصة ليرمى بها خصمه ويصم بها الإمبراطور.

ويقدم أثناسيوس فى أكثر من موضع عرضا للاضطهاد الذى تعرض له أنصاره والمذابح التى وقعت فى عدد من الكنائس، والجهود التى بذلها سباستيانوس Sebastianus القائد العسكرى الجديد الذى خلف سيريانوس، ونفى عدد كبير من رجال الأكليروس المؤيدين(١١)، من أجل توطيد نفوذ الآريوسيين تمهيدا لمقدم الأسقف الجديد. وأخيرا بعد مضى عام كامل على هروب أثناسيوس دخل جورج الكبادوكى الإسكندرية فى الرابع والعشرين من فبراير ٣٥٧(١٢) . ليتسلم كرسى أسقفية الإسكندرية(١٣). وكان من الطبيعى أن يتبع دخول جورج الإسكندرية نوع

(10) AMB. Ep. XVIII, 32

(11) ATHANAS. Hist. Arian. 55-65

وراجع لأثناسيوس كذلك Apol. Ad Const. 26

وله أيضا Apol. De fuga, 6

(12) HIST. ACPH. V, 6

وراجع FEST. IND. XXIX

(١٣) يصف أثناسيوس وجريجورى النازيانزى، جورج الكبادوكى بأنه كان متعهدا للتموين والإمداد للجيش فى القسطنطينية، وكون من وراء ذلك ثروة ضخمة . ولكن جيبون يصفه بأنه كان محبا للعلم أو الزهو به، جمع مكتبة قيمة فى التاريخ والبلاغة والفلسفة واللاهوت، حرص الإمبراطور جوليان على اقتنائها بعد مقتل جورج، وإن كان يضيف أن

من الفوضى، اقتضاها استكمال نقل السلطة إلى الآريوسيين، يقصها أثناسيوس فى حديث طويل[14]. ينقله عنه مؤرخو الكنيسة سقراط[15]، وسوزمنوس[16]، وثيودوريت[17]، كان من أبرزها الاضطرابات التى حدثت فى ١١مايو ٣٥٧، والعنف الذى أحدثه القائد سباستيانوس وجنده.

وإذا كان هذا الصراع دائرا فى مصر بين الآريوسيين والنيقيين من أجل السيطرة على الكنائس، فإن الآريوسيين خارجها كانوا قد دخلوا فى صراع مع أنفسهم من أجل السيادة على الإمبراطورية فكرا وعقيدة. لقد أطلقوا العنان لعقولهم تبحث عن إيمان يلقون إليه مراسيهم، وكانت النتيجة عددا هائلا من مراسيم الإيمان، أخصبت الفكر وأهلكت العقيدة، ولكنهم فى هذا كله كانوا يوجهون كل فكرهم فى وجه النيقية وأتباعها وزعيمها أثناسيوس.

لقد كان نضال الآريوسيين طيلة هذه الفترة، منذ عام ٣٢٨، على النحو الذى رأيناه، موجها ضد زعماء الإيمان النيقى، ولم تكن مسألة العقيدة على امتداد ربع قرن من الزمان، تجذب منهم الانتباه، اللهم إلا من محاولة خافتة جرت فى أنطاكية

مسلك الأسقف الجديد فى الإسكندرية يشبه سلوك أحد الغزاة البرابرة، ورغم ذلك فقد وضعه البابا جيلازيوس الأول Gelasius (٤٩٢-٤٩٦) فى مصاف الشهداء الذين يعرفهم الله أكثر مما يعرفهم الناس .

راجع ATHANAS. Hist. Arian 75

وأيضا GREG. NAZ. Orat. XXI, 16

وأنظر Gibbon, op. cit. II, p. 496-498, n. 121, 125

وتشير الروايات الآريوسية إلى أن جورج هذا هو من ذاع صيته بعد ذلك باسم سان جورج أو مار جرجس.. راجع للمؤلف: ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحي.. الفصل الخاص بالقديسين.

(14) ATHANAS. Apol. De fuga, 6, 7 .

وراجع له أيضا Hist. Arian 55-66

(15) SOCRAT. Hist. eccl;. II, 28

(16) SOZOM. Hist. eccl. IV, 10

(17) THEOD. Hist. eccl. II, 11

سنة ٣٤١[١٨]. وقبلها، ومن بعد شغل الآريوسيين أنفسهم بالتخلص أولا من رجال النيقية، كما لو كانت المسألة عداء شخصيا، وهذا شيء اتضح لنا تماما من خلال محاضر الاتهامات التى قدمناها. والآن قد خلا الميدان من هؤلاء القادة في الغرب والشرق على السواء، وغاب عنه بوجه خاص أثناسيوس ، أضحى من الضرورى أن يتجه الآريوسيون بحرصهم إلي العقيدة ذاتها، يدفعهم إلى ذلك، كما أسلفنا، أن المرسوم النيقى جاء ردا على آراء آريوس، وليس قانونا للإيمان كاملا، ولهذا ترك المجال مفتوحا للقول بقوانين الإيمان المحلية القديمة المتوارثة، ورغم ذلك فقد تمسكت كنائس الغرب به، وحرصت عليه كنيسة الإسكندرية، وارتبط به اسم أسقفها، ولهذا كان جهد الآريوسيين موجها فى هذه الآونة إلى البحث عن صيغة جديدة للإيمان يمكن الاستعاضة بها عن عقيدة نيقية.

وبعد وفاة زعماء الآريوسية الأصلية، آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى ظهرت عناصر جديدة من الآريوسيين، اختلفت آراؤها وتضاربت، وبدا ذلك واضحا فى المراسيم الأنطاكية الأربعة، وكان ذلك التيار ينساب من منبعين أساسيين، بولس السميسطائى، سلف آريوس، وأوريجن السكندرى، مؤسس لاهوت الكنيسة الشرقية عامة. ولما كان الاتجاهان يتدفقان من مصدرين مختلفين تماما، كان من الصعب أن يلتقيا أو يمتزج بالآخر أحدهما، ولكن الخوف من النيقية جمع هذا الشتات للعمل جبهة واحدة تحت راية الآريوسية بعد وفاة قسطنطين الكبير، وخاصة في محاولة للتصدى للغرب، وتمثل ذلك فى فيلوبوليس (٣٤٣)، وأنطاكية (٣٤٤) وسيرميوم (٣٥١)، وإن كان المرسوم الأنطاكى الثانى، أو اللوقيانى يمثل نغمة شاذة وسط هذا التجمع. فلما كانت سنة ٣٥٦ ووجد الآريوسيون أنفسهم أصحاب السيادة فى الإمبراطورية بلا منازع، بعد أن تهاوت قلاع النيقية، انفرط عقد هذا التحالف، وبدأ كل من الاتجاهين يأخذ طريقه المتباعد من جديد! ذلك إن

---

(١٨) راجع ما قبله

تأثير أرسطو وبولس ولوقيانوس، قاد إلى فريق آريوسى عنيد، على حين قاد التأثير الأفلاطونى الأوريجنى أتباعه إلى الاقتراب من النيقيين[١٩]. وسنتناول ذلك تفصيلا الآن.

فى سنة ٣٥٧، انتهز نفر من زعماء الآريوسية وعلى رأسهم جرمينيوس أسقف سيرميوم وفالنز وأورساكيوس[٢٠]، فرصة وجود الإمبراطور فى سيرميوم وعقدوا مجمعا عرف بمجمع سيرميوم الثالث[٢١]. وقد أوضح هؤلاء لقسطنطيوس أن كلمة "جوهر" Oüsia (Substantia) هى فى الواقع السبب المباشر وراء كل هذا الخلاف العقيدى الذى خيم على الكنيسة وحرمها نعمة السلام، وقد وافقهم الإمبراطور الرأى فأصدروا بناء على ذلك مرسوما للإيمان عرف بمرسوم سيرميوم الثانى[٢٢]، يعتبره هيلارى كفرا محضا ويطلق عليه مرسوم "التجديف"[٢٣] Blasphemia. وكان هدف واضعى المرسوم، على حد تعبير هيلارى، الإنكار الكامل لألوهية الابن[٢٤]، وتضمن إلى جوار ذلك تبعية الابن للأب شأن كل الخلائق، وأن الأب أعظم من الابن فى المجد والكرامة والألوهية[٢٥].

---

(19) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 885-899

وأيضا Bachelet, Arianisme (Dict. De theol.) I, 2

وراجع كذلك Robertson, op. cit. pp. 53-54

وأيضا Neander, Christ. Relig. And Church IV, pp. 57-58

(20) HILAR. De Syn. 11

(21) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 809-902

وراجع Bachelet, Loc. cit

أيضا Fliche, op. cit. III, pp. 151-153

(22) ATHANAS. De Syn. 28

وراجع أيضا HILAR. De Syn. 11

وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 30

(23) HILAR. Loc. cit.

(24) Id.

(٢٥) كان أهم ما تضمنه المرسوم ما يلى : " . . . لما كان بعض قد اضطرب فكره بمسائل تدور حول ما يسمى فى اللاتينية Substantia وفى اليونانية Oüsio (جوهر) مما قاد إلى

وكان هذا المرسوم نقطة تحول خطيرة في الصراع كله، ذلك أنه منذ هزمت الآريوسية في مجمع نيقية سنة ٣٢٥، لم تظهر بعد ذلك في وثيقة عامة، ولم تكن تتجاسر على أن تعلن عن نفسها صراحة مثلما فعلت الآن[٢٦] . ونلاحظ أن هذه الصيغة جاءت خلوا من كلمة "الجوهر" كما أنها تستنكر (المساواة في الجوهر) Homoousius (الهوموسية) وترفض (التشابه في الجوهر) Homoiousius (الهومويوسية) مستندة في ذلك على عدم ورودها في الكتاب المقدس. ومن ثم تبنى أصحاب هذه الدعوة تعبير "عدم التشابه" (Anomoean) وعرف مذهبهم بالأنومويه Anomoeanism وأصبح الأنومويون (Anomoeaus) يمثلون الفريق المتطرف في الآريوسية[٢٧]. وعلى رأس هذا الفريق في الشرق يقف يودوكسيوس Eudoxius أسقف مرعش[٢٨] Germanicia (٣٤١-٣٥٨) والذي اعتلى كرسي أسقفية أنطاكية (٣٥٨-٣٦٠) بعد وفاة ليونتيوس[٢٩]، برضى الإمبراطور ورجال البلاط ودون موافقة جورج أسقف اللاذقية أو مرقس أسقف الرستن، أو غيرهما

القول " بالمساواة في الجوهر Homoousius و" التشابه في الجوهر" Homoiousius، لذا كان من الواجب أن لا يذكر شئ من هذا على الإطلاق وأن لا يعرض في الكنيسة، ذلك أن الكتاب المقدس لم يحدث البتة عن أي منها، فتلك أمور فوق علم البشر، وفوق إدراك الأناسي . لأن أحدا لا يستطيع أن يوضح ولادة الابن . . . الأب وحده يعلم كيف ولد الابن! والابن يعلم . . . ولا أحد يشك في أن الأب أعظم في المجد والكرامة والألوهية . والابن نفسه قال : " أبي الذي أرسلني أعظم مني " (يوحنا ١٤/٢٨)

راجع ATHANAS. De Syn. 28

وأنظر كذلك HILAR. De Syn.11

(26) Watson, op. cit. p. 89

وراجع Gwatkin, The Arian controversy. p. 89

وله أيضا Arianism (Cam. Med. Hist.) Vol. I, p. 132

(27) ATHANAS. De Syn. 31 ; SOCRAT. Hist. eccl. II, 45

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 29

وراجع BASIL. Ep. CCXII, 2

(28) SOCRAT. Hist. eccl. II, 19

وراجع SOZOM. Hist. eccl. III, 5

(29) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II,20

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV,12

من الأساقفة الذين لهم حق المشاركة فى اختيار أسقف أنطاكية[٣٠]. وقد دعا يودوكسيوس على الفور إلى عقد مجمع فى أنطاكية حضره عدد من الأساقفة الذين يؤيدونه الرأى، وقرروا التصديق على مرسوم سيرميوم الثانى، ونبذ اصطلاحى "الهوموسية" و"الهومويوسية" باعتبارهم غير واردتين فى الكتاب المقدس تبعا لما قرره الأخوة فى سيرميوم"[٣١].

على أن شهرة فريق الأنومويين ارتبطت بأسم آيتيوس Aetius السورى[٣٢] وتلميذه يونوميوس Eunomios[٣٣]. وكان هوسيوس الأسقف القرطبى يقيم آنذاك في سيرميوم نزولا على إرادة الإمبراطور، لمدة تزيد على العام، عقابا له

(30) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37.
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 12
وكذلك THEOD. Hist. eccl. II,20
(31) SOCRAT. Hist. eccl. II,37
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 12
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 20
(32) SOCRAT. Hist. eccl. III, 15
وراجع أيضا AMB. De fide, I, 5

(٣٣) درس آيتيوس الكتاب المقدس ونظم الكنيسة وقوانينها، ثم جاء إلى الإسكندرية فى أسقفية جورج الكبادوكى، وتعلم ببراعة فلسفة أرسطو وغيرها من المدارس الفلسفية التى سادت الإسكندرية آنذاك. وقد بنى عقيدته فى رأى باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا، على أساس ما جاء فى رسالة بولس الأولى إلى كورنث " إله واحد، الأب الذى منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به (أكورنث ٨/٦)، ويضيف جريجورى أسقف نيسا أن آيتيوس سار بعقيدة آريوس الأولى شوطا بعيدا وأن الأنوموية تعد وليدا شرعيا للآريوسية الأصلية . أما يونوميوس فقد وصل بالعقيدة المدى، تعرف إلى آيتيوس فى الإسكندرية ولازمه وتتلمذ عليه، ويعد المؤسس الحقيقى للأنوموية، فقد صاغ فكرها ونظم خطاها، وأكد دون موارية خلق الأبن ورفض فى إصرار مجرد (الشبه) وأجتذب إليها ببراعته الجدالية، أنصارا كثيرين، حتى حملت الطائفة من بعده اسمه وصارت اليونومية علما عليها. وقد أصبح يونوميوس أسقفا على كيزيكوس فى عهد الإمبراطور فالنز وذلك بعد عزل أسقفها اليوزيوس Eleusius
راجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 35
أيضا SOZOM. Hist. eccl. III, 15 VI, 26
أنظر كذلك BASIL. De Spir. San. II, 4
وأيضا GREG. NYSS. Con. Eunom. I, 6

على معارضته أوامر الإمبراطور الخاصة بإدانة أثناسيوس[٣٤]، وحرص الأنومويون على أن يضع هوسيوس توقيعه على مرسوم سيرميوم هذا[٣٥]، وقد أقدم هوسيوس على ذلك "تحت ضغط الإمبراطور وقهره في رأى بعض المؤرخين"[٣٦]، ولتقدم العمر به واختلاط الأمر على عقله عن البعض الآخر [٣٧]، ولكنه على الرغم من ذلك فإن هوسيوس لم يوقع ضد أثناسيوس، وإنما أعطى فقط المرسوم السيرميومي توقيعه[٣٨]. ولم يكد يمضى على ذلك عام واحد، حتى كان الأنومويون قد حققوا نصرا أكبر، ذلك أن ليبريوس أسقف روما الذى كان يعانى من جراء نفيه فى تراقيا منذ عامين[٣٩]، وقد اشتد به الشوق إلى بيعته، ولم يطق هذه المعاناة[٤٠] ووصلت أنباء ذلك القلق النفسى إلى الإمبراطور، وأدرك أن أسقف روما قد خارت قواه. فأرسل على الفور يستدعيه، جاء هذا أيضا فى الوقت الذى اشتد فيه سخط الجموع فى روما على الأسقف الآريوسى فليكس[٤١] ، فلما أتى ليبريوس إلى سيرميوم قدم له الإمبراطور مرسوم الإيمان الجديد فمهره دون مناقشة، وأضاف إلى ذلك الإقرار بإدانة أثناسيوس[٤٢]، وقد كتب ليبريوس فى أثناء

(34) ATHANAS. Hist. Arian. 45
(35) SOCRAT. Hist. eccl. II, 31
(36) ATHANAS. Hist. Arian. 45
وراجع له أيضا Apol. De fuga, 5
وأنظر SOCRAT. Hist. eccl. II,30
(37) SVLp. SEV. Hist. Sac. II,40
(38) ATHANAS. Loc. cit.
(39) ATHANAS. Apol. C. Arian
(40) Neander, Christ. Relig, and Church IV, 65
وراجع أيضا 9. Watson, op. cit. p
(41) THEOD. Hist. eccl. II, 14
(42) ATHANAS. Hist. Arian. 41
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 15
وأيضا Hefele, op. cit. I, 2 pp. 908-928

ويذكر سوزومنوس (Hist. eccl. Iv, 15) أن ليبريوس لم يوقع على مرسوم الأنومويين، وإنما وقع على مرسوم الإيمان الذى وضعه أنصاف الآريوسيين فى أنقرة بعد ذلك سنة ٣٥٨ وقدموه للإمبراطور كذلك فى سيرميوم (أنظر بعده)

وراجع ما كتبه Kuhner عن ليبريوس فى : Encyclopedia of the Papacy, p. 16

رحلته عائدا إلى روما ثلاث رسائل، إلى عدد من الأساقفة حفظها لنا هيلارى[٤٣] . تدور كلها حول الدفاع عن نفسه وتبرير ذلك العمل الذى أقدم عليه.

وعلى هذا النحو أيقن الآريوسيون المتطرفون إن الإمبراطورية قد دانت لهم عقيدة وسيادة، فقسطنطيوس أعطاهم الثقة كلها، وهوسيوس، أبو المجامع، وعماد النيقية فى الغرب رضخ، بعد رسالته الساخنة إلى الإمبراطور، وقبل المرسوم، وليبريوس أسقف روما، وما يمثله من مكانة فى عالم الكنيسة، لانت عريكته فأذعن طائعا، وأثانسيوس قد هرب بنفسه وعقيدته، والإسكندرية يحمل كرسيها الأسقفى جورج الكبادوكى الآريوسى، وكذا الحال فى أنطاكية والقسطنطينية وقيسارية.

وكان طبيعيا أن يتوقف الصراع الآن، غير أن الأنوموية تلقت الآن صفعة قوية لم تفق منها إلا بعد ذلك بفترة طويلة على يد يونوميوس، ولم يأتها هذا التحدى من جانب أتباع نيقية، ولكنه تم على يد الآريوسيين أنفسهم.

وقبل أن نتحدث عن ذلك، علينا أن نلقى نظرة على أثناسيوس فى المكان الذى يختبئ فيه، فقد نقلت إليه الأنباء فى ملجئه الأمين، أن هوسيوس قد أعطى موافقته على مرسوم للإيمان ينكر أى "مساواة" أو "شبهية" بين الآب والابن[٤٤] أضافت هذه الأنباء إن ليونتيوس أسقف أنطاكية ونارقيسوس أسقف بانياس، وجورج أسقف اللاذقية ورفاقهم من الآريوسيين يتهمون الأسقف السكندرى بالجبن نتيجة هروبه، وأن ما أقدم عليه يتنافى مع خلق رجال الدين[٤٥] وعلى الفور شحذ أثناسيوس قلمه وراح يكتب دفاعا عن هروبه Apologia de fuga يرد على هذه الاتهامات التى وجهت إليه، ويتساءل، من تراه من الأساقفة لم يتعرض لغضب هذا

(43) HILAR. Fragm. Vi, 5-11 (p. L. X. 589-595)
وكانت الأولى إلى أساقفة الشرق، والثانية إلى فالنز وأورساكيوس، والثالثة إلى فينكنتيوس أسقف كابوا .

(44) ATHANAS. Apol. De fuga, 5 .

(45) ATHANAS. Apol. De fuga, 1.

القريق؟! ويعدد الأسقفيات التى تم نفى أساقفتها بسبب عدائهم للآريوسية[٤٦]، ويدافع عن هوسيوس القرطبى ويخلع عليه أعظم الصفات وأنبلها، ويلتمس له الأعذار عن توقيعه على إيمان سيرميوم[٤٧].

وينتقل أثناسيوس بعد ذلك إلى الحديث عن الاضطرابات التى شهدتها الإسكندرية بعد دخول جورج الكبادوكى إليها[٤٨]، ويذكر أسماء ستة عشر أسقفا مصريا واثنين من القساوسة تم نفيهم لأنهم رفضوا الدخول في شركة الأسقف الآريوسى جورج[٤٩]، ويصرح بأن هذا الاتهام ليس نابعا من حرصهم على العقيدة، بل للحزن الذى تملكهم بعد أن أفلت من أيديهم، يضرب لهم مثلا بمن سبقه من الأنبياء والقديسين[٥٠]، ثم يقول إن المسيح نفسه فعل ذلك[٥١]. ويقص أثناسيوس على مسامعنا قصة الهجوم الذى قام به سيريانوس على كنيسة ثيوناس وما كان من أمر فراره[٥٢] ويختم الأسقف دفاعه بتوجيه الاتهامات إلى جميع الأساقفة الذين أذاعوا فى الكنيسة نبأ هروب أثناسيوس وقد وصموه بالجبن والتخلى عن فضائل الاكليروس[٥٣].

على أن أهم ما يلفت النظر فى هذا الدفاع أن أثناسيوس لم يتعرض فيه لشخص الإمبراطور إلا مرة واحدة، وتجنب أن يخبر فى قليل أو كثير عنه، حتى عندما ينحى باللائمة على أولئك الذين يساعدون أعداءه، فإنه يشير إلى "موظفى الإمبراطور"، دون الجالس على العرش، ولكنه فى نهاية مرافعته، وفى معرض اتهامه للأسقف الأنطاكى ليونتيوس، أورد اسم الإمبراطور مقرونا بلفظ

(46) ATHANAS. Apol. De fuga, 3,4,9 .
(47) Ibid. 5
(48) Ibid. 6
(49) Ibid. 7
(50) Ibid. 10
(51) Ibid. 12-15
(52) Ibid. 24
(53) Ibid. 26

"هرطوق"[٥٤]، وهذا فى حد ذاته يعد تعبيرا عن الاتجاه الجديد الذى ينتويه أسقف الإسكندرية فى دائرة علاقته بالإمبراطور قسطنطيوس، ويعتبر فى الوقت ذاته مرحلة انتقال بين أسلوبه الذى يضفى التقوى على قسطنطيوس ويجعل منه ورعا دينا فى دفاعه إليه، والعبارات اللاذعة واللهجة القاسية العنيفة التى امتلأ بها عمل أثناسيوس الآخر وهو تاريخ الآريوسيين.

لم يكتف أثناسيوس بتسخير قلمه للدفاع عن نفسه واتهام الخصوم وإنما راح يباشر من مستقره مجريات الأحداث فى مصر وخارجها، وكان وجوده فى وادى النطرون قريبا من الإسكندرية يهيئ له سرعة الوقوف على كل ما يجرى حوله، ويقوم على ذلك جماعات الرهبان وتنظيمهم السرى الدقيق الذى وضعوه حفاظا على حياة أثناسيوس. وقد ساعده فى هذا كله جمع تفاصيل الاضطرابات التى تعرضت لها الإسكندرية، وأن يخرج من مخبئه ليقيم فى المدينة طيلة عامين كاملين (٣٥٨-٣٦٠)[٥٥] فى الوقت الذى كان فيه جنود الإمبراطور وعيونه تذرع مصر كلها بحثا عن الأسقف الهارب الذى يختفى تحت سمعهم وبصرهم فى الإسكندرية! ولقد امتد جهد الإمبراطور وأساقفته بحثا عن أثناسيوس إلى مملكة أكسوم على النحو الذى رأينا، بل لقد راحوا يطلبونه لدى ملوك الحميريين على الشاطئ الجنوبى الشرقى للبحر الأحمر[٥٦]، وإذا كان أثناسيوس قد مد سيادة الإسكندرية النيقية إلى أكسوم، فليبسط الآريوسيين أيضا نفوذهم على الشاطئ المقابل، وقد تمثل ذلك فى البعثة التى قام بها ثيوفيلوس Theophilus أحد أساقفة الآريوسية، وزار فيها هذه المنطقة، ثم عرج على أكسوم فى طريق عودته ليحاول صرف أسقفها ومليكها والجموع عن تأييد أثناسيوس[٥٧]. بل إن القديس أوغسطين

(54) ATHANAS. Apol. De fuga, 26

(55) FEST. IND. XXI-XXXII

(56) Neale, Holy Eastern Church. p. 132
وللمؤرخ نفسه أيضا راجع أيضا Patriarchate of Alex. I, p. 188

(57) Id.

يخبرنا فى إحدى محاوراته ضد الدوناتيين إن الآريوسيين سعوا جهدهم بعد مجمع سرديكا للاتصال بالدوناتيين لتوحيد جهودهم وإياهم ضد النيقية وزعمائها[٥٨] .

وفى هذه الأثناء، وإبان اختفاء أثناسيوس فى الإسكندرية، اشتعلت الثورة فيها ضد جورج الكبادركى، نتيجة لسياسة العنف التى اتبعها حيال النيقيين والوثنيين على السواء طيلة ثمانية عشر شهرا[٥٩] حتى لقد ثار الناس على "لدغ الأفعى" حسب تعبير الكاتب الوثنى أميانوس ماركللينوس[٦٠] وفى ٢٦ أغسطس ٣٥٨ وقع جورج في أيدى هذه الجموع الساخطة، غير أنه استطاع الإفلات بصعوبة بالغة[٦١]، وفى الثانى من أكتوبر غادر المدينة هاربا [٦٢]وانتهز أنصار أثناسيوس الفرصة وقاموا بهجوم مضاد فى ١١ أكتوبر، انتقاما لما حل بهم آنفا، وطردوا الآريوسيين من الكنائس التى سيطروا عليها، ووضعوا عليها أيديهم[٦٣]. وظلت هذه الكنائس تحت سيطرتهم حتى الرابع والعشرين من ديسمبر ٣٥٨ عندما قام للقائد سياستيانوس وأخرجهم منها وأعادها جميعا إلى أتباع جورج الآريوسيين[٦٤] .

وقد صمتت المصادر تماما عن العلاقة بين ما حدث فى الإسكندرية ضد جورج واختفاء أثناسيوس فيها آنذاك، غير أن مجيء أثناسيوس إلى الإسكندرية ليختبئ فيها فى هذا التوقيت بالذات، لا يدع مجالا للشك فى أن الأسقف السكندرى لم يكن ليترك الأحداث تجرى حسبما اتفق ولكنه كان يتدخل ليرسم سيرها ومجراها، وهذا شيء نلمسه بوضوح فى تلك الرسائل التى بعث بها فى فترة اختفائه هذه، وكان أشهرها على الإطلاق رسالتيه إلى الرهبان وأخرى إلى صديقه الراهب سرابيون.

(58) AVG. Con. Cresc. III, 38
(59) HIST. ACEPH. V, 6
(60) AMM. MARC. Res gest XXII, 11
(61) HIST. ACEPH. V, 6
(62) Id.
(63) Id.
(64) Id.

ومن رسالته الأولى إلى الرهبان AD Monachos نعلم أن هؤلاء قد طلبوا إليه أن يكتب إليهم عن "الآلام التى عاناها" وقد أجابهم إلى ما أرادوا وراح يسفه لهم العقيدة الآريوسية(٦٥)، وحذرهم من الإصغاء لأحد من أتباعها، وحثهم على الحرص الكامل على ما كتبه إليهم، خشية أن يقع منه شيء فى أيدى الخصوم (٦٦). أما رسالته الثانية إليهم، فهى تعد وثيقة على جانب كبير من الأهمية إذ نعلم منها أن الآريوسيين قد بذلوا جهدهم لاستمالة الرهبان إلى صفوفهم، لما يعلمونه وأدركوه فعلا من قوتهم ومدى ما لهم من نفوذ على جموع المسيحيين. وقد أفصح أثناسيوس عن ذلك صراحة فى هذه الرسالة حيث قال:

"... لا تعطوا الفرصة لأولاء (يعنى الآريوسيين)، وذلك"
"إنه إذا ما رآكم راء، أنتم يا أهل الإيمان، ترتبطون أو"
"تدخلون فى شركة أولئك النفر، أو تشتركون فى الشعيرة"
"وإياهم ، فإن الجموع سوف تتقبل الأمر ببساطة وتتبعكم"
"إلى الكفران(٦٧)".

وهذه العبارة الأخيرة لا تحتاج إلى تعليق على مدى الدور الخطير الذى لعبه الرهبان المصريون فى قضية أثناسيوس، وقد وضعت هذه الرسالة على الفور موضع التنفيذ (٦٨)، وفى هذا القول من الأسقف السكندرى دلالة كافية على ما كان

(65) ATHANAS. Ep. Ad Mon. I, 1, 2
(66) Ibid. 3
(67) Ibid. 11
(٦٨) تورد المصادر رواية تدل على مدى ولاء الرهبان لأثناسيوس، فتخبرنا أن القائد العسكرى أرتميوس قام فى سنة ٣٥٩/٣٦٠ بمهاجمة أحد الأديرة فى جنوب الوادى بحثا عن أثناسيوس. فتقدم إليه رئيس الدير قائلا :
"أثناسيوس أبانا بعد الآب، ولكننا مع ذلك لم نر وجهه مطلقا " . فطلب إليه أرتميوس أن يصلى مع الاخوة قبل الرحيل، فأجابه أحد الرهبان ويدعى بسارفى Psarphi بأن الأب منع الرهبان من الصلاة مع الغرباء الذين يرتبطون بالآريوسيين، ولاشك أن هذا إشارة واضحة إلى ما جاء فى رسالة أثناسيوس.
راجع FEST. IND. XXXII
وأيضا Robertson, op. cit. p. 564 n 1, p. 180

يعوله أثناسيوس، بل والآريوسيين أيضا على اجتذاب الرهبان، كل إلى قضيته، ولكن أثناسيوس كان قد حاز قصب السبق فى هذا الميدان، كما بينا آنفا، وقد بلغ الود بين الأسقف والرهبان درجة كبيرة تتبدى فى رسائله العديدة إليهم، والتى يبدأها دائما مخاطبا إياهم: "الأخوة الأحبة الأعزاء"، ويختتمها قائلا "من صديق وفى إلى أوفى الأصدقاء". وقد كانوا فعلا بالنسبة لأثناسيوس، وأثبت هذا "الجيش"-على حد تعبير المؤرخ نيل Neale مقدرته على التصدى لأعداء أثناسيوس.

وكانت جهود هؤلاء الرهبان عاملا هاما من بين ما أودى بجهود الآريوسيين فى السيطرة على كنيسة الإسكندرية[٦٩]، وبرز ذلك واضحا فيما وصل إليه الحال بجورج الكبادوكى، نتيجة لذلك الكره الدفين الذى يصفه سوزومنوس، يحمله له الرهبان جميعا، وقد بادلهم جورج نفس القدر من الكراهية، موقنا أنهم وراء عصيان الجموع لأوامره، ونفورهم منه ورفضهم الدخول فى شركته[٧٠]. ويقول جيبون أنه فى الوقت الذى كانت فيه كل أجهزة الدولة عسكريا وماليا تبحث عن أثناسيوس وترصد الجوائز لمن يعثر عليه حيا أو ميتا، وتنذر بأوخم العواقب لمن يحمي عدو الدولة الأول، كان الرهبان يقدمون أرواحهم دفاعا عن أثناسيوس وبأيديهم كان ينتقل من مكان إلى آخر أكثر أمنا إذا ما داهمه الخطر. وظل بينهم حتى مات قسطنطيوس، وهؤلاء يقومون على خدمته، حراسا له، ومساعدين ورسلا[٧١]. ويضيف روبرتسون "لقد امتلأت المدن والقرى والفيافى والأديرة والمقابر والقفار بمندوبى البلاط يبحثون عن الأسقف الهارب لكن دون جدوى، ولم نسمع أن راهبا قد وشى به أو غدر. لقد آتت السنوات العشر (٣٤٦-٣٥٦) الآن أكلها[٧٢]. لقد كان الأسقف يقضى وقته متنقلا بين صوامع مصر العليا

(69) Neale, Patriarchate of Alex. I, p. 180
(70) SOZOM. Hist. eccl. IV, 10
(71) Gibbon, op. cit. II, p. 401
وراجع أيضا Paul-Chenau, Les Saints D'Egypte I, p. 565
(72) Robertson, op. cit. pp. 51-53

والسفلى وأديرتها، حيث يجد نعم المأوى، وهناك تتوالى عليه الرسائل تحمل الولاء أو التحذير، وتبقيه على علم بالأحداث ساعة وقوعها، وتحمل رسائله وكتاباته إلى كل مكان.

أما رسالته إلى سرابيون فتعد هى الأخرى من أهم أعمال أثناسيوس خلال فترة نفيه الثالث، ولها دلالتها الخاصة حيث إن سرابيون كان الساعد الأيمن لأثناسيوس، وقد اختاره أسقفا لمدينة تمى (الأمديد) Thmuis ما بين عامى ٣٣٧-٣٣٩، ثم اتخذه سفيرا له إلى الإمبراطور سنة ٣٥٣، هذا بالإضافة إلى أن سرابيون كان صديقا مقربا إلى أبى الرهبان أنطونيوس[٧٣]، وكان سرابيون قد طلب إلى أثناسيوس أن يكتب له رسالة عن الظروف التى أحاطت بوفاة آريوس، ومبادئ العقيدة الاريوسية[٧٤]، ومن ثم كتب إليه أثناسيوس هذه الرسالة Ad Serapionem de morte Arii يدين فيها فكر آريوس، وينحى باللائمة على قسطنطيوس الذى يتابع هذه العقيدة[٧٥] ويعلن أنه كتب إليه على نحو ما كتب أيضا إلى الرهبان، حتى يكون الجميع فى موقف قوى يستطيعون معه مجابهة الآريوسيين والتصدى لهم[٧٦].

ومن هذه الرسالة يتضح مدى المودة والتقدير الذى يكنه أثناسيوس للرهبان عامة وسرابيون بخاصة حيث يدعوه "الصديق الحميم". ثم يطلب منه أن يرد عليه ما كتب مزودا بالملاحظات التى يمكن أن تكمل أى خطأ يعتور ما كتبه الأسقف، وهذا يكشف عن الاحترام العميق الذى يحمله الأسقف للرهبان، والذى كانوا يبادلونه إياه ويضفون عليه الولاء كله.

ولنعد الآن إلى الأحداث خارج مصر لنرى ما كان يعتمل بين الآريوسيين فكرا من أجل العقيدة والسيادة، ذلك أن نفرا من أساقفة الغرب وخاصة غالة،

---

(73) ATHANAS. Vita Ant. 91
(74) ATHANAS. Ep. Ad Serap. 1
(75) Ibid. 4
(76) Ibid. 5

والتى كانت خاضعة الآن لسيادة جوليان، مذ عينه الإمبراطور قسطنطيوس هناك قيصرا فى ٦نوفمبر ٣٥٥[٧٧]. استمدوا من وجود جوليان فيما بينهم سندا يخفف عنهم سطوة قسطنطيوس[٧٨]، وتولى زعامتهم فويبادوس Phoebadius أسقف آجن Agennum (جنوب غربى غالة) (٣٥٠-٣٩٣) ودعا إلى عقد مجمع من أساقفة غالة، قرر الحضور فيه إدانة مرسوم سيرميوم[٧٩] .

غير أن هذا الاستنكار من بعض أساقفة غالة لم يترك أى تأثير على سير العقيدة الاريوسية واتجاهها نحو هدفها الرئيسى، ولكن الخطر الحقيقى الذى هدد كيان الآريوسية جاء من داخلها. فقد أسلفنا أن هؤلاء العقليين فى تاريخ اللاهوت المسيحى الأول، كانوا يسعون حثيثا للوصول إلى صيغة للإيمان ملائمة، يضعونها بدلا من عقيدة نيقية التى لم تشبع الإيمان لدى الكثيرين، وكان مرسوم الأنوموبيين فى سيرميوم انطلاقة هامة وخطيرة فى هذا السباق العقيدى فتحت الباب أمام زعماء الجيل الآريوسى الجديد لوضع صياغة مناهضة.

وقد شعر جماعة من هؤلاء أن الأنوموميين قد تطرفوا بالآريوسية الأصلية، فأدى ذلك بهذه الجماعة إلى الشكل الآريوسى المحافظ الذى يؤكد التمايز بين الآب والابن[٨٠] ، وبدأوا يتأملون فى الذى يمكن أن يتضمنه "الشبه" بين الابن والآب. وانتهوا إلى الاعتقاد بأن هذا "الشبه" "جوهرى" وليس"مقتبسا" كما يعتقد آريوس[٨١] على اعتبار أن كلمة "الجوهر" لا تعنى الفردية أو الوحدة. وإنما تعنى المماثلة الصريحة أو الكاملة. وعليه فلا ضير من قبولها على هذا المفهوم، مع عدم تقبلها

---

(77) AMM. MARC. Res gest, XV, 8
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 34
(78) Watson, op. cit. p. 14
وراجع أيضا Gwatkin, The Arian Controversy, p. 90
وأيضا cit. II, p. 158.Kidd. op
(79) HILAR, De Syn. 2-8
(80) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 90
(81) Robertson, op. cit. p. 54

فى صورتها النيقية، بمعنى المساواة "الهوموسية" Homoousius خوفا من ترديد الآراء السابللية، ولكى يكون المعنى واضحا، فليس هناك أكثر تأثيرا من إدخال حرف (اليوتا) (I) iota على هذا الاشتقاق الأخير ومن ثم تغدو تشابها فى الجوهر "الهومويوسية "(٨٢) Homoiousius.

وقد جاء هذا استنتاجا صريحا مما ورد فى المرسوم الأنطاكى الرابع عن التشابه التام فى الجوهر(٨٣) كما ورد هذا التعبير فيما كتبه كيرلس Cyrillus أسقف أورشليم على هذا النحو "التشابه كما هو مكتوب ، التشابه فى كل شىء"(٨٤) ، ولقد تمثل هذا الاتجاه فى ذلك الجيل الجديد الذى لم يتعلم احترام النيقية، ولا حتى تشرب الأفكار الآريوسية(٨٥)، ومن ثم حمل هؤلاء اسم (أنصاف الآريوسيين) Semi-Arians، أو الهومويوسيين وهؤلاء هم الممثلون الحقيقيون للمحافظين الذين صبت آراؤهم فى قالب جديد(٨٦)، وقد دفعهم الخوف من متابعة السابللية إلى رفض صيغة "الهوموسية" واستخدام "الهومويوسية". وكان أبرز زعماء هذا الفريق باسيليوس أسقف أنقرة، وجورج أسقف اللاذقية ويوستاثيوس أسقف سيواس Sebaste، واليوزيوس Eleusius أسقف كيزيكوس، ويوسيبيوس أسقف حمص، وكيرلس أسقف أورشليم، ومرقس أسقف الرستن، وماكيدونيوس أسقف القسطنطينية(٨٧) .

واتت الفرصة أنصاف الآريوسيين للعمل ضد الأنومويين، ذلك أن باسيليوس أسقف أنقرة، وجه الدعوة فى عام ٣٥٨ إلى نفر من الأساقفة بلغ عددهم اثنى عشر

---

(82) Robertson, op. cit. Pp. 54-55
(83) ATHANAS. De Syn. 25
(84) CYRIL. Catech. VI, 7
(85) Robertson, op. cit. p. 55
(٨٦) راجع ما كتبه F. Jackson عن الآريوسية فى Arianism
Encycyl. Of relig. And ethics, I, pp. 775-786
(87) ATHANAS. Apol. De fuga, praef
وراجع كذلك HILAR. De Syn. 63

أسقفا، لعقد اجتماع في مدينته بمناسبة الاحتفال بتدشين كنيسة أنقرة(٨٨)، وفي ربيع هذا العام التأم عقد الأساقفة في مجمع حمل اسم المدينة(٨٩)، وأسرع بهم إلى ذلك تلك الرسالة التي بعث بها جورج أسقف اللاذقية إلى باسيليوس، يحمل فيها على الأنومويين وخاصة يودوكسيوس الذي تولى أسقفية أنطاكية في نفس العام. وكان جورج يمتلئ حقدا على يودوكسيوس لاعتقاده أنه أحق منه بكنيسة أنطاكية(٩٠). ومن ثم ركز هجومه على آيتيوس رجل الأنوموية أيضا لاتفاقه في الرأي مع يودوكسيوس، والرسالة في حد ذاتها دعوة صريحة إلى أنصاف الآريوسيين للعمل بسرعة على توحيد عدد كبير من الأساقفة في جبهة واحدة ضد متطرفي الآريوسية، هذا بالإضافة إلي أنها تلقي الضوء على أهمية أنطاكية مدينة وكنيسة، وما يعوله الجميع من السيادة عليها باعتبارها حاضرة الشرق وقلب الاريوسية النابض(٩١).

وكان مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ تحديا صريحا لصيغة سيرميوم الأخيرة التي رفضت الشبه إطلاقا بين الآب والإبن، ولذلك كان على أساقفة المجمع أن يضعوا صيغة إيمان جديدة تمثل الجماعة المحافظة بفكرها المتطور، ونتيجة لهذا تمخض المجمع عن رسالة تؤكد التشابه في الجوهر بين الآب والابن "الهومويوسية"

---

(88) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 91
(89) Hefele, op. cit. I, 2 pp. 903-908
(90) Kidd, op. cit. II, p. 159
(٩١) جاء في هذه الرسالة بعد الديباجة: " منذ زمن يسير كابدت المدينة (يعْنى أنطاكية) من الخراب الذي جاءها به آيتيوس، وقد تشجع تلامذة هذا الوغد، الذين ازدريتموهم، بمناصرة يودوكسيوس ووصلوا بيديه إلى المراتب الكهنوتية ، بل إن آيتيوس نفسه رفع قدره . أذهبوا إذن لإسعاف هذه المدينة العريقة ، حتى لا يؤدى غرقها إلى أن يغرق العالم ، تآلفوا والتمسوا موافقة الأساقفة الآخرين . فربما طرد أيتيوس من الكنيسة . ربما قطع تلاميذه الذين وضعوا سلفا بيد يودوكسيوس في قائمة الاكليروس . وإذا ما أصر يودوكسيوس على تأييده لآيتيوس في القول بأن الأبن يغاير كلية الآب وتفضيل أولاء الذين يمالئون هذه العقيدة على من يعارضها، فقد هلكت أنطاكية " .
أنظر SOZOM. Hist. eccl. IV, 13

(Homoiousius) وذيل إياها بثمان عشرة لعنة Anathema موجهة ضد آيتيوس ويودوكسيوس وماركللوس، وكل أولئك الذين ينكرون "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن(٩٢)، وهكذا أدان مجمع أنقرة "الأنوموية" وتجاهل فى الوقت ذاته "النيقية"(٩٣). وعلى الفور ارتحل كل من باسيليوس وبوستاتيوس واليوزيوس إلى سيرميوم، حيث كان الإمبراطور قد عاد إليها من روما(٩٤) وقد تمكن ثلاثتهم من الاستحواذ على أذن الإمبراطور واستمالته إلى ما جاءوا يحملون، فقد كان الإمبراطور ينظر إلى باسيليوس آنذاك بعين الاحترام باعتباره(٩٥) من أكثر الأساقفة اعتدالا، ومن ثم لم يجد رسل مجمع أنقرة صعوبة فى اجتذاب الإمبراطور إلى صفهم.

وكان أصفاليوس قسيس أنطاكية ورسولها إلى الإمبراطور، يستعد للارتحال عائدا إلى الشرق يحمل رسالة التأييد من الإمبراطور(٩٦) فلما قدم وفد أنقرة إلى قسطنطيوس، وقص عليه القصص وعرض صيغة الإيمان الجديدة، استدعى الإمبراطور إليه ثانية أصفاليوس واسترد منه رسالة الرضى التى كان قد حملها إياه إلى يودوكسيوس(٩٧)، وكتب إلى كنيسة أنطاكية رسالة(٩٨) أعلن فيها سحب الثقة من يودوكسيوس ورفاقه، وسخطه على آيتيوس وآرائه، وموافقته على آراء أنصاف الآريوسيين، واستخدم بعد ذلك أسلوب التهديد ضد الأنومويين وأنصارهم،

---

(92) SOZOM. Hist. eccl. IV, 14

وراجع Hefele, op. cit. Pp. 903-998

وأيضا Kidd, op. cit. II, pp. 159-160

ويذكر باسيليوس أسقف قيسارية كبادوكيا أن الرسالة تضمنت أثنتا عشرة أناثيما فقط ضد كل من ينكر التشابه فى الجوهر .

راجع BASIL, Ep. CCLXIII, 3

(93) Watson, op. cit. p. 9

(94) SOZOM. Hist. eccl. IV, 13

(95) Robertson., op. cit. p. 55

(96) SOZOM. Loc. cit.

(97) Id.

(98) Ibid. 14

ثم أعلن فى النهاية أن الجزاء العادل لأولاء أن تلفظهم الكنيسة مارقين، وبالفعل صدرت الأوامر بنفى يودكسيوس إلى أرمينيا، وآيتيوس إلى فريجيا(٩٩).

وقد اتخذ قسطنطيوس من وجود أساقفة الشرق، باسيليوس ويوستاتيوس وغيرهما فى سيرميوم سنة ٣٥٨ ، وحضور فالنز وأورساكيوس وجرمنيوس، فرصة، ودعاهم إلى عقد مجمع عرف بمجمع سيرميوم الرابع(١٠٠)، وطلب إلى هؤلاء جميعا التوقيع على ما جاء به أنصاف الآريوسيين، ولم يبد أى منهم، خاصة أنصار الأنوموية فى الغرب، فالنز وأورساكيوس، أى بادرة تشير إلى الاعتراض(١٠١)، ويعلق جواتكين على ذلك قائلا: "إن قرارات هذا المجمع توضح مدى الجرأة التى يمتلكها أناس يستطيعون التأثير على الإمبراطور نفسه، وإحداث التغيير المفاجئ الذى يبتغون(١٠٢).

ولعلنا نتساءل عن الدوافع التى حدت بقسطنطيوس إلى تغيير موقفه بهذه السرعة من الأنوموية إلى النصف آريوسية؟! الحقيقة أن الإمبراطور اضطر بفعل الأحداث إلى اتخاذ مثل هذا الموقف بالتخلى عن الأنومويين فجأة، ذلك إنه قد رأى الاحتجاج الذى أظهره أساقفة غالة ضد فريق المتطرفين، ولم يكن يريد أن يثير غضب الاكليروس وشعب الكنيسة فى غالة خاصة والغرب بعامة، فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى ضمان الهدوء فى تلك المنطقة حتى يتسنى له مجابهة القوات الفارسية فى الشرق، والتى بدأت مرة أخرى تعكر صفو السلام عند الفرات(١٠٣). وبنفس الدافع إلى الاستقرار لم يكن يريد أن يرى فى الشرق ذاته هذا الصدع الهائل بين الآريوسيين وأنفسهم، وتأكد لديه بناء على ما حدث فى أنقرة، أن الأساقفة هناك، أو على الأقل عدد ليس باليسير منهم يرفضون الأنوموية.

من أجل هذا رأى الإمبراطور، بقصر نظره فى المسائل اللاهوتية ومشاكل

---

(99) Kidd, op. cit. II, p. 161
(100) SOZOM. Hist. eccl. IV, 15
(101) Hefele, op. cit. I. 2, p. 908
(102) Gwatkin, The Arian controversy, p. 91
(103) Sykes, A history of Persia, pp. 416-417

الجدل العقيدى، أن يمالئ أنصاف الاريوسيين معتقدا عدم وجود خلاف جذرى بين "الهوموسية" و"الهومويوسية"، وأن "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن لا يبعد كثيرا عن "المساواة"، وإن أنصار النيقية على هذا النحو لن يجدوا الفرصة التى تدفعهم إلى الهياج وإثارة النزاع من جديد، ويعلق سوزومنوس قائلا: "تلك كانت الأحداث التى شهدتها سيرميوم، وهكذا بدا للجميع آنذاك أن كنائس الشرق والغرب، يدفعها الخوف من إثارة سخط الإمبراطور، راحت تدق أجراسها بفكر عقيدة واحدة"(١٠٤).

غير أن علامات الهدوء هذه كانت تحمل فى طياتها نذر إعصار عنيف، فالأساقفة الأنومويون الذين تم نفيهم، سرعان ما صدرت الأوامر الإمبراطورية بإعادتهم ثانية (١٠٥) فى محاولة من قسطنطيوس لتقليد أبيه، جريا على سياسته فى ائتلاف جميع الفرق المتصارعة واسترضائها، وبدأت بذلك فترة امتدت ثلاثة أعوام هى عمر قسطنطيوس الباقى، شهدت مواجهة سافرة بين جميع الفرق المسيحية، الآريوسية والنيقية.

وكانت الفرصة الآن قد تهيأت لظهور فرقة جديدة تحمل معتقدا آخر، احتجاجا على هذا التطرف البعيد عن الأنومويين والنيقيين، والارتداد الحثيث لدى أنصاف الآريوسيين. ومن ثم كان البحث طريق وسط، يمثل أيسر السبل بلوغا إلى الهدف وسط هذا الجدال العقيدى المحتدم، وأعملت الجماعة فكرها فاهتدت إلى صيغة تجمع ربما كل ما يدور فى أذهان هذه الفرق جميعا، تتجسد فى كلمة "التشابه" (Homoeos) "الهوموية" وفقط. دون تحديد معين لنوعية "التشابه" بين الابن والآب. وكان احتجاجهم نابعا من أن "الهوموسية" و"الهومويوسية" لم تردا فى الكتاب المقدس، أما "الهوموية" فقد رددها أثناسيوس فى كتاباته ضد

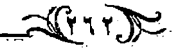
---

(104) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

(105) Gwatkin, Arianism, p. 132

وراجع له أيضا The Arian Controversy, p. 92

وانظر كذلك Watson, op. cit. p. 9



الأنومويين[١٠٦]، وجرت فى لاهوت الجماعة المحافظة عند كيرلس الأورشليمى كما أسلفنا[١٠٧]. وبناء عليه فقد رأى هذا الفريق فى الكلمة هذه صيغة بسيطة واضحة يمكن أن تتلاقى عليه آراء الجميع.

وعلى رأس هذا الفريق يقف أكاكيوس Acacius أسقف قيسارية (٣٤٠-٣٦٦) تلميذ يوسيبيوس شيخ مؤرخى الكنيسة[١٠٨] وإذا كان هذا الأخير صاحب آراء لاهوتية يعوزها وضوح الرؤية، فإن أكاكيوس كان ذا عقل ألمعى، ولكن دون عقيدة معينة[١٠٩]. ويبين تاريخه الطويل حتى وفاته، تقلبه بين الفرق والفكر يرتضى الهوموسية حينا، ويتقبل الآريوسية أحايين[١١٠]. وهو من هذه الناحية بالذات يمثل فريق الأساقفة السياسيين فى الشرق. لقد كان سياسيا أولا وآريوسيا بعد ذلك. ويقول عنه روبرتسون: من الصعب أن تحدد طبيعة آراء هذا الرجل وأفكاره، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان متعاطفا مع سياسة قسطنطيوس التى تبغى الوحدة بين جميع الفرق المسيحية على أساس الخضوع للدولة[١١١].

وأكاكيوس فى ذلك يشبه رجلى بانونيا، فالنز وأورساكيوس، كلهم يسعى إلى تحقيق هدف واحد هو السيادة على الكنيسة بسلطان الدولة. ولعل صفحات التاريخ التى قلبناها آنفا تحدث فى جلاء عن طبيعة هذين الأسقفين، وكانا قد نجحا لأشهر قليلة فى الانتصار للأنوموية، ولكن قسطنطيوس عاد فتنكر لهذا المعتقد، فلما أحسا بأس الإمبراطور أسرعا يتحالفان مع رجل قيسارية أكاكيوس ليخلعا عن نفسيهما

---

(106) ATHANAS. Orat. C. Arian. I, 9, 39-40, II, 16-18

(١٠٧) وهم يعنون قول كيرلس " التشابه كما هو مكتوب فى كل شئ " والمقصود هنا أنه استخدم الكلمة ذاتها راجع قبله .

(108) SOCRAT. Hist. eccl. II, 4
وراجع كذلك SOZOM. Hist. eccl. III, 2

(109) Robertson, op. cit. p. 54

(110) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39-42; III, 25
وراجع SOZOM. Hist. eccl. III, 5, 12, 16; IV, 23, 24, 29

(111) Robertson, op. cit. p. 54

بذلك رداء أغضب الإمبراطور، وتلك كانت الصورة التى أضحت عليها الفرق المسيحية آنذاك. الآريوسية الأصلية طرحها الجيل الجديد جانبا بعد موت زعمائها، ثم الأنومويون يمثلون الفريق المتطرف والذى يمتلئ حيوية ونشاطا، وأتباع النيقية يمشون على استحياء فى الغرب ومصر، وأنصاف الآريوسيين لهم السيادة الآن. وكان على الجميع أن يفسحوا كرها مكانا بينهم للهومويين حزب الوسط، وأدرك زعماء تلك الفرق أن صراع البقاء يحتم على كل منهم أن يبحث عن حليف يؤمنه عثرات الانعزال، فضم الأنومويون إلى الهومويين صفوفهم، بينما سعى أنصاف الآريوسيين والنيقيون إلى التقارب.

تولى أمر التقريب بين الأخيرين هيلارى أسقف بواتييه، وتمثل ذلك فى تلك الرسالة التى كتبها عن المجامع De Synodis وهو فى الشرق يقضى أيام نفيه جزاء العناد، وبعث بها إلى أصدقائه الغاليين يوضح لهم فيها حقيقة إيمان أساقفة الشرق ويخلع على مجمع التدشين الأنطاكى (٣٤١) صفة "مجمع القديسين"، ويبين أن مراسيم الإيمان الشرقية متأثرة بالمعانى الأرثوذكسية[١١٢]. ولما كان الغرب ينعم باللامبالاة تجاه المسائل اللاهوتية ، فإن ما أثاره هيلارى فى رسالته عن إيمان الشرقيين لم يحرك فى أساقفة الغرب ساكنا.

ويبدو عمليا أن هذه الرسالة قصد بها أن تقرأ فى المكان الذى كتبت فيه، وإنه إذا استطاع الأسقف هيلارى بهذا الخطاب المفتوح أن يقنع أكليروس الشرق أنه لا ينظر إليه في الغرب بعين الشك والريب، فإن ذلك يعد خطوة كبيرة نحو الوحدة بين الشرق والغرب عقيديا [١١٣] وفى الوقت نفسه إذا تمكن هيلارى من إقناع زملائه فى الغرب، أن المصطلحات التى اعتاد الشرق أن يبرزها فى إيمانه، موافقة للإيمان الأرثوذكسى، فإن خطوة أخرى من جانب الغربيين تكون قد بدأت [١١٤]. بهذا يمكن القول أن هيلارى راح يستحث الشرق على أن يتقدم نحو

(112) HILAR. De Syn. 32
(113) Watson, op. cit. p. 19
(114) Id.

الإيمان النيقى، ويناشد الغرب الترحيب بهذه المبادأة، والاعتراف بالفكر التى جاءت فى وثائقهم المبهمة(١١٥).

لقد كان هيلارى قريب الصلة بباسيليوس أسقف أنقرة، الذى كان لفريقه السيادة الآن، يرى فيه وأنصاف الآريوسيين فاتحة للتقارب مع النيقية، ويرى فى الإمبراطور، رغم نفيه له، "مؤمنا صادقا"، ضل مرة ثم تاب وعاد إلى الإيمان(١١٦)، وهو يعنى بذلك ارتداد قسطنطيوس عن الأنوموية وانتصاره للهومويوسية عقيدة أنصاف الآريوسيين، ويطمع بذلك أن تجد الوحدة بين الكنيسة فى شطرى الإمبراطورية سبيلها، ولكن مسيرة الأحداث بعد ذلك مباشرة، سوف تكشف أن الوقت لم يكن قد حان بعد لإيجاد هذا التفاهم بين الشرق والغرب، بل إن هذا الوقت لم يأت أبدا. وقد ساعد على ذلك عندئذ أن أنصاف الآريوسيين أنفسهم لم يكونوا على قدر من الكفاءة تسمح لهم بتثبيت دعائم السيادة التى حصلوا عليها مؤخرا، ومن ثم كان عليهم أن يفسحوا المجال للفريق الجديد، الذى تتفق ميوله وهوى الإمبراطور.

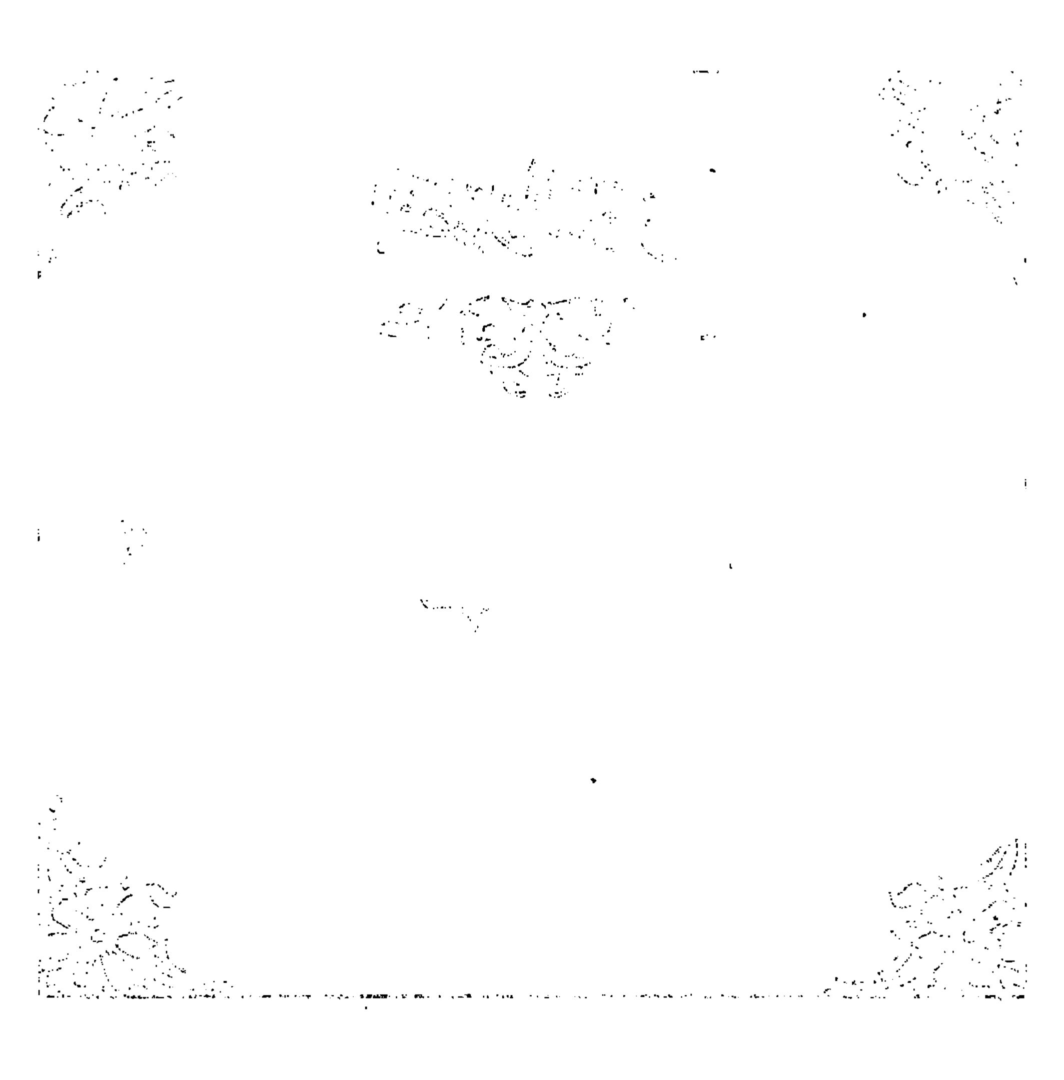
(115) Watson, op. cit. p. 19
(116) Id.





الفصل الثامن

أثناسيوس ضد العالم



الفصل الثامن

أثناسيوس ضد العالم

علـى صـفحات أميانوس ماركللينوس يبدو قسطنطيوس إمبراطورا مرهف الحـس، غامضـا، خفرا ظنونا فريسة سهلة لكل مطر مملاق[١] يبحث عن الهدوء متقلبا بين الأنومويين وأنصاف الآريوسيين، ثم ينشد وحدة الكنيسة فى غيرهما، إلى أن يـتجه فى النهاية إلى عقيدة الهومويين، فريق الوسط وأساقفة البلاط، وفى هذا الجـو الخـانق المضـطرم ظهـرت الحاجـة إلى عقد مجمع جديد يضم أساقفة الإمبراطورية جميعا لوضع حد لهذه الفوضى العقيدية.

يخـبرنا أثناسـيوس أن القـلق الذى انتاب الهومويين من أجل القضاء على الـنيقية، كـان السـبب الرئيسـى وراء فكـرة هذا المجمع[٢]. ومن ثم فإن فالنز وأورسـاكيوس وجرمينوس وأكاكيوس ويودوكسيوس وباتروفيلوس هم الذين تولوا أمـر توجيـه الدعـوة إلى عمـوم الأسـاقفة للالتقاء تحت دعوى مناقشة مسألة الإيمان[٣]. غير أن أنصاف الآريوسيين أيضا كانوا يشعرون بنفس القلق من أجل تدعيم سيادتهم على الكنيسة، فقد حققوا النصر فى سيرميوم سنة ٣٥٧، واستطاعوا اكتسـاب الإمـبراطور إلى جانبهم ونفى الخصوم، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا هؤلاء الخصوم يعودون ثانية من المنفى ويسعون جاهدين لاستعادة ثقة الإمبراطور.

ويذكـر سـقراط[٤]، ويتابعه على ذلك سوزومنوس[٥]، أن الإمبراطور هو الذى رأى أن يدعو الأساقفة لاجتماع عام نتيجة للاضطرابات الحادثة فى الكنيسة بغيـة تحقيـق السـلام والخلاص من هذه الفوضى. أما المؤرخ ثيودوريت فيدلى

(1) AMM. MARC. Res gest. XIV, 7
وراجع أيضا Jones, Later Roman Empire, I, p. 116
(2) De Syn. 1
(3) Id.
(4) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(5) SOZOM. Hist. eccl. IGV, 16

بحديث غامض، وإن كنا نستطيع أن ندرك من خلاله أن أنصاف الآريوسيين هم الذين "أغروا" الإمبراطور بالإقدام على هذا الإجراء حيث يقول: "إن أعداء الإيمان أرادوا حذف تعبيرى "جوهر" و "من نفس جوهر الأب"[٦]، أما جيروم فيذكر فى إيجاز أن هذا المجمع عقد بدعوى وحدة الإيمان.

على أنه من خلال هذا كله يمكن القول أن جميع الأطراف كانت ترى المصلحة بعينها عند كل، ضرورة عقد مجمع عام لحسم الخلاف.

تلقى أساقفة الكنيسة فى الشرق والغرب رسائل الإمبراطور التى تدعوهم إلى الالتقاء فى مدينة نيقية، التى رغب قسطنطيوس فى أن تكون مقرا للمجمع[٨] غير أن باسيليوس ورفاقه، وكانت لهم الحظوة عند الإمبراطور حتى ذلك الوقت كرهوا أن يلتئم عقد المجمع فى هذه المدينة[٩] لأنها ترتبط فى أذهانهم والآريوسيين عامة، بذكرى انتصار العقيدة المقيتة لدى نفوسهم، واقترح باسيليوس أن يتجه الأساقفة إلى نيقوميديا بدلا منها[١٠] وبدأ الأساقفة فعلا بالارتحال إليها[١١]، غير أنه فى ٢٤ أغسطس ٣٥٨ تعرضت المدينة لهزة أرضية عنيفة أتت عليها فجعلتها كالرميم[١٢]. ولما أذيعت أنباء هذا الزلزال آثر الأساقفة الانتظار حتى ترد إليهم الأوامر الإمبراطورية الجديدة، على حين فضل بعض منهم أن يدون آراءه الدينية فى رسائل ويبعث بها إلى قسطنطيوس[١٣].

ويصف سوزومنوس حالة الإمبراطور عندئذ وقد تملكه القلق والاضطراب حائرا، فلما ضاقت به السبل أرسل إلى باسيليوس يسأله النصيحة[١٤]، فكتب إليه

(6) THEOD. Hist. eccl. II, 15
(7) HIER. Dial. C. Lucif. 17
(8) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16
(9) Id.
(10) Id.
(11) Id.
(12) Id.
(13) Id.
(14) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

الأسقف يمتدح رحمته ويقدم له العزاء فى مصاب نيقوميديا الأليم، ويناشده من أجل العقيدة الإسراع بعقد المجمع، وأن لا يترك للهم أو الحزن فى نفسه موضعا ، وأن لا يصرف رجال الدين الذين تجمعوا لهذه المهمة أو الذين لا يزالون فى طريقهم إليها، واقترح عليه فى النهاية أن يلتئم عقد المجمع ثانية فى نيقية، عله بذلك يعيد السرور إلى قلب الإمبراطور، حيث تلك منذ البداية رغبته[١٥]، وعليه صدرت الأوامر إلى الأساقفة بالتوجه إلى نيقية، واستثنى منهم أولئك الذين يكابدون وهن العمر أو علة الجسد، منيبين عنهم الشمامسة رسلاً[١٦]. وفجأة على حد تعبير سوزومنوس، بعد مشاورات عديدة، تراجع الإمبراطور عن قراره، وأرسل إلى الأساقفة بأن يظل كل فى مكانه حتى يأتيه أمر الإمبراطور[١٧]، وكتب إلى باسيليوس يطلب منه أن يشاور أساقفة الشرق فى المدينة التى يفضلون الالتقاء فيها مؤكدا ضرورة صدور بيان مجمعى قبل ربيع عام ٣٥٩[١٨]. ولم يتوان باسيليوس فى تنفيذ رغبة الإمبراطور، ولكن الأساقفة اختلفوا فيما بينهم، فارتحل باسيليوس إلى الإمبراطور فى سيرميوم ليعرض عليه ما انتهى الأمر إليه[١٩].

هذه الأحداث التى ينفرد بنشرها سوزومنوس فى تاريخه الكنسى تضع أمامنا صورة واضحة عن مدى الارتباك الذى كان يسيطر على الإمبراطور، والحيرة التى تملكته، وكذا الأساقفة، ولم يكن اختيار مدينة لعقد المجمع، كما يتبادر إلى الأذهان للوهلة الأولى، أمرا ميسورا، فكل فريق يريد أن تكون له السيادة فى المجمع، واختيار المدينة وسط أنصاره يعد خطوة هامة فى هذا المجال. غير أن التراجع "المفاجئ" الذى تبدى فى سياسة قسطنطيوس، والذى جاء "بعد مشاورات عديدة" حسب تعبير سوزومنوس، يجعلنا نتساءل عن هؤلاء الذين شاورهم فى الأمر قسطنطيوس، إلى الحد الذى جعله يترنح فى تفكيره طوال ستة أشهر قادمة، ويجيبنا سوزومنوس على ذلك عندما يذكر أن باسيليوس حين قدم إلى سيرميوم وجد

(15) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16.
(16) Id.
(17) Id.
(18) Id.
(19) Id.

بالمدينة عددا كبيرا من الأساقفة جاءوا لقضاء أمور خاصة لهم، وكان من بينهم مرقس أسقف الرستن، وجورج الكبادوكى أسقف الإسكندرية، وفالنز الذى كان ينزل آنئذ ضيفا على البلاط[٢٠].

ووجود أسقف مورسا بالذات فى حضرة الإمبراطور يجيب على كل تساؤل ولا يدع مجالا للشك حول الدافع الرئيسى الذى حدا بقسطنطيوس إلى العدول عن قراره بذهاب الأساقفة إلى نيقية تبعا لنصيحة باسيليوس. ولا شك أن هذا الموقف الذى أقدم عليه قسطنطيوس، يذكرنا بالسياسة التى اتبعها قسطنطين الكبير من قبل وهى ائتلاف الآريوسيين والنيقيين، مع خلاف واضح هو أن قسطنطيوس، وقد عفا عن الأنومويين، يجاهد لإحلال الوحدة بين الآريوسيين وأنفسهم بعد أن فرقت بينهم طبيعة الجدل العقيدى، وذلك بفرض عقيدة واحدة للآريوسية على الكنيسة. أما النيقية فلم يعد يقيم لها وزنا بعد أن ارتبطت فى مخيلته دائما بالعناد والصلف ممثلا فى عدد من رجالها وخاصة أثناسيوس الأسقف السكندرى ، وفالنز يقوم الآن بنفس الدور الذى قام به من قبل يوسيبيوس النيقوميدى، فكلاهما ينتمى إلى مدرسة اللاهوت السياسى، وكلاهما يسعى لفرض سيادته وعقيدته، وكلاهما يحقق رغبة الدولة فى السيادة على الكنيسة . ولعل الإحساس الذى انتاب باسيليوس بالخوف من وجود رجل مثل فالنز "ضيفا" على قسطنطيوس، هو الذى استحثه على القدوم إلى سيرميوم، حتى لا يدع الفرصة لخصمه أن يتملك أذن الإمبراطور فيمسى الانتصار الذى حققه أنصاف الآريوسيين منذ شهور، سرابا.

ولكن يبدو أن باسيليوس قد جاء متأخرا بعض الشيء، ذلك أن فالنز كان قد أفلح فى أن يأخذ موافقة الإمبراطور على اقتراحه بأن يلتقى أساقفة الإمبراطورية بشطريها، كل فى إقليمه، فتكون مدينة ريمينى Ariminium فى إيطاليا ملتقى أساقفة الغرب، بينما يلتئم عقد أساقفة الشرق فى سلوقية Seleucia بايزوريا Isauria[٢١] فى آسيا الصغرى. ويتملك أثناسيوس العجب من فكرة تقسيم المجمع

(20) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16
(21) SOZOM. Hist. eccl. IV, 17
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وأيضا ATHANAS. De Syn. I, 8

على هذا النحو ويضفي على ذلك شيئا من تدخل السماء[٢٢]. ويذكر سقراط أن بعد المشقة وطول المعاناة وكثرة النفقات كانت باعث الإمبراطور على هذا التقسيم[٢٣]. ولكن سوزومنوس يفوق الجميع بدقة تحليله لهذه النقطة إذ يقول: بينما تجري الإستعدادات على قدم وساق لعقد مجمع عام، إذا بيودوكسيوس وأكاكيوس وفالنز وأورساكيوس وأنصارهم يدركون أنه إذا ما جمع بين الفرق المتصارعة مكان، لأدانوا على الفور عقيدة آيتيوس باعتبارها مختلفة تماما لما يؤمن به الجميع، ومن ثم أداروا دفة الأحداث حتى أفلحوا في الوصول بها إلي هذه النتيجة، يقود خطوهم اليقين بأن من السهل التأثير على عدد من الأساقفة قليل، على حين يصبح قياد الأكثرية أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد، ولذا كان التقسيم بالنسبة لهم ضرورة حياة وطريق سيادة[٢٤]. وهكذا أفلح الهومويون في أن يطبقوا القاعدة المعروفة "فرق تسد" Divid et impera[٢٥]. وهكذا فقد أنصاف الآريوسيين جانب الإمبراطور بنفس السرعة التي كسبوه بها[٢٦]. ويضيف سوزومنوس أن الهومويين تمكنوا من التأثير على قسطنطيوس عن طريق الخصي يوسيبيوس الذي كان مهيمنا على القصر، وكان في الوقت ذاته على وداد مع يودوكسيوس ويحمل نفس عقيدته[٢٧] ويعلق على ذلك قائلا: "وكثير من هؤلاء يقطعون أنفاسهم في سبيل استرضاء هذا اليوسيبيوس العظيم"[٢٨].

لا شك أن الإمبراطور قد اقتنع بوجهة نظر أساقفة البلاط. وهنا كان يدرك

---

(22) ATHANAS. De Syn. I,8.
(23) SOCRAT . Hist. eccl. II, 37.
(24) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16
(25) Kidd. op. cit. II, p. 136
وراجع Robertson, op. cit. p. 448
(26) Kidd, Loc. cit
(٢٧) هذه القصة ترددت كثيرا على أقلام مؤرخي الكنيسة، وقد ساقوها من قبل على عهد قسطنطين الكبير عندما عفا عن آريوس ورفاقه ، ثم من بعد على عهد ولده قسطنطيوس عقب وفاه والده مباشرة . وقد عرضنا لذلك في الفصل الثالث وأثبتنا خطأ هذا الزعم . ولم يكن هؤلاء الأساقفة في حاجة إلى من يقربهم إلى الإمبراطور، ففالنز صديقه الحميم منذ أتاه بنبأ النصر عند مورسا ، وفالنز يتزعم الفريق الذي يمثل فكر الإمبراطور في سيادة الدولة على الكنيسة .
(28) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

أن الخــلاف لا محالة واقع بين رجال المجمع المزدوج في ريميني وسلوقية حول أمــور العقيــدة، من واقع الاختلاف العميق في الفكر بين الشرق والغرب[٢٩]، فقد حــرص عــلى أن يحول دول فشل أي من المجمعين، وطلب إليهما أن يرسل كل مــنهما عشرة مندوبين نوابا إلى البلاط حتى يقف على حقيقة ما يجرى في الشرق والغــرب[٣٠]. والحقيقة أن الإمبراطور كان يرى، بدافع الحرص على إقرار عقيدة واحــدة للإمبراطورية، أنه من السهل استمالة هؤلاء النفر أو قهرهم دون أن تذهب جهــوده عبثا وسط صيحات جموع الأساقفة بالاستنكار، من أجل هذا أيضا أصدر أوامــره إلى نائــبه في إيطاليا طاوروس Taurus أن لا يدع مجمع ريميني ينفض حتى ينتهي الحضور إلى اتفاق حول الإيمان، ووعده بالقنصلية مرتبة إذا ما انتهى أمــر المجمــع إلى نجــاح، وأرسل موظفي البلاط إلى مختلف المناطق في الليريا وإيطاليــا وإفريقيا وغالة للتمهيد للمجمع[٣١] وكان من الطبيعي أن يتولى فالنز أمر الأساقفة في ريميني.

أمــا في الشــرق فــإن اختيار سلوقية في حد ذاته يشير إلى تصميم أساقفة الــبلاط والإمبراطور على تحقيق الوحدة العقيدية في الكنيسة مهما كانت الوسائل، ومــن ثم كان وجود حامية عسكرية بالمدينة باعثا للإمبراطور على اختيارها مكانا لالتقاء أساقفة الشرق[٣٢]، وعهد بإدارة هذا المجمع إلى أكاكيوس القيساري.

وقــبل أن تــبدأ جلســات المجمعين، انتهز الهومويون فرصة وجود بعض زعماء أنصاف الآريوسيين في سيرميوم للدخول معهم في مفاوضات، أسفرت عما يمكــن أن نســميه لجنة تحضيرية للمجمع المزدوج، وكان الهدف الذي يسعى إليه أســاقفة الــبلاط مــن وراء ذلــك، أن يضعوا مرسوما للإيمان يحمل عقيدتهم إلى المجــتمعين في ريميــني وســلوقية، حتى لا يدعوا لأي منهم مجالا لتغليب عقيدة

---

(٢٩) أنظر قبله .

(30) SOZOM. Hist. eccl. IV, 16

(31) SVLp. SEV. Hist. SAC. II, 41

(32) Robertson, op. cit. p. 338

وراجع أيضا Gwatkin. The Arian Controversy, p. 96

أخرى أو الظفر بالسيادة. ولما كانوا يدركون أن أنصاف الآريوسيين يمثلون قوة لا يستهان بها في الشرق، فإن النجاح في استمالتهم إلى التوقيع على مثل هذا المرسوم يعد مغنما كبيرا للهومويين، وخطوة واسعة في سبيل السيادة. وقد اشترك في هذه المفاوضات باسيليوس ومرقس وفالنز وجورج الكبادوكي، وتم التوصل في النهاية إلى مرسوم للإيمان يمثل عقيدة الهومويين[٣٣]، وقد عرف باسم "المرسوم المؤرخ"[٣٤]، نتيجة لما جاء في مقدمته التي تقول: "الإيمان الكاثوليكي الذي نشر في حضرة سيدنا الديّن، الإمبراطور ممجد الانتصار قسطنطيوس أوغسطس الأبدي، في سيرميوم بتاريخ ٢٢مايو " ٣٥٩ ". وقد تعرضت هذه الديباجة لهجوم عنيف من جانب أثناسيوس بسبب ما خلعه الهومويون على قسطنطيوس من صفة "الأبدية" واعتبار الإيمان الكاثوليكي حديث عهد يبدأ فقط في سيرميوم في الثاني والعشرين من مايو "٣٥٩"، عندما تم وضع هذا المرسوم[٣٥]. على أن أهم ما يعنينا في هذا المرسوم هي الفقرة التي وردت في نهايته، والتي تحدد اتجاه الهومويين العقيدي:

"... ولما كانت كلمة "جوهر" قد استخدمها الآباء بسذاجة مفرطة، وأحدثت أضرارا لأن الرعية لم تع أمرها، ولأن الكتاب المقدس لم يحوها، فقد تبدى لنا حسنا شجبها، بحيث لا تستخدم ثانية في الحديث عن الله اتباعا للكتاب المقدس الذي لم يستخدمها عندما حدث عن الآب والابن. ومن ثم فنحن نقول أن الابن يشبه الآب في كل شيء كما علم بذلك الكتاب المقدس"[٣٦]

وقد علمنا أن الهوموية تعتمد "التشابه" فقط دون تحديد، لكونه تعبيرا نسبيا يتسع لكل التفسيرات، ولهذا وضعت عبارة، "كما علم بذلك الكتاب المقدس" وكان

---

(33) ATHANAS. De. Syn. 2-6
وراجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(34) Kelly, op. cit. p. 288
(35) ATHANAS. De Syn . 2-6
راجع كذلك .SOCRAT. Loc. cit
(36) ATHANAS. op. cit. 8
وراجع SOCRAT. Loc. cit

هـذا ترخيصـا مـن المتطرفين في اللجنة يسمح لأنصاف الآريوسيين بافتراض حسـن الـنية[٣٧]، ومن ثم كان الإصرار من جانب الأخيرين على إضافة "في كل شـيء" إلى كـلمة "التشـابه" رغـم المعارضة القوية التى أبداها فالنز. وقد وقف الإمـبراطور إلى جـانب أنصـاف الآريوسـيين حـتى أكره أسقف مورسا على الموافقـة[٣٨]. ولـئن كـان المرسـوم يبدو من هذه العبارة للوهلة الأولى نصف آريوسي، إلا أنه فى حقيقته يعد هومويا[٣٩].

والحقيقـة أن كلمة "التشابه" Homoeos وتعبير "كما علم الكتاب المقدس" كما لاحـظ جريجورى النازيانزى تعد "طعما لذوى العقول البسيطة، وحذاء يناسب كل قدم"[٤٠]. ويبدو أن باسيليوس انتابه بعد التوقيع على هذا المرسوم شعور بأنه تورط فى عقيدة لا قبل لأنصاف الآريوسيين بها، ولهذا فإنه وضع مذكرة تفسيرية يشرح فيهـا المغزى الذى من أجله وقع على هذا المرسوم، ويؤكد فيها التشابه الجوهرى بيـن الابـن والآب[٤١]، غير أن الهومويين حققوا بذلك، وفى حضرة الإمبراطور، نصرا كبيرا وخطوة فى سبيل السيادة الكاملة.

وفى ٢١يوليو ٣٥٩، التقى فى ريمينى أربعمائة من أساقفة الغرب[٤٢] تحت رعايـة الـنائب الإمبراطورى طاوروس، وكان الإمبراطور قد أمر بأن تقدم كل التسهيلات للأساقفة[٤٣]، وإلى ريمينى أيضا جاء فالنز وأورساكيوس بعد أن انتهت

---

(37) Kidd, op. cit. II, p. 165

(38) SOZOM. Hist. eccl. IV, 17

(39) Gwatkin. The Arian Controversy, p. 64

(40) GREG. NAZ. Orat. XXI, 22

(41) Robertson, op. cit. Pp. 56, 448

(42) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41

وانظر أيضا ATHANAS. De Syn. 8

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 17

(٤٣) كانت هذه التسهيلات تشمل إعداد المركبات الخاصة لنقل الأساقفة إلى مكان الاجتماع والإنفاق عليهم. غيـر أن أسـاقفة غالـة وبريطانيا رفضوا الاعتماد على ما يصرف لهم من الخزانة العامة وفضلوا الانتقال على نفقتهم الخاصة .

راجع SEV. Loc. cit.SVLp

إجـراءات سيرميوم، يحملان رسالة من الإمبراطور بتاريخ ٢٧مايو ٣٥٩ تدعو أسـاقفة الغـرب إلي بحث مشكلة العقيدة دون توان(٤٤)، وحذرهم من الأقدام على اتخـاذ قـرار نهائي قبل الوقوف على رأس أساقفة الشرق(٤٥). وفى كنيسة المدينة الـتقى الأسـاقفة الـنيقيون(٤٦)، الذين كانوا لا يزالون يمثلون الأغلبية الساحقة فى الغرب على الرغم من الأحداث التى وقعت فى ميلانو سنة ٣٥٥، ونفى زعمائهم. بيـنما عقـد أسـاقفة الآريوسية ولم يكن عددهم يتجاوز الثمانين اجتماعاتهم خارج الكنيسـة(٤٧). وقـد أبـدى هؤلاء رغبتهم فى أن يسدل ستار الصمت على قضية أثناسـيوس، وأيد هذا الاتجاه بحماسة فالنز وأورساكيوس(٤٨)، وأعلن رجلا بانونيا أن جميـع مراسيم الإيمان التى صدرت من قبل يجب أن تطرح الآن جانبا، وأن يعـلو فوق الجميع ذلك المرسوم الذى تم الاتفاق عليه فى سيرميوم فى ٢٢مايو من العـام(٤٩). وقـام فالنز بقراءة نص "المرسوم المؤرخ"، فقوبل على الفور بعاصفة هوجـاء من جانب الأساقفة النيقيين الذين أعلنوا تمسكهم بالإيمان النيقى، وسخروا مـن عـبارة "الإيمان الكاثوليكى" التى يفتتح بها المرسوم، وطالبوا بلعن الآريوسية وأتباعها(٥٠) .

غير أن هذا الهياج لم يلق أى استجابة من أسقفى بانونيا ورفاقهما(٥١). فأدى ذلـك عـلى الفور إلى تصدع مجمع ريمينى، إذ أصر كل من الجانبين على التزام

---

(44) HILAR. Fragm. VII, 1, 2 (p. L. X. 695-696)

(45) Id.

(46) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41

(47) Id.

(48) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV. 17

(49) SOCRAT. Loc. cit.

(50) Id.

(٥١) كـان مـن أبرز زعماء الآريوسية آنذاك إلي جوار فالنز وأورساكيوس، جرمينيوس أسقف سيرميوم، وأكسنتيوس أسقف ميلانو، وديموفيلوس Demophilus أسقف بيرويا Beroea فى مقدونيا، وجايوس Gaius أسقف الليريا

عقيدته[٥٢]، وأعلنت الأغلبية الغربية التمسك بالإيمان النيقى وحرمان وعزل أساقفة الآريوسية وإدانة عقيدتهم. ويطلق القديس أمبروز على ذلك "بيان ريمينى الأول"[٥٣]. وقد ضمن الأساقفة النيقيون قراراتهم هذه فى رسالة بعثوا بها إلى الإمبراطور، حدثوه فيها عن مجمع نيقية وتقوى أبيه ومزوق فالنز وأورساكيوس، و"عبثهما" فى ريميـنى وخطـورة الانسياق خلفهما، ويخبرونه أنهم أعطوا مبعوثيهم صلاحيات خاصة لإقرار الإيمان "شريطة أن يجيء متفقا مع قوانين الآباء، ويتوسلون إليه فى النهاية أن يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم.

والفقرة الأخيرة[٥٤] فى الرسالة بالذات تفصح عن مدى القلق الذى ينتاب أساقفة الغرب تجاه الأحداث التى يخبئها لهم المستقبل وهم يعلمون أن فالنز وأورساكيوس ليسا إلا رسـولى الإمـبراطور، أن الاريوسية الهوموية التى ينايان بها، التى صادق عليها قسـطنطيوس وارتضاها لابد الآن ماضية إلى صعود، أن على النيقية أن تنتظر قدرها. وفى نهاية الاجتماع أصدر أساقفة الغرب فى ريمينى القرار التالى:

"اخوتـنا الأعـزة ... إلى هـذا الحد من الصبر بلغ المجمع الكبير والبيعة المقدسـة، وبهـذا القـدر مـن المروءة احتملت الكنيسة فعال أورساكيوس وفالنز وجرميـنوس وأوكسنتيوس، أولاء الذين دأبوا على تبديل إيمانهم فأرهقوا الكنائس

(52) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV. 17
(53) AMB. DE. Fide I, 18
وراجع أيضا Ep. XXI, 15

(٥٤) جـاء فى خاتمـة هذه الرسالة : " . . . من أجل ذاك نرجو رحمتك أن تعطى مندوبينا آذانا صاغية، وعيـنا حانيـة، وأن لا تسـمح لشيء أن يتبدل، بل لتسمح لنا أن نظل على تلك الأمور التى تقررت وشـرعت بواسطة الأسلاف . . . كما نرجو أن تتفضل بالأمر بعودة الأساقفة القادمين عبر الأقطار، وقـد هـد العمـر منهم الزمن، وأضنتهم الفاقة والعوز إلى الديار، حتى لاتظل بيعهم ثكلى ترتقب . نتوسل إليك أن لا شئ يبتدع وأن لا شئ يضاف إلى مواد (الإيمان) التى لا زالت مذ عهد أبيك التقى وإلى هـذا الـزمان باقيـة. لا تجعلنا نقاسى شراك الخديعة، ولا نهجر بيعنا لأننا والرعية إذا ما ساد السلام، كان الوقت كله للصلاة والضراعة يقدمها الجميع لأجلك، أمانا وسلطانا" .
راجع ATHANAS. De Syn. 10
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 15

مـــن أمرها عسرا، ولا زالوا يستحثون الخطي خداعا لينفثوا روحهم المهرطقة فى صـــدور ذوى الإيمان القويم، تحدوهم رغبة إفساد ما قر عليه الإيمان فى نيقية ضد الاريوســية، وقد قدموا لنا مرسوما صنفوه بأنفسهم يباغض كلية الكنيسة المطهرة، لـــم تستطع عقولنا أن تتقبله ، ومن قبل أعلناهم هراطقة مارقين، والآن لا يدخلون فى شركتنا، فقد أدناهم فى حضورهم وعزلنا"(٥٥).

حمـــل رســل الغـــرب رســالة المجمع وقراراته إلى الإمبراطور، ويصف ســفروس هؤلاء المندوبين بقوله "إنهم مازالوا فى مدارج الصبى، عديمو الخبرة، ضــيقو الفكــر قليلو الثقافة(٥٦)، وفى الوقت ذاته ارتحل أيضا زعماء الآريوسيين، الذين كانوا شيوخا مهرة، على حد تعبير سفروس أيضا، ولذا استطاعوا أن يكسبوا إلى صفهم الأمير(٥٧). ويخبرنا سقراط أن مندوبى الآريوسيين كانوا أسبق فى لقاء الإمـــبراطور مـــن وفد النيقيين، وأنهم عرضوا عليه ما انتهى إليه أمر المجمع فى ريميـــنى مـــن الفشـــل(٥٨). ويضيف ويتابعه سوزومنوس صورة الاستقبال الودى والاحـــترام الـــذى أظهـــره قســطنطيوس تجـــاه الآريوسيين، والمقت الذى أبداه للنيقيين(٥٩)، خاصة بعد علمه أن أساقفة الغرب رفضوا قبول المرسوم المؤرخ (٦٠) ويـــبدو أن الإمبراطور كان يفكر الآن بصورة جدية فى الحرب الفارسية، فقد تلقى فى هذه الآونة (٣٥٩) رسالة من الملك الفارسى تفيض بالتهديد والوعيد(٦١).

---

(55) ATHANAS. De Syn. 11
وراجع L. X. 696).HILAR. Fragm. VII, 3 (p
(56) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 41
(57) Id.
(58) SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(59) SOZOM. Hist. eccl. IV, 19
وكذلك SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
(60) SOZOM. Loc. cit.
(٦١) جـــاء فى هـــذه الرســـالة : " ســـابور ملك الملوك . أخ الشمس والقمر ، يرسل تحياته إلى القيصر قســطنطيوس، لعـــلكم تعـــلمون أن نهر ستريمون Strymon وحدود مقدونيا كانت فى يوم ما تحت ســيادة أســلافنا، فإذا ما طالبتك الآن بردها، لما بدا ذلك ظالما ، ولكن روح الاعتدال سوف تجعلني قانعـــا بأن أتسلم ميزوبوتاميا وأرمينيا اللتين سلبتا من أجدادي ، وإذا ما عاد مبعوثي خالي الوفاض فأنى سوف أنزل ضدك الميدان ، وبكل جيوشي عندما يمضى الشتاء " .
راجع sykes, op. cit. 1, p. 416

وهكذا استبد الغضب بالإمبراطور، ولعلنا ندرك من ذلك مدى القلق الذى كان يساوره بشأن المسألة العقيدية، الذى بدا جليا فى رسالته إلى أسقف أنقرة فى العام الماضى[٦٢]، ورغبته فى إقرار أمر هذا الجدل اللاهوتى المضطرم، وهذا التمزق الداخلى بين الفرق الكنسية، والذى يهدد وحدة الدولة كلها، وكان الإمبراطور يريد أن يقف بها موحدة أمام الخطر الخارجى، وكان يرى فى "المرسوم المؤرخ" صيغة معتدلة، التقى عليها أمامه زعماء الأنوموية، والهومويون وأنصاف الآريوسيين مع التحفظ، وبقى أن تتم هذه الموافقة بصورة جماعية من أساقفة الإمبراطورية، فكانت فكرة عقد هذا المجمع المزدوج، فلما علم الإمبراطور برفض أساقفة الغرب فى ريميني قبول هذه الصيغة، أدرك أن أتباع نيقية هؤلاء سوف يعكرون من جديد بعنادهم صفو السلام فى الكنيسة والدولة بالتالى، وانهم يقفون حجر عثرة فى سبيل تحقيق الوحدة فى الكنيسة، وتجمعت عليه بذلك فى وقت واحد، أنباء التحرش الفارسى، ومكابرة النيقيين. والفوضى المروعة التى صبغت أعمال مجمع سلوقية، كما سنعلم بعد قليل.

فكتب إلى أساقفة الغرب هذه الرسالة:

"قسطنطيوس الظافر، أوغسطس المنتصر إلى جمع الأساقفة الملتئم فى ريمينى، دأبت عنايتنا دائما على تقديم الاحترام اللائق بالقانون السماوى المطهر، وقداستكم يعلمون ذلك، ولكننا الآن لا نملك إصغاء للأساقفة العشرين، رسلكم، لأن القيام بحملة ضد البرابرة أصبح محتما، وحيث إنكم مقتنعون أن أمور القانون المقدس يجب أن تؤخذ بعقل متحرر من سلطان القلق، فقد أصدرت أوامري إلى أولاء الرسل أن ينتظروا عودتنا إلى أدرنة، ذلك أنه ما أن تقضى الأمور العامة، أصبحنا قادرين على أن نصغى إلى ما سوف يقترح هؤلاء ونعى. والآن لا تنظروا إلى تأخيرهم على أنه يمس هيبتكم، وحالما يرسلون إليكم رأينا فلتقدموا على اتخاذ الإجراءات التى تكفل الخير والرفاهة للكنيسة الجامعة"[٦٣].

---

(٦٢) راجع قبله
وأنظر كذلك SOZOM. Hist. eccl.. IV, 16
(63) ATHANAS. De Syn. 55
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 15

ويبدو أن قسطنطيوس قد عزم وساعدته الأحداث على الجبهة الفارسية على أن يستخدم مع هؤلاء الأساقفة في الغرب أقسى وسائل الإيلام النفسي حتى تنهار في النهاية قواهم كما حدث لأسقف روما ليبريوس. ولم يكن النيقيون في الغرب بغافلين عن هذا الاتجاه، ولذلك ما أن تلقوا رسالة الإمبراطور حتي كتبوا إليه رسالة أخرى تفيد أنهم لن يحيدوا عن إيمان نيقية، ويضرعون إليه أن يسمح لهم بالعودة إلى كنائسهم قبل أن يحل الشتاء(٦٤).

ولا شك أن الرسالة الأخيرة قد تركت أثرها السيئ في نفس الإمبراطور وزادته اقتناعا أن هذه الجماعة لابد أن تساق قهرا إلى حيث يبتغي الإمبراطور، ووجد أساقفة البلاط في هذه الرسالة سبيلا جديدا يصل ما بينهم وبين قسطنطيوس. وقبل أن نمضي مع جهد هؤلاء الأساقفة، علينا أن نرى الآن ماذا كان من أمر أساقفة الشرق.

ففي ٢٧سبتمبر ٣٥٩، التقى في سلوقية حوالي مائة وستون أسقفا عند معظم المصادر(٦٥)، ومائة وخمسون فقط في رأى ثيودوريت وحده(٦٦). وعلى حين كانت

---

(٦٤) كانت رسالة أساقفة ريميني على هذا النحو : "تلقينا رسالة عطفكم، السيد السني، محبوب الرب، التي تطلعنا فيها على أن أمور الدولة قد حالت دون السماح لرسلنا بالمثول في حضرتكم، وتأمرنا أن نصطبر عودتهم حتى تقف رحمتكم منهم على ما قررنا متفقا مع تقليد الآباء. ولكنا نحتج ثانية بهذه الرسالة ، على أننا لا يمكن أن نحيد البتة عن سابق قرارنا. وهذه أيضا فوضنا بها مندوبينا. ومن أجل هذا نضرع إليكم أن تأمر بكل الرضى ، بقراءة رسالة تواضعنا هذه، وأن تصغى بالمحبة إلى ما حمله مندوبونا ولاشك أن سماحتكم يدرك، ونحن . . كم من الحزن والكآبة ظللت العديد من كنائس حرمت رعاتها على عهدكم السعيد، ها نحن ثانية سيدنا والمليك يا من أنت إلى الرب عزيز، نلتمس من رحمتك أن تسمحوا، إذا كان ذلك يسركم، أن نؤوب إلى بيعنا قبل أن يحل بنا التيبس لشتاء برده قارص، حتى نكون مع شعب الكنيسة قادرين أن نقدم الصلوات للآله القدير والضراعة" .

راجع: ATHANAS. De Syn. 55

و أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 37

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 12

(65) ATHANAS. De Syn. 12

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 23

(66) THEOD. Hist. eccl. II, 22

الأغلـبية الساحقة فى ريمينى للنيقيين، فإن أساقفة مجمع سلوقية جميعا كانوا على الآريوسـية، عـدا نفر يسير لا يقترب من العشرة، كان من بينهم هيلارى أسقف بواتييـه الذى جئ به من منفاه ليشهد هذا المجمع(٦٧)، وقد وجهت إليه الدعوة عن طـريق حـاكم المنطقة والقائد العسكري فيها، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يوجه أوامر خاصة بهيلارى، إلا أن القائمين بالأمر أجروا عليه ما اتبع بشأن بقية الأسـاقفة(٦٨)، وإلى جوار هيلارى كان هناك بعض الأساقفة المصريين من أنصار أثناسـيوس(٦٩)، ولعل هذا هو الذى دفع ثيودوريت أن يقصر عدد أعضاء المجمع على الآريوسيين فقط.

وإذا كـان الغـرب قـد شهد فى ريمينى صراعا بين النيقيين والآريوسيين، فإن سـلوقية شهدت صراعا بين الآريوسية ونفسها، الأنومويون والهومويون فى جانب، ويبلغ عددهـم قـرابة اثـنين وثلاثين أسقفا، على رأسهم يودوكسيوس أسقف أنطاكية وجورج أسـقف الإسـكندرية وأكاكيوس أسقف قيسارية، وأورانيوس Uranius أسقف صور(٧٠). وأنصـاف الآريوسـيين الذيـن يمثـلون الأغلبية التى يزيد عددها عن مائة أسقف(٧١)، ويـتزعمهم باسيليوس الذى لم يحضر الجلسات الأولى للمجمع، وجورج أسقف اللاذقية، وصـفرونيوس Sophronius أسـقف بومـبيوبوليس Pompeiopolis فى بافلاجونيـا Paphlagonia واليوزيـس أسقف كيزيكوس، وسيلفانوس Silvanus أسقف طرطوس(٧٢)، وكيـرلس أسـقف أورشليم(٧٣)، وعلى الرغم من الأغلبية العددية التى يتمتع بها أنصاف الآريوسـيين إلا أن القوة الحقيقية كانت فى جانب خصومهم الذين كانوا قد حصلوا على

---

(67) HILAR. Con. Const. 12 (p. L. X. 590-591)
وراجع أيضا SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 42
(68) SVLp. SEV. Loc. cit.
(69) HILAR. Loc. cit
(70) SOCRAT. Hist. eccl. II,39
وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22
(71) SOCRAT. Loc. cit.
(72) SOZOM. Loc. cit.
وراجع SOCRAT. Loc. cit
(73) THEOD. Hist. eccl. II, 22

تـأييد الإمـبراطور، هـذا بالإضـافة إلى أن أنصـاف الآريوسيين فقدوا ثقلهم منذ وقع باسـيليوس على المرسوم المؤرخ في سيرميوم، وقد حرص قسطنطيوس على أن يكون لـه ممـثله الشخصـي في سـلوقية، كما فعل في ريميني، لينفذ إرادة الإمبراطور عند الاقتضـاء، ومـن ثـم فقـد قدم إلى سلوقية ليوناس Leonas الرقيب، وأمر لوريكيوس Lauricius القائد العسكري العام في أيزوريا بالإشراف على المجمع(٧٤).

أصـدر ليونـاس أوامره على الفور بالبدء في مناقشة مسألة الإيمان، دون اعتـبار لغيـاب بعـض الأساقفة(٧٥). وقد طالب الهومويون بإبعاد كيرلس أسقف أورشـليم ويوسـتاثيوس أسـقف سيواس، حيث أنه قد تم عزلهم آنفا ولا يحق لهم حضـور جلسـات المجمـع قبل تبرئة ساحتهم(٧٦)، وتدخل وسطاء السلام لإقناع كيـرلس ورفيقـه بالانسحاب(٧٧)، وانقسم الأساقفة على أنفسهم، بعض يصر على ضرورة اتخاذ قرار معين أولا في مسألة حضور الأساقفة، وثان يرى أن لا تكون هـناك أسبقية لأى أمر على قضية الإيمان، وآخرون يدينون هذا التردد(٧٨). وهكذا دبـت الفوضـى في المجمـع مـنذ الساعات الأولى لانعقاده، وقد عملت الأوامر الإمبراطورية، حسب تعبير سقراط، على زيادة هذا الاضطراب، فقد كانت تطالب بمناقشـة الأمور ذات الأهمية دون تحديد لنوعيتها(٧٩). ولما أجيب الهومويون إلى ما أرادوا بدأ المجمع في مناقشة مسائل الإيمان(٨٠).

---

(74) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(٧٥) في الجلسـة الأولى لـلمجمع أمـر ليوناس الحاضرين بأن يقدم كل منهم اقتراحا بما يعتقد أنه الحق، ولكـنهم احـتجوا لـتغيب بعض الأساقفة ، وأنه ليس من اللائق مناقشة أمور الإيمان دون أن يكتمل حضورهم ، ذلك أن ماكيدونيوس أسقف العاصمة، وباسيليوس أسقف أنقرة وباتروفيلوس أسقف بيسان تخلفوا عن المجمع بأعذار مرضية :

راجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

راجع أيضا SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

(76) THEOD. Hist. eccl. II, 22

(77) Id.

(78) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(79) SOCRAT. Loc. cit.

(80) SOCRAT. Hist. eccl. II, 39

ورغم هذه الفوضى التى صبغت أعمال مجمع سلوقية للوهلة الأولى، إلا إنه يمكننا أن نتبين اتجاهين برزا خلال الجدال الذى استمر أربعة أيام. فأنصاف الآريوسيين طالبوا على لسان اليوزيوس باحترام إيمان الآباء[٨١]، وتولى سيلفانوس الطرسوسى توضيح المعنى الذى يرمى إليه رفيق دعواه، فأعلن أنه ليس سوى مرسوم التدشين الأنطاكى (اللوقيانى) ٣٤١[٨٢]، بل لقد أبدى أنصاف الآريوسيين استعدادهم لقبول مرسوم الإيمان النيقى نفسه، ولكن شريطة أن يحذف منه تعبير "الهوموسية" لا لكونها لم ترد فى الكتاب المقدس، بل باعتبارها مصطلحا غامضا ومدعاة للارتياب[٨٣]، أما الهومويون فقد رفضوا صراحة عقيدة نيقية، وتقدم أكاكيوس فى اليوم الثانى للمجمع إلى المندوب الإمبراطوري ليوناس بوثيقة تضم مرسوم الإيمان الذى يدينون به، وتعد مقدمة الوثيقة[٨٤] احتجاجا على ما أقدم عليه أنصاف الآريوسيين، عندما التقوا فى صبيحة ٢٨سبتمبر داخل كنيسة سلوقية وأغلقوا أبوابها دون الخصوم، وراحوا يعيدون قراءة المرسوم اللوقيانى ويوقعون عليه[٨٥]، ولذلك أعلن أكاكيوس احتجاجه على هذا الإجراء وارتيابه فى كل إجراء

---

(81) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

(82) Ibid. 39

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(83) ATHANAS. De Syn. 12

(٨٤) تقول مقدمة الوثيقة : " بالأمس التقينا بناء على أوامر الإمبراطور فى سلوقية، قصبة ايزوريا فى السابع والعشرين من سبتمبر، وسعينا الجهد كله بالاعتدال كله لنحفظ على الكنيسة السلام، ولنقيم المسألة العقيدية على أساس حجج رسولية إنجيلية من أجل أن لا نجيز شيئا فى المعتقد الكنسى على خلاف مع الكتب المقدسة، كما أمر بذلك مليكنا قسطنطيوس، محبوب الرب، ولكن لما كان بعض من فى المجمع قد أتوا ضدنا شيئا نكرا، فمنعوا بعضنا من إبداء آرائهم . وطردوا آخرين خارج المجمع على غير رغبة منهم، وأشركوا رجالا تم رسمهم خارج القانون الكنسى، ومن ثم ساد المجمع الشغب ولعبت به الفوضى على مرأى من القومس ليوناس السامى الأشهر ولوريكيوس القائد ، فقد وجدنا أنفسنا تحت إلحاح الضرورة نضع هذا الإعلان .

راجع SOCART. Hist. eccl. II, 40

(85) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 22

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

يتم على هذا النحو من السرية[86] كما تعتبر هذه الوثيقة اعترافا رسميا بالفوضى التى سيطرت على أعمال المجمع السلوقى، وانقسام الآريوسيين على أنفسهم، وقد أردف الهومويون هذه المقدمة بنص صريح يوضح موقفهم تجاه الفرق المسيحية الأخرى المتصارعة ويبين قانون إيمانهم:

"نحن لا ننكر الإيمان الذى تم التصديق عليه عند تدشين كنيسة أنطاكية، لأنا أعطيناه من قبل الإيثار، فقد حاز رضى الآباء الذين التقوا هناك للنظر فى بعض من نقط الجدل، ومع ذلك فإنه لما كانت مصطلحات (الهوموسية) و(الهومويوسية) قد سببت للعقول فيما مضى اضطرابا، ولا زالت تثير حتى الآن فيها القلق. ولما كان قد ظهر حاليا تعبير جديد يطلقه البعض ينكرون به "التشابه" مطلقا بين الآب والابن (الأنوموية) فأننا نرفض المصطلحين الأولين لكون الكتاب المقدس لم يحوهما، ونلعن الأخير ونعتبر كل من يؤمن به، عن الكنيسة مارقا. نحن نعترف بيقين بـ "التشابه" بين الآب والابن تبعا لما حدث به عنه بولس الرسول "الذى هو صورة الله غير المنظور[87] كولوسى ١/١٥".

على هذا النحو أبان الهومويون عن عقيدتهم الأساسية، التى تتمثل فى "التشابه" Homoeas ورفضوا صراحة استخدام كلمة "جوهر" باشتقاقيها النيقى ونصف الآريوسى، كما أنكروا تماما التطرف الآريوسى المتمثل فى الأنوموية. ويعد هذا المرسوم صورة أكثر تحديدا للمرسوم المؤرخ، وضربوا عرض الحائط بذلك التعبير الذى أصر باسل ورفاقه على إضافته إلى المرسوم المؤرخ وهو "كل شئ" وبذلك بدأت الهوموية تأخذ شكلها الواضح دون موارية.

انقضى اليوم الرابع (٣٠سبتمبر) من أيام المجمع في جدال عنيف حول حدود معنى "التشابه" الذى يقصده الهومويون[88]، وكان من الطبيعى أن لا يلتقى الطرفان مطلقا، وعندئذ تدخل الرقيب ليوناس وأصدر قراره بفض المجمع، وخاطب الأساقفة بقوله: "لقد فوضنى الإمبراطور لحضور مجمع كان من المتوقع

---

(86) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

(87) ATHANAS. De Syn. 29

وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit.

(88) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

أن يســوده الوئــام والإجماع، لكن لما كنتم قد وصلتم إلى هذا الحد من سوء الفهم المتــبادل، فإنــه لــم يعد باستطاعتى الحضور، اذهبوا إلى الكنيسة، وانقسموا دون جدوى على الثرثرة هناك والهذيان"(٨٩).

وهكــذا انــتهى مجمع سلوقية دون أن يصل إلى قرار واحد فى مسألة الإيمان، وهــو بهــذه الصورة لم يكن أحسن حالا مما حدث لقرينه فى ريمينى، ومن ثم أقدمت الأكــثرية الــتى يمثــلها أنصاف الآريوسيين، لتفعل ما فعلته الأغلبية فى ريمينى ضد الخصــوم، وقرروا عزل وحرم أكاكيوس القيسارى وجورج الكبادوكى وعدد آخر من زعمــاء الهومويــن(٩٠)، وبعــثوا برسائل إلى جميع كنائس هؤلاء الأساقفة ضمنوها قرارات العزل هذه والحرمان(٩١)، وبدت الصورة الآن وكأن النيقيين قد حققوا نصرهم فى الغرب، وساد الشرق أنصاف الآريوسيين(٩٢)، ولكن هذه النتيجة لم تكن تعبر مطلقا عــن رأى أســاقفة البلاط والإمبراطور، ولا ما هم يبتغون. لقد كانت الهوموسية لديهم مقيتة، أما الهومويوسية فلم تكن تلقى منهم الرضى، وتنفيذا لتعليمات الإمبراطور أرسل مجمــع ســلوقية مندوبيه العشرة للقاء قسطنطيوس ومندوبى الغرب، وفى الوقت ذاته ارتحل زعماء الهوموية قاصدين القسطنطينية(٩٣).

كان لابد أن ينظم أساقفة البلاط خطوهم قبل أن يلتقى رسل الشرق والغرب فى القســطنطينية، مخافــة أن يقــترب الــنيقيون وأنصــاف الآريوسيين ليعصفوا بخصــومهم الاريوســيين، أيــا كانت عقيدتهم، جملة واحدة. وكان هذا واضحا فى

---

(89) SOCRAT. Hist. eccl. II, 40

(٩٠) مــن بين هؤلاء الأساقفة أورانيوس الصورى، وثيودولوس Theodolus أسقف Chaerotapi فى فــريجيا، وثيودوســيوس Theodosius أســقف فلادلفيــا Philadelphia فى ليديا، وأفاجريوس Evagrius أســقف ميتليــنى Mytilene وليونــتيوس أسقف طرابلس، ويودكسيوس أسقف أنطاكية وباتروفيلوس أسقف بيسان .

(91) ATHANAS. De Syn. 12
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 40
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 22

(92) Kidd, op. cit. II. p. 170

(93) SVLp. SEV. Hist. sac. II, 42
وراجع .SOCRAT. Loc. cit
وأيضا SOZOM. op. cit. IV, 23

رفض الفريقين للمرسوم المؤرخ فى ريمينى أو صورته الهومويية الصريحة فى سلوقية. ولذلك كان من الضرورى تطويع هذه الأغلبية ممثلة فى مندوبيها قبل لقائهم فى العاصمة. وقد بدأ فالنز وأورساكيوس جهودهما على الفور، وكانت السياسة التى اتبعها الإمبراطور فى استخدام العذاب النفسى ضد النيقيين قد بدأت تؤتى ثمارها[٩٤] فقد ظل المندوبون الغربيون بأمر قسطنطيوس فى أدرنة فترة طويلة، ثم جاءتهم الأوامر الآن بالارتحال إلى نيقا Nice إحدى مدن تراقيا[٩٥]، ويجمع مؤرخو الكنيسة على إن هذه المدينة قد اختيرت بعناية بقصد خداع الجموع لتشابه اسمها مع مدينة المجمع المسكونى الأول، نيقية.

ذلك أنه فى ١٠أكتوبر ٣٥٩ تقدم فالنز وأورساكيوس إلى مندوبى الغرب، الذين أضحوا الآن فى نيقا، بمرسوم إيمان هو نفسه "المرسوم المؤرخ" مع حذف العبارة التى كان أنصاف الآريوسيين قد أصروا على أضافتها وهى "كل شئ" ووردت كلمة "التشابه Homoeas" فقط على هذا النحو "... الابن يشبه الأب كما دعت الكتب المقدسة وعلمت[٩٦]، وقد وقع رسل الغرب النيقيون على هذا المرسوم وتخلوا بذلك عن كل ما أعلنوا تمسكهم به فى ريمينى، ويعزو مؤرخو الكنيسة هذا السلوك من جانب مندوبى الغرب إلى أسلوب الخداع الذى استخدمه فالنز وأورساكسيوس، بالإضافة إلى الحالة النفسية السيئة التى كانوا يعانون منها من جراء مكثهم الطويل فى أدرنة ثم نيقا[٩٧]، وقد نشر الهومويون هذه الوثيقة بعد توقيع المندوبين عليها وأعطوها اسم المجمع العام حتى تختلط على الأذهان حسب

---

(94) HILAR. Fragm. VIII, 4(p. L. X. 701)
(95) SOCRAT. hist, eccl. II, 37
وراجع SOZOM. hist, eccl. IV, 19
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16
(96) ATHANAS. De Syn. 30
وراجع HILAR. Fragm. VIII, 5(p. L. X. 702)
وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16
(97) HILAR. Fragm. VIII, 4(p. L. X. 701)
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 37
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 19
وأنظر كذلك THEOD. Hist. eccl. II, 16
وأيضا SVLp. SEV. Hjist. Sac. II, 43

تعبير سقراط[٩٨]، وعندئذ سمح لمندوبى الغرب بالعودة إلى ريمينى، وأرسلت الأوامر الإمبراطورية إلى طاوروس بعدم فض المجمع دون أن يتم الحصول على توقيع هؤلاء الأساقفة جميعا على ما سبق أن وافق عليه رسلهم فى نيقا[٩٩].

غير أن أساقفة الغرب استنكروا ما أقدم عليه وفدهم ورفضوا قبولهم فى شركة الكنيسة[١٠٠]. وعندما أقدم المندوب الإمبراطوري على تنفيذ تعليمات الإمبراطور وطلب إلى الأساقفة التوقيع على المرسوم، وقع الاضطراب فى صفوف الجميع، ولكن النهاية أتت سريعا عندما اندفع الكثيرون – كما يقول سفروس– بصورة مخجلة إلى جانب الآريوسيين حتى لم يبق على الإيمان النيقى إلا عشرون رجلا[١٠١]. وهكذا بنصف الخوف، وبنصف الملل أذعن الأساقفة[١٠٢].

غير أن هذه القلة الباقية[١٠٣] سرعان ما وضعت هي الأخرى توقيعها على

(98) SOCRAT. Loc.cit.
(99) SVLP. SEV. Loc. cit.
(100) SVLP. SEV. Loc. cit.
(101) Id.
(102) HILAR. Fragm. IX (p. L. X. 703-705)
وراجع أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 16

(١٠٣) كان على رأس هذه القلة فويباديوس أسقف آجن، وسرفاتيو Servatio أسقف تونجرى Tungri والجميع من غالة ، وقد راح النائب الإمبراطورى يبذل قصارى جهده، لإقناع هذه البقية واستمالتهم، عن طريق اللين والمداهنة تارة، التلميح بالعنف أخرى ، مذكرا إياهم أنه مضى الآن سبعة شهور طوال دون أن يعود الأساقفة إلى بيعهم وديارهم، ورغم ذلك فلن يسمح لهم بالرجوع دون التوقيع على مرسوم نيقا، وساعده فالنز وأورساكيوس فى هذا الجهد، إذ سعيا إلى الظهور أمام الجمع بأن المرسوم الذى يطلب إليهم التوقيع عليه قد وضع على أسس من العقيدة الكاثوليكية، وأنه قدم فى حضرة الإمبراطور، فكيف يمكن رفضه الآن، ودار حوار طويل أمسك خيوطه موزنيوس Muzonius أسقف بيزاكينا Byzacena وكلوديوس Claudius أسقف بيكنوم Picenum . وقد ترك جيروم نص الحوار والأناثيما التى تقدم بها فالنز على كل من يقول " بخلق الابن أو أنه من العدم جاء " ولم ينس فالنز أن يضيف " إذا أنكر أحد أن الابن يشبه الأب، تبعا لما جاء فى الكتاب المقدس فليكن أناثيما" . وقد أعلن فالنز قبوله لكل ما قاله زعماء القلة المعارضة، وارتضى الجميع منه ذلك ، وأقدموا وفى طليعتهم فويباديوس وسرفاتيو للتوقيع على المرسوم نيقا، لا يساورهم شك فى أن مسألة الإيمان النيقى قد تم إقرارها. وإن كان فالنز وأورساكيوس قد عادا بعد ذلك ليعلنا تخليهما عن بعض الأناثيما التى وافقا عليها فى ريمينى .
راجع SVLp. SEV. Hist. asc. II, 44
وأنظر أيضا HIER. Dial C. Lucif 18, 19

المرسوم بعد أن قدم فالنز وأورساكيوس بعض التنازلات، ثم عادا فسحباها ثانية حتى لقد أصبح مرسوم نيقا يعرف بإيمان ريمينى بعد أن ارتضا جميع الحضور(١٠٤) ويعلق سفروس على ذلك بقوله: "لقد كانت نتيجة مشينة لبداية طيبة"(١٠٥).

أما فى الشرق، فقد تسابق الوافدان، أنصاف الآريوسيين والهومويون فى الوصول إلى القسطنطينية، على حين عاد معظم أساقفة مجمع سلوقية كل إلى بيعته (١٠٦) كان على رأس الهومويوسيين، باسيليوس ويوستاتيوس واليوزيوس وسيلفانوس(١٠٧) وصحب هيلارى أسقف بواتييه هذا الوفد إلى العاصمة، وكان عليه أن ينتظر بها حتى تصدر الأوامر الإمبراطورية بشأن استمرار نفيه أو عودته إلى غالة(١٠٨)، وعلى الفور دخل الفريقان فى صراع سافر، وحاول يوستانيوس إثارة غضب الإمبراطور على الهومويين، فاتهم يودوكسيوس أسقف إنطاكية بالأنوموية (١٠٩)، وكانت قد أصبحت إلى نفس الإمبراطور مقيتة (١١٠)، ولكن يودوكسيوس رفض الوثيقة التى قدمها يوستاتيوس لإدانته، ونسبها إلى آيتيوس(١١١)، وهنا يبدو واضحا أن يودوكسيوس قد سلك خطو زميليه فالنز وأورساكيوس، إذ ضحى ثلاثتهم بالأنوموية عقيدة حفاظا على مناصبهم الكهنوتية، ورضى الإمبراطور، والآن جاء دور الأسقف الأنطاكى ليتنكر لصديقه آيتيوس. وهكذا يتضح جليا كيف كان هؤلاء الثلاثة أشهر من يمثل جماعة الأساقفة السياسيين الذين تخرجوا من مدرسة يوسيبيوس النيقوميدى.

استدعى الإمبراطور إليه آيتيوس ليمثل أمامه، وقد اعترف الرجل دون

---

(104) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 100
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 172
(105) SVLP. SEV. Hist. Sac. II. 44
(106) SOZOM. Hist. eccl. IV, 23
(107) THEOD. Hist. eccl. II, 23
(108) SVLP. SEV. Hist. Sac. II, 45
(109) THEOD. hist. eccl. II, 16.
(110) SOZOM. Loc. cit.
(111) THEOD. Hist. eccl. II, 16.

وعى علــى حــد تعبير سوزومنوس ، بأن ما جاء فى الوثيقة صدق لا باطل فيه، فأصــدر قســطنطيوس أوامــره بــنفيه فــورا إلى فــريجيا [١١٢] ، وهلل أنصاف الآريوســيين لذلــك. وأراد يوســتاثيوس أن يوجه الضربة التالية إلى يودوكسيوس نفســه، فأعاد اتهامه بأنه يردد آراء آيتيوس، ولما راح يودوكسيوس يراوغ هروبا مــن هذا الموقف، هدده الإمبراطور بالنفى، ولهذا لم يجد الأسقف الأنطاكى بدا من إنكــار الأنومويــة[١١٣] ، ولما سكت عن يوستاسيوس الغضب، بادله يودوكسيوس اتهامــه، فطلب إلى أنصاف الآريوسيين الإقلاع عن استخدام تعبير "الهوموﻳﻮسية" باعتــبارها غير واردة فى الكتاب المقدس [١١٤] ، ودار جدال لاهوتى عنيف ضاق به الإمبراطور ذرعا، فأمر بنفيهم جميعا جزاء العناد[١١٥] .

والآن، وصــل مــن الغرب فالنز وأورساكيوس يحملان مرسوم إيمان نيقا الــذى تم التوقيع عليه فى ريمينى من أساقفة المجمع، حيث وجدا مندوبى سلوقية فى انــتظارهما[١١٦] ، فوصــلا بأكــاكيوس وأنصـــاره صــفوفهما. وتقدمــوا إلى الإمــبراطور يعرضــون عــليه تقريرا مفصلا عن إجراءات ريمينى، وطلبوا إلى مــندوبى ســلوقية التوقيع على ما وقع عليه أساقفة الغرب[١١٧] ، وقد احتج أنصاف الآريوســيين بأنــه لا يمكــن التخــلي عــن كلمة "جوهر" و"التشابه" فى الجوهر Homoiousius. ولكــن دون جدوى، إذ نجح الإمبراطور فى حمل مندوبى سلوقية أنصاف الآريوسيين على الموافقة على صيغة نيقا المصدق عليها فى ريمينى، وتم ذلك فى منتصف ليلة ٣١ديسمبر ٣٥٩[١١٨] .

هكــذا غــدت الهوموية (التشابه بين الآب والابن) عقيدة الإمبراطورية دون مــنازع، وحتى يضفى أنصارها عليها الصفة الرسمية، فقد انتهزوا فرصة تدشين

(112) Id.
(113) Id.
(114) Id.
(115) Id.
(116) SVLP. SEV. Hist. Sac. II, 45
(117) SOZOM. Hist. eccl. IV, 25
(118) Id.

الكنيسة التى كان الإمبراطور قسطنطين قد أمر بإنشائها(١١٩)، ودعوا الأساقفة إلى عقــد مجمع فى القسطنطينية فى يناير/فبراير ٣٦٠(١٢٠)، وقد تقاطر على العاصمة قــرابة خمســين أســقفا معظمهم من بيثينيا، وكان من بينهم ماريس Maris أسقف خلقيدونية، وأولفيلا Ulfilas أسقف القوط(١٢١). وفي هذا المجمع تم إصدار مرسوم الإيمــان الــذى ارتــبط بمديــنة نيقــا مع بعض التعديلات الطفيفة التى لا تخل بجوهــره(١٢٢)، وتقرر التصديق على عزل آيتيوس، وتم عزل عدد كبير أيضا من أنصاف الآريوسيين(١٢٣)، ويقول سوزمنوس أنه على الرغم من أن هؤلاء يخالفون الهومويــن العقيــدة، إلا أن الأخيرين بنوا قرار عزلهم على أساس أنهم عكروا صفو السلام وخرقوا قوانين الكنيسة، وهو اتهام عام اشترك فيه كثيرون (١٢٤)، وتم شــغل هــذه الأســقفيات الشــاغرة بالهومويين، بل وبالأنوموبيين أنفسهم، فقد تسلم يودوكســيوس أســقفية القســطنطينية، ومليــتوس Meletius على سيواس بدلا من

---

(119) SOCRAT. Hist. eccl. II, 43

(120) SOCRAT. Hist. eccl. II, 42

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 24

وأيضا THROD. Hist. eccl. II, 24

وأنظر كذلك Hefele, op. cit. I, 2, pp. 956-959

(١٢١) وكــان أولفيلا قد تم رسمه أسقفا فى مجمع التدشين الذى عقد فى أنطاكية سنة٣٤١، ثم حضر مجمع القســطنطينية . ولعلنا ندرك الآن السبب الذى من أجله اعتنق القوط والجرمان عامة، عدا الفرنجة، المسيحية على العقيدة الآريوسية .

راجع SOCRAT. Hist. eccl. II,41

وانظر SOZOM. Loc. cit.

(122) ATHANAS. De Syn. 30

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 41

(١٢٣) كــان من بين من لحقهم قرار العزل ماكيدونيوس أسقف القسطنطينية، واليوزيوس، وباسيليوس، وهوراس Heoratius أســقف ســارديس ودراكنتوس Dracontius أسقف برجامة، وفى الجلسة التالية للمجمع عــزل سيلفانوس الطرسوسى، وصفرنيوس أسقف بومبيوبوليس، والبيديوس Elpidius أسقف Satala فى مقدونيا، ونيوناس Nmeonas أسقف سلوقية وكيرلس الأورشليمى .

أنظر .SOZOM. Loc. cit

(124) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 25

وراجع SOZOM. Hist. eccl. II, 42

يوسـتاتيوس (١٢٥) ، وبعث الهومويـون برسـائل إلى مختلف الأسقفيات تدعوا اكليروسـها للـتوقيع عـلى مرسـوم العقيدة الهوموية، وإلا كان النفي لهم جزاء ومصـيراً (١٢٦) ، وقد امتثل لذلك عدد كبير من الأساقفة من بينهم جريجورى الأب أسـقف نازيانـزا، والـد جريجورى النازيانزى اللاهوتي الكبادوكي الشهير (١٢٧) ، وديانيوس Dianius أسقف قيسارية الكبادوك سلف باسيليوس(١٢٨).

كـان مجمـع القسـطنطينية سـنة ٣٦٠ تـتمة طـبيعية لمجمعى ريمينى وسـلوقية(١٢٩)، واسـتطاعت الآريوسية للمرة الأولى بعد خمسة وثلاثين عاما أن تحقـق نصـرها على النيقية، التى يصور حالتها ما جاء على لسان القديس جيروم حيـن يقـول: لقـد اغتنم العالم وتملكته الدهشة أن وجد نفسه آريوسيا(١٣٠) وعلى الـرغم مـن أن هذا الانتصار جاء فى وقت كانت الآريوسية فيه قد انقسمت على نفسـها فـرقا مـتعددة متطاحـنة، إلا أن هـذه العقيدة أفلحت فى أن تسود كنائس الإمـبراطورية فى صـورتها المعتدلة المتمثلة فى الهوموية، حتى ولو من الناحية الرسمية فحسب، وقد رأى الإمبراطور فى هذا الشكل من أشكال الآريوسية طريقا إلى ضم الفرق المتنافرة إلى بعضها، باعتبارها صيغة وسطا بين التطرف المتضاد لدى النيقيين والأنومويين، واقترابا إلى حد من أنصاف الآريوسيين، كما أنها صيغة تسمح لأى فريق من هؤلاء أن يفسرها بمفهومه الخاص عن "التشابه".

ولمـا كان أثناسيوس الأسقف السكندرى، هناك فى مكان اختفائه يقف وحده يتمسـك بالنيقية عقيدة بعد أن أضحى العالم كله آريوسيا، ويهيئ له مستقره الأمين فى صحراء مصر ووسط رهبانها قلعة يحتمى بها من مشيئة أساقفة البلاط وإرادة

---

(125) SOCRAT. Hist. eccl. 43
SOZOM. Hist. eccl. 25
(126) SOCRAT. Hist. eccl.
SOZOM. Hist. eccl.IV, 25, 26
(127) GREG. NAZ. Orat. XVIII, 18
(128) BASIL. Ep. LI.
(129) Kelly, op. cit. p. 293
(130) HIER. Dial. C. Lucif. 19

الإمبراطور، فقد شاع ساعتها ذلك القول بأن العالم كله قد اختصم مع الأسقف السكندرى، وأن أثناسيوس ضد العالم(١٣١).

ولكن هذا لا يعنى أن الهوموية لم تلق معارضة من جانب عدد من الأساقفة وفى العاصمة ذاتها، ذلك أن هيلارى أسقف بواتييه، الذى صحب أنصاف الآريوسيين إلى العاصمة كما أسلفنا، انتهز فرصة وجود الخصوم مجتمعين فى القسطنطينية، وتقدم إلى الإمبراطور بالتماس يرجوه فيه أن يسمح له بمناقشة مسألة الإيمان مواجهة وفى حضرته (١٣٢)ويرثى هيلارى فى ملتمسه لهذه "الحالة المهلهلة التى أمسى عليها اللاهوت المسيحي والعقيدة" ويقول:

"حقا إنه لشيء يرثى له وأثيم أن نرى عديدا من الإيمان فكرا بين الناس، عقائد كالأهواء، منابع الكفران والتجديف ماثلة حلول الخطايا فينا، نضع مراسيم الإيمان بهوس، ونفسرها بعصبية. تارة نرفض الهوموسية، وأخرى يرضى عنها، ثم تتناولها من هنا وهناك أيدي المجامع. والتشابه الكامل أو الجزئي بين الآب والابن موضوع الجدال لزمان غير سعيد. فى كل عام، بل مع كل فجر تخرج عقائد جدد ، نصف بها غوامض الكلم ، ونندم على ما فعلنا ، ويندافع عن الذين تابوا، ثم نلعن أولئك الذين من قبل عنهم دافعنا، ندين عقائد الآخرين فى أشخاصنا، وعقائدنا فى ذوات الآخرين ، ونمزق هذا أو ذاك ربا، ولدينا على الدوام للآخرين أنكالا وجحيما"(١٣٣) .

وكان هيلارى ما يزال يخلع على قسطنطيوس فى حديثه إليه ألقاب التقوى والورع، ويصفه بالإمبراطور "الخير" "الرءوف"، ولعل مرد ذلك أنه ربما كان يعتقد فى نفسه أو يحاول، أن الإمبراطور ما يزال على تواده وتعاطفه مع أنصاف

---

(131) Wand. op. cit. p. 165

وأنظر كذلك Latourette, A History of Christianity, p. 160

(132) HILAR, Ad. Const. II, 2. II, 8. (p. L. X. 565, 569)

(133) HILAR. C. Const. II, 4, 5 (p. L. X. 565-567)

الآريوسيين، وأن صداقته لباسيليوس لم تزل قائمة(١٣٤) ، وعلى الرغم من ذلك فإن الإمـــبراطور لم يقبل رجاء هيلارى، وإن كان فى الوقت ذاته سمح له بالعودة إلى غالـــة (١٣٥)ويعـــلل سفروس ذلك بقوله أن قسطنطيوس وأساقفة البلاط كانوا على يقين بأن هيلارى يقف من وراء هذا الشقاق الحادث فى الشرق، وأنه هو الذى ألب عـــليهم الأســـاقفة(١٣٦) .ولكن هيلارى ما أن وطأت قدمه أرض غالة، حتى أطلق لقـــلمه العـــنان فى قدح قسطنطيوس، فخلف لنا بذلك مصدرا تاريخيا هاما، وقطعة أدبيـــة رائعة تمثلت فى عمله المسمى "ضد الإمبراطور قسطنطيوس"(١٣٧) Contra Constantium Imperatorem وهـــذا العمـــل يعد فى المقام الأول تعبيرا عن حالة هيلارى النفسية خاصة وقد آمن أن قسطنطيوس لن يغير من آرائه (١٣٨)وقد جاءت مقدمـــة هـــذا العمـــل دعوة صريحة للنيقيين فى الغرب وغالة خاصة بالتمرد على الإمبراطور ... قال:

"...جـــاء وقـــت النطق، وزمان الصمت راح. دعوا الرعاة يصرخون فقد شـــردت الخـــراف، دعونـــا نكرس حياتنا من أجل الرعية، فاللصوص قد تسللوا، والأســـد النهم يزمجر من جول. مع كل كلمة من شفاهنا دعونا نستبق إلى الشهادة، لأن زبان الشيطان قد تمثل فى صورة ملاك النور" (١٣٩).

ثـــم يتخلى هيلارى عن صفات التقوى التى عرّف بها من قبل قسطنطيوس، ويخاطبه الآن بنفس الأسلوب الذى يوجهه إلى نيرون ودكيوس، ويعتبره أشد منهم قســـاوة وأبعد سوء (١٤٠). ويحمل على الإمبراطور بعنف بالغ ، "الشيطان أبوه، لقد تعـــلم منه المهارة فى سوء الرشد"(١٤١) "إنه ذئب فى ثياب حمل، لقد حمل الكنيسة

---

(134) Watson. op. cit. p. 21
(135) SVL. SEV. Hist. Sac. II, 45
(136) Id.
(137) HILAR. Con. Const. (p. L. X. 571-606)
(138) Watson, op. cit. p. 25
(139) HILAR. Con. Const. (p. L. X. 577-578)
(140) HILAR. Con. Const. 4-7(p. L. X. 580-4)
(141) Ibid. 8 (p. L. X. 584-585)

بذهب الدولة وأسلاب المعابد، ولكنها القبلة التى سلم بها يهوذا سيده"[١٤٢]، لقد أصبح الأساقفة الثلاثمائة وثمانية عشر فى نيقية لديه ملعونين، وأبوه أيضا وقد كان يترأسهم. ألا ترى أن ذاك الذى يحتقر الماضى، لا يمكن أن يسود المستقبل"[١٤٣] . ثم يعلنها هيلارى صريحة ضد الإمبراطور فيقول "إن المرض الجديد سيحتاج إلى علاج جديد، إن الحرب شئ لا يمكن تجنبه ما دام الأعداء قد رفعوا رءوسهم"[١٤٤]

والآن وقد جئنا أخيرا إلى نهاية هذا "التيه" كما يقول سقراط [١٤٥] يعنى متاهات ذلك الجدل اللاهوتى العميق العقيم، آن لنا أن نقف على ما كان من أمر الأسقف السكندرى أثناسيوس طيلة هذه الأحداث. ولقد علمنا أن أثناسيوس كان قد جاء إلى الإسكندرية سنة ٣٥٨، ليختبئ فيها، فقد كان يدرك أن الإمبراطور وموظفيه لن يدور بخاطرهم أن أثناسيوس سوف يغامر بنفسه ويلوذ بالإسكندرية ذاتها بعد أن أفلت من قبضة سيريانوس وجنده، ولكن المسألة لم تبد للأسقف أكثر من انتقال من مكان أمين إلى غيره آمن، وله فى كل خطو أنصاره والمريدون. وهو فى الإسكندرية أكثر قربا إلى الأحداث فى مصر والخارج. وإن كانت الصحراء أيضا لا تباعد بينهما وبينه.

وكان طرد جورج من الإسكندرية وسيطرة أنصار أثناسيوس على الكنائس بها على الصورة التى عرضنا لها، ورغم استرداد الآريوسيين لها، قد آلم الإمبراطور، فأرسل من لدنه النوتارى بولس، الذى وصل المدينة فى ٢٣ يونية ٣٥٩ وأذاع فى الناس الأوامر الإمبراطورية التى جاء بها فى صالح جورج، ووضع الكثيرين من أجله تحت طائلة العذاب [١٤٦] . وربما تهامس الناس عن وجود أثناسيوس فى الإسكندرية، ويبدو أن الهمس علا حتى تلقفته آذان فوسطينوس Faustinus النائب الإمبراطوري فى مصر، وقائد الحامية أرتيموس Artemius فقاما

(142) Ibid. 10 (p. L. X. 586-587)
(143) Ibid. 27 (p. L. X. 602-603)
(144) Ibid. 16 (p. L. X. 593-594)
(145) SOCRAT. Hist. eccl. II, 41
(146) HIST. ACEPH. V, 7

بمهاجمة أحد المنازل فى المدينة، وصومعة صغيرة بحثا عن الأسقف الهارب(١٤٧) وأدرك الأسقف أن بقاءه فى المدينة أصبح محفوفا بالمخاطر فامتطى الصحراء عائدا إلى ملاذه وسط جموع الرهبان والمتوحدين.

على أن تاريخ أثناسيوس خلال فترة نفيه الثالث هو تاريخ كتاباته، ولكنه بعيون تحميه فى صوامع وادى النطرون وطيبة، أو فى خلوة عامرة فى مدينته، راح يتابع بنظر ثاقب واع سير الأحداث فى الخارج وتداعيها(١٤٨) . ولقد أسلفنا أن أو أعمال أثناسيوس فى هذه الفترة كانت "دفاع عن هروبه" Apologia de fuga، ثم كتب رسالتيه إلى الرهبان ورسالة إلى سرابيون الراهب أسقف تمى الأمديد. ولكن أثناسيوس شغل نفسه طيلة هذه السنوات (٣٥٦ - ٣٦٢) بوضع عدد من الأعمال، لم يكن يعنى بها مطلقا مجرد تسجيل للأحداث، وإنما قصد بها أساسا أن يأتلف من حوله قلوب الجميع خاصة جماعات الرهبان العريضة، ويثيرهم ضد الإمبراطور وأساقفته. ومن ثم كانت جل أعماله موجهة إلى ساكنى الأديار والمتوحدين.

وفى عام ٣٥٩ (١٤٩) انتهى أثناسيوس من كتابة رسالته إلى الرهبان عن تاريخ الأريوسيين Historia Arianorum ad Monahos افتتحها بمجمع أورشليم سنة ٣٣٥. حيث تم قبول آريوس ثانية فى شركة الكنيسة(١٥٠) ، ووصل بها إلى توقيع أسقف روما ليبريوس على المرسوم السيرميومى(١٥١) وهو يعد عملا تاريخيا متكاملا، وامتدادا لدفاعه ضد الأريوسيين. غير أنه بالإضافة إلى ذلك يعتبر فى الحقيقة بيانا ضد قسطنطيوس (١٥٢) وقد تغيرت اللهجة التى يتحدث بها أثناسيوس فى هذا المؤلف عن الإمبراطور، ولقد قدمنا أن الأسقف السكندرى فى دفاعه عن

(147) FEST. IND, XXXII.

(148) Robertson, op. cit. 57

وراجع Gwatkin, The Arian controversy, p. 98

وأيضا Le Bachelet, Arianism, col. 1820

(149) Cavallera, S. Athanase. p. 13

وراجع أيضا Diehl. op. cit. p. 423

وأنظر كذلك Kidd. op. cit. II, pp. 140

(150) ATHANAS. Hist. Arian 1

(151) Ibid. 41

(152) Robertson, op. cit. p. 266

هروبه، قد عرج على الإمبراطور بكلمة "هرطوق" وقلنا أن هذه مرحلة انتقال بين ألفاظ التقوى والورع التي يخلعها على الإمبراطور من قبل، وبين السخرية اللاذعة واللغة العنيفة التي يخاطبه بها الآن. فهو "أوسع مكراً من شاول Saul وآحاب[١٥٣] Ahab ، وأشـد قساوة من بيلاطس[١٥٤] ، وأكثر شراسة من ماكسيميان"[١٥٥] وهو كذلك "إمبراطور الهرطقة وحامي ذمارها[١٥٦] يجهل الكتاب المقدس[١٥٧] ، ويتخذه الشـيطان وكيـلا[١٥٨] . لا يرعى لأبيه وأخواته، وعهود على نفسه قطعها إلا ولا ذمة[١٥٩] ، عدو المسيح والسيف المصلت على رقاب المسيحيين [١٦٠].

ولا شك أن أثناسيوس قد خلع رداءه الكهنوتي وهو يحمل على قسطنطيوس بهـذه الصورة، ولعله أيضا أراد أن يرد على الإمبراطور ما جاء في رسالتيه إلى السكندريين وملكي أكسوم قدحا في أثناسيوس.

ويقـول روبرتسون "هناك فقرات كثيرة في هذا التاريخ يتمنى المرء لو أن أثناسـيوس لـم يكتـبها، لقد هوى أثناسيوس بقلمه إلى دونية ذلك العصر، وخلط بصورة لا تغتفر بين مسائل القداسة وسلوك الناس". ويضيف "ولكن أثناسيوس كان بشرا، أثار سخطه غلظة الإمبراطور ونقض العهود"[١٦١] ، ولكن هذا العمل يحتوي إلى جـانب ذلـك على روح الخيرية التي يظهرها الأسقف السكندري عطفا على أولـئك الأناسي الذين نزل بهم العقاب في الإسكندرية وباقي أنحاء مصر على يد جورج الكبادوكي [١٦٢].

---

(153) ATHANAS. Hist. Arian. 68
(154) Ibid. 32, 68
(155) Ibid. 40
(156) Ibid. 9, 30, 45, 54
(157) Ibid. 32
(158) Ibid. 33
(159) Ibid. 49-51, 70
(160) Ibid. 53, 74, 80
(161) Robertson, op. cit. p. 267
(162) ATHANAS. Hist. Arian. 58-68

وتقديــم الرسالة على هذه النحو إلى الرهبان سوف يزيدهم دون ريب، إلى جانب ولائهم الكامل لأثناسيوس، حنقا على الإمبراطور وسخطا، وعداء للآريوسية ومقــتا. وقــد ساعد أثناسيوس على ذلك صراحة عندما قال، "منذ متى كان قضاة الكنيسة يتلقون صلاحياتهم من الإمبراطور؟ منذ متى كان مرسومه معترفا به لدى الكنيســة؟ هــناك مجــامع عديدة عقدت، وأحكام كثيرة صدرت عن الكنيسة، ولم يحــاول الآبــاء السـعى للحصــول عــلى موافقــة الإمبراطور، ولا حتى حاول الإمــبراطور أن يشــغل نفسه بشئون الكنيسة[١٦٣]، . . . الإمبراطور قسطنطيوس يجتمع مع الهراطقة حتى يمكنه بإدعاء سلطة الأساقفة، أن يمارس سلطانه فوق من يشاء[١٦٤].

وقــد يتــبادر للذهن أن أثناسيوس يضع بذلك نظرية فى العلاقة بين الدولة والكنيســة، ولكــن ذلــك ليــس مــن الحقيقة فى شئ، بل يعد من المبالغة أيضا القــول أن هــذا كــان يمثل حتى فكر أثناسيوس عن تصور لمثل هذه العلاقة، فقد كــتب أثناســيوس ذلك احتجاجا على ما أقدم عليه سيريانوس، والأسقف نفسه يعلم تمامــا أن عقيــدة نيقية التى يؤمن بها ويتعرض من أجلها لكل هذا الهوان، تدخل قســطنطين ليضــيف إليها، ولو بوحى من غيره، ما لم تؤمن به الكنيسة قبلا، ثم هاهو الأسقف نفسه يترك مجمع الأساقفة فى صور سنة ٣٣٥ ويشخص بنفسه إلى العاصــمة ليحــتكم إلى قســطنطين الــثانى، ويعود من نفيه الأول بناء على إرادة قســطنطين الــثانى ويحــتمى بقنســطانز أبــان فترة نفيه الثانى، ويتزود برسائل قســطنطيوس عــند عودتــه ســنة ٣٤٦، ثم هو يرتحل قاصدا قسطنطيوس نفسه ليعــرض عليه شكايته سنة ٣٥٦. ومن ثم لا يعدو ذلك القول تعبيرا عن حالة من

---

(١٦٣) لاشــك أن أثناســيوس يشــير هــنا إلى القــرون الــثلاثة الأولى من عمر المسيحية، عندما كانت الإمــبراطورية الــرومانية تدين بالوثنية، وكان الأباطرة الوثنيون ينظرون إلى الميسحية نظرة كلية، ولا يهمهم من أمر الخلافات العقيدية داخل المسيحية شيئا . وحقا فأن آراء عقيدية كثيرة ظهرت فى القرون الثلاثة، وعقدت مجامع عديدة . ولم يحاول الأباطرة التدخل فى شئونها أو أمور العقيدة . راجع للمؤلف الدولة والكنيسة ج ٢ الفصل الأول .

(164) ATHANAS. Hist. Arian. 52

السخط العام انتابت الأسقف السكندرى بعد أن رأى الإمبراطور يضرب عرض الحائط بما أعطاه لأثناسيوس من عهود، ويتعقبه فى كل مكان.

قسم أثناسيوس رسالته إلى ثمانية أجزاء، تحدث فيها عن فعال الآريوسيين منذ تم قبول آريوس ثانية فى شركة الكنيسة سنة ٣٣٥ فى أورشليم، وعودة أثناسيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٣٧ (١٦٥) وما كان من أمر الاضطرابات التى واجهه بها الآريوسيين، ومقدم جريجورى الكبادوكى، وارتحال أثناسيوس إلى روما، والتفكير فى دعوة الأساقفة لمجمع عام (١٦٦)ثم يعطينا وصفا دقيقا لاجتماع الأساقفة فى سرديكا سنة ٣٤٣، والإجراءات التى تلت ذلك، وعودته إلى الإسكندرية سنة ٣٤٦، ويزودنا بالوثائق الهامة التى صحبت تلك الأحداث وتبعتها(١٦٧) ، ويعرض أثناسيوس بعد ذلك للأحداث التى أعقبت مقتل قنسطانز وسيادة قسطنطيوس على الإمبراطورية وإخضاع الغرب فى مجمع ميلانو(١٦٨) أما أسقف روما ليبريوس وأبو المجامع هوسيوس القرطبى، فيعقد أثناسيوس لكل منهما فصلا خاصا، ويلتمس لكليهما عذر الإذعان لسلطان الإمبراطور ، ويحتفظ بتلك الرسالة الهامة التى بعث بها هوسيوس إلى الإمبراطور (١٦٩) على حين يصف فى الفصلين الأخيرين تلك الوقائع التى شهدتها الإسكندرية ومصر على يد جنود الإمبراطور، والأمور التى أتاها جورج الكبادوكى، ويصب اللعنة فى كل فقرة منها على رأس قسطنطيوس وأساقفته (١٧٠).

على أن أطول المؤلفات التى خطها يراع أثناسيوس بعامة، وكتبت فى فترة نفيه الثالث هذه، كان خطبة ضد الآريوسيين Orationes contra Arianos وهى أربع، وقد وجهها أثناسيوس أيضا إلى الرهبان، أو على الأقل الثلاث الأول

---

(165) ATHANAS. Hist. Arian. 1-8
وأيضا Robertson, op. cit. cit. Pp. 268-299
(166) ATHANAS. op. cit. 9-14
(167) Ibid. 15-27
(168) Ibid. 28- 34
(169) Ibid. 35-41, 52-46
(170) ATHANAS. Hist. Arian. 47-63, 64-81

منها [١٧١] ، وتعود أهمية هذا العمل إلى أنه وضع بين عامى ٣٥٦، ٣٦٠ [١٧٢] وهى الفترة التى شهدت خلاصة الأفكار العقيدية متمثلة فى الفرق المسيحية المختلفة التى عرضنا لها، ويقول Kidd أن أثناسيوس كتب خطبه هذه ساعة الأزمات التى شعر فيها أنه يجب أن يكون واضحا، وأن يوجه ضربة قاضية إلى الخصوم[١٧٣] ويضيف آخر أنها وضعت بغرض سلمى، ربما بقصد التراضى، ولكن فى الوقت ذاته بغرض جدلى، وأملى عليه هذا ذلك الوضع العام للجدال العقيدى بين عامى ٣٥٧، ٣٥٩[١٧٤].

ولعل أثناسيوس كان يرى في أنصاف الآريوسيين الذين يتزعمهم باسيليوس أسقف أنقرة، عنصرا قريبا إلى الإيمان النيقى، لأنهم يعتمدون كلمة "جوهر" مع الخلاف فى استخدامها. ومما يلفت النظر أن أثناسيوس لم يستخدم كلمة "الهوموسية" في خطبه الثلاث الأولى إلا مرة واحدة[١٧٥] ، بل إنه استخدم أحيانا كلمة "مشابه للأب فى الجوهر" [١٧٦] وإن لم يكن بالمعنى الذى قصد إليه أنصاف الآريوسيين [١٧٧]ولعل ما ذكرناه عن أصل كلمة "الهوموسية" وما صحب استخدامها، كان دافعا لأثناسيوس للإحجام عن استخدامه لها رغم ما عاناه دفاعا عنها.

وتعد رسالة أثناسيوس "عن المجامع" De Synodis التى خطها سنة٣٥٩[١٧٨]، استكمالا مدعما بالوثائق التاريخية لجداله ضد الآريوسيين، وهى تعتبر آخر عمل

---

(171) Kidd. op. cit. II, pp. 143- 144
وراجع أيضا pp. 267-303 Robertson, op. cit
(172) Cavallera, S Athanase, p. 13
وراجع p.303 Robertson, op. cit
(173) Kidd, Loc. cit.
(174) Robertson, op. cit. p. 57
(175) ATHAMAS. Orat. C.Arian. I, 9
(176) Ibid. 20
(177) Kidd. op. cit. II, p. 144
(178) Cavallera, op. cit. p. 13
وراجع Kidd, op. cit. II, p. 448
وأيضا Robertson, Loc. cit

عظيم فى مجموعة كتاباته الهامة خلال نفيه الثالث [١٧٩] وتعود أهمية هذا العمل فى المقـام الأول إلى أنه كتب فى نفس العام الذى شهد عقد مجمعي ريمينى وسلوقية، وإذا كانت خطبه ضد الآريوسيين محاولة لفتح باب اللقاء مع أنصاف الآريوسيين، فإن رسالته هذه عن المجامع تعد دعوة صريحة لهم فى هذا السبيل[١٨٠] ، حتى لقد قـال عن أسقف أنقرة ورفاقه "إنهم إخوة"، يناقش وإياهم على هذا الاعتبار، يعنون ما يعنى. ولكن الجدال فقط حول الكلمة [١٨١].

هـذا إلى أن الأحداث التى وقعت فى ريمينى وسلوقية قد زادت من تقريب المسـافة بيـنهما، إذ أن الهومويين عملوا على كسر شوكة النيقية فى الغرب فى ريميـنى، والقضـاء علـى الهوموسـية فى سلوقية، وهذه المحاولة التى يقوم بها أثناسيوس، سبقه إليها أيضا أسقف الغرب هيلارى عندما كتب رسالته عن المجامع، ويعـلق أحـد الدارسـين "لقد كان هناك رجلان فى العصر أوتيا من المهارة قدرا يضـعان به أصابع الطبيب علي منبض العقيدة، هيلارى الغربي الذى تعلم ليتفهم ويتعاطف مع الشرق، وأثناسيوس الذى يمثل الفطرة اللاهوتية فى الغرب [١٨٢].

اختص القسم الأول من رسالة أثناسيوس عن المجامع بالحديث عن مجمعى ريميـنى وسـلوقية فى دراسـة مستفيضة يتخللها دفاع عن الإيمان النيقى، ويبدى أثناسـيوس العجـب فى حديثه عن ضرورة عقد مثل هذين المجمعين، أو عقدهما عـلى هذا النحو المنفصل[١٨٣]. أما الجزء الثانى فيعد سجلا كاملا لأهم وثائق هذه الفـترة مـن الـناحية العقيدية، إذ أنه يشتمل على بيان بعقيدة آريوس كما ورد فى العمـل الـذى وضعه آريوس نفسه ويدعى Thalia، وهو الذى وقفنا من الشذرات الـتى وردت منه فى كتابات أثناسيوس، على أصول العقيدة الآريوسية، ثم رسالة آريـوس إلى اسـكندر أسـقف الإسكندرية فى بدء الخلاف بينهما. ويقدم بعد ذلك

(179) Robertson, Loc. cit.
(180) ATHANAS. De Syn. 41-54
(181) Ibid. 41
(182) Robertson, op. cit. p. 57
(183) ATHANAS. De Syn. 1-14

المراسيم الآريوسية العديدة التى صدرت منذ مجمع التدشين الأنطاكى وحتى مرسوم الأنومويين الأخير الذى نشر فى أنطاكية سنة ٣٦١ (١٨٤).

وتمثل هذه الوثائق قيمة تاريخية هامة، إذ هى تثبت تفصيلي دقيق للصراع العقلي المرير الذى شهدته ردهات المسيحية فى صورتها الآريوسية. وفوق هذا وذاك فإن وضع هذا العمل سنة ٣٥٩، وتقديم هذه الوثائق كلها خاصة التى تجرى أحداثها، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن أنباء هذه المجامع العديدة ومراسيم الإيمان الأكثر عددا والأحداث بعينها كانت تصل إلى أثناسيوس حين وقوعها. ومن ثم ندرك أن الأسقف السكندرى لم يغب لحظة واحدة عن هذه التيارات العنيفة التى سادت الشرق والغرب فترة نفيه الثالث، وهذا يدل دلالة واضحة على ذلك الدور الكبير الذى قام به رهبان مصر فى حماية أثناسيوس وعونه، واطلاعه على مجريات الأمور، حتى لكأنه يشارك فيها فعلا، وإن كان بقلمه، بل ويحركها على النحو الذى شهدناه عندما قدم إلى الإسكندرية ليتخذ منها ملاذا.

من هنا نقف على القيمة الحقيقية لـ "حياة القديس أنطونيوس Vita S. Antoni التى كتبها أثناسيوس خلال هذه الفترة أيضا. فقد كان من الضرورى للأسقف السكندرى أن يسجل بالإعجاب والتقدير هذه الجهود الضخمة الذى بذلها له ومن أجله المتوحدون وجموع الرهبان، ويقول سميث Smith "ربما قصد أثناسيوس بسيرة أنطونيوس أن يدخل السرور إلى قلب الرهبان المصريين الذين وقفوا إلى جواره، أو ليفعلوا مزيدا من ذلك فى الوقت الذى كان فيه أثناسيوس مطاردا من الخصوم والإمبراطور(١٨٥). ولذلك اختار أثناسيوس شخصية واضع أسس الرهبنة فى مصر، ليتحدث من خلاله عن الراهب والجموع والنظام بأكمله ليضرب المثل بأبى الرهبان للرهبان، للأخذ بناصره عندما ارتحل أنطونيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٢٨ ليقف إلى جوار أثناسيوس ضد خصومه الآريوسيين (١٨٦) وما جاء فى مقدمة

(184) ATHANAS. De Syn. 151-31

(185) Smith, The church in the Roman Empire, p. 82

(186) ATHANAS. Vita Ant. 69

الترجمة [١٨٧] ، وفى وداع الأسقف للراهب عند مغادرته العاصمة [١٨٨]دليل يقدمه أثناسيوس لساكني الأديار والمتوحدين على الصداقة القوية والاحترام المتبادل بين الرجلين، فلا أقل من أن يحذو هؤلاء حذو رائدهم تجاه الأسقف السكندرى.

ولقد عرضنا آنفاً للأهمية لـ "حياة القديس أنطونيوس"[١٨٩] وأثرها فى نقل نظام الرهبانية إلى العالم بعامة، ونضيف أنها جاءت فى الوقت الذى كان يجب أن تأتى فيه، فهذه هى أطول فترة قضاها أثناسيوس فى حماية الرهبان، بلغت ست سنوات وينيف، يحوطونه بالرعاية، ويصلون ما بينه وبين العالم ويقدمون إليه الوثائق الدالة على الأحداث ومجراها، كل ذلك يجرى فى وقت تتربص به عيون الإمبراطور وأساقفة البلاط، ويبحثون عنه بالمال والجنود. وهذا بلا ريب يرسم أمامنا صورة كاملة لتلك السرية التامة وذلك النظام الدقيق الذى تتبعه هذه الأعداد الغفيرة من الرهبان، وفوق هذا وذاك الولاء الكامل للأسقف السكندرى الذى يصوز ماضيهم، ويجسد آمالهم وواقع معتقدهم.

هكذا نأتى إلى نهاية المنفى الثالث للأسقف السكندرى، وقد شاهدنا هذه السلسلة المتلاحقة من مراسيم الإيمان التى أصدرها الآريوسيون بمختلف فرقهم، وإن كان قد بقى هناك واحد سوف تشهده أنطاكية بعد قليل.

اطمأن قسطنطيوس إلى أن أمور العقيدة قد أقرت على النحو الذى انتهى إليه مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، واعتقد الإمبراطور أنه بذلك قد أرضى جميع الأطراف المسيحية المتصارعة. والحقيقة أن أحدا منها لم يكن كما اعتقدالإمبراطور. ولكن قسطنطيوس كان راضيا بما وصل إليه. فغادر العاصمة إلى إنطاكية عام ٣٦١ استعدادا للحرب الفارسية[١٩٠]، وكان كرسى أنطاكية الأسقفى قد شغر بانتقال يودوكسيوس إلى أسقفية القسطنطينية. وبحث الأساقفة

(187) Ibid. praef

(188) Ibid. 70

(١٨٩) راجع قبله .

(190) THEOD. Hist. eccl. II, 27

وشعب الكنيسة عمن يخلفه، فوقع اختيارهم على ملتيوس Meletius الذى عين أسقفا على سيواس بعد عزل يوستاتيوس، ثم انتقل منها إلى حلب Beroea.[191] ولما كان ملتيوس قد وقع على مرسوم سلوقية الذى وضعه أكاكيوس[192] فقد اعتبره الهومويون نصيرا لهم، ومن ثم ناشدوا الإمبراطور الموافقة على رسامته أسقفا على أنطاكية[193]. ومن ناحية أخرى يذكر ثيودوزيت أن النيقيين لم يعترضوا على سيامته لما يعلمونه عنه من تعلق بإيماتهم[194].

ويبدو أن الأسقف الجديد كان رجلا معتدلا يريد أن ينأى بنفسه عن المعترك اللاهوتى، فتجنب أول الأمر الخوض فى المسائل العقيدية، وخص بالموضوعات الأخلاقية عظاته[195]. ولكنه أمام مضايقات جورج أسقف اللاذقية، وأكاكيوس القيسارى، راح يبشر الجموع بالعقيدة النيقية، وإن كان قد آثر إغفال مصطلح الهوموسية[196]. فلما حمل هذا النبأ إلى قسطنطيوس أمر لتوه بعزله ونفيه، وعين بدلا منه يوزيوس Euzoius رفيق آريوس منذ البداية فى دعوته، وزميله فى منفاه وعودته[197]. وهنا شهدت أنطاكية انقساما عقيديا خطيرا ظل يهددها فترة طويلة، ذلك أن أتباع ميليتيوس انفصلوا عن الجماعة الآريوسية التى يتزعمها الأسقف الجديد، وراحوا يعقدون اجتماعاتهم الدينية بمنأى عنهم[198]. أما أولئك الذين كانوا يدينون أصلا بالهوموسية، ويطلق عليهم سوزومنوس اليوستاتيين[199]

---

(191) SOCRAT. Hist. eccl. II, 44
(193) Id.
(193) THEOD. Loc. cit.
(194) THEOD. Hist. eccl. II, 27
(195) SOCRAT. Hist. eccl. II, 44
وراجع أيضا SOZOM. Hist. IV, 22
(196) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع THEOD. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Loc. cit.
(197) SOCRAT. Loc. cit.
(198) Id.
(١٩٩) أنظر SOZOM. Loc. cit. وكانوا أتباع يوستاتيوس أسقف أنطاكية الذى عزل سنة ٣٣٠ بعد نزاعه مع يوسيبيوس القيسارى.

Eustathians فقد رفضوا الدخول فى شركة أتباع ملتيوس، محاجين بأنه رسم عل يد الآريوسيين وأن أتباعه عمدوا بواسطتهم(٢٠٠).

وقـد دعا يوزيوس إلى مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ (٢٠١)وتجددت المناقشات حول مـا قر عليه للرأى من قبل وخاصة تعبير "التشابه" Homoeas أساس العقيدة الهوموية، ورأوا أنـه من الضرورى شجب هذا التعبير من مرسوم الإيمان، وأعلنوا أن الابن لا يشـبه الآب Anomoean وأنـه خـلق مـن العـدم، وهـو ما دعا إليه آريوس فى الـبداية (٢٠٢)، ولما كانت هذه الآراء أنوموية فى جوهرها، كان من الطبيعى أن ينضم إليها أنصار آيتيوس، فأضاف ذلك إلى الفوضى الحادثة فى أنطاكية بعداً جديداً.

وبينما المسيحيون فى داخل الإمبراطورية يدور بينهم صراع فكرى عنيف، ويشقى بهذا الجدال قسطنطيوس حتى هده الجهد وأعياه الشقاق، كان سابور الفرس يـزحف بقواتـه ليحـتل أمـد ويوقع بالحامية مذبحة مروعة ويصلب القادة ويبيع الآخـرين فى سوق الرق عبيدا(٢٠٣)، لقد حسب الإمبراطور أنه جمع الإمبراطورية على الهوموية عقيدة، فإذا به فى أنطاكية يشهد حصاد السنين، ويحاول أن يتغاضى هربا من متاهات اللاهوت ولو قليلا، لينقذ كرامة الإمبراطورية وقد أثخنها الفرس جراحا. غير أن خطرا جديدا هدد قسطنطيوس فجأة، إذ أتته الأنباء بقيام الثورة فى غالة والمناداة بابن عمه جوليان إمبراطورا، ومن ثم كان عليه أن يخمد الفتنة فى الداخل قبل أن يتجه لحرب فارس.

---

(200) SOCRAT. Loc. cit.

(201) SOCRAT. Hist. eccl. II, 45

وأنظر أيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 28-29

(202) SOCRAT. Loc. cit.

(203) Sykes, op. cit. I, p. 417.





الفصل التاسع

صحوة الموت الوثنية



الفصل التاسع

صحوة الموت الوثنية

في عـــام ٣٦١ تعرضت الإمبراطورية لتغييرات سياسية وعقيدية، كان لها أكبر الأثر على السياسة العامة التي جرت عليها الدولة إزاء الكنيسة بعامة، وقادت المسـيحيين جميعـــا على اختلاف آرائهم وفرقهم إلى أن يسلكوا سبيلا جديدا تجاه الإمـبراطور الجالس على العرش، وإن كانت هذه الصورة العامة لم تدم أكثر من ســنتين فقــط (٣٦١-٣٦٣) إلا أنهـــا تركت بصماتها الواضحة على جهد الأسقف السكندرى أثناسيوس في سبيل سعيه إلى توحيد الكنيسة، لتقف جبهة واحدة تتصدى لهــذا الخطـــر الجديد الذي يتهددها ممثلا في محاولة إعادة بعث الوثنية من جديد عـــلى يد الإمبراطور جوليان Julianus، بل إن هذه الجهود التي قام بها أثناسيوس لم تتوقف بعد زوال هذا الخطر.

وتفصـــيل ذلك في إيجاز، أن الإمبراطور قسطنطيوس، كان قد استدعى إليه ابن عمه جوليان[1]، وجعل منه قيصرا على الغرب في ٦ نوفمبر ٣٥٥، وعهد إليه حماية جبهة الراين ضد قبائل الفرنجة[2] وكانت هذه القبائل الجرمانية قد انتهزت

(١) شـــاء القـــدر أن يفـــلت من المذبحة المروعة التي ذهب ضحيتها أفراد أسرة قسطنطين سنة ٣٣٧، عدا أولاده الـــثلاثة، الأخوان جاللوس وجوليان ، فقد شفع المرض لأولهما، بينما وقفت براءة الطفولة تدفع عـــن جوليـــان. ولكـــن ذلك لم يمنع قسطنطيوس أن يأخذ من البداية حذره، فأبعدهما إلى قلعة ماكللوم Macellum في آســـيا الصـــغرى، ثـــم سمح لهما بمغادرة القلعة، فاتجه جاللوس إلى إفسوس، وجاء جوليان إلى القسطنطينية . فلما وقعت الحرب الأهلية سنة ٣٥٠ وارتحل قسطنطيوس إلى الغرب، عهد بأمر الشرق إلى جاللوس بعد أن خلع عليه مرتبة القيصر، وأوكل إليه مهمة الدفاع عن جبهة الفرات . غيـــر أن جالـــلوس اتبع سياسة عنيفة . مع الأهالي أودت بحياة الكثيرين خاصة في أنطاكية، مما دفع قسطنطيوس إلى إعدامه عام ٣٥٤، ومن ثم لم يبق إلا جوليان .

انظر AMM. MARC. Res gest. XV, 2

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. II, 28, III, 1

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. IV, 4, V, 2

(2) SOZOM. Hist. eccl. III, 1

كذلك AMM. MARC. Res. gest. XV, 8

فرصة الفوضى التى حدثت فى الإمبراطورية، على أثر مقتل قنسطانز سنة ٣٥٠، وعــاثت فى غالــة فسادا، وتقاعس القادة هناك عن التصدى لهذه الهجمات[٣]، فلما تــولى جوليـــان أمر هذه المنطقة عمل على اكتساب ولاء الجنود ومحبتهم، وأظهر مقــدرة عســكرية فائقــة، وأوقــع بالقــبائل الجــرمانية هــزيمة مــروعة عند Straseburg (Argentoratum) أدت إلى توقف هذه الاغارات سنوات طويلة[٤].

وتشــير المصـــادر أن قســطنطيوس، كــان يضــمر الحقد على جوليان، للانتصارات التى أحرزها على جبهة الراين، لخوفه من منافسته على العرش، وأنه من أجل ذلك كتب إلى قبائل الفرنجة فيما وراء الراين رسالة يدعوها لمهاجمة غالة للدخول فى حرب مع جوليان قد يكون فيها القضاء عليه[٥].

والــذى شــك فيه أن قسطنطيوس كان يتوق حقا إلى الخلاص من جوليان، حــتى يضــمن عدم وجود منافس له على العرش، وهذا شىء نلمسه بوضوح من الشــكوك الــتى كانت تساوره طيلة حياته، والتى أملت عليه تصرفه ومسلكه إزاء جوليـــان[٦]، حــتى أنــه أحــاط جوليان فى غالة بجماعة من الموظفين المدنيين

(3) SOCRAT. Hist . eccl. II, 28, III, 1
(4) AMM. MARC. Res gest XVI, 12
(5) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 2
أيضا THEOD. Hist. eccl. II, 28

(٦) اتجــه جوليان منذ البداية إلى دراسة الآداب الإغريقية وبرع فيها حتى شاع بين الناس فى القسطنطينية أن لديــه القــدرة عــلى أن يديــر بنجاح دفة الحكم فى الإمبراطورية، ولما تناقلت أندية العاصمة هذه الشائعة، وبلغت آذان الإمبراطور، تملك عليه القلق كل سبيل، حسب تعبير المؤرخ سقراط، ولهذا أمره عــلى الفــور بمغادرة العاصمة إلى نيقوميديا، وحرم عليه فى الوقت ذاته التردد على مدرسة فيلسوف أنطاكيــة الوثــنى الشــهير ليبانيوس Libanius الذى كان يقيم فى نيقوميديا آنذاك، ولكن ذلك لم يمنع جوليــان مــن مدارسة الفلسفة سرا، وخاصة بعد أن جاء نيقوميديا فيلسوف إفسوس الشهير ماكسيموس Maximus وفى هــذه الأثــناء كــان جالــلوس قــد أعدم وغدا جوليان بالتالى موضع الشكوك لدى الإمــبراطور. فأمــر بنقله إلى كومو Como بالقرب من ميلانو ليكون تحت سمعه وبصره ، وفرض عــليه حراســة مشددة. ثم سمح له بالذهاب إلى أثينا بعد أن تدخلت الإمبراطورة يوسيبيا Eusedia . حيث أمضى هناك ستة أشهر فقط ، استدعى على أثرها ليكون قيصرا فى الغرب .
راجع AMM. MARC. Res gest. XV, 2, 8
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
وأنظر أيضا G. XXXV, 578-579).GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56 (p

والعسكريين جعلهم عيونا له عليه، وجهدوا هم بكل الطرق ليعرقلوا جهوده فى إصلاح أمور غالة، وهذا الأمر نقف عليه من الرسالة التى بعث بها جوليان إلى قسطنطيوس يشكو إليه هؤلاء الأعوان[٧]، وما كان أيسر على قسطنطيوس أن يفعل بقيصر الغرب ما فعله من قبل بأخيه قيصر الشرق، دون حاجة إلى أن يحمل الدولة نفقات حرب باهظة من أجل التخلص من شخص واحد، كما تدعى هذه المصادر.

وليس من السهل تقبل رواية المصادر هكذا دون مناقشة، فالذى يبدو أن هذه الرسالة لابد أن يكون قسطنطيوس قد بعث بها قبلاً للاستعانة بقوات من الجرمان ضد خصمه ماجننتيوس، وذلك بعد هزيمة الأخير فى مورسا وفراره إلى غالة، مخافة أن يستنجد هذا المتمرد بالجرمان، فلما قضى ماجننتيوس، أدرك الإمبراطور أنه لم تعد به حاجة لمثل هذه المعونة، فى الوقت الذى كانت القوات الجرمانية قد بدأت تتدفق بالفعل تجاه الراين، أو لعل هذه القوات انتهزت فرصة الحرب الأهلية لتحقق لنفسها مأربا فى غالة[٨] ومن ثم لم يتردد قسطنطيوس فى أن يتصدى لها، وأن يقود قواته ضدها فى حملات متتابعة[٩] فلما رأوا بأس جوليان من بعد وقدرته على إنزال الهزائم بهم أرادوا أن يوغروا صدره على الإمبراطور، حتى ينصرف عن قتالهم، فأطلعوه على هذه الرسالة، وإن كان جوليان لم يلق بالا لما أراده الجرمان، بل ألقى القبض على رسلهم وأودعهم السجن، وواصل الحرب ضدهم حتى أوقع بهم عند ستراسبورج.

إلا أن الأحداث فى الشرق هى التى عجلت بفتح باب الصراع سافرا بين جوليان وقسطنطيوس، ذلك أن الإمبراطور كتب إلى قيصره فى الغرب أوائل سنة ٣٦٠ يأمره أن يمده بزهرة شباب الجيش العامل فى غالة حتى يتمكن من

(7) SOCART. Hist. eccl. III, 1
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 2
(8) Jones, The decline of the Ancient World, p. 56
(9) Martin, op. cit. I, pp. 304-306

مواجهـة قـوات الفـرس ويتصدى لزحفهم[١٠] ، غير أن الجنود تمردوا على هذه الأوامـر ورفضـوا الانـتقال من أقصى غرب الإمبراطورية إلى أقصى شرقها، ورفعوا راية العصيان، ونادوا بجوليان إمبراطورا[١١] ، ولم يلبث هذا أن قاد قواته واتجـه بهـا ناحيـة الشـرق لملاقـاة الإمـبراطور الذى رفض قبول هذا الأمر الواقع [١٢]، ولكى يدعم موقفه فى أقاليم الغرب نشر فى الناس رسالة قسطنطيوس إلى الفرنجة، مما دفع الأهالى إلى شدة الحنق والسخط على قسطنطيوس، بالإضافة إلى مـا عـانوه على يديه من أجل العقيدة، ولهذا أضحى من السهل استمالتهم إلى جانب جوليان[١٣] .

أما قسطنطيوس فقد دعا إليه يوزيوس أسقف إنطاكية الآريوسى، حيث تناول منـه سـر المعموديـة، وأسرع يقود جيشه لملاقاة ابن عمه، فلما حط رحاله عند موبسوكرنى Mopsucrene على الحدود بين كيليكيا وكبادوكيا فى آسيا الصغرى أفرط فى إعمال الفكر حول هذه النوائب التى ألمت به، فمات فى الثالث من نوفمبر سنة ٣٦١[١٤] ، وعندما علم جوليان بذلك ارتحل لفوره إلى القسطنطينية التى فتحت

(10) AMM. MARC. Res gest. XX, 4

(11) Id.

(١٢) تختـلف المصـادر حـول موقف جوليان من هذه الأحداث .. فيلتزم مؤرخو الكنيسة الصمت التام إزاء الأسـباب الـتى أدت إلى ثـورة قوات غالة، ويذكرون أن جوليان لم يحاول الدخول مطلقا فى مفاوضات مع الإمـبراطور حول هذا الوضع الجديد، وأنه لم يقدم له بعد ذلك أى قدر من الاحترام أو الولاء، بل راح يعين توابـا عنه فى الولايات الشاغرة التى تقع تحت سلطانه، بعد أن صرف الموظفين الموالين لقسطنطيوس، هذا عـلى الرغم من أن أميانوس ماركللينوس يذكر أنه بعد أن تمت المناداة بجوليان إمبراطورا أرسل على الفور إلى قسـطنطيوس يخـبره حقيقـة الأمر ويعرض عليه الدخول فى مفاوضات لحسم هذا الخلاف. ولا يخفى علينا أن مؤرخى الكنيسة كانوا يكتبون عن إمبراطور أراد إحياء الوثنية من جديد .

راجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 1

وأنظر AMM. MARC. Res gest. XX, 9

(13) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

(14) Id.

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 1

وأيضا THEOD. Hist. eccl. II, 28

لـــه أبوابهـــا فى ١١ نوفمـــبر مـــن العام بوصفه إمبراطورا[١٥]. وقد شيع جيروم الإمـــبراطور قسطنطيوس إلى قبره بقوله: "لقد هلك التنين وعاد السلام"[١٦]. ولعل القديـــس قد عبر بذلك عما يجيش فى نفس الكنيسة الكاثوليكية من البغضاء والمقت لقســطنطيوس بســـبب سياسته العقيدية. وإن كان قسطنطيوس قد باشر سياسته هذه حســبما كـــانت تقتضـــى بـــه الظروف السائدة فى ذلك الحين، والتى تفرض على الإمبراطور أن يسعى بالجهد كله لإقامة كنيسة واحدة[١٧].

وكـــان اعـــتلاء جوليان العرش أمرا بالغ الدلالة بالنسبة للكنيسة والمسيحية، ذلـــك أن جوليـــان أعلن على التو اعتناقه للوثنية. ورغم أن المسيحية لم تكن حتى ذلـــك الحيـــن قد أصبحت الدين الرسمى للإمبراطور، إلا أن أبناء قسطنطين كانوا عـــلى المســـيحية، ومن ثم لصقت بجوليان صفة "المرتد"، خاصة وأنه كان قد تلقى منذ صباه طقس العماد.

والحقيقـــة أن قـــلب جوليان لم يؤمن يوما بالمسيحية[١٨]، فقد ارتبطت فى ذهـــنه للوهـــلة الأولى بالتناقض بين تعاليمها وواقعها، ولم يستطع أن يوفق بين ما لقـــنه فى صغره عن التسامح فيها، والعنف والدم الذى رآه متمثلا فى تلك المذبحة المـــروعة الـــتى فقـــد فيهـــا كـــل أفـــراد أسرته، والتى ارتبطت فى مخيلته دائما بقســـطنطيوس، ذلـــك "الغطريس"، سفاح العائلة الملكية، كما كان يحلو له دائما أن

---

(15) AMM. MRAC. Res gest. XXII, 2

وراجع THEOD. Hist.eccl. III, 1

(16) HILER. Dial. C. Lucif. 19

(17) Jones, The decline of the Ancient World, p. 258

(١٨) عـــن بواكيـــر الوثنية عند جوليان نسجت أقلام الكتاب الكنسيين عددا من الروايات التى تصل إلى حد الأسطورة، فيذكر سوزومنوس أنه أثناء وجود الأخوين جاللوس وجوليان فى قلعة ماكللوم، أخذا على عاتقهمـــا إعـــادة بـــناء قبر الشهيد ماماس Mammas، واقتسما العمل فيما بينهما، وبينما تقدم عمل جالـــلوس، راح عمل جوليان يتهاوى ويتصدع، واعتبر الناس ذلك معجزة وراحوا يشكون فى صحة عقيـــدة جوليان المسيحية وأنه لابد يخفى شيئا آخر، ولعل هذا ما يشير إليه المؤرخ ثيودوريت من أن القديس رفض تقدمة جوليان.

انظر SOCRAT. Hist. eccl. V, 2

وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 1

يدعوه[١٩]. ولم يكن فى لحظة ما آمنا على نفسه، فالإمبراطور يطارده من القسطنطينية إلى كبادوكيا فالعاصمة ثانية فنيقوميديا وبرجامة وكومو، فأثينا ثم غالة، ويشهد مقتل أخيه بيد قسطنطيوس، ويترقب دوره فى أى حين. لذا وضع جوليان على كتفه طيلة حياة قسطنطيوس، رداء المسيحية ولكنه كان إيمان الخوف حسب تعبير مؤرخى الكنيسة أنفسهم[٢٠]، حتى لقد كان يتمثل دوما يوم عماده كابوسا مروعا يجب تناسيه[٢١]. وليس لمثل هذا الإيمان أن يقود النفس إلى السكينة، ومن ثم راح يبحث عن هذه فى غير المسيحية، خاصة وقد تبدت له هذه العقيدة تارات أخرى فى أساقفتها، يلتفون حول العرش يسبحون بمجد الإمبراطور، ويحنون الهام إجلالا، فعافت نفسه مهانة العقيدة من أجل السلطان، ومن قبل رأى المسيحية تفرض عليه فى نصوص لهم يدرك من كنهها شيئاً ، وطقوس لا يعلم ما تخبئه وراءها من أسرار، ولم يكن جوليان يريد إيمانا على هذا النحو، ولا عقيدة بهذه الشاكلة، ولا معرفة دون عقل، ولا علما دون فكر، وهكذا تفتحت مداركه بفلسفة ماكسيموس وجداله ومنطق ليبانيوس وبيانه.

ويلخص جيبون ذلك كله فى عبارة واحدة بقوله: "لقد ارتبط اسم المسيح فى مخيلته باسم قسطنطيوس، واقترنت فكرة العبودية بفكرة الدين " ؛ ويضيف، لقد كان جوليان يتمتع بروح الاستقلال التى ترفض التسليم بما يتطلبه رجال الكنيسة المتعجرفون باسم الدين، من طاعة عمياء وانقياد سلبى ، وتأبى تلك القوانين التى يصدرونها فى صورة مقدسة لا تقبل الجدل، يحميها إرهاب العذاب الأبدى، وتضيق بتلك القوالب الجامدة التى يقدمونها له ليصوغ من خلالها فكره وحديثه، لذا كان لابد أن تدفعه عبقريته ، وهى تتيه بالمعرفة شوقا، إلى التمرد على سلطان معلميه الكنسيين[٢٢] .

---

(19) Kidd. op. cit. II, p. 183

(20) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 2

(21) Vasiliev, op. cit, I, p. 69

(22) Gibbon, op. cit. II, p. 457

وهــذه حقيقة وقف عليها وسجلها جريجورى النازيانزي عندما التقى بالأمير جوليان في أثينا وعرفه عن كثب، ورأى نفسه القلقة وروحه المتوثبة[٢٣]، وأفصح عــنها أميــانوس ماركللنيوس عندما قال: "لقد كان جوليان منذ نعومة أظافره يحنو عــلى عبادة الأرباب، ولما تقدم به الزمان زاد بها تعلقا، غير أن المخاوف الكثيرة التى ملكت عليه حياته، جعلته يخفى فى نفسه ما لابد فى يوم مبديه[٢٤].

وقد استهل جوليان عهده بإصدار تصريح بأن تفتح المعابد أبوابها، وأن تقرب الأضحيات على المذابح للأرباب إرضاء[٢٥]، وشارك الإمبراطور بنفسه فى ممارسة الطقــوس الوثنية المختلفة من تقريب الأضحيات[٢٦] والعرافة، وقراءة ما توصى به أكــباد القــرابين[٢٧]، وكان جوليان فى الوقت ذاته يدرك أن إحياء الوثنية على النحو الــذى أمســيت عليه، يعد أمرا بالغ التعقيد، ولن تقدر بحالتها الراهنة، بعد أن أضحت ديــنا باهــتا، أن تبعث ثانية من الرقاد[٢٨]. ولذا لم يجد غضاضة فى أن يستعير من العقيدة المسيحية التى يزدريها نظم الكنيسة فيها وشيئا من أخلاقياتها[٢٩].

---

(23) GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56(p. G. XXXV, 578-579); V, 33-34(p. G. XXXV, 692-993)

(24) AMM. MRAC. Res gest. XXII, 6

(25) Id.

(٢٦) كان جوليان يقرب للأرباب بصورة تسترعى الانتباه، ويدعو الوثنيين إلى أن يسلكوا نهج سيدهم، فلما تفشــى ذلــك بين الناس، ظهرت من جديد تلك القالة التى شاعت من قبل زمن الإمبراطور الفيلسوف مــاركوس أوريــليوس Marcus Aurelius (١٢١=١٨٠) . . ."من المواشي البيض إلى القيصر ماركوس . تحية . . لو حالفكم النصر، فعلى قطيعنا السلام" .

انظر AMM. MARC. Res gest. XXV,4

(27) AMB. Ep. XVIII, 39

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18

(28) Gibbon, op. cit. II, p. 472

(٢٩) ويتمــثل ذلك فى رسم معلمين للمعابد وقارئين، ليعطى للعقيدة الوثنية حيوية وتجديدا، ورأى أن تؤدى الصلوات فى أيام محدده وساعات، كما كان يتوق إلى أن يرى هناك صوامع للرجال والنساء كل على حــدة، تضم الذين يعشقون الفلسفة وحياتها، ويتمنى أن يرى للوثنية ملاجئ يأوي إليها الغرباء، ويلقى فيهــا مرضى الفقراء علاجا ناجعا، ويريد الارتقاء بمستوى الكهنة خلقيا. ونقف على ذلك كله وغيره من الرسالة التى بعث بها إلى أرساكيوس Arsacius كاهن جالاتيا Galatis .

أنظر SOZOM. Hist. Eccl. V, 16

علـى أن الصفعة القوية التى وجهها جوليان للمسيحيين تمثلت فى الإصلاح التعـليمى الـذى أقـدم عليه، فقد أصدر قرارا بمنع المسيحيين من دراسة الآداب الإغـريقية[٣٠]، وحـرم عـلى المعلمين أن يقوموا بالتدريس إلا إذا دانوا بعبادتهم للأربـاب، وأعلن أنه من السخف أن يتصدى المسيحيون لتعليم الآداب الكلاسيكية فى الوقـت الـذى يمتهـنون فيه أرباب أعلامها[٣١] . ولا شك أن هذا القرار كان صـادرا عن اقتناع جوليان بأن الكنيسة سوف تعود نتيجة لذلك إلى حالتها البدائية البسيطة فى غضون سنوات قلية، وأن رجال الدين الذين كانوا يملكون قدرا مناسبا مـن عـلم ذلـك العصـر، سـوف يخلفهم جيل من المتعصبين الجهلاء الذين لا يسـتطيعون الدفـاع عن عقيدتهم أو التصدى لمفكرى الوثنية[٣٢] . وقد أحجم فعلا جمهـرة المسيحيين عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس التى أضحت وثنية، مخافة أن يـتحول شباب المسيحية إلى عبادة الأرباب، وكان هذا فى حد ذاته يعنى دونية ثقافية إذا ما قورنوا بالوثنيين[٣٣] .

وكان كل ما يشغل ذهن المسيحيين الخلصاء أن الطبقة الأرستقراطية سوف تسـتمر فى إرسـال بنيها إلى معاهد العلم سواء كان القائمون بها يقدسون أرباب البانـثيون أو يعبدون إله المسيحية، ولا شك أن هذا الجيل من الأبناء سوف تبهره الدعائيـة الوثنية، وهذا ما كان يبتغيه جوليان[٣٤] . لقد كان يهدف أساسا إلي تجريد المسـيحية من هيبتها، وإنزالها إلى مرتبة الخرافات، وذلك بأن يقطع كل علاقة لها بالتعـليم والثقافة [٣٥] . وليس أدل على خطورة هذا القرار مما قاله الكاتب الوثنى

---

(30) SOCRAT. Hist. eccl. II, 46
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18
(31) AMM. MARC. Res gest. XXV, 4
وراجع AMB. Ep. XVIII, 39
(32) Gibbon, op. cit. II, p. 467
(33) Vasiliev, op. cit. I, p. 73
(34) Jones, Lat. Rom. Emp. I, p. 122
(35) Gwatkin, The Arian Controversy, p. 109

أميانوس ماركللينوس نفسه: "إن حرمان المسيحيين من تلقى العلم على أيدى هؤلاء المعلمين، يعد أمرا بالغ القسوة يحتم علينا أن نتناساه"(٣٦).

مـن أجـل هذا ندب اثنان من المسيحيين نفسيهما لإنقاذ الناشئة من هذه الجهالة الآتيـة، فقـام أبو لليناريس Apollinaris الأب، الذى كان متضلعا من النحو، بوضع الأجـرومية مـتفقة مع الإيمان المسيحي، وترجم الأسفار فى قصيد بطولى، وعرض للجانب التاريخى من العهد القديم بالشعر حينا يقلد هوميروس، وباختزالها حينا آخر فى صـورة تراجيديا روائية يحاكى بها يوربيدس(٣٧) Eurpides، واستخدم عمدا كل أنواع القـريض حتى لا تصبح التعبيرات الخاصة فى اللغة اليونانية خافية على المسيحيين(٣٨) أمـا أبو لليناريس الابن، وقد نهل من نبع البيان والبلاغة فقد وضع فى حوار أفلاطونى شـروح الإنجيـل وأعمال الرسل(٣٩) غير أن هذا الأثر الكلاسيكى الزائف لم يكتب له البقاء بعد موت جوليان، حيث عاد للمدرسين الحق فى تعليم التراث الكلاسيكى(٤٠).

كان طبيعيا أن يختلف رد الفعل عند الوثنيين والمسيحيين فى الإمبراطورية إزاء هـذه السياسـة الجديـدة التى أعلن عنها جوليان فى أمر العقيدة. أما الجموع الوثـنية فقـد راحـت تعبر عن مشاعرها الحبيسة طيلة أربعين عاما، المضطرمة بـالحقد والكـره الدفين للمسيحية واتباعها ، فتعرض المسيحيون للعنت فى بعض المناطق مثل غزة وبعلبك والرستن(٤١) وفريجيا(٤٢) وقيسارية(٤٣) والإسكندرية(٤٤)

---

(36) AMM. MARC. Res gest. XXII, 10
وراجع Chadwic. op. cit. p. 157
(37) SOZOM. Hist. eccl. V, 18
(38) SOCRAT. Hist. eccl. III, 16
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 18
(39) SOZOM. Loc. cit.
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. cit.
(40) Jones, Lat Rom. Emp. I, p. 122
(41) SOZOM. op. cit. V, 9-10
وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 3
(42) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(43) SOZOM. Hist. eccl. V, 4
(44) Ibid, V, 7
وأيضا SOCRAT, op. cit. III, 2

وقد لا يكون جوليان مسئولا عن معظم هذه الأحداث، ولكن الذى لا شك فيه أن جوليان لجأ إلى استخدام العنف بنفسه ضد المسيحيين فى أخريات أيام حكمه، ويعلل جيبون ذلك بقوله: "إن صخب المسيحيين وضجيجهم الأحمق أثار غضب مليكهم الذى كان عليهم أن يقدموا له الطاعة والولاء"[٤٥] . ولعل الإخفاق الذى منى به جوليان فى تحقيق الهدف الذى كان يسعى إليه[٤٦] ، وهو العودة بالإمبراطورية إلى العقيدة الوثنية ، كان من أهم الأسباب التى دفعته إلى أن يتغاضى تماما عن فضيلة الفيلسوف، ويترك لشخص الإمبراطور حرية السلوك[٤٧] .

أما المسيحيون فقد سيطر عليهم نوع من الرعب والفزع خوف الاضطهاد، ويصف مؤرخ الكنيسة سوزومنوس حالتهم آنذاك فى صورة دقيقة، يقول: "لقد قاسى المسيحيون من عذاب التوقع والانتظار لهذه الضائقة، أكثر من معاناتهم لها بالفعل، فقد مضى زمان ألفوا فيه الدعة والأمان بعد طول هوان، وطاف بخيالاتهم ويلات العذاب التى لقيها الآباء والأجداد من قبل زمن المضطهدين"[٤٨] . غير أن جوليان سلك فى سياسته أول الأمر جانب الاعتدال، فقد أظهر تجاههم شعور العطف والتسامح، "لا حبا لهم"، حسب تعبير سوزومنوس ولا رهبة منهم، ولكن كما وضح أمام عينيه ووعته ذاكرته من الأدلة الثابتة على أن اضطهاد الأباطرة الرومان الأسلاف لهذه الجماعة لم تزدهم إلا إصرارا وعنادا، وأصبح شهداؤهم غرس الكنيسة الأولى وقلاعا للعقيدة حصينة[٤٩] ، ولذا عزم جوليان على أن ينهج سبيلا آخر غير سبيل العنف والقهر، أطلق عليه سوزومنوس "الاضطهاد النبيل"[٥٠]،

---

(45) Gibbon, op. cit. II, p. 504
(46) Kidd. op. cit. II, p. 189
(47) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1
(48) SOZOM. Hist. eccl. V, 2
(49) Ibid. V, 4
(50) Id.
وراجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 16

حتى لقد كان يتقبل إساءة أساقفتهم إليه ويعفو عنهم(٥١). فلقد كان جوليان يسلك نهج الفلاسفة لا مسلك الإمبراطور، يبتغى اجتذاب المسيحيين إلى عقيدته بالتسامح والإقناع دون البطش والاضطهاد. ولم يجد سقراط بدا من الاعتراف بهذه الحقيقة، فيذكر أن جوليان تمكن من استمالة عدد من المسيحيين ليقربوا للأرباب، بعضهم أقنعه، وبعضهم أغراه(٥٢) . ويذكر سقراط نماذج لهؤلاء ولا يستطيع أن يكتم غيظه تجاهه(٥٣).

وتمشيا مع هذه السياسة من "الاضطهاد النبيل" التى درج عليها جوليان تجاه المسيحيين، أصدر الإمبراطور مرسوما يستدعي به جميع أساقفة الكنيسة الذين كان قسطنطيوس قد أمر بنفيهم وأعاد إليهم أملاكهم المصادرة، وحذر الناس من القيام بأى عمل عدائى ضد المسيحيين أو إهانتهم، أو إكراههم على تقديم الأضحيات والقرابين للأرباب(٥٤) وتتفق المصادر التاريخية فيما بينها، المسيحية والوثنية،

---

(٥١) حدث ذات يوم أن كان جوليان يقدم للربة Fortuna في معبدها بالقسطنطينية، واقتيد ماريس Maris أسقف خلقيدونية، وكان قد فقد ناظريه، إلى هناك وكان أيضا قد شن حملة عنيفة على الإمبراطور لإيمانه بالأرباب، وقد توجه إليه جوليان مخاطبا: " ها أنت أيها الشيخ قد فقدت بصرك، وربك ذلك الجليلى لن يبرئك أبدا " . فأجابه ماريس فى غلظة ... "أحمد الرب الذى سلبني نور عيني حتى لا أري قبح وجه من تردى فى هاوية الإلحاد " . ويقول سقراط معلقا . "لقد ترك الإمبراطور هذا القول يمر دون تعليق، ولكنه أحتفظ لنفسه بلحظة الانتقام وحقه فيها " .

أنظر SOCRAT. Hist. eccl. III, 12

أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 3

(52) SOCRAT. op. cit. III, 15

وكذلك GREG. NAZ. Orat. VII, 11

(53) SOCRAT. Loc. cit.

ويقص جريجورى النازيانزى رواية عن أخيه فيقول : أن قيصر كان من رجال البلاط الشهيرين على عهد قسطنطيوس، وحظى بنفس القدر زمن جوليان الذى حاول استمالته إلى الوثنية . فلما أخفق جوليان فى ذلك دعا إلى عقد مناظرة، كان هو نفسه أحد طرفيها والثانى قيصر، ولكن هذا النقاش لم يؤد إلى نتيجة، وأعلن قيصر فى النهاية أنه باق على المسيحية .

راجع GREG. NAZ. Orat. VII, 12-13

(54) SOCRAT. Hist. eccl. III, 1

على أن الهدف الأساسى من هذا المرسوم هو إشعال نيران العداء من جديد بين الفرق المسيحية المتصارعة، وبهذا الأسلوب سوف تغرق الكنيسة حتى آذانها مرة أخرى فى صراع لا نهاية له فتقوض من ثم نفسها بأيديها(٥٥).

لقد أدرك جوليان بفكره ورأى ذلك الجدل اللاهوتى العنيف من حول المسيح، تثيره فرق الكنيسة المختلفة المتباعدة، ولا شك أن هذه السياسة تتفق وخلق الإمبراطور الفلسفى وحرية الفكر التى يقدسها، واتجاهه فى معاملة الخصوم بقصد استمالتهم إلى عقيدته، ولكن علينا فى الوقت ذاته أن نعى أن جوليان لم يخرج فى ذلك عما سار عليه من قبل أباطرة الرومان الوثنيون، أعنى النظرة الكلية الشاملة للمسيحية دون اعتبار لفريق أو آخر، ولذلك فإنه على الرغم من أن القرون الأولى الثلاثة للمسيحية، شهدت ظهور فرق عديدة تجادل من حول المسيح، إلا أن هذه الخلافات لم تظهر على السطح، إلا بعد أن رفعت الدولة يد الاضطهاد عن المسيحيين. وحسب تعبير جواتكين فإنه من أسهل الأمور ضيقا للكنيسة أن تمنح عدالة مشتركة لكل طوائفها(٥٦). ولهذا فإن جوليان عندما صدق على عزل ساتورنينوس أسقف آرل الآريوسى(٥٧)، وأمر بإعادة بناء كنيسة النوفاتيين فى كيزيكوس، وفرض عقوبة مالية باهظة على اليوزيوس أسقف المدينة إذا فشل فى إكمال البناء على نفقته الخاصة فى مدى شهرين فقط(٥٨)، لم يكن يصدر فى ذلك عن تفضيل للنيقيين على خصومهم فى الغرب، ولا إيثارا للنوفاتيين على الآريوسيين فى الشرق. غير أن جوليان حقق فى هذا المجال فشلا ذريعا، ذلك أن الهوى عند الفرق المسيحية لم يصل بها إلى قمة المأساة(٥٩)، ولذا كان من اليسير أمام هذا الخطر الذى يتهدد المسيحية بعامة، أن يتناسى الخصوم أحقادهم

أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 5

(55) AMM. MARC. Res gest. XXII, 5

(56) Gwatkin. The Arian controversy. p. 110

(57) SVLp. SEV. Hist. Sac. II, 45

(58) SOCRAT. Hist. eccl. III, 11

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 2

(59) Neander, Christian religion and church, III, p. 74

ولو إلى حين[٦٠] .

وفى التاسع من فبراير ٣٦٢، أذيع فى الإسكندرية مرسوم الإمبراطور بالعفو عن الأساقفة[٦١]، ولم يمض على ذلك اثنا عشر يوما حتى دخل أثناسيوس المدينة على حين غفلة من أهلها، واعتلى كرسى الكنيسة فى نفس اليوم (٢١ فبراير ٣٦٢)[٦٢]. وقد تبع هذا على الفور أن قام أنصاره بطرد الآريوسيين من الكنائس وإعادتها إلى سيادة النيقيين[٦٣]، ولكن الآريوسيين راحوا يعقدون اجتماعاتهم فى الأبنية المهجورة، ورسموا لوقا Lucius خلفا لجورج الكبادوكى[٦٤].

وكان جورج قد عاد إلى الإسكندرية فى ٢٦ نوفمبر ٣٦١ بعد أن غاب عنها ثلاث سنوات وينيف، مزهوا بسيادة الآريوسية[٦٥]، دون أن يدرى بموت الإمبراطور قسطنطيوس واعتلاء جوليان العرش، وكأنما عاد إلى قدره، ففى اليوم الرابع لدخوله الإسكندرية أعلن جيرونديوس Gerontius حاكم مصر نبأ وفاة قسطنطيوس وانتقال السلطة إلى جوليان[٦٦] ، وعلى الفور لدى سماع السكندريين لهذا النبأ، قبضوا على جورج ووضعوه تحت الحراسة المشددة[٦٧] ، وقد أمضى الأسقف الكبادوكى فى سجنه أربعة وعشرين يوما، وفى صبيحة ٢٤ ديسمبر ٣٦١، اقتيد جورج خارج السجن، واشترك كل أهالى المدينة فى هذه المظاهرة[٦٨]، وسحب فى شوارع الإسكندرية حتى إذا أشرف على الموت تم إحراقه، وشاركه نفس المصير دراكونتيوس Dracontius رئيس مصلحة سك النقود[٦٩].

---

(60) Gwatkin. The Arian controversy. p. 111
(61) HIST. ACEPH. VI, 10
(62) Id.; FIST. IND. XXXIV
(63) SOCRAT. Hist. eccl. III, 4
وكذلك SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(64) SOCRAT. Loc. cit.
(65) HIST. ACEPH. V, 7
(66) Ibid. 40
(67) Id.
(68) Id.
(69) Id.

وما أن علم الإمبراطور بأحداث الإسكندرية المروعة، حتى بلغ منه الغضب مبلغا، واستبد به الحنق[٧٠]، وكتب إلى السكندريين رسالة جاء فيها:

"إذا لم تكونوا ترعون حرمة الإسكندر صاحب المدينة التى فيها تحيون، ولا لمن هو أكثر منه قدرا، العظيم المقدس سيرابيس الإله، أفلا يردعكم عن الغى دواعي الإنسانية ونظم الحياة؟! ثم أليس لنا من حق عليكم؟! نحن الذين اختارتنا الأرباب، خاصة المقتدر سيرابيس، لنضع فى أيدينا إمبراطورية العالم... وقد بدا عندما كان غضبكم أحيانا يقترب من الاعتدال، أنكم كنتم تزيدون خطاياكم بما تضيفونه من إساءات قبيحة وشائنة إلى تلك التى اقترفتموها تحت هياج الساعة، ولم يجللكم العار وأنتم تقدمون على ارتكاب هذه الآثام"[٧١].

ومقدمة هذه الرسالة تفصح فى جلاء لأهالى الإسكندرية عن اتجاهات جوليان العقائدية، واحترامه للأرباب وتقديره لرأس الثالوث الإغريقى السكندرى سيرابيس، ثم يقول جوليان فى حديثه إليهم عن الأسقف الكبادوكى.

"... أستحلفكم بسيرابيس أن تخبرونى أى عمل غير عادل أثار سخطكم على جورج؟! وربما سوف تقولون أنه أثار عليكم طيب الذكر قسطنطيوس، ولأنه أقحم الجنود إلى مدينتكم المقدسة ، وأنه نتيجة لذلك قام حاكم مصر بتجريد أعظم معبد للرب من الصور وقرابين الشكران، ومقدساته التى يحتويها، وتجاسر على أن يسلط عليكم فرقه المسلحة عندما لم تطيقوا صبرا على مشاهدة ذلك الدنس الذى ألحقه بالمعبد ذاك[٧٢] ، وحاولتم أن تدفعوا عن الإله الأيدى الرجسة، أو تأخير

وراجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 2

وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 7

وكذلك AMM. MARC. Res gest. XXII, 11

(70) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

(71) Id.

(٧٢) يشير جوليان هنا إلى ما قام به أرتميوس حاكم مصر من مهاجمة أحد المعابد خلال احتفال الوثنيين بعيد لهم ، وقد اشترك جورج فى هذا الهجوم، ونهب الجنود الصور والنذور والزخارف، ونبشوا أرضية المعبد واستخرجوا عظام القرابين وعرضوها فى صور ساخرة ، مما ألهب شعور الجموع الوثنية، ويجعل مؤرخو الكنيسة من هذا الحادث السبب المباشر لمقتل جورج الكبادوكى =

عملية نهب كل ما يتعلق بطقوس الرب المقدسة، وأنه خالف العدالة والقانون والرحمة، لعله فعل ذلك لأنه ربما كان يخشى جورج أكثر من خشية قسطنطيوس. لكل هذه الفعال تملككم الغيظ والحنق على جورج باعتباره عدوا للأرباب".

"ايتونى بكتابى الذى بعثت به إليكم من قبل، وقارنوه بهذه ، كم من الثناء فيه أسبغته عليكم؟! أما الآن، فبحق الأرباب الخوالد لا زال لدى نفس الاستعداد لامتداحكم إلا أنى لا أقوى على ذلك إزاء إساءتكم المرذولة. لقد أوتى الناس من القحة ما جعلهم يمزقون الرجل إربا، كلاب هم، لم يعتريهم الخجل لما أقدموا عليه من عمل بهيمى، ولا هم رغبوا فى تطهير أيديهم من هذا الدنس، إذ كان يجب أن يبسطوها فى وجه الأرباب نقية من الدماء الطاهرة، إنكم بلا أدنى ريب على استعداد لأن تقولوا أن جورج يستحق هذا القصاص العادل وربما أبدينا أيضا موافقتنا على أنه يستوجب أشد عذابا، ولئن كنتم ترون وبالقطع على مسئوليتكم، أنه كان يجب أن يكابد كل هذه المعاناة، فنحن نخولكم الحق فيه، ومع هذا فقد كان لديكم من القوانين ما يحسن بكل منكم أن يخضع لها، بل ولابد من التدليل على احترامها فى السر والعلن(٧٣)".

وأسلوب الرسالة على هذا النحو لا يدع مجالا للشك فى أن جوليان أراد بخطابه إلى السكندريين أن يجىء بهذه الصورة المبهمة الغامضة، فهو لم يفصح صراحة عمن يقصد بالسكندريين، هل يعنى الوثنيين؟ أم يشير إلى المسيحيين؟. فالحديث عن الأرباب وغضب السكندريين لاقتحام معبدهم ونهب كنوزه ومقدساته، وما نتج عن ذلك من مقتل جورج، يعنى فعلا الوثنيين، والإشارة إلى الفظائع التى

= أنظر SOCRAT. Hist. eccl. III, 2

وراجع SOZOM. Hist. eccl. IV, 30

ويضيف ثيودوريت أن جوليان غضب على آرتميوس وأتهمه بممالأة جورج فى ذلك، وصادر أمواله وأعدمه، ولكن الحقيقية أن آرتميوس كان قد قام أيضا بتحطيم عدد كبير من تماثيل الأرباب .

راجع THEOD. Hist. eccl. III, 14

وأيضا AMM. MARC. Res gest. XXII, 11

(73) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

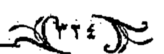
ارتكبها جورج ضد النيقيين التى أفاض أثناسيوس فى وصفها، كما أسلفنا، يصرف الأذهان إلى المسيحيين، وما قاله عن مقتل جورج، وأولئك "الذين أوتوا نصيبا من القحة جعلهم يمزقون الأسقف إربا" يشمل الطائفتين معا.

ولقد كان هذا الغموض واضحا لدى مؤرخى الكنيسة، وألمحوا إلى أن الإمبراطور يلقى بتبعية هذه الأحداث على جمهور المسيحيين ويذكرون أن جوليان تلقى تقريرا يتضمن أن أنصار أثناسيوس هم الذين أقدموا على قتل جورج(٧٤) غير أنهم يؤكدون فى الوقت ذاته أن الوثنيين هم أصحاب المصلحة الحقيقية فى التخلص من الأسقف الكبادوكى(٧٥) .

والحقيقة أن جورج كان قد جلب على نفسه بسياسته سخط المدينة كلها، فيخبرنا سوزومنوس أنه كان مكروها من الجميع، المسيحيين والوثنيين على السواء، كما أن موظفى الإدارة الإمبراطورية فى مصر كانوا يمقتونه، حيث كان يتدخل فى شئونهم ويصدر الأوامر إليهم كما لو كان رئيسهم المباشر. أما الوثنيون فقد أضمروا له الحقد الدفين، ذلك أنه كان قد أصدر قرارا بمنعهم من تقديم الأضحيات، ومن ممارسة شعائرهم وطقوسهم أثناء الاحتفالات بأعياد الأرباب(٧٦) والأحداث التى شهدتها الإسكندرية عقب مجيء جورج إليها فى يونية ٣٥٦ أسقفا، والهجوم الذى قام به مدعما بقوات سباستيانوس القائد على كنائس الإسكندرية فى مايو ٣٥٧، والنقمة التى تعرض لها أنصار أثناسيوس فى الإسكندرية وبقية أنحاء مصر(٧٧) ، جعل النيقيين يتحينون الفرصة للخلاص من هذا الرجل، ولا شك أن المحاولة التى قاموا بها سنة ٣٥٨ وتمكنوا من طرده من خارج الإسكندرية، وسيطروا على الكنائس فى المدينة، فى الوقت الذى كان أثناسيوس قد آوى إليها،

---

(74) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(75) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 7
(76) SOZOM. Hist. eccl. IV, 30
(77) ATHANAS. Apol. De fuga, 6, 7



تصور لنا مدى الكراهية التى يحملها أنصار أثناسيوس للأسقف الغريب. ويقول سقراط "لم يدع جورج فرصة لأحد فى الإسكندرية ليعطف عليه، فقد بدا لأعين كل طوائف المدينة مقيتا(٧٨)"، وزاد الأمر سوءا بالنسبة له أنه كان قد تقدم باقتراح إلى الإمبراطور قسطنطيوس بفرض ضريبة جديدة على المدينة، وربما كان ضجر الناس، كما يذكر أحد المؤرخين، أشد إيلاما عليهم بما يفوق العداء الدينى(٧٩)، ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون السكندريون جميعهم قد اشتركوا فعلا فى القضاء على جورج، وليس من المستبعد أيضا أن يكون جوليان بذكائه وفطنته قد قصد ذلك حقيقة عندما وجه خطابه إلى السكندريين عامة.

وتفيد رسالة جوليان أنه كان قد كتب إلى الإسكندرية قبل ذلك يمتدح مواطنيها، ويخلع عليهم الثناء والتقدير، وقد يكون وسيلة لاجتذابهم إليه وإلى دعوته العقيدية، على أية حال فقد اختتم جوليان رسالته هذه إلى السكندريين بقوله:

"... إذا ما تجاوز إنسان تلك التنظيمات الحكيمة التى وضعت أساسا من أجل صالح المجتمع، فهل يعفى ذلك الباقين من طاعته؟! إنه من حسن طالعكم، أنتم معشر السكندريين أن وقعت هذه الجريمة فى عهدنا نحن الذين احتراما للأرباب، ومن أجل جدى وخالى(٨٠) الذى نحمل اسمه، والذى حكم مصر ومدينتكم، لا نزال تكن تجاهكم شعور الأخوة. وبكل تأكيد فإن هذه السلطة التى لن تسمح لنفسها أن تمتهن، وتلك الحكومة التى تؤازرها القوة والأنظمة القويمة، كان لا يمكن أن تتواطأ مع هذا المجون الجامح ضد رعيتنا، ولا يمكن أن يفلت هذا الجرم وتلك العربدة من تطهير حاسم، وذلك بأن نطبق علاجا ناجحا ورادعا. ورغم كل هذا فإنه فى حالتكم هذه بالذات، ونظرا لما تقدم ذكره من أسباب سوف نكتفى بعلاج

(78) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3

(79) Milne, A history of Egypt under Roman rule p. 90

(٨٠) جد الإمبراطور هو قسطنطيوس كلورس الذى قيصرا للغرب على عهد دقلديانوس ثم أوغسطسا بعد اعتزاله، وهو والد قسطنطين الكبير، أما خاله فكان نائبا عن الإمبراطور من قبل فى الشرق ويحمل أسم جوليان، ويقول سوزومنوس أنه كان شديد المقت للمسيحيين، وأوقع بهم كثيرا من الاضطهاد على غير رغبة الإمبراطور .

راجع THEOD. Hist. eccl. III, 12, 31

وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 7, 8

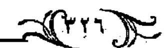
معتدل لا يخرج عن هذا التنديد، والحث على أمل أن تستجيبوا لهذا النوع من العتاب، فنحن، يا أهل الإسكندرية الأغارقة الأصل، نعرف، ونحن على يقين أنكم لازلتم تحملون فى أعماقكم ملامح المجد الذى كان يتحلى به أسلافكم الأمجاد"(٨١).

وهكذا منح جوليان السكندريين عفوا عاما، وشفع لهم عنده أرباب الوثنية والإسكندر مؤسس المدينة، ونفر من أسرة الإمبراطور. ويبدو أن الدافع الحقيقى وراء هذا العفو، رغبة جوليان فى أن لا يصم عهده منذ البداية بالعنف والقسوة، وحتى يظهر لجميع الفرق العقيدية المختلفة التى تضمها الإسكندرية، تسامحا اتسمت به الفترة الأولى من حكمه القصير، وإن كان هذا لم يمنعه من أن يحمل فى رسالته على أهالى الإسكندرية، وينعتهم بأقذع الألفاظ، مبينا لهم أن هذا التسامح لم يأت لضعف من جانب السلطة المدنية أو تهاون وإنما لروح الاعتدال وشفاعة الأرباب.

والآن عاد أثناسيوس ليتربع على كرسى الإسكندرية الأسقفى مرة أخرى، بعد غياب امتد ستة أعوام وينيف، وليستعيد أنصاره الكنائس ثانية، وقد أدركنا أن الأسقف السكندرى طوال فترة نفيه الثالث لم يكن بعيدا عن الأحداث، بل لقد شارك فيها بنفسه حينا، وبقلمه أحايين كثيرة. وكانت كتاباته خلال هذه الفترة تعبيرا دقيقا عن واقع الجدل اللاهوتى، ومجرى الزمن تاريخا، ولم تكن هذه الكتابات تسجيلا معاصرا فقط لوقائع الأيام ساعتئذ، ولكنها كانت جزءا هاما وجوهريا من عمد فكر أثناسيوس وسياسته تجاه الدولة والعقيدة السائدة.

وكان أثناسيوس عندئذ يقترب من عامه السبعين، تتوق إلى الهدوء نفسه وتتوخى السلام، يريد أن يجمع على الوحدة الكنيسة التى طال انقسامها، وعصفت بها حمى الجدال، وكانت رسالته "عن المجامع" بداية هذه المرحلة الجديدة والأخيرة. وفى سبيل التطبيق العملى بدأ على الفور عقب عودته يتخذ السبل الكفيلة بتحقيق هذا السعى، فاشترك مع يوسيبيوس أسقف فرسالى فى الدعوة لعقد مجمع

(81) SOCRAT. Hist. eccl. III, 3



كنسى التأم عقده فى الإسكندرية سنة ٣٦٢[٨٢] ، ويخبرنا سقراط أن لوكيفريوس أسقف كاليارى Cagliari ويوسيبيوس أسقف فرسالى تشاورا أثناء عودتهما من نفيهما فى الوسائل التى يمكن أن تحول دون إهمال القانون النيقى، وقد قر رأيهما على أن يذهب لوكيفريوس إلى إنطاكية مباشرة، للبحث عن حل الشقاق القائم فيها، وأن يأتى يوسيبيوس إلى الإسكندرية للقاء أثناسيوس، ومن ثم كانت فكرة عقد مجمع كنسى فى الإسكندرية[٨٣] .

وقد حضر هذا المجمع واحد وعشرون أسقفا، كان من بينهم عدد كبير من الأساقفة الذين شملهم قرار العفو الجولياني، هذا بالإضافة إلى عدد ليس بالقليل من الأساقفة المصريين الذين قاسوا العذاب على يد جورج[٨٤] ، وعلى الرغم من أن مسائل العقيدة عادت تفرض نفسها على مجمع الإسكندرية، إلا أن الانشقاق الحادث فى إنطاكية كان المسألة الهامة فى جدول أعمال المجمع، وقد سيطر على الجميع منذ البداية روح الاعتدال، فقد رأى أثناسيوس أن النصر لا يمكن أن يتحقق وسط متاهات اللاهوت عن طريق إذلال أولئك الذين لديهم الاستعداد للسلام، وأن قضية المسيح لا يمكن أن تحقق رواجا بكسر الغابة المرضوضة[٨٥] .

تعرض مجمع الإسكندرية لمناقشة عدد من المشكلات التى تعترض الكنيسة والمسيحية، يأتى فى مقدمتها العمل على توحيد المليتيين واليوستاتيين فى أنطاكية، ويمثل الفريق الأول الأكثرية الأرثوذكسية التى كان يؤيدها باسيليوس الكبير، كما

(82) Hefele. op. cit. I, 2, pp. 963-966
وأنظر كذلك SOCRAT. Hist. eccl. III, 7
(83) THEOD. Hist. eccl. III, 2
وراجع SOZOM. Hist. eccl. V, 12
SOCRAT. Hist. eccl. III, 2-5
(84) ATHANAS. Tom. Ad Ant. I, 10
(85) Robertson, op. cit. p. 58

يتضح من رسائله العديدة إلى أثناسيوس[٨٦] ، وأيضا إلى مليتيوس زعيم هذا الفريق[٨٧] . أما اليوستاثيون فهم الأقلية النيقية ويرعاهم الآن باولينوس، ويرفضون المصالحة مع المليتيين على النحو الذى بينا آنفا. وهم الفريق الذى كان يتمسك به أثناسيوس ويميل إليه، وكان يعنى أثناسيوس والنيقيون فى المقام الأول أن يتم اللقاء بين الفريقين الأرثوذكسيين، حتى يشكلا بذلك جبهة واحدة تستطيع أن تتصدى للآريوسية التى تسيطر على إنطاكية متمثلة فى يوزيوس أسقف المدينة.

وقد حاول هذا الأخير أن يكسب صداقة اليوستانيين، أو على الأقل يضمن عدم اتحادهم مع أتباع مليتيوس أو بالأحرى يريد تعميق هوة الشقاق بينهما، ولهذا سمح لهذه الأقلية أن تمارس شعائرها فى إحدى الكنائس الصغيرة بالمدينة، أما مليتيوس وقد عاد من منفاه بناء على مرسوم جوليان، ووجد الصورة على هذه الشاكلة، فقد راح وجماعته يعقدون اجتماعاتهم خارج أسوار المدينة[٨٨]. وعليه فقد تضمنت رسالة المجمع، والتى بعث بها أثناسيوس إلى الأنطاكيين Toums ad Antiochenos والتى استقينا منها كل معلوماتنا عن أحداث المجمع، الدعوة الصريحة إلى المصالحة بين مليتيوس وباولينوس، وجاء فيها:

"... لما كان كثيرون يرغبون السلام وإيانا، خاصة أولئك الذين يجتمعون فى الكنيسة القديمة، وأولئك الذين انشقوا على الآريوسيين، فلتدعوهم إليكم، ولتستقبلونهم كآباء يلقون ولدانهم، معلمين أوصياء، أدخلوهم فى شركة باولينوس وشعبه. لا تطلبوا إليهم أكثر من لعن الآريوسية والاعتراف بالإيمان الذى أقره الآباء فى نيقية، وليلعنوا أيضا أولئك الذين يقولون أن الروح القدس مخلوق. نناشدكم أن يكون الوئام قائم على هذه الشروط. لا تطلبوا إليهم أكثر مما تحتمل منهم الطاقة"[٨٩].

ويتصل اتصالا وثيقا بأمر هذه المصالحة المسألة الثانية التى ناقشها المجمع،

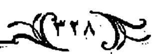
---

(86) BASIL, Epp. LXI, LXVI, LXVII LXIX, LXXX, LXXXI

(87) BASIL. Epp. LVII, LXVII, LXXXIX, CXX, CXXX, CCXVI

(88) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 13

(89) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 3, 4



وتتناول موقف الكنيسة من أولئك الآريوسيين الذين يرغبون فى العودة إلى الجانب النيقى. وقد كان الحزب المتطرف يصر على أن يمروا بمرحلة من العقوبة تمثل خطى الندامة والتوبة، بالإضافة إلى الحرمان من الوظائف الاكليروسية. والحقيقة إن هذه الجماعة تمثل نفرا من أساقفة مجمع ريمينى(٩٠)، الذين تبينوا بعد التوقيع على مرسوم نيقا أنهم ابتعدوا عن الإيمان النيقى، وقد جاء فى شأن هؤلاء:

"... لقد تلقفت مسامعنا أنباء تشير إلى أن جماعة من الذين من قبل اعتزلونا بدافع الحقد والغيرة يرغبون الآن فى السلام، بينما آخرون من الذين ذاقوا مرارة الوفاق مع الآريوسيين البلهاء، يتطلعون إلى شركتنا، لذا رأينا حسنا أن نكتب إلى نيافتكم ما تمخض عنه فكرنا، والأحبة يوسيبيوس وأستريوس، أنا لنتهلل طربا من هذه البشائر، رافعين أكف الضراعة ندعو أن كان لا يزال هناك منهم أحد عنا بعيد، وإذا كان منهم من يراوده الهوى من اتباع الآريوسيين، فليهجر الساعة ضلالهم"(٩١).

وهكذا رحب المجمع بأولاء الأساقفة العائدين إلى الإيمان النيقى. وقبلهم بنفس الشروط التى وضعها أساسا للوحدة فى إنطاكية(٩٢) . وقد تضمنت الرسالة أيضا إقرار المجمع لقانون الإيمان النيقى، وشجبت "مسودة" المرسوم التى وضعت فى سرديكا على شكل تفسيرات وشروح لمرسوم نيقية، خشية أن يفتح ذلك الباب أمام محاولات جديدة لإثارة الشكوك من حوله(٩٣) . ومن خلال هذا الاعتدال الهادئ الذى يبدو من هذه الوثيقة، نلاحظ أن أثناسيوس لم يعد ذلك المحارب العنيد الذى يناضل من أجل النصر والفوز وإنما أصبح، حسب تعبير المؤرخ روبرتسون، وكأنه المنتصر الذى يمسح ميدان المعركة ويضع شروط السلام(٩٤)، وبهذا كان المجمع هو أولى الثمار الناضجة لعمل أثناسيوس "عن المجامع" وكان أيضا الخطوة الجاسمة التى وضع بها أثناسيوس نفسه على رأس القوى التى تجاهد من أجل

(90) Kidd. op. cit. II, p. 210
(91) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 1
(92) RUFIN. Hist. eccl. I, 18(p. L. XXI 498)
(93) ATHANAS. Tom ad Ant. 5
(94) Robertson, op. cit. p. 58

وحدة الكنيسة فى النصف الشرقي من الإمبراطورية[٩٥]، وبهذه الخطوة أضحت النيقية قادرة على أن تتصدى للسلطة السياسية الباقية للآريوسية على عهد الإمبراطور فالنز من بعد.

والحقيقة أن مجمع الإسكندرية كان تتويجا لعمل وجهد أثناسيوس[٩٦]، وكان فى الوقت ذاته فرصة لالتقاء أولئك الذين يرغبون فى الوحدة مع العقيدة النيقية[٩٧] ولكن الذى لا شك فيه أيضا، أنه إذا كانت قرارات المجمع قد قوبلت بالارتياح العام من جانب جميع أعضائه بما يمثلونه من تطرف واعتدال، فإن ذلك كان راجعا، بالإضافة لما قام به أثناسيوس، إلى شعور الكنيسة المسيحية بضرورة التستر على خلافاتها أمام الخطر الواحد الذى يهددها متمثلا فى سياسة جوليان الوثنية[٩٨] .

وكان أثناسيوس يصر دائما على أن يذكر الأساقفة بما تعرض له من ويلات النفى والتشريد على يد الخصوم، ولا يخفى علينا أن الهدف الأساسي من وراء ذلك، هو أن يضمن باستمرار تأييد هؤلاء الأساقفة وولاءهم، فيذكر سوزومنوس أن الأسقف السكندرى انتهز فرصة عقد هذا المجمع ليقرأ على شهوده ذلك الدفاع الذى كتبه يبرر فيه هروبه Apologia de fuga من قبضة قوات الإمبراطور الراحل قسطنطيوس[٩٩] .

حمل مجمع الإسكندرية يوسيبيوس وأستريوس رسالته هذه إلى باولينوس الأنطاكى[١٠٠] ، فلما أتيا إنطاكية وجدا أن هوة الشقاق قد ازدادت اتساعا، ذلك أن لوكيفريوس قد سبقهما إلى المدينة، ولما كان متطرفا فى نيقيته فقد رفض أى محاولة للتقارب مع مليتيوس، ولهذا قام لفوره ورسم باولينوس، زعيم اليوستاثيين،

(95) Id.

(96) Id.

(97) Neander, Christ. Relig. And church, IV, p. 12

(98) Kidd, op. cit. II, p. 209

(99) SOZOM. Hist. eccl. V, 12
وأيضا SOCRAT. Hist. eccl. III, 8

(100) ATHANAS. Tom. Ad. Ant. 2

أسقفا على المدينة [١٠١] ، وهكذا أضحت إنطاكية تحمل فوق كرسيها الأسقفى ثلاثة رجـال، يوزيـوس الآريوسـى، ومليتيوس زعيم المعتدلين، وباولينوس اليوستاتى الـنيقى، وكـان هـذا فى حـد ذاتـه هدما لما جهد أثناسيوس لإقراره فى مجمع الإسكندرية من سياسة الاعتدال، وكان فى الوقت ذاته نكوصا من لوكيفريوس الذى أرسل مندوبا عنه لحضور هذا المجمع، وأعلن التزامه مسبقا بكل ما يتخذه المجمع مـن قرارات [١٠٢] وقد تملك يوسيبيوس الحزن لهذا الذى يرى فى إنطاكية نتيجة لهـذا الاخـتيار السـيئ وهو الذى أبدى امتعاضا إزاءه، غير أن احترامه لزميله لوكيفريوس دفعه إلى التزام الصمت تجاه ما حدث[١٠٣] . ولقد بذل يوسيبيوس جهدا فائقـا فى محاولة يائسة لرأب هذا الصدع ولكن دون جدوى، ومن ثم ارتحل عائدا إلى بيعـته، ورفض أن ينضم لأى من فريقي أنطاكية، وأبدى رأيه عند ارتحاله فى أن كل هذه الأمور يجب أن تعرض فى مجمع يدعى إليه الأساقفة[١٠٤] .

وعـندما أدرك لوكيفـريوس أن رسـامته لباولينـوس قـد أضحت لعينى يوسـيبيوس شيئا غير مقبول، عد ذلك إهانة موجهة لشخصه، فتملكه الغيظ واستبد به الحنق، ولم يقتصر فقط على أن سحب نفسه من شركة يوسيبيوس، ولكنه راح فى سـورة الخصومة التى سيطرت عليه يدين كل قرارات مجمع الإسكندرية[١٠٥] ، ففصـل نفسه بذلك عن الكنيسة، وأضاف إلى أحزانها شجنا جديدا، حيث تبعه نفر مـن الأساقفة كونوا فريقا آخر حمل اسمه، ويعلق سقراط: "لقد أضاف لوكيفريوس إلى هذه الأحزان فصلا جديدا"[١٠٦] .

---

(101) SOCRAT. Hist. eccl. III, 6, 9
كذلك SOZOM. Loc. cit.
وأيضا THEOD. Hist. eccl. III, 2
(102) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
وأيضاً SOZOM. op. cit. V, 13
(103) SOCRAT. Hist. eccl. III, 9
أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 13
(104) SOCRAT. Loc. cit.
(105) Id.
(106) Id.

والحقيقة أن لوكيفريوس كان متعصبا في نيقيته غير قادر على إدراك الخلافات اللاهوتية بين الفرق المتخاصمة، ولعل اعتراضاته على هيلاري ومجهوداته التي قام بها في سبيل التوفيق بين الفرق المختلفة، تظهر عجزه الكامل وافتقاره إلى فهم المسائل اللاهوتية، وأنه كان يركز كل حنقه وسخطه على الأشخاص دون الفكر والعقيدة(١٠٧).

وفي رحلة العودة التقى يوسيبيوس الفرسالي في إيطاليا بهيلاري أسقف بواتييه، وكان هذا الأخير قد عاد من منفاه قبل يوسيبيوس(١٠٨) ، ووحد الرجلان جهودهما لتثبيت الإيمان النيقي لدى أساقفة غالة وإيطاليا(١٠٩) ، وشهد نصف الإمبراطورية الغربي في هذه الفترة عددا من المجامع الكنسية في غالة وأسبانيا وإيطاليا وآخايا Achaia كان الهدف الأساسي الذي سعت إليه جميعها القضاء على كل ما يمت إلى مجمع ريميني، والتخلص بالتالي من بقايا الآريوسية في الغرب(١١٠).

أدرك جوليان أن سياسة التسامح التي انتهجها حيال الأساقفة قد آتت عكس ما كان يتوقع، وبدلا من أن يشهد بين تلك الفرق صراعا عنيفا كما كان يأمل، وجد أن أقاليم الغرب الإمبراطوري قد راحت تضمد جراحاتها التي أصيبت بها منذ ريميني، وفي الشرق تسعى الإسكندرية جاهدة لتعيد السلام إلى الكنيسة، خاصة وقد أعطى باولينيوس الانطاكي توقيعه على قرارات مجمع الإسكندرية(١١١) والفرق الآريوسية تقترب وتتباعد سعيا وراء الاستقرار، أتباع أكاكيوس يقتربون من مليتيوس، وأنصاف الآريوسيين يقفون وسطا بين النيقيين والأنومويين(١١٢).

---

(107) Robertson, op. cit. p. 58
(108) SOZOM. Hist. eccl. V, 13
(109) Ibid. 41
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. eccl. III, 10
(1!0) ATHANAS. Ep. Ad Afros, 1
أنظر له أيضا Ep. Ad Epict
وكذلك Ep. Ad Rufin
(111) ATHANAS. Tom. Ad Ant. 11
(112) Gwatkin The Arian controversy, p. 115

على أن الشيء الذى أحدث فى نفس جوليان ثورة عارمة، أن رأى أثناسيوس يعتلى كرسي الإسكندرية الأسقفى ويعقد المجامع ويترأس الأساقفة ويبحث عن السلام فى أنطاكية، ولكن ما كان أشد إيلاما لنفس الإمبراطور أن يرى عددا كبيرا من الوثنيين، خاصة نساء الطبقة الأرستقراطية قد تحولن إلى المسيحية(١١٣)، ولذا أيقن أن مجرد وجود أثناسيوس آمنا طليقا، كفيل بالقضاء على كل مشروعات الإمبراطور العقيدية وآماله(١١٤)، ويقول جيبون أن جوليان الذى كان يحتقر المسيحيين قد خص أثناسيوس بكراهية خاصة وخالصة، ومن أجله سن تفرقة تعسفية تجافى على الأقل تلك الروح التى أملت عليه تصريحاته السابقة(١١٥)، فقد كتب جوليان رسالة إلى الإسكندرية يعلن فيها أن القرار الذى أصدره بخصوص عودة الأساقفة المنفيين، كان يعنى العودة إلى الديار فقط دون استعادة كراسيهم الأسقفية(١١٦)، وهذا القرار يعنى فى حقيقة أمره تجريد الأساقفة من أية سلطة يمكن أن يناوئوا بها الدولة، ويبدو أن هذا التفسير للقرار من جانب الإمبراطور، قد جاء نتيجة لما رآه جوليان من الاستقبالات الشعبية الحافلة التى أبدتها جموع الكنيسة ترحيبا بعودة الأساقفة المنفيين هؤلاء.

وقد شفع حاكم مصر ذلك بإذاعة مرسوم إمبراطوري جديد يأمر أثناسيوس بمغادرة الإسكندرية(١١٧).. ويبدو أن أهالي الإسكندرية قد قدموا احتجاجا إلى الإمبراطور ضد هذا الإجراء ولكن دون جدوى(١١٨) بل إن جوليان كتب من جديد رسالة فى أكتوبر ٣٦٢ إلى نائبه في مصر أوليمبوس Olympus يهدده فيها

(113) SOZOM. Hist. eccl. V, 15
(114) THEOD. Hist. eccl. III, 5
(115) Gibbon. op. cit. II, 500
(116) SOZOM. Loc, cit.
(117) FEST. IND. XXXV
وراجع HIST. ACEPH. VII, 11
(118) Neander, Christ. Relig.and church, III, p.76

بغـرامة ماليـة باهظة إذا لم يرحل أثناسيوس قبل أول ديسمبر، لا عن الإسكندرية فحسـب، بل عن مصر كلها، وإن شيئا لا يمكن أن يرضى عنه الإمبراطور وينقذ أثناسـيوس، إلا أن يغادر الأسقف مصر بأسرها(١١٩) ، وقد ذيل جوليان رسالته هذه بخطـاب إلى السـكندريين تتضمن إلى جانب امتداح سرابيس والأرباب طعنا فى المسيح وأثناسيوس(١٢٠) .

ولا شك أن هذه اللهجة العنيفة التى تبدت فى رسائل جوليان، والإصرار على طرد أثناسيوس من مصر كلها، ولما يمضى على عودته إليها من رحلة النفى الطويلة إلا ثمانية أشهر فقط(١٢١) ، ليدل دلالة واضحة على مدى الكراهية التى يضمرها الإمبراطور فى نفسه للأسقف السكندرى(١٢٢) ، الذى كان يمثل، فى نظره، فى مصر سلطة أقوى من سلطته نفسه فيها(١٢٣) ، ويعلق نياندر Neander على ذلك بقوله، إن الإمبراطور عندما أصدر قراره السماح للأساقفة بالعودة، كان يرمى بقراره هذا إلى غرض محدد، أو ربما أعطي للمرسوم بعد ذلك تفسيرا معينا حتى يمنح نفسه الحق فى التصرف بحرية ضد أولئك الأساقفة الذين يبدو نفوذهم فى الجموع وتأثيرهم قويا، ربما يعادل نفوذ الإمبراطور شخصيا أو يفوقه، إلى هذه الطائفة من الاكليروس ينتمى الأسقف السكندرى أثناسيوس(١٢٤) ، ويضيف أن جوليان برسالته الأخيرة يبدى بعض الدوافع السياسة وراء نفى أثناسيوس حيث يقول: "إنه لمنتهى الخطورة أن يكون على رأس الناس رجلا داهية متبرماً مثل أثناسيوس"(١٢٥) . وقد امتد قرار النفى ليشمل أنصار أثناسيوس أيضا، ولهذا

(119) SOCRAT, Hist. eccl. III, 13
(120) Gibbon, op. cit. II, p. 510
وراجع Kidd. op. cit. II, p. 208
(121) HIST. ACEPH. VII, 10
(122) GREG. NAZ. Orat. XXI, 32
(123) Robertson, op. cit. p.59
(124) Neander, Christ. Relig. And Church, III, p.75
(125) Neander,Christ. Relig. And Church, III, p. 77

صـــدرت الأوامـــر بإبعـــاد قسيســـي الكنيسة السكندرية بولس واستريقيوس[١٢٦] Astericius.

أمـــام هذا الإصرار من جانب الإمبراطور، أحنى أثناسيوس رأسه للعاصفة وغادر الإسكندرية فى ١٣ أكتوبر ٣٦٢[١٢٧] بعد أن عهد بأمور الكنيسة إلى أكثر أصـــدقائه حماســـة لـــه وحبا لشخصه[١٢٨]. ولما راح خلصاؤه ينتحبون من حوله التفت إليهم مودعا يطمئنهم. "أحبائى دعونا ننسحب بعض الزمن، إن هى إلا سحابة سرعان ما تمضى[١٢٩]. وعلى الفور ركب أثناسيوس النيل مصعدا يبتغى أصدقاءه المخلصـــين، رهـــبان مصر، ويروى مؤرخو الكنيسة قصة طريفة[١٣٠] عن رحلة أثناسيوس هذه، يبدو منها أن الإمبراطور جوليان لم يكتف بطرد أثناسيوس فقط، بل طـــلب القبض عليه حتى يأمن جانبه ويتخلص منه، ولعل الإمبراطور أدرك بفطنته مـــا يمكـــن أن يثيره أثناسيوس فى وجهه من المتاعب إن هو التجأ إلى هذا الجيش الضـــخم مـــن الرهـــبان، أولئك الذين يتعصبون لإيمانهم بشكل لا يعرف هوادة،

---

(126) HIST. ACEPH. VII, 11

(127) FEST. IND. XXXV; Id.

(128) SOZOM. Hist. eccl. 15

وراجع THEOD. Hist. eccl. III, 5

(129) SOCRAT. Hist. eccl.III, 14

وراجع أيضا SOZOM. Loc. cit.

وكذلك THEOD. Loc. cit.

(١٣٠) تقـــول هذه القصة أن أثناسيوس عندما أبحر فى النيل بقارب أعد له، جد جنود الإمبراطور فى أثره، فـــلما أدرك أنهـــم قـــاب قوسين أو أدنى منه، أمر رفاقه أن يديروا وجهة القارب ثانية إلى الشمال، وســـرعان ما التقى بالعيون التى تبحث عنه، وتقدم أحد الجنود ليسأل من فى القارب عن أثناسيوس، وأجاب الأسقف السكندرى بنفسه، أنه ليس بعيدا عنهم. وراح الجنود يضربون صفحة النيل ما وانتهم الـــريح والمجداف، بينما عاد أثناسيوس ثانية إلى الإسكندرية ليمضى فيها بضعة أيام حتى غفلت من حوله العيون، فانطلق مسرعا إلى طيبة ليبدأ بذلك فترة نفيه الرابع ...

انظر SOCRAT. Loc. cit.

وراجع THEOD. Loc. cit.

وأيضا FEST. IND. XXXV

وسوف يشعلونها بالتالى حربا على الوثنية وجوليان، خاصة وهم يعلمون أن أباطرة الوثن كانوا من بين العوامل الأساسية التى دفعت بهم إلى الصحراء.

وفى نفس الوقت الذى كان جوليان ينهج فيه هذا السبيل تجاه الأسقف السكندرى ، كان يحاول جاهدا التقرب إلى أحد رجال النيقية المعتدلة التى أخذت تظهر فى آسيا الصغرى، وفى كبادوكيا على وجه التحديد، ممثلة فى جريجورى النازيانزى، وباسيليوس القيسارى، رجلى كبادوكيا الشهيرين. وكان باسيليوس آنذاك أحد رجال كنيسة قيسارية الكبادوك، ولم يكن غريبا لدى جوليان، فقد كان رفيقا له فترة مكثه دارسا فى أثينا، وكلاهما يعرف الآخر عن قرب. ولكن يبدو أن باسيليوس أعلن صراحة امتعاضه من معاداة الإمبراطور للمسيحية وتمسكه بالأرباب، وضاق ذرعا بسياسة الاضطهاد المهذب الذى انتهجها جوليان، غير أن الإمبراطور لم يعدم وسيلة لضم باسيليوس إلى صفه، أو على الأقل لضمان سكوته، فكتب إليه رسالة[١٣١] تتسم بالود والاحترام، حدثه فيها عن الجهد المضنى الذى يتحمله فى إدارة الإمبراطورية، وأنه يختلس من وقته بضع لحظات يسيرة، يسرى عن نفسه فيها، ويبين أنه لا يعرف ولا يحب رياء البلاط والمداهنة، وفى نهاية الرسالة كتب يقول:

"... إننا لا نعاتب أو نؤنب إلا لداع دعا، ولكن إن أحببنا أعطينا الحب كله، على أنى أكتب لأبرهن لك عن سعادتي لرؤيتك، فرجل مثلك حكيم سوف يكون أكثر حبورا لأن يجعل منى خيرا، أكثر من أن يسبب أى ضيق، ومن ثم، فكما أخبرتك، لا تضيع وقتا، ولتسرع بالارتحال إلي، وبعد أن توفى هذه الزيارة لي، سوف تمضى فى رحلتك أنى شئت، مع أحلى الأمانى".

وعلى هذا النحو وجه الإمبراطور الدعوة إلى باسيليوس لزيارته، بعد أن راح يمتدح خلاله والسجايا، وهذا السلوك يشكل جزءا طبيعيا من سياسة جوليان تجاه خصومه المسيحيين، غير أن باسيليوس لم يدخر وسعا فى إطلاق العنان

(131) IUL. Ep. Ad Bas. (BASIL ep. XXXIX)

للســانه قدحــا فى الإمــبراطور، ضاربا عرض الحائط بتسامح جوليان، ولما كان جوليــان كما يحدث عنه جريجورى النازيانزى "سريع الغضب شديد الانفعال"(١٣٢) فقــد أثاره مسلك باسيليوس، ووجه إليه فى يونية ٣٦٣ رسالة ثانية(١٣٣) كتبها من سخطه، جاء فيها.

"بيــنا أنــا أظهر للزمان دماثة خلق ولين جانب، طباعا لازمتنى منذ جئت إلى الحيــاة، فاني قد صيرت كل من تظلهم الشمس طوع أمري. أنظر هذى قبائل البرابرة جميعــا قــد أتــيت تضـــع عند قدمي كل عطاياهم والمنح، وهؤلاء هم الساجاداريون Sagadarae، القاطــنون خــلف الدانــواب، الــتائهون عجبا بوشمهم البراق وخيلاء، ويدانــون الأناسي من بعيد، وحوش هم وغرائب كائنات، هم الآن يحبون ذلا عند قدميّ يودعــون أنفسهم رهائن طاعة مشيئتى وعليهم أفرض السلطان. ولكن لدى ما هو أهم، إذ يجــب أن أسير لتوى إلى فارس لأدحر ذلك "السابور" وأقهر سليل داريوس على أن يقــدم لي الجزية عن يد وهو صاغر. لأقحلن أرض الهنود والسراكنة، وليعرفن الجميع سلطانى، وليمسين الكل لى عبيدا".

والمغــزى من هذا الحديث واضح، فجوليان يستعرض أمام باسيليوس قوته وقواتــه، حــتى يدرك أنه لن يحول بينه وبين نقمة الإمبراطور حائل، وهو تعبير صــارخ عن المرارة التى اعتملت فى نفس الإمبراطور نتيجة الإساءة التى ألحقها بها رجل كبادوكيا، هذا بالإضافة إلى أن الرسالة تفصح عن الطموح الذى تمتلئ به نفــس الإمــبراطور، ومــدى ما يدور بخلده من السيادة على أقاليم جديدة يضمها للإمــبراطورية، ولعله مما يؤكد هذا أيضا ما يذكره سقراط أن جوليان كان يؤمن تمامــا بما لقنه إياه ماكسيموس الفيلسوف حول المجد والعظمة(١٣٤)، غير أن القسم الأخيــر من الرسالة توجه به الإمبراطور إلى باسيليوس مباشرة وأفصح عن خبئ نفسه، فقال:

(132) GREG. NAZ. Orat. IV, 55-56(p. G. XXXV, 578-579)
(133) IUL. Ep. Ad Bas. (BASIL. Ep. XL)
(134) SOCRAT. Hist. eccl. III, 21

ويضــيف سـقراط " أنه تبعا لما يؤمن به جوليان عن فيثاغورس وأفلاطون من تناسخ الأرواح، جعله يعتقد يقينا أن روح الإسكندر المقدوني حالة فيه، أو أنه هو نفسه الإسكندر فى جسد ثان ".

"... ومع ذلك فأنت تعرف الحكمة وراء هذا، إنك تتدثر بالتقوى، ولكنها فى الحق رداء الحمقي، فأنت فى كل مكان تخرج لسانك ضدى افتراء على، بأنى لست بالأرجوان جديرا، ألا تدرى أنى حفيد قسطنطين؟ ألا فلأعرفك ذلك ولكن مع هذا لن أغير شعورا حملته لك يوما، ولا ما أكننته لى أنت فى الأيام الخوالي ونحن بعد فى الصبا. ولقد شاءت إرادتنا الرحيمة أن تأمرك بإعداد ألف جنيه ذهبا، وأن تقدمها لى عند مروري بقيسيارية فى طريقي إلى الحرب الفارسية التى استحث خطوى لها الآن، فإن أبيت فلأدمرن قيسارية ولأمحون كل تلك المنشآت التى منذ القدم زانتها، ولأقيمن على أطلالها معابد للأرباب وأربابا، ولأرغمن الجموع، كل الجموع على أن تذل لإمبراطور الرومان، أوصيك حقا أن ترسل على يد بعض رسلك الصدوقين الذهب المشار إليه، بعد أن تقوم بعده وميزانه وختمه بخاتمك، فإذا ما فعلت ذلك غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، بادر إذن بالرضى وإلا فلن يفيد الندم إذا الوقت مضى، لقد تعلمت أن أعرف وأن أدين ما لأول مرة أطالعه".

جاء هذا الجزء الأخير من الرسالة تهديدا مباشرا لباسيليوس وقيسارية، وتمثل أيضا لرجل كبادوكيا إهانة شخصية، ومن ثم أمسك باسيليوس قلمه ليكتب إلى الإمبراطور ردا على رسالته، حمل فيه على جوليان قدر ما وسعته الطاقة جاء فيه:

"أعمالك البطولية لحاضرك الزاهر دنية، وهجومك على، أو بالأحرى على نفسك، تافه حقير، وعندما يأخذني التفكير فيك وأنت تتدثر بالعباءة الإمبراطورية، والتاج على مفرق رأسك الذى تجلل بالعار، والدين يتوارى، وإمبراطوريتك تظللها لفضيحة، وتمجها النعماء، تتملكني رعدة. وأنت وقد علوت وبلغت المرتقى أسلمت نفسك لشياطين الغدر ومردة الدناءة، فأوردتك هذا المورد ورحت تسمو بنفسك فوق كل بنى البشر، بل ضد الله، وتمتهن كنيسته، أم الجميع والمرضعة، بأن ترسل إلى أشد الناس حقارة، ليأمروني أن أقدم لك هذا الذهب، ولم تتملكني الدهشة لمقداره، وإن كان ذلك شئ عسير، بل جعلني أذرف الدمع السخين عليك وأنت تهرول صوب الضياع. إن نفسي تحدثني كيف كنا نتلقى سويا دروس الخيرية والقداسة،

كلانـــا تعمـــق فى الكتاب المقدس ولم يغب عنك شيء، أما الآن فقد أمسيت ضالا وضــيقت على نفسك بهذا الكبر، سموك هذا الرصين لم يكتشف للوهلة الأولى أنى لـــم أكـــن أعيـــش وسط ثروة وارفة، حتى تجئ اليوم لتطلب منى أن أقدم لك هذا الذهـــب ... أنى لا أمـــلك فى الواقـــع ما يقيم أودى. فن الطهى تحت سقفى مات، وســـكين خـــادمى لـــم تلمس أبدا ذبيحة، أنا نقتات أوراق الشجر مع القديد ورديء الخمور. ومن ثم لم تتبلد بالشراهة عقولنا ولا كان الإفراط كل همنا".

"... إنـــه لشـــيء خطير لشخص مثلى أن يخاطب الإمبراطور، ولكن الأمر سوف يكون أكثر خطورة عندما تخاطب الإله وليس هناك وسيط. إن كل ما قرأته يبدو أنك لم تدركه، وإذا فهمت تدان"(١٣٥) .

لا شـــك أن الإمبراطور قد استبد به الغضب لما جاء فى هذه الرسالة، وزاد مـــن ســـخطه أن أهـــالى قيســـارية الكبادوك، أقدموا على تدمير معبد آلهة الحظ Fortuna، ولكـــن يبدو أن ضرورات الحرب الفارسية العاجلة التى كانت تستدعى ارتحال جوليان سريعا، لم تترك له الفرصة للتوقف فى قيسارية ومعاقبة باسيليوس، فـــاندفع جوليـــان مسرعا قاصدا الشرق، وفى ١٨ يوليو ٣٦٢ وصل أنطاكية(١٣٦) وهـــناك كـــانت تحدوه الرغبة فى أن يقف على شعور الأهلين نحوه والعقيدة التى يؤمن بها(١٣٧) ، وربما كان جوليان يعلق على إنطاكية بالذات آمالا كبارا، ذلك أنها كـــانت، كمـــا يقول داونى Downey المركز القديم للهللينية بمعابدها الشهيرة فى دافـــنى، والألعـــاب الأوليمبية المحلية، كما أن صديق جوليان، الفيلسوف ليبانيوس، كان قد استقر آنذاك في أنطاكية. ولما كان برنامج عمله يضمن التقرب إلى اليهود، وكانت المدينة تضم جالية كبيرة منهم، فقد عمل على تقريب زعمائهم، هذا إلى أن ليـــبانيوس كان قريبا إلى جماليل Gamaliel ابن حاخام اليهود، ولذا كانت إنطاكية

---

(135) BASIL. Ep. LXI
(136) AMM. MARC. Res gest. XXII, 14
(137) SOCRAT. Hist. eccl. III, 17

تمثل لجوليان نقطة هامة وأخيرة فى سبيل إحياء الوثنية [١٣٨]، وعلى الفور أصدر جوليـــان أوامره بأن تفتح جميع المعابد الوثنية فى أنطاكية، وأن تقدم على مذابحها الأضحيات إرضاء للأرباب[١٣٩].

غير أن جوليان أصيب فى إنطاكية بخيبة أمل بالغة، وأصابه القنوط بعد أن رأى انصـــراف الناس عن عبادة الأرباب إلى المسيحية، ثم زاد الأمر سوءا ذلك الحريق الذى اندلع فجأة فى معبد الإله أبوللو فى ضاحية دافنى بأنطاكية[١٤٠]، وقد أيقن جوليان أن سياسته فى إعادة الوثنية قد أضحت سرابا.

وقـــرب نهايـــة عـــام ٣٦٢ وفد على جوليان فى إنطاكية رسل ملك فارس، تطـــلب إنهـــاء الحـــرب والدخـــول فى مفاوضــــات لإنهـــاء هذا النزاع، غير أن الإمبراطور طرد هذه السفارة بفظاظة قائلا: "عما قليل سترونى ومن ثم فليس هناك

---

(138) Downey. Ancient Antioch, pp. 162-164

وراجع كذلك للمؤلف نفسه A history of Antioch, pp. 381-382

(139) SOCRAT. op. cit. III, 18

(١٤٠) يروى مؤرخو الكنيسة قصة لا تخلو من طرافة حول هذه الحادثة، فيذكرون أن الإمبراطور رأى أن يستلم وحى الإله أبوللو فى دافنى Daphne ضاحية أنطاكية، قبل أن يخرج لحرب فارس، وأعلن كاهن المعبد وناطق الوحى للإله أبوللو أن الإله لا ينطق بشيء قبل أن يتم تطهير المعبد من الدنس، ولمـــا راح يتساءل عما يعنيه ذلك، أجابه الكاهن أن الإله غاضب لأن المقبرة تضم رفات أحد رجال الكنيســـة المســـيحية، وكان القيصر جاللوس عندما ولي أمر المشرق واتخذ من إنطاكية مقاما، أقام داخـــل معـــبد أبولـــلو مكانـــا للصلاة ونقل إليه جثمان القديس بابيلاس Babylas، الذى كان أسقفا لإنطاكيـــة ونـــال الشهادة وزمن الاضطهاد سنة ٢٥٠ على عهد الإمبراطور دكيوس، وقد قيل، كما يعـــبر مؤرخـــو الكنيســـة، أنه منذ ذلك الزمن وصوت الوحى لأبوللو قد خرس، وعلى الفور أمر الإمبراطور بنقل الجثمان خارج المعبد، وتجمع المسيحيون فى أنطاكية وانضم إليهم النساء والأطفال وحملوا جثمان القديس بابيلاس فى مظاهرة ضخمة من الضاحية حتى المدينة وهم ينشدون المزامير، وقد تبع ذلك حريق المعبد .

راجع SOCRAT. Hist. eccl. III, 17-18

وراجع أيضا SOZOM. Hist. eccl. V, 19

وكذلك THEOD. Hist. eccl. III, 6

وانظر EVSEB. Hist. eccl. VI, 39

حاجـة لقدومكـم(١٤١)"، وقبل أن ينتهي عام ٣٦٣ كان جوليان قد ساق قواته تجاه الفرس، فقد كان يوقن أن الفرس لا يحبون الحرب في فصل البرودة، لأنهم يفقدون فيـه روح القـتال، حـتى لقد شاع ذلك القول: "أن الميدى لا يسحب يده من تحت معطفـه"(١٤٢)، فـتقدم وعبر الرها ثم وصل إلى كاراى Caarae، وكان بها معبد الإلـه جوبيـتر فقرب إليه جوليان(١٤٣)؛ ثم كتب إلى أرساكيوس Arsacius ملك أرميـنيا المسيحى يطلب مساعدته ويهدده إذا لم يمتثل بأشد الانتقام، ولن ينجيه من عذابه إلهه الذى يعبده(١٤٤).

وليـس لـنا أن نخوض هنا فى الوقائع العسكرية وتفصيلات الأحداث التى تعـرض لهـا جوليـان فى حملـته هذه، ويكفى أن نقرأ ما كتبه المؤرخ أميانوس ماركلليـنوس عـن هذه الحرب. ولكن كل ما يمكن أن نذكره، هو أن الإمبراطور رغـم الـنجاح فى بعض المعارك، لم يكن موفقا فيما انتهى إليه، ووقع فى بعض الأحيـان فريسـة لنفر من الأدلاء فى أرض لا يعلم عن طبوغرافيتها شيئا، حتى أصـبح فى مـأزق عسـكرى حيـث أحاطت به جيوش أعدائه، مما سهل القضاء عليه(١٤٥).

ولقـد اختـلفت الآراء حول مقتل جوليان، فيعتقد بعض أنه قتل على يد أحد جـنود الفرس، ويقول ثان أنه رومانى دفعه الحنق على الإمبراطور لتهوره وعدم

---

(141) SOCRAT. Hist. eccl. III, 19

(142) Ibid. III, 21

(143) SOZOM. Hist. ecccl. VI, 1

(144) Id.

(١٤٥) يضـيف سوزومنوس نهاية جوليان فى صورة أدبية رائعة بقوله : " ... وحمى وطيس القتال، وزاد من أواره ريح عاتية، وغطى ظلماء السحاب وجه الشمس وزرقة السماء، وترددت فى الهواء أنفاس الـتراب، وسـبط دياجيـر الضحى، وشق فارس برمحه ذلك السكون الجلب، ورمى به الإمبراطور فأرداه جريحا . وأختفى وسط السكون".

وراجع SOZOM. Loc. cit.

وأنظر أيضا عن موت جوليان: AMM. ARC. Res gest. XXIV, 1-8. XXV,1-2:

وكذلك THEOD. Hist. eccl. III, 20; SOCRAT. op. cit. III, 21

إصغائه إلى دعوة السلام التى جاءت من فارس، فأورد الجيش موارد التهلكة[146] ويذكر سقراط أن كاالليستوس Callistus أحد حرس الإمبراطور والذى خلد أعماله فى ملحمة شعرية، ذكر أن الجرح الذى مات به الإمبراطور إنما ابتلاه به شيطان، ويعلق سقراط على ذلك قائلا: "من الممكن أن يكون هذا مجرد خيال شعرى، وربما كان حقا هو الواقع، فكثيرا ما مات كثيرون على أيدى آلهات الانتقام الحقودة عند الإغريق، فليكن الأمر كيف كان، ولكن الشيء المؤكد أن حماسة طبع جبل عليها الإمبراطور جعلته عديم الحذر، فتقدم دون درع يحميه، لقد قادته فلسفته إلى اللامبالاة[147]، ويجب أن ندخل فى اعتبارنا أن هذا التعليق كتبه أحد مؤرخى الكنيسة[148].

أما ليبانيوس الفيلسوف الوثنى، صديق جوليان فقد كتب يقول: "لعلكم تتساءلون عمن قتل الإمبراطور؟ أنى لا أعرف اسمه، ولكنا مع ذلك نملك الدليل على أنه لم يكن واحدا من أعدائنا، لأن أحدا لم يتقدم لينال المكافأة التى أعدها ملك الفرس، ونحن نشكر أولئك الأعداء على أنهم لم يدعوا لأنفسهم فخار الجريمة، وتركوا لنا أن نبحث عن القاتل بين ظهرانينا. إن الذين يرجون موته هم الذين تآمروا عليه، وهم الذين أقدموا على هذه الجريمة لما سنحت لهم الفرصة يدفعهم إلى ذلك الرغبة فى الحصول على أكبر قدر من التحرر من كل سلطان، يفوق ما نالوه تحت سيادته، وربما حرضهم على ذلك أيضا حقدهم والغضب لتعلق الإمبراطور بالأرباب الذين كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين[149].

ويعلق سوزومنوس على ذلك بقوله: "لا شك أن ليبانيوس يشير صراحة فى قوله هذا إلى أن الإمبراطور سقط قتيلا على يد واحد من المسيحيين وليس بعيدا

(146) SOCRAT. Hist. eccl. III, 21
وأيضا SOZOM. Hist. eccl. VI, 1
(147) SOCRAT. Loc. cit.
(148) SOZOM. Hist. eccl. VI, 1.
وراجع للمؤلف " مصرع جوليان – للفيلسوف الإمبراطور " ، بحث منشور فى كتاب " قطوف دانية ، جـ ص
(149) Ibid. VI, 2

عـن الاحـتمال أن بعـض الجنود منهم الذين يخدمون فى الجيش الرومانى كانوا يحمـلون هـذا الخاطر، ومنذ زمن الإغريق وحتى أيامنا هذه، فإن الناس يمتدحون قـتل الطغـاة ويمجـدون القاتلين لأنهم يعرضون أنفسهم للموت فى سبيل الحرية، ويـرفعهم الأهل والوطن والرفاق مكانا عليا، وكيف إذن نوجه اللوم إلى ذلك الذى من أجل الله والعقيدة أتم عملا جسورا(١٥٠).

ودفاع سوزومنوس عن قاتل جوليان على هذا النحو، وما يرويه لنا بعد ذلك عـن الـرؤى الـتى تبدت لنفر من أصدقاء جوليان ورجال الكنيسة، تحملنا على الاعتقاد بأنه ربما كان بعض المسيحيين العاملين فى الجيش وراء هذا الحادث، وقد ألمهـم ما تعرض له المسيحيون فى الإمبراطورية من حرمان من الامتيازات التى نعمـوا بها على عهد قسطنطين وأبنائه، ودار بمخيلتهم بعد الانتصارات التى حققها جوليان فى أول حملته منتصرا، مدى الهوان الذى سوف تتعرض له المسيحية ثانية بعد أن أفاقت من اضطهاد ثقيل كابدته طيلة قرون ثلاثة(١٥١) . وربما يقوى من هذا الاحـتمال ما يذكره المؤرخ الكنسى سوزومنوس نفسه عندما يقول إن جوليان كان يعرف تماماً من أين ستأتيه الضربة القاتلة ، ومن ثم فإنه عندما تهيأ للموت من يده إلى جـرحه وتناول حفنة من دمائه نثرها في الهواء كما لو كان يريد أن يدنسه به يضـيف مؤرخ للكنيسة آخر هو ثيودوريت قائلا: "أن جوليان عندما نثر فى الهواء حفـنة مـن دماء صاح، ها قد انتصرت أيها الجليلى(١٥٢) ويقول جيبون: "لابد أن نعـترف أن الحمـاس الديـنى والأهـواء البشرية ضخما آمال المسيحيين وزادها حدة(١٥٣) .

---

(١٥٠) يذكـر سـوزومنوس مـا حدث لأحد رجالات الكنيسة عندما كان جوليان يستعد للقيام بحملته ضد الفرس، أنه توعد المسيحيين بعذاب أليم ومصير بئيس عقب عودته منتصرا من هذه الحرب، وقال " أن ابن النجار لن يكون قادرا على أن يمد المساعدة لهم، فأجابه رجل الكنيسة ذاك " " أن أبن النجار هذا يعد تابوتا لموت جوليان : SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(151) SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(152) THEOD. Hist. eccl. III, 20

(153) Gibbon, op. cit. II, p. 502

ولا يعنينا من أمر هذه الرؤى(١٥٤) التى قصها علينا سوزومنوس سوى ما يتصل منها بالإسكندرية وفيلسوف مدرستها الضرير ديديموس Didymus لأنه يتصل بهذا الجزء من الوثيقة التى حفظها لنا الزمن(١٥٥)، تحدث عن أثناسيوس فترة نفيه الرابع، وصداقته الحميمة للرهبان، وولاء هؤلاء لشخصه، وهى مصدرنا الوحيد عن حياة الأسقف السكندرى، وهى جزء من تقرير عن الراهب ثيودور أعد من أجل ثيوفيلوس Theophilus أسقف الإسكندرية (٣٧٥-٤١٢) وتعتبر بقية من قصة رواها أثناسيوس نفسه على مسامع اثنين من الرهبان هما آمونيوس Ammonius الذى اختير فى الفترة ما بين ٣٥٧، ٣٦٢ أسقفا على الياركيا Elearchie (شمال الدلتا)، وهرمون Hermon أسقف مدينة بوبسطس Bumastica (Bubastis) وتقدم لنا عرضا شائقا للمرحلة الأخيرة من نفى أثناسيوس، ولندع الحديث الآن للأسقف السكندرى نفسه.

"لقد رأيت آنذاك رجلا عظيما من رجال الله مات مؤخرا، إنه ثيودور رئيس الرهبان الطبانيين Tabennesian وأب الرهبان حول أنطينوى

---

(١٥٤) يروى سوزومنوس أن واحدا من أصدقاء جوليان إذ هو مرتحل ينوى اللحاق بالإمبراطور فى الحملة الفارسية، جن عليه الليل فأوى إلى أحد الكنائس، فرأى فيما يرى النائم أن كل الرسل والأنبياء قد اجتمعوا يتشاكون من الضرار التى ألحقها جوليان بالكنيسة، ويتشاورون فى خير الوسائل بوقف ذلك، وتملكتهم الحيرة، وسرعان ما هب أثنان من وسط الجماعة طلبا إلى الآخرين أن يقروا عينا، وتركا الأخوة مسرعين كما لو كانا قد ذهبا لتجريد جوليان من سلطته الإمبراطورية، فلما أفاق الرجل خشى أن يتم رحلته وظل يترقب، حتى إذا آوى إلى فراشه بعد ذلك رأى من جديد الجماعة وقد التقت، وإذا بهذين يعودان ويعلنان للجميع أن جوليان قد مات .

أنظر SOZOM. Hist. eccl. VI, 2

(١٥٥) أما القصة التى يرويها سوزومنوس عن ديديموس فتقول أن الفيلسوف المسيحى تملكه الغم والحزن لخطايا جوليان، واضطهاده للكنيسة، فاعتكف الرجل وراح يقدم الصلوات والضراعة للرب دواما حتى يبصر هذه الفعال !! وفى إحدى الأمسيات وكان الهزال قد اعتراه والأرق، غالبه النعاس فوق كرسيه فغلبه، فأخذته غيبوبة وشملته حالة من الانجذاب الروحى، فرأى جيادا بيضا تمرق فى الهواء وسمع صوتا يهتف بأولئك الذين يمتطون صهواتها " أذهبوا إلى ديديموس وأخبروه أن جوليان قد مات الساعة، ودعوه ينقل هذا الخبر إلى أثناسيوس الأسقف ودعوه ينهض ويطعم "

راجع SOZOM. Loc. cit.

Antinoopolis (الشيخ عبادة)، ويدعى بأمون Abbas Pammon ذلك أنى عندما طوردت على يد جوليان، وكان متوقعا أن أذبح بأوامره، لأن هذه الأنباء كانت تصل إلىّ، عن طريق أصدقاء حميمين، أتى إلى هذان الرجلان فى نفس اليوم فى "أنطينوى" وقررا أن أختفي مع ثيودور، ومن ثم نزلت إلى قاربه الذى كان مغطى تماما، وصحبنا رئيس الرهبان بآمون، ولكن الريح لم تكن مواتية، فرحت أضرع وأصلى، على حين قطر الرهبان مع ثيودور القارب، أما بآمون فقد أخذ يهدئ من روعي ويسرى عنى، قلت له.. أرجوك صدقني عندما أقول لك أن قلبى لم يعرف السلام أبدا كما عرفه أثناء الاضطهاد، ذلك أنى أعلم أن معاناتى من أجل المسيح، ومن رحمته استمد قوتى والعزيمة حتى ولو قدت روحى ذبيحة فسوف ألقى جميل رحماه. وبينما أنا ماض فى حديثى ثبت ثيودور عينيه على بآمون، وافتر عن ابتسامة ثغره، بينما علا الضحك وجوه الآخرين، ورحت أحملق مشدوها، وخاطبتهم فيم تضحكون؟ أتظنون بى جبنا؟ فلم يلتفت إلى ثيودور، وقال لبامون: "خبره علام تضحك" فأجاب بل أخبره أنت. قال ثيودور "الآن قتل جوليان فى فارس"، لأن الرب قد أعلن أمامه الرجل متكبر، الذى قد وسع نفسه كالهاوية (حبقوق ٢/٥). ولقد امتلأت يقينا أن كثيرين من أولئك الذين يسرون بالرب، يعيشون عن الأنظار بعيدين خاصة بين الرهبان[١٥٦] .

وتكشف لنا هذه الشذرة جزءا هاما من حياة الأسقف السكندرى وصلاته الوثيقة بساكنى الأديار، ومنها نعلم أن أثناسيوس قد وصل فى فترة نفيه هذه إلى إقليم طيبة، واستقبل بالمودة والرعاية من جماعات الرهبان المختلفة على طول الطريق من وادى النطرون إلى أنطينوى (الشيخ عبادة)[١٥٧] ، ومدى حرص هؤلاء الأصدقاء الحميمين على حياته، والتعلق به، مما تبدى فى تنقله من مكان لآخر على أيديهم، وظهر فى هذه الأنباء التى تحمل إليه فور وقوعها. ولو يكن هناك غير هذه الوثيقة يكشف عن العلاقة الوثيقة بين الأسقف السكندرى والرهبان

(156) ATHANAS. Narr. Ad Ammon
(157) HIST. ACEPH. VIII, 13

ودورهم في صراعه ضد الإمبراطورية، لكفى. وليس يعنينا في شئ صدق رؤية ديديموس أو خلاف ذلك، ولكن الذى يهمنا هو أن ديديموس نفسه، بمركزه المرموق، كان على رأس أنصار أثناسيوس في الإسكندرية، ينقل إليه صورة الأحداث كاملة. وإذا علمنا أن جوليان قد لقى حتفه في ٢٦ يونية ٣٦٣، وأن هذا النبأ قد أذيع في الإسكندرية يوم ٢٠ أغسطس[١٥٨] ، وأن أثناسيوس قد عاد إلى الإسكندرية قبل أول سبتمبر، أدركنا مدى السرعة والتنظيم الدقيق الذى حرص الرهبان على توفرهما في علاقتهم بالأسقف، وأيقنا في الوقت ذاته مدى الثقة التى كان أثناسيوس يضعها في هؤلاء الرهبان، والأهمية الكبرى التى يعلقها عليهم في نزاعه ضد الإمبراطورية.

على أية حال فإنه عندما حانت لحظة وفاة جوليان تزاحم من حوله قواد جيشه وأخلص أصدقائه، وراح الإمبراطور المسجى وسط الآلام ينتظر الرحيل، يلقى عليهم نظرة وداع أخيرة ويحدثهم حديث من "يلقى الموت في هدوء الفلاسفة[١٥٩] " فلما أبصر العبرات في أعين الرجال تترقرق، لامهم وكأنه في عنفوان قوته: "من العار أن تنتحبوا على إمبراطور يفنى في ذات النجوم والسماء"[١٦٠] .

(158) HIST. ACEPH. VIII, 12
(159) AMM. MARC. Res gest. XXV, 3
(160) Id.



الفصل العاشر

ربيع الآريوسية وخريف أثناسيوس

الفصل العاشر

ربيع الآريوسية وخريف أثناسيوس

أحدث موت جو ليان المفاجئ ارتباكا شديدا في صفوف الجند، إذ كان جوليان آخر أفراد أسرة قسطنطين، ولم يكن هناك وريث للعرش، فتنازع الأمر أنصار قسطنطيوس وأصدقاء جوليان، وتفاقمت الأزمة بينهما، الا أن اقترحا ظن أنه يرضى الطرفين قال بتنصيب سالوتيوس سكوندس Salutius Secondus أكبر ولاة الشرق سنا، ولكن الرجل فضل المهرب على المنصب، فاشتدت بابائه حمى الخلاف وهوت إلى اختيار جوفيان[1] Jovianus ، وكان رجلا لا سيرة له ولا سمعة[2]، مسيحيا لطيفا يخالط العامة، انتابته حاله من القلق لدى سماع نبأ رفعه مكانا عليا[3]، يتعجل الأمور للحفاظ على لقبه الجديد وتثبيت سلطانه، فارتضى أن يوقع مع الفرس معاهدة مهينة أفقد بها إمبراطوريته جزءا كبيرا من الأراضى التى كان دقلديانوس قد ضمها فى حربه ضد الساسانيين، ومدينتى سنجار ونصيبين، واتفقا على أن يدوم السلام بينهما ثلاثين عاما[4].

ما كاد جوفيان يعتلى العرش حتى أصدر مرسوما باستدعاء الأساقفة ورجال الأكليروس الذين كانوا يعانون الآم النفى، وإعادة الباقين إلى كنائسهم بعد أن عادوا إلى الديار فقط فى عهد جوليان دون الكنائس، ويرد عليهم امتيازاتهم التى حرمهم إياها سلفة الوثنى[5]، وعندئذ عادت المسيحية سيرتها الأولى، ويصف المؤرخ

(1) AMM. MARC. Res get. XXV,5.
وأيضا SOCRAT. Hist. Eccl. III, 22
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI, 3
(2) THEOD. Hist. Eccl. III,1
(3) SOCRAT. Loc. cit.
(4) AMM. MARC. Res gest. XXV, 7
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. VI, 4
(5) SOCRAT. Hist. Eccl . III, 24
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 3

الكنسى سوزومنوس الحال بقوله:

" راح الأساقفة يؤججون ثانية نيران الشقاق، وحمى مرة أخرى وطيس الجدال. لقد ظللهم صمت رهيب طيلة عهد جوليان، وغلفهم الهدوء القلق، وأخذوا يبسطون أكف الضرعة من أجل رحمة الرب، فلما كشف عنهم الهوان، إذا هم ينكثون. ذلك دأب أولاء الرجال "(٦)، ويضيف سقراط :

" إن الأساقفة يتحلقون من حول العرش، كل يريد أن يجتذب إلى معتقده جوفيان، ذلك أنه ما أن عاد جوفيان من فارس حتى قامت الكنيسة تغرق نفسها فى مشاكلها العقيدية من جديد "(٧).

غير أن جوفيان كان يدرك أنه لا قبل له مطلقا بمتاهات الجدل اللاهوتى، وكان عارفا بقدره راضيا بقدرته، ولم يكن له عقل جوليان الفيلسوف ولا طموح قسطنطيوس الإمبراطور، ولا ذكاء قسطنطين الكبير، فأعلن منذ البداية أنه " لن يضار أحد من أجل العقيدة، وأنه يقدم الحب لمن يسعى صادقا من أجل وحدة الكنيسة والسلام"(٨)، وقد امتدح الفيلسوف المعاصر والخطيب ثميستوس Themistus سلوك الإمبراطور الذى أعطى لكل الأناسى الحرية أن يعبدوا الإله حسبما يرضى، منهم الفؤاد(٩).

كان أول من سعى إلى الإمبراطور يخطب وده جماعة الماكيدونيين(١٠)، أتباع ماكيدونيوس أسقف القسطنطينية السابق، الذى أسلفنا أنه عزل سنة ٣٥٩ ليحل محله يودوكسيوس الآريوسى المتطرف، وكان ماكيدونيوس قد أدلى بدلوه فى المسألة العقيدية أيضا، وأستلهم وحى الآريوسية الأولى فى القول بخلق المسيح،

وأنظر كذلك HIST. ACEPH. VIII, 12, THEOD. Loc. Cit

(6) SOZOM. op. cit. VI,4

(7) SOCRAT. Loc. cit.

(8) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25

(9) Id.

(10) Id.

وأذاع أن الـروح القـدس مخلوق شأن سائر الخلائق[١١]، ولما تم عزله راح يوحد جهـوده وجماعته مع أنصاف الآريوسيين. ولقد ازداد أتباعه بدرجة كبيرة وخاصة فى آسـيا الصغرى[١٢]، وتقدموا إلى الإمبراطور جوفيان يلتمسون منه عزل أساقفة الأنومويـة الذين لا يزالون يسيطرون على الكنائس، وحمل هذا الملتمس باسيليوس أسقف أنقرة، وغيره من زعماء الهومويوسية[١٣]، غير أن الإمبراطور رفض إجابة التحالف الماكيدونى الهومويوسي إلى طلبه، وأعلن أنه يمقت كلية هذه الصورة من الشقاق فى الكنيسة[١٤].

والآن جـاء دور الأسـاقفة السياسـيين، ويمـثل هؤلاء كما نعلم أكاكيوس وأنصاره، فقد أيقن هذا الفريق أن عليه أن يعمل بسرعة ليتلاءم مع الموقف الجديد الذى خلقه وجود إمبراطور على العرش أعلن منذ البداية سياسة التسامح مع تأييده للـنيقية[١٥]، ويقـول سـقراط" إن الـروح الحقيقية للأكاكيين واستعدادهم الفطرى لمواءمـة آرائهم وعقيدتهم مع أولئك الذين يقتربون من السلطة، أضحت الآن بادية لـلعيان أكـثر مـن ذى قـبل، ذلـك أنهم جمعوا أنفسهم فى أنطاكية، ودخلوا فى مفاوضات مع مليتيوس، الذى انفصل عنهم من قبل، وقبلوا اصطلاح " الهوموسية " ولقد فعلوا ذلك لأنهم رأوا مليتيوس قد أصبح مقربا عند الإمبراطور الذى كان يقيم آنذاك فى أنطاكية[١٦]، ولم يعد سقراط الحقيقية فى شىء.

ويجـب أن نـدرك أن هذه الفترة قد أخذت تشهد تقاربا بين الفرق المسيحية المتنافرة، فالماكيدونيون ضموا صفوفهم إلى أنصاف الآريوسيين، والهومويون فى الشرق أوالأكاكيون دخلوا فى شركة النيقيين المعتدلين، وبقى الأنومويون والنيقيون

---

(11) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25
وراجع أيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV, 72
وراجع للمؤلف ، والدولة و الكنيسة ، الجزء الرابع .

(12) SOCRAT. Hist. Eccl. II, 45

(13) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25

(14) Id.

(15) SOCRAT. Hist eccl. III, 24

(16) Ibid. III, 25

الأصـــليون بعيدا خارج دائرة التقارب هذه. وحتى يثبت الأكاكيون صدق نيتهم فيما أقدمـــوا عليه، عقدوا مجمعا فى أنطاكية فى أوائل عام ٣٦٤ حضره ما يقرب من ثلاثيـــن أســـقفا[١٧] ممن ينتمون إلى هذا الفريق، وكان على رأسهم مليتيوس أسقف مديـــنة المجمع، ويوسيبيوس أسقف قيسارية، وأورانيوس Uranius أسقف أفامية Apamia وضـــعوا جميعا توقيعاتهم على وثيقة فى شكل رسالة إلى الإمبراطور، يعلنون فيها عقيدتهم ورأيهم فى بعض الفرق الأخرى[١٨].

وعلى الرغم من أن الأكاكيين ألحقوا فعلا برسالتهم هذه نص مرسوم الإيمان الـــنيقى، وذيـــلوه بـــتوقيعاتهم، إلا أنهم راحوا يفسرون، كما جاء فى الوثيقة كلمة "الهوموســـية " بأنها تعادل " من جوهر مشابهة أو التشابه فى الجوهر " أى أنهم لم يتخلوا عن المصطلح الرئيسى الذى بنوا عليه عقيدتهم وهو " التشابه Homoeas وإن كانوا قد حددوه الآن فى " الجوهر" وهم يعدلون فى ذلك أنصاف الآريوسيين، ولكنهم سبقوا هؤلاء الأخيرين خطوة عندما اعترفوا بقانون الإيمان النيقى، ولم يبد لأعيـــنهم عجبا أن يطلقوا الآن كل ما أعلنوه قبل فى مراسيمهم حول كلمة "جوهر" ورفضـــهم الكـــامل لهـــا من قبل. ويخبرنا سوزومنوس أنهم قد بعثوا برسالة إلى الإمـــبراطور يؤكدون رغبتهم فى تجنب أى شقاق يقود الكنيسة إلى ما حدث على

---

(17) SOCRAT. Hist. Eccl. III 24 .

(١٨) جـــاء في هذه الوثيقة : " المجمع الأسقفى المنعقد فى أنطاكية ضاما من مختلف الولايات رجال الله ، إلى الـــتقى محبوب الرب سيدنا جوفيان أوغسطس المنتصر . نعلم اليقين "إمبراطورنا الدين" رغبتكم الســـامية فى أن تضعوا سلام الكنيسة والوئام فوق كل اعتبار، ولسنا فاقدى الوعى، جامدى الإحساس إزاء عدالـــتكم الحكيمة، كى ندرك أن الإيمان القويم هو دعامة هذه الوحدة والعماد ومن ثم فأننا خشية أن نـــدرج ضمن أولاء الذين أفسدوا الإيمان الحق ، نعلن لعطفكم أنا ندين ونقر بإيمان المجمع المقدس الـــذى التأم من قبل فى نيقية، خاصة وأن تعبير الهوموسية الذى تبدى لبعض محدثا وبدعاً من القول، قد تم تفسيره بفطنة من جانب الآباء، بما يدل على أن الابن ولد من جوهر مشابه لجوهر الآب أو أنه يشبه الآب فى الجوهر ... كما أن هرطقة الانومويين التى فاحت مؤخرا ولا تزال بقحة سادرة، تبغى عدم وحدة الكنيسة، من أجل ذلك فأنا .. نرفق باعلاننا هذا صورة من الإيمان الذى ارتضاه الآباء فى نيقية، والذى نحن عنه كل الرضا راضون "

انظر SOCRAT. Hist. Eccl. III, 25

وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI,4

عهد قسطنطيوس، وأنهم لا يريدون أن تعود من جديد هذه السلسلة التى لا تنتهى من المجامع ومراسيم الإيمان " وقرروا فى رسالتهم أنهم لن يذهبوا إلى الإمبراطور من تلقاء أنفسهم حتى لا يفرضوا أنفسهم عليه، فإذا رغب هو فى استدعائهم لبوا[١٩].

لم يبق إذن إلا الآريوسيين فى الإسكندرية يؤيدهم يوزيوس أسقف أنطاكية، وعليهم أن يبحثوا أيضا عن قدرهم عند الإمبراطور، فعمل يوزيوس على استمالة بروباتيوس Probatius خصى القصر ليكون له عونا وزلفى يقربه إلى الإمبراطور[٢٠]، وقام بالدور الأكبر لوقا، الذى ذكرنا أنه رشح ليخلف أثناسيوس فى منصبه بعد نفيه فى عهد جوليان، فتقدم إلى الإمبراطور بالتماسات أربعة حفظها لنا التاريخ فى شكل حوار بين جوفيان ولوقا وأنصاره[٢١]، وتدور هذه الالتماسات حول رفض الآريوسيين فى الإسكندرية عودة أثناسيوس ثانية إلى عرشه الأسقفى، وتقديم اتهامات جديدة ضده بغية إثارة غضب جوفيان عليه، بل لقد أعلنوا فى سبيل ذلك أن الإسكندرية سوف تتعرض للتدمير والخراب إذا ما عاد أثناسيوس وبلغ بهم الإلحاف إلى الضراعة لدى الإمبراطور كى يولى على أسقفية الإسكندرية أى رجل عدا أثناسيوس " .

غير أن جوفيان أبدى إصرارا تاما على أن يعود أثناسيوس إلى كرسيه الأسقفى فى الإسكندرية[٢٢]. والحقيقة أن الإمبراطور كان يدرك ذلك المركز الممتاز والمكانة التى يتمتع بها أثناسيوس فى مصر، ويعلم يقينا أن سنوات النفى الطويلة التى أمضاها الأسقف السكندرى خارج البيعة، قد زادته صلابة وعنادا، وزادت من تعلق شعب الكنيسة فى مصر والرهبان به، ولم يكن الإمبراطور فى موقف يسمح له بأن يثير على نفسه عداء جزء كبير من الإمبراطورية كان يتعلق

(19) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 4

(20) Ibid. VI, 5

(٢١) أنظر ملحق رقم (٢) .

(22) ATHANAS. Ad Imp. Iov. (ep. 1-4)

بأثناسيوس رغم كل هذه الأحداث التى شهدتها الكنيسة، فى وقت يحتاج فيه إلى تأييد الجميع، خاصة وأنه لم يكن من بيت قسطنطين الكبير الذي تكن له الكنيسة الولاء والتقديس، ولا يتمتع بمقدرة عسكرية فائقة، ولا موهبة إدارية يحسده عليها أحد، ومن ثم رأيناه يختط لنفسه طريقا وسط متاهات العقيدة، حتى لا يسترضى فريقا دون الآخرين أو على حسابهم.

ويروى أثناسيوس فى الجزء الأخير من "الشذرة" Narratio ad Ammonem التى عرضنا لها، أن الراهب بعد أن نقل إليه نبأ وفاة جوليان، أخبره كذلك أن إمبراطوراً مسيحيا ورعا سوف يرتقى العرش خلفا، وأن عليه أن يسرع فى لقائه دون توان[23]. ولئن كانت صيغة الحديث قد صدرت عن ثيودور فى شكل تنبؤ بما سيحدث، الا أن الحقيقة أن اختيار جوفيان قد أعقب وفاة جوليان مباشرة، ومن ثم فلابد أن يكون كلا النبأين قد نقلا مرة واحدة إلى الرهبان وبالتالى إلى أثناسيوس.

ويخبرنا سقراط أن الإمبراطور جوفيان كتب إلى أثناسيوس عددا من الرسائل يبدد كل خوف[24] ويضيف سوزومنوس أنه أرسل فى طلبه ليقف منه على أمر العقيدة، وإن كان سوزومنوس يقدم هذا القول منسوبا إلى " آخرين " دون أن يذكر رأيه[25]. ولكن ليست لدينا صورة من هذه الرسائل التي يتحدث عنها سقراط، وكل ما تبقى فقط هى رسالة واحدة حملها أثناسيوس فى عودته بعد لقاء الإمبراطور.

غير أن الأسقف السكندرى لم يكن فى حاجة إلى استدعاء من قبل الإمبراطور فقد كان لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الإسراع بلقائه. وقد ذكر سوزومنوس ذلك صراحة بقوله " إن أثناسيوس اعتقد هو ونفر من صحبه أن من الأفضل، بل من الضرورى أن يسرعوا للقاء الإمبراطور بعد أن علموا بأمر

(23) THANAS. Narr. Ad Ammon.
(24) SOCRAT. Hist. Eccl. III, 24
(25) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5

سياسته العقيدية[٢٦]وكلمة " بل من الضرورى " هنا تؤكد مدى حرص أسقف الإسكندرية على إتمام هذا اللقاء، فقد كان على ثقة أن خصومه لن يدعوا لحظة تمر دون أن يلتفوا فيها من حول جوفيان ليدسوا للأسقف السكندرى عنده، وقد رأينا كيف استحث لوقا خطاه إلى أنطاكية ليعرض على الإمبراطور ملتمسه بشأن كرسى الإسكندرية الأسقفى، ولا شك أن أثناسيوس قد أفاد كثيرا من تجاربه السابقة مع الآريوسيين على عهد قسطنطين وولده قسطنطيوس، عندما استأثروا بالإمبراطورين وخاصة الأخيرين، ولم يتركوا لأثناسيوس سبيلا للاتصال به، ومن ثم أراد أثناسيوس أن لا يحدث له جوفيان مثلما حدث له مع سلفه الأسبق، من أجل هذا فأن الأسقف السكندرى بعد أن قدم من عند أصدقائه الرهبان، دخل الإسكندرية، ولم يذهب إلى الكنيسة، ولم يحاول أن يخبر أحدا بمقدمه إلا الخاصة، ثم لم يلبث فى ٦ سبتمبر ٣٦٣ أن اتخذ سبيله فى البحر سفرا قاصدا جوفيان[٢٧] ولم ينتظر الأسقف قدوم الإمبراطور إلى أنطاكية بل توجه تلقاء منبج Hierapolis حيث رحب به الإمبراطور وتقبله قبولا حسنا[٢٨]. وهكذا كان أثناسيوس أسبق الأساقفة جميعا فى اجتذاب جوفيان إلى النيقية، ولعلنا ندرك الآن السبب فى موقف الإمبراطور من الفرق المسيحية المتصارعة التي وفدت عليه فى أنطاكية، كما قدمنا.

ويبدو أن الوفاق قد عرف سبيله بين الرجلين للوهلة الأولى، فطلب الإمبراطور من الأسقف أن يوقفه على حقيقة إيمان الكنيسة الكاثوليكية[٢٩]، فكتب أثناسيوس، إبان وجوده فى أنطاكية، تقريرا عن الإيمان، حمل فيه بعنف على الآريوسية، وأشار إلى شيء من مبادئها، وعرج على مجمع نيقية وأدانته لها[٣٠]وألحق بالتقرير صيغة الإيمان النيقى[٣١] وراح من طرف خفي يلقى اللوم

(26) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5
(27) HIST. ACEPH. VIII, 13
وراجع كذلك FEST. IND.XXXV
(28) FEST. IND. XXXV
(29) ATHANAS. Ad. Imp. Jov. 1
(30) Id.

على الأكاكيين ومليتوس واتباعه بسبب مرسوم الإيمان الذى أصدروه والذى يفسر " الهوموسيية " بأنها تعدل " التشابه فى الجوهر " ثم أخذ يلعن صراحة الأنوموبيين، ويزين للإمبراطور طريق النيقية وحدها[٣٢].

وقد انتهز أثناسيوس فرصة وجوده فى أنطاكية وحاول أن يخلص الكنيسة فيها من ذلك الشقاق القديم الذى يتهددها، ويذكر شاهد عيان أنه رتب الأمور هناك[٣٣]، ولكن سوزومنوس أضاف إلى ذلك قوله " في حدود الممكن "[٣٤]، وهذه العبارة لها مغزاها، ذلك أن أثناسيوس لم يكن يستطيع أن يتخلى عن صداقته لليوستاتيين وزعيمهم باولينوس، حقيقية حرص أثناسيوس فى مجمع الإسكندرية وفى رسالته إلى الأنطاكيين على أن يدعو الفريقين إلى نبذ دواعى الخلاف، وطلب إلى باولينوس أن يقبل فى شركته الأرثوذكس الآخرين، يعنى أتباع مليتيوس، ولكن هذا لم يكن ليخفى ميله الواضح تجاه باولينوس وجماعته، على أن باولينوس عصف بفرصة السلام هذه، ذلك أنه اعتمادا على سيامته أسقفا بيد ليوكيفريوس، قام هو الآخر برسم أسقف لكنيسة صور يدعى ديودور[٣٥] Diodorus .

ولاشك أن مليتيوس قد نظر إلى ذلك بشيء من الضيق حيث يعتبر نفسه الأسقف الشرعى الذى له حق اختيار أساقفة المنطقة، هذا من ناحية، والأخرى أن مليتيوس بقبوله التوقيع على مرسوم المجمع الانطاكى الذى وضعه الأكاكيون فى سنة ٣٦٤، قد فقد أيضا ثقة أثناسيوس، وبهذه الصورة لم يستطع أثناسيوس أن يكمل فى أنطاكية الجهد الذى بذله من أجلها فى مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢، خاصة وأن الآريوسية كان لها السيادة من الناحية الرسمية فى أنطاكية ممثلة فى يوزيوس.

(31) Ibid.
وراجع كذلك GREG. NAZ. Orat. XXI, 33
(32) ATHANAS. Loc. cit.
(33) HIST. ACEPH. VIII,13
(34) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5
(35) RUFIN. Hist. Eccl. II, 21 (p. L. XXI 517)
وراجع كذلك ATHANAS. Ep. Ad Diod

والآن تهيأ أثناسيوس للعودة إلى الإسكندرية بعد أن ضمن تأييد الإمبراطور، وعدم تسلط الخصوم عليه، وعندئذ شيعه جوفيان برسالة، على الرغم من أنها جاءت مقتضبة، إلا أنها كانت بالغة الدلالة(٣٦)، حملت فى طياتها سياسة الإمبراطور المتسامحة، وإعجابه بشخص الأسقف السكندرى، وهى لا تخرج عن كونها قصيدة نظمها الإمبراطور فى مدح أثناسيوس، وتعد تصريحا رسميا للأسقف بالعودة إلى كرسيه، جاء فيها :

" ... لشد ما بهرنا جهادك ملء الحياة، وحبك للإله رب الكل، وانجذابك إلى مخلصنا المسيح، ولقد ارتضيناك أسقفا ممجدا، ولما كنت لم تنقلب على عقبيك مدبرا، ولا من مضطهديك خائفا، ونظرت المهالك والوعيد غير عابئ، وتعلقت بدفة الإيمان القويم، وهو إليك عزيز، تناضل من أجل الحق، ولا زلت تبدى نفسك للرعية أنموذجا ... من أجل ذلك قرر عظمتنا استدعاءك، وأبدينا رغبتنا فى أن تعود إلى ذلك المكان الذى تعلم فيه طريق الخلاص. عد إذن إلى الكنيسة المقدسة، واجتذب إلى الله شعبه. وأرسل إلى الله ضراعتك من أجل خيرنا "(٣٧).

ولم يلبث أثناسيوس أن انطلق عائدا إلى الإسكندرية، حتى إذا كان يوم ١٤ فبراير ٣٦٤ (٣٨)، دخل الأسقف المدينة واعتلى كرسيه، وعادت الكنائس إلى أيدى أنصاره، واطمأن إلى أن الإيمان النيقى قد غدا مستقرا رغم كل هذه العثرات التى تعرض لها(٣٩).

غير أن الأحداث خيبت فأل أثناسيوس فجأة، فقد ارتحل الإمبراطور قاصدا القسطنطينية، ولكنه لم يصلها أبدا، فعند دادستانا Dadastans على الحدود بين

(36) Robertson, op. cit. p. 90
(37) IOV. Ep. Ad ATHANAS. (ATHANAS, ep. LVI)
(38) HIST. ACEPH. VIII, 13
(39) SOZOM. Hist. Eccl. Vi, 5

غلاطيـــة وبيثيـــنيا، وفى ١٧فبراير ٣٦٤، مات جوفيان[٤٠] بعد أن قضى فى حكم الإمـــبراطورية قـــرابة أشـــهر ثمانية، وطوال عشرة أيام آتية، قطعها الجيش فى مســـيرته حـــتى نيقية، خلا عرش الإمبراطورية من حاكم يعتليه، وفى ٢٦فبراير شهدت مدينة نيقية اجتماعات ضمت كبار الموظفين والقادة العسكريين، أسفرت فى النهاية عن المناداة بفالنتينيان Valentinianus إمبراطوراً[٤١]. وهو أحد مواطنى بانونيـــا Pannonia يـــتميز بكفاءة إدارية فذة ومقدرة عسكرية[٤٢]، ينتمى لأسرة ريفيـــة رقيقـــة الحال، حاد المزاج، لم يهتم بتثقيف نفسه ولا يحترم المثقفين، يمقت جميـــل الهـــندام ويـــبغض الثقافة، يزدرى الثروة ويحتقر طيب المنبت، كما وصفه أميانوس ماركللينوس، ولكنه مع ذلك كان حى الضمير إداريا، يحنو الحنو كله على الطبقات الفقيرة قرينة أصله، ولكن سوء قدره قضى على حسن نواياه باختياره غير الموفـــق لـــوزراء دولته[٤٣]. وكان مسيحياً متحمسا للعقيدة دون فريق بعينه، جلب عـــلى نفســـه بمســـيحيته غضب جوليان يوم كان قائدا فى جيشه، ولم يشفع له إلا كفاءته العسكرية واحتياج جوليان لخبرته[٤٤].

ويبدو أن الجنود كانوا قد سئموا وجود إمبراطور فرد على عرش الإمبراطورية

(40) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 6
وكذلك AMM. MARC. Res gest. XXV, 10
وراجع SOCRAT. Hist. Eccl. III, 16
(41) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 1, 2
SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 1
وأيضا SOZOM. Loc.cit.
وراجع كذلك THEOD. Hist. Eccl. III, 12
(42) SOZOM Loc. cit.
وراجع أيضا SOCRAT. Loc. Cit
وكذلك THEOD. Loc. cit.
(43) AMM. MARC. Res gest. XXVII, 7, XXX, 6
وراجع كذلك Jones, Later Roman empire, 1, p. 139
(44) SOCRAT. Hist, eccl. IV, 1
وأيضا SOZOM. Hist eccl. VI, 6
وراجع أيضا THEOD. Hist. Eccl. III, 12

فتقدموا إلى فالنتينيان يطالبونه باختيار رجل آخر إمبراطوراً شريكا[٤٥]، ولا شك أن قيامهم بتنصيب ثلاثة أباطرة على التوالي، جوليان وجوفيان وفالنتينيان، قد أعاد إلى أذهانهم ذكرى نفوذهم في النصف الثاني من القرن الثالث، قبل أن يلي دقلديانوس عرش الإمبراطورية، وقد أجابهم فالنتينيان بقوله : "جنودى، إذا كان من حقكم إعلاني إمبراطورا، فقد فعلتم ، أما ما تريدون فمن حقي وحدى، ألزموا الهدوء، رعية طيبة، ودعوني أدير أمور الدولة إمبراطورا "[٤٦] ثم ولى وجهه بعد ذلك مباشرة شطر القسطنطينية، فلما دخلها، وكان قد مضى على اعتلائه العرش ثلاثون يوما، آوى إليه أخاه فالنز Valens وكان في بانونيا فاستدعاه وأعلنه إمبراطور شريكا[٤٧]، وقد شارك فالنز أخاه حدبه على الطبقات الدنيا[٤٨] وقلة ثقافته[٤٩]، وغيرته المسيحية[٥٠] واقترب على استيحاء من حسن ادارته، وافتقد كفاءته العسكرية[٥١]، شغل عهده بمؤامرات محمومة مريبة، وعقاب وحشى صارم أنزله بأناس ادعى للوطن خيانتهم، حتى تسربت قساواته إلى حب للعذاب[٥٢].ويعلق ثيودوريت[٥٣]، على اختيار فالنتينيان له قائلا : " ليته لم يفعل ذلك أبدا".

التقى الأخوان في نيش Naissus ليقتسما فيما بينهما حكم الإمبراطورية، فذهب فالنتينيان بالليريا وإيطاليا وأفريقيا وغالة وبريطانيا، واتخذ من ميلانو له

---

(45) SOZOM. Loc. Cit

(46) Id.

وأيضاً THEOD. Hist. Eccl. IV, 5

(47) AMM. Marc. Res gest. XXVI, 4

وراجع أيضا .SOCRAT. Loc. cit

وأيضا SOZOM. Loc. cit.

وراجع THEOD. Loc. cit.

(48) AMM. MARC. Res gest XXIX, 1

(49) Id.

(50) SOCRAT. Loc. cit.

(51) AMM. MARC. Loc. cit.

(52) Id.

(53) THEOD. Hist. Eccl. IV, 5

عاصـــمة، وعـــاد فالنز بولايات الشرق، وجعل القسطنطينية حاضرته[٥٤]، ولا شك أن فالنتيـــنيان أراد بهـــذا التقســـيم، وقـــد آثر الغرب أن ينأى بنفسه عن الشرق بخلافاته العقيديـــة، ومشاكله اللاهوتية التى لم يكن على استعداد أو مقدرة للخوض فيها، وسوف توضـــح الأحـــداث صـــدق هـــذا القـــول، ولكـــن الذى نريد أن نؤكده هنا ثانية، أن الإمـــبراطورية قد عادت لما كانت عليه عقب وفاة قسطنطين الكبير، حيث دان الملوك بذيـــن رعيـــتهم، فقد مالأ فالنتينيان النيقية، كما فعل من قبل ولدا قسطنطين، قسطنطين الـــثانى وقنســـطانز. واعتنق فالنز الآريوسية، على نهج قسطنطيوس. وفى الوقت الذى فيـــه كـــان فالينتـــنيان متســـامحاً، جهـــد فالنز ليحمل الخارجين على عقيدته إلى فناء الآريوسية.

علمـــنا مـــن قـــبل تـــلك الحال التى كانت عليها الفرق المسيحية المختلفة، الأنومويـــون يشـــكلون طائفـــة مستقلة ترفض التقارب مع أى من الفرق الأخرى، ويقـــود خطوهـــم الآن يونوميوس تلميذ ايتيوس ، والهومويون ويتزعمهم يوزيوس أســـقف أنطاكيـــة، وإن كـــان قـــد مال إلى الأنومويـة فى نهاية عهد قسطنطيوس، ويودوكســـيوس أسقف القسطنطينية الذى أظهر هجرانه للأنوموية فى سبيل الحفاظ عـــلى كرسى الأسقفية، ومثله فعل رفيقاه فالنز وأورساكيوس، ثم أيضا أوكسنتيوس Auxentius أســـقف ميلانـــو، وهؤلاء جميعا مات قسطنطيوس وتركهم أصحاب السـيادة العقيديـــة فى الإمبراطورية، وهم الآن وإن كان عدد كبير منهم قد انشق عـــليهم تحـــت رئاســـة أكاكيوس أسقف قيسارية لينضم إلى الأرثوذكسية المعتدلة برئاســـة مليـــتيوس فى أنطاكية، الا أنهم ظلوا يحتلون مراكز هامة فى الاسقفيات الإمبراطورية.

أمـــا الـــنيقيون فقد فشلوا فى توحيد صفوفهم، وكانت أنطاكية أوضح الأمثلة عـــلى ذلـــك. وجيل النيقية الجديد الذى يمثل جانب الاعتدال، ويتمثل فى لاهوتيى كبادوكيا وخاصة باسيليوس، لم يستطع أن يصل بأثناسيوس صفوفه ، وكان انحياز أثناســـيوس الكـــامل إلى جانب باولينوس اليوستاتى فى أنطاكية، وتأييد باسيليوس

(54) AMM. MARC. Loc. cit.

لمليتيوس، عاملا هاما فى هذا الاخفاق، وإن كان هذا لم يمنع رجال كبادوكيا وخاصة باسيليوس من إعلان احترامهم التام للأسقف السكندرى، كما يظهر واضحا من رسائل باسيليوس العديدة إلى أثناسيوس.

أما الماكيدونيون وأنصاف الآريوسيين فقد تآلفوا من أجل جبهة واحدة قوية حتى أضحوا يشكلون الأغلبية فى الشرق، وأصبحوا قادرين على العمل منتهزين فرصة هذا الشتات الذى تتعرض له كل الفرق الأخرى، وإذا كانوا قد فشلوا مرة فى التأثير على جوفيان، فليحاولوا من جديد مع الإمبراطور فالنتينيان.

وأثناء وجود فالنتينيان فى تراقيا فى طريقه إلى الغرب(٥٥) تقدموا إليه عن طريق هيباتيانوس Hypatianus أسقف هرقلية Heraclea يطلبون السماح لهم بالدعوة لعقد مجمع للبحث فى أمر العقيدة(٥٦)، ولكن فالنتينيان أجابه : " بين العلمانيين مكانى وليس من حقى أن أتدخل فى مثل هذه الأمور، اذهب وليجتمع رجال الكنيسة، أولئك الذين يخصهم الأمر ذاك، إذا شاءوا "(٥٧)، وقد اعتبر الأساقفة ذلك تصريحا من الإمبراطور فدعوا إلى عقد مجمع فى مدينة لامبساكوس Lampsacus على الهلسبونت، وذلك فى خريف عام ٣٦٤، واستمرت جلساته طيلة شهرين(٥٨)، وقرر فى النهاية إلغاء كل ما سبق أن تقرر من أمر العقيدة فى القسطنطينية سنة ٣٦٠، وأعلنوا أن صيغة الإيمان التى أقرت فى ريمينى من قبل، وأذيع أنها من وضع أساقفة الغرب، محض زيف وضلال وأكدوا من جديد تمسكهم بعبارة "التشابه فى الجوهر"، والتى أقرت من قبل فى أنقرة سنة ٣٥٨ وسلوقية

(٥٥) يذكر سقراط خطأ أنه الإمبراطور فالنز.
راجع SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 2
(56) SOCRAT. Loc. cit.
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI,7
(57) SOZOM. Hist. Eccl. VI,7
وراجع أيضا AMB. Ep. XXI, 2
(58) SOZOM. Loc. cit.
وكذلك SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 2
Hefle, op. cit. I, 22pp. 973 ,BASIL, Ep. CCXXIII, 5

٣٥٩، وقـرروا وجـوب عودة كل أساقفتهم الذين تم عزلهم على يد الهومويين، وضرورة عزلهم يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ورفاقه.

ولمـا كـان هـؤلاء الأساقفة يدركون أن هذه القرارات لا قيمة لها دون أن تساندها سلطة الدولة، فقد قرروا السعي لدى الإمبراطور فالنز هذه المرة، ولما كانوا عـلى يقيـن أن يودوكسـيوس يواصل جهوده لاستمالة الإمبراطور إلى صفه، فقد صـمموا على أن يسبقوه إلى العمل[٥٩]، ومن ثم قدموا إلى الإمبراطور قرارات هذا المجمـع الأخير وهو فى طريق عودته إلى القسطنطينية بعد اجتماعه مع أخيه[٦٠] الا أن يودوكسـيوس، حسـب تعبير سوزومنوس، كان قد سبق الجميع فى كسب جانب الإمـبراطور وبلاطـه[٦١]، فـلما مثل مندوبو لامساكوس بين يديه، دعاهم فالنز إلى الدخول فى شركة أسقف العاصمة، ولما راح هؤلاء يحاجون بفعال يودوكسيوس منذ عام ٣٥٩، أمر الإمبراطور بنفيهم وتحويل كنائسهم إلى أنصار أسقفه[٦٢].

ولاشك أن الإمبراطور فالنز، بغض النظر عن تعاطفه الشخصى مع أسقف عاصـمته، كـان يعـلم الكـثير عن أقاليم سيادته، ففيما عدا مصر، هناك مدعون متنافسـون عـلى الكرسـى الأسقفى فى كل بيعة[٦٣]، والسماح لأحد من هؤلاء أو أولاء بـتحقيق أغراضه، يعنى انغماس الإمبراطور فى متاهات الجدل العقيدى، ثم هـناك المذهـب الرسـمى الحكومى[٦٤]، الذى أقره المجمع المزدوج فى ريمينى وسـلوقية، وصادق عليه مجمع القسطنطينية، ومات قسطنطيوس وهو عنه راض، يتمـثل فى العقيـدة الهومويـة، ويرتـبط بالسلام فى ذهنه، ويرى زعيمى الطائفة يحـتلان أسقفيتى الشرق، يودوكسيوس فى العاصمة، ويوزيوس فى أنطاكية. وكان فالـنز شـأن سلفه جوليان يشعر أنه لم يرفعه للعرش موهبة معينة، وليس له من

(59) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 7
(60) Id.
(61) Id.
(62) SOCRAT. Hist. Eccl. VI,7
(63) Kidd. op. cit. II, p. 228
(64) Id.
وأنظر أيضا Gwathin, The Arian Controversy, p. 127

مؤهـــل لذلك سوى فالنتينيان، ولا ثقافة عنده ولا خبرة، ولا حتى كانت له سيطرة عـــلى الجند كافية، ووسط هذه الظروف كلها لم يجد معينا الا الهومويين وليس فى مقدرته أحسن مما هو كائن(٦٥)، وربما يضاف إلى ذلك أيضا ما يذكره ثيودوريت، مـــن أن زوجته الإمبراطورة دومينيكا Dominca كانت متحمسة لهذه العقيدة(٦٦)، ومن ثم ارتضى الهوموية عقيدة للإمبراطورية، وظلت كذلك حتى هلك فالنز بسيف القوط(٦٧)، وذلك فى معركة أدرنة سنة ٣٧٨.

ومـــن أجـــل ذلك فإن الإمبراطور ما لبث أن ارتحل إلى أنطاكية خشية أن يحـــاول الفـــرس نقـــض الهدنة بعد وفاة جوفيان(٦٨)، فلما أمن جانبهم تفرغ لتنفيذ سياســـته، فـــرأى أن باوليـــنوس يتمتع بقدر كبير من الورع فتركه، حسبما يروى سـقراط دون إيـــذاء(٦٩)، ولكن الحقيقة أن باولينوس كان يمثل الأقلية فى أنطاكية وهى الأقـــلية الـــتى طال اضطهادها منذ عام ٣٣٠، وهى لا تشكل أى خطر على سياسته إلا من ناحية تحالفها مع الأسقف السكندرى أثناسيوس، وهذه سوف يحاول أزالـــتها من ناحية أخرى، هذا فى الوقت الذى رأى فيه أن مليتيوس، أسقف النيقية المعـــتدلة، يمـــثل الأغلـــبية، خاصـــة بعد أن انضم إليه الأكاكيون، ولما كان بهذه الصـــورة يـــنافس أسقف معتقده يوزيوس، فقد أصدر قراره بنفى مليتيوس، وأوقع أنصاره الذين رفضوا الدخول فى شركة يوزيوس تحت طائلة العذاب(٧٠).

وفى أنطاكيـــة، وبالقـــرب مـــن يوزيوس ازداد فالنز يقينا أن سيادة العقيدة الهومويـــة، وبالـــتالى ســـيادته، لـــن تكـــتمل مـــا دام هـــناك فى الإسكندرية من ينافســـه-حسب اعتقاده- السلطان، حقيقية كان الإمبراطور يمتلك اكليروسا هومويا

---

(65) Gwatkin, Loc. Cit
(66) THEOD. Hist. Eccl. IV, II
(67) Encycl. Of relig. And ethics, Arianism Vol. 1. p. 781
(68) SOZOM. Hist. Eccl. VI,7
(69) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 2
(70) SOCRAT. Loc. cit.
وراجع .SOZOM. Loc. cit
وأيضا THEOD. Hist. Eccl. IV, 12

ولكن نفوذ يودوكسيوس أو يوزيوس لم يكن يستطيع منافسة شخصية أثناسيوس القوية أو حتى باسيليوس الكبادوكى(٧١)، وبالحقد على أثناسيوس، وبالكراهية للنيقية أصدر فالنز مرسوما يقضى بطرد كل الأساقفة الذين كانوا قد تعرضوا للنفى على عهد الإمبراطور قسطنطيوس وأعيدوا بناء على مرسوم جوليان، وتهدد موظفى الإمبراطورية بفرض غرامات مالية باهظة إذا تهاونوا فى تنفيذ هذا القرار(٧٢).

وقد نشر هذا المرسوم فى الإسكندرية فى ٥ مايو ٣٦٥(٧٣)، وعلى الفور عمت الفوضى المدينة بأسرها، ويقدم شاهد عيان(٧٤) وصفا دقيقا لأحداث الإسكندرية عقب نشر هذا المرسوم، حيث يذكر أن الاضطرابات شملت الكنائس كلها، وزاد الأمر سوءا أن قوات الحامية التى كانت تحت إمرة الحاكم فلافيانوس Flavianus الالليرى، كانت غير كافية للسيطرة على هذا الهياج، مما دفع الجموع إلى التمادى فى سخطها، كما أن موظفى الإدارة الإمبراطورية كانوا حريصين على تنفيذ أوامر الإمبراطور حتى لا يضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب البدنى أو الجزاء المادى، ويضيف أن جموع النيقيين فى المدينة أعلنت رفضها للمرسوم الإمبراطورى وراحت تحاج بأن أثناسيوس لا يقع ضمن دائرة هذا القرار، وعللوا ذلك بأن قسطنطيوس استدعاه إلى الكنيسة، يشيرون بذلك إلى ما وقع بعد مجمع سرديكا. أما جوليان ففى الوقت الذى سمح فيه بعودة الأساقفة المنفيين جميعا، أمر بنفى أثناسيوس وظل فى منفاه حتى عاد به جوفيان، ومن ثم أعلنوا أن قرار النفى الأخير لا ينطبق على الأسقف السكندرى.

استمرت هذه الثورة فى المدينة طيلة شهر كامل(٧٥) ويخبرنا سوزومنوس أن

---

(71) Gwatkin, The Arian Controversy. p. 122

(72) HIST. ACEPH. X, 15

وراجع SOZOM. Hist. Eccl. VI, 21

(73) HIST. ACEPH. X, 15

(74) Id.

(75) Id.

الحاكم كبح جماح نفسه ولم يحاول استخدام القوة العسكرية(٧٦)، ويبدو أن ما ذكرناه عن قلة عدد هذه القوات كان سببا فى هذا الموقف، ولاشك أن هذه الأحداث التى وقعت فى المدينة تبين غاية الجهد الذى بذله أثناسيوس خلال رحلته الأسقفية الطويلة، وكان النفى المتتابع الذى عاناه فى صالحه على غير ما أراد الأباطرة وتوقعوا، فمن خلاله كسب غرب الإمبراطورية كله، وبه جند من ورائه الآلاف العديدة من رهبان مصر الغيورين، وقد رأوا فى أثناسيوس تجسيدا لآمالهم وعقيدتهم ، ولاشك أن أثناسيوس بعد هذه السنين الطوال، وأنصاره يسيطرون على كل الكنائس فى مصر والمدن الخمس وليبيا، ونفوذ كنيسته يمتد عبر طيبة إلى مملكة أكسوم، وشعب الكنيسة فى مصر كلها يقف من خلفه يؤيده، قد أضحى فى مركز القوة والمنعة التى يستطيع بها أن يتحدى السلطة الإمبراطورية، لا بل يقف موقف المعارضة والرفض لقرارات الإمبراطور.

وكانت ثورة الإسكندرية سنة ٣٦٥ خير تعبير عن هذه الناحية، بل إن الثورة لم تقتصر على الإسكندرية وحدها بل امتدت إلى أنحاء مصر كلها، إذ يذكر سوزومنوس أن عدداً كبيرا من أنحاء مصر وصحاريها، قد شارك فى هذه الثورة وتدافعت الجموع من كل مكان إلى الإسكندرية وأصبحت المدينة على وشك الانفجار(٧٧).

اقتنع فلافيانوس أن لا قبل له بمواجهة غضب أهالى الإسكندرية، فأعلن أنه قد بعث بتقرير إلى الإمبراطور يعرض عليه الحجج التى قدمها الأهلون باستثناء الأسقف السكندرى من قرار النفى الأخير، ودعا الناس إلى التزام الهدوء حتى يأتى رد الإمبراطور(٧٨) ولابد أن تقرير حاكم مصر إلى الإمبراطور قد تضمن عرضا وافيا عن هذا الاضطراب الحادث فى المدينة(٧٩)، ولكن يبدو أن هذه الأحداث قد

(76) HIST. ACEPH. X, 15
(77) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12
(78) HIST. ACEPH. X, 15
(79) SOZOM. Hist. eccl. VI, 12.

زادت الإمبراطور إصراراً على موقفه تجاه أثناسيوس، ذلك أنه في ٥ أكتوبر ٣٦٥ كان رد فالنز قد وصل الإسكندرية وتولى فلافيانوس تنفيذه على الفور، فقام بصحبة القائد العسكري فكتورينوس Victorinus على رأس قوة من الحامية، وهاجموا كنيسة ديونيسيوس Dionysius التي كان أثناسيوس قد اعتاد أن يسكن إليها في الفقرة الأخيرة، بغية القبض على الأسقف السكندري[٨٠]، غير أنهم لم يعثروا له على أثر، ذلك أن أثناسيوس كان قد أخذ حذره ولم ينتظر حتى يحيط به الجنود كما حدث سنة٣٥٦ على يد سيريانوس، بل هرب من الكنيسة قبل أن تتعرض لهذا الهجوم[٨١] وانسحب إلى بيت يقع عند فرع النيل الذي يفصل الإسكندرية عن ضاحيتها الغربية ليختبئ فيه عن أعين جنود الإمبراطور[٨٢] وبهذا بدأ الأسقف نفيه الخامس.

ولابد أن أنباء مهاجمة الكنيسة قد تلقاها أثناسيوس في الوقت المناسب ومن ثم أعد للأمر عدته، إذا لا ريب أنه كانت للأسقف عيونه وسط هذا الجو العدائي الذي يسيطر على العلاقات بينه وبين الأباطرة، وكانت المدينة، كما أخبرنا سوزومنوس، تمتلئ بمن تقاطر عليها من مختلف الأماكن، وكلهم أعوانه وجنده . وإذا كانت أنباء الأحداث خارج مصر تصل إليه فور وقوعها مدعمة بالوثائق، فمن الحرى أن يعلمها في الإسكندرية قبل حدوثها، لقد آتت جهود أثناسيوس طيلة هذه السنوات، الآن، أكلها.

أدرك اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين أن الضربة القادمة ستوجه إليهم، فقد قام فالنز بنفي مندوبيهم، بل وحتى المعتدلين من رجالهم مثل مليتيوس أسقف أنطاكية، ولذا كان عليهم أن يبحثوا، حسب تعبير المؤرخ Kidd عن وسيلة يهربون بها من الفناء الذي سوف يحتويهم[٨٣]وذلك نتجه للضيق الذي حل بهم على

(80) HIST. ACEPH. VI, 16
(81) Id.
(82) Id.
(83) Kidd, op. Cit, II, p. 229

يـــد يودوكســـيوس أسقف القسطنطينية[٨٤]، فحاولوا من جديد اللجوء إلى إمبراطور الغـــرب وأيقـــنوا أنهم لو أفلحوا هذه المرة فى استمالته إلى صفهم، لعاد إليهم شيء من نفوذ يتطلعون إليه، وقد أستقر رأيهم على تشكيل وفد للقاء الإمبراطور[٨٥] ضم يوستاثيوس أسقف سيواس، وسيلفانوس أسقف طرسوس[٨٦]، وزودوا الوفد بنصائح تدعوه للجوء إلى أسقف روما ليبيريوس إذا دعت الضرورة إلى ذلك، والدخول فى شـــركته إذا لزم الأمر[٨٧] إذ كانوا يرون فى أسقف روما لين جانب، بعد إذ وضة توقيعـــه من قبل على مرسوم سيرميوم، ولكنه منذ عاد من منفاه، وخاصة بعد وفاة قسطنطيوس، أعلن جهارا ندمه على ما قدمت يداه، وتمسكه بالإيمان النيقى[٨٨].

لـــم يتمكن الوفد من لقاء الإمبراطور فالنتينيانّ، إذ كان قد غادر ميلانو إلى الغـــرب فى أكـــتوبر ٣٦٥، ليبحث عن حل للمسألة الجرمانية عند الراين[٨٩]، ولم يضع مندوبو الشرق وقتا، فاتجهوا لفورهم إلى روما حيث التقوا بأسقفها وعرضوا عليه رغبتهم فى الدخول فى شركته، غير أنّ ليبريوس توجس فى نفسه خفية خشية أن يقـــع فيما أقدم عليه من قبل، فرفض قبولهم وأعلن أن عقيدتهم الآريوسية تقف حـــائلا بيـــنهم وبيـــن ما يشتهون[٩٠]، وعند ذلك أعلن الوفد أنهم رفضوا منذ زمن طويل العقيدة الأنوموية، وجاهروا بالاعتراف بأن الابن فى كل شيء " يشبه الآب

(84) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 10

(٨٥) تـــم تشكيل هذا الوفد بعد مراسلات عديدة دارت بينهم من مدينة لأخرى خاصة فى الهللسبونت، وعقد مجـــامع عديـــدة للوصـــول إلى اتفـــاق فى وجهة النظر، شهدتها مناطق سميرنا Smyrna وبيسيديا Bisidia وايزوريا Isuria وبامفيليا Pamphilia وليكيا Lycia .
انظر ، SOCRAT. Hist. Eccl. VI, 12

(86) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(87) Id.
SOZOM. Loc. cit.

(88) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 19
وأيضاً SOCRT, op. cit. II, 37

(89) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 5 XXVII, 8
وراجع كذلك SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(90) SOCRAT. Loc. cit.

" وفسروا مصطلح الهومويوسية" بأنه لا يختلف في شيء عن " الهوموسية"[91] رغم ما نعلمه عن الفارق الكبير بينهما، ولأن ليبريوس كان قد تلقى من قبل درسا عمليا، فقد طلب إليهم أن يقدموا هذا الاعتراف ان كانوا صادقين[92]، وعلى الفور أبرز المندوبون وثيقة إيمانهم، وكانوا قد جاءوا بها نتاجا للمجامع التى عقدوها من قبل، اعترفوا فيها بصراحة بالإيمان النيقى، وأعلنوا رفضهم لما تم إقراره فى ريمينى، وما تنادى به الفرق الآريوسية الأخرى[93].

هكذا أفنى أنصاف الآريوسيين والماكيدونيون أنفسهم بأيديهم لا بيد فالنز الإمبراطور، فخوفا من أن يبطش بهم ويخضعهم قهرا لبنى عمومتهم الألداء، آثروا أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان النيقية . على أن نفرا من الماكدونيين بقى على ولائه لعقيدته إلى أن أدينت الماكيدونية فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٣٨١، زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥)[94].

وكم كان أسقف روما سعيدا وهو يرى رسل جماعة من أساقفة الشرق تفد إلى روما لتعرض الدخول في شركته، ولم يتمالك ليبريوس نفسه من الفرحة التى

---

(91) Id.

(92) SOCRAT. Hist. eccl

(٩٣) جاء فى هذه الوثيقة : ولما كان الخبل قد تملك فكر الهراطقة، والعته، وساقهم فى كل حين ولازال إلى تدنيس الكنيسة الكاثوليكية، وحدتنا الحمية إلى أن نتصدى لمسلكهم ذاك. جئنا نعرض الرضى بالعقيدة التى أقرتها مجامع أساقفة قويمى الإيمان تلاقى عقدها فى لامساكوس وسميرنا وديار أخر، من تلك المجامع أتيناك رسلاً ، نحمل كتاباً إلى جنابكم الورع وكل أساقفه الغرب وإيطاليا، نعترف فيه أنا ندين بالإيمان الكاثوليكى الذى أقره المجمع المقدس فى نيقية على عهد قسطنطين صاحب الذكر العطر، بفكر ثلاثمائة أسقف وثمانية عشر، ولا يزال تاما غير ذى عوج، فى الإيمان ذاك، الهوموسية بقداسة استعملت تتحدى عقيدة آريوس وضررها، ومن ثم قالنا مع أولاء الذين نمثلهم معترف بمحض إرادتنا أنا نقر دوما نفس الإيمان، ولعن تلك الصيغة التى تليت فى ريمينى، باعتبارها مضادة لإيمان المجمع المقدس فى نقية. تلعن أولئك الذين يؤكدون أن "هناك زمن الابن فيه لم يكن " وأنه " قبل أن يولد لم يكن " وأنه " خلق من العدم " وأولاء الذين يقولون إن الابن الله " من جوهر أخر " أو أنه " متغير وعرضة للتغاير " .

وراجع SOZOM. Hist. Eccl. VI, II

(٩٤) للمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف. الدولة والكنيسة . الجزء الرابع ، الفصل الثالث .

انتابــته، فكتب رسالة إلى زعماء اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين يخبرهم أن مـــا جـــاء بـــه رسلهم " قد أدخل البشر والسرور على قلبه "، " ومحا أى شائبة انطـــباع بالشك بعد أن شهدوا على أنفسهم، لا بالكلمة وحدها بل والكتابة "، ويحمل فيها بعنف على صيغة الإيمان التى أقرها الأساقفة في ريميني والتى تابعها نفر من الاكــليروس كبير، على أن ما يعنينا فى هذه الرسالة هو ما أعلنه أسقف روما من أن أساقفة إيطاليا والغرب جميعا قد عادوا إلى حظيرة الإيمان النيقى ثانية وهجروا مرسوم ريمينى الذى وقعوه " بالخديعة أو بيد السلطة كرها "[٩٥].

والذى لاشك فيه أن أساقفة الغرب جلهم، كانوا بعد ريمينى، وحتى قبل موت قسطنطيوس، قد أخذوا يتراجعون عما وقعوا عليه فى ريمينى، فقد أسلفنا أن الغرب قـــد قـــبل مـــنذ الـــبداية مرسوم الإيمان النيقى، وزاد تعلقهم به بعد أن وفد عليهم أثناســـيوس منفيا ثم لائذا، خاصة وأن القانون يتفق وطبيعتهم وضآلة ثقافتهم، وعلى ذلك فإن أى محاولة لأعمال الفكر كان لها الفشل حليفا، ومن ثم لم تحظ الآريوسية بنصـــيب ما فى دنيا الغرب تلك. ويذكر بعض المؤرخين أن وجود جوليان قيصرا لغالة وانصراف قسطنطيوس إلى الأعداد للحرب الفارسية فى السنوات الأخيرة من حكمـــه قد شجع أساقفة الغرب على الارتداد ثانية إلى الإيمان النيقى بعد ما أقروه فى ريمينى[٩٦]، وقد يكون ذلك عاملا مساعدا، فلم يكن جوليان آنذاك قد أفصح عن عقيدتـــه، كما أنه لم يهتم بمذهب ما فى المسيحية، ولا بالمسيحية ذاتها كعقيدة، وإذا كـــان الغـــرب قـــد أمن إلى النيقية عقيدة، فقد كانت أسقفية ميلانو لا تزال خاضعة لأوكسنتيوس الآريوسى[٩٧].

وكان أوكسنتيوس فى معزل عن الهجوم طيلة عهد قسطنطيوس، فلما قضى هـــذا نحبه، وكان هيلارى أسقف بواتييه قد عاد إلى غالة، وراح يشن هجوم عنيفا على الآريوسية بعامة فى غالة وإيطاليا، ويخص أسقف ميلانو باللعنة، وقد شاركه

(95) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12
(96) Watson, op. cit. pp. 14, 38
(97) AMB. Semo C. AUX. 1-37

جهده هذا يوسيبيوس أسقف فرسالى[٩٨]، فلما كانت سنة٣٦٤ وولى فالنتينيان أمر الغرب وقبل العقيدة السائدة بين رعيته[٩٩]، وشعر الأسقفان أن بقاء أوكسنتيوس على أسقفية هامة لها فى الغرب شأنها[١٠٠]، لابد أن يوقع الضرر بالنيقية، ولهذا عولا، وهيلارى بالذات، على طرده من ميلانو، وقد سعيا فى ذلك لدى فالنتينيان فى ميلانو سنة ٣٦٤، وراحا يثيران الأساقفة والجموع ضد أوكسنتيوس، فشكا هذا الأمر للإمبراطور، وقد تقرر عقد مناظرة بين الطرفين.

وإذا كان هيلارى، كما تقول المصادر، قد كسب المناقشة، إلا أنه خسر القضية[١٠١]، ذلك أن الإمبراطور لم يكن على استعداد لأن يثير فى منطقة نفوذه نوعا من الفوضى العقيدية الحادثة فى الشرق، ولهذا كان يؤثر الاعتقاد بأن أوكسنتيوس صاحب الحق الشرعى فى أسقفية ميلانو، خاصة بعد أن مات سلفه ديونيسيوس، وقد رفعت اللجنة التى شكلت للتحقيق تقريرها إلى الإمبراطور وأقرت هذه الحقيقة الأخيرة، وعليه أصدر فالنتينيان قراره ببقاء أوكسنتيوس فى منصبه، ولم يلق بالا لجهود هيلارى الذى أطلق على قرار الإمبراطور اسم "مرسوم الأحزان"[١٠٢].

تحصن رسل الشرق برسالة ليبريوس أسقف روما، واتجهوا جنوبا إلى صقلية، حيث عقدوا مجمعا ضم أساقفة الجزيرة، واعترفوا فى حضرتهم بالهوموسية وأعلنوا تمسكهم بالإيمان النيقى، وحصلوا منهم على رسالة تؤيد مسلكهم وتمتدح[١٠٣] ثم عادوا أدراجهم إلى الشرق ثانية، وكان اتحاد أنصاف

---

(98) SOCRAT. Hist. Eccl.III, 10

(99) Watson, op. cit. p. 49

(100) F. Jackson, Arianism, p. 781

(101) HILAR. Con. Aux.7 (p. l. x. 613)

(102) Ibid. 8 (P. L. X. 614), 14 (P. L. X. 617)
وراجع Watson, op. cit. pp. 50, 51

(103) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

الآريوسـيين والماكيدونيين قد تلقى صورة من رسالة ليبريوس، فعقدوا مجمعا سنة ٣٦٦ في مديـنة الطوانة[١٠٤] Tyana ، حضره أثناسيوس أسقف أنقرة الذى خلف باسـيليوس، وبلاجيوس Pelagius أسقف اللاذقية، وزينون Zeno أسقف صور، وجـريجورى أسـقف نازيانـزا وآخرون، وأعادوا الاعتراف بالهوموسية، بعد أن قـرئت الرسـائل الـتى بعث بها ليبريوس وأساقفة مجمع صقلية ، وكتبوا بدورهم رسـائل بعثوا بها إلى مختلف الأساقفة يدعونهم فيها إلى اتباع خطوهم، والاهتداء بما كتبه ليبريوس، وفى النهاية وجهت الدعوة لعقد مجمع قبل نهاية ربيع عام ٣٦٧ فى مدينة طرسوس[١٠٥].

وهكـذا جـاءت النهاية سريعة، ففى عام ٣٥٨ ظهر على مسرح اللاهوت فـريق أنصـاف الآريوسـيين، ليحيى ثمانى حجج، ثم اختفى من سجل الزمن هذا الاسـم Semi-Arians بـرقوا فجـأة فى أنقرة ذلك العام، وصعدوا للسيادة فى سـيرميوم العام التالى، وكان هذا الفريق منذ اليوم الأول لظهوره قريبا من النيقية قـدر انتسـابه للآريوسـية، فلما لفظه الآريوسيون ألقى بنفسه فى أحضان أعدائه الأقربين.

وكـان هـناك جماعة من أساقفة آسيا يرفضون هذا الاتجاه من جانب اتحاد أنصـاف الآريوسيين والماكيدونيين، وهؤلاء يكونون متطرفى الفريقين، من ثم فانه لـلرد عـلى مجمـع الطوانة، وتحديا للمجمع المقترح فى طرسوس، أسرع أربعة وثلاثـون أسـقفا من هؤلاء، وعقدوا مجمعا فى كاريا Caria أعلنوا معارضتهم الكامـلة لمصطلح " الهوموسية " وأقروا المرسوم اللوقيانى، الذى صدر عن مجمع أنطاكية سنة ٣٤١، معتبرين إياه قانون الإيمان الحق الوحيد فى الكنيسة، وله وحده أن يعـلو عـلى كل قوانين الإيمان المسيحية الأخرى[١٠٦]. وفى الوقت ذاته شعر

(104) BASIL. Ep. CCXXVI, 3
وكذلك .SOZOM. Loc. cit
(105) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12
(106) Id.

يودوكسيوس بالأخطار التى تتهدد الهوموية نتيجة لهذا التحالف الجديد الذى يشكل فى الإمبراطورية أغلبية لا يستهان بها، بين أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين من ناحية والنيقيين من ناحية أخرى ، ولذا فقد كتب إلى الإمبراطور فالنز يخبره بحقيقة الأمر، ولما كان الإمبراطور قد خرج لتوه من أزمة داخلية طاحنة كادت تؤدى بعرشه، ويستعد فى الوقت ذاته لتأديب جماعات القوط التى أخذت تتهدد الإمبراطورية عند الدانواب، تلقى العماد على يد يودوكسيوس(١٠٧)، وأصدر أوامره بعدم عقد مجمع طرسوس المقترح(١٠٨).

ذلك أنه قرب نهاية ٣٦٥، انتهز بروكوبيوس Procopius ، أحد قادة الجيش، فرصة خلو العاصمة من فالنز لانشغاله فى الشرق، وأعلن نفسه إمبراطورا، مدعيا أن الإمبراطور الراحل قد اختاره خلفا له عندما أهداه العباءة الإمبراطورية(١٠٩)، وتمكن بروكوبيوس من أن يجمع حوله قوات كبيرة فى فترة قصيرة(١١٠)، فلما علم فالنز بذلك أصيب بحالة من " الهلع " قادته إلى " خبل فى تفكيره " كما يروى سقراط(١١١)، وقد أمضى الإمبراطور فالنز وقتا طويلا فى الاستعداد لملاقاة هذا الدعى، ولم تبدأ الحرب بينهما إلا فى السنة التالية، حيث خرج بروكوبيوس من القسطنطينية متجها ناحية الشرق، وغادر فالنز أنطاكية لمواجهة منافسه، وعند ناقوليا Nacolia فى فريجيا التقى الجمعان، ولعبت الخيانة دورها، إذ أن قائدي بروكوبيوس، أجيلو Agilo، وجومورِيوس(١١٢) Gom

---

(107) THEOD. Hist. Eccl. IV, 11

(108) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12

أيضا SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 12

(109) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 6

(110) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 3

(111) Id.

(١١٢) يذكر أميانوس ماركللينوس اسميها على نحو آخر، إذ يقول انهما فلورنتيوس Florentius وباركالبا Barchalba .

انظر AMM. MARC. op. cit. XXVI, 10

orius غـدرا بسيدهما وسلماه حيا إلى فالنز الذى أمر بإعدامه، وما لبث القائدان أن لقيا نفس المصير(١١٣) وتخلص فالنز بذلك من فتنة خطيرة تتهدد سلطانه.

إلا أن فتـــنة بروكوبيوس هذه كان لها أثرها المباشر على الإسكندرية، ذلك أنـــه فى هذا الوقت الحرج، تلقت مسامع فالنز أنباء تشير إلى أن شعب الكنيسة فى الإسـكندرية يتحفز للثورة، منتهزا فرصة هذه الفوضى الداخلية فى الإمبراطورية، وذلـك تعـبيرا عن السخط الكامل لنفى أسقفه للمرة الخامسة، بل ربما بدأت بوادر الثورة فعلا فى المدينة كما ينبئنا بذلك سقراط(١١٤)، وأدرك الإمبراطور حرج موقفه ولـم يكـن عـلى اسـتعداد لـلمغامرة بإرسال جزء من قواته لإخماد الثورة فى الإسـكندرية فى الوقـت الذى يستحث فيه بروكوبيوس خطوه لمهاجمته، والفرس يـتحفزون للقفز على أرمينيا، كما أنه لابد وأن يكون قد دار بذهنه ما وقع من قبل عـلي عهد قسطنطيوس، عندما أرسل ماجننتيوس ورسله إلى الإسكندرية لاستمالة أثناسيوس، لأن الأسقف كان لا يزال على ولائه لقسطنطيوس، أما الآن فالحالة أشد خطـورة بعـد أن فقـد الإمبراطور كل ولاء له من جانب أثناسيوس، بعد إعلانه الصـريح الإيمان بالآريوسية، ولم يغب عن ذهن فالنز أبدا تلك الأهمية التى تمثلها مصر بموقعها واقتصادياتها فى صراع قد يطول أمده بينه وبين منافسه. وإذ وضع الإمـبراطور أمام ناظريه كل هذه الاعتبارات، أصدر أوامره على الفور باستدعاء أثناسـيوس إلى أسقفيته(١١٥)، وأعلن ذلك فى الإسكندرية فى أول فبراير سنة ٣٦٦، بل أن الإمبراطور أمر أحد موظفيه فى مصر بأن يخف لاستقبال أثناسيوس، ومن ثـم قـام المـندوب إلى ذلك المكان الذى ظهر فيه الأسقف، تحيط به جموع شعب

---

(113) AMM. MARC. Res gest. XXVI, 6
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 5
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI, 8
(114) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 13
(115) SOCRAT. Loc. cit.
وكذلك HIST. ACEPH. XI, 16

الكنيسة لإعادة أثناسيوس إلى بيعته وحمايته حتى دخوله الكنيسة(١١٦). ووسط مظاهر الحفاوة هذه عاد أثناسيوس إلى أسقفيته، وانتهى بذلك نفيه الخامس الذى لم يستمر هذه المرة أكثر من شهور أربعة، وكان أقصر مرات نفيه زمانا.

ويعلق سوزومنوس على ذلك فى صراحية مفرطة بقوله: "لابد أن تساور الإنسان الشكوك فى الدافع الذى حدا بفالنز إلى التصريح لأثناسيوس بالعودة إلى أسقفيته. لا ريب أن ذلك لم يكن بناء على رغبته الخاصة، ولكن لابد أن يكون فالنز قد أقدم على ذلك خوفا من إثارة غضب فالنتينيان، الذى كان معروفا عنه ميله للنيقية، ولابد أيضا أنه كان يخشى حدوث الفتنة من جانب أولئك المتعلقين بالأسقف، وهم كثيرون، مخافة أن يؤدى ذلك إلى الأضرار بشئون الإمبراطورية العامة(١١٧).

ثم يضيف " وإنى لعلى يقين " أن هذه الأسباب وحدها هى التى أبقت أثناسيوس على أسقفيته فى الوقت الذى لقى فيه العنت عدد كبير من الأساقفة الآخرين(١١٨).

وإذا كان سوزمين قد ابتعد عن الصواب فى اقحام " غضب فالنتينيان " على أسباب عودة أثناسيوس ، ولعله كان متأثرا فى رأيه هذا بما أقدم عليه قسطنطيوس سنة ٣٤٦ عندما سمح بعودة الأسقف السكندرى اتقاء غضب أخيه قنسطانز، إلا أنه أصاب كبد الحقيقة بعينها فى الجزء الأخير من تبريره ، والقول " بالخوف من الأضرار بشئون الإمبراطورية العامة " إشارة صريحة إلى فتنة بروكوبيوس ، وما أصاب فالنز من جرائها خشية أن تنضم مصر إلى جانب عدوه، ويقول سقراط " لقد عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية، وحرص الإمبراطور بعد ذلك على أن لا يعكر صفو سلام كنيسته، فقد كان يعلم تماما قوة تلك الجموع التى تؤيد أثناسيوس وتتعلق

(116) HIST. ACEPH. XI, 16
(117) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 12
(118) Id.

بـــه، فلم يحاول أن يستثير غضبهم مخافة أن تتعرض أمور الدولة العامة للأخطار على يد السكندريين الذين كانوا بطبعهم جنسا غاضبا(١١٩).

الحقيقـــة الـــتى يذكرها سوزومنوس لا مراء فيها، فبينما عاد أثناسيوس إلى بيعته، بدأ فالنز اضطهادا عنيفا ضد كل الأساقفة الخارجين عن شركة يودوكسيوس أسقف العاصمة، وكان أشد تغيظا من أولئك الذين هجروا الآن آريوسيتهم وانضموا إلى النيقين، أعنى أنصاف الاريوسيين والماكيدونيين، ولذلك كان اليوزيوس أسقف كيزيكوس أول من تعرض ليد العذاب(١٢٠) فصدر قرار بعزله وتم رسم يونوميوس الآريوســـى المـــتطرف، تـــلميذ أيتيوس، أسقفا على المدينة(١٢١)، وأوقع الاضطهاد بالأســـقف النوفاتى آجيليوس Agelius الذى كان يتولى رعاية النوفاتيين منذ عهد قســـطنطين الكبير، ويقول سقراط، الذى كان يميل إلى هذه الطائفة، إن الاريوسيين كـــانوا يحمـــلون الكـــره الدفين للنوفاتيين، بسبب تعاطف هؤلاء مع الهوموسيين، واتفاقهم مؤخرا معهم فى العقيدة(١٢٢).

وفى عـــام ٣٧٠ مات يودوكسيوس أسقف القسطنطينية، فأسرع الهومويون باخـــتيار ديموفيلوس Demophilus أسقفا خلفا. غير أن الهوموسيين نظروا إلى وفـــاة يودكسيوس باعتبارها فرصة مواتية، فرسموا ايفاجريوس Evagrius أسقفا منافســـا(١٢٣)، وقد علم الإمبراطور بهذه الأحداث وهو فى نيقوميديا فى طريقه إلى الشرق، فخشى أن تمتد أيدى التخريب إلى المدينة نتيجة لما يمكن أن يؤدى إليه هذا الصراع العقيدى، فسارع إلى إرسال بعض كتائبه إلى العاصمة وأمر بالقبض على

(119) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20

(120) Ibid. VI, 6
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. IV,8

(121) SOCRAT. Hist. Eccl. VI,7
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. II, 37-39

(122) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 9
وأيضا SOCRAT. Hist . eccl. IV, 14

(123) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 13

ايفاجـــريوس(١٢٤)، واشتدت عملية الاضطهاد من جديد ضد النيقيين، ورسم مؤرخو الكنيســة صورا عديدة عن هذا الاضطهاد(١٢٥)، لا نرى داعيا لذكرها فربما داخلها شئ أو كثير من المبالغة، ولكن كل ما يعنينا منها أن الإمبراطور وأسقف العاصمة الجديـــد، كانـــا جــادين فى تحقيــق السيادة للآريوسية، وكانت الهوموية هى أمل الآريوسية الوحيد فى البقاء(١٢٦).

ومـــن رســالة بعـــث بهـــا باسيليوس، الذى اعتلى كرسي الأسقفية فى قيسارية كــبادوكيا ســنة ٣٧٠(١٢٧)، إلى أســاقفة إيطاليا وغالة نعلم مدى ما تعرض له خصوم الهومويـــة على عهد فالنز، ويقول إن هناك تفاصيل رأى أن لا يكتبها فى هذه الرسالة، وســوف يوضـــحها لهـــم شماسة سابينوس Sabinus الذى يحمل رسالته إليهم(١٢٨)، ويذكـــر أنه لا توجد كنيسة واحدة لم تتعرض لهذه العاصفة التى هبت على الكنائس من الــليريا إلى طيــبة(١٢٩)، وينوح باسيليوس على أن خطورة العاصفة تتمثل بصورة أشد وقعـــا فى هذا الانقسام الداخلى الذى يهلك النيقية(١٣٠)، ثم يناشد أساقفة الغرب أن يمدوا يـــد العـــون إلى إخوانهم فى الشرق وذلك عن طريق اتجاه عدد كبير منهم إلى النصف الشـــرقى مـــن الإمبراطورية، وعقد مجمع كنسى لوضع حد لهذا الاضطهاد(١٣١)، وفى رسالة أخرى إلى أساقفة الغرب ردد باسيليوس نفس المعنى(١٣٢).

---

(124) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 15
(125) Ibid. IV, 15-17
وكذلك SOZOM. op. cit. 13-18
وراجع أيضا GREG. NAZ. Orat. XLIII, 46,XXXIII,4
(126) Gwatkin. The Arian Controversy, p. 130
(127) SOCRAT. Hist. Eccl. IV,26
وكذلك SOZOM. Hist. Eccl. VI,16
(128) BASIL. Ep. XCII, 1
(129) BASIL. Ep. XCII, 2
(130) Ibid. 3
(131) Ibid. 1, 3
(132) BASIL. Ep. XC

وكـــان باســـيليوس نفسه أكثر هؤلاء الأساقفة تعرضا لغضب الإمبراطور، حـــتى قبل أن يصبح أسقفا على قيسارية، فعندما كان فالنز فى طريقه إلى أنطاكية لـــلمرة الأولى، عمـــل عـــلى إثارة الشقاق بين باسيليوس وأسقفه يوسيبيوس[١٣٣]، وارتحـــل باســـيليوس بـــالفعل إلى أديرة بونطس، وأدى ذلك إلى ازورار كثير من اكـــليروس المـــنطقة عن يوسيبيوس، ونفخ فالنز وأساقفته، كما يقول سوزمين، من روحهم فى هذا الشقاق[١٣٤]، غير أن باسيليوس فطن إلى هذه الوقعية، فما أن غادر فالـــنز كـــبادوكيا قاصدا إنطاكية، حتى عاد باسيليوس إلى قيسارية[١٣٥]. وفى عام ٣٧٢ زار فالنز كبادوكيا للمرة الثانية، وكان باسيليوس قد أصبح أسقفا لها، فأرسل إليه الإمبراطور حاكم الولاية يدعوه إلى الدخول فى شركة ديموفيلوس وإلا تعرض برفضـــه للإعـــدام[١٣٦]، وقد أجاب باسيليوس " أنى لا أملك شيئا أخاف عليه، ليس لـــدى سوى معطفى وبعض كتب، أفترش الأرض كغريب، والجسد عضه الهزال، ولن يستغرق أكثر من ضربة واحدة[١٣٧]، وقد ذكر لنا مؤرخو الكنيسة[١٣٨] روايات عديـــدة عمـــا حـــدث بين الإمبراطور وباسيليوس، كلها لاشك، نسجها خيال أولئك الكـــتاب، ولعـــبت فيهـــا الأســـطورة دورا، ولكنها تفصح فى النهاية عن إصرار باسيليوس على موقفه، وعدم رضوخه لتهديدات فالنز الإمبراطور.

أمـــا أثناسيوس فمنذ عاد من نفيه الخامس، وطوال سبع سنوات آتية، أمضى هذه الفترة سيدا على كنيسته بلا منازع، وتاريخ أثناسيوس خلال هذه الفترة الأخيرة

---

(133) SOZOM. Hist. Eccl. VIL, 15

(134) Id.

(135) Id.

(136) Ibid, 16

(137) SOZOM.Hist. eccl. VI,16

(138) GREG. NAZ Orat. XIII, 44-57

وأيضا

GREG. NYSS. Con. Eunom. II, 290-205;

SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 26;

SOZOM.Loc.cit.;

THEOD. Hist. Eccl. IV, 16.

من حياته، هو تاريخ نفوذ أسقفية الإسكندرية ومكانتها فى عالم المسيحية، ورغم أن الآريوســية الحكومية، أعنى الهوموية، قد شاء لها فالنز أن تصبح سيدة العقائد فى الدولة، وخاض فى سبيل ذلك صراعا مزيرا مع مختلف الفرق المسيحية الأخرى، إلا أن الإمــبراطور لــم يستطع، بل لم يحاول أن يقترب من قلعة النيقية الحصينة، الإســكندرية، فقــد كان يعلم يقينا أن وراء الأسقف يقف الأكليروس جندا، وجيش الرهــبان وزحوف شعب الكنيسة، ولم يفرغ فالنز من فتنة بروكوبيرس إلا ليواجه غــزو الجــرمان، ولا يكــاد هذا تخف حدته، حتى يسرع ليدفع عن حدوده جيش فــارس، ومــن بعد القوط الذين خر بسيوفهم صريعا عام ٣٧٨، لذا بقى أثناسيوس على كرسيه الأسقفى آمنا مطمئنا يجنى ثمار غرسه طيلة هذه السنين.

ولقــد ســعى الآريوســيون ذات مرة للوقوف على قوة أثناسيوس، ففى ٢٤ ســبتمبر ٣٦٧، قدم لوقا الأسقف الآريوسى، الذى علمنا أن جوفيان رفض من قبل التصديق على رسامته بدلا من أثناسيوس، ودخل الإسكندرية ليلا[١٣٩] عله يفلح فى اقتسام الأسقفية مع أثناسيوس، متخذا من أنطاكية أنموذجا يحتذى.

غيــر أن نــبأ وصــوله فى الإسكندرية سرى مسرى البرق، فأقبلت جموع المســيحيين[١٤٠] من كل حدب وصوب معلنة سخطها على اقتحام لوقا المدينة وفيها أســقفها الشــرعى[١٤١] بل لقد امتد السخط مشوبا بالقلق إلى تراجان Trajanus القائد العسكرى، وتاطيانوس Tatianus الحاكم، فأرسلا من لدنهما بعض موظفى الإدارة لاصــطحابه خــارج المديــنة[١٤٢]. إلا أن هؤلاء الموظفين راعهم غضب العامــة وقد غصت بهم شوارع الإسكندرية ودروبها، وخشوا إن هم أخرجوا لوقا خارج المكان الذى يختبئ فيه، أن تفتك به هذه الجموع[١٤٣] بل إن حوليات رسائل

(139) HIST. ACEPH. XIII, 18
(140) Id.
(141) Id.
(142) Id.
(143) FEST. IND. XXXIX

أثناسيوس الفصحية تؤكد أنهم حاولوا قتله فعلا[١٤٤]. ولابد أن ذكرى ما وقع لجريجورى الكبادوكى كانت ماثلة فى أذهان الجميع، ومن ثم رفعوا الأمر إلى رؤسائهم، فأقبل الحاكم وبرفقته القائد العسكرى ومعه بعض قواته واصطحبوا لوقا إلى قصر القائد[١٤٥] حيث أمضى ليلته ثم رافقه القائد إلى ضاحية " النصر" Nicopolis حيث سلمه إلى بعض الجنود ليذهبوا به خارج مصر كلها[١٤٦].

وهكذا فشلت المحاولة التى يبذلها الآريوسيون لاختبار مدى قوة أثناسيوس فى الإسكندرية، ولا يبعد أن يكون يوزيوس أسقف أنطاكية وراء هذه الواقعة، فهناك كان لوقا، وعلى يديه رسم، ولكن مسلك القائد العسكرى والحاكم يرسم صورة كاملة لسياسة الإمبراطور فالنز تجاه الإسكندرية وأسقفها، فلم يكن فى حالة تسمح له، أن يدخل فى حرب مع أثناسيوس.

وكانت هذه هى الحادثة الوحيدة التى شغلت بال أثناسيوس قليلا فى مصر طيلة هذه السنوات الأخيرة، وانطلاقا من السلام الذى كانت تعيشه كنيسته آنذاك، راح يشارك من جديد فى أحداث الكنيسة خارج مصر، وعاد مرة أخرى يصل ما كانت الدولة قد قطعته من علاقات مع الغرب. لقد كان هذا الجزء من الإمبراطورية قريباً إلى قلب الأسقف السكندرى، فقد كان يشكل فترة هامة من حياته، وأحد سلاحى نزاعه مع الإمبراطورية، والغرب آنذاك يسعى جاهدا للخلاص من الأثر الباقى للآريوسية ممثلا فى أوكسنتيوس أسقف ميلانو. وقد بذل هيلارى جهدا فائقا من أجل هذا، ولكنه مات سنة ٣٦٧ دون أن ينجح فى مسعاه. وكان ليبريوس الأسقف الرومانى قد سبقه إلى الموت بعام (٣٦٦) وخلفه الآن على

---

(١٤٤) يصف شاهد عيان تلك المظاهرة الضخمة التى تبعت لوقا من مكمنه إلى قصر القائد، وهم ينادون بصوت واحد " اقذفوا به خارج المدينة " . ويقول صاحب الرواية أن الوثنيين شاركوا المسيحيين هذه المظاهرة ولا ندرى ما جريرة لوقا تجاه الوثنيين .. ويبدو أن الكاتب أراد أن يشبهها بما حدث لجورج الكبادوكى من قبل .

راجع HIST. ACEPH. XIII, 18

(145) HIST. ACEPH. XIII, 18

(146) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 23

كرسى كنيسة روما داماسوس الأول[١٤٧] Damasus (٣٦٦-٣٨٤) الذى واجه فى بدء أسقفيته اضطرابات دموية، نتجت عن منافسة واحد من الشمامسة يدعى أورسيكيوس Ursicius ، وانتهت بتدخل حاكم المدينة وانتصار داماسوس[١٤٨]، ونتيجة لهذه الأحداث لم يستطع أسقف روما فى أول الأمر أن يواصل حملات هيلارى ضد أوكسنتيوس.

غير أنه فى ٣٦٩ تقريبا، التقى فى روما تسعون أسقفا أدانوا أوكسنتيوس ورفاقه، وطلبوا من الإمبراطور فالنتينيان عزله من منصبه[١٤٩]. ومن رسالة بعث بها داماسوس إلى أساقفة الليريا نقف على حقيقة مجمع روما هذا وما تم فيه، حيث أعلن الحضور تمسكهم بالإيمان النيقى ورفض ما تم إقراره فى ريمينى، وتخلع الرسالة على كرسى روما شيئاً من المكانة ، إذ تعتبر قرارات مجمع ريمينى عبثا حيث أن أسقف روما لم يصدق عليها[١٥٠]. ولما كان موقف الإمبراطور واضحا في هذه المسألة، فقد عزم داماسوس على توجيه الدعوة لعقد مجمع عام لاتخاذ قرار يمثل وجهه نظر الكنيسة الجامعة فى مشكله أوكسنتيوس وبقائه على عرش أسقفية ميلانو[١٥١].

ويبدو أن خطورة أو أوكسنتيوس بالنسبة للغرب لم تكن متجسدة فى مجرد وجوده أسقفا لميلانو، بل لأن جهودا، لابد أن يكون هو من ورائها، بذلت فى الغرب وأفريقيا لاعتبار ما تم فى مجمع ريمينى أساس الإيمان فى الكنيسة، وأنه بما ضم من أساقفة نيقية، يصبح أكثر شرعية من المجمع النيقى[١٥٢]. من أجل هذا، دفاعا عن نيقية، وتضامنا من الغرب، واعترافا بحق الغرب على أثناسيوس، كتب الأسقف السكندرى سنة ٣٦٩ رسالة مجمعية إلى أساقفة أفريقيا Ad Afros

(147) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 23.

(148) Id.

(149) Id.

(150) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1-3

(151) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1

(152) Robertson, op. cit. p. 488

Synodica epistola أشـــار فيها إلى الرسائل " العديدة والرائعة " التى بعث بها إليه داماسوس وأساقفة الغرب الذين عقدوا مجامع فى غالة وإيطاليا لإعلان ولائهم للإيمـــان الـــنيقى[153]، وحمـــل بعنف على أولئك الذين يسعون جاهدين لاستئصال مجمع نيقية وإعلاء شأن مجمع ريمينى، وأفصح عن زعماء هذا الفريق ومقته لهم، وهـــم أوكسنتيوس وفالنز الأسقف وأورساكيوس[154]، ودافع بحماسة بالغة عن آباء نيقيـــة، وأعلن سخطه الكامل على أساقفة ريمينى[155]، ودعا إلى عدم التسامح مع من لا يزال يتمسك بقراراته ونبذهم خارج الكنيسة[156].

عـــلى أن أهـــم ما نقف عليه فى رسالة أثناسيوس هذه، تلك السيادة الكاملة لأسقفية الإسكندرية على مصر وليبيا، فأثناسيوس يذكر فى نهاية رسالته أنه " ليس وحده الذى يكتب، بل كل أساقفة مصر وليبيا " ويقول " نحن جميعا على عقل رجل واحـــد "[157]. وهـــذه العـــبارة الأخيرة دليل واضح على مدى ما وصل إليه نفوذ أثناســـيوس وسيادته على كنائس أسقفيته. وقد التقى هؤلاء الأساقفة جميعا، وقد بلغ عددهم تسعين أسقفا، فى مجمع عقد بالإسكندرية[158]، وكتبوا رسالة إلى داماسوس ردا عـــلى رســـالته إلى أثناســـيوس ، أدانـــوا فيهـــا أسقف ميلانو وأبدوا دهشتهم واســـتياءهم لـــبقائه فى منصبه حتى الآن[159] وتحمل الرسالة أيضا شكر الأساقفة لداماســـوس والأخـــوة فى الغرب، الذين اجتمعوا فى روما وأعلنوا طردهم لفالنز وأورســـاكيوس من أسقفيتيهما،[160] وتطلب الرسالة إلى الجميع فى النهاية الحفاظ

(153) ATHANAS. Ep. Ad. Afros, 1.
(154) Ibid. 2
(155) Ibid. 3
(156) Ibid. 10
(157) Id.
(158) Id.
(159) Id.
(160) Id.

وراجع المؤلف : الدولة والكنيسة – الجزء الرابع– الفصل الأول .

على الإيمان النيقى[١٦١]. على أن هذه الجهود التى بذلها أساقفة الغرب وشارك فيها أثناسيوس وأساقفته بهدف طرد أوكسنتيوس فشلت وظل على أسقفيته حتى مات سنة ٣٧٤.

وقد شهد العامان التاليان لهذه الرسالة المجمعية(٣٧٠-٣٧١) نشاطا فائقا من جانب أسقف الإسكندرية ليشكل فى الشرق للمرة الأولى منذ المجمع النيقى، جبهة نيقية واحدة تتصدى للآريوسية، سواء فى شكلها الحكومى، الهوموية، أو فرقها الأخرى، ولاشك أن أثناسيوس قد شملته سعادة غامرة وهو يرى علاقاته مع الغرب تعود سيرتها الأولى، وبدا ذلك واضحا من ختام رسالته إلى الأفريقيين[١٦٢]، فهاهو الآن يقف فى مصر يستند إلى قاعدة صلبة، ومن ورائه جيش الرهبان، والإمبراطور أقنع نفسه ضجرا بقبول السلام معه، ولم يتبق إلا أن يبحث عن حلفاء فى الشرق يقيم معهم هذه الجبهة الجديدة.

وكان الجيل الجديد للنيقية، والذى بحث عنه أثناسيوس يتمثل فى باسيليوس الكبير أسقف قيسارية الكبادوك، وأحد الكبادوكيين الثلاثة الإشهار فى اللاهوت، الذين يمثلون النيقية فى ثوبها الجديد الذى يتسم بالاعتدال والفكر[١٦٣]. والذى كان مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢ خطوة من أثناسيوس بلوغا إليه، وبين الرجلين دارت مراسلات عديدة، بقى منها رسائل باسيليوس، وهى ست رسائل تتناول بشكل عام أوضاع الكنيسة بحثا عن سبيل للحفاظ على كيانها الواحد دون شقاق، ومن رسالة بعث بها باسيليوس إلى أهالى قيسارية الجديدة Neocaesaria نقف على مدى الإعجاب الذى يكنه الأسقف الكبادوكى لأثناسيوس ، وتكشف عن روح الاعتدال التى تملكت الأسقف فى أخريات أيامه منذ عام ٣٦٢، إذ ينصحه- أثناسيوس بقبول أتباع الفرق الأخرى الذين يرغبون فى العودة إلى العقيدة النيقية دون تردد أو عراقيل[١٦٤].

---

(161) ATHANAS. Ep. Ad Afros, 10.
(162) Neander. Christ. Relig. And church, IV, Pp. 77, 78
(163) BASIL. Ep. CCIV, 6
(164) BASIL. Ep. LXI

وقد كتب أثناسيوس إلى باسيليوس يخبره أنه قد أصدر قرار الحرم الكنسى ضد حاكم ليبيا نتيجة لأعمال العنف و القسوة التى ارتكبها ضد أهالى المنطقة(١٦٥)، ورغم أن أثناسيوس هنا أعلن صراحة تحديه للسلطة- الإمبراطورية، إلا أن فالنز الإمبراطور لم يكن فى حاجة مطلقا إلى أن يثير من جديد غضب الإسكندرية ومصر بعقاب الأسقف الذى أهان نائبه فى ليبيا، وقد رد باسيليوس على رسالة أثناسيوس هذه، وأعلن أسفه للفظائع التى ارتكبت فى ليبيا، وتأييده الكامل للأسقف السكندرى فى موقفه(١٦٦). وهكذا أنفتح باب الصداقة بين رجلى النيقية، وجاءت رسالة باسيليوس الثانية إلى أثناسيوس تصنفه بـ"الأب الممجد" وترجوه أن يترك ذكرى عطرة جديرة بحياته، يتوج فيها جهوده العديدة من أجل الكنيسة "(١٦٧)، وباسيليوس يشير هنا إلى الصراع الحادث فى أنطاكية ويدعو أثناسيوس إلى التدخل " لأنه ليس هناك أقدر منه على علاج هذه الحال "(١٦٨).

وعلى الرغم من أن هذه الرسائل وغيرها تدل على مدى الصداقة بين الرجلين إلا أنه كان من الصعب أن يلتقيا على فكر واحد فيما يختص بالشقاق الانطاكى، فقد كان أثناسيوس، كما علمنا، يؤيد كلية باولينوس أسقف النيقيين اليوستاتيين، على حين كان باسيليوس، كما أفصح عن ذلك صراحة فى رسالته الثالثة إلى أثناسيوس يأخذ جانب مليتيوس أسقف الأغلبية النيقية المعتدلة(١٦٩)،حيث يذكر أن خير علاج لهذا الصدع أن تتحد كل هذه الفرق تحت رعاية مليتيوس . على أن الرسالة تدلنا على شئ فى غاية الأهمية أيضا، فباسيليوس يدعو أثناسيوس فيها إلى التدخل لدى باولنيوس لإقناعه بالدخول فى شركة مليتيوس، ثم يقول : " ولاشك أن هذا سوف يرضى أساقفة الغرب الذين يقفون صفا واحدا وراء رأى أثناسيوس بتأييد باولينوس،

(165) BASIL. Ep. LXI
(166) BASIL. Ep. LXVI
(167) BASIL. Ep.LXVI
(168) BASIL. Ep. LXVII
(169) Id.

فإذا ما أقدم الأسقف السكندرى على ذلك تبعه الغرب دون عناء"(١٧٠).

وهــذه دلاله واضحة على ما كان يتمتع به الأسقف السكندرى من مكانة فى الغرب، وهى فى الوقت ذاته تأكيد جديد، لما رددناه كثيرا، من أن الغرب ظل على إيمانــه التقــليدى بعيدا عن الجدل اللاهوتى، والفكر العقيدى الذى يتسم به الشرق، ورأى فى أثناسيوس، تجسيدا لهذا الإيمان، ومن ثم كان من البديهى أن يؤيد الغرب كلــه باوليــنوس، تلميذ يوستاتيوس، صديق أثناسيوس، والنيقى السلفى كذلك، وهذه المسألة تتضح بجلاء من رسالة الأسقف الكبادوكى الرابعة إلى أثناسيوس(١٧١)، فهو يطــلب إليــه أن يكتب إلى أسقف روما يخبره بهذه الأحداث التى تقع فى الشرق، يعــنى بذلك العنت الذى يتعرض له الخارجون عن الهوموية، وكذا الشقاق الحادث فى إنطاكيــة، وهو يعلن بهذا ثقة الغرب فى الأسقف السكندرى ويدعم ذلك برسالة بعث بها أيضا إلى أساقفة الغرب(١٧٢)، نعلم منها أن أثناسيوس سلمه كل الخطابات الــتى أرسلها هؤلاء الأساقفة إليه، ومن هنا ندرك أن الأسقف السكندرى كان يمثل حلقة الاتصال الوثيقة بين باسيليوس والغرب.

ولقد ازدادت المودة بين الرجلين، الآن، فارتفعت إلى مستوى السفراء، ذلك إن أثناســيوس أرســل من لدنه إلى باسيليوس أحد رجال اكليروسه يدعى بطرس، حيــث استقبله الأسقف الكبادوكى بما يليق بمكانة سيده(١٧٣). وبادله باسيليوس ذلك فبعث إليه الشماس الأنطاكى دوروثوس Dorotheus ليعرض عليه حقيقة النزاع فى إنطاكية(١٧٤).

وفى عــام ٣٧٢ كــان فالــنز قد ضيق على باسيليوس، بعد أن أطلق لسانه يهجــو عقيــدة الإمــبراطور، فلما اشتدت به الضائقة كتب إلى أثناسيوس رسالته

(170) BASIL. Ep. LXIX
(171) BASIL. Ep. XCI
(172) BASIL. Ep. LXIX
(173) Id.
(174) BASIL. Ep. LXXX

الخامسة[١٧٥] يبث إليه فيها أحزانه وما نزل بساحته على يد الإمبراطور، ويصل به الوجد إلى القول :

"...ألا أستطيع فقط، بعون صلواتك، أن أكون جديرا برؤيتك، وبأن أحوز حسن سجاياك، وأن أضيف إلى قصة حياتي لقاء مع روحك الحقه الرسولية. عندها سوف أومن حقا أنى تلقيت من رحمة الله العزاء الذى يسرى عنى كل كرب حياتي " . ولكن أثناسيوس كان قد تقدم به العمر كثيرا، وحتى لو استطاع أن يلبى نداء باسيليوس، فمن المؤكد أن الإمبراطور لم يكن ليسمح بمثل هذا اللقاء. ويبدو أن باسيليوس أدرك هذه الحقيقية فكتب إلى أثناسيوس آخر رسائله[١٧٦] يستميحه عذرا إن هو أبطأ في الكتابة إليه، ويقول :

" عندما أقلب ناظرى في العالم حوالى، ،أدرك هذه الصعاب التى تحطمت على صخورها كل تلك الجهود، أصبح كمن يمشى فى الأغلال مصفدا، يتملكنى اليأس وينقطع عندى الرجاء، فإذا ما رددت بصرى تجاه وقارك، أتذكر أن الرب قد جعلك لكل هاتيك العلل فى الكنائس، واسترد روحى، وأسمو من غياهب القنوط إلى الأمل فى عليين، فحكمتك بادية، لم تجد بمثلها البيع" .

ومع أن الزمن لم يحفظ لنا رسائل أثناسيوس إلى باسيليوس، إلا أن شعور الأسقف السكندرى تجاه رجل اللاهوت الكبادوكي يتبدى من رسائل باسيليوس ذاتها، بالإضافة إلى أن هناك رسالة كتبها أثناسيوس فى ٣٧٢ إلى شخص يدعى بالاديوس Palladius يبدو أنه أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا[١٧٧]، وأخرى بعث بها فى نفس العام إلى اثنين من رجال الأكليروس خارج مصر، لا نعلم عنهما شيئا، هما يوحنا Ioannes وأنطيوخس[١٧٨] Antiochus يصف فيها باسيليوس بأنه " الصديق المحبوب " والأخ الذى تتمنى كل الكنائس أن يكون راعيا لها " .

---

(175) BASIL. Ep. LXXXII
(176) ATHANAS. Ad palladium.
(177) ATHANAS. Ad Ioan. Et Ant.
(178) BASIL. Ep. LXIX

ويعلن فيها عدم رضائه عن أولئك الذين يضعون العراقيل فى وجه الأسقف الكبادوكى، وهو يشير بذلك إلى خصوم باسيليوس.

وعلى الرغم من هذه العلاقة الوثيقة التى كانت تربط الرجلين والمودة الظاهرة، إلا أن اختلاف وجهتى النظر بينهما كان لاشك يباعد بينهما، وكان وقوف كل منهما فى جانب واحد من قطبى النزاع فى أنطاكية عاملا حاسما فى فشل أى جهد من أجل إعادة السلام إلى المنطقة. وهذا واضح من رسائل باسيليوس. يضاف إلى هذا أن أثناسيوس كان لا يزال يحتفظ بصداقته لماركللوس العجوز، أسقف أنقرة القديم، على الرغم من إدانته على يد عدد من المجامع، ولقد أعلن باسيليوس معارضته الكاملة لماركللوس وآرائه فى رسالته الرابعة إلى أثناسيوس(١٧٩)، وأبدى فيها أسفه على أن الأسقف السكندرى لم يعلن حتى الآن استنكاره لآراء ماركللوس. وكان هذا فى الحقيقة عنادا من أثناسيوس، أو ربما خجلا فى سحب صداقته لشخص أجمعت على إدانته جميع الأطراف، ويقول روبرتسون، إذا كان أثناسيوس قد أظهر المحاباة تجاه صديقه القديم، فإن ذلك كان يمثل الكرم الخاطئ(١٨٠). وكان هذا بلا ريب من بين الأسباب التى أدت إلى عدم تحقيق النجاح الذى كان يؤمله كل من الرجلين من أجل الكنيسة.

وفى عام ٣٧٢ كتب أثناسيوس رسالة إلى ابكتاتوس Epictetus أسقف كورنث(١٨١)، تبين أن الأسقف السكندرى ظل حتى السنة السابقة على وفاته نشيطا، يلقى بآرائه فى مختلف المشاكل التى تعن للكنيسة، فمن هذه الرسالة نعلم أن الحديث حول الطبيعة البشرية للمسيح، والآراء الآريوسية حول هذا الموضوع قد بدأت تتجدد ثانية وبشكل واضح. خاصة بعد أن جهر يونوميوس أسقف كيزيكوس بآرائه الأنوموية، ويشير أثناسيوس فى رسالته هذه أيضا إلى المجامع العديدة التى عقدت فى غالة وأسبانيا وروما ، والتى أدانت زعماء الآريوسية مثل فالنز الأسقف

(179) Robertson, op. cit. p. 63
(180) ATHANAS. Ep. Ad Epict.
(181) BASIL. Ep. CLIV

وأورساكيوس وأوكسنتيوس . ومن رسالة كتبها باسيليوس إلى أسخوليوس Ascholious أسقف سالونيك يتبين مدى ما يحمله الأسقف اليونانى من تقدير لأثناسيوس واعجاب، وقد كتب هذه الرسالة حوالى سنة٣٧٣[١٨٢] مما يدل على أن مكانة الأسقف السكندرى ظلت تحتفظ بسمتها حتى سنة وفاته.

وفى الثانى من مايو ٣٧٣ مات أثناسيوس. وكان الأسقف قبل أن يودع دنياه بخمسة أيام، قد حرص على أن يسلم الكنيسة من بعده لواحد من مريديه، فاستدعى إليه قسيسه الأثير بطرس ورسمه أسقفا خلفا، وأوصاه بالنيقية خيرا[١٨٣]، ولكن الإمبراطور فالنز كان يبحث عن موت أثناسيوس، يحثه للآريوسية عن حياة، وتلقفت آذانه نبأ الوفاة، فأدرك لفوره أن قلعة نيقية الحصينة فى الإسكندرية قد هوت، وأن عليه أن يغتنم ما واتاه به القدر، وتقدم يوزيوس أسقف أنطاكية إلى الإمبراطور الذى كان يقيم آنذاك فى المدينة، أن يأذن له بالارتحال إلى الإسكندرية لإقرار الأمور هناك[١٨٤]، ولم يسمح له الإمبراطور فحسب، بل استحثه على الإسراع. وجاء يوزيوس وبصحبته لوقا طريد الإسكندرية، تحرسهما القوات العسكرية، ويصحبها ماجنوس Magnus رئيس الخزانة[١٨٥]. وكتب فالنز إلى نائبه فى مصر بالاديوس Palladius يأمره بتقديم العون العسكرى اللازم لرفع لوقا[١٨٦]، وقد أفلت بطرس من أيدى جنود الإمبراطور، كما أفلت من قبله أثناسيوس مرارا، وهرب خارج مصر يبحث عن أنصار سلفه وأستاذه[١٨٧]، وسلك نفس السبيل الذى رسمه من قبل أثناسيوس، فقد اتجه إلى الغرب أولا، وظل فى

---

(182) HIST. ACEPH. XIII, 19
وأيضا SOZOM. Hist. Eccl. VI, 19
وكذلك THEOD. Hist. Eccl. IV, 17
(183) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20
(184) Id.
(185) Id.
(186) Ibid. 22
(187) Id.

ضـــيافة داماسوس أسقف روما خمس سنوات (٣٧٣-٣٧٨)[١٨٨] حتى أذن له مقتل الإمــبراطور فالنز على يد القوط بالعودة إلى الديار. ويقول سقراط أنه على الرغم من أن عدد الآريوسيين فى الإسكندرية كان قليلا، إلا أنهم استطاعوا السيطرة على الكنائس فى المدينة[١٨٩]، وما أن حصلوا على مراسيم من الإمبراطور يأمر الحاكم بطرد كل أتباع الهوموسية من بيعهم والسيطرة عليها، حتى انطلقوا لا يلوون على شـــئ يســيطرون عــلى كــل الكـــنائس، لا فى الإسكندرية وحدها، بل فى مصر قاطبة[١٩٠].

وكـــانت اللحظة الحاسمة للانتقام من أولئك الذين أعطوا أثناسيوس كل هذه القـــوى ليتحدى بها الأباطرة والآريوسية، فاندفعوا إلى الصحراء يهاجمون الأديرة ويقذفـــون بالرهبان إلى المنفى وبعضا إلى العذاب[١٩١]. ويقول سوزمنوس أن لوقا هـــو الذى قاد الجند والآريوسيين ضد الرهبان، فقد كان على يقين من أنه إذا تمكن من القضاء على معارضة هؤلاء، دانت له كنائس مصر كلها، ذلك أن هذه الأديار العديدة كان كل ساكنيها يحملون المقت كله والبغضاء لآريوس وعقيدته، وكان لوقا يؤمـــن تمامـــا أنه إذا ظل هؤلاء الرهبان بعيدين عن عقيدته وإرادته، فلن يستطيع مطلقا أن يفرض سيادته والآريوسية على الكنيسة، ومن ثم عزم على استخدام القوة لاستمالتهم أو قهرهم بعد أن فشلت سبل الإغراء[١٩٢].

وتنـــتاب باســـيليوس حالة من الكآبة وهو يفقد صديق العقيدة، ويرى صرح الـــنيقية وقد هوى، وأيدى الآريوسيين والإمبراطور تمتد لتنال من والاه، فيكتب فى نفـــس العام رسالة إلى الإسكندريين يؤكد فيها مدى تأثره لما نزل بساحتهم، ويبدى أســـفه على عدم مقدرته مشاركتهم قدرهم، فقد أقعده المرض، ويهيب بهم أن يظلوا

(188) Id.
(189) SOCRAT. Hist. Eccl. IV, 20
(190) Id.
(191) SOZOM. Hist. Eccl. VI, 20
(192) BASIL. Ep. CXXXIX

على الإيمان النيقى مقيمين[١٩٣].

وهكذا قدر للآريوسية فى صيغتها الهوموية أن تظل سيدة العقائد فى الإمبراطورية، من الناحية الرسمية، طيلة عهد فالنز، وأن تشهد خضوع الإسكندرية، قلعة النيقية ولو إلى حين. ورغم أن الاريوسية عانت الكثير من خصمها اللدود، النيقية، إلا أن معاناتها مع نفسها كانت أشد وأقسى. ولم تصل الهوموية إلى السيادة إلا على أشلاء فرق آريوسية غيرها.

لاشك أن أثناسيوس، قد استطاع بفكره وسياسته أن يحقق لأسقفيته بخاصة والكنيسة بعامة. نجاحا منقطع النظير، ولولا بقية من عناد لوصل بهما إلى النجاح كله. وكان هذا العناد يتمثل فى الوقوف عند صيغة الإيمان النيقى. فقد ظل أثناسيوس طيلة حياته الأسقفية التى بلغت ستة وأربعين عاما (٣٢٨-٣٧٣) محافظا على " الهوموسية "، وتعرض فى سبيل ذلك للنفى خمس مرات، ورغم اقتناعه مع نفسه أن هذه الصيغة للإيمان ليست كاملة، وأنها وضعت أساسا للرد على العقيدة الآريوسية .

ولعل خير دليل على ذلك أن كتابات أثناسيوس كلها، وأسفاره الضخمة التى خلفها وخاصة خطبه ضد الآريوسيين، التى يمكن أن نعدها تجاوزا عملا عقائديا. خلت إلا من مرة واحدة من هذا المصطلح وهو " الهوموسية "، ولاشك أن أثناسيوس كان يدرك أن هذا التعبير كان السبب الرئيسى الذى فتح باب الجدل اللاهوتى من حول المسيح على مصراعيه لزمن طويل، وكان تمسكه به راجعا أساسا، كما ورد فى رسالته إلى الأنطاكيين، إلى الخوف من أن يفتح باب الشك من حوله إذا حاول اتباع هذه العقيدة النيقية وضع تفسيرات أو شروح لها قد تؤدى إلى صيغ جديدة، على النحو الذى حاوله هوسيوس القرطبى ونفر من رفاقه فى مجمع سرديكا . وتصدى له أثناسيوس ، خشية أن يصير حال النيقية إلى النحو الذى أمست عليه الآريوسية.

من أجل هذا كان من الصعب حقا، بل من العسير أن يلتقى رجل مثل

(193) BASIL. Ep. CXXXIX

أثناسيوس مع اللاهوتى الكبادوكى باسيليوس، حقيقية لقد أحب باسيليوس وقدره، ولكنه خاف اعتدال فكره فلم يلتقيا، وكان شقاق أنطاكية فرصة لقاء، ولكنها الرغبة فيه وحدها دون الواقع، فأضاعت جهد الرجلين ميولهما، وكان إصرار أثناسيوس على صداقة ماركللوس، وقد سئمت من قضيته الكنيسة، مجاملة فى غير موضعها، أسرها باسيليوس فى نفسه ثم أبدها فى رسائله، لقد كان لقاء الرجلين مستحيلا وكان لابد أن يباعد بينهما، ويضيع منهما الجهود، أثناسيوس يحمل الفكر التقليدى وعقيدة الأسلاف وإيمان الجموع، وباسيليوس يمثل الجيل الجديد للنيقية، ويعتمد الفكر الحر، ويخرج بالتراث عقلانية جيل فى اللاهوت جديد.

ومن هنا كان نجاح أثناسيوس فى الغرب، حتى إن باسيليوس أعلنها صراحة فى رسائله بقوله أن الغرب كله يقف وراء فكر أثناسيوس، حقيقة لقد آمن الغرب بالأسقف السكندرى، ورأى فيه بعدا عن فلسفات الشرق الهلنستى وجداله، ولم يعمل الغرب فكره أبدا من أجل العقيدة، فقد كان دون متاهات لاهوتها ثقافة ومقدرة، ولذا تعلق بأثناسيوس، وجعل من قضيته له قضية وربطها بإيمانه، وظل وفيا له حتى مات . لكن هذه الشخصية العنيدة كانت بين حناياها فى بعض الأحيان، هنات الخوف والتردد الذى يصل إلى حد الخور. فعندما أصدر مجمع سرديكا قراراته بعودة أساقفة النيقية الذين نفاهم قسطنطيوس إلى كراسيهم الأسقفية، وأبدى الإمبراطور استعداده لرجوعهم، وجدنا بولس أسقف القسطنطينية يسرع بالعودة إلى بيعته فى الوقت الذى ظل فيه أثناسيوس يحتمى ببلاط قنسطانز، ولم يعد إلى الإسكندرية إلا بعد أن كتب إليه قسطنطيوس ثلاث رسائل، وأوصى إلى قواده أن يكاتبوه حتى يطمئن قلبه، وليس هذا حرصا أو حذرا من جانب الأسقف السكندرى، لأنه ظل طيلة عشر سنوات آتية يعتقد أن الإمبراطور لا يعلم شيئا عن الأحداث التى يدبرها الآريوسيين ضده، كما جرى بذلك قلمه فى دفاعه إلى الإمبراطور.

ويؤكد ذلك أيضا تلك الشذرة التى أوردناها آنفا، والتى تصف حالة أثناسيوس وهو فى القارب مع نفر من الرهبان قبيل أن يخبروه بمقتل الإمبراطور

جوليان، فقد أخذ بأمون " يهدئ من روعه ويسرى عنه " حسب تعبيره ...

ولـم يكن أثناسيوس بقادر أحيانا أن يصل بمجريات الأحداث إلى مصدرها الحقيقى، ولا أن يربط الوقائع ببعضها حتى يصل إلى الاستنتاج الصحيح. فرغم أن كل الأحداث التى وقعت في الإسكندرية عقب انتهاء الحرب الأهلية التى شهدتها الإمبراطورية أثر مقتل قنسطانز، وانفراد قسطنطيوس بعرش الإمبراطورية، كانت تشير صراحة إلى أن أصابع الإمبراطور وراءها، إلا أن الأسقف السكندرى لم يستطع أن يدرك ذلك، ولم يلفت نظره أن هؤلاء الموظفين الذين قدموا الإسكندرية ورحلوا عنها لا لشيء إلا لإثارة الاضطراب والقلق فى نفس أثناسيوس ما هم إلا رسل قسطنطيوس، ونسى أيضا أن الإمبراطور لا يمكن أن يكون قد غفر له ما حسبه تحريضا لأخيه قنسطانز ضده عقب مجمع سرديكا، ولا تلك الرسائل الثلاث التى بعث بها إليه يرجوه العودة إلى كرسيه الأسقفى، ولا ذلك الرد الجرئ الذى قابله به فى أنطاكية عندما طلب منه تخصيص كنيسة للآريوسيين فى الإسكندرية. لم يذر بخلد أثناسيوس شئ من هذا كله، وراح يؤكد فى دفاعه إلى الإمبراطور أن الآريوسيين من وراء هذه الاضطرابات التى تثار ضده وأن الإمبراطور لا علم له بما يجرى، وأنه لو علم الحقيقة لأنصف أثناسيوس، ولاشك أن هذا يعد قصورا فى نظرة الأسقف السكندرى إلى الأحداث من حوله والربط بينهما وتحليلها ولعل ذكاء أثناسيوس قد خانه آنذاك .

لقد كان أثناسيوس حقيقة يتمتع بقدر كبير من الإصرار . وقوة الشخصية، والصلابة فى الرأي إلى حد العناد، والنفس الطويل إن صح هذا التعبير، والرجل بذلك يحمل أهم خصائص الشخصيتين المصرية واليونانية، طبعته بهما نشأته وثقافته، وتمثل هذا فى الإصرار الكامل على العقيدة التى آمن بها أسلافه، وخاصة أنموذجه الذى يحتذيه ديونيسيوس السكندرى، إلى الحد الذى وقف فيه يجابه بهما العالم أجمع بعد أن أصبح كله آريوسيا، وبعد أن خضع للإغراء أو الخديعة أو وهنت منه القوى هوسيوس القرطبى أبو المجامع وهان على نفسه ليبيريوس أسقف روما، وتعرض بسببها للطرد من أسقفيته خمس مرات.

وكـــان أثناســـيوس يفكـــر بصورة عملية عندما أقدم على الفرار بنفسه إلى الغـــرب عـــام ٣٣٩، ولـــم يذهب إلى صحارى مصر كما فعل في المرات الثلاث التالية. ذلك أن الأسقف السكندرى كان قد عاد منذ فترة قصيرة جدا من الغرب بعد نفيـــه الأول الذى استطاع خلاله أن يكسب محبة وصداقة رجال الأكليروس هناك، ولـــذا أسرع بالالتجاء إلى هذه المنطقة ليرعى غرساً وضعه منذ قليل ولم يغب عن ذهـــن أثناســـيوس وهـــو يهـــرب إلى الغـــرب أن وجود أباطرة ثلاثة على عرش الإمـــبراطورية يحقق له ما يبتغى، وقد لمس ذلك عن قرب في الرسالة التى شيعه بهـــا قسطنطين الثانى إلى أهل الإسكندرية سنة ٣٣٧، وعرف أثناسيوس جيداً كيف يســـتغل هـــذه الناحية، وتلك التيارات السياسية التى تجرى فى الإمبراطورية لبلوغ غايته إلى الحد الذى هدد فيه إمبراطور الغرب قنسطانز بأن يشهر السيف فى وجه أخيه قسطنطيوس سيد الشرق من أجل إعادة أثناسيوس إلى الإسكندرية .

يضاف إلى هذا أن أثناسيوس جعل من مشكلة النيقية قضية عالمية، فبعد أن كـــان للغرب فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ثمانية أساقفة فقط، وصل عددهم إلى المائة فى سرديكا عام ٣٤٣. ولاشك أن طبيعة فكر الغرب التى أهلته للبعد عن التعقيدات الفلســـفية الـــتى اصـــطبغ بها الشرق اليونانى، هى التى ساعدت أثناسيوس فى هذا سبيل. ويعبر جيبون عن هذه الحالة بقوله : إن ولايتى مصر وآسيا اللتين اصطبغتا بالـــثقافة اليونانية، عانتا كثيرا من جراء الجدل الآريوسى. ذلك أن الدراسة الجادة لـــلفكر الأفلاطونى والتأويلات الجدلية العابثة، والاصطلاحات الغزيرة، أمدت كلها إكليروس الشرق وجموعه بمعين لا ينضب من التعبير الفياض والتأويلات.

ووســـط جدلهـــم المـــتقد سرعان ما ينسى الأساقفة الشك الذى تنصح به الفلسفة وتمتدحه، والخضوع الذى يفترضه الدين ويحتمه، أما شعب الكنيسة فى الغرب فكان ذا روح أقل فضولية، ذلك أن عواطفهم لم تكن تثيرها الموضوعات الغامضة، وعقولهم لم تعـــتد عـــلى ممارســـة الجـــدل، ولغتهم الوطنية قاحلة، غير قادرة على أن تقترب من مســـتوى اليونانيـــة. وهكذا كان الجهل السعيد لكنيسة غالة، يتمثل فى أن هيلارى نفسه ظل لمدة ثلاثين سنة يعد المجمع المسكونى الأول غريبا عن العقيدة النيقية " .

وهيلارى نفسه يعترف بذلك صراحة عندما يذكر أنه قبل نفيه إلى الشرق لم يكن قد سمع عن الهوموسية. وإذا كان غريبا أن يتعرض هيلارى للنفى من أجل قضية أثناسيوس، رغم أن الرجلين لم يلتقيا أبدا، فإن ما يدعوا إلى الدهشة أنه فى الوقت الذى يتحدث فيها أسقف غالة عن رجل الإسكندرية فى تقدير واجلال، ويهاجم الإمبراطور دفاعا عن حق أثناسيوس، لم يذكر الأسقف السكندرى فى كل أسفاره الضخمة التى أورثنا إياها كلمة واحدة عن الأسقف الغالى، وأن كان هذا بدوره يضيف دليلا جديدا على مدى المكانة التى ارتقاها أثناسيوس فى الغرب.

وبنفس القدر من الفطنة أدرك أثناسيوس أن الغرب الآن(٣٥٦) قد أصبح تحت سيادة الإمبراطور قسطنطيوس الذى ظهرت عداوته له سافرة، ومن ثم لم يرتحل أثناسيوس إلى الغرب، وإنما احتمى فى هذه المرة وما تبعها بأصدقائه المخلصين رهبان مصر، وكان قد استطاع خلال أسقفيته الأولى والثانية أن يحظى بثقتهم واحترامهم، وبادلهم هو هذه الثقة والإجلال. فلما كانت أسقفيته الثالثة عمل أثناسيوس ما وسعته الطاقة على أن يدعم هذه الثقة، وأن يزيد من أواصر تلك الصداقة، حتى أصبح له الرهبان نعم المولى ونعم النصير، وتجلى ذلك فى انقاذه من أيدى جند الإمبراطور قسطنطيوس عندما هاجموا كنيسة ثيوناس سنة ٣٥٦، وفى إخفائه عن أعين السلطة الإمبراطورية طوال مراحل هروبه الثلاث الأخيرة.

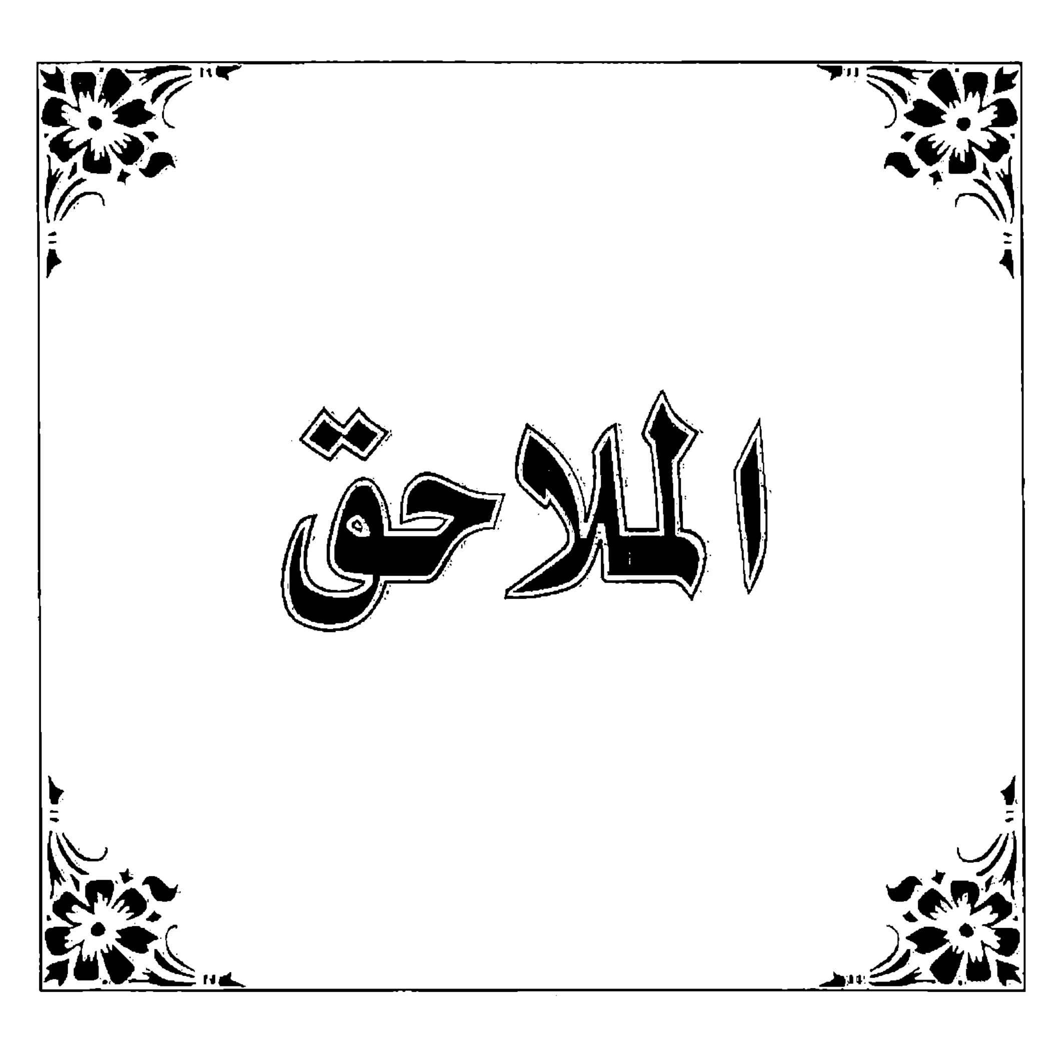
ولم يخف على أثناسيوس القيمة الحقيقية التى يمثلها أولئك الرهبان، بمصريتهم الخالصة، وإيمانهم العميق البعيد عن إعمال الفكر وكراهيتهم للسلطة الرومانية، ومن ثم لم يكن غريبا أن يتخذ منهم ركيزة نضاله.

لقد كان أثناسيوس يعبر عن الشخصية السكندرية أصدق تعبير، وهى شخصية تميل بطبيعتها - كما وصفها تاكيتوس- إلى الشغب، أو كما يقول ديون كاسيوس بالجنوح إلى الثورة ، أو كما يصفهم المؤرخ الكنسى سقراط، بأنهم كانوا بطبيعهم جنسيا غاضبا. وهذه سمات زادها تأصلا فى أثناسيوس إدراكه التام لمكانه الإسكندرية مدينة وكنيسة؛ فالإسكندرية لم تنس فى يوم من الأيام أنها كانت

عاصمة لإمبراطورية عريضة قاعدتها مصر هى إمبراطورية البطالمة، ولم يغب عن ذهن مثقفيها أن مدارسهم الفلسفية كانت تضارع أثينا، فلما جاءتها المسيحية أضافت إليها بعدا جديدا، وأخرجت الإسكندرية للعالم المسيحى أشهر آباء اللاهوت. ولاشك أن أثناسيوس كان يتمثل كل ذلك أمام ناظريه، ويتراءى له أيضا وفود الكنائس الأخرى، والرسولية من بينها، تسعى إلى الإسكندرية تسأل أساقفتها الرأى فى كل ما يثار حول طبيعة المسيح.

ولا ريب أن موقف أثناسيوس على هذا النحو من الدولة، ما كان ليدور بخلد قيصطنطين عندما رسم لخلفائه طريقا جديدا فى العلاقة بين الدولة والكنيسة ، وإذا كانت كفتا الدولة والكنيسة قد خرجتا متعادلتين هذه الجولة، فإن الميزان لن يلبث أن ينقلب فى صالح الدولة طيلة عمرها الآتى.

لقد احتوت الدولة والكنيسة فى الشرق تماما حتى أمست الكنيسة الشرقية دائرة من دوائر الحكومة، وأسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور.


الملاحق



ملحق رقم (١)

الحوار الذى دار بين الإمبراطور قسطنطيوس وليبريوس أسقف روما[1]

قسطنطيوس : رأيناه حقا ... باعتبارك مسيحى .. وأسقف مدينتنا، أن نرسل لك نحذرك كى تقلع عن أى اتصال مع حماقة ورعونة ذلك الملحد أثناسيوس، ذلك إنه قطع من شركة الكنيسة على يد المجمع، فإن العالم بأسره قد ارتضى هذا القرار.

ليبريوس : أيها الملك .. إن أحكام الكنيسة لابد أن تشرع بعدالة صارمة . لهذا .. إذا كان فى ذلك ما يدخل البهجة عليك .. ادع البلاط للاجتماع .. ولتنظر إذا كان أثناسيوس يستحق الإدانة .. ثم دع الحكم ينطبق عليه طبقا للتقاليد الكنسية ، لأنه ليس فى قدرتنا أن ندين رجلاً .. لم يسمع ولم يحاكم .

قسطنطيوس : العالم كله أدان كفرانه . ولكنه كعادته منذ البداية سخر من الخطر.

ليبريوس : أولئك الذين وقعوا قرار الإدانة لم يكونوا شهود عيان لأى شئ وقع .. ولكنهم استحثوا بدافع العظمة .. والخوف من العار بين يديك .

الإمبراطور : ماذا تعنى بالعظمة والخوف من العار ؟

ليبريوس : أولئك الذين لا يحبون مجد الإله، أولئك الذين يعلقون كبير الفائدة على هباتك .. قد أدانوا رجلا لم يروه ولم يحاكموه .. ذلك شئ يخالف تماما كل مبادئ الرعية المسيحية .

الإمبراطور : لقد حوكم أثناسيوس حضوريا فى مجمع صور .. وأدانه فى المجمع كل أساقفة العالم .

---

(1) THEOD. Hist. Eccl. II,13

ليبريوس : لم يصدر ضده حكم حضوري ، فقد أدانه أولئك الذين التقوا هناك بعد انسحابه .

يوسيبيوس الخصى : " مقاطعا بغباء " .. لقد ثبت فى مجمع نيقية أنه يتبنى آراء تخالف تماما الإيمان الكاثوليكى .

ليبريوس : من بين كل أولئك الذين أبحروا إلى مريوط، وأولئك الذين أرسلوا لكتابة تقرير رسمى عن هذا المتهم، لم يوافق على الحكم الا خمسة فقط . مات منهم اثنان هما ثيوجنس وثيودور .. أما الثلاثة الآخرون الذين لازالوا أحياء فهم ماريس وفالنز وأورساكيوس وقد صدر حكم فى سرديكا ضد كل أولاء الذين ذهبوا إلى مريوط، ولقد قدموا التماسا إلى المجمع يطلبون الصفح عنهم لما سجلوه فى مريوط ضد أثناسيوس يمتلئ زيفا وتضليلا من جانب فريق واحد ، وهذا الالتماس لا يزال بين أيدينا .. والآن .. أى قضية إذن أيها الإمبراطور نؤيد ؟ مع من نقيم شركتنا ؟ مع أولئك الذين أدنوا فى البدء أثناسيوس ثم عادوا يطلبون الصلح عما قدمت أيديهم والغفران ؟! .. أم مع الذين أدانوا أولاء النفر؟

ابيكتاتوس : Epictetus الأسقف[٢]. سيدى الإمبراطور .. ليس هذا من أجل الإيمان .. ولا دفاعا عن القضاء الكنسي أن يترافع ليبريوس ، ولكن فقط ليتباهى أمام مجلس السناتو أنه أفحم الإمبراطور جدالا.

الإمبراطور : (مخاطبا ليبريوس) .. أى نصيب نظمته للعالم .. بكونك وحدك تتآلف مع رجل مارق ، وتحطم سلام الإمبراطورية بل والدنيا بأسرها ؟

ليبريوس : إن وقوفي وحدى لا يجعل الحق ضعيفا، وتبعا، لما تقوله القصة القديمة، فإن هناك ثلاثة رجال تحدوا القرار.

---

(٢) أسـقف (Civita Vecchia) Conyunmcellae . يصفه أثناسيوس بأنه تابع وقح ، على استعداد لأى أذى ، صنيعة جورج الكبادوكى ، آريوسى من أسوا طراز ، لعب دورا بارزا فى استبدال فليكس بالبابا ليبريوس فى أسقفية روما بوسائل غير شرعية أو شريفة .
راجع ATHANAS. Hist. Arian. 75

يوسيبيوس الخصى : إنك بهذا القول جعلت من إمبراطورنا نبوخذنصر.

ليبريوس : لقد أدنت رجلا دون أية محاكمة و كل ما أبتغيه الآن .. أن يكون هناك فى المقام الأول إقرار عام للإيمان الذى تقرر فى مجمع نيقية، وأن يستدعى ثانية كل الأخوة الذين تم نفيهم وأن يعودوا إلى بيعهم، فإذا ما تم ذلك، أمكننا أن نرى أن مراسيم الإيمان لكل أولئك الذين يملأون الكنائس الآن بالمتاعب تتفق مع الإيمان الرسولى... والمدعين، وبعد فحص القضية سوف نصدر حكما فيهم .

ابيكتاتوس : لن تكون هناك وسائل نقل كافية لحمل عدد كبير من الأساقفة.

ليبريوس : إن المسائل الكنسية يمكن أن تتم دون وسائل نقل ، والكنائس على استعداد لأن تقدم كل الوسائل لنقل الأساقفة الموقرين إلى شاطئ البحر.

الإمبراطور : إن الحكم الذى صدر مرة يجب أن لا ينقض، والقرار الذى أصدره جمع الأساقفة حاشد، لزمت سيادته . أنت وحدك تحافظ على الصداقة مع ذلك الرجل المارق .

ليبريوس : أيها الإمبراطور .. ذلك شئ لم نسمع به من قبل، أن يتهم القاضى ذلك الغائب بالمروق كما لو كان عدوه الشخصى .

الإمبراطور : لقد تعرض الكل بلا استثناء لأذاه وضراره ، ولكن أحد لم يلق ما لاقيته أنا .. لم يقنع بموت أخي الأكبر ولم يتوقف عن إثارة قنسطانز طيب الذكر، عداوة لى .. ولكنى .. بكل الاعتدال حاولت أن أوقف سورة الغضب بين المحرض والضحية. وليس هناك نصر واحد من الذى تحقق لى ، ولا حتى الذى لم يكن متوقعاً على ماجننتيوس وسيلفانوس ، يعادل طرد هذا الوغد من هيئة الكنيسة.

ليبريوس : لا تبرر مقتك وغضبك أيها الإمبراطور بالأساقفة .. فهؤلاء لا ترفع أيديهم الا للتطهر والنقاء، وإذا كان يرضيك فلتأمر الأساقفة بالعودة إلى ديارهم، وإذا ظهر أنهم على عقل رجل واحد معه، ذلك الذى يحمل اليوم مراسيم

الإيمان الحق التي تم التوقيع عليها في نيقية، فلتدعهم يأتوا سويا وليهتموا بسلام العالم ، ذلك أن رجلا بريئا، لا يجب أن يكابد الضرار كما لو كان مستهدفا للعار.

الإمبراطور : شئ واحد فقط مطلوب منك .. أود أن تدخل في شركة مع الكنائس .. ولتصغ لنداء السلام .. ولتعط توقيع موافقتك، بعدها سوف تعود إلى روما .

ليبريوس : لقد ودعت من قبل الأخوة في المدينة. إن إيمان الكنيسة أعظم بكثير من البقاء في روما .

الإمبراطور : أمامك ثلاثة أيام لتعطى توقيعك على الوثيقة وتعود إلى روما، فإذا رفضت فاخترلنفسك مكانا قصيا .

ليبريوس : لا ثلاثة أيام ولا حتى ثلاثة شهور سوف تغير عقيدتي .

ملحق رقم (٢)

• بعض الالتماسات التى قدمها الآريوسيون فى الإسكندرية للإمبراطور جوفيان وهو فى أنطاكية من جانب لوقا Lucius (الأسقف الآريوسي فى الإسكندرية) وبرنيقيانوس Bernicianus وأخرين من الآريوسيين ضد أثناسيوس[٣]

الالتماس الأول

الذى قدموه والإمبراطور راحل إلى المعسكر عند البوابة الرومانية ..

الآريوسيون ــ ألا يتفضل معاليكم وعظمتكم ورحمتكم بسماعنا ؟!

الإمبراطور ــ من تكونون .. ومن أين جئتم ؟

الآريوسيون ــ مسيحيون أيها السيد .

الإمبراطور ــ من أى بقعة .. وأية مدينة ؟

الآريوسيون ــ الإسكندرية .

الإمبراطور ــ وماذا تريدون ؟

الآريوسيون ــ نطمع أن يتفضل عظمتكم بأن يجعل علينا أسقفا .

الإمبراطور ــ لقد قررت أن يكون أثناسيوس أسقفا على كرسى الإسكندرية.

الآريوسيون ــ لو تفضلتم .. لقد أمضى فى المنفى سنين عددا .. ولصقت به اتهامات عديدة .

---

(٣) انظر ATHANAS. Ep. Ad Iov. (Appendix. Nicene and P. N. F. IV, P. 567).

وفجأة .. تقدم أحد الجنود ليقول فى حنق وغيظ .. " إذا سمح لى عظمتكم .. اسألهم عمن يكونون ومن أين جاءوا .. لأن هؤلاء فضلات ونبذ كبادوكيا .. بقايا ذلك الدنس جورج الذى أقحل المدينة والدنيا .. وعندما سمع الإمبراطور ذلك . لوى عنان فرسه .. وارتحل إلى المعسكر .

الالتماس الثانى

" لدينا اتهامات وأدلة ضد أثناسيوس .. ففى خلال هذه السنين الثلاثين طرد من طيبى الذكر قسطنطين وقسطنطيوس ، وجلب على نفسه النفى على عهد الإمبراطور الدين والفيلسوف .. المبارك جوليان" .

الإمبراطور : كل هذه الاتهامات على كر هذه السنين.. أضحت الآن مبتذلة. لا تتكلموا أمامى عن أثناسيوس، لأنى أعرف تماما لماذا اتهم .. وكيف كان يتم نفيه .

الالتماس الثالث

الآريوسيون : والآن .. لدينا اتهامات أخرى ضد أثناسيوس .

الإمبراطور : إن صدق القضية لن يتضح عن طريق هذه الكوكبة من الرجال ولا الجلية ، اختاروا اثنين من بينكم .. ومن حزب الأغلبية مثلهما .. لأنى لا أستطيع أن أجيب كلا على حدة ....

ممثلو الأغلبية : هؤلاء فضلات الدنس جورج .. الذى أجدب أقاليمنا، والذي لم يسمح لناصح أن يقيم بيننا .

الآريوسيون : إذا تفضلتم عظمتكم .. فلتختر أى رجل عدا أثناسيوس .

الإمبراطور : لقد أخبرتكم أن مسألة أثناسيوس قد أصبحت منتهية تماما (ثم أشار إليهم بغضب أن يصمتوا) .

الآريوسيون : ولكن ليعلم عظمتكم أنكم إذا أرسلتم أثناسيوس فإن مدينتنا سوف تدمر .. ولن يدخل فى شركته أحد .

الإمبراطور : لقد بذلت الجهد .. وتأكد لدى أن الحق هو ما يؤمن به .. وأنه أرثوذكسى وأن تعاليمه الصواب .

الآريوسيون : الحق فى فمه .. وفى روحه الخبث .

الإمبراطور : هذا ما سوف يكون .. الحق فى فمه .. لقد شهدتم بذلك وتعاليمه الصواب .. فإذا ما كان يعلم وينطق الصدق بلسانه والحق .. ونفسه على الدنس مطوية .. فسوف يجئ بذلك أمام الرب .. فنحن بشر .. نسمع ما يقال .. ولكن الله عليم بذات الصدور .

الآريوسيون : فلتجعلنا إذن فى الشركة سويا .

الإمبراطور :" لماذا .. وما الذى يمنعكم ؟

الآريوسيون : لقد أعلنا منشقين .. مستبدين .

الإمبراطور : هذا واجبه .. وواجب الذين يعلمون الحق ..

الآريوسيون : إنا لن نستطيع معه صبرا .. ولقد استولى على كل أراضى الكنيسة.

الإمبراطور : الآن فقط .. لقد جئتم من أجل الملكية .. ولم تأتوا من أجل الإيمان .. إذن فلتخرجوا .. ولتحفظوا السلام .

وأضاف مخاطبا الآريوسيين .. اذهبوا إلى الكنيسة غدا .. فهناك فى الغد اجتماع .. ستجدون هناك أساقفة .. وستجدون أيضا رئيس دار المحفوظات Nemesins .. وسوف يوقع كل منكم حسب عقيدته .. ستجدون هناك أيضا أثناسيوس وكل من لا يدرى عن الإيمان شيئا، فليأخذ عن أثناسيوس . أمامكم يومان .. وبعدهما فأني مرتحل إلى المعسكر .

الالتماس الرابع

قدم من جانب لوقا الأسقف الآريوسى على باب القصر .

لوقا : إذا تفضلتم .. هلا أصغيتم لى ؟

هنا توقف الإمبراطور وقال ــ خبرنى لوقا .. كيف جئت إلى هنا .

بالبر أم بحرا ؟

لوقا : بالبحر .

الإمبراطور : حسنا .. لوقا .. ألا يكون رب العالمين .. والشمس والقمر غاضبين على أولئك الذين صحبوك فى الرحلة، لأنهم لم يقذفوا بك فى اليم ؟ ربما تجد هذه السفينة من بعد ريحا مواتية ، وربما أيضا لن تجد بمن عليها مرفأ آمنة عندما تعترضها العاصفة .

ولقد سأل الآريوسيون بروباتيوس Probatius عن طريق يوزيوس وأتباعه.. خلفاء يوسيبيوس وبارديو Bardio الخصيين .. من أنهم يجب أن يتلقوا العون والتأييد .. ولقد علم الإمبراطور بذلك فأنزل بالخصيين العقاب، قائلا : إذا سولت لأحد نفسه أن يقدم التماسا ضد المسيحيين .. فليكن ذلك قدره، وطردهم الإمبراطور.

ملحق رقم (٣)

المجامع الكنسية التى جاء ذكرها فى الكتاب

مجمع أنطاكية سنة ٢٦٢ : عقد لمناقشة آراء بولس أسقف سميسطاء، الذى نادى بأن المسيح مجرد إنسان وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى، وأنكر أقنومى الابن والروح القدس، معتبرا إياهما مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الإنسان. وقد أصدر المجمع قراره بإدانة بولس وعزله من منصبه ولعن آرائه واعتبارها هرطقة . وقد وجهت الدعوة إلى ديونيسيوس أسقف الإسكندرية لحضور هذا المجمع، ولكن تقدم العمر به حال دون ذلك، وإن كان قد أرسل إلى المجمع رأيه كتابة.

مجمع روما سنة ٣١٣ : دعا الإمبراطور قسطنطين العظيم لمناقشة الانشقاق الكنسى الحادث فى كنيسة قرطاجة، والذى عرف فيما بعد بالانشقاق الدوناتى وقد أدان المجمع الدوناتيين، لأنهم أعلنوا رفضهم قبول المارقين زمن الاضطهاد فى شركة الكنيسة ثانية .

مجمع آرل سنة ٣١٤ : وهو الذى كان يمثل، حسب تعبير القديس أوغسطين، عالمية عالم قسطنطين، حيث ضم أساقفة الجزء الغربى من الإمبراطورية، والذى كان يسيطر عليه قسطنطين آنذاك ، وقد التأم عقد هذا المجمع بعد أن رفض الدوناتيون قرارات مجمع روما ، وقد صدق هذا المجمع الجديد على إدانة الدوناتيين.

مجمع الإسكندرية سنة ٣١٩ : دعا إليه اسكندر أسقف الإسكندرية لبحث آراء آريوس القس السكندرى، الذى نادى بخلق المسيح وجعله فى مرتبة تالية للاله، وضم هذا المجمع الأكليروس السكندرى وأصدر قراره بإدانة آريوس وتحريم تعاليمه واعتبارها هرطقة.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٢١ : وقد ضم أساقفة مصر وليبيا، صدق على قرارات المجمع السابق .

مجمع الإسكندرية سنة ٣٢٤ : ترأسه هوسيوس أسقف قرطبة الذى أوفده الإمبراطور قسطنطين العظيم إلى الإسكندرية، وحمله رسالة إلى اسكندر وآريوس بهدف فض هذا النزاع اللاهوتى ، فلما فشل هوسيوس فى مهمته دعا إلى عقد هذا المجمع وأصدر من جديد قرار الأدانة ضد آريوس .

مجمع أنطاكية سنة ٣٢٤ : عقد أيضا برئاسة هوسيوس فى طريق عودته إلى الإمبراطور قادما من الإسكندرية، وتقرر فيه إدانة آريوس ، كما تم أيضا رسامة يوستاتيوس أسقفا لأنطاكية، وهو الذى غدا من بعد ألد أعداء العقيدة الآريوسية.

مجمع نيقية سنة ٣٢٥ : وهو أول المجامع المسكونية فى تاريخ الكنيسة، وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطين العظيم، وضم ٣١٨ أسقفا يمثلون كنائس الإمبراطورية بعامة، وكان الهدف الأساسى من عقده، إصدار قرار حاسم فى مسألة العقيدة الآريوسية التى أدت إلى وقوع الانقسام فى الكنيسة، وقد أصدر المجمع قراره بإدانة آريوس ولعن تعاليمه، وتمخض المجمع عن صيغة للعقيدة عرفت بقانون الإيمان النيقى، تعد قاعدة الإيمان الأرثوذكسى، وتضمنت تلك العبارة الشهيرة التى شغلت الفكر اللاهوتى طوال القرن الرابع الميلادى، وهى أن الابن " مساو للآب فى الجوهر" أو ما عرف بـ" الهوموسية " .

مجمع أنطاكية سنة ٣٣٠ : للفصل فى النزاع بين يوسيبيوس أسقف قيسارية فلسطين ويوستاتيوس الأسقف الأنطاكى، بعد أن أتهم كل منهما زميله بالمروق عن الإيمان النيقى ، وتم فيه عزل يوستاتيوس من منصبه وإدانته ونفيه .

مجمع قيسارية سنة ٣٣٣ : وكان الهدف الأساسى من وراء الدعوة إليه، أن يقوم الأسقف السكندرى أثناسيوس بتبرئة نفسه من الاتهامات التى وجهت إليه

من جانب خصومه الآريوسيين والمليتيين، غير أن المجمع انفض بقرار من الإمبراطور بنقل جلساته إلى صور، وقد رفض أثناسيوس حضور هذا المجمع .

مجمع صور سنة ٣٣٥ : يعد استكمالا لمجمع قيسارية ، وكانت السيادة فيه لأساقفة الآريوسية، بزعامة يوسيبيوس أسقف نيقوميديا ، وقد أرغم أثناسيوس على حضور هذا المجمع، وأن كان قد ارتحل إلى القسطنطينية قبل أن ينفض المجمع . وقد أصدر الأساقفة قرارهم بإدانة أثناسيوس وعزله من أسقفية .

مجمع أورشليم سنة ٣٣٥ : وهو تتمة طبيعية لمجمعى قيسارية وصور، وعقد بمناسبة تدشين الكنيسة التى كان قسطنطين قد أمر ببنائها هناك، وفى الوقت ذاته الاحتفال بالعيد الثلاثينى لاعتلاء قسطنطين العرش، وقد صدق المجمع على قرارات مجمع صور، وأضاف إليها تبرئة آريوس، وقبولة فى شركة الكنيسة ثانية، والسماح له بالعودة إلى الإسكندرية.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٣٩/٣٣٨ : دعا إليه أثناسيوس بعد عودته من منفاه فى غالة، وذلك للتصدى لمحاولات الآريوسيين الجديدة التى تستهدف التخلص منه، وقد حضره أساقفة مصر والمدن الخمس الغربية (بنتابوليس) وليبيا، وأصدروا رسالة مجمعية أعلنوا فيها تبرئة أثناسيوس من كل ما نسب إليه .

مجمع أنطاكية سنة ٣٣٩/٣٣٨ : وقد دعا إليه اليوسابيون، خصوم أثناسيوس، حيث تقرر فيه اختيار جريجورى الكبادوكى الآريوسى، ليعتلى كرسى الإسكندرية الأسقفى بدلا من أثناسيوس .

مجمع روما سنة ٣٤٠ : ترأسه أسقف روما، وضم أساقفة إيطاليا، عقد بعد فرار أثناسيوس من الإسكندرية والتجائه إلى روما، وجاءت قرارات المجمع كلها مؤيدة لأثناسيوس وغيره من الأساقفة الآخرين الذين تم عزلهم على يد الآريوسيين وتأييد إمبراطور الشرق قسطنطيوس، ومنهم ماركللوس أسقف أنقرة ، وبولس أسقف القسطنطينية، وأسكليبيوس أسقف غزة .

مجمع أنطاكية سنة ٣٤١ : وهو الذى عرف باسم " مجمع التدشين "، نسبة إلى افتتاح الكنيسة المثمنة التى كان قسطنطين قد بدأ فى بنائها وأكملها من بعده ولده قسطنطيوس ، وقد ضم أساقفة الشرق الآريوسيين وأصدر عددا من المراسيم العقيدية، وكان أهمها على الإطلاق المرسوم الثانى أو ما شاع باسم " المرسوم اللوقيانى"، وهو الذى حمل اسم المجمع فيما بعد وعرف بمرسوم التدشين .

مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ : كانت الفكرة الأساسية من وراء عقده أن يضم أساقفة شطرى الإمبراطورية للوصول إلى صيغة ملائمة للعقيدة المسيحية، غير أن الانقسام وقع منذ اللحظة الأولى بين أساقفة الشرق والغرب ، فعقد الأساقفة الغربيون مجمعهم فى سرديكا، وأعلنوا تمسكهم بقانون الإيمان النيقى، وأعطوا تأييدهم الكامل لأثناسيوس ورفاقه وأدانوا أساقفة الشرق.

مجمع فيليبوبوليس سنة ٣٤٣ : وهو الشق الثانى من مجمع سرديكا، وضم أساقفة الجزء الشرقى من الإمبراطورية، وهم الآريوسيون، وقد أعلنوا إيمانهم بالمرسوم الأنطاكى الرابع مع بعض إضافات يسيرة ، وأدانوا أساقفة الغرب بالإضافة إلى الإدانة التقليدية للأسقف السكندرى أثناسيوس.

مجمع أنطاكية سنة ٣٤٤ : وقد دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس بعد أن جاءته رسل أساقفة الغرب يحملون إليه قرارات المجمع السرديكى وتهديدات أخيه قنسطانز إمبراطور الغرب ، وقد صدق المجمع على عزل اسطفانوس أسقف أنطاكية واختيار ليونتيوس بدلا منه ، كما أصدر مرسوماً جديداً عرف بالمرسوم المطول، يعد صورة جديدة للمرسوم الأنطاكى الرابع وما لحق به فى فيليبوبوليس. كما أدان المجمع فوطين أسقف سيرميوم الذى يقول بأن المسيح محض إنسان، وأنكر وجوده قبل كل الدهور خلافا لما تؤمن به الكنيسة .

مجمع أورشليم سنة ٣٤٦ : ترأسه ماكسيموس أسقف المدينة وضم عددا من أساقفة فلسطين، وأعلن ترحيبه بعودة أثناسيوس من نفيه الثانى، وتأييده للأسقف السكندرى، وزوده برسالة إطراء إلى شعب الكنيسة السكندرى .

مجمع سيرميوم الأول سنة ٣٤٧ : عقد بهدف إدانة فوطين أسقف سيرميوم لآرائه فى المسيح، وإن كان فوطين رغم ذلك قد ظل أسقفا لمدينته .

مجمع سيرميوم الثانى سنة ٣٥١ : دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس بعد هزيمة منافسه ماجننتيوس فى موقعة مورسا، وتقرر فيه ثانية إدانة فوطين، وعزله من كرسيه الأسقفى. كما أصدر المجمع وثيقة إيمان عرفت بمرسوم سيرميوم الأول يعد تكراراً للمرسوم الأنطاكى الرابع وإضافات فليليبوليس، وأضيفت إليه سبع وعشرون أناثيما ضد فوطين وأستاذه ماركللوس أسقف أنقرة .

مجمع آرل سنة ٣٥٣ : ضم أساقفة غالة بناء علي دعوة الإمبراطور قسطنطينوس الذى أصبح الإمبراطور الفرد للإمبراطورية بعد انتحار ماجننتيوس. وقد رأس المجمع ساتورنينوس أسقف آرل الآريوسي، وحضره مندوبون عن البابا، ووافق الجميع فيه على إدانة أثناسيوس .

مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ : يعتبر امتدادا لمجمع آرل ، وقد رأسه الإمبراطور بنفسه، وشهده أساقفة الغرب الإمبراطورى، وأعطوا فيه توقيعهم على إدانة أثناسيوس ، وقد شذ عن هذا الجمع ديونيسيوس أسقف ميلانو، ويوسيبيوس أسقف فرسالى في إيطاليا، ولوكيفريوس أسقف كاليارى فى سردينيا ، فتم نفيهم .

مجمع بيتراى سنة ٣٥٦ : فى غالة .. وقد دعا إليه ساتورنينوس أسقف آرل بوحى من الإمبراطور، وتم فيه إدانة هيلارى أسقف بواتييه بعد أن أعلن تأييده أثناسيوس .

مجمع سيرميوم الثالث سنة ٣٥٧ : كان من أبرز زعمائه جرمينيوس أسقف مدينة المجمع، وفالنز أسقف مورسا، وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم ، وقد صدر عنه ما عرف بمرسوم سيرميوم الثانى وهو ينكر تماماً ألوهية الابن التى تقرها المراسيم الأخرى ، ويعلن أن الآب أعظم من الابن فى المجد والكرامة ، وقد عرفت هذه الجماعة بـ " الأنومويين "

مجمع أنطاكية سنة ٣٥٨ : دعا إليه أسقفها يودوكسيوس للتصديق على مرسوم سيرميوم الخاص بالعقيدة الأنوموية .

مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ : عقده نفر من أساقفة آسيا الصغرى برئاسة باسيليوس أسقف أنقرة، وأصدروا صيغة جديدة للإيمان عرفت بالهومويوسية وهى تعنى أن الابن مشابه للآب فى الجوهر، وهم بذلك يقفون وسطا بين النيقيين الآريوسيين الأصليين، ومن ثم أصبحوا يعرفون باسم أنصاف الآريوسيين .

مجمع سيرميوم الرابع سنة ٣٥٨ : دعا إليه الإمبراطور قسطنطيوس، وضم عددا من الأساقفة بينهم فالنز أسقف مورسا وأورساكيوس وجرمينيوس للتوقيع على مرسوم الهومويوسية الذى أتى به أنصاف الآريوسيين من أنقرة .

مجمع ريمينى سنة ٣٥٩ : حضره أربعمائة من أساقفة الغرب بناء على دعوة الإمبراطور، وتزعمه فالنز أسقف مورسا وأورساكيوس أسقف سينجيدونوم. وظهر فيه منذ البداية الانقسام واضحا بين الأغلبية النيقية والاريوسية، وتمسك النيقيون بعقيدتهم، بينما أصر الآريوسيين على أن يرتضى الجميع صيغة " المرسوم المؤرخ " الذى صدر فى سيرميوم فى ٢٢مايو سنة ٣٥٩، وأرسل الفريقان مندوبيهم إلى الإمبراطور، وأقدم النيقيون على إدانة زعماء خصومهم . وفشل المجمع فى الوصول إلى اتفاق . غير أن الأساقفة جميعا أقتيدوا بعد ذلك، بناء على أوامر الإمبراطور إلى التوقيع على مرسوم مجمع نيقا، الذى يبرز " التشابه " بين الابن والآب دون تجديد لنوعيته، وهو ما عرف بالعقيدة " الهوموية " وأصبح مرسوم نيقا يعرف فيما بعد باسم مرسوم ريمينى .

مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ : ويعتبر الشق الثانى لمجمع ريمينى، حتى أنه يطلق عليهما معا " المجمع المزدوج " حيث كانت النية متجهة أولا لعقد مجمع واحد، ثم انتهى الأمر بانقسامه على هذا النحو . حضر مجمع سلوقية مائة وستون أسقفا كلهم من الآريوسيين، الأنومويون، الهومويون يمثلون الأقلية ولكنهم يشكلون القوة الحقيقية فى المجمع وأبرز زعمائهم أكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين.

وأنصاف الآريوسيين وهم الأغلبية وعلى رأسهم باسيليوس أسقف أنقرة . وقد اتخذ كل منهم موقفا معارضا فى مسألة الإيمان . أنصاف الآريوسيين أعلنوا تمسكهم بالمرسوم اللوقيانى ، والهومويون أصروا على " الشبهية " . وأرسل كل منهم مندوبيه إلى القسطنطينية بعد أن أدان أنصاف الآريوسيين خصومهم . وهكذا أخفق المجمع في الوصول إلى التوقيع على مرسوم إيمان نيقا الذى يبرز العقيدة الهوموية.

مجمع نيقا سنة ٣٥٩ : ضم مندوبى أساقفة ريمينى النيقيين، وكانوا قد انتقلوا إلى هذه المدينة بناء على أوامر الإمبراطور، وقد اختيرت هذه المدينة بالذات بعناية حتى يختلط مرسوم الإيمان الصادر فيها بمرسوم الإيمان الصادر سنة ٣٢٥ عن مجمع نيقية . وقد تم استمالة مندوبى الغرب إلى التوقيع على " المرسوم المؤرخ " – المشار إليه سابقا – بعد أن حذفت منه عبارة " كل شئ " (أى الابن يشبه الآب في كل شئ). وكان هذا تأكيدا واضحا للعقيدة الهوموية ، وهو المرسوم الذى وقعه أساقفة ريمينى وسلوقية .

مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠ : وفيه تقرر التصديق النهائى على مرسوم إيمان نيقا، الموقع عليه فى ريمينى وسلوقية، وهو الخاص بالعقيدة الهوموية . وهذا المجمع يعد تتمة طبيعية لمجامع ريمينى وسلوقية ونيقا.

مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ : دعا إليه يوزيوس أسقف أنطاكية الآريوسى، منتهزا فرصة وجود الإمبراطور فى المدينة، وانشغاله تماما بالأعداد للحرب الفارسية، محاولا إحياء الأنوموية ثانية ، وأصدر المجمع مرسوم إيمان جديد يعلن التخلى عن " الهوموية " والعودة إلى الأنوموية ثانية.

مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢ : عقد بعد عودة أثناسيوس من نفيه الثالث، وكانت أهم المسائل التى شغلت فكر الأسقف السكندرى فيه محاولة توحيد الكنيسة ضد خطر الوثنية ممثلا فى الإمبراطور جوليان ، ولهذا كانت أهم المسائل التى تعرض لها المجمع إصلاح الشقاق الحادث فى كنيسة أنطاكية بين اليوستاثيين

والمليتيين ، هذا بالإضافة إلى مسألة قبول الآريوسيين، أولئك الذين صدقوا على قرارات مجمع ريميني، ويريدون الآن العودة إلى شركة الكنيسة الكاثوليكية ثانية .

مجمع أنطاكية سنة ٣٦٤ : عقده الاكاكيون، أتباع أكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، وهم الهومويون في الشرق، ورأس المجمع مليتيوس أسقف أنطاكية، وأكاكيوس . ووقع الجميع وثيقة في شكل رسالة إلى الإمبراطور جوفيان أعلنوا فيها اعترافهم بالإيمان النيقي، غير أنهم فسروا مصطلح " الهوموية " بأنه يعني " التشابه في الجوهر " أي أنهم تمسكوا بكلمة " التشابه" أصل عقيدتهم، وأن كانوا قد حددوه الآن في الجوهر .

مجمع لامساكوس سنة ٣٦٤ : على الهللسبونت، ضم اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين، وقرر رفض قانون الإيمان الذي تم التصديق عليه في مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، وأكدوا تمسكهم بمرسوم الإيمان الصادر في أنقرة سنة ٣٥٨ أي " الهومويوسية " (التشابه في الجوهر)، وطالبوا بضرورة عزل يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ورفاقه .

مجمع صقلية سنة ٣٦٥ (أو ٣٦٦) : ضم أساقفة الجزيرة ومعهم رسل اتحاد أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين، الذين جاءوا إلى روما سنة ٣٦٥، وقدموا إلى أسقفها ليبريوس وثيقة إيمان يعلنون فيها إنكارهم لقرارات مجمع ريميني في أمر العقيدة ، وفسروا مصطلح " الهومويوسية " بأنه لا يختلف كثيرا عن " الهوموسية " وأنهم من أجل ذلك يصدقون على قانون الإيمان النيقي، وقد أعلن هؤلاء المندوبين من جديد في صقلية إيمانهم بالهوموسية .

مجمع الطوانة سنة ٣٦٦ : التقى فيه أنصاف الآريوسيين والماكيدونيون وفي مقدمتهم أثناسيوس أسقف أنقرة الذي خلف باسيليوس وبلاطيوس أسقف اللاذقية وغيرها، وأعادوا الاعتراف بالهوموسية، بعد أن تلقوا رسالة من ليبريوس أسقف روما وأخرى من مندوبيهم في صقلية .

مجمع كاريا سنة ٣٦٧ : دعا إليه المتطرفون من أنصاف الآريوسيين والماكيدونيين الذين رفضوا الاتجاه الجديد الذى سار فيه الفريقان، وأعلنوا معارضتهم الكاملة لمصطلح " الهوموسية " وأقروا المرسوم اللوقيانى (الأنطاكى الثانى) معتبرين إياه قانون الإيمان الحق الوحيد فى الكنيسة .

مجمع روما سنة ٣٦٩ : شهده تسعون أسقفا من أنحاء إيطاليا والغرب وترأسه داماسوس الأول أسقف روما، وأعلن المجمع إدانته لأوكسنتيوس الآريوسى أسقف ميلانو، وأرسل إلى الإمبراطور فالنتينيان يطلب إليه الموافقة على عزله، وأعلن تمسكه بالإيمان النيقى ورفض مرسوم ريمينى .

مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٩ : دعا إليه الأسقف السكندرى أثناسيوس، وضم تسعين أسقفا يمثلون كنائس مصر والمدن الخمس الغربية وليبيا، وذلك لتأييد أسقف روما داماسوس فى جهوده لعزل أوكسنتيوس الآريوسى من أسقفية ميلانو. وهذا المجمع فى حد ذاته دليل واضح على مدى نفوذ أثناسيوس ودوره خارج مصر حتى سنى عمره الأخيرة .

ملحق رقم (٤)
الأباطرة الذين عاصرهم أثناسيوس قبل أن يتولى الأسقفية

دقلديانوس – (٢٨٤-٣٠٥)

ماكسيميانوس – فى الغرب – (٢٨٦-٣٠٥)

جاليريوس (٣٠٥ – ٣١١)

قسطنطيوس كلوروس – في الغرب – (٣٠٥ – ٣٠٦)

ماكسيمين دازا (٣٠٨ – ٣١٣)

ليكينيوس – فى بانونيا – (٣٠٧ – ٣١٣)

قسطنطين – فى الغرب – (٣٠٦ – ٣٢٣)

ليكينيوس – فى الغرب – (٣١٣ – ٣٢٣)

بعد توليه الأسقفية

قسطنطين (٣٢٣ – ٣٣٧)

قسطنطيوس – فى الشرق – (٣٣٧ – ٣٥٠)

قسطنطين الثانى – فى الغرب (٣٣٧ –٣٤٠)

قنسطانز – فى الغرب (٣٣٧ – ٣٥٠)

قسطنطيوس منفردا – (٣٥٠ – ٣٦١)

جوليان – (٣٦١ – ٣٦٣)

جوفيان – (٣٦٣ – ٣٦٤)

فالنز – (٣٦٤ – ٣٧٨)

فالنتينيان الأول – فى الغرب – (٣٦٤ – ٣٧٥)

ملحق رقم (٥)
أشهر أساقفة الآريوسية الذين عاصروا أثناسيوس

١- أكاكيوس - أسقف قيسارية فلسطين، خليفة يوسيبيوس القيسارى فى منصبه، يعتبر زعيما للعقيدة الهوموية فى الشرق، ويعد الجناح الأخر لأساقفة البلاط في هذا الجزء من الإمبراطورية، قدم وثيقة إيمان الهوموية فى مجمع سلوقية سنة ٣٥٩ وهى التى تتفق إلى حد كبير مع مرسوم ريمينى، وهى العقيدة التى ارتضاها الإمبراطور قسطنطيوس ثم الإمبراطور فالنز بعد ذلك إيمانا للإمبراطورية، تخلى فى النهاية عن عقيدته الهوموية ، بل والآريوسية كلها ليصل بالنيقيين المعتدلين فى أنطاكية صفوفه .

٢- أوكسنتيوس - أسقف ميلانو، وهو من الآريوسيين الأنومويين، ومن جماعة الأساقفة السياسيين، يعتبر الجزيرة الآريوسية الوحيدة وسط محيط النيقية فى الغرب، ومن ثم تعرض للهجوم من جانب أتباع نيقية أكثر مما تعرض غيره، وكان على رأس الأساقفة الخصوم فى الغرب هيلارى أسقف بواتييه وليبريوس وداماسوس أسقفا روما، غير أن أوكسنتيوس ظل فى أسقفيته بفضل حماية الأباطرة له حتى مات سنة ٣٧٤، ولكن ذلك لم يعفه بعد من النقد اللاذع من جانب القديس أمبروز أسقف ميلانو الشهير .

٣- باسيليوس - أسقف أنقرة، الذى خلف ماركللوس النيقى، زعيم فريق أنصاف الاريوسيين، أو الهومويوسيين القائلين بالتشابه بين الابن والأب فى الجوهر، وهى العقيدة التى ظهرت فى مجمع أنقرة سنة ٣٥٨ . تمكن من استمالة الإمبراطور قسطنطيوس إلى جانبه بعض حين لما كان يحمله له من احترام، ولم يستطع أن يتصدى لهجوم الهومويين فوحد صفوفه مع الماكيدونيين أتباع ماكيدونيوس القائل بخلق الروح القدس، ورغم ذلك لم يتمكن من مجابهة قوة خصومه وعلى رأسهم فالنز وأورساكيوس ، ولهذا انضم فريقه فى النهاية إلى

النيقيين، أعداء الآريوسيين التقليديين، عندما أعلن رسل الفريق أمام ليبريوس أسقف روما اعترافهم بالهوموسية .

٤- ثيوجنس – أسقف نيقية، من أشد المتحمسين للعقيدة الآريوسية، صحب يوسيبيوس النيقوميدى فى نفيه سنة ٣٢٥ وعاد معه بعد ثلاث سنوات ، شارك بدور إيجابى فى الأحداث التى أدت إلى عقد مجمع صور سنة ٣٣٥ ونفى أثناسيوس إلى غالة .

٥- فالنز – أسقف مورسا فى بانونيا ، أحد رجال لجنةمريوط المنبثقة عن مجمع صور، والتى جاءت إلى الإسكندرية للتحقيق فى الاتهامات التى وجهت إلى أثناسيوس . يمثل هو وزميله أورساكيوس أسقف سينجيدونوم أشهر تلاميذ يوسيبيوس النيقوميدى، وأبرز زعماء أساقفة البلاط، لم يحافظ على آريوسيته عندما غدت السيادة مؤقتا للنقية بعد مجمع سرديكا سنة ٣٤٣ ، ظهر نفوذه واضحا عقب انتصار الإمبراطور قسطنطيوس في معركة مورسا وأصبح من أشد المقربين إلى الإمبراطور، تقلب بين الأنوموية والهومويوسية والهوموية في سبيل الحفاظ على علاقته ونفوذه لدي الإمبراطور، قام بدور بارز في سبيل فصل أساقفة الشرق عن أساقفة الغرب في ريميني وسلوقية سنة ٣٥٩ ، وكان له أكبر الأثر في حمل أساقفة ريميني ومندوبيهم في نيقا على التوقيع علي مرسوم الهوموية ، وقد شاركه رفيقه أورساكيوس معظم هذه الجهود .

٦- يودوكسيوس – أسقف أنطاكية ، ثم أسقف القسطنطينية من بعد . من أشد المتحمسين للعقيدة الأنوموية، ومن أبرز زعماء أساقفة البلاط ، وفي سبيل ذلك اضطر إلى التخلى عن الأنوموية أمام تهديدات الإمبراطور والاعتراف بالهوموية شأن زميليه فالنز وأورساكيوس .

٧- يوزيوس – أسقف أنطاكية بعد يودوكسيوس ، رفيق آريوس في دعوته منذ كان في الإسكندرية، ورفيقه في منفاه، واشترك معه في تقديم وثيقة الإيمان إلى الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٨ عند العفو عنهما . ثم اختفي من مسرح الأحداث

تماما ليظهر بعد ذلك فى نهاية عهد قسطنطيوس وليصبح أسقفا لأنطاكية . كان ينتمى إلى فريق الأنومويين ولم يتخل عن عقيدته هذه، بل حصل من الإمبراطور على الاعتراف بها فى مجمع أنطاكية سنة ٣٦١ . قدم كثيرا من التأييد للآريوسيين فى الإسكندرية ضد أثناسيوس، وشارك فى رسم لوقا أسقفا بعد موت أثناسيوس، حيث جاء إلى الإسكندرية وحث الآريوسيين على مهاجمة الرهبان أنصار أثناسيوس .

٨- يوسيبيوس النيقوميدى - أسقف نيقوميديا ثم القسطنطينية، عرف بطموحه، كان رائدا لأساقفة البلاط أو الأساقفة السياسيين، تعرض للنفى بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥، ثم أعيد بقرار الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٨، وتزعم العقيدة الآريوسية وخلع على أصحابها المحافظين اسمه فأصبحوا يعرفون باليوسابيين، لعب دورا كبيرا في نشر الآريوسية في الشرق الروماني، وكان من ألد أعداء أثناسيوس، وأفلح فى نفيه مرتين على يد قسطنطين العظيم، ثم قسطنطيوس من بعده .

٩- يونوميوس - أسقف كيزيكوس على عهد الإمبراطور فالنز، وهو تلميذ آيتيوس السورى، يعد المؤسس الحقيقي للعقيدة الأنوموية، التي حملت اسمه فيما بعد وعرفت باليونومية، وهى التي تنكر أى تشابه بين الابن والأب، وكان آيتيوس قد جهر بهذه العقيدة على عهد قسطنطيوس، وأيده في ذلك كل من فالنز وأورساكيوس أسقف أنطاكية وأوكسنتيوس أسقف ميلانو .. ثم سار يونوميوس بهذه العقيدة حتى بلغ بها أقصاها ، وهو الإنكار الكامل لألوهية المسيح خلافا لما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأصلية

AMBROSIVS, De Fide ad Gratianum Augustum : Nicene X 2, 199 – 314 (=P. L. XVI 527 – 698) – Sermo contra Auxentium : Nicene X2, 430 – 435 (=P. L. XVI 1007 – 1018). Valentiniano Imperatori, ep. XVII : Nicene X2, 411- 414 (= P. L. XVI 961- 971) – Valentiniano Imperatori, ep. XVII : Nicene X2, 417 – 422 (=P. L. XVI 971 – 982) – Valentinono Imperatori, ep. XXI: Nicene X2, 427 – 429 (=P. L. XVI 1002 – 1007) – Vercellensi ecclesiae, ep. LXIII : Nicene X2, 457 – 473 (=P. L. XVI 1188 – 1220).

AMMIANVS MARCELLNVS, Res Gestae, trans. By John C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

Ante- Nicene Fathers. Ed. By A. Robets – J. Dona Idson. Michigan 1892 sqq.

ATHANASIUS, Adversus Gentes Libri duo (oratio contra Gentes : Nicene IV, 2, 1- 30 (=P. G. XXV 4 – 96)- (oratio de incarnatione Verbi : Nicene IV 2, 31- 67 (= P. G. XXV 96 – 197) – Epiatola encyclica : Nicene IV 2 : 92 – 96 (= P. G. XXV 221 – 223) – De Sententia Dionysii : Nicene IV

2, 176 – 186 (= P. G. XXV 480 – 521) – Apologia Contra Arianos : Nicene IV 2, 100 – 147 (= P. G. XXV 248 – 409) – Vita S. Antoni : Nicene IV 2, 195 – 221 (=P. G. XXVI 836 – 976) – Ad episcopos Aegypti et Libyae : Nicene IV 2, 223 – 235 (=P.G. XXV 537 – 593) – Apologia ad imporatorem Constantium : Nicene IV 2, 238 – 253 (=P. G. XXV 596 – 641) – Apologia de fuga sua : Nicene IV 2, 255 – 263 (=P. G. XXV 644 – 680) – Historia Arianorum ad Monachos : Nicene IV 2, 270 – 302 (=P. G. XXV 696 – 796) – Orationes contra Arianos : Nicene IV 2, 306 – 447 (=P.G. XXVI 12 – 525) – Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciaie Isauria celebratis : Nicene IV 2, 451- 480 (=P. G. XXVI 681-793) – Tomus ad Antiohenos : Nicene IV 2, 483 – 486 (=P. G. XXVI 796 – 809) – Ad Afros episcopos : Nicene IV 2, 489 – 494 (=P.G.XXVI 1029 – 1084) – Narratio Athanasii ad Ammonium episcopum. Nicene IV 2, 487 (=P. G. XXVI 980 – 981)Epistolae duae ad Amunem monachum: Nicene IV 2, 556-557 (= P.G. XXVI 1169 – 1180) – Ad Dracontium: Nicene IV 2, 557-560 (=P.G. XXV 524-526 Ad Luciferum epistolae duae. Nicene IV 2, 561-562 (= P.G.

XXVI 1181 – 1184) – Ad Monachos epistolae duae: Nicene IV 2, 563 – 564 (= P.G. XXV 692-693, XXVI 1185-1190) – Ad Serapionem de morte Arii: Nicene IV 2, 564-566 (=P.G. XXVI 885-889) - Ad Rufinianum: Nicene IV 2, 566-567 (= P.G. XXVI 1180-1181) –Ad Iovianum imperatorem: Nicene IV 2, 567-568 (=P.G. XXVI 813-824) – Epistola duae ad Orisium: Nicene IV 2, 569-570 (=P.G. XXVI 977-980 – Ad Epictetum: Nicene IV 2, 570-574 (=P.G. XXVI 1049-1069) – Ad Adelphium episcopum : Nicene IV 2, 575-578 (=P.G. XXVI 1072-1084) - Ad Maximum philosophum: Nicene IV 2, 578-579 (=P.G. XXVI 1085-1089) – Ad Palladium: Nicene IV 2, 580-Ad Diodorum: Nicene IV 2, 580 – Ad Ioannem et Antiochum: Nicene IV 2, 579-580.

Historia Acephala: Nicene IV 2, 494-499.

Chronicon Athanasianum (The Festal Letters and their index: Nicene IV 2, 500-553 – Depositio Arii: Nicene IV 2, 69-71 (= P.G. XXVI, 691-695) – Epistola "de decreties Nicaenae Snodi contra Arianos": Nicene IV 2, 150-172 (=P.G. XXVI , 415-476).

AVGVSTINVS, Contra Cresconium grammaticum Donatistam: P.L. XLIII 445-594- De baptismo contra Donatistas: Nicene IV 1, 407-514 (= P.L. XLIII 107-244).

BASILIVS, De Spiritu Sancto: Nicene VIII 2, 1-50 (=P.G. XXXII 68-217 – Iulianus Basilius epistolae duas, epp. XXXIX, XL: Nicene VIII 2, 141-142 (=P.G. XXXII 339-343 – Basilius ad haec Iuliano, ep. XLI. Nicene VIII 2, 142-143 (=P.G. XXXII 344-348)- Athanasio Alexanriae episcopo, epp. LXI, LXVI, LXVII, LXIX, LXXX, LXXXII: Nicene VIII 2, 161-163,164 171-173 (=P.G. XXXIII 416-417, 424-425, 425- 428, 429-433, 456, 457-460) – Meletio episcopo Antiochiae. Epp. LVII, LXVIII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXIV: Nicene VIII 2, 159, 164, 175, 192, 197, 255, (=P.G.XXXII 406-408, 428-429, 469-472, 537-540, 557-561, 791-794) Ad episcopos Italos et Gallus, epp. XCII, CCXLIII: Nicene VIII 2, 177-179, 283-285, (=P.G. XXXII 477-484, 901-912) – Sanctissimis fratrubus ac episcopis Occidentalibus, epp, XC, CCXLII, CCLXIII: Nicene VIII 2, 176, 282, 301 (=P.G. XXXII 472-476, 899-902, 973-982) – Petro episcopo Alexandria. Ep. CCLXVI: Nicene VIII 2, 305-

306 (=P.G. XXXII 991-996) – Eusebio episcopo Samosatorum, epp. XLVIII, XCVIII, C. CXXVII, CXLI: Nicene VIII 2, 153-182, 184, 196, 204 (=P.G. XXXII 384-385, 496-497, 501-505, 553, 589-592).

GYRILLVS, Catecheses. Nicene VII 2, 1-151 (=P.G. XXXIII, 331-1000).

EVSEBIVS, Historia ecclesiastica; Nicene I, 2, 73-387 (=P.G. XX, 45-906-Vita Constantini: Nicene I. 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

GENNADIVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 385-402.

GREGORIVS NAZIANZENVS, Orationes contra Iulianum IV, V (=P.G. XXXV 531-720 – Oratio VII: Funebris in Laudem Caesarii oratio: Nicene VII 2, 229-238 (=P P.G. XXXV 755-788)- Funebris oratio in patrem. Oratio XVIII : Nicene VII 2, 254-269 (=P.G. XXXV 985-1044) – In Laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269-280 (=P.G. XXXV 1081-1128) – Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328-334 (=P.G. 213-238) – Funebris oratio in Laudem Basilii Magni Caesareoe in Cappadocia episcopi. Oratio XLIII: Nicene VII 2, 395-422 (= P.G. XXXVI 493-606).

GREGORIVS NYSAEVS, Contra Eunomoium: Nicene V 33-248 (=P.G. XLV 243-1122).

HIERONIMVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 359-384 (= P.L. XXIII 2, 601-720) – Dialogus contra Luciferianos: Nicene VI 2, 319-334 (=P.L. XXIII 29-54). Vita S. Pauli primi eremitae: Nicene VI 2, 299-303 (=P.L. XXIII 17-28).

HILARIVS, De Synodis seu fide Orientalum: Nicene IX 2, 4-29 (P.L. 441-456) – Contra Constantium Imperatorem: (=P.L. X. 609-624) – Quindecim Fragmenta ex opere historico: (P.L.X. 619-724) – Libri duo ad Constanitium Augustum: (P.L.X. 557-572).

LACTANTIVS, De mortibus persecutorum: Ante Nicene VIII 301-322 (=P.L. VII 2, 189-276).

Nicene and post Nicene Fathers of the christian church. Ed by Philip Schaff; Henry wade. Michigan 1891 et sqq.

PALLADIVS, Historia Lausiaca. Trans. Budge (in stories of the Holy Fathers) London 1934.

Patrologiae, Cursus Completus Series Graeca. Ed. Migne. Paris 1854 et eqq.

Patrologiae, Cusus Completus Series Latina. Ed. Migne. 'Paris, 1844 et Sqq.

RVFINVS, Historia Ecclesiastica: P.L. XXI 467-538-Historia Monachorum: P.L. XXI 391-462

SOCRATES, Historia Ecclesiastica, Nicene II 2, 1-178 (=P.G. LXVII 29-842).

SOZOMENOS, Historia Ecclesiastica: Nicene II 2, 239-427 (=P.G. LXVII 843-1630).

SVLPECIVS SEVERVS, Historia Sacra: Nicene XI 2, 71-122 (=P.L. XX 95 – 160).

Vita S. Matrini: Nicene XI 2, 3-17.

THEODORETVS, Historia Ecclessiastica: Nicene III 2, 33-159 (=P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانياً: المخطوطات

سير قديسين: مخطوط رقم ٤٤٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية، (سيناء ــ عربى).

سير قديسين: مخطوط رقم ٨٠٦ / تاريخ. بمكتبة بطريركية الاقباط الأرثوذكس بالقاهرة.

فرق الهراطقة (لابيفانوس)، مخطوط رقم ١٧٨ ــ ١٧٩ / ١٨٠ / لاهوت بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

قليل من سير آبائنا القديسين وأقوالهم، مخطوط رقم ١٠٤/١٠١٤ تاريخ بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

قوانين الرسل، مخطوط رقم ١٥٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية (سيناء – عربى).

قوانين المجامع والملوك، مخطوط رقم ٣ / قانون. بمكتبة البطريركية بالقاهرة.

القوانين المقدسة والمجامع الطاهرة، مخطوط رقم ٣٩٠ بالمراقبة الفنية بآداب الاسكندرية (سيناء – عربى).

ثالثاً: المراجع الأوربية

Allard (P.), La christianisme et L'Empire Romain, de Néron à Theodose. Paris, 1925.

- S. Basil. Dict. De théol. Cath., III, Col. 441-459.

Artz (F.B.), The mind of the Middle Ages,200-1500, an histoircal survey. New York 1953.

Atiya (A.S.), History of Eastern christianity. London 1958.

Aymarp (A.), Auboyer (S).

Historie Générale des civilisation. 7 tomes, Paris 1962.

Ball (S.), Egypt in the classical Georgraphers. Cairo 1942.

Bardenhewer (O.), Les Pérs de l'église, Leur vie et leurs ouvres, 3 tomes. Paris 1899.

Baynes. (N.H.), Byzantium, An introduction to East Roman civilisation, ed. By N.H. Baynes and Moss Oxford, 1969. –Constantine (C.A.H. vol. XII).

Boak. (A.E.R.), A history of Rome to 565 A.D. New York 1960.

Browne (CH. G.), Prolegomena (GREGORIVS NAZIANZENVS, orationes et epistolae): Nicene VII 2, 187-202.

Budge (E.A.W.), Stories of the Holy Fathers, London 1934.

Bullough (S.), Roman Catholicism. London, 1963.

Burckharde (J.), The age of Constantine the Great. Transl. By Moses Hadas. U.S.A. 1949.

Burkitt (F.C.), The christian church in the East. (Cam. Anc. Hist. XII) pp. 476-593.

Butcher (E.L.), The story of the church of Egypt. 2 vol. London, 1897.

Cadbury (E.), Schism in the early church, London, 1953.

Cambridge Ancient History. Ed. By J.B. Bury; S.A. Cook; F. E. Adcock, 12 vols. Cambridge, 1939.

Cambridge Medieval History. Planned by J.B. Bury. 8 vols. Cambridge, 1936.

Cantor (N.), Medieval history: the life and death of a civilization. New York 1963.

Catholocisme, heir. Aujourd'hui et deman: Encyclopédie en sept volumes. Paris, 1948.

The Catholic Encyclopedia. 15 vols. New York, 1913.

Cavallera (F.), Saint Athanase. Paris, 1908.

Chadwik (H.), The Early church. London, 1974.

Cochrane (C.N.), Christianity and classical culture: a study of thought and action from Augustus to Augustine. Oxford, 1940.

Copleston (f.), A history of Philosophy, vol. 2, p. 1 New York, 1962.

Coxe (C.), Introductory note to the Clement of Alexandria : Ante Nicene II 165-169.

Creed (J.M.) Egypt and the christian church , in (Legacy of the Egypt) . Oxford 1947 .

Crombie (F.), Introductory note to the works of Origan of Alexandria: Ante Nicene VI 221-234.

Davis (R.H.C.), A history of Medievel Europe from Constantine to Saint Louis. London, 1957.

De Romestin (H.), Prolegomena (AMB. Select works): Nicene X2, 11-22.

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclesiastiques, 25 tomes. Paris.

Ditcionnaire de théologie Catholique 15 tomes Paris 1923 et sqq.

Diehl (Ch.), L'Egypte Chrétienne et Byzantine (Histoire de la Nation Egyptienne. 6 tomes) Paris 1931.

Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to The Arab conquest. New Jersey 1961.

Ancient Antioch. New Jersey 1963.

Duchesne (M. L.), Early history of the christian church from its foundation to the fifth century. Trans. In 3 vols. London 1950.

Dudley (D. R.), The civilisation of Rome, New York 1962.

Encyclopaedia Britannica. London 1958.

Encyclopaedia of Religion and Ethics 12 vols. London 1925. et Sqq.

Evetts (B.), History of the Patriarchs of the Coptic church of Alexandria. Paris 1904.

Fliche (A.), - Martin (V.), Histoire de l'église dépuis les origines jusqu'à nos jours 21 tomes. Paris 1936 et Sqq.

French (R.M.) The Eastern Orthodx church. London, 1951.

Gibbon (E.), The decline and Fall of the Roman Empire, ed . J. B. Bury in 7 vols. London 1929.

Gibbon (E.H.), Introduction (CYRIL. Catech) : Nicene VII 2, 1-58.

Gwatkin (H.M.), The Arian Controversy. London 1914. -

Arianism (C.M.H.) vol. 1.

Hardy (E.R.), Christian Egypt : church and people, Chistianity and nationalism in the Patiarchate of Alexandria, New York 1952.

Hefele (C.S.), Histoire des Conciles. 3 tomes, Paris 1907 et sqq.

Hemmer, Histoire de L'église 2 tomes. Paris 1899.

Hulme (E.M.), The Middle Ages. New York 1938.

Hyatt (A.T.), Church and State. London.

Jackson (B.), Prolgomena (BASIL. Opera omnia) : Nicene VIII 2, 13-77.

Jackson (F.), The History of the christian church from the earlist times to the death of S. Leo the Great A.D. 461 London 1909.

Johnson (A.CH.), West (L.C.), Byzantine Egypt : economic studies. Princeton 1949.

Jones (A.H.M.), The later Roman empire 284-602. 3 vols. Oxfords 1964.

Constantine and the conversion of Europe. London 1948.

-Egypt and Rome (Legacy of Egypt) Oxford 1947. The cities of the Eastern Roman provinces. Oxford 1937. -The decline of the Ancient world. London 1966.

Jones (H.S.), The Roman empire. London 1903.

Kelly (J.N.D.), Early christian creeds. London 1950.

Khs-Burmester, The Egyptian or Coptic church. Cairo 1967.

Kidd (B.J.), A history of the church to A.D. 461. 2 vols. Oxford 1922.

Kuhner (H.), Encyclopedia of the Papacy. London 1959.

Labourt (J.), Le christianisme dans L'empire Perse sous la dynastic Sassandie 224-632. Paris 1904.

Lampert (W.), The canons of the first four general. Councils of the church and those of the early Local Greek Synonds. London.

Latourette (K.S.), A history of Christianity. London 1955.

-A history of the expansion of Christianity. 7 vols New York 1937 et sqq.

Lebreton (J.), Zeller (J.), The history of the primitive church. Trans. In 2 vols by Ernest C.Messenger. New York 1947.

Lietzmann (H.), Histoire de L'église. 3 tomes Paris ,1936-1941.

Lot (F.), The end of the Ancient world and the beginnings of the Middle Ages. London 1933.

Lot (F.), Pfaster (C.), Histoire du Moyen Age. 3 tomes. Paris 1928.

Macaire (G.), Histoire de L'église d'Alexandrie. Le Caire. 1894.

Martin (H.), Histoire de France. 8 tomes. Paris 1849 et Sqq.

McGiffert (A.C.), Prolegomena and notes (EVSEB. Hist. Eccl.) : Nicene I 2, 3 – 73.

Milne (J.G.), A history of Egypt under Roman rule. London 1924.

Moore (W.), Prolegomena (GREG. NYS. Scelect works.) : NiceneV 2, 1-23.

Mourret (F.), Histoire general de l'église. 9 tomes. Parius 1936.

Musset (P.H.), Histoire du Christianisme. Specialement en Orient. 2 tomes. Liban 1948.

Neal (J.M.),A history of the holy Eastern church. The Patriarchate of Alexandria, 2 vols. London 1847. -A history of the holy Eastern church, together with memories of the Patrirachs of Antioch by Constantius Patriarch of Constantinople. Trans. From the Greek by williams G. London.

Neander (A.), Lectures on the history of Christian Dogmas. 2 vols. London 1882.

- General history of the christian Religion and Church,trans from the German by Joseph Tarrey. 9 vols. London 1851-1858.

The New Schaff – Herzog encylopedia of Religious Knowledge. 13 vols. Michigan 1957 et Sqq.

Nock (A.D.), The development of Paganism in the Roman empire (Cam. Anc. Hist. Vol. XII).

O'Leary (De L.), The Coptic church and Egyptian monasticism (Legacy of Egypt).

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine state. Trans by Joan Hussey. Oxford 1956.

Painter (S.), History of the Middle Ages 284-1500. New York 1954.

Paulcheneau. Les Saints D' Egypte. 2 tomes. Jerusalem 1923.

Percival (H.R.), The seven Ecumenical Councils : Nicene vol. XIV. Michigan 1899.

Richardson (Ch.), The church throug the centuries. New York 1938.

Richardson (E.C.), Introduction (EVSEB. Vita Const.) : Nicene I, 2, 411 – 469.

Roberts (A.), Preface and notes (SVLP.SEV. opera omnia) : Nicene XI 2.

Robertson (A.), Prolegomena (ATHANAS. Opera omnia) : Nicene IV 2, 11-87.

Rogier (L.J. – Aubert (R.) – Knowles (M.D.), Nouvell histoire de L'église. 4 tomes. Paris 1963. Premiére partie, des origines à la fin du troisieme siécel par Jean Daniélou.

Roncaglia (M.), Histoire de L'église. Copt. 2 tomes. Liban 1966.

Rostovtzeff (M.), A history of the Ancient world, trans. from the Russain in 2 vols. By J. D. Duff. Oxford 1933.

Sansterre (J.M.), Eusébe de Cèsarée et la naissance de la théorie "Céasropapiste" (Byzantion. Tome XLII – 1, 2) 1972.

Schaff (Ph.), History of the chrstian church. 8 vols. Michagan 1956 et Sqq.

Smith (P.G.), The church in the Roman empire. Cambridge 1932.

Sourcus Chretiennes, ed par Lubac (S.J.) – Daniélou (S.), tomes 15, 18, 56, Athanase d'Alexandrie, Tom 15, Lettres a Serapion , introd . par Josep. Labon. Paris 1947.

- Tome 18, contre Les Paiens et l'encarnation du Verbe introd. Par Camelot. Paris 1946.

- Tome 56, Apologia a l'Empereur Constance, et Apologie pour sa Juite , introd par , Jan M. Szymusiak , Paris 1958.

Stanley (R.J.), Lectures on the history of the Eastern church. London 1864.

Stephenson (C.), Mediaeaval history : Eprope from the Second to the sixteenth century. New York 1962.

Sykes (P.), A history of Persia. 2 vols. London 1930.

Tarn (W.), Hellemistic Civilisation. London 1966.

Thompson (J.), - Johnson (E.), introduction to Medival Europe 300-1500. New York 1965.

Tixeront (J.), Histoire des dogmas dans L'antiquité chrétienne 3 tomes , Paris 1931.

Turner (C.H.), Studies in early church history. Oxford 1912.

Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine empire 324 – 1435 2 vols. Madison and Milwaukee 1964.

Waddell (H.), The desert Fathers. London 1946.

Wand (J. W. C.), A history of the early church to a A. D. 500. London 1937.

Ware (T.), The Orthodox church. London 1967.

Watson (E. W.), Introduction (HILAR. Select works) : Nicene IX 2, 1 – 96.

Zananiri (G.), Histoire de L'église Byzantine. Paris 1954.

Zenos (A. C.), Introduction (SOCRAT Hist. Eccl.) : Nicene II 2, 7 – 17.

رابعا : مؤلفات عربية ومترجمة

● إبراهيم نصحى (دكتور) ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة .
الجزءان الأول والثانى القاهرة ١٩٦٠ .

● أسد رستم (دكتور) ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب ، جزءان ، بيروت ١٩٥٥.

● كنيسة أنطاكية مدينة الله العظمى — ٣ أجزاء ، بيروت ١٩٥٧.

● ج . كرامب ، أ / جاكوب ، تراث العصور الوسطى جزءان . ترجمة مجموعة من الأساتذة وراجعه محمد بدران ودكتور محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٦٥.

● جلانفيل دوانى ، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير ، ترجمة ألبرت بطرس. بيروت ١٩٦٨.

● جورج سارتون ، تاريخ العلم (٦ أجزاء) ، الجزءان الرابع والخامس ترجمة مجموعة من الأساتذة بإشراف الدكتور محمد مصطفى وآخرين . القاهرة ١٩٦٣ وما بعدها .

● رأفت عبد الحميد (دكتور) ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى . القاهرة، دار المعارف ١٩٨٢.

● عبد اللطيف أحمد على (دكتور) ، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية . القاهرة ١٩٦٧.

● القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزء القاهرة ١٩٦٣.

● كريستوفر دوسن ، تكوين أوربا. ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . القاهرة ١٩٦٧.

● مصطفى العبادى (دكتور) ، مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى ، القاهرة ١٩٦٦.

● نورمان بينز ، الإمبراطور البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمد زايد ، القاهرة ١٩٥٧.

● ول ديورنت ، قصة الحضارة . المجلد الثالث ترجمة محمد بدران . القاهرة ١٩٦٤.

● يوحنا موسهيم ، تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة الحديثة . ترجمة القس هنرى هس . بيروت ١٨٧٥.

فهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع



الفصل الخامس



الفصل السادس



الفصل السابع

الفصل الثامن

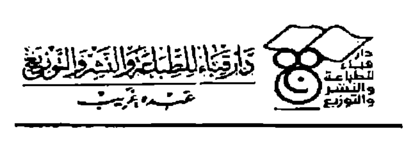
الفصل التاسع



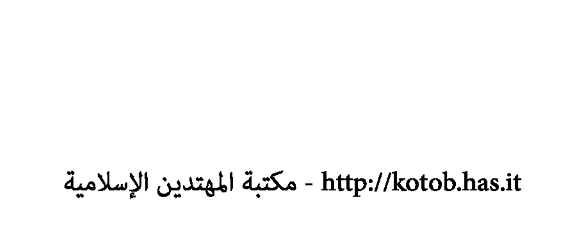
الفصل العاشر






دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
٦٣٦٢٥٦٢ / ٦٣٧٤٠٣٨





الجزء الرابع

الدولة والكنيسة

المسيحية الجديدة

د. رأفت عبد الحميد

الناشــــر
دار قبـــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)



الكتـــــاب : الدولة والكنيسة

المؤلــــف : د. رأفت عبد الحميد

رقـم الإيداع : ١٩٩٩/١١٩٩٢

الترقيم الدولـى : ISBN 977 – 303 – 190 - x

تـاريخ النشـر : ٢٠٠١

الناشـــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ - فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :

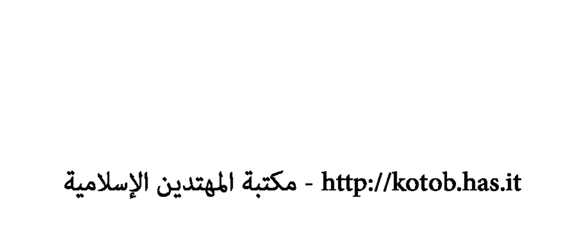
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com


بسم الله الرحمن الرحيم


مكتبة المهتدين الإسلامية - http://kotob.has.it

الفاتحة

هذا هو الكتاب الرابع من الدولة والكنيسة، ومن قبل قدمت للمكتبة العربية الكتاب الثانى[١]. عن الوثنية والمسيحية، والثالث عن قيصر والمسيح، أما الذى بين أيدينا الآن فيتناول سيادة المسيحية فى صورتها الجديدة "النيقية". والكتب الثلاثة تشمل القرن الرابع الميلادى الذى يمثل أهمية خاصة فى دراسة تاريخ العصور الوسطى والعالم البيزنطى على قدر سواء، إذ يعد أحد القرون الثلاثة التى تبدأ به وبالسابع تنتهى، والى تشكل مرحلة الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمعناها التاريخى والحضارى. ويتميز القرن الرابع عن قرينيه بأنه شهد أحداثاً جساما كان لها أثرها البالغ فى مجريات التاريخ، بحيث عدت العلامات الرئيسية على طرق التحول من القديم إلى الوسيط ومن الرومانى إلى البيزنطى.

وتتمثل هذه فى ثلاث أساسية، الاعتراف بالمسيحية ديانة شرعية للإمبراطورية الرومانية فى أوائل القرن الرابع على يد قسطنطين، ثم إقرارها عقيدة رسمية فى نهاية القرن ذاك من جانب ثيودسيوس وبتأثير من أمبروز، ويعد هذا انقلاباً خطيراً فى التقليد الكلاسيكى الذى ظل لقرون عديدة يربط بين الوثنية مجد روما وعظمتها.

والثانية، انتقال العاصمة الإمبراطورية من روما القديمة عند التيبر إلى روما الجديدة على شطآن البسفور، والتى أبت ألا أن تحمل اسم مؤسسها فذاعت باسم القسطنطينية. ولم يكن هذا الانتقال يعنى مجرد بناء مدينة جديدة فحسب بل كان يحمل فى طياته عوامل التغير الكبير إلى عصور جديدة هى العصور الوسطى وعالم جديد هو العالم البيزنطى. فروما القديمة كانت تقوم وسط العالم اللاتينى، بلسانه، وفكره وثقافته وديانته، أما القسطنطينية فقد نشأت فى قلب بلاد اليونان بلغتهم الأكثر حيوية من قرينتها، ومدارسهم الفكرية وثقافتهم وفلسفاتهم التى خلا منها الغرب أو كاد، ومن ثم أضحت القسطنطينية بوتقة راح يتفاعل فيها وينصهر

---

(١) الكتاب الأول من الدولة والكنيسة – وهو فى مرحلة الإعداد يتناول المصادر التاريخية والكنسية.

هذا التراث الكلاسيكي اليوناني الروماني، مع العقيدة المسيحية الجديدة، تأخذ منه وتعطيه لتخرج من بعد بصورة تخالف هيئتها الأولى وبساطتها ، يميزها هذا الجدال اللاهوتي الذي بدا ولا نهاية له، أو "قصر لابرنت" جديد بتعبير الكاتب الكنسي في القرن الخامس، سقراط. وهو الجدال الذي غطى صفحة القرنين الرابع والخامس بصفة خاصة وصبغ وجه العالم البيزنطي والعصور الوسطى بطبيعته، وأن كان قد اختلف في الشرق عنه في الغرب؛ فبينما شهدت الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى القرن الخامس عشر اصطراعاً فكرياً لاهوتياً دائراً من حول المسيح وطبيعته ، عقائدياً إلى حد ما بحكم تأثير المدارس الفكرية والفلسفة اليونانية التي بدت بشكل اضح في المدرسة السكندرية الأفلاطونية، والمدرسة الأنطاكية الأرسطية، كانت أوربا العصور الوسطى تعانيه في مجال التنظيم الكنسي وسلطان كل من الإمبراطور والبابا، ستاره التقليد العلماني وجوهره النزاع على السيادة العالمية بين البابوية والإمبراطورية.

أما الثالثة فتتمثل في الغزو الجرماني الذي اجتاح العالم الروماني عقب هزيمة الإمبراطورية في معركة إدرنة عام ٣٧٨، حاملين معهم نظمهم وتقاليدهم وطرائق تفكيرهم وحياتهم. حقيقة أن بعضهم عاش فترة طويلة على حدود الإمبراطورية عند الراين والدانوب، وتأثر إلى حد بالحضارة الرومانية، حتى غدا شديد الحماسة للمحافظة عليها، شأن ثيودوريش زعيم القوط الشرقيين، لكن هذا لا ينفي أن الجرمان أحدثوا في العالم الروماني خاصة نصفه الغربي تغييرات واسعة لا يقل تأثيرها عن العنصرين الآخرين.

هذه العناصر الثلاثة أخذت خلال القرون من الرابع حتى بداية السابع، تتفاعل مع بعضها البعض، ومع التراث الكلاسيكي، حتى أمكننا أن نتلمس على مشارف القرن السابع عالمين جديدين لكل منهما ما يميزه، هما العالم البيزنطي وأوربا العصور الوسطى. ومن هنا تأتي أهمية القرن الرابع الميلادي الذي تناولته الكتب الثلاثة باعتباره القرن الذي شهد وقائع هذه الأحداث وعاين بداياتها.

والكتاب الرابع الذي نقدم له الآن يتناول الربع الأخير من ذلك القرن، وقعت به من هذه الأحداث الثلاث حادثتان، هما هزيمة الجرمان للإمبراطورية، ومحاولة

تحطيم الوثنية لصالح المسيحية، وجعل الأخيرة دينا رسمياً، وتقاسمت ساحته شخصيتان هما الإمبراطور ثيودوسيوس والأسقف أمبروز، وكان هذا الاقتسام تطوراً تلقائياً وطبيعياً لمجريات الأمور. فحتى نهاية الثلاثينيات من القرن ذاك كانت شخصية قسطنطين وحدها هى التى تحتل مسرح الأحداث بعمليه الكبيرين، ممالأته للمسيحية وبناء القسطنطيطية ، ولما كان صاحب اليد العليا على الكنيسة فقد كان على هذه الأخيرة أن تاتيه طائعة وإن كانت غير قانعة، وفى الثلاثينيات التالية كان أبناء قسطنطين على العرش، ولكن أحدا منهم لم يكن له شخصية أبيه وذكاؤه، فساد الساحة أثناسيوس السكندرى، لا انتصارا على الدولة ولكن صراعاً معها. أما هذا الربع الأخير فقد قدمت الدولة فى شخص ثيودوسيوس للمسيحية كل ما كانت من قبل به تحلم وإليه تتطلع، فجعلت منها العقيدة الأولى، ومهدت لها سبيل السيادة على الوثنية، وشاء قدرها أن يكون على رأسها آنذاك شخصية قوية هى أسقف ميلانو، أمبروز الذى تملك عقل ثيودوسيوس وفكره، وتسلط على شخص فالنتينيان الثانى وتحداه. ورغم صداقته الحميمة لثيودوسيوس وتقديره إياه، إلا ان ذلك لم يمنعه من "إذلاله" فى ميلانو عندما أقدم على إحداث مذبحة سالونيك، وكان الإمبراطور أذكى من ان يثير مع الكنيسة أزمة، فأجاب الأسقف إلى ما شاء معتبراً نفسه واحداً من رعاياها.

ولقد عالج الكتاب الذى بين أيدينا هذه الأحداث بالتفصيل من خلال العلاقة بين الدولة والكنيسة، الأحداث التى وقعت فى الإمبراطورية خلال ربع القرن الرابع الأخير، فعرضت لسياسة الإمبراطور فالنز العقيدية باعتباره آريوسيا، وعداء النيقيين له، وما كان من انتهاء الأمر بمقتله على يد الجرمان فى إدرنة، وطبيعة الغزو الجرمانى واعتناق الشعوب الجرمانية للآريوسية، وتأثير ذلك على علاقاتهم بالإمبراطورية. ثم تحدثت عن المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية فى عام ٣٨١ لإقرار أمور العقيدة، وما تمخض عنه من رفع قدر كرسى العاصمة الإمبراطورية الأسقفى إلى المرتبة التالية لروما مباشرة، باعتبار القسطنطينية روما الجديدة، مما كان له أبعد الأثر فيما بعد، خاصة فى القرنين التاليين، على الصراع الذى دار بين الكنائس الرسولية حول الزعامة، واستبقت إلى الحلبة روما والقسطنطيية والأسكندرية وأنطاكية وعلى استحياء بيت المقدس،

مستترة كلها برداء الجدال اللاهوتى حول طبيعة المسيح [٢]. وكانت أنطاكية بالذات أكثر المدن معاناة لهذا الصراع العقيدى الذى بدأ فى القرن الرابع وقاد كنيستها إلى الشقاق حتى بين أصحاب المذهب الواحد، وجر إلى فوضاه الدولة حيث شارك الأباطرة فى أحداث هذا الشقاق. ورغم أن الخلاف كان مسألة تخص الكنيسة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، إلا أن روما وميلانو وأكليرورس الغرب شاركوا فى هذا الصراع حفاظاً فقط على ذكرى الأسقف السكندرى أثناسيوس، دون ان يكونوا على معرفة أو مجرد دراية بجوهر هذا الشقاق وفحواه. ولما كانت المسيحية فى صورتها النيقية قد حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب الإمبراطورية، فقد كان من الضرورى تناول جهود الأباطرة فى القضاء على الفرق المسيحية الأخرى المعارضة وخاصة الآريوسية بطوائفها العديدة، وكذا سعيهم الدائب للخلاص من الوثنية التى كانت ما تزال حتى عام ٣٩١ هى الديانة الرسمية للإمبراطورية. وبينما دار الصراع فكراً فى الشرق من جانب الفلاسفة الوثنيين، وتعصباً من ناحية الأكليروس المسيحى والرهبان والدهماء، تمثلت المقاومة الوثنية فى الغرب حول مذبح النصر الذى كان مقاماً فى مبنى السناتو الرومانى ودارت المراسلات بشأنه بين الخطيب الوثنى المفوه والمتحدث باسم مجلس الشيوخ، سيماخوس والإمبراطور فالنتينيان، وهذا والاسقف أمبروز، وهذه المراسلات تمثل نفحات الأدب اللاتينى الرائع قبل احتضاره. وجاء الفصل الأخير تتمة ضرورية لبيان جهود كل من الدولة والكنيسة فى سبيل السيادة؛ فالفكر السياسى الرومانى لا يقبل بوجود كيان داخل الدولة، وفى الوقت ذاته ترفع الكنيسة شعارها "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وكان حتماً مقضياً أن يلتقى الاتجاهان على خلاف ، وتمثل هذا بصورة واضحة فى سياسة كل من ثيودوسيوس وأمبروز، وانتهى بأن كسبت الكنيسة الجولة الأولى والأخيرة فى هذا الميدان فى العالم البيزنطى.

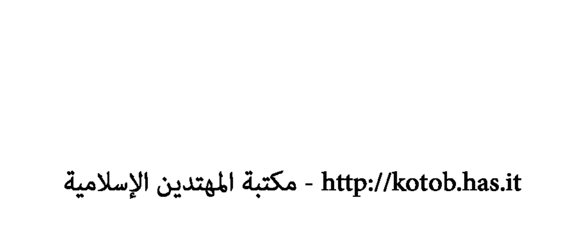
رأفت عبدالحميد

القاهرة ٢٠٠٠

---

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذا الاصطراع الكنسى حول الزعامة فى القرن الخامس، راجع للمؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الخامس.


الفصل الأول
المسيحية الحكومية



الفصل الأول

المسيحية الحكومية

ودع أثناسيوس السكندرى شعب الكنيسة ودنياه فى الثانى من مايو عام ٣٧٣، بعد ان احتفظ بالكنيسة السكندرية ومصر جزيرة للنيقية وسط بحر الآريوسية فى الشرق الرومانى، إذ ظل ستا وأربعين سنة على كرسى الأسقفية يصطرع والآريوسيين أساقفة وأباطرة، ينالون منه ويطاولهم، يهزمونه وينتصر عليهم، حتى أعيتهم فى أمره الحيل وبلغ بهم وبه الصراع مبلغ الجهد، فتركوه وشأنه للمقادير حتى مات.

وكان آخر عهده برحلة العذاب الطويلة نفيه للمرة الخامسة على عهد الأمبراطور الآريوسى فالنز Valens وقد عاد منه إلى بيعته فى فبراير ٣٦٦ ليمضى بعد ذلك سبع حجج يجنى ثمار غرسه طوال ماولى من السنين، وحرص الجالس على العرش فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية الرومانية على أن لا يعكر صفو سلامه على امتداد ما بقى للأسقف من عمر، فقد كان يعلم ما عليه أثناسيوس Athanasius من قوة الشخصية وعناد ، مصدرها التفاف شعب الكنيسة من حول، وجموع الرهبان الضاربين فى فلوات مصر على امتدادها من قم النيل إلى طيبة، وسمعة عريضة حازها فى عالم المسيحية بين رجال الاكليروس فى الشرق والغرب سواء، ولم تواتِ الإمبراطور الفرصة للانتقام إلا بعد وفاة أثناسيوس، فأرسل رسله يؤيدهم جنده لاقتحام قلعة النيقة الحصينة، الإسكندرية، ولتحطيم قوة الرهبان بمهاجمة أديارهم خاصة فى وادى النطرون، عصب الأسقفية ولرفع لوقا Laucius الآريوسى طريد الإسكندرية، أسقفاً، مما دفع بطرس Petrus خلف أثناسيوس إلى الفرار بنفسه إلى الغرب محتذيا سبيل سلفه وأستاذه.

وبينما ارتضى فالنز كارهاً مسالمة الإسكندرية وأسقفها، حرص على أن يتخلص من معاقل النيقية الأخرى المتمثلة فى اللاهوتى الشهير باسل Basilius الكبادوكى أسقف قيسارية Caesarea الكبادوك فى آسيا الصغرى، وملتيوس Meletius الأنطاكى أسقف الأغلبية المعتدلة من النيقيين. بل وامتدت قساوات

اضطهاده إلى الفرق الآريوسية الأخرى المخالفة للمسيحية الحكومية، أعنى الآريوسية فى صورتها "الهوموية" Homoeos القائلة بـــ "التشابه" بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه، والتى بها يدين، والتى مات الإمبراطور قسطنطيوس Constantious وهو عن اتباعها راض.

وكانت "الهوموية" قد حققت نجاحها الساحق على الفكر الآريوسية المغايرة فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، والذى يعد تتمة للمجمع المزدوج فى ريمينى Ariminium بإيطاليا ، وسلوقية Seleucia بايزوريا فى آسيا الصغرى عام ٣٥٩، ثم مجمع نيقا Nice فى السنة هذه. ولم يؤثر فى تفوقها تحول بعض زعمائها عنها بعض الشيء كما حدث فى مجمع أنطاكية عام ٣٦١ فى أخريات أيام قسطنطيوس، أو المجمع الأنطاكى عام ٣٦٤ فى عهد جوفيان Iovianus ولا فت فى عضدها محاولة جوليان Iulianus لأحياء الوثنية، ولا تسامح الإمبراطورية جوفيان الممالىء للنيقية ، حتى إذا اعتلى العرش فالنز أصبحت "الهوموية" تمثل المسيحية الحكومية التى ارتضاها الإمبراطور.

ولم يكن قبول فالنز للمسيحية الهوموية اقتناعا بها أو فهما لمحتواها ولكن لأن فالنز لم يكن بمقدوره فكرا أن يبحث عن بديل لها، فقد كان جنديا من بانونيا Pannonia لم يهتم بتثقيف نفسه، يزدرى الثقافة ولا يحترم المثقفين [١]. ولم تكن ظروفه العسكرية أو السياسية تسمح له بالتفرغ ولو لبعض زمن لمناقشة أمور العقيدة على نحو ما شهده عهد قسطنطيوس، فقد كان عليه أن يراقب بحذر وبصفة مستمرة الأطماع الفارسية عند جبهة الفرات، والزحوف الجرمانية الضاربة والمتململة عند الدانوب، والفتن السياسية وحركات التمرد التى وقعت ضده فى أوليات عهده، ومن ثم احتضن الهوموية التى ارتبطت فى ذهنه بالسلام الكنسى فى الجزء الخاضع لسيادته من الإمبراطورية. ودعم هذا أن يودوكسيوس Eudoxius أسقف القسطنطينية ويوزيوس Euzious أسقف أنطاكية حاضرتى الشرق، يدينان

(١) AMM. MARC. Res gest.XXIX, 1.

بهذا المعتقد[٢]. ولما كان يعلم تماماً أنه لم يرفعه للعرش موهبة، وليس له من مسوغ لذلك إلا أخوه فالنتنيان Valentinianus إمبراطور النصف الغربى، ولا ثقافة عنده ولا خبرة، ولا حتى كانت له سيطرة على الجند كافية، فقد أدرك أن "الهومويين" هم له وسط متاهات الجدل العقيدى السائد فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، نعم المولى ونعم النصير[٣].

غير أن الهوموية لم تصل إلى السيادة إلا على أشلاء فرق آريوسية عديدة أخرى مخالفة، بالإضافة إلى النيقية فى الشرق، وكان من أبرز هذه الفرق الآريوسية، "الأنوموية" Anomoean التى ترفض "التشابه" كلية بين الآب والابن، وقد طغى عليها اسم مؤسسها الحقيقى يونوميوس Eunonius أسقف كيزيكوس Cyzicus وتلميذ آيتيوس Aetius السورى. و"الهومويوسية" Homoiousius التى ذاع صيت أصحابها باسم "أنصاف الآريوسيين" Semi-Arians والقائلة بـــ "التشابه فى الجوهر" بين الآب والابن. والماكيدونية التى تنتسب إلى ماكيدونيوس Macedonius الذى نادى بخلق الروح القدس[٤]. هذا بالإضافة إلى العقيدة النيقية المخالفة للفرق الآريوسية كلها، وهى التى لقيت العنت الكامل على عهدى

---

(٢) لم يكن يوزيوس يستقر على حالة واحدة فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، فقد كان كثير الانتقال من فريق إلى آخر. راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، ص١٩٩، ٢٠١،، ٢٢٥-٢٢٦. وأيضاً الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص٤٠١-٤٠٢، ٤٧٨، ٥١٤، ٥٤٤، ٥٥٠.

(٣) يروى المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس تحول فالنز إلى "الهوموية" فى صورة تراجيدية كعادة مؤرخى الكنيسة دوماً، فيذكر أنه كان يبدى فى أول الأمر احتراماً للإيمان الرسولى، يعنى بذلك النيقية، ولكن عندما عبر القوط الدانوب وخربوا تراقيا، أعد جيشاً لملاقاتهم، ولم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، وإذ حرص على تناول العماد قبل أن يلقاهم ، كان قدره كقدر آدم الذى خضع لإغراء زوجه حواء، حيث خضع فالنز لزوجه دومينيكيا Dominicia وأصبح لها سميعاً مجيباً. ولما كانت آريوسية فقد جرته بالتالى إلى عقيدتها حيث عمد سنة ٣٦٨ على يد يودوكسيوس. أنظر THEOD. Hist. Eccl. IV, 11. والحقيقة أن الفترة التى أعقبت وفاة قسطنطين وحتى اعتلاء ثيودوسيوس العرش (٣٣٧-٣٧٩) شهدت من جانب الأباطرة خروجاً على ما سرى به القول من أن الناس على دين ملوكهم، حيث انعكست الآية فأصبح الأباطرة على دين ناسهم. وهذا واضح فى أبناء قسطنطين الثلاثة، وأيضاً على عهد فالنز وأخيه فالنتنيان.

(٤) عن هذه الفرق انظر للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث،، ص٣١٧-٣٤٥، ٤٠٢، ٤٦٥-٤٦٨، ٤٧٨-٤٨٣.

قسطنطيوس وفالنز لتمسك أتباعها بما استقر عليه رأى أساقفة المجمع المسكونى الأول المنعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ من القول بـــ "المساواة فى الجوهر" بين الآب والابن أو ما عرف بالهوموسية Homoousius.

وبينما كان الشرق الرومانى يعانى على هذا النحو من لابرنت الجدل العقيدى على حد تعبير المؤرخ سقراط [٥]. Socrates كان الغرب قد نأى بنفسه عن ذلك منذ ارتضى من البدء الايمان النيقى، ولم يحاول أن يشارك –إلا مكرها[٦] فى هذا الصراع العقيدى الدائر فى الشرق إبان الفترة التى حكمها قسطنطيوس منفرداً، بل يمكن القول بتعبير أدق إنه لم يكن باستطاعته المشاركة بحكم القصور الذى كان يعترى لغته وفكره إذا ما قورن آنذاك بالشرق الرومانى الذى كان يسوده الفكر والثقافة اليونانية. ولذا لم يَعْدُ المؤرخ جيبون Gibbon الحقيقة عندما راح يعقد مقارنة بين شطرى الإمبراطورية قائلاً "إن ولايتى مصر وآسيا اللتين اصطبغتا بالثقافة اليونانية، عانتا كثيراً من جراء الجدل الآريوسى، ذلك أن الدراسة الجادة للفكر الأفلاطونى والتأويلات الجدلية العابثة،، والاصطلاحات الغزيرة، أمدت كلها أكليروس الشرق وجموعه بمعين لا ينضب من التعبير الفياض والتأويلات. ووسط جدلهم المتقد سرعان ما ينسى الأساقفة الشك الذى تنصح به الفلسفة وتمتدحه، والخضوع الذى يفترضه الدين ويحتمه. أما شعب الكنيسة فى الغرب فكان ذا روح أقل فضولية، ذلك أن عواطفهم لم تكن تثيرها الموضوعات الغامضة، وعقولهم لم تعتد على ممارسة الجدل، ولغتهم الوطنية قاحلة غير قادرة على أن تقترب من مستوى اليونانية. وهكذا كان الجهل سبباً في سعادة كنيسة غالة بحيث تمثل فى أن هيلاريوس Hilarius أسقف بواتييه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد المجمع المسكونى الأول غريباً عن العقيدة النيقية[٧]. يضاف إلى ذلك أن النصف

---

(٥) SOCRAT. Hist, eccl. II, 41.

(٦) اضطر الغرب قسراً أن يدخل حلبة الصراع من حول العقيدة إبان الفترة التى حكم فيها الإمبراطور الآريوسى قسطننطيوس منفرداً (٣٥٠-٣٦١) حيث حاول فرض الآريوسية على الغرب فى مجمعى آرل ٣٥٣ وميلانو ٣٥٥.

(٧) يذكر هيلارى هذه الحقيقة فى كتابه عن المجامع HILAR. De syn. 91 هذا بالإضافة إلى أن غالة نفسها كانت من أبعد ولايات النصف الغربى تأثراً بالأحداث العقيدية الجارية فى=

الغربى خلا أو كاد من المدارس الفلسفية اليونانية والاتجاهات الفكرية التى سادت النصف الشرقى بفعل وجود هذه المدارس به، وامتزاجها بالتراث الشرقى الذى خلفته الحضارات الشرقية القديمة، من أجل هذا كان الإمبراطور فالنتينيان الأول ذكياً وهو يبتعد بنفسه عن هذا المعترك الجدالى، عندما رفعته المقادير بسيوف الجند على عرش الإمبراطورية، عقب العهد القصير والموت المفاجىء لجوفيان. فقد استدعى إليه أخاه فالنز فى مدينة نيش Naissus واقتسما فيما بينهما إدارة الحكم فى الإمبراطورية، فذهب فالنتيان بالليريا وإيطاليا وإفريقيا وغالة وبريطانيا، بينما عاد فالنز بولايات الشرق. وأفصح إمبراطور الغرب الرومانى منذ الأيام الأولى لامتلاكه سلطة الدولة عن سياسته فيما يتعلق بالمسألة العقيدية، واتضح هذا جلياً فى الموقف الذى اتخذه تجاه كل من "الماكيدونيين" وأنصاف الآريوسيين" الذين راحوا يعملون الآن سوياً منتهزين فرصة الشتات الذى تاهت فيه الفرق المسيحية المختلفة المتصارعة، فقد تقدموا إليه عن طريق هيباتيانوس Hypatianus أسقف هرقلية Heraclea يطلبون الأذن لهم بعقد مجمع كنسى لمعالجة المسألة اللاهوتية المعقدة، وكان رد فالنتينيان حاسماً فى هذا الصدد حين أجاب: "بين العلمانيين مكانى وليس من حقى أن أتدخل فى مثل هذه الأمور، اذهب وليجتمع رجال الكنيسة، أولئك الذين يخصهم الأمر ذاك إذا شاءوا"(٨).

ولا شك دفع فالنتيان إلى اتخاذ هذا السبيل، المقت العام الذى كان يحمله – شأن أخيه – لذوى الفكر والمثقفين، والكراهية الشديدة للثقافة، حقيقة كان مسيحياً مخلصاً لعقيدته، ولكنه كان جندياً قضى حياته فى الخدمة العسكرية، فلم يسمح له ذلك أن يحظى ولو بقدر من الثقافة يسير(٩). وكان هذا وحده كافياً لأن يمسك فالنتينيان بزمام الأمور فى أقاليم سيادته محافظاً على الأوضاع العقيدية التى وجدها هناك، دون أن يسمح لأحد أن يعكر صفو سلام هذه المنطقة، وذلك بالأقدام على

=الشرق. ويعبر عن ذلك المؤرخ مارتن Martin بقوله "أن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة" انظر : Martin, histoire de France, VoI, p. 305.

(٨) SOZOM. Hist. Eccl. VI 7.

(٩) AMM. MARC. Res gest. XXVII 7; XXX 6.

إحداث أى تغيير فيما ألغاه الإمبراطور مستقراً أو يكاد فى النصف الغربى من الإمبراطورية، ولعل المؤرخ واطسون قد عبر عن ذلك بدقة فى قوله أن الإمبراطور لم يجد سبيلاً أفضل إلى الهدوء إلا الحفاظ على ما وجده سائداً بين رعيته(١٠).

وكان أساقفة الغرب، وحتى قبل أن يموت قسطنطيوس، قد أخذوا يتراجعون عما وافقوا عليه كرها فى مجمع ريمينى(١١) سنة ٣٥٩، منتهزين فرصة الأزمة الفارسية التى شغلت جهد وفكر الإمبراطور، وارتحاله إلى أنطاكية بعيداً ووجود جوليان، ابن عم الإمبراطور، قيصراً وهو الذى كان يضمر الوثنية ويحمل للمسيحية كل البغضاء، وراحوا يعلنون عودتهم ثانية إلى ما قبلوه فى عشرينيات القرن الرابع وهو قانون الإيمان النيقى، وزاد تعلقهم به أن وفد عليهم أثناسيوس منفياً ثم لائذا(١٢) خاصة وأن القانون يتفق وطبيعتهم وثقافتهم، وعلى ذلك فإن أى محاولة لأعمال الفكر جرت، كان لها الفشل حليفاً، ومنن ثم لم تحظ الآريوسية بنصيب ما فى دنيا الغرب تلك. غير أن هذا لم يمنع من وجود أسقف آريوسى فى إحدى الأسقفيات القوية فى الغرب وهى ميلانو التى كان على كرسيها أوكسنتيوس Auxentius الآريوسى الذى ينتمى إلى فريق الأنومويين.

وطوال عشر سنوات (٣٦٤-٣٧٤) من إحدى عشرة سنة هى عهد الإمبراطور فالنتينتيان الأول ، ظل أوكسنتيوس يحتفظ بكرسيه الأسقفى مطمئناً إلى جانب الإمبراطور "المتسامح" بل ونعم بحمايته ضد حملات النقد التى كان يتعرض لها الأسقف من جانب هيلاريوس أسقف بواتييه، ويوسيبيوس Eusebius أسقف فرسالى Vercellae (فى إيطاليا) بصفة خاصة(١٣). وقد أدرك الرجلان أن بقاء أوكسنتيوس على أسقفية هامة لها فى الغرب شأنها، لابد يوقع الضر بالنيقية، ولهذا

(١٠) Watson, introd. To HILAR. Select works, p. 49.

(١١) راجع للمؤلف الدولة والكنيسة. الجزء الثالث، ص٣٤٩-٣٦٨، ٣٧٦-٣٧٩.

(١٢) تم نفى أثناسيوس إلى غالة على يد الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٥، حيث أمضى هناك عامين. وفى عام ٣٣٩ سارع بالفرار إلى الغرب بعد مطاردة قسطنطيوس له ومكث هناك سبع سنوات حيث عاد إلى الإسكندرية عام ٣٤٦.

(١٣) SOCRAT. Hist. ecci. III 10.

عولاً، وهيلارى بالذات، على طرده من ميلانو، ومن ثم سعياً بذلك حثيثاً لدى الإمبراطور فى المدينة نفسها سنة ٣٦٤، أى فى الأشهر الأولى لتسلمه مقاليد الأمور، وراحا يثيران الأساقفة والجموع ضد الأسقف الآريوسى، الذى لم يجد أمامه سبيلاً إلا الالتجاء إلى الإمبراطور.

وهذه الخطوة التى أقدم عليها الإمبراطور لمعالجة الأمر، تفصح بما لا يدع مجالاً للشك عن السياسة التى اعتزم اتباعها طيلة عهده، فقد أصدر أوامره بعقد مناظرة بين الطرفين، ولم يكن يصدر فى ذلك كما قدمنا عن معرفة باللاهوت أو المسائل الجدالية المعقدة التى تفصل بين الآريوسيين والنيقيين. لكن المسألة كانت من جانبه تسويفاً وكسباً للوقت حتى تنتهى اللجنة التى شكلها للتحقيق فى هذه القضية من رفع تقريرها إليه، ولذا فإن المصادر – وكلها تقف إلى جانب النيقية – تذكر أن هيلاريوس وإن كان قد كسب المناقشة إلا أنه خسر القضية، ذلك أن الإمبراطور لم يكن على استعداد لأن يثير فى منطقة نفوذه نوعاً من الفوضى العقيدية الضاربة فى الشرق أطنابها. ولهذا آثر الاعتقاد بما جاء فى تقرير اللجنة بأن أوكسنتيوس صاحب الحق الشرعى فى أسقفية ميلانو، خاصة بعد أن مات سلفه ديونيسيوس، وعليه أصدر قراره ببقاء أوكسنتيوس على كرسيه، ولم يلق بالا لجهود هيلاريوس الذى أطلق على قرار الإمبراطور اسم "مرسوم الأحزان"[١٤].

ولم تكن خطورة أوكستنيوس تتمثل في كونه يحتل عرش أسقفية لها فى الغرب ثقلها وأهميتها هى ميلانو، ولكن لأن هذه الآونة شهدت جهوداً مكثفة،، لابد أن يكون الأسقف الآريوسى من ورائها، كانت تبذل فى الشطر الغربى من الإمبراطورية وأفريقيا فى محاولة للاعتراف بأن ما تم فى مجمع ريمينى يعد الأساس الحقيقى للإيمان المسيحى، وأن هذا المجمع بما ضم من أساقفة يفوق عددهم أساقفة نيقية[١٥]. يصبح أكثر شرعية من المجمع النيقى، ولهذا فإن التصدى

---

(١٤) HILAR. Con Auxen. 7-8, 14 وإن كان هيلاريوس يلتمس العذر للإمبراطور فالنتينيان بقوله "إن الإمبراطور أبقى على أوكسنتيوس فى منصبه ظناً منه أن الأسقف يؤمن بالنيقية" وهذه العبارة وإن كانت دفـــاعـــاً عن الإمبراطور، إلا أنها تعد دليلاً على قلة ثقافة فالنتينيان أو انعدامها.

(١٥) كان عدد أساقفة نيقية ٣١٨ أسقفاً منهم ثمانية فقط من الغرب، أما مجمع ريميننى فقد حضره ٤٠٠ أسقف. انظر : SVIP. SEV. Hist. Sac. II 41.

لهذه المحاولة ومن وراءها لم يقتصر على منافحة أساقفة الغرب فقط، بل امتد أيضاً إلى الأسقف السكندرى أثناسيوس الذى كان يمثل دُرع النيقية فى الشرق الرومانى، إذ لم يتوانِ أسقف الإسكندرية عن تأييد الكنيسة فى الغرب، دفاعاً عن نيقية واعترافاً بحق هذا الجزء من العالم الرومانى وفضله عليه، فكتب فى عام ٣٦٩ رسالة مجمعية إلى أساقفة أفريقيا Ad Afros epistola synodica أشار فيها إلى الرسائل "العديدة والرائعة" التى بعث بها إليه داماسوس Damasus أسقف روما وأساقفة الغرب الذين عقدوا مجامع فى غالة وإيطاليا لإعلان ولائهم للإيمان النيقى[١٦]. وحمل بعنف على أولئك الذين يسعون جاهدينن لاستئصال مجمع نيقية وإعلاء شأن مجمع ريمينى، وأفصح عن زعماء هذا الفريق ومقته لهم وهم، أوكسنتيوس وفالنز أسقف Mursa وأورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم[١٧] Singidunum ودافع بحماسة بالغة عن آباء نيقية، وأعلن سخطه الكامل على أساقفة ريمينى، ودعا إلى عدم التسامح مع من لا يزال يتمسك بقرارته ونبذهم خارج الكنيسة[١٨].

ولم يكن أثناسيوس السكندرى فى رسالته هذه إلى الأساقفة الأفارقة يعبر عن رأيه وحده، بل كان يمثل بذلك تسعين أسقفاً يمثلون مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، وهى المناطق التى كان يشملها نفوذ كنيسة الإسكندرية، حيث التأم عقد هذا الأكليروس فى مجمع بمدينة الإسكندرية فى هذه السنة، وأعلنوا جميعهم فى رسالتهم إلى أسقف روما إدانتهم لأوكسنتيوس، وأبدوا دهشتهم لبقائه فى منصبه حتى الآن.

وعلى الرغم من هذه المحاولات العنيدة التى بذلها رجال الدين فى الغرب، وشارك فيها أثناسيوس السكندرى وأكليروسه لطرد أوكسنتيوس من أسقفيه ميلانو، إلا أن الرجل ظل فى منصبه يتمتع بحماية فالنتينيان الأول حتى مات سنة ٣٧٤، ولم يلبث الإمبراطور أن لحقه فى الغام التالى.

---

(١٦) ATHANAS, ep. Ad Afros, 1.

(١٧) مورسا فى بانونيا وهى الآن أوسيك فى يوغسلافيا، وسينجيدونوم هى حالياً بلجراد.

(١٨) ATHANAS. Ibid. 2-3.

فلما قضى أوكسنتيوس نحبه، سارع الخصمان اللذان اختصموا فى ربهم إلى البحث عن خلف للأسقف الراحل، الآريوسيون يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى في اختيار واحد منهم لكرسى كنيسة ميلانو، والنيقيون – وقد عمتهم الغبطة لوفاة عدوهم الآريوسى اللدود – يسعون بكل الوسائل للقفز على هذه الأسقفية، وأحكام قبضتهم عليها، لإغراق آخر سفينة للآريوسية فى الغرب. وانتقلت حرارة الانقسام بين الأكليروس فى ميلانو إلى حمى الصراع بين الجموع، لتنذر بفوضى عارمة ومصادمات دموية، هرع على أثرها الحاكم أمبروز Ambrosius الذى يتخذ من المدينة مستقراً له ومقاماً، إلى الكنيسة ليهدئ من ثائرة المصطرعين، وراح يناشد الناس السكينة وينشد فيهم الهدوء بخطاب دبجته بلاغته وحسن بيانه، أخذ بمسامع الجميع، فتحولوا على الفور إلى المناداة به هو نفسه أسقفاً لميلانو! ولما لم يكن الرجل قد تناول بعد سر العماد، فقد جرت الاستعدادات فى هذا على التو، بحيث لم يمض على ذلك أسبوع إلا وكان قد تم تعميد أمبروز ورسامته رئيساً لأساقفة ميلانو(١٩).

ولم يكن ما حدث على هذا النحو خروجاً عن المألوف آنذاك، فقد حدث فى القسطنطينية على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الشىء نفسه، عندما تم اختيار "نكتاريوس Nectarius أسقفاً للعاصمة ولم يكن قد عُمّد بعد، ذلك أن تناول

---

(١٩) تتفق المصادر فيما بينها على الطريقة التى تم بها اختيار أمبروز لكرسى ميلانو الأسقفى، وتتناولها بصورة قد يكون الخيال داعب بعض جوانبها ، حيث تذكر أنه بعد أن انقسمت المدينة على نفسها بين الآريوسيين والنيقيين ، وهدد الانقسام بالصراع الدموى، أسرع أمبروز إلى الكنيسة، فلما أتاها توجه إلى الناس بحديث طويل امتص غضبهم وأسكن خواطرهم، عندها صاح طفل من بين الجموع "فليكن أمبروز أسقفاً" فتلقفت آذان الجموع وقلوبهم هذه الصيحة وتحولوا لتوهم لترديدها، معتبرين إياها وحياً من الله. انظر:
AMM. MARC. Res gest. XXVII 3, 12-13.
SOCRAT. Hist. Eccl IV 30; RVFIN. Hist. Eccl. II 11.
SOZOM. Hist. Eccl. VI 24; THEOD. Hist. IV 5, 6.
ويخطئ سقراط حين يضع هذه الحادثة فى نفس العام الذى وقعت فيه أحداث الانقسام فى روما، بعد وفاة ليبريوس Liberius أسقف روما واختيار داماسوس خلفاً له، والمناداة بأورسينيوس Uresenius أسقفاً منافساً. والحقيقة أن الشقاق الذى شهدته روما جرى فى سنة ٣٦٧، بينما اختير أمبروز للأسقفية فى عام ٣٧٤. انظر : SOCRAT. Hist. Eccl. IV 29.

المعمودية لم يكن يجرى عندئذ فى الأيام الأولى للميلاد، لأن الكنيسة كانت تفضل تأخيره حتى تفتح الباب أمام الراغبين فى التحول إلى المسيحية.

وينتمى أمبروز لأسرة نبيلة، شغل أبوه منصب النائب الإمبراطورى فى غالة، فلما أدركته الوفاة ارتحل ولده وابنته وزوجه إلى روما، حيث أظهر الولد تفوقاً ونبوغاً فى الدراسات الحرة والقانونية، ولما كانت آماله متجهة لما كان عليه والده فقد عمل محامياً فى روما فى بداية حياته العملية، وأحرز الرجل تقدماً ملحوظاً فى عمله، ومن ثم جذب إليه بفصاحته وبلاغته النائب الإمبراطورى بروبوس Probus فعينه بموافقة الإمبراطور فالنتنيان حاكما على ليجوريا Liguria وأيميليا Aemilia حوالى سنة ٣٧٢ وهذان الإقليمان يضمان مراكز أسقفية هامة هى ميلانو وتورينو وجنوا وبولونا. وقد نبهه بروبوس إلى أن يعتبر نفسه أسقفاً أكثر منه حاكما، بمعنى أن يخلط العدالة مع الرحمة. فحكم أمبروز أقاليمه بجدية وتعقل كسب بهما ثقة رعيته. ومع أن أمبروز لم يكن له فكر رجل داهية، إلا أنه كان يتمتع بجرأة نادرة لازمته طيلة أسقفيته[٢٠]. ودفعته منذ البداية لأن يسلك هذا السبيل بإقحام نفسه على المشكلة الكنسية المستعرة فى ميلانو، عقب وفاة أوكسنتيوس، حيث كانت الأقدار تخط له طريقاً مغايراً تماماً لما كان يطمع إليه ويؤمل.

ويبدو أن أمبروز كان متردداً فى قبول هذا المنصب الكهنوتى الذى خلعته عليه الجموع، فحتى ذلك الحين لم يكن قد أبدى أي اهتمام بالأمور اللاهوتية أو المشاكل الكننسية، بل إن الكنيسة لم تكن تمثل له فى شبابه أى مستوى للطموح[٢١]، ورغم أنه كان مسيحياً مخلصاً تعود المسيحية فى أسرته إلى زمن ليس بقريب، إلا أنه جرى على التقليد الذى كان مستقراً آنذاك بتأخير إتمام طقس المعمودية إلى عمر متقدم، ولذا أبدى دهشته لما أقدم شعب الكنيسة فى ميلانو على اختياره، وأظهر تردده وإحجامه، مما دفع الجموع إلى أن ترفع الأمر إلى فالنتينيان الذى صادق دون توان على رغبتها، وحضر بنفسه مراسم ترسيم أمبروز على الكرسى

---

(٢٠) Rand, founders of Middle Ages, pp. 73-74.
Bainton, history of Christianity, vol. 1 p. 184.
Stephenson, Mediaeval history, p. 78.

(٢١) Rand, op. cit. p. 73.

الميلانى[٢٢] ولا شك أن الإمبراطور أقدم على ذلك تمشياً مع سياسته العامة فى الأمور المتعلقة بالكنيسة، وحتى يجنب حاضرة أقاليمه أى انشقاق أو تصدع. وليس أدل على احترام فالنتينيان لسياسته هذه والتزامه بها، من أنه لم يكد يمضى على اختيار أمبروز للأسقفية شهور قلائل حتى راح يوجه اللوم إلى الإمبراطور بسبب السلوك غير اللائق الذى ينتهجه موظفوه المدنيون والأخطاء التى يرتكبونها ولم يكن من الإمبراطور إلا أن أجابه "لقد كنت دائماً على يقين بصراحة القول عندك، ومع ذلك أمض إلى غايتك بتطهير أرواحنا وأحسن خلاصها كما تأمرك بذلك تعاليم الإله"[٢٣].

وكانت آخر الأعمال الكنسية التى شارك فيها بأسلوبه المعتاد فالنتيان هو ذلك المجمع الكنسى الذى عقد فى إلليريا سنة ٣٧٥، ابان وجود الإمبراطور بهذه المنطقة فى صيف ذلك العام، وقد أدى إلى عقده ازدياد نفوذ الآريوسية فى الشرق الرومانى والولايات الأوربية فى هذا الشطر، بتأثير الإمبراطور فالنز، والخشية من امتدادها ثانياً إلى الولايات الغربية المتاخمة خاصة الليريا. كما أن باسل أسقف قيسارية الكبادوك بعث إلى أساقفة الغرب رسالتين نقف منهما على ما تعرض له خصوم "الهوموية" من المسيحية الحكومية، على يد فالنز، ويقول أن هناك تفاصيل رأى أن لا يكتبها، وسوف يوضحها لهم شماسه سابينوس Sabinus الذى حمل رسالته الأولى، ويذكر أنه لا توجد كنيسة واحدة لم تتعرض لهذه العاصفة من حدود الليريا إلى طيبة فى مصر، ثم يناشد أساقفة الغرب أن يمدوا العون إلى إخوانهم فى الشرق وذلك عن طريق اتجاه عدد منهم إلى النصف الشرقى من الإمبراطورية وعقد مجمع كنسى لوضع حد لهذه الأمور[٢٤].

---

(٢٢) يذكر المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس أن الإمبراطور فالنتينيان قد أبدى سعادة غامرة باختيار أمبروز أسقفاً لميلانو، مما جعله يحرص على حضور حفل رسامته، ولم يخف الإمبراطور فرحته بهذا الأمر فراح يقول "نحمدك يا ربنا: أيها القدير المخلص، لقد عهدت أنا إلى هذا الرجل أن يوفر للناس أمنهم والأمان، فعهدت إليه أنت برعاية ورشد أرواحهم. الشكر لك أن جعلت اختيارى موفقاً". انظر: THEOD, hist. Eccl. IV 6.

(٢٣) THEOD. Hist. Eccl. IV 6.

(٢٤) BASIL. Eep. XC; XCII, 1-3.

ورغم أن الديباجة التى تضمنت توجيه الدعوة إلى الأساقفة لعقد هذا المجمع قد حملت أسماء الأباطرة الثلاثة فالنتينيان وفالنز وجراتيان، الابن الأكبر لأولهما، كما جرى بذلك العرف والتقليد الإمبراطورى فى شطرى الإمبراطورية، إلا أن المجمع كانت غايته، كما أكدت ذلك رسالته المجمعية التى صدرت عنه وصدق عليها فالنتينيان وأرسلت إلى أساقفة الشرق، التصدى للإمبراطور فالنز وجهود أكليروسه لإعلاء شأن المسيحية الحكومية، "الهوموية". ولهذا أعاد المجمع من جديد التأكيد على "الهوموسية"، قانون الإيمان النيقى، ودعا إلى اعتبارها دائماً إيمان الكنيسة الجامعة، وأفصح الحضور صراحة عن نياتهم عندما أعلنوا أنه لا يحق لأى من أساقفة الشرق التعلل بأنه يتبع عقيدة إمبراطوره (فالنز) لأن هذا يعد استخداماً سيئاً للسلطة الإمبراطورية، ويعتبر مرفوضاً من الرب الذى أعطانا تعاليم الخلاص، وعصياناً لما جاءت به الكتب المقدسة "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"(٢٥).

ومما تجدر الإشارة إليه، ما جاء فى القوانين الصادرة عن هذا المجمع والمتعلقة بالتنظيم الكنسى، والخاصة برسامة الأساقفة والقسيسين والشمامسة، وكيفية اختيارهم؛ إما من بين رجال الاكليروس أو من بين كبار الموظفين المدنيين الذين يذيع فى الناس صيت عفتهم وطهارتهم، وتحريم اختيارهم من بين العسكريين أو صغار الموظفين المدنيين(٢٦). ولما كان هذا المجمع قد عقد بعد اختيار أمبروز، الحاكم المدنى لميلانو، أسقفاً للمدينة، ولما كان قد شن على أساقفة الشرق الآريوسيين هجومه، فلابد وأن يكون أمبروز قد لعب دوراً معيناً فى هذا المجمع وقراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية، حتى ولو بصورة غير مباشرة، بحيث استطاع أن يحصل على تأييد مجمع كنسى يوضح شرعية اختياره للأسقفية رغم عدم كونه أحد رجال الأكليروس، وحتى يدعم قرار الإمبراطور فالنتينيان بالموافقة على رسامته بقانون كنسى.

---

(٢٥) THEOD. Hist. Eccl. IV 7-8.

(٢٦) Hefele, history of councils, vol. Pp. 289-2

غير أن وفاة فالنتينيان كمداً[٢٧] عقب هذا المجمع بقليل (١٧ نوفمبر ٣٧٥) جردت قرارته من قوة تأثيرها، ولم يلبث الآريوسيون فى الشرق أن انتهزوا هذه الفرصة، وعقدوا بتأييد من الإمبراطور فالنز مجمعاً مضادًا فى أنقره، قرر رفض الرسالة التى حملها إليهم القسيس البيدويوس Elpidius والصادرة عن مجمع الليريا، وعدم الاعتراف بمهمته التى أوفد من أجلها والتي كانت تقتضى القيام بفحص دقيق لقانون الإيمان الذى تدين به هذه المنطقة، وتعريفهم بالإيمان النيقى، وقد أصدر مجمع أنقرة عدة قرارات بعزل عدد كبير من أساقفة النيقية فى الشرق كان من أبرزهم جريجورى أسقف نيسا Nyssa [٢٨].

وكان فالنز آنئذ يقيم فى أنطاكية على مقربة من الجبهة الفارسية الساخنة أبداً، وإلى جوار أنصاره الآريوسيين وزعيمهم يوزيوس الأسقف الأنطاكى المقرب إلى الإمبراطور. وقد لقى النيقيون، بل والفرق الآيوسية غير الهرموية، العنت على يد فالنز وأعوانه خلال مقامه فى أنطاكية، وتعرض عدد من زعماء هؤلاء وأولئك للنفى والإعدام، وكانت الأحداث التى وقعت فى الغرب عقب وفاة فالنتينيان مساعداً لفالنز على المضى فى سبيله. ذلك أن إمبراطور الغرب كان قد أعلن قبل موته ابنه الأكبر جراتيان Gratianus قيصراً، فلما قضى، أقدم الجيش على إعلان الإبن الثانى فالنتينيان الأصغر، الذى لم يتجاوز عمره السنوات الأربع إمبراطوراً شريكاً، ورغم أن جراتيان قد أظهر قبول ذلك، إلا أن الغضب والحنق تملكا عليه كل سبيل، وشاركه حمقه عمه فالنز، الذى كان يطمع فى الحصول على عونه فى مواجهة التحركات الجرمانية التى كانت تشهدها الآن جبهة الدانوب، وإن كان

---

(٢٧) تذكر المصادر أن الأمبراطور فالنتينيان استقبل وفداً من القواضى Quadi الذى جاء إليه بهدف الحصول على معاهدة تقر السلام بينهم وبين الإمبراطورية، وقد راع الإمبراطور ما كانت عليه هذه السفارة من همجية وبداوة، وساءه اتهامهم للرومان بأنهم هم المعتدون، ومن ثم استبد به الحنق وثار فى وجههم مغتماً لمهاجمة مثل هؤلاء "البرابرة" لحدود الإمبراطورية الرومانية وتجاسرهم على ذلك، مما أدى إلى موته كمداً. انظر.

AMM. MARC. Res hest. XXX 6, 1 –4.
RVFIN. Hist. Eccl. II 12; SOCRAT. Hist. Ecci. IV 63;
SOZOM. Hist. Ecci. VI 36

(٢٨) Hefele, op. cit 111 p. 290.

المؤرخ الكنسي سوزومنوس يعلق على هذه الأحداث بقوله "إن غضب الإمبراطورين كان راجعا إلى أن الجيش هو الذى أقدم على ذلك دون الحصول على موافقتهما أولاً"[٢٩].

ولكن الأحداث التى وقعت فى العام التالى "٣٧٦"، والعامين اللاحقين، حيث سمح الإمبراطور لجماعات القوط الغربيين بعبور الدانوب والنزول فى منطقة موئيزيا Moesia والصدام الذى حدث خلال هذه الأعوام بين الرومان والجرمان[٣٠]، كل هذا أدى إلى أن يقدم الإمبراطور فالنز مضطراً على تخفيف غلواء الاضطهاد العقائدى ضد أعداء الهوموية، كما أن الفيلسوف الوثنى ثمستيوس Themistius البفلاجونى الذى كان يلقى الاحترام من جانب المسيحيين والوثنيين على السواء[٣١]، أخذ يوجه النداء تلو الآخر إلى فالنز للإقلاع عن ممارسة سياسة العنف تجاه الخارجين عن المسيحية الحكومية، وقد أصغى الإمبراطور بعض الشيء إلى نصحه فامتنع عن إعدام زعماء الفرق الخارجة، واكتفى بإرسالهم إلى المنفى. ويصيب سوزومنوس كبد الحقيقة بقوله إن الإمبراطور لم يرفع يد قساوته عن رجال الدين إلا بعد أن إزداد قلقه من أجل الشئون العامة للدولة"[٣٢]. بل أن فالنز امتنع حتى عن ممارسة هذا الإجراء الأخير عندما ازدادت الأمور سوءاً بعد

(٢٩) SOZOM. Hisct. Eccl. VI 36 ويبدو أن سوزومنوس كانن متأثراً فى ذلك بالعبارة الشهيرة التى أوردها هو نفسه بقلمه على لسان الإمبراطور فالنتينيان الأول موجهاً إياها لجنوده محاولاً كف أيديهم عن التدخل فى شئون الحكم واختيار الأباطرة، وكانوا قد طلبوا إليه فور اعتلائه العرش اختيار رجل آخر إمبراطوراً شريكاً، فأجابهم "جنودى: إذا كان من حقكم إعلانى إمبراطوراً، فقد فعلتم، أما ما تريدون فمن حقى وحدى، إلزموا الهدوء رعية طيبة، ودعونى أدير أمور الدولة إمبراطوراً". راجع. SOZOM. Ioc. Cit; THEOD. Hist. Eccl. IV 5. ولعل قيام الجيش بتنصيب ثلاثة أباطرة على التوالى، جوليان وجوفيان وفالنتينيان الأول، قد أعاد إلى أذهانهم ذكرى نفوذهم فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل أن يلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية أو فترة الحروب الأهلية التى استمرت ثمانية عشر عاماً منذ اعتزال دقلديانوس وزميله ماكسيميانوس العرش سنة ٣٠٥ وحتى إعلان قسطنطين نفسه إمبراطور فرداً سنة ٣٢٣.

(٣٠) انظر للمؤلف الإمبراطورية البيزنطية، جـ١ الفصل ٣.

(٣١) Vasiliev, history of Byzantine Empire, I p. 12.

(٣٢) SOCRAT. Hist. Eccl. IV. 32; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37.

أن راح القوط يعيثون فساداً فى تراقيا، واضطر الإمبراطور إلى الارتحال عن أنطاكية قاصداً القسطنطينية لمواجهة الأمور المتردية(٣٣).

ومع أن فالنز قد ظل حتى مقتله بسيوف القوط وفياً"للهوموية" المسيحية الحكومية لا يبغى عنها حولاً، إلا أن السنوات الأخيرة من عهده قد شهدت فقدانها لزعمائها، الواحد فى إثر صاحبه. ففى عام ٣٧٠ مات يودوكسيوس أسقف القسطنطينية ، فأسرع "الهومويون" باختيار ديموفيلوس Demophilus أسقفاً خلفاً، وإذا كان "الهوموسيون" قد نظروا إلى وفاة يودوكسيوس باعتبارها فرصة مواتية، فأقدموا على رسم إيفاجريوس Evagrius أسقفاً منافساً، إلا أن الإمبراطور، الذى كان فى نيقوميديا آنذاك فى طريقه إلى الشرق، أسرع بإرسال كتائبه إلى العاصمة لحسم هذا النزاع، وألقى القبض على إيفاجريوس، وانفرد ديموفيلوس الآريوسى الهوموى بالسيادة على كرسي العاصمة الأسقفى. غير أنه فى عام ٣٧٤ خسرت الآريوسية الحكومية مقعداً جديداً بوفاة أوكسنتيوس أسقف ميلانو، ولم يستطع الآريوسيون هناك الحفاظ على نفوذهم، حيث انتقل السلطان إلى عدو للآريوسية لدود هو إمبروز. ولم يأت عام ٣٧٦ حتى كان يوزيوس الأسقف الانطاكى، الآريوسى العنيد رفيق آريوس، فكره ومنفاه، قد مات، فاختار الآريوسيون دوروثيوس Dorotheus خلفاً له. وإذا كانت كل من القسطنطينية والكرسى الأنطاكى الرسمي قد ظلا علي ولائهما للآريوسية، إلا أن اختفاء كل من يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس من على مسرح الأحداث كان نذيراً بأفول نجم الهوموية، المسيحية الحكومية، بصفة خاصة، والآريوسية بشكل عام بعد أن لقى فالنز الإمبراطور الآريوسى حتفه صريعا.

وكان انهماك الإمبراطور فالنز فى السنة الأخيرة من حكمه فى مواجهة المسألة الجرمانية، وغياب زعماء الآريوسية هؤلاء عن الوجود، إيذاناً بتنفس أتباع النيقية الصعداء، إذ أن هؤلاء ما أن علموا بارتحال فالنز من أنطاكية إلى القسطنطينية ودخوله العاصمة على عجل فى الثلاثين من مايو عام ٣٧٨، واستعداده لملاقاة القوط، حتى عادت إليهم شجاعتهم وراحوا يحاولون استعادة

(٣٣) SOCRT. hist. Eccl. IV 35; SOZOM. Loc. Cit.

نفوذهم وكراسيهم التى فقدوها(٣٤). وكانت الإسكندرية أبرز الأمثلة على ذلك، فلم يلبث أهلوها أن ثاروا ضد الأسقف الآريوسى لوقا، واضطروه إلى الفرار من المدينة ليشق طريقه كرها إلى القسطنطينية. بينما عاد إلى الإسكندرية بطرس، الذى خلف أثناسيوس بعد وفاته وأمضى فترة أسقفيته جلها فى الغرب هرباً من اضطهاد فالنز والآريوسيين له. وكان قبل عودته قد شارك فى حضور مجمع روما الثالث الذى عقد تحت رئاسة الأسقف داماسوس لأدانة القائلين بخلق الروح القدس، وقد زوده الأسقف الرومانى عند عودته برسالة إلى السكندريين، تثنى على إيمانه بالهوموسية وحفاظه عليها، وإن كان العمر لم يمتد طويلاً ببطرس، إذ سرعان ما مات ليخلفه على كرسى الإسكندرية الأسقفى ثيموثى Thimotheus ولم تترك أمور الدولة المضطربة فرصة لفالنز – حسب تعبير سوزومنوس – لمعالجة هذه التحديات أو التصدى لها(٣٥).

هكذا قدر للمسيحية الحكومية في صورتها "الهوموية" أن تظل على امتداد عشرين عاماً (٣٥٩-٣٧٨) إلا قليلاً، صاحبة السيادة بلا منازع فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية خلال السنوات الأخيرة من حكم قسطنطيوس، وطوال عهد فالنز، إذا استثنينا العهدين القصيرين لجوليان وجوفيان (٣٦١-٣٦٤) وكان مقتل فالنز وموت زعماء الآريوسية الكبار إيذاناً بنهاية فترة جدلية عقيمة تميز بها جدال القرن الرابع الميلادى، كانت الأفكار الآريوسية محوراً لصراعها، ولم تقم للآريوسية بعدها فى الشرق قائمة، وإن كانت قد انتقلت لتصبح من بعد للجرمان فى الغرب ديناً.

ذلك أن القبائل الجرمانية كلها – عدا الفرنجة – تحولت إلى المسيحية الآريوسية، وظلت على إيمانها بها طيلة بقاء الممالك الجرمانية فى معظمها، هذا باستثناء القوط الغربيين فى أسبانيا الذين هجروها إلى النيقية عام ٥٨٩ فى مجمع طليطلة. ولعل قصة المسيحية لدى الجرمان، وعلاقة الجرمان بالإمبراطورية، تستدعى منا هنا وقفة موجزة، لتأثير ذلك فى مجرى الأحداث. فالجرمان كانوا قد أخذوا فى النزوح من موطنهم "الثانى" جرمانيا باتجاه الجنوب أو الجنوب الشرقى،

---

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl. IV 37; SOZOM. Hist. Eccl. VI 39; AMM. MARC. res gest. XXX' 11, 1-5.

(٣٥) SOZOM. Loc. Cit.

بحثاً عن مناطق أكثر خصباً وأوفر حياة، بعد أن ضاقت عليهم الأرض فى هذا الموطن الثانى، وتفرقت بهم السبل حيث جاء بعض منهم إلى الراين مثل جماعات الفرنجة Franks، وذهب بعض ثان إلى الدانوب والبحر الأسود، ومن أشهرهم قبيلتا القوط الشرقيين Ostrogoths والقوط الغربيين Visigoths، وبين الراين والدانوب انتشر عدد آخر من القبائل الجرمانية مثل الإنجليز والسكسون والوندال والآلان والألمان وجماعات بعد ذلك كثير.

وكان طبيعياً وقد نزل الجرمان على هذا النحو على حدود الإمبراطورية الرومانية لحماية حدود الإمبراطور – وسيلة تسمح بتسرب أعداد ليست بالقليلة من الشعوب الجرمانية إلى داخل الأراضى الرومانية، وكثيراً ما أغمضت إدارة الإمبراطورية أعينها عن هذا التسرب، لاستخدام هؤلاء النازحين "سرا"!! جنداً مرتزقة فى الجيش الرومانى أو فلاحين فى أفقر مناطق الإمبراطورية مثل بانونيا Bannonia وموئيزيا Moesia وغيرها من الولايات فى البلقان. وكان طبيعياً أيضاً أن يقف الجرمان على مظاهر الحضارة الرومانية والحياة اليومية والعادات والتقاليد التى يحياها الرومان، وأن يتعرف بعضهم إلى المسيحية، وإن كانت أعدادهم قد ظلت حتى أوائل القرن الرابع الميلادى قليلة جداً.

وتشكل مسألة تحول الجرمان إلى المسيحية أمراً يختلف حوله المؤرخون خاصة المصادر التاريخية والكنسية المعاصرة، فالمؤرخ الكنسى سقراط يذكر، ويتابعه فى ذلك سوزومنوس أن القوط الغربيين انشغلوا أثناء مكثهم فيما وراء الدانوب بالحرب الأهلية التى دارت بينهم، فقد انقسموا فريقين أحدهما يتزعمه "أثناريش" Athanarich والآخر يقوده "فريتجرن" Fritigernes الذى أرسل يستنجد بالرومان ويطلب عونهم، وعلى الفور أصدر الإمبراطور فالنز أوامره للقوات المرابطة عند الدانوب بمساعدته، حتى إذا تم لها النصر، كانت تلك فرصة سانحة لتحول عدد كبير من القوط إلى المسيحية كنوع من العرفان من جانب "فريتجرن" تجاه الإمبراطور، ولما كان آريوسيا، فقد دخل القوط فى الآريوسية أفواجاً[٣٦].

---

(٣٦) SOCRAT. hist. Eccl. IV 33 ; SOZOM. hist. Eccl. VI 37.

ويضيف سوزومنوس معلقاً، أن "أولفيلا" Ulfila (Vulfila) أحد رجال القوط الشهيرين المبشرين بالمسيحية بين بنى قومه وأسقفهم، لم يكن على دراية بالخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة، إذ أنه خلال عهد قسطنطيوس، وعلى الرغم من مشاركته فى أعمال مجمع القسطنطينية سنة ٣٦٠، ودخوله فى شركة يودوكسيوس واكاكيوس[٣٧]، إلا أنه لم ينحرف عن قانون الإيمان النيقى. ويبدو أنه عاد فيما بعد إلى القسطنطينية ودخل فى جدل عقيدى مع زعماء الآريوسية، الذين وعدوه بعرض مطالبه ومطالب شعبه على الإمبراطور إذا ما وعد بتقبل العقيدة الآريوسية. ولما كان مضطراً إلى ذلك أمام ضغط الظروف العصيبة التى يتعرض لها قومه، فقد فصل نفسه وشعبه جميعهم عن الكنيسة النيقية[٣٨].

وعند هذه النقطة الأخيرة، يكاد يتفق المؤرخ الكنسى ثيودوديتوس مع قرينه، وإن كان يتأخر بهذه الأحداث إلى ما بعد عبور الفيزيقوط الدانوب فور سماح الإمبراطور فالنز لهم بذلك ويقول "إن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية اقترح على فالنز إغراء القوط بالدخول فى شركته، رغم أنهم كانوا قد وقفوا على قدر من المعرفة بالمسيحية"، ويضيف؛ أن الأسقف خاطب الإمبراطور بقوله، أن وحدة هؤلاء معاً فى العقيدة سوف يجعل السلام أكثر ثباتاً واستقرارا. وقد استصوب الإمبراطور هذا الرأى، غير أن القوط رفضوا التخلى عن عقيدة آبائهم. ولم تنجح جهود الإمبراطور إلا بعد تدخل أولفيلا نفسه، الذى استطاع اقناع شعبه بالدخول فى شركة يودوكسيوس، خاصة بعد الرشاوى التى دفعها أسقف العاصمة للأسقف القوطى، وهكذا نجح أولفيلا فى استمالة قومه إلى الآريوسية بحجة أن الجدال بين الفرق المختلفة يعود فى حقيقته إلى التنافس الشخصى، ولا يتضمن أى خلاف فى العقيدة، ومنذ ذلك التاريخ والقوط يؤمنون أن الآب الأعظم من الابن[٣٩].

---

(٣٧) يودوكسيوس هو أسقف القسطنطينية الآريوسى، وقد سبق الإشارة إليه. أما أكاكيوس فهو أسقف قيسارية فلسطين الذى خلف يوسيبيوس القيسارى، شيخ مؤرخى الكنيسة فى منصبه. يعتبر أحد زعماء العقيدة الهوموية فى الشرق، قدم وثيقة الإيمان بها فى مجمع سلوقية عام ٣٥٩ وإن كان قد تخلى فى نهاية الأمر عن عقيدته الهوموية، بل والآريوسية كلها ليصل بالنيقيين المعتدلين فى أنطاكية صفوفه.

(٣٨) SOZOM. Hist. Eccl. VI 37.

(٣٩) THEOD. Hist. Eccl. IV 33.

على أن هذه الآراء لا يمكن قبولها هكذا على علاتها أو التسليم بها دون مناقشة، فبسقراط وسوزومنوس ذكرا قبل ذلك بقلميهما[٤٠] أن أولفيلا هذا قد حضر مجمع أنطاكية الذى عقد فى سنة ٣٤١ والذى ذاع باسم "مجمع التدشين" Concilium dedcationis [٤١]. والمعروف أن هذا المجمع كان آريوسيا، حضره أساقفة الشرق وترأسه يوسيبيوس النيقوميدى أسقف القسطنطينية آنذاك والزعيم الآريوسى العنيد، وذكرا أيضاً أن أولفيلا قد تم رسمه أسقفاً للقوط فى ذلك المجمع على يد يوسيبيوس نفسه. ثم إن أولفيلا كان أحد شهود مجمع القسطنطينية فى عام ٣٦٠م على حد قول سوزومنوس، وهو المجمع الذى توج الجهود الآريوسية التى استمرت خمسة وثلاثين عاماً من أجل السيادة فى الإمبراطورية، كما أن الأسقف القوطى دخل أيضاً – كما يقول سوزومنوس – فى شركة يودوكسيوس أسقف القسطنطينية وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، وهما من أشهر آباء الآريوسية. فكيف إذن يمكن التوفيق بين هذا كله وبين القول بأنه "لم ينحرف عن الإيمان النيقى" حسب زعم سوزومنوس؟!

الأمر الثانى القائل بأنه عاد إلى القسطنطينية ودخل فى جدل عقيدى مع زعماء الآريوسية واضطر تحت ضغط الظروف العصيبة التى يتعرض لها قومه إلى الدخول فى شركة الآريوسيين.. مرفوض شكلاً وموضوعاً، إذ أنه كان قد دخل بالفعل فى شركة يودوكسيوس وأكاكيوس، كما ذكر سوزومنوس نفسه فى الفقرة ذاتها. يضاف إلى هذا نقطة على جانب من الأهمية كبير؛ فالإمبراطور قسطنطيوس لم يمكث فى القسطنطينية بعد المجمع الآريوسى الذى عقد فيها عام ٣٦٠ إلا قليلاً ثم ارتحل عنها قاصداً أنطاكية استعداداً للحرب الفارسية[٤٢] وما أن أخذ فى إعداد قواته لذلك، حتى اضطر أن يعود بجيشه ثانية متجهاً إلى الغرب لملاقاة ابن عمه جوليان الذى كان قسطنطيوس قد عينه على غالة سنة ٣٥٦، ثم أعلن نفسه إمبراطورا شريكاً بإرادة جنوده فى عام ٣٦٠. لكن الإمبراطور

---

(٤٠) SOZOM. hist. Eccl. III 5, IV 24; SOCRAT hist. Eccl. II 8-10, 41.

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن هذا المجمع راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة الجزء الثالث ص١٤٦ -١٦١.

(٤٢) THEOD. hist. eccl. II 27.

قسطنطيوس لم يصل القسطنطينية، إذ وافته منيته عند مدينة موبسوكرنى Mopsucrene على الحدود بين كيليكيا وكبادوكيا فى آسيا الصغرى فى الثالث من نوفمبر سنة ٣٦١، فاعتلى جوليان عرش الإمبراطورية، وأعلن عودته إلى الوثنية، فلما خلفه جوفيان عام ٣٦٣ كان ممالئا للنيقية. ومن ثم فليس هناك مجال للقول بعودة أولفيلا إلى القسطنطينية مباشرة بعد المجمع الذى عقد فيها، ودخوله فى جدال مع زعماء الآريوسية. بل كيف يمكن قبول – حتى هذه العبارة الأخيرة – وسوزمومنوس نفسه يصف أولفيلاً بأنه "لا يفقه شيئاً عن الخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة" ويدلل على ذلك بأنه حضر مجمع القسطنطينية ودخل فى شركة اثنين من أكبر زعماء الآريوسية وهو يعتقد أنه الإيمان النيقى!!

بل إن أولفيلا لا يمكن أن يكون قد عرف شيئاً ما عن النيقية، ذلك أنه منذ عشرينيات القرن الرابع الميلادى كانت الآريوسية قد انتشرت بصورة سريعة فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية، خاصة سوريا وآسيا الصغرى. وهذه الحقيقة نعلمها من رسالة بعث بها آريوس السكندرى إلى صديقه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، يذكر فيها الكنائس التى شايعت آراءه وتابعت عقيدته[٤٣]، فإذا علمنا أن النيقية لم تعرف بصفتها الرسمية إلا بعد أن صدرت عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥، وأن أولفيلا قد ولد سنة ٣١١، أنه تلقى تعليمه وتربيته الأولى فى كبادوكيا، ثم ارتحل فى نهاية الثلاثينيات من القرن الرابع إلى العاصمة [٤٤]، حيث كان يوسيبيوس النيقوميدى قد أصبح أسقفاً لها، أيقنا أن مداركه قد تفتحت منذ البداية على الآريوسية فقط[٤٥].

أما ما يقوله ثيودوريتوس من أن هذا التحول إلى المسيحية الآريوسية كان بعد عبور الدانوب، والحديث الذى دار بين الإمبراطور فالنز وأسقفه يودوكسيوس، فإن الأحداث لا تقر هذه الحقيقة. ذلك أن القوط عبروا الدانوب بموافقة الإمبراطور

(٤٣) راجع للمؤلف ، الدولة والكنيسة : الجزء الثانى . ص ١٧٨.

(٤٤) Laister, Thought and letters in western Europe, p. 19; Baiton, op. cit. I, p. 159; Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Davis, Medieval Europe, p. 22.

(٤٥) يذكر بعض المؤرخين أن أسقفا للقوط يدعى ثيوفيل Theophilus كان أحد شهود مجمع نيقية، غير أن مجرد اسم هذا الأسقف يدعو للشك فى كونه جرمانياً. راجع :
Strayer & Munro, op. cit. p. 31; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

عام ٣٧٦، وكان فالنز آنذاك فى أنطاكية ثم منبج Hierapolis ولم يكن بالقسطنطينية، لمتابعة الاستعدادات للحرب الفارسية، ولم يأت العاصمة إلا فى مايو ٣٧٨ عندما استفحل خطر القوط وأصبح الصدام وشيكاً بينهم وبين الرومان، ليلقى حتفه بعد هذا التاريخ بشهرين وعشرة أيام فقط. ثم ينهدم رأى ثيودوريتوس من أساسه إذا علمنا أن يودوكسيوس أسقف القسطنطينية قد مات فى عام ٣٧٠، أى قبل هذه الأحداث التى يذكرها المؤرخ بست سنوات!!

ويضيف ثيودوريتوس أن القوط رفضوا دعوة الإمبراطور وأصروا على عدم التخلى عن عقيدة آبائهم. ولكن.. أى عقيدة تلك التى يعنيها مؤرخنا الكنسى؟ أهى الوثنية التى كان يدين بها الجرمان عامة؟ أم هى النيقية التى يدعى سوزومنوس أنهم تحولوا إليها بتأثير أولفيلا فى بادئ الأمر؟ فإن كانت الأخيرة، فقد سبق لنا مناقشتها، وأن كانت الأولى أمكننا القول بأن القوط الغربيين فى انقسامهم إلى فريقين تحت زعامة كل من أثاناريش وفريتجرن، قد انقسموا فى عقيدتهم، فبينما حافظ أثاناريش وجماعته على الوثنية، راح أولفيلا يبشر بالمسيحية بين أتباع فريتجرن، وعندما حاول أن يوسع دائرة بشارته لتضم أبتاع أثاناريش، أنزل هذا عذابه الأليم بمن تحول منهم، مما أدى إلى اعتبار هؤلاء فى نظر الآريوسيين من الشهداء(٤٦). ولا يبعد أن يكون سلوك الملك العجوز صادراً عن اعتبار هذا العمل اعتداء على حقوقه أو انتقاصاً لسلطاته، ولابد أن يكون قد نظر إلى هؤلاء على أنهم أعوان لخصمه، خاصة فى الحرب الأهلية الدائرة بينهما، ولما كانت هذه الحرب قد انتهت بانتصار فريتجرن وتخلى أنصار أثاناريش عنه وانضمامهم إلى منافسه، ولما كان رجال فريتجرن وقبيله هم الذين توسلوا إلى فالنز ليسمح لهم بعبور الدانوب أولاً (٤٧). ولما كان هؤلاء على الآريوسية، اتضح تماماً خطأ ما يذكره ثيودوريتوس عن عقيدة الآباء!

وكيف يمكن مسايرة ثيودوريتوس فى ادعائه بأن أسقف القسطنطينية قد نجح عن طريق الرشوة فى إغراء أولفيلا وقبيله بالتحول إلى الآريوسية وقد أجمع

---

(٤٦) SOCRAT. Hist. eccl. IV 33.

(٤٧) C. M. H. vol. I, pp. 231-32.

مؤرخو الكنيسة جميعهم على امتداح أولفيلا والثناء على خلقه والإشادة بفضائله(٤٨).

والذى نراه أن مؤرخى الكنيسة، واثنان منهم من بين رجال الدين(٤٩). وكلهم متحمس للعقيدة النيقية، وثلاثتهم كتبوا تواريخهم فى القرن الخامس الميلادى، قد راعهم جميعاً تحول هذه الأعداد الضخمة من الجرمان عامة إلى الآريوسية، خاصة وإنها قد انتقلت من الفيزيقوط إلى جيرانهم من الأوستروقوط والوندال وغير هؤلاء من الشعوب الجرمانية الأخرى العديدة، حتى غدت الآريوسية هى دين الجرمان جميعهم عدا قبائل الفرنجة(٥٠). ولا شك كان هؤلاء يتوجسون خيفة من انتشار المسيحية الآريوسية بين الرومان، خاصة بعد أن أصبح الجرمان هم السادة الجدد للنصف الغربى من الإمبراطورية خلال القرنين الخامس والسادس، ومن ثم فإنه ليس من المصادفة ، كما يقول ليستنر Laistner (٥١)، أن نجد نيكيتا Niceta أسقف رمسيانا Remesiana (بالقرب من نيش)، وهو أسقف نيقى فى الجيل الذى خلف أولفيلا، يحذر المتقدمين لتناول المعمودية من تعاليم آريوس التى أخذت فى الانتشار فى هذه المنطقة.

والذى لا مراء فيه أن أولفيلا قد لعب دوراً كبيراً فى التبشير بالمسيحية فى صيغتها الآريوسية بين بنى قومه من الفيزيقوط، وساعده على ذلك ما اتصف به من حسن الخلق وطيب السيرة، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من الفصاحة وسحر البيان(٥٢). ورغم آريوسيته إلا أنه قد استطاع أن يفرض نفسه على السجلات الكاثوليكية من خلال عمله الرائع بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الموئيزية – القوطية، بعد أن صنف الأبجدية القوطية من أربعة وعشرين حرفاً معتمداً فى

---

(٤٨) SOCRAT. Loc. cit. THEOD. hist. Eccl. IV 33; SOZOM. Hist. Eccl. VI 37

(٤٩) كان سوزومنوس أحد رهبان غزة، بينما كان ثيودوريتوس أسقفا لكنيسة كيروس فى سوريا.

(٥٠) تحول القوط الغربيون فيما بعد عند استقرارهم فى أسبانيا من الآريوسية إلى النيقية، وكان ذلك فى عام ٥٨٩.

(٥١) Thought and letter in Western Europe, p. 20.

(٥٢) THEOD. Hist. eccl. IV 33; SOZOM. hist. Eccl. VI 37.

بعضها على اليونانية وفى بعضها الآخر على لسان أهل الشمال(٥٣). وقد ساعده على ذلك دراسته لليونانية واللاتينية أثناء تلقيه تعليمه فى كبادوكيا ثم القسطنطينية. وقد حرص فى ترجمته للكتاب المقدس على أن يحذف منه أسفار صموئيل والملوك لامتلائهما بالمعارك الحزبية، وقال مبررا ذلك "بأن القوم أصلاً مولعون بالحروب ومن ثم فهم محتاجون الآن للقمة العيش أكثر من احتياجهم لمهماز الجواد، فلطالما أنهكت الحروب قواهم"(٥٤).

على هذا النحو كان الفيزيقوط قد تحولوا، أو بتعبير أدق عدد ليس بالقليل منهم، وهم الذين يشكلون أشياع فريتجرن، إلى المسيحية الآريوسية، قبل أن تضطرهم الأحداث إلى التوسل للإمبراطور فالنز كى يسمح لهم بعبور الدانوب، ذلك أنه فى عام ٣٧٠ كانت جحافل الهون Hunni الآسيوية قد وصلت إلى مشارف البحر الأسود ومصب الدانوب، بعد أن خرجت من مواطنها الأصلية وراحت تزحف غرباً فى سيل عرم عبر سهول روسيا الجنوبية، تبث الهلع فى أفئدة السارماثيين وجرمان هذه المناطق(٥٥). وتهاوت تحت ضرباتهم مملكة الأوستروقوط التى كانت تقوم آنذاك عند البحر الأسود، وأرغم اليأس ملكهم إرمانريش Ermanarich على الانتحار، وعبثاً حاول أثاناريش تنظيم وسائل الدفاع عن الجزء الخاضع لسيطرته من مملكة الفيزيقوط، بعد أن أمكن الفزع من قلوب قبيلة كلما صك مسامعهم وقع أقدام جماعات الهون، من ثم أضطر إلى الانسحاب مع أتباعه إلى خلف جبال الكربات، على حين أقدم رجال فريتجرن على إرسال مندوبيهم إلى الأمبراطور فالنز يلتمسون السماح لهم بعبور النهر للاحتماء خلفه من سيوف الزحوف الهونية، مع وعد بتعمير موئيزيا وتزويد الجيش بالجنود وإطاعة الإمبراطور فى كل ما يصدر عنه كما تفعل رعيته(٥٦).

---

(٥٣) SOCRAT. Hist. eccl. IV 33; Laistner, op. cit. p. 20; Vasiliev, op. cit. I, p. 85.

(٥٤) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. للمزيد من التفاصيل عن تحول الجرمان إلى الآريوسية، راجع

Neander, General history of the Christian religion and church, II, pp. 125-129; Shaff, history of the Christian church, III, pp. 640-641.

(٥٥) AMM. MARC. res gest. XXXI. 3.

(٥٦) Ibid. XXXI, 4.

هكذا أقبلت سنة ٣٧٦ تحمل فى طياتها نذر الشر للإمبراطورية وفالنز دون أن يدرى، ذلك أن الإمبراطور أو أحدا من مستشاريه السياسيين أو العسكريين، لم يحاول التريث لدراسة النتائج التى يمكن أن تترتب على قبول هذا الالتماس، وما يتبعه من استعدادات ضخمة فيما يتعلق بنواحى الأمن والتموين اللازمة لاستقبال هذا العدد الضخم من القوط، بل رحبوا جميعاً بهذه الفكرة، وأمر الإمبراطور "باستقبال هؤلاء المتضرعين" – على حد تعبير سقراط – أحسن استقبال، وأنزلهم فى موئيزيا، وأعتبر نفسه بهذا الأمر محفوظاً [٥٧]. فتساقط القوط على الإمبراطورية فى خريف عام ٣٧٦ عبر الدانوب بأعداد كثيفة تساقط أوراق الشجر فى مهب رياح الخريف[٥٨].

ولا شك أن الآمال داعبت فالنز وقواده العسكريين فى إمكان الحصول على قوة عسكرية جديدة وكبيرة، تنهى هذه الأزمة الفارسية التى تسبب نزيفا مستمراً للإمبراطورية، خاصة بعد نقض الفرس شروط المفاوضات الجارية بينهم وبين فالنز لإقرار السلام، ولذا صادف ملتمس القوط فى نفس الإمبراطور هوى، ووجد فيه إرضاء لكبرياء عنده وغروره، وزين له الأمر مستشاروه، فقد ألقت إليه المقادير عدداً من الرجال لا حصر له، يمكنه فى تصوره – من بناء جيش لا يهزم. فيستغنى بذلك عن سياسة التجنيد الإجبارى فى الولايات ، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من الأراضى البور فى تراقيا سوف تعمر بهم. بل إنه راح ينفذ سياسته هذه دون توان، فأهمل تجنيد أهالى الولايات التى أنزل فيها القوط، وأعفاهم من الخدمة العسكرية، فى مقابل دفع ضريبة البدلية، حتى يزيد بذلك الدخل العام. ويعلق سقراط بعينى المؤرخ الناقد على ذلك بعبارة رائعة تقول "وكان لهذا التغيير الذى حدث أكبر الأثر، بل كان يمثل أصل كثير من الأخطار التى تعرضت لها من بعد الإمبراطورية"[٥٩]. ويضيف سوزومنوس "لقد كان فالنز يعتقد أن القوط سوف

(٥٧) SOCRAT. Hist. eccl. IV, 34 ويقول سقراط معلقاً "وكانت هذه هى الحالة الوحيدة فقط طيلة عهده التى ظهر فيها رحيماً" والحقيقة أن فالنز كان مكروها من رعيته كلها بسبب وحشيته وغلظته، من النيقيين باعتباره آريوسيا متحمساً، ومن الوثنيين لكونه مسيحياً متعصباً. راجع. C. M.H, I, p. 235.

(٥٨) AMM. MARC. Res gest. XXX I. 4.

(٥٩) SOCRAT. hist. eccl. IV, 34.

يكونون أكثر نفعاً للإمبراطورية وشيئاً مخيفاً لأعدائها، ولكنه عرف – بعد فوات الأوان. جسامة الخطأ الذى ارتكبه"[٦٠].

ولم يكن استقرار الجرمان على قطعة من الأرض الرومانية أمراً مستغرباً، فقد جرى ذلك من قبل على عهد أورليان Aurelianus كما أسلفنا، ولم يكن استخدامهم فى الجيش الرومانى حدثاً غير عادى،، فقد كان ذلك شيئاً شائع الحدوث فى القرن الرابع، لكن الذى يدعو للاهتمام، هو استقبال هذا العدد الكبير من الجرمان دفعة واحدة، وانزالهم فى منطقة بعينها دون اتخاذ أى من الاستعدادات اللازمة لذلك. ولم يكن للإمبراطور من شروط إلا أن يسلم القوط أسلحتهم، ومع أن هذا الشرط قد بدا لأعين القوط صارماً، إلا أن القدر الذى أنجاهم من سيوف الهون تمثل لهم الآن فيما يتطلبه الإمبراطور رحيما[٦١]. ومن ثم أعلنوا على الفور قبول ذلك، غير أن الضباط الرومان الذين وكل إليهم تنفيذ ذلك صرفوا همهم إلى الاغتصاب والسلب دون تجريد محاربى القوط من أسلحتهم، مما كان له أفدح النتائج بالنسبة للأحداث التى ألمت من بعد بالإمبراطورية.

وقد ترك موظفو الإمبراطور وقواده فى منطقة تراقيا للظروف وحدها مهمة إطعام هذه الجموع، وزاد الأمر سوءاً أن سيق عدد لا بأس به من القوط تحت قيادة يوليوس، القائد الرومانى، تجاه الحدود الشرقية حيث أعيد تنظيمهم فى وحدات جديدة للعمل على الجبهة الفارسية. وكان هذا الإجراء فى حد ذاته وما تبعه من إرسال بعضهم شتاء إلى أدرنه Adrianoplis ، يعنى لدى الجرمان تمزيقاً لبقائهم القبلى، وفتح الباب لفقدان الثقة بين النزلاء الجدد والإمبراطورية، زاد هوتها سوء معاملة موظفى الإمبراطور وقواده خاصة فيما يتعلق بمسألة التموين. ويتحمل لوبيكينوس Lupicinus النائب العسكرى لتراقيا، وماكسيموس Maximus القائد المحلى، النصيب الأكبر فى هذه الناحية، إذ استغلا المجاعة التى كان يعانى منها القوط، وراحو يبيعونهم لحوم الكلاب، ثم باعوا أبناء القوط أنفسهم عبيداً فى الأقاليم. وكان لابد أن يشعر القوط بالإهانة من جراء هذه المعاملة[٦٢].

(٦٠) SOZOM. hist. eccl. VI 37.

(٦١) Strayer & Munro, op. cit. p. 32. C. M. H. I, p. 232

(٦٢) AMM. MAR. res gest. XXXI, 4.

وكان هذا كله إيذاناً بتجميع القوط لقواهم وقواتهم والدخول فى معركة حاسمة مع الإمبراطورية الرومانية، وقد جرى ذلك سريعاً فى عام ٣٧٨ عند مدينة أدريانوبل Adrianoplis (Ederne) حيث لقى الجيش الرومانى هزيمة مروعة راح ضحيتها – فى أقل التقديرات – حوالى خمسة وأربعين ألف جندى، وخر الإمبراطور فالنز نفسه صريعاً، وباتت منطقة البلقان ومن ورائها الولايات الرومانية فى الشطر الغربى تحت رحمة الجحافل الجرمانية [٦٣].

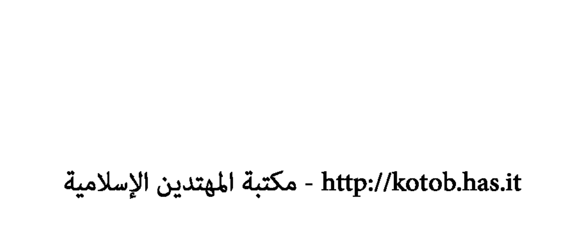
وتعد معركة أدريانوبل من المعارك الفاصلة فى التاريخ، إذ كانت لها نتائجها البعيدة التى تركت آثارها الواضحة على مسيرة التاريخ الأوربى عبر العصور الوسطى، بل وامتدت هذه الآثار إلى العصور الحديثة نفسها، ناهيك عن النتائج المباشرة التى ترتبت على هذه المعركة، حيث فتحت حدود الإمبراطورية الرومانية أمام الجحافل الجرمانية، التى تمكنت خلال القرن الذى أعقب المعركة من إسقاط نصف الإمبراطورية الغربى، وأقامت على أنقاضه ممالك جرمانية تمثلت فى مملكة الأنجلو – سكسون فى إنجلترا، ومملكة الفرنجة فى غالة، ومملكة القوط الغربيين فى إسبانيا، ومملكة الوندال فى أفريقيا، ثم مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا، ليأخذ تاريخ أوروبا العصور الوسطى بذلك منحىً مغايراً تماماً لما كان عليه فى العصور القديمة[٦٤].

---

(٦٣)عرض المؤرخ المعاصر "أميانوس ماركللينوس" Ammianus Marcellinus لمعركة أدريانوبل بالتفصيل في الجزء الأخير من كتابه Res gestae حيث تتوقف أحداث الكتاب عند هذه المعركة.

(٦٤) للمزيد من التفاصيل عن النتائج المباشرة والبعيدة لمعركة أدريانوبل، راجع للمؤلف ، الإمبراطورية البيزنطية، الجزء الأول، الفصل الثالث.


الفصل الثاني
تداعى المسيحية الحكومية



الفصل الثاني

تداعى المسيحية الحكومية

حققت الآريوسية انتصارها وسيادتها على النيقية، خلال السنوات التى حكمها الإمبراطور قسطنطيوس منفرداً، وعلى امتداد عهد فالنز. وإذا كانت قد امتدت لتشمل الإمبراطورية كلها بشقيها زمن أولهما، فإنها قد انحسرت أيام ثانيهما إلى الشطر الشرقى فقط. ولم تكن كنيسة ميلانو فى الغرب بآريوستها إلا ميراثاً خلفه قسطنطيوس لأوكسنتيوس عندما كان المد الآريوسى جارفاً، ولم يكن بقاؤه فى أسقفيته حتى انتصاف سبعينيات القرن الرابع الميلادى إلا إفادة من سياسة "التغاضى" التى اتبعها الإمبراطور فالنتينيان الأول إزاء كل الفرق المسيحية.

وبموت فالنز أصبح مصير الآريوسيين فى الشرق فى يد المقادير ، خاصة وهؤلاء يعلمون أن الإمبراطور جراتيان، الذى آل إليه الآن حكم النصف الشرقى، يؤيد النيقية. ورغم أن كنيسة القسطنطينية قد ظلت طيلة أربعين عاماً كاملة (٣٣٩ -٣٧٩) آريوسية، ويتربع على كرسيها الآن ديموفيلوس إلا أن هذا وأهلها كانوا يخشون أن يفرض عليهم إمبراطور من الغرب آت، يدين بعقيدة القوم هناك، وهى النيقية التى ركن الغرب إليها ولم يبغ عنها حولا.

وفى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من وجود إمبراطور، وهى الشهور الواقعة بين مقتل فالنز وإعلان ثيودوسيوس إمبراطور (أغسطس ٣٧٨- يناير ٣٧٩) وامتدادها حتى دخول الإمبراطور الجديد إلى عاصمته فى نوفمبر ٣٨٠، ماجت القسطنطينية بشتى الفكر، وازدادت حدة الخلافات اللاهوتية بين الدوائر الكنسية، وتخطت هذه إلى رجل الشارع، ما بين الآريوسيين بفرقهم العديدة، والماكيدونيين، وهؤلاء جميعاً والنيقيين، وأصبحت العاصمة فإذا الناس فيها كلهم ولا حديث لهم إلا المسألة العقيدية، فقهوا من أمر اللاهوت شيئاً أو جهلوه، وهذه هى الفترة التى عبر عنها اللاهوتى الكبادوكى الشهير جريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus بقالته الرائعة وهو يصف القسطنطينية وأهلها: "لقد امتلأ كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق

والأزقة. فإذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمناً لشيء، فلسفوا لى الإجابة حول المولود والمخلوق، وإذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز، أجابنى البائع بأن الأب أعظم من الابن، وإذا ما بحثت عما إذا كان حمامى قد أعد، جاءتنى الإجابة تقول إن الابن خلق من العدم!!".

وكانت كنائس القسطنطينية كلها دون استثناء بيد الآريوسيين، وقد حاول النيقيون ذات مرة فى عام ٣٧٠ بعد وفاة يودوكسيوس، أن يختبروا قوة خصومهم، وأن يتحسسوا مواقع خطاهم، وذلك باختيار ايفاجريوس أسقفاً لهم، غير أن هذه المحاولة حققت فشلاً ذريعاً، واستمرت الأسقفية بأيدى الآريوسيين الذين رفعوا ديموفيلوس إلى كرسيه، بعد أن تدخلت القوات التي بعث بها فالنز لصالح الآريوسية. والآن، وفى خلو العرش من حاكم، واستناداً إلى المرسوم الذى أصدره الإمبراطور جراتيان عام ٣٧٩ بالتسامح العام فى الإمبراطورية، أقدم النيقيون فى القسطنطينية على إعادة المحاولة مرة ثانية، ووقع اختيارهم هذه المرة على أحد الآباء الكبادوكيين الثلاثة الأشهار، هو جريجورى النازيانزى Gregorius Nazianzenus أسقف نازيانزا(١). ومع أن تطلعات النيقيين بهذا الاختيار كانت

---

(١) ينتمى جريجورى لأبوين مسيحيين، وهو سمى لأبيه الذى كان أسقفا لنازيانزا Nazianzus ولد حوالى سنة ٣٢٥، وحرصت أمه على تنشئته تنشئة مسيحية صادقة. وقد أرسل هو وأخوه قيصر Caesarius إلى قيسارية الكبادوك لتلقى تعليمهما، وهناك التقى بصديق عمره باسل الكبير، ثم انتقلا إلى قيسارية فلسطين، ومنها للإسكندرية فى الفترة التى كان فيها اثناسيوس الأسقف السكندرى لائذا بالغرب (٣٣٩-٣٤٦). ولم يلبث جريجورى أن انتقل بعد ذلك إلى أثينا لإكمال تعليمه، وهناك فى جامعتها ثانية التقى بباسل الكبادوكى، وكانا زميلين للأمير جوليان الذى صار إمبراطورا فيما بعد (٣٦١-٣٦٣). فلما عاد إلى مسقط رأسه بعد اثنتى عشرة سنة أمضاها فى أثينا، راح ينتقل بين نازيانزا وبين أحد الأديرة فى بونطس مع صديقه باسل. وفى عام ٣٥٩ أعطى أبوه توقيعه على المرسوم المزدوج الصادر عن ريمنى وسلوقية، مما أثار غيظ الرهبان فأعلنوا تحديهم له وأثاروا عليه بعض رجال الدين مما دفع جريجورى إلى المقام بجوار والده، وحثه على إعلان إيمانه بالنيقية ورفض المرسوم المزدوج، وبذلك انتهى الشقاق الذى حدث فى كنيسة نازيانزا. ولما كان جريجورى الأب قد بلغ من الكبر عتياً، فقد خضع لإلحاح رعيته برسم إبنه كاهنا ليساعده، ،وتم ذلك فى عام ٣٦١ على غير رغبة الابن. فلما مات الأب عام ٣٧٤، أصبح جريجورى الإبن أسقفاً خلفاً له، وظل هناك حتى استدعاه أهالى القسطنطينية النيقيون ليكون راعياً لهم. وقد ترك جريجورى تراثاً لاهوتياً=

واسعة، إلا أن طموحاتهم كانت محدودة مخافة أن تصاب محاولتهم الثانية هذه بالإخفاق كما جرى لهم أول مرة. ومن ثم دعوه ليكون راعياً لهم وممثلاً لفريقهم، يلتفون من حوله، ويقوم هو بأداء الخدمة الكنيسة، دون إثارة شعور الفريق الآريوسى الذى مازال من الناحية الرسمية صاحب السيادة فى الشطر الشرقى من الإمبراطورية، وصاحب الحق الشرعى فى كرسى القسطنطينية الأسقفى.

وكان جريجورى النازيانزى على قدر كبير من الثقافة، نهل من الفكر اليونانى فى الإسكندرية وأثينا، ثم صرف همه بعد ذلك لدراسة اللاهوت، وهو يمثل مع باسل أسقف قيسارية كبادوكيا وجريجورى أسقف نيسا، أشهر آباء اللاهوت اليونان فى أخريات القرن الرابع الميلادى، كما أنهم يعتبرون بحق جيل النيقية الجديد المعتدل الذى يخفف من غلواء التطرف عند جيل النيقية الأول المتمثل فى كل من يوستاثيوس Eustathius الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى، ولهذا استحق جريجورى النازيانزى أن يدعوه المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى إفسوس سنة ٤٣١ "الكبير" وأن يعرف عالمياً باسم "اللاهوتى".

ولما لم يكن للنيقيين فى القسطنطينية كنيسة يؤدون فيها طقوسهم، فقد أقدم جريجورى على تحويل منزل أحد أصدقائه فى العاصمة إلى كنيسة، وأطلق عليها كلمة لها مغزاها هى "البعث" Anastation (resurrection) وهو يعنى بذلك بعث الإيمان النيقى من جديد أو إعادته إلي الحياة مرة ثانية بعد أربعين سنة من السيادة الآريوسية(٢). وقد نجح جريجورى بالفعل بعظاته ونشاطه وحيويته وحسن بيانه أن

=وفكرياً كبيراً وضعه ضمن آباء اللاهوت الشهيرين فى الكنيسة الشرقية بصفة خاصة. للمزيد من التفاصيل عن جريجورى وأعماله راجع: Nicene and post Nicene fathers, Vol VII وسوف نورد لها ثبتا فى قائمة المصادر فى نهاية الكتاب. وانظر أيضاً. SOCRAT. Hist. eccl. V 6; RVFIN hist. eccl. II 9 وقد عرف جريجورى النازيانزى باسم "الالهى" وهو الوحيد من بين آباء الكنيسة فى الشرق والغرب الذى يشترك فى هذا اللقب مع يوحنا الانجيلى. راجع: Nicene and post Nicene fathers, vol. VII p. 187; Baynes & Moss, Bzantium, pp. 93-84, 212-213, 226; Laistner, op. cit. p 64.

(٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 5; SOCRAT. hist. Eccl. V 7 ويورد سوزومنوس كعادته فى مثل هذه الأمور رواية أخرى بالإضافة إلى التفسير الأول، ويقدم لها بكلمة "كما سمعت"=

يجمع حوله قلوب فلول "الهوموسيين" الذين كانت قد ضاقت بهم السبل، ولكنه أثار فى الوقت ذاته حسد الفرق المسيحية الأخرى وحقدها، مما دفعهم إلى مهاجمة هذا المنزل الذى اتخذ منه كنيسة، فى محاولة للاعتداء على حياته، فلما لم يدركوه، حطموا الأوانى المقدسة التى عثروا عليها[٣]. وكان هذا العمل دليلا على المكانة التى احتلها جريجورى بشكل سريع وغير متوقع فى نفوس جموع القسطنطينية، وترك آثاره السيئة على نفس جريجورى، تضافرت معها عوامل أخرى عديدة كانت دافعاً له على محاولاته المتكررة للتخلى عن منصبه، حتى قبل أن يرسم بصفة رسمية أسقفاً للقسطنطينية.

وكان من بين هذه العوامل أن شخصاً يدعى ماكسيموس Maximus اسكندرى المولد، درس الفلسفة الكلبية وأصبح أحد أساتذتها، وأعلن فى الوقت ذاته تمسكه بالهوموسية وتحمسه الزائد لها، جاء إلى القسطنطينية حوالى ذلك الوقت التى استدعى إليها جريجورى وتقرب إليه ثم قلب له ظهر المجن وناصبه العداء. ووسط التيه الذى يغرقنا فيه مؤرخو الكنيسة حول ماكسيموس هذا وعلاقته بجريجورى[٤] نستطيع أن نتلمس طريقنا بشق الأنفس، وبكل الحذر والروية.

فنحن لا نسمع شيئاً مطلقاً عن ماكسيموس هذا إبان الفترة التى كان فيها لوقا الآريوسى أسقفاً للإسكندرية على عهد الإمبراطور فالنز، ولكن فيما يبدو لم يلبث أن وصل صفوفه ببطرس السكندرى حالة عودته من مهربه فى روما،، بعد طرد لوقا ومقتل فالنز، وأصبح مقرباً منه أثيراً لديه، فلما خلا عرش القسطنطينية من إمبراطور يسوده، وراح النيقيون يبحثون لهم عن وجود وحياة، كان هذا كفيلاً بتشجيع كثير من العناصر الطامحة للذهاب إلى القسطنطينية للبحث عن مجال تعلى فيه قدرها. وكان كرسى العاصمة الأسقفى يغرى الكثيرين بالقفز عليه، على الرغم

=وخلاصتها إنه فى أحد الأيام أثناء الصلاة سقطت إحدى النساء الحوامل من أعلى الدهليز وفارقت الحياة لساعتها، فلما أقيمت الصلوات من الجموع، عادت إليها الحياة وكذا جنينها!! (هكذا) ومن ثم أمام المعجزة حمل المكان اسم البعث.

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Loc. Cit. Hefele, op. cit. II p. 341.

(٤) SOCRAT. hist. Eccl. V 7; SOZOM. Hist eccl. VIII 8; THEOS. Hist. Eccl. V 8.

من وجود أسقف آريوسى يحتل المنصب. وهذا شىء بدا واضحاً فى سلوك الأساقفة أثناء انعقاد مجمع القسطنطينية وبعد اعتزال جريجورى، إذ راحوا كلهم يصطرعون من حوله[٥]. ولا شك ساعد على هذا أن الفريق النيقى كان يعلم ما يدين به إمبراطور الغرب جراتيان الذى سرعان ما أفصح عن عقيدته بمرسوم التسامح الذى أصدره عقب موت عمه فالنز، من أجل هذا واتت النيقيين فى العاصمة الشجاعة فأرسلوا فى استدعاء جريجورى ليكون راعياً لهم. ولما كان بطرس السكندرى، أعلم الناس بحقيقة إيمان إمبراطور الغرب لوجوده قريباً منه فترة ليست بالقصيرة، ولما كان يسعده تماماً أن يرى أحد أنصاره أسقفاً على كنيسة العاصمة الإمبراطورية، فلابد أن يكون قد شجع ماكسيموس هذا على الارتحال إلى القسطنطينية علّه يفلح فى مبتغاه، وقد أثبتت الأحداث صدق ما نذهب إليه.

فما أن جاء ماكسيموس إلى العاصمة حتى وجد جريجورى قد سبقه إليها، وأنه قد حاز شهرة واسعة، وأن النيقيين فى المدينة قد التفوا من حوله، لذا لم يجد أمامه من سبيل إلا أن يجعل من نفسه واحداً من رعايا جريجورى، ثم من أصدقائه، ثم من المقربين. ولما كان يعلم محبة جريجورى الرهبانية، فقد راح يمارس رياضة الزهد، فكسب بذلك ثقة جريجورى إلى حد كبير جداً، حتى بلغ الأمر بجريجورى أن يخصص إحدى خطبه لامتداحه والثناء عليه. غير أن ماكسيموس كشف عن حقيقة أمره عقب الهجوم الذى دبرته بليل الفرق المسيحية المعادية "للهوموسية" على كنيسة أنسطاسيا، فلم يُبْدِ أى امتعاض لما حدث، بل أدرك أنه بهذا الحادث يمكنه تحقيق مأربه، فانتهز فرصة الغضب والسخط الذى تكنه الفرق الآريوسية لجريجورى، والمرض الذى ألم به على أثر هذا الاعتداء، ودبر مع خمسة من رجال الأكليروس المصريين الذين كان بطرس قد بعث بهم إلى العاصمة، أمر رسامته أسقفاً للقسطنطينية(٦). بعد أن نجح فى شراء بعض أصوات الدهماء فى العاصمة، وقد تم ذلك حوالى منتصف سنة ٣٨٠ أى قبل قدوم الإمبراطور ثيودوسيوس إليها. غير أن شعب الكنيسة المؤيد لجريجورى ما

(٥) SOZOM. hist. Eccl. VII 7.

(٦) GREG. NAZ. orat. XXXIV; Nicene and p. n. f. VII

أن علم بهذا الأمر فى صبيحة اليوم التالى، حتى هاجموا مقر ماكسيموس واكليروسه، واضطروه إلى الفرار خارج العاصمة، فولى وجهه شطر سالونيك حيث يقيم ثيودوسيوس لعل الظروف تسنح له بعرض قضيته عليه، أو لعله يجد عنده ملاذا(٧). ومن الجدير بالذكر أن استقراء تاريخ الكنيسة السكندرية خلال القرون من الرابع إلى السابع، يشير صراحة إلى أن عدداً من أساقفتها قد لجأوا فى كثير من الحالات لممارسة مثل هذا الأسلوب الذى استخدمه ماكسيموس، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى إيمان كنيسة الإسكندرية أنها أعلى كعباً من كنيسة القسطنطينية، وأن رجالها أحق من غيرهم باعتلاء كرسيها الأسقفى. وإذا كان جريجورى قد كسب بجهود رعيته النيقية هذه الجولة، فإن الإسكندرية لن تنسى أو تغفر له ذلك. ومن ثم سنجدها تنتهز أول فرصة تسنح لها للانتقام لنفسها. إلا أن هذه الحادثة قد زادت اللاهوتى الكبادوكى رغبة فى التخلى عن مهمته فى العاصمة والعودة إلى أسقفيته.

غير أن الإمبراطور ثيودوسيوس لم يحقق له هذه الرغبة، على الأقل فى المدى القريب جداً، ذلك أنه ما أن عاد إلى القسطنطينية حتى أعلن صراحة عن سياسته العقيدية الممالئة للنيقية، وجاء ذلك فى أول تصريح رسمى له[٨]. ثم ما لبث أن استدعى إليه أسقف العاصمة الآريوسى ديموفيلوس وطلب إليه العودة إلى "الهوموسية". فلما أبى أقدم الإمبراطور على سحب كنائس المدينة كلها من يد الآريوسيين وسلمها إلى النيقيين، فجمع ديموفيلوس شيعته وقرأ فيهم آية الإنجيل" ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى"[٩]. وولى وجهة خارج أسوار القسطنطينية حيث تبعه الآريوسيون، ليمارسوا إلى حين طقوس عقيدتهم، وقد صحبهم فى هذا الخروج لوقا الأسقف الآريوسى طريد الإسكندرية [١٠]. واستقدم الإمبراطور إليه جريجورى النازيانزى وأعلنه أسقفاً للقسطنطينية بعد أن تمت

---

(٧) Nicene and p. n. f. III p. 136, n. 3, col. A; Hefele, op. cit. II p. 341.

(٨) THEOD. Hist. Eccl .V 6

(٩) متى ٢٣/١٠.

(١٠) SOCRAT. Hist. Eccl V 7; SOZOM. Hist. Eccl . VII 5.

رسامته على يد ميلتيوس Meletius الأنطاكى، الذى كان قد شخص إلى العاصمة مبكراً لهذا الغرض(١١).

هكذا آذنت شمس الآريوسية بالمغيب، بعد أن آمنت بها كل كنائس الشرق سنين عددا، وخضعت لها كل كنائسه عدد سنين. وتمتعت هى بالسيادة فترة قاربت نصف القرن من الزمان إلا قليلاً. وشغلت فكر وجهد الإمبراطورية كلها قرابة ثلاثة أرباع القرن الرابع الميلادى، ابتداء بالأباطرة ورجال البلاط والدوائر السياسية وثكنات الجنود، وانتهاء برجل الشارع والجموع. ولئن كان الصراع العقيدى بين النيقيين والآريوسيين، وهؤلاء الأخيرين وأنفسهم، قد أثرى الفكر الإنسانى بهذه المباحث الجدلية، إلا أنه أرهق العقيدة من أمرها عسرا، وخرج بها من بساطتها الأولى إلى تعقيدات المدارس الفلسفية اليونانية على اختلاف أفكارها وآرائها وتراث الفكر الشرقى القديم. وبغض النظر عما يقوله مؤرخو الكنيسة وآباؤها فى كتاباتهم، فإن النيقيين والآريوسيين على قدر سواء مسيحيون، لمسيحيتهم التى ارتضاها كل لنفسه، مخلصون، يبحوث عن مستقر ومقام على أرض ثابتة يبنون عليها فكرهم. وكل يستمد آراءه ويقدم حججه من آى الكتاب المقدس وتعاليم الآباء (١٢). وبينما يمثل الهوموسيون الاتجاه المحافظ الذى يخشى

---

(١١) SOCRAT. hist. Eccl. V 8; THEOD, hist. Eccl. V 8.

(١٢) راجع آراء الأريوسية كما جاءت على لسان آريوس فى THEOD hist. Eccl. I 4؛ ورسالة يوسيبيوس النيقوميدى إلى باولينوس الصورى فى Ibid. I 5 ووثيقة إيمان آريوس SOCRAT. hist. Eccl. I 26 ومراسيم الإيمان الصادرة عن مجمع التدشين الأنطاكى سنة ٣٤١ فى

ATHANAS. De Syn. 28; HILAR. De Syn. 29-30.

ومرسوم سيرميوم الثانى الصادر سنة ٣٥٧ فى ATHANAS. Ibid. 28; HILAR. Ibid. 11.

وآراء آيتيوس السورى فى GREG. NYS. Con. Euno,. I 6;BASIL. De spir san. II 4; SOCRAT. Hist. Eccl. II 35; SOZOM. Hist. Eccl II 15, IV 26 وصيغة الإيمان الهوموية التى سادت فى (٣٥٩-٣٧٨) فى ATHANAS. De Syn. 29

أما عن النيقية فيكفى فقط أن نعود إلى قانون الإيمان الصادر عن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ فى SOCRAT. Ibid. I 8; THEOD. Ibid. I 11 وكذلك خطب أثناسيوس ضد الأريوسيين (Nicene and p. n. f. IV pp. 306-447) Orations c. Arianos

فتح باب الاجتهاد وإعمال الفكر فى أمور لقيت قبولاً ومصادقة لدى جموع المسيحيين بعامة ابتداء بمجمع نيقية ، فإن الآريوسيين يدعون بحق أصحاب المنهج العقلانى المجتهد الذين يحاولون إرساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية يرتضيها المثقفون ورجال الفكر فى زمانهم، وهذا لا ينفى أيضاً أن النيقيين السلفيين جاءت عقيدتهم هم الآخرون فى جوهرها مزيجا بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية والتراث الشرقى منذ أيام كلمنت وأوريجن السكندريين.

ومن هنا لم تجد الآريوسية لها فى الغرب صدى، ولم تجد لها أيضاً فى الشرق بين البسطاء من يتفهمها، وكانت أشد الجماعات كراهية لها ومقتاً هم الرهبان، سواء فى مصر أو فلسطين أو آسيا الصغرى (١٣). ومن ثم انحصرت طيلة فترة سيادتها بين المفكرين وأصحاب الاتجاه العقلى من رجال الاكليورس والعلمانيين على السواء، وكان هذا واضحاً تماماً فى المدرسة اللاهوتية الانطاكية، التى ظل تأثيرها باقياً وفعالاً حتى أخريات القرن الخامس الميلادى.

وقد يبدو من غرائب الأمور أن تنتقل الآريوسية بعد زوالها من المجتمع الرومانى إلى الشعوب الجرمانية. إذ كيف يمكن لهذه الجماعات التى لم تدرك حظاً من الثقافة، أن تركن إلى الآريوسية التى تتطلب فى جوهرها إعمال الفكر؟ غير أن الأمر ليس على هذا النحو من التعقيد . فالجرمان قبلوا الآريوسية لأنها تتفق مع أوليات التفكير الواقعى فى الحياة العادية، على النحو الذى بشر بينهم به أولفيلا، والتى هى فى الوقت ذاته مبادئ الآريوسية الأصلية التى نادى بها آريوس السكندرى سنة ٣١٨، والقائلة بأن الآب سابق فى الوجود على الابن، وأن الله أعظم من الابن، وأن المسيح مخلوق شأن سائر الخلائق. ومن هنا، ولهذا المبادئ الأولية البديهية كان إيمانهم بها وحرصهم عليها، رغم وجودهم وسط المجتمع الرومانى فى الغرب والذى يدين كله بالنيقية.

---

(١٣) عن أسباب كراهية الرهبان للآريوسية راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص ٢٢٩-٢٣٢، ٣٣٠-٣٣٣، وله أيضاً الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الفصلين الثانى والثالث.

وفوق هذا وذاك فإن الآريوسية كانت هى المسيحية التى وجدها الجرمان آنذاك فى الإمبراطورية، ولم يرهقوا أنفسهم فى البحث وراء أسرار المسيحية والخلافات العقيدية، ومن ثم لا يعدو الأمر ببساطة أن هذه الآريوسية كانت لديهم هى المسيحية وفقط.

هكذا لم يكن للآريوسية منذ البداية فى الغرب نصيب، لأن الآريوسية بطبيعتها تعتمد الجدل العقلى مدخلاً ضرورياً لمعرفة المسيحية والإيمان بها. وبينما يصر أوغسطين Augustinus أبو الكنيسة اللاتينية فى القرن الخامس الميلادى على ضرورة الإيمان أولاً "أومن لكى أفهم"، يقف العقليون فى الشرق على الطرف الآخر المضاد، إذ يحكمون عقولهم قبل قلوبهم فى مسائل الإيمان، وفى الوقت الذى يعترف فيه هيلاريوس أسقف بواتييه فى غالة فى القرن الرابع، أنه ظل لمدة ثلاثين سنة بعد مجمع نيقية المنعقد فى عام ٣٢٥ لا يعرف شيئاً عن "الهوموسية" (الابن مساو للآب فى الجوهر) قاعدة الإيمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة فى الشرق والغرب، ومفتاح باب آتون الصراع اللاهوتى طيلة القرن الرابع، كان آباء الكننيسة الشرقية منذ القرن الثانى وما تلاه يملأون صفحات كتبهم بمسائل عقلانية جدالية حول مكانة الأقنوم الثانى فى الثالوث، الكلمة، الابن، ويأتى فى مقدمتهم كلمنت وأوريجن وديونيسيوس فى الإسكندرية، ولوقيانوس الأنطاكى، وآباء كبادوكيا الثلاثة، جريجورى النازيانزى، وجريجورى النيساوى، وباسل القيسارى، ثم يوحنا ذهبى الفم.

وكان هذا أمراً طبيعياً يتمشى واختلاف كل من شطرى الإمبراطورية عن الآخر فى النواحى الفكرية والمجالات الثقافية، إذ كان الغرب اللاتينى يفتقر إلى المدارس الفلسفية التى زخر بها الشرق اليونانى، كما أن اللغة اللاتينية لم تكن لها نفس الحيوية والعطاء الذى تميزت به اليونانية، حتى أننا نجد الخلاف العقيدى فى القرن الرابع كله لا يخرج لغة عن حروف معينة تضاف إلى مصطلح "الهوموسية" Homoousius أو تحذف منها، لتباعد بين الفرق المختلفة بعدا كبيرا، فـ"الهوموسية" تعنى المساواة فى الجوهر بين الآب والابن، فإذا أضيف إليه حرف "اليوتا" فى اللغة اليونانية (i) لتصبح الكلمة "هومويوسية" Homoiusius انقلب

المعنى إلى "التشابه فى الجوهر" وإذا حذف من الكلمة الجزء الأخير وهو مقطع "الجوهر" essence (ousia) أضحى تعبير "الهوموية" Homoeos يعنى "التشابه" فقط بين الآب والابن دون تحديد لماهية هذا التشابه!!

وتجسدت الخلافات رغم كثرتها فى اتجاهين رئيسيين مثلتهما مدرستا الإسكندرية وانطاكية لتفسير الكتاب المقدس، اتخذت الأولى بتأثير أستاذها أوريجن اللاهوت العلمى الأفلاطونى والتفسير المجازى، واختطت الثانية بفكر زعيمها لوقيانوس المنهاج الأرسطى والتفسير العقلى. ولما كان آريوس القس السكندرى، قد تقلد المناصب الكهنوتية الأولى فى الإسكندرية وتأثر بمدرستها، وتلقى تعليمه اللاهوتى فى المدرسة الأنطاكية، فقد جاءت آراؤه اللاهوتية مزيجاً من الفكر الأفلاطونى فى القول باستحالة الخلق المباشر، والمنهج الأرسطى فى المنطق، ولهذا كان من اليسير أن تتقبل الأوساط الكنسية المثقفة فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية هذه الآراء، بينما تمجها دوائر الأكليروس فى الغرب. وازداد عداء الغرب للآريوسية، بعد أن أضيف إلى قانون الإيمان الكنسى فى مجمع نيقية المكسونى مصطلح "الهوموسية" بعد أن ألقى بها هوسيوس القرطبى إلى مسامع الإمبراطور قسطنطين، وهى صيغة كانت مقبولة فى الغرب منذ استخدمها للمرة الأولى الأسقف الرومانى ديونيسيوس فى مراسلاته مع سميه الأسقف السكندرى فى القرن الثالث، واضطر الأخير إلى قبولها كارها ارضاء لقرينه أسقف روما.

ورغم أن الأسقف السكندرى أثناسيوس لم يذكر هذا التعبير فى أسفاره العديدة خاصة عمله الذى يقترب من الأعمال العقيدية وهو خطبه ضد الآريوسيين Orations contra Arianos إلا مرة واحدة، إلا أنه ظل على ولائه لها طيلة عمره الأسقفى، بل أصبح هو المدافع عنها عندما تحول العالم كله آريوسيا فى عهد قسطنطيوس، وفاء لسلفه الأسبق ديونيسيوس. وكان هذا من بين العوامل الهامة التى زادت الغرب تمسكاً بهذه الصيغة بعد أن لاذ أثناسيوس بحماه أثناء فترة نفيه الثانى، وبعد أن قدر فيه جهاده من أجل الحفاظ عليها. وبالمثل آوى الغرب إليها واطمأن بها ولم يجد للتحول عن سنة السلف دافعاً.

لكن الآريوسية فرضت على الغرب بارادة الإمبراطور قسطنطيوس وقرارات مجمعي آرل سنة ٣٥٣ وميلانو عام ٣٥٥. ولم يكن لعقيدة هذه طبيعة انتشارها، أعني بقرار من الحاكم، أن يقدر لها البقاء في الغرب الذي يكرهها قدر جهالته بها وعجزه عن فهم منطق فكرها. ولهذا لم يلبث أن ارتد أساقفة الغرب الذين شهدوا مجمع ريمني عام ٣٥٩، والذين اقتيدوا إلى التوقيع على قانون الإيمان الآريوسي في صيغته "الهوموية" ارتدوا إلى النيقية حتى قبل أن يوليهم قسطنطيوس دبره متحرفا إلى الشرق.

غير أن إحدى الأسقفيات الهامة في هذه المنطقة، وهي ميلانو، ظلت على ولائها للآريوسية بفضل وجود أسقفها أوكسنتيوس، وبسبب السياسة التي سار عليها الإمبراطور فالنتينيان الأول بالعزوف كلية عن التدخل في المسائل الكنسية، واستطاع أوكسنتيوس خلال أسقفيته الطويلة (٣٥٥-٣٧٤) أن يجتذب إلى جانب عقيدته عدداً ليس بالقليل من أهالي ميلانو، بل أفلح أيضاً في أن يضم إلى كنيسته الإمبراطورة جوستينا زوج فالنتينان الأول، التي تركت تأثيرها واضحاً على ابنها فالنتينيان الثاني الذي أعلن إمبراطوراً شريكاً في عام ٣٧٥ مع أخيه الأكبر جراتيان بعد موت أبيهما. ومما يدل على كثرة عدد الآريوسيين في المدينة تلك الاضطرابات التي أعقبت وفاة أوكسنتوس عام ٣٧٤ بسبب استبقاق النيقيين والآريوسيين لاختيار مرشح جديد للأسقفية والتي كانت من نصيب أمبروز.

هذه الخلفية الآريوسية التي كان عليها عدد ليس بالقليل في ميلانو، دفعت أمبروز بكراهيته للآريوسية أن يبذل جهده قدر استطاعته للقضاء على قلعتها الأخيرة في الغرب، وشجعه على ذلك الاتجاه النيقي المتحمس عند كل من جراتيان وثيودوسيوس وكانا يكنان له الاحترام. غير أن أمبروز اصطدم هنا بالإمبراطورة الأم جوستينا وإبنها الإمبراطور الصبي فالنتينيان؛ فقد طالب الآريوسيون في المدينة أن تخصص لهم إحدى الكنائس التي كانوا قد طردوا منها، ليقيموا فيها طقوس عقيدتهم، ونقل الإمبراطور هذه الرغبة إلى أمبروز الذي رفض ذلك صراحة على اعتبار أنّ الآريوسيين خارجون عن الكنيسة الكاثوليكية. وقد تطور الأمر بعد ذلك بناء على تدخل جوستينا إلى محاصرة إحدى الكنائس التي كان يعظ

فيها أمبروز بهدف الاستيلاء عليها، غير أن الجموع النيقية تمسكت بأسقفها، مما أعطاه دافعاً قوياً لتحدى الإمبراطور وأمه التى كانت تحمل للأسقف كل الكراهية، بسبب تدخله المستمر في شئون الإدارة الإمبراطورية والبلاط. إلا أن هذه المحاولة فشلت واستدعى الجنود الذين كانوا يحاصرونها للعودة إلى ثكناتهم.

وكان الإمبراطور قد دعا أمبروز إلى حضور مجلس يعقد فى القصر الإمبرطورى، يضم مستشارى الإمبراطور وأوكسنتيوس الآريوسى لبحث هذه المسألة، غير أن الأسقف الميلانى رفض حضور مثل هذا الاجتماع وكتب إلى فالنتينيان رسالة حول هذا الشأن تكشف عن رأيه للمرة الأولى صراحة فيما يتعلق بعلاقة الدولة بالكنيسة، وازدرائه للآريوسية.

وقد حرص أمبروز فى رسالته على أن يبين للإمبراطور أنه ليس عاصيا أو متمرداً بحيث يرفض إطاعة الأوامر الإمبراطورية بالحضور إلى هذا المجلس، ولكنه يؤمن إيماناً كاملاً بأنه فى المسائل التى تخص العقيدة، فإن أحداً ليس من حقه أن يصدر حكماً أو يجلس منها مجلس القضاء إلا الأساقفة وحدهم، وضرب لهم مثلاً ما فعله أبوه من قبل عندما عرضت عليه مثل هذه الأمور، فأجاب صراحة بأنه ليس من حقه كعلمانى أن يتدخل فيما لا يخصه، مشيراً بذلك إلى موقفه من اتحاد الماكيدونيين وأنصاف الآريوسيين، وينبهه إلى أنه ليس من حقه كإمبراطور أن يقدم على ذلك، خاصة وأنه لم يتناول بعد سر العماد، ويعرج أمبروز فى حديثه إلى مسألة اختياره من قبل شعب الكنيسة بطريقة شرعية، وكيف صادق أبوه على ذلك وأبدى الإعجاب، ويبدى أسفه على هذا المرسوم الذى أصدره فالنتينيان الثانى، بتأثير من جوستينا والذى يمنح للآريوسيين الحرية في ممارسة عبادتهم وأداء طقوسهم الدينية، واختياره لأوكسنتيوس مستشاراً له وقاضياً فى هذه الدعوى، واتهم أوكسنتيوس بأنه لا يصلح إلا أن يكون قاضياً لليهود أو الوثنيين، وكلاهما للمسيح عدو.

وطالب أمبروز الإمبراطور بأن يدعو إلى عقد مجمع كنسى، كما فعل قسطنطين، لمناقشة الأمور الكنسية، فهذا هو مكانها الطبيعى، وأنحى باللائمة على ما حدث فى مجمع ريمينى من جانب بعض الأساقفة، وهو يعنى بذلك الرد على ما

أعلنته جوستينا من اعترافها بقانون الإيمان الصادر عن هذا المجمع. ويؤكد أمبروز أنه لا يمكنه عصيان أوامر الإمبراطور ولكنه يعلم أن أكليورسه وشعب كنيسته لن يوافقوه على ذلك ولن يسمحوا له بالحضور، لإيمانهم بأن مشاكل الكنيسة يجب أن تحل داخلها، وبناء على ذلك فإنه على استعداد تام لتقبل أوامر الإمبراطور التى قد تصدر بنفيه وتنفيذها، ولكن ليس قبل أن يتعهد الإمبراطور بعدم تسليم الكنائس إلى الآريوسيين. ولا ينسى أمبروز فى النهاية أن يمن على فالنتينيان بما قام به من أجله مبعوثا إلى ماكسيموس، فى معرض حديثه عن عدم خبرته بما يجرى وراء استار القصر الإمبراطورى، وأنه لم يقدم على ذلك إلا من أجل فالنتينيان نفسه.

ولا شك أن محاولات جوستينا من خلال ولدها لإعادة السيادة إلى الآريوسية قد تحطمت تماماً أمام عناد أمبروز وتمسكه بالنيقية، والاتجاه العام فى الإمبراطورية الذى جرى به ثيودوسيوس لإقرار هذه الصيغة للإيمان.

وليس أصدق من الوقوف على آراء الأسقف الميلانى أمبروز، وفكره الكنسى عن العلاقة بين الدولة والكنيسة، باعتباره إرهاصاً بما سيكون عليه الحال فى العصور الوسطى الرئيسية من بعد، عندما يحتدم الصراع سافراً بين البابوية والإمبراطورية فى الغرب، على العكس تماماً مما كان حادثاً فى الشطر الشرقى على امتداد الزمن بالإمبراطورية الرومانية فى شكلها وثيابها البيزنطية، نقول.. ليس أصدق على التعبير عن هذا كله من أن نورد هنا هذه الرسالة التى بعث بها أمبروز إلى فالنتينيان الثانى حول المسألة الآريوسية، وما تضمننته من أفكار وآراء فى هذا السبيل الذى عرضنا له، كتب أمبروز يقول:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الرحيم والأوغسطس المبارك فالنتينيان" :

"دعانى دلماتيوس Dalnatius النوتارى، بناء على أوامركم كما أكد لى، وطلب إلىّ اختيار عدد من القضاة كما فعل أوكسنتيوس من قبل ولم يعين لى أسماء أولئك الذين يطلبهم، ولكنه أضاف أن هناك نقاشاً يدور فى المجلس المنعقد لمناقشة بعض الأمور الكنسية، وأن قراركم سوف يحسم هذا الجدال.

"وحول هذه النقطة بالذات أعتقد أنى قد أعددت رداً معقولاً، لا يمكن لأحد أن يتهمنى بالعصيان إذا ما رحت أؤكد أن أباكم طيب الذكر لم يجب حول هذا الموضوع بمجرد كلمات من فيه، بل أكدها بقوانينه قائلاً: "إنه فى الأمور التى تتعلق بالإيمان أو النظام الكنسى فإنى سوف أقاضى فقط من ثبت، عجزه أو عدم صلاحيته، فهذه تعاليم الكتاب، ولذا كانت رغبته أن يختص الأكليروس بمعالجة الأمور التى تهم رجاله، بل فوق هذا وذاك، أنه إذا ما اتهم أسقف فى مسائل أخرى وكانت المسألة الأخلاقية متضمنة فيها، فقد كانت رغبته أيضاً واضحة فى أن تحال هذه القضية إلى حكم الأساقفة.

"من ذا الذى إذن تراه يعصى رحمتكم؟ هل الذى يرغب فى أن تتشبه بأبيك، أو ذاك الذى يريدك أن تخالفه؟ إلا إذا كان قرار ذلك الإمبراطور العظيم يبدو عند البعض غير ذى قيمة، مع أن الإمبراطور قد أفصح عن صدق إيمانه بجدية اعترافه [١٤]، وتجلت حكمته واضحة فى جهوده المستمرة من أجل ازدهار الدولة.

"أيها الإمبراطور الرحيم متى سمعت أن العلمانيين قد أصدروا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم، إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس، أو نعطى إلى آخرين ما عهد الله به إلينا، وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقش العلمانى، وليصغ رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك.. ولكن مع كل ذلك فالذى لا شك فيه أننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، **فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه فى مسائل الإيمان، وأكررها.. فى مسائل الإيمان، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة، وليس هؤلاء قضاة أولئك.**

---

(١٤) الإشارة هنا إلى عمل من الأعمال التى تمجد فالنتينيان الأول، ذلك أنه بينما كان يقوم على خدمة الإمبراطور جوليان فى معبد الهة الحظ Fortuna أقدم أحد المشاركين على نثر الماء المقدس عليه، فما كان من فالنتينيان إلا أن لكمه بقبضته قائلاً أن هذا الماء يدنس من يلمسه أكثر مما يطهره!! وهذه واحدة من الروايات العديدة التى يضمها كتاب التاريخ الكنسى لسوزومنوس الراهب الغزاوى، والتى تتناول المشاعر العامة لدى المسيحية تجاه الإمبراطور جوليان، انظر: SOZOM. Hist. eccl. VI 6.

"ولسوف تبلغ بفضل الله سن النضوج الكامل، وعندها سوف تقرر أى نوع من الأساقفة يمكن أن يسلم حقوق الأكليروس إلى العلمانيين. لقد اعتاد أبوك، الذى أوتى الحكمة بفضل الله، أن يقول: ليس مما يدخل فى دائرة اختصاصى أن أقضى بين الأساقفة.. ولكنك الآن تقول: يجب أن أقضى بينهم. وبينما كان والدكم، رغم أنه تعمد فى المسيح، يعتقد أنه ليس أهلاً لتحمل عبء مثل هذا القضاء، فكيف تبيح لنفسك وأنت لم تنل بعد لنفسك سر العماد، ادعاء حق القضاء فيما يتعلق بأمور الإيمان، رغم أنك مازلت تجهل سر ذاك الإيمان.

"وبمقدورى أن أتصور أى نوع من القضاة يقع عليهم اختياره مادام يخشى حتى الآن نشر أسمائهم. ألا فليأتوا إلى الكنيسة، وليستمعوا مع الجموع لا إلى أى شخص يجلس فى مقعد القاضى، بل إلى ذاك الذى يجب أن تختبر فطرته، ويختاروا أيهما أحق بالاتباع. أن المسألة تخص أسقف تلك الكنيسة وحده، فإذا ما أصغى الناس إليه واعتبروه خير من يصلح للحوار، فليتبعوه، ولن تتملكنى الغيرة ولو للحظة.

"ولقد أسقطت من قولى أن الجموع نفسها قد نالت حقها فى إعطاء قرارها، وصمت عن الحقيقة الذائعة بأنهم قد التمسوا من أبيك من هو الآن راعيهم(١٥). وسكت تماماً عن وعد أبيك من أنه إذا ما ارتضى ذلك الذى اختير للأسقفية هذا الاختيار، فلسوف تشهد الأسقفية هناك الأمان والسلام.. وها أنا الآن أتخذ سبيلى بمقتضى الإيمان بهذه العهود.

"ولكن إذا ما راح هذا يتباهى باستحسان بعض الغرباء له، فليكن إذن أسقفاً لأولئك الذين ظنوا أنه يجب أن يحمل لقب الأسقف، ذلك أنى لن أعترف به أسقفاً أبداً ولا هو أنى جاء.

"وكيف نقر أيها الإمبراطور أمراً، أصدرت أنتَ فيه بالفعل حكمك، بل وسنت له القوانين(١٦)، ترى هل يجوز لأحد من بعد أن يرى فيه عكس ما رأيت؟ ولا ريب فأنت عندما تضع للآخرين قانوناً، فإنك بالتالى تسنه لنفسك أيضاً، ذلك أن

---

(١٥) يشير أمبروز إلى مسألة اختياره.

(١٦) وهو القانون الذى صدر فى صالح الآريوسيين والذى يسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية، وكان هذا بتأثير من جوستينا. SOZOM. Hist. Eecl. VII 13

الإمبراطور هو أولى الناس باتباع القوانين التى يصدرها . وبعد، فهل تريدنى أن أخمن كيف يمكن لهؤلاء الذين اختيروا قضاة، أن يتصرفوا بصورة مخالفة لقرارتك؟ أو علي الأقل يقدمون اعتذارهم معللين ذلك بأنهم لا يستطيعون الوقوف ضد مثل هذا القانون المجحف أو الصارم الذى أصدره الإمبراطور؟

"ولكن هذا سوف يعد خروجاً على القانون، وليس عملاً يصدر عن إنسان يعرف قدره. ولكن ألا ترى أيها الإمبراطور أن ما ظننته إلغاء جزئياً لقانونك، إنما هو فى حقيقته إلغاء للقانون كله لأنى لا أتمنى أبداً أن يعلو قانونك فوق قانون الله، ذلك أن القانون السماوى يعلمنا ما يجب اتباعه، أما القوانين الوضعية فلا توقفنا على شيء من ذلك. فهذه تبتغى التغيير بدافع الخوف، ولكنها لا يمكنها أن تلهم الإيمان.

"من تراه إذن قادراً على أن يعلن منفرداً أو وسط جماعته فى وجه الإمبراطور، أنا أرفض مشيئتك؟ وذلك عندما يقرأ أن الأوامر قد صدرت بأن من يتصدى للإمبراطور سوف تحتز رأسه، وأن من يبغض معبد الرب سوف يلقى عقوبة الموت. لقد حرم على رجال الدين أن يقولوا ذلك، فهل ترى أحداً من العلمانيين على ذلك بقادر؟ وهل يقف إلى جانب الإيمان من يؤمل فى حسن الجزاء أو يخاف سوء المنقلب؟

وأخيراً.. أتراني إذا استطعت الإقدام على اختيار علمانيين لمناصب القضاء، فمن ذا الذى يمكن، إذا ما أيد هؤلاء صدق إيمانهم هم، أن يتعرض للنفى أو الإعدام، حيث أن القانون قد جاء فى صالح قوانين الإيمان. وهل يمكننى بعد ذلك أن أعرض بهؤلاء الرجال سواء بالتنكر للإيمان أو باستحقاقهم العقاب؟

"ويمضى الأسقف قائلاً...

"إن أمبروز ليس على قدر من الأهمية كبير بحيث يمكنه الحط من شأن الكهانة من أجل مصلحته الخاصة، ولا تمثل حياة فرد قيمة ما بالقياس إلى كرامة كل الأكليروس الذى من خلال مشورته أعطيت تلك التوجيهات، خاصة عندما أبلغونى أنه من المحتمل أن يتم اختيار نفر من الوثنيين أو اليهود عن طريق أوكسنتيوس، بحيث يصبح من الممكن إعلاء قدرهم على قدر المسيح إذا ما عهدت

إليهم بمعالجة أمور تخص المسيح. أى شيء إذن يمكن أن يدخل السرور على قلوبهم أكثر من رؤية المسيح يهان؟ أى شيء يمكن أن يغمرهم بالسعادة إلا أن تنكر ألوهية المسيح؟ لقد أعلنوا بكل وضوح اتساقهم مع ذلك الآريوسى الذى ينادى بأن المسيح مجرد مخلوق وهو الشيء يبدى الوثنيون واليهود استعدادهم الكامل للاعتراف به.

"ولقد تقرر هذا من قبل فى مجمع ريمينى ، والحق أنى أعلنت بغضى لهذا المجمع، معلناً اتباعى لإيمان نيقية الذى لا يمكن أن ينتزعنى منه موت أو سيف، ذلك الإيمان الذى ارتضاه وآوى إليه كل من أبيكم والإمبراطور الورع ثيودوسيوس، ولقد آمن الغال بهذا المعتقد وكذا أسبانيا، وحافظوا عليه مع الاعتراف الصادق بالروح القدس.

"وإذا كان هناك أى شيء تجب مناقشته، فقد تعلمت أن يتم ذلك داخل الكنيسة كما كان يفعل أسلافنا. وإذا كان لابد من عقد اجتماع لمناقشة أمر يتعلق بالإيمان فمن الأحرى أن يتولى ذلك مجمع الأساقفة، كما جرى العرف به زمن قسطنطين، الأمير الممجد الذكر، الذى لم يصدر أى قانون مسبق، بل ترك القرار الفصل للأساقفة[١٧]، وهكذا فعل قسطنطيوس طيب الذكر، الذى ورث عن أبيه المجد والكرامة. وما حدث فى البداية انتهى بصورة مغايرة تماماً وإلى الأفضل، ذلك أن الأساقفة وقعوا أولاً مرسوماً للإيمان صادقاً، فلما أغرى بعضهم بمناقشة بعض الأمور المتعلقة بالإيمان داخل القصر، تصوروا أن تلك القرارات التى صدرت عن الأساقفة سوف تتغير وتستبدل تحت وطأة الخوف، غير أنهم سرعان ما شجبوا تلك الصيغة الزائفة، والأمر الذى لا شك فيه أن غالبية أعضاء مجمع ريمينى قد ارتضوا قانون الإيمان النيقى وأدانوا الصيغ الآريوسية.

"ولو افترضنا أن أوكسنتيوس قد التجأ إلى مجمع محلى بغية مناقشة نقاط تتعلق بالعقيدة "وأن كان من غير الضرورى اثقال كواهل الأساقفة وازعاجهم من

(١٧) لا شك أن ما يقوله أمبروز هنا بعيد عن الحقيقة، ذلك أن قسطنطين ساق الأساقفة فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ على حد تعبير يوسيبيوس للتوقيع على قانون الإيمان بعد الإضافات التى أدخلت عليه، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الخامس.

أجل رجل واحد، حتى لو كان ملكاً قد هبط من السماء، وذلك أنه ليس من الواجب تفضيله على سلام الكنيسة، فإني عندما أعرف هذا، فإنى أعلن أنا الآخر رفضى لذلك. فلتقدم إذن على إلغاء القانون إذا ما كانت الرغبة تحدوك فى إثارة الجدل.

"ولسوف أمثل بنفسى أيها الإمبراطور إلى مجمعك الأسقفى، ولسوف أقدم هذه الملاحظات فى حضرتك، إذا ما سمح لى أكليروسى أو رعيتى، ولكنهم يعلنون أن الأمور التى تخص العقيدة يجب أن تعالج فى الكنيسة وفي حضرة شعبها.

"وإن الأمل ليحدونى أيها الإمبراطور أن لا تصدر قراراً بنفيي إلى حيث أريد أننا، فأنا أتغرب كل يوم ولا أحد يحرسنى، بل أفضل أن تحدد أنت لى المكان الذى تريده لى منفى، فلقد أعددت نفسى لكل الاحتمالات، غير أن الأكليروس يخاطبنى الآن قائلاً: "ليس هناك خلاف كبير فى أن تترك مذبح المسيح بمحض اختيارك أو أن تسلمه، لأنك إذا ما هجرته فإنك بالتالى تخون عهده.

"ولعلى أود فقط أن يكون مؤكدا لى أن الكنيسة لن تخضع بصورة ما للآريوسيين، عندها سوف أقدم نفسى بملء إرادتى لتكون طوع إرادتك. وإذا كنت وحدى فقط المتهم بإثارة الفوضى، فلماذا إذن هذه الأوامر الخاصة بغزو كل الكنائس الأخرى؟ إن كل ما أتمناه أن لا يُعكِّر صفو سلام الكنائس، وبعدها لن أفزع لأى حكم قد يصدر ضدى.

"والآن.. أرجو أن تتعطف أيها الإمبراطور فتقبل العذر الذى من أجله لم أستطع القدوم إلى هذا الاجتماع الكنسى، فلم يعرف عنى أبداً أنى حضرت مثل هذه الاجتماعات إلا من أجلك فقط [١٨]، وليست لدى القدرة على الجدال داخل جدران القصر، فأنا لا أعرف ولا حتى أرغب فى معرفة ما يجرى وراء أستار هذا القصر" [١٩].

على هذا النحو راح أمبروز ينافح عن النيقية فى الغرب، أما فى النصف الشرقى" فإن الإمبراطور ثيودوسيوس حرص على أن يضمن لها السيادة، ومن ثم

(١٨) يشير هنا مرة أخرى إلى خدماته السياسية التى قام بها من أجل الإمبراطور.
(١٩) AMB. Ep. XXXI

فقد وجه الدعوة على الفور لعقد مجمع في القسطنطينية يضم كل أساقفة. الأقاليم الواقعة تحت سلطانه، خاصة وأن جماعة "الماكيدونيين" التى دخلت فى اتحاد مع "الهومويوسيين" (أنصاف الآريوسيين) فى أوائل عهد الإمبراطور فالنتينيان الأول، قد عادت من جديد تحاول إثبات وجودها مرة أخرى على المسرح العقائدى، وذلك فى الفترة التى خلا فيها عرش القسطنطينية من إمبراطور يعتليه. وكان ماكيدونيوس Macedonius الذى اشتقت الطائفة منه اسمها، هو أحد رجالات الآريوسية في القسطنطينية، ولم يلبث أن أصبح أسقفاً للعاصمة بعد وفاة يوسيبيوس النيقوميدى سنة ٣٤١، واستمر في منصبه حتى عام ٣٤٦ ثم عزل منه على أثر الضغط الذى تعرض له الإمبراطور قسطنطيوس من قبل أخيه قنسطانز، للعفو عن النيقيين وعلى رأسهم الأسقف السكندرى أثناسيوس. غير أنه لم يلبث أن عاد إلى كرسيه عام ٣٥١ عقب مقتل قنسطانز وانفراد قسطنطيوس بالإمبراطورية، وظل يتربع على كرسى العاصمة حتى تم اقصاؤه عام ٣٦٠ بعهد أن رفض التخلى عن إيمانه بالهومويوسية، عقيدة أنصاف الآريوسيين، والقائلة بالتشابه فقط، وهى التى غدت المسيحية الحكومية كما علمنا من قبل.

ولما كان ماكيدونيوس ينتمى إلى أنصاف الآريوسيين فكرا، وهم الذين لم يبتعدوا كثيرا عن آراء آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، مؤسسى الآريوسية الأصلية، فقد راح يعمل فكره أيضاً فى مسألة الأقنوم الثالث، وهو الروح القدس، ووجد قانون الإيمان النيقى يقدم له السبيل إلى ذلك. فالقانون النيقى لم يكن صيغة جامعة مانعة، ولكنه جاء رداً فقط على الآراء الآريوسية، وجاء تجميعاً يضم إيمان كنيسة قيسارية فلسطين، والعبارات التى أضافها الإمبراطور قسطنطين بوحى من مستشاره للشئون الدينية هوسيوس القرطبى، مما جعل الإمبراطور يتوهم أنه جمع الشرق والغرب على كلمة سواء، حتى يجنب دولته شراً مستطيراً، ولذا فتح الباب على مصراعيه أمام هذا الجدل اللاهوتى الذى ثار من حول الأقنوم الثانى، الإبن. ولما كان هذا القانون لم يتضمن شيئاً صريحاً وتفصيلياً عن الروح القدس، سوى عبارة "ونؤمن بالروح القدس" فإن ماكيدونيوس، متأثراً بالفكر الآريوسى عن خلق المسيح، قال هو الآخر بخلق الروح القدس، وشايعه نفر ليس باليسير، خاصة

الأسقفيات الواقعة فى منطقة الهللسبونت، وعرفوا بـ "الماكيدونيين" ونعتهم خصومهم من النيقيين بـ "المجدفين على الروح القدس" "أو أعداء الروح القدس" Pneumatomachi ولئن كان الماكيدونيون قد عادوا فانضموا إلى أصولهم الأولى، أنصاف الآريوسيين، إلا أنهم عادوا الآن سيرتهم، وميزوا أنفسهم ثانية بالماكيدونيين، بعد أن أيقنوا أن شمس الآريوسية إلى أفول، من أجل هذا كانت الماكيدونية من أهم الموضوعات العقيدية التى طرحت على بساط البحث فى مجمع القسطنطينية.

دعا ثيودوسيوس أساقفة الكنائس الخاضعين لسيادته لعقد هذا المجمع، وفى مايو ٣٨١ توافد على القسطنطينية مائة وخمسون أسقفاً يمثلون مختلف الكنائس الشرقية، ولم يحضره أحد من أساقفة الكنيسة الغربية لا بصفتهم الشخصية، ولا بممثلين عنهم، وكذلك كان الحال مع الأسقف الرومانى داماسوس[٢٠]. وان كان البعض يحاول أن يجعل من أسقف روما الداعية الرئيسى لهذا المجمع، ويستندون فى ذلك إلى الرسالة التى بعث بها داماسوس إلى ثيودوسيوس [٢١]. غير أن هذه الرسالة تتعلق بمجمع آخر عقد بالقسطنطينية فى السنة التالية (٣٨٢). ومن اليسير دحض هذه الدعوى على اعتبار أن الأسقف الرومانى ننفسه لم يحضر هذا المجمع بشخصه أو حتى بمندوبين عنه، كما أن الأساقفة الذين شهدوا المجمع لم يكن من بينهم أحد من الأكليروس الغربى، يضاف إلى ذلك أن داماسوس يخضع من الناحية الرعوية للإمبراطور جراتيان ، ومن ثم فليس من حقه كنسيا أن يوجه الدعوة لعقد مجمع يضم أساقفة اكنيسة الشرقية يعقد فى القسطنطينية. وفوق كل هذا فإن القضايا المطروحة أمام المجمع كانت تخص الشطر الشرقى فى جوهرها، وكان من أهمها الإجهاز على الآريوسية، وصورتها الجديدة المتمثلة فى الماكيدونية. والغرب لا يعانى بطبيعته من هذا الصراع. ويحسم هذا الأمر ما جاء على لسان الأساقفة فى رسالتهم التى بعثوا بها إلى ثيودوسيوس عند انتهاء أعمال المجمع، فقد جاء فى ديباجتها: "تلبية لدعوتكم التأم فى القسطنطينية جمعنا"[٢٢].

---

(٢٠) THEOD. Hist. Eccl. V. 7, 8.

(٢١) Hefle, op. cit. II p. 342; Percival, The seven ecumenical councils, p. 162.

(٢٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

وقد أدت سمة المجمع على هذا النحو إلى إثارة الجدل حول كونه مسكونياً. غير أن هذه القضية حسمت من البداية لصالح المجمع، بإدخاله فى عداد المجامع المسكونية السبعة التى تعترف بها الكنيسة الشرقية، وإذا كان ثيودوسيوس، كما يقول Hefele قد أراده من البداية مجمعاً عاماً، خاصاً بأساقفة الشرق وحدهم، ولم يرده مسكونياً[٢٣]. فإن الكنيسة بعامة قد اعتبرته المجمع المكسونى الثانى، بعد المجمع الأول الذى التقى فى نيقية عام ٣٢٥ على عهد الإمبراطور قسطنطين، بل إن هذا المجمع الأخير نفسه لم يكن يضم بين أعضائه البالغ عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً إلا ثمانية أساقفة فقط من الغرب، لم يكن الأسقف الرومانى أحدهم. ومع ذلك فقد اعتبر أول المجامع المسكونية. ولعل الأمر فى نظرنا يتعلق بمسألة العقيدة، إذ أن المجمعين اتفقا على قضية واحدة هى إدانة الآريوسية والتصدى لها، وذلك مما يدعم وحدة الكنيسة الجامعة. ومن الجدير بالذكر أن المجامع المكسونية الخمسة الباقية، والخاصة بالكنيسة الشرقية، كانت تضم فقط أساقفة الشرق، خاصة بعد أن زادت الهوة اتساعاً بين الشرق والغرب، فى أعقاب سقوط ولايات النصف الغربى من الإمبراطورية فى أيدى الجرمان، وقيام دويلات جرمانية مستقلة هناك[٢٤].

وفى الرسالة الصادرة عن مجمع القسطنطينية فى عام ٣٨٢، والموجهة إلى داماسوس، يصف أساقفة هذا المجمع، الذى عقد فى السنة السالفة، بالمسكونية [٢٥].. وعلى الرغم مما لقيته القرارات التنظيمية الصادرة عن المجمع من إعراض من جانب بابوات روما، ليو الأول (٤٤٠-٤٦١) وجريجورى الأول (٥٩٠-٦٠٤) واعتراف كنيسة روما فقط بقانون الإيمان الذى اتفق عليه المجمع، إلا أن تسميته

(٢٣) Hefele, op. cit. II p. 342.

(٢٤) تجدر الإشارة إلى أنه كان هناك رسل لأسقف روما فى المجمع المسكونى الرابع الذى التأم عقده فى خلدونية سنة ٤٥١، أما فى المجمع المسكونى الخامس الذى عقد سنة ٥٥٥ على عهد الإمبراطور جوستنيان فى القسطنطينية، فإن الأسقف الرومانى فيجليوس كان موجودا بالعاصمة آنذاك، لا لحضور المجمع، ولكنه جيء به منذ عام ٥٤٨ بأمر من جوستنيان وبقى سجيناً فى العاصمة. انظر: Jones, L.R.E. I pp. 219-221, 296-298.

(٢٥) THEOD. Hist. Eccl. V 9.

بالمجمع المسكونى الثانى بقيت علماً على قوانينه ، ولقيت قبولاً فى أنحاء العالم المسيحى [٢٦].

وقد حضر المجمع عدد من رجالات النيقية الشهيرين، مليتيوس الأنطاكى، وتيموثى السكندرى[٢٧]. Timothius وكيرللس Cyrillus الأورشليمى، وجلازيوس Gelasius أسقف قيسارية فلسطين، وأسخوليوس Ascholius أسقف سالونيك، وهللاديوس Helladius أسقف قيسارية الكبادوك الذى خلف باسل الكبير، وجريجورى النازيانزى أسقف القسطنطينية، وجريجورى النيساوى، وبطرس أسقف سيواس Sebaste وأمفيلوخيوس Amphilochius أسقف قونية Iconium وأوبتيموس Optimus أسقف انطاكية بيسيديا، وديودوروس Diodorus الطرسوسى، وبلاجيوس Pelagius أسقف اللاذقية Laodicea ويولوجيوس Eulogius الرهاوى، وأكاكيوس Acacius أسقف حلب Beroea وايزيدور Isidore أسقف Cyrus فى سوريا وغيرهم [٢٨]. وفى الوقت ذاته حرص ثيودوسيوس على دعوة الماكيدونيين، مؤملاً ضمهم إلى صفوف النيقية، بينما حرص الماكيدونيون على حضوره بصورة أشد رغبة فى كسب عدد من الأساقفة الآخرين إلى جانبهم، وكان عددهم ستة وثلاثين أسقفا معظمهم من الهللسبونت، وعلى رأسهم اليوزيوس Eleusius أسقف كيزيكوس Cyzicus على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة Marmora ومارقيان أسقف لامبساكوس Lampsacus [٢٩].

ويبدو أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد بذل – على حد قول سقراط [٣٠]. مع أساقفة المجمع، جهداً كبيراً لإقناع الماكيدونيين بالعدول عن آرائهم والعودة إلى دائرة الإيمان النيقى، خاصة وإنهم، كما أوضح لهم المجمع، كانوا قد دخلوا قبل

---

(٢٦) عن الخلافات التى أثيرت حول مسكونية المجمع راجع.
Hefele, op. cit II pp. 370-374; Percival, op. cit. p. 162.

(٢٧) كان بطرس أسقف الإسكندرية قد مات فى أوائل عام ٣٨١ قبل انعقاد المجمع، وقد أدى ذلك إلى وصول وفد مصر برئاسة تيموثى الأسقف الجديد، إلى المجمع متأخراً.

(٢٨) SOCRAT. Hist. Eccl. V8; SOZOM. Hist. Eccl;. VIII 7; THEOD. Hist. Eccl. V8

(٢٩) SOCRAT. Loc. Cit.; THEOD. Loc. cit

(٣٠) SOCRAT. Loc. Cit.

ذلك فى شركة النيقية مع ليبيريوس أسقف روما [٣١]. غير أن الماكيدونيين أصروا على موقفهم، وزاد الأمر تعقيداً أن خلافهم مع النيقيين لم يعد قاصراً حول "هوموسية" الابن، بل تعداها إلى "الهوموسية" الخاصة بالروح القدس [٣٢]. ومن ثم فقد انسحبوا من القسطنطينية وكتبوا إلى أنصارهم فى كل منطقة الهللسبونت يطلبون إليهم عدم الدخول فى شركة النيقيين والبقاء على إيمانهم[٣٣]. وقد لعب جريجورى النازيانزى دوراً كبيراً فى هذا الحوار الذى جرى مع الماكيدونيين حول القول بخلق الروح القدس، إلا أن ذلك لم يزدهم إلا تمسكاً بعقيدتهم[٣٤].

وكان أول عمل أقدم عليه المجمع هو اختيار أسقف للقسطنطينية، وقد ناقش المؤتمرون موضوع رسامة ماكسيموس الكلبى السكندرى الذى جرى من قبل بيد بعض رجال الاكليروس المصرى، الذين بعث بهم بطرس أسقف الإسكندرية الراحل، وقد أعلن المجمع رفضه لهذه الرسامة واستنكاره إياها، وأن كانوا لم يروا

---

(٣١) شكل الماكيدونيون وأنصاف الآريوسيين جبهة واحدة، وسعوا لدى فالنتينيان الأول أملاً فى الحصول على تأييده، على النحو الذى بينا فى الفصل الأول. فلما أخفقوا معه عقدوا مجمعاً فى لامبساكوس على الهللسبونت فى خريف عام ٣٦٤، استمرت جلساته شهرين، وقرروا فيه رفض الهوموية "التشابه" والعودة إلى الهومويوسية (التشابه فى الجوهر). ولما حاولوا الحصول على تأييد فالنز، لم يكن حظهم بأسعد منه مع أخيه، بل قام بنفى مندوبيهم. ولذا حاولوا من جديد التقرب إلى فالنتينيان، فشكلوا وفداً من يوستاتيوس أسقف سيواس، وسيلفانوس أسقف طرسوس، وزودوا الوفد بنصائح تدعوه للجوء إلى أسقف روما ليبيروس إذا دعت الضرورة لذلك، والدخول فى شركته إذا لزم الأمر، إذ كانوا يرون فيه لين جانب بعد أن وضع توقيعه على مرسوم سيرميوم الآريوسى، وكان ذلك تحت ضغط من الإمبراطور قسطنطيوس، ولكنه منذ عاد من منفاه وخاصة بعد وفاة قسطنطيوس أعلن جهاراً ندمه على ما قدمت يداه، وتمسكه بالإيمان النيقى. وبالفعل لم يتمكن الوفد من لقاء الإمبراطور، فارتحل إلى روما وقدم للأسقف الرومانى وثيقة إيمان تعلن اعترافهم بالنيقية، ثم اتجهوا إلى صقلية وعقدوا مجمعاً مع أساقفة الجزيرة أكدوا فيه ما سبق أن أعلنوه فى روما. غير أن نفراً من الماكدونيين رفض هذا الاعتراف وظل على ولائه لعقيدته حتى وقعت أحداث المجمع المكسونى الثانى.
راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ص٤٧٩-٤٨١، ص٤٨٧-٤٩٤.

(٣٢) Hefele, op. cit. II p. 348.

(٣٣) SOCRAT. Hict. Eccl. V 8.

(٣٤) GREG. NAZ. Orat. XLI 6-7, 9-12.

ضرورة لتوقيع أية عقوبة على كنيسة الإسكندرية بعد أن مات بطرس. وقد جاء في القانون الرابع الصادر عن المجمع ما نصه "فيما يتعلق بماكسيموس الكلبي، والفوضى التي أحدثها في القسطنطينية، نعلن أن ماكسيموس لم يكن في يوم ما أسقفاً، وليس الآن، وكل من رسمهم، وكل ما تم على يديه باطل"(٣٥). وأعلن المجمع بعد ذلك اختيار جريجوري النازيانزي أسقفاً للقسطنطينية، وذلك بعد جهود كثيرة بذلها الإمبراطور ثيودوسيوس وعدد من الأساقفة في مقدمتهم مليتيوس الأنطاكي الذي كان يترأس الجمع، ذلك أن جريجوري أبدى عدم رغبته في ذلك، غير أنه أمام هذه الجهود لم ير بدا من قبول هذا المنصب، فقام مليتيوس الأنطاكي وعدد من أساقفة المجمع بالاشتراك في إجراءات ترسيمه، وأبدى الإمبراطور ثيودوسيوس استحسانه لهذا الإجراء، ولم يلبث الأسقف الأنطاكي العجوز أن مات، فخلفه جريجوري النازيانزي في رئاسة المجمع(٣٦).

وكان موت مليتيوس فاتحة باب للصراع الذي اندلع في المجمع بحيث لم يتمكن جريجوري من السيطرة عليه، ذلك أن وفاة الأسقف الأنطاكي أثارت من جديد مشكلة الشقاق الحادث في أنطاكية منذ فترة طويلة بين النيقيين الأصليين اليوستاثيين والنيقيين المعتدلين المليتيين. ولما كانت غالبية المجمع تخالف جريجوري النازيانزي الرأي، وتأخذ في الوقت ذاته سبيلاً يزيد من حدة الشقاق في أنطاكية(٣٧). فقد آثر أسقف القسطنطينية ورئيس المجمع الانسحاب بهدوء من جلسات المجمع، بل لقد امتنع عن ممارسة مهام منصبه الكهنوتية، وزاد إصراره هذه المرة على العودة إلى بلدته ثانية. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير وصول وفد كنيسة الإسكندرية تحت رئاسة تيموثي الذي تم اختياره مؤخراً خلفاً لبطرس، ولم يكن تيموثي قد نسي ما حدث من إهانة للإسكندرية على يد رعية جريجوري النازيانزي، عندما أقدموا على طرد مرشح الإسكندرية ماكسيموس، وما كان من أمر تأكيد هذه الإهانة من جانب أساقفة المجمع بقانونهم الرابع

(٣٥) Hefele, op. cit. II p. 359; Percival, op. cit. p. 179.

(٣٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 7.

(٣٧) انظر الفصل الرابع.

واختيارهم لجريجورى أسقفاً للعاصمة. ومن ثم فقد أعلن الوفد السكندرى لحظة وصوله رفضه الموافقة على اختيار جريجورى لكرسى القسطنطينية الأسقفى، وأيدوا فى الوقت ذاته الاتجاه الذى ساد المجمع فيما يتعلق بمشكلة أنطاكية، خلافاً لما كان يرتئيه جريجورى النازيانزى[٣٨]، واحتج الوفد السكندرى بأن ما جرى من اختيار جريجورى يعد خروجاعن القوانين الكنسية التى تحرم انتقال أسقف من كنيسة إلى أخرى، وما جاء بهذا الخصوص فى القانونين الخامس والسادس لمجمع نيقية[٣٩].

غير أن هذه "التصرفات" من جانب الأسقف السكندرى كانت فوق احتمال كثير من الأساقفة "الأجلاء" حضور المجمع، مثل هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وجريجورى النيساوى، وأمفيلوخيوس، وأبتيموس، وديودوروس، وبلاجيوس، ويولوجيوس، وكيرللس وجلازيوس، فعزلوا أنفسهم عن الاكليروس السكندرى وانضموا إلى جانب جريجورى وأعلنوا شرعية اختياره وقوامة رسامته [٤٠]. إلا أن أسقف القسطنطينية بما جبل عليه من لين جانب منذ البداية، ودماثة خلق، آثر الانسحاب وأوصى المؤتمرين باختيار أسقف جديد فى العاصمة، ولم يفلح معه هذه المرة رجاء كثير من أشياعه أو جهود الإمبراطور ثيودوسيوس، الذى لم يجد فى النهاية بدا من الاستجابة لرغبة أسقفه، وودعه برسالة تحمل الاعزاز له والحسرة والأسى على تخليه عن منصبه [٤١]. ويبدى سوزومنوس إعجابه بخلق جريجورى وتعقله بقوله "إن فصاحته وإيمانه لم يدفعانه إلى الغرور والتعالى والتمسك بالأسقفية فى العاصمة"[٤٢]. لكن الذى يدعو للدهشة حقاً أن الكثيرين من صغار الأساقفة يعضدهم نفر من الشيوخ، حضور المجمع، لم يكن موقفهم من جريجورى

---

(٣٨) SOZOM. loc. cit

(٣٩) Hefele, op. cit., I pp. 381-392.

(٤٠) THEOD. Hist. Eccl. V 8.

(٤١) Id.

(٤٢) SOZOM. Hist. Eccl. VII 7. وقد عاد جريجورى إلى بلدته نازيانزا يرعى شئون الكنيسة بها ، حتى تم اختيار يولاليوس Eulaius أسقف لها، فانسحب إلى أريانوس Ariansus حتى مات فى عام ٣٩١. انظر Nicene and p. n. f. VII pp. 198-199.

يتفق ومكانته وسعة معرفته وعلمه، ولذا أبدوا على الفور ترحيبهم باستقالته، بل وربما سعادتهم واغتباطهم بذلك[٤٣]. ودخلوا مباشرة فى إجراءات اختيار أسقف جديد للعاصمة خلفاً له. ويبدو أنهم كانوا يكنون له الحقد لمكانته العلمية ومعرفته اللاهوتية التى تتضاءل إلى جوارها أشخاصهم، بالإضافة إلى موقفه المعارض لهم بخصوص النزاع الأنطاكى، وتأنيبه إياهم لمحاولاتهم توسيع هوة هذا الشقاق. وكانت هذه هى السمة التى سادت كثيراً من فترات النزاع الكنسى خلال تلك القرون، فلم تكن مسألة العقيدة إلا رداءً يستتر به الأساقفة فقط، بينما كانت معظم صراعاتهم حول مصالح شخصية بحتة، وما حدث فى مجمع نيقية ليس عنا ببعيد، عندما أقدم قسطنطين على احراق كل شكايات الأساقفة ضد بعضهم بعضاً، بعد أن هاله حجمها، وانصراف رجال الدين عن مناقشة أمور العقيدة إليها!!

والمتتبع للتاريخ الكنسى يدرك للوهلة الأولى أن ما فعله الأسقف السكندرى تيموثى لم يكن سابقة ولا غريباً عن سلوك أساقفة الكنيسة السكندرية تجاه القسطنطينية طوال القرون من الرابع إلى السابع، فبطرس الذى خلف أثناسيوس كان هو الذى دفع ماكسيموس الكلبى إلى إحداث هذه الاضطرابات التى تحدثنا عنها منذ قليل فى القسطنطينية، بغية القفز على عرشها الأسقفى، وتيموثى يواصل الآن سقيا غرس زرعه سلفه، فلما وجد الأبواب موصدة أمام اعتلاء صنيعته ماكسيموس كرسى العاصمة الأسقفى، سعى جهده كى يهز قوائم هذا الكرسى تحت من يعتليه، اللاهوتى الكبادوكى الأشهر.. جريجورى النازيانزى، خاصة وأن هذا كان صاحب شهرة ذائعة فى مجال الدراسات اللاهوتية لم يستطع الأسقف السكندرى تيموثى ساعتها أن يدانيه فيها، وسوف نشهد من بعد ما سوف يفعله رجل الإسكندرية "ثيوفيلوس" Theophilus مع رجل القسطنطينية "يوحنا ذهبى الفم" Ioannes Chrysostomus فى مطلع القرن الخامس الميلادى، وما كان من أمر "كيرللس" Cyrillus السكندرى مع "نسطوريوس" Nestorius بطريرك العاصمة الإمبراطورية فى ثلاثينيات القرن نفسه، وما حدث فى سبعينيات هذا القرن أيضاً إبان الصراع المحتدم بين الإمبراطورين "زينون" Zeno و"باسيلسكوس"

(٤٣) SOZOM. Hist. VII 7; Hefele, op. cit. II p. 347.

Basiliscus من محاولات الأسقف السكنندرى عزل الأسقف القسطنطينى وترسيم واحد من رجالات الإسكندرية بدلاً منه!! وغير ذلك من الوقائع كثير!!

خلاصة القول إن العلاقات بين القسطنطينية والإسكندرية طوال القرون من الرابع إلى السابع ، لم تكن طيبة فى يوم من الأيام.. فالأسقف السكندرى كان يعتبر نفسه أعلى كعباً فى "التقدمة" و"الفكر اللاهوتى" من قرينه القسطنطينى، ولم يذهب من مخيلة بطاركة الإسكندرية أبداً أنهم زحزحوا عن المرتبة الثانية التى كانوا يحتلونها بعد الأسقف الرومانى، فى عداد الكنائس الرسولية، وأن هذه "الإزاحة" التى تعرضوا لها جاءت من جانب أباطرة القسطنطينية إعلاء لمكانة كرسى العاصمة الإمبراطورية الأسقفى، وكان المجمع المسكونى الثانى، نعنى مجمع القسطنطينية الذى نحن بصدده الآن، هو أول المجامع التى "قننت" هذه الإزاحة كنسياً، وأعطتها الصفة "الشرعية" من وجهة النظر الإمبراطورية والأكليروسية، لذا لم يكن غريباً أن يمثل كرسى القسطنطينية الأسقفى غصة فى حلق أساقفةالكرسى السكندرى، وليس هنا مجال الخوض فى تفصيلات هذا الصراع الكنسى، لأننا سوف نخصص جزءاً كاملاً من موسوعة "الدولة والكنيسة" هذه لمناقشة تلك القضية الشائكة، والتى شغلت الكنائس الرسولية حتى القرن السابع الميلادى، ولكن الذى يعنينا الآن التأكيد على أن ما فعله بطرس وتيموثى السكندريان ورجلهما ماكسيموس، كان السمة البارزة لسياسة بطريركة الإسكندرية تجاه بطريركية القسطنطينية على امتداد أربعة قرون من الزمان.

وقد جاء القانون الثانى الصادر عن هذا المجمع، نعنى مجمع القسطنطينية المسكونى، خاصا بهذه المسألة، فقد ساوى فى عبارة واحدة بين كل من بطرس السكندرى وما أحدثه من اضطراب فى العاصمة بتأييده رسامة ماكسيموس الكلبى، ومليتيوس الأنطاكى لانتقاله من أسقفيته إلى القسطنطينية للمشاركة فى رسامة جريجورى النازيانزى، وهذا الأخير لقبوله الرسامة أسقفاً للعاصمة وهو يشغل كرسى أسقفية أخرى من قبل، ولذا فقد صدر القانون الثانى على هذا النحو: "لا يجوز للأساقفة أن ينتقلوا إلى أسقفيات أو كنائس خارج دائرة رعايتهم، ولا أن يحدثوا الاضطرابات فى كنائس. ومن ثم فلأسقف الإسكندرية تبعاً لما جرت به

القوانين، السيادة على كنائس مصر، ولأساقفة الشرق حق رعاية أمور الشرق فقط، ولتبق امتيازات كنيسة أنطاكية التى ذكرت فى قوانين المجمع النيقى كما هى(٤٤). ولأساقفة الأقاليم الآسيوية السيادة على أقاليمهم، ويدبر الأسقف البونطى أمور بونطس وحدها، والأساقفة التراقيون شئون تراقيا، ولا يسمح لأى أسقف أن ينتقل من إقليمه من أجل رسامة أسقف لكنيسة أخرى أو أى أعمال كنسية ثانية إلا بناء على دعوة، ويجب أن يراعى القانون الخاص بالأسقفيات، وليكن واضحاً أن مجمع كل إقليم عليه تدبير شئون الأقليم كما تقرر ذلك فى نيقية. أما الكنائس الأخرى داخل أراضى البرابرة فسوف ترعى طبقاً لما جرى به العرف الذى ساد منذ أيام الآباء الأول(٤٥).

وعلى الرغم من أن الإمبراطور أوصى المجتمعين بمراعاة صالح الكنيسة والعقيدة عند اختيارهم للأسقف الجديد، إلا أن الأساقفة انقسموا على أنفسهم لأن كلا منهم. على حد تعبير سوزومنوس – كان يود أن يكون أسقف العاصمة من بين أنصاره(٤٦). وقد امتلأت قائمة المرشحين بالعديد من الأسماء ثم أضيف فى نهايتها بإيعاز من ديودوروس الطرسوسى أسم محافظ القسطنطينية نكتاريوس Nectarius فلما قدمت القائمة إلى الإمبراطور ليختار بنفسه من يريد، أشار باختيار هذا الشخص الذى أضيف اسمه مؤخراً، ولما لم يكن قد تلقى بعد سر المعمودية، فقد جرى على الفور تعميده، وأجريت مراسم سيامته أسقفاً للعاصمة وأصبح رئيساً لمجمع القسطنطينية(٤٧).

---

(٤٤) SOCRAT. Hist eccl. V 8; THEOD. Hit. Eccl V 8 وينص القانون السادس لمجمع نيقية "يتمتع أسقف الإسكندرية بحق الإشراف على، ورعاية كنائس مصر وليبيا والمدن الخمس الغربية، كما جرى بذلك التقليد القديم، ويراعى هذا الحق أيضاً بالنسبة لأسقف روما وأسقف أنطاكية كل فيما تحت سيادته". انظر: Hefele, op. cit. I pp. 388-404; Percival, op. cit. pp. 15-16, 178-179.

(٤٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

(٤٦) SOZOM. Hist. Eccl. VII 8.

(٤٧) SOCRAT. Hist. Eccl . V 8; THEOD. Hist. Eccl. V 8.

واختيار شخص علمانى، يشغل منصب محافظ المدينة، وليس عنده ربما إلا قدر ضئيل من المعرفة اللاهوتية[٤٨]، لا يمكن أن يكون قد حدث هكذا اعتباطاً. فسوزومنوس نفسه الذى يسوق قصة اختيار نكتاريوس بشىء من الطرافة، يعلق على ذلك قائلاً: "لقد كان حدس البعض أن الإمبراطور أقدم على هذا الاختيار بتوجيه من السماء، ومع اعتقادى أن الأمور لا يمكن أن تجرى دون تدخل السماء، إلا أنى فى هذه الحالة بالذات لا أستطيع أن أقرر إن كان هذا الحدس صادقاً أم به شىء من الكذب"[٤٩]. والذى لا شك فيه أن الإمبراطور ثيودوسيوس قد أدرك للوهلة الأولى أن الأمور فى المجمع لا تشير إلى شىء من التفاؤل، وأن نفوس الكثير من الأساقفة تنطوى على مطامع بعيدة المدى حول القفز على كرسى العاصمة الأسقفى، أو اختيار أحد الأشياع لهذا الفريق أو ذاك. وقد وضح جلياً فى موقفهم من جريجورى النازيانزى، وخلافهم حول المسألة الأنطاكية، ولعله اتضح أيضاً من هذه القائمة المليئة بأسماء المرشحين، ولابد أن يكون المؤتمرون قد فشلوا فى التوصل إلى الاتفاق حول شخصية بعينها كما طلب إليهم الإمبراطور ذلك، ولهذا رأى أن يحسم الأمر بنفسه، وأن يكون على رأس هؤلاء المجتمعين شخصية قوية، تدعمها سلطة الإمبراطور ونفوذه، حتى يمكن أن يتجه سفين المجمع إلى شاطىء الأمان. ولذا لا نستبعد أن يكون ديودور قد أوعز بوضع اسم نكتاريوس فى نهاية قائمة المرشحين بتوجيه من الإمبراطور نفسه. خاصة وأن سوزومنوس يذكر أن الإمبراطور لم يصغ لأصوات الاحتجاج التى ارتفعت واهنة عندما علم أن المرشح الجديد لم يكن قد عمد بعد. ويضيف سوزومنوس "ولم يجد الجميع بدا من الانصياع لأوامر الإمبراطور". وهذه العبارة الأخيرة وحدها دليل كاف على ما كان يرمى إليه ثيودوسيوس بعد ما وصلت إليه حال المجمع من الفوضى.

وهكذا لم يلبث المجمع أن توصل إلى اتخاذ قراراته العقيدية وقوانينه التنظيمية. وجاء القانون الأول مصدقاً لما بين يديه من الإيمان النيقى، ولاعنا لكثير من الفرق المسيحية الأخرى مثل اليونوميين (الأنومويين) والآريوسيين وأنصاف الآريوسيين والماكيدونيين وغير هؤلاء كثير[٥٠].

---

(٤٨) Vasiliev, op. cit. I p. 81

(٤٩) SOZOM. Hist. Eccl. VII 8..

(٥٠) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist. Eccl. VII 9.

ثم أصدر صيغة لقانون الإيمان تضم وثيقة إيمان نيقية مضافاً إليها ما اتفق عليه المجتمعون حول الروح القدس رداً على الماكيدونيين(٥١).

وقد أصبحت هذه الوثيقة التى عرفت بـ"قانون الإيمان النيقوـ قسطنطينى"، ليس فقط القانون الرئيسى للإيمان، ولكن الركيزة الأساسية والرسمية لكل الفرق المسيحية على الرغم من خلافاتها العقيدية، وغدت أوسع انتشارا بعد إقرار مذهب الطبيعتين فى المسيح فى المجمع المسكونى الرابع الذى عقد فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١(٥٢). وإذا كان قانون الإيمان النيقى بصورته التى صدر عليها باعتباره رداً على الآراء الآريوسية، قد ترك الباب مفتوحاً أمام الفرق المسيحية الأخرى، خاصة الآريوسية، للصراع العقيدى فى محاولة لوضع صيغ بديلة، وسمح بقيام جماعة الماكيدونيين وإذاعة آرائهم حول الروح القدس، فإن صيغة الإيمان التى صدرت عن مجمع القسطنطينية، بما تضمنته عن الروح القدس، كانت هى الأخرى مدخلاً ولج منه الخلاف واحتدم بين كنيستى روما والقسطنطينية فى القرن التاسع على عهد فوطيوس Photius أسقف القسطنطينية، وانتهى إلى الشقاق الأعظم بين الكنيستين فى القرن الحادى عشر (١٠٥٤) بيد البابا ليو التاسع وميخائيل كريولاريوس بطريرك القسطنطينية(٥٣).

---

(٥١) تقول الوثيقة: "نؤمن باله واحد، الآب القدير، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، الابن، المولود الوحيد من الله، مولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر، كل شيء به كان. الذى من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومريم العذراء، وتأنس ثم صلب من أجلنا على عهد بيلاطس البنطى. وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث ثانية كما حدثت بذلك الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب، وسوف يأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات. الذى ليس لملكه انقضاء. وبالروح القدس السيد واهب الحياة. المنبثق من الآب. الذى هو مع الآب والابن معبود وممجد. الناطق بالأنبياء. وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة ورسولية. ونقر معمودية واحدة للتطهير من الخطايا. ونترجى قيامة الموتى والحياة فى الدهر الآتى " انظر:

Percival, op. cit. p. 163; Hefele, op. cit. II p. 350.

(٥٢) Vasiliev, op. cit. I p. 81.

(٥٣) للمزيد من التفاصيل عن الشقاق الكنسى حول الروح القدس، راجع: دكتور اسحق عبيد، روما وبيزنطة، ص ١-١٩ وأيضاً: =

على أن أهم القوانين التى صدرت عن المجمع، والتى تركت آثارها البعيدة على العلاقات الكنسية بصفة خاصة فيما بعد، هو القانون الثالث الذى ينص على أن "يحتل أسقف القسطنطينية التقدمة فى الكرامة بعد أسقف روما مباشرة لأن القسطنطينية هى روما الجديدة"(٥٤). وتبع ذلك تنظيم المناطق التابعة للأسقفيات المختلفة، بحيث أضيفت تراقيا، التى كانت هرقلية حاضرتها ورأس كنائس الإقليم فيها، إلى سيادة أسقف القسطنطينية(٥٥). ومع أن القانون يعترف ضمناً إن لم يكن صراحة بمكانة روما وعلو كعبها، إلا أن كنيسة روما رفضت الاعتراف بهذا القانون، محاجة بأنه خروج على التقليد الكنسى فى ترتيب الأسقفيات، واعتداء على القانون السادس لمجمع نيقية. وقد ظلت روما قروناً طويلة ترفض هذا القانون، وأعلن ذلك صراحة المندوب البابوى لوكنتيوس Lucentius فى الجلسة السادسة عشرة لمجمع خلقيدونية، وعلى نفس الدرب سار البابا ليو الأو وكذا البابا جريجورى الأول. ولم تعترف روما بذلك الوضع إلا بعد أن احتلت القسطنطينية على يد اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤، حيث سمح البابا إنوسنت الثالث Innocent III والمجمع اللاتيرانى الرابع المنعقد فى عام ١٢١٥ بأن تحتل القسطنطينية المرتبة الأولى بعد روما(٥٦).

ولئن كان الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) قد اعترف فى إحدى نوفلاه بمجيء القسطنطينية بعد روما فى المرتبة، إلا أن المؤرخين المتحمسين للقسطنطينية قد فسررا كلمة "بعد" meta التى جاء ذكرها فى القانون بأنها تشير فقط إلى ترتيب زمنى وليس مكانيسا، وهم يشيرون بهذا إلى تأسيس القسطنطينية

Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 105-110; Barry, = the Papal monarchy from st. Gregory to Boniface VIII, pp. 124-129.

(٥٤) SICRAT. Hist. Eccl . V 8.

(٥٥) SOCRAT. Hist. Eccl. V. 8. وتضمن التنظيم، إشراف هللاديوس أسقف قيسارية كبادوكيا على إقليم بونطس بالاشتراك مع جريجورى أسقف نيسا، وكذلك أتريوس أسقف ميليتينا فى أرمينيا. أما أمفيلوخيوس أسقف قونية وأبتيموس البسيدى فقد اختصا بالأقاليم الآسيوية، على حين بسط تيموثى سيادته على مصر والمناطق التابعة لها، وبلاجيوس وديودوروس على كنائس الشرق مع احترام حقوق أنطاكية.

(٥٦) Percival, op. cit. p. 178; Hefele, op. cit. II p. 359 وأيضاً نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٩٨-٩٩.

بعد روما بقرون طويلة، ويرتبون بناء على رأيهم هذا وضع روما والقسطنطينية فى مرتبة واحدة (٥٧).

وإذا كان هذا القانون لا يمس مكانة روما بل على العكس من ذلك يعترف بسمو قدرها ومكانتها، إلا أنه كان بصورة مباشرة لطمة إلى كل من الإسكندرية وأنطاكية. إذ كان على الإسكندرية بمقتضى هذا القانون أن تتخلى كارهة عن مكانتها الثانية بعد روما لتحتلها القسطنطينية ، وكان على أنطاكية بالتالى أن تهبط رغم أنفها عن مرتبتها الثالثة لتستقر عليها الإسكندرية، ولتأتى هى فى المرتبة الرابعة. وكان مجمع نيقية قد وضع الكنائس الثلاث على هذا النحو، روما فالإسكندرية فأنطاكية، واعترف قانونه السابع باحتلال كنيسة بيت المقدس للمرتبة الرابعة مع خضوعها لإشراف قيسارية فلسطين، لذلك كان القانون الثالث لمجمع القسطنطينية المسكونى قلباً لكل هذه الأوضاع وعاملاً رئيسياً فى اشعال نيران الصراع الكنسى بين هذه الكراسى الأسقفية الكبيرة، والتى جرّت وراءها الكنائس الأخرى، فى دوامة الإصطراع من أجل الزعامة، وتلك كانت سمة الجدال بين الكنائس فى القرن الخامس (٥٨).

وقد يكون ما أحدثه مرشح الإسكندرية ماكسيموس الكابى، من اضطرابات فى العاصمة السبب المباشر كما يقول Hefele وراء صدور هذا القانون(٥٩)، إلا أن المتتبع للأحداث منذ تأسيس القسطنطينية يرى أن الأباطرة كانوا حريصين على الارتفاع بقدرها على الكنائس الأخرى. وكان الإمبراطور قسطنطين نفسه أول من أقدم على ذلك حينما استدعى آريوس من الإسكندرية بعد عودته من منفاه، للمثول فى القسطنطينية ليثبت قوامة إيمانه أمام إسكندر أسقف العاصمة الجديدة التى لم يكن عمرها الآن يتجاوز ست سنوات فقط (٦٠). ولا يخفى علينا أيضاً الجهود التى

---

(٥٧) Hefele, Loc. cit.

(٥٨) لن نخوض هنا فى تفاصيل هذا الصراع الذى استمر فى جذوته طيلة النصف الأول من القرن الخامس الميلادى، وظلت ذيوله تسعى لعدة قرون من بعد. وسوف نفرد الكتاب الخامس من الدولة والكنيسة بمشيئة الله لبحث هذا الموضوع.

(٥٩) Hefele, op. cit. II. p. 359.

(٦٠) احتفل بتدشين العاصمة الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠، وكانت جلسة تبرئة آريوس عام =

بذلها كل من الإمبراطور قسطنطيوس وفالنز، من خلال أساقفتهما الآريوسيين، يوسيبيوس النيقوميدى وماكيدونيوس ويودكسيوس وديموفيلوس، على التوالى، لإعلاء شأن القسطنطينية عن طريق فرض عقيدة أسقف العاصمة على الفرق المسيحية الأخرى. وكان العداء من جانب الإمبراطورين تجاه الأسقف السكندرى أثناسيوس، هو فى جوهره عداء مباشرا للإسكندرية، الكنيسة والمدينة، بما لها من ماض عريق وعلو كعب فى ميدان الفكر اللاهوتى المسيحى. ولا شك أن ما يجرى لأسقف القسطنطينية جريجورى النازيانزى، من جانب أسقف الإسكندرية تيموثى، على مرأى من الإمبراطور ومسمع، كان كفيلاً بأن يحرص الإمبراطور على أن لا ينهى المجمع جلساته، إلا بعد أن يرد إلى القسطنطينية اعتبارها وهيبتها.

وفى يوليه ٣٨١ أنهى المجمع جلساته، وبعث برسالة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ضمنها القرارات والقوانين التى اتفق الجميع عليها، وجاء فيها:

"تلبية لدعوتكم التأم فى القسطنطينية جمعنا، وبعد أن أعدنا الوحدة إلى صفوفنا، وضعنا تعريفات مختصرة تؤكد إيمان الآباء فى نيقية، وتدين "الهرطقات" التى ظهرت تناوئه. ومن أجل النظام الكنسى، أصدرنا عدداً من القوانين وألحقنا ذلك كله برسالتنا هذه إليكم. نلتمس الآن أن يتفضل عظمتكم فيؤكد فى رسالة تحمل رحمتكم قرارات هذا المجمع، فكما كرمت الكنيسة برسائل دعوتكم، فلتتعطف الآن بتوقيع هذه القرارات".

وكان طبيعياً أن يستجيب الإمبراطور لرجاء الأساقفة، فأصدر أوامره فى الثلاثين من يوليو بأن "كل الكنائس يجب أن تخضع للأساقفة الذين يؤمنون بوحدانية الألوهية ممثلة فى الآب والابن والروح القدس، وعليها أن تدخل فى شركة نكتاريوس أسقف القسطنطينية وتيموثى أسقف الإسكندرية، وبلاجيوس أسقف الشرق فى اللاذقية، وديودوروس الطرسوسى، وفى آسيا والأقاليم الآسيوية مع أمفيلوخيوس أسقف قونية، وأبتيموس الأنطاكى البيسيدى، وفى بونطس مع هلاديوس القيسارى الكبادوكى، وأوتريوس المليتينى، وجريجورى النيساوى، وفى

=٣٣٦، حيث توفى فى نفس العام. بل فى اليوم نفسه المحدد للمناظرة بينه وبين اسكندر أسقف العاصمة الجديدة!! وبصورة تدعو للارتياب حسب ما يرويه مؤرخو الكنيسة.

موئيزيا وسكيزيا مع ترنتيوس أسقف سكيزيا، ومارتيريوس أسقف مارقيانوبولس وكل من لا يدخل فى شركة هؤلاء وجب طرده من الكنيسة"(٦١).

قرت عينا الإمبراطور ثيودوسيوس بهذا الذى توصل إليه مجمع الأساقفة المسكونى فى القسطنطينية، واستفتح خيراً فى سبيل اقرار العقيدة النيقية، غير أن الغرب الذى لم يشارك من أساقفته أحد فى أعمال المجمع، لم يدع الأمور تسير كما أراد لها إمبراطور الشرق، ولم يتقبل كثيراً مما صدر عن المجمع، ولم يوافق فقط إلا على وثيقة الإيمان. وكان على رأس هؤلاء المعارضين أمبروز أسقف ميلانو، الذى تزعم عدداً من أساقفة اللاتين لمجابهة قرارات المجمع وقوانينه، وكان من بينها موضوع ماكسيموس الكلبى مرشح الإسكندرية. فعلى الرغم من أن جموع القسطنطينية لفظته خارج البيعة والمدينة، وأدان المجمع فعاله، ولم يعترف الأسقف الرومانى داماسوس بصحة اختياره كما جاء فى رسالته إلى اسخوليوس أسقف سالونيك(٦٢)، وهى المدينة التى فر إليها ماكسيموس بعد طرده من العاصمة، إلا أن أمبروز وجماعته أعلنوا فى إصرار وقوفهم إلى جانب ماكسيموس وادعاءاته فى أسقفية القسطنطينية، ورفضوا فى الوقت ذاته الاعتراف بكل من جريجورى النازيانزى ونكتاريوس!!

وقد جاءت هذه القرارات كلها عن مجمع عقد فى أواخر صيف عام ٣٨١ فى أكويليا Aquileia وعلى وجه التحديد فى الثالث من سبتمبر، أى بعد انتهاء أعمال مجمع القسطننطينية بشهر واحد، أو بتعبير أدق بعد وقوف الغرب على قرارات الجمع المسكونى الثانى. ولم تستمر جلسات مجمع أكويليا إلا جلسة واحدة هى التى عقدت فى نفس يوم افتتاحه، ولم يحضر المجمع أسقف روما أو ممثلون عنه. بينما كان أمبروز يمثل الشخصية الرئيسية فى المجمع والداعية إلى عقده والمحرك الأساسى وراء قراراته، وقد طالب المؤتمرون فى النهاية بعقد مجمع عام يضم أساقفة الكنيسة فى الشرق والغرب لبحث مشكلة أسقفية القسطنطينية (٦٣).

---

(٦١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 8; SOZOM. Hist VII 9.

(٦٢) Hefele, op. cit. II p. 359.

(٦٣) كانت فكرة عقد هذا المجمع قائمة منذ أواخر عام ٣٧٨ وأوائل ٣٧٩ عندما كان جراتيان إمبراطورا فرداً بعد مقتل فالنز، ومرد ذلك إلى أن أسقفين من أساقفة الليريا هما باللاديوس Palladius وسكونديانوس Secundianus كانا قد اتهما من جانب بعض أساقفة الغرب بأنهما=

ولا شك يبدو غريباً موقف أمبروز والأساقفة اللاتين على هذه الصورة، فالمشكلة هنا ليست مسألة عقيدية تتعلق باللاهوت وتخص الكنيسة الجامعة، ولكنها مسألة تنظيمية تتصل بالتنظيم الكنسى، وهى من صميم شئون الكنيسة الشرقية وحدها، أو بتعبير أدق، النصف الشرقي من الإمبراطورية، وماكسيموس أدين على يد مجمع عام يضم مائة وخمسين أسقفاً، وأعلن شعب الكنيسة فى القسطنطينية عدم قبوله له أو رضائه عن اختياره الذى دبر بليل، وجريجورى النازيانزى جاء إلى القسطنطينية بدعوة من جماعة النيقيين هناك، ورسم أسقفاً برضاء المجمع وموافقة الإمبراطور، وكذا كان الحال بالنسبة للأسقف الجديد نكتاريوس. وإذا كان جريجورى قد انتقل من أسقفية ليعتلى كرسى أسقفية أخرى خلافاً لما جرى به التقليد الكنسى وأقره المجمع النيقى، كما أذاع الوفد السكندرى، فإن القانون الرابع لمجمع القسطنطينية قد استثنى فقط من ذلك "من توجه إليهم الدعوة" فما الذى ارتآه الأسقف الميلانى أمبروز من الناحية التنظيمية خطأ، حتى يصر على شرعية رسامة من أدين، ويرفض الاعتراف بمن جاءوا إلى الأسقفية بالطريقة الشرعية؟!

وفى صمت المصادر، وقلة المعلومات أو انعدامها، يصبح الأمر شائكاً ومحيراً، ولكنا نحاول أن نتلمس الطريق قدر الجهد. فلعل ماكسيموس قد استطاع خلال وجوده فى سالونيك بعد هروبه إليها، التأثير على أسقفها أسخوليوس، الذى كان أحد حضور المجمع، بعد عودته، وبالتالى التأثير على عدد من الأساقفة اللاتين، ومنهم أمبروز بحيث وقفوا إلى جانبه على هذا النحو، ولم يعلنوا تخليهم عنه إلا العام التالى إبان المجمع الذى عقد فى روما. ولعل أمبروز، شأن أساقفة الغرب جميعاً، كان يضمر العداء لجريجورى النازيانزى، وأبوى كبادوكيا الآخرين معه، لخلاف فى الرأى بين هؤلاء وأولئك حول المشكلة الأنطاكية. فبينما يؤيد لاهوتيو كبادوكيا النيقيين المعتدلين وزعيمهم الراحل مليتيوس، يقف الغرب فى

=على الأريوسية، فلما تقدما إلى الإمبراطور بالتماس لعقد مجمع عام لبحث مسألة هذا الاتهام، أرجئت الفكرة تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية، ثم خضع جراتيان لتأثير الأسقف الميلانى أمبروز وقصر المجمع على أساقفة الليريا والغرب فقط، وكان أمبروز يرمى من وراء ذلك إلى حرمان أسقفى الليريا من تأييد أساقفة الشرق. وقد انتهى الأمر بإدانه الأسقفين وعزلهما، وإن كان الأسقفان رفضا قبول قرار الإدانة وطالبا بعقد مجمع جديد. للمزيد من التفاصيل راجع : Hefele, op. cit. II pp. 375-377.

جانب النيقيين المتطرفين المعروفين باليوستاتيين، والذين كان الأسقف السكندرى الأسبق أثناسيوس يأخذ جانبهم، ومن ورائه الغرب دون معرفة بحقيقة الخلاف وبلا فهم لطبيعة الجدال، وهذا يتضح أيضاً خلال مجمع روما الذى عقد سنة ٣٨٢، كما سيأتى ذكره بعد. ولما كان مليتيوس الأنطاكى من أشد المتحمسين لجريجورى النازيانزى، وهو الذى تولى بالاشتراك مع عدد من أساقفة المجمع المسكونى الثانى، رسامته. أمسى ضرورياً رفض أمبروز الاعتراف بشرعية اختياره. أما نكتاريوس فحاله لا يختلف فى شىء عن أمبروز، فكلاهما كان حاكماً مدنياً قبل أن يلبس الرداء الكهنوتى، وكلاهما لم يكن قد عمد بعد، وكلاهما اختير بطريقة شرعية ورضاء الإمبراطور، ومن ثم فليس من مبرر لموقف أمبروز ضده إلا أن يكون معتبراً إياه مغتصباً لكرسى كان ماكسيموس الكلبى – فى نظره – به أولى!!

وإذا كانت روما قد رفضت الاعتراف بالقانون الثالث، الخاص بإعلاء قدر كنيسة القسطنطينية، فإن أمبروز لم يكن يقل عن أساقفة روما رفضاً لهذا القانون، ولم يكن ذلك ناجماً عن حرص على حقوق كنيسة الإسكندرية أو الكنيسة الأنطاكية، ولكن مؤازرة لروما، حفاظاً على التقليد الكنسى، وتوجسا من ازدياد نفوذ هذه الأسقفية الناشئة فى المدينة التى ما زالت تحبو فى سنى قرنها الأول من عمر الزمن، خاصة وقد امتد نفوذها الآن ليشمل أيضاً تراقياً. وإذا كانت الليريا قد أضيفت سياسياً إلى سيادة إمبراطور النصف الشرقى، فلابد أن ترعاها بالتالى ، ولو بعد حين، كنيسة القسطنطينية.

ولما كان ثيودوسيوس مازال فى بداية عهده، يحاول أن يكون حريصاً على عدم إثارة النصف الغربى من الإمبراطورية، بإمبراطوره وإكليروسه، وهو يعلم تماماً مدى الصداقة التى تربط بين الأسقف الميلانى والإمبراطور جراتيان، بل ويدرك يقينا إلى أى حد يصل تأثير أمبروز ونفوذه فى بلاط الغرب، فقد وجه الدعوة من جديد، استجابة لطلب مجمع أكويليا، لعقد مجمع جديد فى القسطنطينية فى صيف عام ٣٨٢، حضره نفر من أساقفة الشرق لم يكن عددهم يقل عمن ضمهم المجمع المسكونى الثانى فى العام الماضى. وقد دعا الإمبراطور جريجورى النازيانزى لحضور هذا المجمع، غير أنه أعتذر بمرضه، متمنياً لهم التوفيق، وإن

كان قد علق بخيبة أمله فى مثل هذه الاجتماعات(٦٤). وكان الهدف الرئيسى لهذا المجمع هو إرضاء إكليروس الغرب، الذى كان يعقد مجمعاً فى الوقت ذاته فى روما، ذلك أن شيئاً ما جديداً لم يتمخض عنه مجمع القسطنطينية الثانى هذا.

تلقى أساقفة المجمع رسالة من أساقفة الغرب تدعوهم للانضمام إليهم فى روما، غير أن أساقفة الشرق تعللوا بأنهم وطنوا أنفسهم على أساس رحلة قصيرة(٦٥). وقد جاء ذلك فى رسالتهم المجمعية التى بعثوا بها إلى داماسوس أسقف روما، وأمبروز أسقف ميلانو والأساقفة الآخرين المجتمعين فى روما وحملها ثلاثة من بينهم هم سيرياقوس Syriacus ويوسيبيوس Eusebius وبريسكيانوس Priscianus وتضمنت هذه الرسالة وصفاً للاضطهاد والمعاناة التى لقيوها ولقيته معهم كنائسهم على عهد الإمبراطور فالنز، وان كانوا الآن قد دخلوا فى مرحلة الأمان. واحتوت الرسالة أيضاً موجزاً لقانون الإيمان الذى يدينون به ويقولون فيه "لقد تعلمنا أن نؤمن باسم الآب والابن والروح والقدس، بألوهية واحدة وسلطان واحد وجوهر واحد للآب والابن والروح والقدس. وبكرامة واحدة ومجد لا نهائى لأقانيم ثلاثة كاملة، أو ثلاثة شخوص". وأدانوا الآريوسية والماكيدونية واليونومية(٦٦). واختتم الأساقفة رسالتهم بالتأكيد على شرعية اختيار نكتاريوس أسقفاً للقسطنطينية، وذلك استناداً إلى القانون الرابع الصادر عن المجمع السابق والذى يدين ماكسيموس الكلبى. كما تضمنت نهاية الرسالة أيضاً اعترافهم بشرعية رسامة فلافيان Flavianus أسقفاً لأنطاكية. وكان قدر جرى اختياره على يد أتباعه فى أنطاكية بعد أن علموا بنبأ وفاة مليتيوس وصدق على ذلك الوفد الأنطاكى فى المجمع(٦٧)، وبقية الأساقفة.

---

(٦٤) GREG. NAZ. Ep. CXXXV.

(٦٥) THEOD. Hist. Eccl. V 9.

(٦٦) Hefele, op. cit. II p. 379 وقد جرى الاعتقاد خطأً بنسبة هذا الاعتراف إلى المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، والدليل على ذلك ما جاء فى خاتمة اعترافهم من القول بأن "الكثير من التفاصيل حول هذا الأمر "التجسيد" يقف عليه الأخوة اللاتين من رسالة العقيدة.. التى أصدرها المجمع العام المنعقد فى القسطنطينية فى السنة السابقة".

(٦٧) كان الوفد الأنطاكى برئاسة مليتيوس يضم خمسة وستين من رجال الأكليروس فى فلسطين وفينيقيا وسوريا والعربية والرها وما بين النهرين والفرات وكيليكيا وايزوريا. انظر دكتور أسد رستم – كنيسة أنطاكية. الجزء الأول. ص٢٥٥ وله أيضاً الروم الجزء الأول، ص٩٣.

وكانت خاتمة الرسالة بالذات هى التى تنحصر فيها أهميتها وأهمية المجمع بصفة عامة ، نعنى اطلاع الغرب على أن ما تم اتخاذه بشأن ماكسيموس لا خطأ فيه، وأن إعلان ننكتاريوس أسقفاً قد تم بطريقة قانونية. وكان أساقفة الغرب يعقدون مجمعهم فى روما عندما جاءهم وفد القسطنطينية، وعلى رأس المجمع كان داماسوس، ويضم أمبروز، الذى حال المرض بينه وبين متابعة بعض الجلسات، وبريتون Britton أسقف ترير (Augusta Treverurum) وأسخوليوس أسقف سالونيك وأنيموس Anemius أسقف سيرميوم Sirmium والقديس جيروم Hieronimus وباولينوس Paulinus أسقف النيقية المتطرف فى أنطاكية، والمندوبين الثلاثة رسل مجمع القسطنطينية.

ولا شك أن وجود أسخوليوس فى هذا المجمع، يؤيد وجهة النظر التى ذكرناها من قبل، فيما يتعلق بإمكانية نجاح ماكسيموس السكندرى فى استمالته إلى قضيته بعد عودته من مجمع القسطنطينية. كما أن مشاركة باولينوس الأنطاكى أيضاً لها دلالتها الهامة الخاصة بمعاداة الغرب للأسقف الأنطاكى الراحل مليتيوس وخليفته فلافيانوس. وكانت أهم القضايا التى ناقشها المجمع مسألة الآراء الأبوللينارية[٦٨]، وإدانتها. وقد قام جيروم بوضع صيغة اعتراف للإيمان كان على الأبوللين‍اريين توقيعها إذا ما رغبوا فى العودة إلى شركة الكنيسة [٦٩].

إلا أن المجمع وافق مؤخراً على ما جاء به أساقفة الشرق، وأعلن أساقفته تخليهم عن قضية ماكسيموس الكلبى، واقتناعهم بشرعية رسامة نكتاريوس أسقفاً

(٦٨) تنتمى هذه الطائفة إلى أبولليناريوس Apollinarius الذى كان أسقفاً لكنيسة اللاذقية خلال النصف الأخير من القرن الرابع، ولمتدحه باسل الكبير الكبادوكى لقوامة إيمانه، ولم يكن أثناسيوس السكندرى أقل امتداحاً له من صديقه اللاهوتى الشهير. وقد تلقى جيروم بعض تعليمه على يديه سنة ٣٧٤، غير أنه ما لبث أن جهر بآراء حول طبيعة المسيح، تعترف باللاهوت فيه فقط، مما كان بابا ولج منه المنافزة من بعد. ولعل هذا جاء منه رداً على الأريوسيين الذين غلّبوا الناسوت فى المسيح. وقد أدين أبولليناريوس وحرم على يد مجمع روما الذى عقد سنة ٣٧٧ وأرسل داماسوس رسالة تحتوى على خمس وعشرين أناثيما ضده، إلى باولينوس أسقف أنطاكية. راجع GREG. NAZ. Epp. CI, CII

(٦٩) Chadwick, op. cit. p. 148

للقسطنطينية، ولعلهم أرادوا مقابلة روح المودة التى جاءهم بها أساقفة مجمع القسطنطينية الثانى، خاصة وأن ماكسيموس موضوع الخلاف قد أضحى غير ذى بال، بعد أن استقر الأمر فى القسطنطينية لنكتاريوس. لكن المجمع مع ذلك إذا كان قد أرضى إخوة الشرق فى جزء مما جاءوا به، فإن المشكلة الرئيسية التى تباعد بينهما ظلت قائمة، حيث رفض مجمع روما الاعتراف بفلافيانوس أسقف أنطاكية الجديد، بل زاد على ذلك أن أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى، وأشرك معه فى هذا الحرم ديودوروس الطرسوسى وأكاكيوس الحلبى، اللذين قاما بإتمام إجراءات سيامته [٧٠]. وهكذا ظلت المشكلة الأنطاكية، كما كانت دائماً عاملاً هاماً فى ازدياد الهوة والتباعد، ضمن عوامل أخرى عديدة، بين أكليروس الشرق والغرب.

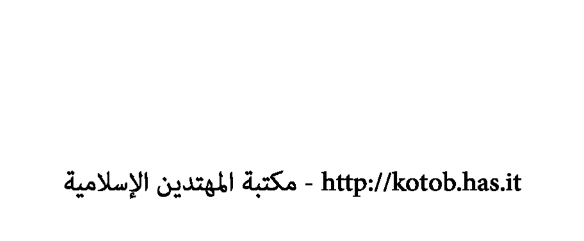
وكان مجمع روما، وفى حضرة رسل الشرق، فرصة حرص عليها الأسقف الرومانى وأمبروز والأساقفة اللاتين، لإظهار غضبهم وسخطهم على القانون الثالث الصادر عن المجمع المكسونى الثانى، فأعلنوا "أن الكرسى الأول هو كرسى بطرس الرسول الذى به ترتبط الكنيسة الرومانية، لم يقارف البتة إثما"، وأكدوا وضع أسقفيتى الإسكندرية وأنطاكية فى المرتبتين التاليتين مباشرة، استناداً إلى النظم الكنسية التى استقرت وسادت. ولم يكن بمقدور رسل الشرق إلا أن يقدموا احتجاجاً واهنا، بالعودة إلى ديارهم بعد أن حصلوا على أهم أمر من أجله جاءوا، وهو ما يتعلق بنكتاريوس. وقد أبدى الأسقف الميلانى أمبروز تأييده الكامل ومؤازرته لأسقف روما والمجمع فى هذا القرار [٧١]. وظل خلال أسقفيته الطويلة يبدى احترامه الكامل لروما وإعجابه، محاكياً فى ذلك الآباء الأول الذين عبروا عن هذا الاحترام بقولهم: "حيثما كان بطرس.. الكنيسة تكون" [٧٢].

---

(٧٠) SOZOM. Hist. Eccl. VII, 11.

(٧١) Glesser, Middle Ages in the West, pp. 20-21.

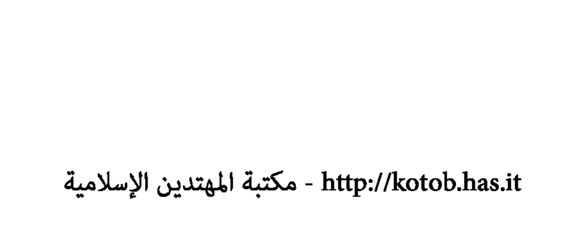
(٧٢) Barry op. cit. p. 31.





الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق



الفصل الثالث

الشقاق الكنسى فى الشرق

يمثل عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧) فترة فريدة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، تميزت بسياسة التوازن والحلول الوسطى، والإمبراطور يسير دفة الأمور بكل الحذق والمهارة، مسيحياً فى سياسته، وثنيا فى نظرته، نيقياً مع الجموع، فإذا حزب الأمر آريوسيا، يضم بلاطه مستشارين من كل هؤلاء الأضداد ويموج بشتى الفكر. فالقادة العسكريون ورجال السياسة والإدارة والاقتصاد من الوثنيين. وهوسيوس القرطبي، رئيس أساقفة المجمع المسكونى الأول، والنيقى المتعصب، مستشار الإمبراطور للشئون الدينية. وفى الطرف الآخر نجد يوسيبيوس النيقوميدى الآريوسى العنيد، صديقاً للإمبراطور. وبين هؤلاء وأولئك يقف الأسقف القيسارى يوسيبيوس.. شيخ مؤرخى الكنيسة الذى لم يؤيد النيقية جهاراً، ولم يهاجم الآريوسية صراحة، مداح الإمبراطور، استخلصه قسطنطين لنفسه، فإذا هو لديه مكين أمين. وهكذا جمع الرجل فى بلاطه الأبيض والأسود، والنار والجليد.. دون أن يطغى أحدهما على الآخر.. فلما مات، اختلط الحابل بالنابل، وأذابت النار الجليد، فلم تخلف إلا الوحل!

وطوال ربع قرن (٣١٢-٣٣٧) وقسطنطين يمسك من الوسط عصا التسيار يحرك بها كل هذه الجماعات فى ذكاء وحذر، فهو يدين الدوناتيين فى ولاية أفريقيا من مقامه فى ميلانو سنة ٣١٦، لأنهم أدينوا بيد مجمعين كنسيين فى روما ٣١٣، وآرل ٣١٤، ويستخدم العنف ضدهم، حتى إذا قوى ساعد الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة، عفا عن الدوناتيين وحث الكاثوليك على اتخاذ مواقف معتدلة معهم ومتسامحة. وهو يخاطب اسكندر وآريوس السكندريين فى البداية ، يدعوهما إلى المصالحة، ويطلب إليهما فض هذا الخلاف اللاهوتى "التافه"، "العقيم" وترك هذا "الحمق الصبيانى". ثم ينتصر لمجمع نيقية والنيقية وينفى زعماء الآريوسية، حتى إذا آنس من جانب النيقيين تعالياً، عده غطرسة وغرورا، أعاد آريوس وصحبه من المنفى، وقبل منهم ودون الرجوع إلى الكنيسة، وثيقة إيمانهم، وقرب إليه يوسيبيوس أسقف نيقوميديا، وعزل ونفى أساقفة النيقية وفى مقدمتهم يوستاتيوس

Eustathius الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى، فلما استشعر القوة من جانب الآريوسيين، اتجهت نيته إلى السماح لأسقف الإسكندرية بالعودة إلى بيعته، إلا أنه قضى نحبه، وبقى الأسقف ينتظر، ولم يطل به فى المنفى مكثه فعاد بإرادة ولد الإمراطور وسميه، قسطنطين الثانى واتفاق الأخوة الأباطرة.

إلا أن هذه السياسة وإن كانت قد حفظت السلام الظاهرى بين الوثنية والمسيحية وبين الفرق المسيحية وبعضها طيلة حياة الإمبراطور، وأفاد هو منها فى السيادة الكاملة على كل هذه الاتجاهات المتباعدة المتصارعة، وإن كانت قد أرهقت منه الفكر والجهد. غير أنه بموت قسطنطين، وافتقار أولاده الثلاثة لشىء من صفاته وذكائه، انفرط هذا العقد الفريد، وراحت هذه الفرق جميعها تتلاقى متلاطمة. وفى تعبير رائع يصف المؤرخ الكنسى سقراط هذه الحال قائلاً "... ومع الأيام، وعبر مدائن الشرق كلها، راحت الفتن والمهاترة تسود، وأمسى النظام إلى فوضى، وكل شأن إلى السوء سار"(١).

وكانت أنطاكية إحدى ضحايا هذه السياسة بعد وفاة قسطنطين، وبالتالى ضحية لهذا الصراع الفكرى الذى دار بين النيقيين وأنفسهم، والآريوسيين وبعضهم، وهؤلاء وأولئك جميعاً. وضاعف من حدة المواجهة، ذلك المركز الممتاز الذى تتمتع به أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق الرومانية، وقصبة سوريا، وصاحبة المدرسة اللاهوتية الشهيرة لتفسير الكتاب المقدس، باستاذها لوقيانوس، وتلميذيها آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى، وفيلسوفها الوثنى الأشهر ليبانيوس، وغير هؤلاء ممن بعد هذه الفترة التى نتناولها هنا، يأتون. أجمل ذلك كله هذا الفيلسوف فى عبارة واحدة "مدينة لا كغيرها من المدن"(٢).

---

(١) SOCRAT. Hist. Eccl. II 22.

(٢) يتغنى ليبانيوس بجمال أنطاكية وتفوقها فيقول "هل نستطيع أن نذكر مدينة واحدة تستحق أن تقارن بهذه ؟ فإلى جانب كونها أسعد حظاً من أقدم المدن، فهى أكبر حجماً من بعض المدن الأخرى، وهى تفوق بعض المدن فى نبل أصلها، ومدنا أخرى فى أرضها المعطاء. قد تفوقها مدينة واحدة (القسطنطينية) بأسوارها، ولكنها أعظم من هذه فى وفرة مائها، واعتدال شتائها، وتهذيب أهلها، وطلبها للعلم. وهى أجمل من المدينة التى تفوق تلك حجماً (روما) بسبب أجمل الأشياء وهى التربية والأدب الهيللينيين. انظر داونى، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة دكتور ألبرت بطرس، ص٣٧، ٩٩-١٠٠.

بدأت المشكلة الأنطاكية بخلاف عادى فى الرأى شائع الحدوث فى ذلك الحين، طرفاه يوستاتيوس أسقف المدينة، ويوسيبيوس شيخ مؤرخى الكنيسة وأسقف قيسارية فلسطين، يصفه سقراط بأنه كان "نزاعاً فى ظلام، لأن أحداً من الفريقين لم يحاول فهم موقف الآخر أو الأسس التى يعتمد عليها، سببه الرئيسى عبارة، "من نفس جوهر الآب"[٣]. Homoousius التى كانت الركيزة الأساسية التى دار من حولها قانون الإيمانن النيقى، ولم يلبث يوسيبيوس أن رد التهمة وأذاع فى الناس أن يوستاتيوس ليس إلا سابلليا[٤]. ونتيجة لسوء الفهم المتبادل – على حد قول سقراط – كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدواً لدوداً[٥].

انتهز الآريوسيون الفرصة، وعلى رأسهم يوسيبيوس النيقوميدى الذى تزعمهم بعد عودته من المنفى، وعلى أثر الهدوء الذى آوى إليه آريوس، حتى عرفت الجماعة باسمه فدعيت باليوسابيين، وعزموا على أن يحققوا لأنفسهم كسباً يردون به اعتباراً لهم فقدوه فى نيقية سنة ٣٢٥. ولما كانوا يعلمون مدى تعصب يوستاتيوس للنيقية، ومدى قرب يوسيبيوس إلى قلب الإمبراطور ، وأنه فى عقيدته لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فقد صمموا على الإطاحة بأسقف أنطاكية لتجد فيها الآريوسية مجالها، ففيها تلقى آريوس ويوسيبيوس النيقوميدى تعليمهما، وتشرب الزعيم الآريوسى فيها مبادئ دعوته، ومن ثم فهى بالآريوسية أولى.

وبموافقة الإمبراطور وفى سنة ٣٣٠ تم عقد مجمع فى أنطاكية نفسها، انتهي بالانتصار ليوسيبيوس، وبالإدانة ليوستاتيوس وحرمانه من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه، وصدق قسطنطين على ذلك، وأضاف إليه نفى الأسقف الأنطاكى إلى تراجانوبوليس Traganopolis فى تراقيا[٦]. فكسب الآريوسيون بذلك أرضاً وجولة، وأذل الإمبراطور شيئاً ما كبرياء الجماعة النيقية. ويعلق سقراط "لقد كان

---

(٣) SOCRAT. hist. Eccl. I 23.

(٤) السابللية نسبة إلى سابلليوس Sabellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais إحدى المدن الخمس الغربية، نادى فى القرن الثالث بأن الأقانيم الثلاثة ليست منفصلة، ولكنها صورة مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث. وقد تصدى للرد عليه آنذاك أسقف الإسكندرية ديونيسيوس.

(٥) SOCRAT. loc. cit.

(٦) SOZOM. Hist. Eccl. II 19; THEOS. Hist. Eccl. I 20; HIER. Vir. Ill. 85.

هذا أمراً شائع الحدوث، يأتيه الأساقفة متى عن لهم ذلك، يسوقون الدعوى ضد الخصوم متهمين أنهم ضد ضلوا سواء السبيل، أما وقائع الدعوى، أما الأدلة فلا موجب لها، وليس إليها من سبيل(٧).

ومنذ هذا التاريخ انتبذ النيقيون مكاناً قصياً فى انطاكية، أو بتعبير آخر نُبذوا وحدهم بعد أن سادت الآريوسية المدينة والإمبراطورية على عهدى قسطنطيوس وفالنز، ومنذ أضحت أنطاكية مقام الإمبراطورين لفترات ليست بالقصيرة من عهديهما لمجابهة التحديات الفارسية. وانقسمت أنطاكية الكنيسة والمدينة على نفسها بين الآريوسيين والنيقيين، وازدادت بمرور السنوات حدة التوتر بين الفريقين، وإن كان أحد أساقفتها الآريوسيين وهو ليونتيوس(٨). Leontius الذى اعتلى كرسيها الأسقفى عام ٣٤٤، قد تمكن بدهائه وفطنته أن يجمع حوله كلا الخصمين ممثلين فى ديودوروس Diodorus وفلافيانوس Flavianus وهما من النيقيين العلمانيين، إلى جوار شماسه وفتاه آيتيوس Aetius الآريوسى المتطرف(٩)، وتمكن بذكائه من أن يسترضى جميع الأطراف، حيث كان يردد دائماً عبارته الشهيرة "إذ ذاب الجليد فلن يخلف إلا الوحل"(١٠).

وقد غرقت أنطاكية بالفعل فى هذا الوحل بعد وفاة ليونتيوس، إذ لم يلبث خلفه يودوكسيوس Eudoxius، الذى لم يمض فى أسقفية أنطاكية أكثر من عامين (٣٥٨-٣٦٠)، أن انتقل إلى كرسى القسطنطينية، وأقدم الآريوسيون سنة ٣٦١ على اختيار مليتيوس Meletius الذى كان أسقفاً لسيواس ثم حلب، وقد اعتبره الفريق الآريوسى أحد أنصاره، بعد أن وقع على مرسوم العقيدة الهوموية التى

---

(٧) SOCRAT. Hist. Eccl. I 24.

(٨) توالى على أسقفية انطاكية بعد عزل يوستاثيوس عدد من الأساقفة كلهم من الآريوسيين من بينهم يولاليوس Eulalius ثم فلاكيللوس Flacillus ثم يوفرونيوس Euphronius الذى شهد مجمع التدشين سنة ٣٤١، ثم اسطفانوس Stephanus الذى حضر مجمع فيليبوبوليس Philippolis فى تراقيا سنة ٣٤٣. ولم يلبث أن عزل فى نفس العام ليخلفه ليونتيوس.

(٩) THEOD. hist. eccl. II 9

(١٠) SOZOM. hist. eccl. III 20.

غدت تمثل الآريوسية الحكومية ولها السيادة فى أواخر عهد قسطنطيوس[١١]، على النحو الذى قدمنا.

ويبدو أن الأسقف الجديد حاول أن ينهج سبيل سلفه الأسبق ليونتيوس، غير أن الزمن لم يكن الآن فى صالحه، ففى أربعينيات القرن الرابع، كانت الإمبراطورية تتقاسمها الآريوسية فى الشرق والنيقية فى الغرب، الأولى يناصرها قسطنطيوس، وقنسطانز يعضد الثانية. وكان إمبراطور الشطر الشرقى يخشى أخاه، خاصة بعد ظروف الحرب السيئة التى كان يخوضها ضد فارس، والهزائم التى لقيها على أيدى القوات الفارسية، إلى الحد الذى رضخ فيه لأوامر أخيه حين سمح بإعادة أساقفة النيقية، الذين كان قد نفاهم، إلى كراسيهم الأسقفية. أما فى الستينيات من ذاك القرن، فقد تبدل الحال غير الحال، حيث غدا قسطنطيوس الإمبراطور الفرد غداة انتصاره على قاتل أخيه ماجننتيوس Magnentius عام ٣٥١، وأصبحت الآريوسية هى صاحبة السيادة فى شطرى الإمبراطورية، حتى ولو كان ذلك من الناحية النظرية فقط فى النصف الغربى.

غير أن مليتيوس لم يدرك هذه الحقيقة، حين أراد أن يكون معتدلاً. إذا أنه حاول أن ينأى بنفسه عن هذا المعترك اللاهوتى، فتحاشى بادئ ذى بدء الخوض فى المسائل العقيدية وخص بالمسائل الأخلاقية عظاته. غير أن الآريوسيين فطنوا إلى ما يعتمل فى نفس أسقف أنطاكية الجديد، فضيقوا عليه الخناق، خاصة جورج أسقف اللاذقية الذى كان يعتبر نفسه أحق بكرسى أنطاكية من مليتيوس، وأكاكيوس أسقف قيسارية فلسطين، تلميذ يوسيبيوس وخلفه، والأمين الآن على الهوموية التى كانت من بنات أفكاره. فاضطر مليتيوس أمام مضايقاتهما أن يكشف عن خبئ صدره، فراح يبشر الجموع بالنيقية، وإن كان قد أغفل مصطلح "الهوموسية". وعليه، سعى الآريوسيون بالنبأ إلى قسطنطيوس، فأصدر على الفور قراره بعزله من الأسقفية، ولم يكن قد مضى على رسامته أكثر من شهر واحد، وأمر بنفيه إلى أرمينيا، وتم اختيار يوزيوس Euzius صديق آريوس ورفيق دعوته ومنفاه[١٢].

---

(١١) SOCRAT. hist. eccl. II 4' THEOD. hist. eccl. II 27.
SOCRAT. hist. eccl. II 44; SOZOM. hist. eccl. IV 22.

(١٢) THEOD. hist. eccl . II 24.

هكذا دخلت أنطاكية ولفترة طويلة من الزمن، فى دوامة الشقاق العقيدى يتنازعها الآريوسيون وعلى رأسهم يوزيوس، وأتباع مليتيوس وهم يمثلون النيقيين المعتدلين، والنيقيون القدامى أو المتطرفون، الذى عرفوا باليوستاتيين نسبة إلى زعيمهم يوستاتيوس الأسقف الأنطاكى الذى عزل من قبل على يد الإمبراطور قسطنطين، وهؤلاء رفضوا الدخول فى شركة مليتيوس ودعيته، بحجة أنه رسم على يد الآريوسيين وأن أتباعه عملوا بواسطتهم، واختاروا من بينهم باولينوس Paulinus ليكون لهم أسقفاً وزعيماً.

وكان يوزيوس حريصاً على أن لا يلتقى الفريقان النيقيان حتى لا يشكلا على سلطانه الآريوسى خطورة قد تودى به، وبصفة خاصة بعد موت الإمبراطور قسطنطيوس واعتلاء جوليان العرش، والذى كشف عن عدائه وازدرائه للمسيحية وسعى خلال عهده القصر ليبعث إلى الحياة عقيدة الإمبراطورية القديمة، الوثنية. ولما كان النيقيون المعتدلون يشكلون الأكثرية النيقية فى أنطاكية فقد حاول استمالة الأقلية المتطرفة، لا إلى عقيدته، ولكن إلى صفه، ابتغاء تعميق هوة الشقاق بينهما، فسمح لهذه الأقلية اليوستاتية أن تمارس طقوسها فى إحدى الكنائس الصغيرة داخل المدينة، بينما حرم ذلك على الآخرين.

لم يطل المقام بمليتيوس فى المنفى، فعاد مع غيره من الأساقفة الذين نفاهم قسطنطيوس، بناء على المرسوم الذى أصدره جوليان، والذى كان يهدف من ورائه أن يقتتل المسيحيون وأنفسهم ليمهدوا بأيديهم تحقيق رغبته فى العودة إلى الوثنية، بعد أن تأكل المسيحية نفسها بأيدى أبنائها، ولما وجد الصورة على هذه الحال، فقد رفض الدخول فى هذه المناورة التى يتبعها يوزويوس، وآثر أن ينسحب برعيته خارج أسوار المدينة ليؤدى لهم مهام الخدمة الكنسية(١٣).

وكان الأسقف السكندرى أثناسيوس من بين من عادوا إلى بيعهم، وجذبته إلى دوامتها أحداث الشقاق الأنطاكى، فانتهز فرصة عقد مجمع الإسكندرية، الذى التأم فى عام ٣٦٢ بناء على دعوته، وضم واحداً وعشرين أسقفاً لبحث قضية هذا

(١٣) SOCRAT. hist. eccl. III 9; SOZOM. hist. eccl. V 9.

الشقاق، ولما كان أثناسيوس صديقاً حميماً للأسقف الأنطاكى القديم يوستاتيوس، فإنه كان يميل إلى مناصرة أشياعه، إلا أنه آثر إلى حد ما جانب الاعتدال، وإن كان بما لايضر بمصلحة الفريق الذى يؤيده، ورغبته فى أن يضم المسيحيون صفوفهم لمواجهة هذا الخطر الماثل فى جوليان ومحاولته إعادة الوثنية، وللتصدى أيضاً للآريوسيين فى أنطاكية وزعيمهم يوزيوس. ومن هنا جاءت رسالة المجمع التى كتبها أثناسيوس وبعث بها إلى الأنطاكيين Tomus ad Antiochenos دعوة صريحة إلى المصالحة بين الفريقين، وإن كانت قد طلبت من مليتيوس وأتباعه الدخول فى شركة باولينوس(١٤).

إلا أن جهود المجمع السكندرى ذهبت سدى من جراء الموقف الذى وقفه لوكيفريوس Luciferius أسقف كاليارى Cagliari (فى سردينيا) وكان قد نفى عام ٣٥٥ إلى مصر على يد قسطنطيوس عقب معارضته لقرارات مجمع ميلانو المنعقد فى نفس العام والخاصة بادانة أثناسيوس، وقد شاركه قدره زميله يوسيبيوس أسقف فرسالى(١٥) Vercellae وقد اتفقا فى طريق عودتهما من المنفى أن يتجه الأخير إلى الإسكندرية للمشاركة فى مجمعها، على حين يرحل لوكيفريوس إلى أنطاكية ليبحث عن حل للشقاق فيها، إلى أن يأتيه قرار المجمع السكندرى. غير أن الأسقف السردينى كان نيقياً متطرفاً، شديد المقت للآريوسية، وكان من الطبيعى أن يأخذ جانب اليوستاتيين المتطرفين، ولذا فإنه لم يتوان حالة وصوله إلى أنطاكية، فقام برسم باولينوس Paulinus أسقفاً على أنطاكية (١٦). فدعم من جانبه أسباب الشقاق بين النيقيين وأنفسهم، ولذا لم يكن أمام يوسيبيوس الفرسالى، الذى جاء من الإسكندرية إلى أنطاكية يحمل رسالة المجمع، إلا أن يحرث فى البحر وهو يحاول البحث عن حل لرأب هذا الصدع، وأن يغود إلى بيعته ملتزماً الصمت احتراماً لزميلــه لوكيفريوس، مظهراً الأسى لما حل بالنيقية فى أنطاكية.

---

(١٤) ATHANAS. Tomus ad Antiochenos, 3-4.
(١٥) SOCRAT. hist. eccl. III 6, 9; SOZOM. hist. eccl. V 12; Chadwick, op. cit. pp. 140, 147.
(١٦) THEOD. hist. eccl. III 2.

وقد حاول أثناسيوس هذه المحاولة مرة ثانية علي عهد الإمبراطور جوفيان، أى بعد عام فقط من انعقاد مجمع الإسكندرية، منتهزاً فرصة وجوده فى أنطاكية للقاء الإمبراطور. ويصف سوزومنوس جهود أثناسيوس هناك بأنها كانت "فى حدود الممكن"[١٧]. ولم يكن "الممكن" هذا يتعدى إطار صداقة الأسقف السكندرى لأسقف اليوستاتيين. والغريب أن كلا الأسقفين راح يوسع بيديه شقة الخلاف. فمليتيوس قبل فى شركته أكاكيوس أسقف قيسارية وأتباعه الذين تحولوا الآن على عهد جوفيان إلى النيقية بعد أن رأوا مناصرة الإمبراطور لأتباعها، فأدى هذا العمل بالتالى إلى زيادة نفور أثناسيوس منه دون سبب واضح. بينما أقدم باولينوس على رسم أسقف لكنيسة صو يدعي ديودوروس Diodorus فاعتبر مليتيوس ذلك اعتداء على حقوقه باعتباره أسقف أنطاكية الشرعى وزعيم الأغلبية النيقية، والذى له الحق القانونى فى اختيار أساقفة هذه المناطق. ومن هنا يمكننا إدراك فحوى العبارة التى ذكرها المؤرخ الكنسى سوزومنوس تعليقاً على جهود أسقف الإسكندرية فى أنطاكية، ويبين لنا أيضاً أنه لم يستطع أن يحقق أى نجاح لتضييق هذا الصدع، خاصة لموقفه الواضح المؤيد تماماً لباولينوس اليوستاتى.

إلا أن الحظ ابتسم قليلاً لليوستاتيين عندما أقدم الإمبراطور فالنز على نفى مليتيوس باعتباره يمثل الأغلبية النيقية، التى تشكل خطراً على أسقفه الآريوسى فى أنطاكية، يوزيوس، وأنزل بأتباعه الذين رفضوا الدخول في شركة الآريوسيين، العذاب الأليم، هذا بينما سمح لباولينوس بالبقاء ولإشياعه بأداء طقوسهم الكنيسة، فلم يكن يرى فيهم خطراً يتهدده إلا من ناحية تحالفهم مع أثناسيوس، وهذه كان قادرا على التخلص منها حينما قام بنفى الأسقف السكندرى.

ولم تكن خطورة الشقاق الأنطاكى تكمن فى تفريق الجماعة النيقية فى المدينة، بل فى امتداده ليشمل كنائس الشرق والغرب معاً. وهذه هى السمة الرئيسية التى صبغت النزاع النيقى فى أنطاكية، ولم تعد المشكلة ممثلة فى الخلاف العقيدي بين النيقيين والآريوسيين، بل بين النيقيين وأنفسهم، وجروا وراءهم فى ذلك أسقفيات عديدة أخرى.

---

(١٧) SOZOM. hist. eccl. VI 5.

فبينما وقفت الإسكندرية تؤيد باولينوس، لصداقة قديمة تربط بين أثناسيوس ويوستاتيوس، ولتقارب كبير بينهما فى الفكر والعقيدة، كان آباء كبادوكيا الثلاثة باسل الكبير أسقف قيسارية، وجريجورى أسقف نازيانزا ومن بعد القسطنطينية، وسميه أسقف نيسا، يناصرون مليتيوس وجماعته النيقية المعتدلة، فهؤلاء كانوا يمثلون جيل النيقية الجديد الحريص على أن ينهل من الثقافة اليونانية، والذى يتسم بالاعتدال والفكر[١٨]. وكانت هذه النقطة بالذات من أهم نقاط الخلاف بين أثناسيوس السكندرى وباسل الكبادوكى رغم الصداقة التى كانت تربط على البعد بين الرجلين، رغم عدم التقائهما. ولما كان الغرب الأوربى قد وصل منذ البداية صفوفه بأثناسيوس منذ جاءه منفيا (٣٣٥) ثم لاثذا (٣٣٩) ورأى فيه تجسيداً للنيقية التى آوى إليها منذ علم ٣٢٥ ولم يبغ عنها حولاً، فقد راح أساقفة الغرب بالتالى يناصرون باولينوس وجماعة اليوستاتيين، دون إدراك حقيقى لمغزى الخلاف أو طبيعته اللاهوتية أو حتى واقعه العملى.

وتفصح الرسائل العديدة التى بعث بها باسل الكبير إلى مليتيوس الأنطاكى عن مدى التقارب بينهما فى وجهتى النظر، ومدى الألم الذى يعانيه الأسقف الكبادوكى من جراء هذا الشقاق[١٩]. على أن الرسائل التى كتبها إلى صديقه السكندرى هى التى تكشف عن الجانب الرئيسى فى هذا النزاع، والأمل الذى يعلقه باسل على أثناسيوس في حل هذا الخلاف، واطلاع الغرب على حقيقة المشكلة، "لأنه ليس هناك من هو أقدر منه على علاج هذه الحال"[٢٠]، بل إن باسل يغدو أكثر صراحة عندما يذكر لأثناسيوس أن خير حل لهذا الصدع أن تتحد كل هذه الفرق تحت رعاية مليتيوس، وهذا بالطبع عكس ما أراده أثناسيوس فى رسالته المجمعية إلى الانطاكيين التى ترى الاتحاد بزعامة باولينوس. ولكن باسل يمضى فى رسالته طالباً إلى أثناسيوس أن يتدخل لدى باولينوس لإقناعه بالدخول فى شركة مليتيوس، "حيث أن هذا دون شك سوف يحفز أساقفة الغرب الذين يقفون صفاً

---

(١٨) Neander, Christian religion and church, IV pp. 7-78.

(١٩) BASIL, epp. LVII, LXVII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI.

(٢٠) BASIL. ep LXVI.

واحداً وراء أثناسيوس يؤيدون باولينوس إلى أن يحذو حذوه، فإذا أقدم الأسقف السكندرى على ذلك تبعه الغرب دون عناء"[٢١].

ويبدو أن المراسلات كانت دائرة بين أثناسيوس وأساقفة الغرب حول هذه المشكلة، وأن الأسقف السكندرى كان يطلع صديقه الكبادوكى أولا بأول على فحوى هذه الرسائل، وذلك نعلمه من رسالة بعث بها باسل إلى أساقفة الغرب جميعاً يطلعهم فيها على وجهة نظره حول الشقاق الأنطاكى، وعلى تبادل الآراء بينه وبين الإسكندرية[٢٢]. ولم يلبث أن كتب فى صراحة تامة إلى أثناسيوس يطلب إليه أن يبعث إلى أسقف روما يخبره بهذه الأحداث التى يتعرض لها النيقيون فى الشرق على يد الإمبراطور فالنز، وكذلك المشكلة الأنطاكية التى تزداد سوءاً بمرور الزمن[٢٣]. ولما لم تعد الرسائل وحدها بين الرجلين كافية ، أرسل أثناسيوس أحد رجال أكليروسه ويدعى بطرس، وهو الذى أصبح أسقفاً للإسكندرية من بعد، حيث استقبله باسل بما يليق بمكانة صديقه السكندرى، ورد الأسقف الكبادوكى على ذلك بإرسال شماسه الأنطاكى دوروثيوس Dorothius ليعرض عليه حقيقة النزاع الأنطاكى بكل جوانبه، راجياً التدخل لإنهائه بما يحقق صالح النيقية بعد أن اشتدت أزمة الاضطهاد من جانب فالنز [٢٤].

وتحدد هذه الرسائل الفترة الواقعة بين السنوات الأخيرة من ستينيات القرن الرابع والعامين الأولين من سبعينياته، وفى العالم التالى مات أثناسيوس (٣٧٣) دون أن يتحول قيد أنملة عن تأييده لليوستاتيين وزعيمهم باولينوس، وأورث الغرب قبل وفاته هذا التأييد، وكان بالأحرى قد أورثه لخلفائه على كرسى الإسكندرية، ومن ثم لم يكتب للمشكلة الأنطاكية أن تنتهى على المدى القريب، وظلت الإسكندرية والغرب يقفان فى جانب، وأساقفة كبادوكيا يناصرهم نفر من إكليروس الشرق فى الجانب

(٢١) BASIL, ep. LXVII للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث جميعها راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، الفصل العاشر.

(٢٢) BASIL. ep. XCI.

(٢٣) BASIL. ep. LXIX.

(٢٤) Id.

الآخر إزاء الانشقاق النيقى فى أنطاكية، حتى بعد أن انتهت السيادة الآريوسية فى الإمبراطورية. وزاد من تأصيل هذا الاتجاه فى الغرب وجود بطرس السكندرى هناك فى ضيافة الأسقف الرومانى، وذلك بعد أن فر من الإسكندرية وراح يوحي إلى أسقف روما وأكليروس الغرب، متأثراً بسلفه وأستاذه، بضرورة البقاء على تأييدهم لباولينوس، واعتبار مليتيوس خارجاً عن الإيمان القويم.

وقد ظهرت آثار ذلك واضحة عندما عاد الكاهن الأنطاكى إيفاجريوس Evagrius من روما فى أوائل عام ٣٧٤، وأعلن على الفور دخوله فى شركة باولينوس ورفض الاعتراف بمليتيوس(٢٥). ولم يلبث باسل الكبادوكى أن كتب إلى أساقفة غالة وإيطاليا يوضح لهم ما تلقاه الكنائس الشرقية من عنت على يد الآريوسيين، ويطلب إليهم النظر بعين العقل والحكمة فيما يتعلق بالمسألة الأنطاكية والموقف فىالشرق بصفة عامة، وحمل هذه الرسالة دوروثيوس الأنطاكى(٢٦). وقد صادف هذه البعثة عقد مجمع فى روما ترأسه الأسقف الرومانى داماسوس، وقد أجاب المجمع نداء باسل وأساقفة الشرق بصفة عامة وأصدر قراره بإدانة أبولليناريوس أسقف اللاذقية(٢٧).

وكان ذلك مشجعاً لباسل كى يكتب من جديد إلى أساقفة الغرب يشكر لهم هذا الموقف، ويصر على إعلان تأييدهم لمليتيوس الأنطاكى، وصرح جهاراً فى رسالته بإدانة باولينوس(٢٨). وكان داماسوس قد دعا أيضاً إلى عقد مجمع محلى فى روما آنذاك (٣٧٦). وما أن قرئت رسالة باسل فى المجمع، حتى أعلن بطرس السكندرى أحد شهود المجمع، رفضه لما جاء فيها خاصاً بباولينوس، وخلع الإدانة على مليتيوس، مما دفع دوروثيوس المندوب الأنطاكى الذى كان يحمل رسالة باسل، إلى أن يرد على هذه الاتهامات، فأعلن المجمع تأييده الكامل لباولينوس وإدانته لمليتيوس، وأعاد من جديد إدانة أبولليناريوس، وكذا فيتاليس Vitalis الذى

---

(٢٥) BASIL. epp. CXXXVIII; CLVI.

(٢٦) BASIL. ep. CCXXXIX

(٢٧) Hefele, op, cit. II, p. 289.

(٢٨) BASIL. ep. CCLXIII.

كان أحد أتباعه(٢٩). والذى انتهز فرصة وفاة يوزيوس الآريوسى أسقف أنطاكية، ليعلن نفسه أسقفا للمدينة، رغم اختيار دوروثيوس أسقفا لها. وهكذا أصبح كرسى أنطاكية الأسقفى يحتله أربعة أساقفة، باولينوس اليوستاتى، ودوروثيوس، وفيتاليس الأبولليناري، بالإضافة إلى مليتيوس زعيم النيقيين المعتدلين، والذى كان ما يزال فى منفاه.

وبمقتل فالنز عام ٣٧٨ وصدور مرسوم التسامح الجراتيانى، عاد مليتيوس إلى أنطاكية ليجد المشكلة قد تفاقمت وازداد الشقاق. ويتفق مؤرخو الكنيسة جميعهم على أن اتفاقاً جرى عقده بين مليتيوس وباولينوس بحضور الأساقفة الذين لهم حق الترشيح للأسقفية فى أنطاكية، وكان من بينهم فلافيانوس Flavianus الذى اختير أسقفاً بعد وفاة مليتيوس. وقضى هذا الاتفاق بأن لا يحاول أحد من هؤلاء المرشحين اعتلاء كرسى الأسقفية فى حياة الرجلين، مليتيوس وباولينوس. وأن لا يقدم أحد على ذلك إلا بعد وفاتهما (٣٠). غيرأن هذا الاتفاق لم يرع من جانب أحد ممن وقعوا عليه، كما ستوضح مجريات الأمور.

ويحاول بعض المؤرخين(٣١) أن يتخذ من مرسومى ثيودوسيوس اللذين أصدرهما فى ٢٨ فبراير سنة ٣٨٠، و١٠ يناير ٣٨١ دلالة على وقوعه تحت تأثير الغرب فى موقفه من المشكلة الأنطاكية، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله على علاته؛ ذلك أن المرسوم الأول صدر والإمبراطور بعد فى سالونيك، وجاء فيه أن الإيمان الحق هو ما دان به بطرس أمير الرسل وبه بشر، والذى يؤمن به الآن داموسوس أسقف روما وبطرس أسقف الإسكندرية (٣٢). ومن الملاحظ

---

(٢٩) SOZOM. Hist. Eccl. VI 25; THEOD. Hist. Eccl. V. 16.

(٣٠) SOCRAT. Hist. Eccl. V 5; SOZOM. Hist. Eccl. VII 3; THEOD. Hist. Eccl. V 3.
وقارن: أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ص ٢٥٣ حيث ينفى اعتمادا على كافاليرا فى كتابه الشقاق الانطاكى ما يذكره مؤرخو الكنيسة من أنه تم الاتفاق بين الرجلين على رئاسة مزدوجة للكنيسة طيلة حياتهما، على أن تصبح هناك رئاسة موجدة بعد وفاتهما أو وفاة أحدهما. لكن هذا الرأى لا تؤيده المصادر، ولا حتى الأحداث التى وقعت بعد ذلك فى مجمع القسطنطينية المسكونى سنة ٣٨١.

(٣١) أسد رستم: كنيسة أنطاكية. الجزء الأول، ٢٥٤.

(٣٢) Cavalerra, schisme d' Antioche.

على هذا المرسوم أنه تضمن أسقفيتى روما والإسكندرية فقط. ولمن يكن بمقدور الإمبراطور أن يضيف إليهما أية أسقفية أخرى، فالقسطنطينية تخضع لديموفيلوس، وأنطاكية لدروثيوس، وكلاهما على الأريوسية. وهما الأسقفان الشرعيان من وجهة النظر الرسمية. إذن فلم يكن هناك مجال لذكر أنطاكية أو باولينوس أومليتيوس. وعليه لا يمكن أن نفسر خلفية هذا المرسوم بأنه انحياز لباولينوس الذى تؤيده الإسكندرية ومن ورائها روما والغرب. ولا يمكن أيضاً أن يعد المرسوم الثانى الذى صدر بعد دخوله القسطنطينية بشهرين تقريباً، تراجعاً عن هذا الموقف المؤيد لباولينوس حسب اعتقاد البعض، وانتصاراً لميلتيوس، "بعد أن تأكد لدى الإمبراطور أن نجاح سياسته الدينية يتوقف على تأييد هذه الجماعة". ذلك أن المرسوم الثانى جاء عاماً ومؤيداً للمرسوم الأول، حيث أعلن أن لقب الكنيسة الجامعة سوف يقتصر فقط على أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة النيقية، أما الخارجون عن هذه العقيدة فسوف يلقون الاحتقار والازدراء، وسوف يعرضون أنفسهم لعذاب أليم(٣٣) وكان هذا أمرا طبيعياً بعد أن أعلن الإمبراطور صراحة تأييده للنيقية، وبعد أن دعا إليه أسقف القسطنطينية الآريوسى ديموفيلوس، وعرض عليه الدخول فى شركة النيقيين أو تسليم الكنائس التى بأيدى أتباعه، مما اضطر الأسقف الآريوسى إلى الارتحال هو ورعيته إلى خارج أسوار العاصمة، ولم يلبث الإمبراطور أن وجه الدعوة إلى عموم الأساقفة فى الكنائس الواقعة فى أقاليم سيادته لعقد مجمع القسطنطينية.

ومن الواضح أن الأحداث التى سبقت انعقاد المجمع، قد تركت آثارها واضحة على المواقف المختلفة لأعضائه. فلا شك أن الإسكندرية أغضبها خيبة الأمل التى منيت بها من جراء الإطاحة بمرشحها لأسقفية العاصمة ماكسيموس الكلبى، وآلمها أن ترى أسقف مدينة صغيرة فى آسيا الصغرى يعتلى كرسى القسطنطينية الأسقفى، ومن ثم كان لابد لها أن تحقق لنفسها ما تبتغى، وأن تسعى إلى ذلك ما وسعتها السبل. وزاد الأمر سوءا أن مليتيوس الأنطاكى، أسقف الاكثرية النيقية المعتدلة هو الذى حضر المجمع ممثلاً لأنطاكية، وهو الذى تولى رسامة جريجورى النازيانزى وهو الذى ترأس المجمع، لذا ما لبثت المشكلة

(٣٣) SOZOM. Hist. Eccl. VII 4.

الأنطاكية أن سيطرت على جلسات المجمع، وانتقلت إليه عدوى الشقاق الحادث فى أنطاكية، عندما مات مليتيوس أثناء انعقاد المجمع.

رأى جريجورى النازيانزى الذى تولى رئاسة المجمع بعد وفاة مليتيوس، أن يحافظ على الاتفاق الذى تم بين مليتيوس وباولينوس عقب عودة الأول من المنفى، وكان هذا يمثل الطريق الوحيد لرأب هذا الصدع، وهو يعنى أن يصبح باولينوس الآن الأسقف النيقى الوحيد الذى يتولى رعاية الجماعة النيقية فى أنطاكية.

لكن هذا الاتجاه لقى معارضة من جانب مجموعتين متباعدتين تماماً.. المجموعة الأولى يمثلها صغار أساقفة الشرق ويعضدهم بعض الشيوخ، بحجة أن انفراد باولينوس بالأسقفية يمثل انتصاراً لأساقفة الغرب ومن قبلهم الكنيسة السكندرية، ونزولاً من الأساقفة الشرقيين عند رأى زملائهم أكليروس الغرب(٣٤). والمجموعة الثانية يتزعمها الأسقف السكندرى، على الرغم من أن هذا الموقف من جانب جريجورى يعتبر تأييداً لوجهة النظر السكندرية، إلا أن اعتراض الوفد السكندرى كان نابعاً من أن مليتيوس وشيعته قد رسموا أو عُمدوا على يد الأريوسيين، وأنهم سمحوا بدخول أكاكيوس القيسارى وأتباعه، الآريوسيين الهومويين، فى شركتهم، ومن ثم لا يمكن قبولهم ضمن دائرة الإيمان النيقى الأصيل. لكن الحقيقة التى تتراءى لنا أن الإسكندرية كانت تخشى ما سوف يحدث مستقبلاً بعد وفاة باولينوس الذى تقدم به العمر، وهو أن النيقيين المعتدلين الذين يمثلون الأغلبية، وتضيع فى وسطهم النيقية اليوستاتية، بدخول أتباع مليتيوس فى شركة باولينوس، سوف يصبح لهم الصوت الأعلى واليد الطولى بعد ذلك فى اختيار أسقف جديد واحد للبيعة الأنطاكية، وهذا ليس فى صالح الإسكندرية التى تريد دوما وجود أنصار لها فى أنطاكية، كما هو حادث فى القسطنطينية، ولهذا فإن الإسكندرية دون شك تتحمل مسئولية كبيرة فى امتداد أمر الشقاق الأنطاكى من بعد سنين عدداً، لأن موافقة الإسكندرية كانت تعنى موافقة روما والغرب على هذا الإجراء.

---

(٣٤) SOZOM. hist. eccl VII 4.

SOZOM. hist. eccl. VII 4; Hefele, op. cit. II p. 346.

SOZOM. hist. eccl V 9; SOZOM. hist. eccl VII 11;

ولا ريب أن الأنطاكيين أنفسهم يتحملون أيضاً جزءاً من مسئولية استفحال هذا الشقاق، ذلك أنهم أقدموا على الفور، عقب معرفتهم بوفاة مليتيوس، باختيار فلافيان أحد أنصاره أسقفاً للمدينة، ضاربين عرض الحائط بما تم اقراره من قبل بين باولينوس ومليتيوس [٣٥]، رغم أن فلافيانوس نفسه الذى تم اختياره، كان أحد شهود هذا الاتفاق، ولقى الأنطاكيون، أو بتعبير أدق، النيقيون المعتدلون، فى انقسام المجمع المسكونى الثانى على نفسه إزاء ذلك فرصة لتحقيق هدفهم، بالإضافة إلى التأييد الذي لقيوه من جانب عدد من أساقفة المجمع. ولا تفوت هذه الأحداث على عينى المؤرخ الكنسى الناقد سقراط دون تعليق، حيث يقول "أن هذا الشقاق لم يكن راجعاً إلي خلاف في المعتقد بقدر ما كان ناتجاً ببساطة عن الأهواء الشخصية"[٣٦].

وقد علمنا أن مجمع روما الذى عقد فى سنة ٣٨٢، قد رفض فى حضرة رسل الشرق الاعتراف برسامة فلافيانوس، وأعلن إدانته وحرمانه وكذا ديودوروس الطرسوسى وأكاكيوس الحلبى لقيامهما بسيامته، هذا على الرغم من أن مجمع القسطنطينية المنعقد فى نفس العام قد أقر شرعيته اختيار فلافيانوس. ولم يلبث الإمبراطور ثيودوسيوس أن دعا لعقد مجمع ثالث فى القسطنطينية فى العام التالى (٣٨٣) على التوالى، كان من بين ما ناقشه من قضايا، الشقاق الحادث فى أنطاكية. غير أن المجمع لم يسفر عن شيء فى النهاية إلا زيادة الانقسام بين الكنائس المختلفة في الشطر الشرقى من الإمبراطورية، ذلك أن كنيسة الإسكندرية بقيت على موقفها المؤيد لباولينوس، يناصرها كنائس قبرص والعربية Arabia بينما راحت كنائس فلسطين وفينيقيا وسوريا والجزء الأكبر من أرمينيا، وكبادوكيا وغلاطية وبونطس تؤيد فلافيانوس[٣٧].

ولم يكن موت باولينوس عام ٣٨٨ – على حد قول ثيودوريتوس[٣٨] – كافياً للقضاء على شعور الكراهية والحقد الكامنين فى نفس كل من الفريقين تجاه

---

(٣٥) THEOD. hist. eccl. V 23.
(٣٦) SOCRAT. hist. eccl. V 9.
(٣٧) SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist, eccl. VII 11.
(٣٨) THEOD. hist. eccl. V 23

بعضهما البعض، وساعد على ذلك موقف باولينوس نفسه، ذلك أنه عندما حضرته الوفاة أقدم على انتهاك القانون الكنسى الذى يحرم اختيار الأسقف لخليفته [٣٩]. واختار أحد قسيسيه ويدعى إفاجريوس Evagrius خلفاً له فزاد هذا الإجراء الأمر تعقيداً، واستمر الشقاق قائماً، وسلك كل من الفريقين الآن سبيلاً جديداً بالتقرب إلى الإمبراطور، ومحاولة كل منهما إيغار صدر ثيودوسيوس على الفريق الآخر، وكسب تأييده وضمه إلى صفه. ولما كان الإمبراطور يقيم الآن فى الغرب بعد انتصاره على ماكسيموس، فقد أوعز إليه أسقفا روما وميلانو أن يدعو فلافيا للالتقاء بافاجريوس في الغرب لحسم هذا النزاع، وإيماناً منهما بأن الإمبراطور لابد أن يحقق لهما بغيتهما، خاصة أمبروز بعد ما كان من موقفه من الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك[٤٠]. وقد طلب الإمبراطور بالفعل من فلافيانوس الارتحال إلى الغرب لبحث مسألة الشقاق الأنطاكى هناك، وفى سبيل ذلك جرت الاستعدادات لعقد مجمع فى كابوا سنة ٣٩١، وتحمس له الأسقف الميلانى بصفة خاصة، غير أن فلافيان أبى أن يعاد النظر من جديد فى أمر شرعية اختياره للأسقفية، واعتذر للإمبراطور بالشتاء القارص، ووعد بالذهاب عندما يأتى الربيع، فقبل منه ثيودوسيوس ذلك[٤١]. وكان طبيعياً أن يفشل مجمع كابوا فى مهمته فى غياب زعيمى الفريقين المتصارعين.

---

(٣٩) Id.

(٤٠) انظر الفصل الخامس.

(٤١) يذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور أعاد تحت تأثير أسقف روما تجديد أوامره إلى فلافيانوس بالارتحال إلى الغرب، وحاول إكراهه على ذلك، وأمام هذا أعلن فلافيانوس تحديه لأسقف روما، وطلب إلى الإمبراطور عقد محكمة أكليروسية لمحاكمته، إذا كان أحد يستطيع أن يتهمه فى دينه أو شخصه، أما إذا كانت المسألة تتعلق فقط بحسده على بلوغه هذا المنصب، فإنه سوف يتخلى عن منصبه تاركاً للإمبراطور مهمة اختيار الشخص المناسب، فلم يكن من الإمبراطور إلا احترام شجاعة فلافيانوس، وابقاه على اسقفيته مكرماً. وأعلن أمام لجاجة روما باتخاذ موقف ضد فلافيانوس، أنه يحمى الأسقف الأنطاكى الشرعى فلافيانوس، ودعا الأكليروس فى الغرب أن لا يدع الخلافات الشخصية تحكم علاقاتهم الكنسية. انظر THEOD. hist. eccl. V 23; SOCRAT. hist. ecvc; . V 15; SOZOM. hist. eccl; VII 15; و RVFIN. Hist. eccl. II 21-24.

ويبدو أن الغرب قد اقتنع فى النهاية أنه لا قبل له بمثل هذه الخلافات الحادثة فى الشرق، والتى أرهقته من أمره عسرا، ولذا فقد اتفق أمبروز الأسقف الميلانى، مع أسقف روما على أن يكلا إلى أسقف الأسكندرية ثيوفيلوس Theophilus، الذى خلف تيموثى عام ٣٨٥، التصرف فى هذا الأمر حسبما يرى. ودارت المراسلات بين أمبروز وسيريقيوس Siricius أسقف روما، وهذا والأسقف السكندرى حول هذا الشأن، وسعى فلافيانوس من جانبه أيضاً لدرء هذا النزاع، فراح يكاتب كلا من أسقف روما والأسقف السكندرى، موضحاً لهما حقيقة موقفه وشرعية اختياره، وقد آتت هذه المحاولات أكلها، فالتأم عقد مجمع محلى فى قيسارية فلسطين فى عام ٣٩٢ لبحث هذه المشكلة، واعترف المجمع بأسقفية واحدة لأنطاكية تحت رعاية فلافيانوس. ويبدو أن الذى ساعد على ذلك هو وفاة افاجريوس اليوستاتى، مما دفع الإسكندرية للتخلى عن موقفها المؤيد لليوستاتيين، هذا بالإضافة إلى أن الإمبراطور كان أيضاً قد أبدى تعاطفه مع فلافيانوس. ورغم ذلك فإن الغرب قد ظل على تردده فى الاعتراف بفلافيانوس، ولم يقبل ذلك إلا بعد سبعة عشر عاماً من اشتداد أوار الشقاق (٣٨١-٣٩٨) عندما أبدى استعداده لاستقبال الوفد أرسله الأسقف الأنطاكى برئاسة أكاكيوس أسقف حلب، وترحيبه به[٤٢]. وأن كان ذلك قد تم بعد وفاة ثيودوسيوس بثلاث سنوات. لكن هذا الوفاق لم يتم بصورة حقيقية، ليس أدل على ذلك مما يذكره سقراط من أن هذه الإجراءات أدت إلى عودة الوئام الظاهرى بين هذه الكنائس وإسباغ الهدوء المشوب بالقلق فى أنطاكية[٤٣].

وقد تركت أحداث الشقاق الكنسى الأنطاكى آثارها البعيدة وبصماتها الواضحة على نفوس أهالى أنطاكية، فدفعتهم إلى حالة من التوتر كانت تبحث لنفسها عن مخرج معين تصب فيه غضبها المكبوت. وواتت الأهالى الفرصة إبان احتدام الأزمة بين فلافيانوس وباولينوس، وقبل أن يموت هذا الأخير بعام واحد. ذلك أنه فى عام ٣٨٧ كان الإمبراطور ثيودوسيوس قد راح يعد قواته لملاقاة مغتصب العرش فى الغرب ماكسيموس، واقتضت تلك الاستعدادات لإقرار الأمور

(٤٢) THEOD. hist. eccl. V 23.
(٤٣) SOCRAT. hist. eccl . V 15.

فى النصف الغربى، أن ترزح الولايات الشرقية فى الإمبراطورية تحت عبء الضرائب الباهظة التى فرضها ثيؤدوسيوس لمواجهة متطلبات الحرب الأهلية الآتية(٤٤). ومما زاد الأمر سوءاً أن الإمبراطور قد شاء وسط هذه الظروف الاحتفال بالعيد العاشر decennalia لاعتلائه العرش، وفى الوقت ذاته العيد الخامس quinquinnalia لإعلان ابنه أركاديوس Arcadius أوغسطساً(٤٥). وكان هذا أيضاً يحتم بالضرورة فرض مزيد من الضرائب لتغطية النفقات الباهظة التى تتطلبها هذه الاحتفالات، بالإضافة إلى ما يتطلبه الأمر من توزيع كميات كبيرة من الذهب على الجنود تمثل أعطيات وهبات لهم تخليداً لهاتين المناسبتين السعيدتين!!

ورغم أن أنطاكية لم تكن المدينة الوحيدة التى ابتليت بفرض هذه الضريبة الاستثنائية الباهظة، إلا أن الحالة العامة التى كان عليها الجموع في المدينة، ولفترة طويلة من الزمن، كانت سبباً فى تهيئة مواطنى أنطاكية للتمرد حتى على أى حادث عابر أو أمر بسيط. ولما لم يكن هذا الأمر بسيطاً، فقد انقلبت الحال فى المدينة إلى ثورة غارمة كان الأهالى يعبرون بها عن غيظهم المكبوت من جراء الفوضى العقيدية الحادثة فى الكنيسة والمدينة.

استدعى الشيوخ وكبار المواطنين إلى دار المحكمة، كما جرت بذلك العادة، حيث أذيع المرسوم الإمبراطورى بفرض الضريبة الاستثنائية، وقد تملك اليأس والقنوط نفوس هذا الملأ من القوم، وفعلوا ما لم يكن بمقدورهم غيره، وهو أن يقدموا احتجاجهم إلى كلسوس Celsus الحاكن العام مطالبين إياه أن ينقل إلى الإمبراطور التماسهم بتخفيف قيمة الضريبة، غير أن هذا لم يكن أمامه بحكم منصبه إلا أن يرفض الاستجابة لملتمسهم، ومن ثم لم يكن أمام شيوخ المدينة إلا الاستسلام. غير أن الجموع الحانقة لم يكن يرضيها هذا الموقف الواهن لعلية القوم، خاصة وأن العبء كله سوف يقع على كواهل هؤلاء المواطنين، وصمموا على إعلان استيائهم العام بالصورة التى تتناسب وطبيعتهم، فتجمعوا في مظاهرة صاخبة اتجهوا بها أولاً إلى حيث يقيم أسقف الأغلبية النيقية فلافيانوس ليتدبر الأمر

(٤٤) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl . VII 23.

(٤٥) Nicene and p. n. f. III p. 145, n. 2, c. b.

مع الإمبراطور. ولا شك أن هذا التصرف في حد ذاته يوحي للوهلة الأولى بالمكانة التى كان يحتلها الأسقف النيقى المعتدل فى نفوس الجموع، أثناء صراعه مع منافسه باولينوس، الذى لم يكن قد مات بعد. إلا أن المتظاهرين لم يعثروا للأسقف على أثر، وهنا تحولت المظاهرة إلى إعصار مدمر، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، ولما لم تفلح فى الحاق الأذى بالحاكم العام الذى أعد للأمر منذ البداية عدته وأخذ جذره، ضبت الجماهير الثائرة غضبها على شخص الإمبراطور ومكانته، وتمثل ذلك فى تحطيم صور ثيودوسيوس والعائلة الملكية المقامة عند دار المحكمة التى تُلى فيها المرسوم الضريبى، ثم اتجهوا إلى الميدان العام وربطوا تمثال الإمبراطور وتمثالى ابنه أركاديوس وزوجه الأولى بلاكيلا Placilla وجروهم فى شوارع المدينة وهم يوسعونهم ركلاً وتحطيماً، وراحوا يخلعون على الإمبراطور ألقاباً غاية فى السخرية[٤٦]. ويضمرون النار فى المنازل المجاورة للقصر الإمبراطورى حتى يمتد إليه الحريق تلقائياً[٤٧].

تمكنت قوات الأمن فى المدينة من استعادة السيطرة عليها وإعادة الهدوء، وأقدمت على إنزال عقاب مبدئى، وإن كان أليما، بالأهالى حتى تعيد إليهم رشدهم، فقُطعت رؤوس بعض، وأحرق بعض آخر حياً، وأدخر بعض ثالث ليلقى إلى الوحوش الضارية فى الملعب ليتسلى برؤيتهم جمهور المدينة الثائرة، عبرة لمن يعتبر، بينما أرسل الحاكم العام رسله إلى الإمبراطور تحمل إليه أنباء هذه الثورة التى شهدتها أنطاكية[٤٨]. وقد أدرك الجموع بعد هذا السكون القسرى الذى أعيدوا إليه، فداحة الأمر الذى أقدموا عليه، وذهبت بهم الظنون كل مذهب فى العقوبات التى سوف ينزلها الإمبراطور بالمدينة، ولهذا عول كثيرون منهم على الهروب فى

---

(٤٦) كان الأنطاكيون مغرمين باستخدام هذا الأسلوب الساخر دوماً مع من يصبون عليه نقمتهم، وقد تجلى هذا واضحاً فى موقفهم من الإمبراطور الوثنى جوليان عندما قدم إلى مدينتهم فى عام ٣٦٢ فى طريقه إلى الحرب الفارسية، إذ راحوا يسخرون من جهوده لإعادة الوثنية وركزوا سخريتهم على لحيته الطولية، مما دفع جوليان إلى الرد عليهم بعمل أدبى هجائى أسماه "كاره اللحية" Misopogon.

(٤٧) THEOD. hist. eccl. V 19; SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٤٨) THEOD. loc. cit.

جماعات إلى خارج المدينة، وبذل الفيلسوف الوثنى العجوز ليبانيوس Libanius جهدا كبيراً فى محاولات يائسة لوقف هذا الهروب الكبير، على حين قام تلميذه يوحنا ذهبى الفم Iohannes Chrysostomus الذى كان قد رسم منذ فترة وجيزة قسيساً بيد فلافيانوس، لما توسمه فيه من فصاحة وذكاء، قام إبان فترة الصوم الكبير بإلقاء عظاته محاولاً بها انتشال رعيته من وهدة الهلع الذى رماهم به خوف العذاب. وقد بلغت فى مجموعها إحدى وعشرين عظة شكلت فى جملتها كتابه "عن التماثيل"(٤٩). هذا بينما ارتحل الأسقف فلافيانوس فى شتاء قارص البرودة إلى القسطنطينية ليتشفع لأنطاكية عند الإمبراطور(٥٠).

ولكن الإمبراطور كان قد تملكه الغضب وأخذ عليه كل سبيل، فالاعتداء على تماثيله وصوره وأسرته، تعنى الإهانة الحقيقية لشخص الجالس على العرش، وأى تسامح فى هذا المجال سوف يشجع على المزيد من التمرد والهياج، والسكوت عن هذا الذى حدث فى أنطاكية أو التساهل فيه سوف يدفع بالتالى غيرها من المناطق لإعلان راية العصيان وتحدى الأوامر الإمبراطورية بدفع هذه الضريبة الاستثنائية، والظروف السياسية التى وقعت فيها هذه الثورة لم تكن يسيرة بالنسبة لثيودوسيوس الذى كان يتجهز لملاقاة ماكسيموس وإعادة الهدوء إلى النصف الغربى من الإمبراطورية بالتحقيق الواسع والدقيق فى كل ما جرى، واقتيد بادئ ذى بدء شيوخ المدينة إلى السجن تمهيداً لمحاكمتهم.

وأذيع فى الناس مرسوم الإمبراطور بالعقوبات الأولية التى كانت تتضمن إغلاق الحمامات العامة والمسارح وميادين السباق، ومنع توزيع القمح على العامة، وتجريد المدينة من مكانتها كعاصمة إقليمية، وإنزالها إلى مرتبة القرية وجعلها تابعة إدارياً لمنافستها القديمة اللاذقية، وكان هذا إمعاناً فى إذلال أهالى أنطاكية(٥١). ويذكر ثيودوريتوس أن الأوامر الإمبراطورية هذه لم تنفذ استناداً لما صدر عقب مذبحة سالونيك بناء على نصائح الأسقف الميلانى، أمبروز، والتى تنص على عدم

---

(٤٩) C. M. H. I p. 241. وأيضاً : داونى ، أنطاكية، ص ٢٠٢-٢٠٤،

(٥٠) SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٥١) THEOD. hist. eccl. V 19.

تنفيذ أى عقوبة إمبراطورية إلا بعد مرور ثلاثين يوماً على إصدار القرار الخاص بها[٥٢].. ولكن الأمور اختلطت على ثيودوريتوس، ذلك أن مذبحة سالونيك وقعت بعد فتنة أنطاكية بثلاث سنوات.

ومع أن حرمان المواطنين من ارتياد المسارح وحلبات السباق كان يشكل لهم ألماً بالغاً، وتلك كانت سمة المواطنين في معظم مدن الإمبراطورية عامة، إلا أن تحطيم كبرياء أنطاكية باعتبارها حاضرة ولايات الشرق، كان يعد صفعة قوية لشيوخ المدينة وجموعها على السواء، ولعل هذا يتضح جلياً فى أن يوحنا ذهبى الفم قد خصص العظة السابعة عشرة من عظاته للحديث عن هذه الناحية ، إذ راح يواسى الجموع قائلاً :

"هل تحزنون لأن عزة المدينة قد ولت؟ تعلموا معنى عزة المدينة ومن ثم توقنون بوضوح، بأنه ما لم يخن المدينة أهلها أنفسهم فلن تستطيع أية فئة أخرى أن تسلبها عزتها. إن عزة المدينة لا تكمن فى كونها عاصمة ولا فى أبنيتها الكبيرة الجميلة، ولا فى أعمدتها الكثيرة وأروقتها الواسعة وممراتها، ولا فى أنها تذكر فى المراسم قبل غيرها من المدن، ولكنها تكمن فى فضيلة أهلها وورعهم، هذه هى عزة المدنية وحليتها وحصانتها، لأنه إذا لم تكن هذه الأمور موجودة فيها فإنها تصبح من أتفه المدن فى العالم، حتى ولو كانت تتمتع بحظوة الأباطرة المطلقة"[٥٣].

ولما كان عمال الإمبراطور جادين فى التحقيق الذى أرسلوا من أجله، فقد انتزعت الاعترافات من الناس انتزاعاً باستخدام أقسى وسائل التعذيب، إلى الحد الذى دفع أحد الرهبان ويدعى ماكيدونيوس أن يجهر بامتعاضه واشمئزاز لهذا الأسلوب العنيف الذى يتبعه المحققون الإمبراطوريون، مخاطباً إياهم "أبلغوا الإمبراطور أنه ليس إمبراطوراً فحسب، بل إنساناً أيضاً، ولما كان الله قد خلق الإنسان على صورته، فإن الإمبراطور بهذه الفعال سوف ينتهك صورة الله ويغضب الصانع، وإذا كان هذا كله يجرى لأجل تمثال من البرونز يمكن أن يصنع منه المئات، فإن

(٥٢) انظر Id وراجع الفصل الخامس.
(٥٣) دوانى: أنطاكية، ص٢٠٩.

الإمبراطور لا يستطيع أن ينبت شعره واحدة فى رأس إنسان"[٥٤]. غير أن هذا ما كان ليوقف لجنة التحقيق عن مباشرة عملها، لترفع تقريرها إلى ثيودوسيوس حتى يمكنه بناء على ما توفر لديه من أدلة، أصدار أحكامه ضد المواطنين.

وكان فلافيانوس قد جاء الآن إلى القسطنطينية، وتمكن من لقاء الإمبراطور الذى يبدو أنه كان ما يزال على سخطه لهذا الذى حدث، ولكن الأسقف الأنطاكى ظلا يتوسل إلى ثيودوسيوس ليذهب عنه الروع ويجادله فى قوم أنطاكية. ولما كان الإمبراطور يبدى - كما يظهر من سيرته - احترامه وتقديره لرجال الدين، فقد قدر لفلافيانوس ارتحاله وهو يحمل على كتفيه هذا العمر الطويل من أنطاكية إلى القسطنطينية، فأظهر لين جانب، ثم ما لبث أن أصدر عفوه العام عن المدينة استجابة لتوسلات فلافيانوس[٥٥]. ولعل الإمبراطور قد اكتفى بما أنزله الحاكم العام بالمدينة من إعدام واحراق وسجن عدد من المواطنين، وكذا ما فعله رسله الذين بعث بعم لمباشرة التحقيق، بحيث رأى فى هذه الإجراءات الصارمة ما يكفي لردع الأنطاكيين، وهذا واضح مما يذكره المؤرخ الكنسى ثيودوريتوس فى هذا الصدد[٥٦].

ولا ريب أن هذه الأحداث، وسفارة فلافيانوس إلى ثيودوسيوس، كانت من بين أسباب التقارب الذى حدث بين الإمبراطور والأسقف الأنطاكى، والذى ظهر خلال الأعوام الثلاثة التالية، عندما وقف الإمبراطور إلى جوار فلافيانوس ولم يكرهه على الارتحال إلى الغرب للمثول أمام المجمع الذى كان مزمعاً عقده فى كابوا - كما قدمنا - حسبما كان يبتغى أسقفا روما وميلانو. كما أن هذه الأحداث قد كشفت لثيودوسيوس عن الاتجاه العام للأنطاكيين إزاء الشقاق الكنسى الواقع بينهم، واعترافهم بشرعية فلافيانوس واختياره ممثلاً لهم لدى السلطات الإمبراطورية.

---

(٥٤) THEOD. hist. eccl V.19.

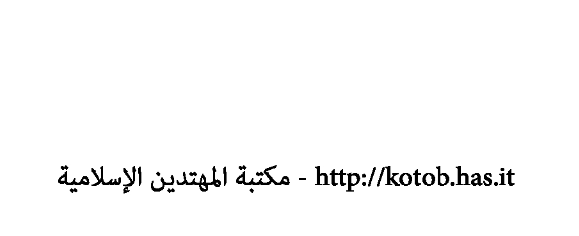
(٥٥) يقول سوزومنوس إن الأسقف فلافيانوس عندما وصل إلى القسطنطينية، وجد أن الإمبراطور ما زال ثائراً يتميز من الغيظ لما حدث فى أنطاكية، فلجأ إلى وسيلة معينة هى الاستعانة بعدد من المنشدين الذين اعتادوا الانشاد على مائدة الإمبراطور، كى يقدموا ترانيم الأنطاكيين وصلواتهم وتوسلاتهم أمام الإمبراطور، فما أن سمع ثيودوسيوس ذلك حتى انهمرت الدموع من مآقية وأصدر عفوه عن المدينة!! انظر: SOZOM. hist. eccl. VII 23.

(٥٦) THEOD. hist. eccl. V, 19.



الفصل الرابع

المسيحية النيقية
الدين الرسمى للإمبراطورية



الفصل الرابع

المسيحية النيقية
الدين الرسمى للإمبراطورية

لم يكن بمقدور جراتيان، وعمه فالنز فى الشرق يحكم، أن يعلن صراحة عن اتجاهاته العقيدية، فالإمبراطور العم يدين بالآريوسية التى وجد أقاليم سيادته تؤمن بها، وجراتيان اعتلى العرش فى الغرب بعد موت أبيه، وهو غض العمر غرير، وولاياته لا تعانى شأن ولايات عمه من النزاع العقيدى بين الآريوسية والنيقية. ولذا لم يجد خيراً من السير على هدى السياسة التى رسمها أبوه من قبل، والتى تقضى بعدم التدخل فى المسائل العقيدية والمشاكل الكنسية قدر الاستطاعة، وساعده على ذلك انشغاله منذ بداية عهده بصد الجماعات الجرمانية على الراين وعند أعالى الدانوب، ومن ثم فقد حظيت المسيحية والوثنية على السواء خلال السنوات الأولى من عهده، بخيرية وسماحة الحاكم الشاب.

ولقد أدرك جراتيان عقب مقتل عمه فالنز عام ٣٧٨ وقيامه بحكم الإمبراطورية فرداً، أنه ليس من الحماقة أن يقدم على التخلى عن سياسة التسامح التى اتبعها طيلة ثلاث سنوات سوياً، ومن قبل أبوه، فى وقت يعلم أن جل كنائس الشرق تخضع للآريوسيين، وهو ليس على استعداد لأن يثير ثائرة هذه الولايات الشرقية بينما يخلو عرش القسطنطينية من إمبراطور، ولهذا أصدر على الفور من سيرميوم مرسوماً عاماً يقضى بالتسامح، وأن تمارس كل الفرق المختلفة طقوسها فى كنائسها دون تمييز(١). ولكنه فى الوقت ذاته أرسل إلى أمبروز أسقف ميلانو يطلب إليه أن يعد له رسالة عن الإيمان تهديه سواء السبيل(٢)، وعلى الفور عكف أمبروز على إعداد هذا العمل، والأمل يحدوه أن يضم إلى قضية النيقية الإمبراطور الشاب الذى يسيطر الآن على الإمبراطورية بشطريها، إذا استثنينا تلك المشاركة الواهنة لأخيه الطفل فالنتينيان الثانى، خاصة وأن أسقف ميلانو كان

(١) SOCART. hist. eccl. V 2.

(٢) AMB. de fide I 3.

يحمل في نفسه الكراهية والمقت الشديدين للآريوسية وإمبراطورها الراحل فالنز.
ولم يلبث جراتيان أن استدعى إليه في العام التالي، وهو في طريق عودته من تراقيا، أمبروز ليتسلم منه رسالة الإيمان. ولما كان قد أصدر في يناير من هذا العام مرسومه بتعيين ثيودوسيوس إمبراطورا في النصف الشرقي من الإمبراطورية، ولما كان الأسقف الميلاني قد قد ترك تأثيره واضحاً في نفس جراتيان، فقد أقدم هذا دون توان على إلغاء مرسوم التسامح السابق الذي أقره في العام الماضي، وأصدر مرسوماً جديداً يقضي بعودة جميع الأساقفة الذين نفاهم فالنز من قبل إلى بيعهم ثانية، وحرم كل الفرق المسيحية غير النيقية ممارسة طقوسها، وخص منهم بالذات اليونومويين Eunomions أو الأنومويين، أتباع يونوميوس الذين يمثلون الآريوسية المتطرفة، والمانويين Manichoean وأنصار فوطين Photinians وأرسل على الفور رسله لطرد الآريوسيين من الكنائس[٣].

وكان أول تطبيق عملي لهذه القرارات في روما ننفسها، على الرغم من أن الخلاف الذي كان قائماً فيها لم يتعد شقاقاً كنسياً وليس خلافاً عقائدياً، ذلك أن الأكليروس هناك انقسم على نفسه عقب وفاة ليبيريوس أسقف روما سنة ٣٦٦، فأعلن داماسوس الأول أسقفاً خلفاً، إلا أن فريقاً من المعارضين اختاروا للأسقفية أورسنيوس Ursenius وظل الصراع بين الرجلين قائماً لفترة طويلة. وقد تشجع داماسوس وأنصاره بمرسوم جراتيان، وكانت لهم الأغلبية، وان لم يكن منافسوهم قلة، فعقدوا المجمع الروماني الرابع تحت رئاسة داماسوس، حضره، أمبروز، وطلبوا إلى الإمبراطور أن يكلف النائب الإمبراطوري وموظفيه بالقبض على خصومهم وعزلهم عن كنائسهم. ورغم أن جراتيان قد أظهر تردداً في بادئ الأمر

(٣) SOCRAT. Hist eccl. V 2; SOZOM: Hist eccl. VII 1; RVFIN. Hist. Ecc; II 13; THEOD. Hist. Eccl. V 1, 2.
وكان فوطينن شماساً لماركللوس أسقف أنقرة، واعتنق آراء أستاذه وتطرف بها وأصبح أسقفاً لسيرميوم (٣٤٠-٣٥١) وجهر بالقول بأن الابن استمد وجوده من مريم العذراء، وأنه محض إنسان، وأنكر وجوده قبل كل الدهور حسب قاعدة الإيمان النيقي. وقد أدين في مجمعي سيرميوم الأول سنة ٣٤٧ وسيرميوم الثاني سنة ٣٥١ حيث عزل من أسقفيته. راجع للمؤلف: الدولة والكنيسة: الجزء الثالث ص١٩١-١٩٢، ٢٥٤، ٢٥٥.

خشية إحداث الاضطرابات والفوضى فى روما، إلا أنه لم يلبث أن أقدم على إجابة ملتمس داماسوس وحزبه، وأمر بأن يدخل الجميع هناك فى شركة داماسوس(٤). وأعاد المجمع من جديد التأكيد على حرمان الفرق التي شملها مرسوم جراتيان من ممارسة طقوسهم الكنسية وتجريدهم من وظائفهم الكهنوتية، وأضاف إليهم الماكيدونيين والأبوللينارين(٥).

وعلى امتداد الأعوام الثلاثة الأخيرة (٣٨١-٣٨٣) من حياة جراتيان، حرص الإمبراطور على أن يتردد بانتظام على ميلانو ويقيم فيها بعض الوقت، حيث كان أمبروز قد انتهى من وضع الكتب الثلاثة الباقية من رسالته عن الإيمان De Fide، وراحت حماسة جراتيان الدينية وتعلقه بالنيقية تزداد بصفة مستمرة وذلك بتأثير الأسقف الميلانى، وفى الوقت ذاته كان ثيودوسيوس قد أقدم على اتباع السياسة نفسها فى أقاليمه الشرقية، فأصدر مرسوميه المتتاليين فى فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١ باعتبار النيقية العقيدة الرسمية، وجاء الإعلان عن ذلك بصفة جماعية في الشرق والغرب فى مجمع القسطنطينية المسكونى فى ربيع ذلك العام، ومجمع أكويليا المنعقد فى صيف العام نفسه. بل إن أمبروز وقد اطمأن إلى أن نجم النيقية آخذ الآن فى الصعود، لم يتوان عن رسم أحد خلصائه وهو أنيميوس Anemius أسقفاً لمدينة سيرميوم، والتى كانت تعد مركزاً رئيسياً للآريوسيين ممثلين فى الفوطينيين.

والحقيقة أن شخصية أمبروز قد فرضت نفسها تماماً على هذه الفترة من أخريات القرن الرابع الميلادى. وساعده على ذلك عاملان، أولهما يختص بالأسقف نفسه، والثانى هيأته له الظروف السياسية والكنسية القائمة آنذاك، حتى قال عنه أحد المؤرخين "إنه يمثل فى كثير من الجوانب وبكثير من المفاهيم نموذجاً حياً يجمع فى شخصيته الأوضاع السياسية والاجتماعية القائمة فى الربع الأخير من القرن الرابع(٦). ولما كان حاكماً مدنياً قبل اعتلائه كرسى الأسقفية، نفقد امتزجت عنده بشكل كبير الوظيفة الرعوية بشقيها الزمنى والدينى، وإذا كان قد عكف على

(٤) THEOD. hist. eccl . V 2.

(٥) Ibid. 11.

(٦) Chadwickk, op. cit. p. 167.

الدراسات القانونية أثناء مراحله التعليمية حتى حقق فى ذلك نجاحاً كبيراً وذاع صيته، وقاده ذلك إلى أن يصبح حاكماً على ليجوريا وإيميليا، فإنه صرف همه وجهده بعد ترسيمه أسقفاً إلى دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة خاصة الآباء اليونان. والواقع أن الآباء اللاتين باستثناء أوغسطين، لم يكونوا دارسين متعمقين أو مفكرين ميتافيزيقيين، ولهذا كانوا تلاميذ اليونان فى المسائل اللاهوتية، واقتصر نشاطهم على جعل التراث الفكرى الذى أنتجه الشرق المسيحى فى متناول العالم اللاتينى، ومع هذا فإنهم كانوا أيضاً فى الوقت ذاته ورثة التراث الغربى، فربطوا بين معارفهم الجديدة والقوة الخلقية وروح النظام، وهى النواحى التى ميزت الكنيسة اللاتينية واكسبتها طابعها الخاص. من ثم كان اهتمامهم بالمسائل اللاهوتية ثانوياً دائماً بالقياس إلى إخلاصهم للتقاليد الكنسية وحرصهم على الوحدة الكاثوليكية[٧]. ويتمثل هذا أيضاً بصورة واضحة فى أمبروز فقد شغلته مشاكل رعاية أسقفيته إلى الحد الذى لم يتح له أن يترك عملاً ضخماً فى المسائل اللاهوتية، إذا استثنينا رسالته عن الإيمان المسيحى، على الرغم من أنه على قدر كبير من الثقافة والمعرفة [٨]. بينما حرص على أن يضع مؤلفاً "عن وظائف الأكليروس"[٩] De officiis ministrorum. يقول فى مقدمته: "عندما تركت منصة الحكم لأتسلم رداء الكهانة، فقد رحت أتعلم ما لم أتعلمه من قبل، وكانت النتيجة أنه يجب على الآن أن أتعلم وأعلم فى آن واحد [١٠].

ولقد شارك أمبروز بهذا الكتاب فى الاتجاه الرومانى إزاء الفلسفة، بمعنى الاهتمام بالنواحى الخلقية والعملية، وتأثر إلى حد كبير جداً فى هذا المؤلف بما وضعه من قبل المفكر الرومانى الأشهر شيشرون Cicero تحت نفس العنوان[١١].

---

(٧) دوسن : تكوين أوروبا.. ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور سعيد عاشور، ص٤٩.

(٨) Rand, op, cit. p. 77.

(٩) AMB. de off. minis. I –III.

(١٠) AMB. Ibid. I 3.

(١١) AMB. Ibid. I 73, 83, 126, 132, 135, 138, 141, 142, 145, 175, 176, 202, 202, 219, 226, 228, 231, 231, 240, 263-264; II 22, 28, 38, 40, 43, 49, 50, 56, 60, 66, 69, 71, 73, 78, 80, 81, 88, 93, 96, 97, 102-103, 107, 109, 112, 117, 126' III 2, 9, 24, 27, 29-30, 45, 58, 59, 66, 70-71, 73, 76, 78, 80, 87, 91, 97, 124, 125, 127, 132-134.

"De officiis" ولقد وجه أمبروز عمله هذا إلى اكليروس ميلانو بصفة خاصة وتابع فيه شيشرون فى تقسيمه لكتابه ومعالجته للفضائل، وإن كانت المعالجة كلها تسودها الروح المسيحية[١٢]. وإذا كان أمبروز قو حرص فى مؤلفه على أن يبين سمو الأخلاق المسيحية على المثالية الرواقية لدى شيشرون، فإنه لم يستطع شأن جيروم، أن يهرب من التأثير الكلاسيكى، لينتهى به الأمرإلى تبنى النموذج الرواقى لشيشرون باعتباره جوهر الأخلاق المسيحية [١٣]. ومن ثم فإن أمبروز بهذا المؤلف – كما يقول كوبلستون – لم يضف شيئاً جديداً خاصاً بالأخلاقيات المسيحية، ولكن أهمية أعماله تكمن حقيقة فى تأثيرها على الفكر الذى جاء بعده وما كتبه خلفاؤه عن الأخلاقيات، حيث ظل هذا الكتاب لعدة قرون أحد المصادر الرئيسية فى هذا المجال، وعد المنبع الأساسى لدخول الأخلاقيات الرواقية فى المسيحية[١٤]. وكان أوغسطين من أول وأكثر من تأثروا بالأسقف الميلانى فى كثير من كتاباته وتفسيراته[١٥].

وفى الوقت ذاته نرى فى كتابات أمبروز اقتباسات كثيرة من الفلاسفة الإغريق سقراط وأفلاطون وأرسطو واكسنوفون والرواقيين، بل وحتى الأبيقوريين[١٦]، ومن الجدير بالملاحظة أنه كان متضلعاً من اليونانية أكثر من البلاغى الإفريقى الشهير لاكتانتيوس Lactantius وحتى معاصره الأشهر أوغسطين، ولذا فقد كان أمبروز قارئاً متطوراً ممتاز، فقرأ لآباء الكنيسة اليونان، ليس فقط كلمنت وأوريجن السكندريين، بل أيضاً ديديموس Didymus السكندرى الضرير، ورئيس مدرسة اللاهوت السكندرى فى أواخر القرن الرابع، وباسل

---

(١٢) Copleston, A history of philosophy, II part, I p. 15; Rand, op. cit. pp. 79-83; Laistner, op. cit. p. 52.

(١٣) Thompson, & Johnson, op. cit. p. 60.

(١٤) Copleston, op. cit. p. 51. وراجع أيضاً Thompson & Johnson, op. cit. p. 60

(١٥) عن تأثير أمبروز الواضح على أوغسطين راجع:
Dawson, religion and the rise of western culture, pp. 39-41; Shiel, Greek thought and the rise of Christianity, p. 48; Hughes, A history of the church, II p. 10; Bainton, history of chrristianity, I pp. 149-150; Stephenson, Mediaeval history, p. 81.

(١٦) AMB. de off. minis. I 31, 50, 132' de fide, IV.

الكبادوكى وجريجورى النيساوى وجريجورى النازيانزى، وحتى فيلون اليهودى[١٧]. ولا شك أن هذه الثقافة الواسعة والإطلاع العريض، قد أهلاه لأن يمتلك ناصية الخطابة، حتى أن أناشيده التى نظمها كانت تترك تأثيراً قويا فى نفوس الجموع المسيحية، وكان عليه من جزاء ذلك أن يواجه تهمة رماه بها الآريوسيون، من أن هذه الأناشيد بها أسرار السحر [١٨]. ومع أن أمبروز كان شديد المقت للفرق المسيحية غير النيقية، والوثنيين، وسعى جاهداً طيلة عمره الأسقفى لإعلاء شأن النيقية والقضاء على هؤلاء وأولئك، إلا أنه كان من بين الذين عرف عنهم عدم ميلهم إلى استخدام العنف ضد المخالفين، وهو فى ذلك يتبع شأن ترتوليانن ولاكتانتيوس وهيلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان ترتوليان ولاكتانتيوس وهلاريوس وأوغسطين، خطى آباء الكنيسة اليونان الذين يرفضون تماماً فكرة اللجوء إلى القسوة ضد الخارجين عن العقيدة[١٩].

هذه هى شخصية أمبروز فيما يتعلق بتكوينه العلمى وثقافته ورعايته لشئون الكنيسة واهتمامه بأمور إكليروسه، غير أن هذه السمات لم تكن لتصقل لو لم تجد المناخ الملائم لها متوفراً فى الظروف التى كانت تعيشها الكنيسة والدولة آنذاك، فعندما اعتلى أمبروز كرسى الأسقفية فى ميلانو كانت الساحة الكنسية قد خلت من الشخصيات القوية التى لعبت دوراً كبيراً حتى سبعينيات القرن الرابع، إما بالوفاة أو بأرذل العمر، أو بالعزل، سواء فى ذلك رجال النيقية أو الآريوسية، فأثناسيوس السكندرى كان قد مات فى العام السابق على رسامة أمبروز، بعد أن ظل قرابة نصف قرن من الزمان (٣٢٨-٣٧٣) يشغل فكر الأباطرة والأكليروس والرهبان والجموع، وأجهزة الدولة، المدنية وأحياناً العسكرية، فى شطرى الإمبراطورية،

---

(١٧) انظر HIER. Epp. XLIII 1; LXXXIV 9; Shiel, op. cit. p. 53; Rand, op. cit pp. 78-79; Romestin, Nicene and p.n.f. vol. X p. XV.

(١٨) Jenkins, some aspects of Medieval Latin literature (in legacy of Middle Ages), p. 155.

(١٩) Heer, The Medieval world, p. 146. ويصفه يوحننا القاشيانى بأنه "رجل الله الأشهر الذى لم يترك أبداً يد الرب، دائماً يسطع ويبرق كحجر كريم علق بأصبع الله" IOH. CASS. De incarnatione Verbi, V 25.

ولم يكن لخليفه بطرس وتيموثى أو حتى ثيوفيلوس أى حظ أو قدر من ذكائه ودهائه وجرأته وعناده. أما الكبادوكيون الثلاثة، فقد شغلوا عن هذه الصراعات بالانغماس فى الدراسات اللاهوتية، ولم يحاولوا أن يوقعوا أنفسهم فى حلبة الصراع، إلا عندما أقحم عليهم، كما حدث لباسل الكبير أسقف قيسارية على عهدى الإمبراطورين جوليان وفالنز. وفى الغرب لم يعد هناك شخصيات تعدل هوسيوس القرطبى، الملقب بأبى المجامع، والنيقى المتحمس، أو هلاريوس أسقف بواتييه. بل إن روما نفسها افتقدت بعد وفاة أسقفها يوليوس، الشخصية القوية التى يمكن أن تشارك أمبروز الدور الرئيسى على مسرح الأحداث، ولم يكن ليبريوس أو داماسوس بالذى يمكن أن يعدل كفة الأسقف الميلانى. يضاف إلى هذا أن الشقاق الذى كانت تعانى منه أسقفية روما بين داماسوس وأورسينوس لسنوات طويلة قد فت فى عضد قوة الكرسى الرومانى.

وإذا كان هذا هو حال زعماء النيقية فى الشرق والغرب، فإن الآريوسية هى الأخرى لم يعد لها من زعمائها وآبائها الأقوياء من يستطع أن ينافح أمبروز الحجة ويحاوره. فقد مات يوسيبيوس النيقوميدى منذ زمن بعيد (٣٤١) ثم لحق به على التوالى يودوكسيوس وأوكسنتيوس ويوزيوس، ولم يكن خلفاء هؤلاء بمن يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركوه. كما أن الآريوسية فقدت آخر حماتها من الأباطرة، أعنى فالنز، فجأة على يد الجرمان، ولم تقم لها بعد ذلك فى الشرق قائمة. وهذا هو الفارق الكبير بين أمبروز وأثناسيوس، فهذا الأخير أمضى ستة وأربعين عاماً متواصلة يتصدى للآريوسيين إكليروسا وأباطرة، ويتحدى سلطان الآريوسية ممثلة فى قسطنطيوس وفالنز، بينما وجد أمبروز الأمور أمامه ميسرة، فالأباطرة فى شطرى الإمبراطورية على النيقية، إذا استثنينا هذا الظل الباهت للآريوسية الممثل فى فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا، والأكليروس كله مال إلى الإيمان النيقى إن طوعاً أوكرهاً، والجدال اللاهوتى من حول مكانة المسيح خفت حدته بعد أن شهدت الفترة الواقعة ما بين إنتهاء جلسات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ووفاة أثناسيوس عام ٣٧٣، وهى تمتد إلى نصف القرن، أربعة وثلاثين مجمعاً كنسياً عقدت فى الشرق

عدا ثمانية فقط شهدها الشطر الغربى من الإمبراطورية، كلها تدور حول العقيدة الآريوسية[٢٠].

وإذا كانت هذه هى حال الكنيسة فى الربع الأخير من القرن الرابع، فإن الظروف السياسية التى عاشتها الدولة آنذاك، كانت عاملاً هاماً ساعد على أن ينجح أمبروز فى إدراك المكانة التى حققها وإحراز الشهرة التى حازها؛ فالإمبراطورية لم تخضع طيلة أسقفيته لسيادة امبراطور واحد إلا على فترتين قصيرتين جداً خلال ثلاثة وعشرين عاماً (من ٩ أغسطس ٣٧٨ إلى ١٩ يناير ٣٧٩) أى منذ قتل فالنز إلى أن أعلن ثيودوسيوس إمبراطوراً شريكاً، مع إدخال وجود إمبراطور آخر يحبو فى عمر الصبا هو فالنتيان الثانى، وإن لم يكن له نفوذ فى الحسبان، أما الفترة الثانية فهى التى أصبح فيها ثيودوسيوس إمبراطوراً فرداً، ولم تزد عن شهور أربعة وأحد عشر يوماً (من ٦ سبتمبر ٣٩٤ إلى ٧ يناير ٣٩٥) وهى الواقعة بين انتصار ثيودوسيوس على مغتصب العرش فى الغرب يوجنيوس، ووفاة ثيودوسيوس نفسه[٢١].

ووجود إمبراطورين على العرش فرصة أفاد منها أمبروز، والشواهد والأدلة على ذلك قائمة وسابقة. فالإمبراطور قسطنطين حكم الإمبراطورية منفرداً طوال أربعة عشر عاماً (٣٢٣-٣٣٧) فرض فيها سيطرته الكاملة وسيادته على الدولة والكنيسة، فلما مات وخلفه أبناؤه الثلاثة، كان ذلك باباً فتح على مصراعيه ليلج منه الجدال اللاهوتى بين النيقية والآريوسية، وتمكن أثناسيوس من الإفادة من ذلك الوضع إلى حد كبير جداً، إلى الحد الذى هدد إمبراطور النصف الغربى قنسطانز أخاه قسطنطيوس إمبراطور النصف الشرقى بالحرب، من أجل الأسقف السكندرى وبولس أسقف القسطنطينية! حتى إذا أصبح قسطنطيوس الآريوسى حاكماً منفرداً (٣٥١-٣٦١) نجح إلى حد ليس بالقليل فى فرض سيادة الدولة والعقيدة الآريوسية على الكنيسة كلها فى الإمبراطورية عامة. فلما عادت

---

(٢٠) للوقوف على هذه المجامع كلها وما دار فيها والنتائج التى ترتبت عليها، راجع للمؤلف : الدولة والكنيسة، الجزء الثالث، ملحق رقم ٣.

(٢١) انظر الفصل الخامس.

الإمبراطورية يعتلى عرشها رجلان، فالنتينيان الأول وفالنز، أفاد النيقيون والآريوسيون من هذا الوضع بقدر سواء، وليس أمبروز والإمبراطورية على عرشها عاهلان، بل ثلاثة عواهل فى بعض الأحيان[٢٢]، استثناء من هذه القاعدة.

ولا يخفى علينا، أن أباطرة الغرب لم تكن لأحدهم قوة الشخصية التى يتمتع بها الأسقف الميلانى، فجراتيان رغم شجاعته العسكرية وانتصاراته المتتالية على الجماعات الجرمانية، إلا أنه كان ما يزال شاباً فى مقتبل العمر، صرف وقتاً كبيراً فى إشباع هواياته الخاصة، كما أنه كان واقعاً تحت تأثير أمبروز مفتوناً بشخصيته لا يعصى له أمراً. أما أخوه فالنتينيان الثانى فقد أريد له أن يظل طفلاً لفترة طويلة، حيث خضع لوصاية أمه جوستينا ونفوذها فذابت شخصيته، فلما ماتت كان هو قد استمرأ حياة الدعة والنعيم ولم يلبث أن قتل. ولذا فإن عداء جوستينا وبالتالى ابنها فالنتينيان لأمبروز، كانت نتيجتها الحاسمة ازدياد نفوذ الأسقف الميلانى لدى الجموع، خاصة أن الإمبراطور الطفل وأمه كانا يبديان ميلهما إلى الآريوسية.

وإلى جوار هذا كله فإن الاضطرابات السياسية والحروب الأهلية التى شهدها النصف الغربى، كانت من بين الأسباب الرئيسة التى أدت إلى إضعاف سلطان الحكومة هناك والتقليل من هيبتها. فقد قتل جراتيان عام ٣٨٣ على يد ماكسيموس، ولم ينقض على ذلك خمسة أعوام حتى كان هذا قد لقى حتفه صريعا. وإن هى إلا سنوات أربع (٣٩٢) حتى شهد هذا الشطر من الإمبراطورين مقتل فالنتينيان الثانى، ولم ينعم المتآمرون الذين رفعوا إلى العرش يوجنيوس بفعلتهم هذه إلا سنتين فقط، حيث لحق بمن سبقوه كرهاً سنة ٣٩٤ ولم يمكث ثيودوسيوس بعد ذلك إلا قليلاً حتى ودع دنياه، تاركاً على العرش إمبراطورين، أحدهما فى الشرق صبى، أركاديوس، وفى الغرب طفل هو هونوريوس. هذه الأحداث فى مجموعها تدل دلالة صادقة على افتقاد الشطر الغربى من الإمبراطورية للحكومة المركزية القوية التى تستطيع أن تفرض على الجميع سلطانها دون منازع، كما أنها استنفدت

(٢٢) شهدت الإمبراطورية خلال الربع الأخير من القرن الرابع فترات كان عرشها يحتله أباطرة ثلاثة، ونعنى بذلك الفترة التى حكمها ثيودوسيوس فى الشرق، وجراتيان وفالنتينيان الثانى فى الغرب، ثم بالاشتراك مع ماكسيموس بعد مقتل جراتيان.

أيضاً جهد ومال وفكر ووقت حكومة الشطر الشرقى، بقيامها بإعداد حملات متتابعة لإقرار الأمور المتردية هناك.

وفى غيبة الحكومة المركزية القوية فى الغرب، وانشغال حكومة الشرق بما يجرى فى الغرب، وبمشاكلها الخاصة على الجبهة الفارسية، والتى كان محورها هذه الجولة فى أرمينيا، والتى لم يستطع ثيودوسيوس أن يفرغ منها إلا بعد ثمان سنوات من حكمه (٣٨٧) بالتوصل إلى اتفاق مع سابور الثالث الملك الفارسى، لينطلق بعدها إلى الغرب لحرب ماكسيموس، واستنفاد الجرمان لجزء كبير من فكره وجهده، ومحاولة إعادة بناء الجيش الإمبراطورى الذى تمزق عند إدرنه، وجهوده المتواصلة للتخلص من الآريوسية والقضاء على الوثنية. كل هذه الظروف مجتمعة، بالإضافة إلى تكوين أمبروز الفكرى والثقافى، قادته إلى أن يعتبر الشخصية البارزة الحقة فى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادى على نفس القدر مع الإمبراطور ثيودوسيوس.

وإذا كان أمبروز قد أفاد إلى أقصى حد من الظروف الكنسية والزمنية التى أحاطت به وتهيأت له على امتداد أسقفيته الطويلة، وساعده على ذلك خبرته كحاكم مدنى قبل سيامته، ودراساته القانونية وقراءاته اللاهوتية، وشخصيته وثقافته. فإن ثيودوسيوس قد استحق لقب العظيم الذى اقترن باسمه لأعماله العسكرية والدبلوماسية لاحتواء موجة المد الجرمانى الأول داخل الإمبراطورية، ولما أنفقه من جهد فى سبيل الاعتراف بالمسيحية النيقية دينا رسمياً للإمبراطورية. وقد سار هذا الطريق منذ العام الأول لاعتلائه العرش بخطوات قدمناها، تمثلت فى مرسوميه الشهرين فى فبراير ٣٨٠ ويناير ٣٨١، ثم الإقدام على طرد ديموفيلوس أسقف العاصمة الآريوسي وجماعته من المدينة وتجريدهم من الكنائس التى كانت بأيديهم وتسليمها إلى النيقيين، فإدانته للماكيدونية وغيرها من الفرق المسيحية الأخرى التى تعتبرها الكنيسة الجامعة خارجة عن دائرة إيمانها، وتأكيده لقانون الإيمان النيقى فى المجمع المسكونى الثانى سنة ٣٨١، فإعادة هذا التأكيد من جديد على الهوموسية فى مجمع القسطنطينية الثانى الذى عقد فى العام التالى.

غير أن الآريوسيين بفرقهم العديدة لم يستسلموا طواعية لما أراده ثيودوسيوس، ووقعت كثير من حوادث الشغب والفوضى فى عدد من مدن الإمبراطورية عند تسلم النيقيين للكنائس من خصومهم[٢٣]. ويبدو أن الإمبراطور صمم على أن يخطو الخطوة الأخيرة بالحسنى فى تعامله مع الآريوسيين، فوجه الدعوة إلى مؤتمر عام يعقد فى القسطنطينية يضم النيقيين والآريوسيين على اختلاف فرقهم، لإجراء حوار جدلى لاهوتى بينهم جميعاً، علهم ينتهون إلى وفاق فى أمر العقيدة، وتمثل هذا المؤتمر فى المجمع الذى التأم عقده فى القسطنطينية سنة ٣٨٣، وهو المجمع الثالث على التوالى الذى شهدته العاصمة خلال سنوات ثلاث. وكان على رأس الحضور نكتاريوس أسقف العاصمة، وأجليوس Agelius أسقف جماعة النوفاتيين [٢٤]. وهما يمثلان النيقية، لأن النوفاتيين كانوا يدينون أيضاً بالهوموسية. أما الآريوسيون فكان يتزعمهم ديموفيلوس، أسقف العاصمة الأسبق، والماكيدونيون يقود خطوهم اليوزيوس Eleuxius أسقف كيزيكوس Cyzicus، على حين يتقدم يونوميوس فريق الأنوموييين[٢٥].

وفى يونية تقاطر على القسطنطينية هؤلاء جميعاً والصفوة من أنصارهم، التى تجيد فن الجدال، وكانت خطة الإمبراطور تقضى بالسماح لكل فريق بشرح إيمانه على الحاضرين، ومناقشته من جانب الفرق الأخرى، حتى يبين للجميع صدقه أو زيفه، فلما عرض ثيودوسيوس هذا الرأى على أسقفه نكتاريوس أصابه الفزع [٢٦]. ورغم أن مؤرخي الكنيسة لم يقدموا أى تبرير لهذا الهلع الذى تملك نكتاريوس، إلا أن الحقيقة التى لا مراء فيها، هى أن أسقف العاصمة النيقى كان يعرف تماماً قدر نفسه ومقدرته، فهو لم يكن بأى حال من الأحوال يستطيع أن يتصدى جذالاً ، أو أن يدخل فى أى حوار لاهوتى مع رجال الآريوسية الذين

---

(٢٣) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

(٢٤) اشتقت هذه الطائفة اسمها من نوفاتيان Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما، والذى ناصب كورنليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث العداء، للخلاف الذى نشب بينهما حول قبول المارقين عن الدين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة. وهم يطلقون على أنفسهم المتطهرين شأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر.

(٢٥) SOCRAT. hist. eccl. V 10 ; SOZOM. hist. eccl. VII 12.

(٢٦) SOCRAT. Loc. Cit.

تمرسوا فكراً على هذه الأمور، وقضوا فى متاهاتها العقيدية جل أعمارهم خاصة يونوميوس، الذى يتفق مؤرخو الكنيسة على ذكائه وسحر بيانه رغم عدائهم له(٢٧). ونكتاريوس لم تكن له باللاهوت معرفة كافية، ولا بالجدال خبرة، ومن ثم اختلط عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل إلا أن يلجأ إلى أجليوس النوفاتى، الذى أشار عليه بدوره أن يلجأ إلى شماسه سيسنيوس Sisinius الذى كان متضلعاً من اللاهوت، بلاغياً ومجادلاً(٢٨).

وقد اقترح سيسينيوس على نكتاريوس أن يقدم إلى المؤتمرين اعترافات آباء الكنيسة الأول عن الإبن، ويطلب إلى رؤساء الفرق المختلفة الإدلاء بآرائهم حول هذه الاعترافات. وقد سر أسقف العاصمة لهذا الاقتراح الذى لا يحمل فى جوهره أى فرصة للنقاش أو الجدال، وهو ما كان يتمنى الخلاص منه. وقد فعل. وطرح على الحضور سؤاله الأول: هل تحترمون الآباء الذين عاشوا قبل أن يناجى آريوس بدعوته؟ فأجابه الجميع بالإيجاب. ثم كان سؤال الثانى: هل تعترفون بأنهم آباء الإيمان المسيحى القويم؟ وهما دبت الفوضى فى المجمع، وأنقسم الحاضرون كل يرى فى الآباء رأيه، بل إن هذا قد أدى أيضاً إلى انقسام الواحد على نفسه(٢٩).

---

(٢٧) يذكر سوزومنوس أن يونوميوس كان يقيم فى هذه الفترة فى بيثينيا Bithynia على الساحل الآسيوى القريب والمواجه للقسطنطينية، حيث تجمع حوله الكثيرون ممن أعجبوا بحديثه وسحرتهم لباقته، حتى وصلت سمعته مسامع الإمبراطور، فأبدى رغبته فى عقد مناظرة معه وحوار، غير أن الإمبراطورة فلاكيلا Flacilla وهى الزوجة الأولى لثيودوسيوس وأم ولديه أركاديوس وهونوريوس، حالت دون عقد هذا اللقاء، مخافة أن يتأثر زوجها بسحر بيان يونوميوس وقوة أقناعه فى الجدال. راجع SOZOM. Hist. Eccl. III 15, VI 26, VII 6; SOCRAT. Hist. Eccl. II 35

(٢٨) SOCRAT. hist. eccl. V 10; SOZOM. hist. eccl VII 12.

(٢٩) ظهرت هذه الانقسامات بصورة واضحة فيما بعد، حيث اختلف دورثيوس الذى كان أسقفاً آريوسياً فى أنطاكية وأصبح الآن أسقفا للآريوسيين خلفاً لديموفيلوس خارج أسوار القسطنطينية، اختلف مع مارينوس Marinus الذى استدعاه الآريوسيون بعد وفاة ديموفيلوس وقبل قدوم دورثيوس، وقد عرف أتباع مارينوس بالكعكيين Psathyrians حيث كان أحد المتحمسين لآراء مارينوس وهو سورى المولد يدعى ثيوكتستوس Theoctistus بائعاً للكعك Psathyropla ولم يلبث مارينوس أن اختلف مع أجابيوس Agapius الذى كان هو نفسه قد رقاه إلى مرتبة أسقف إفسوس، ولم يعد الآريوسيون إلى الوفاق الظاهرى فقط إلا عام ٤١٩=

ورأى الإمبراطور أن المجمع يسير إلى نهاية مفزعة غير التي كان في البدء يؤملها، إذ زاد الانقسام انقساماً، ومن ثم لجأ إلى نفس الأسلوب الذى اتبعه من قبل سلفه قسطنطين(٣٠). بقهر هؤلاء جميعاً على أن يسلكوا الدرب الذى يخطه لهم، فأمرهم بأن يتقدم زعيم كل فريق على حدة بوثيقة إيمانه الذى به يدين، وسوف يبحث هو بنفسه عن أيها أقوم!! ولم يتمخض قرار الإمبراطور إلا عن النتيجة المعروفة والمرادة سلفاً، وهى الاعتراف بقانون الإيمان النيقى ورفض كل ما عداه. وقد جاء ذلك فى صيغة مرسوم عام صدر عن الإمبراطور فى سبتمبر ٣٨٣ باعتبار النيقية هى المسيحية الحقة، وكل ما خرج عنها زيف وضلال، وقرر حرمان كل الفرق المسيحية الأخرى الخارجة – عدا النوفاتية – من مباشرة طقوسهم أو نشر عقائدهم، أو رسم أحد منهم لوظائف الأكليروس، وتجريدهم من كنائسهم، وتهدّد المخالفين بأقسى أنواع العقاب (٣١).

=على عهد ثيودوسيوس الثانى. ولم يكن أتباع يونوميوس أقل من ذلك إنقساماً، فقد خرج ثيوفرونيوس Theophronius الكبادوكى على بعض آراء أستاذه يونوميوس وعرف أتباعه باسم "اليونوميوثيوفرونيون" Eunomiotheophronians ولم يلبث أحد رجال الأكليروس فى القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eytychius أن انشق هو الآخر عن يونوميوس وجماعته، وتولد عن ذلك فرقة أخرى هم اليونوميوطيخيون Eunomieutychians ويقول سقراط إن هذه الانقسامات حدثت فى القسطنطينية وحدها وضواحيها، وإنه رأى أن يقصر حديثه عليها فقط لقربه منهم، ولأنها التى ولد فيها، ويضيف إنه لن يتحدث عن الفرق الأخرى فى مدن عديدة لأن هذا سوف يخرج به عن الهدف الأساسى لكتابه. راجع:

SOCRAT. Hist. eccl. V 23, 24; SOZOM. Hist. Eccl. VII 17.

(٣٠) فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد في نيقية سنة ٣٢٥، "أقتيد" الأساقفة حسب تعبير شيخ مؤرخى الكنيسة يوسيبيوس، إلى التوقيع على صيغة الإيمان بعد أن أضاف إليها الإمبراطور قسطنطين بنفسه، بوحى من هوسيوس القرطبى، عبارة "من نفس جوهر الأب Homoousius أو الهوموسية التى كانت فاتحة الجدال اللاهوتى طيلة القرن الرابع، كما أن قسطنطين طلب من آريوس بعد إعادته من المنفى عام ٣٢٨ أن يقدم وثيقة إيمانه، وقد قبلها قسطننطين واعترف بها دون أن يعرض الأمر على الكنيسة أو أحد رجالها، رغم خلو هذه الوثيقة من "الهوموسية".

(٣١) SOCRAT. Hist. Eccl. V 10; SOZOM. Hist. Eccl. VII 12.

وهكذا حققت النيقية بعد لأى انتصارها على الآريوسية، وأصبحت تمثل الصيغة الرسمية للمسيحية، بعد أن ظلت تتصارع والآريوسية على امتداد خمسة وستين عاماً (٣١٨-٣٨٣)، ولم يكن نصرها الذى حققته على الآريوسية عام ٣٢٥ فى المجمع النيقى إلا بريقاً خاطفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات، ولم يكن خالصا. أما الآن فقد سادت الكنيسة بمقتضى مرسوم إمبراطورى عام كان الأول من نوعه منذ اعتبرت الإمبراطورية فى شخص قسطنطين وليكينيوس المسيحية ديانة شرعية rilligio licita فى اجتماع ميلانو عام ٣١٣. ورغم أن الآريوسية قد كسبت جولات كثيرة قبل ذلك على عهود قسطنطين وقسطنطيوس وفالنز، إلا أن أحدا من هؤلاء الأباطرة ، أو حتى الإمبراطورين الآخيرين وهما أقطاب الآريوسية، لم يصدرا مرسوماً عاماً باضطهاد الفرق المسيحية المخالفة. حقيقة وقعت بعض حوادث العزل والنفى للأساقفة، وكان ذلك يتم عن طريق المجامع الكنسية المكانية ويصدق عليها الإمبراطور، لكن مرسوماً إمبراطوريا عاماً بإنزال الاضطهاد بأتباع الفرق الأخرى، وملاحقتهم ومحاولة القضاء عليهم كلية، لم يصدر خلال فترة السيادة الآريوسية. وهكذا كان ثيودوسيوس أول إمبراطور يقدم على ذلك، ويتعداه إلى الحقوق المدنيةُ حيث أخذت بالتدريج تسحب منهم بشكل واضح، خاصة تلك التى تتعلق بالأرث والوصية. لقد كان ثيودوسيوس أحد الأباطرة الذين يعتقدون أن سلطتهم لابد أن تظلل الكنيسة والحياة العقائدية لرعاياهم، وكان هدفه الأساسى أن يرسى دعائم كنيسة نيقية واحدة[٣٢]. غير أنه على الرغم من كل هذه الجهود التى بذلها إلا أنه لم يكتب له النجاح فى هدفه هذا، حيث شهد القرن الخامس صراعاً من حول "طبيعة" المسيح أشد ضراوة مما اكتوى به القرن الرابع الذى دار الصراع خلاله حول "مكانة" المسيح فى الثالوث.

وكان الآريوسيون يبحثون عن الفرصة المواتية لاستعادة سيادة يعتبرونها حقاً لهم، وتحقق لهم ذلك عندما ارتحل الإمبراطور ثيودوسيوس قاصداً الغرب فى عام ٣٨٨ لحرب ماكسيموس، فأعلنوا الثورة فى القسطنطينية، وزاد من حماستهم، ما أشيع عن هزيمة الإمبراطور أمام عدوه، وانصب غضبهم على نكتاريوس

(٣٢) Vasiliev, op. cit. I pp. 80-83.

أسقف العاصمة، فأشعلوا النار فى بيته، وتحددت أهدافهم فى استرداد الكنائس التى كانوا قد طردوا منها قبل ذلك بسبع سنوات (٣٨١)، وقد نجحوا فعلاً فى ذلك. غير أن نجاحهم لم يدم طويلاً حيث أتت الأنباء تعلن انتصار جيش ثيودوسيوس على خصمه، ولم يلبث الإمبراطور أن أرسل أوامره وقواته لإخماد ثورة الآريوسيين، وعاد النيقيون للظهور مرة ثانية[٣٣].

وإذا كانت الأحداث تجرى على النحو هذا فى الشرق، فإن النصف الغربى كان يشهد الأمور بصورة مغاير بعد مقتل جراتيان، ذلك أن جوستينا اتخذت من اغتياله فرصة لمباشرة السلطة بنفسها فى إيطاليا باسم ابنها فالنتينيان الثانى، حيث كان ماكسيموس يمارس سيادته فى غالة. وكانت جوستينا تؤمن بالآريوسية، ولكنها لم تجرؤ لتفصح عن ذلك من قبل[٣٤].

وكان طبيعياً والإمبراطورة الأم وابنها يقيمان فى ميلانو أن يقع الصدام بينها وبين الأسقف أمبروز، خاصة وأن بلاطها فى ميلانو كان يستعين بخدمة أسقف آريوسى يسمى أوكسنتيوس، وهى سَمِى الأسقف الميلانى الآريوسى الراحل، وقد طرده ثيودوسيوس من كرسيه الأسقفى فى دوروستا Durostorum فى موئيزيا، فالتحق ببلاط جوستينا وفالنتينيان الثانى. وقد أوعزت الإمبراطورة إلى أوكسنتيوس أن يطلب من أمبروز السماح بتخصيص إحدى الكنائس فى ميلانو[٣٥]. فوجه فالنتينيان الدعوة إلى أمبروز لحضور مجلس كنسى يعقد فى القصر الإمبراطورى لبحث هذا الخلاف، ولكن الأسقف رفض أيضاً الاستجابة لدعوة الإمبراطور، وكتب إليه رسالة مطولة حول هذا المعنى[٣٦]. يوضح فيها أن المسائل الكنسية يجب أن تبحث داخل الكنيسة لا وراء أستار القصر الإمبراطورى[٣٧].

---

(٣٣) SOCRAT. Hist. eccl. V 13; SOZOM. Hist. Eccl VII 14; AMB. Ep. XL. 13.

(٣٤) SOCRAT. Hist. Eccl V 11; THEOD. Hist. Eccl. V 12-13.

(٣٥) AMB. Sermo con. Aux. 33, 35; ep. XX 2, 3.

(٣٦) AMB. Ep. XXI وقد أوردنا نص هذه الرسالة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٣٧) AMB. Ep. XXI 2, 17.

وكانت جوستينا قد أوحت إلى أحد مستشاريها القانونيين ويدعى منيوفولوس[٣٨] Meniopolus. أن يدبج قانوناً يؤكد فيه الاعتراف من جديد بصحة ما جاء فى قانون الإيمان الذى صدر من قبل عن مجمع ريمينى Ariminium سنة ٣٥٩ على عهد الإمبراطور قسطنطيوس. غير أنه رفض ذلك، ولكنها تمكنت عن طريق غيره من إعداد قانون بهذا الخصوص، سرعان ما أصدره ابنها فالنتينيان سنة ٣٨٠ يقضى بمنح الحرية الدينية للآريوسيين شأن النيقيين [٣٩]. واتخذت الإجراءات الكفيلة بتنفيذ هذا القانون بالقوة. ولم يكن من السهل تحقيق ذلك إلا بقهر أمبروز، فحوصرت الكنيسة التى اعتاد الأسقف أن يعظ فيها رعيته، واستخدم العنف ضد المعلمين، فى محاولة للقبض على أمبروز وإكراهه على الرضوخ للقانون الإمبراطورى [٤٠]. وفرضت غرامة مالية كبيرة على أهالى ميلانو خاصة التجار، واجبة السداد خلال ثلاثة أيام [٤١]. ولكن ذلك كله زاد أمبروز إصراراً على موقفه، وازدادت الجموع تعلقاً بأسقفها خاصة عندما رأته يواجه الأوامر الإمبراطورية بشجاعة، "ليس من حقى أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها . إنك لا تستطيع دون خق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟!"[٤٢]. ولما لم يكن لفالنتينيان الإمبراطور الصبى، من الشخصية ما يمكنه من التصدى لأمبروز، ولما كانت جوستينا تخشى اندلاع الفتنة فى المدينة، فقد تم سحب القوات المحاضرة للكنيسة[٤٣]. خاصة وأن الأنباء كانت قد أخذت تتسرب إلى البلاط فى ميلانو عن اعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، بحجة الحفاظ على امور العقيدة النيقية [٤٤]. وكانت هذه المحاولة من جانب

---

(٣٨) ويدعوه روفينوس: "بنفولوس" Benevolus انظر RVFIN. Hist. Eccl. II 16

(٣٩) AMB. ep. XXI 9; SOZOM. hist. Eccl. VII 13.

(٤٠) AMB. ep. XX 11, 16.

(٤١) Ibid. 6.

(٤٢) Ibid. 19.

(٤٣) Ibid. 26.

(٤٤) SOZOM. Hist. VII 13. ويذكر ثيودوريتوس أن الإمبراطور ثيودوسيوس عندما علم بما كان من أمر النزاع بين أمبروز وجوستينا وفالنتينيان، واعتزام ماكسيموس غزو إيطاليا، كتب إلى فالنتينيان رسالة توبيخ جاء فيها "لا تدع الدهشة تتملك عليك كل سبيل إذا ما وجدت نفسك=

جوستيننا وفالنتينيان هى المرة الأخيرة التى وقفت فيها السلطة الإمبراطورية إلى جانب الآريوسية فى الغرب. وبموت جوستينا عام ٣٨٣، نجح ثيودوسيوس فى التأثير على فالنتينيان وتحويله إلى النيقية، لتصبح هذه هى المسيحية الرسمية فى شطرى الإمبراطورية.

ويشير مجرى الأحداث إلى أن ثيودوسيوس كان قد قر فى ذهنه منذ البداية أن يقيم كنيسة واحدة، شاعت له نشأته فى الغرب، أن تكون النيقية عقيدتها، بحيث يمكنه بعد ذلك أن يقدم على تحقيق هدفه الثانى والأهم. وكان القضاء على الوثنية هو هذا الهدف الثانى أمام ثيودوسيوس(٤٥). ولم يقدم على ذلك دفعة واحدة، بل راح يجهز عليها خطوة خطوة على امتداد عهده، وكلما ازدادت ثقته فى رسوخ النيقية اشتد فى قسوته على الوثنية. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه مع الفرق المسيحية غير النيقية، وإن كانت الفترة التى قضاها فى مواجهة هذه الفرق لم تستغرق سوى الأعوام الخمسة الأولى من عهده، بينما ظل حتى نهاية عهده يصدر المراسيم ضد الوثنية. ولا شك أن هذا يعد شيئاً طبيعياً يتفق ومجريات الأمور. فالوثنية كانت ما تزال حتى الآن هى الدين الرسمى للإمبراطورية، ذلك أن قسطنطين عندما التقى بحليفه اللدود ليكينيوس فى ميلانو عام ٣١٣، ليبحثا ضمن مفاوضاتهما الأخرى موضوع العقيدة، لم يقدما للمسيحية – كما يعتقد كثير – شيئاً سوى مكاناً إلى جوار الوثنية دين الإمبراطورية . فسمحا لأتباعها بممارسة عبادتهم، وردت عليهم كنائسهم وأموالهم المصادرة، ورفع عنهم الاضطهاد. وإذا كان قسطنطين قد حرص بعد ذلك طوال عهده على أن يمالىء الكنيسة، فإن ذلك يعود لأسباب سياسية بحتة، ولكنه لم يكن فى يوم ما فى عقيدته مسيحياً. حقيقة، أصلح ما تهدم من كنائس وأقام كنائس جديدة، وأغدق على المسيحيين، وسمح لهم بإنشاء محاكم خاصة، ولكنه فى الوقت نفسه لم يضطهد الوثنيين ولم يرسل بكهنتهم إلى المنفى، ولم يحرق كتبهم ولم يغلق معابدهم،

=وقد أصابك الهلع، وعدوك فى حلل النصر يرفل، ذلك أنك رحت تتحدى التقوى، بينما هو بها يتحلى. لقد خلعت عنك رداءها ورحت تعدو عارياً. إن الذى منحنا قانون الإيمان الحق ليقف دائماً إلى جانبها".

(٤٥) انظر .Downey, op. cit. p. 64; Bury, The later Roman Empire, I p. 368

وإذا كان قد أغلق بعض المعابد فى بعلبك وكيليكيا، فقد كان ذلك لدوافع خلقية وليست دينية، حيث أمست مباءة للفجور بعد أن هجرها الأرباب وتخلى عنها العباد[٤٦]. والمؤرخ الكنسى ثيودوريتوس يعترف بهذه الحقيقة ويقول ما نصه "إن قسطنطين الكبير الذى يستحق كل التمجيد والإطراء، أصدر مرسوماً بتحريم التقريب للأرباب، لكنه لم يصدر مرسوماً بهدم المعابد وإنما اكتفى بإبقاء بعضها مغلقاً"[٤٧]. ومن المعروف أن قسطنطين كان يقرب للأرباب بنفسه فى قصره.

هكذا يمكن القول إن المسيحية فى عهد قسطنطين خطت فقط أولى خطواتها إلى دائرة الضوء، حيث اعترف بها ديانة "شرعية" أى لأتباعها حق ممارسة طقوسها شأن الوثنيين، وليست "رسمية". وعلى هذا النحو ظلت المسيحية طيلة عهود أبناء قسطنطين الثلاثة رغم أنهم كانوا فعلاً على المسيحية. وكانت الخطوة الوحيدة الجريئة ضد الوثنية هى تلك التى أقدم عليها الأمبراطور قسطنطيوس عندما أمر بإزالة مذبح النصر من مبنى السناتو فى روما فى خمسينيات القرن الرابع، حتى إذا جاء الإمبراطور جوليان، الذى كان يحمل للمسيحيين كراهية عميقة، ويعتبر يوم عماده أسوأ أيام عمره، قام بالمحاولة الرسمية الأخيرة من جانب الدولة لإعادة الوثنية إلى سابق مكانتها المتميزة عن العقائد الأخرى، وأعاد مذبح النصر إلى مكانه. غير أن جهوده ذهبت مع الرياح بموته السريع المفاجئ بعد عهد قصير (٣٦١-٣٦٣) ولم يمتد العمر بخلفه جوفيان أكثر من ثمانية أشهر، حتى يمكن التعرف على ملامح عقيدية معينة لسياسته، رغم ما يضفيه عليه مؤرخو الكنيسة من صفات التقوى والورع[٤٨]. أما فالنتينيان الأول فكان إمبراطوراً متسامحاً، لا مع كل الفرق المسيحية فحسب، بل تجاه العقائد الدينية على اختلاف أربابها[٤٩]، فأغض الطرف عن وجود مذبح النصر فى مجلس الشيوخ الرومانى[٥٠]، بل وسمح بمزاولة العبادات الأليوزية Eleusis الغامضة، فقد أوحى

---

(٤٦) ناقشت هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب الدولة والكنيسة، الجزء الثانى الفصل الثالث.

(٤٧) THEOD. hist. Eccl. V 20.

(٤٨) ATHANAS. Narr ad. Ammon; ep. ad imp. Iov. 1; GREG. NAZ. Orat. XXI 33; SOCRAT. hist. eccl. III 22; SOZOM. hist. eccl. VI 3.

(٤٩) AMM. MARC. res gest XXX 9.

(٥٠) SYMM. MEM. 3

إليه قنصل آخايا أنه إذا قهرت هذه العبادة ، فإن اليونان سوف يجدون أن الحياة قد أصبحت عبثاً[٥١]، ولم يكن فالنتينيان بحاجة حتى لمثل هذا الإيحاء، فقد أعلن منذ الشهور الأولى لاعتلائه العرش ابتعاده الكامل عن المشاركة فى المسائل العقيدية.

هكذا وجد ثيودوسيوس نفسه مسئولاً إلى حد كبير عن القضاء على الوثنية القضاء الأخير، حتى تحتل المسيحية التى طال انتظارها، المكانة الرسمية كدين للإمبراطورية بدلاً من الوثنية، خاصة بعد أن عفا الزمن على القوانين التى كان قسطنطين وأبناؤه قد أصدروها بتحريم الأضحيات للأوثان[٥٢]. ولم تكن العبادات الخاصة للأرباب هى التى ما زالت تلقى رواجاً فحسب، بل أيضاً التنجيم والسحر والعابادات الشرقية. وكان كل من هذه المعتقدات على حدة يشكل خطراً جسيماً على المسيحية. ولا شك أن مسألة العرافة كانت دافعاً قوياً لثيودوسيوس على إصدار مرسومه الأول ضد الوثنية فى ديسمبر ٣٨١، الذى يحرم إجراء الطقوس الوثنية الخاصة بالتنبؤ، وارتياد المعابد من أجل استلهام وحى الأرباب. وهذا القانون فى حد ذاته يعد دليلاً على مدى تغلغل التنجيم والسحر والعرافة فى نفوس معظم الطبقات المختلفة مهما بلغت درجة ثقافتها، حيث كان المنجمون والعرافون يدعون لممارسة طقوسهم فى بيوتات كبار النبلاء.

لقد كانت الطبقة المثقفة، ورجال السناتو والنبلاء والعائلات الثرية والعريقة من الحكام فى الأقاليم والمدن، من أشد طبقات المجتمع الرومانى تمسكاً بهذه العبادات التقليدية، التى كانت لا تمثل مجرد ارتباط تقليدى، أو اعتقاد روحى ولكن تراثاً ثقافياً كلاسيكيا، وتعبيراً عن الشعور بالارتباط بالوطن، ذلك أن عبادة الأرباب ارتبطت تماماً بالتقليد التاريخى بعقيدة روما حول تمجيد الآلهة الخاصة بها[٥٣]. من أجل هذا كان طبيعياً أن يحدث هذا المرسوم رد فعل عنيفاً خاصة فى مجلس السناتو الرومانى، الذى كان يعتبر نفسه حفيظاً على هذه الديانة، حيث كانت

---

(٥١) AMM. MARC. Res gest. XXX 9.

(٥٢) SOZOM. hist. Eccl VII 20. حيث يذكر "أن الوثنية أفادت كثيراً من التسهيلات الموجودة من جانب الدولة، وزاد عدد المترددين على المعابد".

(٥٣) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

الشخصيات القيادية فيه تمثل النبالة الرومانية المثقفة. وبينما لم يكن بمقدور السناتو فى القسطنطينية أن يفعل أكثر من إصدار تشريع يقضى بعدم إغلاق المعابد التى اعتاد السناتو زيارتها، لا من أجل العبادة بل إعجاباً بروائع آيات الفن فيها [٥٤]،فإن السناتو فى روما لم يقف مكتوف الأيدى إزاء هذا التحول الذى يراه خطيراً فى تراث روما.

وقد زاد من مخاوفهم أن الإمبراطور الشاب جراتيان، الذى كان واقعا تماماً تحت تأثير أمبروز، أقدم منذ أوائل سنى حكمه على التخلى عن لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maimus الذى كان يحمله الأباطرة الرومان الوثنيون، رغم كونه يمثل لقباً شرفياً لهم، وحرص قسطنطين وخلفاؤه على عدم التخلى عنه، حتى خلعه جراتيان الذى لم يقف عند هذا الحد، بل أصغى لما أوحى به إليه كل من داماسوس الأسقف الرومانى وأمبروز أسقف ميلانو، فأعاد من جديد إزالة مذبح النصر، وأضاف إلى ذلك مصادرة دخول عذارى الألهة فستا Vesta التى كانت عبادتها تعد واحدة من أعظم الرموز التقليدية الرومانية، وظل الرومان من رجال السناتو وزوجاتهم يقيمون طقوس هذه العبادة، كما بقيت عبادة الربة روما تلقى احتراماً كبيرا من الرومان الذين كانوا يعتقدون أن الخيرات التى ينعمون بها تعود إلى معبوداتهم هذه، وأن أمن الإمبراطورية وأمانها يعتمد إلى حد كبير جداً على هذه الأرباب التى يقدسونها[٥٥].

وكانت إزالة مذبح النصر من مبنى السناتو هذه المرة، هى المحور الذى دار من حوله الصراع بين زعماء الوثنية وآباء الكنيسة يعضدهم الأباطرة، وخلف تراثاً فكرياً لا يمكن تغافله، تمثل فيما كتبه الأديب الوثنى المفوه فتيوس أجوريوس برايتكستاتوس Vettius Agorius Praetextatus والشاعر الذائع الصيت كلوديانوس Claudianus عضو السناتو، الذى كان شديد التحمس لهذا الرمز الذى يمثل التراث الكلاسيكى الرومانى وتتجسد فيه عظمة روما ومجدها، ومن هذا المنطلق نظم قصيداً رائعاً أشاد فيها بما كانت عليه روما، التى لا يمكن

(٥٤) Downey. Op. cit. p. 65.

(٥٥) AMB. Ep. XVII 12; ep XVIII 11 b; SYMM. Mem 3, 10, 11, 13.

للقسطنطينية، وهي تدعو نفسها روما الجديدة، أن تحل محلها(٥٦). ويفوق هذا وذاك ما كتبه محافظ المدينة والمتحدث باسم السناتو وخطيبه الأشهر أورليوس سيماخوس Aurelius Symmachus الذى قدم باسم السناتو ملتمساً إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى بعد مقتل جراتيان يطلب إليه فيه إعادة المذبح ورد أموال عذارى فستا ثانية. ويعد هذا الملتمس قطعة أدبية رائعة فى التغنى بمجد روما وعظمتها وتراثها (٥٧). وفى الناحية الأخرى يقف أمبروز برسالتيه الشهيرتين إلى الإمبراطور نفسه حول هذا الأمر، وهما لا تقلان، خاصة أولاهما، جودة واتقاناً عما كتبه سيماخوس(٥٨).

والحقيقة أن مرسوم جراتيان هذا قد ترك أثره السيء الواضح فى نفوس أعضاء السناتو الوثنيين، والطبقة الأرستقراطية والنبلاء فى روما، فشكلوا وفداً ترأسه سيماخوس لمقابلة الإمبراطور للعدول عن قراره. غير أن داماسوس قاد هو الآخر مظاهرة معادية من رجال السناتو المسيحيين، وعلى ذلك فشلت مهمة سيماخوس حيث أمره الإمبراطور أن يعود أدراجه ثانية وهو على بعد مائة ميل فقط من روما مرتحلاً لملاقاة جراتيان(٥٩). وقد عبر سيماخوس عن ذلك بكل الحسرة فى السطور الأولى من ملتمسه إلى فالنتينيان الثانى من بعد حين قال "ما أن علم مجلس السناتو الموقر الذى يكن لكم كل التقدير، أن عديداً من الجرائم يرتكب، وأن الأمور فى الآونة الأخيرة تتناولها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فقد انتهز هذه الفرصة المواتية ليفتح بعد الصمت المطبق الأليم فاه، وليأمرنى مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل فى جوارحه من أحزان، بعد أن رفض الإمبراطور الممجد، استقبالى بناء على مشورة نفر انطوت على الخبث نفوسهم. ولكننا الآن لن نفتقر إلى العدالة فى ظل سادتى وأباطرتى العظام".

ويبدو أن هذا المرسوم قد أعقبه نوع من الاعتداء من جانب المسيحيين على المعابد وبصفة خاصة تلك التى تتعلق بعبادة فستا وروما. وهو ما يشير إليه سيماخوس "الجرائم التى ارتكبت". ويقول بيورى Bury معلقاً على ذلك "إن ما تم

---

(٥٦) Downey, op. cit. pp. 66-67.

(٥٧) سوف نورد فى المتن بعد قليل نص هذه الرسالة.

(٥٨) انظر بعده.

(٥٩) SYMM. Mem 1.

من تدمير لعدد من الأبنية الرائعة على يد الجماعات الجرمانية إبان زحفهم، لا يعدل مطلقاً ما تم تدميره وتخريبه على عهود هؤلاء الأباطرة المسيحيين، والحقيقة أن ذلك إنما يعزى دون شك إلى التعصب الأعمى لدى رجال الأكليروس وجماعات الرهبان" (٦٠). ويضيف فازيلييف "لقد ذهبت إلى الفناء هذه الثروات الفنية الرائعة فى المعابد بأيدى المتعصبين المسيحيين"(٦١). ولما كان شيوخ السناتو الوثنيون ينظرون إلى هذا العمل على أنه يعد المسمار الأخير فى هدم عظمة روما ومجدها، فقد انتهزوا فرصة مقتل جراتيان، والعداء القائم بين فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا من ناحية، وأمبروز من الناحية الأخرى، ليحاولوا من جديد مع الإمبراطور الصبى، علهم يفلحون. فعُهد إلى سيماخوس بكتابة ملتمس إلى فالنتينيان حول هذا المطلب، نورد هنا نصه بالكامل لنقف على مدى ما كان يعتمل فى نفوس الوثنيين المثقفين آنذاك.

"ما أن علم مجلس السناتو الموقر، الذى يكن لكم كل التقدير، أن عديدا من الجرائم قد وقعت، وأن الأمور فى الآونة الأخيرة وقد تناولتها يد الإصلاح من جانب الأمراء الصالحين، فإنه قد انتهز هذه الفرصة المواتية ليفتح فاه بعد صمت مطبق أليم، وأمرنى مرة ثانية أن أعبر عما يعتمل فى داخله من أحزان، ذلك أنه بناء على مشورة بعض اللئام رفض الإمبراطور الممجد استقبالى (٦٢). ولكن الآن لن نفتقر إلى العدالة فى ظل سادتى وأباطرتى العظام، فالنتينيان وثيودوسيوس وأركاديوس. عز سلطانهم على الدوام ونصرهم".

والديباجة على هذا النحو، بتضمنها للأباطرة الثلاثة، ترمز فى إيضاح إلى النظرية السياسية الرومانية القائمة على وحدة الإمبراطورية حتى وإن تعدد الأباطرة؛ ذلك أن هذه النظرية ترفض تاما فكرة التقسيم أو وجود إمبراطوريتين منفصلتين، وظل ذلك قائماً حتى بعد ضياع النصف الغربى باستيلاء الجرمان عليه

(٦٠) Bury, later Roman Empire, I pp. 368-369.

(٦١) Vasiliev, op. cit. I p. 82; Laistner, op. cit. 26.

(٦٢) المرة الأولى التى يشير إليها كانت على عهد جراتيان. وقد أمر سيماخوس وهو على بعد مائة ميل من روما أن يعود أدراجه ثانية.

خلال النصف الأول من القرن الخامس، ولهذا كانت القوانين تصدر باسم الأباطرة الموجودين في شطري الإمبراطورية، وكان ملتمس السناتو على هذا النحو تعبيراً عن الخطوط العامة لهذا النظرية.

ويمضي سيماخوس قائلاً: "ولذلك فإني في الواقع، وأنا أحمل مسئولية مزدوجة، باعتباري نائباً عنكم، أباشر بإخلاص مهام سلطاتي، وبصفتي مبعوثاً، أنقل إليكم الأعباء التي حملني إياها المواطنون. وبادئ ذي بدء ليس هناك خلاف في الرأي، ذلك أن الناس باتوا يعتقدون أنهم لن يمثلوا الكلمة العليا إذا ما تفرقت كلمتهم ولا ريب؛ فأن تكون محبوباً محترماً، مقدراً، فذلك شيء يفوق بكثير السلطان الإمبراطوري. ومن ذا الذي يستطيع أن يحتمل هذا الشقاق دون أن يهدد أمن الدولة؟ وخيراً يفعل السناتو عندما يؤدب أولاء الذين يفضلون مجدهم على سمعة الأمير.

"إن واجبنا الأول الآن أن نعمل من أجل رحماكم، فأي شيء أفضل من أن نحمي تراث الأسلاف، وحقوق وقدر بلدنا، الذي يعد فوق الجميع، وذلك عندما تدركون أنك لن تقدم على شيء يتناقض وما أقره أسلافكم من قبل. وعليه نرجو أن تعود أمور العقيدة إلى ما كانت عليه من قبل مما كان سبباً في رقي الدولة وازدهارها، وأن تترك لمبادئ كل طائفة وآرائها حريتها. لقد سار واحد ممن سبقوك[٦٣] على سنة أسلافه، بينما سمح لها آخر[٦٤] بالبقاء. وإذا كانت عقيدة الأزمات العابرة لا تمثل سابقة فلتغض الطرف عنها كما فعل آخران[٦٥].

"من ذا الذي يكون على مثل هذه الصداقة مع البرابرة، وليس من حقه أن يطالب بمذبح للنصر؟

"إننا من الآن فصاعدا سوف نلزم الحذر ونبتعد عن التظاهر بمثل هذه الأشياء، ولكن على الأقل فلندع تلك الكرامة تخلع على الاسم الذي يلفظ الآن

---

(٦٣) جوليان.
(٦٤) فالنتينيان الأول.
(٦٥) فالنتينيان الأول وفالنز.

بالنسبة للمعبود، وشهرتك الباقية على مر السنين، مدينة وستظل مدينة دوماً لهذا النصر، أما أولاء الذين يرفضون هذه القوة فإنهم لم يفيدوا منها أبداً. أتراك ترفض التخلى عن هذه الحماية التى تقترن بها انتصاراتك؟ إن شهوة السلطان لها عند الجميع رغبة جامحة، ومن ثم فليس لأحد أن ينكر ما يعترف بأنها فعلاً رغبته وأنها سوف تجلب له الفخار.

"وحتى لو افترضنا أن نتجنب مثل هذا الفأل[٦٦]. ليس كافياً، فإنه من اللائق على أقل تقدير الامتناع عن الأضرار بما يعد فخاراً لمجلس السناتو. إنا نتوسل إليك أن تسمح لنا وقد بلغنا أرذل العمر، أن نترك للأجيال ما فتحنا عليه عيوننا صبية، فلكم هو عظيم حب التراث. حقيقة إن ما فعله قسطنطيوس الممجد قد بقى ولكن لزمن قصير. إن كل السوابق يجب أن تهجر من جانبك. إننا حريصون كل الحرص على سمو اسمك ومجدك حتى يأتى زمان لا يوجد فيه ما يحتاج إلى إصلاح".

ويتساءل سيماخوس والأمل يحدوه فى رحمة الإمبراطور:

"على أى شىء إذن سوف نقسم على إطاعة أوامرك واحترام القانون؟ وبأى رضا دينى سوف ترتدع العقول الضالة؟ حقيقة أن الله يكمن فى كل شىء، ومع ذلك فليس هناك مكان يخلو من الزور والبهتان، ومن ثم فإنه من أجل إقرار صيغ دينية معينة، فلابد من تمثل سلطان قوى يؤدى بالتالى إلى الخوف من إتيان المعاصى. ولا شك أن هذا المذبح يحفظ الوئام بين الجميع، ويستدل به الكل على صدق الإيمان، ولا شىء مثله يعطى لقراراتنا قوة التنفيذ، ذلك أن أى مرسوم يصدر ومنه نظامنا هذا، يجيء كما لو كان قد صدق عليه بالقسم. من أجل هذا فإن مكاناً ما قد يصبح عرضة للإيمان الخائنة. ولكنه سوف يصحح على يد سادتى العظام الذين يعلو مجدهم بقسم عام.

"ولقد قيل إن قسطنطيوس الممجد قد فعل نفس الشيء، فلا ضرورة فى أن نحاكى بقية أعمال ذلك الأمير الذى لم تكن الرحمة تعرف إلى شغاف قلبه سبيلاً، إذا ما أقدم أحد على أن يرتكب أمامه أية حماقة. وكان سقوط هذا سبباً فى أن

(٦٦) الفأل السيء نتيجة تحطيم مذبح النصر.

يصلح خلفه [٦٧] المسار وأن يقوّم أموراً نتجت عمن سبقه. ومن الممكن أن نلتمس العذر لسلفكم فى أمر جديد على مثل هذه الشاكلة، بحيث لم يستطع أن ينجو من اللوم. إذن.. هل من الممكن أن نقدم نحن أيضاً نفس هذه الحجة إذا رحنا نحاكى ما نعرف جيداً أنه أصبح أمراً نكرا؟!

"وهل يسمح عظمتكم بأن يقف على أعمال أخرى لنفس هذا الأمير الذى أنت جدير حقاً بأن تسير على هداه؟ أنه لم يقدم على المساس بامتيازات العذارى المقدسات، وملأ المناصب الكهنوتية بالنبلاء، ولم يرفض تقديم نفقات المراسم (الطقوس) الرومانية واقتفى أثر السناتو المبتهج عبر شوارع المدينة الخالدة، وراح يشاهد باقتناع كامل الأحرام.. واستفسر عن نظام المعابد، وأبدى إعجابه بمن شيدوها. وعلى الرغم من أنه هو نفسه مال إلى عقيدة أخرى، إلا أنه مع ذلك سمح ببقائها عقيدة للإمبراطورية، فقد كان يؤمن أن لكل إنسان تقاليده، ولكل طقوسه، ذلك أن العقل الإلهى قد جعل لكل مدينة حراسها وعباداتها، وكما أن الأرواح توهب للأطفال بالميلاد منفصلة، كذلك العبقرية تمنح للأناس حسب أقدارهم . وهنا يأتى هذا كبرهان للإنسان ودليل على الأرباب. ومن ثم فإنه مادامت عقولنا قاصرة، فمن أى شىء إذن نستقى معلوماتنا الصحيحة عن الأرباب إذا لم نأخذها من الذاكرة ودلائل السراء؟ وعليه.. فإذا كانت القرون قد أعطت للتقاليد الدينية سلطانا مكينا، فمن واجبنا أن نحفظ الإيمان على مر العصور، وأن نترسم خطى أسلافنا، كما اتبعوا هم سعداء سنن الأجداد.

"ولنفترض الآن أن روما جاءتك تسعى وراحت تحاورك قائلة: "أيها الأمير العظيم.. إن آباءك قد حفظوا على دهرى وقدموا إلى طقوس التقوى، فلتدعنى أحيا بشعائر الآباء حتى لا أشعر بالندم عليهم والأسى. دعنى أحيا حسب سننى.. فهذه إرادتى، إن هذه العقيدة قد أخضعت العالم لنظمى، وهذى المقدسات قد ردت هانيبال عن أسوارى، والسينونيين عن الكابيتول محرابى، أتراني كنت أدخر هذا لألام من أجله فى خريف عمرى؟ لسوف أضع فى اعتبارى أى فكر أو قصد يراد به إقرار النظام وإن كنت أعلم أن الرتابة والمهانة هما رفيقا شيخوخة العمر".

---

(٦٧) جوليان.

وهذه العبارات تمثل قمة الذكاء واللباقة من جانب سيماخوس، الذى لابد وأنه يشير من طرف خفى إلى ما تعانيه الآن الإمبراطورية من مهانة فى عهدها المسيحى، بما نالته على يد الجرمان الذين أذلوا كبرياءها فى إدرنة ومازالوا يعيثون فى ولاياتها فساداً، بينما كانت روما فى عصرها الوثنى تسيطر على مساحات واسعة وحضارات متباينة، من بريطانيا إلى الفرات ومن الدانوب إلى النوبة. ولنواصل سيرنا مع محدثنا لنراه يقول:

"وبعد فنحن نسعى من أجل سلام أرباب آبائنا والوطن، ومن العدالة أن ينظر إلى كل العبادات نظرة سواء، ولم لا، فنحن نهتدى بنفس النجوم، والقبة الزرقاء من فوقنا واحدة. وواحد العالم ا لذى يحتوينا، وأى خلاف إلا بسبب العناء ما دام الكل ينشد الحق. إننا لا نستطيع أن ندرك السر الأعظم عبر طريق واحد، وإذا كان الجدل بين الأفراد يسيراً بصورة ما، فأنا مع ذلك لا نقدم الآن صراعاً، بل صلوات وضراعة.

"أى كسب عاد على خزانتك نتيجة تجريد عذارى فستا مما كن به يتمتعن؟ وهل يعقل أن ترفض هذه الهبات على عهد أكثر الأباطرة كرماً وسخاء بينما منحت بيد أشدهم بخلاً وتقتيراً؟ إن كرامتهن الفردية تكمن فى هذه الامتيازات، حتى ولو دعوتها أجز بتولتهن. وكما أن العصابة التى يضعنها على رءوسهن هى التاج الذى يزين مفارقهن، فإن تميزهن يعود أساساً إلى تفرغهن الكامل لأداء الطقوس المقدسة. إنهن يسعين فقط من أجل الحصول على ذلك الاسم الأجوف للإعفاء، ذلك أن فاقتهن أعفتهن من دفع الضرائب. ولعل من ينتقص شيئاً مما هو مخصص لهن، يزيد من قدرهن، ومادامت العذرية (البتولية) قد كرست أصلاً لخير بنى البشر، فإن قدرها يسمو إذا ما كانت دون عوض.

"لا تدع أى كسب من هذا النوع يدنس قدس خزانتك، لا تدع الأمراء الاتقياء يزيدون من دخولهم على حساب ما يفقده رجال الكهنوت، بل من غنائم الأعداء والأسلاب. ترى.. هل جوزى أحد خير جزاء على عار ارتكب؟ ولأن خلقك لا يعرف البخل فإن أشد الناس شقاء أولاً الذين تتضاءل مصادر دخلهم القديم. ذلك أن الأباطرة الذين يعافون التدنى كغيرهم ويبغضون البخل، لا ينالهم الضرار الذى يصيب من تحركه الرغبة فى إتيانه.

"كما أن الخزانة تحفظت على الأراضى التى أوصى بها للعذارى بمقتضى وصايا من أدركهم الموت، وأنى لأضرع إليك أن تعيد الحقوق المسلوبة لأصحابها المقدسين وللأماكن المطهرة فى مدينتك. دع الناس يكتبون وصاياهم دون قلق أو خوف، ولتكن على يقين أن ما كتب لا يمكن أن ينقض على يد حكام، الجود شيمتهم والكرم. دع سعادة الناس جميعاً بهذا الأمر تجلب البهجة إلى قلبك، لأن الأسلاف قد أقلقوا الموتى باجترائهم على الوصايا. ألا ترتبط عقيدة روما بالقانون الرومانى؟ وماذا يمكن أن نسمى ضياع هذه الممتلكات بصورة لم يسبق لها مثيل فى القانون أو الأحداث؟ لقد ذهب الأحرار بالأرث، ولم ينكر على العبيد حق الوصية، أما العذارى الأطهار وخدام الأرباب فقد حرموا حق الملكية حتى عن طريق الأرث. أى شىء إذن أكثر نفعا للصالح العام من نذر النفس للعذرية، وبقاء الإمبراطورية تحظى برعاية السماء، وضم القوى الصديقة إلى جيشك ونسورك، والتعهد بالسهر على راحة الجميع؟ ومن ثم أنعم بالعبودية إذا كانت خدمة تهدى إلى الرجال، وإلا فنحن نسىء إذن للدولة التى لا يمكن أن يكون اهتمامها محل نكران أو عقوق.

"وأرجو أن لا يظن أنى أدافع فقط عن قضية العقيدة خاصة، ذلك أن أعمالاً من هذا النوع قد تؤدى إلى كوارث لا نهاية لها للرومان. لقد كانت قوانين أجدادنا تقدر وتمجد عذارى فستا وخدام الأرباب بشىء من الاعتدال والتمييز العادل. وقد ظل هذه التفوق قائماً حتى جاء زمان الصيارفة الأدنياء، الذين حولوا الأموال المخصصة للطهارة المقدسة، إلى أجور لنفر من الحمالين والحراس، وكان نتيجة ذلك أن عمت المجاعة وجدث القحط الشديد الذى أصاب الولايات كلها بخيبة أمل بالغة، ولم يكن ذلك ذنب الأرض ولا خطيئتها، فنحن لا ننسب إلى النجوم أى تأثير أو تدخل شرير. ولم يصب المحصول بالتعفن، ولم يؤد نزق الشباب وطيشهم إلى انعدام الغلال، ولكن العام نفسه كان عاماً تعيساً من جراء تدنيس المقدسات، لأنه كان من الضرورى أن ينكر على مختلف الأمور ما أنكر على أمور العقيدة.

"ولا ريب، فإنه إذا كان هناك أى مثال على هذا الشر، فقد نعزو مثل هذه المجاعة التى تأثير الفصل ذاته، فإن رياحاً عاصفة تحمل الموت فى هزيمها كانت

السبب فى هذا الجدب، ولكن الحياة يمكن أن تحتمل بالأشجار والشجيرات، كما أن عوز المواطنين أنصب أصلاً على بلوط دودونا[٦٨] Dodona. وما هو الشر المماثل الذى عانت منه الولايات ما دامت التكاليف العامة تثقل كراهية خدام الدين؟ ومتى كانت ثمار البلوط التى تعصف بها الرياح معدة ليستخدمها الأناسى؟ ومتى اقتلعت جذور النباتات، ومتى فقدت مختلف البقاع ثروتها وخيراتها فى كل النواحى؟ ومتى كان الزاد مشاعاً بين الناس والعذارى المقدسات؟ لقد كان رضى الكهان خيراً وبركة لحصاد الأرض، بل كان أكثر تأميناً من أية عطية. ترى هل هناك أدنى شك الآن فى أن ما كان يعطى حقاً لخير الجميع؟

"وقد يقول قائل إن الإعانات العامة مرفوضة فقط فيما يتعلق بالإنفاق على الديانات الأجنبية، ولكن مما لا يتفق وخلق الأمراء ذوى الصلاح افتراض أن ما يمنح من الملكية العامة لأفراد معينين يؤدى إلى ازدياد طاقة الخزانة وبالتالى تسلطها، فكما أن الدولة تتكون أصلاً من مواطنين، فإن ما يصدر عنها يعود إليها ثانية ممثلاً فى ملكية الأفراد. إن سلطانك ولا شك فوق الجميع، ولكنه أيضاً من أجل الجميع، والعدالة عندك أعظم قدراً من إرادة متعسفة، فلتعد إذن إلى نفسك الحرة ولتشاروها فى الأمر، إن كان ما تنعم به على الآخرين يجب أن يوضع فى عداد الملكية العامة. إن الأموال التى أوقفت ذات مرة على مجد المدينة لم تعد ملكاً لأولاء الذين قدموها. كما أن الذى كان فى البداية عند منحه يعد هبة، أضحى الآن بمقتضى العرف والزمن ديناً. ومن ثم فإن من يسعى الآن جاهداً ليضع فى صدرك خوفاً زائفاً، يؤكد أنك تشارك المنعمين مسئوليتهم، إلا إذا جلبت على نفسك عار الاقدام على سحب هذه الهبات.

"إن أولاء الحراس غير المرئيين لابد وأنهم ممتنون لرحمتك، ولابد أنهم وقد قدموا يد العون للأسلاف من قبل، سوف يدفعون عنك بوجه خاص، ومن ثم فمن حقهم علينا العبادة. من أجل هذا فنحن نرجو أن يعود الوضع الذى كانت عليه العقيدة من قبل، تلك التى حفظت الإمبراطورية لأبيكم الممجد[٦٩]. وأنعمت على

---

(٦٨) يقصد ثمار البلوط من أجل الطعام.

(٦٩) فالنتينيان الأول، وقد قال عنه سيماخوس أنه لم يقض على عبادة الأرباب وإن كان لم يشارك فى أداء طقوسها أو عبادتها.

ذلكم الأمير المبارك بارث شرعى. وها هو ذا أبوك، الموقر، يشهد من عليائه عند النجوم دموع الكهان، ناظراً إلى نفسه كما لو كان محل نقد نتيجة انتهاك تلك التقاليد التى رعاها لكل إرادته.

"ولتحاول أيضاً إصلاح ما أقدم عليه أخوك الممجد تحت تأثير آخرين لإرضاء السناتو، بعد أن أصبح معروفاً أن تلك السفارة قد حيل بينها وبنيه، حتى لا تتمكن من إطلاعه على ما يبتغيه الرأى العام، ألا من أجل فخار الماضى نناشدك أن لا تتردد فى التخلى عما ثبت بالقطع أنه لا يتفق وخلاق الأمير".

والملتمس فى جملته قطعة أدبية رائعة تدور حول تراث الأسلاف وعظمة روما ومجدها الذى يتمثل بصورة مباشرة فى احترام الأرباب والحفاظ على مقدساتها، وهو يوعز إلى فالنتينيان أن يسير على سنة أبيه وعمه، فى إغضائهما الطرف عن وجود مذبح النصر هذا، "فكم هو عظيم حب التراث"، وكان طبيعياً أن يثنى سيماخوس على الإمبراطور جوليان الذى قدس هذه الأحرام المقدسة، ورد عليها اعتبارها بعد ما فعله سلفه قسطنطيوس، وبفكر الفيلسوف، يعيد سيماخوس على ذهن الإمبراطور المسلمات والبديهيات الأولى المتمثلة فى وحدة الوجود.

ويشير سيماخوس فى صراحة غير مفرطة إلى ما أصبح معتقداً لدى الوثنيين المعاصرين من الأدباء والمفكرين وحتى بعض المؤرخين اللاحقين، من أن تحول الإمبراطورية إلى المسيحية كان السبب المباشر فيما حل بالإمبراطورية من الهزائم والكوارث التى لحقت بها، وكان هذا هو الدافع الرئيسى لأن يترك القديس أوغسطين من بعد دفاعه الشهير عن المسيحية فى كتابه الرائع "مدينة الله".

والذى يدعو للانتباه أن أمبروز الأسقف الميلانى أسرع على الفور حالة سماعه بأن الخطيب الرومانى سيماخوس قد أرسل ملتمساً إلى الإمبراطور حول موضوع مذبح النصر ودخول عذارى الربة فستا، وشحذ قلمه على الفور، وكتب إلى الإمبراطور فالنتينيان رسالة عنيفة أوضح فيها أن حماية العقيدة المسيحية وليس انتهاكها هى أهم واجبات الإمبراطور(٧٠)، وأن هذا الالتماس من جانب

---

(٧٠) AMB, ep. XVII 3.

سيماخوس لا يمثل السناتو كله، ولم يأت نتيجة إجماع الآراء فيه، لأن أعضاءه المسيحيين لم يوفقوا على ذلك، ولم يشتركوا فى المطالبة بما جاء فيه، ويدلل على ذلك بأن هؤلاء قد بعثوا باحتجاجهم إلى داماسوس البابا، الذى قام بدوره بإرسال احتجاجاتهم هذه إلى أمبروز ليعرضها على الإمبراطور(٧١)، كما أكد على أن استجابته لمثل هذا الرجاء سوف تلطخ سمعة أبيه وأخيه (٧٢)، ثم وضع فالنتينيان أمام الأمر الواقع وحذره صراحة بأنه فى حالة الموافقة على ما طلبه الشيوخ الوثنيون فسوف يصدر ضده قرار الحرم الكنسى(٧٣).

وليس أقدر على وصف ما تملك مشاعر أمبروز من الفزع مخافة أن يعيد الإمبراطور فالنتينيان مذبح النصر إلى سابق عهده ثانية، وأن يرد إلى عذارى فستا ما كان لهم، نقول ليس أقدر علي وصف تلك المشاعر عند أمبروز.. إلا أمبروز نفسه.. فلندع له القلم هنا ليخط به فى رسالة بلاغية رائعة إلى الإمبراطور كل ما تحتويه نفسه .. قال أمبروز:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير المبارك والإمبراطور الورع فالنتينيان.. "من منا الآن ليس جنديا لهذا الإله الحق، ومن عبده بمجامع روحه وقدس، ليس من حقه أن يحمل إلى قدس خدمته رياء ولا نفاقا.. بل عبادة خالصة وإيماناً هو الإيمان، فإذا لم يكن على هذا بقادر، فلا أقل من أن يحجم عن إظهار أى رضاء عن عبادة الأوثان وطقوسها، ذلك أن أحدا لا يمكن أن يخادع الله الذى يعلم السر وأخفى.

"وبعد .. أيها الإمبراطور الورع.. فإن عليك واجبا تجاه الإله.. إيماناً وتحمساً، ألا فلتزع العقيدة وتحمى المعتقد .. وإنه لمما يثير دهشتى أن أناساً داعبهم الأمل أن يكون من بين واجباتك إعادة المذابح إلى أرباب الوثن، وتوفير الأموال اللازمة لتقديم القرابين، وما ذاك إلا لما شاع طويلاً من أنك تميل – فيما يبدو – إلى أن تقدم لهم من أموالك الخاصة،، فضلاً عن الخزانة الإمبراطورية وخزانة المدينة، بدلاً من أن تسترد ما بأيديهم.

---

(٧١) Ibid. 10-11.

(٧٢) Ibid. 16 a, b.

(٧٣) Ibid. 13, 17.

"وإنهم الآن يشكون الضياع، وهم الذين من قبل أراقوا دماءنا، والكنائس دمروا، ثم هاهموا ثانية يطلبون إليكم أن ترفع قدرهم، وهم الذين أنكروا من قبل علينا بمقتضى قانون جوليان[٧٤] الحق فى التعلم والتعليم. هذه الامتيازات التى يطالبونها، طالما خدعوا المسيحيين بها وأوقعوا البعض من جرائها فى حبال شراكهم، إما بالغفلة، وإما بالتخلص من عبء الخدمة العامة. والنتيجة أن عدداً كبيراً منا حتى على عهد الحكام المسيحيين، قد زلت أقدامهم.

"وإذا كانت هذا الأمور ما زالت قائمة، فإنى أكاد أجزم أنها بفضل سلطانك لابد وأن تتقشع. خاصة وأنها قد حرمت من قبل بفضل كثير من الحكام فى كل أنحاء الإمبراطورية تقريباً، وكذا فعل طيب الذكر جراتيان، أخ رحمتكم، من أجل الإيمان الحق. فأزالوا بمراسيمهم فئة الضلال. وإنى لأضرع إليك.. أن لا تحدث فى أمر الإيمان ما استقر أمره، وأن لا تنقض ناموس أخيك. وهل يعقل أن أمور الدولة التى رتب شئونها لا يجرؤ أحد على أن يسمها من بعيد، بينما تطأ النعال ما أرساه فى شأن العقيدة!.

"لا تدع أحد يستغل صباك، فإذا ما كان هذا وثنياً، فليس من الصواب أن يصادر عقلك بحبال مكره، بل بالحرى يجب أن تدفعك حماسته إلى أن تتعلم كيف تكون غيوراً على الإيمان الحق، مادام هو يدافع عن الباطل بكل ما أوتى من قوة، وأنى لناصحك بأن تصغى لمن أوتى الحكمة من الرجال، وإن كان الله لا ريب فوق الجميع.

"ولنفرض مثلاً أنا رحنا نتشاور حول أمور عسكرية، فإن رأى رجل الحرب لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار، ولا بد أن تطاع آراؤه. فإذا كانت المسألة تتعلق بالدين.. كان حتماً مقضياً أن ينصرف إلى الله فكرنا. لا أحد يضار لأن الله أمامه. إنه حافظ عقله. إنك لا يمكن أن تسوق إنساناً إلى أن يعبد ما يكره قلبه. أيها

---

(٧٤) هذا القانون الذى يشير إليه أمبروز هنا كان يعنى فى الدرجة الأولى الإبقاء على الأطفال المسيحيين جهالاً دون تعليم، ذلك أن جوليان أصدر مرسوماً يقضى بمنع المسيحيين من القيام بالتدريس، وعهد بذلك إلى المدرسين الوثنيين الذين كان عليهم تدريس فلاسفة الوثنية، ومن ثم أمتنع المسيحيون عن إرسال أبنائهم إلى المدارس.

الإمبراطور فلتدع نفس الحرية توهب لك، ولتدع أنت كل إنسان يعايشها بكل الاحتمال، حيث لا يستطيع أن يبتز من الإمبراطور ما يجب أن يحصل عليه فى يسر، إذا كان الإمبراطور نفسه تحدوه الرغبة فى أن يسلبه إياها. إن أى روح خادعة لا يمكن أن يسر بها الوثنيون أنفسهم، ذلك أن كل إنسان لابد وأن تعطى له حرية التمسك والدفاع عن إيمانه وهدفه اللذين يهديه إليهما عقله.

"ولكن إذا ما ساورت أى إنسان – والمسيحيين بصفة خاصة – الظنون فى أن هناك مرسوماً ما على وشك الصدور، فلا تسمح لكلمات جوفاء أن تضل عقلك، ولا لعبارات معسولة أن تخدعك. وإن كان الكل هنا – الناصح والمستمع – ضحايا، ولكن أن يُضحى بواحد فقط، لهو أفضل بكثير من أن يهوى الجميع!! إن المسيحيين من شيوخ السناتو – أيها الأمير – لفى خطر.

"ولنفرض ثانية أن إمبراطوراً وثنياً أقدم اليوم على بناء مذبح للأوثان، رغم أن الله يحرم ذلك، وأنه ساق المسيحيين قسراً إلى هناك، لينتظموا فى صفوف أولئك الذين يقربون، فإن الرائحة المنبعثة من على المذبح، وتدنيس الحرمات المقدسة، ودخان المحرقات المتصاعد، لسوف يزكم أنوف المخلصين ويسد منهم الحلوق، ولسوف يدان ذاك، حيث أن عدداً من الأعضاء قد أكره على التصويت بعد أن أقسم أمام مذبح لأحد الأوثان. (لأنهم سوف يعللون ذلك بأن مذبحاً قد أقيم لهذا الغرض، وأن كل اجتماع سوف ينعقد فى ظل رضائه كما يفترضون، رغم أن السناتو الآن يضم أغلبية مسيحية). غير أن المسيحى الذى اضطر إلى مثل هذا الاختيار، سوف يعتبر ذلك نوعاً من الاضطهاد غالباً ما يحدث لأنهم اقتيدوا قهرا إلى السناتو. أيها الإمبراطور.. هل كان هؤلاء المسيحيون عند اختيارك إمبراطورا قد أكرهوا على القسم أمام مذبح وثنى؟ وما القسم إلا أن يكون اعترافاً بسلطان الإله الذى تبتهل إليه، وهو على إيمانك رقيب. ولكن ما أن غدوت إمبراطوراً حتى أصبح هدفاً لدى البعض منشوداً أن تأمر ببناء مذبح، وأن تقدم نفقات القرابين.

"غير أن هذا لا يمكن أن يحدث دون انتهاك للحرمات المقدسة، ومن ثم فإنى أضرع إليك أن لا تصدر مرسوماً بهذا أو تأمر به، أو أن توقع على أى مرسوم بهذا الخصوص. وأنا باعتبارى كاهناً للمسيح، أستجير بإيمانك، بل إن كل الأساقفة سوف يتضافر جمعهم عائذين بك، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر مفاجئاً أو غير

صادق، لأن مسألة كهذه لابد وأن تطرح للمناقشة فى حضرتك، أو أن يقدم بها إليك السناتو ملتمساً. ولكنى أستبعد أن يكون السناتو قد أقدم على مثل هذا، ولا يعدو الأمر أن جماعة الوثنيين به استغلوا فى ذلك اسمه، ذلك أنه منذ حوالى عامين مضيا، عندما جرت مثل هذه المحاولة، بعث إلى المقدس داماسوس أسقف الكنيسة الرومانية المختار بأنهم يشجبون هذا المطلب من جانب الوثنيين، ويعلنون صراحة وفى شجاعة أنهم لن يحضروا اجتماعات المجلس إذا ما صدر مثل هذا القرار. إذن هل يليق بك كمسيحى، أن يجرد الشيوخ المسيحيون من كرامتهم، من أجل إضفاء نفوذ على تلك الإرادة الدنسة للوثنيين؟ وقد أرسلت بهذه المذكرة إلى أخيكم وكان واضحاً منها، أن السناتو لم يصدر أية أوامر حول تكاليف هذه الخزعبلات.

"ولقد يقال أين كانوا عندما نوقشت هذه الالتماسات فى السناتو؟ وكيفما كان الأمر ففيما قالوه للإمبراطور الكفاية. وإنى لأعجب، إذ استطاع أولئك الأفراد تجريد غيرهم فى روما من حق الاعتراض، من تراه لا يرغب فى أن تكون لك الحرية كى لا تأمر بما تراه حسناً أو أن تستمسك بالذى عليه فكرك؟

"ومن ثم فإنه لا يسعنى، وما زالت ذاكرتى تعى تلك المهمة التى عهد بها إلى مؤخراً [٧٥]. إلا أن ألوذ بإيمانك مرة أخرى، وأناشد فيك مشاعرك ألا تستجيب لرغبة الوثنيين هذه ، أو تركن إلى أى نوع من انتهاك المقدسات بتوقيعك على هذه الملتمس، وليكن رائدكم فى ذلك، أب رحمتكم، الإمبراطور ثيودوسيوس الذى اعتدت أن تسأله النصح فى كل الأمور ذات الأهمية الخاصة. ولا شىء أهم من العقيدة، ولا شىء أعظم من الإيمان.

"وهب أن هذا الأمر كان قضية مدنية، فمما لا شك فيه أن حق الاعتراض سوف يكون مكفولاً للخصوم، فما بالك وهذه قضية الدين. وها أنذا أسقف (ميلانو) أرفع الدعوى. فلتسمح لى بالحصول على نسخة من الالتماس المقدم من الوثنيين حتى أستطيع أن أعد ردى عليه. ولتسمح لأب رحمتك (ثيودوسيوس) أن يقف على هذه القضية بكل تفاصيلها، وأن يتعطف بالرأى فيها. وليكن معلوماً، أنه إذا ما

---

(٧٥) يشير بذلك إلى الرسالة التى بعث بها إليه داماسوس طالباً أن يقدم الالتماس الذى وضعه رجال السناتو المسيحيون إلى جراتيان.

صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا. وقد تأتى إلى الكنيسة، ولكنك لن تلقى فيها كاهناً، ولا أحـداً حتى يعترض سبيلك.

"وبم ستجيب الكاهن إذا راح يحاورك: "أن الكنيسة ليست فى حاجة إلى عطاياك، ما دمت قد زينت معابد الوثن بمثل هذه العطايا. إن مذبح المسيح يرفض قربانك يا من أقمت للأوثان مذبحاً، لأن الصوت صوتك. وهذى يداك، وهذه بصماتك.. وتلك فعالك. الرب يسوع يعرض عن قداسك يا من تقوم على خدمة الأصنام، وهو الذى يخاطبك قائلاً: "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين[٧٦]."أن العذارى اللاتى نذرن لله أنفسهن لم يحصلن على امتيازات، بينما عذارى فستا بها يتنعمن، فلماذا إذن تبحث عن كاهن للرب الذى عليه آثرت دعوى الوثنيين الزائفة؟ إنا إذن لا نشارك الآخرين آثامهم.

"كيف إذن ستجيب على ما تقدم؟ من تراه مثلك يسقط إلا أن يكون صبياً؟ إن كل عمر فى المسيح تام.. وكل أجل عند الله مكتمل. ليس فى الإيمان طفولة، لأنه حتى الأطفال، اعترفوا بالمسيح فى وجه مضطهديهم بفم غير مرتعش.

"وبم ستجيب أخاك.. ألن يقول لك: "لم أشعر أنى قد توليت، لأنى تركتك إمبراطورا، لم أحزن عندما حان حينى، فقد رأيت فيك إرثى. لم أنتحب عندما خلعت عنى عباءتى الإمبراطورية، وكيف وقد أيقنت أن كل ما أقررت، خاصة فيما يتعلق بالعقيدة، سوف يبقى ما بقيت الحياة. لقد أقمت نصب الرحمة والفضيلة وطرحت كل ما غنمت ممن هو للجميع عدو. وفيها يكمن النصر الأبدى. ترى أى شىء إذن أكثر من هذا يمكن أن يسلبه عدوى منى؟ لقد ألغيت مراسيمى، وفعلت ما لم يفعله ذلك الذى رفع راية العصيان فى وجهى [٧٧]. ألا ترى معى الآن أنى قد تلقيت طعنة نافذة بيد أخى عندما انتهك قراراتى؟! وإذا كان جسدى قد واراه التراب، لأنك تلطخ الآن أفضل ما بقى لى.. سمعتى. حقيقة لقد ضاع سلطانى،

---

(٧٦) متى ٦/٢٤.

(٧٧) ماكسيموس.

ولكن الذى يشق على نفسى أنه يضيع بيد أسرتى، وهذا الذى يضيع شهد به من قبل أعدائى. إنك إن أطعت هواك، انتهكت الإيمان الذى كان معتقدى، وإذا استسلمت دون إرادة، كنت لنفسك خواناً. إن أشد ويلاتى التى أكابدها، إن مصيبتى فيك هى المصيبة.

"بل كيف ستواجه أباك وهو يسألك والحزن يعتصر منه الفؤاد: "ولدى.. لقد أعييتنى عندما ظننت أنى عن الوثنية تغافلت. إن أحدا لم يخبرنى أن هناك مذبحاً مقاماً فى مجلس السناتو ولم يدر بخلدى مطلقاً مثل هذه الخبائث. أعنى تقريب الأضحيات للأوثان، والمسيحيون والوثنيون فى اجتماع مشترك، ،أو أن يقال إن الوثنيين تعمدوا إهانة المسيحيين الحاضرين، وأن المسيحيين الآخرين أكرهوا على المشاركة فى ذلك. لقد وقع كثير من الجرائم فى عهدى. وقد قضيت فى كل بما تكشف. فإذا كان أحد قد أفلت، أمن الواجب أن يقال إنى استحسنت أن أحداً لم يخبرنى. مرة أخرى إنك تسىء إلى إذا ما سمحت لخرف الخزعبلات أن تسود الإمبراطورية ولم تحفظ عليها إيمانى.

"وبعد أيها الإمبراطور .. فقد رأيت أنك إذا أقدمت على شىء من هذا، فإن ضراراً لا حصر لها لا محالة واقعة.. أولها بالله يلحق.. ومن بعد بأبيك وأخيك. وإنى لأضرع إليك أن تفعل ما تعرف أنه سوف يكون سبباً فى خلاصك أمام الله".

ومن استعراض هذه الرسالة يتضح لنا أنها تشتمل على نقاط ثلاث، الأولى يخاطب فيها جانب الإيمان المسيحى فى الإمبراطور فالنتينيان، مبيناً أن الملوك جميعهم يستمدون سلطانهم وقوتهم من الله وحده، الذى يمكنه فى الوقت نفسه أن يسلبهم كل ما بأيديهم، وهذه وإن كانت لا تشير إلى الإمبراطور صراحة، إلا أنها تومئ إلى أن الله قادر عن طريق رجاله - نعنى كما يعنى أمبروز - رجال الكنيسة، التصدى لمن يخرج عن تعاليمه.

وأمبروز فى رسالته يخلع على الإمبراطور صفات التقوى والورع والجلال، ويخاطبه بـــ "الأمير المبارك"، و"الإمبراطور الورع"، ويحدد فى الوقت ذاته مهام

الحاكم وواجبه الأساسى الذى يتركز فى حماية العقيدة والحفاظ عليها ضد من يحاولون انتهاكها من عبدة الأرباب هؤلاء.

ويضرب له مثل الرجلين، أباه وسميه فالنتينيان الأول وأخاه جراتيان، اللذين نذرا نفسيهما – فى رأيه – للدفاع عن المسيحية، رغم أن أمبروز يذكر فى رسالته أن الأب – فالنتينيان – الأول ترك المذبح فى مكانه "لأنه لم يعلم بوجوده ولم يخبره أحد بذلك!! "كما جاء على لسان فالنتينيان فى الرسالة هذه، وهذا لا يتفق بطبيعة الحال مع ما ذكرناه آنفاً عن شخصية فالنتينيان الأول وسياسته تجاه المشكلات الكنسية والعقيدية عامة.

أما النقطة الثانية التى تضمنتها الرسالة فتتمثل فى أن أمبروز يطلب إلى فالنتينيان الثانى عرض القضية على الإمبراطور ثيودوسيوس، باعتباره – حسب تعبيره – ناصحه الأمين، حتى "يتعطف بالرأى فيها". وهنا تنتقل الرسالة تدريجياً إلى مرحلة أخرى فى مخاطبة الإمبراطور، فبعد الحديث عن الإيمان وسلطان الله، يقحم أمبروز ثيودوسيوس على القضية حتى يصبح حكماً فيها، وذلك لما يعلمه عن هذا الأخير من تعلق بالمسيحية النيقية وقوة الشخصية، ولكن الأهم من هذا كله أنه يعلم يقيناً مدى الحرج السياسى الذى يعانيه فالنتينيان الثانى من جراء مقتل أخيه وتهديد المغتصب ماكسيموس بغزو إيطاليا، والاحتياج الكامل من جانبه للعون العسكرى والتأييد المادى والمعنوى من ناحية إمبراطور الشرق لإنقاذه من مخططات ماكسيموس، ومن ثم فإن الإمبراطور الصبى لابد وأن يخضع طوعاً أو كرهاً لما يقرره ثيودوسيوس، والذى سوف يأتى بالطبع موافقاً لكل ما يريده الأسقف الميلانى، وأمبروز يعبر عن ذلك صراحة بقوله: "وليكن معلوماً أنه إذا ما صدر أى قرار آخر، فإننا معشر الأساقفة لا يمكننا أن نحتمله باقتناع دون أن نبدى فيه رأينا، وهذا القول يأتى مباشرة بعد طلب تدخل ثيودوسيوس، ومن ثم فالمقصود بـــ "الرأى الآخر" هنا هو أى قرار يصدر مخالفاً لرأى الإمبراطور فى الشرق، وهذا فى حد ذاته يمثل تهديداً مستتراً لفالنتينيان.

وهنا ينتقل أمبروز تلقائياً ومباشرة إلى النقطة الثالثة وهى التهديد المباشر للإمبراطور الصبى باللعنة والحرم الكنسى إذا ما أجاب الوثنيين إلى مطلبهم،

وعلى هذا النحو أقفل أمبروز كل المنافذ أمام الإمبراطور، بحيث لا يسعه فى النهاية إلا أن يرفض ما جاءه الوثنيون من أجله.

ويشير أمبروز فى رسالته هذه إلى أن سيماخوس لا يمثل الأغلبية فى مجلس الشيوخ الرومانى، لأن الأغلبية الآن – حسب تعبيره – مسيحية، وهذه مغالطة تاريخية، فحتى هذا التاريخ كان المسيحيون فى الإمبراطورية كلها يمثلون الأقلية، وإذا كان الشرق نفسه مهد المسيحية على هذا النحو أو هو أقرب، فالأحرى أن يكون الغرب وثنياً فى معظمه، وكانت الأرستقراطية الرومانية والنبالة وأعضاء مجلس السناتو، لا يزال كثيرون جداً منهم أو غالبيتهم بتعبير أدق، يتمسكون بالوثنية باعتبارها تراثاً رومانياً صادقاً وأصيلاً فى نفوسهم، وأن التخلى عنها يعنى الخروج من العباءة الرومانية.. ومن ثم فإن ما يذهب إليه أمبروز هنا لا يمثل الحقيقة فى شىء، حيث كان سيماخوس الخطيب الرومانى، ومحافظ العاصمة القديمة، يمثل بحق زعيم الأغلبية الوثنية فى مجلس السناتو.

وقد طلب أمبروز إلى الإمبراطور أن يمده بصورة من ملتمس سيماخوس حتى يمكنه الرد عليه جملة وتفصيلاً، وقد أجابه الإمبراطور إلى طلبه. ولم يلبث أمبروز عندما حصل على صورة من هذا الملتمس(٧٨) أن كتب رسالته الثانية إلى فالنتينيان حول هذا الأمر، يرد فيها على كل ما أورده سيماخوس، ويفند مطالبه وما ذكره حول عظمة روما الوثنية والفخار الذى نالته، ويدلل على ذلك ببعض الأحداث التاريخية التى تتمثل فى الحروب الأهلية بين الفيالق العسكرية الرومانية، أو وقوع بعض الأباطرة أسرى فى يد أعداء الإمبراطور (٧٩)، ويقول على لسان روما رداً على ما قاله خطيب السناتو: "لم تلطخون جبهتى دواماً بتلك الدماء المراقة عبثاً لهذى القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة المحاربين.. لماذا تضعون دائماً فى المقدمة مقدسات أسلافى؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبى.. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبط بإراقة دماء البهائم، لماذا إذن تبحثون عن وحى الله فى الحيوانات المائتة؟ اذهبوا

---

(٧٨) AMB. Ep. XVIII 1.

(٧٩) AMB. Ep. XVIII 7.

وعلموا الأمم كيف يكون جهاد السماء.. نحن هنا نحيا.. وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى، يعلمنى أسرار السماء، وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه"[٨٠].

وقد جاءت رسالة أمبروز هذه مطولة، ولكنها تكشف فى كل فقرة من فقراتها عن مدى الغيظ والغضب الذى تملك الأسقف من مطالب السناتو فى روما ومخافة أن يستجيب فالنتينيان لالتماسهم، وهو يعبر عن ذلك صراحة فى الفقرة الأخيرة من الرسالة حين يقول "لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى، على الرغم من أننى لا أستثار، فهدفى الأساسى ليس إلا شجب هذا الالتماس"[٨١]. ولذا جاءت الرسالة عنيفة وصارمة، بحيث لم تدع للإمبراطور فالنتينيان أى فرصة للتردد فى رفض هذا النداء والرضوخ لتوجيهات الأسقف الميلانى أمبروز. ولم يكن رفض الإمبراطور لملتمس السناتو صادراً عن عقيدة دينية خالصة، ولكن خوفاً من تهديدات أمبروز بالحرمان الكنسى، وهو القرار الذى كان سيفاً مصلتاً على رقاب الأباطرة فى الغرب طيلة العصور الوسطى، وما يستتبع ذلك القرار من إحلال الرعية من ولائها لإمبراطورها وعزله. يضاف إلى هذا سبب أخر كان الدافع المباشر فى اعتقادنا وراء موقف فالنتينيان. فهذا الملتمس قدم فى عام ٣٨٤، وفى هذا العام كان الإمبراطور وأمه يسعيان بكل الرجاء لدى أمبروز ليقوم بسفارته إلى ماكسيموس فى غالة، موفداً من قبلهما، ليطلب إليه عدم التقدم بقواته نحو إيطاليا، وليتركها لفالنتينيان وأمه، لقاء الاعتراف به إمبراطوراً شريكاً، خاصة وأن ثيودوسيوس كما علمنا، كان مشغولا بمشاكل أقاليمه فى الشرق والتى لم يفق منها إلا فى نهاية ٣٨٧ . وقد استجاب الأسقف لنداء جوستينا وفالنتينيان، وارتحل للقاء ماكسيموس، وقد حققت هذه السفارة الأولى للأسقف إلى غالة نجاحاً جزئياً، إذ أخرت لسنوات ثلاث قادمة مهاجمة ماكسيموس لإيطاليا. وعلى أية حال، فإن الإمبراطور كان على استعداد تام، وسط هذه الظروف السيئة التى تحيط به فى الغرب، وانشغال القسطنطينية عن مساعدته ولو إلى حين، أن ينفذ بدقة كل ما يأمره به الأسقف أمبروز.

---

(٨٠) Id.

(٨١) Ibid. 39.

ولعله من الأهمية بمكان هنا أن نعود أدراجنا إلى حضرة الأسقف الميلانى أمبروز، ونصغى إليه بكل الاهتمام، وهو يتناول كل كلمة وردت فى ملتمس سيماخوس ليرد عليها، وسوف ندرك للوهلة الأولى أن رد أمبروز يعد لوحة بلاغية راقية أراد بها صاحبها أن تقف مناظرة للوحة سيماخوس فى ملتمسه، ومن ثم آثرت أن أورد هذه الرسالة كاملة – رغم طولها – لنرى صورة من أخريات صور الأدب فى العصر الرومانى الأخير، من خلال رسالتى سيماخوس وأمبروز، رغم ما يقوله هذا الأخير من أنه لن يلجأ مطلقاً إلى الصنعة اللفظية، ولكن رسالته جاءت بإرادته عكس ما ذكره.

كتب الأسقف الميلانى يقول :

"من أمبروز الأسقف إلى الأمبر المبارك، والإمبراطور الرحيم فالنتينيان أوغسطس".

"مذ علمت أن المبجل سيماخوس، محافظ المدينة، قد بعث إلى رحمتكم ملتمساً إعادة المذبح الذى كان قد أزيل من مبنى السناتو فى روما، وأنت أيها الإمبراطور وإن كنت ما تزال فى مقتبل العمر والخبرة، ولم تتمرس بعد فى أمور العقيدة، ومع ذلك رفضت ضراعة ذلك الوثنى، أقول إنى منذ علمت ذلك تقدمت على التو أطلب نسخة من هذا الملتمس، رغم أنى كنت قد حددت عدة نقاط كان لابد منها فى هذا الخصوص.

"ومن ثم فإن الشك لا يساورنى فى صدق إيمانك، وإن كان القلق يتملكنى حول مدى خطورة هذا الأمر، ولذا فإنى أقدم فى هذه الرسالة ردى على ما جاء فى ذلك الملتمس، مبتعداً عن التصنع فى الأسلوب الذى لست أنت الآن فى حاجة إليه بقدر ما تبتغيه من معرفة الحقيقة، مقتفيا فى ذلك ما علم به الكتاب المقدس من أن لسان ذوى الحكمة أشبه شىء بالذهب، يتألق بكلمات براقة، ويفوه بعبارات ساحرة، يأخذ بالألباب ويبهر العيون. هذا الذهب إذا قدرته حق قدره، فإن قيمته تظل بادية للعيان داخل دائرة المعادن. أتوسل إليك أن تمعن الفكر جيداً وأن تفحص بدقة كل ما يتعلق بالوثنيين، أحاديثهم، هماساتهم، أقدارهم، ولتقف إلى جانب ما تعتقد – دون مشقة – أنه الحق. إنهم يتحدثون عن الله ويعبدون الأوثان.

"لقد حدد محافظ المدينة المبجل في التماسه ثلاثة افتراضات يعتبرها من الأهمية بمكان، وهى أن روما – كما قال – تنادى بعودة مقدساتها ثانية، واستمرار إجراء الهبات على كهنتها وعذارى فستا، ووقوع المجاعة عقب رفض دفع مخصصات الكهنة.

"ففى افتراضه الأول تبدو روما حزينة تخنق كلماتها العبرات وهى تشكو طالبة عودة مقدساتها التى تتعلق بطقوسها القديمة، ويضيف أن هذه المقدسات هى التى ردت عن الأسوار هانيبال وأبعدت السينونيين[٨٢]. عن الكابيتول. بينما اتضح للعيان فى الوقت ذاته مدى ما عليه هذه المقدسات من ضعف وخذلان، ذلك أن هانيبال طالما أهان هذه الآثار الرومانية المقدسة، وتمكن من الوصول إلى أسوار المدينة، بينما الأرباب كلها تدفع عنها، فلماذا إذن يكلفون أنفسهم مشقة معاناة الحصار إذا كانت أربابهم تتولى حمايتهم؟

"ولماذا أحدث عن السينونيين، وهم الذين تمكنوا من الوصول إلى قلب الكابيتول؟ آخر ما كان قد بقى للرومان دون أن يتعرض لهم أحد. فلننتظر إذن بأى نوع من الأرباب كانت معابد الرومان تحتمى ؟ أين كان جوبتر آنذاك؟

"ولكن لماذا أنكر على الرومان أن آثارهم المقدسة كانت تحارب من أجلهم؟ فلقد كان كانيبال هو الآخر يعبد نفس الأرباب. دعهم إذن يختارون ما تهوى أنفسهم، فإذا ما وقفت هذه الأرباب إلى جانب الرومان فإنها بالتالى تكون قد قلبت للقرطاجنيين ظهر المجن، أما إذا حالف النصر القرطاجنيين، فلابد أن تكون الآلهة قد تخلت عن الرومان.

"ولنفرض أن شكاية الرومان المغرضة هذه قد وصلت إلى غايتها، فإن روما نفسها لا يمكن أن تقدم على مثل ذلك، لأنها لابد وأن تتحدث بأسلوب آخر. إنها سوف تقول: "لم تلطخون جبهتى دواماً بتلك الدماء المراقة عبثاً لهذى القطعان الأليفة؟ إن أقواس النصر لا تقام فقط على أحشاء القطعان، بل على شجاعة

(٨٢) اسم يطلق على قبيلتين غاليتين قديمتين، الأولى فى غالة والثانية فى إيطاليا حارب الأولى يوليوس قيصر بين عامى ٥٣–٥١ ق.م. فى غالة أما الثانية فقد هاجمت روما واحتلتها سنة ٣٩٠ وظلت فيها حتى تم طردها سنة ٢٨٣ ق.م. على يد كورنتيليوس دولا بللا.

المحاربين. لقد أخضعت العالم بأسلوب مغاير تماماً. لقد كان كاميللوس[٨٣] Camillus هو قائدى الذى ذبح أولئك الذين استولوا على صخرة طاربيا[٨٤] Tarpeia وأعاد ثانية تلك المقدسات التى سلبت من الكابيتول. إن الشجاعة هى التى دفعت بأولاء الأعداء إلى الحضيض حيث لم ينفعهم دينهم. وماذا أقول عن آتيليوس[٨٥] Regulus Attilius الذى أسلم الروح شهادة؟ ولم يجد الأفريقى[٨٦] نصره على مذبح الكابيتول، بل حققه على صفوف هانيبال. لماذا تضعون دائماً فى المقدمة مقدسات أسلافى؟ ما أبغض طقوس نيرون إلى قلبى. ولماذا أكلف نفسى عناء الحديث عن أباطرة لم يدم حكمهم أكثر من شهرين[٨٧]. أباطرة ترتبط نهاية عهودهم ببدايتها؟ وهل يعد من قبل المصادفة عبور البرابرة لحدودى؟ وهل كان هؤلاء الذين جرت على أيديهم أحداث لم يسبق لها مثيل، مسيحيين مخلصين؟ لقد وقع أحد الأباطرة فى أيديهم أسيراً [٨٨]، بينما ظهر للعالم على عهد آخر أن مقدساتهم التى وعدتهم النصر محض زيف وضلال. ألم يكن هناك ساعتها مذبح النصر؟ إنى لأبكى الآن على هذا السقوط الذى آل إليه مصيرى. إن عمرى المديد قد ارتبط بهذه الدماء المراقة عاراً. وليس يخجلنى أنى تحولت إلى المسيحية مع

---

(٨٣) دكتاتور روما عام ٣٩٦ ق.م هزم الاتروسكيين، وحقق انتصاراً ثانياً على الغال عندما هاجموا روما سنة ٣٩٠. توفى سنة ٣٦٥ ق.م.

(٨٤) على الطرف الجنوبى الغربى لتل الكابيتول، اختيرت ليلقى الخونة عليها الإعدام.

(٨٥) هو قائد وقنصل رومانى فى عامى ٢٦٧ ق.م، ٢٥٦ ق.م. هزم الأسطول البونى إبان الحرب البونية الأولى، وكانت شروطه للصلح قاسية دفعت القرطاجنيين إلى الاستمرار فى الحرب، وقد هزم فى عام ٢٥٥ ووقع فى الأسر وظل أسيراً، ثم أرسل إلى روما للتفاوض حول السلام أو تبادل الأسرى عام ٢٥٠، ويقال أنه أوحى للسناتو برفض الاقتراحين، ثم عاد إلى قرطاجة وعذب حتى مات.

(٨٦) سكيبيو.

(٨٧) لعله يشير هنا على سبيل المبالغة البيانية إلى جالبا Galpa وأوتو Otho وفيتليوس Vitellius الذين لم يدم حكمهم فيما بينهم أكثر من ثلاث سنوات، أو ربما إلى برتيناكس Pertinax وخليفته جوليان اللذين قتل كل منهما خلال ثلاثة شهور من حكمه.

(٨٨) يشير هنا إلى الإمبراطور فاليريان Valerianus الذى وقع أسيراً فى يد الفرس عام ٢٦٠ وعومل معاملة غير كريمة. أما الآخر فهو جاللينوس الذى أعلن عدد من قواده التمرد عليه وعرفوا باسم "الطغاة الثلاثة" وراحوا يمارسون سلطة مستقلة، وقد بذل جاللينوس محاولات كثيرة للقضاء عليهم ولكن دون جدوى.

العالم كله فى هذا العمر. وليس هناك فى الحقيقة عمر يعد متأخراً على التعلم، فليبق إذن هذا العمر المتقدم مصدر خجل لمن لا يرغب فى إصلاح أمره، وليس امتداد العمر شيئاً يستحق المديح بقدر ما تستحقه الأخلاق، وليس هناك عار فى التحول إلى الأفضل. لقد كان هذا فقط هو الذى يربطنى بالبرابرة فى ماضى الزمان، ذلك أنى لم أكن أعرف الله. إن أضحياتكم لا تعدو طقساً ارتبط بإراقه دماء البهائم، لماذا تبحثون عن وحى إله فى الحيوانات المائتة. اذهبوا وعلموا الأمم كيف يكون جهاد السماء، نحن هنا نحيا، وهناك الجهاد. دعوا الله وحده الذى خلقنى يعلمنى أسرار السماء وليس الإنسان الذى لا يعرف هو نفسه كنه نفسه. من أحق من الله أن يصدق فيما به هو يتعلق ؟ وكيف أصدقكم يا من تعترفون أنكم لا تعلمون شيئاً عمن إياه تعبدون؟

"ولقد قال أيضاً، إن طريقاً واحداً لا يمكن أن يقود إلى معرفة السر الأعظم، ولكن الذى لا يعرفه، نعرفه نحن بوحى الله. وما تبحث عنه بالوهم والخيال نجده نحن فى حكمة الله والحق. إن طرائقك من ثم لا تتفق وطرائقنا، إنك تسعى لسلام أربابك من خلال الأباطرة، أما نحن فننشد سلام الأباطرة أنفسهم من خلال المسيح. إنك تعبد ما صنعته يداك ولكننا نؤمن أنه من الكبائر أن نقارن شيئاً ما مهماً كان بالله. لقد شاءت إرادة الله أن لا يعبد فى حجر. وباختصار فإن فلاسفتكم أنفسهم قد سخروا مما تفعلون.

"فإذا ما أنكرت كون المسيح إلها، لأنك لا تعقل أنه مات (حيث تجهل أن الموت كان للجسد وليس للألوهية) أى نزق أكثر من أن تمجد كل مهين، وتحقر ما يجب أن توقر، ذلك أنك تجد فى قطعة من الخشب إلها لك. يالمهانة هذه العبادة!! إنك لا تؤمن أن المسيح يمكن أن يموت، أى ضلالة تلك؟!

"إنه يقول: ألا فلتعد المذابح إلى بهائها، وإلى أحرامها المقدسة، الزخرف. ألا فلنترك ذلك لإنسان يشاركهم خرف خزعبلاتهم، أما أنت كإمبراطور مسيحى فقد تعلمت أن تقدس مذبح المسيح وحده. لماذا تراهم يصرون بأيد نقية وشفاه نقية على الاحتفاظ بالكهان لمعابدهم؟ ألا فليردد إمبراطورنا اسم المسيح وحده، وليتحدث عنه دون غيره، الذى هو به أعلم، لأن "قلب الملك فى يد الرب"[٨٩]. ترى

---

(٨٩) أمثال ٢١/١.

هل أقام أى إمبراطور وثنى للمسيح مذبحا؟ بينما هم يطالبون بعودة أشياء يريدون أن يثبتوا لنا بها أى تقدير واحترام يجب أن يقدمه أباطرة مسيحيون لما هم يعبدون، ما دام غيرهم من أباطرة الوثن قد قدموا لخزعبلاتهم كل ما هم عليه قادرون.

"لقد سرنا الطريق منذ زمان، وها هم الآن يقتفون أثر مَن من قبل لفظوهم. إنا لنباهى بأنا قدمنا دماءنا بينما هم يسعون من أجل النفقات، نحن نعتبر ذلك نصراً لنا على حين يضعونها هم فى موقف الخسران. إنهم لم يقدموا لنا شيئاً أكثر نفعاً من إقدامهم على جلد المسيحيين ونفيهم وذبحهم، إن الإيمان يقدم جزاء الحسنى لمن لا يتطرق إليه الظن أنه يعانى عقاباً. أنظر إلى عظمة أرواحهم!! إننا نزداد من خلال ما نفقد، من خلال ما يعوزنا، من خلال إنزال الاضطهاد بنا، فى الوقت الذى يعتقدونن فيه أن طقوسهم لا يمكن أن تدوم دون هبات.

"وإنه ليقول : ألا فلتعد إلى عذارى فستا امتيازاتهن، دعهم يقولون هذا فإنهم لا يستطيعون إدراك أن العذرية يمكن أن تبقى دون مكافأة. دع أولئك الذين لا يثقون فى الفضيلة، يبحثون عنها فيما يسكبون. ولكن كم من العذارى قد حصلوا فعلاً على ما وعدوا به من جزاء؟ إنهم بالكاد لا يجاوزون سبعاً. ولكن انظر من بعد إلى ذلك العدد الكبير ممن زينت رؤوسهن بالضفائر والأكاليل. وإلى صباغ أرديتهن الأرجوانى، وإلى أبهة المحفة وقد أحيطت بزمرة التابعين، وإلى عظمة الامتيازات، وسعة العائد. ما ذا لو جمع هذا كله مع الزمن المقرر للعذرية.

"ألا فليرفعوا عيون الروح والجسد، ألا فليرقبوا أولئك المتضعين الأتقياء وجماعة العذارى. إن الضفائر والأكاليل ليست هى التى تزين رؤسهن، ولكنه خمار مشترك تزينه العفة، وغواية الجمال لا تنشد لذاتها بل تطرح جانباً، لا شىء من هذه الأشعرة الأرجوانية، لا أبهة ولا رفاهة، ولكن تعبد وصيام. لا امتيازات، لا منفعة، كل شىء على هذه الشاكلة قد يظن الإنسان أنه كامن فى المتعة والهناء لا تجده عند هؤلاء إلا فى أدائهن لواجباتهن. وهذا الأداء هو الذى يجلب السعادة والهناء. والعفة ترسخ والطهارة بالتضحية. والعذرية لا يمكن ابتياعها بثمن، ولا تحفظ إلا من خلال حب للفضيلة أو تعلق بها، ذلك أنه لا تعد طهارة تلك التى تشترى فى مزاد من أجل النقود. أو هذه التى تقدم لبعض زمن. إن أول نصر

تجنيه العفة التغلب على شهوة المال، وذلك أن السعى من أجل الكسب هو السبيل إلى الدنو. ومع كل هذا، دعنا نقدم تلك الأعطيات للعذارى بسخاء، فأى مبلغ إذن سوف يفاض به على المسيحيين؟ وأى خزانةسوف تكفى لسداد ذلك؟ وإذا ما ظنوا أن تلك الهبات سوف تقدم فقط لعذارى فستا، ألا يغشاهم الخجل من أنهم ادعوا لأنفسهم كل شيء على عهود الأباطرة الوثنيين، بينما يظنون أنه ليس من حقنا أن نشاركهم فى شىء على عهود الأباطرة المسيحيين؟

"إنهم يشكون كذلك من أن الدعم العام لا يمتد إلى كهنتهم وخدام أربابهم. وأى عاصفة من الاحتجاج ثارت حول هذا الأمر بالذات، بينما أنكر علينا من ناحية أخرى حتى ميراث الملكية الخاصة بمقتضى عدد من القوانين صدرت مؤخراً [٩٠]. ومع ذلك لم يشك منا أحد، لأننا لا نعد ذلك ضررا ألم بنا، والحزن لا يتملكنا على شيء فقدناه. وإذا ما سعى أسقف إلى التخلص من الأعباء المدنية [٩١]، فإن عليه فى الوقت ذاته أن يتخلى عن كل ما كان يمتلك. وإذا كان الوثنيون يعانون مثل هذا، فكيف إذن يبررون شكايتهم، ذلك أن الكاهن عليه أن يبتاع الوقت اللازم لممارسة وظيفته لقاء فقدان كل ما فى حوزته، وعليه أن يشترى سلطان وظيفته العامة هذه على حساب أملاكه الخاصة، وعليه أن يجد العزاء لنفسه فى رضا رعيته عوضاً عن قيامه بصلاة الليل من أجل خلاص الجموع، ذلك أنه لا يبيع الخدمة بل يحصل على الكرامة.

"قارن إذن بين هذه الأوضاع، إنك تجد فى نفسك الرغبة لالتماس العذر لقائد عشرة بينما لا يسمح للكنيسة أن تبرىء ساحة أحد قساوستها. لقد كتبت الوصايا من أجل كهنة المعابد، لم يستثن أحد من أولاء الكافرين، ولا من أولئك الأدنياء. أو أى

---

(٩٠) وهو القانون الذى صدر عن فالنتينيان فيما يتعلق بالأساقفة، والذى قال عنه جيروم HIER. Ep. LII ad Nepotianum "لا أشكو من القانون، ولكن ما أحزننى أننا قد أهلنا بذلك لوضع لا نحسد عليه، بينما عمليات النهب والسلب تجرى بلا رادع". وكانت الإمبراطورية منذ بدأت تتحول للمسيحية غدا الأساقفة شخصيات لها حسابها ووزنها، وتضاعفت بمرور الزمن ثرواتهم وفضائحهم حتى ثار المسيحيون أنفسهم ضد الكنيسة خاصة فى الغرب.

(٩١) صدرت قرارات الإعفاء من الأعباء المدنية هذه على عهد قسطنطين، فلما أسيء لستخدامها من بعد تقرر الاستغناء أو إلغاء هذه الامتيازات الخاصة بالإعفاءات.

من الصفقين قليلى الحياء، أما رجال الأكليروس فإنهم وحدهم الذين حرموا من المشاركة فى هذا الحق، بينما هم وحدهم القادرون على إقامة القداس العام من أجل الجميع، ومع ذلك لا يسمح لأى وصية حتى من الأرامل المحزونين ولا هبات. وحيث لا هنات تسىء إلى أى خلاق، فإن العقوبة مع ذلك توقع على المنصب ذاته، وعليه يمكن القول إن أية أرملة مسيحية تعد وصيتها شرعية إذا ما أوصت بها لكهنة المعبد، وغير شرعية إذا ما أوقفتها على رجال الله! وأنا لا أقص هذا بقصد الشكوى أو التبرم، ولكن ليكون معلوماً فقط لديهم ما لا أشكو منه، ذلك أننا نفضل أن نكون فقراء مالا على أن نفتقر إلى الرحمة.

"ولكنهم يقولون أيضاً إن ما أعطى للكنيسة أو ترك لم يمس، دعهم يقررون كذلك من ذا الذى حرم على المعابد هباتها التى جعلت للمسيحيين. فإذا ما تم ذلك للوثنيين، فإن الخطأ سوف يكون ثواباً أكثر منه عقاباً. الآن فقط أصبح على الأقل ادعاء العدالة أمراً محتماً. وأين كان هذا الشعور عندما أقدموا، بعد سلب كل ما يمتلك المسيحيون، على إضمار الحقد على حقهم حتى فى الحياة، وحرموهم استخدام حتى الحد الأدنى من حق دفن موتاهم، وهو ما لا ينكره أحد على ميت أبداً. ولقد أعاد البحر ثانية أولاء الذين ألقوا بهم إليه. هذا حقاً هو نصر الإيمان، أفلا تراهم الآن يلومون أسلافهم الذين أقدموا على هذه الفعال التى تدينهم؟ أى سبب هناك يدعو إلى السعى من أجل أولئك الذين يدينون هم الآن أعمالهم؟

"ومع ذلك، فلا أحد ينكر الهبات على الأحرام المقدسة، ولا الوصايا على العرافين، لقد أخذت منهم فقط أراضيهم لأنهم لم يستخدموا بمقتضى العقيدة ما ادعوا أنه حق للعقيدة. لماذا لا يمارسون ما نمارسه نحن إذا كانوا يدعون أنهم ينهجون فى الحياة نفس نهجنا؟ إن الكنيسة لا تملك شيئاً فى هذا العالم ملكاً خاصاً لها إلا الإيمان، ومن ثم هنا يكمن الجزاء.. هنا يوجد الفيض. إن ملكية الكنيسة هى رعاية الفقراء. دعهم يقدرون كم من أسارى المعابد تم افتداؤهم، وأى خبز لذوى المتربة قدموا، ولأى من المنفيين أعطوا ما يقيم أودهم. من أجل هذا كله أخذت منهم أراضيهم وليست حقوقهم.

"أنظر ماذا ترى.. لقد جاءت المجاعة إنتقاماً – كما يقولون – لأن ما كان من قبل قصرا على الكهان، أصبح مصدر نفع للجميع، ولهذا السبب – كما يقولون – راحت أفواه الرجال الذين أغمى عليهم يرتشفون عصارة النباتات التى لا طعم لها، ولنفس السبب أيضاً استبدلت الحنطة بثمار البلوط الخئونى Chaonian وعاد الزمن ثانية بالناس إلى غذاء الماشية وأسوأ أنواع الأطعمة، وراحوا يهزون إليهم بجذوع البلوط علهم يجدون فى أخشابها ما يسد رمقهم، وهذه الظواهر بكل تأكيد تمثل معجزات جديدة على الأرض لم يسبق أن وقعت من قبل عندما كانت الخزعبلات الوثنية تسود العالم كله! ولكن للحقيقة وحدها.. متى حدث من قبل أن سخرت الغلال من صلوات المزارعين الأشحاء فأعطتهم قشا دون سنابله؟ ومتى خيبت أوراق القمح فى خطوطها آمال الفلاحين؟

"ومم استلهم الإغريق وحى بلوطهم هذا إلا أن يكون من خلال اعتقادهم بأن هذا العون من طعام الغابات كان هبة من عند السماء، لأنهم يعتقدون دوماً فى مثل هذه الأمور أنها نعمة من أربابهم. من تراه غير الوثنيين يعبد أشجار دودونا Dodona خاصة عندما يمجدون هذا الصنف الدنئ من طعام الغابات؟ ولعله ليس من قبيل الاحتمال أن تكون أربابهم فى سورة غضبها قد ابتلتهم بهذا عقاباً لهم، فرضته الأرباب تهدئة لهم وتسكيناً، وأى عدالة يمكن أن يتحقق، وهم الذين تملكهم الحزن لمنع استمرار تقديم العون لقلة من الكهنة، بينما ينكرونها على الجميع؟ أقول أى عدالة تلك إذا لم تكن العقوبة أشد وأبقى من الاثم نفسه؟ وعلى أية حال فإن السبب ليس كافياً لمثل هذه المعاناة لعالم يتهاوى، إذا كان هذا الأمل الكبير لتلك السنة سوف يتحطم والمحصول لم ينضج بعد.

"ومما لا شك فيه أنه لسنوات طويلة مضت فإن أنوار المعابد كانت قد خبت على امتداد الإمبراطورية كلها، أترى ذلك قد قفز الآن مؤخراً إلى عقول أرباب الوثنيين لتقدم على هذا الانتقام الكبير؟ وهل لم يحقق النيل فيضانه كما جرت عادته كل عام لينتقم لما فقده كهنة المدينة؟ على حين لم يحدث مثل هذا الانتقام لأهل اقليمه.

"وليكن ما يقولونه من انتقام الأرباب فى العام الماضى لما وقع بها من ضرار صحيحاً، فلماذا لم يحدث مثل هذا فى عامنا هذا؟ والآن فإن المواطنين لا

يقتاتون باقتلاع الجذور، ولا يبحثون عن السعادة فى لحاء الأشجار، ولا يقطفون طعامهم من أشواك النباتات، ولكنك تراهم وقد غمرهم السرور فى أعمالهم الناجحة، بينما يغشاهم العجب لمحاصيلهم التى يعدونها من أجل صيامهم الذى يقدمون عليه بملء إرادتهم ورغبتهم الصادقة، ولم لا والأرض أخرجت لهم غلتها بكل ما فى باطنها.

"من ذا الذى لم يعتد على أمور البشر فتراه يقف مشدوها أمام تصاريف السنين؟ بل إنا نعلم جيداً أن ولايات عديدة قد شهدت فى العام الماضى وفرة إنتاج أرضها. إنى لا أجد الكلمات التى أعبر بها عما أنتجه الغال بصورة لم تحدث من قبل، والبانونياويون باعوا غلالا تفوق ما زرعوه، أما بائيتيا الثانية Phaetia secunda فقد عانت الضرار من جراء ثرائها، ذلك أنها وقد اعتادت الأمان فى فاقتها، قد أثارت الآن الأعداء طمعاً فى خيراتها. وأطعمت ثمار الخريف ليجوريا وفينيسيا. وهكذا نجد أن العام الماضى لم يصبه القحط بسبب انتهاك الأحرام المقدسة، كما أن هذه قد ازدانت بغرس الإيمان. أتراهم يستطيعون إنكار أن مزارع الكروم هى الأخرى قد زاد إنتاجها بشكل واضح ولهذا فأنا قد جنينا كسباً مزدوجاً.. هذه الغلال بكل ما فيها من فائدة ونفع، وتملكنا قطاف الكروم بكل ما لها من عائد.

"بقيت نقطة أخيرة وهامة أيها الإمبراطور يجب أن تضعها فى اعتبارك بما يحقق لك كل الخير، ذلك أنه يقول: "دعهم (الأرباب) يحمونك.. أما نحن فسوف نكون لهم عباداً". تلك هى إذن – أيها الأمير الورع – ما لا نقدر على حمله، فلسوف يعيروننا بأنهم سوف يبتهلون إلى أربابهم من خلال أسمائك، وأنهم سيقدمون – دون إذنك – على انتهاك الحرمات المقدسة، معتبرين سكوتك على ذلك موافقة، ألا فليحتفظوا بأربابهم لأنفسهم، وليحفظ هؤلاء – إن استطاعوا – عبادهم، ذلك أنهم إذا لم يكونوا قادرين على عون من يعبدونهم، فكيف إذن يستطيعون حمايتك وأنت لهم عدو؟

"وهو يقول أيضاً إن طقوس الأسلاف يجب أن تعود، ولكن إذا وضعنا فى اعتبارنا أن كل ما تم سلفاً كان نجاحاً محققاً، فما الذى تراه الأفضل.. إن العالم نفسه الذى تآلف فى البداية من خلايا العناصر المختلفة المكونة خلال الفراغ

(الخلاء – العدم – الفضاء) فى كرة لدنة (مرنة)، أو كان ظلاماً فى فوضى لا نهاية لها، ألم يتلق من بعد ذلك التشكيل الذى به اكتمل بهاؤه (هذا التمايز بين السماء والبحار والأرض وقد استقر كل شيء منها وفيها) لقد نزعت الأرض عن نفسها ذلك الظلام الدامس وراحت تبتهج بالشمس فى علٍ، ولم يحظ النهار بالضوء فى البدء، بل راح بمرور الزمن يكسب الضياء ويزيده، ويشع دفئاً كلما اشتدت الحرارة.

"والقمر.. ذلك الذى تمثلت فيه نبوءات الوحى عن الكنيسة، عندما ارتفع فى البدء، وراحت هى تحبو فى أشهر عمرها الأولى ليختفى منا فى الظلام ثانية، وليملأ جنبيه حتى اكتملت استدارته فى مواجهة الشمس، وراح يتلألأ بضياء لامع صاف.

"والأرض فى سالف الأزمان لم تكن تملك أية تجربة فى العمل أو الاثمار. فلما بدأ الفلاح الماهر يتسلط عليها ويخضعها ويخط فيها الحقول، ويغطى التربة الجرداء بعرائش الكروم، خلعت عن نفسها فطرتها القفر، وتحلت بأزاهير ما تنبت.

"والزمن نفسه فى عمره الباكر، والذى صبغنا على شاكلته كما ينمو كل شيء، كلما تقدمت به السنون، غدا ربيعاً بهذه الأزهار التى ما تلبث أن تذبل، ثم تثمر حتى يكتمل نضجها ثم تصير إلى النهاية.

"ونحن أيضاً، وليست لدينا فى البدء عن أى شيء خبرة، كل ما لدينا طفولة فى إدراكنا، ولكنا سرعان ما نتغير، كلما مرت بنا السنون، ونتخلى رويداً عن المبادئ الأولى لقدراتنا.

"فليقولوا إذن إن كل شيء يجب أن يعود إلى ما كان عليه فى البدء، ومن ثم فالعالم الذى يغشاه الظلام يبدو الآن وقد افتقد المسرة لأنه استنار بضياء الشمس، وأى شيء أعظم بشراً من أن نمحوا ظلام العقل بأكثر مما نزيل أثقال الجسد، وسوف يبدو قبس الإيمان أشد وهجاً من أشعة الشمس. ولما كانت الحالة الأولى التى كان عليها العالم قد مضت، شأن كل شيء، فلا غرو أن ينسحب ذلك أيضاً على العقائد القديمة. ولندع أولاء الذين يتحسسون الخطأ فى نقص الإنتاج، يبحثون عن العيب فى قطاف الكروم، لأنها تحين فى نهاية العام، ويشيرون إليه أيضاً فى ثمار الزيتون، لأنها آخر ما ينضج من الثمار.

"لكن إيمان الأرواح هو غلتنا، ورحمة الكنيسة هى قطاف الفضل كله، التى ازدهرت منذ البداية فى القديسين، وراحت تنشر نفسها من بعد على كل الجموع، ولا ريب فقد لاحظ الجميع أن الإيمان بالمسيح قد تلقته العقول التى لم تكن فى يوم ما فجة شرسة (ذلك أنه ليس هناك تاج للنصر دون خصوم) وتم رفض ذلك المعتقد الذى من قبل ساد، فالحق أحق أن تكون له الغلبة.

"وإذا كانت الطقوس القديمة هى الحق، فلم اتبعت روما عقائد أجنبية عنها؟ ولسوف أغض الطرف عن تلك المناطق التى علتها هذه المبانى الباهظة التكاليف وبيوت أولئك الرعاة (الكهان) التى تتألق بذهب انطفأ بريقه، ولسوف أرد فقط على أهم ما يشكون هم منه، لماذا رحبوا بآلهة المدن المغلوبة، والأرباب المنهزمة. والطقوس الدخيلة لهذه الخزعبلات الأجنبية؟ ومن أين كان أنموذج الألهة كيبيلى يغسل مركباتها لتزييف الألمو Almo وأنّى فرسان الحرب (الشعراء) الفريجيون؟ وآلهة القرطاجنيين الجائرين المكروهين دوماً لدى الرومان؟ بل أين التى عبدها الأفارقة فى شخص كلستيس Celestis والفرس فى نيترا Nitra والجل فى فينوس تبعاً لمسميات مختلفة وليس لربات متعددات؟ ومن ثم فإنهم يعتقدون أن النصر يتجسد فى آلهة بعينها ولذا فهو بلا شك يأتى هبة وليس بالقوة، يمنح ولا يؤخذ، نتائج لعون الفيالق وليس لسلطان العقائد. ترى.. هل هذه الربة أعظم أو أكثر من تلك الأعداد التي يتطلبها القتال، أو تستدعيها وقائع المعركة؟

"ولقد طلبوا أن تحتفظ (ربة النصر) بمذبحها فى مبنى السناتو فى روما، بينما أغلبية الشيوخ فيه من المسيحيين!! إن المعابد مليئة بالمذابح، وهناك فى معبد النصر أيضاً مذبح. وإذا كانت كثرة العدد هى التى تدخل السرور إلى قلوبهم فإنهم يقدمون أضحياتهم فى كل مكان. أما الإصرار على تقديم الأضحيات على هذا المذبح بالذات، فإن هذا الأمر لا تفسير له إلا ازدراء الإيمان. وهل يحتمل المسيحى قيام وثنى بالتضحية فى حضرته؟ إنه يقول: "دعهم ولو على غير رغبة منهم يرمقون الدخان بعيونهم ، ويصغون إلى الترانيم بأسماعهم، ويزدردون رائحة الأضحيات بحلوقهم، ويستنشقون البخور بأنوفهم، وليغط الغبار المتصاعد من مواقدنا وجوههم وهم كارهون. أليس فيما تزخر به الحمامات والأروقة والشوارع

من تماثيل كفاية لهم؟ ألن يكون هناك لكل قدره ومصيره فى هذا المحفل العام؟ إن الجزء المؤمن من مجلس السناتو سوف يكون مرتبطاً إذن بأصوات أولئك الذين يعطون للأرباب مواثيقهم، بإيمان أولئك الذين يقسمون بهؤلاء الأرباب، فإذا ما أبدوا اعتراضهم بدوا وكأنهم يكشفون زيفهم، وإذا ما أذعنوا، سلموا بما هو انتهاك للحرمات...

"أين سنقسم إذن على طاعة قوانين رحمتك ومراسيمك؟ ترى هل ارتضى عقلك وارتبط، وهو الذى تضلع فى القوانين، بالصدق عن طريق تلك الطقوس الوثنية ؟ لقد اعتدى على قداسة الإيمان ليس فقط من جانب هؤلاء، بل أيضاً على يد من سبقوهم، ولكن ما هو أنكى من ذلك أن إيمانك أيها الإمبراطور قد تعرض للتجريح أيضاً، ولكنك قادر على أن تقهر إذا شئت. وقد اعتقد عظيم الذكر قسطنطيوس، رغم أنه كان ما يزال مبتدئاً فى معرفة الأسرار المقدسة، أن سمعته سوف تدنس إذا ما سمح ببقاء ذلك المذبح، فأمر بازالته، ولم يأمر بإعادته ثانية. وقد اكتسبت الإزالة سلطان الفعل، أما الإعادة فليس لمجرد القرار هذا السلطان.

"لا يحق لأحد أن يمتدح نفسه بسبب سهوه أو غفلته، ذلك أن هذا الذى يربط نفسه بفكر آخرين، يبدو أكثر تواجداً من ذلك الذى يعطى موافقته صادرة عن حضور شخصه فقط دون فكره، فتآلف الفكر أشد وثاقاً من تقارب الجسد. إن السناتو إذا ما تمثلك رئيساً كأولاء الذين يدعون لم شمل الجماعة، فإنه يأتيك كرجل واحد، ويطلعك على سريرته ، ولا يسلمها لأرباب الوثنيين، ويفضلك أعضاؤه على بنيهم، ولكن ليس على إيمانهم. هذا هو الحب المنشود، هذا الحب يفوق كل مظاهر السيادة، إذا ما أصبح الإيمان الذى يحفظ السلطان فى أمان.

"ومن المحتمل أن يثير بعض القول إذا ما حدث ذلك، بأن الإمبراطور الورع(٩٢). قد تم هجران جانبه، كما لو كان ذلك بكل تأكيد جزاؤه على ما قدم من أعمال جديرة بالتقدير بهذه الإجراءات الانتقالية للأعمال الحاضرة. وما من رجل حكيم يجهل أن المسائل التى تتعلق بأمور البشر يمكن أن تنتظم فى نوع من الدورة

---

(٩٢) جراتيان.

أو التتابع، لأنها لا تحقق على الدوام نفس النجاح، ولكنن أوضاعها تختلف وتعانى تقلبات الزمن.

"ومن ذا الذى يفوق كنيوس بومبى Cenius Pompeius فى نصر المعابد الرومانية ودعمها فى الخارج؟ ولكنه، بعد أن ساد الدنيا بانتصارات ثلاثة حققها، ما لبث أن هزم فى إحدى المعارك، فتحول إلى هارب من الحرب، ثم منفياً خارج حدود إمبراطوريته، ثم سرعان ما سقط صريعاً على يد خصى كانوبس Canopus

"من ذا الذى امتلك ناصية الشرق أكثر مما ساد قورش ملك الفرس؟ ولكنه هو أيضاً، بعد أن تغلب على كل منافسيه، ثم أبقى عليهم، ما لبث أن لحقته الهزيمة وأمسى سجيناً، وهلك على يد امرأة[٩٣]. ومع أنه قد ذاع صيته بحسن خلقه وطيب معاملته حتى لمن قهرهم، فقد قطعت رأسه ووضعت فى إناء امتلأ بدمائه. وهكذا ذل لصلف امرأة متسلطة.

"ومن تراه أشد حرصاً واهتماماً بالأضحيات من هاميلكار زعيم القرطاجنيين؟ لقد كان يقرب حتى بين أقل الجنود رتبة على امتداد سير المعركة، فلما رأى أن الهزيمة قد أحاطت به، ألقى بنفسه فى النار التى كان يطعمها، ولعله أراد أن يخمد حتى بجسده تلك النيران التى أيقن أنها لم تقدم له نفعاً بلا اضرا!!

"وبماذا ترانى أحدث عن جوليان الذى ما أن وثق بحماقة فى أقوال العرافين، حتى دمر كل وسائل ملاذه، ولذلك فإنه حتى فى مثل هذه الحالات، لا نجد انتهاكاً مماثلاً، ذلك أن وعودنا لا تخدع أحداً.

"لقد كتبت ردودى على ما أثار حنقى على الرغم من أنى لا أستثار، ذلك أن هدفى الأساسى كان شجب هذا الالتماس، لأفضح تلك الخزعبلات، ولكن ليجعلك هذا الملتمس أيها الإمبراطور أكثر حرصاً، فيعد هذا العرض للأباطرة السابقين الذين سار الأوائل منهم على طقوس آبائهم، ولم يحد المتأخرون عنها، وذكرنا بالإضافة إلا ذلك أنه إذا كانت الممارسة العقيدية لأولاء الأوائل لم تصبح سابقة، فإن إغضاء الأواخر الطرف عنها جعلها كذلك. ولقد بدأ واضحاً ما أنت به مدين

(٩٣) توميريس Tomyris ملكة الماساجيتيين.

إلى إيمانك أولا، أعنى أنه يجب ألا تتبع الطقوس الوثنية، وثانيا تجاه شعورك، أقصد عدم تحطيمك أو انتهاكك لما أقره من قبل أخوك، ذلك أنهم إذا ما أقدموا من جانبهم فقط على امتداح هذا التغاضى من جانب الأباطرة السابقين، الذين على الرغم من كونهم مسيحيين، إلا أنهم لم يقدموا على الاعتداء على التقاليد والتعاليم الوثنية، كان واجبا عليك أن تسلم إلى حب الأخوة قيادك، وأن ترعى أمورا قد لا تكون أنت نفسك راضيا عنها، حتى لا تنتقص من قدر أخيك. عليك الآن إذن أن تحفظ ما ترى أنه يتفق وإيمانك ورابطة الأخوة".

وبعد.. فهذه رحلة طويلة قطعناها مع أمبروز فى رسالته الثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى، ردا على ملتمس سيماخوس إليه من أجل إعادة مذبح النصر إلى مبنى مجلس الشيوخ الرومانى. وقد جاءت الرسالة كما عرضناها مطولة مفصلة، تناول فيها أمبروز كل ما تضمنه ملتمس سيماخوس بالتفنيد، كما أنها جاءت انفعالية تتقد غضبا وغيظا ، ملقية بالتبعية فى خراب روما فى كثير من الأحيان إن لم يكن كلها من وجهة نظر الأسقف الميلانى على الأرباب الرومانية القديمة، والتى كانت من الوهن والضعف بحيث لم تقدر على الصمود أمام هانيبال وجحافل السينونيين، وتعيب على الوثنيين التفاخر بذلك، لأن الغزاة كانت لهم نفس الأرباب أو المثلات، أما إعادة المذبح ثانية فهذا أمر لا يمكن تقبل حدوثه من إمبراطور مسيحى يجب أن يقر بمذبح واحد فقط خاص بالمسيح. ويسخر أمبروز من مسألة عذارى فستا، ويندد بالدعوة لرد الأموال والهبات المخصصة لهن، معتبرا ذلك إساءة كاملة إلى قيمة العذرية ومعناها ، ويشيد بقرينتها فى المسيحية، ويفند دعوى سيماخوس القائلة بوقوع المجاعة لأسباب تتعلق بانتقام الأرباب، ويدلل على ذلك بأن هذا لم يحدث إلا فى بعض المناطق بينما عم الرخاء مناطق أخرى، وأن نيل مصر لا زال فياضا، ويحذر الإمبراطور من الوقوع فى الشرك التى يراد اصطياده بها من القول بحماية الأرباب له ولملك أبيه من قبل، حيث أن الإمبراطور لا يزال فى مقتبل العمر والخبرة ولم يتمرس بعد فى أمور العقيدة والحياة". ويتساءل أمبروز إذا كانت روما تود الاحتفاظ بآربابها ومقدساتها لأنها سبب انتصاراتها ومكمن الفخار لها، فلماذا لجأت إلى أرباب أخر استقدمتها من

الشرق. ويختتم رسالته مبيناً أن من اتبع هواه وتمسك بالأرباب فقد ضل وغوى، وضرب مثلاً رجلين هما بومبي وقورش، وعززهما بثالث.. هاميلكار القرطاجى، وجعل خاتمة مطافه جوليان.

ويبدو أن هذه النغمة العالية من التهديد، مع الظروف السياسية السيئة التى كانت سائدة فى الغرب، قد أدخلت فى روع الإمبراطور الصبى أن تحدى أمبروز والظروف سوف يجر عليه وعلى عرشه الوبال. ومن ثم كان طبيعياً أن يستجيب وهو حسير لآراء الأسقف الميلانى. وهكذا باءت محاولتا سيماخوس ومن ورائه شيوخ السناتو الوثنيون مع جراتيان ثم فالنتينيان، بالفشل. ولما كان الوثنيون فى الغرب يدركون المعنى الجوهرى الذى يرمز إليه وجود هذا المذبح من رمز لمجد روما القديم، فإنهم حاولوا عن طريق سيماخوس أيضاً – هذه المحاولة للمرة الثالثة مع الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه بعد انتصاره على ماكسيموس، فى عام ٣٨٨[٩٤]. وإذا كان من الصعب تحقق إعادة المذبح على يد الإمبراطور الصبى بما عرف عنه من خور العزيمة وضعف الشخصية ووقوعه تحت تأثير أمه وانزعاجه من سلطان أمبروز، فلعله من الأحرى أن تتجسد الصعوبة تماماً فى شخص ثيودوسيوس النيقى المتحمس، الذى يحمل للأسقف الميلانى كل الاحترام والتقدير، ولذا لم يكن حظهم معه بأسعد من حظهم فى المحاولتين الأوليتين. ولكن اليأس لم يتملك السناتو وسيماخوس، فأعادوا الكرة من جديد مع فالنتينيان الثانى عام ٣٩٢ بعد انفراده بحكم النصف الغربى من الإمبراطورية وعودة ثيودوسيوس إلى القسطنطينية[٩٥]، غير أن الأقدار لم تمهله ليبدى فى هذا الأمر رأيا جديداً، إذ لم يلبث أن اغتيل على يد أربوجاست Arbogastes الذى لم يمكنه أصله الجرمانى من إعلان نفسه إمبراطوراً، فأعلن بيديه تتويج يوجنيوس Eugenius على العرش، فتحول سيماخوس بسفارته إلى هذا الإمبراطور الجديد، الذى استجاب لندائه وأمر بإعادة مذبح النصر إلى سابق مكانه[٩٦]. ويذكر بيورى أن محاولة إعادة نفوذ

---

(٩٤) AMB. ep. LVII. 4.
(٩٥) Ibid. 5.
(٩٦) Ibid. 6.

الوثنية، كانت إحدى النقاط الرئيسية فى البرنامج الذى أعده القائد الجرمانى أربوجاست وصنيعته الإمبراطور يوجنيوس، وكان ذلك هو الطعم الذى اجتذب إليه عدداً من الشخصيات البارزة[٩٧].

وعلى الرغم من أن يوجنيوس كان مسيحياً، إلا أن مسيحيته كانت فيما يبدو مسألة ظاهرية فقط، أو لعله كان خاضعاً لتأثير ونفوذ القائد الفرنجى الوثنى أربوجاست الذى جعل منه إمبراطوراً، ولهذا فإنه فى الوقت الذى كان أربوجاست يعلن فيه عزمه صراحة على إعادة الوثنية إلى السيادة من جديد، وتحطيم الكنائس إذا ما تحقق له النصر على ثيودوسيوس[٩٨]، كان يوجنيوس يحاول قدر طاقته الاحتفاظ بسياسته التوازن بين المسيحيين والوثنيين. ولما كان ينتمى لعائلة نبيلة، مثقفاً ثقافة عالية، متضلعاً من الفلسفة، وأستاذاً للبيان، فقد أصبح صديقاً لسيماخوس الخطيب الرومانى والمتحدث باسم السناتو. وفى الوقت ذاته محافظ روما، ولذلك كان طبيعياً أن يعمل يوجنيوس على كسب جانب أعضاء السناتو الوثنيين وزعيمهم فى حربه القادمة ضد إمبراطور الشرق. وفى سبيل ذلك، فإنه فى الوقت الذى سمح فيه بإعادة مذبح النصر إلى مبنى السناتو، فإنه لم يسمح بإعادة الدخول والهبات المخصصة لعبادة الربة فستا والعذارى[٩٩]. وإن كان قد أقدم على تعيين نيقوماخوس فلافيانوس Nicomachus Flavianus الزعيم الوثنى فى روما نائباً إمبراطورياً هناك [١٠٠]. ولا شك أن هذا كله كان راجعاً دون شك لتأثير القائد الوثنى الجرمانى أربوجاست، لما نعلمه عن شخصية يوجنيوس. ولا ريب أن المسيحيين قد تملكهم الفزع لهذا الذى يحدث، خوفاً من أن يطلع عليهم جوليان جديد ممثلاً فى يوجنيوس ومن ورائه قائده الفرنجى. ومهما يكن من أمر فإن هذه المحاولة الجديدة لم يكتب لها النجاح أيضاً حيث أزيل المذبح للمرة الأخيرة على يد الإمبراطور ثيودوسيوس بعد انتصاره على إمبراطور الغرب هذا عام ٣٩٤.

---

(٩٧) Bury, op. cit. I p. 369.

(٩٨) Jones, L. R. E. I p. 169.

(٩٩) AMB. Ep. LVII 6.

(١٠٠) أنظر Id وراجع أيضاً : Jones, L.R.R. I p. 168; C. M. H. IV p. 246.

وعلى الفور شحذ أمبروز سنان قلمه، وكتب إلى الإمبراطور رسالة احتجاج على مسلكه هذا، وأبدى استياءه لما أقدم عليه الإمبراطور، وقد تضمنت بعض سطور الرسالة إرهاصات بفكر الغرب الأوروبي عن العلاقة بين الدولة والكنيسة. قال الأسقف الميلانى:

"من أمبروز الأسقف إلى الإمبراطور الكريم يوجنيوس".

"إن سبب ارتحالى هو خوفى من الرب الذى عليه فى كل الأمور اعتمادى.. ولا أشرك فى عقلى معه أحداً، ولا أقيم لأى إنسان مهما كان، قدراً أرفع من قدر المسيح. ذلك أنى لم أجلب على أى من الناس أذى. فإذا ما كان الله عندى قبل كل شىء، أضع فيه كل ثقتى، فلن يرهبنى أن أواجهكم أيها الأباطرة بما يعتمل فى نفسى مهما كانت صورته. وعليه فلن ألزم الصمت أيها الإمبراطور تجاهك، فى أمور لم أسكت عنها فى مواجهة أباطرة سبقوك، ولسوف أراعى ترتيب الأحداث وأمضى خطوة خطوة فى عرض الوقائع التى تتعلق بهذا الخصوص.

"عندما كان سيماخوس الشهير محافظاً للمدينة (روما)، قدم إلى فالنتينيان الأصغر الطيب الذكر، التماساً يطلب إليه إصدار أوامره بأن يعاد إلى المعابد ما سلب منها. وقد قام بدوره كما ينبغى بما يتفق وحماسته وعقيدته، وكان على أنا الآخر باعتبارى أسقفاً أن أقوم بدورى، فقدمت احتجاجين إلى الأباطرة أوضحت فيهما أن المسيحى لا يمكن أن يساهم فى تكاليف القرابين للأرباب. والحقيقة أنى لم أكن السبب فى إبطال ذلك، ولكنى رحت أنادى بكل حماسة بعدم إصدار مثل هذه المراسيم، وانتهى الأمر بعدم إعادة تلك الأموال إلى المعابد، لأن ما لم يسلبه بنفسه لا يمكنه إعادته، بينما باستطاعته أن ينعم من جيبه الخاص بنفقات وتكاليف تلك الخزعبلات. وأخيراً، فإنه إذا ما كان قد أقدم على ذلك، فإنه لم يكن بمقدوره والحالة هذه أن يسعى إلى الكنيسة، ولو جاء.. فإما أنه لا يجد الكاهن هناك، وإما أن يجد بها من يعترض طريقه متحدياً، ولا يمكن التماس العذر عن ذلك بأنه لم يكن قد تناول بعد سر المعمودية، لأن انتظار العماد لا يبرر أو لا يسمح بالمساهمة فى دفع نفقات الأوثان.

"وقد قرئت رسالتى فى المجلس الكنسى الإمبراطورى، وكان من بين الحاضرين كونت باوتو Bauto وهو أحد كبار الضباط، وروموريدوس Rumoridus الذى ينتمى إلى نفس المرتبة، وقد عكف على عبادة الوثنيين منذ نعومة أظفاره. وقد أصغى فالنتينيان آنذاك إلى حديثى ولم يفعل إلا ما يتفق وقواعد الإيمان، ومن ثم أذعنوا لنائبه.

"ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى خاطبت الإمبراطور الرحيم ثيودوسيوس ولم أتردد مطلقاً فى مواجهته، وكان قد تلقى رسالة بنفس المعنى من السناتو، وإن لم تكن تمثل كل أعضاء مجلس الشيوخ، وقد وافق على توصياتى بعد زمن، ولذا هجرت جانبه لعدة أيام، ولم ينظر إلى ذلك بنية سيئة، لأنه يعلم جيداً أنى ما فعلته عن أمرى، ولِمَ أخزى من أن أقول فى حضرة المليك ما قاله النبى نفسه. "وأتكلم بشهاداتك قدام ملوك ولا أخزى" (مزامير ١١٩/ ٤٦)، وما ينبع من روحى.

"ولم يلبث السناتو أن أرسل سفارة ثانية إلى الإمبراطور فالنتينيان الممجد الذكرى، فى غالة، ولكنها باءت بالخسران، وبكل تأكيد لم أكن هناك ساعتها، ولم يخط يراعى إليه شيئاً آنذاك.

"ولكن عندما اعتليتم كرسى سلطان، اتضح أن دفة الأمور قد عهد بها إلى أناس على قدر كبير من الكفاءة حقاً فى تسيير مهام الدولة، ولكنهم وثنيون، وربما قيل أيها الإمبراطور العظيم أنك لم تقم بإعادة شىء فعلاً إلى المعابد، وإن كنت ق أنعمت بالهبات على أولئك الذين أبدوا لكم كامل الولاء، ولكنك تعلم أننا يجب أن نسلك دائماً سلوكا يرضى الله، كما نفعل دائماً فيما يتعلق بمسألة الحرية، ليس فقط من جانب رجال الاكليروس، ولكن أيضاً على يد العسكريين العاملين فى خدمتك، أو الداخلين ضمن عداد القاطنين فى الأقاليم، وقد تسابق الرسل إلى بلاطك عندما غدوت إمبراطورا يطلبون إعادة ما أخذ من المعابد ثانية، ولكنك لم تفعل ذلك، فعاودوا الكرة ثانية ولكنك ظللت على مقاومتك لهم، غير أنك عدت فرأيت من الأفضل أن تنعم على أولئك الذين تقدموا بمثل هذه الالتماسات.

"أيها الإمبراطور.. ضع فى اعتبارك جيدا أنه مهما عظمت السلطة الإمبراطورية فسلطان الله أعظم، إنه عليم بما تكنه الصدور، مطلع على خبئ النفوس. أحاط علمه كل شيء، وما هو بعد في الغيب آت.. يعلم السر وأخفى. لا تعانى إذن خداع النفس، أتريد أن تخفى أى شىء من عند الله؟ ألم يدر ذلك بخلدك؟ وبما أنهم تصرفوا بمثل هذه المثابرة، ألم يكن من واجبك أيها الإمبراطور أن تكون أكثر منهم إصراراً بما يليق بالله الممجد الحق الحى، وأن تزدرى ما يعد انتهاكاً لقانونه المقدس؟

"من ذا الذى تراه يضمر الغل والبغضاء لرغبتك فى الأنعام على الآخرين؟ إنا لا نقيم من أنفسنا عيوناً تقتفى وقع خطى جودك، ولا نحمل فى نفوسنا الحسد لمن خصتهم نعمتك، ولكنا فقط حفظة الإيمان، خبرنى كيف ستقدم هديتك إلى المسيح؟ إن هناك من يضعون كل تقديرهم علي ما سوف تفعله، ولا بد أنهم سوف يحذون على التو حذوك. ومن ثم فإن أى شىء يقدمون عليه لابد وأن يعزى إليك، أما ما لم يفعلوه فهو بلا ريب من عند أنفسهم. ولقد كان من الضرورى أن تكون – رغم كونك إمبراطوراً – أكثر الناس خضوعاً لله. وكيف يقوم خدام المسيح إذن بتوزيع هباتك؟

"لقد كانت هناك قضية على هذا النحو فيما مضى، غير أن الاضطهاد نفسه أذعن لقوة إيمان الآباء، وتولت إلى الظل الوثنية، ذلك أنه عندما أقيمت الألعاب الخماسية فى مدينة صور، وقدم ملك أنطاكية الأثيم لمشاهدتها، اختار ياسون Jason ضباطاً انطاكيين لإحضار ثلاثمائة دراخمة من أورشليم وتقديمها من أجل أضحيات هرقل، غير أن الآباء لم يدفعوا هذه النقود المطلوبة إلى الوثنيين ، بل أرسلوا من لدنهم رسلاً على الإيمان حريصين ليعلنوا أن الأموال لا ينبغى أن تنفق ثمناً لأضحيات الأرباب، إذ أن هذا يعد بذخاً فى غير موضعه، ولذا فقد تقرر أنه لما كان قد قيل إن هذه النقود حصلت من أجل التقريب لهرقل، فإنها يجب أن تذهب للغرض الذى من أجله جبيت، ولكن لما كان الذين حملوها يتقدون غيرة على الإيمان وحماسة، ويلتمسون عدم استخدامها للتقريب للأرباب، بل فى أغراض أخرى، لذا تقرر أن تخصص لبناء السفن. حقيقة لقد أكرهوا على حمل النقود، ولكنها لم تذهب إلى ما من أجله جمعت ولكن فى أمر من أمور الدولة.

"والآن.. فإن من أحضروا النقود قد أصبحوا دون شك فى عالم الصمت، ولكنهم وقفوا بكل قوة دفاعاً عن إيمانهم، فلقد علموا مقدماً أن النقود لابد وأن تحصل، ومن ثم فقد أرسلوها مع رجال هم لله أشد خشية، أفلحوا فى تخصيص هذه الأموال، لا للمعبد، ولكن لبناء السفن، وما ذلك إلا لأن الآباء قد عهدوا بالنقود إلى من يدافعون عن قضية القانون المقدس، وتولى الله المطلع على النوايا والضمائر القضاء فى هذا الأمر. وإذا كان هذا قد حدث، فليس هناك شك أيها الإمبراطور، فيما يجب عليك فعله. وكيفما كان الأمر، يصبح عليك حتماً مقضياً، وأنت لا تخضع لأى قهر، ولا يتحكم أحد فى سلطانك، أن تسعى حثيثاً من أجل الحصول على نصح رجل الأكليروس.

"وبكل تأكيد، فإنى فى نضالى وإن كنت وحدى، فإنى لست فيما أرغب أو أنصح وحدى. ولما كنت مسئولاً عن كل كلمة أقولها أمام الله والناس، فليس هناك شىء آخر يمثل لى وزناً، لأننى لا يمكن أن أضع فيك ثقتى الكاملة. ولقد كتمت من زمن أحزانى، وأيقنت أنه ليس من الصواب فى شىء تصنع أى شخص بأى شىء، ولم يعد من واجبى أن أغض الطرف عما لا أرتضيه، كما أنه ليس مسموحاً لى أن أعقل لسانى، ومن أجل هذا أيضاً لم أرد عليك عندما كتبت إلى فى أول عهدك، لأنى كنت كمن يتنبأ بأن هذا هو الذى سوف يقع. وأخيراً.. فإنك عندما طلبت منى رسالة لأنى لم أكتب لك رداً من قبل، قلت فى نفسى هذا هو السبب فى كل ما حدث.

"ولكن عندما وجد ما يتعلق بممارستى لوظيفتى، كتبت ملتمساً من أجل أولئك الحيارى، ذلك أنى فيما يتصل بأمر الله أرتعد خشية ولا يعنينى أى اطراء قد يوجه إلى روحى، أما فى الأمور التى يفضل فيها الرجاء والشكاية، فإنه سوف يصبح ضرورة مخاطبتك، كما أنى لا يفوتنى أن أقدم الاحترام الواجب مراعاته تجاه السلطة، تمشياً مع ما هو مكتوب:

"فأعطوا الجميع حقوقهم.. الجزية لمن له الجزية" (رسالة بولس إلى أهل روما) ذلك أنى إذا كنت أذعن من أعماق قلبى لشخص ما، فكيف لا أذعن

للإمبراطور؟ ولما كنت ترغب فى أن ترى مظاهر الاحترام والتبجيل تؤدى إليك، فلتسمح لنا أن نذعن لمن وهبك السلطان، ولمن تنتمى رضاه".

وإذا كان يوجينيوس لم يحقق لأمبروز رغبته، إلا أن الأيام لم تمهله ليواصل سياسته، ذلك أنه سرعان ما لقى الهزيمة مع قائده وصانعه أربوجاست على يد ثيودوسيوس الذى لم يتردد فى هدم المذبح.

وكان ثيودوسيوس طوال هذه السنوات الماضية من عهده قد اتخذ خطوات بعيدة نحو إعلاء شأن المسيحية والإجهاز على الوثنية، ووجهت ضرباته هذه المرة إلى المعابد ذاتها، ورغم أن الإمبراطور لم يكن راغباً فى تحطيم دور العبادة الوثنية تماماً، بل يطمع فى تحويلها إلى مرافق عامة، إلا أن الأمور أفلتت من يديه، حيث لعب الرهبان خاصة ورجال الأكليروس الدور الرئيسى فى هذه الناحية، وأقدموا بأنفسهم وبحمية بالغة على تدمير كل ما تصل إليه أيديهم من هذه المعابد، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مصر وسوريا.

ويذكر سوزومنوس – المؤرخ الكنسى – أن العديد من المناطق فى الولايات الشرقية كانت ما تزال تعج بالوثنيين الذين يترددون على المعابد ويمارسون طقوسهم فى حرية، ويؤيده فى ذلك الفيلسوف الوثنى ليبانيوس[١٠١]. وتركز هؤلاء بصفة خاصة فى البتراء والعربية ورفح وأفاميا جنوبى أنطاكية. ومن الطبيعى أن يعزو سوزومنوس أسباب الفوضى التى شهدتها هذه المناطق إلى الوثنيين، ويعتبرهم المحرك الرئيسى للاضطرابات التى وقعت، ومن الطبيعى أيضاً أن يرد المؤرخ الوثنى زوسيموس Zosiumus التهمة بمثلها معتبراً المسيحيين بمن فيهم النائب الإمبراطورى فى الشرق كينجيوس Cynegius مسئولين عن هذه الأحداث، وليس من العسير أن نعلل تلك الوقائع، فالمسيحيون وقد استندوا إلى اتجاه الحكومة الإمبراطورية وخاصة المراسيم التى صدرت عام ٣٨٥ بتحريم الأضحيات والقرابين والتردد على المعابد، ليهاجموا دور العبادة الوثنية ومستقر الأرباب. وكان ماركللوس Marcellus أسقف أفاميا أشدهم تحمساً لذلك، إلى الحد الذى دفعه

(١٠١) SOZOM. Hist. Eccl. VII 15.

إلى تكوين فريق من المصارعين الأشداء يعتمد عليهم فى إرهاب كل من تسول له نفسه من الوثنيين أداء الطقوس فى أحد المعابد. وقد لعب الدور الرئيسى فى تدمير عدد من دور الأرباب الوثنية، ليس فقط فى أفاميا، بل وسع دائرة نشاطه فى الريف المجاور، يدفعه إلى ذلك الإيمان بأنه ليس من السهل تحويل الوثنيين عن عقيدتهم إلا بهذه الطريقة وحدها[١٠٢]، وساعده بفرقة عسكرية مدربة على رمى السهام، النائب الإمبراطورى كينجيوس، لقهر جماعات الفلاحين الذين هم على عقيدتهم قائمون. غير أن ماركللوس ما لبث أن تجرع كأس موت سقاها من قبل للكثيرين قتلاً، إذ لم يسعفه عرجه بالهروب من إحدى المواقع التى كان يستتر فيها وراء فريق المصارعين، فلحق به الوثنيون المغيظون وأحرقوه حياً [١٠٣].

أما فى مصر فكانت الأمور أسوأ من هذا بكثير، ذلك أن الأسقف السكندرى ثيوفيلوس، الذى يصفه ثيودوريتوس بأنه صوت الحكمة ومكمن الشجاعة [١٠٤]، راح يلح على الإمبراطور ثيودوسيوس كى يسمح له بتحويل معبد الإله ديونيسيوس Dionysius إلى الكنيسة، ومع أن ثيودوسيوس لم يصدر أوامر صريحة بذلك، إلا أنه فى الوقت ذاته لم ينبئه برفضه، فاتخذ ثيوفيلوس من ذلك ذريعة ليبدأ حملة شاملة لتدمير المعابد الوثنية الشهيرة فى الإسكندرية، وعمد إلى السخرية بالطقوس الوثنية، عندما ألقى إلى عرض الطريق بكل ما يخص أسرار الشعائر الديونيسية. ثم تحول الهجوم بعد ذلك إلى السرابيوم[١٠٥]. وكان من الصعب على الوثنيين فى المدينة، خاصة فلاسفتهم ، إزاء هذه السخرية بالأرباب أن يكظموا غيظهم، ومن ثم اندفعوا فى غضبهم لا يلوون على شىء، واحتلوا مبنى السرابيوم، يقود جمعهم الفيلسوف أوليمبيوس Olympius وراحوا من هذه القلعة الوثنية يردون هجمات المسيحيين[١٠٦].

---

(١٠٢) SOZOM. hist. eccl. VII 15; THEOD. hist eccl. V 22.

(١٠٣) SOZOM. hist. eccl VII 15; THEOD. hist. eccl. V 21.

(١٠٤) THEDD. Hist. eccl. V 16 ويصفه المؤرخ جيبون بأنه "العدو الأبدى للسلام والفضيلة".

(١٠٥) SOCRAT. hist. eccl . V 16.

(١٠٦) Id.

ورغم أن سقراط يذكر هذه الحقائق، إلا أنه، ومن ورائه مؤرخو الكنيسة جميعهم، يلقون اللوم على الوثنيين فى الإسكندرية لإثارتهم مثل هذا الشغب فى المدينة، وهو نفس الموقف الذى اتخذه سوزومنوس من وثنيى سوريا، ويضيفون أن عدد القتلى من المسيحيين فى المدينة كان يفوق الوثنيين!! وهذا أمر لا يمكن تصديقه حتى مما يرويه سقراط نفسه ومؤرخو الكنيسة، فنحن نعلم من تاريخه أن حاكم مصر إفاجريوس Evagrius وقائد الحامية العسكرية رومانوس Romanus قد تدخلا بالحامية الرومانية فى المدينة لصالح الأسقف السكندرى ثيوفيلوس، كما أن الوثنيين اضطروا أمام أعمال العنف التى تعرضوا لها إلى الهروب من الإسكندرية متفرقين فى عديد من مدن مصر، وكان من بينهم النحويان هلاديوس Helladius وآمونيوس Ammonius [١٠٧]. هذا بالإضافة إلى أن الوثنيين "تملكهم الهلع والرعب مخافة أن يحل بهم غضب الإمبراطور" ولم يلبث أن تحقق صدق حدسهم، حيث جاءت الأوامر الإمبراطورية إلى الإسكندرية بتحطيم كل المعابد الوثنية فى المدينة، فصهرت تماثيل الأرباب فى غلايات ضخمة، بينما صودرت الأدوات الطقسية كالأوانى المقدسة لمصلحة كنيسة الإسكندرية، واحتفظ ثيوفيلوس بتمثال واحد لأحد الأرباب ليقيمه فى أحد الميادين من قبيل "الازدراء والسخرية" بالعبادات الوثنية. وقد أدى هذا بالذات إلى استياء أمونيوس، الذى عبر عن ذلك بقوله "أن ديانة الوثنيين قد أسيء إليها بصورة فجة بالإبقاء على هذا التمثال"[١٠٨].

---

(١٠٧) SOCRAT. Loc. Cit ويقول "وقد كنت أتتلمذ عليهما فى القسطنطينية فى فترة شبابى".

(١٠٨) يذكر سوزومنوس أن نيل مصر لم يفض فى هذا العام، وأن الوثنيين عزوا ذلك إلى ما حل بأربابهم، وعدم تقديم القرابين لآلة النهر. وقد كتب حاكم مصر إلى الإمبراطور يخبره بذلك، فرد عليه ثيودوسيوس بقوله "دع هذا النهر يتوقف عن الفيضان حتى ولو كان السحر ضرورة لتأكيد انتظام فيضانه، أو كانت البهجة تعلو صفحته لتقريب الأضحيات، أو كان الدم يجب أن يمتزج بمياهه التى تنبع من فردوس الإله"!! ولكن سوزومنوس يختم القصة معلقاً بقوله: "لقد أوردتها كما رويت لى"! ويذكر ثيودوريتوس إنه عندما هوت المعاول على السرابيوم تهدمه، أفرج للمعبد عن أعداد لا حصر لها من الجرذان، وأن هدم هذا المعبد دون حراك الألهة كان سبباً فى تحول كثير من الوثنيين إلى المسيحية" أنظر: SOZOM. Hist. eccl. VII 15; THEOD hist. eccl. V 22; RVFIN. Hist. eccl. II 29; SOCRAT. hist. eccl. V 15-16.

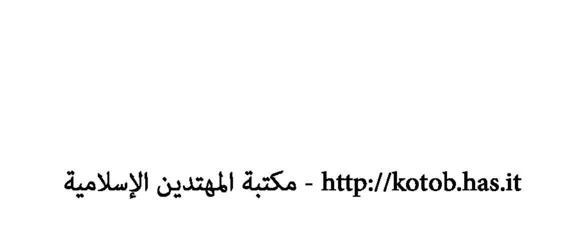
حتى إذا ما جاء عام ٣٩١ أدرك ثيودوسيوس ومستشاروه الكنسيون، وعلى رأسهم الأسقف الميلانى أمبروز، أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية للوثنية، فأعلنها حرباً على الوثنية ضروساً. ولعله من المنطقى أن نربط بين الإجراءات الصارمة التى اتخذها ثيودوسيوس فى هذا العام والذى يليه، وبين إذلال ميلانو الذى جرى له فى السنة السابقة على يد أمبروز بعد حادثة سالونيك. إذ أن الأسقف انتهز هذه الفرصة المواتية تماماً، ليحاول عن طريق الدولة الإجهاز كلية على الوثنية، بحيث تحتل المسيحية المرتبة الأولى، ومن ثم فإنه فى الرابع والعشرين من فبراير ٣٩١ أصدر ثيودوسيوس مرسوماً عاماً يقضى بإغلاق جميع المعابد فى كافة أنحاء الإمبراطورية وتحريم الأضحيات تحريماً تاماً، ثم لم يلبث أن ثنى ذلك فى الثامن من نوفمبر ٣٩٢ بمرسوم عام جديد نص على تدمير عدد من أشهر المعابد الوثنية فى الإمبراطورية، ومنع إحراق البخور أمام الأرباب فى المعابد أو فى البيوت، ولعن العرافة والتنجيم، وفرضت الغرامات المالية الباهظة على كل من يحاول التردد على المعابد التى أغلقت أو المزارات المقدسة، ووصلت إلى حد مصادرة الأملاك الخاصة من المبانى أو الأراضى التى تجرى فيها ممارسة مثل تلك الطقوس، واعتبرت الديانة القديمة وطقوسها، كما جاء فى المرسوم، محض "خزعبلات وثنية" gentilicia superstito وعد كل من يخالف نص هذين المرسومين، خارجاً على الإمبراطور والعقيدة، معرضاً نفسه لتهمة الخيانة العظمى ضد الدولة[١٠٩] حتى جاز لأحد المؤرخين أن يدعو هذا المرسوم الأخير "أنشودة الأحزان الوثنية"[١١٠]. وشهدت سنة ٣٩٣ آخر احتفال بالألعاب الأوليمبية، وتم نقل تمثال زيوس Zeus رب الأرباب، ذلك العمل الرائع للمثّال الإغريقى فيدياس Phidias من على جبل الأوليمب إلى القسطنطينية[١١١].

---

(١٠٩) انظر : SOZOM hist eccl VII 20
وقارن : Vasiliec, op. cit. I p. 83; Bury, op cit I p. 369.
و Jones, later Roman Empire, I p. 186.
وله أيضاً : The decline of the Ancient world, p. 71.
وكذلك : Chadwick, op. cit. p. 168.
(١١٠) Vasiliev, op cit. I p. 83
(١١١) Id.

هكذا غدت المسيحية على عهد ثيودوسيوس بمقتضى هذين المرسومين دين الدولة الرسمى، بعد أن ظلت ثلاثة أرباع القرن الرابع ديانة شرعية إلى جوار العقائد الأخرى فى الإمبراطورية، منذ رفع قسطنطين وليكينيوس عن كواهل رعاياها عبء الاضطهاد الوثنى، ذلك أنه منذ عام ٣١٣ وحتى عام ٣٩١ لم يصدر أحد من الأباطرة مرسوماً عاماً باضطهاد الوثنية، إلا عندما أقدم ثيودوسيوس على اتخاذ هذه الخطوة. ولا شك أن سياسة ثيودوسيوس الدينية تمثل الصورة المقابلة أو المضادة لسياسة الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)، فبينما كان ثيودوسيوس يعتبر اضطهاد الوثنية والفرق المسيحية الخارجة عن النيقية، ضرورة لأمن الإمبراطورية، فإن دقلديانوس كان يطبق نفس النظرة فى اضطهاده للمسيحيين، بل إن هذه أيضاً كانت نظرة الأباطرة الرومان الوثنيين للمسيحية قبل دقلديانوس عندما صدر أول مرسوم عام باضطهاد المسيحية على عهد الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١)، وكان ذلك راجعاً إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت تمر بها الإمبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث الميلادى.

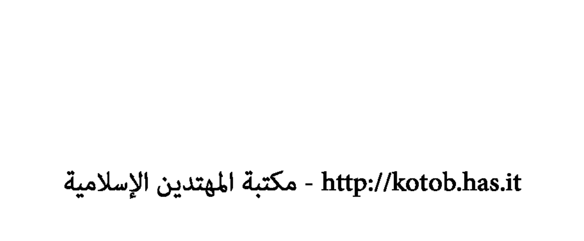
وإذا كانت كفة الأقدار الآن قد مالت لصالح المسيحية، إلا أن هذا لا يعنى أن الوثنية قد استسلمت دفعة واحدة. فالفلاحون فى ريف الإمبراطورية كانوا أشد الناس تعلقاً بهذه الديانة القديمة، خاصة أولئك الذين يرتبطون بها بالمولد أو الزواج. وكانت المشكلة الحادة فى الغرب بصفة خاصة هى كيفية اقتلاع الخزعبلات والأساطير من بين أفئدة الفلاحين، أما فى المدن وحتى قلاع المسيحية ذاتها كسوريا وآسيا الصغرى وأطراف مصر، فإن الطقوس السرية بما فيها الأضحيات، ظلت تمارس على الأقل حتى القرن السابع الميلادى، ومن ثم فقد انقضى وقت طويل قبل أن تدخل هذه المراسيم الإمبراطورية التى صدرت عامى ٣٩١، ٣٩٢ حيز التنفيذ الجدى، بل إن ثيودوسيوس نفسه، صاحب هذه المراسيم، جعل من الخطيب الوثنى ثمستيوس Themstius محافظاً للقسطنطينية، وعهد إليه بتربية ابنه أركاديوس، وبقيت مدرسة أثينا تؤدى رسالتها فى حفظ التراث الكلاسيكى دون أن تتأثر بأى من مراسيم ثيودوسيوس، حتى أدركتها بالفناء يد جوستنيان فى القرن السادس الميلادى.


مكتبة المهتدين الإسلامية - http://kotob.has.it



الفصل الخامس

إذلال ميلانو



الفصل الخامس

إذلال ميلانو

لم يكن من السهل على الفكر السياسى الرومانى أن يقبل وجود كيان داخل الدولة، أو بتعبير آخر، دولة داخل الدولة، ذلك أنه تبعاً للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والإمبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك فى أن يعتنق من العقائد ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام. ومن هنا كان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة المسيحية التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة، وزاد الأمر تعقيداً أن المسيحيين عزلوا أنفسهم عن المجتمع الرومانى والحياة العامة، فلا يشاركون الرومان الوثنيين طعامهم أو مبارياتهم أو مسارحهم، ولا يتزوجون منهم أو يزوجونهم، ولا يشتركون فى الوظائف العامة للدولة، ولا ينخرطون فى سلك التجنيد العسكرى، إلا بأعداد قليلة جداً وفى فترة متأخرة. ولما كانت الوثنية متسامحة مع أرباب العقائد الأخرى، وتسمح بوجودهم إلى جوار أربابها فى البانثيون الرومانى، على حين ترفض المسيحية الاعتراف بأرباب أخرى غير إله المسيح، ومن ثم يرفض المسيحيون العبادة الإمبراطورية، التى كانت تمثل رمز الولاء لروما والإمبراطور، غدا المسيحيون فى نظر الرومان منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها. ومن هنا تعرض المسيحيون للاضطهاد لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب بل على أيدى أباطرة مصلحين أمثال تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس، وإن لم يكن اضطهاداً عاماً أو رسمياً أو مستمراً.

ولم يكن الأباطرة الوثنيون يعنيهم من أمر الخلافات العقيدية الحادثة فى الكنيسة المسيحية شيئاً، ولهذا كانت نظرتهم إلى المسيحيين واحدة، وسياستهم تجاه الكنيسة بصفة عامة تسير على وتيرة واحدة، اضطهاداً أو تسامحاً، فلما كان عهد الإمبراطور قسطنطين وأخذت الدولة تتبع سياسة جديدة تتسم بالتسامح مع

المسيحيين، ثم التأييد على عهود أبنائه، ثم الانحياز الكامل زمن ثيودوسيوس وخلفائه من بعده، وجدت الدولة نفسها أمام مشكلة جديدة لم تعتد عليها من قبل، خاصة بعد أن أقحمت المشاكل العقيدية نفسها على الجهاز السياسى الرومانى. ومن هنا كان وضع الكنيسة فى الإمبراطورية الرومانية شيئاً جديداً وفريداً فى عالم تلك الأيام على حد تعبير بيورى[1]، خلق عدداً من المشاكل من نوع لم يكن أى إمبراطور رومانى حتى الآن قد اعتاد على مواجهتها من قبل، ولم يكن لأحدهم خبرة سابقة تفتح له بابا يلج منه لحل هذه المشكلات. ولا شك أن تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان سيصبح على قدر كبير من الاختلاف مما غدا عليه، لو أن الكنيسة بقيت مستقلة الشأن كما كان عليه الحال قبل قسطنطين، أو أن هذا الإمبراطور وخلفاءه أنعموا عليها بمثل ما أنعم به أسلافهم من حرية على المعابد الوثنية.

وبنفس الفكر السياسى الرومانى فى الإمبراطورية الوثنية، عالج قسطنطين شئون الكنيسة المسيحية وخلاف العقيدة فيها، خاصة وأن الرجل أمضى ثمانية عشر عاماً (٣٠٦-٣٢٣) يناضل من أجل وحدة الإمبراطورية سياسياً، ولهذا لم يكن يسيراً عليه أن يسمح لجماعة رفع عنها هو إصرها والإغلال التى كانت عليها، أن تعكر صفو سلامه السياسى بأمور عقيدية بدت له "تافهة" و"عقيمة" و"خلة حمق صبيانى" فدعا هو بنفسه إلى عقد المجامع، المكانية أولاً كما حدث فى المسألة الدوناتية [2]. وهو بعد فى الغرب، ثم تدخل فى الأمر بشخصه وقضى فيه بحكمه، ثم دعا من بعد إلى عقد المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥، ورأس الجلسة الافتتاحية، وشارك فى بعض جلساته وتدخل فى أمر العقيدة، فأضاف إليها ما ليس منها وما غدا قاعدة الإيمان للكنيسة الجامعة بعد ذلك، وصدق على قرارات المجمع، وأثاب الموافقين ونفى المخالفين، كل هذا يجرى ولم يكن قد تناول بعد سر المعمودية. ولم ترفع الكنيسة الرأس معارضة، ولم تكن فى ذلك راغبة، وحتى إذا

---

(١) Bury, op. cit. I p. 63.
وقارن Legacy of Middle Ages, p. 509.

(٢) عقدت فصلاً خاصاً للحديث عن المسألة الدوناتية فى كتابى: الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، الفصل الرابع.

رغبت فلم تكن تقدر، بعد أن مد قسطنطين يده إليها لينتشلها وهى تصارع موج الاضطهاد وتوشك على الغرق إبان عصر الاضطهاد الأعظم (٣٠٣-٣١٣)، فكيف لها إذن أن تعارض ولى النعم!!.

ولم يتخل واحد من خلفاء قسطنطين على امتداد عمر الإمبراطورية عن ممارسة هذه الأمور مع الكنيسة، وحرص جميعهم عرفوا من أمر اللاهوت شيئاً أم لم يعرفوا – على أن يظلوا أصحاب السيادة المطلقة فى علاقاتهم مع الكنيسة، والتى تمثلت فيما يعرف بالقيصرية البابوية Caesaropapism فالإمبراطور الذى كان الكاهن الأعظم فى الإمبراطورية الوثنية، أصبح هو الآن الأسقف الأعلى وقد تحولت الدولة إلى المسيحية. وقد اتبع أبناء قسطنطين الثلاثة الأسلوب نفسه فى تعاملهم مع الكنيسة، وإن كان أحدهم وهو قسطنطيوس، قد دخل فى صراع سافر مع الأسقف السكندرى أثناسيوس طيلة عهده، ولما كان أثناسيوس يعتبر آنذاك رمز الأرثوذكسية، فإن المقاومة التى أبداها تجاه السلطة الإمبراطورية كانت مؤشراً على أن المجتمع الجديد يستطيع أن يقرر فكره وإرادته بصورة لم يسبق لها مثيل فى علاقة الدولة بالكنيسة [٣]. ولكن من الأهمية بمكان أن نضع فى اعتبارنا دائماً أن أسقف الإسكندرية فى تحديه للسلطة الإمبراطورية، لم يكن يضع نظرية معينة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، ذلك أنه لم يكن يناوئ سلطان الدولة فى حد ذاته بل كان يتحدى فيها سيادة العقيدة الآريوسية ليس إلا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو عند الأسقف السكندرى أثناسيوس، فإنه يختلف إلى حد كبير عنه عند أبى المجامع، هوسيوس القرطبى، وإذا كنا لا نعد ما كتبه هذا الأخير أيضاً نظرية فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، بالمعنى المفهوم للنظرية، إلا أنه يمكن اعتباره بادرة مبكرة، وخطوطاً واضحة لطبيعة هذه العلاقات الآتية التى سيطرت على العصور الوسطى فى أوربا فيما بعد، وصبغت تاريخ حقبة كبيرة من الزمن ما بين القرنين العاشر والثالث عشر، ويؤيد ذلك أن هوسيوس ظل مستشار الإمبراطور قسطنطين للشئون الكنسية طيلة عهده، ولم تصدر عنه أية إيماءة توحى بالاعتراض على أى من سلوك الإمبراطور الذى

(٣) Bryce, The holy Roman Empire, p. 12.

اعتبرته الكنيسة الحوارى الثالث عشر للمسيح. ومن هنا يصدق القول أن ما جاء فى رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس كان مجرد خطوة وإن كانت بعيدة على طريق تحديد العلاقة بين الدولة والكنيسة فى الغرب فى العصور الوسطى، على حين حسم الشرق هذه المسألة منذ البداية بحيث احتوت الدولة الكنيسة وأصبحت هذه إحدى دوائر تلك، والأسقف مجرد موظف كبير فقط عند الإمبراطور.

وكانت أهم العبارات التى تضمنتها رسالة هوسيوس إلى قسطنطيوس، والتى كتبها إليه بعد عقد مجمع ميلانو سنة ٣٥٥ الذى انتهى بإدانة أثناسيوس والنيقية فى شخصه، ومحاولة التأثير على هوسيوس للتصديق على ذلك، قوله: "... لا تقحم نفسك فى المسائل الكنسية، لا تصدر إلينا أوامر هى من صميم شئوننا، بل لتعلمها أنت منا نحن. الله وضع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة، وكما أن الذى يسلبك هذه الإمبراطورية يصنع الشر فى عينى الرب، فلتخش أنت أيضاً التدخل فى شئون الكنيسة حتى لا تأتى بذلك شيئاً إدّا. مكتوب.. (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ومن ثم فليس من حقنا أن نمارس حكم الدنيا، وليس من حقك أيها السيد أن تحرق البخور"[٤]. وإذا جاء حديث هوسيوس بهذه الصراحة، فلا ينبغى أن يغرب عن ذهننا أنه رحب شأن يوسيبيوس القيسارى بالتزاوج بين الدولة والكنيسة، منذ عمل فى خدمة قسطنطين، ومنذ طلب الدعم من ولده قنسطانز قبل انعقاد مجمع سرديكا عام ٣٤٣ وبعده، وإن كنا نعتبره فى الوقت ذاته – كما قدمنا – إرهاصاً وسابقة لما سيحدث بعد ذلك. ومن هذه الدائرة يمكننا أيضاً أن ننظر إلى ما كتبه هيلاريوس أسقف بواتييه فى عمله الشهير "ضد الإمبراطور قسطنطيوس" Contra Constantium Imperatorem بعد أن أصبحت الآريوسية الهوموية لها السيادة بعد مجامع ريمنى وسلوقية عام ٣٥٩ ونيقا والقسطنطينية سنة ٣٦٠.

وكان ابتعاد الأباطرة عن الغرب وإقامتهم على شاطئ البسفور فى القسطنطينية وبصفة خاصة الأباطرة ذوى الشخصية القوية والنفوذ خلال القرن الرابع، فرصة سانحة كى تمارس الكنيسة فى الغرب عملها دون إشراف مباشر من الأباطرة، كما جرى عليه الحال فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، وكان هذا

(٤) HOSIVS, ep, ad Cons (in ATHANAS, hist. Arian, 44, Nicene, vol. IV).

من بين الأسباب العديدة التي دعت أكليروس الغرب إلى نبذ العقيدة الآريوسية بعد ارتحال قسطنطيوس عائداً إلى القسطنطينية عام ٣٥٦، وكان هذا في الوقت ذاته أيضاً مدعاة لأن تصبح الكنيسة الغربية أقل اعتماداً على الدولة من قرينتها في الشرق.

وقد وجدت الكنيسة الغربية في شخص أمبروز، الذي جعل من ميلانو منافساً خطيراً لروما، رغم احترامه وتقديره للكرسي الروماني وأساقفته، منتهزاً فرصة خلو عرش بطرس من شخصية قوية آنذاك، وجدت فيه زعيماً استطاع أن يتمسك بحقوق الكنيسة وإن كان في الوقت نفسه صديقاً مخلصاً للأباطرة وخادماً أمينا للإمبراطورية. ولما كان أمبروز رومانياً من الطراز الأول، ولد وتربى في جو التقاليد السائدة بين طبقة الموظفين المدنيين في الإمبراطورية، فقد جاء إلى خدمة الكنيسة مزوداً بما اشتهر به الموظف الروماني من روح عامة وإخلاص للواجب العام. ولم يقلل إخلاصه للمسيحية من ولائه للدولة، حيث كان يعتقد أن الإيمان الحق سوف يكون مصدر قوة جديدة للإمبراطورية، وكما انتصرت الكنيسة على الوثنية فستنتصر الإمبراطورية المسيحية على الجحافل الجرمانية [٥]. لقد كان أمبروز بحق أول الدعاة إلى مثالية الدولة المسيحية في الغرب، كما كان يوسيبيوس القيساري في الشرق، وإن كان هناك فارق كبير بينهما، فأمبروز يختلف تمام الاختلاف عن يوسيبيوس في تصويره لواجبات الحاكم المسيحي والعلاقة بين الكنيسة والدولة، وإذا كان موقف يوسيبيوس من الإمبراطور قسطنطين قد اقتصر على موقف أسقف يدين بالفضل للبلاط الإمبراطوري، وهو يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان على غرار الهالة التي أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة في الشرق القديم، ويخاطبه على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر، فإن أمبروز ينتمي إلى تقاليد أخرى، إذ يقف في منتصف الطريق بين مثالية العصور القديمة على المسئوليات المدنية، ومثالية العصور الوسطى المنادية بسمو السلطة الروحية. لقد جمع أمبروز في شخصه شيئاً من صفات الحاكم في العصور الرومانية وشيئاً من صفات البابا في العصور الوسطى، فرأى أن قانون الكنيسة لا يمكن تطبيقه إلا على أيدي رجالها، أي الأساقفة الذين يجب أن يخضع لسلطانهم

---

(٥) دوسن، تكوين أوربا. ص٥٢.

جميع الناس حتى الإمبراطور نفسه، وهو لا يتردد فى تحدى الأباطرة وزجرهم ومحاسبتهم على أعمالهم المنافية للعدالة (٦).

هذه النواحى نجدها متمثلة فى علاقاته بالأباطرة فالنتينيان الأول وولديه جراتيان وفالنتينيان الثانى، ثم ثيودوسيوس. فهو يلوم الإمبراطور فالنتينيان الأول على سلوك بعض موظفيه وخروجهم عن جادة الصواب، ولما يمضى على اختياره لأسقفية ميلانو إلا فترة قليلة جداً، وهو يصر على ضرورة الإيمان النيقى لدى الأباطرة حتى يمكنهم مواجهة التحديات التى تهدد الإمبراطورية متجسدة فى الزحوف الجرمانية، إذ كتب إلى الإمبراطور جراتيان ضمن عمله "عن الإيمان" الذى أعده بناء على طلبه، يقول:

"ليس من واجبى أن أعوق مسير عظمتكم فى وقت تستعدون فيه للحرب وإتمام النصر على البرابرة، فتقدم يحميك درع الإيمان، مسلحاً بسيف الروح القدس، إمض إلى النصر الذى وعدنا الله به وأنبأت به المعجزات التى جرت على يديه(٧)... إن جيشنا لا تتقدمه النسور الحربية، ولا الطيور المحلقة، بل اسمك أنت أيها الرب يسوع، وصلواتنا عليك. ليست هذه الديار للكافرين، إنها إيطاليا التى اعتادت أن تبعث دوماً بالمعترفين، إيطاليا التى طالما أغراها أهل الهوى، ولكنها إليهم لم تنحرف، إنها إيطاليا التى كثيراً ما دافع عنها جلالتكم، والتى تعملون على إنقاذها الآن من البرابرة. إن إمبراطورنا لا يحمل فى رأسه عقلاً متردداً، بل إيماناً ثابتاً لا يتزعزع"(٨).

ورغم أن أمبروز لم يتوان عن القيام بمهمة سياسية أوفده فيها الإمبراطور فالنتينيان الثانى وأمه جوستينا، إلى الإمبراطور المغتصب ماكسيموس فى عامى ٣٨٤، ٣٨٧، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواجهة فالنتينيان بكل الحزم والعنف عندما علم بما كان من أمر السناتو الرومانى وزعيمه سيماخوس معه فيما يتعلق بمسألة إعادة مذبح النصر إلى مكانه القديم، إلى حد التهديد بتوقيع الحرمان الكنسى ضد

---

(٦) المرجع السابق، ص ٥٣، ٥٤.

(٧) AMB, de fide II 136.

(٨) Ibid. 142.

الإمبراطور، ثم نجد أن أمبروز يكشف عن أفكاره الأساسية حول العلاقة بين الدولة والكنيسة، ويعلنها صراحة منذ الآن فصاعدا وحتى نهاية حياته فى رسائله إلى الأباطرة وسلوكه إزاءهم، فقد وقف موقفاً صارماً من فالنتينيان وأمه بعد أن أدرك ميلهما إلى الآريوسية ومحاولة الاستيلاء على إحدى كنائس ميلانو، فقد جاء فى رسالته إلى فالنتينيان بهذا الخصوص:

"... متى سمعت أن العلمانيين قد أصدروا أحكاماً فيما يتعلق بالأساقفة حول قضية الإيمان؟ وهل بلغنا حد المهانة من جراء تملق البعض ومداهنتهم إلى درجة التغافل عن حقوق الأكليروس؟ أو أن نعطى إلى آخرين ما عهد الله به إلينا؟ وإذا ما تصادف وتلقى أحد من رجال الدين تعليمه على يد واحد من العلمانيين، من تراه يتبع الآخر؟ فليناقش العلمانى وليصغ رجل الدين، وليتعلم هذا من ذاك، ولكن مع كل هذا الذى لا شك فيه، إننا سواء تابعنا ما جاء به الكتاب المقدس، أو اقتفينا سنة الأقدمين، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أنه فى مسائل الإيمان، وأكررها، فى مسائل الإيمان،، قد استقرت الأعراف بأن الأساقفة هم قضاة الأباطرة وليس هؤلاء قضاة أولئك"(٩). ويضيف: "إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحده"(١٠). "القصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس.. لقد خولت فقط السيادة على المرافق العامة لا على الأبنية المقدسة"(١١). "نحن نعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله. الجزية لقيصر، نحن لا ننكر ذلك، والكنيسة لله ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القصير"(١٢). ويؤكد فكره حول هذا بصورة لا تدع مجالاً للشك عندما يقول: "إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"(١٣).

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

---

(٩) AMB. Ep. XXI 4.
(١٠) AMB. Ep XX 7.
(١١) Ibid. 19.
(١٢) Ibid. 35
(١٣) Ibid. 36.

وإذا كان هوسيوس قد خطا خطوة الكنيسة الأولى على طريق تحديد علاقتها بالدولة، فإن أمبروز قطع نصف الطريق وصولاً إلى ذلك الهدف، ذلك أن شيئاً من ادعاء الكنيسة بالسيادة فى الحياة لم يكن قد تحقق منه شىء حتى أيام أمبروز، ولذلك فليس من المبالغة فى شىء القول بأن البابا جريجورى السابع اعتمد فى كثير من أفكاره وجهوده عن سمو الكنيسة فى القرن الحادى عشر على ما أقره قبلاً أمبروز فى القرن الرابع الميلادى، إلا أن أمبروز لم يجد السبيل أمامه فى هذا الطريق يسيراً. إذ أن ادعاءاته هذه بحقوق الكنيسة وكيانها المستقل، كانت تبدو للفكر الرومانى غريبة عنه، خاصة وأن الدولة قد سيطرت على الكنيسة فى عهد الأباطرة الوثنيين، ثم احتوتها منذ القرن الرابع بعد أن أخذت تميل إلى المسيحية. وكانت سيادة قسطنطين على الكنيسة المثل الذى يحتذيه خلفاؤه من بعد، ولذا كان اصطدام أمبروز بالدولة وسيادتها ممثلة فى شخص ثيودوسيوس الآن حتماً مقضياً. وإذا كان شباب جراتيان وطفولة فالنتينيان الثانى قد ساعدت الأسقف الميلانى على أن يحقق للكنيسة نوعاً من السيادة تجاههما، فإن شخصية ثيودوسوس، وفكرته عن سيادة الدولة، اتساقاً مع الفكر السياسى الرومانى، ورغبته فى تأكيد سيطرة الدولة على كل رعاياها، كان مدخلاً طبيعياً للصدام مع الكنيسة ممثلة فى أمبروز.

لقد أنعم ثيودوسيوس على الكنيسة والأكليروس المسيحى بكثير من الامتيازات التى ربما فاقت ما أقدم عليه أسلافه فيما يتعلق بالواجبات الشخصية ومسئوليات الحكم، غير أنه مع ذلك وضع فى اعتباره أن لا تتعارض هذه الامتيازات مع اهتمامات واختصاصات الحكومة، ومن ثم فإنه بقرار واحد فرض على الكنيسة التزامات غير عادية extra ordinaria munera من أهمها أن مقدرة الكنيسة على اعتبارها ملجأ وملاذاً للمجرمين والتى احترمت من جانب الدولة من قبل، حددت الآن بصورة كبيرة بسبب سوء استخدام هذا الامتياز، ومن ثم فقد منع المدنيين بصفة خاصة من الاحتماء فى الكنائس هرباً من دائنيهم، ومنع الأكليروس من التستر عليهم(١٤).

---

(١٤) Vasiliev, op. cit. I p. 82.

ولم تكن السنوات التى أعقبت انتصار ثيودوسيوس على ماكسيموس فى الغرب، إلا محكاً لاختبار القوى بين الكنيسة والدولة، ففى عام ٣٨٨ قام الأسقف والرهبان المسيحيون فى كاللينيكا Callinicum فى ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) Mesopotamia بتحريض الغوغاء من الجموع المسيحية على إحراق معبد لليهود وكنيسة لفريق من الخارجين على النيقية يعرف بالفالنتينيين Valentinians ولما كانت اليهودية تتمتع بالحماية الرسمية من جانب الدولة، فقد أصبح لزاماً عقاب هؤلاء الدهماء، وعلى الفور أصدر ثيودوسيوس أوامره إلى أسقف كاللينيكا بإعادة بناء المعبد اليهودى ثانية (١٥). ولا شك أن الإمبراطور الذى كان موجوداً فى الغرب آنذاك، كان حريصاً على أن يضمن هدوء تلك المناطق الشرقية حتى لا يستغل الفرس هذه الأحداث، وانشغال الإمبراطور بإقرار الأمور فى الغرب، للقفز على جبهة الفرات، التى كانت قد شهدت سلاماً حديثاً فقط جرى به توقيع معاهدة فى العام الماضى، خاصة وأن الثورة فى أنطاكية لم يكن قد انقضى على إخمادها شهور معدودات.

ومن الجدير بالذكر أن العلاقة بين اليهود والمسيحيين منذ البداية لم تكن طيبة على الإطلاق، ظل هذا ديدنها طيلة العصور الوسطى، وكان هذا يعود فى المقام الأول إلى الموقف العدائى الذى اتخذه اليهود من المسيح والمسيحيين، وانعكس ذلك بدوره على علاقتهم مع الإمبراطورية، ذلك أن اليهود لم يجدوا فى المسيح بغيتهم التى كانوا يؤملونها فى الـ "مسيا" الذى إياه ينتظرون، فقد جاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم وعداً حسناً فى الدار الآخرة، ولم يكن طموحهم أخرويا، بل دنيويا، يتمثل فى مسيح ملك يعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء ومن القوة والعظمة، وينهى بقوته وإلى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال، ويثقون فى أن "يهوه" لن يتخلى عنهم، ولم لا ونبوءات أنبيائهم تحدثهم بذلك. فهذا أشعياء يقول :لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيباً مشيراً الها قديراً أبا أبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته والسلام لا نهاية على كرسى داود

(١٥) AME. Ep. XLI 1.

وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد. غيرة رب الجنود تصنع هذا" (اشعياء ٩/٦-٧).

وكان الإذلال الذى تعرض له اليهود إبان العصر الرومانى دافعاً لهم على التعلق بهذه الآمال بعد أن تحطمت آمالهم بيد أباطرة الرومان خلال القرنين الأول والثانى، وكانت اليهودية قد أخذت فى الانتشار الواسع فى حوض البحر المتوسط الشرقى مستفيدة من غزو الإسكندر المقدونى الذى فتح العالم الإغريقى كله أمام اليهود، فاحتلوا مراكز التجارة العامة فيه، وسيطروا على طرق المواصلات الرئيسية، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العسكرية، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم، وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها. حتى أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى جودايا Judaea نفسها . وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سبباً فى إعادة إحياء هذه الديانة، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين، واستطاعات اليهودية أن تجذب إليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من هؤلاء.

وعلى الرغم من أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى، واستسلموا تدريجياً لمظاهر هذه الحضارة، إلا أنهم ظلوا يكونون شكلاً من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى القدس، وعندما أضحت جودايا جزءاً من ولاية سوريا الرومانية فى عام ٦٣ ق.م. حفظت روما لليهود موقفهم إزاءها أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين، كما ذكرت لهم بكل التقدير تخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة فى مصر ووقوفهم إلى جانب أوكتافيانوس، فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من الدول الهلنستية، ولم يطلب إليهم المشاركة فى العبادة الإمبراطورية، وحظوا بنوع من التسامح كانت تقره الوثنية، وتمكن اليهود من التخلص بلباقة من المأزق الذى دفعهم إليه الإمبراطور كاليجولا عندما أصدر أوامره بأن يقدم أتباع كل العبادات قرباناً لتماثيله، حيث قطعوا نصف الطريق إلى ترضية الإمبراطور بقبولهم أن يضحوا للاله يهوه باسم الإمبراطور.

غير أن اليهود قاموا بثورتين خلال هذه الفترة، الأولى فى جوديا فى ستينيات القرن الأول أخمدها الإمبراطور فسباسيانوس بعنف ودمر الهيكل، وأمر بتحويل الضريبة التى يدفعها اليهود إلى هيكل بيت المقدس إلى البانثيون فى روما، والثانية فى عامى ١١٦/١١٥ عندما شبت الثورة فى روما وامتدت منها إلى مناطق عديدة من الإمبراطورية فى برقة ومصر وقبرص وما بين النهرين، وتمكن الإمبراطور هادريان من القضاء عليها، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوماً يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من الأعياد اليهودية، أو إقامة أى طقس من طقوسهم علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد خلال العام ليسمح لهم فيه بالبكاء أمام خرائب الهيكل.

ولم يتحسن وضع اليهود بمجىء قسطنطين الذى أصدر مرسوماً فى عام ٣١٩ تهدد فيه اليهود بعقوبة الحرق إذا ما وقفوا حجر عثرة فى سبيل "التحول إلى عبادة الله". ومن المعروف أن القانون الرومانى لم يكن يستبعد تطبيق عقوبة الإحراق للمجرمين، خاصة إذا كانوا من الطبقات الدنيا. وعبارة المرسوم غامضة لا تشير إلى المسيحية مباشرة، وهذا يؤكد من جديد تلك السياسة التى سار عليها قسطنطين فى علاقته بالعقائد المختلفة فى الإمبراطورية، خاصة وأنه فى هذه السنة كان ما يزال سيد الغرب فقط. وقد أبدى قسطنطين سعادته عندما وافق مجمع نيقية على تعديل عيد الفصح حسب ما تحتفل به كنيستا روما والإسكندرية، خلافاً لما جرى به التقليد الكنسى من قبل من الاحتفال بهذا العيد تبعاً للتقويم اليهودى. ويمكن القول بصفة عامة على حد تعبير المؤرخ جواتكين Gwatkin أن اليهود لم يظهروا فى يوم ما ولاءهم للإمبراطورية، كما أن الإمبراطورية وقد أخذت تتحول إلى المسيحية، كانت تحمل لهم عداء دائماً، وإن كان هذا قد خف بصورة ما على عهد الإمبراطور جوليان الذى عمل على أن يقربهم إليه كجزء من سياسته العامة تجاه المسيحية، وإن كان ذلك لم يظهر فى مرسوم عام من جانبه، ولم تدل عليه الأحداث إلا عند مقدمه إلى أنطاكية التى كان بها جالية يهودية كبيرة، وتشير بعض الروايات إلى أنه سمح بإعادة بناء الهيكل ثانية، وإن كان هذا لم يتحقق.

وعلى أى حال فإن أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية كان كل منهما يحمل العداء للآخر، خاصة من جانب المسيحيين الذين كانوا يذكرون دائماً مواقف اليهود المختلفة من المسيح وعداءهم له. ولم يكن اليهود يقلون عنهم شعوراً بهذا العداء على اعتبار أنهم أتباع المسيح الذى رفضوه، والذين تتهيأ لهم الأمور لتصبح عقيدتهم لها السيادة فى الإمبراطورية، ويصبحون هم بالتالى رعايا لجماعة يعدونها منشقة عنهم وخارجة، ومن ثم كان التوتر قائماً بينهما بصفة مستمرة. ولهذا فإن ما وقع فى كالينيكا فيما بين النهرين، من إحراق المعبد اليهودى هناك على يد الجموع المسيحية بتحريض الأسقف والرهبان، لهو دليل على هذه الناحية بشكل مباشر. وبينما كان الإمبراطور ثيودوسيوس ينظر إلى هذه الحادثة باعتبارها مسألة تخص الحكومة الإمبراطورية وسلطانها، كان الأسقف الميلانى أمبروز يعتبرها أمراً عادياً جزاء ما قدمت أيادى اليهود فى حق المسيح وأتباعه. ولهذا فإنه على حين أصدر الإمبراطور أوامره بإعادة بناء المعبد ثانية، وأن يتولى الأسقف نفسه هذه المسألة، راح أمبروز يستحث الإمبراطور على العدول عن قراره، حتى اضطره إلى ذلك فعلاً. وقد كتب أمبروز رسالة مطولة إلى ثيودوسيوس حول هذا الأمر، لا يعدلها فى إطنابها إلا رده على سيماخوس.

والرسالة تثنى على رحمة ثيودوسيوس وعدالته، وورعه وتقواه، إلا أن ذلك لا يمنع من الوقوع فى الغواية بتأثير عوامل معينة. ولذا فمن واجب أمبروز كأسقف أن يوجه النصح والرشد للإمبراطور بما يمليه عليه واجبه الدينى وصداقته الحميمة التى تربطه به. ولهذا كان من الضرورى أن يوضح له أن قراره بإعادة بناء المعبد اليهودى ثانية يشكل إثما خطيراً إذ أنه سيدفع رجال الأكليروس المسيحى بعد ذلك إلى سلوك أحد سبيلين، فإما الزيغ والضلال نتيجة سكوتهم عما يرونه من انتهاك لحرمات الدين، وأما الموت خلاصاً من ذلك. وقد أشار أمبروز إلى الرواية التى تقول إن جوليان أمر بإعادة بناء الهيكل ثانية، وما كان من أمر اشتعال النيران فيه قبل إتمام بنائه، وقارن بين قراره هذا وهو إمبراطور مسيحى، وبين موقفه عندما أضرمت النيران من جانب الآريوسيين فى منزل أسقف العاصمة نكتاريوس فى نفس الفترة تقريباً، وراح يعدد الكنائس الكثيرة التى أحرقها

اليهود على عهد جوليان فى غزة وعسقلان وبيروت والإسكندرية، والمذابح التى أوقعوها بالمسيحيين، ويوجه الاتهامات العنيفة إلى اليهود وينعتهم بالإلحاد، ويذكر الإمبراطور بأن انتصاراته على ماكسيموس التى جرت منذ شهور تعود إلى تأييد الله له، فكيف يغضبه الآن لارضاء هؤلاء اليهود؟ وإذا كان قد عفا عن الأنطاكيين الذين أساءوا إلى شخصه بتحطيم تماثيله، فلا أقل من أن يعدل عن قراره هذا. ولم يفت أمبروز أن يشهر فى وجه الإمبراطور فى آخر سطور رسالته سلاح التهديد بقرار الحرمان الكنسى.

ولعله من الضرورى هنا أن نبسط فكر أمبروز حول هذا الأمر، وما تضمنه من علاقة الدولة بالكنيسة، وليس أصدق على هذا "البسط" من أن نترك المجال لأسقف ميلانو كى يعبر بقلمه عما احتواه صدره.. قال:

"من أمبروز الأسقف إلى الأمير الرحيم، والإمبراطور المبارك ثيودوسيوس العظيم.

"أيها الإمبراطور الممجد .. لطالما عانيت .. ولكنى مع ذلك لم أكن فى يوم ما محزونا كيومى هذا. لذا أخذت حذرى موقناً أنه ليس هناك شيء يمكن أن يعزى إلي، ويشتم منه انتهاكاً لحرمة المعابد. ومن ثم فإنى أتوسل إليك أن تصغى بكل الصبر لما أنا قائل، ذلك أنى إذا لم أكن جديراً باصغائك، فلن أكون مستحقاً إذن، وقد حظيت بثقتك، أن أقدم من أجلك النذور والصلوات. ألن تسمع أنت نفسك من ترغب فى أن يسمع من أجلك؟ ألن تصغى لهذا الذى يعرض قضيته هو وقد أصغيت له وهو يتحدث من أجل آخرين؟ ثم ألست خائفاً من أجل قرارك الخاص، بحيث إذا ظننت أنه غير جدير بأن تسمع له، يمكن أن تجعله بذلك غير جدير بأن يصغى إليه أحد من أجلك.

"ومع كل ذلك فليس من حق أى إمبراطور أن ينكر على أحد حرية القول. وليس من واجب أى كاهن أن لا يبدى ما يدور فى أغوار فكره. ولعل أعظم ما فيك أيها الإمبراطور شهرة وتقديراً هو احترامك لحرية حتى أولئك الذين قهرتهم بالقوة العسكرية. وهذا هو الفارق الجوهرى بين الحاكم الصالح ونقيضه، فالأول

يعشق الحرية والثانى يهوى العبودية، كما أنه ليس هناك شيء أعظم من أن يرعى الكاهن حدود الله. ولا أحط فى فكر الناس من أن يعرفون عنه أنه لا يمتلك الحرية فى التعبير عما يجول بخاطره. مكتوب "وأتكلم بشهادتك قدام ملوك ولا أخزى" (مزامير ١١٩/٤٦). ومكتوب أيضاً "يا ابن آدم قد جعلتك رقيباً لبيت إسرائيل" لأن "البار إن رجع عن بره وعمل إثماً وجعلت معثرة أمامه فإنه يموت لأنك لم تنذره يموت فى خطيته ولا يذكر بره الذى عمله. أما دمه فمن يدك أطلبه. وإن أنذرت أنت البار من أن يخطئ البار وهو لم يخطئ فإنه حياة يحيا لأنه أنذر وأنت تكون قد نجيت بنفسك". (حزقيال ٣/١٧، ٢٠، ٢١).

- "وتجمعنى وإياك أيها الإمبراطور رفقة خير لا صحبة شر، ولذا كان صمت الكاهن مدعاة لإثارة السخط والغم فى نفسك، بينما يضفى السرور على قلبك حديثه. وليس الفضول من طباعى بحيث أدس فيما لا يعنينى أنفى، إنى لله وتعاليمه متبع. وما فعلت ذلك كله إلا حرصاً على محبتك، ومودة لك، ورغبة فى أن تظل أعمالك على الدوام طاهرة. فإذا لم أكن أعتقد صدق ذلك فعلاً، أو قدر لى أن أحرم من التصرف وفق هذا الأساس، فيكفى أنى سوف أقدم نفسى بكل الاصطبار فداء لك، فربما تكون دون مجازفتى مقبولاً عند الرب ممجداً. ولكن إذا كانت خطيئة الصمت أو الرياء من جانبى سوف تحط من قدرى، وفى الوقت نفسه لن تطلق يدك حرة فى كل الأمور، فإنى أفضل أن تعتبرنى ملحفاً فى القول لجوجا خيراً من أن تنظر إلى على أنى عدم النفع دنيئاً، فقد جاء على لسان بولس الرسول الذى ليس بمقدورك أن تحاجه فى تعاليمه "أعكف على ذلك فى وقت مناسب وغير مناسب. وبخ، انتهر، عظ بكل أناة وتعليم" (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس ٤/٢).

"وهناك واحد تصنع شرا لو حاولت اغضابه، خاصة وأن الأباطرة أنفسهم لا يسخطون إذا ما أدى كل شخص واجبه، وأنت نفسك تصغى بكل الأناة لكل إنسان يبدى مقترحات فى مجال عمله، ولا حتى تنتهز أحداً انحرف عن جادة الصواب فى ميدانه. فهل يمكن أن يبدو صفاقة من جانب الأكليروس ما ارتضيته أنت من قبل فى موظفيك، خاصة إذا كنا لا نقول ما نحب، بل ما نحن به مأمورون؟ ولا ريب فقد قرأت "فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون لأنكم تعطون فى

تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم" (متى ١٠/١٩-٢٠). ولو فرضنا أنى رحت أتحدث فى قضايا الدولة، وأنا أعلم أن الصدق لابد أن يتوفر أيضاً فى مثل هذا الحديث، فلن أمتعض إذا ما أحسست أن أحدا لا يصغى لحديثى، أما إذا كان الأمر يتعلق بأمر من أمور الله، فلمن تسمع إذن إذا لم تسمع لكاهن؟ من تراه يجترئ على أن يعلن الحق أمامك إذا لم يفعله كاهن؟

"أنا أعلم أنك إنسان تخشى الله وتتقيه، رحيم، وقور، رقيق، دخل الإيمان إلى قلبك فملأك لله خشية، ومع كل ذلك فإن هناك أشياء غالباً ما تغفل عنها العيون. مكتوب "لأنى أشهد لهم أن لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة" (رسالة بولس إلى أهل روما ١٠/٢). ومن ثم كان لزاماً علينا أن نكون حريصين حتى لا يتسلل ذلك إلى الأرواح المؤمنة. وأنا أعلم مدى اتضاعك لله، وكم أنت بالناس رؤوف، وأنا نفسى مدين لك بالفضل، من أجل هذا يساورنى القلق خشية أن تديننى من بعد بحكم خاص تصدره، مبنى على أنك من خلال رغبتى فى أن أكون صريحاً تمامًا، أو بسبب نفاقى وتملقى، لم تسطع أن تتحاشى بعض الهنات، فإذا ما عاينت أنك أخطأت فى حقى، فليس من واجبى أن ألزم الصمت، لأنه مكتوب "وأن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع فخذ معك أيضاً واحدا أو اثنين لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة". (متى ١٨/ ١٥-١٧). أترانى بعد هذا إذن أعقل لسانى عن أمر يخص الله؟ والآن دعنى أعرض عليك مخاوفى والهواجس.

"هناك تقرير دبجه القائد العسكرى للشرق يقول فيه أن معبداً لليهود قد تم احراقه، وأن هذا الحادث قد وقع بتحريض من الأسقف، ولقد أصدرت أوامرك على الفور بمعاقبته الآثمين، وألزمت الأسقف ذاك نفسه بإعادة بناء المعبد. ولست أستحثك كى تؤخر بعض الوقت حساب الأسقف، فالذى أعلمه أن الكهان هم مهدئو الفتنة، حريصون على السلام، إلا عندما يستثارون لأمر يخص الله، أو لإهانة لحقت بالكنيسة. ولنفترض أن الأسقف كان حقاً شديد الحماسة فى مسألة إحراق المعبد، شديد الحياء عند منصة القضاء، ألا يتملكك الخوف أيها الإمبراطور خشية أن يتزعزع إيمان الأسقف بإذعانه لحكمك؟

"ألا تخشى أيضاً إذا ما حدث ذلك، أن يواجه الأسقف قائدك بالرفض ومن ثم فإنه أما أن يدفع الأسقف بعد ذلك إلى أن يصبح مرتداً أو شهيداً. وهذا أو ذاك قد انقضى زمانه، وكلاهما للاضطهاد قرين إذا ما أكره على الارتداد أو سيق إلى الشهادة. وها أنت ترى إلى أى منحدر تسير الأحداث، فإذا ما تبين لك أن الأسقف ثابت على موقفه، فلتحم من الموت رجلاً خلقه الثبات، أما إذا عرفته مزعزعاً، فلتجنب نفسك إثم سوق إنسان يترنح إلى هاوية السقوط، فهذه الأخيرة فى حد ذاتها مسئولية شديدة الوطء.

"ومادام الأمر قد جرى على هذا النحو فلنفترض أن الأسقف المذكور يقول أنه هو الذى أضرم النيران، واستحث الجموع، وجمع العامة من حوله حتى لا يضيع أى فرصة للشهادة، فبدلاً من أن نقدم ضعيفاً، فلنضع فى المقدمة مصارعا. أى سعادة زائفة إذن تلك التى ينالها شخص لنفسه على حساب تبرئة آخرين. وهذا بعينه أيها الإمبراطور ما ألح فى طلبه، بمعنى أن توقع علىّ عقابا ما، فإذا ما اعتبرت ذلك جرماً، فلتعزوه إلىّ. ولماذا تصدر حكماً غيابيا؟ إن المذنب ماثل أمامك يدلى باعترافاته. أنا الذى أشعلت النار فى المعبد، أو قل على الأقل إننى أنا الذى حرضت من فعل ذلك، فليس من الواجب أن يوجد مكان ينكر فيه اسم المسيح، فإذا ما اعترض على قولى بأنى لست أنا الذى أحرق المعبد، فإن إجابتى لن تخرج عن القول بأن الحريق بدأ بقضاء الله وأن دورى قد انتهى فإذا ما طلب الحق لذاته، فإنى أكون فى هذه الحالة أشد ارتباطاً، لأنى لا أتوقع أبدا أن هناك شيئاً يستحق العقاب. ولماذا أقدم على شىء يبدو كما لو كان لن يؤخذ بثأره، وكذلك دون مكافأة؟ هذا القول يخدش الحياء، ولكنه يوجب الصفح، مخافة أن حدث ذلك أن يكون إثماً يرتكب فى حق الله العظيم.

"ولكن دعنا نسلم بأن أحداً لن يذكر أن الأسقف هو الذى فعل هذا، بدلاً من أن أطلب ذلك من رحمتك، ورغم أنى لم أقرأ بعد أن هذا المرسوم قد تقرر الغاؤه، إلا أننا سوف نفترض أنه قد ألغى بالفعل. وماذا لو أن الآخرين الأشد حياء عرضوا إعادة بناء المعبد على نفقتهم الخاصة؟ أو ماذا لو أن القائد وقد وجد هذه النية المسبقة، قد أصدر أوامره ببنائه ثانية بعيداً عن مدخرات المسيحيين؟ إن لديك

أيها الإمبراطور نائباً مرتداً.. فهل يمكن أن تثق فى النصر يجرى إذن على يديه؟ وهل يمكن أن تعهد بجمل لابرومة المسيح إلى من يحاول إعادة المعبد اليهودى الذى لا يعرف من هو المسيح؟ ألا فلتصدر أوامرك بأن تحمل لابرومة المسيح إلى قلب هذا المعبد لنرى هل يظهرون الاحتجاج والرفض أم لا.

"ترى أيمكن أن يخصص مكان للمرتابين اليهود من بين ما غنمته الكنيسة؟ وهل يمكن أن تنتقل الأملاك الكنسية التى حازها المسيحيون بنعمة المسيح إلى خزانة غير المؤمنين؟ ولقد قرأنا حقاً عن معابد قديمة بنيت من أجل أوثان المغتصبين، قد أخذت من الكمبرى Cimbri وغنمت من غيرهم من الأعداء . فهل يكتب اليهود على مدخل معبدهم: "شيد معبد الألحاد من غنائم المسيحيين"؟

"ولكن.. ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. لكن خبرنى أيها أهم وأعظم؟ إقرار النظام أم العقيدة؟ إن الأمر يحتاج إلى أن تكون الأحكام خاضعة لنظم العقيدة.

"ألم تسمع أيها الإمبراطور بما حدث على عهد جوليان عندما أمر بإعادة بناء الهيكل فى بيت المقدس؟ لقد أكلت النار أولئك الذين راحوا يرفعون الأنقاض(١٦). أفلا تكون حذراً خشية أن يقع مثل ذلك مرة أخرى؟ إن الواجب يقتضيك أن لا تأمر بما أمر به من قلب جوليان.

"ولكن .. ما هى حقاً دوافعك ؟ أتعود إلى مجرد احتراق مبنى عام، أو لأن هذا المبنى بالذات هومعبد اليهود؟ فإذا كان الأول (مع أنه ليس فى المدينة مبنى ذو أهمية).. أفلا تتذكر أيها الإمبراطور كم من بيوت محافظى روما قد التهمته النيران، ولم يعاقب أحد من جراء ذلك؟ وللحقيقة.. فإن أى إمبراطور تحدوه الرغبة فى إنزال العقوبة الصارمة جزاء فعل ما، فإنه بالتالى سوف يسىء إلى أصحاب القضية الذين لحقهم الضرار، وأيهما أجدر بالقصاص؟ .. إضرام النيران فى بعض

(١٦) لقد جاء ذكر الرواية فى كل كتب المؤرخين الكنسيين وتحدث عنها أميانوس ماركللينوس الوثنى فى كتابه Res gestae XXIII. 1 وليس من المستبعد طبعاً أن تكون النيران قد اشعلت على يد الساخطين.

أبنية كاللينيكا، أو تسعيرها فى روما؟ على افتراض أن هذا أو ذاك واجب الوقوع. ولقد حدث مؤخراً أن النار قد اشتعلت فى منزل أسقف القسطنطينية، وقد تشفع ابنكم فى ذلك طالباً منكم الصفح وعدم الانتقام لهذه الإهانة التى لحقت به.. وبمن لحقت؟ بابن الإمبراطور وأسقف العاصمة. ألا تعتقد أيها الإمبراطور أنك لو كنت قد أصدرت أوامرك بالقصاص العادل فى هذا الحادث، أنه كان سيتدخل ثانية من أجل رفع العقوبة؟ ومع ذلك فقد باء الابن بالفضل من أبيه، إذ كان جديراً بالتسامح والعفو عمن أساء إليه. وكانت تلك إذن قسمة عادلة، فالابن تم استعطافه من أجل حقه، والأب من أجل حق ولده. ولم يحدث لك شيء مطلقاً من جراء اصغائك لابنك. إذن.. خذ حذرك.. لئلا تخسر كل شيء من عند الله آت.

"ليس هناك إذن سبب كاف لمثل هذا الهياج بحيث يعاقب الناس بصورة صارمة بسبب إحراق مبنى، تتضاءل أهميته إذا ما عرف أنه المعبد اليهودى، بيت الكفر والإلحاد، وكر الحماقة الذى أدانه الله نفسه. ونحن نقرأ ما تحدث به الرب الهنا على لسان أرميا النبى: "أصنع بالبيت الذى دعى باسمى عليه الذى أنتم متكلون عليه وبالموضع الذى أعطيتكم وآباءكم إياه كما صنعت بشيلوه. وأطرحكم من أمامى كما طرحت كل نسل أفرايم. وأنت فلا تصل لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ولا تلح على لأنى لا أسمعك. أما ترى ماذا يعملون فى مدن يهوذا" (ارميا ٧/١٤-١٧) لقد حرم الله الشفاعة لأولاء القوم.

"وبكل تأكيد.. لو أننى كنت مترافعاً بما يمليه القانون، فإن بمقدورى أن أعدد كم من الأسقفيات قد أحرق بيد اليهود زمن الإمبراطور جوليان: اثنتان فى دمشق، إحداهما مما لا يمكن إصلاحها ثانية على نفقة الكنيسة وليس على حساب المعبد اليهودى، أما الأخرى فما زالت أنقاضاً وخرائب، وأحرقت أيضاً كنائس فى غزة وعسقلان وبيروت، وفى كل مكان تقريباً من تلك الأجزاء، ومع ذلك فإن أحداً لم يطلب القصاص. وفى الإسكندرية أشعل الوثنيون واليهود النار فى إحدى الكنائس – وهى تفوق كل ما عداها، ولم تقدم الكنيسة على الانتقام – ترى أيفعل معبد اليهود ذلك؟

"وهل سيثأر أيضاً لإحراق معبد الفالنتينيين؟ Valentinians ما الحال فى معبد لا يمثل إلا تجمعاً للوثنيين؟ فعلى الرغم من أن الوثنيين يبتهلون إلى اثنى عشر ربا، فإن الفالنتينيين يعبدون أثنين وثلاثين دهراً Aeons يدعونهم آلهة. ولقد عرفت أيضاً فيما يتعلق بهذا الأمر أن الأوامر قد صدرت بانزال العقوبة ببعض الرهبان، إذ بينما هم فى طريقهم للاحتفال بعيد المكابيين ينشدون المزامير كما جرت بذلك العادة منذ القدم، اعترضهم نفر من الفالنتينيين وأثاروا بوقاحتهم غضب هؤلاء الرهبان، فأقدموا على إحراق معابدهم التى بنيت على وجه السرعة فى بعض قرى المنطقة.

"وكم منهم كان عليه أن يقدم نفسه لمثل هذا الاختيار؟ إذا ما تذكر أنه على عهد الإمبراطور جوليان، الذى ألقى بالمذبح ودنس القربان، قد أدين وعانى الشهادة، على يد القاضى الذى لا يمكن أن تحسبه أكثر من ورع، ولم يظن أحد أنه جدير بالمودة. فإذا لم يكن قد مات.. أتراك أيها الإمبراطور كنت آخذ بالثأر منه، رغم أنه لن يهرب من انتقام السماء الأبدى؟

"ولقد قيل أن القاضى أمر بأن يطلع على حيثيات القضية، لا ليكتب عنها تقريراً بل ليقرر فيها العقوبة، وأن صناديق النذور التى نهبت يجب أن تعاد ثانية. ولسوف أتغاضى عن الموضوعات الأخرى، ولكن كنائسنا أحرقت بيد اليهود، ولم يعد شىء مرة أخرى، بل لم يطالب بعودته. وما الذى يمكن أن يمتلكه معبد لليهود فى مدينة قصية، إذا كان كل ما هناك ليس كثيراً، بل ولا قيمة له، ولا وفرة فيه؟ وما الذى يمكن أن يفقده اليهود الكائدون فى الحريق؟ إن هذا ولا شك بعض من خداع اليهود الذين يحيكون بنا المكائد، ذلك أنه بناء على شكواهم سوف تتواجد هناك قوة عسكرية كبيرة، وسوف يأتى قائد عسكرى، (وقائد) ربما يردد ما قاله واحد من الناس قبل اعتلائك العرش أيها الإمبراطور "كيف يكون بمقدور المسيح مساعدتنا ونحن نحارب من أجل اليهود ضد المسيح الذى أرسل ليقتص من اليهود؟. لقد حطموا أسلحتكم وهم الآن يحاولون نفس الشىء معنا.

"انهم بأى وشاية إذن سوف ينطلقون، إذ لم يتورعوا عن الوشاية حتى بالمسيح. إنهم لن يرجعوا عن أى نميمة، وكيف ذلك وهم الذين كذبوا على الله؟

ومن تراهم يتهمون بأنهم المحرضون على هذه الفتنة؟ من تراه لم يتعرض لقحتهم، حتى من بين أولئك الذين يعرفون أنهم ليسوا لذلك أهلاً؟ ألم يروا إلى هذه الأعداد التى لا حصر لها من المسيحيين على مختلف طبقاتهم في السلاسل يسحبون؟ وإلى رقاب المؤمنين الصادقين فى الأسر قد أذلت؟ وإلى رجالات الله وهم إما يتخبطون فى الظلام، وإما قطعت رؤسهم، وإما ألقى بهم فى النار، أو قذف بهم للعمل فى المناجم؟ ولكم طال بهم العذاب؟

"أتراك تهدى هذا النصر على كنيسة الله إلى اليهود؟ أتراك أيها الإمبراطور تدشن هذا النصب الذى أقيم بمناسبة الانتصار على رعية المسيح؟ وتمنح هذه البهجة لأولاء الملحدين؟ أيكون التهليل من نصيب معبد اليهود؟ وللكنيسة الغم والحزن؟ إن اليهود سوف يضفون هذه القداسة والمهابة على أعيادهم، وسوف يضعونها بلا شك بين انتصاراتهم على العموريين والكنعانيين، أو حتى خلاصهم من أيدى فرعون ملك مصر، أو نبوخذ نصبر ملك بابل. إنهم سوف يجلون هذا ويذكرونها دائماً بالانتصار على شعب المسيح.

"وحيث أنهم هموا أنفسهم ينكرون التزامهم بالقوانين الرومانية ويعتبرونها شراً محضاً، فكيف يظنون الآن أنه من الواجب القصاص لما نزل بهم حسب هذه القوانين الرومانية؟ وأين كانت هذه القوانين عندما أقدموا هم على إضرام النيران حتى أسقف الكنائس المقدسة؟ وإذا لم يكن جوليان قد اقتص للكنيسة باعتباره مرتداً، فهل تقتص أنت لما حل بمعبد اليهود باعتبارك مسيحياً؟

"وما الذى سوف يقوله لك المسيح؟ ألا تذكر ما قاله الله على لسان نبيه ناثان إلى المقدس داود[١٧]. "من بين إخوتك اصطنعتك لنفسى ومن نسل رجل ممجد اخترتك إمبراطوراً، وعلى عرش الإمبراطورية أقمت ثمرة غرسك[١٨]. وأذللت لك جميع أمم البرابرة، وأنعمت عليك بالسلام، وقوضت جميع أعدائك من أمامك. ولم تكن لديك الحنطة التى تمون بها جيشك، ففتحت أمامك الأبواب، وصوامع الغلال

---

(١٧) (صموئيل الثانى ٧/٨ وما بعدها).

(١٨) يعنى ابنه أركاديوس.

بأيدى أعدائك أنفسهم جعلتها طوع أمرك، فقدموا لك بذلك ما كانوا لأنفسهم قد اختزنوه، وحيرت مستشارى عدوك فجعلته بذلك مكشوفاً أمامك. وعرقلت خطط مغتصب(١٩) العرش الإمبراطورى وأدخلت على عقله، إذ بينما توفرت لديه وسائل الهرب، فإنه خوفاً من أن ينضم بعض جنده إليك فارين، إلا أنه أغلق عليه. أما قائد القوات الأخرى(٢٠) وقائدها، الذين بددت شملهم حتى لا تتحد قوتهم جميعاً ضدك، فقد جمعت شتاتهم ثانية حتى يكتمل نصرك. أما جيشك الذى جيشته من أمم عديدة لم يتيسر لك إخضاعها، فقد حفظت عليه إيمانه وهدوءه وألفت بين قلوب جنده حتى غدوا كما لو كانوا أبناء أمة واحدة، فلما لاح فى الأفق تهديد جديد متمثل فى إمكانية اختراق البرابرة، الذين تنطوى على الغدر نفوسهم، جبال الألب، خلعت عليك النصر عبر هذه السلسلة الجبلية الضخمة، حتى يتحقق لك النصر دون أية خسارة. وهكذا بينما قدت خطوك إلى النصر على عدوك، رأيتك تسلم هذا النصر لأعدائى على شعبى.

"ألم يكن من نتيجة هذا كله أن تم هجران ماكسيموس ونبذه، وهو الذى أقدم قبل أيام من الجملة، عندما ترامى إلى سمعه أن معبداً لليهود فى روما قد تم إحراقه، على إرسال مرسوم إلى روما كما لو كان هو صاحب الأمر فيها، وحيث قال المسيحيون ساعتها، لا خير فى الإبقاء عليه. لقد أصبح ذلك الملك إذن يهودياً وعلمنا أنه أضحى مدافعاً عن هذا الأمر، ولكن المسيح، الذى مات لأجل الخطاة، فإنه سرعان ما أدخله في تجربة. وإذا كان هذا قد حدث فقط لمجرد قول قيل، فما بالك إذا كان الأمر عقوبة واقعة؟ ولقد هزم أكثر من مرة من قبل على يد الفرنجة والسكسون فى صقلية عند سيسكيا Siscia وبتافيو Petavio ، وباختصار فى كل مكان. ما الذى يجمع إذن بين المؤمن والكافر؟ إن الأمثلة الدالة على كفره يجب أن تطرح سوياً مع صاحبها نفسه. هذه الأمور التى جلبت الضرار لصاحبها وأوردته مورد التهلكة، لا يجب على المنتصر أن يحذو حذوها بل عليه أن يدينها.

---

(١٩) ماكسيموس.
(٢٠) يشير هنا إلى أسطول ماكسيموس الذى كان يقوده أندراجاثيوس Andragathius وأعد بناء على احتمال توقع مجيء ثيودوسيوس عن طريق البحر.

"ولتعلم يقينا أنى لا أعيد ذكر هذه الوقائع على مسامع إنسان جاحد ينكر المعروف، ولكنى أسردها باعتبارها نعماً وهبت بحق، منبها إياك بها، أنت يا من يحمل لك قلبى الحب كله. ولعلك تذكر أن سمعان عندما أجاب بمثل هذه الكلمات قال له الرب يسوع "بالصواب حكمت" (لوقا ٧/٤٣) ثم التفت على الفور إلى المرأة التى بللت قدميه بالدموع، وقال مخاطباً سمعان، واضعاً نظام الكنيسة: "من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، والذى يغفر له قليل يحب قليلا" (لوقا ٧/٤٧) تلك هى المرأة التى دخلت بيت الفريسى، ونبذت اليهودى ولكنها كسبت المسيح. لقد أوصدت الكنيسة الباب فى وجه المعبد اليهودى، فلماذا تجرى المحاولات الآن فى شخص خادم المسيح كى يجتث المعبد الكنيسة من جذور إيمانها، من بيت المسيح؟

"أيها الإمبراطور.. لقد سقت كل هذه الأمور فى خطابى هذا بدافع الحب لك والغيرة عليك، ذلك أنى مدين بذلك لرحمتك (حيث أعدت – بناء – على شفاعتى – كثيرين من منفاهم، وأطلقت سراح العديدين من سجنهم، وأنجيت غير هؤلاء وأولئك من الموت)، بحيث لا يخيفنى حتى مهاجمة شعورك من أجل خلاص نفسك. (فليس هناك أجدر بالثقة كلها من إنسان يحب ملء قلبه.. وبكل تأكيد فإن أحداً لا يمكن أن يسبب الضرار لشخص يملأ عليه كل فكره) – ولن أفقد فى لحظة واحد ذلك الشرف الذى يمنح لكل كاهن وتلقيته لسنين عديدة مضت، لكن الخسارة كلها أن أعرض للدنس الخلاص.

"أيها الإمبراطور.. إنه لأمر جلل أن لا تعتقد أنه من الضرورى الاستفسار أو القصاص لأمر كهذا الذى حدث فى ذلك اليوم ولم يلفت نظر أحد، وإنك لتأتى أمرا إذا تضحى بخلاصك من أجل اليهود. ألم تقرأ أنه عندما أقدم جدعون [٢١]. على ذبح الثور المقدس، خلص الوثنيون إلى أن الآلهة هى التى سوف تنتقم لما حل بها. فمن ذا الذى سوف يقتص لما حل بالمعبد اليهودى؟ أهو المسيح الذى صلبوه بعد أن أنكروه؟ أم هو الله الأب الذى رفضوه حيث رفضوا الإبن؟ ومن تراه سينتقم لما حل بالفالنتينيين؟ فكيف يمكنك أنت إذن أن تثأر لهم وأنت ترى أن المراسيم قد

(٢١) قضاة ٦/٢٥-٣٢.

صدرت بطردهم وتحريم اجتماعاتهم؟ وهل إذا بسطت أمامك قصة يوشيا[٢٢] كملك عمل المستقيم في عيني الرب، أتراك تدين فيهم ما من أجله رضى الرب عنه؟

"وإذا كان هناك أى نوع من عدم الثقة فيّ، فلتأمر أيها الإمبراطور أولئك الأساقفة الذين تعتقد فى صلاحهم، ولتدعهم يتباحثون فيما يجب عمله دون إلحاق أى أذى بأمر العقيدة. وإذا ما كنت تستشير مرءوسيك فى الأمور الدينية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجالات الله فى أمر يخص العقيدة.

"ولتضع فى اعتبارك أيها الإمبراطور كم عانت الكنيسة من المتآمرين والعيون، وإذا كانوا قد أحدثوا بها شرخاً واهياً، إلا أنهم قد دقوا فيها إسفينا. وإنى لأتحدث فقط فيما يخص سلوك الناس، ولكن لله فى النفس خشية تفوق الناس، وتعلو حتى الأباطرة. وإذا ما اعتقد أحد أنه من الصواب أن يوقر صديقاً له أو أحد أبويه أو جاره، فإن الصواب حليفى إذا حكمت بأن الوقار كله يجب أن يقدم لله، وأنه وحده له المجد. أيها الإمبراطور عد إلى نفسك فأعمل بنصحها أو اسمح لى بأن أكون لك ناصحاً.

"وماذا يكون قولى فيما بعد لو اتضح أن المسيحيين، بمقتضى السلطة التى منحت من هذا المكان، قد ذبحوا بالسيف، أو ضربوا بالهراوات، أو كبلوا بأساور من جلود شدت بالرصاص؟ وكيف يمكن أن أوضح مثل هذه الحقيقة وبأى أسلوب أعتذر لأولاء الأساقفة الذين يذرفون الآن الدمع مدرارا، بعد أن قاموا بأعباء الوظائف الكهنوتية وغيرها من الخدمة الكنسية على امتداد نيف وثلاثين سنة، ثم جردوا من وظائفهم المقدسة وأكرهوا على القيام بأعمال مدنية[٢٣] وإذا كان من يحاربون من أجلك يعملون لفترة محدودة فى خدمتك، فلا بد يبدو حتماً مقضيا أن تقدر أولاء الذين يحاربون فى سبيل الله. أقول، بأى أسلوب أعتذر لأولئك الأساقفة الذين تتعالى شكاياتهم من أجل الأكليروس، ومن أجل الكنائس التى خربت من جراء ما تعرضت له من هجمات خطيرة تتكرر.

---

(٢٢) الملوك الثانى ٢٢/١ وما بعدها.

(٢٣) قارن ذلك بما جاء فى Ep. XVII.

"ولكم كنت أتمنى أن يبلغ كل ذاك مسامعكم، عندما كنتم ستتعطفون بالنظر إلى ذلك بعين الاعتبار، وتصدرون أوامركم بما يتفق ومشيئتكم، منحيا ومستبعداً كل ما يؤرقني.. أقول الحق.. يؤرقني. لقد فعلت بنفسك ما أمرت به أن يفعل، حتى ولو لم يفعله نائبك، لا شك يفضل عندى أن تكون رحيماً من ذلك الذى لم يفعل ما به قد أمر.

"إن لديك من الواجب ما يدفعك إلى الابتهال إلى الرب من أجلهم(٢٤) لصالح الإمبراطورية الرومانية، وإنك لتؤمل لهم بأن يكونوا أسعد منك قدراً.. ألا فلتحل بهم رحمة الله، وليتحقق لهم الخلاص من خلال كلماتى. إن الخوف ليتملكنى خشية أن تأتمن الغير على قضيتك ليصدروا فيها حكمهم. كل شيء واضح أمامك لا لبس فيه ولا غموض، وإنى بهذا الخصوص أدع نفسى عند الله من أجلك رهينة، ولا تخشى يمينك(٢٥). وهل من الممكن أن يغضب الله من أجل السعى لإعلاء مجده؟ إنك لا تحتاج إلى تغيير أى شيء فى تلك الرسالة سواء إذا كانت قد أرسلت أم لم ترسل بعد، وما عليك إلا أن تصدر أمراً آخر بالإيمان يمتلىء، وبالرحمة يمطر. فأنت من جانبك من الممكن أن تغير إلى الأفضل، ومن ناحيتى فلا يمكننى السكوت عن الحق.

"لقد عفوت عن الأنطاكيين من قبل عندما أساءوا إليك، ولقد استدعيت بنات عدوك وعهدت بتربيتهم إلى أحد المقربين، وأغدقت على أم عدوك من خزانتك الخاصة. يا لها من رحمة! يا له من إيمان بالله عظيم! ولكنه سوف يذهب إلى غياية الظلماء بما أنت مقدم عليه الآن. أتوسل إليك يا من صارعت الأعداء، وأبقيت على خصومك كرامة، أن لا تعتقد بأن المسيحيين يجب أن يعاقبوا بمثل هذه الحماسة.

"وبعد .. أيها الإمبراطور، إنى أضرع إليك أن لا تزدرى حديث من يتملكه الخوف لأجلك ولأجل نفسه، فها هو صوت أحد القديسين ينادى: "لماذا خلقت كى أرى شقاء شعبى"، ذلك لأنى بهذا أصنع الشر فى عينى الرب. الحق يقال، لقد

---

(٢٤) يقصد بذلك ولدى الإمبراطور ثيودوسيوس، أركاديوس وهونوريوس.
(٢٥) يعنى بهذا أنه من الممكن أن يكون الوفاء بالوعد مناقضاً للواجب.

فعلت كل ما يمكن فعله متناغماً وسمو قدرك، ولكن عليك إذن أن تصغى إلىّ فى قصرك حتى لا تصغى إلىّ كارها فى الكنيسة".

على هذا النحو جاءت رسالة الأسقف الميلانى إلى الإمبراطور الرومانى، حادة عنيفة، تحذر ثيودوسيوس صراحة من تنفيذ ما أقدم عليه من إلزام رهبان وأسقف كاللينيكا بإعادة بناء كنيس اليهود وكنيسة الفالنتينيين، ويبدو أن أمبروز عندما كتب هذه الرسالة لم يضع فى اعتباره مطلقاً ما أشرنا إليه سابقاً من الظروف السياسية الصعبة التى كانت تحيط بالإمبراطورية فى الشرق والغرب على السواء، وإنما جعل نصب عينيه فقط مسألة تدخل الدولة في أمور الكنيسة، بمعاقبة نفر من رهبانها وإكليروسها على عمل جرى ارتكابه ضد اليهود والفالنتينيين، مسقطاً من حسابه كلية أن ما وقع هو مسألة تخص الإدارة المدنية وحدها فى الدولة باعتبارها المسئولة عن إقرار الأمن في الداخل، ونسى أمبروز تماماً ما قام به هو من قبل باعتباره حاكماً مدنياً، عندما أسرع على الفور إلى كنيسة ميلانو ليحول دون وقوع الاضطراب والفوضى فى المدينة على أثر موت أوكسنتيوس الأسقف الآريوسي. وكتب إلي الإمبراطور رسالة تفصح عن وجهة نظره إزاء العلاقة بين الدولة والكنيسة. استهلها بقوله: "... لطالما عانيت، ولكنى مع ذلك لم أكن فى يوم ما محزوناً كيومى هذا"[٢٦].

ويدفع أمبروز فى رسالته هذه ببطلان الدعوى، حيث يتهم النائب الإمبراطورى فى الشرق بأنه "دبج" تقريراً ضمنه إحراق المعبد اليهودى بتحريض من الأسقف فى المدينة[٢٧]، ويدافع عن الأسقف بأنه لا يمكن أن يكون قد أقدم على ذلك إلا بناء على أمور استثاره بها اليهود حتى دفعوه إلى ذلك [٢٨] وهو بهذا العمل ليس آثماً لأنه ينفذ – فى رأى أمبروز – إرادة الله[٢٩] ويحمل أمبروز فى رسالته على اليهود بعنف، ويتهمهم بالإلحاد وبأنهم أشد من الوثنيين كفراناً[٣٠]. ويشير إلى

(٢٦) AMB. Ep. XL 1.
(٢٧) Ibid 6-8.
(٢٨) Id.
(٢٩) Ibid. 8.
(٣٠) Ibid, 10.

قيام الآريوسيين باضرام النيران فى منزل نكتاريوس أسقف العاصمة فى نفس العام، وكيف أنهم لم يعاقبوا على ذلك[٣١]. وهو يلقى باللوم أيضاً على الفالنتينيين ويعتبرهم السبب فى إثارة شعور الرهبان مما دفع هؤلاء إلى احراق كنيستهم[٣٢]. وبعد أن يعدد له ما فعله اليهود فى الكنيسة والمسيحيين من قبل، ويذكره بما جرى لماكسيموس خصمه قبل شهور قليلة[٣٣]. ويحذره من التمادى أو الإصرار على تنفيذ العقوبة، مخاطباً إياه: "وإذا ما كنت تستشير مرءوسيك فى الأمور المدنية، فمن الأحرى أن تأخذ برأى رجالات الله فى أمر يخص العقيدة"[٣٤]. ثم يفصح فى آخر فقرة فى الرسالة عن التهديد المباشر للإمبراطور بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضده، دون أن يشفع للإمبراطور كل ما قدمه من أجل المسيحية حتى جعلها الدين الرسمى للإمبراطورية، ويقول: "... عليك أن تصغى إلى فى قصرك، حتى لا تصغى إلى كارها فى الكنيسة"[٣٥].

ولا شك أن ثيودوسيوس قد تملكه الذهول لهذا الذى يقرأ، ودار بخلده ما قدمته للكنيسة يداه، بحيث جعلت للمسيحيين فى الدولة المكان العلى. ولا شك انتابه شعور بالقلق وهو يرى أسقف ميلانو يطلب إليه صراحة أن يتغاضى عن النظام العام للدولة من أجل الكنيسة، إذا يخاطبه صراحة: ".. ربما يكون إقرار النظام هو دافعك أيها الإمبراطور.. ولكن خبرنى، أيها أعظم وأهم؟ إقرار النظام أم العقيدة"[٣٦]. وكانت تلك مشكلة ثيودوسيوس الرئيسية، نذلك أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بكل ما يتعلق بإقرار الأمور فى داخل الدولة، دافعه إلى ذلك رغبته فى مواجهة مشاكله الخارجية، وما أكثرها، بدولة منظمة مستقرة، فالفرس على الفرات يتحفزون، والجرمان فى البلقان وولايات الدانوب يعبثون، والحروب الأهلية فى الغرب قائمة، ومن ثم كان حريصاً على إقرار سيادة الحكومة فى الداخل، ومن هنا جاءت قراراته فى كثير من الأحيان سريعة وصارمة فى كل ما يشتم منه المساس

---

(٣١) Ibid, 13.

(٣٢) Ibid, 16.

(٣٣) Ibid. 15, 19, 21, 23.

(٣٤) Ibid. 27.

(٣٥) Ibid. 33.

(٣٦) AMB. Ep. XL 11.

بسلطان الدولة وهيبتها فى الداخل. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك، أحداث أنطاكية، وفوضى كاللينكيا هذه التى نحن بصددها، ومذبحة سالونيك من بعد. ولهذا اتسمت قراراته فى هذه الأحداث بالعنف ولكنها فى الوقت ذاته مهدت السبيل أمام حكم هادئ ومستقر فى النصف الشرقى من الإمبراطورية، فلم نجد مغتصباً واحداً للعرش طيلة عهده، على حين شهد الشطر الغربى إمبراطورين مدعيين فى أقل من عشر سنوات.

والحقيقة أن ثيودوسيوس كان يرفض التضحية بالعدالة، ويأبى على حد قول نورمان بينز N. Baynes أن تقدم العدالة قرباناً على مذبح الأرثوذكسية المتعصبة، ومع ذلك فإن هذا قد حدث فى حالة واحدة فقط، حيث انتصر الإصرار العنيف للأسقف الميلانى أمبروز، وأعفى الرهبان المسيحيون الذين دمروا المعبد اليهودى فى كاللينيكا من إعادة إصلاح ما أفسدوه، حسبما كانت تقضى أوامر الإمبراطور[٣٧]. لكن هذه الأوامر فى حد ذاتها توضح مبادئه الأساسية التى كانت تحكم أسلوبه فى الإدارة[٣٨]. ولعل ثيودوسيوس كان يضع فى اعتباره عندما أقدم على إلغاء قراره السابق الخاص بهذه الحادثة، وإصدار عفوه عن الرهبان الآثمين، أن عرشه لا يعتمد على دعائم أسرية تعود إلى الأسرة الأصلية الحاكمة وهى أسرة فالنتينيان، التى كان الغرب مقراً لها، وأن شخصية فالنتينيان الثانى تتضاءل كلية إلى جانب شخصية أسقف ميلانو، وأن موقف هذا الإمبراطور الصبى فى الغرب ما يزال مزعزعاً رغم القضاء على ماكسيموس. ولما كان ثيودوسيوس قد أصبح صهراً لفالنتينيان الثانى بزواجه مؤخراً من أخته، فقد كان يعنيه تماماً، أن تستقر الأمور فى هذه الولايات الغربية، وهذه تتحقق إذا ما ضمن جانب أمبروز ووقوفه إلى جانب صهره هناك، وأكد له ذلك الجهود الدبلوماسية التى بذلها الأسقف الميلانى من أجل انقاذ عرش فالنتينيان والإبقاء على إيطاليا بمنجاة من غزو ماكسيموس خلال الفترة بين عامى ٣٨٤-٣٨٧، ولهذا فقد نزل على إرادة أمبروز.

ولم يمض على ذلك عامان، حتى دخلت العلاقة بين الدولة والكنيسة فى تجربة أشد من سابقتها وأقسى، ويعود ذلك حسب رواية سوزومنوس إلى أنه عندما

---

(٣٧) AMB. Ep. XLI 25-28.

(٣٨) C. M. H. I. P. 248.

كان بوثريك Buthericus قائداً عاماً لفيالق الليريا، ثبت لديه أن هناك علاقة دنسة جمعت بين أحد غلمانه الذى كان على قدر من الجمال، وواحد من سائقى عربات السباق فى الهبدروم فى سالونيك، فأصدر القائد أوامره بالقبض على هذا اللاعب وإيداعه السجن، فلما جرى السباق من بعد، ولم يعثر النظارة لأثر على ذلك اللاعب الذى كان مفضلاً لديهم أثيرا، ولما لم تكن الأخلاق تعنى شيئاً فى عرفهم إلى جوار إشباع لهوهم ومسراتهم، فقد طالبوا بالإفراج عن السجين العاشق، وازداد صخبهم برفض القائد الاستجابة إلى مطالبهم، ثم تحول الأمر إلى فتنة عارمة فى المدينة وصب المتمردون غضبهم على بوثريك فذبحوه، وأشركوا معه فى نفس المصير موظفى الإمبراطور(٣٩).

كان ثيودوسيوس ما يزال آنذاك (٣٩٠) مقيماً فى الغرب ولم يعد إلى القسطنطينية، وما أن أعلم بهذه الأبناء حتى استبد به الغضب وتملك عليه كل سبيل، ولما كانت هذه الفوضى تمثل اعتداء على هيبة الحكومة وسلطان الدولة، فقد أمر على الفور بإنزال عقاب صارم بالمدينة كلها دون استثناء، وحتى يتم تنفيذ الأوامر الإمبراطورية على الوجه الأكمل، دعى الناس لميقات يوم معلوم يلتقون فيه فى الهبدروم بدعوى مشاهدة بعض الألعاب، ولم يفطن الناس إلى ما يدبر لهم، إذ كان هوس مشاهدة العروض الرياضية يسيطر على الرومان بصفة عامة(٤٠)، ومن ثم احتشدت المدينة فىالهبدورم، وصدرت الأوامر ببدء المذبحة، فجرت حمامات الدم "حيث حصدت سيوف الجند جموعاً حاشدة كحصاد سنابل القمح فوق سيقانها، وبلغ عدد القتلى على أقل تقدير سبعة آلاف بينهم كثير من الغرباء"(٤١).

---

(٣٩) SOZOM. hist. eccl. VII 25; THEOD. hist eccl . V 17.

(٤٠) استغل بعض الأباطرة هذه الناحية لتنفيذ مآربهم على نحو ما جرى فى سالونيك، فقد أقدم الإمبراطور جوستنيان على اتخاذ نفس الإجراءات لعقاب أهالى القسطنطينية فى عام ٥٣٢ عندما حدثت الفتنة الشهيرة بثورة النصر Vika (Nika) (نيقا)، بسبب الصراع بين حربى الزرق والخضر الذى جرى فى الهبدروم وتحول إلى ثورة عامة ، فوجهت الدعوة إلى أهالى المدينة لمشاهدة بعض العروض، وجرى لهم ما جرى من قبل على أهالى سالونيك.

(٤١) THEOD. HIST. eccl. V. 17; SOZOM. hist. eccl. VII 25.

كانت هذه الأوامر الإمبراطورية تتمشى مع السياسة العامة لثيودوسيوس فيما يتعلق بالشئون الداخلية، ولعل الإمبراطور كان يدرك فداحة الخطر المتمثل فيما أقدم عليه أهالي سالونيك، ذلك أن الحامية وقائدها بوثريك كانوا من الجرمان، والاعتداء على قائد جرماني على هذا النحو، لقاء لاعب في الهبدروم، يشكل خطراً كبيراً كان الإمبراطور يتحاشى وقوعه، ألا وهو إثارة مشاعر الجرمان وعدائهم بعد المعاهدة التي وقعها معهم ثيودوسيوس قبل ذلك بسنوات قلائل. لقد كان الإمبراطور يعلم جيداً مدى قوة الجرمان ومدى اعتماده الكامل عليهم الآن في جيشه، وكان هذا العمل معناه، أن يقدم الجرمان على إنزال "إدرنة" أخرى بالإمبراطورية لم تكن هذه لتتحملها الآن، ومعناه أيضاً الإطاحة بكل جهود ثيودوسيوس التي بذلها عبر أحد عشر عاماً عقب هزيمة إدرنة، للحصول على قدر من الولاء للإمبراطورية من جانب الشعوب الجرمانية، التي تنهال جحافلها داخل الحدود بصفة مستمرة منذ عام ٣٧٨، ولهذا فقد جاء قراره تهدئة لمشاعر الجرمان، أكثر منه قصاصاً من مثيري الشغب، بالإضافة قطعاً إلى تأكيد هيبة الحكومة وسلطانها.

غير أن مذبحة سالونيك كانت فجيعة لنفس الأسقف الميلاني أمبروز، أدت إلى اعتلال في صحته، ودفعته إلى الإنسحاب من ميلانو ورفض مقابلة الإمبراطور عندما قدم إلى المدينة، وأعلن حرمان الإمبراطور من رحمة الكنيسة، حتى يقدم ثيودوسيوس ندامته وتوبته على ما اقترفت يداه [٤٢]. وكتب أمبروز رسالة إلى ثيودوسيوس يفصح له فيها عن السبب في عدم لقائه[٤٣]. وهو إن كان يثني في رسالته على إيمان الإمبراطور ويمتدح رحمته[٤٤] إلا أنه يبين له أن فعلته هذه لن تغفرها الكنيسة إلا بتوبة صادقة، وإذا كان داود قد أصغى لناثان، فلابد أن يصغى هو إلى رجل الله[٤٥]. ويدعوه إلى الإسراع في طلب العفو والصفح من

(٤٢) يذكر سوزمنوس أن أمبروز لقى ثيودوسيوس عند باب الكنيسة عندما أتى إليها للصلاة، فأخذ بجامع عباءته الإمبراطورية، موجها خطابه له أمام الجموع قائلاً: "عد أدراجك، فليس من حق رجل تدنسه الخطايا، وتلطخ يديه بالدماء، أن يدخل دون توبة هذا الحرم القدسي وأن يتناول الأسرار المقدسة: انظر: SOZOM. Hist. eccl VII, 25

(٤٣) AMB. E p LI

(٤٤) Ibid. 4

(٤٥) Ibid. 7-9

الكنيسة حتى لا يسمح "للشيطان" أن يتملك عليه قلبه(٤٦)، ويوصيه بالضراعة إلى الله بالصوات حتى يقضى الله فى أمره ويغفر له خطاياه(٤٧). ويطلب إليه أن يضع ثقته فيه، لأنه رغم كل ذلك فإنه يحمل له كل الحب والتقدير، وإلا فإنه سيفوض فيه أمره إلى الله(٤٨). ولكنه رغم كل ذلك فإنه فى رسالته يخاطب الإمبراطور فى جرأة بالغة عندما يقول له "لست إلا رجلا استولت عليك الضلالة.. فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"(٤٩).

ونضع الآن بين يدى القارئ الرسالة التى بعث بها الأسقف إلى الإمبراطور عقب مذبحة سالونيك. وقد بدأها أمبروز بتقديم الأسباب التى أدت إلى عدم مقابلته له عند عودته إلى ميلانو، ثم عرج على مشاعر الأساقفة فيما يتعلق بهذه المذبحة الحادثة فى سالونيك، وأكد على العفو وتحقيق النصر على الشيطان المدبر الحقيقى لهذه الجريمة. ولم يستطع أمبروز أن يقدم القربان فى حضرة الإمبراطور، ولما كان يحب الإمبراطور حقاً، فقد اغتم لهذا المسلك ولكنه كان يعلق على توبته الآمال. قال:

"إن ذكرى صداقتنا القديمة لتدخل السرور على قلبى، وإنى لممتن كل الامتنان لرحمتكم التى – استجابة لندائاتى الصريحة – أسبغتموها بكل الكرم على عديدين، لذا يجب أن يكون معلوما أن عدم استقبالى لك عند قدومك لم يكن نوعاً من نكران الجميل، خاصة وأنتم تعلمون مدى حرصى على لقائكم دوماً من قبل، ولذا فإنى سوف أعرض عليكم الآن الأسباب التى دفعتنى إلى سلوك هذا السبيل.

"لقد اتضح لى جلياً أننى الوحيد الذى حرم حقه الطبيعى فى يسمعنى بلاطك، وحرمت أيضاً مكانتى كمحدث، وما ذلك إلا لأنك اغتممت صراحة بسبب علمك بأن أموراً معينة طرحت فى مجلس مستشاريك قد بلغتنى تفاصيلها، وإنى دون أى قدر من التعالى، حيث قال الرب يسوع : "لأنه ليس خفى لا يظهر" (لوقا ٨/١٧)،

---

(٤٦) Ibid. 11-12

(٤٧) Ibid. 15

(٤٨) Ibid. 17

(٤٩) Ibid. 11

وبكل التبجيل، امتثلت للإرادة الإمبراطورية وأخذت حذرى حتى لا أسبب لك أى ضيق، فسعيت جاهداً حتى لا يروى أمامى شيء من المراسيم الإمبراطورية، وإنى لن أسمع – حالة حضورى – من خلال خوف الآخرين، ومن ثم ألحق الضرار بمن يبتغى التستر، أو أسمح لأذنى بأن تكون مصغية على أية صورة، وأمسكت عن النطق لسانى حتي لا أتفوه بما سمعت خشية أن ألحق الأذى وأعرض للتهلكة أولئك الذين هتكوا غشاوة الغدر والخيانة.

"وبعد – ما الذى بمقدورى أن أفعل ؟ هل أصم أذنى؟ ولكنى لست بقادر على أن أصب فيها شمع تلك الأساطير، أم هل ينطق لسانى بما سمعته أذناى؟ غير أنى ملزم بأن أكون حذراً فى حديثى عن تلك الأشياء التىأتقى فيها أوامرك،، أعنى مخافتى من ارتكاب عدد من الفعال الدموية، أم هل التزم الصمت؟ ولكن ضميرى بهذا سوف يغدو موثقاً، وأقوالى مبعدة (خفيضة)، وعندها سوف تكون الأوضاع للكل فى منتهى سوئها. وأين إذن سوف يحدث هذا؟ وإذا لمن ينذر الكاهن الشرير، فذلك الشرير يموت باثمه، ويصبح الكاهن بذلك واقعاً تحت طائلة العقاب لأنه لم ينذر من غوائل الرديئة.

"أيها الإمبراطور العظيم.. إسمع.. لا يمكننى إنكار أن قلبك على الإيمان غيور، وأن عندك لله خشية، ولكنك فى الوقت ذاته ذو حمية، إذا ما جهد إنسان لإرضائك سرعان ما تغدو رحيماً، فإذا ما أغضبك إنسان، ثارت حميتك بحيث يتعذر عليك كبح جماحها، ومن ثم فإذا لم يكن هناك من يسترضيها، فلا أقل من عدم وجود من يؤججها. أما فيما يتعلق بك، فإنى عن طيب خاطر أضع ثقتى كلها، ولأنت قادر على كبح جماح نفسك وعلى قهر سورة الغضب فيك بتقواك والورع.

"ومن المفضل أن تمتدح هذه الحمية لك شخصياً وبصفة سرية، عن إثارتها بأى عمل من جانبى فى العلن، ولئن يرانى الناس مقصراً بعض الشيء فى واجبى خير من أن يروننى مستذلاً فى تواضعى، ولئن يظنون بى ضعف التأثير فى كهانتى، أكرم من أن يجدون فى عوزاً للاحترام المبنى على المحبة. ولن يبدو قهرك لحميتك وغلبتك على سلطان قراراتك ضعفاً أو تخاذلاً، وإنى لأعتذر إليك بعلتى التى ثقلت على وطأتها، ولا أظن البرء منها بالأمر اليسير، ومع ذلك فإنى

أفضل الموت على أن لا أكون فى انتظارك ليومين أو ثلاثة ، ولكن هذا لم يكن ممكناً بالنسبة لى.

"ولقد وقع فى مدينة سالونيك ما لم نسمع بمثله من قبل، لقد وقع ما لم أكن قادراً على منعه، ذلك الذى قلت أنه سوف يصبح أمراً عظيماً عندما رحت أتوسل مراراً من أجل العدول عنه، وهو ما أظهرته أنت نفسك بنقضه وإن كان ذلك قد جاء متأخراً جداً، فغدوت مغتماً حزيناً، ولم يكن باستطاعتى أن أخفف منه عندما وقع، وما أن سمع به، حتى التأم مجمع محلى بسبب وصول أساقفة الغال، ولم يبق هناك أحد لم تنهمر على الخد دموعه، ولا أظن أن هذا الفعل لم يصدر عن نزق وتهور، ولم تنجك صداقتك لأمبروز من أن يطوق عنقك بما أثمت يداك. والآن فإن توجيه اللوم على ما اقترفت، قد وضع على كاهلى أثقالى، ولم يقل أحد إن عودتك إلى الله لم تكن ضرورية.

"هل تخجل أيها الإمبراطور من أن تفعل ما فعله النبى الملك داود جد المسيح فى الناسوت؟ لقد قيل له كيف أن الرجل الغنى الذى له غنم وبقر كثيرة جداً "قد أخذ نعجة الرجل الفقير وذبحها" ليهئ للضيف الذى جاء إليه، وقد اعترف بنفسه أنه أدين فى هذه القصة، لأنه هو نفسه قد فعل، وقال: "قد أخطأت إلى الرب"(٥٠). فإذا ما رددت ثانية كلمات النبى الملك وهو يقول: "هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا" (مزامير ٦/٩٥)، فسوف يقال لك: "الرب أيضاً قد نقل عنك خطيتك لا تموت" (صموئيل الثانى ١٣/١٢).

"ومرة ثانية، عندما أمر داود بإجراء تعداد للشعب، "ضرب قلبه" وراح يخاطب الرب: "لقد أخطأت جداً فيما فعلت، والآن يا رب أزل اثم عبدك لأنى انحمقت جداً" (صموئيل الثانى ١٠/٢٤)، وأرسل إليه النبى ناثان مرة أخرى ليخيره بين أمور ثلاثة: فإما أن يأتى عليه ثلاث (٥١) سنى جوع فى أرضه، وإما أن يهرب

---

(٥٠) صموئيل الثانى ١٣/١٢. وراجع القصة فى السفر نفسه والاصحاح نفسه. الآيات من ١-١٥.

(٥١) يذكر الكتاب المقدس أنها سبع سنوات: "... وقال له أتأتى عليك سبع سنى جوع فى أرضك أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك" (صموئيل الثانى ١٣/٢٤).

ثلاثة أشهر أمام أعدائه وهم يتبعون، وإما يكون ثلاثة أيام وباء في الأرض. فقال داود: "قد ضاق بي الأمر جداً، فلنسقط في يد الرب لأن مراحمه كثيرة ولا أسقط في يد إنسان" (صموئيل الثاني ٢٤/١٤) كل هذا لأن خطأ داود كان فقط رغبته في معرفة عدد كل الشعب الذي معه، وهي المعرفة التي يجب أن تترك لله وحده[٥٢].

"ويخبرنا الكتاب المقدس أيضاً أنه عندما راح الوباء يحصد الشعب من الصباح إلى الميعاد، ورأى داود الملاك يبسط يده ليهلك الشعب، قال: "ها أنا أخطأت وأنا أذنبت وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا، فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي". (صموئيل الثاني ٢٤/١٧). وقد ندم الرب عن الشر وقال للملاك المهلك للشعب كفى، وأمر داود أن يقرب محرقات، ذلك أن الأضحيات كانت تقرب تطهراً من الخطايا أما الآن فهي تقدم من أجل التوبة، وهكذا غدا داود بهذا الاتضاع أكثر قبولاً عند الله وقرباً، لأنه ليس مما يثير الدهشة أن يخطئ الإنسان، ولكنه يصبح مستحقاً للزجر والتعنيف إذا لم يعترف بخطيئته، ويخر ذليلاً أمام الله.

"وأيوب المقدس نفسه كان قوياً في هذا العالم حين قال: "أنا لا أخفي إثمي في حضنني، بل أمام جمهور غفير أعلنه"[٥٣]. على حين راح يوناثان يخاطب أباه المتجبر شاول الملك: "لا يخطيء الملك إلى عبده داود" (صموئيل الأول ١٩/٤) وأضاف: "فلماذا تخطيء بدم بريء بقتل داود بلا سبب" (صموئيل الأول ١٩/٥). لأنه وإن كان ملكاً إلا أنه سوف يغدو آثماً لو أنه قتل بريئاً، داود أيضاً عندما كان ملكاً وعلم أن أبنير البريء قد قتل على يد يوآب قائد داود، قال: "اني بريء أنا ومملكتي لدى للرب إلى الأبد من دم أبنير بن نير". (صموئيل الثاني ٣/٢٨). وصام حزنا.

---

(٥٢) يذكر الكتاب المقدس أن داود أقدم على ذلك بتوجيه من الله: "وعاد فحمي غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلاً أمض واحص إسرائيل ويهوذا. فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع وعدوا الشعب فأعلم عدد الشعب".

(٥٣) "إن كنت قد كتمت كالناس ذنبي لإخفاء اثمي في حضني إذ رهبت جمهوراً غفيراً وروعتني إهانة العشائر فكففت ولم أخرج من الباب- من لي بمن يسمعني، هو ذا امضائي، ليجبني القدير" (أيوب ٣١/٣٣-٣٥).

"ولتعلم أنى لم أكتب هذا كى يختلط عليك الأمر فتبدو حائراً، ولكنى سقت هذه الأمثلة عن هؤلاء الملوك حتى تحفزك لتنفض الرأس، عن مملكتك أدران هذا الاثم، باتيانك إلى الله خاضعاً خفيض الرأس، فلست إلا رجلاً استولت عليك الضلالة فأمحها، فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة. وليس الملاك بقادر على أن يفعل ، ولا رئيس الملائكة. الله وحده هو القادر على أن يقول: "ها أنا معكم" (متى/٢٠) كلنا خطاءون وخيرنا التوابون.

"إنى أستحث، أتوسل، أحذر، أنذر، لأنه من الصعب على نفسى، وقد كنت أنت مضرب الأمثال فى التقوى ومعقد الآمال فى الرحمة، كيف لا يذرف الدمع انتحاباً من أجل عديدين ذبحوا، ذلك الذى لم يكن يرضى بأن يعانى العقاب من اثم! ورغم أنك خضت الحرب بكل نجاح، ورغم أنك بالثناء فى أمور أخرى جدير، فإن الرحمة كانت دائماً التاج الذى يزين أعمالك. لقد حسد عليك الشيطان أعز ما كنت تملك، ألا فلتقهره ما دمت لا زلت تمتلك ما أنت به قادر على قهره. لا تضف إلى ذنبك إثماً آخر بالإقدام على عمل يوقع بالكثيرين الضرار.

"وللحقيقة، فعلى الرغم من أنى مدين لرحمتك بشكل لا يمكن إنكاره، تلك الرحمة التى فاقت ما كان عليه كثير من الأباطرة، ولم يتساو فيها إلا واحد فقط، رغم كل ذلك أقول إنه ليس هناك ما يدعونى لاتهامك بالعصيان، بل إن لدى فقط ما يدعونى إلى الخوف، ذلك أنه لا يمكننى أن أتجاسر بتقديم القربان إذا ما كنت قد عزمت على الحضور إلى الكنيسة. وهل يمكن أن يسمح بهذا بعد إهراق دماء الكثيرين، بينما لم يسمح به بعد قتل رجل واحد برىء؟ لا أعتقد.

"وأخيراً فقد خططت بيدى ما يجب أن تطالعه أنت وحدك، وكلى أمل فى أن يرفع الله عنى كل ما أعانى، لقد حذرت، لا عن طريق إنسان أو من خلاله، ولكن بالله وحده بكل وضوح بما يعز على ذلك أنى بينما كنت فى قلقى إبان تلك الليلة التى كنت أستعد فيها للسفر، تبديت لى فى منامى آت إلى الكنيسة، وعندها لم يسمح لى بتقديم القربان. وإنى لأتغاضى هنا عما يمكننى تجنبه، واحتمله من أجل محبتى لك.. هذا ما اعتقده.

وقد يهيئ الرب الأسباب ليمر كل شيء في سلام، وإن الله ليضع أمامنا المحاذير في صور مختلفة، بأدلة سماوية، بوصايا الأنبياء، حتى برؤى الخطاة حيث قضت مشيئته أن نتدبر، كي نضرع إليه أن يدفع عنا كل نازلة ، وأن يحفظ السلام من أجلك،، ومن أجل إيمان الكنيسة وسلامها، ومن أجل أن يبقى لها بهاؤها بأباطرة مسيحيين أتقياء.

"ولا ريب فى أن الرغبة تحدوك فى أن يصفح الله عنك، ولكن مكتوب "لكل شيء زمان" (الجامعة ٣/١). ومكتوب أيضاً: "إنه وقت عمل للرب" (مزامير ١١٩ /١٢٦). وكذلك: "فى وقت رضى يا الله" (مزامير ٦٩/١٣). ومن ثم فإن عليك أن تقرب تقدمتك عندما يسمح لك بذلك، عندما تتقبل من الله. أليس مما يدخل السرور على قلبى أن أهنأ بحظوة الإمبراطور، وأن أتصرف كما يهوى، إذا ما كان الأمر يسمح بهذا. والصلاة فى حد ذاتها نوع من القربان يجلب العفو والمغفرة، عندما يكون القربان مجلبة للغضب، فالأول دليل الخضوع والمذلة، والثانى علامة الخزى، ولأن كلمة الله نفسه أخبرنا أنه يفضل الاستمساك بتعاليمه على تقديم القربان. ولقد أوصى الله بهذا، وأعلنه موسى لقومه، وكرز به بولس بين الأمميين. ولعل هذا الذى فهمته يكون أعظم نفعاً لهذا الزمان، مكتوب "أنى أريد رحمة لا ذبيحة" (متى ٩/١٣). وبعد، أليس المسيحيون الذين يدينون خطاياهم أقرب إلى الحق من أولاء الذين يفكرون فى التوارى بها "الأول فى دعواه محق" (أمثال ١٨/ ١٧). فالعادل من يدين نفسه عندما يخطئ، وليس الذى يمتدحها.

"أيها الإمبراطور.. إنى لآمل أن تكون ثقتى فى نفسى أكثر منها فى سجاياك، وعندما أضع ذلك فى اعتبارى تماماً، عليك أن تسرع الخطى لطلب العفو، وأن تنقض على الفور قرارك، كما كنت تفعل دائماً. لقد أسلفت، أما أنا فلم أعرض عن شيء كنت أخشاه. الحمد لله وحده، الذى شاء أن يبتلى عباده حتى لا تفسد حالهم، وأنا فى هذا رفيق الأنبياء، وسوف تكون أنت به أيضاً إلى جوار القديسين.

"أترانى لن أجل قدر أب جراتيان أكثر مما تبصره عيناى؟ أن عهودك المقدسة الأخرى تطلب الصفح. لقد أضفيت من جانبى قبلاً صيتاً ذائعاً على كل من يحمل الحب لهم قلبى. ولقد تابعتك بحبى، ووددى، وصلواتى، فإن كنت مصدقى

فعليك أن تتبع رشدى، أما إن لم تكن على ثقة من قولى، فمعذرة عما فعلت، وأفوض فيك إلى الله أمرى، ولعلك أيها الإمبراطور العظيم من خلال ذريتك المطهرة، تقيم السلام الدائم والسعادة والرخاء".

على هذا النحو جاءت رسالة أمبروز، شديدة اللهجة، وإذا كان أمبروز يصف ثيودوسيوس بأنه رغم تقواه إلا أنه رجل فيه حمية، فإن أمبروز نفسه كان ينطوى على حدة طبع. ويبدو أن البلاط الإمبراطورى كان قد بدأ يضيق ذرعاً بتدخل أمبروز فى كثير من الأمور التى تخص الدولة، ومن ثم فقد راح يحاول التقليل من هذا النفوذ داخل البلاط، خاصة بعد حادثة كالينيكا، وأمبروز نفسه يشير إلى هذه الحقيقة فى صدر رسالته ويعزوها إلى الإمبراطور نفسه، ويقول إنه لم يعد يحظى بالثقة الكاملة من جانب ثيودوسيوس. ولا يخفى علينا أن موقف أمبروز من أحداث كاالينكيا كان له أثره الكبير فيما يشير إليه الآن الأسقف فى رسالته، غير أن استجابة الإمبراطور لرأى أمبروز عام ٣٨٨ قادت إلى تشدد الأسقف إزاء أحداث سالونيك، فهو لم يكتف بالتهديد بالحرمان من رحمة الكنيسة، بل أصدر فعلاً هذا القرار.

لكن نفس ثيودوسيوس، بالإضافة إلى كل ما سبق أن ذكرناه عن الظروف السياسية فى الغرب، كانت تنطوى على قدر كبير من الإيمان والتقوى، وفى الوقت نفسه شجاعة كاملة ونادرة، فلم يستبد به الغضب لما احتوته هذه الرسالة، بل تاقت نفسه إلى التوبة والندامة (٥٤)، فخلع عن جسده رداءه الإمبراطورى، نعنى العباءة الأرجوانية، وترك أشعرته، وسار وسط الجموع المحتشدة على طول الطريق فى ميلانو من القصر الإمبراطورى إلى مقر الكنيسة، حافى القدمين، عارى الرأس مطأطئها، يردد صرخات داود بالتوبة (٥٥)، ومع ذلك لم يسمح له أمبروز بدخول القاعة المخصصة للأكليروس ساعة التناول، وأمره أن يقف وسط الجموع وشأنها، وخاطبه قائلاً "إن العباءة الإمبراطورية يمكن أن تصنع الأباطرة، لكنها لا ترسم الكهنة"!! وقد تقبل الإمبراطور ذلك بنفس راضية، وأعلن أمبروز الصفح عن ثيودورسيوس، ورفع عنه قرار الحرم الكنسى، وقبل توبته(٥٦). ويبدى المؤرخ

---

(٥٤) C.M.H.I p, 245

(٥٥) THEOD. Hist. eccl. V 17 وراجع ، مزامير ١١٩/٢٥.

(٥٦) THEOD. hist. eccl. V 17.

الكننسى ثيودوريتوس إعجابه بالرجلين، الإمبراطور لإيمانه القوى وشجاعته، والأسقف لجرأته وحفاظه على قدر الكنيسة، ويضيف أن ثيودوسيوس أبدى احترامه وتقديره صراحة لأمبروز أمام نكتاريوس أسقف القسطنطينية بقوله : "لقد تعلمت منه الكثير، إنه الوحيد الذى يستحق لقب الأسقف"(٥٧).

هنا يجب أن نتوقف قليلاً لأن ما حدث فى ميلانو يعد نقطة فاصلة فى تاريخ العلاقة بين الدولة والكنيسة، فلم يكن قد مضى على الاعتراف بالمسيحية كديانة شرعية Religio Licita فقط لها حق الوجود إلى جوار اليهودية وتحت مظلة الوثنية، الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية، إلا ثلاثة أرباع القرن فقط (٣١٣-٣٩٠)، ولم تقدم الدولة على الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية إلا خلال هذه السنوات الأخيرة من حياة وعهد الإمبراطور ثيودوسيوس نفسه، وعلى وجه التحديد منذ مجمع القسطنطينية المسكونى الذى عقد فى عام ٣٨١، أى أقل من عشر سنوات. حقيقة أن الأباطرة بدءاً بأبناء قسطنطين الثلاثة وحتى ثيودوسيوس كانوا على المسيحية باستثناء الإمبراطورجوليان، ومن ثم ظلت من وجهة النظر الطبيعية "مسيحية حكومية"، حتى إذا كان عهد ثيودوسيوس تبدلت الحال غير الحال، وراح المسيحيون يسقون الوثنيين كئوس الهوان عدة قرون تالية.

ورغم حدب الأباطرة "المسيحيين" هؤلاء على الكنيسة إلا أن أحداً من أساقفتها لم يجرؤ على أن يرفع الرأس معارضا سلطان الدولة، خاصة فيما يتعلق بالأمور المدنية التى تتعلق بالأمن العام داخل حدود الإمبراطورية، ولم يكن عناد أثناسيوس السكندرى وتحدية للسلطان الرومانى إلا دفاعاً عن العقيدة التى آمن بها وهو وشعب الكنيسة فى الإسكندرية، وما أتفق عليه الأساقفة فى المجمع المسكونى الأول فى نيقية سنة ٣٢٥.

والغريب فى الأمر أن يأتى هذا التحدى من جانب أسقف ميلانو .. وليس من البابوية، لكن الغرابة سرعان ما تزول إذا ما استدعينا ما ذكرناه آنفا عن خلو

---

(٥٧) THEOD. Loc. Cit وراجع أيضاً:
Chadwick, op. cit p. 168; Stephenson, op. cit. pp. 79, 252; Bainton, early Christianity, p. 76; Downey, op. cit. pp. 68-69.

العرش البابوى آنذاك من الشخصيات الاكليروسية القوية، وعدم وجود منافس آخر لميلانو فى الغرب، بالإضافة إلى الشخصية القوية للتى كان يتمتع بها أمبروز نفسه.

وعلى أية حال .. فإن ما حدث فى ميلانو من "إذلال" للإمبراطورية فى شخص إمبراطورها على يد الكنيسة، كان يعد سابقة خطيرة وبعيدة فى هذه الرحلة الطويلة فى العلاقة بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى، أما بالنسبة للقسطنطينية فقد كانت الاستثناء الوحيد الذى شهدته الإمبراطورية البيزنطية على امتداد عمرها الطويل حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، وكانت عاملاً أساسياً فى سعى الأباطرة البيزنطيين جميعهم لتدعيم نفوذهم فوق الكنيسة حتى غدت طيلة ألف ومائة من السنين دائرة من دوائر الحكومية البيزنطية، وبات أسقف العاصمة موظفاً كبيراً لدى الإمبراطور، بينما أضحى هذا الإمبراطور هو نائب المسيح Vicarius Christi على الأرض.

هكذا وللمرة الأولى، حققت الكنيسة أول نصر لها على الدولة، لقد ظلت عدة قرون تخشى بأس الوثنيين، ثم لقيت العنت أشد وأقسى من جانب الأباطرة المسيحيين. لقد خضعت كارهة تظهر الرضى لقسطنطين، ولم تلبث أن أخذت تتململ تحت سيادة ولده قسطنطيوس، حتى إذا واتتها الفرصة الأولى على عهد أسقفها أمبروز، أذلت كبرياء الدولة، التى قدمت من قبل يدها لانتشالها بجهود هؤلاء الأباطرة جميعاً وخاصة ثيودوسيوس، فى شخص هذا الأخير. حقيقة أن ثيودوسيوس أقدم على ذلك عن طيب خاطر واقتناع بأنه وإن كان إمبراطوراً، إلا أنه يعتبر أيضاً واحداً من رعايا الكنيسة، وهذا هو ما أثبته له أمبروز عندما طلب إليه أن يقف وسط الجموع ساعة التناول وقد جاء تائباً، لكن هذا الرضوخ من جانب الإمبراطور فتح الباب على مصراعيه من بعد لصراع طويل، ظل قائماً حتى القرن الثالث عشر بين الدولة والكنيسة فى الغرب، وأصبح قرار الحرمان الكنسى سلاحاً تشهره الكنيسة فى وجه كل من تسول له نفسه الخروج عن طاعتها أو إعمال فكره فيما تفترضه الكنيسة. وكان إذلال ميلانو الذى جرى على هذا النحو، إرهاصاً جديراً بالاعتبار – كما يقول Rand – لما سيحدث بعد ذلك من

إذلال للإمبراطور في كانوسا عام ١٠٧٧ (٥٨). وإن كان من الأهمية بمكان أن نضيف إلى هذا القول، أنه بينما أقدم ثيودوسيوس على ذلك بدافع من إيمان، لم يقبل هنرى الرابع ذلك من بعد إلا لدوافع سياسية بحتة، وبينما كان أمبروز صادقاً في موقفه مع ثيودوسيوس، سرعان ما عدل جريجورى السابع عن قرار عفوه، وأعاد إنزال الحرمان واللعنة بهنرى من جديد لدوافع تسلطية.

لقد كان أمبور يؤمن يقيناً بعلو السلطة الروحية، وكان ثيودوسيوس أيضاً يؤمن تماماً بسمو السيادة الزمنية، امتدادا تقليدياً وطبيعياً لما كان عليه الفكر السياسى الرومانى، ولذا كان ضرورياً أن يقع بين الرجلين الصدام، ولكن هذا أمكن تجنبه بحصافة ثيودوسيوس، وبتقدير الرجلين كل منهما للآخر. وإذا كانت الكنيسة قد كسبت أولى جولات الصراع الطويل، فإنها راحت منذ الآن تسير الطريق حتى منتهاه. لكن هذه الحادثة أو بتعبير آخر، هذا "الإذلال" الذى حدث للدولة فى ميلانو، كان دافعاً قوياً لأباطرة القسطنطينية كى يزيدوا من قبضتهم على الكنيسة وأن يحققوا سيادتهم الكاملة عليها، لتغدو إحدى دوائر الإمبراطورية. وهذا واضح فى سياسة جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥) تجاه الكنيسة، إذ حرص فى متجدداته دائماً على أن يحقق دون أدنى شك مبادئ القيصرية البابوية التى وضع قواعدها قسطنطين، حتى إذا جاء ليو الثالث الأيزورى إمبراطوراً (٧١٧-٧٤١) كانت هذه المسألة قد رسخت بصورة كاملة، فقد كتب إلى البابا جريجورى الثاني (٧١٥-٧٣١) يقول له واصفاً نفسه بأنه (إمبراطور وقس)، أما فى الغرب فكان الأمر على غير هذا تماماً، منذ سار أمبروز أولى خطوات الطريق بلوغاً إلى السيادة.

(٥٨) Founders of the Middle Ages, p. 77 وقد جرى هذا الإذلال نتيجة للصراع السافر بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع، مستتراً خلف مشكلة التقليد العلمانى، بينما جوهره النزاع على السيادة العالمية بين القوة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية والقوة الروحية متجسدة فى الكنيسة، وقد أصدر البابا قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور، الذى سعى إلى البابا ليرفع عنه هذا القرار. واحتمى البابا بقلعة كانوسا فى تسكانيا عند حليفته الكونتيسة ماتيلدا وكان الإمبراطور متجرداً – شأن ثيودوسيوس من أرديته الإمبراطورية، غير أن جريجورى أوصد باب القلعة فى وجه هنرى ثلاث ليال، ثم سمح له بالدخول حيث راح يقبل قدم البابا ويغسلها بدموعه، حتى رفع البابا قرار عنه الحرمان. وعرفت هذه الحادثة بإذلال كانوسا. ولمزيد من التفاصيل راجع للمؤلف،، الفكر السياسى الأوربى فى العصور الوسطى.

وقد جمع أمبروز خلاصة فكره حول العلاقة بين الدولة والكنيسة فى عبارات واضحة قاطعة، وذلك فى رسالة بعث بها إلى أخته فى أحد أعياد الفصح(٥٩). وضمنها كل آرائه حول هذا الأمر.. قال:

".. إن الإمبراطور لا سلطان له على الكنيسة لأنها لله وحد".

".. هل تسلمتم حقوق الرومان حتى تجعلوا من أنفسكم معكرين لصفو السلام العام؟ ولو دمرت كل هذه الأشياء فأين تذهبون؟".

"... ليس من حقى أن أسلمها، وليس من صالحك أيها الإمبراطور تسلمها. إنك لا تستطيع دون حق انتهاك حرمة بيت أى إنسان. فهل تظن أن بيت الله يمكن استلابه؟". "أيها الإمبراطور .. لا تحمل على كتفك أثقال مثل هذا الظن بأن لك سلطاناً إمبراطورياً على تلك الأشياء التى تخص الله وحده.. لا تزكى نفسك.. فإذا أردت عهداً طويلاً، فلتخضع لله نفسك لأنه مكتوب: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (متى٢٢/٢١)، القصور للإمبراطور وللأسقف الكنائس. لقد خولت السيادة فقط على المرافق العامة، لا على الأبنية المقدسة".

ويذكر الآراء نفسها مؤكداً عليها فى إحدى عظاته ضد الأسقف الآريوسى أوكسنتيوس (٦٠)، يقول: "... نحن نعطى ما لقيصر لقيصر، فليكن ما لله لله، الجزية لقيصر، لا ننكر ذلك، والكنيسة لله، ومن ثم فلا تخضع لقيصر، لأن بيت الله لا يمكن أن يكون من حق القيصر.

"... هل هناك احترام أكثر من أن يدعى الإمبراطور ابن الكنيسة ، إن الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها".

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الأسقف الميلانى أن يستصدر من ثيودوسيوس مرسوماً يقضى بعدم تنفيذ أوامر الإمبراطور التى تتضمن عقوبة الإعدام، إلا بعد ثلاثين يوماً من صدورها (٦١). وكان الهدف من ذلك واضحاً وهو

---

(٥٩) SOZOM. hist, eccl. VII 25; THEOD. hist. eccl. V 17.

(٦٠) AMB. Ep XX.

(٦١) AMB. Sermo contra Auxentium

إعطاء الفرصة للإمبراطور كي يتدبر الأمر ثانية قبل أن تحيق بمن يعنيهم العقوبة، وإن كان هذا المرسوم لم يدخل حيز التنفيذ.

أمضى ثيودوسيوس بقية العام وأوائل العام التالى (٣٩١) فى الغرب، ثم عاد إلى القسطنطينية عن طريق سالونيك، وفى الوقت ذاته كان فالنتينيان الثانى قد غادر ميلانو إلى الغرب، ليصل إلى غالة فى خريف هذا العام. وكان قد انقضى ثلاث سنوات منذ تمكن ثيودوسيوس من الانتصار على ماكسيموس، تركزت السلطة فى غالة خلالها فى يد القائد الجرمانى الفرنجى أربوجاست الذى عهد إليه ثيودوسيوس بقيادة القوات الإمبراطورية فى الغرب، ويصفه سقراط بأنه شخصية متعجرفة متسلطة يتطلع إلى اغتصاب العرش(٦٢). إلا أنه تمكن من كسب ولاء جنده بما كان يغدقه عليهم من المنح والعطايا، وزاد فى نفوذه وتعلق الجنود به، عدم وجود الإمبراطور فالنتينيان هناك، وبقاؤه فى ميلانو بعيداً فى معية إمبراطور الشرق ثيودوسيوس. وقد أدى هذا أيضاً إلى أن تصبح إرادة أربوجاست فى الغرب هى القانون، وأن يوجه ولاءه فقط إلى ثيودوسيوس الذى عهد إليه بالقيادة (٦٣). فلما قدم فالنتينيان الثانى مؤخراً إلى غالة، لم يجد له بين الجنود أى نفوذ، بل أصبح سجيناً فى قصره، وفشلت محاولته التى أقدم عليها للتخلص من أربوجاست بعزله، ولم يؤد ذلك إلى إلى التعجيل بما كانت تتوق إليه نفس القائد الجرمانى، إذ لم يلبث أن أذاع فى الناس نبأ اغتيال فالنتينيان الثانى، وكان فى العام التالى (٣٩٢) لوصوله إلى غالة(٦٤).

ولما لم يكن من السهل على الرومان تقبل إمبراطور جرمانى، كما أن التنافس الجرمانى والحقد كان يحولان أيضاً دون ذلك، فقد أصبح صعباً على أربوجاست أن يعلن من نفسه إمبراطورا خلفاً لفالنتينيان، ولذا لم يجد بداً من اختيار أحد الرومان ويدعى يوجنيوس، وهو فيلسوف عمل استاذاً للبيان فى أول الأمر، ثم شغل بعد ذلك منصب السكرتير الأول فى خدمة الإمبراطور (٦٥). وكان من

---

(٦٢) SOCRAT. Hist. Eccl . V 23.

(٦٣) C. M. H. U p. 254.

(٦٤) SOCRAT. hist. eccl. V. 25; RVFIN. hist. eccl. II 31-32.

(٦٥) SOCRAT. Loc. Cit.

الطبيعى أن تدور المراسلات بين بلاط غالة وبلاط القسطنطينية حول الاعتراف بثيودوسيوس وأركاديوس أباطرة شركاء فى محاولة من جانبه وأربوجاست لكسب ود بلاط القسطنطينية.

غير أن هذه المراسلات بين الجانبين لم يكن يقصد بها فقط إلا كسب الوقت عند كل من الطرفين، ذلك أن ثيودوسيوس لم يكن راضياً عن هذه الأحداث، وهكذا جذبته وقائع النصف الغربى إليها مرة أخرى ولم يمض على عودته إلى القسطنطينية أكثر من عامين، فأعلن ابنه الثانى هونوريوس أوغسطسا فى ١٠ يناير ٣٩٣، ثم أعد قواته ليتجه بها ناحية الغرب. وفى نهاية مايو ٣٩٤ ارتحل عن القسطنطينية مخلفاً وراءه ولديه أركاديوس وهونوريوس، وأعلن كثير من القوط تطوعهم للخدمة فى الجيش، وعين الإمبراطور تيماسيوس Timasius قائداً عاماً يعاونه ستيليكو Stilicho(٦٦). بينما اعتمد أربوجاست ويوجنيوس على أعداد كبيرة من الفرنجة والألمانى، وعند نهر فريجيدوس Frigidus فى منطقة تبعد حوالى ستة وثلاثين ميلاً عن أكويليا، دارت رحى المعركة الفاصلة بين الجانبين، وخسر ثيودوسيوس الجولة الأولى، حيث فقد عشرة آلاف قوطى حياتهم ومعهم قائدهم باكوريوس Bacurius ويعلق سقراط على ذلك بذكاء ولماحية تشير إلى الفارق الكبير فى الناحية الفنية العسكرية التى كان عليها الرومان والقوط، حين يذكر: "إنه فى حالة تصارع القوات الرومانية مع بعضها البعض، فإن نتيجة الصراع يكون مشكوكاً فيها، أما عندما شاركت القوات الجرمانية المساعدة فى جيش ثيودوسيوس فإن النصر كان لابد أن يصبح حليف يوجنيوس، ومن ثم التجأ الإمبراطور إلى السماء يدعوها أن تكون بجانبه(٦٧).

وفى اليوم التالى، السادس من سبتمبر ٣٩٤، تقدم أربوجاست قواته، وراح يسخر من الإمبراطور معلناً أن إلهه سوف يخذله بينما ستنصره أربابه. وكان ثيودوسيوس يدرك تماماً النتائج التى سوف تترتب على انتصار أربوجاست فى هذه المعركة، إذ أنها سوف تصبح إدرنة أخرى، وسوف يعبث الجرمان بالإمبراطورية

(٦٦) انظر Id (وأيضاً SOZOM. Loc. Cit.

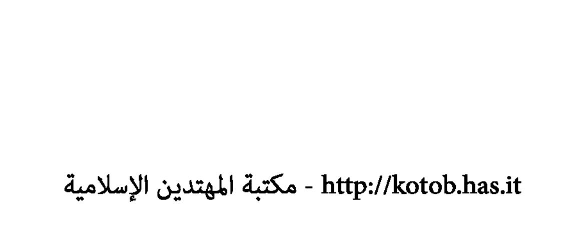
(٦٧) SOCRAT. Hist. Eccl. V 25.

الآن كيف شاعوا ودون رادع، ومن ثم أعاد من جديد تنظيم صفوف قواته. غير أن الأقدار كانت رحيمة به وبالإمبراطورية، فانضم إليه أربيتيو Arbitio أحد قواد أربوجاست بمن معه من قواته، وساعدت الظروف الطبيعية أيضاً فى هذه المعركة، إذ أن رياح الهاريكين العنيفة هبت فى اتجاه مضاد لقوات أربوجاست وكان لها أثرها البالغ فى قلب ميزان المعركة لصالح ثيودوسيوس، وقتل يوجنيوس بيد قواته بينما أنهى أربوجاست حياته بسيفه بعد أن تمكن من الفرار، وأدرك أن ذلك لن يجديه نفعاً(٦٨).

وهكذا خضعت الإمبراطورية من جديد لحاكم فرد هو ثيودوسيوس، غير أن هذه الفترة كانت قصيرة جداً، إذ لم يلبث الإمبراطور أن مات فى السابع عشر من يناير سنة ٣٩٥ بعد انتصاره هذا بأربعة شهور وأحد عشر يوما. ويبدو أن الحروب المتواصلة التي خاضها من أجل الحفاظ على هيبة الإمبراطورية فى الغرب قد أرهقته كثيراً. وقد أحس ثيودوسيوس بدنو أجله، فاستدعى إليه ابنه الأصغر هونوريوس ليعلنه أوغسطساً في الغرب، لتعود الإمبراطورية ثانية يعتلى عرشها إمبراطوران، وإن كانت فى الحقيقة واحدة. ورغم أن هذا التقسيم لإدارة الحكم قد ساعد ضمن عوامل عديدة غيره فى التباعد بين شطرى الإمبراطورية، إلا أن النظرية السياسية الرومانية القائلة بإمبراطورية واحدة، ظلت قائمة.

---

(٦٨) انظر Id وأيضاً SOZOM. Hist. Eccl. VII 22 ويضفى ثيودوديتوس على هذه المعركة جوا من الأسطورة، فيروى أن الإمبراطور أرسل إلى راهب مصرى يدعى حنا يسأله عن هذه الحرب المقبلة، وكان يعيش في صحراء أسيوط Lycopolis فأخبره الراهب أنه سوف ينتصر، وإن كان سيفقد عدداً كبيراً من قواته، ويضيف أنه قد جاءه فى نومه قبل أن تبدأ المعركة رجلان يرتديان ثياباً بيضاء ويمتطيان صهوتى جوادين، وأخبرا أنهما جاءا يحاربان فى صف قواته، وأن أحدهما هو يوحنا الانجيلى والثانى فيليب الرسول، ويقول إن الرؤيا نفسها رآها أحد الجنود الذى نقلها إلى قائده وهذا إلى قائده حتى وصلت مسامع الإمبراطور الذى ازداد سروره تبعاً لذلك!! انظر: THEOD. hist eccl. V 24.


مكتبة المهتدين الإسلامية - http://kotob.has.it

المصادر والمراجـــــع

أولاً : المصادر الأصلية :

AMBROSIVS: De fide ad Gratianum Augustum : Nicene X 2, 199-314 (=P. L. XVI 527-698) – De offciis Ministrorum: Nicene X 2, 1-89 – AD Valentinianum Imperatorem ep. XVII: Nicene X 2, 411-414 (=P.L. XVI 961-971) – Ad Valentinianum Imperatorem, ep. XXI : Nicene X 2, 423-429 (=P. L. XVI 1002-1007) EP. XX: Nicene X 2, 422-426 – Ep. XXII: Nicene X 2, 436-440 – Ad Theodosium Augustum, ep. XL: Nicene X 2 440-445 – Ep. XLI: Nicene X 2, 445-450- Ad Theodosium Augustum, ep. LI: Nicene X2 , 450-453 Ad Theodsium Augustum, ep LXII: Nicene X 2, 455-456- Ad Eugenium Imperatorem ep LVII: Nicene X 2, 453-455- Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=P.L. XVI 1007-1018).

AMMIANVS MARCELLENVS : Res Gestae, trans. By Jhon C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

ATHANASIVS: Ad Iovianum Imperatorem : Nicene IV 2, 567-569 (=P.G. XXVI 813-824- Epistola de synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene VI 2, 451-480 (=P.G. XXVI 681-793)- Ad Afros episcopos: Nicene IV 2, 489-494 (=P.G. XXVI 1029-1048)- Narratio Athanasii ad Ammonium episcopos : Nicene IV 2, 478 (= P.G. XXVI 980-981) – Tomus ad Antichenos: Nicene IV 2, 483-485 (=P.G. XXVI 796-809)- Orationes contra Arianos: Nicene IX 2, 306-447 (=P.G. XXVI 12-523).

BASILIVS: De Spiritio sancto: Nicene VIII 2, 1-50 (=P.G. XXXII 68-217)- Athanasio Alexandriae episcopo, epp. LXI, LXVI, LXVII, LXIX: Nicene VIII 2, 161, 163, 164, 165 (=P.G. XXXII 416-417, 424-425, 429-433)- Meletio episcopo Antiochiae, epp. LVII, LXVIII, LXXXIX, CXX, CXXIX, CCXVI: Nicene VIII 2, 159, 164, 175, 192, 197, 225 (=P.G. XXXII 405-408, 428, 429, 469-472, 537-540, 557-561, 791-794) – Ad episcopoa Italos et Gallus, ep. XCII: Nicene, VIII 2, 177-179 (= P.G. XXXII 477-484)- Sanctissimis fratrubus ac episcopis occidentalibus. Epp. XC.

CCLXIII: Nicene VIII 2, 176-301 (=P.G. XXXII 472-476, 973-982) – Ad Valerianum, ep. XCI: Nicene VIII 2, 176-177, Eusebio episcopo, epp. CXXXVIII, CCXXXIX; Nicene 2.

EVSEBIVS, vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (=P.G. XX 905-1232).

GREGORIVS NAZIANZENOS,

Orationes contra Iulianum IV, V (P.G. XXXV 531-720)- Funebris in laudem Caesarii oratio: Nicene VII 2, 229-238 (=P.G. XXXV 755-788)- Funebris oratio in patrem oratio XVIII: Nicene VII 2, 254-269 (=P.G. XXXV 985-1044)- Oratio XXXIV; Nicene VII 2, 332-338; Oratio XLI: Nicne VII 2, 378-385-In laudem magni Athanasii episcopi Alexandrini, oratio XXI: Nicene VII 2, 269-280 (=P.G. XXXV 1081-1128)- Adversus Arianos, oratio XXXIII: Nicene VII 2, 328-334 (=P.G. 213-328) – Ad Cledonium contra Apollinarium, epp. CI, CII: Nicene VII 2, 439-445- Funebris oratio in laudem Basilii magni Caesareoe in Cappadocia epeicopi, oratio XLIII: Nicene VII 2, 395-422 (=P.G. XXXVI 493-606)- Ad Sophronium, ep. CXXXV: Nicene VII 2, 466.

GREGORIVS NYSAEVS,

Contra Eunomoium; Nicene V 2, 33-248 (=P.G. XLV 243-1122).

HIERONIMVS, De viris illustribus: Nicene III 2, 359-384 (=P.L. XXIII 2, 601-720) – epp. XLIII, LXXXIV: Nicene III 2, 57-58, 175-181.

HILARIVS, De synodis seu fide Orientalum: Nicene IX 2, 4-29 (=P.L. X 471-546).

HOSIVS, Ad Constantium Imperatorem, ep. (In historia Arianorum ad monachos: Nicene IV 2, 270-302),

LACTANTIVS, De mortibus persecutorum: Ante Nicene, VII 301-322, (=P.L. VII 2, 189-276).

Nicene and post Nicene fathers of the Christian church, ed. By Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et sqq.

RVFINVS, Historia ecclesiastica: P.L. XXI 467-538.



SOCRATES, Historia ecclesiatica: Nicene II 2, 1-178 (=P.G. LXVII 29-342).

SOZOMENVS, Historia ecolesiastica: Nicene II 2, 239-427 (=P.G. LXVII 343-1630).

SVLPECIVS SEVERVS, Historia sacra; Nicene XI 2, 83-122 (=P.L. XX 952-160).

SYMMACHVS, Memorial of, Nicene X 2, 414-417.

THEODORETVS, Historia ecclesiastica: Nicene III 2, 33-159 (=P.G. LXXXII 3, 881-1280).

ثانياً: المراجع الأوروبية:

Bainton (R.H), Early Christianity, New Jersey, 1960.

- The penguin history of Christianity, 2 vols. Penguin books 1964.

Barry (W.), The papal monarchy from st. Gregory the great to Boniface VIII, New York, 1906.

Baynes (N.H.) & Moss (H.ST.L.B.),

Byzantium, an introduction to East Roman civilization, Oxford 1969.

Browne (CH. G.) & Swallow (J.E.),

Prolegomena (GREGORIVS NAZIANZENVS, orations et epistolae): Nicene VII 2, 187-202.

Bryce (J.), The holy Roman empire, London 1950.

Bury (J.B.), History of the later Roman empire, 2 vol. London 1931.

Cambridge Medieval History, 8 vols. Cambridge 1964.

Cary (M.) A history of Rome down to the reign of Constantine, London 1954.

Chadwick (H.), The early church, London 1974.

Chambers (M.), The fall of Rome, can it be explained, New York 1970.

Copleston (F.), A history of philosophy, Medieval philosophy, p. I New York 1962.

Davis (R.H.C,), A history of Medieval Europe from Constantine to st. Louis, London 1975.

Dawsom (CH.), Religion and the rise of Western culture, New York 1958.

Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab conquest, New York 1961.

- The late Roman empire, New York 1969.

Hear (F.), The Medieval world, trans, from the German by Janet Sondheimer, New York 1963.

Hefele (C.J.), History of the councils of the church, trans. From the German in 5 vols. And ed. By W.R. Clark, Edinburgh 1972.

Hughes (PH.), A history of the church, vol. 2, London 1948.

Jenkins (C.), Some aspects of Medieval latin literature (in legacy of the Middle Ages, pp. 147-172).

Jones (A.H. M.), The decline of the Ancient world, London 1975.

- Later Roman empire, 3 vols. Oxford 1964.
- Constantine and the conversion of Europe, London 1948.

Ker (W.P.), The dark Ages, New York 1958.

Laistner (M.L.W.), Thought and letters in western Europe, New York 1957.

Martin (H.), Histoire de France, 8 tomes, Paris 1869 et sqq.

Neander (A.), General history of the Christian religion and church, trans. From the German by Joseph Tarrey in 9 vols. London 1851-1858.

Oman (CH.), The dark Ages, European history 476-918, London 1928.

Percival (H.R.), The seven ecumenical councils, Nicene XIV 2).

Pirenne (H.), A history of Europe, London 1961.

Rand (E.K.), Founders of the Middle Ages, New York 1975.

Romestin (H.De.), Prolegomena (AMBROSIVS, Nicene X2,XI-XXII).

Shaff (PH.), History of the Christian church, 8 vols. Michigan 1956 et sqq.

Shiel (J.), Greek thought and the rise of Christianity, London 1968.

Slesser (H.), The Middle Ages in the west, London s.d.

Stephenson (C.), Mediaeval history, New York 1962.

Strayer (J.), & Munro (D.),

The Middle Ages 395-1500, New York 1970.

Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.),

An introduction to Medieval Europe, New York 1965.

Ullmann (W.), A short history of the papacy in the Middle Ages, London 1974.

Vasiliev (A.A.), History of the Byzantine empire, 2 vols. Madison & Milwauke 1964.

Waston (E.W.), Introduction (HILARIVS, select works: Nicene IX, 2, 1 – 96.

ثالثا: مراجع عربية وأجنبية:

أسد رستم (دكتور) : كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ثلاثة أجزاء، بيروت. بدون تاريخ.

ـــــــــــــ : الروم، جزءان، بيروت. ١٩٥٨.

اسحق عبيد (دكتور) : روما وبيزنطة، القاهرة ١٩٧٠.

أومان (ش.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣.

بينز (ن.) : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد. القاهرة، ١٩٥٧.

جوزيف نسيم (دكتور) : الدولة والإمبراطورية فى العصور السوطى، القاهرة، ١٩٧٠.

جيبون (أ.) : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة للمختصر الذى نشر فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٦٠. ترجم الجزء الأول محمد على أبو درة، والثانى نجيب اسكندر، والثالث دكتور محمد سليم سالم، القاهرة، ١٩٦٩.

داونى (ج.) : أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة دكتور ألبرت بطرس. بيروت، ١٩٦٨.

رأفت عبدالحميد (دكتور) :

الدولة والكنيسة : الجزء الثانى: الوثنية والمسيحية. القاهرة، ١٩٩٩.

الدولة والكنيسة : الجزء الثالث: قيصر والمسيح. القاهرة، ٢٠٠٠.

العالم البيزنطى ، ترجمة عن كتاب ج. م هسى، القاهرة، ١٩٩٧.

الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، القاهرة، ٢٠٠٠.

عبدالقادر اليوسف (دكتور) :

الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت، ١٩٦٦.

على الغمراوى (دكتور) :

دراسات فى تاريخ العصور الوسطى. جزءان، القاهرة، ١٩٧٥.

موسى (م.) : ميلاد العصور، ترجمة عبد القادر جاويد. القاهرة، ١٩٦٧.

المحتوى

ثيودوسيوس للمسيحية النيقية – تداعى المسيحية الهوموية (الحكومية) – وفاة الإمبراطور جراتيان واعتلاء أخيه فالنتينيان الثانى العرش – انحيازه وأمه جوستينا للآريوسة – رسالة أمبروز إلى فالنتينيان الثانى حول هذا الأمر – مجمع القسطنطينية المسكونى عام ٣٨١ – مشكلة الروح القدس – ماكيدونيوس والماكيدونية – اختيار جريجورى النازيانزى أسقفاً للقسطنطينية رسمياً ودحض ادعاءات ماكسيموس السكندرى – وصول تيموثى أسقف الإسكندرية الجديد إلى القسطنطينية وإعلان الحرب على جريجورى النازيانزى – انسحاب الأخير وإيثاره حياة الهدوء – دوافع الأسقف السكندرى لهذا العداء – قوانين وقرارات مجمع القسطنطينية – اختيار نكتاريوس أسقفاً للعاصمة – وثيقة الإيمان "النيقو – قسطنطينى – القانون الثالث وإعادة ترتيب الكنائس الرسولية – احتجاج روما وازورار الإسكندرية – نهاية المسيحية الحكومية وبداية السيادة للمسيحية الجديدة فى صورتها النيقية.

الفصل الثالث

الفصل الرابع

المسيحية النيقية الدين الرسمى للإمبراطورية ---------- ١٠٧ - ١٦٩

الإمبراطور جراتيان والتأييد الصريح للنيقية – أمبروز ورسالته "عن الإيمان" – شخصية أمبروز أسقف ميلانو – نشأته الأولى وتعليمه – كتابه عن "وظائف الأكليروس" عمله الإدارى وتأثير ذلك على منصبه الكهنوتى من بعد – الظروف السياسية والعقيدية والأكليروسية التى ساعدت أمبروز على النجاح الكبير فى أسقفيته – ثيودوسيوس والفرق الآريوسية العديدة – نكتاريوس وجهالته بالمسائل اللاهوتية – ثيودوسيوس يعلن المسيحية النيقية دينا رسمياً للإمبراطورية – ثورة الآريوسيين في القسطنطينية – فالنتينيان الثانى وجوستينا ومناصرة الآريوسية فى الغرب – ثيودوسيوس يعلن الحرب على الوثنية والآريوسية – رد الفعل الوثنى – السناتو الرومانى – المثقفون الوثنيون – سيماخوس الخطيب المفوه وزعيم الأغلبية الوثنية فى مجلس الشيوخ – المعركة الدائرة حول مذبح النصر فى مجلس الشيوخ فى روما – ملتمس سيماخوس إلى الإمبراطور فالنتينيان الثانى حول مذبح النصر وعظمة الرومان – رسالتا أمبروز إلى فالنتينيان الثاني للرد على سيماخوس – المعركة البلاغية الرائعة بين سماخوس وأمبروز – النص الكامل للرسائل الثلاث – اغتيال الإمبراطور الصبى فى الغرب – إعلان يوجنيوس إمبراطورا – رفض ثيودوسيوس وتعيين إبنه الطفل هونوريوس خلفاً لفالينتينيان الثانى – يوجنيوس وتجدد مسألة "مذبح النصر" رسالة أمبروز إلى الإمبراطور – تدمير المعابد الوثنية على يد الرهبان المسيحيين – ثيوفيلوس السكندرى – معبد السرابيوم – قرارات ثيودوسيوس عامى ٣٩١-٣٩٢ بالقضاء على الوثنية –إعلان المسيحية الجديدة – النيقية – دينا رسمياً للإمبراطورية.

الفصل الخامس

